

تفسير
الكشاف

عن قتادة بن عوف عن التستري
وعيون الأفاويل في وجوه التأويل

وهو تفسير القرآن الكريم: لإمام جليله محمد بن عمر التستري
المعروف سنة ٥٧٨ هـ

المؤلف والناشر العربي
بيروت - لبنان

R.P.
120
.4
K23
1041
" 3

CORNELL
UNIVERSITY
LIBRARY



BOUGHT WITH THE INCOME
OF THE SAGE ENDOWMENT
FUND GIVEN IN 1891 BY
HENRY WILLIAMS SAGE

الكشاف

عن حقايق غوامض التنزيل وعيون الأفاويل في مجوه التأويل

وهو تفسير القرآن الكريم : للإمام جاد الله محمود بن عمر الزمخشري
المتوفى سنة ٥٢٨ هـ.

وبذيله أربعة كتب :

الاول : الانتصاف : للإمام احمد بن المنير الاسكندري.
الثاني : الكافي الشاف في تخريج احاديث الكشاف : للحافظ ابن حجر العسقلاني.
الثالث : حاشية الشيخ محمد عليان المرزوقي على تفسير الكشاف.
الرابع : مشاهد الانصاف على شواهد الكشاف للشيخ محمد عليان المذكور.

الجزء الثالث

الناشر دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

B796851
55-
S
V.A.R.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة مريم

مكية [إلا آيتي ٥٨ و ٧١ فدنيتان]

وآياتها ٩٨ [نزلت بعد سورة فاطر]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَهَيِّصَ ① ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكِرِيَّا ② إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ

نِدَاءً خَفِيًّا ③

(كهيعص) قرأ بفتح الهاء ^(١) وكسر الياء حمزة ، وبكسر هما عاصم ، وبضمهما الحسن .
وقرأ الحسن (ذكر رحمة ربك) أي : هذا المتلوه من القرآن ذكر رحمة ربك . وقرئ : ذكر ،
على الأمر ^(٢) . راعى سنة الله في إخفاء دعوته ، لأن الجهر والإخفاء عند الله سنان ، فكان
الإخفاء أولى ، لأنه أبعد من الرياء وأدخل في الإخلاص . وعن الحسن : نداء لارياء فيه ،
أو أخفاه لئلا يلام على طلب الولد في إبان الكبرة والشيخوخة ^(٣) . أو أسره من مواليه الذين
خافهم . أو خفت صوته لضعفه وهرمه ، كما جاء في صفة الشيخ : صوته خفات ، وسمعه تارات .

(١) قوله «كهيعص» قرأ بفتح الهاء ، عبارة النسي . قرأ على ويحيى بكسر الهاء والياء ، ونافع بين الفتح
والكسر ، وإلى الفتح أقرب . وأبو عمرو بكسر الهاء وفتح الياء . وحمزة بعكسه . وغيرهم بفتحهما . (ع)
(٢) قوله «وقرأ الحسن (ذكر رحمة ربك) أي هذا الخ ، يحتاج إلى تحرير ، فإن الرفع قراءة الجمهور . وقوله
«ذكر على الأمر» أي و(رحمة ربك) بالنصب . (ع)
(٣) قوله «في إبان الكبرة والشيخوخة» في الصحاح : الكبر في السن ، والاسم الكبرة بالفتح . وفيه أيضاً :
شاخ الرجل يشيخ شيخاً بالتحريك : جاء على أصله ، وشيخوخة له وليس فيه شيخوخة . وفيه أيضاً : إبان الشيء
بالكسر والتشديد : وقته وأوانه . (ع)

واختلف في سنّ زكريا عليه السلام ، فقيل : ستون ، وخمس وستون ، وسبعون ، وخمس وسبعون ، وخمس وثمانون .

قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ

رَبِّ شَقِيًّا ④

قرئ (وهن) بالحركات الثلاث ، وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن وبه قوامه وهو أصل بناءه ، فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته ، ولأنه أشد ما فيه وأصلبه ، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن . ووحده لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية ، وقصده إلى أن هذا الجنس الذي هو العمود والقوام وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن ، ولو جمع لكان قصداً إلى معنى آخر ، وهو أنه لم يهن منه بعض عظامه ولكن كلها . إدغام السين في الشين عن أبي عمرو . شبه الشيب بشواظ النار في يياضه وإنارته وانتشاره في الشعر وفشوه فيه وأخذه منه كل مأخذ ، باشتعال النار ؛ ثم أخرجه مخرج الاستعارة ، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس . وأخرج الشيب ميّزاً ولم يصف الرأس : اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا ، فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة . توسل إلى الله بما سلف له من الاستجابة . وعن بعضهم أن محتاجاً سأله وقال : أنا الذي أحسنت إلى وقت كذا . فقال : مرحباً بمن توسل بنا إلينا ، وقضى حاجته .

وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ رَءَايَ وَكَانَتِ آمْرًا نِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ

لَدُنْكَ وَلِيًّا ⑤ يَرْثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلٍ بِعُقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ⑥

كان مواله - وهم عصبته وإخوته وبنو عمه - شرار بني إسرائيل ، يخافهم على الدين أن يغيروه ويبدلوه ، وأن لا يحسنوا الخلافة على أمته ، فطلب عقباً من صلبه صالحاً يقتدى به في إحياء الدين ويرتسم مراسمه فيه (من ورأى) بعد موتى . وقرأ ابن كثير : من ورأى ، بالقصر ، وهذا الظرف لا يتعلق بخفت لفساد المعنى ، ولكن بمحذوف . أو بمعنى الولاية في الموالى : أى خفت فعل الموالى وهو تبدلهم وسوء خلافتهم من ورأى . أو خفت الذين يلون الأمر من ورأى . وقرأ عثمان ومحمد بن علي وعلي بن الحسين رضي الله عنهم . خفت الموالى من ورأى ، وهذا على معنيين ، أحدهما : أن يكون (ورأى) بمعنى خلفي وبعدي ، فيتعلق الظرف بالموالى : أى قلوا وعجزوا عن إقامة أمر الدين ، فسأل ربه تقويتهم ومظاهرتهم بولي يرزقه . والثاني : أن يكون

بمعنى قدامى ، فيتعلق بخفت ، ويريد أنهم خفوا قدامه ودرجوا ولم يبق منهم من به تقوى واعتضاد (من لدنك) تأكيد لكونه ولياً مرضياً ، بكونه مضافاً إلى الله تعالى وصادراً من عنده ، وإلا - فهب لى ولياً يرثى - كاف ، أو أراد اختراعاً منك بلا سبب لأنى وامرأتى لا نصلح للولادة (يرثى ويرث) الجزم جواب الدعاء ، والرفع صفة . ونحوه (ردما يصدقنى) وعن ابن عباس والجاحدى : يرثى وارث آل يعقوب ، نصب على الحال . وعن الجاحدى : أو يرث ، على تصغير وارث ، وقال : غليم صغير . وعن على رضى الله عنه وجماعة : وارث من آل يعقوب : أى يرثى به وارث ، ويسمى التجريد فى علم البيان ، والمراد بالإرث إرث الشرع والعلم ، لأن الأنبياء لا تورث المال . وقيل يرثى الحبورة وكان جبراً ، ويرث من آل يعقوب الملك . يقال : ورثته وورثت منه لغتان . وقيل : من ، للتبعية لا للتعدية ، لأن آل يعقوب لم يكونوا كلهم أنبياء ولا علماء ، وكان زكريا عليه السلام من نسل يعقوب بن إسحق . وقيل : هو يعقوب بن ماثان أخو زكريا . وقيل : يعقوب هذا وعمران أبو مريم أخوان من نسل سليمان بن داود .

يَزَكِّرِيَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾

(سمياً) لم يسم أحد يحيى قبله ، وهذا شاهد على أن الاسمى السنع جذيرة بالآثرة ، وإياها كانت العرب تنتجى فى التسمية لكونها أنبه وأنزه عن النبز ، حتى قال القائل فى مدح قوم :

سُنْعُ الْأَسْمَى مُسْبِلِي أُرْرِ حُمْرِ تَمَسُّ الْأَرْضَ بِالْهَذَبِ (١)

وقال رؤبة للنسابة البكرى - وقد سأله عن نسبه - : أنا ابن العجاج ؛ فقال : قصرت وعرفت . وقيل : مثلاً وشبهها عن مجاهد ، كقوله (هل تعلم له سمياً) وإنما قيل للمثل وسمى ، لأن كل متشاكلين يسمى كل واحد منهما باسم المثل والشبيه والشكل والنظير ، فكل واحد منهما سمى لصاحبه ، ونحو يحيى ، فى أسمائهم ، يعمر ، ويعيش ، إن كانت التسمية عربية ؛ وقد سموا ييموت أيضاً ، وهو يموت ابن المزرع ، قالوا : لم يكن له مثل فى أنه لم يعص ولم يهيم بمعصية قط ، وأنه ولد بين شيخ فان وعجوز عاقر ، وأنه كان حصوراً .

(١) يقال سنع الرجل كظرف ، فهو سنيع أى جيل ، وأسنع ، والمرأة سنعاء ، وسنع جمع أسنع : أى أسماؤهم حسنة ، فهى أنبه وأنزه عن النبز ، والجر : صفة الأزر ، وتمس : صفة أخرى لها . وهذب الشيء : طهره ، والمناسب للبنى أن المراد به الجمع ، ويمكن أن يكون ضمنه مفرداً كقفل ، وجمعا كقفل . ويجوز أنه اسم جمع ، ولذلك جاء فى واحده هذبة ، ومس الأرض بالأطراف : كتابة عن طولها ، بل عن غنাম وثمرتهم اللازم له ذلك .

قَالَ رَبِّ أُنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ

الْكِبَرِ عِتْيًا ٨

أى كانت على صفة العقر حين أنا شاب وكهل ، فما رزقت الولد لاختلال أحد السبيين ،
أخين اختل السبيان جميعاً أرزقه ؟ فإن قلت : لم طلب أولاً وهو وامرأته على صفة العتّى
والعقر ^(١) ، فلما أسعف بطلته استبعد واستعجب ؟ قلت : ليجاب بما أجيب به ، فيزداد المؤمنون
إيقاناً ويرتدع المبطلون ، وإلا فعتقد زكريا أولاً وآخرأ كان على منهاج واحد : فى أن الله غنى
عن الأسباب ، أى بلغت عتياً : وهو اليبس والجساوة فى المفاصل والعظام كالعود القاحل ^(٢) .
يقال : عتا العود وعسا من أجل الكبر والطعن فى السن العالية . أو بلغت من مدارج الكبر
ومراتبه ما يسمى عتياً . وقرأ ابن وثاب وحزرة والكسائى بكسر العين ، وكذلك صلياً ، وابن
مسعود بفتحهما ^(٣) فيها . وقرأ أبى ومجاهد : عسيا ^(٤) .

قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ٩

(كذلك) الكاف رفع ، أى الأمر كذلك تصديق له ، ثم ابتدأ (قال ربك) أو نصب
بقال ، وذلك إشارة إلى مبهم يفسره (هو على هين) ونحوه (وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر
هؤلاء مقطوع مصبحين) وقرأ الحسن : وهو على هين ، ولا يخرج هذا إلا على الوجه الأول :
أى الأمر كما قلت ، وهو على ذلك يهون على . ووجه آخر : وهو أن يشار بذلك إلى ما تقدم
من وعد الله ، لا إلى قول زكريا . وقد قال ، محذوف فى كلتا القراءتين : أى قال هو على هين
قال وهو على هين ، وإن شئت لم تنوه ، لأن الله هو المخاطب ، والمعنى أنه قال ذلك ووعدته

(١) قال محمود : وإن قلت لم طلب أولاً وهو وامرأته على صفة العتّى ... الخ ، قال أحد : وفيما أجاب به نظر ؛
لأنه التزم أن زكريا استبعد ما وعده الله عز وجل بوقوعه ، ولا يجوز للنبي التعلق بما لا يسوغ ، لمثل هذه الفائدة التى
عيناها العجز والضعف ، ويمكن حصولها بدونه ، فالظاهر فى الجواب - والله أعلم - أن طلبه زكريا إنما كانت ولدان حيث
الجلسة ، وبحسب ذلك أجيب ، وليس فى الإجابة ما يدل على أنه يولده وهو هرم ، ولا أنه من زوجته وهى عاقرة ،
فاحتمل عنده أن يكون الموعود وهما بهذه الحالة ، واحتمل أن تمادى لها قوتها وشبابها ، كما فعل الله ذلك لغيرهما .
أو أن يكون الولد من غير زوجته العاقرة ، فاستبعد الولد منهما وهما بحالهما ، فاستخير أن يكون وهما كذلك ، فقيل :
كذلك ، أى : يكون الولد وأتما كذلك ، فقد انصرف الإيحاء إلى هين الموعود فرال الاشكال ، والله أعلم .

(٢) قوله كالعود القاحل ، أى اليابس ، كذا فى الصحاح . (ع)

(٣) قوله بفتحهما لعله بفتحها . (ع)

(٤) قوله «عسيا» فى الصحاح : عسى الشيخ يعسو عسياً : ولى وكبر ، مثل عتا . (ع)

وقوله الحق ﴿شَيْئًا﴾ لأن المعدوم ليس بشيء . أو شيئاً يعتد به ^(١) ، كقولهم : عجت من لا شيء ، وقوله :

﴿ إِذَا رَأَىٰ غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلًا ﴾ * ^(٢)

وقرأ الأعمش والكسائي وابن وثاب : خلقناك .

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ ^(١٠)

أى اجعل لي علامة أعلم بها وقوع ما بشرت به . قال : علامتك أن تمنع الكلام فلا تطيقه ، وأنت سليم الجوارح سوى الخلق ، ما بك خرس ولا بك . دل ذكر الليالي هنا ، والأيام في آل عمران ، على أن المنع من الكلام استمر به ثلاثة أيام ولياليهن .

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ ^(١١)

أوحى : أشار عن مجاهد ، ويشهد له (إلا رمزاً) . وعن ابن عباس : كتب لهم على الأرض ﴿سبحوا﴾ صلوا ، أو على الظاهر ، وأن : هى المفسرة .

﴿ يَمْحِي الْكُتُبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَمَا تَنذُرُ الْحُكْمُ صَيًّا ﴾ ^(١٢)

أى خذ التوراة بمجد واستظهار بالتوفيق والتأييد ﴿الحكم﴾ الحكمة . ومنه :

﴿ وَأَحْكُمُ كَحُكْمِ فَتَاةٍ الْحَىٰ ﴾ * ^(٣)

(١) قال محمود : « إنما قيل ذلك لأن المعدوم ليس بشيء . أو شيئاً يعتد به ... الخ » قال أحد : قسر أولاً على ظاهر النفي والصرف وهو الحق ، لأن المعدوم ليس شيئاً قطعاً ، خلافاً للمعتلة في قولهم : إن المعدوم الممكن شيء . ومن ثم كافع الزعشقى عن البقاء على النفي الأول إلى الثانى بوجه من التأويل يلائم معتقد المعتزلة . لجعل المنقى الشيعية المعتد بها ، وإن كانت الشيعية المطلقة ثابتة عنده للمعدوم ، والحق بقاء الظاهر في نصابه .

(٢) وضاعت الأرض حتى كان هاربهم إذا رأى غير شيء . ظنه رجلاً يقول : وضاعت الأرض على أعدائنا ؛ لأن كل مصلك يريدونه يظنون أحداً منا فيه فيرجعون ، فاستعير الضيق الحسى لذلك على طريق التصریح ، حتى كانت الهارب منهم إذا رأى غير شيء . ظنه رجلاً منا ، فيرجع خوفاً ، والشئ هو الموجود وغيره هو المعدوم ، ولكن استعير للشئ الحقير التافه لعدم الاعتداد بكل على طريق التصریح ، وذلك ليصح وقوع الرؤية عليه .

(٣) واحكم كحكم فتاة الحى إذ نظرت إلى حمام سراع وارد الشمد

قالت ألا ليتنا هذا الحمام لنا إلى حمامتنا ونصفه فقد

غيبوه فألفوه كما وجدت ستا وستين لم تنقص ولم تزد

للنابغة واسمها زياد ، يخاطب النعمان بن المنذر ، والفتاة : زرقاء اليمامة التى يضرب بها المثل في حدة البصر ، نظرت إلى حمام مسرع إلى الماء فقالت : ليت الحمام لى . إلى حمامتيه . ونصفه قد به . ثم الحمام ميه . فوقع في شبكة =

يقال حكم حكماً حكماً ، وهو الفهم للتوراة والفقه في الدين عن ابن عباس . وقيل : دعاه الصبيان إلى اللعب وهو صبي فقال : ما للعب خلقنا ، عن الضحاك . وعن معمر : العقل ، وقيل النبوة ، لأن الله أحكم عقله في صباه وأوحى إليه .

وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾

(حناناً) رحمة لأبويه وغيرهما ، وتعظفاً وشفقة . أنشد سيديويه :

وَقَالَتْ حَنَانٌ مَا أَتَى بِكَ هُنَا أَذُو نَسَبٍ أَمْ أَنْتَ بِالْحَيِّ عَارِفٌ ^(١)

وقيل : حناناً من الله عليه . وحن : في معنى ارتاح واشتاق ، ثم استعمل في العطف والرأفة ، وقيل لله « حنان » كما قيل « رحيم » ، على سبيل الاستعارة . والزكاة : الطهارة ، وقيل الصدقة ، أي : يتعطف على الناس ويتصدق عليهم .

وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

== صياد ، فوجدوه ستاً وستين حاماة ، ونصفه ثلاثة وثلاثون ، فإذا ضم الكل إلى حاماتها صار مائة ، والحام : كل ذى طوق من الطيور . وسراع : جمع سريع ، وصفه به لأنه جمع في المعنى ، وبوارد لأنه مفرد في اللفظ . ويروى « شراع » بالشين المشالة جمع شارع . والتد : الماء القليل . وروى الحام ونصفه بالرفع ، على إهمال لينها . وبالنصب على إعمالها ؛ لأن « ما » زائدة لا كلفة ، وإلا وجب الإهمال . وروى « أو نصفه » فأو بمعنى الواو ، والكلام على تقدير مضاف ؛ لأنها تمت أن يكون هذا الحام ومقدار نصفه لها . وإلى حامتنا : متعلق بمحذوف ، أي : منها إلهيا . وقد : اسم بمعنى حسب ، أضيفت إلى ياء المتكلم بغير نون الوقاية ، كما يقال : حسبي : ويحتمل أن الياء حرف إطلاق ، فلا إضافة وليكنها متعينة في كلام زرقاء . والهاء فيه للسكت ، وهو يرجح الإضافة في كلام النابغة ، والفاء فيه زائدة لتحسين اللفظ كفاء فقط ، وكلاهما بمعنى اته . وكأنها فاء الجواب ، أي : إذا بلغت هذا الحدفاته كما أفاده السعد في مطوله ، وحسبوه ينبغي تشديده ليسلم الشعر من الخبل ، وهو نوع من الزحاف يفتح دخوله هنا . ويروى « حسبوه » بتقديم السين على الباء .

(١) وأحدث عهد من أمانة نظرة على جانب العلياء إذ أنا واقف

فقال حنان ما أتى بك هاهنا أذو نسب أم أنت بالحي عارف

لنذر بن درهم الكلبي ، يقول : وأقرب عهد : أي لقاء ورؤية لأمانة محبوبتي تصغير أمانة ، هو نظرة مني لها بجانب تلك البقعة ، إذ أنا واقف هناك : أي حين وقوفى بها . وفيه إشعار بأنه كان واقفاً يترقب رؤيتها ، فلما رآته هي قالت له : حنان أي أمرى حنان ورحمة لك ، وهو من المواضع التي يجب فيها حذف المبتدأ لنبابة الخبر عن الفعل ؛ لأنه مصدر محول عن النصب . وقولها « ما أتى بك هاهنا » استفهام تعجب . أذو نسب : أي أنت ذو نسب أم أنت عارف بهذا الحي ؟ ويجوز أن « أذو نسب » بدل من ما الاستفهامية : أي الذي حلك على المجيء هنا والذي ذلك عليه صاحب قرابة من الحي أي معرفتك به ؟ ويجوز أن الاستفهام حقيق حكته على لسان غيرها ، لتلفظه الجواب بقولها : أذو نسب ... الخ ، مع معرفتها سبب محبته وهو حبها ، وبما يسأله أحد من أهلها فيجيبه بأحد هذين الجوابين .

سلم الله عليه في هذه الأحوال ، قال ابن عيينة : إنها أوحش المواطن .

- وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾
فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾

(إذ) بدل من (مريم) بدل الاشتغال ، لأن الاحيان مشتملة على ما فيها . وفيه أن المقصود بذكر مريم ذكر وقتها هذا ، لوقوع هذه القصة العجيبة فيه . والانتباز : الاعتزال والانفراد ، تخلت للعبادة في مكان مما يلي شرف بيت المقدس ، أو من دارها معترلة عن الناس . وقيل : قعدت في مشرفة للاغتسال من الحيض محتجة بحائط أو بشيء يسترها ، وكان موضعها المسجد ، فإذا حاضت تحوّل إلى بيت خالتها ، فإذا طهرت عادت إلى المسجد ، فينأى في مغتسلها أنها الملك في صورة آدمي شاب أمرد وضى الوجه جعد الشعر سوى الخلق ، لم ينتقص من الصورة الآدمية شيئاً . أو حسن الصورة مستوى الخلق ، وإنما مثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه ، ولو بدا لها في الصورة الملكية لنفرت ولم تقدر على استماع كلامه . ودلّ على عفافها وورعها أنها تعوذت بالله من تلك الصورة الجميلة الفاتحة الحسن ، وكان تمثيله على تلك الصفة ابتلاء لها وسبراً لعفتها . وقيل : كانت في منزل زوج أختها زكريا ولها محراب على حدة تسكنه ، وكان زكريا إذا خرج أغلق عليها الباب ، فتمنت أن تجد خلوة في الجبل لتفلي رأسها ، فأنفجر السقف لها فخرجت فجلست في المشرفة وراء الجبل فأناها الملك . وقيل : قام بين يديها في صورة ترب لها اسمه يوسف من خدم بيت المقدس . وقيل : إن النصارى اتخذت المشرق قبلة لانتباز مريم مكاناً شرقياً . الروح : جبريل ، لأن الدين يحيا به وبوحيه . أو سماه الله روحه على المجاز محبة له وتقريباً ، كما تقول لحبيبك : أنت روحى . وقرأ أبو حيوة : روحنا ، بالفتح ؛ لأنه سبب لما فيه روح العباد ، وإصابة الروح عند الله الذى هو عزة المقرين في قوله (فأما إن كان من المقرين فروح وريحان) أو لأنه من المقرين وهم المعودون بالروح ، أى : مقرّبنا وذا روحنا .

- قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ نَقِيًّا ﴿١٨﴾

أرادت إن كان يرجى منك أن تتق الله وتحشاه وتحمل بالاستعاذة به ، فإني عائذة به منك كقوله تعالى (بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين) .

- قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾

أى إنما أنا رسول من استعذت به ﴿لأهب لك﴾ لاكون سيياً فى هبة الغلام بالنفخ فى الدرع^(١). وفى بعض المصاحف: إنما أنا رسول ربك أمرنى أن أهب لك . أو هى حكاية لقول الله تعالى .

قَالَتْ إِنِّىٓ أَيْكُونُ لِّى غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرْ وَلَمْ أَكْ يَفِيًّا ۚ
قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَیِّنٍ ۖ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ ۖ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ

أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۚ

جعل المس عبارة عن النكاح الحلال ، لأنه كناية عنه ، كقوله تعالى (من قبل أن تمسوهن) (أو لمستم النساء) والزنا ليس كذلك ، إنما يقال فيه : فجر بها وخبث بها وما أشبه ذلك ، وليس بقمن أن تراعى فيه الكسنيات والآداب . والبغى : الفاجرة التى تبغى الرجال ، وهى فحول عند المبرد ، بغوى ، فأدغمت الواو فى الياء . وقال ابن جنى فى كتاب التمام : هى فعيل ، ولو كانت فعولاً لقليل . بغوى ، كما قيل : فلان نهو عن المنكر ﴿ولنجعله آية﴾ تعليل معلله محذوف أى : ولنجعله آية للناس فعلنا ذلك . أو هو معطوف على تعليل مضمر ، أى لتبين به قدرتنا ولنجعله آية . ونحوه : (وخلق الله السموات والأرض بالحق ولنجزى كل نفس بما كسبت) وقوله (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلنه) . ﴿مقضيًا﴾ مقدراً مسطوراً فى اللوح لا بد لك من جريه عليك . أو كان أمراً حقيقاً بأن يكون ويقضى لكونه آية ورحمة . والمراد بالآية : العبرة والبرهان على قدرة الله ، وبالرحمة : الشرائع والآلطف ، وما كان سيياً فى قوة الاعتقاد والتوصل إلى الطاعة والعمل الصالح . فهو جدير بالتكوين .

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ۚ

عن ابن عباس : فاطمأنت إلى قوله فدنا منها فنفخ فى جيب درعها ، فوصلت النفخة إلى بطنها فحملت . وقيل : كانت مدة الحمل ستة أشهر . وعن عطاء وأبى العالية والضحاك : سبعة أشهر . وقيل : ثمانية ، ولم يعيش مولود وضع لثمانية إلا عيسى . وقيل : ثلاث ساعات . وقيل : حملته فى ساعة ، وصوت فى ساعة ، ووضعته فى ساعة ، حين زالت الشمس من يومها . وعن ابن عباس : كانت مدة الحمل ساعة واحدة ، كما حملته نبذته . وقيل : حملته وهى بنت ثلاث عشرة سنة . وقيل : بنت عشر ، وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل . وقالوا : ما من

(١) قوله « فى الدرع » فى الصالح « درع المرأة » فبعها . (ع)

مولود إلا يستهلّ غيره^(١) ﴿فانتبذت به﴾ أى اعتزلت وهو فى بطنها ، كقوله :

* تَدُوسُ بِنَا الْجَمَاجِمَ وَالْمَرِييَا^(٢)

أى تدوس الجماجم ونحن على ظهورها ، ونحوه قوله تعالى (تنبت بالدهن) أى تنبت ودهنها فيها : الجار والمجرور فى موضع الحال ﴿قصيا﴾ بعيداً من أهلها وراء الجبل . وقيل : أقصى الدار . وقيل : كانت سميت لابن عم لها اسمه يوسف ، فلما قيل : حملت من الزنا ، خاف عليها قتل الملك ، فهرب بها فلما كان ببعض الطريق حدثته نفسه بأن يقتلها ، فأناه جبريل فقال : إنه من روح القدس فلا تقتلها ، فتركها .

فَأَجَآهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلْمِئْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ

نَسِيًّا مَنَسِيًّا ٢٣

﴿فأجأها﴾ منقول من جاء ، إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإجماء . ألا تراك تقول : جئت المكان وأجأني زيد ، كما تقول : بلغته وأبلغنيه . ونظيره «آتى» حيث لم يستعمل إلا فى الإعطاء ، ولم تقل : أتيت المكان وآتانيه فلان . قرأ ابن كثير فى رواية ﴿المخاض﴾ بالكسر . يقال : مخضت الحامل مخاضاً ومخاضاً ، وهو تمخض الولد فى بطنها . طلبت الجذع لتستريح به وتعتمد عليه عند الولادة ، وكان جذع نخلة يابسة فى الصحراء ليس لها رأس ولا ثمرة ولا خضرة ، وكان الوقت شتاء ، والتعريف لا يخلو : إما أن يكون من تعريف الأسماء الغالبة كتعريف النجم والصق ، كأن تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة متعالم عند الناس ، فإذا قيل : جذع النخلة فهم منه ذلك دون غيره من جذوع النخل . وإما أن يكون تعريف الجنس ، أى : جذع هذه الشجرة خاصة ، كأن الله تعالى إنما أرشدها إلى النخلة ليطمعها منها الرطب الذى هو حرسه النفساء الموافقة لها ، ولأن النخلة أقل شئ صبراً على البرد ، وثمارها إنما هى من جمارها ، فليوافقتها لها مع جمع الآيات فيها اختارها لها وألجأها إليها . قرئ ﴿مت﴾ بالضم والكسر . يقال : مات يموت ومات يمات . النسى : ما من حقه أن يطرح وينسى ، نكرقة الطامث ونحوها ، كالذبح : اسم ما من شأنه أن يذبح فى قوله تعالى (وفديناه بذبح عظيم) وعن

(١) قوله «ما من مولود إلا يستهلّ غيره» فى الصحاح «استهل الصبي» أى صاح عند الولادة . (ع)

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بصفحة ١٣٨ من الجزء الأول فراجع إن شئت اه مصححه .

(٣) قوله «وهو تمخض الولد فى بطنها» فى الصحاح «تمخض اللبن واستمخض» أى تحرك فى الممخضة ،

وكذلك الولد إذا تحرك فى بطن الحامل . (ج)

يونس : العرب إذا ارتحلوا عن الدار قالوا : انظروا أنساءكم ، أى : الشيء اليسير نحو العصا والقدح والشظاظ^(١) . تمت لو كانت شيئاً تافهاً لا يؤبه له ، من شأنه وحقه أن ينسى في العادة وقد نسى وطرح فوجد فيه النسيان الذى هو حقه ، وذلك لما لحقها من فرط الحياء والتشور^(٢) من الناس على حكم العادة البشرية ، لا كراهة لحكم الله ، أولشدة التكليف عليها إذا هتوها^(٣) وهى عارفة ببراءة الساحة وبضد ما قرفت به ، من اختصاص الله إياها بغاية الإجلال والإكرام لأنه مقام دحض قلباً ثبت عليه الأقدام : أن تعرف اغتباطك بأمر عظيم وفضل باهر تستحق به المدح وتستوجب التعظيم ، ثم تراه عند الناس لجهلهم به عيباً يعاب به ويعنف بسببه ، أو لخوفها على الناس أن يعصوا الله بسببها . وقرأ ابن وثاب والأعمش وحزة وحفص (نسياً) بالفتح . قال الفراء : هما لغتان كالوتر والوتر ، والجسر والجسر . ويجوز أن يكون مسمى بالمصدر . كالحل . وقرأ محمد بن كعب القرظى (نساً) بالهمز وهو الحليب المخلوط بالماء ، ينسؤه أهله لقلته ونزارته . وقرأ الأعمش (منسياً) بالكسر على الإنباع ، كالمغيرة والمنخر .

فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبِّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۖ

(من تحتها) هو جبريل عليه السلام . قيل : كان يقبل الولد كالعقابة . وقيل : هو عيسى ، وهى قراءة عاصم وأبى عمرو . وقيل (تحتها) أسفل من مكانها ، كقوله (تجرى من تحتها الأنهار) وقيل : كان أسفل منها تحت الأكمة ، فصاح بها (لا تحزنى) وقرأ نافع وحزة والسكاسى وحفص (من تحتها) وفى ناداها ضمير الملك أو عيسى . وعن قتادة : الضمير فى تحتها للنخلة . وقرأ زر وعلقمة : مخاطبها من تحتها .

سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن السرى فقال : هو الجدول^(٤) . قال ليلى :

(١) قوله هو الشظاظ ، فى الصحاح والشظاظ ، العود الذى يدخل فى عروة الجوالق . وفيه الجوالق ، وعاء : (ع)

(٢) قوله دمن فرط الحياء والتشور من الناس ، خوف إظهار العورة . أفاده الصحاح . (ع)

(٣) قوله وإذا هتوها وهى عارفة . . الخ ، اتهموها بما ليس فيها . وقرئت : اتهمت . (ع)

(٤) أخرجه الطبرانى فى الصغير وابن عدى من رواية أبى سنان سعيد بن سنان عن أبى إسحاق عن البراء عن النبي صلى الله عليه وسلم . فى قوله تعالى (قد جعل ربك تحتك سرياً) قال : السرى النهر . قال الطبرانى لم يرفعه عن أبى إسحاق إلا أبو سنان رواه عنه معارية بن يحيى وهو ضعيف وأخرجه عبد الرزاق عن الثورى عن أبى إسحاق عن البراء موقوفاً ، وكذا ذكره البخارى تعليقاً عن وكيع عن إسرائيل عن أبى إسحاق . ورواه ابن مردويه من طريق آدم عن إسرائيل كذلك . وأخرجه الحاكم من وجه آخر عن أبى إسحاق موقوفاً . وفى الباب عن ابن عمر رضى الله عنهما قال وإن السرى الذى قال الله تعالى لمريم : نهر أخرجه الله لتشرب منه ، أخرجه الطبرانى وأبو نعيم فى الحلية فى ترجمة عكرمة عن ابن عمر . ورواية عن أبوب بن نهيك ، ضعفه أبو حاتم وأبو زرعة .

فَتَوَسَّطًا عُرْضَ السَّرِيِّ فَصَّدَعًا مَسْجُورَةً مُتَجَاوِرًا قُلَامَهَا (١)

وقيل : هو من السرو (٢). والمراد : عيسى . وعن الحسن : كان والله عبداً سرياً . فإن قلت . ما كان حزنها لفقد الطعام والشراب حتى تسلى بالسرى . الرطب ؟ قلت : لم تقع التسلية بهما من حيث أنهما طعام وشراب ، ولكن من حيث أنهما معجزتان تريان الناس أنها من أهل العصمة والبعد من الريبة ، وأن مثلها مما قرفوها به بمعزل ، وأن لها أموراً إلهية خارجة عن العادات خارقة لما ألفوا واعتادوا ، حتى يتبين لهم أن ولادها من غير خل ليس ببدع من شأنها .

وَهَزَى إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلْ وَاشْرَبْ وَقَرِّ عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ

أَكْلَمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦)

(تساقط) فيه تسع قراآت : تساقط ، بإدغام التاء . وتساقط ، بإظهار التامين . وتساقط ، بطرح الثانية . ويساقط ، بإلقاء وإدغام التاء . وتساقط ، وتسقط ، ويسقط ، وتسقط ، ويسقط : التاء للنخلة ، والياء للجذع . ورطباً تمييز أو مفعول على حسب القراءة . وعن المبرد : جواز انتصابه بهزى وليس بذلك . والباء في (بجذع النخلة) صلة للتأكيد ، كقوله تعالى (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) أو على معنى : افعلوا الهز به ، كقوله :

* يَجْرَحُ فِي عَرَاقِهَا نَضْلِي * (٣)

قالوا : التمر للنفساء عادة من ذلك الوقت ، وكذلك التحنيك ، وقالوا : كان من العجوة . وقيل : مالنفساء خير من الرطب ، ولا للمريض خير من العسل ، وقيل : إذا عسر ولادها لم

(١) فضى وقدمها وكانت عادة منه إذا هي عردت أقدامها فتوسطا عرض السرى فصدا مسجورة متجاوزاً قلامها

للبيد من معلقته ، يصف حاراً وحما بأنه مضى خلف أناته نحو الماء وقدمها أمامه . وأقدامها : اسم كان وألفقه التاء لا اكتساب الأقدام الثابت من الضمير المضاف إليه . وقيل : لأنه بمعنى التقدمة التي هي مصدر قدمها المضاعف كالقديم . وعادة خبر كان . وإذا هي عردت ، بالتضعيف أي تأخرت وجبت ، فتوسطا : أي الحار والآنان ، عرض السرى : أي ناحية النهر الصغير وجانبه ، فصدا : أي شقاعتها مسجورة مملوءة ، وكان المقام للاختار ، فأظهر ليتأتى الوصف . أول التجربة ، أول العين من النهر ، وليست هي هو وهذا أوجو . والقلام - كرمان - : القاقلي ، وقيل بطلق النبات ، وتجاوزته : كناية عن كثرتة .

(٢) قوله «وقيل هو من السرو» في الصحاح «السرو» سحاء في مروة . (ع)

(٣) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة ٥٧٨ فراجع إن شئت اه مصححه .

يكن لها خير من الرطب . عن طلحة بن سليمان (جنيبا) بكسر الجيم للإتباع ، أى جمعنا لك فى السرى والرطب فائدتين ، إحداهما : الأكل والشرب ، والثانية سلوة الصدر ؛ لكونهما معجزتين ، وهو معنى قوله (فكلى واشربى وقزى عينا) أى وطبى نفسا ولا تغتمى وارفضى عنك ما أحزنك وأهمك . وقرئ : (وقرى) بالكسر لغة نجد (فإمّا ترن) بالهمز : ابن الرومى . عن أبى عمرو : وهذا من لغة من يقول : لبأت بالحج ، وحلات السويق ^(١) ، وذلك لتآخ بين الهمز وحرف اللين فى الإبدال (صوما) صمتا . وفى مصحف عبد الله : صمتا . وعن أنس بن مالك مثله . وقيل : صياما ، إلا أنهم كانوا لا يتكلمون فى صيامهم ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صوم الصمت ^(٢) ، لأنه نسخ فى أمته ، أمرها الله بأن تنذر الصوم لثلاث تشرع مع البشر المنهمين لها فى الكلام لمعنيين ، أحدهما : أن عيسى صلوات الله عليه يكفيها الكلام بما يبرئ به ساحتها . والثانى : كراهة مجادلة السفهاء ومناقلتهم . وفيه أن السكوت عن السفیه واجب . ومن أذل الناس : سفیه لم يجد مسافها . قيل : أخبرتهم بأنها نذرت الصوم بالإشارة . وقيل : سوغ لها ذاك بالنطق (إنسيا) أى أكل الملائكة دون الإنسان

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرَأَتُكَ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ۖ ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ

هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأًا سَوْءَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ۖ ﴿٢٨﴾

الفرى : البديع ، وهو من فرى الجلد (ياأخت هرون) كان أخاها من أبيها من أمثل بنى إسرائيل . وقيل : هو أخو موسى صلوات الله عليهما . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : وإنما عنوا هرون النبي ^(٣) ، وكانت من أعقابها فى طبقة الإخوة ، بينها وبينه ألف سنة وأكثر . وعن السدى : كانت من أولاده ، وإنما قيل : ياأخت هرون ، كما يقال ياأخا همدان ، أى : ياواحداً منهم . وقيل : رجل صالح أو طالح فى زمانها ، شبهوها به ، أى : كنت عندنا مثله فى الصلاح ، أو شتموها به ، ولم ترد إخوة النسب ، ذكر أن هرون الصالح تبع جنازته أربعون ألفاً كلهم يسمى

(١) قوله « يقول لبأت بالحج وحلات السويق » والكثير : لبيت بالحج ، وحليت السويق ، أى : جعلته حلوا . (ع)

(٢) لم أره هكذا وأخرج عبد الرزاق من حديث جابر بلفظ « لا صمت يوم إلى الليل » وفيه حرام بن عثمان وهو ضعيف ولأبى داود من حديث على مثله . وقد تقدم فى تفسير النساء .

(٣) لم أجده هكذا إلا عند الثعلبى بغير سند ورواه الطبري عن السدى . قوله وليس بصحيح . فان عند مسلم والنسائى والترمذى عن المغيرة بن شعبه . قال « بعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى نجران فقالوا لى : أرايت شيئا يقرأونه (ياأخت هارون) وبين موسى وعيسى ماشاء الله من الستين فلم أدر ما أجيبهم فقال لى النبي صلى الله عليه وسلم هلا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين من قبلهم ، وروى الطبري من طريق ابن سيرين « بنيت أن كعبا قال إن قوله تعالى (ياأخت هارون) ليس بهارون أخى موسى فقالت له عائشة « كذبت . فقال لها يا أم المؤمنين إن كان النبي صلى الله عليه وسلم قال فهو أعلم وإلا فأنا أجد بينهما ستائة سنة .

هرون تبركاً به وباسمه ، فقالوا : كنا نشبهك بهرون هذا . وقرأ عمر بن لجاه التيمي ﴿ ما كان أباك امرؤ سوء ﴾ وقيل احتمل يوسف النجار مريم وابنها إلى غار ، فلبثوا فيه أربعين يوماً حتى تعلت من نفاسها ^(١) ، ثم جاءت تحمله فكلمها عيسى في الطريق فقال : يا أماء ، أبشرى قلاني عبد الله ومسيحه ، فلما دخلت به على قومها وهم أهل بيت صالحون تباكوا وقالوا ذلك . وقيل : هموا برجها حتى تكلم عيسى عليه السلام . فتركوها .

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ٢٩ ﴿
﴿ فأشارت إليه ﴾ أى هو الذى يجيبكم إذا ناطقتموه . وقيل : كان المستنطق لعيسى زكريا عليه السلام . وعن السدى : لما أشارت إليه غضبوا وقالوا : لسخريتها بنا أشد علينا من زناها . وروى أنه كان يرضع ، فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه ، واتكأ على يساره وأشار بسبابته . وقيل : كلهم بذلك ، ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغا يتكلم فيه الصبيان ﴿ كان ﴾ لإيقاع مضمون الجملة في زمان ماضٍ مبهم يصلح لقريبه وبعيده ، وهو ههنا لقريبه خاصة ، والدال عليه مبنى الكلام ، وأنه مسوق للتعجب . ووجه آخر : أن يكون ﴿ نكلم ﴾ حكاية حال ماضية ، أى : كيف عهد قبل عيسى أن يكلم الناس صبياً في المهد فيما سلف من الزمان حتى نكلم هذا .

قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي إِلْيَكِتَبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ٣٠ ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا
أَيَّنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ٣١ ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْنِي وَكَلَّمَ
يَجْعَلَنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ٣٢ ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ
أُبْعَثُ حَيًّا ٣٣ ﴿

أنطقه الله أولاً بأنه عبد الله ردّاً لقول النصارى ﴿ والكتاب ﴾ هو الإنجيل . واختلفوا في نبوته ، فقيل : أعطيا في طفوليته : أكمل الله عقله ، واستنبأه طفلاً نظراً في ظاهر الآية . وقيل : معناه إن ذلك سبق في قضائه . أو جعل الآتى لاحالة كأنه قد وجد ﴿ مباركاً أينما كنتم ﴾ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « نفاعاً حيث كنتم » ^(٢) ، وقيل : معلماً للخير .

(١) قوله « حتى تعلت من نفاسها » في الصحاح « تعل » أى علا في مهلة . وتعلت المرأة من نفاسها : أى سالت ، وتعل الرجل من علته . (ع)
(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية في ترجمة يونس بن عبيد عن الحسن عن أبي هريرة بهذا وأتم منه . وقال نفرد به هشيم عن يونس وعنه شعيب بن محمد الكوفي ورواه ابن مردويه من هذا الوجه .

وقرئ (وبرا) عن أبي نهيك ، جعل ذاته برا لفرط بره . أو نصبه بفعل في معنى أوصاني وهو كلفني ؛ لأن أوصاني بالصلاة وكلفنيها واحد (والسلام على) قيل : أدخل لام التعريف لتعرفه بالذكر قبله ، كقولك : جاءنا رجل ، فكان من فعل الرجل كذا . والمعنى : ذلك السلام الموجه إلي يحيي في المواطن الثلاثة موجه إلي . والصحيح أن يكون هذا التعريف تعريفاً باللعنة على متهمة مريم عليها السلام وأعدائها من اليهود . وتحقيقه أن اللام للجنس ، فإذا قال : وجنس السلام على خاصة فقد عرض بأن ضده عليكم . ونظيره قوله تعالى (والسلام على من اتبع الهدى) يعني أن العذاب على من كذب وتولى ، وكان المقام مقام مناكرة وعناد ، فهو مثنة لنحو هذا من التعريض .

ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾

قرأ عاصم وابن عامر (قول الحق) بالنصب . وعن ابن مسعود : قال الحق ، وقال الله . وعن الحسن : قول الحق ، بضم القاف ، وكذلك في الأنعام (قوله الحق) والقول والقال والقول بمعنى واحد ، كالرهب والرهب والرهب . وارتفاعة على أنه خبر بعد خبر ، أو بدل ، أو خبر مبتدأ محذوف . وأما انتصابه فعلى المدح إن فسر بكلمة الله ، وعلى أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة إن أريد قول الثبات والصدق ، كقولك : هو عبد الله حقاً . والحق لا الباطل ، وإنما قيل لعيسى كلمة الله ، و «قول الحق» ، لأنه لم يولد إلا بكلمة الله وحدها ، وهي قوله (كن) من غير واسطة أب ، تسمية للسبب باسم السبب ، كما سمي العشب بالسماء ، والشحم بالندا . ويحتمل إذا أريد بقول الحق عيسى ، أن يكون الحق اسم الله عز وجل ، وأن يكون بمعنى الثبات والصدق ، ويعضده قوله (الذي فيه يمترون) أي أمره حق يقين وهم فيه شاكون (يمترون) يشكون . والمرية : الشك . أو يمتارون : يتلاحون^(١) ، قالت اليهود : ساحر كذاب ، وقالت النصارى : ابن الله وثالث ثلاثة . وقرأ على بن أبي طالب رضي الله عنه : تمترون ، على الخطاب . وعن أبي بن كعب : قول الحق الذي كان الناس فيه يمترون .

مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾

كذب النصارى وبكتهم بالدلالة على انتفاء الولد عنه ، وأنه مما لا يتأتى ولا يتصور في العقول وليس بمقدور عليه ، إذ من المحال غير المستقيم أن تكون ذاته كذات من ينشأ منه

(١) قوله « يتلاحون » التلاحى بمعنى التنازع كما في الصحاح . وعبرة النسق : أو يختلفون ، من المراء ، فقالت اليهود ... الخ . (ع)

الولد ، ثم بين إحالة ذلك بأن من إذا أراد شيئاً من الأجناس كلها أوجده يكن ، كان منزلها من شبه الحيوان الوالد . والقول ههنا مجاز ، ومعناه : أن إرادته للشيء يتبعها كونه لا محالة من غير توقف ، فشبه ذلك بأمر الأمر المطاع إذا ورد على المأمور الممثل .

وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَدًى صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾

قرأ المدنيون وأبو عمرو بفتح أن . ومعناه : ولأنه ربي وربكم فاعبدوه ، كقوله (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً) والاستار وأبو عبيد بالكسر على الابتداء . وفي حرف أبي : إن الله ، بالكسر بغير واو ، وبأن الله ، أى : بسبب ذلك ^(١) فاعبدوه .

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾

(الأحزاب) اليهود والنصارى عن الكلبي . وقيل النصارى لتحزبهم ثلاث فرق : نسطورية ويعقوية وملكانية . وعن الحسن : الذين غزبوا على الأنبياء لما قص عليهم قصة عيسى اختلفوا فيه من بين الناس (من مشهد يوم عظيم) أى من شهودهم هول الحساب والجزاء في يوم القيامة أو من مكان الشهود فيه وهو الموقف . أو من وقت الشهود ، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم ، وأن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بالكفر وسوء الأعمال . أو من مكان الشهادة أو وقتها . وقيل : هو ما قالوه وشهدوا به في عيسى وأمه .

أَفْتَحِ يَوْمَ يَئُودُ يَوْمَ يَأْتُونََنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ

الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

لا يوصف الله تعالى بالتعجب وإنما المراد أن أسماعهم وأبصارهم يومئذ جدير بأن يتعجب منهما بعد ما كانوا صما وعميا في الدنيا . وقيل : معناه التهديد بما سيسمعون ويبصرون مما يسوءهم ويصدع قلوبهم . أو وقع الظاهر أعنى الظالمين موقع الضمير : إشعاراً بأن لا ظلم أشد من ظلمهم ، حيث أغفلوا الاستماع والنظر حين يجدى عليهم ويسعدهم . والمراد بالضلال المبين : إغفال النظر والاستماع (قضى الأمر) فرغ من الحساب وتصادر الفريقان إلى الجنة والنار . وعن النبي صلى

(١) قوله « وبأن الله أى بسبب ذلك » لعله : أى بأن الله . ويمكن أنه عطف على أن الله ، ويكون في حرف

أبي القراءتان . (ع)

الله عليه وسلم أنه سئل عنه أى عن قضاء الأمر فقال : « حين يذبح الكبش والفريقان ينظران ، ^(١) »
وإذ بدل من يوم الحسرة . أو منصوب بالحسرة (وهم في غفلة) متعلق بقوله في ضلال مبين عن
الحسن . وأنذرهم : اعتراض . أو هو متعلق بأنذرهم : أى : وأنذرهم على هذه الحال غافلين غير
مؤمنين . يحتمل أنه يمتهم ويخرب ديارهم ، وأنه يقضى أجسادهم ويقضى الأرض ويذهب بها .

وَإِذْ كُنَّا فِي السَّكْتِ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ^(٤١) إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ
يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ^(٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ
جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ^(٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ
الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ حَصِيًّا ^(٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ
عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ^(٤٥)

الصديق : من أبنية المبالغة . ونظيره الضحيك والنطيق . والمراد ، فرط صدقه وكثرة ما صدق
به من غيوب الله وآياته وكتبه ورسله ، وكان الرجحان والغلبة في هذا التصديق للكتب والرسول
أى : كان مصداقاً بجميع الانبياء وكتبهم ، وكان نبياً في نفسه ، كقوله تعالى (بل جاء بالحق
وصديق المرسلين) أو كان بليغاً في الصدق ، لأن ملاك أمر النبوة الصدق ، ومصدق الله بآياته
ومعجزاته حرى أن يكون كذلك ، وهذه الجملة وقعت اعتراضاً بين المبدل منه وبدله ، أعنى
إبراهيم . و (إذ قال) نحو قولك : رأيت زيدا ، ونعم الرجل أذاك . ويجوز أن يتعلق إذ بكان
أو بصديقاً نبياً ، أى : كان جامعاً لخصائص الصديقين والانبياء حين خاطب أباه تلك المخاطبات .
والمراد بذكر الرسول إياه وقصته في الكتاب أن يتلو ذلك على الناس ويبلغه إليهم ، كقوله (واتل
عليهم نبأ إبراهيم) وإلا فالله عز وجل هو ذا كره ومورده في تنزيله . التاء في (يا أبته) عوض
من ياء الإضافة ، ولا يقال يا أبتى ، لتلا جمع بين العوض والمعوض منه . وقيل : يا أبتا ،
لكون الالف بدلا من الياء ، وشبه ذلك سيويه بأنتى ، وتعويض الياء فيه عن الواو الساقطة .
انظر حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورطاً فيه من الخطأ العظيم والارتكاب الشنيع

(١) لم أجده هكذا . وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً « يؤتى بالموت كهنة كبش أملح - الحديث ،
وفيه وكلهم قد رآه يذبح . ثم يقول يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، ثم قرأ (وأنذرهم
يوم الحسرة إذ نقض الأمر) الآية وأخرجاه عن ابن عمر نحوه دون قراءة الآية . وفي الباب عن أبي هريرة عند
ابن حبان والحاكم والسنن . وأخرجه البخاري دون ذكر الذبح . وأخرجه أبو يعلى والبرار من حديث أنس .
وفي آخره « فيا من هؤلاء . » وينقطع رجال هؤلاء . »

الذى عصا فيه أمر العقلاء وانسلخ عن قضية التميز ، ومن الغباوة التى ليس بعدها غباوة : كيف رتب الكلام معه فى أحسن اتساق ، وساقه أرشق مساق ^(١) ، مع استعمال المجاملة واللفظ والرفق واللين والآداب الجميل والخلق الحسن ، متصفاً فى ذلك بنصيحة ربه عز وجل ، حدث أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام : إنك خليلي ، حسن خلقك ولو مع الكفار ، تدخل مداخل الأبرار ^(٢) ، فإن كنتى سبقت لمن حسن خلقه : أظله تحت عرشي ، وأسكنه حظيرة القدس ، وأدنيه من جوارى . وذلك أنه طلب منه أولاً العلة فى خطئه طلب منه على تماديه ، موقظ لإفراطه وتناهيه ، لأن المعبود لو كان حياً مميّزاً ، سميعاً بصيراً ، مقتدرأ على الثواب والعقاب ، نافعاً ضاراً ، إلا أنه بعض الخلق : لاستخف عقل من أهله للعبادة ووصفه بالربوبية ، ولسجل عليه بالنقش المبين والظلم العظيم وإن كان أشرف الخلق وأعلام منزلة كالملائكة والنبين . قال الله تعالى (ولا يأمرمكم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيا أمرمكم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) وذلك أن العبادة هى غاية التعظيم ، فلا تحقق إلا لمن له غاية الإناعام : وهو الخالق الرازق ، المحيى المميت ، الميثب المعاقب ، الذى منه أصول النعم وفروعها . فإذا وجهت إلى غيره - وتعالى علواً كبيراً أن تكون هذه الصفة لغيره - لم يكن إلا ظلياً وعتوياً وغياً وكفراً وجحوداً ، وخروجاً عن الصحيح النير إلى الفاسد المظلم ، فما ظنك بمن وجه عبادته إلى حماد ليس به حس ولا شعور ؟ فلا يسمع - يا عابده - ذكرك له وثناءك عليه ، ولا يرى هيأت خضوعك وخشوعك له ، فضلاً أن يغنى عنك بأن تستدفعه بلاء فيدفعه ، أو تسنج لك حاجة فيكفيكها . ثم تثنى بدعوته إلى الحق مترقفاً به متلطفاً ، فلم يسم أباه بالجهل المفرط ، ولا نفسه بالعلم الفائق ، ولكنه قال : إن معى طائفة من العلم وشيئاً منه ليس معك ، وذلك علم الدلالة على الطريق السوى فلا تستنكف ، وهب أنى وإياك فى مسير وعندى معرفة بالهداية دونك ، فاتبعنى أنجك من أن تضل وتتيه . ثم تلك بتثيظه ونبيه عما كان عليه : بأن الشيطان - الذى استعصى على ربك الرحمن الذى جميع ما عندك من النعم من عنده ، وهو عدوك الذى لا يريد بك إلا كل هلاك وخزى ونكال وعدو أهلك آدم وأبناء جنسك كلهم - هو الذى وزعك فى هذه الضلالة وأمرمك بها وزينها لك ، فأنت إن حققت النظر عابد الشيطان ، إلا أن إبراهيم عليه السلام لإمعانه فى الإخلاص ولا ارتقاء همته فى الربانية لم يذكر من جناتى الشيطان

(١) قوله « فى أحسن اتساق وساقه أرشق » فى الصحاح « الاتساق » الانتظام . وفيه أيضاً « رجل رشيق »

أى حسن القدر لطيفه . (ع)

(٢) أخرجه الطبرانى فى الأوسط وابن عدى ، والحكيم الترمذى فى النوادر من حديث أبي هريرة وفيه مؤمل

ابن عبد الرحمن الثقفى عن أبي أمية بن يعلى الثقفى وهما ضعيفان

إلا التي تختص منهما برب العزة من عصيانه واستكباره، ولم يلتفت إلى ذكر معاداته لآدم وذريته كأن النظر في عظم ما ارتكب من ذلك غمر فكره وأطبق على ذهنه. ثم ربح بتخويله سوء العاقبة وبما يجره ^(١) ما هو فيه من التبعة والوال، ولم يخل ذلك من حسن الأدب، حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق له وأن العذاب لاحق به، ولكنه قال: أخاف أن يمسك عذاب، فذكر الخوف والمس ونكر العذاب، وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب، وذلك أن رضوان الله أكبر من الثواب نفسه، وسماه الله تعالى المشهود له ^(٢) بالفوز العظيم حيث قال (ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم) فكذلك ولاية الشيطان التي هي معارضة رضوان الله، أكبر من العذاب نفسه وأعظم، وصار كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله (يا أبت) توسلاً إليه واستعطافاً. فـ (ما) في (ما لا يسمع) و (ما لم يأتك) يجوز أن تكون موصولة وموصوفة، والمفعول في (لا يسمع ولا يبصر) منى غير منوى، كقولك: ليس به استماع ولا إبصار (شيئاً) يحتمل وجهين، أحدهما: أن يكون في موضع المصدر، أى: شيئاً من الغناء، ويجوز أن يقدر نحوه مع الفعلين السابقين. والثاني: أن يكون مفعولاً به من قولهم: أغنى عنى وجهك (إني قد جأنى من العلم ما لم يأتك) فيه تجديد العلم عنده.

قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ

وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ^(٤٦)

لما أطلعه على سماجة صورة أمره، وهدم مذهبه بالحجج القاطعة، وناصحه المناصحة العجيبة مع تلك الملاطفات، أقبل عليه الشيخ بفظاظة الكفر وغلظة العناد، فناداه باسمه، ولم يقابل (يا أبت) بـ (يا بني)، وقدم الخبر على المبتدأ في قوله (أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم) لأنه كان أهم عنده وهو عنده أعنى، وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته، وأن آلهته، ما ينبغي أن يرغب عنها أحد. وفي هذا سلوان وتلج لصدر رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يلقى من مثل ذلك من كفار قومه (لأرجمنك) لأرجمنك بلساني، يريد الشتم والذم، ومنه (الرجيم) المرمى باللعن. أو لأقتلك، من رجم الزاني. أو لأطردنك رمية بالحجارة. وأصل الرجم: الرمي بالرجام ^(٣) (ملياً) زماناً طويلاً من الملاوة: أو ملياً بالذهاب عنى

(١) قوله وبما يجره، لعله وبما يجره، فيكون عطفاً على سوء العاقبة. (ع)

(٢) قوله «وسماه الله تعالى المشهود له» لعله «مشهود له بأن رضوانه أكبر من الثواب، فليحذر». (ع)

(٣) قوله وأصل الرجم الرمي بالرجام، أى الحجارة الضخام، كذا في الصحاح. (ع)

والهجران قبل أن أئخذك بالضرب ، حتى لا تقدر أن تبرح . يقال : فلان ملّ بكذا ، إذا كان مطيقاً له مضطجلاً به . فإن قلت : علام عطف (واهجرني) ؟ قلت : على معطوف عليه محذوف يدل عليه (لأرجئك) أي فاحذرنى واهجرني ، لأن (لأرجئك) تهديد وتفريع .

قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾

(قال سلام عليك) سلام توديع ومتاركة ، كقوله تعالى (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين) وقوله (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) وهذا دليل على جواز متاركة المنصوح والحال هذه . ويجوز أن يكون قد دعا له بالسلامة استمالة له . ألا ترى أنه وعده الاستغفار . فإن قلت : كيف جاز له أن يستغفر للكافر وأن يعده ^(١) ذلك ؟ قلت : قالوا أراد اشتراط التوبة عن الكفر ، كما ترد الأوامر والنواهي الشرعية على الكفار والمراد اشتراط الإيمان ، وكما يؤمر المحدث والفقير بالصلاة والزكاة ويراد اشتراط الوضوء والنصاب . وقالوا : إنما استغفر له بقوله (واغفر لآبي إنه كان من الضالين) لأنه وعده أن يؤمن . واستشهدوا عليه بقوله تعالى (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه) ولقائل أن يقول : إن الذي منع من الاستغفار للكافر إنما هو السمع ، فأما القضية العقلية فلا تأباه ، فيجوز أن يكون الوعد بالاستغفار والوفاء به قبل ورود السمع ، بناء على قضية العقل ، والذي يدل على صحته قوله تعالى (إلا قول إبراهيم لأبيه لا استغفرن لك) فلو كان شرطاً للإيمان لم يكن مستنكراً ومستثنى عما وجبت فيه الأسوة . وأما (عن موعدة وعدها إياه) فالوعد هو إبراهيم لا آزر ، أي : ما قال (واغفر لآبي) إلا عن قوله (لا استغفرن لك) وتشهد له قراءة حماد الراوية : وعدها أباه . والله أعلم (حفيّا) الحفيّ : البليغ في البر والإطاف ، حفي به وتحفي به (وأعزلكم) أراد بالاعتزال المهاجرة إلى الشام . المراد بالدعاء العبادة ، لأنه منها ومن وسأطعها . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «الدعاء هو العبادة» ^(٢) ، ويدل

(١) قال محمود : «إن قلت لم استغفر لأبيه وهو كافر ... الخ» قال أحد : وهذه لفظ من الاعتزال ، مستطيرة من شرر قاعدة التحسين والتقييع . والحق أن العقل لا مدخل له في أن يحكم بحكم الله تعالى قبل ورود الشرع به ، ثم لم يوف الزمخشري بها ، فانه جعل العقل يسوغ الاستغفار ، وجعل الشرع مانعاً منه ، ولا يتصور هذا على قاعدتهم المهدمة ، كما لا يتصور ورود الشرع بما يخالف العقل في الالهيّات ، نعم قد يحكم الشرع بما لا يظهر العقل عتدهم خلافه . وأما ما يظهر العقل خلافه . فلا .

(٢) أخرجه أبو داود وبقية أصحاب السنن وابن حبان والحاكم من حديث الثمان بن بشير . وأخرجه أحمد وإسحاق وابن أبي شيبة وأبو يعلى والبخاري وابن أبي حاتم والطبري من حديثه وأخرجه ابن مردويه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما .

عليه قوله تعالى (قلنا اعتزلم وما يعبدون من دون الله) ويجوز أن يراد الدعاء الذي حكاه الله في سورة الشعراء . عرض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم في قوله (عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقياً) مع التواضع لله بكلمة (عسى) وما فيه من هضم النفس .

فَلَمَّا اعْتَزَلْتَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا

جَعَلْنَا نَبِيًّا ۖ (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۖ (٥٠)

ما خسر على الله أحد ترك الكفار الفسقة لوجهه ، فعوضه أولاداً مؤمنين أنبياء (من رحمتنا) هي النبوة عن الحسن . وعن الكلبي : المال والولد ، وتكون عامة في كل خير ديني ودنيوي أو توه . لسان الصدق : الثناء الحسن . وعبر باللسان عما يوجد باللسان كما عبر باليد عما يطلق باليد وهي العطفة . قال :

* إِنِّي أَتَنَّبِي لِسَانَ لَا أَسْرُ بِهَِا * (١)

يريد الرسالة . ولسان العرب : لغتهم وكلامهم . استجاب الله دعوته (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) فصيروه قدوة حتى ادعاه أهل الأديان كلهم . وقال عز وجل (ملة أبيكم إبراهيم) و (ملة إبراهيم حنيفاً) ، (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً) وأعطى ذلك ذريته فأعلى ذكرهم وأثنى عليهم ، كما أعلى ذكره وأثنى عليه .

وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۖ (٥١)

المخلص - بالكسر - : الذي أخلص العبادة عن الشرك والرياء . أو أخلص نفسه وأسلم وجهه لله . وبالفتح : الذي أخلصه الله . الرسول : الذي معه كتاب من الأنبياء : والنبي : الذي ينبي عن الله عز وجل وإن لم يكن معه كتاب ، كيوشع .

وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ۖ (٥٢)

(١) إِنِّي أَتَنَّبِي لِسَانَ لَا أَسْرُ بِهِ من علو لا كذب فيه ولا سحر

لجاشت النفس لما جاء فلهم وراكب جاء من تثليث معتمر

الاعتنى الباطل ، لما جاء الناعي بقتل المنتشر أخيه . عبر باللسان عن الكلام مجازاً ، لأنه آله . وأنت الفعل لتأويل الفاعل بالكلمة أو الرسالة ، وذكر فيها بعد نظراً للظاهر ، من علو البناء على الفتح ، أي : من أعلى نجد . والسحر : مصدر سحر كسب . وجاشت القدر : غلت وارتفع ما فيها . والتجوز بالجيشان عن حرارة القلب مشهور والقل : الفتنة . وتثليث : اسم موضع ممنوع من الصرف . وراكب : عطف على «فلهم» ، ودمتمره نعمته ، وجاء الثاني بدل .

الايمن من اليمين : أى من ناحيته اليمنى . أو من اليمين صفة للطور ، أو للجانب . شبه بمن قربه بعض العظماء المناجاة ، حيث كلبه بغير واسطة ملك . وعن أبي العالية قربه حتى سمع صريف القلم الذى كتبت به التوراة .

وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾

(من رحمتنا) من أجل رحمتنا له وترأفنا عليه : وهبنا له هرون . أو بعض رحمتنا ، كما فى قوله (ووهبنا لهم من رحمتنا) . و (أخاه) على هذا الوجه بدل . و (هرون) عطف بيان ، كقولك : رأيت رجلاً أخاك زيداً . وكان هرون أكبر من موسى ، فوقعت الهبة على معاضدته وموازرتة كذا عن ابن عباس رضى الله عنه .

وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾

وَكَانَ بِأَمْرٍ أَهْلُهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾

ذكر إسماعيل عليه السلام بصدق الوعد وإن كان ذلك موجوداً فى غيره من الأنبياء ، تشريفاً له وإكراماً ، كالتلقيب بنحو : الحليم ، والأتواء ، والصدق ؛ ولأنه المشهور المتواصف من خصاله . عن ابن عباس رضى الله عنه : أنه وعد صاحباً له أن ينتظره فى مكان ، فانتظره سنة . وناهيك أنه وعد فى نفسه الصبر على الذبح فوفى ، حيث قال (ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) كان يبدأ بأهله فى الأمر بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لمن وراءهم ، ولأنهم أولى من سائر الناس (وأنذر عشيرتك الأقربين) ، (وأمر أهلك بالصلاة) ، (قوا أنفسكم وأهليكم نارا) ألا ترى أنهم أحق بالتصدق عليهم ؛ فالإحسان الدينى أولى . وقيل (أهله) أمته كلهم من القرابة وغيرهم ؛ لأن أمم النبيين فى عداد أهاليهم . وفيه أن من حق الصالح أن لا يألو نصحاً للأجانب فضلاً عن الأقارب والمتصلين به ، وأن يحفظهم بالفوائد الدينية ولا يفرط فى شيء من ذلك .

وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِبْرِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ

مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾

قيل : سمي إدريس لكثرة دراسته كتاب الله عز وجل ، وكان اسمه أخنوخ ، وهو غير صحيح ؛ لأنه لو كان أفعيلاً من الدرس لم يكن فيه إلا سبب واحد وهو العلية ، فكان منصرفاً ؛ فامتناعه من الصرف دليل العجمة . وكذلك إبليس أعجمي ، وليس من الإبلas كما يزعمون ،

ولا يعقوب من العقب ، ولا إسرائيل بإسرائيل كما زعم ابن السكيت ، ومن لم يحقق ولم يتدرب بالصناعة كثرت منه أمثال هذه الهنات . ويجوز أن يكون معنى ﴿إدريس﴾ في تلك اللغة قريباً من ذلك ، فحسبه الراوى مشتقاً من الدرس . المسكان العلى : شرف النبوة والزلفى عند الله وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة ، وهو أول من خط بالقلم ونظر في علم التجوّم والحساب ، وأول من خاط الثياب ولبسها ، وكانوا يلبسون الجلود . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه يرفعه إنه رفع إلى السماء الرابعة ^(١) . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : إلى السماء السادسة ^(٢) . وعن الحسن رضى الله عنه . إلى الجنة لأشياء أعلى من الجنة . وعن النابغة الجعدي : أنه لما أنشد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم الشعر الذى آخره :

بَلَّغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَسَنَاؤُنَا وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا ^(٣)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إلى أين يا أبا ليلى » قال : إلى الجنة . ^(٤)

أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ

(١) أخرجه الترمذى من رواية شيبان عن قتادة عن أنس بهذا . وقال هو عندى مختصر من حديث الاسراء الذى رواه سعيد ومهام عن قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة .

(٢) أخرجه الطبرى وابن مردويه من رواية عطية عنه .

(٣) ولاخير فى حلم إذا لم يكن له بوادر نحى صفوه أن يكدرها
ولاخير فى جهل إذا لم يكن له حلیم إذا ماأورد الأمر أصدرها
بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا وإنا لَنَرْجُو فوق ذلك مظهرا

للتابغة الجعدي ، أنشده أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إلى أين يا أبا ليلى ؟ قال : إلى الجنة بك يا رسول الله ، فقال : لا يفضض الله فاك . فعمر فوق مائتى عام ، وكانت إذا سقطت له سن نبت بدلها . والحلم : الآنة والعقل . والبادرة : الكلمة تصدر حال الغضب . وشبه الحلم بالماء على طريق المكنتية . والصفاء والتكدير : تخجيل ، والمراد بالجهل : عجلة الاقدام على عظامم الأمور . والایراد جعل الشيء وارداً . والاصدار : جملة صادر . والمراد تسبب فى وجوده وإعظامه وفى تحقيره وإعدامه . ويحتمل أنه شبه الأمر المعضل بحیوان بورده صاحبه إلى الماء تارة ويرجعه أخرى ، على طريق المكنتية ، والایراد والاصدار تخجيل . ويجوز أن فاعل أورد ضمير الجهل ، وفاعل أصدر ضمير الحلم ، أى : إذا تسبب الجهل والشجاعة فى أمر خطا أرجعه الحلم وأبطله ، فلا بد من اجتماع الحلم والحجامة معاً حتى يكمل الرجل . ومجدنا وسناؤنا بالرفع بدلا من فاعل بلغنا . وقيل : مما مفعولان فهما بالنصب . وانظر ماوجه ، ولعله أنهما طرفان اعتباريان ، أى : بلغنا السماء فى المجد والثناء . أو بدلان من السماء ، بأن شهما بها ، ثم أطلقها عليهما وأبدلها منها ، وهو أوجه من الظرفية . ولوقيل على النصب : أنهما تميزان ، كان وجهها ، لكننه على رأى الكوفيين القائلين بجوازه معرفة ، ولما ادعى بلوغ السماء بنى عليه مايقبى على المحسوس فقال : وإنا لَنَرْجُو مظهرا فوق ذلك .

(٤) أخرجه البزار وأبو نعيم والبيهقى فى الدلائل لها من طريق يعلى بن الأشرف عنه وله طريق أخرى عند البيهقى وذكر القصيدة .

نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَافِيلَ وَيَمْنُ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾

(أوئك) إشارة إلى المذكورين في السورة من لدن ذكرنا إلى إدريس عليه السلام . و«من»
في (من النبيين) للبيان مثلها في قوله تعالى في آخر سورة الفتح (وعد الله الذين آمنوا وعملوا
الصالحات منهم مغفرة) لأن جميع الأنبياء منعم عليهم . ومن الثانية للتبعض ، وكان إدريس
من ذرية آدم لقربه منه لأنه جد أبي نوح . وإبراهيم عليه السلام من ذرية من حمل مع نوح ؛
لأنه من ذرية سام بن نوح ، وإسماعيل من ذرية إبراهيم . وموسى وهرون وزكريا ويحيى من
ذرية إسرائيل . وكذلك عيسى : لأن مريم من ذريته (ومن هديننا) يحتمل العطف على من
الأولى والثانية . إن جعلت الذين خيرا لاوئك كان (إذا تلى) كلاما مستأنفا . وإن جعلته
صفة له كان خبراً . قرأ شبل بن عباد المذكي : يتلى . بالتذكير ؛ لأن التأنيث غير حقيق مع وجود
الفصل . البكى : جمع بك ، كالسجود والقعود في جمع ساجد وقاعد . عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم : « اتلوا القرآن وابكوا . فإن لم تبكوا فتبا كوا »^(١) ، وعن صالح المري رضى الله
عنه : قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لى : « هذه القراءة يا صالح ،
فأين البكاء ؟ » وعن ابن عباس رضى الله عنهما : إذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود
حتى تبكوا . فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن
القرآن أنزل بحزن فإذا قرأتموه فتحازنوا »^(٢) ، وقالوا : يدعو في سجدة التلاوة بما يليق بآيتها ،
فإن قرأ آية تنزيل السجدة قال : اللهم اجعاني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدي . وأعوذ
بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك . وإن قرأ سجدة سبحان قال : اللهم اجعني من الباكين
إليك الخاشعين لك . وإن قرأ هذه قال : اللهم اجعني من عبادك المنعم عليهم المهتدين ،
الساجدين لك ، الباكين عند تلاوة آياتك .

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ
يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾

(١) أخرجه إسماعيل والبرار من طريق عبدالرحمن بن أبي مليكة عن ابن أبي مليكة عن عبدالرحمن بن السائب
عن سعيد بلفظ « إن هذا القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فابكوا فإن لم تبكوا فتبا كوا » الحديث ، ومن هذا الوجه
أخرجه أبو يعلى والبخاري . والبيهقي في الشعب . وإسماعيل أيضا لين .

(٢) أخرجه ابن مردويه من حديث ابن عباس بلفظ « فاقروه بحزن » وإسناده ضعيف . ورواه أبو يعلى
والعقيلي . وأبو نعيم في ترجمة رباح بن عمرو العبسي من حديث أبي بريدة عن أبيه بلفظ « اقرءوا القرآن بحزن
فانه نزل بحزن » .

خلفه : إذا عقبه ، ثم قيل في عقب الخير ، خلف ، بالفتح ، وفي عقب السوء : خلف ، بالسكون ، كما قالوا وعد ، في ضمان الخير ، وعد وعيد ، في ضمان الشر . عن ابن عباس رضى الله عنه : هم اليهود ، تركوا الصلاة المفروضة ، وشربوا الخمر ، واستحلوا انكاح الأخت من الأب . وعن إبراهيم ومجاهد رضى الله عنهما : أضاعوها بالتأخير . وينصر الأول قوله (إلا من تاب وآمن) يعنى الكفار . وعن علي رضى الله عنه في قوله (واتبعوا الشهوات) من بنى الشديد ، وركب المنظور ، ولبس المشهور . وعن قتادة رضى الله عنه : هو في هذه الأمة . وقرأ ابن مسعود والحسن والضحاك رضى الله عنهم : الصلوات ، بالجمع .

كل شر عند العرب : غي ، وكل خير : رشاد . قال المرقش :

فَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا تَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ وَمَنْ يَفْعَوْ لَا يَعْدَمْ عَلَى الْغَى لَا يَمَّا (١)
وعن الزجاج : جزاء غي ، كقوله تعالى (يلق أنا ما) أى مجازاة أئام . أو غياً عن طريق الجنة . وقيل : غي ، واد في جهنم تستعيز منه أوديتها . وقرأ الأخفش (يلقون) .

إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠)

قرئ : يدخلون ، ويدخلون : أى لا ينقصون شيئاً من جزاء أعمالهم ولا يمنعون ، بل يضاعف لهم ، بياناً لأن تقدم الكفر لا يضرهم إذا تابوا من ذلك ، من قولك : ما ظلمك أن تفعل كذا ، بمعنى : ما منعك . أو لا يظلمون البتة ، أى شيئاً من الظلم .

جَنَّاتٍ عِدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا (٦١)

لما كانت الجنة مشتملة على جنات عدن أبدات منها ، كقولك : أبصرت دارك القاعة والعلالي . وعد عدن ، معرفة علم ، بمعنى العدن وهو الإقامة ، كما جعلوا . فينة ، وسحر ، وأمس

(١) أمن حلم أصبحت تنسكت واجما وقد تعترى الأحلام من كان تامها

فمن يلقى خيراً يعمد الناس أمره ومن يفعو لا يعدم على الغي لائما

للمرقش الأصغر صاحب فاعمة بنت المنذر ، والأكرم الأصغر وعم طرفة ، وهو صاحب أسماء ، والاستفهام للتوبيخ ، والحلم - بضمين - : ما يراه الناس . والنسكت : التخطيط والنقر في الأرض بأصبع ، أو عود ، كما يفلى المهموم المتفكر . والواجم : الحزين ، والوار للحال ، أى : والحال أن أحداث الأحلام قد تعترى البائم ، فكان مجردة عن المعنى ، فمن يلقى : أى يصادف خيراً في أفعاله ، يعمد الناس فعله ، أو شأنه . وإيقاع الحديد عليه لأنه سيئه ، ومن يفعل غياً لا يعدم لائما يلومه على غيه . وقيل : أراد بالخير الغنى ، وبالنفي : الفقر ، ويبيده . قام اللرم وعدم مناسبة لما قبله . وغوى يفوي : من باب ضرب : انهمك في الجهل ، وعدم يعدم - من باب علم - : فقده .

« فيمن لم يصرفه - أعلاما للمعانى : الفينة ،^(١) والسحر ، والأمس ، فجري مجرى العدن لذلك . أو هو علم لارض الجنة ؛ لكونها - مكان إقامة ، ولولا ذلك لما ساغ الإبدال ؛ لأن التكررة لا تبدل من المعرفة إلا موصوفة ، ولما ساغ وصفها بالتى . وقرئ : جنات عدن . وجنة عدن بالرفع على الابتداء . أى : وعددها وهى غائبة عنهم غير حاضرة . أو هم غائبون عنها لا يشاهدونها . أو بتصديق الغيب والإيمان به . قيل فى (مأتيا) مفعول بمعنى فاعل . والوجه أن الوعد هو الجنة وهم يأتونها . أو هو من قولك : أتى إليه إحساناً ، أى : كان وعده مفعولا منجزاً .

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾

الغو : فضول الكلام وما لا طائل تحته . وفيه تنبيه ظاهر على وجوب تجنب اللغو واتقائه ، حيث نزه الله عنه الدار التى لا تكليف فيها . وما أحسن قوله سبحانه (وإذا مروا باللغو مروا كراما) (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين) نعوذ بالله من اللغو والجهل والخوض فيما لا يعنيننا . أى : إن كان تسليم بعضهم على بعض أو تسليم الملائكة عليهم لغوا ، فلا يسمعون لغوا إلا ذلك ، فهو من وادى قوله :

وَلَا عَصَبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُبُوفَهُمْ بَيْنَ قُلُوبٍ مِنْ قِرَاعِ السَّكَنَاتِيبِ^(٢)

أولا يسمعون فيها إلا قولا يسلمون فيه من العيب والنقيصة ، على الاستثناء المنقطع^(٣) . أو لأن معنى السلام هو الدعاء بالسلامة^(٤) . ودار السلام : هى دار السلامة ، وأهلها عن الدعاء بالسلامة أغنياء ، فكان ظاهره من باب اللغو فضول الحديث ، لولا ما فيه من فائدة الإكرام .

(١) قوله « لمعانى الفينة » فى الصحاح « لقيته الفينة بعد الفينة » أى الحين بعد الحين . وإن شئت حذفنا الألف واللام فقلت : لقيته فينة ، كما قالوا لقيته الندرى : وفى ندرى . (ع)

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بصفحة ١٤٢ من الجزء الثانى قراجه إن شئت اه مصححه .

(٣) قال محمود : « يجوز أن يكون من قوله :

ولا عصب فيهم غير أن سبوفهم بين قلوب من قراع الكتائب

وأن يكون استثناء منقطعا ، قال أحمد : والفرق بين الوجهين أنه جعل القلوب عيا على سبيل التجوز ، بتألف العيب بالكلية ، كأنه يقول : إن كان قلوب السيوف من القراع عيا فانهم ذوو عيب ، معناه : وإن لم يكن عيا فليس فيهم عيب البتة ؛ لأنه لا شيء سوى هذا ، فهو بعد هذا التجوز والفرض استثناء متصل .

(٤) عاد كلامه . قال : ويجوز أن يكون متصلا على أن يكون السلام هو الدعاء بالسلامة ... الخ . قال أحمد : وهذا يجعله من المتصل على أصل الحقيقة ، لا كالأول الناقص عن المجاز . وفى هذا الباب بعد : لأنه يقتضى البت بأن الجنة يسمع فيها لغو وفضول ، وحاش لله ، فلا غول فيها ولا لغو .

من الناس من يأكل الوجبة^(١) . ومنهم من يأكل متى وجد - وهي عادة المنهومين . ومنهم من يتغدى ويتعشى - وهي العادة الوسطى المحمودة ، ولا يكون ثم ليل ولا نهار ، ولكن على التقدير ؛ ولأن المتنعّم عند العرب من وجد غداً وعشاء . وقيل : أراد دوام الرزق ودروره ، كما تقول : أنا عند فلان صباحاً ومساءً وبكرة وعشياً ، يريد : الديمومة ، ولا تقصد الوقتين المعلومين .

تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٦٣)

(نورث) وقرئ : نورث . استعارة ، أى : نبقى عليه الجنة كما نبقى على الوارث مال المورث . ولأن الاتقياء يلقون ربهم يوم القيامة قد انقضت أعمالهم وثمرتها باقية وهي الجنة ، فإذا أدخلهم الجنة فقد أورثهم من تقواهم كما يورث الوارث المال من المتوفى . وقيل : أورثوا من الجنة المساكن التي كانت لأهل النار لو أطاعوا .

وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا يَنْ أُنْزِلُنَا وَمَا خَلَقْنَا وَمَا يَنْ ذَلِكَ

وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤)

(وما تنزل) حكاية قول جبريل صلوات الله عليه حين استبطأه رسول الله صلى الله عليه وسلم . روى أنه احتبس أربعين يوماً . وقيل : خمسة عشر يوماً ، وذلك حين سئل عن قصة أصحاب الكهف وذى القرنين والروح ، فلم يدر كيف يجيب ورجا أن يوحى إليه فيه ، فشق ذلك عليه مشقة شديدة وقال المشركون : ودّعه ربه وقلاه فلما نزل جبريل عليه السلام قال له النبي صلى الله عليه وسلم : أبطأت حتى ساء ظني واشتقت إليك . قال : إني كنت أشوق ولكني عبد مأمور ، إذا بعثت نزلت ، وإذا حبست احتبست . وأنزل الله سبحانه هذه الآية وسورة الضحى^(٢) . والنزل على معنيين : معنى النزول على مهل ، ومعنى النزول على الإطلاق ، كقوله :

(١) قوله «من الناس من يأكل الوجبة» أى يأكل كل يوم وليلة مرة . وقد وجب نفسه توجيهاً إذا عودما ذلك ، كذا في الصحاح . (ع)

(٢) ذكره الثعلبي عن عكرمة والضحاك وقتادة ومقاتل الكلبي . فقالوا . احتبس ، فذكره سواء ، وكأنه ملفق عندهم ، فقد ذكره ابن إسحاق في السيرة . قال حدثني شيخ من أهل مصر عن عكرمة عن ابن عباس وأن قريشا جازوا فقالوا : يا محمد ، أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدمر الأول - فذكر القصة - وفيها : فبكث فيما يذكرون خمسة عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وصار لأبائهم جبريل . فذكره بغير زيادة ونقص . ورواه أبو نعيم في الدلائل من طريقه ومن طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس نحوه . وقال أبطأ عنه خمسة عشر يوماً لتركة الاستثناء .

فَلَسْتَ لِإِنْسِي وَلَكِنْ لِمَلَكٍ تَنْزَلَ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ يَصُوبُ (١)

لأنه مطاوع نزل، ونزل يكون بمعنى أنزل، وبمعنى التدرج، واللاق بهذا الموضع هو النزول على مهل والمراد أن نزولنا في الآحايين وقتناغب وقت ليس إلا بأمر الله، وعلى ما يراه صوابا وحكمة، وله ماقدامنا ﴿وما خلفنا﴾ من الجهات والاماكن ﴿وما بين ذلك﴾ وما نحن فيها فلا تتمالك أن ننقل من جهة إلى جهة ومكان إلى مكان إلا بأمر المليك ومشيتته، وهو الحافظ العالم بكل حركة وسكون، وما يحدث ويتجدد من الأحوال، لا يجوز عليه الغفلة والنسيان، فأنى لنا أن نتقلب في ملكوته إلا إذا رأى ذلك مصلحة وحكمة، وأطلق لنا الإذن فيه. وقيل: ما سلف من أمر الدنيا وما يستقبل من أمر الآخرة، وما بين ذلك: ما بين التفخيتين وهو أربعون سنة. وقيل: ما مضى من أعمارنا وما غبر منها، والحال التي نحن فيها. وقيل: ما قبل وجودنا وما بعد فئتنا. وقيل: الأرض التي بين أيدينا إذا زلنا، والسما التي وراءنا، وما بين السماء والأرض، والمعنى: أنه المحيط بكل شيء لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة، فكيف نقدم على فعل نحدثه إلا صادراً عما توجهه حكمته وأمرنا به ويأذن لنا فيه. وقيل معنى ﴿وما كان ربك نسيا﴾ وما كان تاركاً لك، كقوله تعالى (ما ودعك ربك وما قلى) أى: ما كان امتناع النزول إلا لامتناع الأمر به. وأما احتباس الوحي فلم يكن عن ترك الله لك وتوديعه إياك، ولكن لتوقفه على المصلحة. وقيل: هي حكاية قول المتقين حين يدخلون الجنة، أى: وما نزل الجنة إلا بأن من الله علينا بثواب أعمالنا وأمرنا بدخولها، وهو المالك لقاب الأمور كلها السالفة

(١) تعاليت أن تعزى إلى الانس جلة وللانس من يعزوك فهو كذوب

فلست بإنسى ولكن ملاكاً تنزل من جو السماء يصب

لرجل من عبد القيس، يمدح النعمان بن المنذر. وقيل لآبى وجرة يمدح عبد الله بن الزبير. وتعزى: أى تنسب، والجلة - بالضم - : دعا، الجر، وبالكسر: الجماعة العظيمة، جمع جليل، وبالفتح: البعرة، وهو تمييز محول من نائب عن الفاعل، أى: فلما نيت عن أن ينسب وعاءك أى: أصلك إلى الانس. وقوله: وللانس من يعزوك، فيه تقديم معمول الصلة على الموصول. والمشهور منه: لأنهم يتوسعون في الظروف، وزيدت الفاء في خبر الموصول لأنه يشبه الشرط، ولوجعل شرطاً لكان فيه إثبات حرف الة بعد الجازم للضرورة. والملاك معقل، بتقديم العين من الأولكة بالفتح وهي الرسالة، وقال أبو عبيدة: هو مفعول على اسم المكان، من لأك إذ أرسل، ولعله جاء على مفعول لتصوير أن الرسول مكان الرسالة. وقال ابن كيسان: هو فاعل من الملك، فلهذه زائدة، وهى كل يخفف بالذلل فيقال فيه تلك. والصوب: القصد أو الميل عند النزول، ونصب ملاكاً لأنه اسم لكن، وما بعده صفته، أى: ولكن ملاكاً نازل من السماء أنت. وفيه: أن المحدث عنه الممدوح لا الملك، ويمكن أنه قلب للبالغة كما قاله في التشبيه المقلوب. ويحتمل أن تقديره: ولكنك كنت ملاكاً، وفيه بعد. والأوجه رواية الصحاح: فلست لأنسى ولكن للملاك. أى: فلست منسوباً لأنسى ولكن لك، وبالغ في ذلك حتى جعله نازلاً من جهة السماء، يصب: أى يقصد إلى جهة.

والمرتبة والحاضرة ، اللاطف في أعمال الخير والموفق لها والمجازي عليها ، ثم قال الله تعالى -
تقريباً لقولهم - : وما كان ربك نسياً لأعمال العاملين غافلاً عما يجب أن يثابروا به ، وكيف يجوز
النسيان والغفلة على ذي ملكوت السماء والأرض وما بينهما ؟ ثم قال لرسوله صلى الله عليه وسلم :
لحين عرفته على هذه الصفة ، فأقبل على العمل واعبد : يثبك كما أثاب غيرك من المتقين . وقرأ
الأعرج رضى الله عنه : وما ينزل ، بالياء على الحكاية عن جبريل عليه السلام والضمير للوحى .
وعن ابن مسعود رضى الله عنه : إلا بقول ربك . يجب أن يكون الخلاف فى النسي مثله فى البغى .

رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ

تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

(رب السموات والأرض) بدل من ربك ، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، أى
هو رب السموات والأرض (فاعبد) كقوله :

﴿ وَقَالَتِ الْخَوَلَانُ فَإِنْ كُنْجَ فَمَتَا تَعْمُ ﴾ (١)

وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون (وما كان ربك نسياً) من كلام المتقين . وما بعده من كلام
رب العزة . فإن قلت : هلا عدى (اصطبر) بعلی التي هي صلته ، كقوله تعالى (واصطبر عليها) ؟
قلت : لأن العبادة جعلت بمنزلة القرن في قولك للبحارب : اصطبر لقرنك ، أى اثبت له فيما يورد
عليك من شدانه أريد أن العبادة تورد عليك شدائد ومشاق ، فاثبت لها ولا تن ، ولا يضق
صدرك عن إلقاء عداتك من أهل الكتاب إليك إلا غاليط ، وعن احتباس الوحى عليك مدة
وشماتة المشركين بك . أى : لم يسم شئ بالله قط ، وكانوا يقولون لأصنامهم : آلهة ، والعزى إله
وأما الذى عوض فيه الألف واللام من الهمزة ، فنخصوص به المعبود الحق غير مشارك فيه .

(١) وقائلة خولان فانكح فئاتهم وأكرومة الحيين خلو كما هيا

شاعره مجهول . أى : ورب قاتلة . وخولان بالفتح اسم قبيلة بالين ، وهو مبتدأ خبره ما بعده ، ولقاء زائدة فيه على
رأى الأخفش والقرءاء . ومنع سبويه زياتها هنا : لأن المبتدأ لم يقبه الشرط ، لخبره محذوف ، أى : خولان
كرام فانكح أى تزوج فئاتهم ، وأوه خبر محذوف ، أى : هؤلاء خولان المعروفون بالكرم ، فتزوج فئاتهم .
وبنى وأكرومة ، من الكرم للدلالة على كثرة الكرم ، كما أن أعجوبة من التعجب للدلالة على كثرة ، والجملة حالية ،
فيحتمل أنها مانعة من فكاح الفتاة ، أى قالت لى ذلك ، والحال أن أكرومة الحيين أى كريمة حتى أبى وحى أى
خلو بالضم : غالية من الأرواح كما كانت ، فهى أولى من الفتاة بالزواج لقرابتها منى . ويحتمل أنها داعية إليه ،
فالمنى : قالت لى ذلك والحال أن الفتاة التى هى أكرومة الحيين ، أى حتى أبى وحى أمها من خولان ، على ما
عليه من البكارة ، أو من الخلو من الأزواج لم تزوج أحدا قلى ، فهى حقيقة بأن تزوجها لكرم طرفها ، فعلم أن
الكاف بمعنى على . ويجوز أن يشبه حالها الآن بحالها فيما مضى . فالكاف على أصلها . ويحتمل أن الواو للمطف ،
أى : قالت ذلك ، وقالت : إنها غالية لم يطعمها أحد قبلك ، فهى حقيقة بالزواج لذلك ، لكنه بعيد .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : لا يسمى أحد الرحمن غيره . ووجه آخر : هل تعلم من سمي باسمه على الحق دون الباطل ، لأن التسمية على الباطل في كونها غير معتد بها كلا تسمية . وقيل : مثلاً وشيهاً ، أى : إذا صح أن لا معبود يوجه إليه العباد العبادة إلا هو وحده ، لم يكن بد من عبادته والاصطبار على مشاقها وتكاليها .

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أَخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ
أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾

يحتمل أن يراد بالإنسان الجنس بأسره ، وأن يراد بعض الجنس وهم الكفرة . فإن قلت : لم جازت إرادة الأناسي كلهم ، وكلهم غير قائلين ذلك ؟ قلت : لما كانت هذه المقالة موجودة فيمن هو من جنسهم ، صح إسناده إلى جميعهم . كما يقولون : بنو فلان قتلوا فلانا ، وإنما القاتل رجل منهم . قال الفرزدق :

فَسَيَفُ بَنِي عَبْسٍ وَقَدْ ضَرَبُوا بِهِ نَبَاً يَهْدِي وَرَقَاءَ عَنْ رَأْسِ خَالِدٍ ^(١)

فقد أسند الضرب إلى بني عبس مع قوله : نبا يهدي ورقاء ، وهو ورقاء بن زهير بن جذيمة العبسي . فإن قلت : بم انتصب (إذا) وانتصابه بأخرج ممنع لأجل اللام : لا تقول : اليوم لزيد قائم ؟ قلت : بفعل مضمر يدل عليه المذكور . فإن قلت : لام الابتداء الداخلة على المضارع تعطى معنى الحال ، فكيف جمعت حرف الاستقبال ؟ ^(٢) قلت : لم تجامعها إلا مخلصاً للتوكيد كما أخلصت الهزمة في يا الله للتعويض واضمحل عنها معنى التعريف . و ما ، في (إذا ما) للتوكيد أيضاً ، فكأنهم قالوا : أحقاً أنا سنخرج أحياء حين يتمكن فينا الموت والهلاك ؟ على وجه الاستنكار والاستبعاد . والمراد الخروج من الأرض ، أو من حال الفناء . أو هو من قولهم : خرج فلان عالماً ، وخرج

(١) للفرزدق وهذا لقبه ، واسمه مام أوميم ، يريد : ورقاء بن زهير بن جذيمة العبسي ، أمره سليمان بن عبد الملك بضرب أعناق بعض أسرى الروم ، وأعطاه سيفاً لا يقطع فقال : بل أضربهم بسيفي وغراني مجاشع ، يعني نفسه ، فضرب عنق خالد فأنحرف السيف وارتفع عن المضرب ، فضحكوا منه . ونسب السيف والضرب إلى بني عبس مع أنهم لو أحد منهم ، تعطى لها وتنفخها . وجعله في اليدين إشارة إلى أنه كان بجما أمره وحازماً عزمه غير مناهوت . والمعنى : أن الحذر لا ينفع من القدر كما وقع لورقاء ، مع أنه في غاية الحرص ، لاسيما أمام الملك . ويحور أنه يريد ذم بني عبس .

(٢) قال محمود : وإن قلت كيف اجتمعت اللام وهي للحال مع حرف الاستقبال ... الخ . قال أحمد : ولا اعتقاد تناقض الحرفين : منع الكافرين اجتماعهما ، وإنما جردت اللام من معناها لتلائم وسوف . دون أن تجرد سوف لتلائم اللام ، لأنه لو عكس هذا لفت سوف ، إذ لا معنى لها سوى الاستقبال . وأما اللام إذا جردت من الحال بقى لها التوكيد ، فلم تلغ ، فتعين ، والله أعلم .

شجاعاً : إذا كان نادراً في ذلك ، يريد : سأخرج حياً نادراً على سبيل الهزؤ . وقرأ الحسن وأبو حيوة : لسوف أخرج . وعن طلحة بن مصرف رضى الله عنه : سأخرج ، كقراءة ابن مسعود رضى الله عنه : ولسميعطيك ، وتقديم الظرف وإيلاؤه حرف الإنكار من قبل أن مابعد الموت هو وقت كون الحياة منكراً ، ومنه جاء إنكارهم ، فهو كقولك للسمي إلى المحسن : أحين تمت عليك نعمة فلان أسأت إليه : الواو عطف (لا يذكر) على (يقول) ووسطت همزة الإنكار بين المعطوف عليه وحرف العطف . يعنى : أيقول ذلك ولا يتذكر حال النشأة الأولى حتى لا ينكر الأخرى ^(١) فإن تلك أعجب وأغرب وأدل على قدرة الخالق ، حيث أخرج الجواهر والأعراض من العدم إلى الوجود ، ثم أوقع التأليف مشحوناً بضروب الحكم التي تحار الفطن فيها ، من غير حذو على مثال واقتماد مؤلف . ولكن اختراعاً وإبداعاً من عند قادر جلت قدرته ودقت حكمته . وأما الثانية فقد تقدمت نظيرتها وعادت لها كالمثال المحتذى عليه ، وليس فيها إلا تأليف الأجزاء الموجودة الباقية وتركيبها ، وردها إلى ما كانت عليه بمجموعة بعد التفكيك والتفريق . وقوله تعالى ﴿ ولم يك شيئاً ﴾ دليل على هذا المعنى ، وكذلك قوله تعالى (وهو أهون عليه) على أن رب العزة سواء عليه النشأتان ، لا يتفاوت في قدرته الصعب والسهل . ولا يحتاج إلى احتذاء على مثال ؛ ولا استعانة بحكيم ، ولا نظر في مقياس ، ولكن يواجه جاحداً البعث بذلك دفعاً في بحر معانده ، وكشفاً عن صفحة جهله . القراء كلهم على (لا يذكر) بالتشديد إلا نافعاً وابن عامر

(١) قال محمد : ذكر الله الانسان النشأة الأولى ليعترف بالآخرى ... الخ ، قال أحمد : مذهب أهل السنة أن إعادة المدوم جائزة عقلاً ، ثم واقعة نقلاً . والمعتزلة وإن وافقت على ذلك ، إلا أنها تزعم أن المدوم له ذات ثابتة في العدم ، يقضى عليها بأنها شيء . فليس عندهم عدم صرف ونقي محض قبل الوجود ولا بعده ، فكانهم لولا ذلك لقالوا بقول الفلاسفة الذين هم مختصرهم ، وأنكروا إعادة المدوم كما أنكره القدماء . وعقيدة أهل السنة هي المطابقة للآية : لأن النشأة الأولى لم تقدمها وجود ، ولأن المنشأ ابتداء لم يكن شيئاً قبل ذلك . وأما النشأة الثانية فقد تقدمها وجود ، وكان المنشأ قبلها شيئاً في زمان وجوده ، ثم عدم وبطلت شيبته ، فظهر فرق ما بين النشأتين كما نطق به القرآن . وأما المعتزلة فإن قالوا : إن الأجسام يعدمها الله ثم يوجددها ، فقد قالوا الحق ، لكن لا يتم على أصلهم فرق بين النشأتين ؛ لأن المدوم فيهما كان شيئاً قبل النشأة ، فإن قالوا لا تعدم الأجسام ، وإنما تتفرق ثم تجمع كما صرح به الزمخشري ؛ لأنه تفتن لأن القول بأن الأجسام تعدم ثم يوجددها الله تعالى مع القول بأن المدوم شيء . - يطل الفرق بين النشأتين ولم يطق ذلك ، وقد نطق به القرآن فالزم أن الأجسام لا تعدم لئتم له الفرق بين النشأة الثانية - وإنما هي على هذا التقرير جمع وتأليف لموجود - وبين النشأة الأولى التي هي إيجاد مدوم ، فتنبه لبعد غوره ، ولكن هرب من القطر فوقع تحت الميزاب ، فهو والحالة هذه كالمستنيث من الرضاء بالنار ، والله ولي التوفيق . ومعنى تفريق الله تعالى بين النشأتين : أن الجاحد متهافت لأنه اعترف بالأولى وهي أصعب بالنسبة إلى قياس العقل ، وأنكر الثانية وهي أسهل وأهون ؛ لأن ذلك راجع إلى قدرته تعالى . فإن الكل لدى قدرة الله تعالى هين على سواء .

وعاصما رضى الله عنهم ، فقد خففوا . وفي حرف أبي : يتذكر (من قبل) من قبل الحالة التي هو فيها وهي حالة بقاءه .

قَوْلُكَ لَنَحْشُرَنَّهُمُ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ٦٨
ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَنتَظَرُ عَلَيْهِمُ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ٦٩ ثُمَّ لَنَنْحُنُّ أَغْلَمُ
بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ٧٠

في إقسام الله تعالى باسمه تقدست أسماؤه مضافا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : تفخيم لشأن رسول الله ورفع منه ، كما رفع من شأن السماء والأرض في قوله تعالى (فورب السماء والأرض إنه الحق) والواو في (والشياطين) يجوز أن تكون للعطف ، وبمعنى مع ، وهي بمعنى مع ، أوقع . والمعنى : أنهم يحشرون مع قربائهم من الشياطين الذين أغوهم ، يقرن كل كافر مع شيطان في سلسلة . فإن قلت : هذا إذا أريد بالإنسان الكفرة خاصة ، فإن أريد بالإنسان على العموم ^(١) فكيف يستقيم حشرهم مع الشياطين ؟ قلت : إذا حشر جميع الناس حشراً واحداً وفيهم الكفرة ومقرونين بالشياطين فقد حشروا مع الشياطين كما حشروا مع الكفرة . فإن قلت : هلا عزل السعداء عن الأشقياء في المحشر كما عزلوا عنهم في الجزاء ؟ قلت : لم يفرق بينهم وبينهم في المحشر ، وأحضروا حيث تجاثوا حول جهنم ، وأوردوا معهم النار ليشاهد السعداء الأحوال التي نجاهم الله منها وخلصهم ، فيزدادوا لذلك غبطة إلى غبطة وسرورا إلى سرور ، ويشمتوا بأعداء الله وأعدائهم ، فيزداد مساءتهم وحسرتهم وما يغيظهم من سعادة أولياء الله وشمايتهم بهم . فإن قلت : مامعنى إحضارهم جثيا ؟ قلت : أما إذا فسر الإنسان بالخصوص ، فالمعنى أنهم يقبلون من المحشر إلى شاطئ جهنم عتلاء ^(٢) على حالهم التي كانوا عليها في الموقف ، جثاة على ركبهم ، غير مشاة على أقدامهم ، وذلك أن أهل الموقف وصغوا بالجثو . قال الله تعالى (وترى كل أمة جاثية) على العادة الممهودة في مواقف المقاولات والمنافلات ، من تجاثى أهلها على الركب ، لما في ذلك من الاستيفاز والقلق وإطلاق الحبا وخلاف الطمأنينة . أو لما يدهمهم من شدة الأمر التي

(١) عاد كلامه . قال : «والإنسان يحتمل أن يراد به العموم ... الخ، قال أحمد : التبت عليه إرادة العموم بتناول العموم وبينهما بون ، ومن ثم خلت عبارته هذه عن التحرز والصون ، فصرح بأن الله تعالى أراد بالإنسان العموم ، ومعنى إرادة العموم : أن يريد الله تعالى نسبة كلمة الشك والكفر إلى كل فرد من أفراد الإنسان ، ومعاذ الله . وقد صرح الزمخشري بأن الناطق بكلمة الشك بعض الجنس ، في العبارة خلل كما ترى . والعبارة الصحيحة أن يقال : يحتمل أن يكون التعريف جنسيا ، فيكون عهديا ، فيكون اللفظ من أول وهلة خاصا ، والله أعلم .

(٢) قوله «عتلاء» القتل : المذهب العنيف . أفاده الصحاح - (ع)

لا يطيعون معها القيام على أرجلهم ، فيحبون على ركبهم حبواً . وإن فسر بالعموم ، فالمعنى أنهم يتجاثون عند موافاة شاطئ جهنم ، على أن جنباً حال مقدرة كما كانوا في الموقف متجاثين ؛ لأنه من توابع التواقف للحساب قبل التوصل إلى الثواب والعقاب . والمراد بالشيعة - وهي فعلة ، كفرقة وفتية - الطائفة التي شاعت ^(١) ، أى تبعت غاويها من الفواة . قال الله تعالى (إن الذين فزقوا دينهم وكانوا شيعاً) يريد : نمتاز من كل طائفة من طوائف النى والفساد أعصام فأعصام ، وأعتام فأعتام . فإذا اجتمعوا طرحنهم في النار على الترتيب . نقدم أولاهم بالعذاب فأولاهم . أو أراد بالذين هم أولى به صلياً : المنتزعين كما هم ، كأنه قال : ثم لنحن أعلم بتصلية هؤلاء ، وهم أولى بالصلى من بين سائر الصالين ، ودركاتهم أسفل ، وعذابهم أشد . ويجوز أن يريد بأشدهم عتياً : رؤساء الشيع وأئمتهم ، لتضاعف جرمهم بكونهم ضللاً ومضلين . قال الله تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون) ، (وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم) واختلف في إعراب (أيهم أشد) فعن الحليل أنه مرتفع على الحكاية . تقديره : لنزعت الذين يقال فيهم أيهم أشد ، وسيؤيه على أنه مبنى على الضم لسقوط صدر الجملة التي هي صلته ، حتى لو جىء به لأعرب . وقيل : أيهم هو أشد . ويجوز أن يكون النزاع واقعاً على (من كل شيعة) ، كقوله سبحانه (ووهبنا لهم من رحمتنا) أى لنزعت بعض كل شيعة ، فكأن قاتلاً قال : من هم ؟ فقيل : أيهم أشد عتياً . وأيهم أشد : بالنصب عن طلحة ابن مصرف وعن معاذ بن مسلم الهراء أستاذ الفراء . فإن قلت : هم يتعلق على والباء ، فإن تعلقهما بالمصدرين لاسبيل إليه ؟ قلت : هما للبيان لا الصلة . أو يتعلقان بأفعل ، أى : عوهم أشد على الرحمن ، وصلبهم أولى بالنار ، كقولهم : هو أشد على خصمه ، وهو أولى بكذا .

وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ

اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾

(وإن منكم) التفات إلى الإنسان ، بعضده قراءة ابن عباس وعكرمة رضى الله عنهما : وإن منهم . أو خطاب للناس ^(٢) من غير التفات إلى المذكور ، فإن أريد الجنس كله فعنى الورد دخولهم فيها وهي جامدة ، فيعبرها المؤمنون وتتهار بغيرهم . عن ابن عباس رضى الله

(١) قوله « شاعت » في الصحاح : شاعه شياعاً : تبعه . (ع)

(٢) قال محمود : « يحتمل أن يكون استئناف خطاباً للناس ، وبمحتمل أن يكون التفاتاً ، قال أحمد : احتمال الالتفات مفرع على إرادة العموم من الأول ، فيكون المخاطبون أولاً المخاطبين ثانياً ؛ إلا أن الخطاب الأول بلفظ التبية ، والثاني بلفظ الحضور . وأما إذا بنينا على أن الأول إنما أريد منه خصوص على التقديرين جميعاً ، فالثاني ليس التفاتاً ، وإنما هو عدول إلى خطاب العامة عن خطاب خاص لقوم معينين ، واه أعلم .

عنه : يردونها كأنها إهالة . وروى دواية ^(١) . وعن جابر بن عبد الله أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ؟ فقال : إذا دخل أهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض : أليس قد وعدنا ربنا أن نرد النار ، فيقال لهم : قد وردتموها وهي جامدة ^(٢) . وعنه رضى الله عنه أنه سئل عن هذه الآية ؟ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الورود الدخول ، لا يبقى برزخ ولا فاجر إلا دخلها ، فتسكون على المؤمنين برذاً وسلاماً كما كانت على إبراهيم ، حتى إن النار ضجيجا من بردها » ^(٣) . وأما قوله تعالى (أولئك عنها مبعدون) فالمراد عن عذابها . وعن ابن مسعود والحسن وقتادة : هو الجواز على الصراط ؛ لأن الصراط ممدود عليها . وعن ابن عباس : قد يرد الشيء الشيء . ولا يدخله ، كقوله تعالى (ولما ورد ماء مدين) ووردت القافلة البلد ، وإن لم تدخله ولكن قربت منه . وعن مجاهد : ورود المؤمن النار هو مس الحى جسده في الدنيا ، لقوله عليه السلام « الحى من فيح جهنم » ^(٤) . وفي الحديث « الحى حظ كل مؤمن من النار » ^(٥) . ويجوز أن يراد بالورود : جثوم حولها . وإن أريد الكفار خاصة ، فالمنى بين .

الحمم : مصدر حتم الأمر إذا أوجبه ، فسمى به الموجب ، كقوله : خلق الله ، وضرب الأمير ، أى : كان ورودهم واجبا على الله ، أوجبه على نفسه وقضى به ، وعزم على أن لا يكون غيره . قرئ (تنجى) وينجى ، وينجى وينجى . على ما لم يسم فاعله . إن أريد الجنس بأسره فهو

(١) قوله « لأنها إهالة وروى دواية » في الصحاح « الإهالة » الودك . وفيه أيضا « الدواية » الجليدة التى يوضع فيها اللبن والمرق . (ع)

(٢) روى عن جابر هكذا . قلت المحفوظ عن جابر ماسياتى بعد . وروى ابن إسحاق وأبو عبيد في الغريب وابن المبارك في الزهد من طريق ومعه خالد بن معدان . قال « إذا جاز المؤمنون الصراط نادى بعضهم بعضا : ألم يعدنا ربنا فذكره ، ولم يذكره الواحدى والبغوى إلا من هذا الوجه .

(٣) رواه أحمد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد . قالوا حدثنا سليمان بن حرب وأخبره أبو يعلى والنسائي في الكنى والبيهقى في الشعب في باب النار ، والحكيم في الوارد . السادس عشر ، كلهم من طريق سليمان . قال حدثنا أبو صالح غالب بن سليمان عن كثير بن زياد عن أبي سمية قال « اختلفنا في الورود ، فسالنا جابرا فذكر الحديث أتم منه » وغالفهم كلهم إلحاقهم فرواه من طريق سليمان بهذا الاسناد فقال : عن سمية الأزدية عن عبد الرحمن بن شعبة بدل أبي سمية . عن جابر .

(٤) متفق عليه من حديث عائشة رضى الله عنها .

(٥) أخرجه البزار عن عائشة بهذا . وقال : تفرد برفعه عثمان بن مخلد عن هشيم بن مغيرة عن إبراهيم عن الأسود عنها . وقال الدارقطني : عثمان لا بأس به ، لكن خولف في رفع هذا الحديث فرواه يبدل عن هشيم موقوفا . قلت : وقد روى مرفوعا من وجه آخر . أخرجه التقضاعى من مسند الشهاب من طريق أحمد بن رشد الهلالى عن حميد بن عبد الرحمن الزوالى عن الحسن بن صالح عن الحسن بن عمرو عن إبراهيم به . وزاد « وحى ليلة شكفر خطايا سنة » في الباب عن أبي هريرة عن ابن ماجه والحاكم ، وعن أبي ربحانة عند الطبرانى ، وعن أبي أمامة عند أحمد . وعن عثمان عند التتيلي وعن سعد بن معاذ عند ابن سعد في الطبقات وعن أنس عند الطبرانى بالآوسط . وكلها ضعيفة وهي بمعناه لا بلفظه .

ظاهر، وإن أريد الكفرة وحدهم فعنى (ثم ننجي) ﴿الذين اتقوا﴾ أن المتقين يساقون إلى الجنة عقيب ورود الكفار، لأنهم يواردونهم ثم يتخلصون. وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس والجحدري وابن أبي ليلى: ثم ننجي، بفتح الثاء، أى هناك. وقوله ﴿ونذر الظالمين فيها جثيا﴾ دليل على أن المراد بالورود الجثث حوالها، وأن المؤمنين يفارقون الكفرة إلى الجنة بعد تجائبهم، وتبقى الكفرة في مكانهم جائين.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ

الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾

﴿بينات﴾ مرتلات الألفاظ؛ ملخصات المعاني، مبيئات المقاصد؛ إما محكمات أو متشابهات، قد تبعها البيان بالمحكمات. أو بتبيين الرسول قولاً أو فعلاً. أو ظاهرات الإعجاز تحدى بها فلم يقدر على معارضتها. أو حججاً وبراهين. والوجه أن تكون حالاً مؤكدة كقوله تعالى (وهو الحق مصداقاً) لأن آيات الله لا تكون إلا واضحة وحججاً ﴿للذين آمنوا﴾ يحتمل أنهم يناطقون المؤمنون بذلك ويواجهونهم به، وأنهم يفوهون به لاجلهم وفي معنائهم، كقوله تعالى (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه). قرأ ابن كثير ﴿مقاماً﴾ بالضم وهو موضع الإقامة والمنزل، والباقون بالفتح وهو موضع القيام، والمراد المسكن والموضع. والندى: المجلس ومجتمع القوم، وحيث ينددون^(١). والمعنى: أنهم إذا سمعوا الآيات وهم جهة لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا وذلك مبلغهم من العلم، قالوا: أى الفريقين من المؤمنين بالآيات والجاحدين لها أو فر حظاً من الدنيا حتى يجعل ذلك عياراً على الفضل والنقص، والرفعة والضعفة. ويروى أنهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنون ويتطيبون ويتزينون بالزين الفاخرة، ثم يدعون مفتخرين على فقراء المسلمين أنهم أكرم على الله منهم.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرِيًّا ﴿٧٤﴾

﴿كم﴾ مفعول ﴿أهلكنا﴾ و﴿من﴾ تبيين لإيهامها، أى: كثيراً من القرون أهلكنا. وكل أهل عصر قرن لمن بعدهم لأنهم يتقدمونهم. و﴿هم أحسن﴾ في محل النصب صفة لكم. ألا ترى أنك لو تركت (هم) لم يكن لك بد من نصب (أحسن) على الوصفية.

الاثاث: متاع البيت. وقيل: هو ماجد من الفرش. والخرثى: ما ليس منها. وأنشد الحسن بن على الطوسى:

(١) قوله «حيث ينددون» في الصحاح «ندوت» أى حضرت الندى. وانتدبت: مثله. (ع)

تَقَادَمَ الْعَهْدُ مِنْ أُمِّ الْوَلِيدِ بِنَا دَهْرًا وَصَارَ أَثَاثُ الْبَيْتِ خُرَيْثًا (١)
 قرئ على خمسة أوجه (رثيا) وهو المنظر والهيئة فعل بمعنى مفعول ، من رأيت . ورثيا ،
 على القلب كقولهم راء في رأى . ورثيا ، على قلب الهمزة ياء والإدغام ، أو من الرى الذى هو
 النعمة والترفة ، من قولهم : ريات من النعيم . ورثيا ، على حذف الهمزة رأسا ، ووجهه أن
 يخفف المقلوب وهو رثيا ، بحذف همزته وإلقاء حركتها على الياء الساكنة قبلها . وزيا ،
 واشتقاقه من الرى وهو الجمع : لأن الرى محاسن مجموعة ، والمعنى : أحسن من هؤلاء .

قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ
 إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا (٧٥)

أى مد له الرحمن ، يعنى : أمهله وأمل له فى العمر ، فأخرج على لفظ الأمر إيدانا بوجوب
 ذلك ، وأنه مفعول لاحالة ، كالمأثور به الممثل ، لتقطع معاذير الضال ، ويقال له يوم القيامة
 (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) أو كقوله تعالى (إنما نملى لهم ليزدادوا إثما) أو (من كان
 فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا) فى معنى الدعاء بأن يمهله الله وينفس فى مدة حياته . فى هذه
 الآية وجهان . أحدهما : أن تكون متصلة بالآية التى هى رابعتها ، والآيتان اعتراض بينهما ،
 أى قالوا : أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا (حتى إذا رأوا ما يوعدون) أى لا يبرحون
 يقولون هذا القول ويتولعون به لا يتكافون عنه إلى أن يشاهدوا الموعود رأى عين (إما
 العذاب) فى الدنيا وهو غلبة المسلمين عليهم وتعذيبهم إياهم قتلًا وأسرًا وإظهار الله دينه على
 الدين كله على أيديهم . وإما يوم القيامة وما ينالهم من الخزي والنعكاس ، فحينئذ يعلمون عند
 المعاينة أن الأمر على عكس ماقدروه ، وأنهم شر مكانًا وأضعف جندا ، لاخير مقاما وأحسن
 نديا ، وأن المؤمنين على خلاف صفتهم . والثانى : أن تتصل بما يليها . والمعنى : أن الذين فى
 الضلالة ممدود لهم فى ضلالتهم . والخذلان لاصق بهم لعلم الله بهم ، وبأن الألفاظ لا تنفع فيهم
 وليسوا من أهلها . والمراد بالضلالة : مادعاهم من جهلهم وغلوه فى كفرهم إلى القول الذى
 قالوه . ولا ينفكون عن ضلالتهم إلى أن يعاينوا نصره الله المؤمنين أو يشاهدوا الساعة
 ومفدوماتها . فإن قلت : حتى هذه ماهى ؟ قلت : هى التى تحكى بعدها الجمل . ألا ترى الجملة

(١) أثاث البيت : أمتعه ولوازمه : والخزى كالكرسى : العتيق من ذلك ، يقول : تقادم وتطاول بنا اللقاء
 من أم الوليد . أى : تباعد زمنه . فدهرا : تميز . ويجوز أنه ظرف ، أى : تباعد عهد اللقاء من محبوبى زماننا
 طويلا وصار متاع البيت عتيقا قديما . وفيه تحسر على عدم اللقاء .

الشرطية واقعة بعدها وهي قوله (إِذَا رَأَوْا مَا يُوْعَدُونَ) (فسيعلون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً) في مقابلة (خير مقاماً وأحسن ندياً) لأن مقامهم هو مكانهم ومسكنهم . والندي : المجلس الجامع لوجوه قومهم وأعوانهم وأنصارهم . والجند : هم الانصار والأعوان .

وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتِ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ

ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾

(ويزيد) معطوف على موضع فليمدد؛ لانه واقع موقع الخبر ، تقديره : من كان في الضلالة مذأويمذله الرحمن . ويزيد : أى يزيد في ضلال الضال بخذلانه ، ويزيد المهتدين هداية بتوفيقه (والباقيات الصالحات) أعمال الآخرة كلها . وقيل : الصلوات . وقيل : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، أى هي (خير ثواباً) من مفاخرات الكفار (وخير مرداً) أى مرجعاً وعاقبة ، أو منفعة ، من قولهم : ليس لهذا الأمر مرء :

* وَهَلْ يَرُدُّ بْسَكَائِ زَنْدًا * (١)

فإن قلت : كيف قيل خير ثواباً كأن لمفاخراتهم ثواباً ، حتى يجعل ثواب الصالحات خيراً منه ؟ قلت : كأنه قيل : ثوابهم النار . على طريقة قوله :

* فَأَعْتَبُوا بِالصَّيْلِ * (٢)

وقوله : شَجْعَاءَ جِرْتَمَا الذَّيْبِلُ تَلُوكُهُ أَصْلًا إِذَا رَاحَ الْمَطْلُ غِرَانًا (٣)

وقوله : نَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ * (٤)

ثم نبى عليه خير ثواباً . وفيه ضرب من التهمك الذى هو أغبط للبتهد من أن يقال له : عقابك النار . فإن قلت : فما وجه التفضيل في الخير كأن لمفاخرهم شركا فيه ؟ قلت : هذا من وجيز كلامهم ، يقولون : الصيف أحتر من الشتاء ، أى : أبلغ من الشتاء في برده .

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة ٥٢٥ فراجع إن شئت اه مصححه

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ١٠٥ فراجع إن شئت اه مصححه

(٣) الشجع : سرعة نقل القوائم . والشجعاء : السرعة السير . والجرة - بالكسر - : ما يجتره البعير من كرشه بمضغه . والذميل : نوع من السير . واللوك : المضغ . والأصل : جمع أصيل ، وهو من العصر للغروب . والرواح : من الظهر إليه . والغراث : الجياح . يصف ناقته بسرعة السير ، وشبه السير عندها بجرتها ، بجامع سرعة الحركة وانطباع الناقة واستلذاها لكل . وجعلها تبرزه شيئاً فشيئاً كالجرة للبالغة . وفيه دلالة على خلو بطنها من العلف إذا راح ، أى : إذا كان غيرها لا يجد قوة على السير ، فالغرت : استعارة . ويجوز أنب المعنى أنها مريعة في السير ولولا كانت جائعة كغيرها من المطايا ، فالغرت حقيقة .

(٤) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٦٠ فراجع إن شئت اه مصححه

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطْلَعَ الْغَيْبِ
أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا مَنَكُتُبُ مَا يَقُولُ وَنُؤْثِدُ لَهُ مِنْ
الْعَذَابِ مَذًا ﴿٧٩﴾ وَنَزَّهْنَاهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾

لما كانت مشاهدة الأشياء ورؤيتها طريقاً إلى الإحاطة بها علماً وصحة الخبر عنها، استعملوا
«أرأيت» في معنى «أخبر»، والفاء جاءت لإفادة معناها الذي هو التعقيب، كأنه قال: أخبر
أيضاً بقصة هذا الكافر، واذكر حديثه عقيب حديث أولئك (أطلع الغيب) من قولهم:
أطلع الجبل: إذا ارتقى إلى أعلاه وطلع^(١) الثنية. قال جرير:

• لَأَقِيتُ مُطْلَعَ الْجِبَالِ وَوُورًا • (٢)

ويقولون: مرّ مطلعاً لذلك الأمر، أى عالياً له مال كاله، ولاختيار هذه الكلمة شأن، يقول:
أو قد بلغ كبر عظمت شأنه أن ارتقى إلى علم الغيب الذي توحد به الواحد القهار. والمعنى: أن ما ادعى
أن يؤتاه وتأتى عليه لا يتوصل إليه إلا بأحد هذين الطريقين: إما علم الغيب، وإما عهد من
عالم الغيب، فبأيهما توصل إلى ذلك؟ قرأ حمزة والكسائي: ولداً، وهو جمع ولد، كأسد في
أسد. أو بمعنى الولد كالعرب في العرب. وعن يحيى بن يعمر: ولداً، بالكسر. وقيل في العهد:
كلمة الشهادة. وعن قتادة: هل له عمل صالح قدمه فهو يرجو بذلك ما يقول؟ وعن الكلبي: هل
عهد الله إليه أنه يؤتيه ذلك؟ عن الحسن رحمه الله: نزلت في الوليد بن المغيرة، والمشهور أنها
في العاصي بن وائل. قال خباب بن الارت: كان لي عليه دين فافضيت، فقال: لا والله حتى
تسكفر بمحمد. قلت: لا والله لأأ كفر بمحمد حياً ولا ميتاً ولا حين تبعث. قال: فإني إذا
مت بعثت؟ قلت: نعم. قال: إذا بعثت جئتني وسيكون لي ثم مال وولد فأعطيك^(٣). وقيل:

(١) قوله «وطلع الثنية» في الصحاح «طلعت الجبل» بالكسر: علوته. (ع)

(٢) إني إذا مضى على نحدث لايت مطلع الجبال ووعورا

لجرير. ومضى: اسم قبيلة صرف للضرورة. ومطلع - بتشديد طاء -: اسم مكان على صورة المفعول، من اطلع
المشدد، وأصله: اطلنع، بناء الانفعال، قلبت طاء وأدغمت فيها ما قبلها، وهو نصب على الظرفية. والوعور:
جمع وعر، أى: صعب مفعول لايت، أو المفعول هو مطلع. ووعورا: حال، لا سيما على رواية فتح واوه على
أنه صيغة مبالغة، يقول: إذا تقولت على مضى ما لأأرضيه، أو تكلمت في قتلى، وجدت في مطالع الجبال أشياء
صعباً فأعجز عن الحرب. أو المعنى: أنه يقتحم الصعاب ولا يبالى بها ويهرب منهم. وعلى الحالية: لايت مطلع
الجبال حال كونه أما كن صعبة، والمطلع متعدد لاضافته لمتعدد، وعلى فتح الواو فظاهر.

(٣) متفق عليه من طريق مسروق عن خباب أتم منه.

صاغ له خياب حلياً فاقتضاه الأجر ، فقال : إنكم تزعمون أنكم تبعثون ، وأن في الجنة ذهاباً وفضة وحريراً ، فأنا أقضيك ثم ، فإنني أوقى مالا ولداً حينئذ (كلا) ردع وتنبه على الخطأ أي : هو مخطئ فيما يصوره لنفسه ويتمناه فليرتدع عنه . فإن قلت : كيف قيل (سنكتب) بسين التسوييف ، وهو كما قاله كتب من غير تأخير ، قال الله تعالى (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : سنظهر له ونعلمه أنا كتبنا قوله ، على طريقة قوله :

* إِذَا مَا أَنْتَسَبْنَا لَمْ تَلِدْنِي لَيْثِمَةٌ * (١)

أي تبين وعلم بالانتساب أني لست بابن لثيمة . والثاني : أن المتروك يقول للجاني : سوف أنتقم منك ، يعني أنه لا يخل بالانتصار وإن تطاول به الزمان واستأخر ، لجرد ههنا المعنى الوعيد (ونمد له من العذاب مداً) أي نطوّل له من العذاب ما يستأمله ونعذبه بالنوع الذي يعذب به الكفار المستهزؤون . أو زیده من العذاب ونضاعف له من المدد . يقال : مدّه وأمدّه بمعنى ، وتدل عليه قراءة علي بن أبي طالب : ونمد له بالضم . وأكّد ذلك بالمصدر ، وذلك من فرط غضب الله ، نعوذ به من التعرّض لما نستوجب به غضبه (وزرثه ما يقول) أي نزوى عنه مازعاً أنه يناله في الآخرة ونعطيه من يستحقه . والمعنى مسمى ما يقول . ومعنى (ما يقول) وهو المسال والولد . يقول الرجل : أنا أملك كذا ، فنقول له : ولي فوق ما تقول ، ويحتمل أنه قد تمنى وطمع أن يؤتيه الله في الدنيا مالا ولداً ، وبلغت به أشعبيته (٢) أن تألّى على ذلك في قوله (لأوتين) لأنه جواب قسم مضمّر ، ومن يتألّى على الله يكذبه ، فيقول الله عز وجل هب أنا أعطيناه ما اشتهاه ، إما زرثه منه في العاقبة ويأتينا فرداً غداً بلا مال ولا ولد ، كقوله عز وجل (ولقد جئتمونا فرادى ... الآية) فما يجدى عليه تمنيه وتأليه . ويحتمل أن هذا القول

(١) رمتني عن قوس العدو وباعدت عبيدة زاد الله ما بيننا بعدا

إذا ما انتسبنا لم تلدني لثيمة ولم نجدى من أن تقرى بها بدا

لوائد بن صمصمة الثقفي ، كانت له امرأة اسمها عبيدة فطمحت عليه وكانت أمها سرية ، فعرض لها بذلك ، يقول : رمتني بأمر فيج كانه نيلة صادرة عن قوس العدو ، أو أبعدتني عنها بعد التلّة عن القوس : أي نسبت في ذلك وبالغت في بعد الرمي ، و«زاد الله» جملة دعائية ، ثم قال : إذا أظهرنا نسبنا يتبين أني لم تلدني لثيمة بخلافك ، ولم نجدى مفرا ولا غنى من إقرارك بتلك القضية . ويجوز أن المعنى : أنه لا بد من إقرارك بأملك اللثيمة ، وعلم مرجع الضمير من ذكر المقابلة وهو أمه ، وهذا أدق في التبكيت . ويروى : به ، أي : بذلك النسب . وفي الالتفات من النية إلى الخطاب نوع من التفتيح والتوبيخ ، كأنه عجب الداس أولاً من حالها ، ثم التفت يبكيتها بلوم أمها وأنها رقيقة .

(٢) قوله «أشعبيته» في الصحاح «أشعب» اسم رجل كان طاعاً . وفي المثل : أطعم من أشعب أمه . ومنه :

أخذت الأشعية ، بمعنى : خصلة أشعب ، وهي الطمع . (ع)

إنما يقوله مادام حيا ، فإذا قبضناه حلنا بينه وبين أن يقوله ، وبأيتنا رافضاً له منفرداً عنه غير قائل له ، أولا نفسي قوله هذا ولا نلغيه . بل نثبت في صحيفته لضرب به وجهه في الموقف ونعيره به ﴿ وبأيتنا ﴾ على فقره ومسكته ﴿ فردا ﴾ من المال والولد ، لم نوله سؤاله ولم نؤته متمناه ، فيجتمع عليه الخطبان : تبعة قوله ووباله ، وفقد المطموع فيه . فردا على الوجه الاول : حال مقدرة نحو (فادخلوها خالدين) لأنه وغيره سواء في إتيانه فردا حين يأتي ، ثم يتفاوتون بعد ذلك .
وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِمَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۖ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ

بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۚ

أى ليتعزروا بآلهتهم حيث يكونون لهم عند الله شفعاء وأنصارا ينقذونهم من العذاب ﴿ كلا ﴾ ردع لهم وإنكار لتعزهم بالآلهة . وقرأ ابن نبيك (كلا) ﴿ سيكفرون بعبادتهم ﴾ أى سيجحدون كلا سيكفرون بعبادتهم ، كقولك : زيدا مررت بغلامه . وفي محاسب ابن جنى : كلا بفتح الكاف والتنوين ، وزعم أن معناه كل هذا الرأى والاعتقاد كلا . ولقائل أن يقول : إن صحت هذه الرواية فهى كلا التى هى للردع ، قلب الواقف عليها ألفها نونا كما في قواريرا . والضمير في (سيكفرون) للآلهة ، أى : سيجحدون عبادتهم وينكرونها ويقولون : والله ما عبدتمونا وأنتم كاذبون . قال الله تعالى (وإذا رأى الذين أشركوا شركاهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك فآلقوا إليهم القول إنكم لكاذبون) أو للشركين : أى ينكرون لسوء العاقبة أن يكونوا قد عبدوها . قال الله تعالى : (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) ﴿ عليهم ضدا ﴾ فى مقابلة (لهم عزا) والمراد ضد العز وهو الذل والهوان ، أى : يكونون عليهم ضدا لما قصدوه وأرادوه ، كأنه قيل : ويكونون عليهم ذلا ، لا لهم عزا أو يكونون عليهم عوناً ، والضد : العون . يقال من أضافكم : أى أعوانكم وكان العون سمي ضداً لأنه يضاد عدوك ويتأف به بإعانتته لك عليه . فإن قلت : لم وحد ؟ قلت : وحد توحيداً قوله عليه السلام : « وهم يد على من سواهم »^(١) ، لاتفاق كلمتهم وأنهم كشيء واحد لفرط تضامهم وتوافقهم ومعنى كون الآلهة عوناً عليهم : أنهم وقود النار وحصب جهنم ، ولأنهم عذبوا بسبب عبادتها

(١) هذا طرف من حديث لعل رضى الله عنه ، أخرجه أبو داود والنسائي وأحمد وإسحاق والمحاكم من طريق قيس بن عباد عن علي رضى الله عنه ، وأنه أخرج من قراب سيفه كتاباً عهد إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا فيه - وذكره - وفيه هذا ، وروى ابن ماجه من حديث ابن عباس رضى الله عنه قال « المسلمون تشكافاً دماؤهم » . وهم يد على من سواهم - الحديث ، وفي الباب عن عبدالله بن عمرو بن العاص ، أخرجه أبو داود وابن ماجه وأحمد والبيهقي والطبراني من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده نحوه ، وعن عبدالله بن عمر ، أخرجه ابن حبان . وعن سفيان ابن عمار أخرجه ابن ماجه .

وإن رجعت الواو في سيكفرون ويكونون إلى المشركين ، فإن المعنى : ويكونون عليهم - أى أعداءهم - ضدا ، أى : كفره بهم ، بعد أن كانوا يعبدونها .

أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّهَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوُّزُّهُمْ أَزًّا ۝٨٣

الآز ، والهرت ، والاستفزاز : أخوات ، ومعناها التهييج وشدة الإزعاج ، أى : تعريضهم على المعاصي وتهميجهم لها بالوساوس والتسويلات . والمعنى : خلينا بينهم وبينهم ^(١) ولم نمنعهم ولو شاء لمنعهم قسرا . والمراد تعجيب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الآيات التي ذكر فيها العتاة والمردة من الكفار ، وأقاويلهم ، وملاحظتهم ، ومعاندتهم للرسل ، واستهزاؤهم بالدين : من تماديهم في الفئى وإفراطهم في العناد ، وتصميمهم على الكفر ، واجتماعهم على دفع الحق بعد وضوحه وانتفاء الشك عنه ، وإنهما كهم لذلك في اتباع الشياطين وما تسوّل لهم ،

فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ۝٨٤

عجلت عليه بكذا : إذا استعجلته منه ، أى : لا تعجل عليهم بأن يهلكوا ويبدوا ، حتى تستريح أنت والمسلمون من ضرورهم ، وتطهر الأرض بقطع دابرهم ، فليس بينك وبين ما تطلب من هلاكهم إلا أيام محصورة وأنفاس معدودة ، كأنها في سرعة تقضيها الساعة التي تعد فيها لو عدت . ونحوه قوله تعالى (ولا تستعجل لهم) ، (كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) وعن ابن عباس رضى الله عنه : أنه كان إذا قرأها بكى وقال : آخر العدد خروج نفسك ، آخر العدد فراق أهلك ، آخر العدد دخول قبرك . وعن ابن السكّك أنه كان عند المأمون فقرأها ، فقال : إذا كانت الأنفاس بالعدد ولم يكن لها مدد ، فما أسرع ما تنفذ .

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ۝٨٥

نصب (يوم) بمضمر ، أى يوم (نحشر) ونسوق : نفعل بالفريقين ما لا يحيط به الوصف . أو اذكر يوم نحشر . ويجوز أن ينتصب بلا يملكون . ذكر المتقون بلفظ التبجيل ، وهو أنهم يجمعون إلى ربهم الذى غرهم برحمته وخصهم برضوانه وكرامته . كما يفد الوفاد على الملوك منتظرين للكرامة عندهم . وعن على رضى الله عنه : ما يحشرون والله على أرجلهم ، ولكنهم على نوق رحالها ذهب ، وعلى نجائب سروجها ياقوت ^(٢) .

(١) قوله « والمضى خلينا بينهم وبينهم » هذا هو الموافق لمذهب المعتزلة . من أنه تعالى لا يفعل الشر . أما على مذهب أهل السنة من أنه تعالى يفعل الشر كالخير ، فالمناسب : سلطانهم عليهم . (ع)
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة وعبد الله بن أحمد في زيادات المسند ، والطبرى وإن أبى حاتم من رواية عبد الرحمن

وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا ٨٦

وذكر الكافرون بأنهم يساقون إلى النار بإهانة واستخفاف كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء . والورود : العطاش لأن من يرد الماء لا يبرده إلا لعطش وحقيقة الورد : المسير إلى الماء ، قال :

رِدِي رِدِي وَرَدَ قَطَاةٌ صَمًا كُدْرِيَّةٌ أَعْجَبًا بَرْدُ الْمَا (١)

فسمى به الوردون . وقرأ الحسن : يحشر المتقون ، ويساق المجرمون .

لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ٨٧

الواو في ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ إن جعل ضميرا (٢) فهو للعباد ، ودل عليه ذكر المتقين والمجرمين لأنهم على هذه القسمة . ويجوز أن تكون علامة للجمع ، كالتي في «أكلوني البراغيث» ، والفاعل (من اتخذ) لأنه في معنى الجمع ، ومحل (من اتخذ) رفع على البدل ، أو على الفاعلية . ويجوز أن ينتصب على تقدير حذف المضاف ، أي : إلا شفاعته من اتخذ . والمراد : لا يملكون أن يشفع لهم ، واتخاذ العهد : الاستظهار بالإيمان والعمل . وعن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه ذات يوم : «أعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهدا ، قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : يقول كل صباح ومساء : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك بأنني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمدا

== ابن إسحاق بن النعمان بن سعد بن علي نحوه ، وأخرجه ابن أبي داود في كتاب البعث من هذا الوجه مرفوعا . ورواه ابن عدي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا أيضا .

(١) يخاطب ناقته . وردى : أمر من الورد ، وتكريره للتوكيد . والورد : اسم مصدر منه أيضا ، أو اسم للماء المورود ، أي : ردى الماء كورود قضاء صماء لا تسمع صوت القانصر فلا تنفر عن الماء : والكدر - بالضم - نوع من القطا رمادي اللون . والكدرية : نسبة إليه ، من نسبة الجزئ إلى كلبه ، وهذه الياه هي الفارقة بين اسم الجنس وواحدة ، كروم ورومي . وفيه تشبيه ناقته ضمنا بالقطاة في الخفة والسرعة . وصما والماء : بالقصر ، فإن رويًا بالمد والسكون على أن الضمر من مشطور المنسرح الموقوف ، فله حرف الألف .

(٢) قال محمد : ، يحتمل أن تكون الواو في لا يملكون ضميرا ... الخ ، قال أحمد : وفي هذا الوجه تصف من حيث أنه إذا جعله علامة لمن فقد كشف معناها وأفصح بأنها متناولة جمعا ، ثم أعاد على لفظها بالافراد ضمير اتخذ ، ففيه الاعادة على لفظها بعد الاعادة على معناها بما يخالف ذلك ، وهو مستنكر عندم لأنه إجمال بعد إيضاح ، وذلك تمكيس في طريق البلاغة ، وإنما عجبت الواضحة الإيضاح بعد الإجمال . والواو على إعرابه ، وإن لم تكن عائدة على من إلا أنها كاشفة لمعناها كشف الضمير العائد له ، فتنبه لهذا العقد ، فإنه أروج من النقد :

• وفي عتق الجساء يستحسن العقد •

عبدك ورسولك ، وأنت إن تكلمت إلى نفسي تقربني من الشر وتبعدني من الخير ، وأنى لا أثق إلا برحمتك فاجعل لي عندك عهداً توفيته يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد . فإذا قال ذلك طبع عليه بطابع ووضع تحت العرش ، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد : أين الذين لهم عند الرحمن عهد ، فيدخلون الجنة ،^(١) وقيل : كلمة الشهادة . أو يكون من عهد الأمير إلى فلان بكذا ، إذا أمره به ، أى لا يشفع إلا المأمور بالشفاعة المأذون له فيها . وتعضده مواضع في التنزيل (وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) . (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) ، (ويومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا) .

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۖ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۝٨٩ تَكَادُ السَّمَوَاتُ

يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ۝٩٠ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝٩١

قرئ (إذا) بالكسر والفتح . قال ابن خالويه : الإذة والآذ : العجب . وقيل : العظيم المنكر . والإذة : الشدة . وأدنى الأمر وأدنى : أثقلني وعظم علي إذا (يكاد) قراءة الكسائي ونافع بالياء . وقرئ (ينفطرن) (١) الانفطار من فطره إذا شقه . والنفطر ، من فطره إذا شقه وكرر الفعل فيه . وقرأ ابن مسعود : ينصدعن : أى تهد هذا . أو مهدودة ، أو مفعول له ، أى : لأنها تهد . فإن قلت : مامعنى انفطار السموات وانشقاق الأرض وخزور الجبال ؟ ومن أين تؤثر هذه الكلمة في الجمادات ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن الله سبحانه يقول : كدت أفعل هذا بالسموات والأرض (٢) والجبال عند وجود هذه الكلمة غضباً منى على من

(١) أخرجه الثعلبي قال : روى أبو وائل عن عبدالله بن مسعود - فذكره بنماه ، وروى ابن مردويه في تفسير الأحزاب من طريق عوف بن عبدالله عن رجل من بني سليم عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «العهد أن تقول : اللهم فاطر السموات والأرض - الحديث أصغر مما ذكره، ورواه الحاكم من وجه آخر عن عون عن ابن فاجة عن الأسود عن ابن مسعود أنه قرأ هذه الآية (إلا من اتخذ عند الله عهداً) قال الله تعالى يقول يوم القيامة : من كان له عندى عهد فليقم ، قال فقلنا : يا أبا عبد الرحمن قال : فافرقوا : اللهم فاطر السموات والأرض - فذكره مختصراً ، وفي الباب عن أبي بكر رضى الله عنه ، أخرجه الحكيم الترمذى في النوادر في السادس والسبعين بعد المائة .

(٢) قوله «وقرى» ينفطرن» يفيد أن القراءة المشهورة «ينفطرن» بالياء . (ع)

(٣) قال محمود : «معناه : كدت أهد» السموات وأفطر الأرض ... الخ » قال أحمد : ويظهر لي وراءها معنى آخر والله أعلم ، وذلك أن الله تعالى قد استعار لدلاتها على وجوده عز وجل موصوفاً بصفات الكمال الواجبة له ، أن جعلها تسبح بحمده . قال تعالى (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده) وما دلت عليه السموات والأرض والجبال بل وكل ذرة من ذراتها : أن الله تعالى مقدس عن نسبة الولد إليه : =

تفوقه بها ، لولا حلي ووقارى ، وأنى لأعجل بالعقوبة كما قال (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حلياً غفورا) . والثاني : أن يكون استعظاما للكلمة ، وتويلا من فظاعتها ، وتصويرا لآثرها في الدين وهدمها لأركانها وقواعده ، وأن مثال ذلك الآثر في المحسوسات : أن يصيب هذه الأجرام العظيمة التي هي قوام العالم ما تنفطر منه وتنشق وتختز . وفي قوله (لقد جئتم) وما فيه من المخاطبة بعد الغيبة ، وهو الذي يسمى الالتفات في علم البلاغة زيادة تسجيل عليهم بالجراءة على الله ، والتعرض لسخطه ، وتنبيه على عظم ما قالوا . في (أن دعوا) ثلاثة أوجه : أن يكون مجرورا بدلا من الهاء في منه ، كقوله :

عَلَىٰ حَالَةٍ لَّوْ أَنَّ فِي الْقَوْمِ حَاتِمًا عَلَىٰ جُودِهِ لَظَنَّ بِالْمَاءِ حَاتِمٌ ^(١)

ومنصوبا بتقدير سقوط اللام وإفضاء الفعل ، أى : هذا لأن دعوا ، علل الحرور بالهد ، والهد بدعاء الولد للرحمن . ومرفوعا بأنه فاعل هذا ، أى هدها دعاء الولد للرحمن . وفي اختصاص الرحمن وتكريره مرات من الفائدة أنه هو الرحمن وحده ، لا يستحق هذا الاسم غيره ، من قبل أن أصول النعم وفروعها منه : خلق العالمين ، وخلق لهم جميع ما معهم ، كما قال بعضهم : فليتكشف عن بصرك غطاؤه ، فأنت وجميع ما عندك عطاؤه . فمن أضاف إليه ولداً فقد جعله كبعض خلقه وأخرجه بذلك عن استحقاق اسم الرحمن . هو من دعا بمعنى سمي المتعدى إلى مفعولين ، فاقصر على أحدهما الذى هو الثانى ، طلباً للعموم والإحاطة بكل ما دعى له ولداً . أو من دعا بمعنى نسب ، الذى مطاوعه ما فى قوله عليه السلام : من ادعى إلى غير مواليه ^(٢) ، وقول الشاعر :

• إِنَّا بَنِي نَهْشَلٍ لَا نَدْعِي لِأَبٍ • ^(٣) أى لا نتنسب إليه .

وفى كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فالمعتقد نسبة الولد إلى الله تعالى قد عطل دلالة هذه الموجودات على تزيه الله وتقديسه ، فاستعير لإبطال ما فيها من روح الدلالة التي خلقت لأجلها ، إبطال صورها بالهد والانفطار والانشقاق ، فسبحان من قسم عباده ، لجعل العباد ، تستلذ فسيح بنسيج داود ، يكاد ينهد لحقائه من هو عن باب التوفيق مطرود مردود .

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٣٨ فراجع إن شئت اه مصححه .

(٢) لم أره باللفظ «من ادعى» وإنما هو عند مسلم باللفظ «اتمنى» أخرجه من حديث على بن أبى طالب رفعه «من ادعى إلى غير أبيه أو اتنى إلى غير مواليه - الحديث»

(٣) إِنَّا بَنِي نَهْشَلٍ لَا نَدْعِي لِأَبٍ عنه ولا هو بالأبناء يشرينا

يكفيه إن نحن متنا أن يشر بنا وهو إذا ذكر الآباء يكفينا

لبشامة بن حزن النهشل ، ويقال : ادعى فلان فى بنى هاشم ولم وإلهم ، أى : انتسب إليهم وادعى عنهم إذا انتسب لغيرهم . وعدل عنهم يقول : إِنَّا لانتسب لأب غير نهشل ، وبني نهشل : نسب على الاختصاص بفيد المدح ولاهو يشرينا ، أى يبيحنا ويستبدلنا بأبناء غيرنا ، ثم قال : يكفيه منا سروره بنان متناو لحقناه ، حيث أوجبتنا له

وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ٩٢

انبغي : مطاوع ، بغي ، إذا طلب ، أى : ما يتأتى له اتخاذ الولد وما ينطلب لو طلب مثلاً ، لأنه محال غير داخل تحت الصحة . أما الولادة المعروفة فلا مقال فى استحالتها . وأما التبنى فلا يكون إلا فيما هو من جنس المتبنى ، وليس للقديم سبحانه جنس ، تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ٩٣
لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ٩٤ وَكُلَّمَا أَتَيْهِ يَوْمَ الْقِسْمَةِ فَرْدًا ٩٥
(من) موصوفة لأنها وقعت بعد كل نكرة ، وقوعها بعد رب فى قوله :

* رَبُّ مَنْ أَنْصَجَتْ غَيْظًا صَدْرُهُ * (١)

وقرأ ابن مسعود وأبو حنيفة (آت الرحمن) على أصله قبل الإضافة . الإحصاء الحصر والضبط
بمعنى : حصرهم بعليه وأحاط بهم (وعدهم عدداً) الذين اعتقدوا فى الملائكة وعيسى وعزير

ولنا الثناء الجليل من شجاعتنا وحسن خصالنا . وهـ إنـ بمعنى «إذا» لأن الموت لاشك فيه . وروى «أن يسب»
يأه ، ولعل مضاه : لامسبة له غير موتنا فى القتال ، معنى : إن كان ذلك مسبة وليس كذلك ، ويمكن أن تعبire
بالكفاية ليفيد أنه مستغن عن المدح من جهة أبنائه عند التفاخر . وعند عد مآثر الآباء . لا يحتاج لغيره ، فنتسب له
لنشرف بشرفه .

(١) رب من أنصجت غيظا قلبه قد تمنى لى موتا لم يطع
وبرأى ككاشجا فى حلقه عسرا مخرجه ما ينزع
لم يضرنى غير أن يحسدى فهو يزقو مثل ما يزقو الضوع
ويحببنى إذا لاقته وإذا يخلو له لحنى رنح

لسويد بن أبى كاهل الشكرى ، ويتعين أن دمن ، نكرة موصوفة ، لأن رب لا تخرج إلا الشكرة ، ونضج اللحم والغيب
ونحوهما نضجا فهو نضيج وناضج : أدرك وبلغ أو أنه واستوى ، أى : رب شخص طبخت قلبه من حر غيظه منى
ولم يطع ، أى لا يستطاع تحمل سبه . والشجا : مانصب فى الحلق من عظم ونحوه . وعسر ألع : حال منه . ومخرجه
أى خروجه مرفوع بالوصف ، لم يضرنى شيئا من الضرر غير الحسد ، من ضاره يضريه ضيراً إذا ضره ، فهو يزقو
أى يصيح مثل صياح الضوع : وهو ذكر البوم ، وكثر تشبيه العرض المطعون فيه باللحم المأكول على طريق
التصريح ، ثم شبه الشاعر بالمرعى المخصب ترنع فيه البهائم . أو شبه الغناب بهيمة فى المرعى على طريق الممكنة
والرفع تخييل . ويحتمل استعارته للأكل الملائم للحم ، ثم اللطم الملائم للعرض على طريق التصريح ، أى : إذا
يخلو له عرض اغتاب كما يريد .

أنهم أولاد الله ، كانوا بين كافرين ، أحدهما : القول بأن الرحمن يصح أن يكون والدًا . والثاني : إشراك الذين زعموا لله أولاداً في عبادته ، كما يخدم الناس أبناء الملوك خدمتهم لآبائهم ، فهمم الله الكفر الأول فيما تقدم من الآيات ؛ ثم عقبه بهدم الكفر الآخر . والمعنى : ما من معبود لهم في السموات والأرض من الملائكة ومن الناس إلا وهو يأتي الرحمن ، أى : يأوى إليه ويلتجئ إلى ربوبيته عبداً متقادماً مطيعاً خاشعاً راجياً ، كما يفعل العبيد وكما يجب عليهم ، لا يدعى لنفسه ما يدعيه له هؤلاء الضلال . ونحوه قوله تعالى (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه) وكلهم متقلبون في ملكوته مقهورون بقهره وهو مهيم عليهم يحيط بهم وبجمل أمورهم وتفاصيلها وكيفيتهم وكنيتهم : لا يفوته شيء من أحوالهم ، وكل واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفرداً ليس معه من هؤلاء المشركين أحد وهم برآء منهم .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَجَّلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾

قرأ جناح بن حبيش (وذاً) بالكسر : والمعنى : سيحدث لهم في القلوب مودة ويزرعها لهم فيها من غير تودد منهم ولا تعرض للأسباب التي توجب الود ويكتسب بها الناس مودات القلوب ، من قرابة أو صداقة أو اصطناع بمبرة أو غير ذلك ، وإنما هو اختراع منه ابتداء اختصاصاً منه لأوليائه بكرامة خاصة ، كما قذف في قلوب أعدائهم الرعب والهيبة إعظاماً لهم وإجلالاً لمكانهم . والسين إما لأن السورة مكية وكان المؤمنون حينئذ محموتين بين الكفرة فوعدهم الله تعالى ذلك إذا دجا الإسلام . وإما أن يكون ذلك يوم القيامة يحجبهم إلى خلقه بما يعرض من حسناتهم وينشر من ديوان أعمالهم . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي رضي الله عنه : « يا علي قل اللهم اجعل لي عندك عهداً ، واجعل لي في صدور المؤمنين مودة »^(١) ، فأنزل الله هذه الآية . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : يعني يحبهم الله ويحبهم إلى خلقه . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل يا جبريل قد أحبت فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء : إن الله قد أحب فلانا فأحبه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يضع له المحبة في أهل الأرض^(٢) ، وعن قتادة : ما أقبل العبد إلى الله إلا أقبل الله بقلوب العباد إليه .

(١) أخرجه الثعلبي والطبراني في مسند حمزة الزيات ، وابن مردويه . عن حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما وفيه إمام بن بشر عن خالد بن زيد ، وهما متروكان .
(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة بمناه .

فَإِنَّمَا يَسِرُنَاهُ لِبَلْسَانِكَ إِنِ بُشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا (٩٧)
وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِصُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨)

هذه خاتمة السورة ومقطعها، فكأنه قال: يبلغ هذا المغول أو بشر به وأنذر، فإنما أنزلناه (لبسانك) أى بلغتك وهو اللسان العربى المبين، وسهلناه وفصلناه (لتبشر به) وتنذر. واللذ: الشداد الخصومة بالباطل، الآخذون فى كل لديد؛ أى فى كل شق من المراء والجدال لفرط لجاجهم، يريد أهل مكة.

وقوله (وكم أهلكنا) تخويف لهم وإنذار. وقرئ (تحس) من حسه إذا شعر به. ومنه الحواس والمحسوسات. وقرأ حنظلة (تسمع) مضارع أسمع. والركز: الصوت الخفى. ومنه: ركز الرمح إذا غيب طرفه فى الأرض. والركاز: المال المدفون.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، من قرأ سورة مريم أعطى عشر حسنات بعدد من كذب ذكريا وصدق به، ويحيى ومريم وعيسى وإبراهيم وإسحق ويعقوب وموسى وهرون وإسماعيل وإدريس، وعشر حسنات بعدد من دعا الله فى الدنيا وبعدد من لم يدع الله، . (١)

سورة طه

مكية [إلا آتي ١٣٠ و ١٣١ فدينتان] وهي ١٣٥ آية [نزلت بعد مريم]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه ١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ أَنْ لَتُنْقَىٰ ٢ إِلَّا تَذَكُّرٌ لِّمَنْ يَخْشَىٰ ٣

تَنْزِيلًا مِّنْ خَلْقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَىٰ ٤

(طه) أبو عمرو نغم الطاء لاستعلائها. وأمال الهاء ونغمها ابن كثير وابن عامر على الأصل، والباقون أمالوها. وعن الحسن رضى الله عنه : طه، وفسر بأنه أمر بالوطء، وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم في تهجدته على إحدى رجليه فأمر بأن يطأ الأرض بقدميه (١) معاً. وأن الأصل طأ، فقلبت همزته هاء أو قلبت ألفا في يطأ فيمن قال : هَ لَا هَنَّاكَ الْمَرْتَعُ ه. ثم نبى عليه الأمر، والهاء للسكت. ويجوز أن يكتب بشطرى الاسمين وهما الدالان بلفظهما

(١) أخرجه عبد بن حميد في تفسيره قال : حدثنا هاشم بن القاسم بن أبي جعفر عن الربيع بن أنس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم قام على رجل ورفع الأخرى ، فأُزِل الله طه يعنى طأ الأرض ، وروى ابن مردويه من طريق قيس بن الربيع عن قطر بن خليفة عن منذر الثوري عن محمد بن الحنفية عن علي ولما نزل يأبها المزمع قام الليل كله حتى ودمت قدماه فجعل يرفع رجلا ويضع الأخرى فهبط عليه جبريل ، فقال «طه طأ الأرض بقدميك يا محمد، وأخرجه البزاز من وجه آخر عن علي «كان النبي صلى الله عليه وسلم يراوح بين قدميه يقوم على كل رجل حتى نزلت طه ما أنزلنا عليك القرآن لتنفق، ومن طريق نهشل عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى (طه) قال «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما قرأ القرآن إذا صلى ، فقام على رجل واحدة ، فأُزِل الله طأها برجليك» وأخرجه البيهقي في الشعب الرابع عشر من وجه آخر عن ميمون بن مهران عن ابن عباس وأن النبي صلى الله عليه وسلم أول ما أنزل عليه الوحي كان يقوم على صدور قدميه إذا صلى . فأُزِل الله (طه) .

(١) نزع ابن بشر وابن عمرو قبله وأخو هراة لثلهما يتوقع راحت بمسلة البغال عشية فارعى فزارة لاهناك المرتع

للفردوق ، بهجو عمرو بن ذهرة الفزارى ، وقبدول العراق بعد عبد الملك بن بشر بن مروان ، وكان على البصرة ومحمد ابن عمرو بن الوليد بن عقبة ، وكان على الكوفة . يقول : ذهب ابن بشر وابن عمرو ، وأخو هراة أى صاحبها ووالها . وهراة من بلاد العراق أيضا . يتوقع : أى يتقرب وينتظر مثل حاله من قبله . راحت ، وروى : مضت ، أى ذهبت البغال بمسلة بن عبد الملك كما يفيد شرح المراح ، وكان يمنع بنى فزارة من الرعى في أرض العراق ، ففر إلى الشام وترك الملك ، فارعى يافزارة ماشئت بمخاطب القبيلة بذلك ، وإشارة إلى أنه كان محرما عليهم ، فأبيح بعد مسلة . وارعى : بفتح العين وسكون الياء : لأن مضارعه مفتوح العين . ولا هناك المرتع : دعا عليهم . يقال : هناك الطعام ومراك ، بتخفيف الهمز : انهضم في بطنك وأراحك ونفمك ، فاذا انفرد الثاني قلت : أمراك الطعام ، وتخفيف الهمزة بقلبها ألفا : صرفه كما هنا شاذ . وقياس تخفيفها في مثل هذا جعلها بين بين لعدم سكن ما قبلها .

على المسميين ، والله أعلم بصحة ما يقال : إن « طاهاه » في لغة عك^(١) في معنى يارجل ، ولعل عكا تصرفوا في « يا هذا » كأنهم في لغتهم قالبون الياء طاء ، فقالوا في « يا » : « طاء » ، واختصروا هذا فاقصروا على ها ، وأثر الصنعة ظاهر لا يخفى في البيت المستشهد به :

إِنَّ السَّفَاهَةَ طَاهَا فِي خَلَايِكُمْ لَقَدْ سَنَّ اللَّهُ أَخْلَاقَ الْمَلَائِكِينَ^(٢)

والأقوال الثلاثة في الفواحي : أعنى التي قدمتها في أول الكشف عن حقائق التنزيل ، هي التي يقول عليها الالباء المتقنون (ما أنزلنا) إن جعلت (طه) تعديداً لأسماء الحروف على الوجه السابق ذكره فهو ابتداء كلام . وإن جعلتها اسماً للسورة احتملت أن تكون خبراً عنها وهي في موضع المبتدأ ، و (القرآن) ظاهر أوقع موقع الضمير لأنها قرآن ، وأن يكون جواباً لها وهي قسم . وقرئ : ما نزل عليك القرآن (لتشقى) لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم ، وتحسرك على أن يؤمنوا بكقوله تعالى (لعلك باخع نفسك) والشقاء يحىء في معنى التعب . ومنه المثل : أشقى من رائض مهر ، أى ما عليك إلا أن تبلغ وتذكر ، ولم يكتب عليك أن يؤمنوا لا محالة ، بعد أن لم تفرط في أداء الرسالة والموعظة الحسنة . وقيل : إن أبا جهل والنضر بن الحرث قالوا له : إنك شقى لأنك تركت دين آبائك ، فأريد رد ذلك بأن دين الاسلام وهذا القرآن هو السلم إلى نيل كل فوز ، والسبب في درك كل سعادة ، وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها . وروى أنه عليه الصلاة والسلام صلى بالليل حتى اسمدت^(٣) قدماه ، فقال له جبريل عليه السلام : أبق على نفسك فإن لها عليك حقاً^(٤) . أى : ما أنزلناه لتهلك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة الفادحة ، وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة ، وكل واحد من (لتشقى) و (تذكرة) علة للفعل ، إلا أن الأول وجب مجيئه مع اللام لأنه ليس لفاعل الفعل المعلن فقاتته شريطة الانتصاب على المفعولية ، والثاني جاز قطع اللام عنه ونصبه لاستجماعه الشرائط . فإن قلت : أما يجوز أن تقول : ما أنزلنا عليك القرآن أن تشقى ، كقوله تعالى (أن تحبط أعمالكم) ؟ قلت : بلى ولكنها نصبة طارئة ،

(١) قوله « في لغة عك » في الصحاح عك بن عدنان أخو معد وهو اليوم في اليمن . (ع)

(٢) السفاهة : الجهل والحق والخفة . و« طه » في لغة عك ، معناه يا هذا ، فكأنهم قلبوا الياء طاء وحذفوا ذا . قال الزمخشري : ولا يخفى التصنع في البيت . والخلائق : الطبايع ، ودعا عليهم بأن الله لا يظهر أرواحهم ، ووضع المظهر موضع المضمحل لزيادة الهم والتشنيع . وقيل : للدلالة على سبب الدعاء ، أى : فاتهم ملعونون ، ولعل معناه : فاتهم مستحقين للعن وقاعلون سبيه .

(٣) قوله « حتى اسمدت » باليمن المعجمة ، أى : تورمت . أفاده الصحاح . (ع)

(٤) لم أره هكذا . وفي الدعوات الكبير لليحيى عن عائشة قالت : لما كانت ليلة النصف من شعبان - فذكر حديثاً طويلاً - فيه : فما زال يصلي قائماً وقاعداً حتى أصبح وحتى اسمدت قدماه . فتمت أغمرها - الحديث - وليس فيه كلام جبريل .

كالنصبه في (واختار موسى قومه) وأما النصبة في تذكرة فهي كالتى في ضربت زيدا ، لأنه أحد المفاعيل الخمسة التى هى أصول وقوانين لغيرها . فإن قلت : هل يجوز أن يكون (تذكرة) بدلا من محل (لتشقى) ؟ قلت : لا ، لاختلاف الجنسین ، ولكنها نصب على الاستثناء المنقطع الذى « إلا ، فيه معنى » لكن ، ويحتمل أن يكون المعنى : إنا أنزلنا عليك القرآن لتحتمل ^(١) متاعب التبليغ ومقاولة العتاة من أعداء الاسلام ومقاتلتهم وغير ذلك من أنواع المشاق وتكاليف النبوة ، وما أنزلنا عليك هذا المتعب الشاق إلا ليكون تذكرة ، وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون تذكرة حالا ومفعولا له (لمن يخشى) لمن يؤول أمره إلى الخشية ، ولمن يعلم الله منه أنه يبدل بالسكفر إيمانا وبالقسوة خشية . فى نصب (تنزيلا) وجوه : أن يكون بدلا من تذكرة إذا جعل حالا ، لا إذا كان مفعولا له : لأن الشئ لا يعطل بنفسه . وأن ينصب بنزل مضمر ، وأن ينصب بأنزلنا ، لأن معنى : ما أنزلناه إلا تذكرة : أنزلناه تذكرة ، وأن ينصب على المدح والاختصاص وأن ينصب بيخشى مفعولا به ، أى : أنزل الله تذكرة لمن يخشى تنزيل الله ، وهو معنى حسن وإعراب بين . وقرئ : تنزيل ، بالرفع على خبر مبتدأ محذوف . ما بعد (تنزيلا) إلى قوله (له الاسماء الحسنى) تعظيم وتفخيم لشأن المنزل ، لنسبته إلى من هذه أفعاله وصفاته . ولا يخلو من أن يكون متعلقة إما (تنزيلا) نفسه فيقع صلة له . وإما محذوفا فيقع صفة له . فإن قلت : ما فائدة النقلة من لفظ المتكلم إلى لفظ الغائب ؟ قلت : غير واحدة منها عادة الافتتان فى الكلام وما يعطيه من الحسن والروعة . ومنها أن هذه الصفات إنما تسردت مع لفظ الغيبة . ومنها أنه قال أولا (أنزلنا) ففخم بالإسناد إلى ضمير الواحد المطاع . ثم نثى بالنسبة إلى المختص بصفات العظمة والتجيد فضوعفت الفخامة من طريقين : ويجوز أن يكون (أنزلنا) حكاية لكلام جبريل والملائكة النازلين معه . وصف السموات بالعلی : دلالة على عظم قدرة من يخلق مثلها فى علوها وبعد مرتقاها .

الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۝ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا

يَبْنِيهِمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ۝ ٦

قرئ (الرحمن) مجرورا صفة لمن خلق والرفع أحسن ، لأنه إما أن يكون رفعا على المدح على تقدير : هو الرحمن . وإما أن يكون مبتدأ مشارا بلامه إلى من خلق . فإن قلت : الجملة التى هى

(١) قال محمد : « ويحتمل أن يكون المعنى إنا أنزلنا عليك القرآن لتحتمل ... الخ » قال أحمد : وفى هذا الوجه الثانى بعد ، فإن فيه إثبات كون الشقاء سببا فى نزوله عكس الأول وإن لم تكن اللام سببية فكانت للصيغة مثلا ولم يكن فيه ما جرت عادة الله تعالى به مع نبيه صلى الله عليه وسلم من نبيه عن الشقاء والحزن عليهم وضيق الصدر بهم ، وكان مضمون هذه الآية متباينا عن قوله تعالى (فلا يكن فى صدرك حرج) ، (فاعلمك باخع نفسك على آثارهم) و (لا يجرئك الذين يمارعون فى الكفر) وأمثاله كثيرة فالظاهر والله أعلم هو التأويل الأول

(على العرش استوى) ما علها - إذا جررت الرحمن أوقفته على المدح ؟ قلت : إذا جررت فهي خبر مبتدأ محذوف لا غير وإن رفعت جاز أن تكون كذلك وأن تكون مع الرحمن خبرين للبتدأ . لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يردف الملك ، جعلوه كناية عن الملك فقالوا : استوى فلان على العرش يريدون ملك وإن لم يقعد على السرير البتة ، وقالوه أيضا لشهرته في ذلك المعنى ومساواته ملك في مؤذاه وإن كان أشرح وأبسط وأدل على صورة الأمر . ونحوه قولك : يد فلان مبسوطة ، ويد فلان مغولة ، بمعنى أنه جواد أو بخيل ، لافرق بين العبارتين إلا فيما قلت ، حتى أن من لم يبسط يده قط بالنوال أولم تكن له يدرأسا قيل فيه يده مبسوطة لمساواته عندهم قولهم : هو جواد . ومنه قول الله عز وجل (وقالت اليهود يد الله مغولة) أى هو بخيل ، (بل يداه مبسوطتان) أى هو جواد ، من غير تصوّر يد ولا غل ولا بسط ، والتفسير بالنعمة والتحمل للتثنية من ضيق العطن والمسافرة عن علم البيان مسيرة أعوام (وما تحت الثرى) ماتحت سبع الارضين : عن محمد بن كعب وعن السدى : هو الصخرة التي تحت الارض السابعة .

وَإِنْ تَجَهَّرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾

أى يعلم ما أسررت به إلى غيرك وأخفى من ذلك ، وهو ما أخطرته ببالك ، أو ما أسررت به نفسك (وأخفى) منه وهو ما أسرته فيها . وعن بعضهم : أن أخفى فعل (١) يعنى أنه يعلم أسرار العباد وأخفى عنهم ما يعمله ، هو كقوله تعالى (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما) وليس بذلك . فإن قلت كيف طابق الجزاء الشرط ؟ قلت : معناه وإن تجهر بذكر الله من دعاء أو غيره فاعلم أنه غنى عن جهرك ، فإما أن يكون نهيا عن الجهر كقوله تعالى (واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول) وإما تعليل للعباد أن الجهر ليس لإسماع الله وإنما هو لغرض آخر (الحسنى) تأنيث الأحسن ، وصفت بها الأسماء لأن حكما حكم المؤنث

(١) قال مجاهد : د هو أفعل التفضيل ، ومنهم من قال إن أخفى فعل ماض ... الخ ، قال أحد : لا يخفى أن جملة فعلا قاصر لفظا ومعنى : أما لفظا فانه يلزم منه عطف الجملة الفعلية على الاسمية إن كان المعطوف عليه الجملة الكبرى ، أو عطف الماضى على المضارع إن كان المعطوف عليه الصغرى ، وكلاهما دون الأحسن . وأما معنى ، فإن المقصود الحذف على ترك الجهر باسقاط فائدته من حيث أن الله تعالى يعلم السر وما هو أخفى منه ، فكيف يبقى للجهر فائدة وكلاهما على هذا التأويل مناسب لترك الجهر . وأما إذا جعل جملا فعلا فيخرج عن مقصود السياق وإن اشتمل على فائدة أخرى ، وليس هذا كقوله تعالى (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما) لأن بين السياتين اختلافا ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

كقولك : الجماعة الحسنى ، ومثلها (مأرب أخرى) ، و (من آياتنا الكبرى) . والذى فضلت به أسماؤه فى الحسن سائر الأسماء : دلالتها على معاني التقديس والتمجيد والتعظيم والربوبية ، والأفعال التى هى الهاية فى الحسن .

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۖ (١) إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي

عَاسَتْ نَارًا ۚ لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَىٰ النَّارِ ۖ هُدًى (١٠)

قفاه بقصة موسى عليه السلام ليتأسى به فى تحمل أعباء النبوة وتكاليف الرسالة والصبر على مقاساة الشدائد ، حتى ينال عند الله الفوز والمقام المحمود . يجوز أن ينتصب (إذ) ظرفاً للحديث ، لأنه حدث . أو لمضمر ، أى : حين (رأى نارا) كان كبت وكيت . أو مفعولاً لا ذكر استأذن موسى شعبياً عليهما السلام فى الخروج إلى أمه وخرج بأهله ، فولد له فى الطريق ابن فى ليلة شامية مظلمة مثلجة ، وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته ولاماء عنده ، وقدح فصلد زنده^(١) فرأى النار عند ذلك . قيل : كانت ليلة جمعة . (امكثوا) أقيموا فى مكانكم . الإيناس : الإبصار البين الذى لاشبهه فيه ، ومنه إنسان العين لأنه يتبين به الشيء ، والإنس : لظهورهم ، كما قيل الجن لاستتارهم وقيل هو إبصار ما يؤنس به . لما وجد منه الإيناس فكان مقطوعاً متيقناً ، حققه لهم بكلمة « إن » ليوطن أنفسهم . ولما كان الإتيان بالقبس ووجود الهدى مترقين متوقعين ، بنى الأمر فيهما على الرجاء والطمع وقال (لعل) ولم يقطع فيقول : إني (آتيكم) لتلايد ما ليس بمستيقن الوفاء به . القبس : النار المقتبسة فى رأس عود أو فتيلة أو غيرها . ومنه قيل : المقبسة ، لما يقبس فيه من سعة أو نحوها (هدى) أى قوما يهدونى الطريق أو ينفعونى بهداهم فى أبواب الدين ، عن مجاهد وقتادة ؛ وذلك لأن أفكار الأبرار مغمورة بالهمة الدينية فى جميع أحوالهم لا يشغلهم عنها شاغل . والمعنى : ذوى هدى . أو إذا وجد الهداة فقد وجد الهدى . ومعنى الاستعلام (على النار) أن أهل النار يستعلون المكان القريب منها ، كما قال سبيويه فى مررت بنيد : أنه لصوق بمكان يقرب من زيد . أو لأن المصطلين بها والمستمتعين بها إذا تكنفوها قياماً وقعوداً كانوا مشرفين عليها . ومنه قول الأعشى :

• وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّسْدَى وَالْمَحَلَقُ • (٢)

(١) قوله « فصلد زنده » فى الصحاح « صلد الزند » إذا صوت ولم يخرج نارا . (ع)

(٢) لعمري لقد لاحظت عيون كثيرة إلى ضوء نار فى بفاع يحرق

نفس لمقرورين مصطليانها وبات على النار الندى والمخلق

رضيى لبان ندى أم تقاسما بأهم داج عوض لا تفرق

للأعشى يمدح المخلق - بكسر اللام - سمي بذلك لأن بعيره عضه فى وجهه فبق أثر العضة مثل الحلقة ، وهو من بنى =

فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ بِمُوسَىٰ ⑪ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلُكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ
الْمُقَدَّسِ طُوًى ⑫ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ⑬ إِنِّي أَنَا اللَّهُ
لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ⑭

قرأ أبو عمرو وابن كثير (أني) بالفتح ، أي : نودي بأني (أنا ربك) وكسر الباقون ، أي :
نودي فقيل ياموسى . أو لأن النداء ضرب من القول فعومل معاملته . تكرير الضمير في (إني
أنا ربك) لتوكيد الدلالة وتحقيق المعرفة وإمالة الشبهة . روى أنه لما نودي (ياموسى) قال :
من المتكلم ؟ فقال له الله عز وجل : (إني أنا ربك) ، وأن إبليس وسوس إليه فقال : لعلك
تسمع كلام شيطان . فقال : أنا عرفت أنه كلام الله بأني أسمع من جميع جهات الست ، وأسمعه
بجميع أعضائي . وروى أنه حين انتهى رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها كأنها نار
بيضاء تنقد ^(١) ، وسمع تسييح الملائكة ، ورأى نوراً عظيماً غاف وبهت ، فألقيت عليه السكينة
ثم نودي . وكانت الشجرة عوسجة . وروى : كلما دنا أو بعد لم يختلف ما كان يسمع من الصوت .
وعن ابن إسحق : لما دنا استأخرت عنه ، فلما رأى ذلك رجع وأوجس في نفسه خيفة ، فلما
أراد الرجعة دنت منه ، ثم كلم . قيل : أمر بخلع النعلين لأنهما كانتا من جلد حمار ميت غير

عكاظ ، كان فقيراً وله عشر بنات لا يرغب فيهن أحد لفقرهن ، فأنزل بهن إلى بعض المهامه فنزل به الأعشى فصر
له نافته ولم يكن عنده غيرها وأحسن قراءه . فعظم عند الأعشى ، فلما أصبح واستوى على راحته قال له : ألك حاجة ؟
قال : نعم ، أن تسير بذكري في بني عكاظ ، لعل أحدا يرغب في باقى فقد سهرت النفس . فدحه في عكاظ فلم يلبث
حتى خطبت بناته . ولاحث : لحت ونشرفت . واليفاع : المشرف من الأرض . يخرق : أى يخرق ذلك الضوء
وينتشر في الأرض . ويروى : يخرق ، بالحاء المهملة . والضفير النار . وتشب : مبنى للجھول ، يقال : شببت
الدار أشبها شبا وشبوبا : أرقدها . والمقروران : اللذان أصابهما القراى البرد ، وأراد بهما الندى والمخلق ، يعنى
أنه هو وكرمه ملازمان لنار القرى ملازمة المقرور لنار التدفؤ . وبين ذلك بقوله : وبات على النار الندى والمخلق .
ويجوز أن الأعشى أراد نفسه والمخلق ، لكن الأول أوقع في المدح . ومعنى كونهما عليهما : أنهما على جانبيهما ولأن
الندى يكون أعلى منها بحيث يد يد فوقها . وعطف المخلق على الندى دلالة على أنهما متلازمان متقارنان ، وبين
ذلك بقوله : رضيعى لبان . وهو حال منهما ، شبههما بالتوامين دلالة على غاية التلازم حتى فى الرحم بل وقبله .
واللبان : لبن المرأة خاصة ، وهو مضاف إلى ندى أم . وتنويناها للأفراد وإضافته ؛ لأنه منه . ويجوز تنوينه ،
ندى : بدل منه . والأعجم : الأسود الداجى المظلم ، أى تحالفا كما هو رواية أيضا فى ليل مظلم . أو فى الرحم المظلم .
وعوض : ظرف مستقبل ، نصب بما بعده . لا تتفرق : جواب التحالف ، وكفى بذلك كله عن شدة التلازم بينه
وبين الكرم .

(١) قوله : كأنها نار بيضاء تنقد ... الخ ، عبارة الخازن «أطافت بها نار ... الخ» ، وعبارة النسبى بدل قوله
«رأى شجرة ... الخ» : «وجد ناراً بيضاء تنقد فى شجرة خضراء من أعلاها إلى أسفلها وكانت شجرة التناوب
أو العوسج . (ع)

مدبوغ^(١) عن السدى وقتادة . وقيل : ليباشر الوادى بقدميه متبركا به . وقيل : لأن الحفوة تواضع لله ، ومن ثم طاف السلف بالكعبة حافين ، ومنهم من استعظم دخول المسجد بنعليه ، وكان إذا نذر منه الدخول منتعلا تصدق ، والقرآن يدل على أن ذلك احترام للبقعة وتعظيم لها وتشريف لقدسها . وروى أنه خلع نعليه وألقاهما من وراء الوادى (طوى) بالضم والكسر . منصرف وغير منصرف بتأويل المكان والبقعة . وقيل : مرتين ، نحو ثنى^(٢) ، أى نودى نداين أو قدس الوادى كرة بعد كرة (وأنا اخترتك) اصطفتيك للنبوّة . وقرأ حمزة : وإنا اخترناك . (لما يوحى) للذى يوحى . أو للوحى . تعلق اللام باستمع ، أو باخترتك (لذكرى) لذكرنى فإن ذكرى أن أعبد ويصلى لى . أو لتذكرنى فيها لاشتغال الصلاة على الأذكار عن مجاهد . أو : لأنى ذكرتها فى الكتب وأمرت بها . أو لأن أذكرك بالمدح والثناء وأجعل لك لسان صدق . أو لذكرى خاصة لا تشوبه بذكر غيرى أو لإخلاص ذكرى وطلب وجهى لا ترائى بها ولا تقصد بها غرضاً آخر . أو لتكون لى ذا كراً غير ناس فعل المخلصين فى جعلهم ذكر ربهم على بال منهم وتوكيلهمهم وأفكارهم به ، كما قال (لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) . أو لأوقات ذكرى وهى مواقيت الصلاة ، كقوله تعالى (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) واللام مثلها فى قولك : جئتكم لوقت كذا ، وكان ذلك لست لىال خلون . وقوله تعالى (يا ليتنى قدّمت لحياتى) وقد حمل على ذكر الصلاة بعد نسيانها من قوله عليه السلام ومن نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها^(٣) ، وكان حق العبارة أن يقال : لذكرها ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا ذكرها ، ومن يتمحل له يقول : إذا ذكر الصلاة فقد ذكر الله . أو بتقدير حذف المضاف ، أى : لذكر صلاتى . أو لأن الذكر والنسيان من الله عز وجل فى الحقيقة . وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : للذكرى .

إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِيُتْجَزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ۖ

(١) لم أره هكذا فى الترمذى والحاكم عن عبد الله بن مسعود رفعه « يوم كلم الله موسى كان عليه جبة صوفى ونعلان من جلد حمار ميت غير ذكى » .

(٢) قوله « وقيل مرتين نحو ثنى » فى الصحاح : وقال يعنى بعضهم فى قوله تعالى (بالوادى المقدس طوى) طوى مرتين ، أى قدس . وفيه أيضاً « الثنى » مقصور : الأمر يعاد مرتين اه ، فلعل أصل عبارته أيضاً : وقيل طوى مرتين يعنى قدس وطهر مرتين . وظاهر العبارة أن طوى مثل ثنى يعنى مرتين ، أى : نودى موسى مرتين ، أو قدس الوادى مرتين فهو منصوب بنودى أو بالمقدس . (ع)

(٣) متفق عليه من حديث أبى هريرة فى قصة النوم عن الصلاة . وفى آخره : من نسى صلاة فليصلها إذا ذكرها فإن الله تعالى قال (أقم الصلاة لذكرى) وفى رواية (للذكرى) وهو أيضاً متفق عليه من حديث أنس سرفوعاً بلفظ « من نسى صلاة أو نام عنها فكفارتها أن يصلها إذا ذكرها ، زاد البخارى فى رواية « أقم الصلاة لذكرى » .

أى أكاد أخفياً فلا أقول هى آية (١) لفرط إرادتى إخفاءها ؛ ولولا ما فى الإخبار بإتيانها مع تعمية وقتها من اللطف لما أخبرت به . وقيل : معناه أكاد أخفياً من نفسى ، ولا دليل فى الكلام على هذا المحذوف ، ومحذوف لا دليل عليه مطروح . والذى غرهم منه أن فى مصحف أبى : أكاد أخفياً من نفسى . وفى بعض المصاحف : أكاد أخفياً من نفسى فكيف أظهركم عليها وعن أبى الدرداء وسعيد بن جبير : أخفياً بالفتح ، من خفاه إذا أظهره ، أى : قرب إظهارها كقوله تعالى (اقتربت الساعة) وقد جاء فى بعض اللغات : أخفاء بمعنى خفاء . وبه فسر بيت امرئ القيس :

فَإِنْ تَدْفِنُوا الدَّاءَ لَا تُخْفِهِ وَإِنْ تَبْعَثُوا الْحَرْبَ لَا تَقْعِدُ (٢)
فأكاد أخفياً محتمل للمعنيين (لتجوز) متعلق بآية (بما تسمى) بسعيها .

فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَآتَبْلُغْ هَوَاهُ قَرَدَى (١٦)

أى : لا يصدك عن تصديقها والضمير للقيامه . ويجوز أن يكون للصلاة . فإن قلت : العبارة لنهى من لا يؤمن عن صد موسى ، والمقصود نهى موسى عن التكذيب بالبعث أو أمره بالتصديق فكيف صلحت هذه العبارة لأداء هذا المقصود ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن صد الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب . فذكر السبب ليدل على المسبب . والثانى أن صد الكافر مسبب عن رخاوة الرجل فى الدين ولين شكيمته ، فذكر المسبب ليدل على السبب ، كقولهم : لا أرينك ههنا ، المراد نهيه عن مشاهدته والكون بحضرته ، وذلك سبب رؤيته إياه . فكان ذكر المسبب دليلاً على السبب ، كأنه قيل : فكأن شديد الشكيمة صليب المعجم (٣) ، حتى لا يتلوح منك لمن يكفر بالبعث أنه يطمع فى صدك عما أنت عليه ، يعنى : أن من لا يؤمن بالآخرة هم الجمل الغفير

(١) قال محمود : « معناه قاربت أن لا أقول هى آية ... الخ » قال أحد : ولا يفتح فى رد هذا التأويل بالهونا ، فإنه بين الفساد ، وذلك أن إخفاءها عن الله تعالى محال عقلاً ، فكيف يؤمر بالتحال العقل بقرب الوقوع . وأحسن ما فى حامل الآية ما ذكره الأستاذ أبو على حيث قال : المراد أكاد أزيل خفاءها ، أى : أظهرها ، إذ الخفاء الغطاء ، وهو أيضاً ما جمعه المرأة فوق ثيابها يستترها ، ثم تقول العرب : أخفيت به ، إذا أزلت خفاءه ، كما تقول أشكيت به وأعتيته ، إذا أزلت شكايته وعتبه ، وحينئذ يلتم القراءتان : أنه فتح الهزمة وضما ، والله سبحانه وتعالى أعلم .
(٢) يقال : خفاء ، إذا كتمه . وخفاء أيضاً : أظهره ، وما هنا منه . والمعنى : إن تكتموا الضغائن التى بيننا نكتمها نحن أيضاً ولا نظهرها . شبه الضغينة والعداوة بالداء بجامع نشأة الضرر عن كل على طريق التصريح بجملة . وشبه الحرب بحىوان على طريق المكنية ، والبعث تخييل . أو استعمل البعث فى التسبب مجازاً مرسلأ أو استعارة تصريحية . والمعنى : وإن تظهروا البغضاء وتوقدوا الهيجاء تغلبكم كما تغلبون منا .
(٣) قوله « صليب المعجم » فى الصحاح معجمت العود : إذا عضضته لتعلم صلابته من خوره . ورجل صلب المعجم : إذا كان عزيز النفس . (ع)

إذ لا شيء أظلم على الكفرة ولا هم أشد له نكيراً من البعث ، فلا يهولنك وفور دهمائهم ولا عظم سوادهم ، ولا تجعل الكثرة مزلة قدمك ، واعلم أنهم وإن كثروا تلك الكثرة فقدوتهم فيما هم فيه هو الهوى واتباعه ، لا البرهان وتدبره . وفي هذا حث عظيم على العمل بالدليل ، وزجر بليغ عن التقليد ، وإنذار بأن الهلاك والردى مع التقليد وأهله .

وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأُهْشِئُ

بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾

(وما تلك يمينك يا موسى) كقوله تعالى (وهذا بعلى شيخا) في انتصاب الحال بمعنى الإشارة : ويجوز أن تكون (تلك) اسماً موصولاً صلته (يمينك) إنما سأله ليريه عظم ما اخترعه عز وعلا في الحشبة اليابسة من قلبها حية نضاضة^(١) وليقرر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه ، وينبهه على قدرته الباهرة . ونظيره أن يريك الزراد ذبرة من حديد ويقول لك : ما هي ؟ فنقول : ذبرة حديد ، ثم يريك بعد أيام لبوساً مسرداً فيقول لك : هي تلك الذبرة صيرتها إلى ما ترى من عجيب الصنعة وأنيق السرد . قرأ ابن أبي إسحق : عصى ، على لغة هذيل . ومثله (يا بشرى) أرادوا كسر ما قبل ياء المتكلم فلم يتقدروا عليه . فقلبوا الالف إلى أخت الكسرة وقرأ الحسن (عصاى) بكسر الياء لالتقاء الساكنين ، وهو مثل قراءة حمزة (بمصرخى) وعن ابن أبي إسحق : سكنون الياء (أتوكأ عليها) أعتمد عليها إذا أعيت أو وقفت على رأس القطيع وعند الطفرة^(٢) . هش الورق : خبطه . أى : أخبطه على رؤس غنمى تأكله . وعن لقمان ابن عاد : أكلت حقاً وابن لبون وجذع . وهشة نخب وسيلاد دفع ، والحمد لله من غير شيع ، سمعته من غير واحد من العرب . ونخب : واد قريب من الطائف كثير السدر . وفي قراءة النخعى : أهش ، وكلاهما من هش الخبز بهش : إذا كان ينكسر لهشاشته . وعن عكرمة : أهس بالسين ، أى : أنحى عليها زاجراً لها . والهس : زجر الغنم . ذكر على التفصيل والإجمال المنافع المتعلقة بالعصا ، كأنه أحس بما يعقب هذا السؤال من أمر عظيم يحده الله تعالى فقال : ما هي إلا عصا لا تنفع إلا منافع بنات جنسها وكما تنفع العبدان ، ليكون جوابه مطابقاً للغرض الذى فهمه من لحوى كلام ربه . ويجوز أن يريد عز وجل أن يعدد المرافق الكثيرة التى علقها بالعصا ويستكثرها ويستعظمها ، ثم يريه على عقب ذلك الآية العظيمة . كأنه يقول له : أين أنت عن هذه المنفعة العظمى والمأربة الكبرى المنسية عندها كل منفعة ومأربة كنت تعتد بها وتحفل

(١) قوله «حية نضاضة» أى تحرك لسانها فى فمها . أفاده المصاح . (ع)

(٢) قوله «الطفرة» أى الوثبة . (ع)

بشأنها ، وقالوا : إنما سألناه ليبسط منه ويقل هيئته . وقالوا : إنما أجمل موسى ليسأله عن تلك المآرب فيزيد في إكرامه ، وقالوا : انقطع لسانه بالهيبه فأجمل ، وقالوا : اسم العصا نبعة . وقيل في المآرب : كانت ذات شعبتين ومحجن ، فإذا طال الغصن حناه بالمحجن ، وإذا طلب كسره لواه بالشعبتين ، وإذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته من القوس والكسنة والحلاب وغيرها ، وإذا كان في البرية ركزها وعرض الزندين^(١) على شعبتيها وألقى عليها الكساء واستظل وإذا قصر رشاؤه وصله بها ، وكان يقاتل بها السباع عن غنمه . وقيل : كان فيها من المعجزات أنه كان يستقي بها فتطول بطول البئر وتصير شعبتها دلوأ ، وتكونان شمتين بالليل ، وإذا ظهر عدو حارب عنه ، وإذا اشتهى ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت ، وكان يحمل عليها زاده وسقاه فجعلت تماشيه ، ويركزها فينبع الماء ، فإذا رفعها نضب ، وكانت تقيه الهوام .

قَالَ أَلْقِهَا يَحْمُومِي^(١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حِمَّةٌ تَسْمَى^(٢٠)

السعي : المشى بسرعة وخفة حركة . فإن قلت : كيف ذكرت بألفاظ مختلفة : بالحية ، والجان ، والثعبان ؟ قلت : أما الحية فاسم جنس يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير . وأما الثعبان والجان فينبهما تناف ؛ لأن الثعبان العظيم من الحيات ، والجان الدقيق . وفي ذلك وجهان : أحدهما أنها كانت وقت انقلابها حيه تنقلب حية صفراء دقيقة ، ثم تنوزم ويتزايد جرمها حتى تصير ثعبانا ، فأريد بالجان أول حالها ، وبالثعبان مآلها . الثاني : أنها كانت في شخص الثعبان وسرعة حركة الجان . والدليل عليه قوله تعالى : فلما رآها تهتز كأنها جان . وقيل كان لها عرف كعرف الفرس . وقيل كان بين لحيتها أربعون ذراعا .

قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى^(٢١)

لما رأى ذلك الأمر العجيب الهائل ملكه من الفزع والنفاز ما يملك البشر عند الأهوال والمخاوف . وعن ابن عباس : انقلب ثعبانا ذكرأ يبتلع الصخر والشجر ، فلما رآه يبتلع كل شيء خاف ونفر . وعن بعضهم : إنما خافها لأنه عرف مآلتي آدم منها . وقيل : لما قال له ربه ﴿ لا تخف ﴾ بلغ من ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه أن أدخل يده في فمها وأخذ بلعجها . السيرة من السير : كالركبة من الركوب . يقال : سار فلان سيرة حسنة ، ثم اتسع فيها فنقلت إلى معنى المذهب والطريقة . وقيل : سير الأولين ، فيجوز أن ينتصب على الظرف ، أى : سنعيد لها في طريقها الأولى ، أى : في حال ما كانت عصا ، وأن يكون . أعاد ، منقولاً من وعاده ، بمعنى عاد

(١) قوله « عرض الزندين » في الصحاح « الزند ، العود الذي يقدح به النار وهو الأعلى والزند السفلى فيها ثقب وهي الأنثى فإذا اجتمعا قبل زندان ولم يقل زندنان ، والجمع زندان وأزند وأزند . (ح)

إليه . ومنه بيت زهير :

* وَعَادَكَ أَنْ تُتْلَقَ بِهَا عِدَاءٌ * (١)

فيتعدى إلى مفعولين . ووجه ثالث حسن : وهو أن يكون (سعيدها) مستقلا بنفسه غير متعلق بسيرتها ، بمعنى أنها أنشئت أول ما أنشئت عصا ، ثم ذهب وبطلت بالقلب حية ، فسعيدها بعد ذهابها كما أنشأناها أولا . ونصب سيرتها بفعل مضمر ، أى : تسير سيرتها الأولى : يعنى سعيدها سائرة سيرتها الأولى حيث كنت تتوكأ عليها ولك فيها المأرب التى عرفتها .

وَأَضْمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَى (٢٢)

لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣)

قيل لكل ناحيتين : جناحان ، كجناحى العسكر لمجنبيه ، وجناحا الإنسان : جنباه ، والاصل المستعار منه جناحا الطائر . سيما جناحين لأنه يجنحهما عند الطيران . والمراد إلى جنبك تحت العضد ، دل على ذلك قوله (تخرج) . السوء : الرداءة والقبج فى كل شيء ، فكفى به عن البرص كما كفى عن العورة بالسوءة ، وكان جذيمة صاحب الزباء (٣) أبرص فكنوا عنه بالأبرش (٤) والبرص أبغض شيء إلى العرب ، وبهم عنه نفرة عظيمة ، وأسماعهم لاسمه بحاجة ، فكان جديراً بأن يكفى عنه ، ولا ترى أحسن ولا أطف ولا أحرز للفاصل من كنايات القرآن وآذابه . يروى أنه كان آدم فأخرج يده من مدرعته بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس يعشى البصر . (بيضاء) و (آية) حالان معاً . و (من غير سوء) من صلة لبيضاء ، كما تقول ابيضت من غير سوء . وفى نصب (آية) وجه آخر . وهو أن يكون بإضمار نحو : خذ ، ودونك ، وما أشبه

(١) نصرم حبلاً إذ صرمته وعادك أن تلاقها عدا.

لزهير . أى : اقطع مودتها حيث قطعت مودتك ، شبه المودة بالحبل على طريق الاستعارة التصريحية ، والتصميم ترشيع وتقوية للتشبيه . وعادك : يحتمل أنه من عاد إذا رجع ، فالمعنى : رجعت وردك ، يحتمل أنه مقلوب من عداه إذا صرفه ، كما فى «ناه» مقلوب «نأى» فالمعنى صرفك . قال أبو عبيد : وعادك بمعنى شللك . وقال الأصمى : بمعنى : عاد إليك ، وبمعنى صرفك . ومن المعلوم أن الفعل إذا كان لازماً تعدى بالهمزة إلى المفعول قياساً . وإذا تعدى بنفسه إلى مفعول واحد تعدى بدخول الهمزة عليه إلى مفعولين . واختلف هل هو قياس أو سماعى ؟ وأعاد منه ، فيجرى فيه ما ذكر . وأمانعديه إلى أن تلاقها أيضا فهو باسقاط الخافض توسعاً . والعداء : الشغل أو البعد . ويطلق على الجور ، من عدا عليه . قال الجوهري : العداء - بالفتح - الظلم ، وبجور كسره بمعنى المانع ، لأن العداء هو ما يعدى به أى يصرف به . كالإلاذلة بلاذبه . والرباط لما يربط به . والمعنى : اقطع مودتها حيث قطعت مودتك ، وصرفك عن ملاقاتها صارف عظيم ، ونسبة الصرف إليه مجاز عقلى من قبيل الاستدلال السبب أو الآلة . ويحتمل أن أصله «عداء بالكسر والفعر جمع عدو . فد للضرورة ، أى : منعك الأعداء عن لقائهم فالاستدقاق (٢) قوله ، وكان جذيمة صاحب الزباء ، جذيمة ملك الحيرة والزباء ملكة الجزيرة كذا فى الصحاح . (ع) (٣) قوله «فكنوا عنه بالأبرش» فى الصحاح البرش فى الفرس نقط صفار تخالف سائر لونه والفرس أبرش . (ع)

ذلك ، حذف لدلالة الكلام ، وقد تعلق بهذا المحذوف ﴿لنريك﴾ أى خذ هذه الآية أيضاً بعد قلب العصا حية لنريك بهاتين الآيتين بعض آياتنا الكبرى . أو لنريك بهما الكبرى من آياتنا . أو لنريك من آياتنا الكبرى فعلنا ذلك .

أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ٢٤ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ٢٥
وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي ٢٦ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ٢٧ يَفْقَهُوا قَوْلِي ٢٨ وَاجْعَلْ لِي
وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِي ٢٩ هَارُونَ أَخِي ٣٠ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ٣١ وَأَشْرِكْهُ
فِي أَمْرِي ٣٢ كَيْ تَسْبَحَكَ كَثِيرًا ٣٣ وَتَذَكَّرَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ
كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ٣٥

لما أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغى لعنه الله عرف أنه كلف أمراً عظيماً وخطباً جسيماً يحتاج معه إلى احتمال مالا يحتمله إلا ذو جأش ^(١) رابط وصدر فسيح ، فاستوهب ربه أن يشرح صدره ويفسح قلبه ، ويجعله حليماً حولاً يستقبل ما عسى يرد عليه من الشدائد التي يذهب معها صبر الصابر بحميل الصبر وحسن الثبات ، وأن يسهل عليه في الجملة أمره الذي هو خلافة الله في أرضه وما يصحبها من مزاولة معازم الشؤن ومقاساة جلائل الخطوب . فإن قلت : (لى) في قوله ﴿اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى﴾ ما جدواه ^(٢) والكلام بدونه مستتب ^(٣) ؟ قلت : قد أبهم الكلام أولاً فليل : اشرح لى ويسر لى ، فعلم أن ثم مشروحا وميسراً ، ثم بين ورفع الإبهام بذكرهما ، فكان آكد لطلب الشرح والتيسير لصدره وأمره ، من أن يقول : اشرح صدرى ويسر أمرى على الإيضاح الساذج ، لأنه تكرير للمعنى الواحد من طريق الإجمال

(١) قوله «ذو جأش» في الصحاح يقال فلان رابط الجأش أى يربط نفسه عن الفرار لشجاعته . (ع)

(٢) قال محمود : «إن قلت ما فائدة لى والكلام مستتب بدونها .. الخ» قال أحمد : ويحتمل عندى والله أعلم أن تكون فائدتها الاعتراف بأن منفعة شرح الصدر راجعة إليه وعائدة عليه ، فإن الله عز وجل لا يتنفع بإرساله ولا يستعين بشرح صدره ، تعالى وتقدس ، على خلاف رسول الله ﷺ إذا طلب منه أن يرجع عليه فأنما يطلب منه ما يعود نفعه على مرهله ، ويحصل له غرضه من رسالته ، والله أعلم .

(٣) قوله «مستتب» في المصباح : استتب الأمر تيباً واستقام . (ع)

والتفصيل . عن ابن عباس : كان في لسانه رثة ^(١) لما روى من حديث الجرة . ^(٢) ويرى أن يده احترقت ، وأن فرعون اجتهد في علاجها فلم تبرا ، ولما دعاه قال : إلى أي رب تدعون ؟ قال : إلى الذي أبرأ يدي وقد عجزت عنها . وعن بعضهم : إنما لم تبرا يده لئلا يدخلها مع فرعون في قصعة واحدة فتعتقد بينهما حرمة المواكلة . واختلف في زوال العقدة بكالها فقليل : ذهب بعضها وبقي بعضها ، لقوله تعالى (وأخى هرون هو أفصح مني لسانا) وقوله تعالى (ولا يكاد يبين) وكان في لسان الحسين بن علي رضي الله عنهما رثة ^(٣) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ورثها من عمه موسى . وقيل : زالت بكالها لقوله تعالى (قد أوتيت سؤالك يا موسى) وفي تشكير العقدة - وإن لم يقل عقدة لسان - : أنه طلب حل بعضها (إرادة أن يفهم عنه فهما جيدا ، ولم يطلب الفصاحة الكاملة . و (من لسان) صفة للعقدة كأنه قيل : عقدة من عقد لسان .

الوزير من الوزر ، لأنه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنه . أو من الوزر ^(٤) ، لأن الملك يعتصم برأيه ويلجئ إليه أموره . أو من الموازنة وهي المعاونة . عن الأصمعي قال : وكان القياس أزيرا ، فقلبت الهمزة إلى الواو ، ووجه قلبها أن فعلا جاء في معنى مفاعل مجيئا صالحا ، كقولهم : عشير وجليس وقعيد و خليل وصديق ونديم ، فلما قلبت في أخيه قلبت فيه . وحمل الشيء على نظيره ليس بعزير ، ونظرا إلى يوازر وأخواته ، وإلى الموازنة . (وزيرا) و (هرون) مفعولا قوله (اجعل) قدم ثانيهما على أولهما عناية بأمر الوزارة . أو (لى وزيراً) مفعولاه ، وهرون عطف بيان للوزير . و (أخى) في الوجهين بدل من هرون ، وإن جعل عطف بيان آخر جاز وحسن . قرؤا جميعاً (اشدد) (وأشركه) على الدعاء . وابن عامر وحده : اشدد . وأشركه ، على الجواب .

(١) قوله وكان في لسانه رثة ، في الصحاح ، الرثة ، بالهم : للعجمة في الكلام . وحديث الجرة : أن موسى كان يلعب بين يدي فرعون ويده مضرب ، فعزب به رأسه ، ففضب وهم بقله ، فقالت له امرأته : إنه صبي لا يمقل وجربه إن شئت ، فجاءت بطشتين في أحدهما حجر وفي الآخر جوهرة ، فدحا موسى يده إلى الجوهر ، فحوها جبريل إلى الجرة فوضع جرة في فمها فاحترق لسانه . (ع)

(٢) لم أره هكذا ، وإنما وقع في حديث الثنوت الطويل الذي أخرجه الثناتى وغيره من طريق القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبيرة «سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله تعالى (وقتناك فتونا) - فذكره بطوله في أربع ورقات - فذكر فيه قصة آسية وفرعون . وقولها : قرب إليهم جرتين ولؤلؤتين وأنه أخذ الجرتين فأنزعتهما منه بخافة أن يحرقا يده . وهذا يدل على أنه لم يرفعهما إلى فيه . وهو أصح ماورد في ذلك . وروى الحاكم من طريق وهب بن منبه فذكر قصة وفيها قالت : جربه . إن شئت اجعل في هذا جرة ودعها فانظر أيهما يقبض . قال : فأخذ الجرة وألقاها في فيه ثم فذقا حين وجد حرارتها » ويقال : إن العقدة التي كانت في لسان موسى من أثر تلك الجرة التي ألقاها .

(٣) لم أجده .

(٤) قوله الوزير من الوزر ، أي الثقل . وقوله أو من الوزر ، أي الملجأ . أفاده الصحاح . (ع)

وفي مصحف ابن مسعود: أخى واشدد. وعن أبي بن كعب: أشركه في أمرى، واشدده أزرى. ويجوز فيمن قرأ على لفظ الأمر: أن يجعل (أخى) مرفوعاً على الابتداء: (و) (اشدده) خبره، ويوقف على (هارون). الأزر: القوة. وأزره: قواه، أى: اجعله شريكى فى الرسالة حتى تتعاون على عبادتك وذكرك، فإن التعاون - لأنه مهيج الرغبات - يتزايد به الخير ويتكاثر (إنك كنت بنا بصيراً) أى علماً بأحوالنا وبأن التعاضد ما يصلحنا، وأن هرون نعم المعين والشاذ لبعضدى، بأنه أكبر منى سنا وأفصح لساناً.

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ٣٦

السؤال: الطلبة، فعل بمعنى مفعول، كقولك: خبز، بمعنى مخبوز. وأكل، بمعنى مأكول.

وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىكَ مَرَّةً أُخْرَى ٣٧ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ٣٨
أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي
وَعَدُوٌّ لَهُ ٣٩ وَأَقْنِيتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ٣٩

الوحى إلى أم موسى: إما أن يكون على لسان نبي في وقتها، كقوله تعالى (ولما أوحيت إلى الحواريين) أو يبعث إليها ملكاً لا على وجه النبوة، كما بعث إلى مريم. أو يريها ذلك فى المنام فتنبه عليه. أو يلهمها كقوله تعالى (وأوحى ربك إلى النحل) أى أوحينا إليها أمراً لاسيلى إلى التوصل إليه ولا إلى العلم به إلا بالوحى، وفيه مصلحة دينية فوجب أن يوحى ولا يخل به، أى: هو مما يوحى لاحالة وهو أمر عظيم، مثله يحق بأن يوحى (أن) هى المفسرة لأن الوحى بمعنى القول. القذف مستعمل فى معنى الإلقاء والوضع. ومنه قوله تعالى (وقذف فى قلوبهم الرعب) وكذلك الرى قال:

* غَلَامٌ رَمَاهُ اللَّهُ بِالْحُسْنِ يَافِعًا * (١)

(١) رَأَى عَلَى مَابِى عَمِلَةً فَاشْتَكَى
وَلَمَّا رَأَى الْمَجْدَ اسْتَعِيرَ ثِيَابَهُ
غَلَامٌ رَمَاهُ اللَّهُ بِالْحُسْنِ يَافِعًا
كَانَ الثِّيَابَ عَلَقَتْ فَوْقَ نَحْرِهِ
إلى ماله حال فواسى وما هجر
تردى رداء سابع الذيل واتزر
له سمياء لاتشق على البصر
وفى أنفه الشعر وفى خده القمر

لأسيد بن عطاء الفزارى، كان من أكبر أهل زمانه وأعلمهم بالأدب، فطال به عمره ونكبته دهره، فلقبه عميلة الفزارى فسلم عليه وقال: ما أشارك ياعم إلى ما أرى؟ فقال: بخل مثلك بماله، وصور وجهى عن مسألة الناس. فقال: لئن بقيت إلى غد لأغيرن مابك، فلما كان وقت السحر سمع رغاء الأبل وصهيل الخيل تحت الأموال. فقال: =

أى حصل فيه الحسن ووضعه فيه ، والضمائر كلها راجعة إلى موسى . ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى التابوت : فيه هجئة ، لما يؤدى إليه من تنافر النظم . فإن قلت : المقذوف فى البحر هو التابوت ، وكذلك الملقى إلى الساحل . قلت : ما ضرك لو قلت : المقذوف والملقى هو موسى فى جوف التابوت ، حتى لا تفرق الضمائر فيتنافر عليك النظم الذى هو أم إعجاز القرآن ، والقانون الذى وقع عليه التحذير ، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر . لما كانت مشيئة الله تعالى وإرادته أن لا تخطئ جرية ماء اليم الوصول به إلى الساحل وألقاه إليه ، سلك فى ذلك سبيل المجاز ، وجعل اليم كأنه ذو تمييز ، أمر بذلك ليطيع الأمر ويمثل رسمه ، فقيل (فليقله اليم بالساحل) روى أنها جعلت فى التابوت قطعاً ملحوا ، فوضعت فيه وجصصته وقبرته ، ثم ألقته فى اليم وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر كبير ، فبينما هو جالس على رأس بركة مع آسية إذا بالتابوت ، فأمر به فأخرج ففتح ، فإذا سبى أصبح الناس وجهاً ، فأحبه عدو الله حباً شديداً لا يتألم أن يصبر عنه . وظاهر اللفظ أن البحر ألقاه بساحله وهو شاطئه ؛ لأن الماء يسحله أى يقشره وقذف به ثمة فالتقط من الساحل ، إلا أن يكون قد ألقاه اليم بموضع من الساحل فيه فوهة نهر فرعون ، ثم أداه النهر إلى حيث البركة (منى) لا يخلو إما أن يتعلق بألقيت ، فيكون المعنى على : أنى أحبيتك ومن أحبه الله أحبه القلوب . وإما أن يتعلق بمحذوف هو صفة لمحبة ، أى : محبة حاصلة أو واقعة منى ، قد ركزتها أنا فى القلوب وزرعتها فيها ، فلذلك أحبك فرعون وكل من أبصرك . روى أنه كانت على وجهه مسحة جمال ، وفى عينيه ملاحه ، لا يكاد يصبر عنه من رآه (على عيني) لترى ويحسن إليك وأنا مراعيك وراقبك . كما يراعى الرجل الشيء بعينه إذا اعتنى به ، وتقول للصانع : اصنع هذا على عيني أنظر إليك لتلا تخالف به عن مرادى وبغيتى . ولتصنع : معطوف على علة مضرة ، مثل : ليتعطف عليك وترأم^(١) ونحوه . أو حذف مفعله ، أى :

== ما هذا ؟ قالوا عيلة شطرماله بينك وبينه ، فأنفاً يقول ذلك . وشبه ماله بماقر على طريق المكينة . والشكوى إليه تخيل . وصير : واسى ، بمعنى أعطى لعملة . ويجوز أنه للسال . بناء على التفسير السابق . وثياب المجد مجاز من المكارم والاحسان على طريق التصرع ، واستعارتها ترشيح . ومعناه أخذها من أربابها ودعائها من أصحابها ، وذلك كله كناية عن محل ذوى الأموال . وسابغ الذيل : طوله . وأزور : لبس الأزار . ويقرباً بتشديد التاء . ويجوز فتحها مع همزة ساكنة قبلها على الأصل والمجاز كما تقدم . وذلك كناية عن كثرة جوده . ويجوز أن المعنى لما رأى الناس تقتصر بفخاخر غيرهم فقط صنع هو المكارم بنفسه لنفسه ، ورماه الله بالحسن : وضعه فيه بكثرة ، كأنه قد فقه فيه بغير حساب . والنافع : الصاب وهو حال . والسيمياء : العلامة لا تدق على البصر كناية عن ظهورها فلا تحتاج إلى تأمل ، كظهور الكواكب . والنحر : أعلى الصدر وأسفل العنق . والشعرا : نجم كثير الضوء . والبيت الثانى بيان للأول . وروى دجابه الله ، وروى دخلت فى جبينه ، وروى : دوفى جيده القمر ، وجباه : أعطاه . والجيد : اللعن ، وهذه الرواية أقدم .

(١) قوله وترأم ، أى تحب وتؤلف . أفاده الصحاح . (ع)

ولتصنع فعلك ذلك . وقرئ : ولتصنع ولتصنع ، بكسر اللام وسكونها . والجزم على أنه أمر .
وقرئ : ولتصنع ، بفتح التاء والنصب ، أى : وليكون عملك وتصرفك على عين منى .

إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ
كَئِیْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا
فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوَسَّىٰ ۖ (٤٠) وَأَصْلَحْنَاهُ
لِنَفْسِیْ (٤١)

العامل في ﴿إذ تمشي﴾ ^(١) (ألقيت) أو (تصنع) ويجوز أن يكون بدلا من (إذ أوحينا) .
فإن قلت : كيف يصح البدل والوقتان مختلفان متباعدان ؟ قلت : كما يصح - وإن اتسع الوقت
وتباعد طرفاه - أن يقول لك الرجل : لقيت فلانة كذا ، فنقول : وأنا لقيته إذ ذاك . وربما
لقيه هو في أولها وأنت في آخرها . يروى أن أخته واسمها مريم جاءت متعربة خبره ، فصادقهم يطلبون
له مرضعة يقبل ثديها ، وذلك أنه كان لا يقبل ثدي امرأة فقالت : هل أدلكم بخات بالأم فقبل ثديها .
ويروى أن آسية استوهبته من فرعون وتبينته ، وهى التى أشفقت عليه وطلبت له المراضع .

هى نفس القبطى الذى استغاثه عليه الإسرائيلى ، قتله وهو ابن اثنى عشرة سنة : اغتم
بسبب القتل خوفا من عقاب الله ومن اقتصاص فرعون ، فغفر الله له باستغفاره حين قال
(رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي) ونجاه من فرعون أن ينشب فيه أظفاره حين هاجر به إلى
مدین (فتونا) يجوز أن يكون مصدرا على فعول في المتعدي ، كالشور والشكور والكفور .
وجمع فتن أو فتنة ، على ترك الاعتداد بقاء التأنيث ، كحجوز وبدور ، في حجة وبدرة : أى
فتناك ضروبا من الفتن . سأل سعيد بن جبیر ابن عباس رضى الله عنه ، فقال : خلصناك من محنة
بعد محنة : ولد في عام كان يقتل فيه الولدان ، فهذه فتنة يا ابن جبیر . وألقته أمه في البحر . وهم
فرعون بقتله . وقتل قبطيا . وأجر نفسه عشر سنين . وضل الطريق وتفرقت غنمه في ليلة
مظلمة ، وكان يقول عند كل واحدة : فهذه فتنة يا ابن جبیر . والفتنة : المحنة ، وكل ما يشق على
الإنسان . وكل ما يبطل الله به عباده : فتنة . قال (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) . (مدین) على

(١) قال محمود : والعامل في ﴿إذ تمشي﴾ ألقى أو تصنع ... الخ قال أحد : والمعنى يوجب عمل (ولتصنع) فيه
لأن معنى صفيه على عين الله عز وجل : تربيته مكلوما بكمالاته مصونا بحفظه ، وزمان تربيته على هذه الحالة : هو
زمان رده إلى أمه المشقة الحثالة . وأما إلقاء المحبة عليه ، فنقل : ذلك أول ما أخذه فرعون وأحبه ، والله سبحانه
وتعالى أعلم .

ثماني مراحل من مصر . وعن وهب : أنه لبث عند شعيب ثمانياً وعشرين سنة ، منها مهر ابنته ، وقضى أوفى الأجلين . أى سبق في قضائي وقدرى أن أكلبك وأستنبلك ، وفي وامت بعينه قدوقته لذلك ، فما جئت إلا على ذلك القدر غير مستقدم ولا مستأخر . وقيل : على مقدار من الزمان يوحى فيه إلى الأنبياء ، وهورأس أربعين سنة . هذا تمثيل لما حوله من منزلة التقريب والتكريم والتكليم . مثل حاله بحال من يراه بعض الملوك لجوامع خصال فيه وخصائص ، أهلاً لئلا يكون أحد أقرب منزلة منه إليه ، ولا أطفح حلا . فيصطنعه بالكرامة والآثرة . ويستخلصه لنفسه . ولا يبصر ولا يسمع إلا بعينه وأذنه ، ولا يأتين على مكثون سره إلا سواء ضميره ^(١) .

أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنْفِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ

إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾

الوني . الفتور والتقصير . وقرئ : تنيا . بكسر حرف المضارعة للإتباع ، أى : لا تنسياني ولا أزال منك على ذكر حيثما تقابلنا ، واتخذنا ذكرى جناحا تصيران به مستمدين بذلك العون والتأييد مني ، معتقدين أن أمراً من الأمور لا يتمشى لأحد إلا بذكرى . ويجوز أن يريد بالذكر تبليغ الرسالة ، فإن الذكر يقع على سائر العبادات ، وتبليغ الرسالة من أجلها وأعظمها ، فكان جديراً بأن يطلق عليه اسم الذكر . روى أن الله تعالى أوحى إلى هرون وهو بمصر أن يتلقى موسى . وقيل : سمع عقبه . وقيل : أطم ذلك . قرئ ﴿لينا﴾ بالتخفيف والقول اللين . نحو قوله تعالى (هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فنخشى) لأن ظاهره الاستفهام والمشورة ، وعرض ما فيه من الفوز العظيم . وقيل : عداه شباباً لا يهرم بعده ، وملكا لا ينزع منه إلا بالموت ، وأن تبق له لذة المطعم والمشرب والمنسكح إلى حين موته . وقيل : لانتجها بما يكره ، وأطفاله في القول ^(٢) . لما له من حق تربية موسى ، ولما ثبت له من مثل حق الآثورة . وقيل : كنياه وهو من ذوى السكنى الثلاث : أبو العباس ، وأبو الوليد ، وأبو مرة . والترجى لهما ، أى : اذهبا على رجائكما وطمعكما . وباشرا الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه ، فهو يجتهد بطوقه ، ويحتشد ^(٣) بأقصى وسعه . وجدوى إرسالها إليه مع العلم بأنه لن يؤمن إلزام الحجة وقطع المذخرة (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلناك

(١) قوله «سواء ضميره» في الصحاح «سواء الشيء» : وسطه . (ع)

(٢) قوله «وقيل : لانتجها بما يكره» في الصحاح «جهته بالمكره» إذا استقبلته به ، وفيه «الطف في

العمل» الرقيق به . (ع)

(٣) قوله «ويحتشد بأقصى وسعه» أى يستمد ويتأهب . أفاده الصحاح . (ع)

إلينا رسولا فتتبع آياتك) أى : يتذكر ويتأمل فيبذل النصفة من نفسه والإذعان للحق ﴿أو يخشى﴾ أن يكون الأمر كما تصفان ، فيجزه إنكاره إلى الهلكة .

قَالَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ٤٥

فرط : سبق وتقدم . ومنه الفارط : الذى يتقدم الواردة . وفرس فرط : يسبق الخيل ، أى : نخاف أن يعجل علينا بالعقوبة ويبادرنا بها . وقرئ ﴿يفرط﴾ من أفرطه غيره إذا حمله على العجلة . خافا أن يحمله حامل على المعالجة بالعقاب ^(١) من شيطان ، أو من جبروته واستكباره وأذعائه الربوبية . أو من حبه الرياسة ، أو من قومه القبط المتمردين الذين حكى عنهم رب العزة (قال الملأ من قومه) (وقال الملأ من قومه) وقرئ : يفرط ، من الإفراط فى الأذية ، أى : نخاف أن يحول بيننا وبين تبليغ الرسالة بالمعالجة . أو يجاوز الحد فى معاقبتنا إن لم يعاجل ، بناء على ما عرفا وجزبا من شرارته وعتوه ﴿أو أن يطنى﴾ بالتخطى إلى أن يقول فيك ما لا ينبغي ، لجرأته عليك وقسوة قلبه . وفى المجىء به هكذا على الإطلاق وعلى سنبل الرمز : باب من حسن الأدب وتحاشى عن التفوه بالعظيمة .

قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ٤٧ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٤٨

﴿معكما﴾ أى حافظكما وناصركما ﴿أسمع وأرى﴾ مايجرى بينكما وبينه من قول وفعل ، فأفعل ما يوجب حفظى ونصرتى لكما ، لحائز أن يقدر أقوالكم وأفعالكم ، وجائز أن لا يقدر شيء . وكأنه قيل : أنا حافظ لكما وناصر سامع مبصر . وإذا كان الحافظ والناصر كذلك ، تم الحفظ وصحت النصرة ، وذهبت المبالاة بالعدو . كانت بنو إسرائيل فى ملكة فرعون والقبط ، يعذبونهم بتكليف الأعمال الصعبة : من الحفر والبناء ونقل الحجارة ، والسخره فى كل شيء ، مع قتل الولدان ، واستخدام النساء ﴿قد جئناك بآية من ربك﴾ جملة جارية من الجملة الأولى

(١) قال محمود : «مضى يفرط علينا يعجل بمقوبتنا ... الخ» قال أحمد : وإذا روعى فى الأدب إطلاق هذه اللفظة عن مجرورها ، فلا يبعد أن يراعى فى الأدب بالاعتراف بتقلد منه الله عز وجل زيادة المجرور فى قوله (أشرح لى صدرى) كما قدمته آنفا ، والله أعلم .

وهي (إنارسلوا ربك) مجرى البيان والتفسير؛ لأن دعوى الرسالة لا تثبت إلا ببينتها التي هي الحجى بالآية، وإنما وحد قوله (بآية) ولم يثن ومعه آيتان؛ لأن المراد في هذا الموضع تثبيت الدعوى ببرهانها، فكأنه قال: قد جئتكم بمعجزة وبرهان وحجة على ما ادعيناه من الرسالة، وكذلك (قد جئتكم ببينة من ربكم)، (فأت بآية إن كشت من الصادقين)، (أو لوجئتكم بشيء مبين) يريد: وسلام الملائكة الذين هم خزنة الجنة على المهتدين، وتوبيخ خزنة النار والعذاب على المكذبين.

قَالَ قَمْن رَبُّكُمْ بِمُوسَى ٥٩ قَالَ رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ

خَلَقَهُ ثُمَّ هَدَى ٥٠

خاطب الاثنين، ووجه النداء إلى أحدهما وهو موسى؛ لأنه الأصل في النبوة، وهرون وزيره وتابعه. ويحتمل أن يحمله خبثه ودعارته^(١) على استدعاء كلام موسى دون كلام أخيه، لما عرف من فصاحة هرون والرتة في لسان موسى. ويدل عليه قوله (أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين). ﴿خلقهُ﴾ أول مفعولي أعطى. أى: أعطى خليفته كل شيء يحتاجون إليه ويرتفعون به. أو ثانيهما، أى: أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به، كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع، وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان: كل واحد منها فطابق لما علق به من المنفعة، غير ناب عنه. أو أعطى كل حيوان نظيره في الخلق والصورة، حيث جعل الحصان والحجر^(٢) زوجين، والبعير والثاقة، والرجل والمرأة، فلم يزوج منها شيئاً غير جنسه وما هو على خلاف خلقه. وقرئ: خلقه، صفة للبضاف أو للبضاف إليه، أى: كل شيء خلقه الله لم يخله من عطائه وإنعامه ﴿ثم هدى﴾ أى عزف كيف يرتفق بما أعطى، وكيف يتوصل إليه. والله دَر هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه، وما أبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الإنصاف وكان طالباً للحق.

قَالَ قَمَّا بِالْأُولَى ٥١ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ

رَبِّي وَلَا يَنْسَى ٥٢ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا

وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ٥٣ كُلُوا وَارْعَوْا

أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ٥٤

(١) قوله «يحمله خبثه ودعارته» أى فساده وفسقه. (ع)

(٢) قوله «والحجر» بكسر الحاء وسكون الجيم: الأثني من الخيل: أم مصححه.

سأله عن حال من تقدم وخلا من القرون ، وعن شقاء من شق منهم وسعادة من سعد ، فأجابه بأن هذا سؤال عن الغيب ، وقد استأثر الله به لا يعلمه إلا هو ، وما أنا إلا عبد مثلك لا أعلم منه إلا ما أخبرني به علام الغيوب . وعلم أحوال القرون مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ ، لا يجوز على الله أن يخطئ شيئاً أو ينساه . يقال : ضللت الشيء إذا أخطأته في مكانه فلم تهتد له ، كقولك : ضللت الطريق والمنزل . وقرئ : يضل ، من أضله إذا ضيعه . وعن ابن عباس : لا يترك من كفر به حتى ينتقم منه ، ولا يترك من وحده حتى يجازيه . ويجوز أن يكون فرعون قد نازعه في إحاطة الله بكل شيء وتبينه لكل معلوم ، فتعنت وقال : ماتقول في سوائف القرون ، وتمادى كثرتهم ، وتباعد أطراف عددهم ، كيف أحاط بهم وبأجزائهم وجواهرهم ؟ فأجاب بأن كل كائن محبط به عليه ، وهو مثبت عنده في كتاب ، ولا يجوز عليه الخطأ والنسيان ، كما يجوز أن عليك أيها العبد الذليل والبشر الضئيل ، أى : لا يضل كما تضل أنت ، ولا ينسى كما تنسى يا مدعى الربوبية بالجهل والوقاحة (الذى جعل) مرفوع صفة لربى . أو خبر مبتدأ محذوف أو منصوب على المدح ، وهذا من مظانه ومجازه (مهذا) قراءة أهل الكوفة ، أى : مهدها مهداً . أو يتمهدونها فهي لهم كالمهد وهو ما يمد للصبي (وسلك) من قوله تعالى (ماسلككم في سقر) ، (سلكناه) ، (نسلكه في قلوب المجرمين) أى حصل لكم فيها سبلا ووسطها بين الجبال والأودية والبرارى (فأخرجنا) انتقل فيه من لفظ الغيبة إلى لفظ المتكلم المطاع ، لما ذكرت من الافتتان^(١) والايذان بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لأمره ، وتدعن الأجناس المتفاوتة لمشيئته ، لا يتمتع شيء على إرادته . ومثله قوله تعالى (وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء) ، (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها) ، (أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبثنا به حدائق ذات بهجة) وفيه تخصيص أيضاً بأننا نحن نقدر على مثل هذا ،

(١) قال محمد «هذا من باب الالتفات ... الخ» قال أحد : الالتفات إنما يكون في كلام المتكلم الواحد ، يصرف كلامه على وجوه شتى ، وما نحن فيه ليس من ذلك ؛ فاز الله تعالى حكى عن موسى عليه السلام قوله لفرعون (علها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى) ثم قوله (الذى جعل لكم الأرض مهذا) إلى قوله (فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى) إما أن يجعل من قول موسى فيكون من باب قول خواص الملك : أمرنا وهرنا ، وإنما يريدون الملك ، وليس هذا باللفتات . وإما أن يكون كلام موسى قد انتهى عند قوله (ولا ينسى) ثم ابتدأ الله تعالى وصف ذاته بصفات إنعامه على خلقه ، فليس الالتفاتاً أيضاً ، وإنما هو انتقل من حكاية إلى إنشاء خطاب ، وعلى هذا التأويل ينبغي للفقارى أن يقف وقفة عند قوله (ولا ينسى) ليستقر بانتهاء الحكاية . ويحتمل وجهاً آخر : وهو أن موسى وصف الله تعالى بهذه الصفات على لفظ الغيبة فقال (الذى جعل لكم الأرض مهذا وسلك لكم فيها سبلا) (وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجا من نبات شتى) فلما حكاها الله تعالى عنه أئند الضمير إلى ذاته ، لأن الحكاى هو المحكى في كلام موسى ، فرجع الضميرين واحد ، وهذا الوجه وجه حسن دقيق الحاشية ، وهذا أقرب الوجوه إلى الالتفات ، لكن العنشى لم يعنه ، والله أعلم .

ولا يدخل تحت قدرة أحد ﴿أزواجاً﴾ أصنافاً، سميت بذلك لأنها مزدوجة ومقترة بعضها مع بعض ﴿شقي﴾ صفة للأزواج، جمع شقيت، كمرضى ومرضى. ويجوز أن يكون صفة للنبات، والنبات مصدر سمي به النبات كما سمي بالنبت، فاستوى فيه الواحد والجمع، يعنى أنها شتى مختلفة النفع والطعم واللون والرائحة والشكل، بعضها يصلح للناس وبعضها للبهائم. قالوا: من نعمته عز وعلا أن أرزاق العباد إنما تحصل بعمل الأنعام، وقد جعل الله علفها بما يفضل عن حاجتهم ولا يقدر على أكله، أى قائلين ﴿كلوا وارعوا﴾ حال من الضمير في ﴿فأخرجنا﴾ المعنى: أخرجنا أصناف النبات أذن في الانتفاع بها، مبيحين أن تأكلوا بعضها وتعلفوا بعضها.

مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ٥٥

أراد مخلقهم من الأرض خلق أصلهم هو آدم عليه السلام منها. وقيل إن الملك لينطلق فيأخذ من تربة المكان الذى يدفن فيه فيبذرها على النطفة فيخلق من التراب والنطفة معاً. وأراد بإخراجهم منها أنه يولف أجزاءهم المتفرقة المختلطة بالتراب، ويردهم كما كانوا أحياء، ويخرجهم إلى المحشر (يوم يخرجون من الاجداث سراعا) عذد الله عليهم ما علق بالأرض من مراقهم، حيث جعلها لهم فراشاً ومهاداً يتقلبون عليها، وسوى لهم فيها مسالك يترددون فيها كيف شاؤوا، وأنبت فيها أصناف النبات التى منها أقواتهم وعلوفات بهائمهم، وهى أصلهم الذى منه تفرعوا، وأهمم التى منها ولدوا، ثم هى كفائهم إذا ماتوا^(١). ومن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تمسحوا بالأرض فإنها بكم بركة»^(٢).

وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ٥٦

﴿أريناه﴾ بصرناه أو عرفناه صحتها ويقناه بها. وإنما كذب لظلمه، كقوله تعالى (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) وقوله تعالى (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) وفى قوله تعالى ﴿آياتنا كلها﴾ وجهان، أحدهما: أن يحذى بهذا التعريف الإضافى حذو التعريف باللام لوقيل الآيات كلها، أعنى أنها كانت لا تعطى إلا لتعريف العهد، والإشارة إلى الآيات المعلومة التى هى تسع الآيات المختصة بموسى عليه السلام: العصا، واليد، وفلق البحر، والحجر، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وتلقى الجبل. والثانى: أن يكون موسى قد أراه آياته وعدده عليه ما أوتي به غيره من الأنبياء من آياتهم ومعجزاتهم، وهو نبى صادق لا فرق بين ما يخبر عنه وبين ما يشاهد به، فكذبها جميعاً ﴿وآبى﴾ أن يقبل شيئاً منها. وقيل:

(١) قوله «ثم هى كفائهم إذا ماتوا» أى موضعهم الذى يضمون فيه. أناده الصحاح. (ع)

(٢) أخرجه ابن أبى شيبة عن علية عن عوف عن ابن عثمان به مرسلًا. وأخرجه الطبراني فى الصغير من رواية

الغريبانى عن الثورى عن عوف. وصله بذكر سليمان قال ابن طاهر: المرسل أولى بالصواب.

فكذب الآيات وأبى قبول الحق .

قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴿٥٧﴾

يلوح من جيب قوله ﴿ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ ﴾ أن فرائضه كانت ترعد خوفا بما جاء به موسى عليه السلام ، لعلبه وإيقانه أنه على الحق ، وأن الحق لو أراد قود الجبال لانقادت وأن مثله لا يخذل ولا يقل ناصره ، وأنه غالبه على ملكه لاحالة . وقوله (بسحرك) تعلل وتخير وإلا فكيف يخفى عليه أن ساحرا لا يقدر أن يخرج ملكا مثله من أرضه ويغلبه على ملكه بالسحر .

فَلَسْنَا بِتِيْنِكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ نُحْيِي ﴿٥٩﴾

فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَعْدَهُ ثُمَّ أَنَّى ﴿٦٠﴾

لا يخلو الموعد في قوله ﴿فاجعل بيننا وبينك موعدا﴾ من أن يجعل زمانا أو مكانا أو مصدرا . فإن جعلته زمانا نظراً في أن قوله تعالى (موعدكم يوم الزينة) مطابق له ، لزملك شيثان أن يجعل الزمان مخلقا ، وأن يعضل عليك ناصب مكانا : وإن جعلته مكانا لقوله تعالى (مكانا سوى) لزملك ^(١) . أيضاً أن توقع الإخلاف على المكان ، وأن لا يطابق قوله (موعدكم يوم

(١) قال محمود : وإن جمعت موعداً الأول اسم مكان ليطابق قوله مكانا سوى لزملك ... الخ ، قال أحمد : وفي إعماله وقد وصف بقوله (لا تخلفه) بعد ، إلا أن تجعل الجملة معترضة ، فهو مع ذلك لا يخلو من بعد ، من حيث أن وقوع الجملة عقب التكرار بجزءها ، الشأن أن تكون صفة ، والله أعلم . ويحتمل عندي وجه آخر أخصروا سلم ، وهو أن يجعل موعداً اسم مكان ليطابق مكانا ، ويكون بدلا منه ، وبطابق الجواب بالزمان بالتقرير الذي ذكره ، ويبقى عود الضمير ، فتقول : هو والحالة هذه عائد على المصدر المفهوم من اسم المكان : لأن حرفه فيه . والموعد إذا كان اسم مكان لمخاضه مكان وعد ، كما إذا كان اسم زمان لمخاضه زمان وعد . وإذا جاز رجوع الضمير إلى ما دلت قوة الكلام عليه وإن لم يكن منظوقا به بوجه ، فرجوعه إلى ما هو كالمنطوق به أولى . وبما يحقق ذلك أنهم قالوا : من صدق كان خيرا له . يعتون : كان الصدق خيرا له ، فأعادوا الضمير على المصدر وقدره منظوقا به للنطق بالفعل الذي هو مشتق منه . وإذا أوضح ذلك فاسم المكان مشتق من المصدر اشتقاق الفعل منه ، فالنطق به كاف في إعادة الضمير على مصدره والله أعلم . وعلى هذين التأويلين يكون جواب موسى عليه السلام من جوامع كلم الأنبياء : لأنه مثل أن يواعدهم مكانا فلم أنهم لا بد أن يسألوه مواعدة على زمان أيضا ، فأسلف الجواب عنه وضمتها جوابا مفردا ، ولما نقل أن يقول : إن كان المسؤل منه المواعدة على المكان فلم أجاب بالزمان الذي لم يستل عنه صريحا ، وجعل جواب ماسئل عنه مضمنا . وجوابه - والله أعلم - أن يقال اكتفى بقرينة السؤال عن صريح الجواب . وأما ما لم يستل عنه فلو ضمته لم يفهم قصده إليه : إذ لا قرينة تدل عليه والله أعلم .

الزينة) وقراءة الحسن غير مطابقة لمكاننا وزماننا جميعاً ، لأنه قرأ (يوم الزينة) بالنصب ، فبقي أن يجعل مصدراً بمعنى الوعد ، ويقدر مضاف محذوف ، أى : مكان موعد ، ويجعل الضمير فى (تخلفه) للموعد و (مكاننا) بدل من المكان المحذوف . فإن قلت : فكيف طابقه قوله (لموعدكم يوم الزينة) ولا بد من أن تجعله زماناً ، والسؤال واقع عن المكان لاعتن الزمان ؟ قلت : هو مطابق معنى وإن لم يطابق لفظاً ، لأنهم لابد لهم من أن يجتمعوا يوم الزينة فى مكان بعينه ، مشتهر باجتماعهم فيه فى ذلك اليوم ، فبذكر الزمان علم المكان . وأما قراءة الحسن فالموعد فيها مصدر لا غير . والمعنى : إنجاز وعدكم يوم الزينة . وطابق هذا أيضاً من طريق المعنى . ويجوز أن لا يقدر مضاف محذوف . ويكون المعنى : اجعل بيننا وبينك وعداً لتخلفه . فإن قلت : فممن ينتصب مكاناً ؟ قلت : بالمصدر . أو بفعل يدل عليه المصدر . فإن قلت : فكيف يطابقه الجواب ؟ قلت : أما على قراءة الحسن فظاهر . وأما على قراءة العامة فعلى تقدير : وعدكم وعد يوم الزينة . ويجوز على قراءة الحسن أن يكون (موعدكم) مبتدأ ، بمعنى الوقت . و(ضحى) خبره ، على نية التعريف فيه لأنه ضحى ذلك اليوم بعينه . وقيل فى يوم الزينة : يوم عاشوراء ، ويوم النيرود^(١) ، ويوم عيد كان لهم فى كل عام ، ويوم كانوا يتخذون فيه سوقاً ويتزينون ذلك اليوم . قرئ (تخلفه) بالرفع على الوصف للموعد . وبالجزم على جواب الأمر . وقرئ (سوى) وسوى ، بالكسر والضم ، ومنونا وغير منون . ومعناه : منصفاً بيننا^(٢) وبينك عن مجاهد ، وهو من الاستواء ؛ لأن المسافة من الوسط إلى الطرفين مستوية لا تفاوت فيها . ومن لم ينون فوجهه أن يجرى الوصل بجرى الوقف . قرئ (وأن تحشر الناس) بالياء والياء . يريد : وأن تحشر يافرعون . وأن يحشر اليوم . ويجوز أن يكون فيه ضمير فرعون ذكره بلفظ الغيبة إما على العادة التى يخاطب بها الملوك ، أو خاطب القوم بقوله (موعدكم) وجعل (يحشر) لفرعون . ومحل (أن يحشر) الرفع أو الجز . عطفاً على اليوم أو الزينة : وإنما واعدهم ذلك اليوم ليسكون علو كلمة الله وظهور دينه وكبت الكافر^(٣) . وزهوق الباطل على رموس الشهاد وفى المجمع الغاصر لتقوى رغبة من رغب فى اتباع الحق ، ويكل حد المبطلين وأشياهم . ويكثر المحدث بذلك الأمر العلم فى كل بدو وحضر ، ويشيع فى جميع أهل الوب والمدر .

قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ

خَابَ مِنْ أَفْتَرَىٰ ۖ

(١) قوله ويوم النيرود ، لعله النيرود بالزاي كعبارة غيره . (ع)

(٢) قوله ومنصفاً بيننا أى وسطاً ، كما فى الصحاح . (ع)

(٣) قوله وكبت الكافر ، أى إزاله . أنقاده الصحاح . (ع)

﴿لَا تَقْرَأُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي لا تدعوا آياته ومعجزاته سحرا . قرئ ﴿فيسحكنكم﴾ والسحت لغة أهل الحجاز . والإسحاث : لغة أهل نجد وبنى تميم . ومنه قول الفرزدق :

* ... إلَّا مُسِحَّتًا أَوْ مُجَلَّفٌ *

في بيت لا تزال الركب تصطك في تسوية إعرابه ^(١) :

فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ^(٦٢) قَالُوا إِنَّ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ
يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ^(٦٣)
فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنَ اسْتَعْلَى ^(٦٤)

عن ابن عباس : إن نجوهم : إن غلبنا موسى اتباعناه . وعن قتادة : إن كان ساحراً فسنبغله وإن كان من السماء فله أمر . وعن وهب لما قال (ويلكم ... الآية) قالوا : ما هذا بقول ساحر . والظاهر أنهم تشاوروا في السر وتجادوا أهداب القول ، ثم قالوا : إن هذان لساحران ، فكانت نجوهم في تليق هذا الكلام وتزويره ، خوفاً من غلبتهما . وتبيطاً للناس عن اتباعهما . قرأ أبو عمرو ﴿إن هذين لساحران﴾ على الجهة الظاهرة المكشوفة . وابن كثير وحفص : إن هذان لساحران ، على قولك : إن زيد لمنطلق . واللام هي الفارقة بين إن النافية والخفيفة من الثقيلة . وقرأ أني : إن ذان إلا ساحران . وقرأ ابن مسعود : أن هذان ساحران : بفتح أن وبغير لام ، بدل من النجوى . وقيل في القراءة المشهورة (إن هذان لساحران) هي لغة بلحرب بن كعب . جعلوا الاسم المثنى نحو الأسماء التي آخرها ألف ، كعصا وسعدى . فلم يقبلوها ياء في الجر والنصب . وقال بعضهم : (أن) بمعنى نعم . و (ساحران) خبر مبتدأ محذوف ، واللام داخلية على الجملة تقديره : لهما ساحران . وقد أعجب به أبو إسحق . سموا مذهبهم الطريقة ﴿المثلى﴾ والسنة الفضلى ، وكل حزب بما لديهم فرحون . وقيل : أرادوا أهل طريقته المثل ، وهم بنو إسرائيل ، لقول موسى (فأرسل معنا بنى إسرائيل) وقيل : الطريقة ، اسم لوجوه الناس وأشرافهم الذين هم قدوة لغيرهم . يقال : هم طريقة قومهم . ويقال للواحد أيضا : هو طريقة قومه ﴿فأجمعوا كيدكم﴾ يعصده قوله (فجمع كيده) وقرئ ﴿فأجمعوا كيدكم﴾ أى أزمعوه واجعلوه مجمعا عليه ، حتى لا تختلفوا ولا يخلف عنه واحد منكم . كالمسألة المجمع عليها . أمروا بأن يأتوا

(١) قوله في بيت لا تزال الركب تصطك في تسوية إعرابه ، هو قوله :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المسال إلا مسحنا أو مجلف

والمسحت : المهلك . والمجلف : الذي أخذ من جوانبه ، كما في الصحاح . (ع)

صفاً لأنه أهيب في صدور الرائيين . وروى أنهم كانوا سبعين ألفاً مع كل واحد منهم جبل وعصا وقد أقبلوا إقبالة واحدة . وعن أبي عبيدة أنه فسر الصف بالمصلى ، لأن الناس يجتمعون فيه لميذم وصلاتهم مصطفين . ووجه صحته أن يقع علماً لمصلى بعينه ، فأمروا بأن يأتوه . أو يراد . اتوا مصلى من المصليات ﴿ وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ اعترض . يعنى : وقد فاز من غلب .

قَالُوا يَسْمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۖ ﴿٦٥﴾

قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۖ ﴿٦٦﴾

(أن) مع ما بعده إما منصوب بفعل مضمر . أو مرفوع بأنه خبر مبتدأ محذوف . معناه : اختر أحد الأمرين ؛ أو الأمر إلقاؤك أو إلقاؤنا . وهذا التخيير منهم استعمال أدب حسن معه ، وتواضع له وخفض جناح ، وتنبيه على إعطائهم النصفة من أنفسهم ^(١) ، وكأن الله عز وعلا ألهمهم ذلك ، وعلم موسى صلوات الله عليه اختيار إلقائهم أولاً ، مع ما فيه من مقابلة أدب بأدب ، حتى يبرزوا ما معهم من مكاييد السحر . ويستنفدوا أقصى طوقهم ومجهودهم ، فإذا فعلوا : أظهر الله سلطانه وقذف بالحق على الباطل قدمغه ، وسلط المعجزة على السحر فحقته ، وكانت آية نيرة للناظرين ، وعبرة بينة للعبثين . يقال في (إذا) هذه : إذا المفاجأة . والتحقيق فيها أنها إذا الكائنة بمعنى الوقت ، الطالبة ناصباً لها وجملة تضاف إليها ، خصت في بعض المواضع بأن يكون ناصبها فعلاً مخصوصاً وهو فعل المفاجأة والجملة ابتدائية لا غير ، فتقدير قوله تعالى ﴿ فإذا حبالهم وعصيهم ﴾ ففاجأ موسى وقت تخييل سعى حبالهم وعصيهم . وهذا تمثيل . والمعنى : على مفاجأة حبالهم وعصيهم بخيلة إليه السعى . وقرئ ﴿ عصيهم ﴾ بالضم وهو الأصل . والكسر إتباع ، ونحوه : دلى ودلى . وقسى وقسى . وقرئ ﴿ تخيل ﴾ على إسناده إلى ضمير الحبال والعصى وإبدال قوله ﴿ أنها تسعى ﴾ من الضمير بدل الاشتمال ، كقولك : أعجبني زيد كرمه ، وتخييل على كون الحبال والعصى بخيلة سعيها . وتخييل . بمعنى تخيل . وطريقه طريق تخيل . وتخييل : على أن الله تعالى هو الخييل للمحنة والابتلاء . يروى أنهم لطمخوها بالزئبق ، فلما ضربت عليها الشمس اضطربت واهتزت . تخيلت ذلك .

(١) قال محمود : « لقد ألهمهم الله حسن الأدب مع موسى عليه السلام في تخييره وإعطاء النصفة من أنفسهم » قال أحمد : « وقبل ذلك تأدبوا به بقولهم (فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه) ففرضوا ضرب الموعد إليه ، وكما ألهم الله عز وجل موسى ههنا أن يجعلهم مبتدئين بما معهم ليكون إلقاؤه العصا بعدد قذفا بالحق على الباطل فقدمه فإذا هو زاهق ، كذلك ألهمه من الأول أن يجعل . ووعدهم يوم زيتهم وعيدهم ، ليكون الحق أبليج على رؤس الأنبياء ، فيكون أفصح لكيدهم وأهتلك لستر حرهم ، والله أعلم »

فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾
وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ
السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٦٩﴾

إيجاس الخوف : إضمار شيء منه ، وكذلك توجس الصوت : تسمع نبأ يسيرة ^(١) منه ،
وكان ذلك لطبع الجبل البشرية ، وأنه لا يكاد يمكن الخلو من مثله . وقيل : خاف أن يخالج الناس
شك فلا يتبعوه ﴿إنك أنت الأعلى﴾ فيه تقرير لغلبته وقهره ، وتوكيد بالاستئناف وبكلمة
التشديد وبتكرير الضمير وبلاد التعريف ولفظ العلو وهو الغلبة الظاهرة وبالترقيع . وقوله
﴿ما في يمينك﴾ ولم يقل عصاك ^(٢) : جائز أن يكون تصغيراً لها ، أى : لا تبال بكثرة جبالهم
وعصيهم ، وألقى العويد الفرد الصغير الجرم الذى فى يمينك ، فإنه بقدره الله يتلقفها على وحدته
وكثرتها ، وصغره وعظمتها . وجائز أن يكون تعظيماً لها ^(٣) أى : لا تحتفل بهذه الأجرام الكبيرة
الكثيرة ، فإن فى يمينك شيئاً أعظم منها كلها ، وهذه على كثرتها أقل شيء . وأنزله عنده ، فألقه
يتلقفها بإذن الله ويمحقها . وقرئ : ﴿تلقف﴾ بالرفع على الاستئناف . أو على الحال ، أى :
ألقها متلقفة . وقرئ : تلقف ، بالتخفيف ^(٤) . ﴿صنعوا﴾ ههنا بمعنى زوروا وافتعلوا ، كقوله

(١) قوله ذبابة يسيرة ، فى الصحاح والنبأ : الصوت الخفى . (ع)

(٢) قال محمود : «وقال ما فى يمينك ولم يقل عصاك ... الخ» قال أحد : وإنما المقصود بتحقيرها فى جنب القدرة
تحقير كيد السحرة بطريق الأولى ؛ لأنها إذا كانت أعظم منه وهى حقيرة فى جانب قدرة الله تعالى ، فالظن بكيدهم وقد
تلقفته هذه الحقيرة الضئيلة ؟ ولاصحاب البلاغة طريق فى علو المدح بتعظيم جيش عذر المدح . ليلزم من ذلك تعظيم جيش
المدح وقد قهره واستولى عليه . فنصر الله أمر العسا ليلزم منه تصغير كيد السحرة الداحض بها فى طرفه عين .

(٣) عاد كلامه . قال محمود : «ويجوز أن يكون تعظيماً لأمرها إذ فيه تثبيت لقلب موسى على النصر» قال أحد :
وههنا لطيفة : وهو أنه تلقى من هذا النظم أولاً قصد التحقير ، وثانياً قصد التعظيم ، فلا بد من نكتة تناسب الأمرين
وتلك - والله أعلم - هى إرادة المذكور مهيماً ، لأن ما فى يمينك أهم من عصاك . وللعرب مذهب فى التكثير
والإيهام والاجمال ، تسلكه مرة لتحقير شأن ما أجهته وأنه عند الناطق به أهون من أن يخصه ويوضحه ، ومرة لتعظيم
شأنه وليؤذن أنه من عنابة المتكلم والسامع بمكان يعنى فيه الرمز والاشارة . فهذا هو الوجه فى إسماعه بهما جميعاً .
وعندى فى الآية وجه سوى قصد التعظيم والتحقير والله أعلم ، وهو أن موسى عليه السلام أول ما علم أن العصا آية
من الله تعالى عند مأسأله عنها بقوله تعالى (وما تلك بيمينك يا موسى) ثم أظهر له تعالى آيتها ، فلما دخل وقت الحاجة
إلى ظهور الآية منها قال تعالى (وألقى ما فى يمينك ليليقظ بهذه الصيغة للوقت الذى قال الله تعالى له (وما تلك بيمينك)
وقد أظهر له آيتها ، فيكون ذلك قنبها له وتأنيساً حيث خاطب بما عهد أن يخاطب به وقت ظهور آيتها ، وذلك
مقام يناسب التأنيس والتثبيت . ألا ترى إلى قوله تعالى (فأوجس فى نفسه خيفة موسى) . والله سبحانه وتعالى أعلم .

(٤) قوله «وقرئ» تلقف بالتخفيف ، عبارة النسق : تلقف بكوت اللام والفاء . وتخفيف القاف : حفص .
وتلقف : ابن ذكوان . الباقون تلقف ، فليحذر . (ع)

تعالى (تلقف ما يأفكون) قرى* (كيد ساحر) بالرفع والنصب. فن رفع فعلى أن (ما) موصولة. ومن نصب فعلى أنها كافة. وقرى*: كيد سحر، بمعنى: ذى سحر: أو ذوى سحر. أو هم لتوغلهم في سحرهم كأنهم السحر بعينه وبذاته. أو بين الكيد^(١)، لأنه يكون سحراً أو غير سحر، كما تبين المسألة بدرهم. ونحوه: علم فقه، وعلم نحو. فإن قلت: لم وحد ساحر ولم يجمع؟ قلت: لأن القصد في هذا الكلام إلى معنى الجنسية، لا إلى معنى العدد، فلو جمع، لخليل أن المقصود هو العدد. ألا ترى إلى قوله (ولا يفلح الساحر) أى هذا الجنس. فإن قلت: فلم نكر أولاً وعرف ثانياً؟ قلت: إنما نكر من أجل تشكير المضاف، لا من أجل تشكيره في نفسه، كقول العجاج:

* فِي سَعْيِ دُنْيَا طَالَمَا قَدْ مَدَّتْ * (٢)

وفي حديث عمر رضي الله عنه، لا في أمر دنيا ولا في أمر آخرة، (٣) المراد تشكير الأمر، كأنه قيل: إن ما صنعوا كيد سحري. وفي سعي دنيوى. وأمر دنيوى وأخرى (حيث أتى) كقولهم: حيث سير، وأية سلك، وأينما كان.

فَالْقِيَّ السَّحَرَةَ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى (٧٠)

سبحان الله ما أعجب أمرهم. قد ألقوا حبالهم وعصيم الكفر والجحود ثم ألقوا رؤسهم بعد ساعة للشكر والسجود، فما أعظم الفرق بين الإلغامين^(٤) وروى أنهم لم يرفعوا رؤسهم

(١) قوله وأبين الكيد، لعله بعده سقطاً تقديره «بالسحر». (ع)

(٢) الحمد لله الذى استقلت بأذنه السماء واطمأنت بأذنه الأرض وما تعنت أروحي لها القرار فاستقرت وشدها بالراسيات الثبت والجامع الناس ليوم البعث بعد الممات وهو محي الموت يوم ترى النفوس ما أعدت من نزل إذا الأمور غبت في سعى دنيا طالما تعنت

استقلت: ارتفعت. واطمأنت: انخفضت. وفي الشعر التضمين. والتعنت: الاتعاب أو التأخر والتأفل، من العنا وهو التعب. وأوحى لها: ألهمها. واثبت: جمع ثابت، والوقف على ماء السانث، كالامت بالتاء قليل. والموت: جمع مات. والنزل: ما يعد للضيف، استمارة لما يقدمه الإنسان من الأعمال. وغبت: بلغت غبا ورغبتها. وفي سعى: متعلق به. أو تبعت بعده، أى: تبعت أو أتيت. وضمن على المعنى الأول للنفوس، وعلى الثانى للدنيا، ونكرها لتشكير السعى دلالة على التقليل، أى: في سعى دنيوى قليل.

(٣) ذكره صاحب النهاية بغير إسناد. وفي الباب عن ابن مسعود. وسيأتى في (الم نشرح) أنهم من هذا.

(٤) قال محمود: «سبحان من فرق بين الإلغامين إلغائهم حبالهم وعصيم... الخ» قال أحمد: وفي تكرير لفظ الإلغاء والمدول عن مثل: فسجد السحرة، إيقاظ السامع لألطف الله تعالى في نقله عباده من غاية الكفر والعناد إلى نهاية الإيمان والساد، وهذا الإيقاظ لا يحصل على الوجه إلى هذا القصد إلا بتكرير لفظ واحد على معنيين متناقضين، وهو يناسب ما قدمته آنفاً في إيجاز الخطاب في قوله (وأتقوا ما بينك)، (وماتلك يمينك) فتأمله فإن الحق حسن متناسب، والله الموفق.

حتى رأوا الجنة والنار ورأوا ثواب أهلها . وعن عكرمة : لما خروا سجداً أراهم الله في مجودهم منازلهم التي يصيرون إليها في الجنة .

قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا قَطْعَنَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا تُصَلِّبُنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَتَعْلَمُونَ أَنَّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (٧١)

(لكبيركم) لعظيمكم ، يريد : أنه أسحرم وأعلام درجة في صناعتهم . أو لمعلمكم ، من قول أهل مكة للعلم : أسرنى كبيرى ، وقال لى كبيرى : كذا يريدون معلمهم وأستاذهم في القرآن وفى كل شىء . قرئ (فلا قطعن) ولاصلبن . بالتخفيف . والقطع من خلاف : أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ؛ لأن كل واحد من العضوين خالف الآخر ، بأن هذا يد وذاك رجل ، وهذا يمين وذاك شمال . ومن ، لا ابتداء الغاية : لأن القطع مبتدأ ونائى من مخالفة العضو العضو ، لا من وفاقه إياه . ومحل الجار والمجرور النصب على الحان ، أى : لا قطعها مختلفات ؛ لأنها إذا خالف بعضها بعضاً فقد اتصفت بالاختلاف . شبه تمسكن المصلوب فى الجذع بتمسكن الشىء الموعى فى وعائه ، فلذلك قيل (فى جذوع النخل) . (أينا) يريد نفسه لعنه الله وموسى صلوات الله عليه بدليل قوله (آمنتم له) واللام مع الإيمان فى كتاب الله لغير الله تعالى ، كقوله تعالى (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) وفيه نفاجة (١) باقتداره وقهره ، وما ألقه وضربه به : من تعذيب الناس بأنواع العذاب . وتوضيع لموسى عليه السلام ، واستضعاف له مع الهزم به ؛ لأن موسى لم يكن قط من التعذيب فى شىء .

قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِنُغَيِّرَ مَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ مِنْ بَآئِ رَبِّهِ مُجْرِمَا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٤) وَمَنْ بَآئِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ قُلْ لَكُمْ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦)

(١) قوله « وفيه نفاجة » فى الصحاح « رجل نفاج » إذا كان صاحب غر وكبر . (ع)

(والذى فطرنا) عطف على ما جاءنا أو قسم . قرئ (تقضى هذه الحياة الدنيا) ووجهها أن الحياة في القراءة المشهورة منتزعة على الظرف ، قاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به ، كقولك في : صمت يوم الجمعة ، : صم يوم الجمعة ، وروى أن السحرة - يعنى رؤسهم - كانوا اثنين وسبعين : الاثنان من القبط ، والساثر من بنى إسرائيل ، وكان فرعون أكرهمهم على تعلم السحر . وروى أنهم قالوا لفرعون : أرنا موسى نأثما ففعل ، فوجدوه تحرسه عصاه ، فقالوا : ما هذا بسحر الساحر ؛ لأن الساحر إذا نام بطل سحره ، فأبى إلا أن يعارضوه (تزكى) تطهر من أذناس الذنوب . وعن ابن عباس : قال لا إله إلا الله . قيل في هذه الآيات الثلاث : هى حكاية قولهم . وقيل : خبر من الله . لا على وجه الحكاية .

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسِرِّ بِعِبَادِي فَأُظْهِرْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَلَسًا
لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَفَشَّيْنَاهُمْ مِنْ أَلِيمٍ
مَا غَشَّيْنَاهُمْ (٧٨) وَأَصْلُ فِرْعَوْنُ قَوْمُهُ وَمَا هَدَى (٧٩)

(فأغرب لهم طريقاً) فأجعل لهم ، من قولهم : ضرب له في ماله سهما . وضرب اللبن : عمله . اليبس : مصدر وصف به . يقال : يبس ييبس وييبس (١) . ونحوهما : العدم والعدم . ومن ثم وصف به المؤنث فقيل : شاتنا ييبس ، وناقتنا ييبس : إذا جف لبنها . وقرئ : ييبس ، ويابس . ولا يخالو اليبس من أن يكون مخففاً عن اليبس . أو صفة على فعل . أو جمع يابس ، كصاحب وصحب ، وصف به الواحد تأكيذاً ، كقوله : وَمَعَى جِيَاءًا (٢)

(١) قال محمود : « قرئ بسكون الباء ويفتحها ... الخ » قال أحد : ووجه آخر وهو أن قدر كل جزء من أجزاء الطريق طريقاً ، وقد كانت هذه المثابة لأنها كانت اثني عشر طريقاً لكل سبط طريق ، والله أعلم .

(٢) كان فتود رحلى حين ضمت حوالب غرزا ومعى جياعا على وحشية خذلت حلوج وكان لها طلاء طفل فضاء فكرت تبتغيه فصادفته على دمه ومصرعه السباع

للقطاي في مدح زفر بن الحرث الكلبي . والفتود : عيدات الرجل : جمع أفتاد : جمع قتد . والخابان : عرقان يكتنفان السرة . والغرز : جمع غارز - بتقديم الراء - قليات اللبن ، ضد الغرز بتقديم الزاى . والممى : مجرى الطعام في البطن من الحوايا . وصفه بصورة الجمع - وهو جياعا - بالغة . والمعنى : جائعا . وهذا كناية عن هزال الناقة من شدة السير . وفيه إيحاء لفقره وافتته . وه على وحشية : خبر كان . والوحشية : الظبية . وخذلت : صفتها ، أى : تركها سرب الظباء . وخذلت : صفة أخرى . وخالج واختاج : اضطرب وذهب . وخالج واختلج : انتزعه واجتذبه . والخلوج : التى اختلج ولدها من الظباء أو الابل . أو اتى اختلج قلبها لعدم رؤيته . والطلاء : ولد الظبية ونحوها من ذوات الظلف ، طفل : أى صغير ، فكرت : رجعت بسرعة تطالبه . والسباع : بدل إضرابى انتقالى من ضمير صادفته . أو نصب بمضمر دل عليه صادفته ، أى : صادفت السباع واقفة على دمه ومصرعه ، أى : محل طرحه على الأرض . شبه الناقة بها في تلك الحال لسرعتها وبفطنتها .

جعله لفرط جوعه كجماعة جياع ﴿لاتخاف﴾ حال من الضمير في (فاضرب) وقرئ: لاتخف، على الجواب. وقرأ أبو حيوه ﴿دركا﴾ بالسكون. والدرك والدرك: اسمان من الإدراك، أى: لا يدركك فرعون وجنوده ولا يلحقونك. في ﴿ولا تخشى﴾ إذا قرئ: لاتخف، ثلاثة أوجه: أن يستأنف، كأنه قيل وأنت لاتخشى، أى: ومن شأنك أنك آمن لاتخشى، وأن لاتكون الآلف المنقلبة عن الياء التى هى لام الفعل ولكن زائدة للإطلاق من أجل الفاصلة، كقوله (فأضلونا السبيل)، (وتظنون بالله الظنونا) وأن يكون مثله قوله:

• كَأَنْ لَّمْ تَرَى قَبْلِي أَسِيرًا بِمَآ نِيَا • ^(١)

(ما غشيه) من باب الاختصار، ومن جوامع الكلم التى تستقل مع قلبها بالمعاني الكثيرة، أى: غشيه ما لا يعلم كنهه إلا الله. وقرئ: فغشاه من اليم ما غشاهم. والتغشية: التغطية. وفاعل غشاهم: إما الله سبحانه. أو ما غشاهم. أو فرعون؛ لأنه الذى ورط جنوده وتسبب لهلاكهم. وقوله ﴿وما هدى﴾ تهكم به ^(٢) فى قوله (وما أهدىكم إلا سبيل الرشاد).

يَسْبِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الثُّورِ الْأَيْمَنِ

(١) وتضحك منى شيخة عبشية كان لم ترى قبلي أسيرا يمانيا
وظل نساء الحى حول ركدا براودن منى ما تريد نسايا

لعبد ينفوت بن وقاص الحارثى، أسر يوم الكلاب فى بنى تميم، فقال قصيدة يذكر فيها حاله منها ذلك. والفيضة: العجوز. والعشمية: المنسوبة لعبد شمس. وهو باب من النحت. وأثبت الآلف فى «ترى» مع أنه مجزوم لضرورة الوزن، أوللاتساع. وقيل إنها عين الفعل. وأصله ترى حذف لامه للجزم. ونقلت حركة الميمزة للراء، وأبدلت الفاء. وحكى إعمال «لم» للنصب. وحكى أيضا إعمالها. وقياس النسبة إلى «ينى»: «ينى» لكنهم حذفوا إحدى يادى النسب. وعوضوا عنها الآلف، وكان الذى يقوده صيا، فسألته: من أنت؟ فقال: سيد القوم. فضحك منه. والركد - كركع -: جمع راكدة، أى مقبحة لاتذهب من عنده. والمرادة: مفاعلة من راد يرود إذا تعرف حال المكان متطلبا للنصب، وهو قريب من معنى أراد يريد، أى: يتطلب منى لطف واختبار: هل أوضى أولا؟ الشئ الذى تريد نسايا منى، وهو الجماع.

(٢) قال محمود: «إنما قبل وما هدى تهكما به» قال أحمد: فإن قلت: التهكم أن يأتى بعبارة والمقصود عكس مقتضاها، كقولهم: إنك لأنت الحليم الرشيد، وغرضهم وصفه بعند هذين الوصفين. وأما قوله تعالى (وما هدى) فضمونه هو الواقع، فهو حيثئذ مجرد لإخبار عن عدم هدايته لقومه. قلت: هو كذلك، ولكن العرف مثل ما هدى زيد عمراً ثبت كون زيد عالما بطريق الهداية، مهتديا فى نفسه، ولكن لم يهد عمرا. وفرعون أضل الضالين فى نفسه، فكيف يتوهم أنه يهدى غيره. وتحقيق ذلك: أن قوله تعالى (وأضل فرعون قومه) كافى فى الإخبار بهدم هدايته لم مع مزيد إضلاله إياهم، فإن من لا يهدى قد لا يضل، فيكون كفافا. وإذا تحقق غناء الأول فى الإخبار، تعين كون الثانى لمعنى سواء، وهو التهكم. والله أعلم.

وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ ۖ ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا

فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ۖ ﴿٨١﴾

(يا بني إسرائيل) خطاب لهم بعد إنجائهم من البحر وإهلاك آل فرعون . وقيل : هو للذين كانوا منهم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الله عليهم بما فعل آبائهم . والوجه هو الأول ، أى : قلنا يا بني إسرائيل ، وحذف القول كثير في القرآن . وقرئ ﴿ أنجيتمكم ﴾ إلى (رزقتمكم) ، وعلى لفظ الوعد والمواعدة . وقرئ ﴿ اليمين ﴾ بالجر على الجوار ، نحو : حجر ضب خرب ، . ذكرهم النعمة في نجاتهم وهلاك عدوهم ، وفيما واعد موسى صلوات الله عليه من المناجاة بجانب الطور ، وكتب التوراة في الألواح . وإنما عدى المواعدة إليهم لأنها لا يستهم واتصلت بهم حيث كانت لتبهم ونقبائهم ، وإليهم رجعت منافيتها التي قام بها دينهم وشرعهم ، وفيما أفاض عليهم من سائر نعمه وأرزاقه . طغيانهم في النعمة : أن يتعدوا حدود الله فيها بأن يكفروها ويشغلهم اللهو والتنعيم عن القيام بشكرها ، وأن ينفقوها في المعاصي : وأن يزورا حقوق الفقراء فيها ، وأن يسرفوا في إنفاقها . وأن يبطروا فيها ويأشروا ويتكبروا . قرئ ﴿ فيحل ﴾ وعن عبد الله : لا يحل (١) (ومن يحلل) المكسور في معنى الوجوب ، من حل الدين يحل إذا وجب أدائه . ومنه قوله تعالى (حتى يبلغ الهدى محله) والمضموم في معنى النزول . وغضب الله عقوباته (٢) ولذلك وصف بالنزول (هوى) هلك . وأصله أن يسقط من جبل فيهلك .

قالت : هَوَىٰ مِنْ رَأْسٍ مَرْقِيَةٍ فَفُتَّتَ تَحْتَهَا كَعِيدُهُ (٣)

(١) قوله «قرئ فيحل» وعن عبد الله ... الخ، يفيد أن القراءة المشهورة : فيحل . ومن يحلل - بالكسر . ولتحرر قراءة (لا يحل) هل هي بالكسر أو بالضم : (ع)

(٢) قال محمود : والنضب عقوبة الله تعالى لهم ... الخ، قال أحمد : لا يسمه أن يحمل الغضب إلا على العقوبة لأنه ينفي صفة الإرادة في جملة ما يتفقونه من صفات الكمال . وأما على قاعدة السنة فيجوز أن يكون المراد من الغضب إرادة العقوبة ، فيكون من أوصاف الذات . ويحتمل أن يراد به معاملتهم بما يعامل به من غضب عليه شاهدا ، فيكون من صفات الأفعال . وأما وصفه بالحلول فلا يتأتى حله على الإرادة ، ويكون بمنزلة قوله عليه الصلاة والسلام (ينزل ربنا إلى سماء الدنيا) على التأويل المعروف . أو عبر عن حلول أثر الإرادة بحلولها تعبيرا عن الأثر بالمؤثر ، كما يقول الناظر إلى عجب من مخلوقات الله تعالى : انظر إلى قدرة الله يعني أثر القدرة لانفسها ، والله أعلم .

(٣) هوى ابنى من على شرف يهول عقابه صعد

هوى من رأس مرقية ففتت تحتها كعده

الام على تبكيه والمسه فلا أجده

وكيف يلام عزون كبير فاته ولده

ويقولون : هوت أمه . أو سقط سقوطاً لانهوض بعده .

وَإِنِّي لَأَفْقَارٌ لِّئِنْ تَابَ وَعَآمَنَ وَحَمِلَ صَلِيحًا ثُمَّ أَهْتَدَىٰ (٨٢)

الاهتداء : هو الاستقامة والثبات على الهدى المذكور وهو التوبة والایمان والعمل الصالح ، ونحوه قوله تعالى (إِنَّ الَّذِي قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا) وكلمة التراخي دلت على تباين المنزلتين دلالتهما على تباين الوقتين في . جاءني زيد ثم عمرو ، أعنى أَنَّ منزلة الاستقامة على الخير مباينة لمنزلة الخير نفسه ؛ لأنها أعلى منها وأفضل .

وَمَا أَصْبَلْتُكَ عَنْ قَوْمِكَ بِمُومَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَصَلْتُ

إِلَيْكَ رَبِّ لِيَرْصَىٰ (٨٤)

(وما أصبلك) أى شئ . عجل بك عنهم على سبيل الإنكار ، وكان قد مضى مع النقباء إلى الطور على الموعد المضروب . ثم تقدمهم شوقاً إلى كلام ربه وتنجز ما وعد به ، بناء على اجتهاده وظنه أن ذلك أقرب إلى رضا الله تعالى ، وزل عنه أنه عز وجل ما وقت أفعاله إلا فطرا إلى دواعي الحكمة ، وعلمنا بالمصالح المتعلقة بكل وقت ، فالمراد بالقوم : النقباء . وليس لقول من جوز أن يراد جميع قومه وأن يكون قد فارقه قبل الميعاد وجه صحيح ، يأباه قوله (هم أولاء على أثري) وعن أبي عمرو ويعقوب : إثرى ، بالكسر . وعن عيسى بن عمر : أثرى بالضم . وعنه أيضاً : أولى بالقصر . والإثر أفصح من الأثر . وأما الأثر فسموع في فرند السيف ^(١) مدون في الأصول . يقال : إثر السيف وأثره ، وهو بمعنى الأثر غريب . فإن قلت : (ما أصبلك)

== لأعرابي ، يقول : سقط ابنى من فوق جبل عال . فعلى بمعنى فوق ، ولورى : على ، بالضم - جمع علىة - لجاز ، أى : سقط من ذرى جبل عال ، فالشرف : مصدر مستعمل في الوصف مجاز . يقول : أى يخيف ، عقابه : ارتفاعه . وصعد - بالكسر - صعدا - بفتحين وضمين - صعوداً : ارتفع ، والضمير للعقاب أو للشرف ، فهو من إضافة المصدر لفاعله . ويجوز أنه من اضافته للمفعول ، أى : صعوده عليه . وخص العقاب ، لأنه أشد الطير صعوداً ، لاسياً عقاب ذلك الجبل العارف به . وكرر «هوى» لآظهار التحزن ، أى : سقط من رأس ثنية عالية يرقب فيها الرقيب ، فزقت كبده تحتها ، أى : بجانبها ، فكيف يبقية جسمه . وبروى : ففرت . بتشديد الزاى بمعنى فزعت . وروى «ففرت» بتشديد الراء ، وأصله : فريت . وهذه لغة طي . يقولون : المرأة دعت في دعيت . والدار بنت في بنت ، ثم قال : يلومنى الناس على البكاء مع أنى أمسه ، من بابي قتل وضرب ، أى : أريد لمسه فلا أجده ، وكيف يلام حزين هرم ينس من رجوع ولده إليه ، أو من أوان التوالد . وقيل : إن القائل أم القليل ، لكن يروى بعد البيت الأول :

فلا أم فتبكيه ولا أخت فتفتقده هوى عن حمرة صلد ففرت تحتها كبده إلى آخره .

(١) قوله «فرند السيف» أى ربه ووشيه ، كذا في الصحاح . (ع)

سؤال عن سبب العجلة ^(١) فكان الذى ينطبق عليه من الجواب أن يقال : طلب زيادة رضاك أو الشوق إلى كلامك وتنجز موعدك . وقوله (هم أولاء على أثرى) كما ترى غير منطبق عليه . قلت : قد تضمن ما واجهه به رب العزة شيئين ، أحدهما : إنكار العجلة فى نفسها . والثانى : السؤال عن سبب المستنكر والحامل عليه ، فكان أهم الأمرين إلى موسى بسط العذر وتمهيد العلة فى نفس ما أنكر عليه ، فاعتل بأنه لم يوجد منى إلا تقدم يسير ، مثله لا يعتد به فى العادة ولا يحتفل به . وليس بينى وبين من سبقته إلا مسافة قريبة يتقدم بمثلها الوفد رأسهم ومقدمهم ، ثم عقبه بجواب السؤال عن السبب فقال ﴿ وعجلت إليك رب لترضى ﴾ ولقائل أن يقول : حار لما ورد عليه من التهييب لعتاب الله ، فأذهله ذلك عن الجواب المنطبق المرتب على حدود الكلام .

قَالَ قَائِلًا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾

أراد بالقوم المفتونين : الذين خلفهم مع هرون وكانوا ستمائة ألف مانجا من عبادة العجل منهم إلا اثنا عشر ألفا . فإن قلت : فى القصة أنهم أقاموا بعد مفارقه عشرين ليلة ، وحسبوا أربعين مع أيامها ، وقالوا : قد أكلنا العدة ، ثم كان أمر العجل بعد ذلك ، فكيف التوفيق بين هذا وبين قوله تعالى لموسى عند مقدمه (إنا قد فتنا قومك) ؟ قلت : قد أخبر الله تعالى عن الفتنة المترتبة ، بلفظ الموجودة الكائنة على عادته . أو افترض السامرى غيبته فغزم على إضلالهم غب انطلاقه ، وأخذ فى تدبير ذلك . فكان بدء الفتنة موجوداً . قرئ ﴿ وأضلهم السامرى ﴾ أى وهو أشدهم ضلالاً : لأنه ضال مضل ، وهو منسوب إلى قبيلة من بنى إسرائيل يقال لها السامرة . وقيل : السامرة قوم من اليهود يخالفونهم فى بعض دينهم : وقيل : كان من أهل باجرما . وقيل : كان عليجا من كرمان . واسمه موسى بن ظفر ، وكان منافقا قد أظهر الإسلام ، وكان من قوم يعبدون البقر .

فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا

(١) قال محمود : « إن قلت : سئل عن سبب العجلة ... الخ » قال أحد : وإنما أراد الله تعالى بسؤاله عن سبب العجلة وهو أعلم : أن يعلم موسى أدب السفر ، وهو أنه ينبغي تأخير رئيس القوم عنهم فى المسير ليكون نظره محيطاً بطائفتهم وناقذا فهم ومهيئاً عليهم . وهذا المعنى لا يحصل فى تقدمه عليهم ، ألا ترى الله عز وجل كيف علم هذا الأدب لو طاف فقال : (واتبع أدبارهم) فأمره أن يكون أخيرهم . على أن موسى عليه السلام إنما أغفل هذا الأمر مبادرة إلى رضا الله عز وجل ، ومسارة إلى الميعاد ، وذلك شأن الموعود بما يسره ، يود لو ركب إليه أجنحة الطير ، ولا أمر من مواعدة الله تعالى له صلى الله عليه وسلم .

حَسَنًا أَقْطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحْمِلَ عَلَيْكُمُ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ
فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ٨٦ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا
أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ٨٧ فَأَخْرَجَ لَهُمْ
عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ٨٨

الأسف : الشديد الغضب . ومنه قوله عليه السلام في موت الفجأة ، رحمة للؤمن وأخذة
أسف للكافر (١) ، وقيل : الحزين . فإن قلت . متى رجع إلى قومه ؟ قلت : بعد ما استوفى
الاربعين : ذا القعدة وعشر ذى الحجة . وعدم الله سبحانه أن يعطيهم التوراة التي فيها هدى
ونور ، ولا وعد أحسن من ذلك وأجل ، حكى لنا أنها كانت ألف سورة كل سورة ألف آية ،
يحمل أسفارها سبعون رجلاً (العهد) الزمان ، يريد : مدة مفارقتهم . يقال : طال عهدي
بك ، أى : طال زمانى بسبب مفارقتك . وعدوه أن يقيموا على أمره وما تركهم عليه من
الإيمان ، فأخلفوا مواعده بعبادتهم العجل (بملكنا) قرئ بالحركات الثلاث ، أى : ما أخلفنا
موعدك بأن ملكنا أمرنا ، أى : لو ملكنا أمرنا وخليتنا وراءنا لما أخلفناه ، ولكننا غلبنا
من جهة السامري وكيده . أى : حملنا أحمالاً من حلى القبط التي استعزنا بها منهم . أو أرادوا
بالأوزار : أنها آثام وتبعات ، لأنهم كانوا معهم في حكم المستأمنين في دار الحرب . وليس
للمستأمن أن يأخذ مال الحربى ، على أن الغنائم لم تكن تحمل حينئذ (فقدفناها) في نار
السامري ، التي أوقدها في الحفرة وأمرنا أن نطرح فيها الحلى . وقرئ حملنا (فكذلك ألقى
السامري) أراهم أنه يلقى حليا في يده مثل ما ألقوا . وإنما ألقى التربة التي أخذها من موطن
حزوم فرس جبريل . أوحى إليه وليه الشيطان أنها إذا خالطت موانا صار حيوانا (فأخرج
لهم) السامري من الحفرة عجلا خلقه الله من الحلى التي سبكتها النار بخور كما تخور المجاجيل .
فإن قلت : كيف أثرت تلك التربة في إحياء الموات ؟ قلت : أما يصح أن يؤثر الله سبحانه روح
القدس بهذه الكرامة الخاصة كما أثره بغيرها من الكرامات ، وهي أن يياشر فرسه بحافره تربة
إذا لاقته تلك التربة جماداً أنشأه الله إن شاء عند مباشرته حيوانا . ألا ترى كيف أنشأ المسيح

(١) أخرجه أحمد من طريق عبد الله بن عبيد بن حمير عن عائشة « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن
موت الفجأة : فذكره وله طريق أخرى عند عبد الرزاق مرفوعة ، وفيها يحيى بن العلاء الرازى وهو ضعيف . ورواه
هو وابن أبي شيبة والطبراني من حديثهما موقوفاً . وعن ابن مسعود أيضاً موقوفاً ، وفي الباب عن أنس في الجنائز
لابن شاهين وعن عبيد بن خالد عند أبي داود بلفظ « موت الفجأة أخذة أسف » .

من غير أب عند نفخه في الدرع . فإن قلت : فلم خلق الله العجل من الخلق حتى صار فتنة لبني إسرائيل ^(٨٩) وضلالا ؟ قلت : ليس بأول حنة عن الله بها عباده ليثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين . ومن عجب من خلق العجل ، فليكن من خلق إبليس أعجب . والمراد بقوله (إنا قد فتنا قومك) هو خلق العجل للامتحان ، أى : امتحانهم بخلق العجل وحملهم السامرى على الضلال ، وأوقعهم فيه حين قال لهم (هذا إلهكم وإله موسى فتنسى) أى : فتنسى موسى أن يطلبه مهنا ، وذهب يطلبه عند الطور . أو فتنسى السامرى : أى ترك ما كان عليه من الإيمان الظاهر .

أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا قَفًّا ^(٩٠)
وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ
فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ ^(٩١) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ
إِلَيْنَا مُوسَى ^(٩٢)

(يرجع) من رفعه فعلى أن أن مخففة من الثقيلة . ومن نصب فعلى أنها الناصبة للأفعال (من قبل) من قبل أن يقول لهم السامرى ما قال ، كأنهم أول ما وقعت عليه أبصارهم حين طلع من الحفرة افتنوا به واستحسنوه ، فقبل أن ينطق السامرى بأدركهم هرون عليه السلام بقوله (إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن) .

قَالَ يَاهَرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ^(٩٣) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِيَ ^(٩٤)
لا مزيدة . والمعنى ما منعك أن تتبعني في الغضب لله وشدة الزجر عن الكفر والمعاصي ؟ وهلا قاتلت من كفر بمن آمن ؟ وما لك لم تبأشر الأمر كما كنت أبأشره أنا لو كنت شاهدا ؟ أو مالك لم تلحقني .

قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْمِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ
بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ^(٩٥)

(٩٥) قال محمود : « إن قلت لم خلق الله العجل فتنة لهم ، قال أحد : هذا السؤال وجوابه تقدم له في أول سورة الأعراف . وقد أوحىنا أن الله تعالى إنما تعبدنا بالبحث عن علل أحكامه لأعمال أفعاله . وجواب هذا السؤال في قوله تعالى (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون) فهذا الأمر جائز . وقد أخبر الله تعالى بوقوعه فلا نبشئ ورام ذلك سيلا ، لكن الزعشري يقتضى قاعدته في وجوب رعاية المصالح على الله تعالى وتحمل هداية الخلق عليه : أن يؤول ذلك ويحرفه . فدرهم وما يفترقون .

قرئ: ﴿بلحقيق﴾ بفتح اللام ^(١) وهي لغة أهل الحجاز، كان موسى صلوات الله عليه رجلاً حديداً مجبولاً على الحدة والحشونة والتصلب في كل شيء، شديد الغضب لله ولدينه، فلم يتألك حين رأى قومه يعبدون عجلاً من دون الله بعد ما رأوا من الآيات العظام، أن ألقى ألواح التوراة لما غلب ذهنه من الدهشة العظيمة، غضباً لله واستنكافاً وحمية، وعنف بأخيه وخليفته على قومه، فأقبل عليه إقبال العدو المكاشف قابضاً على شعر رأسه - وكان أفرع ^(٢) - وعلى شعر وجهه يحزّه إليه. أى: لو قاتلت بعضهم ببعض لتفرقوا وتفاونا، فاستأنيتك أن تكون أنت المتدارك بنفسك، المتلافى برأيك: وخشيت عتابك على إطراح ما وصيتني به من ضم النثر وحفظ الدماء ^(٣)، ولم يكن لي بد من رقبة وصيتك والعمل على موجهها.

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾

الخطب: مصدر خطب الأمر إذا طلبه، فإذا قيل لمن يفعل شيئاً: ما خطبك؟ فعناه: ما طلبك له؟ قرئ: ﴿بصرت بمالم يبصروا به﴾ بالكسر ^(٤)، والمعنى: علمت ما لم تعلموه، وفطنت ما لم تفطنوا له. قرأ الحسن ﴿قبضة﴾ بضم القاف وهي اسم المقبوض، كالغرفة والمضغة. وأما القبضة فالمرّة من القبض، وإطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر، كضرب الأمير. وقرأ أيضاً: فقبضت قبضة، بإصاء المهملة. الضاد: بجميع الكف، والصاد: بأطراف الأصابع. ونحوهما: الخضم، والقصم: الخاء بجميع النعم؛ والقاف بمقدمه: قرأ ابن مسعود: من أثر فرس الرسول. فإن قلت: لم سماه الرسول دون جبريل وروح القدس؟ قلت: حين حل ميعاد الذهاب إلى الطور أرسل الله إلى موسى جبريل راكب حيزوم فرس الحياة ليذهب به، فأبصره السامري فقال: إن لهذا شأنًا، فقبض قبضة من تربة موطنه، فلما سأله موسى عن قصته قال: قبضت من أثر فرس المرسل إليك يوم حلول الميعاد، ولعله لم يعرف أنه جبريل.

قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ

(١) قوله «قرئ: بلحقيق بفتح اللام» والقراءة المشهورة: بالكسر. (ع)

(٢) قوله «وكان أفرع» أى تام الشعر. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قوله «وحفظ الدماء» أى الجماعة، أفاده الصحاح. (ع)

(٤) قوله «وقرئ: بصرت بمالم يبصروا به بالكسر» والقراءة المشهورة بالضم. وقرئ: تبصروا به. بالتاء: وعجالة النفس: وبالتاء حزة وعلى، ولعلها سقطت هنا سموا من الناسخ، فليحرر. (ع)

تُخْلَفُهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ

فِي السَّمَاءِ نَسْفًا ﴿٩٧﴾

عوقب في الدنيا بعقوبة لا شيء أظم منها وأوحش، وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعاً كلياً، وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته وكل ما يعايش به الناس بعضهم بعضاً، وإذا اتفق أن يماس أحداً رجلاً أو امرأة، حم الماس والممسوس، فتحاشى الناس وتحاموه، وكان يصيح: لا تماس، وعاد في الناس أوحش من القاتل اللاجئ إلى الحرم، ومن الوحش النافر في البرية. ويقال: إن قومه باق فيهم ذلك إلى اليوم. وقرئ: ﴿لا تماس﴾ بوزن جاز. ونحوه قولهم في الأطباء: إذا وردت الماء فلا عباب، وإن فقدته فلا أبواب: وهي أعلام اللسنة والعبء والأبء، وهي المرة من الأب وهو الطلب ﴿لن تخلفه﴾ أى لن يخلفك الله مواعده الذي وعدك على الشرك والفساد في الأرض، ينجزه لك في الآخرة بعد ما عاقبك بذلك في الدنيا، فأنت ممن خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين. وقرئ: لن تخلفه. وهذا من أخلفت المواعد إذا وجدته خلفاً. قال الأعشى:

أَنْوَى وَأَقْصَرَ لَيْلُهُ لِيُزَوِّدَا فَضِّي وَأَخْلَفَ مِنْ قَتِيلَةٍ مَوْعِدَا ^(١)

وعن ابن مسعود: تخلفه، بالنون، أى: لن يخلفه الله، كأنه حكى قوله عز وجل كما مر في ﴿لأهب لك﴾. ﴿ظلت﴾ وظلت، وظللت والأصل ظللت، فخذفوا اللام الأولى ونقلوا حركتها إلى الظاء، ومنهم من لم ينقل ﴿لنحرقنه﴾ ولنحرقنه ولنحرقنه. وفي حرف ابن مسعود: لننبحنه، ولنحرقنه، ولنحرقنه: القرامتان من الإحراق. وذكر أبو علي الفارسي في لنحرقنه أنه يجوز أن يكون حرق مبالغة في حرق إذا برد بالمبرد. وعليه القراءة الثالثة، وهي قراءة علي بن أبي طالب رضى الله عنه ﴿لننفسنه﴾ بكسر السين وضمتها، وهذه عقوبة ثالثة وهي إبطال ما افتتن

(١) أنوى وأقصر ليله ليؤزودا فضت وأخلف من قتيلة موعداً

ومضى لحاجته وأصبح حبله خلفاً وكان بحالة لن ينسكدا

للأعشى. وأقصر عن الشيء: أفلح عنه وامتنع منه. وأقصره: وجده قصيراً. وروى «قصر» بالتشديد. وروى «ليلة» بالإضافة إلى الضمير، لكن الذي في ديوان الأعشى «ليلة» بالتاء. وثوى بالمكان: أقام به، وأنوى به: لغة فيه، ويستعمل متعدداً أيضاً. يقول: إنه قطع السفر، وأقام بربع قتيلة، ووجد ليله قصيراً التزوره بالوصال، أو امتنع من السفر لذلك، فضى الليل على الأول، أو مضت الليلة على الثاني. وجزالة المعنى تشهد له. وأخلف المرعد من قتيلة، أى: وجده خلفاً، فصار كما كان إلى حاجته، واستعار الحبل للوداد أو اللطمع فيه على طريق التصريحية والخلق ترشيح، أى: ينس من مودته، وكان الحبل أو العاشق بحالة حسنة، هي أنه لن ينسكدا، أى لن يتنصص، ولن يتسكدر، ولن يتعسر شأنه، وزوال النعمة بعد نواها يقش على النفس، وخلق - بالضم - فهو خلق، كسب، وهو في الأصل مصدر. وينسكد كينعب.

به وقتن ، وإهدار سعيه ، وهدم مكره (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) .

إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

قرأ طلحة : الله الذي لا إله إلا هو الرحمن رب العرش (وسع كل شيء علما) وعن مجاهد وقتادة : وسع ، ووجه أن وسع متعد إلى مفعول واحد ، وهو كل شيء . وأما (علما) فانتصابه على التمييز ، وهو في المعنى فاعل ، فلما ثقل نقل إلى التعدية إلى مفعولين ، فنصبهما معا على المفعولية لأن المميز فاعل في المعنى ، كما تقول في : غاف زيد عمرا ، خوفت زيداً عمرا ، فترد بالنقل ما كان فاعلا مفعولا .

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾
مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾
خَلِيدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾

الكاف في ﴿ كذلك ﴾ منصوب المحل ، وهذا موعد من الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم ، أي : مثل ذلك الاختصاص ونحو ما اقتضينا عليك قصة موسى وفرعون ، نقص عليك من سائر أخبار الأمم وقصصهم وأحوالهم ، تكثيرا لبيناتك ، وزيادة في معجزاتك ، وليعتبر السامع ويزداد المستبصر في دينه بصيرة ، وتأكيد الحججة على من عاند وكابر ، وأن هذا الذكر الذي آتيناك يعني القرآن مشتملا على هذه الأفاصيل والأخبار الحقيقة بالتفكر والاعتبار ، لذكر عظيم وقرآن كريم ، فيه النجاة والسعادة لمن أقبل عليه ، ومن أعرض عنه فقد هلك وشقى . يريد بالوزر : العقوبة الثقيلة الباهظة ، سماها وزرا تشبيها في ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها بالحمل الذي يفدح ^(١) لحامل ، وينقض ظهره ، ويلقى عليه بهره ^(٢) : أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم . وقرئ : يحمل . جمع ﴿ خالدين ﴾ على المعنى ، لأن من معلق متناول لغير معرض واحد . وتوحيد الضمير في أعرض وما بعده للحمل على اللفظ . ونحوه قوله تعالى (ومن يعص الله ورسوله فإن له نازجا في جنات خالدين فيها) . ﴿ فيه ﴾ أي في ذلك الوزر . أو في احتمالها ﴿ ساء ﴾ في حكم بئس . والضمير الذي فيه يجب أن يكون مبهما يفسره ﴿ حملا ﴾ والمخصوص بالذم محذوف لدلالة الوزر السابق عليه ، تقديره : ساء حملا وزرهم ، كما حذف في قوله تعالى

(١) قوله « يفدح الحامل » أي يثقله . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) قوله « بهره » أي غلبته . أفاده الصحاح . (ع)

(نعم العبد إنه أواب) أيوب هو المخصوص بالمدح . ومنه قوله تعالى (وساء مصيرا) أي وساءت مصيرا جهنم . فإن قلت : اللام في (لحم) ما هي ؟ وبم تتعلق ؟ قلت : هي للبيان ، كافي (هيت لك) . فإن قلت . ما أنكرت ^(١) أن يكون في ساء ضمير الوزر ؟ قلت : لا يصح أن يكون في ساء وحكمه حكم بنس ضمير شيء بعينه غير مبهم فإن قلت : فلا يكر ساء الذي حكمه حكم بنس ، وليكن ساء الذي منه قوله تعالى (سيئت وجوه الذين كفروا) بمعنى أهم وأحزن ؟ قلت : كفاك صاذاً عنه أن يقول كلام الله إلى قولك : وأحزن الوزر لهم يوم القيامة حملا ، وذلك بعد أن تخرج عن عهدة هذا اللام وعهدة هذا المنسوب .

يَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ وَنَخْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۚ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۖ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ۚ

أسند النفخ إلى الأمر به فيمن قرأ : تنفخ ، بالنون . أو لأن الملائكة المقرئين وإسرائيل منهم بالمنزلة التي هم بها من رب العزة ، فصح لكرامتهم عليه وقربهم منه أن يسند ما يتولونه إلى ذاته تعالى . وقرئ : ينفخ ، بلفظ مالم يسم فاعله . وينفخ . ويحشر ، بالياء المفتوحة على الغيبة والضمير لله عز وجل أو لإسرائيل عليه السلام . وأما يحشر المحرمون فلم يقرأ به إلا الحسن . وقرئ (في الصور) بفتح الواو جمع صورة ، وفي الصور : قولان ، أحدهما : أنه بمعنى الصور وهذه القراءة تدل عليه . والثاني : أنه القرن . قيل في الزرق قولان ، أحدهما : أن الزرقة أبغض شيء من ألوان العيون إلى العرب لأن الروم أعداؤهم وهم زرق العيون ولذلك قالوا في صفة العدو : أسود السكبد ، أصهب السبيل ، أزرق العين . والثاني : أن المراد العمى ؛ لأن حدقة من يذهب نور بصره تزرق . تخافتهم لما يملأ صدورهم من الرعب والهول ، يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا : إما لما يعاينون من الشدائد التي تذكرهم أيام النعمة والسرور فيتأسفون عليها ويصفونها بالقصر لأن أيام السرور قصار . وإما لأنها ذهبت عنهم وتقصت ، والذاهب وإن طال مدتة قصير بالانتهاء . ومنه توقيع عبد الله بن المعتز تحت وأطال الله بقاءك : . كفى بالانتهاء قصرا ، وإما لاستطالتهم الآخرة وأنها أبد سرمد يستقصرون إليها عمر الدنيا ، ويتقال لبث أهلها فيها بالقياس إلى لبثهم في الآخرة . وقد استرجع الله قول من يكون أشد تقاولا منهم في قوله تعالى ﴿إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما﴾ ونحوه قوله تعالى (قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العاذين) وقيل : المراد لبثهم في القبور . ويعضده

(١) قوله «ما أنكرت» لعله «لم أنكرت» . (غ)

قوله عز وجل (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما ابثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون)، وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث).

وَبَسَّأَلُونَاكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦)

لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧)

(ينسفها) يجعلها كالرمل، ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها كما يذرى الطعام (فيذرها) (١) أى فيذر مقامها ومراكزها. أو يجعل الضمير للأرض وإن لم يجر لها ذكر، كقوله تعالى (ما ترك على ظهرها من دابة). فإن قلت: قد فرقوا بين العوج والعوج، فقالوا: العوج بالكسر فى المعانى. والعوج بالفتح فى الأعيان، والأرض عين، فكيف صح فيها المكسور العين؟ قلت: اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع فى وصف الأرض بالاستواء والملاسة، ونفى الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون، وذلك أنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسويتها وبالغت فى التسوية على عينك وعيون البصراء من الفلاحة، وانفقتم على أنه لم يبق فيها اعوجاج قط، ثم استطلعت رأى المهندس فيها وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية، لعثر فيها على عوج فى غير موضع، لا يدرك ذلك بحاسة البصر ولكن بالقياس الهندسى، فنفى الله عزّ وعلا ذلك العوج الذى دقّ ولطف عن الإدراك، اللهم إلا بالقياس الذى يعرفه صاحب التقدير والهندسة، وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق بالمعانى، فقبل فيه: عوج بالكسر. الأمت: التثنية اليسير، يقال: مدّ حبله حتى مافيه أمت.

يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَأَِعْوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ

وَرِضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩)

أضاف اليوم إلى وقت نصف الجبال فى قوله (يومئذ) أى يوم إذ نسفت. ويجوز أن يكون بدلا بعد بدل من يوم القيامة. والمراد: الداعى إلى المحشر. قالوا: هو إسرأفيل قائما على صخرة بيت المقدس يدعو الناس، فيقبلون من كل أوب إلى صوبه لا يعدلون (لاعوج له) أى لا يعوج له مدعو، بل يستوون إليه من غير انحراف متبعين لصوته. أى: خفضت

(١) قوله تعالى (فيذرها قاعا صفصفا) فى الصحاح: أن كلا من القاع والصفصف بمنى المستوى من الأرض، فكان الصفصف تأكيداً. (ع)

الاصوات من شدة الفزع وخفت ^(١) (فلا تسمع إلا همساً) وهو الركن الحقي . ومنه الحروف المهموسة . وقيل : هو من همس الإبل وهو صوت أخفافها إذا مشت ، أى : لا تسمع إلا خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر (من) يصلح أن يكون مرفوعاً ومنصوباً ، فالرفع على البذل من الشفاعة بتقدير حذف المضاف ، أى : لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من (أذن له الرحمن) والنصب على المفعولية . ومعنى أذن له (ورضى له) لاجله . أى : أذن للشافع ورضى قوله لاجله . ونحو هذه اللام اللام في قوله تعالى (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه) .

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ^(١١٠)

أى يعلم ما تقدمهم من الأحوال وما يستقبلونه ، ولا يحيطون بمعلوماته علماً .

وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ^(١١١)

المراد بالوجوه وجوه العصاة ، وأنهم إذا عاينوا - يوم القيامة - الخيبة والشقوة وسوء الحساب ، صارت وجوههم عانية ، أى ذليلة خاشعة ، مثل وجوه العناة وهم الأسارى . ونحوه قوله تعالى (فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا) . (ووجوه يومئذ باسرة) . وقوله تعالى (وقد خاب) وما بعده اعتراض ، كقولك : خابوا وخسروا . وكل من ظلم فهو خائب خاسر .

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ^(١١٢)

الظلم : أن يأخذ من صاحبه فوق حقه . والهضم : أن يكسر من حق أخيه فلا يوفيه له ، كصفة المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ويسترجعون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . أى : فلا يخاف جزاء ظلم ولا هضم ، لأنه لم يظلم ولم يهضم . وقرئ : فلا يخف ، على النهي .

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ

أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ^(١١٣)

(وكذلك) عطف على (كذلك نقص) أى : ومثل ذلك الإنزال ، وكما أنزلنا عليك هؤلاء الآيات المضمنة للوعيد ^(٢) أنزلنا القرآن كله على هذه الوتيرة ، مكررين فيه آيات الوعيد ،

(١) قوله «وخفت» في الصحاح «خفت الصوت» سكن . (ع)

(٢) قال محمود : ومعناه وكما أنزلنا عليك هذه الآيات المضمنة للوعيد ... الخ . قال أحمد : الصواب في تفسيرها : =

ليكونوا بحيث يراد منهم ترك المعاصي أو فعل الخير والطاعة . والذكر - كما ذكرنا - يطلق على الطاعة والعبادة . وقرئ : نحدث ونحدث ، بالتون والتاء ، أى : تحدث أنت . وسكن بعضهم التاء للتخفيف ، كما فى :

فَالْيَوْمَ أَشْرَبُ غَيْرَ مُسْتَحْفَبٍ إِنَّمَا مِنْ اللَّهِ وَلَا وَاعِلٍ (٣)

فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ

وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤)

(فتعالى الله الملك الحق) استعظام له ولما يصرف عليه عباده من أوامره ونواهيه ووعدده ووعيده والإدارة بين ثوابه وعقابه على حسب أعمالهم ، وغير ذلك مما يجرى عليه أمر ملكوته ولما ذكر القرآن وإنزاله قال على سبيل الاستطراد : وإذا لقنك جبريل ما يوحى إليك من القرآن ، فتأن عليك ربنا يسمعك ويفهمك ، ثم أقبل عليه بالتحفظ بعد ذلك ، ولا تكن قراءتك مساوقة لقراءته . ونحوه قوله تعالى (لا تحزك به لسانك لتعجل به) وقيل معناه : لا تبلغ ما كان منه مجحلا حتى يأتيك البيان . وقرئ : حتى تقضى إليك وحيه . وقوله تعالى (رب زدنى علما) متضمن للتواضع لله تعالى والشكر له عندما علم من ترتيب التعلم ، أى علمتى يارب لطيفة فى باب التعلم وأدباً جميلاً ما كان عندى ، فزدنى علماً إلى علم ، فإن لك فى كل شئ حكمة وعلماً . وقيل : ما أمر الله رسوله بطلب الزيادة فى شئ إلا فى العلم .

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥)

يقال فى أوامر الملوك ووصاياهم : تقدم الملك إلى فلان وأوعز إليه ، وعزم عليه ، وعهد

== ليكونوا على رجاء التقوى والتذكر ، وإلا فلو أراد الله من جميعهم التقوى لو نعمت . وقد تقدمت أسماؤها . والمعجب أنه نقل عن سيويه فى تفسير لعل أول هذه السورة عند قوله تعالى (لعله يتذكر أو يخشى) أن معناه : كوننا على رجائنا ، ثم رجع عن ذلك معنا : لأن المعتقد الفاسد يحذوه إلى هذا التأويل الباطل ، والله الموفق .

(١) حلت لى الخمر وكنت امرأ عن شربها فى شغل شاغل

فاليوم أشرب غير مستحقب إِنَّمَا مِنْ اللَّهِ وَلَا وَاعِلٍ

لامرئ القيس ، كان حلف لا يشرب الخمر حتى يقتل بنى أسد الذين قتلوا أباه حجرا ، فلما قتل جماعة منهم قال : حلت لى الخمر بعد أن كانت حراما على وكنت فى شغل شاغل لى عن شربها ، فاليوم حين أخذت الثأر أشرب ، وكان حقه الزرع لعدم الجازم ، فسكن تخفيفا للوزن . والمستحقب للشيء : الحامل له على ظهوره . ومنه الحقيقة ، فهبه الانتم بالشيء المحمول لمقتته على النفس ، والاستحباب تخجيل ، والواغل : الداغل على الشاربين من غير أن يدعوه ، أى : فاليوم أشرب ماشئت حال كونى غير متحمل ذنبا من الله . حيث بررت فى فسمى ، ولا متعلق على الشاربين .

إليه . عطف الله سبحانه قصة آدم على قوله (وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون) والمعنى : وأقسم قسماً لقد أمرنا أباهم آدم ووصيناه أن لا يقرب الشجرة ، وتوعدهما بالدخول في جملة الظالمين إن قربها ، وذلك من قبل وجودهم ومن قبل أن تتوعدهم ، بخالف إلى ما نهى عنه ، وتوعد في ارتكابه مخالفتهم . ولم يلتفت إلى الوعيد كما لا يلتفتون ، كأنه يقول : إن أساس أمر بني آدم على ذلك ، وعرقهم راسخ فيه . فإن قلت : ما المراد بالنسيان ؟ قلت يجوز أن يراد النسيان الذي هو نقيض الذكر ، وأنه لم يعم بالوصية العناية الصادقة ، ولم يستوثق منها بعقد القلب عليها وضبط النفس ، حتى تولد من ذلك النسيان . وأن يراد الترك وأنه ترك ما وصى به من الاحتراس عن الشجرة وأكل ثمرتها . وقرئ : ففسى ، أى : نساء الشيطان . العزم : التصميم والمضى على ترك الأكل ، وأن يتصلب في ذلك تصلباً يؤيس الشيطان من التسويل له . والوجود : يجوز أن يكون بمعنى العلم ، ومفعولاه (له عزما) وأن يكون نقيض العدم كأنه قال : وعدمنا له عزما .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٦﴾

(إذ) منصوب بمضمر ، أى : واذكر وقت ماجرى عليه من معاداة إبليس ووسوسته إليه وتزيينه له الأكل من الشجرة ، وطاعته له بعد ما تقدمت معه النصيحة والموعظة البليغة والتحذير من كيدته ، حتى يتبين لك أنه لم يكن من أولى العزم والثبات . فإن قلت : إبليس كان جنياً بدليل قوله تعالى (كان من الجن فسق عن أمر ربه) فمن أين تناوله الأمر وهو للملائكة خاصة ؟ قلت كان في صحبتهم ، وكان يعبد الله تعالى عبادتهم ، فلما أمروا بالسجود لآدم والتواضع له كرامة له ، كان الجنى الذى معهم أجدر بأن يتواضع ، كما لو قام لمقبل على المجلس عليه أهله وسراتهم ، كان القيام على واحد بينهم هو دونهم في المنزلة أوجب ، حتى إن لم يقم عنف . وقيل له : قد قام فلان وفلان ، فمن أنت حتى تترفع عن القيام ؟ فإن قلت : فكيف صح استثنائه وهو جنى عن الملائكة ؟ قلت : عمل على حكم التغليب في إطلاق اسم الملائكة عليهم وعليه ، فأخرج الاستثناء على ذلك ، كقولك : خرجوا إلا فلانة ، لامرأة بين الرجال (أبى) جملة مستأنفة ، كأنه جواب قائل قال : لم لم يسجد . والوجه أن لا يقدر له مفعول ، وهو السجود المدلول عليه بقوله (فسجدوا) وأن يكون معناه أظهر الإباء . وتوقف وتنبط

فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾

(فلا يخرجنكما) فلا يكونن سبباً لإخراجكما . وإنما أسند إلى آدم وحده فعل الشقاء دون

حزاء بعد إشرأ كهما في الخروج ؛ لأن في ضمن شقاء الرجل وهو قيم أهله وأميرهم شقاءهم ، كما أن في ضمن سعادته سعادتهم ، فاختصر الكلام بإسناده إليه دونها . مع المحافظة على الفاصلة . أو أريد بالشقاء التعب في طلب القوت ، وذلك معصرب برأس الرجل وهو راجع إليه . وروى أنه أهبط إلى آدم ثورا حمر فكان يحرث عليه ويمسح البرق من جبينه . قرئ : ﴿ وإنك ﴾ بالكسر والفتح . ووجه الفتح العطف على (أن لا تجوع) . فإن قلت : إن لا تدخل على أن ، فلا يقال : إن أن زيدا منطلق ، والواو نائبة عن إن وقائمة مقامها فلم أدخلت عليها ؟ قلت : الواو لم توضع لتكون أبدا نائبة عن إن ، إنما هي نائبة عن كل عامل ، فلما لم تكن حرفا موضوعا للتحقيق خاصة - كان - لم يتمتع اجتماعهما كما امتنع اجتماع إن وأن .

إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۖ (١١٧) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ (١١٨)

الشبع والرى والكسوة والكن : هي الأقطاب التي يدور عليها كفاف الإنسان ، (١) فذكره استجاءها له في الجنة ، وأنه مكفي لا يحتاج إلى كفاية كاف ولا إلى كب كاسب كما يحتاج إلى ذلك أهل الدنيا ، وذكرها بلفظ النفي لتفائضها التي هي الجوع والعري والظلم والضحو (٢) ، ليترك سمعه بأسامي أصناف الشقوة التي حذر منها ، حتى يتحاشى السبب الموقع فيها كراهة لها . فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ الْخُلْدِ

وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠)

(١) قال محمود : ذكر تعالى الأصناف التي بها قوام الانسان ... الخ ، قال أحمد : تنبيه حسن ، وفي الآية سر بدیع من البلاغة يسمى قطع النظر عن النظر ، وذلك أنه قطع الظما عن الجوع والضحو عن الكسوة ، مع ما بينهما من تناسب . والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها ، ولو قرن كلا بفعله لتروم المعدودات نعمة واحدة ، وقد روى أهل البلاغة سماء هذا المعنى قديما وحديثا فقال الكندي الأول :

كأنى لم أركب جوادا للذة ولم أتبعن كاعبا ذات خلخال

ولم أرشف الرزق الروى ولم أقل لخللى كرى كرة بعد إجحاف

فقطع ركوب الجواد عن قوله « لخللى كرى كرة » وقطع تبعان الكاعب عن ترشف الكأس مع التناسب ، وغرضه أن يعدد ملاذه ومفاخره ويكثرها ، وتبعه الكندي الآخر فقال :

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الإبطال كللى مريمة ووجهك وضاح وتفرق بامم

فاعترضه سيف الدولة بأنه ليس فيه قطع الشيء عن نظيره ، ولكنه على فطنته قصر فهمه عما حالت إليه يد أى الطيب من هذا المعنى الطائل البديع ، على أن في هذه الآية سرأ لذلك زائدا على ما ذكر ، وهو أن قصد تناسب الفواصل ، ولو قرن الظما بالجوع فقل : إن لك أن لا تجوع فيها ولا تظما ، لانتثر ذلك رؤس الآى ، وأحسن به منظما ، والله أعلم . (٢) قوله « والضحو » الذى فى الصحاح : ضحيت للشمس ضحا - معدود - إذا برزت الشمس لها ، وضحيت - بالفتح - مثله . (ع)

فإن قلت : كيف عدى وسوس تارة باللام في قوله (فوسوس لها الشيطان) وأخرى بإلى ؟ قلت : وسوسة الشيطان كقولته الشكلى (١) ووعوعة الذئب ووقوفة الدجاجة ، في أنها حكايات للأصوات وحكمها حكم صوت وأجرس . ومنه : وسوس المبرسم ، وهو موسوس بالكسر . والفتح لحن . وأنشد ابن الأعرابي :

* وَسَوْسَ يَدْعُو مُخْلِصًا رَبُّ الْقَلْقُ * (٢)

فإذا قلت : وسوس له ، فعناه لأجله ، كقوله :

* أَجْرِسُ لَهَا يَا ابْنَ أَبِي كَبَاشِ * (٣)

ومعنى وسوس إليه ، أنهى إليه الوسوسة ، كقولك : حدث إليه . وأسر إليه . أضاف الشجرة إلى الخلد وهو الخلود ، لأن من أكل منها خلد بزعمه ، كما قيل لحيزوم : فرس الحياة ، لأن من باشر أثره حيي (وملك لا يبلى) دليل على قراءة الحسن بن علي وابن عباس رضي الله عنهم : (إلا أن تكونا ملكين) بالكسر .

فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْءُأُهُمَا وَطَفِقَا مَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ

وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١)

(١) قوله «كولولة الشكلى» أى الحزينة . (ع)

(٢) وسوس يدعو مخلصا رب القلق سرا وقد أون تأرين العقق

في الزرب لو يمضغ شربا مابصق

لرؤية ، يصف قانصا . وسوس : تكلم في نفسه ، يدعو لله مخلصا أنه يظفره بالصبيد ، وقوله «سرا» ساقه مساق الظرف للتوكيد ، أى تعلق بوسوس ، وللتأديس إن تعلق يدعو ، وتكون الجملة حالية مبنية للوسوسة . وقد أون أى : الخير الوحشية ، والجملة أيضا حالية ، والتأوين : امتلاء الجنين من الآون ، وهو جانب الحرج الممتلئ . والأوتان الجانبان الممتلئان . والعقق : الحوامل ، واحده عقوق كعروس ، وقيل : هو العقوق ، أى امتلات بطونهن ماء لكثرة شربهن كامتلاء بطون الحوامل في الزرب ، حال من ضمير القانص . والزرب والزربة : قترته التى يكن فيها وانزرب القانص : دخل الزرب . وقوله «لو يمضغ» فى معنى المال أيضا ، أى : ساكتا بحيث لو يمضغ شربا ، أى : لو يلوك بفمه مقدارا من مائه وهو الربق ، لم يصبق لئلا يسمع الصبيد صوته . وأصل الشرب : النصيب من الماء ، استعاره لما يجتمع بفمه من الربق ، وبين الزرب والشرب الجناس المضارع .

(٣) أجرس لها يا ابن أبي كباش فما لها الليلة من الفاش

غير السرى وصائق نجاش

«أجرس» بقطع الهمة وبالسین المهذبة ، أى : صوت واحد للابل في السير ، فالها في هذه الليلة انفاش ، أى : إطلاق في المرعى . والسرى : سير الليل . ونجشت الابل : جمعها بعد تفرق . ونجاش : صيغة مبالغة ، أى : ليس لها رعى ، بل سير شديد . وروى «أجرش» بوصل الهمة والشين المعالة ، وهو بمناء هنا . وأجرس بالمهملة : الصوت الخفى ، وبالمشاة : صوت المشط في الشعر . وماشابه ذلك .

طفق يفعل كذا، مثل: جعل يفعل، وأخذ، وأنشأ. وحكمها حكم كاد في وقوع الخبر فعلا مضارعاً، وبينها وبينه مسافة قصيرة هي للشروع في أول الأمر. وكاد لمشارفته والدنو منه. قرئ (يخصفان) للتكثير والتكرير، من خصف النعل وهو أن يخرز عليها الخصاف، أى: يلزقان الورق بسواتهما للتستر وهو ورق التين. وقيل كان مدورا فصار على هذا الشكل من تحت أصابعهما. وقيل كان لباسهما الظفر، فلما أصابا الخطيئة نزع عنهما وتركت هذه البقايا في أطراف الأصابع. عن ابن عباس: لاشبه في أن آدم لم يمثل مارسم الله له، وتخطى فيه ساحة الطاعة، وذلك هو العصيان. ولما عصى خرج فعله من أن يكون رشداً وخيراً، فكان غيلاً لا محالة؛ لأن الغى خلاف الرشد، ولكن قوله (وعصى آدم ربه فغوى) بهذا الإطلاق وبهذا التصريح، وحيث لم يقل: وزل آدم وأخطأ وما أشبه ذلك، مما يعبر به عن الزلات والفرطات: فيه لطف بالمكلفين ومنزجرة بليغة وموعظة كافية، وكأنه قيل لهم: انظروا واعتبروا كيف نعت على النبي المعصوم حبيب الله الذي لا يجوز عليه إلا اقتراف الصغيرة غير المنفرة زلته بهذه الغلظة وبهذا اللفظ الشنيع، فلا تنهاونوا بما يفرط منكم من السيئات والصغائر، فضلاً أن تجسروا على التورط في الكبائر. وعن بعضهم (فغوى) فيشتم^(١) من كثرة الأكل، وهذا وإن صح على لغة من يقلب الياء المكسورة ما قبلها ألفاً فيقول في «فغى»، وبقى، وفنا، وبقا، وهم بنو طي - تفسير خيث.

ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢)

فإن قلت: ما معنى (ثم اجتباه ربه)؟ قلت: ثم قبله بعد التوبة وقربه إليه، من جى إلى كذا فاجتبيته. ونظيره: جلست على العروس فاجتلتيتها. ومنه قوله عز وجل (وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبتيتها) أى هلا جيت إليك فاجتبتيتها. وأصل الكلمة الجمع. ويقولون: اجتبت الفرس نفسها إذا اجتمعت نفسها راجعة بعد النفار. و(هدى) أى وفقه لحفظ التوبة وغيره من أسباب العصمة والتقوى.

قَالَ أَهْبَأْ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَا تُيْنَكُم مِّنِّي هُدًى مَّن

أَتَّبِعْ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣)

لما كان آدم وحواء عليهما السلام أصلي البشر، والسييين اللذين منهما نشؤا وتفرعوا: جعلاً كأنهما البشر في أنفسهما، فخطبوا مخاطبتهم، فقيل (فإمّا يأتينكم) على لفظ الجماعة.

(١) قوله «فيشتم» من كثرة الأكل، في الصحاح «البشم» التخمّة، (ع)

ونظيره إسنادهم الفعل إلى السبب ، وهو في الحقيقة للسبب ﴿ هدى ﴾ كتاب وشريعة . وعن ابن عباس : ضمن الله لمن اتبع القرآن أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ، ثم تلا قوله ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾ والمعنى أن الشقاء في الآخرة هو عقاب من ضل في الدنيا عن طريق الدين فمن اتبع كتاب الله وامثل أوامره وانتهى عن نواهيه نجا من الضلال ومن عقابه .

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِسْمَةِ أَعْمَى ١٢٤

قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ١٢٥ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا

فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْفَسَى ١٢٦

الضنك : مصدر يستوى في الوصف به المذكر والمؤنث . وقرئ ﴿ ضنكى ﴾ على فعلى . ومعنى ذلك : أن مع الدين التسليم والقناعة والتوكل على الله وعلى قسمته : فصاحبه ينفق ما رزقه بسلاح وسهولة ، فيعيش عيشاً رافعاً : كما قال عز وجل (فلنجنيه حياة طيبة) والمعرض عن الدين ، مستول عليه الحرص الذى لا يزال يطمح به إلى الازدياد من الدنيا ، مسلط عليه الشح الذى يقبض يده عن الإنفاق ، فعيشه ضنك وحاله مظلمة . كما قال بعض المتصوفة : لا يعرض أحد عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته وتشوش عليه رزقه . ومن الكفرة من ضرب الله عليه الذلة والمسكنة لكفره : قال الله تعالى (وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله) وقال (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لا كلاً من فوقهم ومن تحت أرجلهم) وقال (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) وقال (استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً) وقال (وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً) وعن الحسن : هو الضريع والزقوم في النار . وعن أبي سعيد الخدرى : عذاب القبر . وقرئ ﴿ ونحشره ﴾ بالجزم . عطفاً على محل (فإن له معيشة ضنكاً) لأنه جواب الشرط . وقرئ : ونحشره . بسكون الهاء على لفظ الوقف ، وهذا مثل قوله (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكياً وصماً) وكما فسر الزرق بالعمى ﴿ كذلك ﴾ أى مثل ذلك فعلت أنت ، ثم فسر بأن آياتنا أتتك واضحة مستنيرة ، فلم تنظر إليها بعين المعبر ولم تبصر ، وتركتها وعميت عنها ، فكذلك اليوم تركك على عماك ولا نزيل غطاءه عن عينيك .

وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ

أَشَدُّ وَأَبْقَى ١٢٧

لما توعد المعرض عن ذكره بعقوبتين : المعيشة الضنك في الدنيا ، وحشره أعمى في الآخرة -
ختم آيات الوعيد بقوله (ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) كأنه قال : وللحشر على العمى الذي
لا يزول أبداً أشد من ضيق العيش المنقضى . أو أراد : ولتركنا إياه في العمى أشد وأبقى من
تركة آياتنا .

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِينَ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ١٢٨

فاعل (لم يهد) الجملة بعده يريد : ألم يهد لهم هذا بمعناه ومضمونه . ونظيره قوله تعالى
(وتركنا عليه في الآخرين سلام على نوح في العالمين) أى تركنا عليه هذا الكلام . ويجوز أن
يكون فيه ضمير الله أو الرسول ، ويدل عليه القراءة بالنون . وقرئ (يمشون) يريد أن قريشا
يتقلبون في بلاد عاد وثمود ويمشون (في مساكنهم) ويعاينون آثار هلاكهم .

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ١٢٩

الكلمة السابقة : هي العدة بتأخير جزائهم إلى الآخرة ، يقول : لولا هذه العدة لكان مثل
إهلاكنا عاداً وثموداً لازماً لهؤلاء الكفرة . واللام : إما مصدر لازم وصف به ، وإما فعال
بمعنى مفعول ، أى ملزم ، كأنه آلة اللزوم لفرط لزومه ، كما قالوا : لزاز خصم (وأجل مسمى)
لا يخلو من أن يكون معطوفاً على (كلمة) أو على الضمير في (كان) أى لكان الأخذ العاجل
وأجل مسمى لازمين لهم كما كانا لازمين لعاد وثمود ، ولم ينفرد الأجل المسمى دون الأخذ العاجل

فَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا

وَمِنْ أَنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ١٣٠

(بحمد ربك) في موضع الحال ، أى : وأنت حامد لربك على أن وفقك للتسبيح وأعانك
عليه . والمراد بالتسبيح الصلاة . أو على ظاهره قدم الفعل على الأوقات أولاً ، والأوقات على
الفعل آخر ، فكانه قال : صل لله قبل طلوع الشمس بمعنى الفجر ، وقبل غروبها بمعنى الظهر
والعصر ، لأنهما واقعتان في النصف الأخير من النهار بين زوال الشمس وغروبها ، وتعتمد
أناء الليل وأطراف النهار مختصاً لهما بصلاتك ، وذلك أن أفضل الذكر ما كان بالليل ، لاجتماع
القلب وهدهو الرجل والخلو بالرب . وقال الله عز وجل (إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم
قيلاً) وقال (أئن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً) ولأن الليل وقت السكون والراحة ، فإذا

صرف إلى العبادة كانت على النفس أشد وأشق ؛ وللبدن أتعب وأنصب ، فكانت أدخل في معنى التكليف وأفضل عند الله . وقد تناول التسييح في آناء الليل صلاة العتمة ، وفي أطراف النهار صلاة المغرب وصلاة الفجر على التكرار ، إرادة الاختصاص ، كما اختصت في قوله (حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى) عند بعض المفسرين . فإن قلت : ما وجه قوله (وأطراف النهار) على الجمع ، وإنما هما طرفان كما قال (أقم الصلاة طرفي النهار) ؟ قلت : الوجه أمن الإلباس ، وفي الثنية زيادة بيان . ونظير مجيء الأمرين في الآيتين : مجيئهما في قوله :

ظَهَرَا مِثْلَ ظُحُورِ التَّرْسِينَ * (١)

وقرى : « وأطراف النهار ، عطفاً على آناء الليل . ولعل للنخاطب ، أى : اذكر الله في هذه الأوقات ، طمعا ورجاء أن تنال عند الله ما به ترضى نفسك ويسر قلبك . وقرى : « ترضى ، أى يرضيك ربك . »

وَلَا تَمُدَّنْ عَيْنُكَ إِلَى مَأْمَتْنَاهُ بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٣١)

(ولا تمدن عينيك) أى نظر عينيك : ومد النظر : تطويله ، وأن لا يكاد يرده ، استحسانا للنظور إليه وإعجابا به ، وتمنيا أن يكون له ، كما فعل نظارة قارون حين قالوا (يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم) حتى واجههم أولو العلم والإيمان : (ويلكم ثواب الله خير لمن

(١) ومهمين قذفين مرتين ظهراهما مثل ظهور الترسين
جيهما بالنعث لا بالنعثين

لخطام المجاشعي . وقيل : لميان بن قحافة . والمهمه : المفازة . والقذف : بالتحريك - : الذى يقذف سالكه فلا يمكث فيه أحد . وقيل : البعيد . والمرت - بالسكون - : الفقر لأماء فيه ولا نبات . والترس : حيوان ناقى الظهر . وثى : ظهورهما على الأصل ، وجمع فيها بعد لأمن اللبس ، ولأنه ربما كره اجتماع ثنيتين ، لاسيا عند تابع الثنية كما هنا . وقال النحاة : كل متى فى المعنى مضاف إلى متضمنه . يختار فى لفظه الجمع لتعدد معناه وكرامة اجتماع ثنيتين فى اللفظ . ويجوز مجيئه على الأصل كما هنا . ويجوز إفراده كقوله :

« حامة بطن الواديين ترني » .

والجواب : القطع . والنعث : الوصف . ويروى : « بالسمت لا بالسمتين » والسمت : الهيئة والقصد والجهة والطريق والمراد أنهما وصفا ، أو ذكرت هياتهما له مرة واحدة . يقول : رب موضعين قفرين لا أنيس فيهما ، لهما ظهوران مرتفعان ، كظهري الترسين ، قطعتهما بالسير نعت واحد ، لا بوصفهما لى مرتين أو ثلاثة كغيرى . ويجوز أن المعنى بذكر نعت واحد من نعمتها ، لا بذكر نعتين ، فالنعت بمعنى الصفة القائمة بالشئ . وفى الكلام دلالة على شجاعته وحذقه .

آمن وعمل صالحاً) وفيه أن النظر غير الممدود معفو عنه ، وذلك مثل نظر من باده الشيء بالنظر ثم غض الطرف ، ولما كان النظر إلى الزخارف كالمركز في الطبايع ، وأن من أبصر منها شيئاً أحب أن يمدّ إليه نظره ويملا منه عينيه : قيل (ولا تمدن عينيك) أى لا تفعل ما أنت معتاد له وضار به ، ولقد شدد العلماء من أهل التقوى في وجوب غض البصر عن أبنية الطلبة وعدد الفسقة في اللباس والمراكب وغير ذلك ، لأنهم إنما اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة ؛ فالناظر إليها حصل لغرضهم ، وكالمغرى لهم على اتخاذها (أزواجاً منهم) أصنافاً من الكفرة . ويجوز أن ينتصب حالاً من هاء الضمير ، والفعل واقع على (منهم) كأنه قال : إلى الذى متعنا به وهو أصناف بعضهم وناساً منهم . فإن قلت : علام انتصب (زهرة) ؟ قلت : على أحد أربعة أرجه : على الذم وهو النصب على الاختصاص . وعلى تضمين (متعنا) معنى أعطينا وخولنا ، وكونه مفعولاً ثانياً له . وعلى إبداله من محل الجار والمجرور . وعلى إبداله من أزواجاً ، على تقدير ذوى زهرة . فإن قلت : ما معنى الزهرة فيمن حرك ^(١) ؟ قلت : معنى الزهرة بعينه وهو الزينة والبهجة ، كما جاء في الجهرة الجهرة . وقرئ : أرنا الله جهرة . وأن تكون جمع زاهر ، وصفاً لهم بأنهم زاهرو هذه الدنيا ، لصفاء ألوانهم عما يلهون ويتنعمون ؛ وتهلل وجوههم ^(٢) وبهاء زيهم وشارتهم ^(٣) ، بخلاف ما عليه المؤمنون والصلحاء : من شحوب الألوان والتشقق في الثياب (لنفتنهم) لنبوهم حتى يستوجبوا العذاب ، لوجود الكفران منهم . أو لنعذبهم في الآخرة بسببه (ورزق ربك) هو ما أدره من ثواب الآخرة الذى هو خير منه في نفسه وأدوم . أو ما رزقه من نعمة الإسلام والنبوة . أو لأن أموالهم الغالب عليها الغضب والسرقه والحرمة ^(٤) من بعض الوجوه ، والحلال (خير وأبقى) لأن الله لا ينسب إلى نفسه إلا ما حل وطاب دون ما حرم وخبيث ، والحرام لا يسمى رزقاً أصلاً ^(٥) . وعن عبد الله بن قسيط عن رافع قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه

(١) قوله «حرك» أى حرك الماء بالفتح . (ع)

(٢) قوله «وتهلل وجوههم» الذى فى الصحاح : تهلل وجه الرجل من فرحه ، وهلل النجاج الثوب . أرق نسجه وخففه . (ع)

(٣) قوله «وبهاء زيهم وشارتهم» فى الصحاح : الزى والشارة : اللباس والمينة . (ع)

(٤) قال محمود : «ومعناه أن رزق هؤلاء الممتنعين فى الدنيا أكثره مكتسب من الحرام ... الخ» قال أحمد : لولا أن غرض القدرية من هذا إثبات رازق غير الله تعالى كما أثبتوا خالقاً سوى الله تعالى لكان البحث لفظياً . فالحق والسنة أن كل ما تقوم به البنية رزق من الله تعالى ، سواء كان حلالاً أو غيره ، لا يلزم من كون الله تعالى رزقه أن يكون حلالاً ، فكما يخلق الله تعالى على يدى العبد ما نهى عنه ، كذلك يرزقه ما أباح له تناوله وما لا (لا يسل) عما يفعل وهم يسلون والله الموفق الصواب .

(٥) قوله «والحرام لا يسمى رزقاً أصلاً» هذا عند المعتزلة ، ويسمى رزقاً عند أهل السنة . (ع)

وسلم إلى يهودى وقال : « قل له يقول لك رسول الله أقرضنى إلى رجب ، فقال : والله لا أقرضته إلا برهن ، فقال رسول الله : « إني لأمين في السماء وإني لأمين في الأرض ، أحمل إليه درعى ^(١) الحديد ، فنزلت : ولا تمدن عينيك .

وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ
وَالْعُقُبَةُ لِلتَّقْوَى ^(١٣٢)

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ) أى وأقبل أنت مع أهلك على عبادة الله والصلاة ؛ واستعينوا بها على خصاستكم ؛ ولا تهتم بأمر الرزق والمعيشة ، فإن رزقك مكفى من عندنا ، ونحن رازقوك ولا نسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك ففرغ بالك لأمر الآخرة . وفى معناه قول الناس : من دان فى عمل الله كان الله فى ^(٢) عمله . وعن عروة بن الزبير أنه كان إذا رأى ما عند السلاطين قرأ (ولا تمدن عينيك ... الآية) ثم ينادى الصلاة الصلاة رحمكم الله . وعن بكر بن عبد الله المزنى كان إذا أصابت أهله خصاصة قال : قوموا فصلوا ، بهذا أمر الله رسوله ، ثم يتلو هذه الآية .

وَقَالُوا لَوْلَا بَأْتِنَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوْ لَمْ تَأْتِئِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ^(١٣٣)
اقترحوا على عادتهم فى التعمت آية على النبوة ، فقيل لهم : أولم تأتكم آية هى أم الآيات وأعظمها فى باب الإعجاز يعنى القرآن ، من قبل أن القرآن برهان ما فى سائر الكتب المنزلة ودليل صحته لأنه معجزة ، وتلك ليست بمعجزات ، فهى مفتقرة إلى شهادته على صحة ما فيها ، افتقار المحتج عليه إلى شهادة الحجة . وقرئ : الصحف . بالتخفيف . ذكر الضمير الراجع إلى البيئة لأنها فى معنى البرهان والدليل .

وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِمَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا
رَسُولًا فَتَنْصَحَ مَا يَتَك مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى ^(١٣٤)

(١) قلت وقع فيه تحريف فى الراويين . وإنما هو عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبي رافع . ولعل ذلك من النسخ . والحديث أخرجه إصحاق وابن أبي شيبة وأبو يعلى والبزاز والطبرى والطبرانى من هذا الوجه مطولا . وفيه موسى بن عبيدة الزبيري وهو مقروك . واستدل على بطلان ما رواه أنه وقع فيه . وأن قوله تعالى (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم الآية) نزلت فى هذه القصة وسورة طه مكية - وهذه القصة إنما كانت فى المدينة كما فى الصحيح . وهذا يمكن الجواب عنه إذ لا مانع أن تكون الآية وحدها مدنية . وبقيّة الصورة مكى . وأما حمله على تعدد القصة فلم يصب .

(٢) قوله « من دان فى عمل الله كان الله فى عمله » دان : ذل . ودانه : أذله ، كذا فى الصحاح . (ع)

قرئ (نزل ونخزى) على لفظ مالم يسم فاعله .

قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ الصَّرَاطِ السَّوِيِّ

وَمَنْ أَهْتَدَى (١٣٥)

(كل) أى كل واحد منا ومنكم (متربص) للعاقبة ولما يؤول إليه أمرنا وأمركم .
وقرئ : السواء ، بمعنى الوسط والجيد . أو المستوى والسوء والسوئى والسوى تصغير السوء .
وقرئ : فتمتعوا فسوف تعلمون . قال أبو رافع : حفظته من رسول الله صلى الله عليه وسلم .
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من قرأ سورة طه أعطى يوم القيامة ثواب المهاجرين
والأنصار (١) ، وقال : لا يقرأ أهل الجنة من القرآن إلا طه ويس (٢) ،

سورة الأنبياء

مكية وآياتها ١١٢ [نزلت بعد سورة إبراهيم]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١)

هذه اللام : لا تخلو من أن تكون صلة لاقترب ، أو تأكيداً لإضافة الحساب إليهم ،
كقولك : « أوف للحى رحيلهم ، الأصل : أوف رحيل الحى . ثم أوف للحى الرحيل ، ثم
أوف للحى رحيلهم . ونحوه ما أورده سيبويه فى « باب ما يثنى فيه المستقر توكيداً ، عليك زيد
حريص عليك . وفيك زيد راغب فيك . ومنه قولهم : لأبالك : لأن اللام مؤكدة لمعنى
الإضافة . وهذا الوجه أغرب من الأول . والمراد اقتراب الساعة . وإذا اقتربت الساعة فقد
اقترب ما يكون فيها من الحساب والثواب والعقاب وغير ذلك . ونحوه (واقتراب الوعد

(١) أخرجه الثعلبى من رواية زياد عن الحسن مرسلًا .

(٢) أخرجه ابن مردويه من حديث أبى بن كعب .

(الحق) . فإن قلت : كيف وصف بالاقتراب وقد عدت دون هذا القول أكثر من خمسمائة عام ؟ قلت : هو مقرب عند الله والدليل عليه قوله عزّ وجلّ (ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون) ولأنّ كلّ آت - وإن طالّت أوقات استقباله وترقبه - قريب ، إنما البعيد هو الذى وجد وانقرض ، ولأنّ ما بقى فى الدنيا أقصر وأقل مما سلف منها ، بدليل انبعاث خاتم النبيين الموعود مبعثه فى آخر الزمان . وقال عليه السلام ^(١) « بعثت فى نسف الساعة » ، وفى خطبة بعض المتقدمين : ولت الدنيا حذاء ، ولم تبق إلا صباية كصباية الإناث . وإذا كانت بقية الشيء وإن كثرت فى نفسها قليلة بالإضافة إلى معظمه ، كانت خليفة بأن توصف بالقلة وقصر الذرع . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن المراد بالناس : المشركون . وهذا من إطلاق اسم الجنس على بعضه للدليل القائم ، وهو ما يتلوه من صفات المشركين . وصفهم بالغفلة مع الإعراض ، على معنى : أنهم غافلون عن حسابهم ساهون ، لا يتفكرون فى عاقبتهم ، ولا يتفطنون لما ترجع إليه خاتمة أمرهم ، مع اقتضاء عقولهم أنه لا بدّ من جزاء للمحسن والمسيء . وإذا قرعت لهم العصا ونهوا عن سنة الغفلة وفطنوا لذلك بما يتلى عليهم من الآيات والنذر ، أعرضوا وسدوا أسماعهم ونفروا .

مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾
لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ
السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾

قزر إعراضهم عن تنبيه المنبه وإيقاظ الموقظ : بأن الله يجدد لهم الذكر وقتاً فوقتاً ، ويحدث لهم الآية بعد الآية والسورة بعد السورة ، ليكثّر على أسماعهم التنبيه والموعظة لعلهم يتعظون ، فما يزيدهم استماع الآي والسور وما فيها من فنون المواعظ والبصائر - التى هى أحق الحق وأجدد الجذ - إلا لعباً وتلهياً واستسخاراً . والذكر : هو الطائفة النازلة من القرآن . وقرأ ابن أبى عبادة (حدث) بالرفع صفة على المحل . قوله (وهم يلعبون لاهية قلوبهم)

(١) أخرجه البزار بإسناد حسن ، من حديث أبى جبير بن الضحاك الأنصارى وأخرجه الحسن بن سفيان - ومن طريقه أبو نعيم فى الحلية . وفى الباب عن المستورد بن شداد رفعه « بعثت فى نفس الساعة - الحديث ، أخرجه الترمذى . وقوله : وفى خطبة بعض المتقدمين « ولت الدنيا حذاء لم يبق إلا صباية كصباية الإناث ، هو عبدالله بن غزوان . أخرجه مسلم من حديثه مطولاً .

(٢) قوله « بعثت فى نسف الساعة » فى الصحاح « نسف الريح » أولها حين تقبل بلين قبل أن تشتد . ومنه الحديث « بعثت فى نسف الساعة » أى حين ابتدأت وأقبلت أوائلها . والنسف أيضاً : جمع نسمة ومى النفس . (ع)

حالان مترادفتان أو متداخلتان. ومن قرأ (لا هية) بالرفع فالحال واحدة، لأن (لا هية قلوبهم) خبر بعد خبر، لقوله (وهم) واللا هية: من لها عنه إذا ذهل وغفل، يعني أنهم وإن فطنوا فهم في قلة جدوى فطنتهم كأنهم لم يفتنوا أصلاً، وثبتوا على رأس غفلتهم وذهولهم عن التأمل والتبصر بقلوبهم. فإن قلت: النجوى وهى اسم من التناجى لا تكون إلا خفية، فما معنى قوله وأسروا؟ قلت: معناه: وبالغوا في إخفائها. أو جعلوها بحيث لا يظن أحد لتناجيهم ولا يعلم أنهم متناجون، أبدل (الذين ظلموا) من واو وأسروا، إشعاراً بأنهم الموسومون بالظلم الفاحش فيما أسروا به. أو جاء على لغة من قال: أكلوني البراغيث، أو هو منصوب المحل على الذم. أو هو مبتدأ خبره (وأسروا النجوى) قدم عليه: والمعنى: وهؤلاء أسروا النجوى. فوضع المظهر موضع المضمرة تسجيلاً على فعلهم بأنه ظلم (هل هذا إلا بشر مثلكم أقتاتون السحر وأنتم تبصرون) هذا الكلام كله في محل النصب بدلا من النجوى، أى: وأسروا هذا الحديث. ويجوز أن يتعلق بقالوا مضمراً: اعتقدوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكون إلا ملكاً، وأن كل من ادعى الرسالة من البشر وجاء بالمعجزة هو ساحر ومعجزته سحر، فلذلك قالوا على سبيل الإنكار: أفتحضرون السحر وأنتم تشاهدون وتعاينون أنه سحر. فإن قلت: لم أسروا هذا الحديث وبالغوا في إخفائه؟ قلت: كان ذلك شبه التشاور فيما بينهم، والتحاور في طلب الطريق إلى هدم أمره، وعمل المنصوبة في التثبيط عنه^(١). وعادة المتشاورين في خطب أن لا يشركوا أعداءهم في شورايم، ويتجاهدوا في طي سرهم عنهم ما أمكن واستطيع. ومنه قول الناس: استعينوا على حوائجكم بالكتان، ويرفع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢). ويجوز أن يسروا نجواهم بذلك ثم يقولوا الرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين: إن كان ما تدعونه حقاً فأخبرونا بما أسرنا.

قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٤

- (١) قوله وعمل المنصوبة في التثبيط عنه، كأن فيه سقطا. وفي الصحاح: نصبت للفلان نصبا: إذا عادته. (ع)
(٢) روى موقفاً. قال: ويرفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب الثالث والأربعين وابن عدى من رواية سعيد بن سلام المطار عن ثور بن زيد عن خالد بن معدان عن معاذ بن جبل. وسعيد. قال البخاري: يذكر بالوضع، وتابعه حسين بن علوان عن ثور. وكان أيضاً يضع الحديث. قاله ابن عدى وابن حبان وقال مهنا عن أحمد وابن معين: هو حديث موضوع. وقال ابن أبي حاتم عن أبيه: منكر لا يعرف له أصل. وفي الباب عن أبي هريرة أخرجه حمزة البهيم في تاريخ جرجان. وفيه شميل بن عبد الرحمن الجرجاني رواه محمد بن مطرف وعند الهيثم بن أيوب الطالقاني، وعن ابن عباس أخرجه ابن حبان في الضعفاء. وفيه طاهر بن الفضل الحلبي. وهو منهم بالوضع. وله طريق أخرى من رواية الخلفاء الحسن بن علي صاحب البصرة عن إبراهيم بن علي ابن مالوثة البجلي عن الطائي عن إبراهيم بن مفضل بسنده. وليس فيه غير الطائي.

فإن قلت : هلا قيل : يعلم السر لقوله (وأسرّوا النجوى) (١) ؟ قلت : القول عام يشمل السرّ والجهر ؛ فكان في العلم به العلم بالسرّ وزيادة ، فكان آكد في بيان الاطلاع على نجواهم من أن يقول : يعلم السرّ ، كما أن قوله : يعلم السرّ ، آكد من أن يقول : يعلم سرهم . ثم بين ذلك بأنه السميع العليم لذاته فكيف تخفى عليه خافية . فإن قلت : فلم ترك هذا الآكد في سورة الفرقان في قوله (قل أنزله الذي يعلم السرّ في السموات والأرض) ؟ قلت : ليس بواجب أن يحىء بالآكد في كل موضع . ولكن يحىء بالوكيد تارة وبالأكد أخرى ، كما يحىء بالحسن في موضع وبالأحسن في غيره ليفتنّ الكلام اقتنائاً ، وتجمع الغاية وما دونها ، على أن أسلوب تلك الآية خلاف أسلوب هذه ، من قبل أنه قدم ههنا أنهم أسروا النجوى ، فكانه أراد أن يقول : إن ربي يعلم ما أسروه ، فوضع القول موضع ذلك للبالغة ، وثم قصد وصف ذاته بأن أنزله الذي يعلم السرّ في السموات والأرض ، فهو كقوله علام الغيوب (عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة) . وقرئ (قال ربي) حكاية لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم .

بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ آفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ قَلْبًا نَمَا بِآيَةٍ كَمَا

أَرْسَلَ الْأَوَّلُونَ

أضربوا عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام ، ثم إلى أنه كلام مفترى من عنده ، ثم إلى أنه قول شاعر ، وهكذا الباطل للجلج (٢) ، والمبطل متحير رجاع غير ثابت على قول واحد . ويجوز أن يكون تنزيلاً من الله تعالى لأقوالهم في درج الفساد ؛ وأن قولهم الثاني أفسد من الأول ، والثالث أفسد من الثاني ، وكذلك الرابع من الثالث . صحة التشبيه في قوله (كما أرسل الأولون)

(٣) قال محمود : « إن قلت لم عدل عن قوله يعلم السر مع أن المتقدم وأسروا النجوى ... الخ » قال أحد : وهذا من إتياع القرآن للرأى ، نعوذ بالله من ذلك لاسيما رأى ينفي صفات الكمال عن الله تعالى وما الذى دل عليه (السميع العليم) من نفي صفى السمع والعلم في تفسيرهما بذلك ، مع أنه لا يفهم في اللغة سميع إلا بسمع ، ولا عليم إلا بعلم ، فاما صفات مقتضات من مصادر لا بد من فهمها وثبوتها أولاً ، ثم ثبوت ما اشتقت منه . ومن أنكر السمع والعلم فقد سارع إلى إنكار السميع العليم وهو لا يهجر . وليس غرضنا في هذا المصنف سوى الإيقاظ لما انطوى عليه الكشف من غوائل البدع ليتجنبها الناظر . وأما الأدلة السكلية فنقها تلقى . وحاله فيما يورده من أمثال هذه الزغابات مختلف : فرة يوردها عند كلام يتخيل في ظاهره إشعاراً بغرضه ، فوظفنا معه حيث قد أنازع في الظهور ، ثم قد ترقى إلى بيان ظهوره في عكس مراده أو نصوصيته ، حتى لا يحتمل ما يدعيه بوجه ما ، وقد يلجئنا الانصاف إلى تسليم الظهور له ؛ فنذكر وجه التأويل الذى يرشد إليه دليل العقل . ومرة يورد نبذاً من هذا الرأى عند كلام لا يحتمله ولا يهجر به بوجه ، وغرضه التعسف حتى لا يخلى شيئاً من كلامه من تعصب وإصرار على باطل ، فننبه على ذلك أيضاً . وما ذكره عند هذه الآية من قبيل ما يدل النص على عكس مراده فيه ، وقد أوضحناه .

(١) قوله « الباطل للجلج » في الصحاح : الحق أبلج والباطل للجلج ، أى : يرد من غير أن ينفذ . (ع)

من حيث أنه في معنى: كما أتى الأولون بالآيات، لأن إرسال الرسل متضمن للإنبياء بالآيات
الأتى أنه لا فرق بين أن تقول: أرسل محمد صلى الله عليه وسلم، وبين قولك: أتى محمد بالمعجزة.

مَاءَ أَمْنَةٍ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَقْمُوا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

(أفهم يؤمنون) فيه أنهم أقموا من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات وعاهدوا أنهم
يؤمنون عندها، فلما جاءتهم نكشوا أو خالفوا، فأهلكهم الله. فلو أعطيناهم ما يقترحون لكانوا
أنكك وأنكك.

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ
كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾

أمرهم أن يستعلموا أهل الذكر وهم أهل الكتاب، حتى يعلموا أن رسل الله الموحى إليهم
كانوا بشرأ ولم يكونوا ملائكة كما اعتقدوا، وإنما أحلهم على أولئك لأنهم كانوا يشايعون
المشركين في معاداة رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال الله تعالى (ولتسمعن من الذين أوتوا
الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً) فلا يكذبونهم فيما هم فيه رده لرسول الله
صلى الله عليه وسلم.

وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾

(لا يأكلون الطعام) صفة لجسدأ، والمعنى: وما جعلنا الأنبياء عليهم السلام قبله ذوى
جسد غير طاعين. ووحد الجسد لإرادة الجنس، كأنه قال: ذوى ضرب من الأجساد. وهذا
رد لقولهم (ما لهذا الرسول يأكل الطعام). فإن قلت: نعم قد ردت إنكارهم أن يكون
الرسول بشرأ يأكل ويشرب بما ذكرت، فماذا رد من قولهم بقوله (وما كانوا خالدين)؟ قلت:
يحتمل أن يقولوا إنه بشر مثلنا يعيش كما نعيش ويموت كما نموت. أو يقولوا: هلا كان ملكا
لا يطعم ويخلد: إما معتقدين أن الملائكة لا يموتون. أو مسمين حياتهم المتطاولة وبقاءهم
الممتد خلوداً.

ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾

(صدقناهم الوعد) مثل واختار موسى قومه. والأصل في الوعد: ومن قومه. ومنه:
صدقهم القتال. وصدقى سن بكره (ومن نشاء) هم المؤمنون ومن في بقاته مصلحة.

لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

﴿ذكركم﴾ شرفكم وصيتكم، كما قال (وإنه لذكر لك ولقومك) أو موعظتكم. أو فيه مكارم الاخلاق التي كنتم تطلبون بها الثناء أو حسن الذكر^(١)، كحسن الجوار، والوفاء بالعهد، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، والسخاء، وما أشبه ذلك،

وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾
فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرَ كُفُوزًا وَارْجُومًا إِلَى
مَأْتَرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُتَأَلَوْنَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَبْوِلُنَا إِنَّا كُنَّا
ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾

﴿وكم قصمنا من قرية﴾ واردة عن غضب شديد ومنادية على سحق عظيم : لأن القصم أضعف الكسر وهو الكسر الذي يبين تلازم الأجزاء ، بخلاف القصم . وأراد بالقرية : أهلها ، ولذلك وصفها بالظلم . وقال ﴿قوما آخرين﴾ لأن المعنى : أهلكننا قوما وأنشأنا قوما آخرين . وعن ابن عباس : أنها حضور ، وهي وسمول ، قريتان باليمن ، تنسب إليهما الثياب . وفي الحديث وكفى رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثوبين سمولين^(٢) ، وروى حضوريين^(٣) ، بعث الله إليهم نبيا فقتلوه ، فسلط الله عليهم بختنصر كما سلطه على أهل بيت المقدس فاستأصلهم . وروى : أنهم لما أخذتهم السيوف ونادى مناد من السماء بالثارات الأنبياء ، ندموا واعترفوا بالخطأ . وذلك حين لم ينفعهم الندم . وظاهر الآية على الكثرة . ولعل ابن عباس ذكر حضور ، بأنها إحدى القرى التي أرادها الله بهذه الآية . فلما علموا شدة عذابنا وبطشتنا علم حس ومشاهدة ، لم يشكوا فيها ، ركضوا من ديارهم . والركض : ضرب الدابة بالرجل . ومنه قوله تعالى (اركض برجلك) فيجوز أن يركبوا دوابهم يركضونها هارين منهزمين من قريتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب . ويجوز أن يشبهوا في سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الركضين لدوابهم ، فليلهم . ﴿لا تتركضوا﴾ والقول محذوف . فإن قلت : من القائل ؟ قلت يحتمل أن يكون بعض الملائكة

(١) قوله «تطلبون بها الثناء» أحسن الذكر ، لعله «وحسن الذكر» بالوارج فقط . (ع)

(٢) متفق عليه عن عائشة بلفظ «كفى رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثلاثة أثواب سمولية» .

(٣) أخرجه الدارقطني في العلل من حديث ابن عمر رضى الله عنهما ، بافظ «ثلاثة أثواب : ثوبين حضوريين وثوب حبرة» ، وقال : تفرد به محمد بن إسحاق الصاغانى عن ابن الجواب عن الثورى عن عاصم بن عبد الله عن سالم عن أبيه بهذا .

(فائدة) «حضور» بفتح المهملة وضم المعجمة : قرية بضماء قرية من قرية عبدالرزاق .

أو من ثم من المؤمنين أو يجعلوا خلفاء بأن يقال لهم ذلك وإن لم يقل . أو يقول رب العزة ويسمعه ملائكته لينفهمهم في دينهم . أو يلهمهم ذلك فيحدثوا به نفوسهم ﴿ وارجعوا إلى ما أنزلناكم فيه ﴾ من العيش الرفاه والحال الناعمة . والإتراف : إبطار النعمة وهي الترفة ﴿ لعلكم تسئلون ﴾ تهكم بهم وتوبيخ ، أى : ارجعوا إلى نعيمكم ومساكنكم لعلكم تسئلون غدا عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم ، فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة . أو ارجعوا واجلسوا كما كنتم في مجالسكم . وترتبوا في مراتبكم حتى يسألكم عبيدكم وحشمكم ومن تملكون أمره وينفذ فيه أمركم ونهيكم ويقول لكم : هم تأمرون ؟ وبماذا ترسمون ؟ وكيف نأتى ونذر كمادة المنعمين المحذمين ؟ أو يسألكم الناس في أنديةكم المعاوين في نوازل الخطوب ، ويستشيرونكم في المهمات والعوارض ويستشفون بتدابيركم ، ويستضيئون بأرائكم . أو يسألكم الوافدون عليكم والطماع ويستمتطرون سحائب أكفكم ، ويمزجون أخلاف^(١) معروفيكم وأياديكم : إما لأنهم كانوا أسيخاء ينفقون أموالهم رثاء الناس وطلب الثناء ، أو كانوا بخلاء فقيل لهم ذلك تهكما إلى تهكم ، وتوبيخاً إلى توبيخ ﴿ تلك ﴾ إشارة إلى يا ويلتنا ، لأنها دعوى ، كأنه قيل : فازالت تلك الدعوى ﴿ دعواهم ﴾ والدعوى بمعنى الدعوة . قال تعالى ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ . فإن قلت : لم سميت دعوى ؟ قلت : لأن المولود كأنه يدعو الويل ، فيقول تعالى : يا ويل فهذا وقتك . و ﴿ تلك ﴾ مرفوع أو منصوب . اسماً أو خبراً أو كذلك دعواهم . الحصيد : الزرع المحصود ، أى : جعلناهم مثل الحصيد ، شبههم به في استئصالهم واصطلامهم^(٢) كما تقول : جعلناهم رمادا ، أى مثل الرماد . والضمير المنصوب هو الذى كان مبتدأ أو المنصوب بان بعده كانا خبرين له . فلما دخل عليها جعل نصبها جميعا على المفعولية . فإن قلت كيف ينصب وجعل ثلاثة مفاعيل ؟ قلت : حكم الاثنين الآخرين حكم الواحد : لأن معنى قولك « جعلته حلوا حامضا ، جعلته جامعا للطعمين . وكذلك معنى ذلك : جعلناهم جامعين لمائة الحصيد والخود .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينٍ ۖ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ

لَهُمْ لَا نَتَّخِذُ نَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾

أى : وما سويتنا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من أصناف الخلائق مشحونة بضروب البدائع والعجائب ، كما توى الجبابرة سقوفهم وفرشهم وسائر زخارفهم ،

(١) قوله « ويمزجون أخلاف معروفيكم » في الصحاح : الريح تسمى السحاب وتمتد به ، أى تستدره . وفيه أيضا : الخلف - بالكسر - حلة ضرع الناقة . (ع)
(٢) قوله « واصطلامهم » في الصحاح والاصطلام ، الاستئصال . (ع)

اللهو واللعب ، وإنما سويناهما للفوائد الدينية والحكم الربانية ، لتكون مطارح افتكار واعتبار واستدلال ونظر لعبادنا ، مع ما يتعلق لهم بها من المنافع التي لاتعد والمرافق التي لاتحصى . ثم بين أن السبب في ترك اتخاذ اللهو واللعب وانتفائه عن أفعالي : هو أن الحكمة صارفة عنه ، وإلا فأنا قادر على اتخاذه إن كنت فاعلاً لأنني على كل شيء قدير . وقوله ﴿ لا تخذنا من لدنا ﴾ كقوله (رزقا من لدنا) أي من جهة قدرتنا . وقيل : اللهو الولد بلغة اليمن . وقيل المرأة . وقيل من لدنا ، أي من الملائكة لامن الإنس ، ردأ لولادة المسيح وعزير .

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ
مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

﴿ بل ﴾ إضراب عن اتخاذ اللهو واللعب ، وتنزيه منه لذاته ، كأنه قال : سبحانه أن تتخذ اللهو واللعب ^(١) ، بل من عادتنا وموجب حكمتنا واستغنائنا عن القبيح أن نغلب اللعب بالجد ، وندحض الباطل بالحق . واستعار لذلك القذف ^(٢) والدمغ ، تصويراً لإبطاله وإهداره ومحقه فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلاً ، قذف به على جرم رخو أجوف فدمغه ^(٣) ، ثم قال ﴿ ولكم الويل مما تصفون ﴾ به مما لايجوز عليه وعلى حكمته . وقرئ : فيدمغه بالنصب ، وهو في ضعف قوله :

(١) قال محمود : « معناه سبحانه أن تتخذ لهواً ولعباً ... الخ » قال أحمد : وله تحت قوله واستغنائنا عن القبيح دفين من البدعة والضلالة ، ولكنه من الكنوز التي يحصى عليها في نار جهنم ، وذلك أن القدرية يوجبون على الله تعالى رعاية المصالح وفعل ما يتوهمونه حسناً يعقلهم ، ويظنون أن الحكمة تقتضي ذلك ، فلا يستغنى الحكيم عن زعمهم عن خلق الحسن على وفق الحكمة بخلاف القبيح ، فان الحكمة تقتضي الامتناء عنه ، قال ذلك بلرح الزعشري وما هي إلا نزغة سبق إليها ضلال الفلاسفة . ومن ثم يقولون : ليس في الامكان أكل من هذا العالم ؛ لأنه لو كان في القدرة أكل منه وأحسن ، ثم لم يخلقه الله تعالى : لكان بخلاف ينافي الجود ، أو عجزاً ينافي القدرة ، حتى انبهم في ذلك من لانسيمه من أهل الملة - عفا الله عنه - إن كان هذا مما يدخل تحت ذيل العفو . فالحق أن الله تعالى مستغن عن جميع الأفعال حسنة كانت أو غيرها ، مصلحة كانت أو مفسدة . وأن له أن لا يخلق ما يتوهمه القدرية حسناً ، وله أن يفعل ما يتوهمونه في الشاهد قبيحاً ، وأن كل موجود من فاعل وفعل على الإطلاق بقدرته وجد ، فليس في الوجود لإلا الله وصفاته وأفعاله ، وهو مستغن عن العالم بأسره ، وحسنه وقبحه ، فلو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم على أتق قلب زجل منكم لم يزد ذلك في ملكه شيئاً . ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم على أحر قلب رجل منكم لم ينقص ذلك من ملكه شيئاً . اللهم ألهنا الحق واستعملنا به .

(٢) عاد كلامه . قال : وفي قوله تعالى بل نقذف بالحق على الباطل استعارة حسنة : استعار القذف ... الخ ، قال أحمد : ومثل هذا التنبيه من حسناته ، ولولا أن البيئة التي قبلها تتعلق بالعقيدة لتلوت : إن الحسنات يذهبن السيئات ، والله أعلم .

(٣) قوله ودمغه ، في الصحاح : أي شجه حتى بالمت الشجة الدماغ . (ع)

سَأَتْرُكُ مَنْزِلِي لِبَنِي تَيْمِيمٍ . وَالْحَقُّ بِالْحِجَازِ فَأَنْتَرِيهَا ^(١)

وقرى فيدمنه .

وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ

وَلَا يَسْتَعْسِرُونَ ^(١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْترُونَ ^(٢٠)

(ومن عنده) هم الملائكة . والمراد أنهم مكرمون ، منزلون - لكرامتهم عليه - منزلة المقرين عند الملوك على طريق التمثيل والبيان لشرفهم وفضلهم على جميع خلقه ^(٢١) . فإن قلت : الاستحسار مبالغة في الحسور ^(٢٢) ، فكان الأبلغ في وصفهم أن ينفي عنهم أدنى الحسور . قلت في الاستحسار بيان أن ما هم فيه يوجب غاية الحسور ^(٢٣) وأقصاه . وأنهم أحقاء لتلك العبادات الباهظة بأن يستحسروا فيما يفعلون . أى . تسديحهم متصل دائم في جميع أوقاتهم ، لا يتخلله فترة فراغ أو شغل آخر .

أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ^(٢١)

هذه أم المنقطعة الكائنة بمعنى بل والهمزة ، قد آذنت بالإضراب عما قبلها والإنكار لما بعدها ، والمنكر : هو اتخاذهم (إلهة من الأرض هم ينشرون) الموق ^(٢٤) ، ولعمري أن من أعظم المنكرات أن ينشر الموق بعض الموات . فإن قلت : كيف أنكر عليهم اتخاذ إلهة تنشر ^(٢٥) وما كانوا يدعون ذلك لآلهتهم ؟ وكيف وهم أبعد شيء عن هذه الدعوى وذلك أنهم كانوا - مع إقرارهم لله عز وجل بأنه خالق السموات والأرض (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) وبأنه القادر على المقدورات كلها وعلى النشأة الأولى - منكرين البعث ويقولون : من يحيي العظام وهي رميم ، وكان عندهم من قبيل الحال الخارج عن قدرة القادر كثنائي القديم ، فكيف يدعونه للجهد الذي لا يوصف بالقدرة رأساً ؟ قلت : الأمر

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٥٥٧ فراجع إن شئت اه مصححه .

(٢) قوله ولشرفهم وفضلهم على جميع خلقه ، هذا عند المعتزلة . أما عند أهل السنة فبعض البشر أفضل . (ع)

(٣) قال محمود : « إن قلت لم استعمل الاستحسار هنا في التثنية ... الخ » قال أحمد : وبمثله أجيب عن قوله تعالى (ومار بك بظلام للعبيد) فانظره .

(٤) قوله « يوجب غاية الحسور » أى الكلال . أفاده الصحاح . (ع)

(٥) قوله « هم ينشرون الموق » الانتصار : الأحياء بعد الموت . أفاده الصحاح . (ع)

(٦) قال محمود : « إن قلت كيف أنكر عليهم اتخاذ إلهة ... الخ » قال أحمد : فيكون المنكر عليهم صريح

الدعوى ولازمها وهو أبلغ في الإنكار ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

كما ذكرت ، ولكنهم بادعائهم لها الإلهية ، يلزمهم أن يدعوا لها الإنشار ، لأنه لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور ، والإنشار من جملة المقدورات . وفيه باب من التهم بهم والتوبيخ والتجهيل ، وإشعار بأن ما استبعدوه من الله لا يصح استبعاده ؛ لأن الإلهية لما صحت صح معها الاقتدار على الإبداء والإعادة . ونحو قوله (من الأرض) قوله : فلان من مكة أو من المدينة ، تريد : مكي أو مدني . ومعنى نسبتها إلى الأرض : الإيدان بأنها الأصنام التي تعبد في الأرض : لأن الآلهة على ضربين : أرضية وسماوية . ومن ذلك حديث الأمة التي قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أين ربك » ؟ فأشارت إلى السماء ، فقال إنها مؤمنة ^(١) لأنه فهم منها أن مرادها نفي الآلهة الأرضية التي هي الأصنام ، لا إثبات السماء مكاناً لله عز وجل . ويجوز أن يراد آلهة من جنس الأرض ؛ لأنها إما أن تنحت من بعض الحجارة ، أو تعمل من بعض جواهر الأرض . فإن قلت : لا بد من نكتة في قوله (هم) ^(٢) قلت : النكتة فيه إفادة معنى الخصوصية ، كأنه قيل : أم اتخذوا آلهة لا يقدر على الإنشار إلا هم وحدهم . وقرأ الحسن (ينشرون) وهما لغتان : أنشر الله الموتى ، ونشرها . وصفت آلهة بالآل كما توصف بغير ، لو قيل آلهة غير الله .

(١) أخرجه مسلم وأبو داود وغيرهما من حديث معاوية بن الحكم السلي .

(٢) عاد كلامه . قال محمود : « إن قلت لا بد لقوله (هم) من فائدة . وإلا فالكلام مستقل بدونها ... الخ » قال أحد : وفي هذه النكتة نظر ؛ لأن آلات الحصر مفقودة ، وليس ذلك من قبيل : صديق زيد ، فان المبتدأ في الآية أخص شيء . لأنه ضمير . وأيضاً فلا يبنى على ذلك إلزامهم حصر الألوهية فيهم ، وتخصيص الإنشار بهم ، ونفيه عن الله تعالى ، إذ هذا لا يناسب السياق ، فانه قال عقبها : لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا . ومعناه : لو كان فيهما إله غير الله شريكاً له لفسدتا ، وكان مقتضى مقال الزخشرى أن يقال : لو لم يكن فيهما آلهة إلا الأصنام لفسدتا . وأما المثلوث على خلاف ذلك ، فلا وجه لما قال الزخشرى . وعندى أنه يحتمل والله أعلم أن تكون فائدة قوله (هم) الإيدان بأنهم لم يدعوا لها الإنشار ، وأن قوله (هم ينشرون) استئناف إلزام لهم . وكأنه قال : اتخذوا آلهة مع الله عز وجل فهم إذن يحبون الموتى ضرورة كونهم آلهة ، ثم لما انتظم من دعواهم الألوهية للأصنام وإلزامهم على ذلك أن يفهم بالقدرة الكاملة على إحياء الموتى ، نظم في إبطال هذه الدعوى وما إلزامهم عليها دليل قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وأزيد هذا التقرب وضوحاً فأقول : إن دليل النحاة المعترف من بحر هذه الآية ، المتنبس من نورها ، بورده المتكلمون على صورة التقييم ، فيقولون : لو وجد مع الله إله آخر ، وربما قالوا : لو فرضنا وجود إلهين ، فاما أن يكونا جميعاً موصوفين بصفات الكمال اللاتي يندرج فيها القدرة على إحياء الموتى وإنشارهم وغير ذلك من الممكنات ، أو لا يتصف بها واحد منهما أو أحدهما دون الآخر ، ثم يحيلون جميع الأقسام وهو المسمى برهان الخلف . وأدق الأقسام إبطالا قسم اتصافهما جميعاً بصفات الكمال ، وماعدها فيبادئ الرأي يبطل . فانظر كيف اختار له تعالى إبطال هذا القسم الحق البطلان ، فأوضح فسادَه في أخصر أسلوب وأرجزه ، وأبلغ بدیع الكلام ومعجزه . وإنما ينتظم هذا على أن يكون المقصد من قوله (هم ينشرون) إلزامهم ادعاء صفات الألوهية لأنهم ، حتى يتحرى أنهم اختاروا القسم الذي أبطله الله تعالى ، ووكّل إبطال ماعدها من الأقسام إلى ماركبه في عباده من العقول ، وكل خطب بعد بطلان هذا القسم جلل ، والله الموفق . فتأمل هذا الفصل بعين الانصاف . تحمد أنفس الانصاف . والله المستعان .

لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾
 فإن قلت : ما منعك من الرفع على البدل ؟ قلت : لأن لو ، بمنزلة وإن ، في أن الكلام معه
 موجب ، والبدل لا يسقوغ إلا في الكلام غير الموجب ، كقوله تعالى (ولا يلتفت منكم أحد
 إلا أمرأتك) وذلك لأن أعم العام يصح نفيه ولا يصح إيجابه . والمعنى : لو كان يتولاهما ويدبر
 أمرهما آلهة شتى غير الواحد الذي هو فاطرهما لفسدتا . وفيه دلالة على أمرين ، أحدهما :
 وجوب أن لا يكون مدبرهما إلا واحداً . والثاني : أن لا يكون ذلك الواحد إلا إياه وحده ،
 لقوله (إلا الله) . فإن قلت : لم وجب الأمران ؟ قلت : لعلنا أن الرعية تفسد بتدبير الملوك
 لما يحدث بينهما من التغالب والتناكر والاختلاف . وعن عبد الملك بن مروان حين قتل عمرو
 ابن سعيد الأشدق : كان والله أعز علي من دم ناظري ، ولكن لا يجتمع لخلان في شول^(١) وهذا
 ظاهر . وأما طريقة التنازع فليتكلمين فيها تحاول وطراد . ولأن هذه الأفعال محتاجة إلى تلك
 الذات المتميزة بتلك الصفات حتى تثبت وتستقر .

لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾

إذا كانت عادة الملوك والجبارة أن لا يسألهم من في مملكتهم عن أفعالهم وعما يوردون
 ويصدرون من تدبير ملكهم ، تهيباً وإجلالاً ، مع جواز الخطأ والزلل وأنواع الفساد عليهم -
 كان ملك الملوك ورب الأرباب خالقهم ورازقهم أولى بأن لا يسئل عن أفعاله . مع ما علم واستقر
 في العقول من أن ما يفعله كله مفعول بدواعي الحكمة ، ولا يجوز عليه الخطأ^(٢) ولا فعل القبائح^(٣)

(١) قوله « لا يجتمع لخلان في شول » في الصحاح « الشول » النوق التي خف لبها وارتفع ضرعها . (ع)
 (٢) قال محمود : « لما بين تعالى أنه رب الأرباب وخالقهم ومالكهم ، ناسب هذا التنبيه على ما يجب له تعالى
 على خلقه من الاجلال والاعظام ، فان آحاد الملوك تمنع مهابته أن يسئل عن فعل فعله . فسا ظنك بخالق الملوك
 وربه . ثم إن آحاد الملوك يجوز عليهم الخطأ والزلل وقد استقر في العقول أن أفعال الله تعالى كلها مفعولة بدواعي
 الحكمة ، ولا يجوز عليه الخطأ ولا فعل القبائح » قال أحد : صحفاً لها من لفظها أسوأ أديها مع الله تعالى ، أغنى قوله :
 دواعي الحكمة ؟ فان الدواعي والصوارف إنما تستعمل في حق المحدثين ، كقولك : هو مما توفر دواعي الناس إليه
 أو صوارفهم منه . وقوله « لا يجوز عليه فعل القبائح » قلت : وهذا من الطراز الأول ، ولو أنه في الدليل :
 • فقد نسبت وما بالهد من قدم • وبعد ما انقضى دليل التوحيد وإبطال الشرك من سمعك أيها الزعشري . وقلت
 وطب بتقريره ، فلم تنكص وانتكست ؟ أقول إن أحداً شريك لله في ملكه يفعل ما يشاء من الأفعال التي تسميها
 قبائح فتنبها عن قدرة الله تعالى وإرادته . وما الفرق بين من يشرك الله ملكاً من الملائكة ، وبين من يشرك نفسه
 بربه حتى يقول : إنه يفعل ويخلق لنفسه شاء الله أو لم يشأ ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً . والقدورية
 ارتضوا لأنفسهم شر شرك : لأن غيرهم أشرك بالملائكة ، وهم أشركوا بنفوسهم وبالشياطين والجن وجميع
 الحيوانات ، نعوذ بمالك الملك من مسالك الملك .

(٣) قوله « لا يجوز عليه الخطأ ولا فعل القبائح » هذا عند المعتزلة . أما عند أهل السنة فهو الفاعل للخير

والشر ، كما بين في علم التوحيد . (ع)

(وهم يستلون) أى هم يملكون مستعبدون خطاؤون ، فما خلقهم بأن يقال لهم : لم فعلتم ؟ فى كل شئ . فعلموه .
 أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ
 مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

كرر (أم اتخذوا من دونه آلهة) استفظاعا لشأنهم واستفظاعا لكفرهم ، أى : وصفتهم
 الله تعالى بأن له شريكا ، فهاتوا برهانكم على ذلك : إما من جهة العقل ، وإما من جهة الوحي ،
 فإنكم لا تجدون كتاباً من كتب الأولين إلا وتوحيد الله وتنزيهه عن الأنداد مدعواً إليه ،
 والإشراك به منهى عنه متوعد عليه . أى (هذا) الوحي الوارد فى معنى توحيد الله ونفى
 الشركاء عنه ، كما ورد على فقد ورد على جميع الأنبياء ، فهو ذكر : أى عظة للذين معي : يعنى
 أمتي ، وذكر للذين من قبلي : يريد أمة الأنبياء عليهم السلام . وقرئ (ذكر من معي وذكر من قبلي)
 بالتثنية . ومن مفعول منصوب بالذكر كقوله (أو أطعام فى يوم ذى مسغبة يتينا) وهو الأصل
 والإضافة من إضافة المصدر إلى المفعول كقوله : (غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من
 بعد غلبهم سيغلبون) وقرئ (من معي) و (من قبلي) على من الإضافة فى هذه القراءة .
 وإدخال الجار على مع ، غريب ، والعذر فيه أنه اسم هو ظرف ، نحو : قبل ، وبعد ، وعند ،
 ولدن ، وما أشبه ذلك ، فدخل عليه من ، كما يدخل على أخواته . وقرئ : ذكر معي وذكر
 قبلي . كأنه قيل : بل عندهم ما هو أصل الشر والفساد كله وهو الجهل وفقد العلم ، وعدم التمييز بين
 الحق والباطل ، فمن جاء هذا الإعراض ، ومن هناك ورد هذا الإنكار . وقرئ (الحق) بالرفع
 على توسط التوكيد بين السبب والمسبب . والمعنى أن إعراضهم بسبب الجهل هو الحق لا الباطل .
 ويجوز أن يكون المنصوب أيضاً على هذا المعنى ، كما تقول : هذا عبد الله الحق لا الباطل .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
 أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

(ووحى) ونوحى : مشهورتان . وهذه الآية مقررة لما سبقها من أى التوحيد .
 وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْغُوهُ
 بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ
 إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ
 فَقَدْ لَكَ نَجْرٌ بِهِ جَعَلْنَاكَ كَإِذَا نَجَّيْنَا الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾

نزلت في خزاعة حيث قالوا الملائكة بنات الله . نزه ذاته عن ذلك ، ثم أخبر عنهم بأنهم عباد والعبودية تنافي الولادة ، إلا أنهم ﴿مكرمون﴾ مقربون عند مفضلون ^(١) على سائر العباد ، ^(٢) لما هم عليه من أحوال وصفات ليست لغيرهم ، فذلك هو الذي غرّ منهم من زعم أنهم أولادى ، تعاليت عن ذلك علواً كبيراً . وقرئ مكرمون . و﴿لا يسبقونه﴾ بالضم ، من : سابقته فسبقته أسبقه . والمعنى : أنهم يتبعون قوله ولا يقولون شيئاً حتى يقوله ، فلا يسبق قولهم قوله . والمراد بقولهم ، فأنيب اللام مناب الإضافة ، أى لا يتقدمون قوله بقولهم ، كما تقول : سبقت بفرسى فرسه ، وكما أنّ قولهم تابع لقوله ، فعملهم أيضاً كذلك مبنى على أمره : لا يعملون عملاً ما لم يؤمروا به . وجميع ما يأتون ويذرون بما قدموا وأخروا بعين الله ، وهو مجازيهم عليه ، فلا يحاط بهم بذلك يضبطون أنفسهم ، ويراعون أحوالهم ، ويعمرون أوقاتهم . ومن تحفظهم أنهم لا يجسرون أن يشفعوا إلا لمن ارتضاه الله وأهله للشفاعة في ازدياد الثواب والتعظيم ، ثم أنهم مع هذا كله من خشية الله ﴿مشفقون﴾ أى متوقعون من أماره ضعيفة ، كاثنون على حذر ورقبة ^(٣) لا يأمنون مكر الله . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى جبريل عليه السلام ليسلة المعراج ساقطاً كالجلس ^(٤) من خشية ^(٥) الله ، وبعد أن وصف كرامتهم عليه ، وقرب منزلتهم عنده ، وأثنى

(١) قال محمد : «معناه مكرمون مفضلون على سائر عباد الله» قال أحمد : وهذا التفسير من جعل القرآن بما للرأى ، فانه لما كان يعتقد تفضيل الملائكة على الرسل نزل الآية على معتقده ، وليس غرضنا إلا بيان أنه حمل الآية ما لا تحتمله ، وتناول منها ما لا نطبعه : لأنه ادعى أنهم مكرمون على سائر الخلق لا على بعضهم ، فدعوا شاملة ودليله مطلق ، واقه الموفق .

(٢) قوله «مفضلون على سائر العباد» هذا عند المعتزلة ، وبعض البشر أفضل منهم عند أهل السنة . (ع)

(٣) قوله «ورقبة» بالكسر ، أى : انتظار . أفاده الصحاح . (ع)

(٤) قوله «كالجلس» بكسر فسكون . أو بفتحين : كساء رقيق يكون تحت البرذعة أو تحت الرجل . أفاده

الصحاح . (ع)

(٥) أخرجه ابن خزيمة من رواية مرة عن ابن مسعود «أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر سدة المنهى - الحديث ، قال فوقع جبريل فصار كالجلس الملقى ، إسناده قوى . وغلط ابن الجوزى في تصحيحه لمحمد بن ميمون شيخ ابن خزيمة ، فانه ثقة - وفي الطبراني الأوسط وتفسير ابن مردويه من رواية عبد الكريم الجزرى عن عطاء عن جابر رفعه «مررت في السماء الرابعة بجبريل ، وهو كالجلس البالى من خشية الله» إسناده قوى . وروى ابن خزيمة في التوحيد وابن سعد وسعيد بن منصور والبخاري والبيهقي في الشعب والدلائل والطبراني في الأوسط ، كلهم من رواية أبي قلابة الحارث بن أبي عمران الحوفى عن أنس رفعه «بينما أنا قاعد إذ جاء جبريل . فوكز بين كتفى فقمتم إلى شجرة فيها كوكرى الطائر فقمتم في أحدهما وقعدت في الآخر . فسمت بنا فارتفعت حتى سدت الحافقين وأنا أقرب طرفي . ولو شئت أن أمسس لمسست . فالتفت إلى جبريل كأنه حاس لاطى . فعرفت فضل عليه بآله على . وفتح لي باب من أبواب السماء فرأيت النور الأعظم - الحديث» قال البزار : لا نعلم رواه عن أبي عمران إلا الحرث بن عبيد وقال غيره : خالفه حماد بن عبيد وقال غيره : خالفه حماد -

عليهم ، وأضاف إليهم تلك الأفعال السنية والأعمال المرضية .

فاجأ بالوعيد الشديد ، وأذعر بعذاب جهنم من أشرك منهم إن كان ^(١) ذلك على سبيل
الفرض والتثليل ، مع إحاطة عليه بأنه لا يكون ، كما قال (ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا
يعملون) قصد بذلك تفضيع أمر الشرك وتعظيم شأن التوحيد .

أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا

مِنَ الْعَمَاءِ كُلِّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾

قرئ (ألم ير) بغير واو . و (رتقا) بفتح التاء ، وكلاهما في معنى المفعول ، كالخلق
والنقص . أى : كانتا مرتوقيتين . فإن قلت : الرق صالح أن يقع موقع رتوقيتين لأنه مصدر . فما
بال رتق ؟ قلت : هو على تقرير موصوف ، أى : كانتا شيئاً رتقا . ومعنى ذلك : أن السماء
كانت لاصقة بالأرض لا فضاء بينهما . أو كانت السموات متلاصقات ، وكذلك الأرضون
لا فرج بينها ففتقها الله وفتج بينها . وقيل : ففتقناهما بالمطر والنبات بعد ما كانت مصمتة ،
وإنما قيل : كانتا دون كن . لأن المراد جماعة السموات وجماعة الأرض ونحوه قولهم : لقاخان
سوداوان . أى : جماعتان ، فعل في المضمر نحو ما فعل في المظهر . فإن قلت : متى رأوهما رتقا
حتى جاء تقريرهم بذلك ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أنه وارد في القرآن الذي هو معجزة في
نفسه ، فقام مقام المرئي المشاهد . والثاني : أن تلاصق الأرض والسماء وتباينهما كلاهما جائز
في العقل ، فلا بد للتباين دون التلاصق من مخصص وهو القديم سبحانه (وجعلنا) لا يخلو أن
يتعدى إلى واحد أو اثنين . فإن تعدى إلى واحد ، فالمعنى : خلقنا من الماء كل حيوان . كقوله
(والله خلق كل دابة من ماء) أو كأنما خلقناه من الماء لفرط احتياجه إليه وحبه له وقلة صبره
عنه ، كقوله تعالى (خلق الإنسان من عجل) وإن تعدى إلى اثنين فالمعنى : صيرنا كل شيء حياً
بسبب من الماء لا بد له منه . و « من » هذا ^(٢) نحو « من » في قوله عليه السلام ^(٣) « ما أنا من »

== ابن سلة عن أبي عمران . فقال : عن محمد بن عمير بن عطاء مرسل كذلك أخرجه ابن المبارك في الزهد عن حماد .
وفي رواية « فعرفت فضل خشيتي على خشيتي » وزاد فيه فأوحى الله إليه أنبياء عبداً أم نبياً ملكاً . فأوحى إلى جبريل
عليه السلام : بل نبياً عبداً .

(١) قوله « إن كان » لعله : إذ كان . (ع)

(٢) قوله « ومن هذا » لعله « ومن هنا » . (ع)

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد والبزار والطبراني من رواية يحيى بن محمد بن قيس عن عمرو بن أبي
عمرو عن أنس . زاد البزار قال يحيى : يقول : « لست من الباطل ولا الباطل مني » قال : لانطه إلا عن أنس من
هذا الوجه . واستكره ابن عدى ليحيى بن محمد بن قيس . وقال ابن أبي حاتم : رواه الدراوردي عن عمرو عن
المطلب عن معاوية بن وهب عن أنس بن مالك عن أبي زرعة أن رواية الدراوردي أشبه بالصواب .

دد ولا الدد منى^(١) وقرئ: حيا، وهو المفعول الثاني. والظرف لغو.

وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا
لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ مَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾
أى كراهة (أن تميد بهم) وتضطرب. أو لتلا تميد بهم، خذف ولا، واللام. وإنما جاز
حذف ولا، لعدم الالتباس^(٢)، كما تزداد لذلك في نحو قوله (لتلا يعلم) وهذا مذهب الكوفيين.
الفجج: الطريق الواسع. فإن قلت: في الفجج معنى الوصف، فما لها قدمت على السبل ولم تؤخر
كما في قوله تعالى (لتسلكوا منها سبلا فجاجا)؟ قلت: لم تقدم وهى صفة، ولكن جعلت حالا كقوله:
* لِعَزَّةٍ مُوحِشًا طَلَلٌ قَدِيمٌ * (٣)

فإن قلت: ما الفرق بينهما من جهة المعنى؟ قلت: أحدهما: الإعلام بأنه جعل فيها طرقا واسعة.
والثاني: بأنه حين خلقها خلقها على تلك الصفة، فهو بيان لما أبهم ثمة، محفوظا حفظه بالإمساك

(١) قوله عليه السلام: «ما أنا من دد» في الصحاح: الدد: اللهو واللعب. (ع)
(٢) قال محمود: «معناه كراهة أن تميد بهم، أو تكون لا محذوفة لأن الالتباس» قال أحد: وأولى من
هذين الوجهين أن يكون من قولهم: أعددت هذه الخشبة أن تميل الحائط فأدعه. قال سيويه: ومعناه أن أدم
الحائط إذا مال. وإنما قدم ذكر الميل اهتماما بشأته. ولأنه أيضا هو السبب في الإلحاح، والإلحاح سبب في إعداد
الخشبة، فعامل سبب السبب معاملة السبب. وعليه حل قوله تعالى (أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى)
كذلك مانحن فيه يكون الأصل: وجعلنا في الأرض رواسي لأجل أن تثبتا إذا ماتت بهن. فجعل المبدع هو السبب،
كما جعل الميل في المثل المذكور سببا، وصار الكلام: وجعلنا في الأرض رواسي أن تثبتا إذا ماتت بهن. ثم حذف قوله
«فتثبتا» لأن الالتباس إيجازا واختصارا، وهذا التقرير أقرب إلى الواقع مما أول الزعشري الآية عليه، فإن
مقتضى تأويله أن لا تميد الأرض بأهلها: لأن الله كره ذلك، ومكرهه الله تعالى محال أن يقع. كما أن مراده واجب
أن يقع، والمشاهد خلاف ذلك، فكأن من زلزلة ماتت لها الأرض وكادت تغلب عليها ساقطها. وأما على تقريرنا
فالمراد أن الله تعالى يثبت الأرض بالجبال إذا ماتت. وهذا لا يأتى وقوع المبدع. كما أن قوله (أن تضل إحداهما
فتذكر إحداهما الأخرى) لا يأتى وقوع الضلال والنسيان من إحداهما، لكنه مبدع يستعقبه التثبيت، وكذلك الواقع
من الزلازل إنما هو كاللمحة ثم يشبه الله تعالى.

(٣) لعزة موحشا طلل قديم عفاه كل أهم مستديم
لكثير. والطلل: ما شمس من آثار الدار، والصفة إذا تقدمت على موصوفها كانت حالا منه كما هنا؛ لأن مذهب
الكوفيين والأخفش أن «طلل» فاعل الظرف قبله وأن يعتمد. و«موحشا» حال منه مقدمة عليه. ويجوز أنه
مبتدأ. و«موحشا» حال من الضمير المستتر في الظرف. وأجاز سيويه أنه حال من المبتدأ المؤخر. وعاملها الاستقرار
المحذوف، ولا يمتنع عنده اختلاف عامل الحال وعامل صاحبها، خلافا للجمهور. والموحش: الموقع في الوحشة،
ضد المؤنس: الموقع في الأنس. ويجوز أن معناه كثير الوحوش. وعفاه: أهلكه. والاسم: صفة السحاب،
أى: كل أسود دائم الامطار. ويروى هكذا لمبة موحشا طلل يلوح كأنه خلل وهى بالكسر:
جمع خلة، وهى بطانة مغطاة تنشى بها جفان السيوف، وسيور تلبس ظهور القسي.

بقدرته من أن يقع على الأرض ويتزلزل^(١)، أو بالشهب عن تسمع الشياطين على سكانه من الملائكة (عن آياتها) أى عما وضع الله فيها من الأدلة والعبر بالشمس^(٢) والقمر وسائر النيرات، ومسارها وطلوعها وغروبها؛ على الحساب القويم والترتيب العجيب، الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة، وأى جهل أعظم من جهل من أعرض عنها ولم يذهب به وهمه إلى تدبرها؛ والاعتبار بها، والاستدلال على عظمة شأن من أوجدها عن عدم، ودبرها ونصبها هذه النصب، وأودعها ما أودعها فما لا يعرف كنهه إلا هو عزت قدرته ولطف علمه. وقرئ عن آيتها، على التوحيد، اكتفاء بالواحدة فى الدلالة على الجنس أى: هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية، كالاستضاءة بقمرها، والاهتداء بكواكبها، وحياة الأرض والحيوان بأمطارها، وهم عن كونها آية بينة على الخالق (معرضون).

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾

(كل) التنوين فيه عوض من المضاف إليه، أى: كلهم (فى فلك يسبحون) والضمير للشمس والقمر، والمراد بهما جنس الطوالع كل يوم وليلة، جعلوها متسكثرة لتكاثر مطالعها وهو السبب فى جمعهما بالشموس والأقمار، وإلا فالشمس واحدة والقمر واحد، وإنما جعل الضمير واو العقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة. فإن قلت: الجملة ما محلها؟ قلت: محلها النصب على الحال من الشمس والقمر. فإن قلت: كيف استبدت بهما دون الليل والنهار بنصب الحال عنهما؟ قلت: كما تقول: رأيت زيدا وهنداً متبرجة ونحو ذلك؛ إذا جئت بصفة يختص بها بعض ما تعلق به العامل. ومنه قوله تعالى فى هذه السورة (ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة) أو لا محل لها لاستثناها. فإن قلت: لكل واحد من القمرين فلك على حدة، فكيف قيل: جميعهم يسبحون فى فلك؟ قلت: هذا كقولهم: كساهم الأمير حلة وقلدتهم سيفاً، أى كل واحد منهم، أو كساهم وقلدتهم هذين الجنسين، فاكتفى بما يدل على الجنس اختصاراً، ولأن الغرض الدلالة على الجنس.

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾

كانوا يقدرُونَ أنه سيموت فيشتمون بموته، فنفى الله تعالى عنه الثباتة بهذا، أى: قضى الله

(١) قوله «ويتزلزل» لعله: أو يتزلزل. (ع)

(٢) قوله «والعبر بالشمس» لعله: كالشمس... الخ، كعبارة النسق. (ع)

أن لا يخلد في الدنيا بشراً، فلا أنت ولا هم إلا عرضة للبوت . فإذا كان الأمر كذلك فإن مت أنت أبقى هؤلاء ؟ وفي معناه قول القائل :

فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيقُوا سَمِلَقِ الشَّامِتُونَ كَمَا أَقَيْنَا ^(١)

أى نتخبركم بما يجب فيه الصبر من البلاء ، وبما يجب فيه الشكر من النعم ، وإلينا مرجعكم فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر أو الشكر ، وإنما سمي ذلك ابتلاء وهو عالم بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم ، لأنه في صورة الاختبار . و (فتنه) مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه .

وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ يَتَخَذُونَكَ إِلهًا هُزُواً هَذَا الَّذِي يَذْكُرُ

وَالهَيْكَلُ وَهُمْ يَذْكُرِ الرَّحْمَنَ هُمْ كَفَرُوا ^(٢)

الذكر يكون بخير وبخلافه ، فإذا دلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد ، كقولك للرجل : سمعت فلانا يذكرك ، فإن كان الذاكر صديقاً فهو ثناء ، وإن كان عدواً فذم ^(٣) . ومنه قوله تعالى (سمعنا فتى يذكركم) وقوله (هَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ) والمعنى أنهم عاكفون على ذكر آلِهَتِهِمْ بهمهم وما يجب أن لا تذكر به ، من كونهم شفعاء وشهداء . ويسوءهم أن يذكرها ذاكر بخلاف ذلك . وأما ذكر الله وما يجب أن يذكر به من الوحدانية ، فهم به كافرون لا يصدقون به أصلاً فهم

(١) وما أن طينا جين ولكن منا يانا ودولة أخرىنا

فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلي الشامتون كما لقينا

لدى الأصعب العدواني . وقيل : لغزوة من مسيك المرادى . وقيل للغزوق . والطب بالكسر : العادة والعامة . وأن زائدة ، ويمكن أنها لتوكيد النفي ، أى : ليست عادتنا أو علمتنا الجبن ، ولكن تلك المصيبت منا يانا المقدرة لنا أو لكن علمتنا منا يانا . والدولة : التوبة من النصر ، لأنه يتداول بين الجيشين . والشامت : المتشنى من غيظه بما أصاب عدوه . وشبههم بالسكاري على سبيل المكنية لعدم تيقظهم للمواقب ، وأمرهم بالافاقة تخييل ، وبين ذلك بقوله : سيلفون من الهزيمة مثل ما لقينا ، وتكون الدولة لنا عليهم فليفيقوا من سكرتهم .

(٢) قال محمود : «الذكر يكون بخير وبخلافه فإذا دلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد بقيد القرينة ، فإن كان الذاكر صديقاً فهم منه الخير ، وإن كان عدواً فهم منه الذم» قال أحمد : وكذلك القول . ومنه قول موسى عليه السلام : (أنفولون للحق لما جاءكم) معناه أطيعون الحق لما جاءكم ، ثم ابتداء فقال (أحمر هذا) وإنما لم يجعله معمولاً للقول وعكياً به ، لأنهم قفوا القول بأنه حمر فقالوا (إن هذا لسحر مبين) ولم يشككوا أنفسهم ، ولا استفهموا ، وقد مضى فيه غير هذا ، وإنما أطلقوا في قولهم (هَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ) ولم يقولوا : هذا الذى يذكركم ، لأنهم استفظلوا حكاية ما يقوله النبي من القدح في آلِهَتِهِمْ ، رمية بأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تنصر ، وحاشوها من نقل ذمها مفصلاً ، فأومأوا إليه بالإشارة المذكورة ، كما يتحاشى المؤمن من حكاية كلمة الكفر ، فيؤى إليها بلفظ يفهم المقصود بطريق التعريض . فسبحان من أصلهم حتى تأدبوا مع الأوثان ، وأسأوا الأدب على الرحمن .

أحق بأن يتخذوا هزوا منك ، فإنك حق وهم مبطلون . وقيل معنى (بذكر الرحمن) قولهم : ما نعرف الرحمن إلا مسيلة ، وقولهم (وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا) وقيل (بذكر الرحمن) بما أنزل عليك من القرآن . والجملة في موضع الحال ، أى : يتخذونك هزوا ، وهم على حال هي أصل الهزء والسخرية وهي الكفر بالله .

خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ ءَايَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ۖ (٢٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٨)

كانوا يستعجلون عذاب الله وآياته الملجئة إلى العلم والإقرار (ويقولون متى هذا الوعد) فأراد نهيهم عن الاستعجال وزجرهم ، فقدم أولا ذم الإنسان على إفراط العجلة ، وأنه مطبوع عليها ، ثم نهامهم وزجرهم ، كأنه قال : ليس بيدع منكم أن تستعجلوا فإنكم مجبولون على ذلك وهو طبعكم وسجيتمكم . وعن ابن عباس رضى الله عنه : أنه أراد بالإنسان آدم عليه السلام ، وأنه حين بلغ الروح صدره ولم يتبالغ فيه أراد أن يقوم . وروى أنه لما دخل الروح في عينه نظر إلى ثمار الجنة ، ولما دخل جوفه اشتهى الطعام . وقيل خلقه الله تعالى في آخر النهار يوم الجمعة قبل غروب الشمس ، فأسرع في خلقه قبل مغيبها . وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه النضر بن الحرث . والظاهر أن المراد الجنس . وقيل والعجل ، : الطين ، بلغة حمير . وقال شاعرهم :

• وَالنَّخْلُ يَنْبُتُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْعَجَلِ • (١)

والله أعلم بصحته . فإن قلت : لم نهامهم عن الاستعجال مع قوله (خلق الإنسان من عجل) وقوله (وكان الإنسان عجولا) أليس هذا من تكليف ما لا يطاق ؟ قلت : هذا كما ركب فيه الشهوة وأمره أن يغلبها . لأنه أعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة . وقرئ : خلق الإنسان .

لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٤٠)

(١) السبع في الصخرة الصماء منبه والنخل ينبت بين الماء والعجل

يقول : السبع وهو شجر تنخذ منه الفسى . في الصخرة الصماء الصلبة لا في غيرها . منبه أى نباته ، والنخل ينبت في الأرض اللينة الرابطة ، فهو بين الماء والعجل ، أى : الطين . وهذه لغة حمير كما قيل . والظاهر أن الشطر الأول تشبيل للصعب البخل . والثاني للسبل الجواد . ويجوز أن الأول للضعاف . والثاني للجبانت : لغة الأول ورعاوة الثاني .

جواب ﴿لو﴾ محذوف . و﴿حين﴾ مفعول به ليعلم ، أى : لو يعلمون الوقت الذى يستعملون عنه بقولهم (متى هذا الوعد) وهو وقت صعب شديد تحييط بهم فيه النار من وراء وقدام ، فلا يقدرّون على دفعها ومنعها من أنفسهم ، ولا يجدون ناصراً ينصرهم : لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ، ولكن جهلهم به هو الذى هوّنه عندهم . ويجوز أن يكون ﴿يعلم﴾ متروكا بلا تعدية ، بمعنى : لو كان معهم علم ولم يكونوا جاهلين لما كانوا مستعجلين . وحين : منصوب بمضمر ، أى حين ﴿لايكفون عن وجوههم النار﴾ يعلمون أنهم كانوا على الباطل وينتفى عنهم هذا الجهل العظيم ، أى : لا يكفونها ، بل تفجّؤهم فتغلّبهم . يقال للغلوب فى المحاجة : مهوت . ومنه : فهت الذى كفر ، أى : غلب إبراهيم عليه السلام الكافر . وقرأ الأعمش : يأتهم . فيهمتهم ، على التذكير . والضمير للوعد أو الحين . فإن قلت : فلازم يرجع الضمير المؤنث فى هذه القراءة ؟ قلت : إلى النار أو إلى الوعد ، لأنه فى معنى الناروهى التى وعدوها أو على تأويل العدة أو الموعدة . أو إلى الحين ، لأنه فى معنى الساعة . أو إلى البغّة . وقيل فى القراءة الأولى : الضمير للساعة . وقرأ الأعمش : بغّة ، بفتح الغين ﴿ولاهم ينظرون﴾ تذكير بإظهاره إياهم وإمهاله ، وتفسيح وقت التذكر عليهم ، أى : لا يمهلون بعد طول الإمهال .

وَلَقَدْ آسَتْهَٰزَىٰٓ بِرِٰسِلٍ مِّنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾

سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن استهزائهم به بأن له فى الانبياء عليهم السلام أسوة وأن ما يفعلونه به يحقّ بهم ، كما حاق بالمستهزئين بالانبياء عليهم السلام ما فعلوا .

قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ تُؤْمِنُ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾

﴿من الرحمن﴾ أى من بأسه وعذابه ﴿بل هم﴾ معرضون عن ذكره لا يخطرّونه ببالهم ، فضلا أن يخافوا بأسه ، حتى إذا رزقوا السكّاة منه عرفوا من الكالى وصاحوا للسؤال عنه . والمراد أنه أمر رسوله عليه الصلاة والسلام بسؤالهم عن الكالى ، ثم بين أنهم لا يصلحون لذلك لإعراضهم عن ذكر من يكلّؤهم

أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾

ثم أضرّب عن ذلك بما فى وأم ، من معنى دبل ، وقال ﴿أم لهم آلهة تمنعهم﴾ من العذاب تتجاوز

منعنا وحفظنا . ثم استأنف فين أن ما ليس بقادر على نصر نفسه ومنعها ولا بمصحوب من الله بالنصر والتأييد ، كيف يمنع غيره وينصره ؟

بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي
الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِيُونَ ﴿٤٤﴾

ثم قال : بل ما هم فيه من الحفظ والكلاية إنما هو منا ، لا من مانع يمنعهم من إهلاكنا ، وما كلاً ناهم وآباؤهم الماضين إلا تمتيعاً لهم بالحياة الدنيا وإمهالاً ، كما متعنا غيرهم من الكفار وأمهلناهم (حتى طال عليهم) الأمد ، وامتدت بهم أيام الروح والطمأنينة ، فحسبوا أن لا يزالوا على ذلك لا يغلبون ولا ينزع عنهم ثوب أمنهم واستمتاعهم ، وذلك طمع فارغ وأمد كاذب (أفلا يرون أنا) ننقص أرض الكفر ودار الحرب ، ونخفف أطرافها بتسليط المسلمين عليها وإظهارهم على أهلها وردّها دار إسلام . فإن قلت : أى فائدة في قوله (نأتى الأرض) ؟ قلت فيه تصوير ما كان الله يحرمه على أيدي المسلمين ، وأن عساكرهم وسرايهم كانت تغزو أرض المشركين وتأتيها غالبية عليها ، ناقصة من أطرافها .

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصَّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾
وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾

قري (ولا يسمع الصم) ولا تسمع الصم ، بالتاء والياء ، أى : لا تسمع أنت الصم ، ولا يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولا يسمع الصم ، من أسمع . فإن قلت : الصم لا يسمعون دعاء المبشر كما لا يسمعون دعاء المنذر ، فكيف قيل (إذا ما ينذرون) ؟ قلت : اللام في الصم إشارة إلى هؤلاء المنذرين ، كائنة للعهد لا للجنس . والأصل : ولا يسمعون إذا ما ينذرون ، فوضع الظاهر موضع المضمرة للدلالة على تصامهم وسدّهم أسماعهم إذا أُنذروا ، أى : هم على هذه الصفة من الجراءة والجسارة على التصام من آيات الإنذار (ولئن مستهم) من هذا الذى ينذرون به أدنى شيء ، لا ذعنوا وذلوا ، وأقروا بأنهم ظلّوا أنفسهم حين تصاموا وأعرضوا . وفى المس والنفحة ثلاث مبالغات ، لأنّ النفح فى معنى القلة والزارة . يقال : نفحته الدابة وهو ربح يسير ^(١) ، ونفحه بعطية : رضخه . ولبناء المرة .

(١) قوله «وهو ربح يسير» فى الصحاح : ربحه الفرس والبغل والخنزير : إذا ضرب به برجله . (ع)

وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ

حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَسِيبِينَ ﴿٤٧﴾

وصفت ﴿الموازين﴾ بالقسط وهو العدل ، مبالغة ، كأنها في أنفسها قسط . أو على حذف المضاف ، أى : ذوات القسط . واللام في ﴿ ليوم القيامة ﴾ مثلها في قولك : جئتني خمس ليال خلون من الشهر . ومنه بيت النابغة :

تَرَمَّمْتُ آيَاتٍ لَهَا فَعَرَفْتُهَا لِسِتَّةِ أَهْوَامٍ وَذَا الْعَامِ سَابِعُ ^(١)

وقيل : لأهل يوم القيامة ، أى لأجلهم . فإن قلت : ما المراد بوضع الموازين ؟ قلت : فيه قولان ، أحدهما : إرصاد الحساب السوى ، والجزء على حسب الأعمال بالعدل والنصفة ، من غير أن يظلم عباده مثقال ذرة ، فمثل ذلك بوضع الموازين لتوزن بها الموزونات . والثاني : أنه يضع الموازين الحقيقية ويوزن بها الأعمال . عن الحسن : هو ميزان له كفتان ولسان . ويروى : أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان ، فلما رآه غشى عليه ، ثم أفاق فقال : يا إلهي من الذي يقدر أن يملأ كفته حسنات ، فقال : يا داود . إني إذا رضيت عن عبدى ملأتها بتمرة . فإن قلت : كيف توزن الأعمال وإنما هي أعراض ؟ قلت : فيه قولان ، أحدهما : توزن صحائف الأعمال . والثاني : تجعل في كفة الحسنات جواهر بيض مشرقة ، وفي كفة السيئات جواهر سود مظلمة . وقرئ ﴿ مثقال حبة ﴾ على « كان » التامة ، كقوله تعالى (وإن كان ذو عسرة) . وقرأ ابن عباس ومجاهد : ﴿ آتينا بها ﴾ وهى مفاعلة من الإتيان بمعنى المجازاة والمكافأة . لأنهم أتوه بالأعمال وأتاهم بالجزاء . وقرأ حميد : أثبتنا بها ، من الثواب . وفي حرف أبي : جئنا بها . وأنت ضمير المثقال لإضافته إلى الحبة ، كقولهم : ذهب بعض أصابعه ، أى : آتيناها .

(١) عفا قسم من فرتنا فالقوارع نجبا أريك مالتلاع الدواقع

توسمت آيات لها فعرفتها لسة أهوام وذا العام سابع

للتأنيبة . وعفا : بلى وخلا . وفرتنا اسم محبوبته . وقسم ، والقوارع ، وأريك : أسماء مواضع . والتلاع : المواضع المرتفعة . والدواقع - بالقاف - : المغفرة كثيرة التراب . ودفع الرجل دثما ، كتب ، إذا التصق بالدقاء . وهى الأرض الكثيرة التراب من شدة فقره . وأما بالقاف فهى التى يدفع فيها السبل بكثرة . وتوسمت بالواو تجمعت ستماتها وعلاماتها فعرفتها بها . ويروى بالراء ، أى : تجمعت رسومها وآثارها فعرفتها . أى : تلك المواضع السابقة . وقوله لسة أهوام أى مستقبلا تمام ستة أهوام مضت من عهدها ، وهذا العام الحاضر الذى نحن فيه هو السابع . ولو قال : لسبعة أهوام ، لافتاد أن السبعة كلها مضت وليس مرادا . فقول بعضهم : إنه كان يكفيه أن يقول : لسبعة أهوام ، فعجز عن إتمامه ، وكله بما لا معنى له ، لاوجه له إلا عدم التبر .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾

(الفرقان) وهو التوراة (و) آتيناه (و) ضياء (و) ذكر (و) ذكرنا للمتقين (و) المعنى : أنه في نفسه ضياء وذكر . أو آتيناهما بما فيه من الشرائع والمواعظ ضياء وذكر . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : الفرقان : الفتح ، كقوله (يوم الفرقان) وعن الضحاك : فلق البحر . وعن محمد بن كعب : المخرج من الشبهات . وقرأ ابن عباس : ضياء ، بغير واو : وهو حال عن الفرقان . والذكر : الموعدة ، أو ذكر ما يحتاجون إليه في دينهم ومصالحهم . أو الشرف .

الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾

محل (الذين) جز على الوصفية . أو نصب على المدح . أو رفع عليه .

وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾

(وهذا ذكر مبارك) هو القرآن . وبركته : كثرة منافعه ، وغزارة خيره .

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ

وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا

لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾

الرشد : الاهتداء لوجه الصلاح . قال الله تعالى (فإن أنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم) وقرئ : رشده . والرشد والرشد ، كالعدم والعدم . ومعنى إضافته إليه : أنه رشده مثله . وأنه رشده شأن (من قبل) أي من قبل موسى وهرون عليهما السلام . ومعنى عليه به : أنه علم منه أحوال البديعة وأسرار العجيبة وصفات قدر ضيها وأحمدها ، حتى أهله لمخالته ومخالصته ، وهذا كقولك في خير من الناس : أنا عالم بفلان . فكلامك هذا من الاحتواء على محاسن الأوصاف بمنزلة (إذ) إما أن يتعلق بآتيناه ، أو برشده . أو بمحذوف ، أي : اذكر من أوقات رشده هذا الوقت . قوله (ما هذه التماثيل) تجاهل لهم وتغاب ، ليحقر آلهتهم ويصغر شأنها ، مع عليه بتعظيمهم وإجلالهم لها . لم ينو للعاكفين مفعولا ، وأجراه مجرى ما لا يتعدى ، كقولك : فاعلون العكوف لها . أو واقفون لها . فإن قلت : هلا قيل : عليها عاكفون ، كقوله تعالى (يعكفون على أصنام لهم) ؟ قلت : لو قصد التعدية لعداه بصلته التي هي ، على ، .

ما أقبح التقليد والقول المتقبل بغير برهان ، وما أعظم كيد الشيطان للبقدين حين استدراجهم إلى أن

قلدوا آباءهم في عبادة التماثيل وعفروا لها جباههم ، وهم معتقدون أنهم على شيء ، وجادون في نصره مذهبهم ، ومجادلون لأهل الحق عن باطلهم ، وكفى أهل التقليد سبة أن عبدة الأصنام منهم (أنتم) من التأكيد الذي لا يصح الكلام مع الإخلال به ، لأن العطف على ضمير هو في حكم بعض الفعل ممتنع . ونحوه : اسكن أنت وزوجك الجنة ، أراد أن المقلدين والمقلدين جميعاً ، منخرطون في سلك ضلال لا يخفى على من به أدنى مسكة ، لاستناد الفريقين إلى غير دليل ، بل إلى هوى متبع وشيطان مطاع ، لاستبعادهم أن يكون مامم عليه ضلالاً .

قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ٥٥

بقوا متعجبين من تفضيله إياهم ، وحسبوا أن ما قاله إنما قاله على وجه المزاح والمداعبة ، لأعلى طريق الجد ، فقالوا له : هذا الذي جئتنا به ، أم وجد وحق ، أم لعب وهزل ؟

قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ

مِنَ الشَّاهِدِينَ ٥٦

الضمير في (فطرهن) للسموات والأرض . أو للتماثيل ، وكونه للتماثيل أدخل في تفضيلهم ، وأثبت للاحتجاج عليهم . وشهادته على ذلك : إدلاؤه بالحجة عليه ، وتصحيحه بها كما تصح الدعوى بالشهادة ، كأنه قال : وأنا أبين ذلك وأبرهن عليه كما تبين الدعاوى بالبينات ، لأنني لست مثلكم ، فأقول ما لا أقدر على إثباته بالحجة . كما لم تقدروا على الاحتجاج لمذهبكم ، ولم تزيدوا على أنكم وجدتم عليه آباءكم .

وَنَالَهُ لَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولَّوْا مُدْبِرِينَ ٥٧ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا

إِلَّا كَسِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ٥٨

قرأ معاذ بن جبل : بالله . وقرئ : تولوا ، بمعنى تولوا . ويقربها قوله (فتولوا عنه مدبرين) . فإن قلت : ما الفرق بين الباء والتاء ؟ قلت : أن الباء هي الأصل ، والتاء بدل من الواو المبدلة منها ، وأن التاء فيها زيادة معنى وهو التعجب ، كأنه تعجب من تسهيل الكيد على يده وتأتيه ، لأن ذلك كان أمراً مقنوطاً منه لصعوبته وتعذره ، ولعمري إن مثله صعب متعذر في كل زمان ، خصوصاً في زمن نمروذ مع عتوه واستكباره وقوة سلطانه وتهالكه على نصره دينه

ولكن : * إِذَا اللَّهُ سَنَى عِقْدَ شَيْءٍ تَيْسَرًا * (١)

روى أن آزر خرج به في يوم عيد لهم ، فبدؤا بيت الأصنام فدخلوه وسجدوا لها ووضعوا بينها طعاما خرجوا به معهم وقالوا : إلى أن نرجع بركت الآلهة على طعامنا ، فذهبوا وبقى إبراهيم فنظر إلى الأصنام وكانت سبعين صنما مصطفة ، وثم صنم عظيم مستقبل الباب ، وكان من ذهب وفي عينيه جوهرتان تضيئان بالليل ، فكسرها كلها بفأس في يده ، حتى إذا لم يبق إلا الكبير علق الفأس في عنقه . عن قتادة : قال ذلك سرا من قومه ، وروى : سمعه رجل واحد (جذاذا) قطعا ، من الجذ وهو القطع . وقرئ بالكسر والفتح . وقرئ : جذاذا . جمع جذيد ، وجذاذا جمع جذة . وإنما استبقى الكبير لأنه غلب في ظنه أنهم لا يرجعون إلا إليه ، لما تسمعوه من إنكاره لدينهم وسبه لآلهتهم ، فيبكتهم بما أجاب به من قوله (بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم) وعن الكلبي (إليه) إلى كبيرهم . ومعنى هذا : لعلمهم يرجعون إليه كما يرجع إلى العالم في حل المشكلات ، فيقولون له : ما هؤلاء مكسورة ومالك صحيحا والفأس على عاتقك ؟ قال هذا بناء على ظنه بهم ، لما جرب وذاق من مكابرتهم لعقولهم واعتقاداتهم في آلهتهم وتعظيمهم لها . أو قاله مع علمه أنهم لا يرجعون إليه استهزاء بهم واستحجالا ، وأن قياس حال من يسجد له ويؤله للعبادة أن يرجع إليه في حل كل مشكل . فإن قلت : فإذا رجعوا إلى الصنم بمكابرتهم لعقولهم ورسوخ الإشراك في أعرافهم ، فأى فائدة دينية في رجوعهم إليه حتى يجعله إبراهيم صلوات الله عليه غرضا ؟ قلت : إذا رجعوا إليه تبين أنه عاجز لا ينفع ولا يضر ، وظهر أنهم في عبادته على جهل عظيم .

قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩)

أى أن من فعل هذا الكسر والحطم لشديد الظلم . معدود في الظلمة : إما لجرأته على الآلهة الحقيقة عندهم بالتوقير والإعظام ، وإما لأنهم رأوا إفراطا في حطمهم وتماديا في الاستهانة بها .

قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) ، قَالُوا قَاتُوا بِهِ عَلَى

أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١)

(١) وأعلم علما ليس بالظن أنه إذا الله سنى عقد شيء تيسرا ذكر المصدر توكيدا دافعا للتجاوز في الفعل ، ثم بين المراد بقوله وليس بالظن ، ويجوز أنه ذكره توطئة لوصفه بأنه غير ظن . وسنيت الشيء : فككته وسهلته . والعقد : مستعار للصعوبة تعريضا ، أى : إذا سهل الله صعوبة شيء وأزالها ، سهل تحصيله أو دفعه إن كان محبوا أو مكروها .

فإن قلت : ما حكم الفعلين بعد ﴿سمعنا قى﴾ وأى فرق بينهما ؟ قلت : هما صفتان لقى ، إلا أن الأول وهو ﴿يذكرهم﴾ لا بد منه لسمع ، لأنك لا تقول : سمعت زيدا وتسكت ، حتى تذكر شيئاً مما يسمع . وأما الثانى فليس كذلك . فإن قلت : ﴿إبراهيم﴾ ما هو ؟ قلت : قيل هو خير مبتدئ محذوف ، أو منادى . والصحيح أنه فاعل يقال ، لأن المراد الاسم لا المسمى ﴿على أعين الناس﴾ فى محل الحال ، بمعنى معانين مشاهداً ، أى : برأى منهم ومنظر . فإن قلت : فما معنى الاستعلاء فى على ؟ قلت : هو وارد على طريق المثل ، أى : يثبت إتيانه فى الأعين ويتمكن فيها ثبات الراكب على المركوب وتمكنه منه ﴿لعلهم يشهدون﴾ عليه بما سمع منه . وبما فعله أو يحضرون عقوبتنا له . روى أن الخبر بلغ نمرود وأشرف قومه ، فأمروا بإحضاره .

قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾

هذا من معارض الكلام ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعانى . والقول فيه أن قصد إبراهيم صلوات الله عليه لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضى يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيهم ، وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتاباً بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط : أنت كتبت هذا وصاحبك أتمى لا يحسن الخط ولا يقدر إلا على خرشة ^(١) فاسدة ، فقلت له : بل كتبه أنت ، كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به ، لانيه عنك وإثباته للأتمى أو المخرمش ، لأن إثباته - والأمر دائر بينكما للعاجز منك - استهزاء به وإثبات للقادر ، ولقائل أن يقول : غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مرتبة ، وكان غيظ كبيرها أكبر وأشد لما رأى من زيادة تعظيمهم له ، فأسند الفعل إليه لأنه هو الذى تسبب لاستهانتها بها وحطمه لها ، والفعل كما يسند إلى مباشرة يسند إلى الحامل عليه . ويجوز أن يكون حكاية لما يقود إلى تجويزه مذهبهم ، كأنه قال لهم : ما تنكرون أن يفعل كبرهم . فإن من حق من يعبد ويدعى إلهاً أن يقدر على هذا وأشد منه . ويحكى أنه قال : فعله كبرهم هذا غضب أن تعبد معه هذه الصغار وهو أكبر منها . وقرأ محمد بن السميع : فعله كبرهم ، يعنى : فعله ، أى فلعلّ الفاعل كبرهم .

فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾

(١) قوله «خرشة فاسدة» الموجود فى الصحاح : الخرش : مثل الخدش . والخراش : سمته . والخرشة

خشبته يخط بها الخراز . ولم يوجد فيه «خرشة» بزيادة الميم . (ع)

فلما ألقمهم الحجر وأخذ بمخانقهم ، رجعوا إلى أنفسهم فقالوا : أنتم الظالمون على الحقيقة ، لا من ظلمتموه حين قلم : من فعل هذا بأهتنا إنه لمن الظالمين .

ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾

نكسته : قلبته فجعلت أـ فله أعلاه ، وانتكس : انقلب ، أى : استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم وجاؤا بالفكرة الصالحة ، ثم انتكسوا وانقلبوا عن تلك الحالة ، فأخذوا فى المجادلة بالباطل والمكابرة ، وأن هؤلاـ مع تقاصر حالها عن حال الحيوان الناطق - آلهة معبودة ، مضادة منهم . أو انتكسوا عن كونهم مجادلين لإبراهيم عليه السلام مجادلين عنه ، حين نفوا عنها القدرة على النطق . أو قلبوا على رؤسهم حقيقة ، لفرط إطرافهم خجلا وانكساراً وانخزالاً مما بهتهم به إبراهيم عليه السلام ، فما أثاروا جواباً إلا ما هو حجة عليهم . وقرئ : نكسوا ، بالتشديد . ونكسوا ، على لفظ ماسمى فاعله ، أى : نكسوا أنفسهم على رؤسهم . قرأ به رضوان ابن عبدالمعبود .

قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَالًا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾

أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

(أف) صوت إذا صوت به علم أن صاحبه متضرر ، أضجره مارأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل ، فتأفف بهم . واللام لبيان التأفف به . أى : لكم ولأهتكم هذا التأفف .

قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا بِنَارٍ كُونِي

بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾

أجمعوا رأيهم - لما غلبوا - بإهلاكه : وهكذا المبطل إذا قرعت شبهته بالحجة وافتضح ، لم يكن أحد أبغض إليه من الحق . ولم يبق له مفرع إلا مناصبته ، كما فعلت قریش برسول الله صلى الله عليه وسلم حين عجزوا عن المعارضة . والذى أشار بإحراقه نمرود . وعن ابن عمر رضى الله عنهما : رجل من أعراب العجم يريد الأكراد . وروى أنهم حين هموا بإحراقه ، حبسوه ثم بنوا بيتاً كالخظيرة بكوئى ، وجمعوا شهراً أصناف الخشب الصلاب ، حتى إن كانت المرأة تمرض فتقول : إن عافانى الله لاجمعن خطباً لإبراهيم عليه السلام . ثم أشعلوا ناراً عظيمة كادت الطير تحترق فى الحرق من وهجها ، ثم وضعوه فى المتجنيق مقيداً مغلولاً فرموا به فيها ، فناداها جبريل

عليه السلام ﴿يَانَا كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ ويحكي . ما أحرقت منه إلا وثاقه . وقال له جبريل عليه السلام حين رمى به : هل لك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا . قال : فسل ربك . قال : حسبي من سؤالي عليه بحالي . وعن ابن عباس رضى الله عنه : إنما نجا بقوله : حسبي الله ونعم الوكيل ، وأطل عليه نمرود من الصرح فإذا هو في روضة ومعه جليس له من الملائكة ، فقال : إني مقرب إلى إلهك ، فذبح أربعة آلاف بقرة وكف عن إبراهيم ، وكان إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه إذ ذاك ابن ست عشرة سنة . واختاروا المعاقبة بالنار لأنها أهول ما يعاقب به وأفظعه ، ولذلك جاء : ﴿لَا يَعْذِبُ النَّارَ إِلَّا خَالِقُهَا﴾ ^(١) ومن ثم قالوا ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أى إن كنتم ناصرين آلهتكم نصرًا مؤزرًا ، فاختاروا له أهول المعاقبات وهى الإحراق بالنار ، والإفترطم في نصرتها . ولهذا عظموا النار وتكلفوا في تشهير أمرها وتفخيم شأنها ، ولم يألووا جهداً في ذلك . جعلت النار لمطاوعتها فعل الله وإرادته كما مور أمر بشئ فامتله . والمعنى : ذات برد وسلام ، فبولغ في ذلك . كأن ذاتها برد وسلام . والمراد : ابرد فيسلم منك إبراهيم . أو ابرد برداً غير ضار . وعن ابن عباس رضى الله عنه : لو لم يقل ذلك لأهلكته ببردها . فإن قلت : كيف بردت النار وهى نار ؟ قلت : نزع الله عنها طبعها الذى طبعها عليه من الحز والإحراق ، وأبقاها على الإضاءة والاشتعال كما كانت ، والله على كل شئ قدير . ويجوز أن يدفع بقدرته عن جسم إبراهيم عليه السلام أذى حرها ويذيقه فيها عكس ذلك ، كما يفعل بحزنة جهنم ، ويدل عليه قوله ﴿عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ وأرادوا أن يكيدوه ويمكروا به ، فساكنوا المأغلوين مهوورين غالبوه بالجدال فغلبه الله ولقنه بالمبكت ، وفزعوا إلى القوة والجبروت ، فنصره وقواه .

وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾

نجيا من العراق إلى الشام . وبركاته الواصلة إلى العالمين : أن أكثر الانبياء عليهم السلام بعثوا فيه فانتشرت في العالمين شرائعهم وآثارهم الدينية وهى البركات الحقيقية . وقيل : بارك الله فيه بكثرة الماء والشجر والثمر والخصب وطيب عيش الغنى والفقر . وعن سفيان أنه خرج إلى الشام فقيل له : إلى أين ؟ فقال : إلى بلد يملأ فيه الجراب بدرهم . وقيل : ما من ماء عذب إلا وينبع أصله من تحت الصخرة التى بيئت المقدس ^(٢) . وروى أنه نزل بفلسطين ، ولوط بالمؤتفكة

(١) وفى أبى داود : «إلا رب النار» .

(٢) قلت : جاء مرفوعاً عن أبى بن كعب . أخرجه الطبرى عن الحسين عن الفضيل بن موسى عن الحسين بن واقد عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب فى قوله «ونجينا لوطاً - الآية» قال : الشام ، وما من ماء عذب إلا يخرج من تلك الصخرة التى بيئت المقدس وأخرج ابن أبى حاتم عن على بن الحسين بن الجندب عن أبى عمار أخرجه أيضاً من رواية محمد بن سعد بن سابق عن أبى جعفر الرازى عن الربيع عن أبى العالية مقطوعاً لم يذكر

وبينهما مسيرة يوم وليلة.

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾

النافلة : ولد الولد . وقيل : سأل إسحق فأعطيه ، وأعطى يعقوب نافلة ، أى : زيادة وفضلا من غير سؤال .

وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ
وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴿٧٣﴾

(يهدون بأمرنا) فيه أن من صلح ليكون قدوة في دين الله فالهداية محتومة عليه مأمور هو بها من جهة الله ، ليس له أن يخل بها ويتناقل عنها ، وأول ذلك أن يهتدى بنفسه ؛ لأن الانتفاع بهداه أعم ، والنفوس إلى الاقتداء بالمهدى أميل (فعل الخيرات) أصله أن تفعل الخيرات ، ثم فعلا الخيرات ، ثم فعل الخيرات . وكذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة .

وَلَوْ طَاءَ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرِيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْغَبِيثَ
إِنَّهُمْ كَانُوا أَقْوَمَ سُوءَ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾

(حكما) حكمة وهو ما يجب فعله . أو فصلا بين الخصوم . وقيل : هو النبوة . والقرية : سدوم ، أى : في أهل رحمتنا . أو في الجنة . ومنه الحديث . هذه رحمتي أرحم بها من أشاء^(١) ،

وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ

== أبى بن كعب ، بلفظ « هي الأرض المقدسة بارك الله فيها للعالمين » ولم يذكر الصخرة . وأخرجه عبد بن حميد عن أبي النضر عن أبي جعفر كذلك . وزاد « لأن كل ماء عذب في الأرض منها يخرج من أصل صخرة بيت المقدس ، يهبط من السماء إلى الصخرة ثم يتفرق في الأرض » وأخرجه أبو سعيد النقاش في فوائده من وجه آخر عن الربيع عن أبي العالية . وأخرجه أبو سعيد عبد بن حميد عن أبي النضر نحوه بتمامه وأخرجه الخطيب أبو بكر محمد بن أحمد ابن محمد المقدسي المعروف بابن الواسطي في كتاب فضل بيت المقدس من طريق آدم ابن أبي إياس عن أبي جعفر الرازي ، بلفظ في قوله تعالى (إلى الأرض التي باركنا فيها) قال : من بركتها أن كل ماء عذب يخرج من أصل صخرة بيت المقدس . وأخرج الخطيب المذكور من طريق غالب بن عبد الله عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رفعه « الأنهار كلها والبحاب والبحار والرياح من تحت صخرة بيت المقدس » وغالب متروك .

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رفعه « تحتاج النار والجنة - الحديث ، وفيه فقال للجنة أنت رحمتي أرحم بها من أشاء من عبادي ، ولمسلم من حديث أبي سعيد نحوه .

الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ

فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

(من قبل) من قبل هؤلاء المذكورين .

هو نصره الذى مطاوعه «انتصر» وسمعت هذليا يدعو على سارق : اللهم انصرهم منه ،
أى : اجعلهم منتصرين منه . والكرب : الطوفان وما كان فيه من تكذيب قومه .

وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفِثَتْ فِيهِ غَمُّ الْقَوْمِ وَكُنَّا

لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا

وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ

لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾

أى : واذكرهما . واذ : بدل منهما . والنفث : الانتشار بالليل . وجمع الضمير لأنه أرادهما
والمتحاكين إليهما . وقرئ : لحكما . والضمير فى ﴿ففهمناها﴾ للحكومة أو الفتوى . وقرئ :
فأفهمناها . حكم داود بالغنم لصاحب الحرث . فقال سليمان عليه السلام وهو ابن إحدى عشرة
سنة : غير هذا أرفق بالفريقين ، فعزم عليه ليحكم ، فقال : أرى أن تدفع الغنم إلى أهل الحرث
ينتفعون بألبانها وأولادها وأصوافها ، والحرث إلى أرباب الشاء يقومون عليه حتى يعود
كهيشته يوم أفسد ، ثم يترادان . فقال : القضاء ما قضيت ، وأمضى الحكم بذلك . فإن قلت : أحكما
بوحى أم باجتهاد ؟ قلت : حكما جميعاً بالوحي ، إلا أن حكومة داود نسخت بحكومة سليمان . وقيل :
اجتهدا جميعاً ، فجاء اجتهاد سليمان عليه السلام أشبه بالصواب . فإن قلت : ما وجه كل واحدة من
الحكومتين ؟ قلت : أما وجه حكومة داود عليه السلام ، فلأن الضرر لما وقع بالغنم سلبت
بجنايتها إلى الجنى عليه ، كما قال أبو حنيفة رضى الله عنه فى العبد إذا جنى على النفس : يدفعه المولى
بذلك أو يفديه . وعند الشافعى رضى الله عنه : يبيعه فى ذلك أو يفديه . ولعل قيمة الغنم كانت
على قدر النقصان فى الحرث . ووجه حكومة سليمان عليه السلام أنه جعل الانتفاع بالغنم بإزاء
مافات من الانتفاع بالحرث ، من غير أن يزول ملك المالك عن الغنم ، وأوجب على صاحب
الغنم أن يعمل فى الحرث حتى يزول الضرر والنقصان ، مثاله ما قال أصحاب الشافعى فيمن غصب
عبداً فأبى من يده : أنه يضمن القيمة فينتفع بها المغصوب منه بإزاء ما فوّته الغاصب من منافع

العبد ، فإذا ظهر ترادفاً ، فإن قلت : فلو وقعت هذه الواقعة في شريعتنا ما حكمها ؟ قلت : أبو حنيفة وأصحابه رضى الله عنهم لا يرون فيه ضمانا بالليل أو بالنهار ؛ إلا أن يكون مع البهيمة سائق أو قائد والشافعي رضى الله عنه يوجب الضمان بالليل . وفي قوله (فقهمنها سليمان) دليل على أن الأصوب كان مع سليمان عليه السلام . وفي قوله (وكلا آتينا حكما وعلما) دليل على أنهما جميعا كانا على الصواب (يسبحن) حال بمعنى مسبحات . أو استئناف ، كأن قائلنا قال : كيف سخرهن ؟ فقال : يسبحن (والطير) إمام عطوف على الجبال . أو مفعول معه . فإن قلت : لم قدمت الجبال على الطير ؟ قلت : لأن تسخيرها وتسديحها أعجب وأدل على القدرة وأدخل في الإعجاز ، لأنها جاد والطير حيوان ، إلا أنه غير ناطق . روى أنه كان يميز بالجبال مسبحا وهي تجاوبه . وقيل : كانت تسير معه حيث سار . فإن قلت : كيف تنطق الجبال وتسبح ؟ قلت : بأن يخلق الله فيها الكلام كما خلقه في الشجرة حين كلم موسى ^(١) . وجواب آخر : وهو أن يسبح من رآها تسير بتسير الله ، فلما حملت على التسبيح وصفت به (وكنا فاعلين) أى قادرين على أن نفعل هذا وإن كان عجبا عندكم وقيل : وكنا نفعل بالأنبياء مثل ذلك .

البوس : اللباس . قال :

* أَلْبَسَ لِكُلِّ حَالَةٍ كُبُوسَهَا * ^(٢)

والمراد الدرع . قال قتادة : كانت صفائح فأول من سردها وحلقها داود ، فجمعت الخففة والتحصين (لتحصنكم) قرئ بالنون والياء والتاء ، وتخفيف الصاد وتشديدها ؛ فالتون لله عز وجل ، والتاء للصنعة أو للبوس على تأويل الدرع ، والياء لداود أو للبوس .

وَلَسَلِمْنَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا

(١) قوله « كما خلقه في الشجرة حين كلم موسى » هذا عند المعتزلة ، بناء على أن كلام الله حادث فلا يقوم بذاته تعالى ؛ أما عند أهل السنة فكلامه تعالى قديم قائم بذاته ، ويسمعه موسى عليه السلام بكشف الحجاب عنه . (ع)

(٢) اللبس لكل حالة لبوسها إما نعيمها وإما بوسها
لبس الملقب بنعامة : قتل له سبعة إخوة ، فجعل يلبس القميص مكان السراويل وعكسه . وإذا سئل عن ذلك قال : هذا البيت ، حتى إذا أخذت دماء السبعة . واللبوس - بالفتح - : اللباس . وقسمه في الإبدال منه إلى النعم والبوس لعلاقة السببية . ويجوز أنه على حذف المضاف ، أى : لبوس نعيمها أولبوس بؤسها . ووسطا إما للتنويع ، ولكن القصة تدل على أن ذات اللباس لم تتغير ، فيجوز أن اللبوس اسم مصدر وإن كان استعماله فيقول بالفتح في المصدر قليلا . ويجوز أن يروى بالضم ، فيكون بمعنى المصدر على الكثير ، أى : اللبس لكل حالة ما يناسبها من اللبس . إما اللبس المستقيم أو المنعكس . والمأمور باللبس ليس معنا . واللبوس بالهمز : الشدة ، قلبت همزته هنا واوا لتناسب القافية . وبين لبوس وبوس : الجنس ناقص .

وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يُفَوِّضُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا
دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾

قرئ: الريح . والرياح ، بالرفع والنصب فيهما ؛ فالرفع على الابتداء ، والنصب على العطف على الجبال . فإن قلت : وصفت هذه الرياح بالعصف تارة وبالرخاوة أخرى ، فما التوفيق بينهما ؟ (١) قلت : كانت في نفسها رخية طيبة كالنسيم ، فإذا مرت بكرسيه أبعدت به في مدة يسيرة ، على ما قال (غدقوها شهر ورواحها شهر) فكان جمعها بين الأمرين أن تكون رخاء في نفسها وعاصفة في عملها ، مع طاعتها لسلطان وهبوبها على حسب ما يريد ويحكم : آية إلى آية ومعجزة إلى معجزة . وقيل كانت في وقت رخاء ، وفي وقت عاصفا ؛ لهبوبها على حكم إرادته ، وقد أحاط علمنا بكل شيء فنجري الأشياء كلها على ما يقتضيه علمنا وحكمتنا .

أى : يفوضون له في البحار فيستخرجون الجواهر ، ويتجاوزون ذلك إلى الأعمال والمهن وبناء المدن والقصور واختراع الصنائع العجيبة ، كما قال (يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل) والله حافظهم أن يغوا عن أمره ، أو يبدلوا أو يغيروا ، أو يوجد منهم فساد في الجملة فيأهم مسخرون فيه .

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ
فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا
وَذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾

أى : ناداه بأنى مسنى الضر . وقرئ : إني ، بالكسر على إضمار القول أو لتضمن النداء معناه والضر - بالفتح - : الضرر في كل شيء ، وبالضم : الضرر في النفس من مرض وهزال ، فرق بين البناءين لافتراق المعنيين . ألفت في السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة ، وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب . ويحكى أن عجوزاً تعرضت لسلطان بن عبد الملك فقالت : يا أمير المؤمنين ، مشت جردان (٢) يبتى على العصي ! فقال لها : أطلقت في السؤال ، لا جرم

(١) قال محمود : «إت قلت قد وصفت هذه الريح بأنها رخاء وبأنها عاصف فما وجه ذلك ؟ قلت : ما هي إلا جمعتما وكانت في نفسها رخاء طيبة وفي سرعة حركتها كالعاصف» قال أحمد : وهذا كما ورد وصف عصا موسى تارة بأنها جان وتارة بأنها ثعبان ، والجان الرقيق من الحيات والثعبان العظيم الجافي منها . ووجه ذلك أنها جمعت الوصفين ؛ فكانت في خفتها وفي سرعة حركتها كالجان ، وكانت في عظم خلقها كالثعبان ، ففى كل واحد من الريح والعصا على هذا التقرير معجزتان والله سبحانه وتعالى أعلم .

(٢) قوله «جردان يبتى» في الصحاح «الجرذ» ضرب من الفأر . والجمع جردان . (ع)

لأردنها تثب وثب الفهود وملا بيتها حبا . كان أيوب عليه السلام روميا من ولد إسحاق بن يعقوب عليهم السلام ، وقد استنبأه الله وبسط عليه الدنيا وكثر أهله وماله : كان له سبعة بنين وسبع بنات ، وله أصناف البهائم ، وخمسمائة فدان ^(٣) يتبعها خمسمائة عبد ، لكل عبد امرأة وولد ونخيل ، فابتلاه الله بذهاب ولده . انهدم عليهم البيت فهلكوا . وبذهاب ماله ، وبالمرض في بدنه ثمان عشرة سنة . وعن قتادة : ثلاث عشرة سنة . وعن مقاتل : سبعاً وسبعة أشهر وسبع ساعات ، وقالت له امرأته يوما : لو دعوت الله ، فقال لها : كم كانت مدة الرخاء فقالت ثمانين سنة ، فقال : أنا أستحي من الله أن أدعوه وما بلغت مدة بلائي مدة رخائي فلما كشف الله عنه أحياء ولده ورزقه مثلهم ونوافل منهم . وروى أن امرأته ولدت بعد ستة وعشرين ابناً . أى : لرحمتنا العابدين وأنا نذكرهم بالإحسان لانسأهم أو رحمة منالأيوب وتذكروا لغيره من العابدين ، ليصبروا كما صبر حتى يثابوا كما أتيب في الدنيا والآخرة .
وَإِثْمِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي

رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾

قيل في ذى الكفل : هو إلياس . وقيل : زكريا . وقيل : يوشع بن نون ، وكأنه سمي بذلك لأنه ذو الحظ من الله والمجدود ^(٣) على الحقيقة . وقيل : كان له ضعف عمل الأنبياء في زمانه وضعف ثوابهم . وقيل : خمسة من الأنبياء ذوو اسمين : إسرائيل ويعقوب . إلياس وذو الكفل . عيسى والمسيح . يونس وذو النون . محمد وأحمد : صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .
وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾

(النون) الحوت ، فأضيف إليه . برم ^(١) بقومه لطول ما ذكرهم فلم يذكروا وأقاموا على كفرهم ، فراغهم وظن أن ذلك يسوغ حيث لم يفعله إلا غضباً لله وأتفه لدينه وبغضاً للكفر وأهله ، وكان عليه أن يصابر وينتظر الإذن من الله في المهاجرة عنهم ، فابتلى ببطن الحوت . ومعنى مغاضبته لقومه : أنه أغضبهم بمفارقته لخوفهم حلول العقاب عليهم عندها . وقرأ أبو شرف : مغضباً . قرئ : نقدر . ونقدر ، مخففاً ومثقلاً . ويقدر ، بالياء بالتخفيف . ويقدر .

(١) قوله « وخمسمائة فدان » في الصحاح « الفدن » القصر . والفدان : آله الثورين للحرث . (ع)

(٢) قوله « والمجدود » في الصحاح « المجد » الحظ والبخت . تقول : جددت بافلان ، أى : صرت ذا جد .

فأنت جديد حظيظ ، ومجدود محظوظ . (ع)

(٣) قوله « برم بقومه » - شهم وتبرم بهم . أفاده الصحاح . (ع)

ويقدر، على البناء للفعول مخففا ومثقلا . وفسرت بالتضييق عليه ، وبتقدير الله عليه عقوبة . وعن ابن عباس : أنه دخل على معاوية فقال : لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة ففرقت فيها ، فلم أجد لنفسى خلاصاً إلا بك . قال : وما هي يا معاوية ، فقرأ هذه الآية وقال : أو يظن نبي الله أن لا يقدر عليه ؟ قال : هذا من القدر لا من القدرة . والمخفف يصح أن يفسر بالقدرة ، على معنى : أن لن نعمل فيه قدرتنا ، وأن يكون من باب التمثيل ، بمعنى : فكانت حاله بمنزلة بحال من ظن أن لن نقدر عليه في مراغمته قومه ، من غير انتظار لأمر الله . ويجوز أن يسبق ذلك إلى وهمه بوسوسة الشيطان ، ثم يردعه ويرده بالبرهان ، كما يفعل المؤمن المحقق بنزغات الشيطان وما يوسوس إليه في كل وقت . ومنه قوله تعالى (وتظنون بالله الظنونا) والخطاب للمؤمنين (في الظلمات) أى في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت ، كقوله (ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات) وقوله (يخرجونهم من النور إلى الظلمات) وقيل : ظلمات بطن الحوت والبحر والليل . وقيل : ابتلع حوته حوت أكبر منه ، فحصل في ظلمتي بطن الحوتين وظلمة البحر . أى بأنه (لا إله إلا أنت) أو بمعنى : أى . عن النبي صلى الله عليه وسلم : ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له ^(١) ، وعن الحسن : ما نجاه الله إلا إقراره على نفسه بالظلم .

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

(ننجي) وننجي . ونجى . والنون لاتدغم في الجيم ، ومن تحمل لصحته فجعله فعل وقال نجى النجاء المؤمنين ، فأرسل الياء وأسندته إلى مصدره ونصب المؤمنين بالنجاء . فتعسف بارد التعسف

وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾
فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ زَوْجُهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي
الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٩٠﴾

(١) أخرجه الترمذى والحاكم والبيهقي في الشعب في السبعين من رواية إبراهيم بن محمد بن سعد عن أبيه عن جده سعد بن أبي وقاص رفته ودعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له . قال الترمذى : رواه بعضهم عن إبراهيم عن جده ، لم يقل عن أبيه اه وله متابع أخرجه الحاكم من رواية كثير بن زيد عن المطلب بن حنطب عن مصعب بن سعد عن أبيه ، بلفظ : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين (إذا نزل بأحدكم كرب أو بلاء فدعاه بالافرج عنه . قالوا : بلى يا رسول الله . قال دعوة ذي النون (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) وأخرجه الحاكم أيضا من رواية معمر بن سليمان عن معمر عن الزهري عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن سعد .

سأل ربه أن يرزقه ولداً يرثه ولا يدعه وحيداً بلا وارث، ثم رد أمره إلى الله مستسلماً فقال (وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ) أى إن لم ترزقنى من يرثنى فلا أبالى، فإنك خير وارث. إصلاح زوجه : أن جعلها صالحة للولادة بعد عقرها. وقيل : تحسين خلقها وكانت سيئة الخلق . الضمير للمذكورين من الانبياء عليهم السلام يريد أنهم ما استحقوا الإجابة إلى طلباتهم إلا لمبادرتهم أبواب الخير ومسارعتهم في تحصيلها كما يفعل الراغبون في الأمور الجادون. وقرئ (رغباً ورهباً) بالإسكان، وهو كقوله تعالى (يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه). (خاشعين) قال الحسن : ذللاً لأمر الله. وعن مجاهد : الخشوع الخوف الدائم في القلب. وقيل : متواضعين. وسئل الأعمش فقال : أما إنى سألت إبراهيم فقال : ألا تدري ؟ قلت : أفدى . قال : بينه وبين الله إذا أرخى ستره وأغلق بابَه ، فليَرِ الله منه خيراً ، لعلك ترى أنه أن يأكل خشناً ويلبس خشناً ويطأ طئ رأسه .

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (٩١)

(أحصنت فرجها) إحصاناً كلياً من الحلال والحرام جميعاً كما قالت (ولم يمسن بشراً ولم أك بغياً). فإن قلت : نفخ الروح في الجسد عبارة عن إحيائه . قال الله تعالى (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي) أى أحييته . وإذا ثبت ذلك كان قوله (فنفخنا فيها من روحنا) ظاهر الإشكال ؛ لأنه يدل على إحياء مريم . قلت : معناه نفخنا الروح في عيسى فيها ، أى : أحييناه في جوفها ^(١) . ونحو ذلك أن يقول الزمار : نفخت في بيت فلان ، أى : نفخت في المزار في بيته . ويجوز أن يراد : وفعلنا النفخ في مريم من جهة روحنا وهو جبريل عليه السلام ؛ لأنه نفخ في جيب درعها فوصل النفخ إلى جوفها . فإن قلت : هلا قيل آيتين كما قال (وجعلنا الليل والنهار آيتين) ؟ قلت : لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة ، وهى ولادتها إياه من غير خل .

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢)

(١) قال محمود : إن قلت نفخ الروح في الجسد عبارة عن إحيائه وحينئذ يكون معناه فأحيينا مريم ويشكل إذ ذاك . قلت : معناه فنفخنا الروح في عيسى في مريم أى أحييناه في جوفها انتهى كلامه ، قال أحمد : وقد اختار الزمخشري في قوله عز وجل (إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن إقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل) أن تكون الضمائر كلها راجعة إلى موسى . أما الأول فلا إشكال فيه ، وأما التابوت إذا قذف في اليم وموسى فيه ، فقد قذف موسى في اليم . وكذلك الثالث . واختار غيره عود الضميرين الآخرين إلى التابوت ؛ لأنه فهم من قوله (فاقذفيه في اليم) أن المراد التابوت . وأما موسى فلم يقذف في اليم . والزمخشري نزل قذف التابوت في اليم وموسى فيه منزلة قذفه في اليم . وفي هذه الآية مصداق لما اختاره ، فإن الله تعالى نزل نفخ الروح في عيسى ليكون في جوف مريم منزلة نفخ الروح في مريم ، فعبّر بما يفهم ظاهر هذا .

الامة : الملة ، و (هذه) إشارة إلى ملة الإسلام ، أى : إن ملة الإسلام هى ملتكم التى يجب أن تكونوا عليها لانتحرفون عنها ، يشار إليها ملة واحدة غير مختلفة (وأنا) إلهكم إله واحد (فاعبدون) ونصب الحسن أمتكم على البدل من هذه ، ورفع أمة خبراً . وعنه رفعهما جميعاً خبرين لهذه . أو نوى للثاني مبتدأ ، والخطاب للناس كافة .

وَتَقَطُّوْا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلَّ إِلَهِنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾

والاصل : وتقطعتم ، إلا أن الكلام حرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات ، كأنه ينهى عليهم ما أفسدوه إلى آخرين ويقبح عندهم فعلهم ، ويقول لهم : ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء فى دين الله . والمعنى : جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً ، كما يتوزع الجماعة الشئ ويتقسمونه ، فيطير لهذا نصيب ولذاك نصيب ، تمثيلاً لاختلافهم فيه ، وصيرورتهم فرقا وأحزاباً شتى . ثم توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون ، فهو محاسبهم ومجازيهم .

فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾

الكفران : مثل فى حرمان الثواب ، كما أن الشكر مثل فى إعطائه إذا قيل لله : شكور . وقد نفي نفي الجنس ليكون أبلغ من أن يقول : فلا نكفر سعيه (وإنا له كاتبون) أى نحن كاتبو ذلك السعى ومثبتوه فى صحيفه عمله ، وما نحن مثبتوه فهو غير ضائع ومثاب عليه صاحبه .

وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ

وَمَا جُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾

استعير الحرام للمتنع وجوده . ومنه قوله عز وجل (إن الله حزمهما على الكافرين) أى منعهما منهم ، وأبى أن يكونا لهم . وقرئ : حرم وحرم ، بالفتح والكسر . وحزم وحزم . ومعنى (أهلكناهما) عز منا على إهلاكها . أو قذرنا إهلاكها . ومعنى الرجوع : الرجوع من الكفر إلى الإسلام والإجابة . ومجاز الآية : أن قوما عزم الله على إهلاكهم غير متصور أن يرجعوا وينبئوا ، إلى أن تقوم القيامة فينشد يرجعون ويقولون : (يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا بل كنا ظالمين) يعنى : أنهم مطبوع على قلوبهم فلا يزالون على كفرهم ويموتون عليه حتى يروا العذاب . وقرئ : إنهم ، بالكسر . وحق هذا أن يتم الكلام قبله ، فلا بد من تقدير محذوف ، كأنه قيل : وحرام على قرية أهلكناهم ذلك . وهو المذكور فى الآية المتقدمة من العمل الصالح والسعى المشكور غير المكفور ، ثم علل فقيل : إنهم لا يرجعون عن الكفر ، فكيف لا يتمتع ذلك . والقراءة بالفتح يصح حملها على هذا ؟ أى : لأنهم لا يرجعون ولا صلة على

الوجه الأول . فإن قلت : هم تعلقت (حتى) واقعة غاية له ، وأية الثلاث هي ؟ قلت : هي متعلقة بحرام ، وهي غاية له لأن امتناع رجوعهم لا يزول حتى تقوم القيامة ، وهي (حتى) التي يحكى بعدها الكلام ، والكلام المحكى : الجملة من الشرط والجزاء ، أعني : وإذا وما في حيزها . حذف المضاف إلى (يأجوج ومأجوج) وهو سدهما ، كما حذف المضاف إلى القرية وهو أهلها . وقيل : فتحت كما قيل (أهلكناها) وقرئ : آجوج . وهما قبيلتان من جنس الإنس ، يقال : الناس عشرة أجزاء ، تسعة منها يأجوج ومأجوج (وهم) راجع إلى الناس المسوقين إلى المحشر وقيل : هم يأجوج ومأجوج يخرجون حين يفتح السد . الحذب : النشر^(١) من الأرض . وقرأ ابن عباس رضى الله عنه : من كل جدث ، وهو القبر ، الثاء : حجازية ، والفاء : تميمية . وقرئ (ينسلون) بضم السين . ونسل وعسل : أسرع .

وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَوِيلَنَا قَدْ

كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾

و (إذا) هي إذا المفاجأة ، وهي تقع في المجازاة سادة مسد الفاء ، كقوله تعالى (إذا هم يقنطون) فإذا جاءت الفاء معها تعاوتنا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد . ولو قيل : إذا هي شاخصة . أو فهي شاخصة ، كان سيدياً (هي) ضمير مبهم^(٢) توضحه الالبصار وتفسره . كما فسر الذين ظلوا وأسروا (ياويلنا) متعلق بمحذوف تقديره : يقولون يا ويلنا . ويقولون : في موضع الحال من الذين كفروا .

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾
أَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ مِثْلَ مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَمْ يَكُنْ فِيهَا زَفِيرٌ
وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

(ما تعبدون من دون الله) يحتمل الأصنام وإبليس وأغوائه ، لأنهم بطاعتهم لهم واتباعهم خطواتهم في حكم عبدتهم . ويصدق ما روى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد وصناديد قريش في الخطيم . وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً ، فجلس إليهم فعرض له النضر بن الحرث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ألحقه . ثم تلا عليهم (إنكم

(١) قوله «النشر من الأرض» في الصحاح والنشر المكان المرتفع . (ع)

(٢) قوله «هي ضمير مبهم ... الخ» لعله ضمير (أسروا) وأولاه واو (وأسروا) . (ع)

وما تعبدون من دون الله ... الآية) ، فأقبل عبد الله بن الزبير فرآهم يتهايمسون ، فقال : فيم خوضكم ؟ فأخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عبد الله : أما والله لو وجدتة لخصمته ، فدعوه . فقال ابن الزبير : أأنت قلت ذلك ؟ قال : نعم . قال : قد خصمتك ورب السكبة . أليس اليهود عبدوا عزيزاً ، والنصارى عبدوا المسيح ، وبنو مليح عبدوا الملائكة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك ^(١) . فأنزل الله تعالى (إن الذين سبقتم لهم منا الحسنى ... الآية) يعني عزيزاً والمسيح والملائكة عليهم السلام . فإن قلت : لم قرئوا بآلهتهم ؟ قلت : لأنهم لا يزالون لمقارنتهم في زيادة غم وحسرة ، حيث أصابهم ما أصابهم بسببهم . والنظر إلى وجه العذوق باب من العذاب ، ولأنهم قدروا ، أنهم يستشفعون بهم في الآخرة ويستشفعون بشفاعتهم ، فإذا صادفوا الأمر على عكس ما قدروا لم يكن شيء أبغض إليهم منهم . فإن قلت : إذا عنت بما تعبدون الأصنام ، فما معنى (لهم فيها زفير) ؟ قلت : إذا كانوا هم وأصنامهم في قرن ^(٢) واحد ، جاز أن يقال : لهم زفير ، وإن لم يكن الزفيرين إلا هم دون الأصنام للتغليب ولعدم الإلباس . والحصب : المحسوب ، أى : يحصب بهم في النار . والحصب : الرمي . وقرى بسكون الصاد ، وصفاً بالمصدر . وقرى حطب ، وحضب ، بالضاد متحركاً وساكناً . وعن ابن مسعود : يجعلون في توايت من نار فلا يسمعون . ويجوز أن يصمهم الله كما يصمهم .

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ

(١) هكذا ذكره الثعلبي ثم البغوي بغير إسناد . لم أجده هكذا إلا ملففاً فأما صدره ففي الطبراني الصغير في ... وأخبره من حديث ابن عباس قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وعلى الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً قد شددت أقدامها برصاص - الحديث ، وأما قوله : وكانت صناديد قريش فقصة أخرى ذكرها ابن إسحاق في المغازي والطبري من طريقه قال « جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً في المسجد مع رجال من قريش فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ألجمه - فذكر نحو المذكور هنا إلى آخره وفيه وإن كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده إنهم إنما يعبدون الشياطين ، وروى ابن مردويه والواحدي من طريق أبي رزين عن أبي يحيى عن ابن عباس قال « لما نزلت (إنكم وما تعبدون من دون الله ... الآية) شق ذلك على قريش وقالوا : يشتم آلهتنا . فجاء ابن الزبير . وقال : يا محمد هذا شتم لآلهتنا خاصة ، أم لكل من عبد من دون الله ؟ قال : لكل من عبد من دون الله . قال : خصمتك ورب السكبة - فلما ذكر نحوه .

(تنبيهان) أحدهما : اشتهر في السنة كثير من علماء العجم وفي كتبهم : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في هذه القصة لابن الزبير « ما أجعلك بلغة قومك . فاني قلت : وما تعبدون . وهي لما لا يعقل . ولم أقل : ومن تعبدون اه . وهو شيء لا أصل له . ولا يوجد لاهندا ولا غير مستند . الثاني قال السهيلي اعتراض ابن الزبير غير لازم . لأن الخطاب مخصوص بقريش وما يعبدون من الأصنام . ولذلك أتى بما الواقعة على ما لا يعقل اه . وحديث ابن عباس الذي تقدم ينقض عليه هذا التأويل . فانه صرح بأن المراد كل ما يعبد من دون الله

(٢) قوله في قرن هو جبل يقرن به البعيران . أفاده الصحاح . (ع)

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وابن عدى وابن مردويه والعلبي من رواية ليث بن أبي سليم عن ابن عم الثعالب بن بشير . وكان من سمار على قال : فلا على هذه الآية - فذكره .
(٢) قوله «وزن العتل العتل : الغليظ الجافي» . وقال تعالى (عتل بعد ذلك زنيم) والعتل أيضا : الرمح الغليظ . ورجل عتل - بالكسر - : بين العتل ، كذا في الصحاح . (ع)
(٣) قال محمود : وإن قلت ما أول الخلق حتى يعيده كما بدأ ؟ قلت : أول الخلق إجماده عن العدم ، فكما أوجده أولا عن عدم يعيده ثانيا عن عدم . قلت : هذا الذي ذكره هنا في الحما قد عاد به إلى الحق ورجع عما قاله في =

منكرأ ؟ قلت : هو كقولك : هو أول رجل جاءني ، تريد أول الرجال ، ولكنك وحدته ونكرته إرادة تفصيلهم رجلا رجلا ، فكذلك معنى (أول خلق) : أول الخلق ، بمعنى : أول الخلائق ، لأن الخلق مصدر لا يجمع . ووجه آخر ، وهو أن ينتصب الكاف بفعل مضمر يفسره (نعيده) وما موصولة ، أى : نعيد مثل الذى بدأناه نعيده . وأول خلق : ظرف لبدأناه ، أى : أول ما خلق ، أو حال من ضمير الموصول الساقط من اللفظ ، الثابت فى المعنى (وعداً) مصدر مؤكد ، لأن قوله (نعيده) عدة للإعادة (إنا كنا فاعلين) أى قادرين على أن نفعل ذلك .

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾
عن الشعى رحمة الله عليه : زبور داود عليه السلام ، والذكر : التوراة . وقيل اسم الجنس ما أنزل على الأنبياء من الكتب . والذكر : أم الكتاب ، يعنى اللوح ، أى : يرثها المؤمنون بعد إجلاء الكفار ، كقوله تعالى (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها) ، (قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) وعن ابن عباس رضى الله عنه : هى أرض الجنة . وقيل : الأرض المقدسة ، ترثها أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَصِيَيْنَ ﴿١٠٦﴾

الإشارة إلى المذكور فى هذه السورة من الأخبار والوعود والوعيد والمواعظ البالغة . والبلاغ : الكفاية وما تبلغ به البغية .

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾

أرسل صلى الله عليه وسلم (رحمة للعالمين) لأنه جاء بما يسعدهم إن اتبعوه . ومن خالف ولم يتبع . فإنما أتى من عند نفسه حيث ضيع نصيبه منها . ومثاله : أن يفجر الله عينا غديقة ، فيسقى ناس ذروعهم ومواشيهم بمائها فيفلقوها ، ويبقى ناس مفرطون عن الهيق فيضنيعوا ، فالعين

== سورة مريم ، حيث فسر الإعادة بجمع المتفرق خاصة ، إلا أنه كدر صفو اعترافه بالحق بتفسيره قوله (إنا كنا فاعلين) بالقدرة على الفعل ، ولا يلزم على هذا من القدرة على الفعل حصوله ، تحويما على أن الموعود به ليس إعادة الأجسام عن عدم وإن كانت القدرة صالحة لذلك ، ولكن إعادة الأجزاء على صورتها مجمعة مؤنلفة على ما تقدم له فى سورة مريم ؛ إلا أن يكون الباعث له على تفسير الفعل بالقدرة : أن الله ذكر ماضيا والإعادة وقوعها مستقبل ، فتعين عنده من ثم حل الفعل على القدرة فقد قارب ، ومع ذلك فالخلق بقاء الفعل على ظاهره : لأن الأفعال المستقبلية التى علم الله وقوعها ، كالمصطفى التحقق ، فن ثم عبر عن المستقبل بالماضى فى مواضع كثيرة من الكتاب العزيز . والغرض الإيذان بتحقيق وقوعه ، والله أعلم .

المفجرة في نفسها، نعمة من الله ورحمة للفريقين، ولكن الكسلان محنة على نفسه؛ حيث حرّمها ما ينفعها. وقيل: كونه رحمة للفجار، من حيث أن عقوبتهم أخرت نسيبه وأمنوا به عذاب الاستئصال.

قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾

إنما لقصر الحكم على شيء، أو لقصر الشيء على حكم، كقولك: إنما زيد قائم، وإنما يقوم زيد. وقد اجتمع المثالان في هذه الآية، لأن (إنما يوحى إلى) مع فاعله، بمنزلة: إنما يقوم زيد. و(أنما إلهكم إله واحد) بمنزلة: إنما زيد قائم. وفائدة اجتماعهما: الدلالة على أن الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقصور على استئثار الله بالوحدانية: وفي قوله (فهل أنتم مسلمون) أن الوحي الوارد على هذا السنن موجب أن تخلصوا التوحيد لله، وأن تخلعوا الأنداد. وفيه أن صفة الوحدانية يصح أن تكون طريقها السمع. ويجوز أن يكون المعنى: أن الذي يوحى إلى، فتكون دما، موصولة.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أُذِرِي أَقْرَبُ أَمْ يَبْعِدُ مَا تُوْعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أُذِرِي

لَعَلَّاهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾

آذن: منقول من آذن إذا علم، ولكنه كثر استعماله في الجرى مجرى الإنذار. ومنه قوله تعالى (فأذنوا بحرب من الله ورسوله)، وقول ابن حنبل:

* آذَنْتُنَا بَيْنَهُمَا أَسْمَاءُ * (١)

والمعنى: أتى بعد توليكم وإعراضكم عن قبول ما عرض عليكم من وجوب توحيد الله وتنزيهه عن الأنداد والشركاء، كرجل بينه وبين أعدائه هدنة فأحس منهم بغدره، فنبذ إليهم العهد، وشهر النبذ وأشاعه وأذنبهم جميعاً بذلك (على سواء) أي مستويين في الإعلام به، لم يطوه عن

(١) آذنتنا بينها أسماء رب ثار يمل منه الثواء

للحارث بن حنبل مطلق معلقته. وآذن الشيء: علمه بحاجة الآذن، وتوسع فيه حتى صار بمعنى مطلق العلم. وآذنه - بالمد -: أعلمه. والبين: مصدر بمعنى البعد والفراق. وتقدم أن أسماء من الوصاة أي الحسن. والثاوى: المقيم. والمثل: السامة. والثواء: الإقامة. يقول: أعدتنا لفرأقها. ورب يقيم يسأم الناس من إقامته، وهي ليست كذلك. وحذف هذا العلم به من المقام.

أحد منهم وكاشف كلهم ، وقشر العضا عن لحائها ^(١) . و (ما تعدون) = من غلبة المسلمين عليكم كائن لاحتالة ، ولا بد من أن يلحقكم بذلك الذلة والصغار ، وإن كشت لا أدري متى يكون ذلك لأن الله لم يعلنني عليه ولم يطلعني عليه ، والله عالم لا يخفى عليه ما تجاھرون به من كلام الطعانيين في الإسلام ، و (ما تكتُمون) = في صدوركم من الإحسان والاحقاد للمسلمين ، وهو يجازيكم عليه . وما أدري لعل تأخير هذا الموعد امتحان لكم لينظر كيف تعملون . أو تمتنع لكم (إلى حين) ليكون ذلك حجة عليكم ؛ وليقع الموعد في وقت هو فيه حكمة .

قَالَ رَبِّ أَحْكَمْ بِالْحَقِّ وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

قرئ (قل) وقال ، على حكاية قول رسول الله صلى الله عليه وسلم . و (رب احكم) على الاكتفاء بالكسرة . ورب احكم ، على الضم . وربى احكم ، على أفعل التفضيل . وربى احكم : من الإحكام ، أمر باستعجال العذاب لقومه فعذبوا ببدر . ومعنى (بالحق) لانتحابهم وشدد عليهم كما هو حقهم ، كما قال : أشدد وطأتك على مضر ، ^(٢) قرئ (تصفون) بالياء . كانوا يصفون الحال على خلاف ما جرت عليه ، وكانوا يطعمون أن تكون لهم الشوكة والغلبة ، فكذب الله ظنونهم وخيب آمالهم ، ونصر رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، وخذلهم . عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من قرأ اقترب للناس حسابهم حاسبه الله حساباً يسيراً ، وصاحفه وسلم عليه كل نبي ذكر اسمه في القرآن ، ^(٣) .

(١) قوله « ولحائها » في الصحاح : اللحاء - معدود - قشر الشجر . (ع)

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة في قصة القنوت في صلاة الصبح .

(٣) أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب

سورة الحج

مكية ، غير ست آيات ، وهي : هذان خصمان ... إلى قوله ... إلى صراط الحميد
وهي ثمان وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ①

الزلزلة : شدة التحريك والإزعاج ، وأن يضاعف زليل الأشياء ^(١) عن مقازها ومراكرها ولا تخلو (الساعة) من أن تكون على تقدير الفاعلة لها ، كأنها هي التي تزلزل الأشياء على المجاز الحكيم ، فتكون الزلزلة مصدرا مضافا إلى فاعله . أو على تقدير المفعول فيها على طريفة الاتساع في الظرف وإجرائه مجرى المفعول به ، كقوله تعالى (بل مكر الليل والنهار) وهي الزلزلة المذكورة في قوله (إذا زلزلت الأرض زلزالها) واختلف في وقتها ، فمن الحسن أنها تكون يوم القيامة وعن علقمة والشعبي : عند طلوع الشمس من مغربها . أمر بني آدم بالتقوى ، ثم علل وجوبها عليهم بذكر الساعة ووصفها بأهل صفة ، لينظروا إلى تلك الصفة يصارهم ويتصوروها بعقولهم ، حتى يبقوا على أنفسهم ويرحموها من شدائد ذلك اليوم ، بامتثال ما أمرهم به ربهم من النزدي بلباس التقوى ، الذي لا يؤمنهم من تلك الأفواع إلا أن يتردوا به . وروى أن هاتين الآيتين نزلتا ليلا في غزوة بني المصطلق ، فقرأهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرا أكثر باكيا من تلك الليلة ، فلما أصبحوا لم يحطوا السروج عن الدواب ، ولم يضربوا الخيام وقت النزول ، ولم يطبخوا قدرا ، وكانوا من بين حزين وباك ومفكر ^(٢)

(١) قوله «وأن يضاعف زليل الأشياء» أي يكرر انحراف الأشياء وتزعجها عن مواضعها . وفي الصحاح : تقول زلزلت بافلان - بالفتح - زل زليلا : إذا زل في طين أو منطلق . (ع)

(٢) هكذا ذكره الثعلبي والبنوني . قالوا : روى عن عمران بن حصين وأبي سعيد الخدري وغيرهما أن هاتين الآيتين نزلتا ليلا في غزوة بني المصطلق إلى آخره ، قلت : وهو ملحق من حديثه المذكورين . وثالثهما ابن عباس فيما رواه ابن إسحاق عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسيره في غزوة بني المصطلق إذ نزل عليه (يا أيها الناس اتقوا ربكم - إلى - شديد) فوقف على ناقته ، ورفع صوته - الحديف ، ورواه الترمذي والنسائي والحاكم من طريق الحسن عن عمران بن حصين «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو

يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا

وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾

(يوم ترونها) منصوب بتذهل . والضمير للزلة . وقرئ : تذهل كل مرضعة ، على البناء للفعول : وتذهل كل مرضعة أى : تذهلها الزلّة . والذهول : الذهاب عن الأمر مع دهشة . فإن قلت : لم قيل (مرضعة) دون مرضع ؟ قلت : المرضعة التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الضبي . والمرضع : التي شأنها أن ترضع وإن لم تبشر الإرضاع في حال وصفها به (١) فقيل : مرضعة ؛ ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعتة عن فيه لما يلحقها من الدهشة (عما أرضعت) عن إرضاعها ، أو عن الذي أرضعته وهو الطفل وعن الحسن : تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام ، وتضع الحامل مافي بطنها لغير تمام . قرئ (وترى) بالضم من أريتك قائماً . أو رؤيتك قائماً (٢) . و (الناس) منصوب ومرفوع ، والنصب ظاهر . ومن رفع جعل الناس اسم ترى ، وأنته على تأويل الجماعة . وقرئ : سكرى . وبسكرى ، وهو نظير : جوعى وعطشى ، في جوعان وعطشان . وسكارى وبسكارى ، نحو كسالى وعجالي . وعن الأعمش : سكرى ، وبسكرى ، بالضم ، وهو غريب . والمعنى : وتراهم سكارى على التشبيه ، ومأمم بسكارى على التحقيق (٣) ولكن مارهقهم من خوف عذاب الله هو الذى أذهب

== في بعض أسفاره وقد تقارب من أحبابه السير ورفع بهاتين صوته (ياأيها الناس انقروا ربكم - إلى قوله : ولكن عذاب الله شديد) فلما سمع أحبابه بذلك خشا المطع وعرفوا أنه عنده قول يقوله . فلما اتفوا حوله قال : أندرون أى يوم ذلك ؟ يوم ينادى آدم - الحديث . وفيه : فأبلس أحبابه حتى مارهقوا بضاحكه . فلما رأى ذلك قال : اعلوا وأبشروا - الحديث ، وأما آخره فلم أره .

(١) قال محمود : ويقال مرضع على النسب ومرضعة على أصل اسم الفاعل ، قال أحمد : والفرق بينهما أن وروده على النسب لا يلاحظ فيه حدوث الصفة المختق منها ، ولكن مقتضاه أنه موصوف بها ، وعلى غير النسب يلاحظ حدوث الفعل وخروج الصفة عليه ، وكذلك هو في الآية لقوله (عما أرضعت) فأخرج الصفة على الفعل ، وألحقه التاء .

(٢) قوله «أو رؤيتك قائماً» لعله : أو رؤيت قائماً . (ع)

(٣) قال محمود : ودقوله وترى الناس سكارى ومأمم بسكارى : أثبت لهم أولاً السكر المجازى ، ثم نفي عنهم السكر الحقيقي ، قال أحمد : والعلماء يقولون : إن من أدلة المجاز صدق تقيضه ، كقولك : زيد حمار ، إذا وصفته بالبلادة ، ثم يصدق أن تقول : وما هو بحمار ، فتنتي عنه الحقيقة ، فكذلك الآية بعد أن أثبت السكر المجازى نفي الحقيقة أبلغ نفي مؤكد بالباء . والسر في تأكيده : التنبيه على أن هذا السكر الذى هو بهم في تلك الحالة ليس من الممهود في شيء ، وإنما هو أمر لم يهدوا قبله مثله ، والاستدراك بقوله (ولكن عذاب الله شديد) راجع إلى قوله (ومأمم بسكارى) وكأنه تعليل لاثبات السكر المجازى ، كأنه قيل : إذا لم يكونوا سكارى من الخمر وهو السكر الممهود ، فما هذا السكر الغريب وما سيبه ؟ فقال : سيبه شدة عذاب الله تعالى ، ونقل عن جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنه أنه قال : هو الوقت الذى يقول كل من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيه «نفسى نفسى» .

عقولهم وطير تميزهم وردهم في نحو حال من يذهب السكر بعقله وتميزه . وقيل وتراهم سكارى من الخوف ، وماهم بسكارى من الشراب . فإن قلت : لم قيل أولا : ترون ، ثم قيل : ترى ، على الإفراد ؟ قلت : لأن الرؤية أولا علفت بالزلزلة فجعل الناس جميعاً راثنين لها ، وهى معلقة أخيراً بكون الناس على حال السكر ، فلا بد أن يحمل كل واحد منهم راثياً لساوئهم .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَاطِئٍ مَرِيدٍ ﴿٣﴾
كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾

قيل : نزلت في النضر بن الحرث ، وكان جدلاً يقول : الملائكة بنات الله ، والقرآن أساطير الأولين ، والله غير قادر على إحياء من بلى وصار تراباً . وهى عامة في كل من تعاطى الجدال فيما يجوز على الله وما لا يجوز من الصفات والأفعال ، ولا يرجع إلى علم ولا يعرض فيه بضرس قاطع ، وليس فيه اتباع للبرهان ولا نزول على النصفة ، فهو يخطب خطب عشواء ، غير فارق بين الحق والباطل (ويتبع) في ذلك خطوات (كل شيطان) عات ، علم من حاله وظهر وتبين أنه من جعله ولياً له لم تشر له ولايته إلا الإضلال عن طريق الجنة والهداية إلى النار . وما أرى رؤساء أهل الأهواء (١) والبدع والحشوية المتلقين بالإمامة في دين الله إلا داخلين تحت كل هذا دخولا أولياً . بل هم أشد الشياطين إضلالاً وأقطعهم لطريق الحق ، حيث دؤنوا الضلال تدويناً ولقنوه أشياءهم تلقيناً ، وكانهم ساطوه بلحومهم (٢) ودمائهم ، وإياهم عنى من قال :

وَيَارُبُّ مَقْفُوءُ الْخَطَا بَيْنَ قَوْمِهِ طَرِيقُ نَجَاةٍ عِنْدَهُمْ مُسْتَوٍ نَهْجٌ
وَلَوْ قَرَدُوا فِي اللَّوْحِ مَا خُطَّ فِيهِ مِنْ بَيَانِ آعُوجَاجٍ فِي طَرِيقَتِهِ عَجُوجاً (٣)

اللهم ثبتنا على المعتقد الصحيح الذى رضيته للملائكة في سمواتك ، وأنبيائك في أرضك ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين . والكتابة عليه مثل ، أى : كأنما كتب إضلال من يتولاه عليه ورقم به لظهور ذلك في حاله . وقرئ : أنه : فإنه بالفتح والكسر ، فمن فتح فلأن الأول فاعل كتب ، والثانى

(١) قوله « رؤساء أهل الأهواء » إن كان مراده أهل السنة كما هو عادته في الكتابة من التشنيع عليهم ، فينبغى مطالبته بالفرق بينهم وبين المعتزلة ، حتى استحقوا التشنيع دونهم . (ع)

(٢) قوله « وكانهم ساطوه بلحومهم ، أى خلطوه . (ع)

(٣) يا : للتنبيه أو النداء . والمنادى عذوف . والمقفوء : المتبوع . والخطا : جمع خطوة ، مستعارة للأفعال بجامع التبعية في كل ، وكذلك الطريق مستعار للقفو من حيث اتباعه فيها ودوامه عليها . مستو : مستقيم . والنهج والمنهج والمنهاج : الطريق الواضح . والاعوجاج مستعار للليس والكذب . وعجوا : ضجوا وصاحوا .

عطف عليه . ومن كسر فعلى حكاية المكتوب كما هو ، كأنما ^(١) كتب عليه هذا الكلام ، كما تقول : كتبت : إن الله هو الغنى الحميد . أو على تقدير : قيل . أو على أن كتب فيه معنى القول .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَنَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ

كُلِّ رَوْحٍ يَّهِيجُ ﴿٥﴾

قرأ الحسن ﴿من البعث﴾ بالتحريك . ونظيره : الجلب والطرْد ، في الجلب والطرْد ، كأنه قيل : إن ارتبتم في البعث فزبل ربكم أن تنظروا في بدء خلقكم . والعلقة : قطعة الدم الجامدة . والمضغة : اللحمة الصغيرة قدر ما يمتضغ . والمخلقة : المسواة للمساء من النقصان والعيب . يقال : خلق السواك والعود ، إذا سواه وملسه ، من قولهم : صخرة خلقاء ، وإذا كانت ملساء ، كأن الله تعالى يخلق المضمغ متفاوتة : منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب ، ومنها ما هو على عكس ذلك فيتبع ذلك للتفاوت تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم ، وتماهم ونقصانهم . وإنما نقلناكم من حال إلى حال ومن خلقة إلى خلقة ﴿لنبين لكم﴾ بهذا التدرج قدرتنا وحكمتنا وأن من قدر على خلق البشر من تراب أولا ، ثم من نطفة ثانيا ولا تناسب بين الماء والتراب وقدر على أن يجعل النطفة علقة وبينهما تباين ظاهر ، ثم يجعل العلقة مضغة والمضغة عظما : قدر على إعادة ما أبداه ، بل هذا أدخل في القدرة من تلك ، وأهون في القياس . وورود الفعل غير معدى إلى المبين : لإعلام بأن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته وعلمه مالا يكتننه الذكر ولا يحيط به الوصف وقرأ ابن أبي عبلة : لينين لكم . ويقر ، بالياء . وقرئ : ونقر . ونخرجكم ، بالنون والنصب . ويقر ، ونخرجكم ، ويقر ، ونخرجكم : بالنصب والرفع . وعن يعقوب : يقر ، بالنون وضم القاف ، من قر الماء إذا صبّه ؛ فالقراءة بالرفع إخبار بأنه يقر ﴿في الأرحام ما يشاء﴾ أن يقره من ذلك ﴿إلى أجل مسمى﴾ وهو وقت الوضع آخرسته أشهر ، أو تسعة ، أو سنتين ، أو أربع ، أو كما شاء وقدر . وما لم يشأ إقراره تحت الأرحام أو أسقطته . والقراءة بالنصب : تعليل معطوف على تعليل .

ومعناه : خلقناكم مدرجين هذا التدرج لفرضين ، أحدهما : أن نبين قدرتنا . والثاني : أن نقر في الأرحام من نقر ، حتى يولدوا وينشؤوا ويبلغوا حد التكليف فأكلفهم . ويعضد هذه القراءة قوله ﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ﴾ وحده لأن الغرض الدلالة على الجنس . ويحتمل : نخرج كل واحد منكم طفلاً . الأشد : كمال القوة والعقل والتمييز ، وهو من ألفاظ الجوع التي لم يستعمل لها واحد كالأسدة ^(١) والقود والباطيل وغير ذلك ، وكأنها شدة في غير شيء واحد ، فبنيت لذلك على لفظ الجمع . ونرى : ومنكم من يتوفى ، أى يتوفاه الله ﴿ أرذل العمر ﴾ الهرم والخرف ، حتى يعود كهيئته الأولى في أو أن طفولته : ضعيف البنية ، يهين العقل ، قليل الفهم . بين أنه كما قدر على أن يرقه في درجات الزيادة حتى يبلغه حد التمام ، فهو قادر على أن يحطه حتى ينتهى به إلى الحالة السفلى ﴿ لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ﴾ أى : ليصير نساء بحيث إذا كسب علماً في شيء لم ينشب أن ينسأه ويزل عنه عليه حتى يسأل عنه من ساعته ، يقول لك : من هذا ؟ فتقول : فلان ، فما يلبث لحظة إلا سألك عنه . وقرأ أبو عمرو : العمر ، بسكون الميم . الهامدة : الميتة اليابسة . وهذه دلالة ثانية على البعث ، ولظهورها وكونها مشاهدة معانية ، كررها الله في كتابه ﴿ اهتزت ورببت ﴾ تحزكت بالنبات وانتفخت ، وقرئ : ربأت ، أى ارتفعت . البهيج : الحسن السار للناظر إليه .

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّمُ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾
وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّارْتَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾

أى : ذلك الذى ذكرنا من خلق بنى آدم وإحياء الأرض ، مع ما فى تضاعيف ذلك من أصناف الحكم والطائف ، حاصل بهذا وهو السبب فى حصوله ، ولولاه لم يتصور كونه ، وهو ﴿ أن الله هو الحق ﴾ أى الثابت الموجود ، وأنه قادر على إحياء الموتى وعلى كل مقدور ، وأنه حكيم لا يخلف ميعاده ، وقد وعد الساعة والبعث ، فلا بد أن يبنى بما وعد .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٨﴾
ثَانِي عَطْفُهُ لِمُضِلِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيرُهُ يَوْمَ الْقِسْعَةِ

(١) قوله « من ألفاظ الجوع التي لم يستعمل لها واحد كالأسدة والقود والباطيل » الذى فى الصحاح « الأسد » بالفتح : واحد الأسد وهو الصوب اه وهو مثل العمى والصمم والبيك على غير قياس ، وكان قياسه : سدود . والقود : خشب الرجل ، وجمعه : قود وأقناد . والباطل : ضد الحق ، والجمع أباطيل على غير قياس كأنهم جعلوا أباطيلاً . وفيه أيضاً قوله تعالى (حتى يبلغ أشده) أى قوته وهو واحد جاء على بناء الجمع ، مثل « أنك » وهو الأسرب ، ولا نظير لها ، ويقال له : جمع لا واحد له من لفظه ، مثل : أبابيل ، وعباديد ، ومذاكير . (ع)

عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾

عن ابن عباس أنه أبو جهل بن هشام . وقيل : كرر كما كررت سائر الأقسام . وقيل : الأول في المقلدين ، وهذا في المقلدين . والمراد بالعلم : العلم الضروري . وبالهدي : الاستدلال والنظر ؛ لأنه يهدي إلى المعرفة . وبالكتاب المنير : الوحي ، أي يجادل بظن وتخمين ، لا بأحد هذه الثلاثة . وثني العطف : عبارة عن الكبر والخيلاء ، كتصغير الحث ولى الجيد . وقيل : عن الإعراض عن الذكر . وعن الحسن : ثاني عطفه ، بفتح العين ، أي : مانع تعطفه (ليضل) تعليل للمجادلة . قرئ بضم الياء وفتحها . فإن قلت : ما كان غرضه من جداله الضلال (عن سبيل الله) فكيف علل به ؟ وما كان أيضاً مهتدياً حتى إذا جادل خرج بالجدال من الهدى إلى الضلال ؟ قلت : لما أذى جداله إلى الضلال ، جعل كأنه غرضه ، ولما كان الهدى معرضاً له فتركه وأعرض عنه وأقبل على الجدال بالباطل ، جعل كالخارج من الهدى إلى الضلال . وخزيه : ما أصابه يوم بدر من الصغار والقتل ، والسبب فيما منى به من خزي الدنيا وعذاب الآخرة : هو ما قدمت يداه ، وعدل الله في معاقبته الفجار وإثابته الصالحين .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ

فِتْنَةٌ أَلْقَىٰ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾

يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾

يَدْعُوا لِمَنْ خَرَهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾

(على حرف) على طرف من الدين لا في وسطه وقلبه . وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم ، لا على سكون وطمأنينة ، كالذي يكون على طرف من العسكر ، فإن أحسن بظفر وغنيمه قر واطمان ، وإلا قر وطار على وجهه . قالوا : نزلت في أغارب قدموا المدينة ، وكان أحدهم إذا صح بدنه وتجت فرسه مهرأ سرياً ، وولدت امرأته غلاماً سوياً ، وكثر ماله وماشيته قال : ما أصبت منذ دخلت في ديني هذا إلا خيراً ، واطمان . وإن كان الأمر بخلافه قال : ما أصبت إلا شراً ، وانقلب . وعن أبي سعيد الخدري أن رجلاً من اليهود أسلم فأصابته مصائب ، فقتشام بالإسلام ، فأقى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أقنني ، فقال : إن الإسلام لا يقال ، (١) فنزلت . المصاب بالحنة بترك التسليم لقضاء الله والخروج إلى ما يخطط الله :

(١) هكذا ذكره الواحد في الأسباب ، لكن بغير إسناد . فقال : روى عطية عن أبي سعيد ، فذكره سواء =

جامع على نفسه محتتين ، إحداهما : ذهاب ما أصيب به . والثانية : ذهاب ثواب الصابرين ، فهو خسران الدارين . وقرئ : خاسر الدنيا والآخرة بالنصب والرفع ، فالنصب على الحال ، والرفع على الفاعلية . ووضع الظاهر موضع الضمير ، وهو وجه حسن . أو على أنه خبر مبتدأ محذوف . استعير ﴿الضلال البعيد﴾ من ضلال من أبعد في التيه ضالا ، فطالت وبعدت مسافة ضلالته . فإن قلت : الضرر والنفع منفيان عن الأصنام مثبتان لها في الآيتين ، وهذا تناقض . قلت : إذا حصل المعنى ذهب هذا الوهم ، وذلك أن الله تعالى سفه الكافر بأنه يعبد جماداً لا يملك ضرراً ولا نفعاً ، وهو يعتقد فيه بجهله وضلاله أنه يستنفع به حين يستشفع به ، ثم قال : يوم القيامة يقول هذا الكافر بدعاء وصراخ ، حين يرى استضراره بالأصنام ودخوله النار بعبادتها ، ولا يرى أثر الشفاعة التي ادعاه لها ﴿لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير﴾ أو كثر يدعو ، كأنه قال : يدعو يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ، ثم قال : لمن ضره بكونه معبوداً أقرب من نفعه بكونه شافعاً لبئس المولى . وفي حرف عبد الله : من ضره ، بغير لام . المولى : الناصر . والعشير : الصاحب ، كقوله (فبئس القرين) .

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ۝١٤
وَالْآخِرَةُ فَلَيَمُدُّ سَبَبٌ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لَيَقَطَعُ فَلَيَنْظُرَ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَمَدُّهُ مَا بَغِيطُ ۝١٥

هذا كلام قد دخله اختصار . والمعنى . إن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة ؛ فمن كان يظن من حاسديه وأعدائه أن الله يفعل خلاف ذلك ويطمع فيه ، ويغيطه أنه يظفر بمطلوبه ، فليستقص وسعه وليستفرغ مجهوده في إزالة ما يغيطه ، بأن يفعل ما يفعل من بلغ منه الغيط كل مبلغ حتى مدّ جبلا إلى سماء بيته فاختنق ، فلينظر وليصور في نفسه أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذي يغيطه ؟ وسمى الاختناق قطعاً ؛ لأن المحتنق يقطع نفسه بحبس مجاريه . ومنه قيل للبر : القطع ^(١) . وسمى فعله كيداً لأنه وضعه موضع الكيد ، حيث لم يقدر على

== وأخرجه ابن مردويه من رواية عطية عن أبي سعيد قال «أسلم رجل من اليهود فذهب ماله وولده ، وتشاءم بالاسلام - الحديث نحوه ، وإسناده ضعيف وأخرج العقيلي من رواية عتبة بن سعيد عن أبي الزبير عن جابر قال : «أتى النبي صلى الله عليه وسلم يهودى فأسلم على يديه ، ثم رجع إلى منزله فأصيب في عينه وفي ولده فرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فقال : أفتى - الحديث » ولم يذكر فيه نزول الآية . وعتبة ضعيف جدا .

(١) قوله ومنه قيل للبر القطع ، أى تابع النفس . أفاده الصحاح . (ع)

غيره . أو على سبيل الاستهزاء ؛ لأنه لم يكذب به محسوده إنما كاد به نفسه . والمراد : ليس في يده إلا ما ليس بمنزه لما يغيظه . وقيل : فليمدد بحبل إلى السماء المظلة . وليصعد عليه فليقطع الوحي أو ينزل عليه . وقيل : كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم وحنقهم على المشركين يستبطنون ما وعد الله رسوله من النصر ، وآخرون من المشركين يريدون اتباعه ويخشون أن لا يثبت أمره . فزلت . وقد فسر النصر : بالرزق ، وقيل : معناه أن الأرزاق بيد الله لا تنال إلا بمشيئته ولا بد للعبد من الرضا بقسمته ، فمن ظن أن الله غير رازقه وليس به صبر واستسلام ، فليبلغ غاية الجزع وهو الاختناق ، فإن ذلك لا يقلب القسمة ولا يردّه مرزوقا .

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَذِّنُ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴿١٦﴾

أى : ومثل ذلك الإنزال أنزلنا القرآن كله (آيات بينات ، و) (أن الله يهدي) به الذين يعلم أنهم يؤمنون . أو يثبت الذين آمنوا ويزيدهم هدى ، أنزله كذلك مبيّنا

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾

الفصل مطلق يحتمل الفصل بينهم في الأحوال والأماكن جميعاً ، فلا يجازيهم جزاء واحداً بغير تفاوت ، ولا يجمعهم في موطن واحد . وقيل : الأديان خمسة : أربعة للشيطان وواحد للرحمن . جعل الصابئون مع النصارى لأنهم نوع منهم . وقيل (يفصل بينهم) يقضى بينهم ، أى بين المؤمنين والكافرين . وأدخلت (أن) على كل واحد من جزأى الجملة لزيادة التوكيد . ونحوه قول جرير :

إِنَّ الْخَلِيفَةَ إِنْ أَلَّهِ سَرَبَلُهُ سِرْبَالُ مُلْكٍ بِهِ تُرْجَى الْخَوَاتِيمُ ^(١)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾

(١) لجرير . وقوله « إن الله سربله » خبر إن الأولى ، وكررها لتوكيد التوكيد . وسربله : كساء بالملك العتيق بالسربال . ويرى : سربال ملك به ، أى : بذلك اللباس أو الملك ، ترجى : أى تساق الخواتيم : جمع خاتم - بالفتح والكسر - والأصل : خواتم ، فزيدت الياء . والمراد بها : عواقب الأمور الحيدة . وقال أبو حيان : يحتمل أن خبر إن قوله (به ترجى) جملة « إن الله سربله » اعتراضية . ويرى : « به ترجى » بالراء ، وليحرر .

سميت مطاوعتها له فيما يحدث فيها من أفعاله ويجريها عليه من تدييره وتسخيرها لها : بسجوداً له ، تشبيهاً لمطاوعتها بإدخال أفعال المكلف في باب الطاعة والانقياد ، وهو السجود الذي كل خضوع دونه ، فإن قلت : فما تصنع بقوله ﴿ وكثير من الناس ﴾ وبما فيه من الاعتراضين ، أحدهما : أن السجود على المعنى الذي فسرت به ، لا يسجده بعض الناس دون بعض . والثاني : أن السجود قد أسند على سبيل العموم إلى من في الأرض من الإنس والجن أولاً ، فإسناده إلى كثير منهم آخراً مناقضة ؟ قلت : لا أنظم كثيراً في المفردات المتناسقة الداخلة تحت حكم الفعل ، وإنما أرفعه بفعل مضمّر يدل عليه قوله ﴿ يسجد ﴾ أى ويسجد له كثير من الناس بسجود طاعة وعبادة . ولم أقل : أفسر يسجد الذى هو ظاهر بمعنى الطاعة والعبادة في حق هؤلاء ؛ لأن اللفظ الواحد لا يصح استعماله في حالة واحدة على معنيين مختلفين ، أو أرفعه على الابتداء والخبر محذوف وهو مثاب ، لأن خبر مقابله يدل عليه ، وهو قوله ﴿ حق عليه العذاب ﴾ ويجوز أن يجعل (من الناس) خبراً له ، أى : من الناس الذين هم الناس على الحقيقة وهم الصالحون والمتقون . ويجوز أن يبالغ في تكثير المحقّقين بالعذاب ، فيعطف كثير على كثير ، ثم يخبر عنهم بحقّ عليهم العذاب ، كأنه قيل : وكثير وكثير من الناس حقّ عليهم العذاب ، وقرئ : حق ، بالضم . وقرئ : حقاً ، أى حقّ عليهم العذاب حقاً . ومن أهانه الله - بأن كتب عليه الشقاوة لما سبق في علمه من كفره أو فسقه - فقد بقى مهاناً ^(١) ، لن تجد له مكرماً . وقرئ : مكرم ، بفتح الراء بمعنى الإكرام . إنه ﴿ يفعل ما يشاء ﴾ من الإكرام والإهانة ، ولا يشاء من ذلك إلا ما يقتضيه عمل العاملين واعتقاد المعتقدين .

هَٰذَانِ خَصِمَانِ اٰخْتَصَمُوْا فِي رَّبِّهِمْ ۚ فَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَّابٌ مِّنْ نَّارٍ يُّصْبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيْمُ ^(١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُوْنِهِمْ وَالْجُلُوْدُ ^(٢٠) وَلَهُمْ مَّقْصِيْعٌ مِّنْ حَدِيْدٍ ^(٢١) كُلَّمَا اَرَادُوْا اَنْ يَخْرُجُوْا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ اُعِيْدُوْا فِيْهَا وَذُوْقُوا عَذَابَ الْحَرِيْقِ ^(٢٢)

الخصم : صفة وصف بها الفوج أو الفريق ، فكأنه قيل : هذان فوجان أو فريقان مختصمان وقوله (هذان) للفظ . و (اختصموا) للمعنى ، كقوله (ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا)

(١) قوله « من كفره أو فسقه فقد بقى مهاناً » مبنى على أن الفاسق واسطة بين المؤمن والكافر . وأنه يخلد في النار كالكافر ، وهو مذهب المعتزلة . والحق عند أهل السنة أنه مؤمن ، وإن دخل النار فخرج منها بالشفاعة أو بمجرد فضله تعالى . (ع)

ولو قيل : هؤلاء خصمان . أو اختصما : جاز . يراد المؤمنون والكافرون . قال ابن عباس : رجع إلى أهل الأديان الستة ﴿ في ربهم ﴾ أى في دينه وصفاته . وروى أن أهل الكتاب قالوا للمؤمنين : نحن أحق بالله ، وأقدم منكم كتابا ، ونينا قبل نبيكم . وقال المؤمنون : نحن أحق بالله ، آمنا بمحمد ، وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب ، وأنتم تعرفون كتابنا ونينا ثم تركتموه وكفرتم به حسداً ، فهذه خصومتهم في ربهم ﴿ فالذين كفروا ﴾ هو فصل الخصومة المعنى بقوله تعالى (إن الله يفصل بينهم يوم القيامة) وفي رواية عن الكسائي : خصمان ، بالكسر ، وقرئ : قطعت بالتخفيف ، كأن الله تعالى يقدر لهم نيرانا على مقادير جثثهم تشتمل عليهم كما تقطع الثياب الملبوسة . ويجوز أن تظاهر على كل واحد منهم تلك النيران كالثياب المظاهرة على اللابس بعضها فوق بعض . ونحوه (سرائلهم من قطران) . ﴿ الحميم ﴾ الماء الحار . عن ابن عباس رضى الله عنه : لو سقطت منه نقطة على جبال الدنيا لأذابها ﴿ يصهر ﴾ يذاب . وعن الحسن بتشديد الهاء للمبالغة ، أى : إذا صب الحميم على رؤسهم كان تأثيره في الباطن نحو تأثيره في الظاهر ، فيذيب أحشائهم وأمعانهم كما يذيب جلودهم ، وهو أبلغ من قوله (وسقوا ماء حميا فقطع أمعاءهم) والمقامع : السياط . في الحديث : ولو وضعت مقمعة منها في الأرض فاجتمع عليها الثقلان ما أقولها ^(١) ، وقرأ الأعشى : ردوا فيها . والإعادة والرد لا يكون إلا بعد الخروج ، فالمعنى : كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم فخرجوا أعيدوا فيها . ومعنى الخروج : ما يروى عن الحسن أن النار تضربهم بلهبها فترفعهم ، حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفاً ^(٢) (و) قيل لهم ﴿ ذوقوا عذاب الحريق ﴾ والحريق : الغليظ من النار المنتشر العظيم الإهلاك .

إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجْلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَأُكُلُوا وَلَبَّاسُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ^(٢٣)
وَهُدُوا إِلَى الْعُلِيِّمِ مِنْ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ^(٢٤) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبُذِّدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءَ الْعُكْفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْجَدِ يُظْلَمْ نُذُقُهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ^(٢٥)
﴿ يجلون ﴾ عن ابن عباس : من حليت المرأة فهي حال ^(١) ﴿ وأكولوا ﴾ بالنصب على :

(١) وهو عند أحمد وأبي يعلى من رواية ابن لُبَيْعَةَ عن دراج . لفظه في قوله (ولهم مقامع من حديد) : لو وضع مقمع منها في الأرض ... الحديث .

(٢) قوله « ومن حليت المرأة فهي حال » الذي في الصحاح : حليت المرأة ، أى : صارت ذات حل ، فهي حلية وحالية . (ع)

ويؤتون لؤلؤاً ، كقوله : وحوراً عيناً . ولؤلؤاً بقلب الهمزة الثانية واواً . ولولياً ؛ بقلبهما واوين ، ثم بقلب الثانية ياء كأدل . ولول كأدل فيمن جز . ولولؤ . وليليا ، بقلبهما يامين ، عن ابن عباس : وهدهم الله وألهمهم أن يقولوا الحمد لله الذي صدقنا وعده ، وهدهم إلى طريق الجنة . يقال : فلان يحسن إلى الفقراء وينعش المضطهدين ، لا يراد حال ولا استقبال ، وإنما يراد استمرار وجود الإحسان منه والنعشة في جميع أزمته وأوقاته . ومنه قوله تعالى ﴿ ويصدون عن سبيل الله ﴾ أى الصدود منهم مستمر دائم ﴿ للناس ﴾ أى الذين يقع عليهم اسم الناس من غير فرق بين حاضر وباد وتانيه ^(١) وطارئ ومكي وآفاقى . وقد استشهد به أصحاب أبى حنيفة قائلين : إن المراد بالمسجد الحرام : مكة ، على امتناع جواز بيع دور مكة وإجارتها . وعند الشافعى : لا يمتنع ذلك . وقد حاور إسحق بن راهويه فاحتج بقوله (الذين أخرجوا من ديارهم) وقال أنسب الديار إلى مالكيها ، أو غير مالكيها ؟ واشترى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه دار السجن من مالكيها أو غير مالكيها ؟ (سواء) بالنصب : قراءة حفص . والباقيون على الرفع . ووجه النصب أنه ثانى مفعولى جعلناه ، أى : جعلناه مستويّاً ﴿ العا كف فيه والباد ﴾ وفى القراءة بالرفع . الجملة مفعول ثان . الإلحاد : العدول عن القصد ، وأصله إلحاد الحافر . وقوله ﴿ بالإلحاد بظلم ﴾ حالان مترادفتان . ومفعول (يرد) متروك ليتناول كل متناول ، كأنه قال : ومن يرد فيه مراداً ما عادلاً عن القصد ظالماً ﴿ نذقه من عذاب أليم ﴾ يعنى أن الواجب على من كان فيه أن يضبط نفسه ويسلك طريق السداد والعدل في جميع ما بهم به ويقصده . وقيل : الإلحاد فى الحرم : منع الناس عن عمارته وعن سعيد بن جبير : الاحتكار . وعن عطاء : قول الرجل فى المبايعة : لا والله ، وبلى والله ، وعن عبد الله بن عمر أنه كان له فسطاطان ، أحدهما : فى الحل ، والآخر فى الحرم ، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم فى الحل ، ^(٢) فقيل له ، فقال ، كئنا نحدث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل : لا والله ، وبلى والله . وقرئ : يرد ، بفتح الياء من الورد . ومعناه : من أتى فيه بالإلحاد ظالماً . وعن الحسن : ومن يرد إلحاده بظلم ، أراد : إلحاداً فيه ، فأضافه على الاتساع فى الظرف ، كمكر الليل . ومعناه : من يرد أن يلحد فيه ظالماً . وخبر إن محذوف لدلالة جواب الشرط عليه ، تقديره : إن الذين كفروا ويصدون عن المسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم ؛ وكل من ارتكب فيه ذنباً فهو كذلك . عن ابن مسعود : الهمّة فى الحرم تكتب ذنباً .

(١) قوله «وتاني» فى الصحاح : تنأت بالبلد تنوأت : قطنته . والتاني : من ذلك . (ع)

(٢) أخرجه الطبرى والأزرقي فى تاريخ مكة من رواية شعبة عن منصور عن مجاهد قال : كان لعبد الله بن عمرو ابن العاص ... فذكره .

(نبيه) مافى نسخ الكشاف «ابن عمر» تصحيف ، وإنما هو «ابن عمرو» .

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ

وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعَ السُّجُودَ ﴿٢٦﴾

واذكر حين جعلنا (لإبراهيم مكان البيت) مباءة، أى : مرجعاً يرجع إليه للعبادة والعبادة. رفع البيت إلى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء، فأعلم الله إبراهيم مكانه بريح أرسلها يقال لها الخجوج : كنست ما حوله، فبناه على أسه القديم، وأنهى المفسرة. فإن قلت : كيف يكون النهى عن الشرك والامر بتطهير البيت تفسيراً للتبوة؟ قلت : كانت التبوة مقصودة من أجل العبادة، فكانه قيل : تعبدنا إبراهيم قلنا له : ﴿لا تشرك بى شيئاً وطهر بيتي﴾ من الأصنام والوثان^(١) والاقذار أن تطرح حوله. وقرئ : يشرك، بالياء على الغيبة.

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾

(وأذن في الناس) ناد فيهم. وقرأ ابن محيصن : وأذن. والنداء بالحج : أن يقول : حجوا، أو عليكم بالحج. وروى أنه صعد أبا قبيس فقال : يا أيها الناس حجوا بيت^(٢) ربكم. وعن الحسن أنه خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أمر أن يفعل ذلك في حجة الوداع^(٣) (رجالاً) مشاء جمع راجل، كقائم وقيام. وقرئ : رجالاً، بضم الراء مخفف الجيم ومثله، ورجالى كعجالي عن ابن عباس (وعلى كل ضامر) حال معطوفة على حال، كأنه قال : رجالاً وركبانا (يأتين) صفة لكل ضامر، لأنه في معنى الجمع. وقرئ : يأتون، صفة للرجال والركبان. والعَمِيقُ : البعيد، وقرأ ابن مسعود : عميق. يقال : بئر بعيدة العمق والمعق^(٤).

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ

بِهِمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَوَّلِي الْأَنْعَامِ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾

نكر المنافع لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات. وعن أبي حنيفة رحمه الله : أنه كان يفاضل بين العبادات قبل أن يحج، فلما حج فضل

(١) قوله «والوثان» في الصحاح والوثن : الصنم . (ع)

(٢) أخرجه الثعلبي عن الحسن فذكره . وسنده إليه في أول الكتاب .

(٣) أخرجه الطبري عن ابن عباس ، بلفظ «قام عند الحجر» وفي رواية «عند مقامه» . وقال : يا أيها الناس حجوا بيت ربكم فأجابوه ليكن اللهم ليكن .

(٤) قوله «بعيدة العمق والمعق» في الصحاح «المعق» : قلب العمق ، والامعاق : مثل الاعماق ، وهو ما بعد من أطراف المفاز . (ع)

الحج على العبادات كلها، لما شاهد من تلك الخصائص. وكفى عن النحر والذبح بذكر اسم الله، لأن أهل الإسلام لا ينفكون عن ذكر اسمه إذا نَحَرُوا أو ذَبَحُوا. وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلي فيما يتقرب به إلى الله أن يذكر اسمه، وقد حسن الكلام تحسينا بينا: أن جمع بين قوله (ليذكروا اسم الله)، وقوله: (على ما رزقهم) ولو قيل: لينحروا في أيام معلومات بهيمة الأنعام، لم تر شيئا من ذلك الحسن والروعة. الأيام المعلومات: أيام العشر عند أبي حنيفة، وهو قول الحسن وقتادة. وعند صاحبيه: أيام النحر. البهيمة: مبهمة في كل ذات أربع في البر والبحر، فينت بالأنعام: وهي الإبل والبقر والضأن والمعز. الأمر بالأكل منها أمر إباحة، لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من نساءكهم، ويجوز أن يكون ندبا لمسا فيه من مساواة الفقراء ومواساتهم ومن استعمال التواضع. ومن ثمة استحباب الفقهاء أن يأكل الموسع من أخصيته مقدار الثلث. وعن ابن مسعود أنه بعث بهدي وقال فيه: إذا نحرته فكل وتصدق وابعث منه إلى عتبة، يعني ابنه (١). وفي الحديث (٢): «كلوا وادخروا وانتجروا» (٣).

(البائس) الذي أصابه بؤس أى شدة: و(الفقير) الذي أضعفه الإعسار.

ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَمْلَأُوا بِالْغَنِيِّ الْغَنِيَّ (٢٩)

قضاء التفث: قص الشارب والاطفار وتنف الإبط والاستحداد، والتفث: الوسخ، فالمراد قضاء إزالة التفث. وقرئ: وليوفوا، بتشديد الفاء (ندورهم) مواجب حجهم، أو ماعسى يندرونه من أعمال البر في حجهم (وليطوفوا) طواف الإفاضة، وهو طواف الزيارة الذي هو من أركان الحج، ويقع به تمام التحلل. وقيل: طواف الصدر، وهو طواف الوداع (الغني) القديم، لأنه أول بيت وضع للناس عن الحسن. وعن قتادة: أعتق من الجبارة، كم من جبار سار إليه لهدمه فنعه الله. وعن مجاهد: لم يملك قط. وعنه: أعتق من الغرق. وقيل:

(١) أخرجه الطبري من رواية حبيب بن أبي ثابت عن إبراهيم عن علقمة - أن عبد الله بعث معه بهدي. فقال: كل أنت وأصحابك ثلثا وتصدق بثلث وابعث إلى أخى عتبة بثلث (تنبيه) وقع في نسخ الكشف يعني ابنه وهو تحريف وإنما هو أخوه.

(٢) أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه وأحمد وإسحاق من رواية عاله الهذاه عن أبي المليح عن عتبة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنا كنا نبيناكم عن لحوم الأضاحي ألا تأكلوها فوق ثلاث لكن يسمعكم». وقد جاء الله بالسعة فكلوا وادخروا وانتجروا: لفظ أبي داود. وليس عند مسلم والنسائي وابن ماجه وادخروا، والنسائي في رواية «وتصدقوا»، وله شاهد عن أبي سعيد الخدري عن أحمد (قائده) قال في النهاية: انتجروا أى تصدقوا طالين للأجر. وليس هو اتجر بالادغام من التجارة وأجاز المروى الادغام واستدل عليه بقوله «من يجر مع هذا فيصلي معه، ولا دلالة فيه لأنه محتمل أن يكون من التجارة».

(٣) قوله «وانتجروا» الظاهر أن المراد: اطلبوا الأجر بالصدقة. (ع)

بيت كريم ، من قولهم : عتاق الخيل والطير . فإن قلت : قد تسلط عليه الحجاج فلم يمنع . قلت : ما قصد التسلط على البيت ، وإنما تحصن به ابن الزبير ، فاحتال لإخراجه ثم بناء . ولما قصد التسلط عليه أبرهة ، فعل به ما فعل .

ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا بَيَّتَ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾
حُنْفَاءَ اللَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَسْكَنِ سَحَابٍ ﴿٣١﴾

(ذلك) خبر مبتدأ محذوف ، أى : الأمر والشأن ذلك ، كما يقدم الكاتب جملة من كتابه فى بعض المعاني ، ثم إذا أراد الخوض فى معنى آخر قال : هذا وقد كان كذا . والحرمة : ما لا يحل انتهاكه . وجميع ما كلفه الله تعالى بهذه الصفة من مناسك الحج وغيرها ، فيحتمل أن يكون عاما فى جميع تكاليفه ، ويحتمل أن يكون خاصا فيما يتعلق بالحج . وعن زيد بن أسلم : الحرمات خمس الكعبة الحرام ، والمسجد الحرام ، والبلد الحرام ، والشهر الحرام ، والمحرم حتى يحل (فهو خير له) أى فالتعظيم خير له . ومعنى التعظيم : العلم بأنها واجبة المراجعة والحفظ والقيام بمواعظها . المتلو لا يستثنى من الأنعام ، ولكن المعنى (إلا ما بئى عليكم) آية تحريمه ، وذلك قوله فى سورة المائدة (حرمت عليكم الميتة والدم) والمعنى : أن الله قد أحل لكم الأنعام كلها إلا ما استثناه فى كتابه ، لحافظوا على حدوده ، وإياكم أن تحرموا مما أحل شيئا ، كتحريم عبدة الأوثان البهيرة والسائبة وغير ذلك ، وأن تحلوا مما حرم الله ، كاحلالهم أكل الموقوذة والميتة وغير ذلك .

لما حث على تعظيم حرمة وأحمد من يعظمها^(١) أتبعه الأمر باجتناب الأوثان وقول الزور ؛ لأن توحيد الله ونفى الشركاء عنه وصدق القول أعظم الحرمات وأسبقها خطوا . وجمع الشرك وقول الزور فى قرآن واحد ، وذلك أن الشرك من باب الزور لأن المشرك زاعم أن الوزن تحق له العبادة ، فكأنه قال : فاجتنبوا عبادة الأوثان التى هى رأس الزور . واجتنبوا قول الزور كله لا تقربوا شيئا منه لتماديته فى القبح والسماجة . وما ظنك بشيء من قبيله عبادة الأوثان . وسمى الأوثان رجسا وكذلك الخمر والميسر والازلام ، على طريق التشبيه . يعنى : أنكم كما تنفرون بطباعكم عن الرجس وتجتنبونه ، فعليكم أن تنفروا عن هذه الأشياء مثل تلك النفرة . ونبه على هذا المعنى بقوله (رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) جعل العلة فى اجتنابه أنه رجس ، والرجس مجتنب (من

(١) قوله «واحد من يعظمها» فى الصحاح «أحدثه» : وجده محمودا موافقا مرضيا . (ع)

الآوثان ﴿ يان للرّجس وتمييز له ، كقوله : عندى عشرون من الدراهم ؛ لأنّ الرّجس مبهم يتناول غير شيء ، كأنه قيل : فاجتنبوا الرّجس الذى هو الآوثان . والزور من الزور والازورار وهو الانحراف ، كما أنّ الإفك من أفكه إذا صرفه . وقيل (قول الزور) قولهم : هذا حلال وهذا حرام ، وما أشبه ذلك من اقترائهم . وقيل : شهادة الزور . عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه صلى الصبح فلما سلم قام قائماً واستقبل الناس بوجهه وقال وعدت شهادة الزور الإشراف بالله ، عدلت شهادة الزور الإشراف بالله ، عدلت شهادة الزور الإشراف بالله ^(١) وتلا هذه الآية . وقيل : الكذب والبهتان . وقيل : قول أهل الجاهلية فى تلييتهم : لبيك لاشريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك . يجوز فى هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق ، فإن كان تشبيهاً مركباً فكأنه قال : من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية ، بأن صور حاله بصورة حال من ختر من السماء فاخترقته الطير ، فتفرق مزراً ^(٢) فى حواصلها ، أو عصفت به الريح حتى هوت به فى بعض المطاوح ^(٣) البعيدة . وإن كان مفرقاً فقد شبه الإيمان فى علوه بالسماء ، والذى ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء ، والأهواء التى تتوزع أفكاره بالطير المختطفة ، والشيطان الذى يطوح به فى وادى الضلالة بالريح التى تهوى بما عصفت به فى بعض المهاوى المتلفة ^(٤) .

(١) أخرجه أبو داود وأحمد وإسحاق وابن أبى شيبة من رواية سفيان بن زياد المصفرى عن أبيه عن حبيب ابن النعمان عن حريم بن فانك . وأخرجه الترمذى من رواية المصفرى عن فانك بن فضالة عن أنس بن حريم كذا قال .

(٢) قوله «مزعا» مفردة «مزعة» بالضم . أى : قطعة لحم كما فى الصحاح . (ع)

(٣) قوله «المطاوح» أى المقاذف . وطاح يطوح ويطيح : هلك وسقط . وطوحته الطوايح : قذفته القواذف ،

كذا فى الصحاح أيضاً . (ع)

(٤) قال محمود : « ويجوز فى هذا التشبيه أن يكون مركباً ومفرقاً ، فإن كان مركباً فكأنه قال : من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية ، بأن صور حاله بصورة من ختر من السماء فاخترقته الطير فصيرته مزعاً فى حواصلها ، أو عصفت به الريح حتى هوت به فى بعض المطاوح البعيدة ، وإن كان مفرقاً فقد شبه الإيمان فى علوه بالسماء . والذى ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء ، وشبه الأهواء التى تتوزع أفكاره بالطير المختطفة ، والشيطان الذى يطوح به فى وادى الضلالة بالريح التى تهوى بما عصفت به فى بعض المهاوى المتلفة ، قال أحمد : أما على تقدير أن يكون مفرقاً ، فيحتاج تأويل تشبيه المشرک بالهوى من السماء إلى التنبيه على أحد أمرين : إما أن يكون الإشراف المراد رده ، فإنه حينئذ كن علماً إلى السماء بآيمانه ثم هبط بارتداده . وإما أن يكون الإشراف أصلياً ، فيكون قد عد تمكن المشرک من الإيمان ومن العلو به ثم عدوله عنه اختياريّاً ، بمنزلة من علماً إلى السماء ثم هبط كما قال تعالى (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرونهم من النور إلى الظلمات) فقدم مخرجين من النور ومادخلوه قط ، ولكن كانوا متمكنين منه . وقد مضى تقرير هذا المعنى بأبسط من هذا . وفى تقريره تشبيه الأفكار المتوزعة للكافر بالطير المختطفة ، وفى تشبيه تطويع الشيطان بالهوى مع الريح فى مكان محبوق : نظر ؛ لأنّ الأمرين ذكراً فى سياق تقسيم حال الكافر إلى قسمين ، فإذا جعل الأول مثلاً لاختلاف الأهواء والأفكار . والثانى مثلاً لتوزع الشيطان : فقد جعلهما شيئاً واحداً ، لارتوزع الأفكار واختلاف الأهواء ، مضاف إلى نزغ الشيطان ، فلا يتحقق

و قرئ : فتخطفه . بكسر الخاء والطاء . وبكسر التاء مع كسرهما ، وهى قراءة الحسن . وأصلها : تخطفه . و قرئ : الرياح .

ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٢٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحْلُومًا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٣﴾

تعظيم الشعائر - وهى الهدايا ، لأنها من معالم الحج - : أن يختارها عظام الأجرام حسانا سماتا غالية الأثمان ، ويترك المكاس في شرائها ، فقد كانوا يغالون في ثلاث - ويكرهون المكاس فيهن - : الهدى ، والاضحية ، والرقبة . وروى ابن عمر عن أبيه رضى الله عنهما أنه أهدى نجبية طلبت منه بثلاثمائة دينار ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها ويشتري بثمان بدنا ، فنهاه عن ذلك وقال : « بل أهدها »^(١) ، وأهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة ، فيها جمل لأبى جهل في أنفه بزة من ذهب^(٢) . وكان ابن عمر يسوق البدن مجللة بالقباطى^(٣) فيتصدق بلحومها وبجلالها^(٤) ، ويعتقد أن طاعة الله في التقرب بها وإهدائها إلى بيته المعظم أمر عظيم لا بد أن يقام به ويسارع فيه (فإنها من تقوى القلوب) أى فإن تعظيمها من أفعال ذوى تقوى القلوب ، لحذفت هذه المضافات ، ولا يستقيم المعنى إلا بتقديرها ، لأنه لا بد من راجع من الجزاء

== التقسيم المقصود . والذى يظهر في تقرير التشبيهن غير ذلك ، فنقول : لما انقسمت حال الكافر إلى قسمين لا مزيد عليهما ، الأول منهما : التذنب والمتأدى على الشك وعدم التصمم على ضلالة واحدة ، فهذا القسم من المشركين مشبه بمن اختطفته الطير وتوزعته فلا يستولى طائر على مرعة منه إلا انتهبا منه آخر ، وذلك حال المذنب لا يلوح له خيال إلا اتزعه ونزل عما كان عليه . وثانى : مشرك مصمم على معتقد باطل ، لو نشر بالماشير لم يكع ولم يرجع لاسليل إلى تشكيكه ولا مطمع في نقله عما هو عليه ، فهو فرح مبهج لضلته ، فهذا مشبه في إقراره على كفره باستقرار من هوت به الريح إلى واد سافل فاستقر فيه . ونظير تشبيهه بالاستقرار فى الوادى السحيق الذى هو أبعد الأخباء عن السماء : وصف ضلاله بالبعد في قوله تعالى (أولئك فى ضلال بعيد) (وضلوا ضلالا بعيدا) أى صمموا على ضلالم فبعد رجوعهم إلى الحق ، فهذا تحقيق القسمين ، والله أعلم .

(١) تقدم الكلام عليه فى أثناء سورة البقرة .

(٢) أخرجه إسماعيل والبرار من حديث على . وفى الباب عن جابر قال كان جميع ماجاء به مائة بدنة فيها جمل فى أنفه برة من فضة أخرجه الحاكم والطبرانى من رواية زيد بن الحباب عن الثورى عن جعفر بن محمد عن أبيه عنه قال البخارى هذا خطأ من زيد . وإنما هو عن الثورى عن أبى إسماعيل عن مجاهد رسلا . وقد جاء عن مجاهد عن ابن عباس قال « أهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هداياه جملا كان لأبى جهل فى رأسه برة من ذهب ليفيظ به المشركين ، أخرجه أبو داود والحاكم وأبو يعلى والطبرانى .

(٣) قوله « مجللة بالقباطى » فى الصحاح : القبط أهل مصر . والقبطية : ثياب بيض رفاق من كتان تتخذ بمصر

والجمع قباطى . (ع)

(٤) أخرجه مالك فى الموطأ عن نافع عنه بهذا وأتم منه . ورواه ابن أبى شبة من طريق فليح عن نافع نحوه .

إلى (من) ليرتبط به ، وإنما ذكرت القلوب لأنها مراكز القوى التي إذا ثبتت فيها وتمكنت ، ظهر أثرها في سائر الأعضاء . (إلى أجل مسمى) إلى أن تنحر ويتصدق بلحومها ويؤكل منها . و(ثم) للتراخي في الوقت ، فاستعيرت للتراخي في الأحوال . والمعنى : أن لكم في الهدايا منافع كثيرة في دنياكم ودينكم ، وإنما يعتد الله بالمنافع الدينية ، قال سبحانه (تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة) وأعظم هذه المنافع وأبعدها شوطاً في النفع : (محلها إلى البيت) أى وجوب نحرها . أو وقت وجوب نحرها في الحرم منتهية إلى البيت ، كقوله (هديا بالغ الكعبة) والمراد نحرها في الحرم الذي هو في حرم البيت ؛ لأن الحرم هو حريم البيت . ومثل هذا في الاتساع قولك : بلغنا البلد ، وإنما شارفتموه واتصل مسيركم بحدوده . وقيل : المراد بالشعائر : المناسك كلها ، و (محلها إلى البيت العتيق) ياباه .

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْمَةٍ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾

شرع الله لكل أمة أن ينسكوا له : أى يذبحوا لوجهه على وجه التقرب ، وجعل العلة في ذلك أن يذكر اسمه تقدست أسمائه على النساك : وقرئ (منسكا) بفتح السين وكسرها ، وهو مصدر بمعنى النسك ، والمكسور يكون بمعنى الموضع (فله أسلوا) أى أخلصوا له الذكر خاصة ، واجعلوه لوجهه سالماً ، أى : خالصة لا تشوبه بإشراك .

المخبتون : المتواضعون الخاشعون ، من الخبت وهو المظلم من الأرض . وقيل : هم الذين لا يظلمون ، وإذا ظلموا لم ينتصروا . وقرأ الحسن (والمقيم الصلاة) بالنصب على تقدير النون . وقرأ ابن مسعود : والمقيم الصلاة ، على الأصل .

وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمَعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾

(البدن) جمع بدنة ، سميت لعظم بدنها وهى الإبل خاصة ، ولأن رسول الله صلى الله عليه وسلم

أُلْحِقَ الْبَقْرَ بِالْإِبِلِ حِينَ قَالَ : «البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة» ^(١) ؛ فجعل البقر في حكم الإبل ، صارت البدنة في الشريعة متناولة للجنسين عند أبي حنيفة وأصحابه ، وإلا فالبدن هي الإبل وعليه تدل الآية ، وقرأ الحسن : والبدن ، بضمين ، كشم في جمع ثمرة . وابن أبي إسحق بالضمين وتشديد النون على لفظ الوقف . وقرئ بالنصب والرفع كقوله (والقمر قدرناه) . (من شعائر الله) أى من أعلام الشريعة التي شرعها الله . وإضافتها إلى اسمه : تعظيم لها ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ كقوله (لكم فيها منافع) ومن شأن الحاج أن يحرص على شيء فيه خير ومنافع بشهادة الله . عن بعض السلف أنه لم يملك إلا تسعة دنانير ، فاشتري بها بدنة ، فقيل له في ذلك ، فقال : سمعت ربي يقول (لكم فيها خير) وعن ابن عباس : دنيا وآخرة . وعن إبراهيم : من احتاج إلى ظهرها ركب ، ومن احتاج إلى لبنها شرب . وذكر اسم الله : أن يقول عند النحر : الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر ، اللهم منك وإليك ﴿صَوَافٍ﴾ قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن . وقرئ : صوافن ، من صفون الفرس ، وهو أن يقوم على ثلاث وينصب الرابعة على طرف سنبكه ؛ لأن البدنة تعقل إحدى يديها فتقوم على ثلاث . وقرئ : صوافي ، أى : خوالص لوجه الله . وعن عمرو بن عبيد : صوافنا ، بالتثوين عوضاً من حرف الإطلاق عند الوقف . وعن بعضهم : صواف ^(٢) نحو مثل العرب . أعطى القوس باريها ، بسكون الياء .

وجوب الجنوب : وقوعها على الأرض ، من وجب الحائط وجبة إذا سقط . ووجبت الشمس جبة : غربت . والمعنى : فإذا وجبت جنبوها وسكنت نسائها ^(٣) حل لكم الأكل منها والإطعام ﴿الْقَانِعِ﴾ السائل ، من قنعت إليه وكنعت : إذا خضعت له وسأله فنوعاً ﴿والمعتري﴾ المعترض بغير سؤال ، أو القانع الراضى بما عنده وبما يعطى من غير سؤال ، من قنعت قنعا وقناعة . والمعتري : المعترض بسؤال . وقرأ الحسن : والمعتري . وعزه وعراه واعتراه : بمعنى . وقرأ أبو رجاء : القنع ، وهو الراضى لا غير . يقال : قنع فهو قنع وقانع .

من الله على عباده واستحمد إليهم بأن سخر لهم البدن مثل التسخير الذي رأوا وعلوا ، يأخذونها منقاداً للأخذ طليعة فيعقلونها ويحبسونها صافة قوائمها ، ثم يطعنون في لبانها . ولولا تسخير الله لم

(١) لم أره مرفوعاً من لفظه . نعم أخرجه أبو داود بلفظ «الجزور عن سبعة» وأخرجه مسلم وأصحاب السنن من رواية مالك عن أبي الزبير عن جابر قال «نحزنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة» وفي الباب عن ابن مسعود عند الطبراني .

(٢) قوله «صواف» لعله : صوافي ، بالسكون . (ع)

(٣) قوله «وسكنت نسائها» في الصحاح «النسيصة» ، والنسيس ، الإيكال بين الناس . والناس : النائم . والنسيس : بقية الروح . وفيه أيضاً «الإيكال بين الناس» السعي بينهم . (ع)

تطق ، ولم تكن بأعجز من بعض الوحوش التي هي أصغر منها جرماً وأقل قوة ، وكفى بما يتأبد من الإبل شاهداً وعبرة .

لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

أى : لن يصيب رضا الله اللحوم المتصدق بها ولا الدماء المهرقة بالنحر ، والمراد أصحاب اللحوم والدماء ، والمعنى : لن يرضى المضحون والمقربون ربهم إلا بمراعاة النية والإخلاص والاحتفاظ بشروط التقوى في حل ما قرب به ، وغير ذلك من المحافظات الشرعية وأوامر الورع . فإذا لم يراعوا ذلك ، لم تغن عنهم التضحية والتقريب وإن كثرت ذلك منهم . وقرئ : لن تنال الله . ولكن تناله : بالتاء والياء . وقيل : كان أهل الجاهلية إذا نحرروا البدن فضحوا الدماء حول البيت ولطخوه بالدم ، فلما حج المسلمون أرادوا مثل ذلك ، فزلت . كثر تذكير النعمة بالتسخير ثم قال : لتشكروا الله على هدايته إياكم لأعلام دينه ومناسك حجه ، بأن تسكبوا وتهللوا ، فاختصر الكلام بأن ضمن التكبير معنى الشكر ، وعدى تعديته .

إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

خص المؤمنين بدفعه عنهم ونصرته لهم ، كما قال (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا) وقال (إنهم لم المنتصرون) وقال (وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب) وجعل العلة في ذلك أنه لا يحب أضدادهم : وهم الخونة الكفرة الذين يخونون الله والرسول ويخونون أماناتهم ويكفرون نعم الله وينمطونها ^(١) . ومن قرأ (يدافع) فعناه يبالغ في الدفع عنهم ، كما يبالغ من يغالب فيه ؛ لأن فعل المغالب يحى أقوى وأبلغ .

أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوَامِعُ وَيَعٍ وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَهْنَصُرَنَّهُ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرْهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِنْ

(١) قوله « وينمطونها » أى : يحرقونها . (ع)

مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا
عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾

(أذن) و (يقاتلون) قرأنا على لفظ المبني للفاعل والمفعول جميعاً : والمعنى : أذن لهم في القتال ، لحذف المأذون فيه لدلالة يقاتلون عليه (بأنهم ظلوا) أى بسبب كونهم مظلومين وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان مشركو مكة يؤذونهم أذى شديداً ، وكانوا يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه ، فيقول لهم : اصبروا فإنى لم أؤمر بالقتال ، حتى هاجر فأنزلت هذه الآية ، وهى أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين ^(١) آية . وقيل : نزلت في قوم خرجوا مهاجرين فاعترضهم مشركو مكة فأذن لهم في مقاتلتهم . والأخبار بكونه قادراً على نصرهم عدة منه بالنصر واردة على سنن كلام الجبارة ، وما مر من دفعه عن الذين آمنوا مؤذن بمثل هذه العدة أيضاً (أن يقولوا) في محل الجز على الإبدال من (حق) أى بغير موجب سوى التوحيد الذى ينبغى أن يكون موجب الإقرار والتمكين لا موجب الإخراج والتسيير . ومثله : (هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله) .

دفع الله بعض الناس ببعض : إظهاره وتسليطه المسلمين منهم على الكافرين بالمجاهدة ، ولولا ذلك لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمئتهم ، وعلى متعبداتهم فهدموها ، ولم يتركوا للنصارى يعبأ ، ولا لرهبانهم صوامع ، ولا لليهود صلوات ، ولا للمسلمين مساجد . أو لقلب المشركون من أئمة محمد صلى الله عليه وسلم على المسلمين وعلى أهل الكتاب الذين في ذمتهم وهدموا متعبدات الفريقين . وقرئ : دفاع . ولهدمت : بالتخفيف . وسميت الكنيسة صلاة ، لأنه يصلى فيها . وقيل : هى كلمة معربة ، أصلها بالعبرانية : صلوثا (من ينصره) أى ينصر دينه وأولياؤه . هو إخبار من الله عز وجل بظهور الغيب عما يستكون عليه سيرة المهاجرين رضى الله عنهم إن مكنتهم في الأرض وبسط لهم في الدنيا ، وكيف يقومون بأمر الدين . وعن عثمان رضى الله عنه : هذا والله ثناء قبل بلاء . يريد : أن الله قد أتى عليهم قبل أن يحدثوا من الخير ما أحدثوا . وقالوا : فيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين ؛ لأن الله لم يعط التمكن ونفاذ الأمر مع السيرة

(١) لم أجده هكذا . وعزاء الواحدى في الوسيط للفسرين . قلت : هو منزع من أحاديث : أفرها ما أخرجه ابن أبي حاتم عن طريق بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان قوله (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلوا) وذلك أن مشركى أهل مكة كانوا يؤذون المسلمين بمكة ، فاستأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في قتالهم بمكة . فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فلم يخرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أنزل الله عليه (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلوا) وذكر الطبري أن الصحابة رضى الله عنهم استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتال الكفار إذا رأوهم وسعوا عليهم بمكة قبل الهجرة غيلة وسرا : فأنزل الله (إن الله لا يحب كل خوان كفور) فلما هاجروهم أحلهم ما لهم وقاتلهم فقال (أذن للذين يقاتلون - الآية) .

العادلة غيرهم من المهاجرين ، لاحظ في ذلك للأنصار والطلقاء . وعن الحسن : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل (الذين) منصوب بدل من قوله من ينصره . والظاهر أنه مجرور ، تابع للذين أخرجوا (والله عاقبة الأمور) أى مرجعها إلى حكمه وتقديره . وفيه تأكيد لما وعده من إظهار أوليائه وإعلاء كلمتهم .

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَنَمُودٌ (٤٢)
 وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَنحَبُّ مَذْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتَ
 لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤)

يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم تسلية له : لست بأوحدى في التكذيب ، فقد كذب الرسل قبلك أقوامهم ، وكفالك بهم أسوة . فإن قلت : لم قيل (وكذب موسى) ولم يقل : وقوم موسى ؟ قلت : لأن موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل ، وإنما كذبه غير قومه وهم القبط . وفيه شيء آخر ، كأنه قيل بعد ما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم : وكذب موسى أيضا مع وضوح آياته (١) وعظم معجزاته ، فساظنك بغيره .

النكير : بمعنى الإنكار والتغيير ، حيث أبدلهم بالنعمة محنة ، وبالحياة هلاكا ، وبالعارة خرابا .

فَكَأَيُّنَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَعِيَّ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرُ
 مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ (٤٥)

كل مرتفع أظلك من سقف بيت أو خيمة أو ظلة أو كرم فهو عرش ، والخاوى : الساقط ، من خوى النجم إذا سقط . أو الخالى ، من خوى المنزل إذا خلا من أهله . وخوى بطن الحامل وقوله (على عروشها) لا يخلو من أن يتعلق بخاوية ، فيكون المعنى أنها ساقطة على سقوفها ، أى خرت سقوفها على الأرض ، ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف . أو أنها ساقطة أو خالية مع بقاء عروشها وسلامتها . وإما أن يكون خبراً بعد خبر ، كأنه قيل : هى خالية ، وهى على عروشها

(١) قال محمود : « فإن قلت : لم قيل وكذب موسى ولم يقل وقوم موسى بدون تكرير التكذيب ؟ قلت : لأن قوم موسى هم بنو إسرائيل ولم يكذبوه . وإنما كذبه القبط . أو لأن آيات موسى كانت باهرة ظاهرة فكأنه قال : وكذب موسى أيضا على ظهور آياته ، قال أحد : ويحتمل عندى - والله أعلم - أنه لما صدر الكلام بحكاية تكذيبهم ثم عدد أصناف المكذبين وطوائفهم ولم ينته إلى موسى إلا بعد طول الكلام ، حسن تكريره ليلى قوله (فأمليت للكافرين) فيتلصص المسبب بالسبب ، كما قال في آية ق- بعد تمديدكم (كل كذب الرسل لحق وعيد) فربط العقاب والوعيد ووصلهما بالتكذيب ، بعد أن جدد ذكره ، والله أعلم .

أى قائمة مطلة على عروشها ، على معنى أَنَّ السقوف سقطت إلى الأرض فصارت في قرار الحيطان وبقيت الحيطان مائلة فهي مشرفة على السقوف الساقطة . فإن قلت : ما محل الجملتين من الإعراب أعنى (وهي ظالمة ، فهي خاوية) ؟ قلت : الأولى في محل النصب على الحال ، والثانية لاعمل لها لأنها معطوفة على أهلكتها ، وهذا الفعل ليس له محل . قرأ الحسن : معطلة ، من أعطله بمعنى عطله . ومعنى المعطلة : أنها عامرة فيها الماء ، ومعها آلات الاستقاء ؛ إلا أنها عطلت ، أى : تركت لا يستقي منها لهلاك أهلها . والمشيد : المحصن أو المرفوع البنيان . والمعنى : كم قرية أهلكتنا ؟ وكم برّ عطلنا عن سقاتها ؟ وقصر مشيد أخيلناه عن ساكنيه ؟ قترك ذلك لدلالة معطلة عليه . وفي هذا دليل على أَنَّ (على عروشها) بمعنى ومع ، أوجه . روى أَنَّ هذه برّ نزل عليها صالح عليه السلام مع أربعة آلاف نفر ممن آمن به . ونجّاهم الله من العذاب ، وهي بحضر موت . وإنما سميت بذلك لأنّ صالحاً حين حضرها مات ، وثمة بلدة عند البراسمها ، حاضروا ، بناها قوم صالح ، وأقروا عليهم جلوس بن جلاس ، وأقاموا بها زماناً ثم كفروا وعبدوا صنما ، وأرسل الله إليهم حنظلة ابن صفوان نبياً فقتلوه ، فأهلكهم الله وعطل برّهم وخرب قصورهم .

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ
بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

يحتمل أنهم لم يسافروا فحشا على السفر ؛ ليروا مصارع من أهلكتهم الله بكفرهم ، ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا . وأن يكونوا قد سافروا ورأوا ذلك ولكن لم يعتبروا ، فجعلوا كأن لم يسافروا ولم يروا . وقرئ (فيكون لهم قلوب) بالياء ، أى : يعقلون ما يجب أن يعقل من التوحيد ، ويسمعون ما يجب سماعه من الوحي (فإنها) الضمير ضمير الشأن والقصة ، يحى . مذكراً ومؤنثاً وفي قراءة ابن مسعود : فإنه . ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً يفسره (الابصار) وفي تعمى ضمير راجع إليه . والمعنى : أن أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها . وإنما العمى بقلوبهم . أولاً يعتد بعَمَى الابصار ، فكأنه ليس بعَمَى بالإضافة إلى عمى القلوب . فإن قلت : أى فائدة في ذكر الصدور ؟ قلت : الذى قد تعورف واعتقد أن العمى على الحقيقة مكانه البصر ، وهو أن تصاب الحدة بما يطمس نورها . واستعماله في القلب استعارة ومثل ، فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ونفيه عن الابصار ، احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين وفضل تعريف ، ليتقرر أن مكان العمى هو القلوب لا الابصار ، كما تقول : ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذى بين فكيك ، فقولاك الذى بين فكيك ، تقرير لما ادّعى له للسانه وتثبيت لأن محل المضاء هو هو لا غير ، وكأنك قلت : ما نفيت المضاء عن السيف وأثبتته للسانك فلتة

ولا سهواً مني ، ولكن تعمدت به إياه بعينه تعمداً .

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَمْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَاهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴿٤٨﴾

أنكر استعجالهم بالمتوعدة به من العذاب العاجل أو الآجل ، كأنه قال : ولم يستعجلون به ؟ كأنهم يحوزون الفوت ، وإنما يحوز ذلك على ميعاد من يحوز عليه الخلف ، والله عز وجل لا يخلف الميعاد وما وعده ليصيبهم ولو بعد حين ، وهو سبحانه حلیم لا يعجل ، ومن حله ووقاره واستقصاره المدد الطوال أن يوماً واحداً عنده كألف سنة ^(١) عندهم . وقيل : معناه كيف يستعجلون بعذاب من يوم واحد من أيام عذابه في طول ألف سنة من سنينكم ؛ لأن أيام الشدائد مستطالة . أو كأن ذلك اليوم الواحد لشدة عذابه كألف سنة من سني العذاب . وقيل : ولن يخلف الله وعده في النظرة والإمهال . وقرئ : تعدون ، بالتاء والياء ، ثم قال : وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد أنظرتهم حيناً ثم أخذتهم بالعذاب والرجع إلى وإلى حكى . فإن قلت : لم كانت الأولى معطوفة بالفاء ، وهذه بالواو ؟ قلت : الأولى وقعت بدلاً عن قوله (فكيف كان تكبير) وأما هذه فحكمها حكم ما تقدمها من الجملتين المعطوفتين بالواو ، أعنى قوله (ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة) .

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَأَلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾

يقال : سعيت في أمر فلان ، إذا أصلحه أو أفسده بسعيه . وعاجزه : سابقه : لأن كل واحد منهما في طلب إجماز الآخر عن اللحاق به ، فإذا سبقه قيسل : أعجزه وعجزه . والمعنى : سعوا في معانها بالفساد من الطعن فيها ، حيث سموها : سحراً وشعراً وأساطير ، ومن تشييط الناس

(١) قال محمود : وفيه إيذان بحلم الله تعالى ووقاره واستقصاره الأمد الطويل حتى إن يوماً واحداً عنده كألف سنة ، قال أحمد : الوقار المقرون بالحلم يفهم لغة : السكون وطمأنينة الأعضاء عند المزعجات والأناة والتؤدة ، ونحو ذلك مما لا يطلق على الله تعالى إلا بتوقيف . وأما الوقار في قوله تعالى (مالكم لا ترجون لله وقاراً) فقد فسر بالعظمة فليس من هذا ، وعلى الجملة فهو موقوف على ثبت في النقل .

عنها سابقين أو مسابقين في زعمهم ، وتقديرهم طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم . فإن قلت : كأن القياس أن يقال : إنما أنا لكم بشير ونذير ، لذكر الفريقين بعده . قلت : الحديث مسوق إلى المشركين . ويأنيها الناس : نداء لهم ، وهم الذين قيل فيهم (أفلم يسيروا في الأرض) ووصفوا بالاستعجال . وإنما أفهم المؤمنين وثوابهم ليغاثوا .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾

(من رسول ولانبي) دليل بين على تغير الرسول والنبي . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن الأنبياء فقال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، قيل فكم الرسل منهم ؟ قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر جمّاً غفيراً^(١) . والفرق بينهما أن الرسول من الأنبياء : من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه . والنبي غير الرسول : من لم ينزل عليه كتاب وإنما أمر أن يدعو الناس إلى شريعة من قبله . والسبب في نزول هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أعرض عنه قومه وشاقوه وخالفه عشيرته ولم يشايعوه على ما جاء به : تمنى لفرط ضجره من إعراضهم ولحرصه وتهالكه على إسلامهم أن لا ينزل عليه ما ينفرهم ، لعله يتخذ ذلك طريقاً إلى استمالتهم واستنزاهم عن غيهم وعنادهم ، فاستمر به ما تمناه حتى نزلت عليه سورة (والنجم) وهو في نادى قومه ، وذلك التمنى في نفسه ، فأخذ يقرؤها فلما بلغ قوله (ومناة الثالثة الأخرى) : (ألقي الشيطان في أمنيته) التي تمنّاها ، أي : وسوس إليه بما شيعها به ، فسبق لسانه على سبيل السهو والغلط إلى أن قال : تلك الغرائيق^(٢) العلى ، وإن شفاعتهن لترجي . وروى : الغرائقة ، ولم يفتن له حتى أدركته

(١) أخرجه أحمد وإسحاق من رواية معاذ بن رفاعه عن علي بن زيد عن القاسم عن أبي أمامة «أن أبا ذر سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : كم الأنبياء ؟ فقال : مثله . وعلى ضعيف . ورواه ابن حبان عن طريق إبراهيم بن معاذ الفسائي حدثنا أبي عن حذيفة . يعنى يحيى الفسائي عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر - فذكره في حديث طويل جداً . وافرط ابن الجوزي فذكره في الموضوعات واتهم به إبراهيم بن معاذ المذكور . ولم يصب في ذلك : فانها طريقاً أخرجهما الحاكم وغيره من رواية يحيى بن سعيد السعدي عن ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن أبي ذر بطوله . ويحيى السعدي ضعيف . ولكن لا يأتى الحكم بالوضع مع هذه المتابعة .

(٢) أخرجه البزار والطبري والطبراني وابن مردويه من طريق أمية بن خالد عن شعبة عن أبي بشر عن سعيد ابن جبير قال : لأعله لإلّا عن ابن عباس «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكمه فقرأ سورة النجم ، حتى انتهى إلى قوله تعالى (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) جرى على لسانه : تلك الغرائيق العلى ، الشفاععة منها ترجى ، قال : فسمع بذلك مشركو مكة ، فسروا بذلك . فاشبهه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى =

العصمة فتنبه عليه . وقيل : نبيه جبريل عليه السلام . أوتكلم الشيطان بذلك فأسمعه الناس ، فلما سجد في آخرها سجد معه جميع من في النادى وطابت نفوسهم ، وكان تمكين الشيطان من ذلك محنة من الله وابتلاء ، زاد المنافقون به شكاً وظلمة ، والمؤمنون نوراً وإيقاناً . والمعنى : أن الرسل والأنبياء من قبلك كانت هجراهم كذلك إذا تمنوا مثل ما تمتت ، مكن الله الشيطان ليلقى في أمانهم مثل ما ألقى في أمتيتك ، إرادة امتحان من حولهم ، والله سبحانه له أن يمتحن عباده بما شاء من صنوف المحن وأنواع الفتن ، ليضاعف ثواب الثابتين ويزيد في عقاب المذبذبين . وقيل (تمنى) : قرأ . وأنشد :

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَمَلَةٍ تَمَنَّى دَاوُدَ الرُّبُورَ عَلَى رِجْلِ (١)

وأمنيته : قراءته . وقيل : تلك الغرائق : إشارة إلى الملائكة ، أى : هم الشفعاء لا الأصنام (فينسخ الله ما يلقى الشيطان) أى يذهب به ويبطله (ثم يحكم الله آياته) أى يثبتها .

لِمَجْعَلِ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ
وَأَنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِلَّهِ الْعِلْمُ أَنَّهُ الْحَقُّ

== وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى - الآية ، زاد في رواية ابن مردويه : فلما بلغ آخر ما سجد وسجد معه المسلمون والمشركون ، ورواه الطبري من طريق سعيد بن جبير مرسل . وأخرجه ابن مردويه من طريق أبي عاصم النبيل عن عثمان بن الأسود عن سعيد بن جبير عن ابن عباس نحوه . ولم يلق في وصله ، وهذا أصح طرف هذا الحديث . قال البزار : تفرد بوصله أمية بن خالد عن شعبة ، وغيره يرويه عنه مرسل . وأخرجه الطبري وابن مردويه ، بن وجه آخر عن ابن عباس . وهو من طريق العوفي عن جده عطية عنه ، وأخرجه الطبري من طريق محمد بن كعب القرظي ، ومن طريق قتادة ، ومن طريق أبي المألية . فهذه مراسيل يقوى بعضها بعضها . وأصل القصة في الصحيح بلفظ: أن النبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة - فسجد وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والانس ، قال البزار : المعروف في هذا رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس . وأخرجه ابن مردويه من طريقه . وأخرجه الواقدي من طريق أخرى . قلت : وفي مجموع ذلك رد على عباس حيث قال : إن من ذكر من المفسرين وغيرهم لم يسندوها أحد منهم ، ولا رفقها إلى صاحب الإرواية البزار . وقد بين البزار أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى ما ذكره وفيه ما فيه مع وقوع الشك . قلت : أما ضعفه فلا ضعف فيه أصلاً . فانه الجيع ثقات وأما الشك فيه فقد يجي . تأثيره ولو فرداً غريباً لكن غاية أنه يصير مرسل ، إنما هو حجة عند عباس وغيره عن يقبل مرسل الثقة ، أما هو حجة إذا اعتضد عند من يرد المرسل إنما يعتضد بكثرة المناهات . تبع ثقة رجالها . وأما طعنه فيه باختلاف الألفاظ فلا تأثير للرايات الضعيفة الواحة في الرواية القوية . فيعتمد من القصة على الرواية الصحيحة أى يعتمد على الرواية المتأبئة وليس فيها ولا فيها تابعها اضطراب والاضطراب في غيرها . فيكفي لأنه ضعيف برواية الكلبي ، ويكفي ما عداها ، وأما طعنه فيه من جهة المعنى فله أسوة كثيرة من الأحاديث الصحاح التي لا يؤخذ بظاهرها ، بل يرد بالتأويل المعتمد إلى ما يلقى بقواعد الدين .

مِنْ رَبِّكَ فَهَؤُمُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾

والذين (في قلوبهم مرض) المنافقون والشاككون (والقاسية قلوبهم) المشركون المكذبون (وإن الظالمين) يريد: وإن هؤلاء المنافقين والمشركين. وأصله: وإنهم، فوضع الظاهر موضع الضمير قضاء عليهم بالظلم (أنه الحق من ربك) أى ليعلموا أن تمكين الشيطان من الإلقاء: هو الحق من ربك والحكمة (وإن الله هادى الذين آمنوا إلى) أن يتأولوا ما يتشابه في الدين بالتأويلات الصحيحة، ويطلبوا لما أشكل منه المحمل الذى تقتضيه الأصول المحكمة والقوانين الممهدة، حتى لا تلحقهم حيرة ولا تعريهم شبهة ولا تزل أقدامهم. وقرئ: هادى الذين آمنوا، بالتثنية. لَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ

عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

الضمير في (مرية منه) للقرآن أو الرسول صلى الله عليه وسلم. اليوم العقيم: يوم بدر، وإنما وصف يوم الحرب بالعقيم لأن أولاد النساء يقتلون فيه، فيصرون كأنهن عقم لم يلدن، أو لأن المقاتلين يقال لهم أبناء الحرب، فإذا قتلوا وصف يوم الحرب بالعقيم على سبيل المجاز. وقيل: هو الذى لاخير فيه. يقال: ربح عقيم إذا لم تنشئ مطراً ولم تلقح شجراً. وقيل: لا مثل له في عظم أمره لقتال الملائكة عليهم السلام فيه. وعن الضحاك أنه يوم القيامة، وأن المراد بالساعة مقدماته. ويجوز أن يراد بالساعة ويوم عقيم: يوم القيامة، وكأنه قيل: حتى تأتيتهم الساعة أو يأتيتهم عذابها، فوضع (يوم عقيم) موضع الضمير.

الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ اللَّهُ بِحُكْمٍ يُبَيِّنُهَا لَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ

النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥٧﴾

فإن قلت: التثنية في (يومئذ) عن أى جملة ينوب؟ قلت: تقديره: الملك يوم يؤمنون. أو يوم تزول مريتهم، لقوله (ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيتهم الساعة).

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قَاتَلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ

لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾

لما جمعهم المهاجرة في سبيل الله سوى بينهم في الموعد ، وأن يعطى من مات منهم مثل ما يعطى من قتل تفضلا منه وإحسانا . والله عليم بدرجات العاملين ومراتب استحقاقهم ﴿حليم﴾ عن تفريط المفرط منهم بفضله وكرمه . روى أن طوائف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم قالوا : يا نبي الله ، هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير ، ونحن نجاهد معك كما جاهدوا ، فما لنا إن متنا معك ؟ فأُنزل الله هاتين الآيتين .

ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَتَنُصِرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ
لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾

تسمية الابتداء بالجزاء للملازمة له من حيث أنه سبب وذلك مسبب عنه كما يحملون النظير على النظير والتقيض على التقيض للبلابة . فإن قلت : كيف طابق ذكر العفو الغفور هذا الموضع ؟ قلت : المعاقب مبعوث من جهة الله عز وجل على الإخلال بالعقاب ، والعفو عن الجاني - على طريق التنزيه لا التحريم - ومندوب إليه ، ومستوجب عند الله المدح إن أثر مآنب إليه وسلك سبيل التنزيه ، فحين لم يؤثر ذلك وانتصر وعاقب ، ولم ينظر في قوله تعالى (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) ، (وأن تعفوا أقرب للتقوى) ، (ولن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) : فإن الله لعفو غفور ، أى : لا يلومه على ترك ما بعثه عليه ، وهو ضامن لنصره في كونه الثانية من إخلاله بالعفو وانتقامه من الباغي عليه . ويجوز أن يضمن له النصر على الباغي ، ويعترض مع ذلك بما كان أولى به من العفو ، ويلوح به بذكر هاتين الصفتين . أودل بذكر العفو والمغفرة على أنه قادر على العقوبة . لأنه لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده .

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ
سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾

﴿ذلك﴾ أى ذلك النصر بسبب أنه قادر . ومن آيات قدرته البالغة أنه ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ أو بسبب أنه خالق الليل والنهار ومصرفهما فلا يخفى عليه ما يجري فيهما على أيدي عباده من الخير والشر والبنى والإنصاف ، وأنه ﴿سميع﴾ لما يقولون ﴿بصير﴾ بما يفعلون . فإن قلت : ما معنى إيلاج أحد الملوك في الآخر ؟ قلت : تحصيل ظلمة هذا في مكان ضياء ذاك بغيوبة الشمس . وضياء ذاك في مكان ظلمة هذا بطلوعها ، كما يضئ السرب ^(١)

(١) قوله ﴿كما يضئ السرب﴾ السرب - بالفتح - : الطريق . والسرب - بالتحريك - : بيت في الأرض .

أفاده الصحاح . (ع)

بالسراج ويظلم يفقده . وقيل : هو زيادته في أحدهما ما ينقص من الآخر من الساعات .

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ

الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٣﴾

وقرئ (تدعون) بالتاء والياء . وقرأ النمازي . وأن ما يدعون ، بلفظ المبنى للفعول ، والواو راجعة إلى ما ، لأنه في معنى الآلهة ، أي : ذلك الوصف بخلق الليل والنهار والإحاطة بما يجري فيهما وإدراك كل قول وفعل ، بسبب أنه الله الحق الثابت إلهيته ، وأن كل ما يدعى إلهاً دونه باطل الدعوة ، وأنه لا شيء أعلى منه شأنًا وأكبر سلطاناً .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ

الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾

قرئ (مخضرة) أي ذات خضر ، على مفعلة ، كقابلة ومسبحة . فإن قلت : هلا قيل : فأصبحت ؟ ولم صرف إلى لفظ المضارع ؟ قلت : لنكتة فيه ، وهي إفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان ، كما تقول : أنعم على فلان عام كذا ، فأروح وأغدو شاكرًا له . ولو قلت : فرحت وغدوت ، لم يقع ذلك الموقع . فإن قلت : فإله رفع ولم ينصب جواباً للاستفهام ؟ قلت : لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض ، لأن معناه إثبات الاخضرار ، فينقلب بالنصب إلى نفي الاخضرار ، مثاله أن تقول لصاحبك : ألم تر أني أنعمت عليك فتشكر : إن نصبت فأنت ناف لشكره شاكر تفرطه فيه ، وإن رفعت فأنت مثبت للشكر . وهذا وأمثاله مما يجب أن يرغب له من اتسم بالعلم في علم الإعراب وتوقير أهله (لطيف) واصل عليه أو فضله إلى كل شيء (خبير) بمصالح الخلق ومنافعهم .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلَّكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾

وَهُوَ الَّذِي أَحْمَكُمُ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾

(ما في الأرض) من البهائم مذلة للركوب في البر ، ومن المراكب جارية في البحر ، وغير

ذلك من سائر المستخرات . وقرئ: ﴿والفلك﴾ بالرفع على الابتداء (أن تقع) كراهة أن تقع (إلا) بمشيئته (أحياءكم) بعد أن كنتم جماداً تراباً، ونطفة، وعلقة، ومضغة (لكفور) لوجود لما أفاض عليه من ضروب النعم .

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا مِّمَّ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ

إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾

هو نبي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى : لا تلتفت إلى قولهم ولا تمكنهم من أن ينازعوك . أو هو زجر لهم عن التعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمنازعة في الدين وهم جهال لا علم عندهم وهم كفار خزاعة . روى أن بديل بن ورقاء وبشر بن سفيان الخزاعيين وغيرهما قالوا للسلمين : ما لكم تأكلون ما قتلتم ، ولا تأكلون ما قتل الله ايعنون الميتة . وقال الزجاج : هو نهي له صلى الله عليه وسلم عن منازعتهم ، كما تقول : لا يضاربك فلان ، أى : لا تضاربه . وهذا جائز في الفعل الذي لا يكون إلا بين اثنين (في الأمر) في أمر الدين . وقيل : في أمر النساءك ، وقرئ : فلا ينزعك ، أى اثبت في دينك ثباتاً لا يطمعون أن يجذبوك ليزيلوك عنه . والمراد : زيادة التثبيت للنبي صلى الله عليه وسلم بما يهيج حيمته ويلهب غضبه لله ولدينه . ومنه قوله (ولا يصدّك عن آيات الله) ، (ولا تكونن من المشركين) ، (فلا تكونن ظهيرا للكافرين) . وهيات أن ترتع همة رسول الله صلى الله عليه وسلم حول ذلك الحمى ، ولكنه وارد على ما قلت لك من إرادة التهييج والإلهاب . وقال الزجاج : هو من نازعته فزعته أنزعها ، أى : غلبته ، أى : لا يغلبك في المنازعة . فإن قلت : لم جاءت نظيرة هذه الآية (١) معطوفة بالواو وقد نزعته عن هذه ؟ قلت : لأن تلك وقعت مع ما يدانها ويناسبها من الآي الواردة في أمر النساءك ، فعطف على أخواتها . وأما هذه فواقعة مع أباعد عن معناها فلم تجد معطفاً .

وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾

أى : وإن أبوا للجاجهم إلا المجادلة بعد اجتهادك ألا يكون بينك وبينهم تنازع ، فادفعهم بأن الله أعلم بأعمالكم وبقبحها وبما تستحقون عليها من الجزاء فهو مجازيكم به . وهذا وعيد وإنذار ، ولكن برفق ولين .

اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمَ

(١) قوله ونظيرة هذه الآية ، هي قوله تعالى (ولكل أمة جعلنا منسكاً ليذكروا اسم الله) الخ . (ع)

أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾

﴿الله يحكم بينكم﴾ خطاب من الله للمؤمنين والكافرين، أى: يفصل بينكم بالثواب والعقاب ومسلّة للنبي صلى الله عليه وسلم بما كان يلقى منهم، وكيف يخفى عليه ما يعملون، ومعلوم عند العلماء بالله أنه يعلم كل ما يحدث فى السموات والأرض، وقد كتبه فى اللوح قبل حدوثه. والإحاطة بذلك وإثباته وحفظه عليه ﴿يسير﴾ لأن العالم الذات لا يتعذر عليه ولا يمتنع تعلق بمعلوم^(١).

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا

لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧١﴾

﴿ويعبدون﴾ ما لم يتمسكوا فى صحة عبادته ببرهان سماوى من جهة الوحي والسمع، ولا الجأهم إليها علم ضرورى، ولا حملهم عليها دليل عقلى ﴿وما﴾ للذين ارتكبوا مثل هذا الظلم من أحد ينصرهم ويصوب مذهبهم.

وَإِذَا قُتِلَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيَّنَّتْ نَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَسْكَدُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ آيَاتِهِمْ آيَاتُنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ

النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَبْسُ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

﴿المنكر﴾ الفطيع من التجهم والبسور^(٢). أو الإنكار، كالمنكر بمعنى الإكرام. وقرئ: يعرف. والمنكر. والسطو: الوثب والبطش. قرئ: ﴿النار﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، كأن قائلًا قال: ما هو؟ فقيل: النار، أى: هو النار. وبالنصب على الاختصاص. وبالجزء على البدل من (شر من ذلكم) من غيظكم على التالين وسطوكم عليهم. أو بما أصابكم من الكراهة والضجر بسبب ما تلى عليكم ﴿وعدها الله﴾ استئناف كلام. ويحتمل أن تكون (النار) مبتدأ و(وعدها) خبراً، وأن يكون حالاً عنها إذا نصبتها أو جررتها بإضمار. وقد.

(١) قال محمود: «معناه أن الله عالم بالذات لا يتعذر عليه تعلق بمعلوم» قال أحمد: وقد تقدم مثله وأنكرنا عليه تحمله القرآن ما لا يحتمله، فإن الأعم فى اللغة: ذو العلم الزائد المفضل على علم غيره، فكيف يفسر بما ينقى صفة العلم البتة؟ هب أن الأدلة العقلية لا وجود لها، والله الموفق للصواب.

(٢) قوله «التجهم والبسور» كل منهما: كلوح الوجه. أفاده الصحاح. (ع)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ

الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)

فإن قلت : الذي جاء به ليس بمثل ، فكيف سماه مثلاً ؟ قلت : قد سميت الصفة أو القصة الرائعة الملتقاة بالاستحسان والاستغراب : مثلاً ، تشبيهاً لها ببعض الامثال المسيرة ، لكونها مستحسنة مستغربة عندهم . قرئ (تدعون) بالناء والياء ، ويدعون : مبنياً للفعول (لن) أخت « لا » ، في نفي المستقبل ، إلا أن « لن » تنفيه نفيًا مؤكداً ، وتأكيده ههنا الدلالة (١) على أن خلق الذباب منهم مستحيل منافي لأحوالهم ، كأنه قال : محال أن يخلقوا . فإن قلت : ما حمل (ولو اجتمعوا له) ؟ قلت : النصب على الحال ، كأنه قال : مستحيل أن يخلقوا الذباب مشروطاً عليهم اجتماعهم جميعاً لخلقهم وتعاونهم عليه ، وهذا من أبلغ ما أنزله الله في تجهيل قريش واستركاك عقولهم ، والشهادة على أن الشيطان قد خزمهم بخزائمه (٢) حيث وصفوا بالإلهية - التي تقتضى الاقتدار على المقدورات كلها ، والإحاطة بالمعلومات عن آخرها - صوراً وتماثيل يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه وأذله وأصغره وأحقره ، ولو اجتمعوا لذلك وتساندوا . وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء قدرتهم : أن هذا الخلق الأقل الأذل لو اختطف منهم شيئاً فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه لم يقدروا . وقوله (ضعف الطالب والمطلوب) كالتسوية بينهم وبين الذباب في الضعف . ولو حققت وجدت الطالب أضعف وأضعف ، لأن الذباب حيوان ، وهو جماد ، وهو غالب وذاك مغلوب . وعن ابن عباس : أنهم كانوا يطلونها بالزعفران ورؤسها بالعسل ويغلقون عليها الابواب ، فيدخل الذباب من الكوى فيأكله .

مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤)

(ما قدروا الله حق قدره) أى ما عرفوه حق معرفته ، حتى لا يسموا باسمه من هو منسلخ عن صفاته بأسرها ؛ ولا يؤهلوه للعبادة ، ولا يتخذوه شريكاً له : إن الله قادر غالب ، فكيف يتخذ العاجز المغلوب شيئاً به ؟

اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ مِيمِعٌ بَصِيرٌ (٧٥)

(١) قوله « الدلالة » له « الدلالة » كعبارة النسق ، (ع)

(٢) قوله « إن الشيطان قد خزمهم بخزائمه » في الصحاح ، خزمت البعير بالخزامة ، وهي حلقة من شعر تجعل

في وتره أنفه ، يشد فيها الزمام . (ع)

بَعْلَمَ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾

هذا رد لما أنكروه من أن يكون الرسول من البشر، وبيان أن رسل الله على ضربين : ملائكة وبشر، ثم ذكر أنه تعالى ذاك للبدركات، عالم بأحوال المكلفين ما مضى منها وما غير، لا تخفى عليه منهم خافية. وإليه مرجع الأمور كلها، والذي هو بهذه الصفات، لا يسأل عما يفعل، وليس لأحد أن يعترض عليه في حكمه وتدابيره واختيار رسله.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا آرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ

لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴿٧٧﴾

للمذكر شأن ليس لغيره من الطاعات. وفي هذه السورة دلالات على ذلك، فمن ثمة دعا المؤمنين أولاً إلى الصلاة التي هي ذكر خالص، ثم إلى العبادة بغير الصلاة كالصوم والحج والغزو، ثم عمم بالحث على سائر الخيرات. وقيل: كان الناس أول ما أسلموا يسجدون بلا ركوع ويركعون بلا سجود، فأمروا أن تكون صلاتهم بركوع وسجود. وقيل: معنى (واعبدوا ربكم) اقصدا بركوعكم وسجودكم وجه الله. وعن ابن عباس في قوله (وافعلوا الخير) صلة الأرحام ومكارم الأخلاق (لعلكم تفلحون) أى افعلوا هذا كله وأتمم راجون للفلاح طامعون فيه، غير مستيقنين ولا تسكلوا على أعمالكم، وعن عتبة بن عامر رضى الله عنه قال: قلت يا رسول الله في سورة الحج يسجدتان؟ قال: نعم، إن لم تسجدهما فلا تقرأهما^(١)، وعن عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما فضلت سورة الحج بسجديتين. وبذلك احتج الشافعى رضى الله عنه، فرأى بسجديتين في سورة الحج. وأبو حنيفة وأصحابه رضى الله عنهم لا يرون فيها إلا سجدة واحدة، لأنهم يقولون: قرن السجود بالركوع، فدل ذلك على أنها سجدة صلاة لا سجدة تلاوة.

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لَمَكُونِ الرُّسُولَ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ

وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

(١) لم أره بصيغة المراجعة. وإنما أخرجه أبو داود والترمذى وأحمد والدارقطنى والطبرانى والحاكم. كلهم من رواية ابن لبيبة عن فرج بن ماعان عن عتبة بلفظ دومن لم يسجدهما فلا يقرأهما، قال الترمذى: إسناده ليس بالقوى.

(وجاهدوا) أمر بالغزو وبمجاهدة النفس والهوى وهو الجهاد الأكبر . عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه رجع من بعض غزواته فقال : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر^(١) ، (في الله) أى فى ذات الله ومن أجله . يقال : هو حق عالم ، وجدّ عالم ، أى : عالم حقا وجدا . ومنه (حق جهاده) . فإن قلت : ما وجه هذه الإضافة ، وكان القياس : حق الجهاد فيه . أو حق جهادكم فيه ، كما قال (وجاهدوا فى الله) ؟ قلت : الإضافة تكون بأدنى ملائمة واختصاص ، فلما كان الجهاد مختصا بالله من حيث أنه مفعول لوجهه ومن أجله ، صحت إضافته إليه . ويجوز أن يتسع فى الظرف كقوله :

• وَيَوْمًا شَهِدْنَاهُ سَلِيمًا وَعَاصِرًا •^(٢)

(اجتباكم) اختاركم لدينه ولنصرته (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) فتح باب التوبة للجرمين ، وفسح بأنواع الرخص والكفارات والديات والأروش . ونحوه قوله تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وأمة محمد صلى الله عليه وسلم هى الأمة المرحومة الموسومة بذلك فى الكتب المتقدمة .

نصب الملة بمضمون ما تقدمها ، كأنه قيل : وسع دينكم توسعة ملة أبيكم ، ثم حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه . أو على الاختصاص ، أى : أعنى بالدين ملة أبيكم كقولك : الحمد لله الحميد . فإن قلت : لم يكن (إبراهيم) أباً للأمة كلها . قلت : هو أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان أباً لأئمة ، لأن أمة الرسول فى حكم أولاده (هو) يرجع إلى الله تعالى . وقيل : إلى إبراهيم . ويشهد للقول الأول قراءة أبى بن كعب : الله سماكم (من قبل وفى هذا) أى من قبل القرآن فى سائر الكتب وفى القرآن . أى : فضلكم على الأمم وسماكم بهذا الاسم الأكرم (ليكون الرسول شهيداً عليكم) أنه قد بلغكم (وتكونوا شهداء على الناس) بأن الرسل قد بلغتهم . وإذ خصكم بهذه الكرامة والآثرة ، فاعبدوه واثقوا به ولا تطلبوا النصرة والولاية إلا منه ، فهو خير مولى وناصر .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ سورة الحج أعطى من الاجر كحجة حجها وعمره اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيها مضى وفيما بقى^(٣) .

(١) هكذا ذكره الثعلبى بغير سند ، وأخرجه البيهقى فى الزهد من حديث جابر ، قال : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قوم غزاة . فقال : قدتم بغير مقدم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . قيل : وما الجهاد الأكبر ؟ قال : مجاهدة العبد هواه . قال : فيه ضعف ، قلت : هو من رواية عيسى بن إبراهيم عن يحيى بن يعلى عن ليث بن أبي سليم ، والثلاثة ضعفاء ، وأورده النسائى فى الكنى من قول إبراهيم بن أبي عيلة ، أحد التابعين من أهل الشام .

(٢) تقدم شرح هذا القاعد بالجزء الثانى صفحة ٤٠٨ فراجع إن شئت اه مصححه .

(٣) أخرجه الثعلبى وابن مردويه من حديث أبى بن كعب بالاسناد المذكور فى سورة آل عمران .

سورة المؤمنون

مكية ، وهي مائة وتسع عشرة آية . ونمائي عشرة عند الكوفيين
[نزلت بعد سورة الأنبياء]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ②

(قد) نقيضة ولما، هي تثبت المتوقع ولما، تنفيه، ولا شك أن المؤمنين كانوا متوقعين لمثل هذه البشارة وهي الإخبار بثبات الفلاح لهم، فخطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه. والفلاح: الظفر بالمراد. وقيل: البقاء في الخير. و(أفلح) دخل في الفلاح، كأبشر: دخل في البشارة. ويقال: أفلحه: أصاره إلى الفلاح. وعليه قراءة طلحة بن مصرف: أفلح، على البناء للمفعول. وعنه: أفلحوا، على: أكلوني البراغيث. أو على الإبهام والتفسير. وعنه: أفلح، بضمة بغير واو، اجتزأ بها عنها، كقوله:

* قَلَوْا أَنَّ الْإِطْبَاءَ كَانَ حَوْلِي * ③

فإن قلت: ما المؤمن؟ قلت: هو في اللغة المصدق. وأما في الشريعة فقد اختلف فيه على قولين، أحدهما: أن كل من نطق بالشهادتين مواعظاً قلبه لسانه فهو مؤمن. والآخر أنه صفة مدح لا يستحقها إلا البرّ التقيّ دون الفاسق الشقيّ ④

(١) فلأن الأطباء كان حولي وكان مع الأطباء الأساءة الأصل: كانوا حولي، فقصره وقصر «الأطباء» لضرورة الوزن وهم علماء الطب. والأساءة: جمع آس، كالساعة: جمع ساع، وهم المباشرون للعلاج من الأطباء، من الأسى كالفق، بمعنى المداواة. والاساءة - بالكسر -: الدواء، ولعله أصل الرواية، كما روى الصفاء، لحقه حرف الألف.

(٢) قال محمود: «اختلف في الإيمان على قولين، أحدهما: أن كل من نطق بالشهادتين مواعظاً قلبه لسانه فقد ائتمن بالإيمان. والآخر: أنه صفة مدح لا يستحقها إلا البرّ التقيّ دون الفاسق الشقيّ، قال أحد: والأول مذهب الأشعرية، والثاني مذهب المعتزلة. والموحد الفاسق عندهم لأمؤمن ولا كافر. ولو لم يكن بين المعتزلة على هذا المعتقد تحريم الجنة على الموحد الفاسق بناء على أنه لا يندرج في وعد المؤمنين، لكان البحث معهم لفظياً؛ ولكن رتبوا =

الحشوع في الصلاة : خشية القلب وإلباد البصر - عن قتادة : وهو إلزامه موضع السجود . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه كان يصلي رافعاً بصره إلى السماء ، فلما نزلت هذه الآية رمى ببصره نحو مسجده ^(١) ، وكان الرجل من العلماء إذا قام إلى الصلاة هاب الرحمن أن يشد بصره إلى شيء ، أو يحدث نفسه بشأن من شأن الدنيا . وقيل : هو جمع الهمة لها ، والإعراض عما سواها . ومن الحشوع : أن يستعمل الآداب ، فيتوقى كفت الثوب ، والعيب بجسده وثيابه ، والالتفات ، والتطلى ، والتثاؤب ، والتغميض ، وتغطية الفم ، والسدل ، والفرقة ، والتشيك ، والاختصار ، وتقليب الحصا . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أبصر رجلاً يعبت بلحيته في الصلاة فقال : لو خشع قلبه خشعت جوارحه ^(٢) ، ونظر الحسن إلى رجل يعبت بالحصا وهو يقول : اللهم زوجني الحور العين ، فقال : بئس الخاطب أنت ! تخطب وأنت تعبت . فإن قلت : لم أضيف الصلاة إليهم ؟ قلت : لأن الصلاة دائرة بين المصلي والمصلى له ، فالمصلي هو المنتفع بها وحده وهي عذته وذخيرته فهي صلاته : وأما المصلى له ، فغنى متعال عن الحاجة إليها والانتفاع بها .

وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾

الغو : ما لا يعينك من قول أو فعل ، كاللعب والهزل وما توجب المروءة إلغائه وإطراحه ، يعني أن بهم من الجد ما يشغلهم عن الهزل .

لما وصفهم بالحشوع في الصلاة ، أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو ، ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على النفس اللذين هما قاعدتا بناء التكليف .

== على ذلك أمراً عظيماً من أصول الدين وقواعده . وقد نقل القاضي عنهم رسالة الإيمان خطاً طويلاً ، فنقل عن قدمائهم كعمرو بن عبيد وطبقته أن الإيمان هو التصديق بالقلب وجميع فرائض الدين فعلاً وتركاً . ونقل عن أبي الهذيل العلاف أن الإيمان هو جميع فرائض الدين ونوافله . ومختصر دليل القاضي لأهل السنة أن الإيمان لغة هو مجرد التصديق اتفاقاً ، فوجب أن يكون كذلك شرعاً ، عملاً بقوله تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) مع سلامته عن معارضة النقل ، فانه لو كان لثبته عليه الصلاة والسلام ولو بينه لنقل لانه مما يبتنى عليه قاعدة الوعد والوعد ، ولم ينقل ؛ لأن النقل إما أحاد أو تواتر إلى آخر مادته .

(١) أخرجه الحاكم من رواية ابن سيرين عن أبي هريرة ، لكن قال «فطأطأ رأسه وقال صحيح ، إلا أنه روى مرسلًا» والمرسل أخرجه أبو داود والطبري عن ابن سيرين عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال : فيه نظر هكذا ، وأخرجه الواحدى في الأسباب من طريق ابن علية ، عن أيوب . عن ابن سيرين موصولاً .

(٢) أخرجه الحكيم للترمذي في النوادر في السادس والأربعين بعد المائة من حديث أبي هريرة وفيه سليمان ابن عمرو وهو أبو داود والنخعي أحد من اتهم بوضع الحديث وفي شرح البخاري لزين الدين ابن المنير عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعائشة «لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه» .

وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾

الزكاة اسم مشترك بين عين ومعنى ، فالعين : القدر الذى يخرج منه المزكى من النصاب إلى الفقير والمعنى : فعل المزكى الذى هو التزكية ، وهو الذى أراده الله ، فجعل المزكين فاعلين له ولا يسوغ فيه غيره ، لأنه مامن مصدر إلا يعبر عن معناه بالفعل ويقال لمحدثه فاعل ، تقول للضارب : فاعل الضرب ، وللقاتل : فاعل القتل ، وللزكى : فاعل التزكية . وعلى هذا الكلام كله والتحقيق فيه أنك تقول فى جميع الحوادث : من فاعل هذا ؟ فيقال لك : فاعله الله أو بعض الخلق ^(١) . ولم يتمتع الزكاة الدالة على العين أن يتعلق بها فاعلون ، لخروجها من صحة أن يتناولها الفاعل ، ولكن لأن الخلق ليسوا بفاعليها . وقد أنشد لامية ابن أبى الصلت :

الْمُطْعِمُونَ الطَّعَامَ فِي السَّنَةِ | لَا زِمَةَ وَالْفَاعِلُونَ لِلزَّكَاةِ ^(٢)

وينجز أن يراد بالزكاة : العين ، ويقدر مضاف محذوف وهو الأداء ، وحمل البيت على هذا أصح ، لأنها فيه مجموعة .

وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ آتَبَعَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ

هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾

(على أزواجهم) فى موضع الحال ، أى الأولين على أزواجهم . أو قوامين عليهن ، من قولك : كان فلان على فلانة فأت عنها تخلف عليها فلان . ونظيره : كان زياد على البصرة ، أى : والياً عليها . ومنه قولهم : فلانة تحت فلان . ومن ثمة سميت المرأة فراشاً . والمعنى : أنهم لفروجهم

(١) قال محمود : والزكاة تطلق ويراد بها العين المخرجة ، وتطلق ويراد بها فعل المزكى الذى هو التزكية ويتعين منها أن يكون المراد التزكية لقوله (فاعلون) إذ العين المخرجة لم يفعلها المزكى ، ثم ضبط المصدر على الإطلاق بأنه الذى يصدق عليه أنه فعل الفاعل ؛ فعل هذا تكون العين المخرجة مصدراً بالنسبة إلى الله تعالى ، وكذلك السموات والأرض وكل مخلوق من جوهر وعرض ، قال : لجميع الحوادث إذا قبل من فاعلها ؟ فيقال : الله أو بعض الخلق ، قال أحد : ويقول السنى : فاعل جميعها هو الله وحده لا شريك له ، ولكن إذا سئل بصيغة مشتقة من الفعل على طريقة اسم الفاعل ، مثل أنت يقال له : من القائم ؟ من القاعد ؟ أجاب بمن خلق الله الفعل على يديه ، وجعله عباده ، كزيد وعمر .

(٢) لامية بن أبى الصلت . والأزم : الجذب . والأزمة : الشديدة المجدبة . والزكوات : جمع زكاة ، تطلق على القدر المخرج من المال وعلى الإخراج ، فالمعنى على الأول : المؤدون للزكوات . وعلى الثانى : الفاعلون لذلك الإخراج ، والأول أوجه ؛ لأن المصدر لا يجمع إلا بتأويل الأنواع أو المرات .

حافظون في كافة الاحوال ، إلا في حال تزوجهم أو تسريهم ، أو تعلق (على) بمحذوف يدل عليه (غير ملومين) كأنه قيل : يلامون إلا على أزواجهم ، أى : يلامون على كل مباشر إلا على ما أطلق لهم ، فإنهم غير ملومين عليه . أو تجعله صلة لحافظين ، من قولك : احفظ على عنان فرسى ، على تضمينه معنى الننى ، كما ضمن قولهم : نشدتك بالله إلا فعلت معنى ما طلبت منك إلا فعلك . فإن قلت هلا قيل : من ملكك ؟ قلت : لأنه أريد من جنس العقلاء ما يجرى مجرى غير العقلاء وهم الإناث جعل المستثنى حداً أوجب الوقوف عنده ، ثم قال : فمن أحدث ابتغاء وراء هذا الحد مع فسحته واتساعه ، وهو إباحة أربع من الحرائر . ومن الإمام ما شئت (فأولئك هم) الكاملون في العدوان المتناهون فيه . فإن قلت : هل فيه دليل على تحريم المتعة ؟ قلت : لا ؛ لأن المنكوحه نكاح المتعة من جملة الأزواج إذا صح النكاح .

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾

وقرئ : لأمانتهم . سعى الشيء المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهداً . ومنه قوله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) وقال (وتخونوا أماناتكم) وإنما تؤدى العيون لالمعاني ، ويحان المؤتمن عليه ، لا الأمانة في نفسها . والراعى : القائم على الشيء بحفظ وإصلاح كراعى الغنم وراعى الرعية . ويقال : من راعى هذا الشيء ؟ أى متوليه وصاحبه . ويحتمل العموم في كل ما ائتمنوا عليه وعوهدوا من جهة الله تعالى ومن جهة الخلق ، والخصوص فيما حملوه من أمانات الناس وعهودهم .

وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾

وقرئ (على صلاتهم) . فإن قلت : كيف كثر ذكر الصلاة أولاً وآخراً ؟ قلت : هما ذكران مختلفان فليس بتكرير . وصفوا أولاً بالخشوع في صلاتهم ، وآخراً بالمحافظة عليها . وذلك أن لايسهوا عنها ، ويؤدوها في أوقاتها ، ويقيموا أركانها ، ويكلموا نفوسهم بالاهتمام بها وبما ينبغى أن تتم به أو صافها . وأيضاً فقد وحدت أولاً ليفاد الخشوع في جنس الصلاة أى صلاة كانت ، وجمعت آخراً لتفاد المحافظة على أعدادها : وهى الصلوات الخمس ، والوتر ، والسنن المرتبة مع كل صلاة وصلاة الجمعة ، والعديد والجنائز ، والاستسقاء ، والكسوف والخسوف ، وصلاة الضحى ، والتهجد وصلاة التسبيح ، وصلاة الحاجة . وغيرها من النوافل .

أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾
أى (أولئك هم) الجامعون لهذه الأوصاف (هم الوارثون) الاحقاء بأن يسوموا وزاناً

دون من عداهم ، ثم ترجم الوارثين بقوله ﴿الذين يرثون الفردوس﴾ فجاء بفخامة وجزالة لإرثهم لاتخفى على الناظر . ومعنى الإرث : ما ترك في سورة مريم . أنت الفردوس على تأويل الجنة ، وهو : البستان الواسع الجامع لأصناف الثمر . روى أن الله عز وجل بنى جنة الفردوس لبنة من ذهب ولبنة من فضة ، وجعل خلالها المسك الأذفر . وفي رواية : لبنة من مسك مذرى وغرس فيها من جيد الفاكهة وجيد الريحان .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾

السلالة : الخلاصة ؛ لأنها تسلم من بين السكدر ، وفعالة ، بناء للقلة كالقلامة والقمامة . وعن الحسن : ماء بين ظهراى الطين . فإن قلت : ما الفرق بين من ومن ؟ قلت : الأول للابتداء ، والثانى للبيان ، كقوله (من الآوانان) . فإن قلت : مامعنى : ﴿جعلناه﴾ الإنسان نطفة ؟ قلت : معناه أنه خلق جوهر الإنسان أو لا طينا ، ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة . القرار : المستقر ، والمراد الرحم . وصفت بالمكانة التى هى صفة المستقر فيها ، كقولك . طريق سائر . أو بمكانتها فى نفسها ؛ لأنها مكنت بحيث هى وأحرزت . قرئ : عظما فكسونا العظم . وعظاما فكسونا العظام . وعظما فكسونا العظام . وعظاما فكسونا العظم : وضع الواحد مكان الجمع لزوال اللبس ؛ لأن الإنسان ذو عظام كثيرة ﴿خلقنا آخر﴾ أى خلقا مباينا للخلق الأول مباينة ما أبعداها ، حيث جعله حيوانا وكان جمادا ، وناطقا وكان أبكم ، وسميعا وكان أصم ، وبصيرا وكان أكمه ، وأودع باطنه وظاهره . بل كل عضو من أعضائه وكل جزء من أجزائه - عجائب فطرة وغرائب حكمة لاتدرك بوصف الواصف ولا تبلغ بشرح الشارح : وقد احتج به أبو حنيفة فيمن غصب بيضة فأفرخت عنده قال : يضمن البيضة ولا يرد الفرخ ؛ لأنه خلق آخر سوى البيضة ﴿فتبارك الله﴾ فتعالى أمره فى قدرته وعلمه ﴿أحسن الخالقين﴾ أى : أحسن المقدرين تقديرا ، فترك ذكر المميز لدلالة الخالقين عليه . ونحوه : طرح المأذون فيه فى قوله (أذن الذين يقاثلون) لدلالة الصلة . وروى عن عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغ قوله خلقا آخر ، قال : فتبارك الله أحسن الخالقين^(١) . وروى أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب للنبي صلى الله

(١) وفى الباب عن أنس قال : قال عمر : وافقت ربي فى أربع فذكر الحديث . وفيه : فنزلت (ولقد خلقنا

الإنسان من سلالة من طين ، إلى قوله خلقا آخر . فقلت تبارك الله أحسن الخالقين . فنزلت ،

عليه وسلم ، فنطق بذلك قبل إملائه ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم واكتب هكذا نزلت ، فقال عبد الله : إن كان محمد نبيا يوحى إليه فأنا نبي يوحى إلي ، فلق بكم كافراً ، ثم أسلم يوم الفتح ^(١) .

ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾

قرأ ابن أبي عتبة وابن محيصن : لما تون . والفرق بين الميت والمات : أن الميت كالحي صفة ثابتة . وأما المات ، فيدل على الحدوث . تقول : زيد مات الآن ، ومات غداً ، كقولك يموت . ونحوهما : ضيق وضائق ، في قوله تعالى (وضائق به صدرك) جعل الإمالة التي هي إعدام الحياة ، والبعث الذي هو إعادة ما يفنيه ويعدمه : دليلين أيضاً على اقتدار عظيم بعد الإنشاء والاختراع . فإن قلت : فإذا لاهية إلا حياة الإنشاء وحياة البعث . قلت . ليس في ذكر الحياتين نفي الثالثة وهي حياة القبر ، كما لو ذكرت ثلثي ما عندك وطويت ذكر ثلثه لم يكن دليلاً على أن الثالث ليس عندك . وأيضاً فالغرض ذكر هذه الأجناس الثلاثة : الإنشاء والإمالة والإعادة ، والمطوى ذكرها من جنس الإعادة .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾

الطرائق : السموات ، لأنه طروق بعضها فوق بعض كطارقة النعل ، وكل شيء فوقه مثله فهو طريقة : أولانها طرق الملائكة ومتقلباتهم : وقيل : الأفلاك ؛ لأنها طرائق السكواكب فيها مسيرها : أراد بالخلق السموات ، كأنه قال : خلقناها فوقهم (وما كنا) عنها (غافلين) وعن حفظها وإمسائها أن تقع فوقهم بقدرتنا : أو أراد به الناس وأنه إنما خلقها فوقهم ليفتح عليهم الارزاق والبركات منها ، ويتفهمهم بأنواع منافعها ، وما كان غافلاً عنهم وما يصلحهم .

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ

لَقَدِيرُونَ ﴿١٨﴾

(بقدر) بتقدير يسلبون معه من المضرة ، ويصلون إلى المنفعة . أو بمقدار ما عليناه من حاجاتهم ومصالحهم . (فأسكناه في الأرض) كقوله (فسلكه يتابع في الأرض) وقيل : جعلناه ثابتاً في الأرض . وقيل : إنها خمسة أنهار : سيحون نهر الهند . وجيحون : نهر بلخ . ودجلة والفرات : نهر العراق . والنيل : نهر مصر ، أنزلها الله من عين واحدة من عيون الجنة ،

(١) كذا ذكره الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما وعزاه الواحدى إلى الكلبي . عن ابن عباس رضي

فاستودعها الجبال ، وأجراها في الأرض ، وجعل فيها منافع للناس في أصناف معاشهم . وكما قدر على إزاله فهو قادر على رفعه وإزالته . وقوله ﴿ على ذهابه ﴾ من أوقع الشكرات وأحرزها للفصل . والمعنى : على وجه من وجوه الذهاب به وطريق من طرقه . وفيه إيدان باقتدار المذهب ، وأنه لا يتعالي عليه شيء إذا أراد ، وهو أبلغ في الإبعاد ، من قوله : ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين ﴾ فعلى العباد أن يستعظموا النعمة في الماء ويقيدها بالشكر الدائم ، ويخافوا نفارها إذا لم تشكر .

فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّتٍ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاحٍ كَثِيرٌ
وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ

وَصَبْغٍ لِلْأَكَلِينَ ﴿٢٠﴾

خص هذه الانواع الثلاثة ، لأنها أكرم الشجر وأفضلها وأجمعها للنافع . ووصف النخل والعنب بأن ثمرهما جامع بين أمرين : بأنه فاكهة يتفكه بها ، وطعام يؤكل رطباً وبأساً ، رطباً وعنباً ، وتمراً وزيبياً . والزيتون بأن دهنه صالح للاستسباح والاصطباج جميعاً . ويجوز أن يكون قوله (ومنها تأكلون) من قولهم : يأكل فلان من حرفة يحترفها ، ومن ضيعة يغتلتها ، ومن تجارة يترج بها : يعنون أنها طعمته وجهته التي منها يحصل رزقه ، كأنه قال : وهذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعاشكم ، منها ترتزقون وتعيشون ﴿ وشجرة ﴾ عطف على جنات . وقرئت مرفوعة على الابتداء ، أى : وما أنشئ لكم شجرة ﴿ طور سيناء ﴾ وطور سينين ، لا يخلو إما أن يضاف فيه الطور إلى بقعة اسمها سيناء وسينون ، وإما أن يكون اسماً للجبل مركباً من مضاف ومضاف إليه ، كأمري القيس ، وكعبلك ، فيمن أضاف . فن كسر سين سيناء فقد منع الصرف للتعريف والعجمة أو التأنيث ؛ لأنها بقعة ، وفعلاء لا يكون ألفه للتأنيث كعلباء وحرباء . ومن فتح فلم يصرف ؛ لأن الألف للتأنيث كصحراء . وقيل : هو جبل فلسطين . وقيل : بين مصر وأيلة . ومنه نودي موسى عليه السلام . وقرأ الأعشى : سينا على القصر ﴿ بالدهن ﴾ في موضع الحال ، أى : تنبت وفيها الدهن . وقرئ : تنبت . وفيه وجهان ، أحدهما : أن أنبت بمعنى نبت . وأنشد لزهير :

رَأَيْتُ ذَوِي الْحَاجَاتِ حَوْلَ بُهْوَتِهِمْ قَطِينًا لَهُمْ حَتَّى إِذَا أَنْبَتَ الْبَقْلُ ^(١)

(١) إذا السنة الشهباء بالناس أجفت رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم
ونال كرام الناس في الحجرة الأكل قطيناً بها حتى إذا أنبت البقل =

والثاني : أن مفعوله محذوف ، أى : تثبت زيتونها وفيه الزيت . وقرئ : تثبت ، بضم التاء وفتح الباء ، وحكمه حكم تثبت . وقرأ ابن مسعود : تخرج الدهن وصبغ الآكلين . وغيره : تخرج بالدهن : وفي حرف أوى : تثمر بالدهن . وعن بعضهم : تثبت بالدهان . وقرأ الاعمش : وصبغا وقرئ : وصباغ . ونحوهما : دبغ ودباغ . والصبغ : الغمس للاتدما . وقيل : هى أول شجرة نبتت بعد الطوفان ، ووصفها الله تعالى بالبركة فى قوله (توفد من شجرة مباركة) .

وَأِنْ لَّكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ نُسَفِّكُمُ ۖ إِنَّمَا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ
كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

قرئ : تسفيكم ، بئاء مفتوحة ، أى : تسفيكم الأنعام (ومنها تأكلون) أى تتعلق بها منافع من الركوب والحمل وغير ذلك ، كما تتعلق بما لا يؤكل لحمه من الحيل والبغال والحمير . وفيها منفعة زائدة ، وهى الأكل الذى هو انتفاع بذواتها ، والقصد بالأنعام إلى الإبل لأنها هى المحمول عليها فى العادة ، وقرنها بالفلك - التى هى السفائن - لأنها سفائن البر . قال ذو الرمة :

== هنالك إن يستخلوا المال يخولوا وإن ستلوا يعطوا وإن يسروا يفلوا
وفهم مقامات حسان وجوههم وأندية يتأهب - القول والفعل

لزهير بن أبى سلمي يمدح سنان بن أبى حارثة ، والشهاب : الفرس يخاطب سواد ما يبيض ، شبه بها السنة المجيدة لكثرة بياض أرضها وخلوها عن سواد النبات والأمطار . أو لاختلاط نور الفنى فيها بظلمة الفقر . أجمعت بالناس : أى ذهبت بهم وحقت عنهم آثار الفنى ، والاسناد مجاز عقل . والجهرة - بتقديم الجيم المفتوحة - : السنة المجيدة وروى : فى الجهرة . وأصلها بالتحريك ، فسكونها لغة أو ضرورة وهى شدة العقاب . ويجوز أن تقرأ بالضم بمعنى البيت ، أى : ونال الأكل كرام الناس . ووصلهم داخل بيوتهم ليخلهم تلك السنة . وروى : كرام المال . والمعنى أن كرائم الأموال نالها التأكل والتقص فى تلك السنة لجديها . ورأيت : جواب إذا . وذوى الحاجات : كناية عن الفقراء . حول بيوتهم : أى سنان وقومه . قطينا : أى مقيمين ، فهو يطلق على الواحد والمتعدد . وقيل أنه جمع . وروى قطينا لهم : أى مساكنين لهم عند البيوت ، وذلك كناية عن كرمهم ، حتى إذا أثبت البقل : أى ثبتت النبات الرطب وظهر الخصب ، فهناك : أى فى ذلك الزمان إن يسألهم أحد أن يخولوه مالا كثيرا يخولوه : أى يولوه عليه . وإن ستلوا مالا قليلا يعطوا السائل . وروى : إن يستخلوا المال يخولوا . بالوحدة ، يستعر : أى منهم أحد يلهم للانتفاع بألبانها وأربارها زمن الجذب ثم يردما : أعاروه ، وإن سألم الإعطاء من غير رد أعطوه فلا يردون سائلا . وإن يسروا : أى لعبوا الميسر ، يفلوا : أى يجعلوا الخطر غالبا كثيرا لعدم خوفهم على الفقراء لأن المال كثير بخلاف زمن الجذب . ويجوز أن يقرأ : وإن يسروا أى أعطوا بلا سؤال ، يفلوا بالفاء . أى يتفقدوا الفقراء ويعطوهم ، يقال : يسر كوعد : لعب الميسر ، ويسر كقرب وقعب : لأن ورق ورفق . وروى : يسألوا ويسروا بالمضارع . والمقامات : الجسامع من الناس . وروى : وجوهها . وعلى كل فالضمير للمقامات . والأندية - جمع الندى - بمعنى السكرم ، على غير قياس ، يتأهبها : أى يجرى عليها نوبة بعد نوبة قولهم وفعلهم . أو يتداولها قول الناس وفعلهم . ويحتمل أنها جمع ناد بمعنى متحدث القوم . أو ندى على فعيل كذلك . يتأهبها : أى يحيتها نوبة بعد نوبة القول والفعل ، أى الصالحات .

* سَفِينَةٌ بِرٍّ تَحْتَ حُدَى زِمَامَهَا * (١)

يريد صيدحه (١)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَبْقُومُوا عِبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ
يُرِيدُ أَنْ يَبْتَغِصَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي
مَا بَيْنَنَا وَالْأُولَى (٢٤) إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فُتَرَبِّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (٢٥)

(غيره) بالرفع على المحل، وبالجر على اللفظ، والجملة استئناف تجرى مجرى التعليل للأمر
بالعبادة ﴿أفلا تتقون﴾ أفلا تتخافون أن ترفضوا عبادة الله الذي هو ربكم وخالقكم ورازقكم،
وشكر نعمته التي لا تحصى وأجب عليكم، ثم تذهبوا فتعبدوا غيره مما ليس من استحقاق

(١) ألا خيلت لي وقد نام صحتي فإ نقر التهويم إلا سلامها
طروقا وجلب الرجل مشدودة به سفينة بر تحت خدى زمامها
أنيخت فألقت بلدة فوق بلدة قليلا بها الأصوات إلا بنامها

لدى الرمة، يقول: خيلت لي، أي: بعثت خيالها وأرنتني إياه، وسلمت على في منامي. والحال أنه قد نام أمهاني،
والصعبة كالعصبة والرفقة، ونسب النوم إليهم دونه؛ لأن نومه تهويم أي فتور وغفلة أول النوم فقط. والتهويم
أيضا: تمايل الرأس من النعاس، أولانه يذكروها فكأنه لم يم. ويروى: ذو الكرى بدل صحتي، فإ نقر التهويم
وطرده عن الإسلامها على. ويروى:

ألا طرقتنا مية بنت منذر فإ أرق النيام إلا سلامها

وأرق: أسهر. والنيام: جمع نائم، وقياسه نوام، فقلب ياء شذوذاً. والطروق: الاتيان ليلا، وهو نصب
على المصدر من خيلت، لتلاقيهما معنى. وقيل: الطروق - بالفتح - : الناقة التي بلغت أن يطرفها الفحل، وهو
مفعول خيلت. والأوجه أنه حال من فاعله هذا، ولعله على التشبيه. وجلب الرجل - بالضم، وبالكسر - :
عيده، أي: والحال أن عيدان الرجل مشدودة بها ناقة عظيمة كالسفينة. فاستعارها لها على طريق التصريح،
وإضافتها للبرقرينة للاستعارة. وفيه أنها في البر تقوم مقام السفينة في البحر، وأنها تقابلها، والزمام تجريد،
أي: زمامها تحت خدى وأنا نائم. والبلدة من الناقة: مالاتي الأرض عند الاناحة، وتطلق على الصدر. والبلدة
الأرض الصلبة. والبنام: صوت الظلي، أي: أخطأ فألقت عظاما صلبة كالأرض، فاستعارها لها على طريق
التصريح، فوق أرض صلبة حال كون تلك الأرض قليلا فيها الأصوات إلا بنام الناقة، أي: صوتها الشبيه بصوت
الظلي، لأنه كان حنيا. وبجىء الحال من النكرة بلا تأخير ولانتي ولا تخصيص شاذ. ويروى: قليل - بالجر -
على الصفة. وعلى كل فالأصوات فاعل له، ورفع المستثنى على الاتباع؛ لأن قليلا في معنى النتي، أي: ليس فيها
صوت إلا البنام. وقيل: وإلا هنا بمعنى غير، فهي صفة للأصوات لأنه يشبه النكرة، ولما تمذر ظهور الأعراب
عليها ظهر على ما بعدها.

(٢) قوله «يريد صيدحه» أي: ناقته المسماة بصيدح. (ع)

العبادة في شيء ﴿أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أَنْ يَطْلُبَ الْفَضْلَ عَلَيْكُمْ وَيُرَاسِمَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ). ﴿هَذَا﴾ إِشَارَةٌ إِلَى نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَوْ إِلَى مَا كُلُّهُمْ بِهِ مِنَ الْحُكِّ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، أَيْ: مَا سَمِعْنَا بِمِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ، أَوْ بِمِثْلِ هَذَا الَّذِي يَدْعَى وَهُوَ بَشَرٌ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَمَا أَعْجَبَ شَأْنَ الضَّلَالِ لَمْ يَرْضُوا لِلنَّبُوءَةِ بِبَشَرٍ وَقَدْ رَضُوا لِلْإِلَهِيَّةِ بِحَجَرٍ: وَقَوْلُهُمْ ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ وَأَبَاؤُهُمْ كَانُوا فِي فِتْرَةٍ مَتَطَوَّلَةٍ. أَوْ تَكْذِبُوا فِي ذَلِكَ لِأَنَّهُمَا كُفِرُوا فِي النَّبِيِّ، وَتَشَمَّرُوا لِأَنْ يَدْفَعُوا الْحَقَّ بِمَا أَمَكْنَهُمْ وَبِمَا عَنَّهُمْ، مِنْ غَيْرِ تَمْيِيزٍ مِنْهُمْ بَيْنَ صِدْقٍ وَكَذِبٍ. الْأَتْرَامُ: كَيْفَ جَنَّتُوهُ وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُ أَرْجَحُ النَّاسِ عَقْلاً وَأَوْزَنُهُمْ قَوْلًا. وَالْجَنَّةُ: الْجَنُونُ أَوِ الْجَنِّ، أَيْ: بِهِ جُنٌّ يَحْبِلُونَهُ ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ أَيْ احْتَمَلُوهُ وَاصْبِرُوا عَلَيْهِ إِلَى زَمَانٍ، حَتَّى يَنْجَلِيَ أَمْرُهُ عَنْ عَاقِبَةٍ، فَإِنْ أَفَاقَ مِنْ جُنُونِهِ وَإِلَّا قَتَلْتُمُوهُ.

قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلَ
بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ
إِثْنَيْنِ وَأَهْمَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا
إِنَّهُمْ مُفْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ رَبِّ أُنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ
خَبِيرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾

فِي نَصْرَتِهِ إِهْلَاكُهُمْ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: أَهْلَكُهُمْ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ إِيَّايَ، أَوْ أَنْصُرْنِي بِدَلِّ مَا كَذَّبُونِي، كَمَا تَقُولُ: هَذَا بِذَاكَ، أَيْ بِدَلِّ ذَاكَ وَمَكَانِهِ. وَالْمَعْنَى: أَبْدَلْنِي مِنْ غَمِّ تَكْذِيبِهِمْ، سُلُوءَ النَّصْرَةِ عَلَيْهِمْ. أَوْ أَنْصُرْنِي بِإِنْجَازِ مَا وَعَدْتَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَهُوَ مَا كَذَّبُوهُ فِيهِ حِينَ قَالَ لَهُمْ (إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ). ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ بِحِفْظِنَا وَكَلَامِنَا، كَأَن مَعَهُ مِنَ اللَّهِ حِفَاطًا يَكْلُؤُونَهُ بِعِيُونِهِمْ، لِئَلَّا يَتَعَرَّضَ لَهُ وَلَا يَفْسُدَ عَلَيْهِ مَفْسُدُ عَمَلِهِ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ عَيْنٌ كَأَنَّهُ ﴿وَوَحِّينَا﴾ أَيْ نَأْمُرُكَ كَيْفَ تَصْنَعُ وَنُعَلِّقُ. رَوَى أَنَّهُ أَوْحَى إِلَيْهِ أَنْ يَصْنَعَهَا عَلَى مِثَالِ جَوْجُو الطَّائِرِ. رَوَى أَنَّهُ قِيلَ لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِذَا رَأَيْتَ الْمَاءَ يَفُورُ مِنَ التَّنُّورِ فَارْكَبْ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ فِي السَّفِينَةِ، فَلَمَّا نَبَعَ الْمَاءُ مِنَ التَّنُّورِ أَخْبَرَتْهُ أَمْرَاتُهُ فَرَكَبَ. وَقِيلَ: كَانَ تَنْوَرُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَ مِنْ حَجَارَةٍ، فَصَارَ إِلَى نُوحٍ. وَاخْتَلَفَ فِي مَكَانِهِ، فَعَنِ الشَّعْبِيِّ: فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ عَنْ يَمِينِ الدَّخْلِ بِمَا يَلِي بَابَ كَنْدَةَ، وَكَانَ نُوحٌ عَمَلَ السَّفِينَةَ وَسَطَ الْمَسْجِدِ. وَقِيلَ:

بالشام بموضع يقال له عين وردة . وقيل بالهند . وعن ابن عباس رضى الله عنه : التنور وجه الأرض . وعن قتادة : أشرف موضع في الأرض ، أى أعلاه . وعن علي رضى الله عنه : فار التنور : طلع الفجر . وقيل : معناه أن فوران التنور كان عند تنوير الفجر . وقيل : هو مثل ، كقولهم : حمى الوطيس . والقول هو الأول . يقال : سلك فيه : دخله . وسلك غيره ، وأسلكه . قال :

• حَتَّى إِذَا أَسْلَكُوهُمْ فِي قَتَائِدِهِ • (١)

(من كل زوجين) من كل أمتي زوجين ، وهما أمة الذكر وأمة الأنثى ، كالجمال والنوق ، والحصن والرمك (اثنين) واحد من زوجين ، كالجل والناقة ، والحصان والرمكة : روى أنه لم يحمل إلا ما يلد ويبيض . وقرئ : من كل ، بالثنوين . أى : من كل أمة زوجين . واثنين : تأكيد وزيادة بيان .

جاء على مع سبق الضار ، كما جاء باللام مع سبق النافع . قال الله تعالى (إن الذين سبقتم لهم من الحسن) ، (ولقد سبقتم كلمتنا لعبادنا المرسلين) ونحوه قوله تعالى (لها ما كسبت عليها ما اكتسبت) وقول عمر رضى الله عنه : ليها كانت كفافا ، لا على ولا لى . فإن قلت : لم نهاه عن الدعاء لهم بالنجاة ؟ قلت : لما تضمنته الآية من كونهم ظالمين ، وإيجاب الحكمة أن يغرقوا لا محالة ، لما عرف من المصلحة في إغراقهم ، والمفسدة في استبقائهم ، وبعد أن أملى لهم الدهر المتطاوّل فلم يزيدوا إلا ضلّالا ، ولزمهم الحجة البالغة لم يبق إلا أن يجعلوه عبرة للمعتبرين . ولقد بالغ في ذلك حيث أتبع النهى عنه ، الأمر بالحد على هلاكهم والنجاة منهم ، كقوله (فقطّع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) ، ثم أمره أن يدعوه بدعاء هو أهم وأنفع له ، وهو طلب أن ينزله في السفينة أو في الأرض عند خروجه منها ، منزلا يبارك له فيه ويعطيه الزيادة في خير الدارين ، وأن يشفع الدعاء بالثناء عليه المطابق لمصلحته ، وهو قوله (وأنت خير المنزلين) . فإن قلت : هلا قيل : فقولوا : لقوله (فإذا

(١) حتى إذا أسلكوكم في قَتَائِدِهِ شلا كما تطرد الجمالة الشرذ

لعبد مناف بن ربح الهذلى ، يصف قوما أغبر عليهم فدفعوا العدر حتى أدخلوه في قَتَائِدِهِ ، وهى ثنية بعينها ، أو عقبه بعينها ، أى : في طرائفها . وسلكه في كذا وأسلكه أيضاً كما هنا : أدخله فيه . وروى : سلكوكم أيضاً . وشلا : أى طرداً نصب بسلوكم ، لأن فيه معنى طردوهم : وإذا : حرف زائد لأجواب له ، لأن البيت آخر القصيدة كما في الصحاح . وقيل «شلا» هو جواب ، فهو نصب بمحذوف ، أى : حبسوا بها حبساً ، لكن لا يلائم التشبيه في قوله «كما تطرد» إلا أن يرجع لسلوكم . والجمالة : جمع جمال وهو صاحب الجمل . والشرذ - بفتحين - : الأبل المنتشرة ، أو بضمتين : جمع شرود كمروس .

استويت أنت ومن معك) لانه في معنى : فإذا استويت ؟ قلت : لانه نبهم وإمامهم ، فكان قوله قولهم ، مع ما فيه من الإشعار بفضل النبوة وإظهار كبرياء الربوبية ، وأن رتبة تلك المخاطبة لا يترقى إليها إلا ملك أو نبي . وقرئ : منزلاً ، بمعنى إنزالاً ، أو موضع إنزال ، كقوله : ليدخلهم مدخلا يرضونه . (إن) هي المخففة من الثقيلة ، واللام هي الفارقة بين النافية وبينها في المعنى ، وإن الشأن والقصة (كالمبتلين) أى مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد . أو مختبرين بهذه الآيات عبادنا للنظر من يعتبر ويذكر ، كقوله تعالى : (ولقد تركناها آية فهل من مدكر .

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ

اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾

(قرنا آخرين) هم عاد قوم هود : عن ابن عباس رضى الله عنهما . وتشهد له حكاية الله تعالى قول هود : (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) وحجى قصة هود على أثر قصة نوح في سورة الأعراف وسورة هود والشعراء . فإن قلت : حق أرسل أن يعدى يالى ، كأخواته التى هى : وجه ، وأنفذ ، وبعث . فما باله عدى في القرآن يالى تارة ، وبني أخرى ، كقوله : (كذلك أرسلناك في أمة) ، (وما أرسلنا في قرية من نذير) . (فأرسلنا فيهم رسولاً) أى فى عاد . وفى موضع آخر (وإلى عاد أخاهم هوداً) ؟ قلت : لم يعد بنى كما عدى يالى ، ولم يجعل صلة مثله ، ولكن الأمة أو القرية جعلت موضعاً للإرسال ، كما قال رؤبة :

* أَرْسَلْتُ فِيهَا مُضْعَبًا ذَا إِقْحَامٍ * (١)

وقد جاء وبعث ، على ذلك فى قوله (ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيراً) . (أن) مفسرة لأرسلنا ، أى : قلنا لهم على لسان الرسول (اعبدوا الله) .

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِِلَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ

(١) أرسلت فيها مضعباً ذا إقحام طبا فقها بدوات الإبلان

لعطاء السندى . ويقال : أصعب الجمل فهو مضعب ، إذا صار مضعباً لا يركب . والاقحام : الدخول فى الشئ . بلانهم ولاروية . ويروى : أرسلت فيها مقرماً ذاتشام . وأفرمته : شوقته إلى الضراب . ونحوه : ذاتشام ، أى : يتضم راحة الناقة الناقعة للضراب فيعرفها . والطب - مثلث - : الطبيب الحاذق . وأبليت الناقة إبلاماً : إذا ورم فرجها من شدة الشهوة إلى الضراب . والبلم - كسب - : اسم منه . ويجوز أن ما هنا إبلام كأسباب ، فالمعنى : أنه أرسل فى الإبل خلاصاً يقدم عليها من غير تلبث . أو يتشمها ويتعرفها حاذقاً عارفاً بالوقائع الناقعة إليه . ويجوز أن المعنى : أرسلت فى تلك القضية رجلاً كالجل الشديد ، ذا إقدام على الأمر بمجرأة ، فقها عارفاً بمعالجة الأشياء الصعبة بدوات الأعضاء ، وبجل مصلحتها ، فهو فى غاية المعرفة والتجربة .

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ

مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا آنَخَرْتُمْ ﴿٣٤﴾

فإن قلت : ذكر مقال قوم هود في جوابه في سورة الأعراف وسورة هود بغير واو : (قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة) ، (قالوا يا هود ما جئتنا ببينة) وههنا مع الواو ، فأى فرق بينهما ؟ قلت : الذى بغير واو على تقدير سؤال سائل قال : فما قال قومه ؟ فقيل له : قالوا كيت وكيت . وأما الذى مع الواو ، فعطف لما قالوه على ما قاله . ومعناه : أنه اجتمع في الحصول هذا الحق وهذا الباطل ، وشتان ما هما (بلقاء الآخرة) بلقاء ما فيها من الحساب والثواب والعقاب ، كقولك : يا حذا جوار مكة : أى جوار الله في مكة .

حذف الضمير ، والمعنى : من مشروبيكم ، أو حذف منه لدلالة ما قبله عليه (إذا) واقع في جزاء الشرط ، وجواب للذين قالولهم من قومهم ، أى : تخسرون عقولكم وتغبنون في آرائكم .

أَعِدُّكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيِّئَاتَ هَيِّئَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا

وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾

نفى (أنكم) للتوكيد ، وحسن ذلك لفصل ما بين الأول والثاني بالظرف . ومخرجون : خبر عن الأول . أو جعل (إنكم مخرجون) مبتدأ ، و (إذا متم) خبراً ، على معنى : إخراجكم إذا متم ، ثم أخبر بالجملة عن إنكم ، أو رفع (إنكم مخرجون) بفعل هو جزاء للشرط ، كأنه قيل : إذا متم وقع إخراجكم ، ثم أوقعت الجملة الشرطية خبراً عن إنكم . وفي قراءة ابن مسعود : أيعدكم إذا متم .

قرئ (هَيِّئَاتَ) بالفتح والكسر والضم ، كلها بتنوين وبلا تنوين ، وبالسكون على لفظ الوقف فإن قلت : ما توعدون هو المستبعد ، ومن حقه أن يرتفع بهيات ، كما ارتفع في قوله :

* فَهَيِّئَاتَ هَيِّئَاتَ الْعَقِيقُ وَأَهْلُهُ * (١)

(١) فهيات هيات العقيق ومن به وهيات خل بالعقيق نوامله

لجرير ، يتحسر على بعد خلية . وهيات : اسم فعل بهى « بعد » وفتح تائه : لغة الحجاز . وكسرها : لغة نهم . وضما : لغة بعضهم . وكرره للتوكيد وزيادة التحزن . والعقيق : الوادى الذى شقه السيل ، وهو هنا واد بظاهر ==

فما هذه اللام : قلت قال الزجاج في تفسيره : البعد لما توعدون ، أو بعد لما توعدون فيمن تون ، فزله منزلة المصدر . وفيه وجه آخر : وهو أن يكون اللام لبيان المستبعد ما هو بعد التصويت بكلمة الاستبعاد ، كما جاءت اللام في (هيت لك) لبيان المهيت به .
هذا ضمير لا يعلم ما يعنى به إلا بما يتلوه من بيانه . وأصله إن الحياة (إلا حياتنا الدنيا) ثم وضع (هي) موضع الحياة ، لأن الخبر يدل عليها ويبينها . ومنه : هي النفس تتحمل ما حملت ، وهي العرب تقول ما شاءت . والمعنى : لا حياة إلا هذه الحياة : لأن ، إن ، النافية دخلت على هي ، التي في معنى الحياة الدالة على الجنس فنفتها ، فوازنت دلاء التي نفت ما بعدها نفي الجنس (نموت ونحي) أى يموت بعض ويولد بعض ، ينقرض قرن ويأتى قرن آخر ، ثم قالوا : ما هود إلا مفتر على الله فيما يدعيه من استنبأه له ، وفيما يعدنا من البعث ، وما نحن بمصدقين .

قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَبُوا ۖ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠)

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غَنَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١)

(قليل) صفة للزمان ، كقديم وحديث ، في قولك : ما رأيته قديماً ولا حديثاً . وفي معناه : عن قريب . و (ما) توكيد قلة المدة وقصرها (الصيحة) صيحة جبريل عليه السلام : صاح عليهم فدمرهم (بالحق) بالوجوب : لأنهم قد استوجبوا الهلاك . أو بالعدل من الله ، من قولك : فلان يقضى بالحق إذا كان عادلاً في قضايه : شبههم في دمارهم بالغناء : وهو حيل السيل مما يلى واسود من العيدان والورق . ومنه قوله تعالى (نجعله غناء أحوى) وقد جاء مشدداً في قول امرئ القيس :

* مِنَ السَّيْلِ وَالْغَنَاءِ فَلَكُ مَغْرَلٍ * (١)

== المدينة المشرفة . مرفوع على الفاعلية بالأول ، والثاني لافاعل له . وأجاز أبو على الفارسي أنه من باب التنازع ، فهو مرفوع بأحدهما ، وضميره مستتر في الآخر ، فهو توكيد مفرد على الأول ، وجلة على الثاني . وأجاز ابن مالك أنه فاعل لها لاتحادهما لفظاً ومعنى . وانظر كيف ذكر أولاً مكان الأحبة ، ثم ذكر من فيه على العموم ، ثم ذكر خله على الخصوص ، وتدرج في ذلك حتى توصل إلى ذكر الوصال ، وهو مقصوده الذاتي ، فهدر العرب ما لطفها صنيعاً ، وأدقها عبارة ، والخل - بالكسر - : الخليل ، كالحب بمعنى الحبيب . ويروى : العقيق وأهله

(١) كأن ذرى رأس الخيم غدوة من السيل والغناء فلكة مغزل

لامرئ القيس من معلقته . وذرى الجبل : أعاليه . والخيم : أكمة بعينها . ويروى : الخيمر . والغناء - بالضم - معدداً وعقفاً : - حيل السيل مما يلى واسود من العيدان والورق . والفلكة : بالفتح . والمغزل : مثلك . يقول : كأن أعالي تلك الأكمة من إحاطة السيل بها واجتماع الغناء حولها : فللك مغزل في الاستدارة والارتفاع .

بعداً ، وسحقاً ، ودفراً^(١) ، ونحوها ؛ مصادر موضوعة مواضع أفعالها ، وهي من جملة المصادر التي قال سيبويه : نصبت بأفعال لا يستعمل إظهارها . ومعنى (بعداً) : بعدوا ، أى : هلكوا يقال : بعد بعداً وبعداً ، نحو رشد رشدأ ورشداً . و (للقوم الظالمين) بيان لمن دعى عليه بالبعد ، نحو : (هيت لك) . و (لما توعدون) .

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ۖ آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا
وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾

(قرونا) قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : بنى إسرائيل (أجلها) الوقت الذى حد لهلاكها وكتب .

ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا ۖ كُلٌّ مَّا جَاءَ أُمَّةً رُسُلُهُمْ كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ
بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ۖ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾

(تترى) فعلى : الألف للتأنيت ؛ لأن الرسل جماعة . وقرئ : تترى ، بالتنوين ، والتاء بدل من الواو ، كما فى : تولى ، وتيقور^(٢) ، أى : متواترين واحداً بعد واحد ، من الوتر وهو الفرد : أضاف الرسل إليه تعالى وإلى أممهم (ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات) (ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات) لأن الإضافة تكون بالملابسة ، والرسول ملابس المرسل والمرسل إليه جميعاً (فأتبعنا) الامم أو القرون (بعضهم بعضاً) فى الإهلاك (وجعلناهم) أخباراً يسمر بها ويتعجب منها . الأحاديث : تكون اسم جمع للحديث . ومنه : أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتكون جمعاً للأحداث : التى هى مثل الأضحوكة والألحوبة والأعجوبة . وهى : مما يتحدث به الناس تلهياً وتعجباً ، وهو المراد ههنا .

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَمَلَإِهِ ۖ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾

فإن قلت : ما المراد بالسلطان المبين ؟ قلت : يجوز أن تراد العصا ، لأنها كانت أم آيات

(١) قوله «دفراً» فى الصحاح «دفراً له» أى : نتنا . (ع)

(٢) قوله «كما فى تولى وتيقور» التولج : كناس الوحش الذى يلج فيه . قال سيبويه : التاء مبذلة من الواو ، وهو فاعل ، كذا فى الصحاح . وفيه أيضاً : التيقور ، والوقار . وأصله : ويقور ، قلبت الواو تاءاً ، اه ، فوزنه «فيعول» . (ع)

موسى وأولاه ، وقد تعلقت بها معجزات شتى : من انقلابها حية ، وتلقفها ما أفكته السحرة ، وانفلاق البحر ، وانفجار العيون من الحجر بضربهما بها ، وكونها حارساً ، وشجرة خضراء شمرة ، ودلوا ورشاء . جعلت كأنها ليست بعضها لما استبدت به من الفضل ، فلذلك عطف عليها كقوله تعالى (وجبريل وميكال) ويجوز أن تراد الآيات أنفسها ، أى : هى آيات وحجة بينة (عالين) متكبرين (إن فرعون علا فى الأرض) ، (لا يريدون علوا فى الأرض) أو متطاولين على الناس قاهرين بالبغى والظلم .

فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾

البشر يكون واحداً وجمعاً : (بشرأ سوياً) ، (لبشرين) ، (فإما ترين من البشر) و مثل ، و غير ، يوصف بهما : الاثنان ، والجمع ، والمذكر ، والمؤنث : (إنكم إذا مثلهم) ، (ومن الأرض مثلهم) ويقال أيضاً : هما مثلاه ، وهم أمثاله : (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم) . (وقومهما) يعنى بنى إسرائيل ، كأنهم يعبدوننا خضوعاً وتذللاً . أو لأنه كان يدعى الإلهية فادعى للناس العبادة ، وأن طاعتهم له عبادة على الحقيقة .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾

(موسى الكتاب) أى قوم موسى التوراة (لعلمهم) يعملون بشرائعها ومواعظها ، كما قال : (على خوف من فرعون وملئهم) يريد آل فرعون ، وكما يقولون : هاشم ، وثقيف ، وتميم ، ويراد قومهم . ولا يجوز أن يرجع الضمير فى (لعلمهم) إلى فرعون وملئه ، لأن التوراة إنما أوتيتا بنو إسرائيل بعد إغراق فرعون وملئه : (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى) .

وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾

فإن قلت : لو قيل آيتين هل كان يكون له وجه ؟ قلت : نعم ، لأن مريم ولدت من غير مسيس ، وعيسى روح من الله ألقى إليها ، وقد تكلم فى المهد وكان يحيى الموتى مع معجزات أخر ، فكان آية من غير وجه ، واللفظ محتمل للتثنية على تقدير (وجعلنا ابن مريم) آية (وأمه) آية ثم حذفت الأولى لدلالة الثانية عليها . الربوة والرباوة فى راءهما الحركات . وقرئ : ربوة ورباوة ، بالضم . ورباوة بالكسر وهى الأرض المرتفعة . قيل : هى إيليا أرض بيت المقدس ، وأنها

كبد الأرض وأقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلا : عن كعب . وقيل : دمشق و غوطتها . وعن الحسن : فلسطين والرملة . وعن أبي هريرة : الزموا هذه الرملة رملة فلسطين ، فإنها الربوة التي ذكرها الله . وقيل : مصر . والقرار : المستقر من أرض مستوية منبسطة . وعن قتادة : ذات ثمار وماء . يعنى أنه لأجل الثمار : يستقر فيها ساكنوها . والمعين : الماء الظاهر الجارى على وجه الأرض . وقد اختلف في زيادة ميمه وأصالته ، فوجه من جعله مفعولا أنه مدرك بالعين لظهوره ، من عانه : إذا أدركه بعينه ، نحو : ركه ، إذا ضربه بركبته . ووجه من جعله فعلا : أنه نفاع بظهوره وجريه ، من الماعون : وهو المنفعة ،

يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾

هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما ، وكيف والرسول إنما أرسلوا متفرقين في أزمنة مختلفة . وإنما المعنى : الإعلام بأن كل رسول في زمانه نودى لذلك ^(١) ووصى به ، ليعتقد السامع أن أمراً نودى له جميع الرسل ووصوا به ، حقيق أن يؤخذ به ويعمل عليه . والمراد بالطيبات : ما حل وطاب . وقيل : طيبات الرزق حلال وصاف وقوام ، فالحلال : الذى لا يعصى الله فيه ، والصافى : الذى لا ينسئ الله فيه ، والقوام : ما يمسك النفس ويحفظ العقل . أو أريد ما يستطاب ويستلذ من المآكل والفواكه . ويشهد له مجيئه على عقب قوله (وآويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين) ويجوز أن يقع هذا الإعلام عند إبراء عيسى ومريم إلى الربوة ، فذكر على سبيل الحكاية ، أى : آويناها وقلنا لها هذا ، أى : أعلنناهما أن الرسل كلهم خوطبوا بهذا ، فكلما رزقنا كما واعملا صالحا اقتداء بالرسول .

وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾

قرئ : وإن ، بالكسر على الاستئناف . وأن بمعنى ولأن ، وأن مخففة من الثقيلة ، و (أمتكم) مرفوعة معها .

(١) قال محمد : وهذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما وكيف والرسول إنما أرسلوا متفرقين في أزمنة مختلفة وإنما المعنى الإعلام بأن كل رسول في زمانه نودى بذلك ، قال أحمد : هذه نعمة اعتزالية ، فان مذهب أهل السنة أن الله تعالى متكلم أمرناه ألا ، ولا يشترط في تحقق الأمر وجود المخاطب ، فعلى هذا قوله (كلوا من الطيبات واعملا صالحا) على ظاهره وحقيقته عند أهل الحق ، وهو ثابت ألا على تقدير وجود المخاطبين فيما لا يزال ، متفرقين كما في هذا الخطاب ، أجمعين كما في زعمه ، والمعتزلة لما أبوت اعتقاد قدم الكلام زلت بهم القدم ، حتى حملوا هذه الآية وأمثالها على المجاز وخلاف الظاهر . وما بال المفسرين خص هذه الآية بأنها على خلاف الظاهر ، وممتنعة بوجوب حمل مثل قوله تعالى (أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وجميع الأوامر العامة في الأمة على خلاف الظاهر .

فَقَتَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبْرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾

وقرئ (زبرا) جمع زبور، أى: كتباً مختلفة، يعنى: جعلوا دينهم أديانا، وزبرا قطعاً: استعيرت من زبر الفضة والحديد، وزبرا: مخففة الباء، كرسل فى رسل، أى: كل فرقة من فرق هؤلاء المختلفين المتقطعين دينهم، فرح بباطله، مطمئن النفس، معتقد أنه على الحق.

فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾

الغمرة. الماء الذى يغمر القامة فضربت مثلاً لما هم مغمورون فيه من جهلهم وعميتهم. أو شبهوا باللاعبين فى غمرة الماء لما هم عليه من الباطل. قال:

• كَأَنِّي ضَارِبٌ فِي غَمْرَةٍ لَعِبُ • (١)

وعن على رضى الله عنه: فى غمراتهم (حتى حين) إلى أن يقتلوا أو يموتوا.

أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ

بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾

سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، ونهى عن الاستعجال بعذابهم والجزع من تأخيرهم. وقرئ: يمدّم. ويسارع، بالياء، والفاعل الله سبحانه وتعالى. ويجوز فى: يسارع، ويسرع: أن يتضمن ضمير الممتد به. ويسارع، مبنياً للفعول. والمعنى: أن هذا الإمداد ليس إلا استدراجاً لهم إلى المعاصى، واستجراراً إلى زيادة الإثم، وهم يحسبونه مسارعة لهم فى الخيرات، وفيما لهم فيه نفع وإكرام، ومعالجة بالثواب قبل وقته. ويجوز أن يراد فى جزاء الخيرات كما يفعل بأهل الخير من المسلمين. و(بل) استدراك لقوله (أيحسبون) يعنى: بل هم أشباه البهائم لا فطنة بهم ولا شعور، حتى يتأملوا ويتفكروا فى ذلك: أهو استدراج، أم مسارعة فى الخير؟ فإن قلت: أين الراجع من خبر أن إلى اسمها إذا لم يستكن فيه ضميره؟ قلت: هو محذوف تقديره: يسارع به، ويسارع به، ويسارع الله به، كقوله (إن ذلك لمن عزم الأمور) أى إن ذلك منه، وذلك لاستطالة الكلام مع أمن الإلباس.

(١) ليلالى اللهو يطبئى فأتبعه كأننى ضارب فى غمرة لعب

لذى الرمة. وليلالى: منصوب على الظرفية، واللهو: مبتدأ. وطباه يطويه ويطويه: إذا دعاه وجذبه. وطبى الناقة تدبها لجذبه عند الحلب. أى اللهو يدعوى فى ليلال كثيرة فأتبعه، كأننى ساج فى لجة من الماء تغمر القامة، لعب فيها فهو خبر ثان. ويروى: لعب. بالمعجمة من اللغوب وهو المشقة. وقيل (ليلالى، مضاف للجملة بعده، فهو ظرف لما قبله. وروى: اللهو بالجهر. وتطبئى بالتاء، فالفاعل ضمير الليالى.

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً تَوْأَمًا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَّةٌ أَنْهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾

(يؤتون ما آتوا) يعطون ما أعطوا، وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعائشة: يأتون ما أتوا، أى يفعلون ما فعلوا. وعنها أنها قالت: قلت يا رسول الله، هو الذى يزنى ويسرق ويشرب الخمر وهو على ذلك يخاف الله؟ قال: لا يا ابنة الصديق، ولكن هو الذى يصلى ويصوم ويتصدق، وهو على ذلك يخاف الله أن لا يقبل منه ^(١) (يسارعون فى الخيرات) يحتمل معنيين، أحدهما: أن يراد يرغبون فى الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها. والثانى: أنهم يتعجلون فى الدنيا المنافع ووجوه الإكرام، كما قال (فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة)، (وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) لأنهم إذا سورع بها لهم، فقد سارعوا فى نيلها وتعجلوها، وهذا الوجه أحسن طلبا للآية المتقدمة، لأن فيه إثبات مانع عن الكفار المؤمنين. وقرئ: يسرعون فى الخيرات (لها سابقون) أى فاعلون السبق لاجلها أو سابقون الناس لاجلها. أو إياها سابقون، أى: ينالونها قبل الآخرة حيث عجلت لهم فى الدنيا. ويجوز أن يكون (لها سابقون) خبراً بعد خبر. ومعنى (وهم لها) كعنى قوله:

• أَنْتَ لَهَا أَحْمَدُ مِنْ بَيْنِ الْبَشَرِ • ^(٢)

(١) أخرجه الترمذى، وابن ماجه، وأحمد، وإسحق، وابن أبى شيبة والحاكم والبيهقى فى الشعب. من رواية عبد الرحمن بن سعيد بن وهب الحمذاني عن عائشة قالت: سألت فذكره. قال الترمذى وقد روى عن عبد الرحمن بن سعيد عن أبى حازم عن أبى هريرة رضى الله عنه. اهـ وهذه الطريق أخرجهما الطاهرى بهذا الاسناد. أن عائشة قالت: فذكره وله عنده طريق أخرى. عن عائشة فيها ليث بن أبى سليم. وهو ضعيف. وقوله وهو فى قراءة النبی صلى الله عليه وسلم وعائشة (يأتون ما أتوا): كأنه يشير إلى هذا الحديث. وأخرج منه ما أخرجه الحاكم من طريق عبد الله بن عمر عن أبيه أنه سأل عائشة عن قوله تعالى (الذين يؤتون ما آتوا) كيف كان صلى الله عليه وسلم يقرؤها يؤتون؟ قالت أيها أحب إليك؟ قال: الذين يأتون ما أتوا. قالت: أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرؤها. وكذلك أنزلت. وفى إسناده يحيى بن راشد وهو ضعيف. وله طريق أخرى، عند أحمد من طريق أبى خلف الجهمي: أن عبيد بن عمر سأل عائشة نحوه وفيه إسماعيل بن مسلم المكي. وهو ضعيف.

قصيدة رائقة صوغتها أنت لها أحمد من بين البشر

(٢)

رائقة بحالة من الحشو والتعقيد. وصوغتها - بالتشديد - للبالغة. وأنت لها: أى أهل وكفو لها. وأحمد: منادى.

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾

يعنى أن هذا الذى وصف به الصالحين غير خارج من حد الوسع والطاقة ، وكذلك كل ما كلفه عباده وما عملوه من الأعمال فغير ضائع عنده ، بل هو مثبت لديه فى كتاب ، يريد اللوح ، أو صحيفة الأعمال ناطق بالحق لا يقرءون منه يوم القيامة إلا ما هو صدق وعدل ، لا زيادة فيه ولا نقصان ولا يظلم منهم أحد . أو أراد : إن الله لا يكلف إلا الوسع ، فإن لم يبلغ المكلف أن يكون على صفة هؤلاء السابقين بعد أن يستفرغ وسعه ويبدل طاقته فلا عليه ، ولدينا كتاب فيه عمل السابق والمقتصد ، ولا نظلم أحداً من حقه ولا نخطه دون درجته . بل قلوب الكفرة فى غفلة غامرة لها (من هذا) أى مما عليه هؤلاء الموصوفون من المؤمنين (ولهم أعمال) متجاوزة متخطية لذلك ، أى : لما وصف به المؤمنون (هم لها) معتادون وبها ضارون ، لا يفظمون عنها حتى يأخذهم الله بالعذاب .

حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ

إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصِرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِنَا عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى

أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾

وحتى هذه هى التى يتبدأ بعدها الكلام ، والكلام : الجملة الشرطية ، والعذاب : قتلهم يوم بدر . أو الجوع حين دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف ^(١) » ، فابتلاه الله بالقحط حتى أكلوا الجيف والكلاب والعظام المحترقة والقد ^(٢) والأولاد . الجوار : الصراخ باستغاثة قال :

== ومن بين البشر : متعلق بمحذوف حال ، أى : منتغيان بينهم ، ويجوز أن أحد أفعال تفضيل ، كذا قيل . وروى : أنت لها منذر من بين البشر داهية الدهر وسماء الغدير

للأعشى الحرمازى ، وضمير لها مهم يفسره قوله « داهية الدهر » أى الشديدة المهمة من شدائده . والعصاة العصابة ، والغدير - كسب - بمعنى البقية ، من غير إذا بقى ، أو من الغبار ، أو من الظلة . وأصل « سماء الغدير » : الحية تسكن فى منقع قرب موية فلا تقرب . ويضرب بها المثل . والمعنى : أنها تنشى فلا يبتدى إلى التخلص منها . ومنذر : منادى . وروى بدله : أحمد . وقيل : ضمير لها للنبوة .

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود وسيأتى تاما فى تفسير الدخان .

(٢) قوله « والقد » فى الصحاح والقد : بالكسر : سير يقطع من جلد غير مدبوغ . (ع)

* جَنَارُ سَاعَاتِ النَّهَامِ رَبِّهِ *

أى يقال لهم حينئذ (لا تتجأروا) فإن الجؤار غير نافع لكم (منا لا تنصرون) لا تغاثون ولا تمنعون منا أو من جهتنا ، لا يلحقكم نصر ومغوثة . قالوا : الضمير في (به) للبيت العتيق أو للحرم ، كانوا يقولون : لا يظهر علينا أحد لأننا أهل الحرم . والذي سوغ هذا الإضمار شهرتهم بالاستكبار بالبيت ، وأنه لم تكن لهم مفخرة إلا أنهم ولاته والقائمون به . ويجوز أن يرجع إلى آياتي ، إلا أنه ذكر لأنها في معنى كتابي . ومعنى استكبارهم بالقرآن : تكذيبهم به استكباراً . ضمن مستكبرين معنى مكذبين ، فعذى تعديته . أو يحدث لكم استماعه استكباراً وعتواً ، فأتم مستكبرون بسببه . أو تتعلق الباء بسامراً ، أى : تستمرون بذكر القرآن وبالطعن فيه ، وكانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون ، وكانت عاقبة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سحراً وشعراً وسب رسول الله صلى الله عليه وسلم . أو يتهجرون . والسامر : نحو الحاضر في الإطلاق على الجمع . وقرئ : سمرأ وسمارأ . وتهجرون وتهجرون ، من أهرج في منطقة إذا أخش . والهجر - بالضم - : الفحش ، ومن هجر الذي هو مبالغة في هجر إذا هذى . والهجر - : بالفتح الهذيان .

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَهُمْ بَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كَافِرُونَ ﴿٧٠﴾

(القول) القرآن ، يقول : أفلم يتدبروه ليعلموا أنه الحق المبين فيصدقوا به وبمن جاء به ، بل أ (جاءهم ما لم يأت آباءهم) فلذلك أنكروه واستبدعوه ، كقوله : (لتنذر قوما ما أنذر آبائهم فهم غافلون) أو ليخافوا عند تدبر آياته وأقاصيصه مثل ما نزل بمن قبلهم من المكذبين ، أم جاءهم من الأمن ما لم يأت آباءهم حين خافوا الله فأمنوا به وبكتبه ورسله وأطاعوه ؟ وآباؤهم : إسماعيل وأعقابهم من عدنان وقحطان . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : لا تسبوا مضر ولا ربيعة فإنهما كانا مسلمين ، ولا تسبوا قسا فإنه كان مسلماً ، ولا تسبوا الحارث بن كعب ولا أسد بن خزيمه ولا تميم ابن مر . فإنهم كانوا على الإسلام ، وما شكسكتم فيه من شيء فلا تشكوا في أن تبعاً كان مسلماً^(١) ،

(١) قلت اقتصر المخرج في هرو الجلة الأولى إلى السبيل عن الزبير ، وتتضمن الباقي . وقد أخرجه ابن سعد والبلاذرى من طريق سعد ابن أبي أيوب عن عبد الله بن خالد أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تسبوا مضر فإنه كان مسلماً . وأما تبع فروى ألفا كفى من طريق عمر بن جابر عن مهمل بن سعد رفعه ، لا تسبوا

وروى في أن ضبة كان مسلماً ، وكان على شرطة سليمان بن داود (أم لم يعرفوا) محمداً وصحة نسبه ، وحلوله في سطة هاشم ، وأمانته ، وصدقه ، وشهامته ، وعقله ، واتسامه بأنه خير فتیان قريش ، والخطبة التي خطبها أبو طالب في نكاح خديجة بنت خويلد ، كفي برغائها منادياً .

الجنة : الجنون وكانوا يعلمون أنه برى منها وأنه أرجحهم عقلاً وأتقهم ذهنًا ، ولسكنه جاهم بما خالف شهواتهم وأهواءهم ، ولم يوافق ما نشأوا عليه ، وسيط بلحومهم^(١) ودماهم من اتباع الباطل ، ولم يجدوا له مردًا ولا مدفعًا لأنه الحق الأبلغ والصراط المستقيم ، فأخلدوا إلى البهت وعزلوا على الكذب من النسبة إلى الجنون والسحر والشعر . فإن قلت : قوله (وأكثرهم) فيه أن أقلهم كانوا لا يكرهون الحق . قلت : كان فيهم من يترك الإيمان به أنفة واستنكافًا من توبيخ قومه وأن يقولوا صبا وترك دين آبائهم ، لا كراهة للحق ، كما يحكى عن أبي طالب^(٢) . فإن قلت : يزعم بعض الناس أن أبا طالب صح إسلامه . قلت : ياسبحان الله ، كأن أبا طالب كان أخل أعمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى يشتهر إسلام حمزة والعباس رضي الله عنهما ، ويخفى إسلام أبي طالب .

== تبعًا فانه قد أسلم . وأخرجه الحاكم من طريق ابن جريج عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت : « كان تبع رجلا صالحا . الحديث ، موقوف . وقوله : والخطبة التي خطبها أبو طالب في نكاح خديجة بنت خويلد رضي الله عنها كفي برغائها مناديا : قلت نص له أيضا .

(١) قوله « وسيط بلحومهم » أي : وخط . (ع)

(٢) قال محمود : « فان قلت أكثرهم يعلمون أن أقلهم لا يكره الحق ، وكيف ذلك والكل كفر ؟ قلت : فيهم من أبي الاسلام حذرا من مخالفة آبائهم ومن أن يقال صبا كأي طالب ، لا كراهة للحق ، قال أحمد : وأحسن من هذا أن يكون الضمير في قوله : (وأكثرهم) على الجنس للناس كافة ، ولما ذكر هذه الطائفة من الجنس بقى الكلام في قوله (وأكثرهم) على الجنس بجملة ، كقوله (إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) وكقوله (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) ويدل على ذلك قوله تعالى (بل جاهم بالحق) والتي صلى الله عليه وسلم جاء الناس كلهم وبعث إلى الكفاية . ويحتمل أن يحمل الأكثر على الكل كما حل القليل على الثاني والله أعلم . وأما قول الزمخشري - : إن من تمادى على الكفر وأثر البقاء عليه تقليدا لآبائهم ، ليس كآراما للحق - فردود ، فان من أحب شيئا كره ضده ، فاذا أحبوا البقاء على الكفر فقد كرهوا الانتقال عنه إلى الإيمان ضرورة ، والله أعلم . ثم انهم الكلام إلى استبعاد إيمان أبي طالب . وتحقيق القول فيه أنه مات على الكفر ، ووجه ذلك بأنه أشهر عومة التي صلى الله عليه وسلم ، فلو كان قد أسلم لاشتهر إسلامه ، كما اشتهر إسلام العباس وحمزة وأجدر لأنه أشهر ، وللقائل بإسلامه أن يعتذر عن عدم شهرته بأنه إنما أسلم قبيل الاحتضار ، فلم يظهر له مواقف في الاسلام يشتهر بها كما ظهر لغيره من عمومته عليه الصلاة والسلام . هذا والظاهر أنه لم يسلم . وحسبك دليلا على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : سألت الله تعالى فيه ، وأنه بعد ذلك لي مخصاح من نار يفل رأسه من قدميه . فان قيل : لا يلزم من ذلك موته على الكفر ؛ لأن كثيرا من عصاة الموحدين يذهب بأكثرهم ذلك . قلنا : من أثبت إسلامه ادعى أن ذلك كان قبيل الاحتضار ، فالاسلام جب ما قبله ، وتلك الدقيقة التي صار فيها من المسلمين لا تحتمل من المعاصي ما يوجب ذلك ، والله أعلم .

وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾

دل بهذا على عظم شأن الحق، وأن السموات والأرض ما قامت ولا من فيهن إلا به، فلو اتبع أهواءهم لانقلب باطلا، ولذهب ما يقوم به العالم فلا يبقى له بعده قوام. أو أراد أن الحق الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وهو الإسلام، لو اتبع أهواءهم وانقلب شركا، لجاء الله بالقيامة ولاهلك العالم ولم يؤخر. وعن قتادة: أن الحق هو الله. ومعناه: ولو كان الله إلها يتبع أهواءهم ويأمر بالشرك والمعاصي، لما كان إلها ولما كان شيطانا، ولما قدر أن يمسك السموات والأرض (بذكرهم) أى بالكتاب الذى هو ذكرهم، أى: وعظهم أو وصيتهم وغرهم: أو بالذكر الذى كانوا يتمنونه ويقولون: لو أن عندنا ذكرا من الأولين لكنا عباد الله المخلصين. وقرئ: بذكرهم.

أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَقَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾

قرئ: خراجا فخرج. وخرجا فخرج. وهو ما تخرجه إلى الإمام من زكاة أرضك، وإلى كل عامل من أجرته وجعله. وقبل: الخرج: ما تبرعت به. والخراج: ما لزمك أداؤه. والوجه أن الخرج أخص من الخراج، كقولك: خراج القرية، وخرج الكردة، زيادة اللفظ لزيادة المعنى؛ ولذلك حسنت قراءة من قرأ: خراجا فخرج ربك، يعنى: أم تسألهم على هدايتك لهم قليلا من عطاء الخلق، فالكثير من عطاء الخالق خير.

وإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ

عَنِ الصِّرَاطِ لَنَسْكِبُونَ ﴿٧٤﴾

قد ألزمهم الحجة في هذه الآيات وقطع معاذيرهم وعللهم بأن الذى أرسل إليهم رجل معروف أمره وحاله، مخبور سره وعلنه، خليف بأن يجتنب مثله للرسالة من بين ظهرائهم، وأنه لم يعرض له^(١) حتى يدعى بمثل هذه الدعوى العظيمة بباطل، ولم يجعل ذلك سببا إلى النيل من دينهم واستعطاء أموالهم، ولم يدعهم إلا إلى دين الإسلام الذى هو الصراط المستقيم، مع إبراز المكشوف من أدوائهم وهو إخلالهم بالتدبر والتأمل، واستهتارهم^(٢) بدين الآباء الضلال من

(١) قوله «لم يعرض» لعله: لم يعرض له جنون. (ع)

(٢) قوله «واستهتارهم بدين الآباء الضلال» فى الصحاح: فلان مستهتر بالشراب، أى: مولع به لا يبال

ما قبل فيه. (ع)

غير برهان ، وتعلمهم بأنه مجنون بعد ظهور الحق وثبات التصديق من الله بالمعجزات والآيات الثيرة ، وكرامتهم للحق ، وإعراضهم عما فيه حظهم من الذكر ، يحتمل أن هؤلاء وصفتهم أنهم لا يؤمنون بالآخرة ﴿لناكون﴾ أى عادلون عن هذا الصراط المذكور ، وهو قوله (إلى صراط مستقيم) وأن كل من لا يؤمن بالآخرة فهو عن القصد ناكب . لما أسلم ثمانية بن أثال الحنفي ولحق باليامة ومنع الميرة من أهل مكة وأخذهم الله بالسنين حتى أكلوا العلهز^(١) ، جاء أبوسفیان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : أنشدك الله والرحم ألسنت ترعم أنك بعثت رحمة للعالمين فقال : بلى . فقال قلت الآباء بالسيف ، والأبناء بالجوع .

وَأَوْ رَحِمْنَهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُؤِ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾
وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْأَعْدَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّى إِذَا
فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسُونَ ﴿٧٧﴾

والعنى : لو كشف الله عنهم هذا الضر وهو الهزال والقصط الذى أصابهم برحمته عليهم ووجدوا الخصب ، لارتدوا إلى ما كانوا عليه من الاستكبار وعداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وإفراطهم فيها ، ولذهب عنهم هذا الإبلas وهذا التعلق بين يديه ويسترحمونه ، واستشهد على ذلك بأننا أخذناهم أولاً بالسيف وبما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم وأسرم ، فما وجدت منهم بعد ذلك استكانة ولا تضرع ، حتى فتحنا عليهم باب الجوع الذى هو أشد من الأسر والقتل وهو أطم العذاب ، فأبلسوا الساعة وخضعت رقابهم ، وجاء أعتام وأشدهم شكيمة في العناد يستعطفك . أو محناهم بكل محنة من القتل والجوع فما روى فيهم لين مقادة وهم كذلك ، حتى إذا عذبوا بنار جهنم حينئذ يبلسون ، كقوله (ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون) ، (لا يفتقر عنهم وهم فيه مبلسون) . والإبلas : اليأس من كل خير . وقيل : السكوت مع التحير . فإن قلت : ما وزن استكان ؟ قلت : استفعل من السكون^(٢) ، أى : انتقل من كون

(١) قوله «حتى أكلوا العلهز» في الصحاح «الملهز» بالكسر : طعام كانوا يتخذونه من الدم ووبر البعير في سنى المجاعة . (ع)

(٢) قال محمود : «استكان استفعل من السكون ، أى : انتقل من كون إلى كون ، كما يقال : استحال ، إذا انتقل من حال إلى حال» قال أحد : هذا التأويل أسلم وأحق من تأويل من اشتقه من السكون وجعله امتنع ، ثم أشيع الفتحة فتولدت الألف كتولدها في قوله «ينبأ من ذفرى غضوب جصرة» . فان هذا الاشباع ليس بفسيح ، وهو من ضرورات الشعر ، فينبى أن ترفع منزلة القرآن عن ورود مثله فيه ، لكن تنظير الزخشرى له باستحال : وهم ، فان استكان على تأويله أحد أقسام استفعل ، الذى معناه التحول ، كقولهم : استحجر الطين ، =

إلى كون ، كما قيل : استحال ، إذا انتقل من حال إلى حال . ويجوز أن يكون افتعل من السكون أشبعت فتحة عينه ، كما جاء : بمنزاج^(١) . فإن قلت : هلا قيل : وما تضرعوا . أو : فما يستكثرون ؟ قلت : لأن المعنى : مخنم فما وجدت منهم عقيب المحنة استكانة . وما من عادة هؤلاء أن يستكثروا ويتضرعوا حتى يفتح عليهم باب العذاب الشديد . وقرئ : فتحنأ .

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾
وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنْجِي
وَيُعَذِّبُ وَلَهُ الْخِتَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾

إنما خص السمع والأبصار والأفئدة ، لأنه يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها . ومقدمة منافعها أن يعملوا أسماعهم وأبصارهم في آيات الله وأفعاله ، ثم ينظروا

== واستنوق الجمل . وأما استحال فثلاثي حال يحول ، إذا انتقل من حال إلى حال ، وإذا كان الثلاثي يفيد معنى التحول لم يبق لصيغة استفعل فيها أثر ، فليس استحال من استفعل للتحول . ولكنه من استفعل بمعنى فعل ، وهو أحد أقسامه ، إذ لم يزد السداسي فيه على الثلاثي معنى ، والله أعلم . ثم نعود إلى تأويله فنقول : المعنى عليه : فما انتقلوا من كون التكبر والتجبر والاعتياص إلى كون الخضوع والضرعة إلى الله تعالى . وإذائل أن يقول : استكان يفيد على التأويل المذكور الانتقال من كون إلى كون ، فليس حله على أنه انتقال عن التكبر إلى الخضوع بأولى من العكس . ونرى هذه الصيغة لا تفهم إلا أحد الانتقالين ، فهو كانت مفتقة من مطلق الكون لكانت جملة محتملة للانتقالين جميعا . والجواب أن أصلها كذلك على الإطلاق ، ولكن غلب العرف على استعمالها في الانتقال الخاص كما غلب في غيرها ، والله أعلم . وكان جدى أبو العباس أحمد بن فارس الفقيه الوزير رحمه الله يذكر لي أنه لما دخل بغداد زمن الامام الناصر رضى الله عنه ، أظهر من جملة كراماته له : أن جمع له الوزير جميع علماء بغداد وعقد بهم محفلا للنظرة ، وكان يذكر لي أن مما انجر الكلام إليه حينئذ هذه الآية ، وأن أحدهم كان يعرف بالأجل اللغوي خصه الوزير بالسؤال عنها فقال : وهو مشتق من قول العرب : كنت لك إذا خضعت ، وهى لغة هذلية فاستحسن منه ذلك . قال أحد : وقد وفقت عليها بعد ذلك في غريب أبي عبيد المروى وهو أحسن محامل الآية وأصلها ، والله أعلم . وعلى هذا يكون من استفعل بمعنى فعل ، كقولهم : استقر واستلى ، وحال واستحال على ما مر . وقد قال لي بعضهم يوما : لم لا تجعله على هذا التأويل من استفعل المبني للبالغة . مثل استحسر واستعصم من حسر وعصم ، فقلت : لا يسعنى ذلك : لأن المعنى يأباه ، وذلك أنها جاءت في التني والمقصود منها ذم هؤلاء بالجفوة والقسوة وعدم الخضوع ، مع ما يوجب نهاية الضرعة من أخذهم بالعذاب . فلو ذهب إلى جعلها للبالغة أفادت نقص المبالغة ، لأن نتي الأبلغ أدنى من نتي الأدنى . وكأنهم على ذلك ذموا بنى الخضوع الكثير . وأنهم ما بلغوا في الضرعة نهايتها ، وليس الواقع : فانهم ما اتسموا بالضرعة ولا بلغة منها ، فكيف تنى عنهم النهاية الموهمة للحصول للبدية ، والله أعلم .

(١) قوله « كما جاء بمنزاج » أى في قوله :

وَأَنْتَ مِنَ الْغَوَائِلِ حِينَ تَرَى وَعَنْ ذِمِّ الرِّجَالِ بِمَنْزَاجٍ اهـ عليان

قلت : وقد تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة ٦٤ فراجع إن شئت اهـ مصححه .

ويستدلوا بقلوبهم . ومن لم يعملها فيما خلقت له فهو بمنزلة عادمها ، كما قال الله تعالى (فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفتدتهم من شيء) إذ كانوا يحجدون بآيات الله ، ومقدمة شكر النعمة فيها الإقرار بالمنعم بها ، وأن لا يجعل له نذ ولا شريك ، أى : تشكرون شكرا قليلا ، و (ما) مزيدة للتأكيد بمعنى حقاً (ذرأكم) خلقكم وبثكم بالناسل (وإليه) تجميعون يوم القيامة بعد تفزقكم (وله اختلاف الليل والنهار) أى هو مختص به وهو متوليه ، ولا يقدر على تصريفهما غيره . وقرئ : يعقلون ، بالياء عن أبى عمرو .

بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَأَمَدًا مِّتْنًا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَمًا
أَمِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَوَعَاوُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَذَا إِلَّا
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾

أى : قال أهل مكة كما قال الكفار قبلهم . الأساطير : جمع أسطار : جمع سطر . قال رؤبة :

• إِنِّي وَأَسْطَارُ سَطْرُنَ سَطْرًا • (١)

وهى ما كتبه الأولون بما لا حقيقة له . وجمع أسطورة أوفق .

قُلْ لِيِنَّ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾
سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ
وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾

(١) إني وأسطار سطرُن سطرًا لقائل يانصر نصر نصرًا

لرؤية بن العجاج . والمراد بالأسطار : الكتابة ، وهى جمع سطر بالتحريك ، وأصله مصدر كالساكن الوسط . وسطرون : مبنى للجهول . وسطراً : مصدر . ولقائل : خبر « إني » وما بينهما جملة قسمة اعتراضية . ونصر : مبنى على الضم ، وهو ابن سيار ملك خراسان . ونصر الثانى توكيد لفظى ، مرفوع على اللفظ . والثالث كذلك نصب على المحل لأنه كان مفرداً معرفة لأنه تابع . وأوهو مصدر نائب عن فعله . أى انصرتى نصراً . وقيل « نصر » الثانى بالضاد المعجمة على أنه علم لصاحب نصر الأول ، فهو على حذف العاطف . عن أبى عبيدة : والمنقول أن الذى بالضاد المعجمة هو الثالث ، كان حاجبا لنصر ، واشتكاك له الشاعر فنصبه على الاغراء . والمعنى على الأول : وحق الكتاب المسطور إني لمستغيث به لا بغيره

أى أجيئوني عما استعليتكم منه ^(١) إن كان عندكم فيه علم ، وفيه استهانة بهم وتجويز لفرط جهالتهم بالديانات : أن يجهلوا مثل هذا الظاهر البين . وقرئ : تذكرون ، بحذف التاء الثانية ^(٢) ومعناه : أفلا تتذكرون فتعلموا أن من فطر الأرض ومن فيها اختراعاً ، كان قادراً على إعادة الخلق ، وكان حقيقاً بأن لا يشرك به بعض خلقه في الربوبية . قرئ : الأول ، باللام لا غير . والآخران باللام ، وهو هكذا في مصاحف أهل الحرمين والكوفة والشام ، وبغير اللام وهو هكذا في مصاحف أهل البصرة ، فباللام على المعنى ؛ لأن قولك من ربه ، ولمن هو في معنى واحد ، وبغير اللام على اللفظ . ويجوز قراءة الأول بغير لام ، ولكنها لم تثبت في الرواية ﴿ أفلا تتقون ﴾ أفلا تخافونه فلا تشركوا به وتعصوا رسله . أجرت فلانا على فلان : إذا أغثته منه ومنعته ، يعنى : وهو يغيث من يشاء بمن يشاء ، ولا يغيث أحد منه أحداً ﴿ تسحرون ﴾ تخدعون عن توحيد وطاعته . والخذاع : هو الشيطان والهوى :

بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا تَتَذَكَّرُ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾

و قرئ : أتيتهم وأتيتهم ، بالفتح والضم ﴿ بالحق ﴾ بأن نسبة الولد إليه محال والشرك باطل ﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ حيث يدعون له ولداً ومعه شريكاً ﴿ لذبح كل إله بما خلق ﴾ لا تفرد كل واحد من الآلهة بخلق الذي خلقه واستبد به ، ولرايتهم ملك كل واحد منهم متميزاً من ملك الآخرين ، ولغلب بعضهم بعضاً كما ترون حال ملوك الدنيا بما لستم متميزة وهم متغالبون ، وحين لم تروا أثراً لتمايز الممالك وللتغالب ، فاعلموا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شيء . فإن قلت : إذا لا تدخل إلا على كلام هو جزاء وجواب ، فكيف وقع قوله لذبح جزاء وجواباً ولم يتقدمه شرط ولا سؤال سائل ؟ قلت : الشرط محذوف تقديره : ولو كان معه آلهة . وإنما حذف لدلالة قوله : (وما كان معه من إله) عليه . وهو جواب لمن معه الحاجة من المشركين ﴿ عما يصفون ﴾ من الانداد والاولاد ﴿ عالم الغيب ﴾ بالجر صفة لله . وبالرفع : خبر مبتدأ محذوف .

قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيبِي مَائُودُودُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾

وإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُّهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿٩٥﴾

(١) قوله « عما استعليتكم منه » لعله « عنه » . (ع)

(٢) قوله « وقرئ : تذكرون » بحذف التاء الثانية « يفيد أن القراءة المشهورة (تذكرون) بالنشد . (ع)

ما والنون : مؤكدتان ، أى : إن كان لا بد من أن ترى ما تعدهم من العذاب فى الدنيا أو فى الآخرة ﴿ فلا تجعلى ﴾ قربنا لهم ولا تعذبى بعذابهم . عن الحسن : أخبره الله أن له فى أمته نعمة ولم يخبره أنى حياته أم بعد موته ، فأمره أن يدعو بهذا الدعاء . فإن قلت : كيف يجوز أن يجعل الله نبيه المعصوم مع الظالمين ، حتى يطلب أن لا يجعله معهم ؟ قلت : يجوز أن يسأل العبد ربه ما علم أنه يفعله ، وأن يستعيز به بما علم أنه لا يفعله ، إظهاراً للعبودية وتواضعاً لربه ، وإخباراً له . واستغفاره صلى الله عليه وسلم إذا قام من مجلسه سبعين مرة أو مائة مرة لذلك ، وما أحسن قول الحسن فى قول أبى بكر الصديق رضى الله عنهما وليتكم ولست بخيركم : كان يعلم أنه خيرهم ، ولكن المؤمن يهضم نفسه . وقرئ : إما ترتهم ، بالهمز ^(١) مكان ترى : كما قرئ : فإما ترثن ، ولترثن الجحيم . وهى ضعيفة . وقوله (رب) مرتين قبل الشرط وقبل الجزاء ، حث على فضل تضرع وجوار . كانوا يشكرون الموعد بالعذاب ويضحكون منه واستعجابهم له لذلك ، فقيل لهم : إن الله قادر على إنجاز ما وعد إن تأملتم ، فواجه هذا الإنكار ؟

أَدْفَعِ بِالسَّيِّئَةِ إِلَى أَحْسَنِ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ٩٦

هو أبلغ من أن يقال : بالحسنة السيئة ، لما فيه من التفضيل ، كأنه قال : ادفع بالحسنى السيئة . والمعنى : الصفح عن إساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الإحسان ، حتى إذا اجتمع الصفح والإحسان وبذل الاستطاعة فيه : كانت حسنة مضاعفة بإزاء سيئة . وهذه قضية قوله (بالتى هى أحسن) ^(٢) وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هى شهادة أن لا إله إلا الله . والسيئة : الشرك .

(١) قوله « وقرئ : إما ترتهم بالهمزة » فى نسخة أخرى : إما ترتى بالهمز ، كما قرئ ... الخ ، (ع)
(٢) قال محمود : « هذا أبلغ من أن يقال : ادفع بالحسنة السيئة ، لما فيه من التفضيل كأنه قال : ادفع بالحسنى السيئة ، والمعنى : الصفح عن إساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الإحسان ، حتى إذا اجتمع الصفح والإحسان وبذل الاستطاعة فيه ، كانت حسنة مضاعفة بإزاء سيئة . وهذه قضية قوله : (بالتى هى أحسن) فتجىء للفاضلة عبارة عن الاشتراك فى أمر والقياس بغيره ، ولا اشتراك بين الحسنة والسيئة : فانهما ضدان متقابلتان ، فكيف تتحقق المفاضلة ؟ قلت : المراد أن الحسنة من باب الحسنات ، أزيد من السيئة من باب السيئات ، فتجىء المفاضلة بما هو أعم من كون هذه حسنة وهذه سيئة . وذلك شأن كل مفاضلة بين صدين ، كقولهم : العسل أحلى من الخل ، يعنون أنه فى الأصناف الحلوة أميز من الخل فى الأصناف الحامضة . وليس لأن بينهما اشتراكاً خاصاً . ومن هذا القليل ما يحكى عن أشعب الماسجى أنه قال : نشأت أنا والأعرش فى حجر فلان ، فما زال يعلم وأسفل حتى استوتنا ، بمعنى أنهما استويا فى بلوغ كل منهما الغاية : أشعب بلغ الغاية على السفلة . والأعرش : بلغ الغاية على العلية ، هذا تفسير كلامه عن نفسه ، ونعود إلى الآية فنقول : هى تحتل وجهاً آخر من التفضيل أقرب متناولاً : وهو أن تكون المفاضلة بين الحسنات التى تدفع بها السيئة ، فالها قد تدفع بالصفح والاعتناء . ويقع فى دفعها بذلك ، وقد يزداد على الصفح الأكرام وقد تبلغ غايته ببذل الاستطاعة ، فهذه الأنواع من الدفع كلها دفع بحسنة ، ولكن أحسن هذه الحسنات فى الدفع هى الأخيرة ، لاشتغالها على عدد من الحسنات ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم

وعن مجاهد : السلام : يسلم عليه إذا لقيه . وعن الحسن : الإغضاء : والصفح . وقيل : هي منسوخة بآية السيف . وقيل : بحكمة ؛ لأن المدارة مَحْثُوث عليها ما لم تَوَدَّ إلى ثلم دين وإزراء بمروءة ﴿بما يصفون﴾ بما يذكرونه من أحوالك بخلاف صفتها . أو بوصفهم لك وسوء ذكرهم ، والله أعلم بذلك منك وأقدر على جزائهم .

وَقُلْ رَبِّ اعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ

يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾

الهمز : النخس . والهمزات : جمع المزة منه . ومنه : مهماز الرائض . والمعنى أَنَّ الشياطين يحثون الناس على المعاصي ويفرونهم عليها ، كما تهمز الراضة الدواب حثاً لها على المشي . ونحو الهمز الآت في قوله تعالى (توزم أزاً) أمر بالتعوذ من نخساتهم بلفظ المبتهل إلى ربه ، المكترر لندائه ، وبالتعوذ من أن يحضروه أصلاً ويحوموا حوله . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : عند تلاوة القرآن . وعن عكرمة : عند النزاع .

حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ

كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾

﴿حتى﴾ يتعلق بـ يصفون ، أى : لا يزالون على سوء الذكر إلى هذا الوقف . والآية فاصلة بينهما على وجه الاعتراض والتأكيد للإغضاء عنهم ، مستعينا بالله على الشيطان أن يستزله عن الحلم ويغريه على الانتصار منهم . أو على قوله : وإنهم لكاذبون ^(١) . خطاب الله بلفظ الجمع للتعظيم ، كقوله :

* فَإِنْ شِئْتُ حَرَمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمْ * ﴿٢﴾

وقوله : * أَلَا فَارْحَمُونِي يَا إِلَهَ مُحَمَّدٍ * ﴿٣﴾

== بأحسن الحسنات في دفع السيئة . فعلى هذا تجرى المفاضلة على حقيقتها من غير حاجة إلى تأويل ، والله أعلم . فتأمل فانه حسن جدا .

(١) قوله « أو على قوله : وإنهم لكاذبون » لعله عطف على المعنى ، فكأنه قال فيما مر : حتى رد على قوله (يصفون) . فقال هنا : أو على قوله (وإنهم لكاذبون) . (ع)

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة ٣٨٣ فراجع إن شئت اه مصححه .

(٣) أَلَا فَارْحَمُونِي يَا إِلَهَ مُحَمَّدٍ فان لم أكن أهلاً فأنت له أهل

«ألا» استفاحية دالة على الاهتمام بما يعقبها من الكلام ، وغالب الإله الواحد الأحد بخطاب الجمع جرياً على ==

إذا أيقن بالموت واطلع على حقيقة الأمر، أدركته الحسرة على ما فترط فيه من الإيمان والعمل الصالح فيه، فسأل ربه الرجعة وقال ﴿لعلّي أعمل صالحاً﴾ في الإيمان الذي تركته، والمعنى: لعلّي آتني بما تركته من الإيمان، وأعمل فيه صالحاً، كما تقول: لعلّي أبنّي على أس، تريد: أسس أساً وأبنّي عليه: وقيل: فيما تركت من المال. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا: نرجعك إلى الدنيا، فيقول: إلى دار الهموم والأحزان! بل قد قودما إلى الله. وأما الكافر فيقول: رب ارجعون، ﴿كلا﴾ ردع عن طلب الرجعة، وإنكار واستبعاد. والمراد بالكلمة: الطائفة من الكلام المنتظم بعضها مع بعض، وهى قوله: ﴿لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت﴾. (هو قائلها) لا محالة، لا يخلها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة عليه وتسلط الندم. أو هو قائلها وحده لا يجاب إليها ولا تسمع منه ﴿ومن ورائهم برزخ﴾ والضمير للجماعة، أى: أمامهم حائل بينهم وبين الرجعة إلى يوم البعث، وليس المعنى: أنهم يرجعون يوم البعث، وإنما هو إقناط كلّي لما علم أنه لا رجعة يوم البعث إلا إلى الآخرة.

فَإِذَا فُتِحَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾

الصور - بفتح الواو - عن الحسن. والصور - بالكسر والفتح - عن أبي رزين. وهذا دليل لمن فسر الصور بجمع الصورة، ونفى الانساب: يحتمل أن التقاطع يقع بينهم حيث يتفرقون معاقبين ومثابين، ولا يكون التواصل بينهم والتألف إلا بالأعمال، فتلفوا الانساب وتبطل، وأنه لا يعتد بالانساب لزوال التعاطف والتراحم بين الأقارب، إذ يفتر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنه. وعن ابن مسعود: ولا يسألون، بإدغام التاء في السين. فإن قلت: قد ناقض هذا ونحو قوله (ولا يستل حميم حميماً) قوله: (وأقبل بعضهم على بعض يتسألون) ^(١) وقوله (يتعارفون بينهم) فكيف التوفيق بينهما؟ قلت: فيه جوابان، أحدهما: أن يوم القيامة مقداره خمسون ألف سنة، فمعه أزمنة وأحوال مختلفة يتسألون ويتعارفون في بعضها، وفي

== عادة العرب من خطاب السادة والملوك بذلك تعظاً. وقيل: هو إشارة إلى تكرار الفعل للتوكيد، كأنه قيل: ارحمني ارحمني ارحمني، وإضافته إلى محمد صلى الله عليه وسلم للتوسل به إلى الله عز وجل، فإن لم أكن أهلاً لهذا الطلب أو المطلوب من الرحمة والرفق، فأنت يا الله أهل له.

(١) قال محمود: «إن قلت قد ناقض هذا قوله: فأقبل بعضهم على بعض يتسألون» قال أحد: يجب أن لا يسلك هذا المسلك في إيراد الأمثلة عن فوائد الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حيد. وسؤال الأدب أن يقال: قهر فهمي عن الجمع بين هاتين الآيتين، فما وجهه؟ ولو سألت سائلي عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن شيء من كتاب الله تعالى بهذه الصيغة لأوجع ظهره بالبدرة.

بعضها لا يفتنون لذلك لشدة الهول والفرع^(١) . والثاني : أن التاكر يكون عند النفخة الأولى ، فإذا كانت الثانية قاموا فتعارفوا وتساءلوا .

فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾

عن ابن عباس : الموازين : جمع موزون ؟ وهى الموزونات من الأعمال : أى الصالحات ، التى لها وزن وقدر عند الله ، من قوله تعالى (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً) . (فى جهنم خالدون) بدل من خسروا أنفسهم ، ولا محل للبدل والمبدل منه ؛ لأن الصلة لا محل لها . أو خبر بعد خبر لا أولئك . أو خبر مبتدأ محذوف (تلفح) تسفع . وقال الزجاج : التلفح والتفح واحد ، إلا أن التلفح أشد تأثيراً . والكلوخ : أن تنقلص الشفتان وتنشمر عن الأسنان ، كما ترى الروس المشوية . وعن مالك بن دينار : كان سبب توبة عتبة الغلام أنه مر فى السوق برأس أخرج من التنور فغشى عليه ثلاثة أيام ولياليهن . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : تشويه النار فتقاص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخى شفته السفلى حتى تبلغ سرتة^(٢) وقرئ : كالحون .

أَلَمْ تَكُنْ مِّنْ آيَاتِنِ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا عِذْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ ﴿١٠٨﴾

(غلبت علينا) ملكتنا ، من قولك : غلبنى فلان على كذا ، إذا أخذه منك واملكك . والشقاوة سوء العاقبة التى علم الله أنهم يستحقونها بسوء أعمالهم . قرئ (شقوتنا) وشقاوتنا مفتحة الشين وكسرهما فيهما (اخسؤا فيها) ذلوا فيها وانزجروا كما تنزجر الكلاب إذا زجرت . يقال : خساً الكلب وخساً بنفسه^(٣) . (ولا تكلمون) فى رفع العذاب ، فإنه لا يرفع ولا يخفف . قيل : هو

(١) عاد كلامه إلى جواب السؤال . قال : « وجه الجمع بينهما أن يحمل ذلك على اختلاف موقف القيامة » قال أحد : وكثيراً ما ينتهر الزحشرى الفرصة فى إنكار الشفاعة ويحذر ذلله الرد على القائلين بها إذا انتهى إلى مثل قوله (ولا تنفخها شفاعة) ، (لا يبيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) . ويتغافل حينئذ عن طريق الجمع بين مظاهره نفي الشفاعة وبين مظاهره ثبوتها ، يحمل الأمر على اختلاف الأحوال فى القيامة ، والله الموفق .

(٢) أخرجه الترمذى وأحمد والبيهقى فى الشعب من رواية أبى السنع عن المهيم بن أبى سعيد .

(٣) قوله « يقال خساً الكلب ... الخ » فى الصحاح : خسأت الكلب وخساً بنفسه : يتعدى ولا يتعدى . (ع)

آخر كلام يتكلمون به ، ثم لا كلام بعد ذلك إلا الشهيق والزفير والعمواء كعماء الكلاب لا يفهمون ولا يفهمون . وعن ابن عباس : إن لهم ست دعوات : إذا دخلوا النار قالوا ألف سنة : (ربنا أبصرنا وسمعنا) فيجابون : (حق القول مني) ، فينادون ألفاً (ربنا أمتنا اثنتين) ، فيجابون : (ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم) ، فينادون ألفاً : (يا مالك ليقض علينا ربك) ، فيجابون : (إنكم ما كنون) : فينادون ألفاً : (ربنا أخرنا) ، فيجابون : (أو لم تكونوا) ، فينادون ألفاً : (ربنا أخرجنا نعمل صالحاً) ، فيجابون : (أو لم نعمركم) ، فينادون ألفاً : (رب ارجعون) ، فيجابون : (اخشوا فيها) .

إِنَّهُ كَانَ قَرِيبٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاخْضِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ كُفَّارُونَ ﴿١١١﴾

في حرف أبي : أنه كان فريق ، بالفتح ، بمعنى : لأنه .

السحري - بالضم والكسر - : مصدر سحر كالسحر ، إلا أن في ياء النسب زيادة قوة في الفعل ، كما قيل الخصوصية في الخصوص . وعن الكسائي والفراء : أن المكسور من الهزة ، والمضوم من السخرة والعبودية ، أي : تسخروهم واستعبدهم ، والأول مذهب الخليل وسيبويه . قيل : هم الصحابة وقيل أهل الصفة خاصة . ومعناه : اتخذتموهم هزوا وتشاغلتم بهم ساخرين (حتى أنسواكم) بتشاكلهم بهم على تلك الصفة (ذكرى) فتركتموه ، أي : تركتم أن تذكروني فتخافوني في أوليائي . وقرئ (أنهم) بالفتح ، فالكسر استئناف ، أي : قد فازوا حيث صبروا ، فجزوا بصبرهم أحسن الجزاء . وبالفتح على أنه مفعول جزيتهم ، كقولك : جزيتهم فوزهم .

قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ مِائِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا أَوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾

(قال) في مصاحف أهل الكوفة . وقل : في مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام ؛ في (قال) ضمير الله أو المأمور بسؤالهم من الملائكة ، وفي (قل) ضمير الملك أو بعض رؤساء أهل النار .

استقصوا مدة لبثهم في الدنيا بالإضافة إلى خلودهم ولما هم فيه من عذابها ، لأن الممتحن يستطيل أيام محنته ويستقص مآمرته عليه من أيام الدعة إليها . أو لأنهم كانوا في سرور ، وأيام السرور قصار ، أو لأن المنتضى في حكم مالم يكن ، وصدقهم الله في تقاضهم لسنى لبثهم في الدنيا وبخهم

على غفلتهم التي كانوا عليها . وقرئ (فصل العادين) والمعنى : لانعرف من عدد تلك السنين إلا أنا نستقله ونحسبه يوماً أو بعض يوم ؛ لما نحن فيه من العذاب ، وما فينا أن نعدّها ، فصل من فيه أن يعدّ ، ومن يقدر أن يلقى إليه فكره . وقيل : فصل الملائكة الذين يعدّون أعمار العباد ويحصون أعمالهم . وقرئ : العادين ، بالتخفيف ، أى : الظلة ، فإنهم يقولون كما تقول . وقرئ : العادين ، أى : القدماء المعمرين ، فإنهم يستقصرونها ، فكيف بمن دونهم ؟ وعن ابن عباس : أنساهم ما كانوا فيه من العذاب بين النفتختين .

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾

(عبثاً) حال ، أى : عابثين ، كقوله (لاعين) أو مفعول له ، أى : ما خلقناكم للعبث ، ولم يدعنا إلى خلقكم إلا حكمة اقتضت ذلك ، وهى : أن تتعبدكم ونكافكم المشاق من الطاعات وترك المعاصي ، ثم نرجعكم من دار التكليف إلى دار الجزاء ، فنثيب المحسن ونعاقب المسيء . (وأنكم إلينا لا ترجعون) معطوف على (أنما خلقناكم) ويجوز أن يكون معطوفاً على (عبثاً) أى : للعبث ، ولترككم غير مرجوعين . وقرئ : (ترجعون) بفتح التاء ^(١) (الحق) الذى يحق له الملك ؛ لأن كل شيء منه وإليه . أو الثابت الذى لا يزول ولا يزول ملكه . وصف العرش بالكرم لأن الرحمة تنزل منه والخير والبركة . أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين ، كما يقال : بيت كريم ، إذا كان ساكنوه كراماً . وقرئ : الكريم ، بالرفع . ونحوه : (ذو العرش المجيد) . (لا برهان له به) كقوله (مالم ينزل به سلطاناً) وهى صفة لازمة ، نحوقوله (يطير بجناحيه) جى منها للتوكيد لا أن يكون فى الآلهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان ^(٢) . ويجوز أن يكون اعتراضاً بين الشرط

(١) قوله «وقرئ: ترجعون بفتح التاء» عبارة النسخ: بفتح التاء وكسر الجيم . (ع)

(٢) قال محمود : «لا برهان له به : إما صفة لازمة ، أو كلام معترض لأن فى الصفة إنها ما لأن لما سوى الله يمكن أن يكون به برهان» قال أحمد : إن كان صفة فالقصد بها التهمك بمدعى إله مع الله ، كقوله (بما أشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً) فتنى إزال السلطان به وإن لم يكن فى نفس الأمر سلطان لا منزل ولا غير منزل ، ومن جنى الجمل بعد التكررة وصرفها عن أن تكون صفة لها : ما قدمه عند قوله تعالى (فاجعل بيننا وبينك موعداً لا تخلفه نحن ولا أنت) حيث أعرّب الوجود موعداً مصدرأً ناصباً لمكاناً سوى ، واعترضه بأن المصدر الموصوف لا يعمل إلا على كره ، واعتذرت عنه بصرف الجملة عن أن تكون صفة وجعلها معترضة مؤكدة لمعنى الكلام ، والله أعلم .

والجزاء، كقولك : من أحسن إلى زيد لا أحق بالإحسان منه ، قاله مثيبه . وقرئ : أنه لا يفلح بفتح الهمزة . ومعناه : حسابه عدم الفلاح ، والاصل : حسابه أنه لا يفلح هو ، فوضع الكافرون موضع الضمير ؛ لأن (من يدع) في معنى الجمع ، وكذلك (حسابه ... أنه لا يفلح) في معنى : حسابهم أنهم لا يفلحون .

جعل فاتحة السورة (قد أفلح المؤمنون) وأورد في خاتمتها (إنه لا يفلح الكافرون) فستان ما بين الفاتحة والخاتمة .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن قرأ سورة المؤمنون بشرته الملائكة بالروح والريحان وما تقر به عينه عند نزول ملك الموت ^(١) .

وروى : أن أول سورة قد أفلح وآخرها من كنوز العرش ، من عمل بثلاث آيات من أولها ، واتعظ بأربع آيات من آخرها : فقد نجا وأفلح ^(٢)

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي يسمع عنده دوى كدوى النحل ، فكشنا ساعة ، فاستقبل القبلة ورفع يده وقال : اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تهرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا وأرضنا ، ثم قال ولقد أنزلت على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ، ثم قرأ : (قد أفلح المؤمنون) حتى ختم العشر ^(٣) .

(١) تقدمت أسانيد .

(٢) لم أجده .

(٣) أخرجه الترمذى والنسائى ، وعبد الرزاق ، والحاكم وأحمد وإسحاق وابن أبى شيبة ، وعبد . كلهم من رواية يونس بن سليم الصنعائى عن يونس بن الزهرى عن عروة عن عبد الرحمن بن عبد عن حمز . قال النسائى : هذا حديث منكر . تفرد به يونس بن سليم ولا أعرفه . وقال ابن أبى حاتم عن أبيه لا أعرفه ولا أعرف هذا الحديث عن الزهرى وقال الترمذى (●) : وقال العقيل لا يتابع عليه يونس بن سليم ولا يعرف إلا به ، وبنحوه قال ابن عدى . وسئل عبد الرزاق عن شيخه يونس بن سليم هذا فقال : أظنه لاشئ .

(●) كذا يياض بالأصل

سورة النور

مدينة ، وهي اثنتان وستون آية . وقيل : أربع وستون [نزلت بعد الحشر]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾
 (سورة) خبر مبتدأ محذوف . و (أنزلناها) صفة . أو هي مبتدأ موصوف والخبر محذوف ،
 أى : فيما أوحينا إليك سورة أنزلناها . وقرئ بالنصب على : زيدا ضربته ، ولا محل لأنزلناها ،
 لأنها مفسرة للبصر فكانت في حكمه . أو على : دونك سورة أو اتل سورة . وأنزلناها :
 صفة . ومعنى (فرضناها) فرضنا أحكامها التي فيها . وأصل الفرض : القطع ، أى : جعلناها
 واجبة مقطوعا بها ، والتشديد للبالغة في الإيجاب وتوكيده . أو لأن فيها فرائض شتى ، وأنتك
 تقول : فرضت الفريضة ، وفرضت الفرائض . أو لكثرة المفروض عليهم من السلف ومن
 بعدهم (تذكرون) بتشديد الذال وتخفيفها ، رفعهما على الابتداء ، والخبر محذوف عند الخليل
 وسيبويه ، على معنى : فيما فرض عليكم .

الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَا عَذَابُهُمَا طَافَةً
 مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

(الزانية والزاني) أى جلدهما . ويجوز أن يكون الخبر : (فاجلدوا) ، وإنما دخلت الفاء
 لكون الألف واللام بمعنى الذى وتضمينه معنى الشرط ^(١) ، تقديره : التى زنت ، والذى زنى

(١) قال محمود : « فى الرفع وجهين ، أحدهما : الابتداء والخبر محذوف ، وهو إعراب الخليل وسيبويه .
 والتقدير : وفيما فرض عليكم الزانية والزاني ، أى : جلدهما . الثانى : أن يكون الخبر فاجلدوا ، ودخلت الفاء لكون
 الألف واللام بمعنى الذى وقد ضمن معنى الشرط » قال أحمد : وإنما عدل سيبويه إلى هذا الذى نقله عنه لوجهين :
 لفظى ومعنوى . أما اللفظى فلأن الكلام أمر وهو يخيل اختيار النصب ، ومع ذلك قراءة العامة ، فلو جعل فعل
 الأمر خبرا وبني المبتدأ عليه لكان خلاف المختار عند الفصحاء ، فالتجأ إلى تقدير الخبر حتى لا يكون المبتدأ مبنيًا
 على الأمر ، فخلص من مخالفة الاختيار ، وقد مثلهما سيبويه فى كتابه بقوله تعالى (مثل الجنة التى وعد المتقون =

فاجلدوهما ، كما تقول : من زنى فاجلدوه ، وكقوله (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم) وقرئ بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر ، وهو أحسن من سورة أنزلناها لأجل الأمر . وقرئ : والزاني ، بلا ياء . والجلد : ضرب الجلد ، يقال : جلده ، كقولك : ظهره وبطنه ورأسه . فإن قلت : أهذا حكم جميع الزناة والزواني ، أم حكم بعضهم ؟ قلت : بل هو حكم من ليس بمحصن منهم ، فإن المحصن حكمه الرجم . وشرائط الإحصان عند أبي حنيفة ست : الإسلام ، والحرية ، والعقل ، والبلوغ ، والتزوج بنكاح صحيح ، والدخول . إذا فقدت واحدة منها فلا إحصان . وعند الشافعي : الإسلام ليس بشرط ، لما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم رجم يهوديين زنيا ^(١) . وحجة أبي حنيفة قوله صلى الله عليه وسلم « من أشرك بالله فليس بمحصن » ^(٢) ، فإن قلت : اللفظ يقتضي تعليق الحكم بجميع الزناة والزواني ، لأن قوله (الزانية والزاني) عام في الجميع ، يتناول المحصن وغير المحصن . قلت : الزانية والزاني يدلان على الجنسين المتنافيين لجنسى العفيف والعفيفة دلالة مطلقة والجنسية قائمة في الكل والبعض جميعا ، فأيهما قصد المتكلم فلا عليه ، كما يفعل بالاسم المشترك . وقرئ : ولا يأخذكم ، بالياء . ورأفة ، بفتح الهمزة . ورأفة على فعالة . والمعنى : أن الواجب على المؤمنين أن يتصلبوا في دين الله ويستعملوا الجد والمتانة فيه ، ولا يأخذهم اللين والهوادة في استيفاء حدوده . وكفى برسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة في ذلك حيث قال « لو سرق فاطمة بنت محمد لقطعت يدها » ^(٣) ، وقوله (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) من باب التمييز وإلهاب الغضب لله ولدينه وقيل لا تترحموا عليهما حتى لا تعطلوا الحدود أو حتى لا توجعوهما ضربا . وفي الحديث « يؤتى بوال

== فيها أنهار... الآية) ووجه التمثيل أنه صدر الكلام بقوله (مثل الجنة) ولا يستقيم جزما أن يكون قوله (فيها أنهار) خبره ، فتعين تقدير خبره محذوفاً . وأصله : فيها نقص عليكم مثل الجنة ، ثم لما كان هذا إجمالا لذكر المثل فصل بقوله (فيها أنهار) إلى آخرها ، فكذلك معنا ، كأنه قال : وفيها فرض عليكم شأن الزانية والزاني ، ثم فصل هذا المحمل بما ذكر من أحكام الجلد ، ويناسب هذا ترجمة الفقهاء في كتبهم حيث يقولون مثلاً : الصلاة ، الزكاة ، السرقة . ثم يذكرون في كل باب أحكامه ، يريدون بما يصنف فيه ويوب عليه : الصلاة ، وكذلك غيرها ؛ فهذا بيان المقتضى عند سيبويه ، لاختيار حذف الخبر من حيث الصناعة اللفظية . وأما من حيث المعنى فهو أن المعنى أتم وأكمل على حذف الخبر ؛ لأن يكون قد ذكر حكم الزانية والزاني مجمل حيث قال : الزانية والزاني وأراد : وفيها فرض عليكم حكم الزانية والزاني ، فلما تشوف السامع إلى تفصيل هذا المحمل ذكر حكمهما مفصلاً ، فهو أوقع في النفس من ذكره أول وهلة ، والله أعلم .

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما

(٢) أخرجه إسماعيل والدارقطني تفرد برفعه إسماعيل . قلت : قال إسماعيل في مسنده أن شيخه حدثه به مرة أخرى موقوفاً .

(٣) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها .

نقص من الحد سوطاً ، فيقول : رحمة لعبادك ، فيقال له : أنت أرحم بهم مني ، فيؤمر به إلى النار . ويؤتى بمن زاد سوطاً فيقول ليتموا عن معاصيك فيؤمر به إلى النار ^(١) ، وعن أبي هريرة : إقامة حد بأرض خير لأهلها من مطر أربعين ليلة ^(٢) . وعلى الإمام أن ينصب للحدود رجلاً عالماً بصيراً يعقل كيف يضرب . والرجل يجلد قائماً على مجزده ^(٣) ليس عليه إلا إزاره ، ضرباً وسطاً لا مبرحاً ولا هيناً ، مفترقاً على الأعضاء كلها لا يستثنى منها إلا ثلاثة : الوجه ، والرأس ، والفرج . وفي لفظ الجلد : إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتجاوز الألم إلى اللحم . والمرأة تجلد قاعدة ، ولا ينزع من ثيابها إلا الحشو والفرو ، وهذه الآية استشهد أبو حنيفة على أن الجلد حد غير المحصن بلا تغريب . وما احتج به الشافعي على وجوب التغريب من قوله صلى الله عليه وسلم : « البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام » ^(٤) ، وما يروى عن الصحابة : أنهم جلدوا ونفوا ^(٥) : منسوخ عنده وعند أصحابه بالآية . أو محمول على وجه التعزير والتأديب من غير وجوب . وقول الشافعي في تغريب الحز واحد ، وله في العبد ثلاثة أقاويل : يغرب سنة كالحز ، ويغرب نصف سنة كما يجلد خمسين جلدة ، ولا يغرب كما قال أبو حنيفة . وهذه الآية نسخ الحبس الأذى في قوله تعالى : (فأمسكوهن في البيوت) ، وقوله تعالى (فأذوهما) . قيل : تسميته عذاباً دليل على أنه عقوبة . ويجوز أن يسمى عذاباً ، لأنه يمنع من المعاودة كما سمي نكالا .

الطائفة : الفرقة التي يمكن أن تكون حلقة ، وأقلها ثلاثة أو أربعة ؛ وهي صفة غالبية كأنها الجماعة الحافظة حول الشيء . وعن ابن عباس في تفسيرها : أربعة إلى أربعين رجلاً من المصدقين بالله . وعن الحسن : عشرة . وعن قتادة : ثلاثة فصاعداً . وعن عكرمة : رجلان فصاعداً . وعن مجاهد : الواحد فما فوقه . وفضل قول ابن عباس ، لأن الأربعة هي الجماعة التي يثبت بها هذا الحد والصحيح أن هذه الكبيرة من أمهات الكبائر ، ولهذا قرنها الله بالشرك وقتل النفس في قوله

(١) لم أجده هذا اللفظ وعند أبي يعلى من رواية عمرو بن ضرار عن حذيفة مرفوعاً « يؤتى بالذي ضرب فوق الحد فيقول له الله تعالى : عدى ، لم ضربه فوق الحد ؟ فيقول غضباً لك . فيقول : أكان غضبك أشد من غضبي . ويؤتى بالذي قصر فيقول عدى لم قصرت ؟ فيقول : رحمة . فيقول : أكانت رحمتك أشد من رحمتي . ثم يؤمر بهما جميعاً إلى النار »

(٢) أخرجه النسائي من طريق أبي زرعة عنه موقوفاً وأخرجه النسائي أيضاً وابن حبان وأحمد وابن ماجه والطبراني من هذا الوجه مرفوعاً . وقال « أربعين صباحاً » و« ثلاثين » وأربعين صباحاً . وفي الباب عن ابن عمر ، أخرجه ابن ماجه بلفظ « إقامة حد من حدود الله تعالى خير من مطر أربعين ليلة »

(٣) قوله « على مجزده » في الصحاح : فلان حسن المجرد ، أى : المعرى اه ، أى : المكشوف عن الثياب . (ع)

(٤) أخرجه مسلم وأصحاب السنن من حديث عبادة بن الصامت في أثناء حديث

(٥) أخرجه الترمذى والحاكم من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم ضرب وغرب ، وأن أبابكر ضرب وغرب ، وأن عمر ضرب وغرب .

(ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما)، وقال: (ولا تقرّبوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا) وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «يا معشر الناس اتقوا الزنى فإن فيه ست خصال: ثلاث في الدنيا، وثلاث في الآخرة. فأما اللاتي في الدنيا: فيذهب البهاء، ويورث الفقر، وينقص العمر. وأما اللاتي في الآخرة: فيوجب السخطة، وسوء الحساب، والخلود في النار»^(١) ولذلك وفي الله فيه عقد المائة بكاله، بخلاف حد القذف وشرب الخمر. وشرع فيه القتل المولود وهي الرجم، ونهى المؤمنين عن الرافة على المجلود فيه، وأمر بشهادة الطائفة للتشهير، فوجب أن تكون طائفة يحصل بها التشهير، والواحد والاثنان ليسوا بتلك المثابة، واختصاصه المؤمنين لأن ذلك أفضح، والفاسق بين صلحاء قومه أخجل. ويشهد له قول ابن عباس رضى الله عنهما: إلى أربعين رجلا من المصدقين بالله.

الرَّائِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ

مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾

الفاسق الحديث الذى من شأنه الزنى والتقرب، لا يرغب فى نكاح الصالح من النساء واللاتي على خلاف صفته، وإنما يرغب فى فاسقة خبيثة من شكله، أو فى مشركة. والفاسقة الخبيثة المسافرة، كذلك لا يرغب فى نكاحها الصالح من الرجال وينفرون عنها، وإنما يرغب فيها من هو من شكلها من الفسقة أو المشركين. ونكاح المؤمن الممدوح عند الله الزانية ورغبته فيها وانخراطه بذلك فى سلك الفسقة المتسمين بالزنى: محرم عليه محظور؛ لما فيه من التشبه بالفاسق، وحضور موقع التهمة، والتسبب لسوء القالة فيه والغيبة وأنواع المفاسد. وبجاسة الخطائين كم فيها من التعرض لاقتراف الآثام، فكيف بمزاوجة الزواني والقحاب؛ وقد نبه على ذلك بقوله (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم) وقيل: كان بالمدينة موسرات من بغايا المشركين، فرغب فقراء المهاجرين فى نكاحهن، فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فزلت. وعن عائشة رضى الله عنها أن الرجل إذا زنى بامرأة، ليس له أن يتزوجها

(١) أخرجه البيهقي فى الشعب فى السابع والثلاثين وابن مردويه وابن أبي حاتم وأبو نعيم فى الحلية فى ترجمة أبي وائل عن حذيفة، بلفظ «يا معشر الناس» وفى آخره: ثم تلا (أن يحبط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون) قال أبو نعيم: تفرد به مسلمة بن عيسى عن الحسن بن أبي عبد الرحمن الكوفى عن الأعمش وهو ضعيف، وقال البيهقي: مسلمة متروك. وعبد الرحمن مجهول، وأخرجه الثعلبى من رواية معاوية بن يحيى عن الأعمش فيحتمل أن يكون هو أبو عبد الرحمن المذكور. وفى الباب عن أنس أخرجه الخطيب وابن الجوزى من طريقه وفى إسناده كعب بن عمرو بن جعفر وهو غير ثقة. ورواه الواحدى فى الوسيط غالباً من طريق أبي الدنيا الأشج عن على مرفوعاً والأشج ادعى أنه سمع من على بعد الثلاثمائة قسّم منه أبو بكر المفيد وغيره وأخباره معروفة.

لهذه الآية ، وإذا باشرها كان زانياً . وقد أجازه ابن عباس رضى الله عنهما وشبهه بمن سرق ثم شجرة ثم اشتراه . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن ذلك ؟ فقال : أوله سفاح وآخره نكاح . والحرام لا يحرم الحلال . وقيل : المراد بالنكاح الوطء ، وليس بقول لأمرين ، أحدهما : أن هذه الكلمة أينما وردت في القرآن لم ترد إلا في معنى العقد . والثاني : فساد المعنى وأداؤه إلى قولك : الزانى لا يزنى إلا بزانية والزانية لا يزنى بها إلا زان . وقيل : كان نكاح الزانية محزوماً في أول الإسلام ثم نسخ ، والناسخ قوله : (وأنكحوا الأيامى منكم) . وقيل الإجماع ، وروى ذلك عن سعيد بن المسيب رضى الله عنه . فإن قلت : أى فرق بين معنى الجملة الأولى ومعنى الثانية ؟ قلت : معنى الأولى صفة الزانى بكونه غير راغب في العفاف ولكن في الفواجر . ومعنى الثانية : صفة الزانية بكونها غير مرغوب فيها للأعفاء ولكن للزناة ، وهما معنيان مختلفان ^(١) . فإن قلت : كيف قدمت الزانية على الزانى أولاً ، ثم قدم عليها ثانياً ؟ قلت : سيقى تلك الآية لعقوبتهما على ما جنىا ، والمرأة هى المادة التى منها نشأت الجناية ؛ لأنها لو لم تطمع الرجل ولم تومض له ولم تمسكه لم يطمع ولم يتمكن ، فلما كانت أصلاً وأولاً في ذلك بدئى بذكرها . وأما الثانية فسوقة لذكر النكاح والرجل أصل فيه ، لأنه هو الراغب والمخاطب .

(١) قال محمود : « إن قلت أى فرق بين الجملتين في المعنى ؟ قلت : معنى الأولى صفة الزانى بكونه غير راغب في العفاف ، ولكن في الفواجر ومعنى الثانية صفة الزانية بكونها غير مرغوب فيها للأعفاء ولكن للزناة وهما معنيان مختلفان » قال أحد : وليس فيما ذكره إيضاح إطباق الجملتين . ونحن نوضحه فنقول : الأقسام أربعة : الزانى لا يرغب إلا في زانية . الزانية لا ترغب إلا في زان . العفيف لا يرغب إلا في عفيفة . العفيفة لا ترغب إلا في عفيف . وهذه الأقسام الأربع مختلفة المعاني ، وحاصرة للقسمتين فنقول : اختصرت الآية من هذه الأربعة قسمين ، واقتصرت على قسمين أخرى من المسكوت عنهما ، فجاءت مختصرة جامعة ، فالقسم الأول صريح في القسم الأول ويفهم الثالث ، والقسم الثاني صريح في القسم الثاني ويفهم الرابع ، والقسم الثالث والرابع متلازمان ، من حيث أن مقتضى الانحصار رغبة العفيف في العفيفة هو اجتنابهما في العفة ، وذلك بعينه مقتضى الانحصار رغبتهما فيه ، ثم يقصر التعبير عن وصف الزناة والأعفاء بما لا يقل عن ذكر الزناة وجرداً وسلباً ، فإن معنى الأول الزانية لا ينكحها عفيف ، ومعنى الثاني : العفيفة لا ينكحها زان . والسرفى ذلك أن الكلام في أحكامهم ، فذكر الأعفاء بسلب نقائصهم . حتى لا يخرج بالكلام هما هو المفصود منه ، ثم بيّنه في إسناده النكاح في هذين القسمين المذكور دون الاناث ، بخلاف قوله (الزانية والزانى) فإنه جعل لكل واحد منهما ثم استقلالا ، وقدم الزانية على الزانى . والسبب فيه أن الكلام الأول في حكم الزناة ، والأصل فيه المرأة لما يبدو منها من الإباح والاطماع ، والكلام الثاني في نكاح الزناة إذا وقع ذلك على الصحة ، والأصل في النكاح الذكور وهم المبتدئون بالخطبة ، فلم يسند إلا لهم لهذا . وإن كان الغرض من الآية تنفير الأعفاء من الذكور والاناث من منالهن الزناة ذكورا وإناثا ، زجرأ لهم عن الفاحشة . ولذلك قرن الزناة والشرك . ومن ثم كره مالك رحمه الله منالهن المنهوجين بالفاحشة ، وقد نقل بعض أصحابه الإجماع في المذهب على أن للمرأة أولاد من الذكور والاناث من منالهن الزناة ذكورا وإناثا ، زجرأ لهم عن الفاحشة . ولذلك قرن الزناة والشرك . ومن ثم كره مالك رحمه الله منالهن المنهوجين بالفاحشة ، وقد نقل بعض أصحابه الإجماع في المذهب على أن للمرأة أولاد من أولياتها فسبح نكاح الفاسق . ومالك أبعد الناس من اعتبار الكفامة إلا في الدين . وأما في النسب ، فقد بلغه أنهم فرقوا بين عرية ومولى فاستعظمه وتلا (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

ومنه يبدأ الطلب . وعن عمرو بن عبيد رضى الله عنه : لا ينكح ، بالجزم على النهى . والمرفوع فيه أيضاً معنى النهى ، ولكن أبلغ وأكد ، كما أن رحمك الله ، ويرحمك ، أبلغ من ويرحمك ، ويجوز أن يكون خبراً محضاً على معنى : أن عاداتهم جارية على ذلك ، وعلى المؤمن أن لا يدخل نفسه تحت هذه العادة ويتصون عنها . وقرئ : وحرّم ، بفتح الحاء .^(١)

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾

القذف يكون بالزنى وبغيره ، والذي دل على أن المراد قذفهن بالزنى شيان ، أحدهما : ذكر المحصنات عقيب الزواني . والثاني : اشتراط أربعة شهداء ؛ لأن القذف بغير الزنى يكفي فيه شاهدان ، والقذف بالزنى أن يقول الحز العاقل البالغ لمحصنة : يا زانية ، أو لمحصن : يا زاني ، يا ابن الزاني ، يا ابن الزانية ، يا ولد الزنا ، لست لأبيك ، لست لرشدة . والقذف بغير الزنا أن يقول : يا آكل الربا ، يا شارب الخمر ، يا يهودى ، يا مجوسى ، يا فاسق ، يا خبيث ، يا ماص بظر أمه : فعليه التعزير ، ولا يبلغ به أدنى حد العيب وهو أربعون ، بل ينقص منه . وقال أبو يوسف : يجوز أن يبلغ به تسعة وسبعون . وقال : للإمام أن يعزر إلى المائة . وشروط إحصان القذف خمسة : الحرية ، والبلوغ ، والعقل ، والإسلام ، والعفة . وقرئ : بأربعة شهداء ، بالتثنية . وشهداء : صفة . فإن قلت : كيف يشهدون مجتمعين أو متفرقين ؟ قلت : الواجب عند أبي حنيفة وأصحابه رضى الله عنهم أن يحضروا فى مجلس واحد ، وإن جاءوا متفرقين كانوا قذفة . وعند الشافعى رضى الله عنه : يجوز أن يحضروا متفرقين . فإن قلت : هل يجوز أن يكون زوج المقدوفة واحداً منهم ؟ قلت : يجوز عند أبي حنيفة خلافاً للشافعى . فإن قلت : كيف يجلد القاذف ؟ قلت : كما جلد الزانى . إلا أنه لا ينزع عنه من ثيابه إلا ما ينزع عن المرأة من الحشو والفرو . والقاذفة أيضاً كالزانية ، وأشدّ الضرب ضرب التعزير ، ثم ضرب الزنا ، ثم ضرب شرب الخمر ، ثم ضرب القاذف . قالوا : لأن سبب عقوبته محتمل للصدق والكذب ، إلا أنه عوقب صيانة للأعراض وردعاً عن هتكها . فإن قلت : فإذا لم يكن المقدوف محصناً ؟ قلت : يعزر القاذف ولا يحّد ، إلا أن يكون المقدوف معروفاً بما قذف به فلا حد ولا تعزير . ردّ شهادة القاذف معلق عند أبي حنيفة رضى الله عنه باستيفاء الحد ، فإذا شهد قبل الحد أو قبل

(١) قوله : بفتح الحاء ، لعله : بفتح الحاء والراء . (ع)

تمام استيفائه قبلت شهادته ، فإذا استوفى لم تقبل شهادته أبداً وإن تاب وكان من الأبرار الاتقياء .
وعند الشافعي رضي الله عنه : يتعلق ردّ شهادته بنفس القذف ، فإذا تاب عن القذف بأن رجع عنه ، عاد مقبول الشهادة . وكلاهما متمسك بالآية ، فأبو حنيفة رضي الله عنه جعل جزاء الشرط الذي هو الرمي : الجلد ، وردّ الشهادة عقيب الجلد على التأيد ، فكانوا مردودي الشهادة عنده في أبدم وهو مدة حياتهم ، وجعل قوله ﴿ وأولئك هم الفاسقون ﴾ كلاماً مستأنفاً غير داخل في حيز جزاء الشرط ، كأنه حكاية حال الرامين عند الله بعد انتقضاء الجملة الشرطية .
و ﴿ إلا الذين تابوا ﴾ استثناء من الفاسقين . ويدل عليه قوله ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ والشافعي رضي الله عنه جعل جزاء الشرط الجلتين أيضاً . غير أنه صرف الابد إلى مدة كونه قاذفاً ، وهي تنتهي بالتوبة والرجوع عن القذف وجعل الاستثناء متعلقاً بالجملة الثانية . وحق المستثنى عنده أن يكون مجروراً بدلاً من « هم » في (لهم) وحقه عند أبي حنيفة رضي الله عنه أن يكون منصوباً لأنه عن موجب ، والذي يقتضيه ظاهر الآية ونظمها أن تكون الجمل الثلاث بمجموعهن جزاء الشرط ، كأنه قيل : ومن قذف المحصنات فاجلدوهم وردّوا شهادتهم وفسقوهم أي : فاجمعوا لهم الجلد والردّ والتفسيق ، إلا الذين تابوا عن القذف وأصلحوا فإن الله يغفر لهم فيقبلون غير مجلودين ولا مردودين ولا مفسقين . فإن قلت : الكافر يقذف فيتوب عن الكفر فتقبل شهادته بالإجماع ، والقاذف من المسلمين يتوب عن القذف فلا تقبل شهادته عند أبي حنيفة رضي الله عنه . كأن القذف مع الكفر أهون من القذف مع الإسلام ؟ قلت : المسلمون لا يعبثون بسب الكفار : لأنهم شہروا بعداوتهم والظعن فيهم بالباطل . فلا يلحق المقدوف بقذف الكافر من الشين والشنار ما يلحقه بقذف مسلم مثله ، فشدد على القاذف من المسلمين ردعا وكفا عن إلحاق الشنار ^(١) . فإن قلت : هل للمقدوف أو للإمام أن يعفو عن حدّ القاذف ؟ قلت : لهما ذلك قبل أن يشهد الشهود ويثبت الحدّ ، والمقدوف مندوب إلى أن لا يرفع القاذف ولا يطالبه بالحدّ . ويحسن من الإمام أن يحمل المقدوف على كظم الغيظ ويقول له : أعرض عن هذا ودعه لوجه الله قبل ثبات الحدّ : فإذا ثبت لم يكن لواحد منهما أن يعفو لأنه خالص حق الله ، ولهذا لم يصح أن يصالح عنه بمال . فإن قلت : هل يورث الحدّ ؟ قلت : عند أبي حنيفة رضي الله عنه لا يورث ، لقوله صلى الله عليه وسلم « الحدّ لا يورث » وعند الشافعي رضي الله عنه يورث ، وإذا تاب القاذف قبل أن يثبت الحدّ سقط . وقيل : نزلت هذه الآية في حسان بن ثابت رضي الله عنه حين تاب مما قال في عائشة رضي الله عنها .

(١) قوله « الشنار » في الصحاح « الضنار » العيب والعار . (ع)

وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاحَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ
أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَمِيسَةَ أَنْ لَعَنَتِ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ
كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ
إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَمِيسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ
مِنَ الصَّادِقِينَ (٩)

قاذف امرأته إذا كان مسلماً حراً بالغاً عاقلاً ، غير محدود في القذف ، والمرأة بهذه الصفة
مع العفة : صح اللعان بينهما ، إذا قذفها بصريح الزنى . وهو أن يقول لها : يا زانية ، أو زانية ،
أو رأيتك تزني . وإذا كان الزوج عبداً ، أو محدوداً في قذف ، والمرأة محصنة : حد كما في
قذف الأجنبية ، وما لم ترافعه إلى الإمام لم يجب اللعان . واللعان : أن يبدأ الرجل فيشهد
أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين فيما رماها به من الزنى ، ويقول في الخامسة : أن لعنة الله
عليه إن كان من الكاذبين فيما رماها به من الزنى . وتقول المرأة أربع مرات : أشهد بالله إنه
لمن الكاذبين فيما رمانى به من الزنى ، ثم تقول في الخامسة : أن غضب الله عليها إن كان من
الصادقين فيما رمانى به من الزنى . وعند الشافعي رضى الله عنه : يقام الرجل قائماً حتى يشهد
والمرأة قاعداً ، وتقام المرأة والرجل قاعد حتى تشهد ، ويأمر الإمام من يضع يده على فيه
ويقول له : إني أخاف إن لم تكن صادقاً أن تبوء بلعنة الله ، وقال : اللعان بمكة بين المقام
والبيت ، وبالمدينة على المنبر ، وبيت المقدس في مسجده ، ولعان المشرک في الكنيسة وحيث
يعظم ، وإذا لم يكن له دين ففي مساجدنا إلا في المسجد الحرام ، لقوله تعالى (إنما المشركون
نجس فلا يقربوا المسجد الحرام) ثم يفرق القاضي بينهما ، ولا تقع الفرقة بينهما إلا بتفريقه
عند أبي حنيفة وأصحابه رضى الله عنهم ، إلا عند زفر : فإن الفرقة تقع باللعان . وعن عثمان
البيتي : لا فرقة أصلاً . وعند الشافعي رضى الله عنه تقع بلدان الزوج ، وتكون هذه الفرقة في
حكم التطليقة الباتة عند أبي حنيفة ومحمد رضى الله عنهما ولا يتأبد حكمها ، فإذا أ كذب الرجل
نفسه بعد ذلك لحد جاز أن يتزوجها . وعند أبي يوسف وزفر والحسن بن زياد والشافعي
رضى الله عنهم : هي فرقة بغير طلاق توجب تحريمًا مؤبداً ، ليس لهما أن يجتمعا بعد ذلك بوجه .
وروى أن آية القذف لما نزلت (١) قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر ، فقام

(١) وفي الحازن : سبب نزول هذه الآية ما روى عن سهل بن سعد الساعدي أن عويمر العجلاني جاء إلى عاصم =

عاصم بن عدى الأنصارى رضى الله عنه فقال : جعلنى الله فداك ، إن وجد رجل مع امرأته رجلاً فأخبر جلد ثمانين وردت شهادته أبداً وفسق ، وإن ضربه بالسيف قتل ، وإن سكنت سكنت على غيظ ، وإلى أن يحىء بأربعة شهداء فقد قضى الرجل حاجته ومضى : اللهم افتح . وخرج فاستقبله هلال بن أمية أو عويمر فقال : ما وراءك ؟ قال شر : وجدت على بطن امرأتى خولة - وهى بنت عاصم - شريك بن سحماه ، فقال : هذا والله سؤالى ، ما أسرع ما ابتليت به ! فرجعنا ، فأخبر عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلّم خولة فقالت : لأدرى ، الغيرة أدركته ؟ أم بخلا على الطعام - وكان شريك نزيلهم - وقال هلال : لقد رأيته على بطنها . فنزلت ، ولا عن بينهما . وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند قوله وقولها : أنت لعنة الله عليه ، إن غضب الله عليها : آمين ، وقال القوم : آمين ، وقال لها : إن كنت ألممت بذنب فاعترفى به ، فالرجم أهون عليك من غضب الله ، إن غضبه هو النار . وقال : تحينوا بها الولادة فإن جاءت به أصيب أثيبج^(١) يضرب إلى السواد فهو لشريك ، وإن جاءت به أورك جعداً جمالياً خدلج الساقين فهو لغير الذى رمت به ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : لجأت بأشبه خلق الله لشريك . فقال صلى الله عليه وسلم : «لولا الإيمان لكان لى ولها شأن» . وقرئ : ولم تكن ، بالتاء : لأنّ الشهداء جماعة . أو لأنهم فى معنى الأنفس التى هى بدل . ووجه من قرأ أربع أن ينصب ؛ لأنه فى حكم المصدر والعامل فيه المصدر الذى هو (فشهادة أحدهم) وهى مبتدأ محذوف الخبر ، تقديره : فواجب شهادة أحدهم أربع شهادات بالله . وقرئ أن لعنة الله ، وأن غضب الله : على تخفيف أن ورفع ما بعدها . وقرئ : أن غضب الله ، على فعل الغضب . وقرئ : ينصب الخماسين^(٢) ، على معنى : وتشهد الخامسة . فإن قلت : لم خصت الملاعنة بأن تخمس بغضب الله ؟ قلت : تغليظاً عليها ؛ لأنها هى أصل الفجور ومنبعه بخلايتها^(٣) وإطاعها ،

== ابن عدى فقال لعاصم أرايت لو أن رجلاً وجد مع امرأته رجلاً أ يقتله فقتلونه أم كيف يفعل سل لى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه أيضاً عن ابن عباس أن هلال بن أمية كذب امرأته عبد الله صلى الله عليه وسلم بشريك ابن عجماء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : البينة أو حدّ فى ظهرك ، فقال يارسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة ، فجعل الذى صلى الله عليه وسلم يقول : البينة أو حدّ فى ظهرك فنزل جبريل بقوله تعالى (والذين يرمون أزواجهم) - الآية .

(١) قوله «فإن جاءت به أصيب أثيبج» فى الصحاح «الصبة» الفقرة فى شعر الرأس والرجل أصيب . وفيه : ثبج كل شئ . وسطه . والأثيبج : المريض الثبج ويقال الناقى . الثبج أم وما فى الحديث تصغيرهما . وفيه أيضاً «الخدلجة» بتشديد اللام المرأة الممتلئة الذراعيين والساقين . (ع)

(٢) قوله «و قرئ ينصب الخماسين» فى النسفى : أنه لاخلاف فى رفع الخامسة الأولى على المشهور . (ع)

(٣) قوله «بخلايتها» فى الصحاح «الخلاية» الخديمة باللسان . (ع)

ولذلك كانت مقدمة في آية الجلد . ويشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم لحولة : فالرجم أهون عليك من غضب الله .

وَأَوَّلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

الفضل : التفضل ، وجواب : لولا ، متروك ، وتركه دال على أمر عظيم لا يكتفه ، ورب مسكوت عنه أبلغ من منطوق به .

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ

عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾

الإفك : أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء . وقيل : هو البهتان لا تشعر به حتى يفجأك . وأصله : الأفك ، وهو القلب ؛ لأنه قول مأفوك عن وجهه . والمراد : مأفك به على عائشة رضي الله عنها . والعصبة : الجماعة من العشرة إلى الأربعين ، وكذلك العصاة . واعصوبوا : اجتمعوا ، وهم عبد الله بن أبي رأس النفاق ، وزيد بن رفاعه ، وحسان بن ثابت ، ومسطح بن أثانة ، وحننة بنت جحش ، ومن ساعدهم . وقرئ : كبره بالضم والكسر ، وهو عظمه ^(١) . والذي تولاه عبد الله ، لإمعانه في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانتأزه الفرص ، وطلبه سيلا إلى الغمزة .

أى يصيب كل خائض في حديث الإفك من تلك العصبة نصيبه من الإثم على مقدار خوضه . والعذاب العظيم لعبد الله ، لأن معظم الشر كان منه . يحكى أن صفوان رضي الله عنه مز بهودجها عليه وهو في ملا من قومه فقال : من هذه ؟ فقالوا : عائشة رضي الله عنها ، فقال : والله ما نجت منه ولا نجا منها ، وقال : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها . والخطاب في قوله ﴿ هو خير لكم ﴾ لمن ساءه ذلك من المؤمنين ، وخاصة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأبي بكر ، وعائشة ، وصفوان بن المعطل رضي الله عنهم . ومعنى كونه خيراً لهم : أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم ؛ لأنه كان بلاء مبینا ومحنة ظاهرة ، وأنه نزلت فيه ثمانى عشرة آية كل واحدة منها مستقلة بما هو تعظيم لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتسليته له ، وتنزيه لآل المؤمنين رضوان الله عليها ، وتطهير لأهل البيت ، وتهويل لمن تكلم في ذلك أو

(١) قوله « وهو عظمه » في الصحاح : عظم الشيء : أكثره ومعظمه . (ع)

سمع به فلم تمجه أذناه ، وعدة ألقاف للسامعين والتالين إلى يوم القيامة ، وفوائد دينية ، وأحكام وأداب لاتخفى على متأملها .

لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾

(بأنفسهم) أى بالذين منهم من المؤمنين والمؤمنات ، كقوله (ولا تلذزوا أنفسكم)^(١) وذلك نحو ما يروى أن أبا أيوب الأنصارى قال لأم أيوب : ألا ترين ما يقال ؟ فقالت : لو كنت بدل صفوان أكننت تظن بحمة رسول الله صلى الله عليه وسلم سوءا ؟ قال : لا . قالت : ولو كنت أنا بدل عائشة رضى الله عنها ما خنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعائشة خير منى ، وصفوان خير منك^(٢) . فإن قلت : هلا قيل : لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيرا وقلتم ؟ ولم عدل عن الخطاب إلى الغيبة ، وعن الضمير إلى الظاهر ؟ قلت : ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفات ، وليصرح بلفظ الإيمان ، دلالة على أن الاشتراك فيه مقتضى أن لا يصدق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على أختها قول غائب ولا طاعن . وفيه تنبيه على أن حق المؤمن إذا سمع قالة في أخيه ، أن يبنى الأمر فيها على الظن لاعلى الشك . وأن يقول بملء فيه بناء على ظنه بالمؤمن الخير : (هذا إفك مبين) هكذا بلفظ المصرح ببراءة ساحته . كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال . وهذا من الأدب الحسن الذى قل القائم به والحافظ له ، وليتك تجد من يسمع فيسكت ولا يشيع ماسمعه بأخوات .

لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ ﴿١٣﴾

(١) قال محمود : ومعناه ظنوا بالذين منهم من المؤمنين والمؤمنات ، كقوله تعالى : ولا تلذزوا أنفسكم ، قال أحمد : والسر في هذا التعبير : تعطيف المؤمن على أخيه وتوبيخه على أن يذكره بسوء ، وتصوير ذلك بصورة من أخذ يقذف نفسه ويرمى بها بما ليس فيها من الفاحشة ، ولا شيء أشنع من ذلك ، والله أعلم .
(٢) عاد كلامه . قال : ونقل أن أبا أيوب الأنصارى قال لأم أيوب : ألا ترين مقالة الناس ؟ قالت له : لو كنت بدل صفوان أكننت تخون في حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم سوءا ؟ قال : لا . قالت : ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنته ، وصفوان خير منك وعائشة خير منى ، قال أحمد : ولقد ألهمت بنور الإيمان إلى هذا السر الذى انطوى عليه التعبير عن الغير من المؤمنين بالنفس ، فانها تركت زوجها منزلة صفوان ، ونفسها منزلة عائشة ، ثم أثبتت لنفسها ولزوجها البراءة والأمانة ، حتى أثبتتها لصفوان وعائشة بطريق الأولى رضى الله عنها . وبجملته والله أعلم خلاف ما قاله الزحخشى : وهو أن يكون التعبير بالأنفس حقيقة ، والمقصود الإوامسى الظن بنفسه ، لأنه لم يفتد بوازع الإيمان في حق غيره ، وألقاه واعتبره في حق نفسه ، وادعى لها البراءة قبل معرفته بحكم الهوى لا بحكم الهدى ، والله أعلم .

جعل الله التفصلة بين الرمي الصادق والكاذب : ثبوت شهادة الشهود الأربعة وانتفاءها ، والذين رموا عائشة رضى الله عنها لم تكن لهم بيعة على قولهم ، فقامت عليهم الحجة وكانوا ﴿ عند الله ﴾ أى فى حكمه وشريعته كاذبين . وهذا توبيخ وتعنيف للذين سمعوا الإفك فلم يجدوا فى دفعه وإنكاره ، واحتجاج عليهم بما هو ظاهر مكشوف فى الشرع : من وجوب تكذيب القاذف بغير بيعة ، والتشكيل به إذا قذف امرأة محصنة من عرض نساء المسلمين ، فكيف بأثم المؤمنين الصديقة بنت الصديق حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحبيبة حبيب الله ؟

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَقُولُونَ يَا أَفْوََاهُكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

لولا الأولى للتحضيض ، وهذه لامتناع الشيء لوجود غيره . ولولا أنى قضيت أن أفضلكم عليكم فى الدنيا بضروب النعم التى من جملتها الإمهال للتوبة ، وأن أترحم عليكم فى الآخرة بالعفو والمغفرة ، لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم فيه من حديث الإفك . يقال : أفاض فى الحديث ، واندفع ، وهضب ، وخاض ﴿ إذ ﴾ ظرف لمسكم ، أو لأفضتم ﴿ تلقونه ﴾ يأخذه بعضهم من بعض . يقال : تلقى القول وتلقنه وتلقفه . ومنه قوله تعالى (فتلقى آدم من ربه كلمات) وقرئ على الأصل : تلقونه . وإذ تلقونه ، بإدغام الذال فى التاء ^(١) . وتلقونه ، من لقيه بمعنى لقفه . وتلقونه ، من إلقائه بعضهم على بعض . وتلقونه وتآلقونه ، من الالق والتآلق : وهو الكذب . وتلقونه بحكمة عن عائشة رضى الله عنها ، وعن سفيان : سمعت أمى تقرأ : إذ تثقفونه ^(٢) ، وكان أبوها يقرأ بحرف عبد الله بن مسعود رضى الله عنه . فإن قلت : ما معنى قوله ﴿ بأفواهكم ﴾ والقول لا يكون إلا بالفم ؟ قلت : معناه أن الشيء المعلوم يكون عليه فى القلب ، فيترجم عنه اللسان ^(٣) . وهذا الإفك ليس إلا قولاً يجرى على ألسنتكم ويدور فى أفواهكم من غير ترجمة عن علم به فى القلب ، كقوله تعالى (يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم) ،

(١) قوله « وإذ تلقونه » لعل رسمه هكذا « وتلقونه » . إلا أن يعتبر ما قبل الإدغام . (ع)

(٢) قوله « سمعت أمى تقرأ إذ تثقفونه » وفى نسخة تثقفونه ، بمعنى تتبعونه ، وكلا النسختين قراءة . (ع)

(٣) قال محمود : « إن قلت القول لا يكون إلا بالأفواه ، فافائدة ذكرها ؟ قلت : المراد أن هذا القول لم يكن عبارة عن علم قام بالقلب ، وإنما هو مجرد قول اللسان » قال أحد : ويحتمل أن يكون المراد المبالغة ، أو تعريضا بأنه ربما يتمدق ويقضى يتمدق جازم عالم ، وهذا أشد وأقطع ، وهو السر الذى أنبأ عنه قوله تعالى (قد بدت البغضاء من أفواههم) والله أعلم .

أى : تحسبونه صغيرة وهو عند الله كبيرة موجبة ^(١) . وعن بعضهم أنه جزع عند الموت ، فقليل له ، فقال : أخاف ذنباً لم يكن منى على بال وهو عند الله عظيم . وفى كلام بعضهم : لا تقولن لشيء من سيئاتك حقير ، فلعله عند الله نخلة وهو عندك فقير . وصفهم بارتكاب ثلاثة آثام وعلق مس العذاب العظيم بها . أحدها : تلقى الإفك بالستهم ، وذلك أن الرجل كان يلقي الرجل فيقول له : ما وراءك ؟ فيحدثه بحديث الإفك حتى شاع وانتشر : فلم يبق بيت ولا ناد إلا طار فيه . والثانى : التكلم بما لا علم لهم به . والثالث : استصغارهم لذلك وهو عظيمة من العظائم .

وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا

بِهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾

فإن قلت : كيف جاز الفصل بين لولا وقلم ؟ قلت : للظروف شأن وهو تنزيلها من الأشياء منزلة أنفسها لوقوعها فيها وأنها لا تنفك عنها ، فلذلك يتسع فيها ما لا يتسع في غيرها . فإن قلت : فأى فائدة في تقديم الظرف حتى أوقع فاصلاً ؟ قلت : الفائدة فيه بيان أنه كان الواجب عليهم أن يتفادوا أول ما سمعوا بالإفك عن التكلم به ، فلما كان ذكر الوقت أهم وجب التقديم . فإن قلت : فما معنى يكون ، والكلام بدونه مثلث ^(٢) لو قيل ما لنا أن نتكلم بهذا ؟ قلت : معناه معنى : ينبغي ، ويصح أى : ما ينبغي لنا أن نتكلم بهذا . وما يصح لنا . ونحوه : ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق . و﴿سبحانك﴾ للتعجب من عظم الأمر ^(٣) . فإن قلت : ما معنى التعجب فى كلمة التيسيح ؟ قلت : الأصل فى ذلك أن يسبح الله عند رؤية العجيب من صناعته ، ثم كثر حتى استعمل فى كل متعجب منه أو لتزيه الله تعالى من أن تكون حرمة نبيه عليه السلام فاجرة . فإن قلت : كيف جاز أن تكون امرأة النبي كافرة كامرأة نوح ولوط ، ولم يحز أن تكون فاجرة ؟ قلت : لأن الأنبياء مبعوثون إلى الكفار ليدعوهم ويستعطفوهم ،

(١) قوله «وهو عند الله كبيرة موجبة» لعله موجبة للعقاب . (ع)

(٢) قوله «والكلام بدونه مثلث» لعله : محرف ، وأصله مستب . وفى الصحاح : استنب الأمر : نهياً واستقام . (ع)

(٣) قال محمود : «معناه التعجب من عظم الأمر ، وأصله أن الانسان إذا رأى عجيباً من صنائع الله تعالى سبحه ، ثم كثر حتى استعمل عند كل متعجب منه ، ثم أوردوها هنا سؤالاً على توبيخهم على ترك التعجب فقال : إن قلت : لم جاز أن تكون زوجة النبي كافرة كامرأة نوح ولوط ولم يحز أن تكون فاجرة ، ولم يكن كفرها متعجباً منه ولجورها متعجب منه ؟ قلت : لأن الأنبياء مبعوثون إلى الكفار ليدعوهم ويترلفوا إليهم ، وكفر الزوجة غير مانع ولا منفر بخلاف الكسحنة» قال أحد : وما أورد عليه أبرد من هذا السؤال ، كأن أحداً بشكل عليه أن ينسب الفاحشة إلى مثل عائشة ، مما ينكره كل عاقل ويتعجب منه كل لبيب ، والله الموفق ،

فيجب أن لا يكون معهم ما ينفرهم عنهم ، ولم يكن الكفر عندهم بما ينفر . وأما الكسختة (١) فمن أعظم المنفرات .

يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨)

أى كراهة (أن تعودوا) أو فى أن تعودوا ، من قولك : وعظت فلانا فى كذا فتركه . وأبدىهم ما داموا أحياء مكلفين . و (إن كنتم مؤمنين) فيه تهيج لهم ليتعظوا ، وتذكير بما يوجب ترك العود ، وهو اتصافهم بالإيمان الصادق عن كل مقبح ، ويبين الله لكم الدلالات على علمه وحكمته بما ينزل عليكم من الشرائع . ويعلمكم من الآداب الجميلة ، ويعظكم به من المواعظ الشافية ، والله عالم بكل شئ . فاعل لما يفعله بدواعى الحكمة .

إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩)

المعنى : يشيعون الفاحشة عن قصد إلى الإشاعة ، وإرادة ومحبة لها ، وعذاب الدنيا الحد ، ولقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبى وحسانا ومسطحا ، وقعد صفوان لحسان فضربه ضربة بالسيف ، وكفّ بصره . وقيل : هو المراد بقوله (والذى تولى كبره منهم) (والله يعلم) مافى القلوب من الأسرار والضمائر (وأنتم لا تعلمون) يعنى أنه قد علم محبة من أحب الإشاعة ، وهو معاقبه عليها .

وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (٢٠)

وكثر المنة بترك المعالجة بالعقاب ، حاذفا جواب لولا كما حذفه ثمة . وفى هذا التكرير مع حذف الجواب مبالغة عظيمة ، وكذلك فى التواب والرهوف والرحيم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١)

الفحشاء والفاحشة : ما أفرط قبحه . قال أبو ذؤيب :

• ضَرَّائِرُ حَرَمِيٍّ تَفَاحَشَ غَارَهَا • (١)

أى : أفرطت غيرتها . والمنكر : ما تنكره النفوس فتتفر عنه ولا ترتضيه . وقرئ : خطوات ، بفتح الطاء وسكونها . وزكى بالتشديد ، والضمير لله تعالى ، ولولا أن الله تفضل عليكم بالتوبة المحصنة ، لما طهر منكم أحد آخر الدهر من دنس إثم الإفاك ، ولكن الله يطهر التائبين بقبول توبتهم إذا محضوها ، وهو (سميع) لقولهم (علم) بضائرتهم وإخلاصهم .

وَلَا يَأْتِلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢)

وهو من أتلى إذا حلف : افتعال من الآلية . وقيل : من قولهم : ما ألوت جهداً ، إذا لم تدخر منه شيئاً . ويشهد للأول قراءة الحسن : ولا يتأل . والمعنى : لا يحلفوا على أن لا يحسنوا إلى المستحقين للإحسان . أو لا يقصروا في أن يحسنوا إليهم وإن كانت بينهم وبينهم شحنة لجناية اقترفوها ، فليعودوا عليهم بالعفو والصفح ، وليفعلوا بهم مثل ما يرجون أن يفعل بهم ربهم ، مع كثرة خطاياهم وذنوبهم ، نزلت في شأن مسطح وكان ابن خالة أبى بكر الصديق رضى الله عنهما ، وكان فقيراً من فقراء المهاجرين ، وكان أبو بكر ينفق عليه ، فلما فرط منه ما فرط : آلى أن لا ينفق عليه ، وكفى به داعياً إلى المجاملة وترك الاشتغال بالمكافأة للسيء . ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأها على أبى بكر ، فقال : بلى أحب أن يغفر الله لى ، ورجع إلى مسطح نفقته وقال : والله لا أنزعها أبداً . وقرأ أبو حيوه وابن قطيب : أن تؤتوا ، بالتاء على الالتفات . ويعضده قوله (ألا تحبون أن يغفر الله لكم) .

إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣)

(الغافلات) السليمان الصدور ، النقيات القلوب ، اللاتي ليس فيهن دهاء ولا مكر ،

(١) لمن نسيج بالنسيل كأنها ضرائر حرمى تفاحش غارها
الضمير للقدور . والنسج : الصوت ، كالنسيج . يقال : نهجت القدر ونهجت الباكي ، وطعنة ناشجة : تبك دما . والبالا : اللباسة . والنسيل : اللحم المطبوخ : ينشل من القدر . والضرائر : نسوة الرجل ، لأن كلا منهن تريد ضر الأخرى والحرمى : نسبة إلى الحرم ، كالجسم لغة في حرم مكة . والتفاحش : الإفراط فى القبح . والغار : الغيرة ، أو الوجيب والصباح ، وهو أنسب بالتشبيه .

لأنهن لم يجرن الأمور ولم يرزن الأحوال ، فلا يظن لما تظن له المجربات العرافات . قال :

وَلَقَدْ لَهَوْتُ بِغَفْلَةٍ مِّمَّالَةٍ بَلَهَاءَ تُظَلِّعُنِي عَلَىٰ أُمْرَارِهَا ^(١)

وكذلك البله من الرجال في قوله عليه الصلاة والسلام : أكثر أهل الجنة البله .

يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(٢٤)

يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ^(٢٥)

وقرئ : يشهد ، بالياء . والحق : بالنصب صفة للدين وهو الجزاء ، وبالرفع صفة لله ، ولو فليت القرآن كله وقتشت عما أوعده من العصاة لم تر الله تعالى قد غلط في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها ، ولا أنزل من الآيات القوارع ، المشحونة بالوعيد الشديد والعتاب البليغ والزجر العنيف ، واستعظام ماركب من ذلك ، واستفطاع ما أقدم عليه ، ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مفقته . كل واحد منها كاف في بابه ، ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفي بها ، حيث جعل القذقة ملعونين في الدارين جميعاً ، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة ، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا ، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهل له ، حتى يعلموا عند ذلك (أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ) فأوجز في ذلك وأشبع ، وفصل وأجمل ، وأكد وكثر ، وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه في الفطاعة ، وما ذاك إلا لأمر . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أنه كان بالبصرة يوم عرفة ، وكان يسأل عن تفسير القرآن ، حتى سئل عن هذه الآيات فقال : من أذنب ذنباً ثم تاب منه قبلت توبته إلا من خاض في أمر عائشة ، وهذه منه مبالغة وتعظيم لأمر الإفك . ولقد برأ الله تعالى أربعة بأربعة : برأ يوسف بلسان الشاهد (وشهد شاهد من أهلها) . وبرأ موسى من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه . وبرأ مريم بإنطاق ولدها حين نادى من حجرها : إني عبد الله . وبرأ عائشة بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر ، مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات . فانظر ، كم بينها وبين تبرئة أولئك ؟ وما ذاك إلا لإظهار علو منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتنبيه على إنافة محل سيد ولد آدم ، وخيرة الأولين والآخرين ، وحجة الله على العالمين . ومن أراد أن يتحقق عظمة شأنه صلى الله عليه وسلم ومقدم قدمه وإحرازه لقصب السبق دون كل سابق ، فليتل ذلك من آيات الإفك ، وليتأمل كيف

(١) لهوت : تلاهبت ولعبت ، بغفلة - بالفتح - أى : امرأة ناعمة لينة ، يقال : امرأة طفلة الانامل ، أى :

رخصتها لينتها ، مiale : مختالة ، بلهاء : غافلة لأمكر عندها ولا دهاء ، فلذلك تظلمنى على ضامرها .

غضب الله في حرمة ، وكيف بالغ في نفي التهمة عن حجابيه ، فإن قلت : إن كانت عائشة هي المرادة فكيف قيل المحصنات ^(١) ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يراد بالمحصنات أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن يخصن بأن من قذفهن فهذا الوعيد لاحق به ، وإذا أردن وعائشة كبراهن منزلة وقربة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كانت المرادة أولا . والثاني : أنها أم المؤمنين فجمعت إرادة لها ولبناتها من نساء الأمة الموصوفات بالإحسان والغفلة والإيمان ، كما قال :

* قَدَنِي مِنْ نَصْرِ الْخَبِيِّنِ قَدَى * ^(٢)

أراد عبد الله بن الزبير وأشياعه ، وكان أعداؤه يكنونه بخبيب ابنه ، وكان مضعوبا ^(٣) ، وكنيته المشهورة أبو بكر ، إلا أن هذا في الاسم وذلك في الصفة . فإن قلت : ما معنى قوله (هو الحق المبين) ؟ قلت : معناه ذو الحق البين ، أي : العادل الظاهر العدل ، الذي لا ظلم في حكمه ، والحق الذي لا يوصف بباطل . ومن هذه صفته لم تسقط عنده إساءة مسيء ولا إحسان محسن ، فحق مثله أن يتق ويحجب محارمه .

(١) قال محمود : « إن كانت عائشة هي المرادة ، فلم جمع ؟ قلت : المراد إما أزواج النبي صلى الله عليه وسلم حتى يكون هذا الوعيد لاحقا بقاذنهن ، وإما عائشة وجمعت إرادة لها ولبناتها ، كما قال : * قدني من نصر الخبيين قدى * . يعني عبد الله بن الزبير وأشياعه وكان يكنى أبا خبيب » قال أحمد : والأظهر أن المراد عموم المحصنات والمقصود بذكرهن على العموم وعيد من وقع في عائشة على أبلغ الوجوه ، لأنه إذا كان هذا وعيد قاذف آساد المؤمنين ، فما الظن بوعيد من قذف سيدتين وزوج سيد البشر صلى الله عليه وسلم ، على أن تعمم الوعيد أبلغ وأقطع من تخصيصه وهذا معنى قول زليخا (ماجزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم) فعممت وأرادت يوسف ، تهويلا عليه وإرجافا ، والمعصوم من عصمه الله تعالى .

(٢) قدني من نصر الخبيين قد ليس الامام بالشحيح الملحد
ولا يوتن بالحجاز مفرد إن ير يوما بالقضاء يصطد
أو ينجر فالجر شر محكد

لحميد الأرقط . وقيل : لأبي بحدلة يخاطب عبد الملك بن مروان . وقدني : بمعنى حسبي . وكرر للتوكيد . والخبيين يروى بصيغة التثنية ، يعني عبد الله بن الزبير وابنه خبيب ، وكانوا إذا ذموه كنوه بأبي خبيب بالتصغير . وروى بصيغة الجمع ، يعني : عبد الله وشيعته ، كان ادعى الخلافة فقال الشاعر : لا يكون الامام شيئا أي بخيلا ، ولاملحدا أي محتكرا أو محاربا في الحرم . والالحاد : الميل . والوتن بالسكون ، والواتن بالمشناة ، وبالمثناة : الثابت الدائم ، يوصف به الماء ونحوه . ويرى : يورى ، والوبر حيوان صغير ذليل لا ذنب له يحبس ويعلف ، ومفرد : يروى بالقاف . وقرد الرجل : سكت من عي . وأفرد : سكن وتمات . وأقرد الشيء : جمعه وصمته وهو منه . ويصطد : مبنى للمجهول ، وهو يناسب رواية وبر . والانحجار : دخول الحجر . والمحكد : الملجأ والمهرب . وحاشا لابن الزبير أن يكون ملحدا .

(٣) قوله « وكان مضعوبا » في الصحاح : أضعفت الشيء فهو مضعوف ، على غير قياس . (ع)

الْخَيْثَاتُ لِخَيْثَيْنِ وَالْخَيْثُونَ لِخَيْثَاتٍ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ
أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

أى (الخيثات) من القول يقال أو تعد (للخيثين) من الرجال والنساء (والخيثون) منهم يتعرضون (للخيثات) من القول ، وكذلك الطيبات والطيبون . و (أولئك) إشارة إلى الطيبين ، وأنهم مبرءون مما يقول الخيثون من خبيثات الكلم ^(١) ، وهو كلام جار مجرى المثل لعائشة ومارميت به من قول لا يطاق حالها في الزاهة والطيب . ويجوز أن يكون (أولئك) إشارة إلى أهل البيت ، وأنهم مبرءون مما يقول أهل الإفك ، وأن يراد بالخيثات والطيبات : النساء ، أى : الحباث يتزوجن الحباث ، والحباث الحباث ، وكذلك أهل الطيب . وذكر الرزق الكريم هاهنا مثله في قوله (وأعتدنا لها رزقا كريما) وعن عائشة : لقد أعطيت تسعاً ما أعطيتن امرأة : ^(٢) لقد نزل جبريل عليه السلام بصورتي في راحته حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتزوجنى ، ولقد تزوجنى بكراً وما تزوج بكراً غيرى ، ولقد توفى وإن رأسه لنى حجرى ، ولقد قبر فى بيتى ، ولقد حفته الملائكة فى بيتى . وإن الوحي لينزل عليه فى أهله فيتفرقون عنه وإن كان لينزل عليه وأنا معه فى لحافه ، وإنى لابنة خليفته وصديقه ، ولقد نزل عذرى من السماء ، ولقد خلقت طيبة عند طيب ، ولقد وعدت مغفرة ورزقا كريما .

بِأَيْهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا
عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾

(تستأنسون) فيه وجهان ، أحدهما : أنه من الاستئناس الظاهر الذى هو خلاف الاستبحاش

(١) قال محمود : تحتمل الآية أمرين ، أحدهما : أن يكون المراد الكلمات الخبيثة للخبيثين ، والمراد : الإفك ومن أقاض فيه . وعكسه فى الطيبات والطيبين . الثانى : أن يكون المراد بالخبيثات النساء وبالحبيثين الرجال . قال أحمد : إن كان الأمر على التأويل الثانى ، فهذه الآية تفصل لما أجله قوله تعالى (الزانية لا ينكحها إلا زان) وقد بينا أنها مشتملة على هذه الأقسام الأربعة تصريحاً وتضمنياً . فجاءت هذه الآية معرحة بالجبع ، وقد اشتملت على قاعدة أخرى وهى الاستشهاد على براءة أم المؤمنين بأنها زوجة أطيّب الطيبين ، فلا بد وأن تكون طاهرة طيبة مبرأة عما أفكت به . وهذا التأويل الثانى هو الظاهر ، فإن بعد الآية (لهم مغفرة ورزق كريم) وبهذا وعد أزواجه عليه السلام فى قوله تعالى (نؤتها أجراً مرتين) وأعتدنا لها رزقا كريما) والله أعلم .

(٢) عاد كلامه . قال : ونقل عن عائشة أنها قالت : لقد أعطيت تسعاً ما أعطيتن امرأة ، فذكرت منهن أنها خلقت طيبة عند طيب . قال أحمد : وهذا أيضا يحقق ما ذكرته من أن المراد بالطيبات والطيبين : النساء والرجال ، وأن المراد بذلك : إظهار براءة عائشة بأنها زوج أطيّب الطيبين ، فيلزم أن تكون طيبة ، وفاء بقوله (والطيبون للطيبات) والله أعلم .

لأن الذي يطرق باب غيره لا يدري أيؤذن له أم لا ؟ فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه ، فإذا أذن له استأنس ، فالمعنى : حتى يؤذن لكم كقوله : (لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم) وهذا من باب الكناية والإرداف ؛ ^(١) لأن هذا النوع من الاستئناس يردف الإذن . فوضع موضع الإذن . والثاني أن يكون من الاستئناس الذي هو الاستعلام والاستكشاف : استفعال من أنس الشيء إذا أبصره ظاهرا مكشوفاً . والمعنى حتى تستعلموا وتستكشفوا الحال ، هل يراد دخولكم أم لا . ومنه قولهم : استأنس هل ترى أحدا ، واستأنست فلم أر أحدا ، أى : تعرفت واستعلمت . ومنه بيت النابغة :

• عَلَى مُسْتَأْنِسٍ وَحِدٍ • ^(٢)

ويجوز أن يكون من الإنس ، وهو أن يتعرف هل ثمة إنسان ؟ وعن أبي أيوب الأنصاري رضى الله عنه : قلنا يا رسول الله ، ما الاستئناس ؟ قال : يتكلم الرجل بالتيهية والتكبيرية والتحميدة ويتنحس : يؤذن أهل البيت . والتسليم أن يقول : السلام عليكم ، أدخل ؟ ثلاث مرات ؛ فإن أذن له وإلا رجع . وعن أبي موسى الأشعري أنه أتى باب عمر رضى الله عنهما فقال : السلام عليكم أدخل ؟ قالها ثلاثاً ثم رجع وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الاستئذان ثلاثاً واستأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ألع ؟ فقال صلى الله عليه وسلم لامرأة يقال لها روضة : قومي إلى هذا فعليه ، فإنه لا يحسن أن يستأذن . فولى له يقول : السلام عليكم أدخل

(١) قال محمود : « فيه وجهان ، أحدهما : أنه من الاستئناس الذي هو ضد الاستبحاش ، أى : حتى يؤذن لكم فتستأنسوا ، عبر بالشيء عما هو رادف له . والثاني : أن يكون من الاستعلام من أنسى إذا أبصر . والمعنى : حتى تستكشفوا الحال ، هل يراد دخولكم أم لا ؟ وذكر أيضاً وجهاً بعيداً ، وهو أن المراد حتى تعلموا هل فيها إنسان أم لا ؟ ، قال أحد : فيكون على هذا الأخير نبي من الأنس استفعال ، والوجه الأول هو البين . وسر التجوز فيه والدول إليه عن الحقيقة : ترغيب المخاطبين في الاتيان بالاستئذان بواسطة ذكر أن له فائدة وثمرة تميل النفوس إليها وتفر من ضدها وهو الاستبحاش الحاصل بتقدير عدم الاستئذان فبقية جهنم للدواعي على سلوك هذا الأدب ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

(٢) كان رجلي وقد زال النهار بنا بدى الجليل على مستأنس وحيد للناففة ، يصف جله بأنه كبحار الوحش المهرع خوفاً مما رآه . وقال الأصمعي : زال النهار : انتصف ، ولعله لروال الشمس فيه عن وسط السماء . ويجوز أن المعنى : مضى ولم يبق منه إلا قليل ، كما هو متبادر إسناد الروال إلى النهار . وبنا : أى علينا . ويجوز أن الباء للبابية . والجليل : نجر له خصوص كحوص النخل . وذو الجليل : موضعه . والمستأنس : الذي رفع رأسه ، هل يرى شخصاً ؟ وقيل : الذي يخاف الأئس . واستأنست بالشيء : سكن إليه فلي . واستأنست : استعلمت واستصبرت وخفت من الأئس . والوحد . المنفرد : ووحد كطرف ، فهو وحيد . ووحد كسبب ، ووحد كحذر : انفراد ، أى كان الرجل فوق ذلك الحذر لافوق الجمل . لسرعة سيره كالنهار .

فسمعها الرجل فقأها ، فقال : ادخل ^(١) . وكان أهل الجاهلية يقول الرجل منهم إذا دخل بيتا غير بيته : حقيمت صباحا ، وحقيمت مساء ، ، ثم يدخل ، فرما أصاب الرجل مع امرأته في الحاف واحد ، فصدا الله عن ذلك ، وعلم الأحسن والأجل . وكمن باب من أبواب الدين هو عند الناس كالشرعية المنسوخة قد تركوا العمل به . وباب الاستئذان من ذلك : بينا أنت في بيتك ، إذا رجع عليك الباب ^(٢) . بواحد ، من غير استئذان ولا تحية من تحايي إسلام ولا جاهلية ، وهو ممن سمع ما أنزل الله فيه ، وما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن أين الأذن الواعية ؟ وفي قراءة عبد الله : حتى تسلبوا على أهلها وتستأذنوا . وعن ابن عباس وسعيد بن جبير : إنما هو حتى تستأذنوا ، فأخطأ الكاتب . ولا يقول على هذه الرواية . وفي قراءة أبي : حتى تستأذنوا (ذلكم) الاستئذان والتسليم (خير لكم) من تحية الجاهلية والدمور - وهو الدخول بغير إذن - واشتقاقه من الدمار وهو الهلاك ، كأن صاحبه دامر لعظم ما ارتكب . وفي الحديث : من سبقت عينه استئذانه فقد دمر ^(٣) ، وروى أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : أأستأذن على أمي ؟ قال : نعم ، قال : إنها ليس لها خادم غيري ، أأستأذن عليها كلما دخلت ؟ قال : أتحب أن تراها عريانة قال الرجل : لا . قال : فاستأذن ^(٤) (لعلكم تذكرون) أي أنزل عليكم . أو قيل لكم هذا إرادة أن تذكروا وتعظوا وتعملوا بما أمرتم به في باب الاستئذان .

فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ
ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾

يَحْتَمِلُ (فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا) مِنَ الْأَذْنِ (فَلَا تَدْخُلُوهَا) وَاصْبِرُوا حَتَّى تَجِدُوا مِنْ

(١) أخرجه ابن أبي شيبة من رواية سفيان الثوري : سمعت سعيد بن جبير ولم يسم روضة ، قال فيه : «وقال الخادم» .

(٢) قوله «إذا رجع عليك الباب» في الصباح : رجع الرجل ، إذا خرج الدم من أنفه . ورعف الفرس ، إذا سبق وتقدم ، فكان ما هنا مجاز على وجه التشبيه . (ع)

(٣) أخرجه الطبراني من طريق أبي السفر عن يزيد بن شريح عن أبي أمامة بلفظ «من أدخل عينه في بيت من غير إذن أهله فقد دمر» . ولا يراهيم الحارثي في الغريب من حديث ثور بن زيد عن يزيد بن شريح عن أبي حنيفة المؤذن عن أبي هريرة بلفظ «لا يدخل مسلم أن ينظر في بيت حتى يستأذن» . فان فعل فقد دمر ، قال أبو عبيدة في غريب الحديث : حدثنا هشيم عن منصور بن الحسن بلفظه مرسلًا قال قال الكسائي «دمر» . التخفيف أي دخل بغير إذن .

(٤) أخرجه أبو داود في المراسيل من حديث عطاء بن يسار «أن رجلا سأل» . فذكره مرسلًا ، وهو في الموطأ عن صفوان بن سليم عن عطاء . وأورده الطبري من طريق زياد بن سعد عن عطاء مرسلًا أيضًا وقال ابن أبي شيبة في النكاح : حدثنا ابن عيينة عن زيد بن أسلم فذكره مرسلًا .

يأذن لكم . ويحتمل : فإن لم تجدوا فيها أحداً من أهلها ولكم فيها حاجة فلا تدخلوها إلا بإذن أهلها ، وذلك أن الاستئذان لم يشرع لئلا يطلع الدامر على عورة ، ولا تسبق عينه إلى ما لا يحل النظر إليه فقط ، وإنما شرع لئلا يوقف على الأحوال التي يطويها الناس في العادة عن غيرهم ويتحفظون من اطلاع أحد عليها ، ولأنه تصرف في ملك غيرك فلا بد من أن يكون برضاه ، وإلا أشبه الغصب والتغلب (فارجموا) أى لا تلجوا في إطلاق الإذن ، ولا تلجوا في تسهيل الحجاب ، ولا تنفخوا على الأبواب منتظرين ؛ لأن هذا مما يجلب الكراهة ويقدح في قلوب الناس خصوصاً إذا كانوا ذوى مروءة ومرئاضين بالآداب الحسنة وإذا نهى عن ذلك لأدائه إلى الكراهة وجب الانتهاء عن كل ما يؤدي إليها : من قرع الباب بعنف ، والتصيح بصاحب الدار وغير ذلك مما يدخل في عادات من لم يتهذب من أكثر الناس . وعن أبي عبيد : ما قرعت باباً على عالم قط . وكفى بقصة بنى أسد زاجرة وما نزل فيها من قوله (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) . فإن قلت : هل يصح أن يكون المعنى : وإن لم يؤذن لكم وأمرتم بالرجوع فامثلوا ، ولا تدخلوا مع كراهتهم ؟ قلت : بعد أن جزم النهي عن الدخول مع فقد الإذن وحده من أهل الدار حاضرين وغائبين ، لم تبق شبهة في كونه منهاياً عنه مع انضمام الأمر بالرجوع إلى فقد الإذن . فإن قلت : فإذا عرض أمر في دار : من حريق ، أو هجوم سارق ، أو ظهور منكر يجب إنكاره ؟ قلت : ذلك مستثنى بالدليل ، أى : الرجوع أطيب لكم وأطهر ، لما فيه من سلامة الصدور والبعد من الريبة . أو أنفع وأتمى خيراً . ثم أوعد المخاطبين بذلك بأنه عالم بما يأتون وما يذرون مما خاطبوا به فوف جزاءه عليه .

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ

يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

استثنى من البيوت التي يجب الاستئذان على دخولها : ما ليس بمسكون منها ، وذلك نحو الفنادق وهي الخانات والربط وحوانيت البياعين . والمتاع : المنفعة ، كالاستكنان من الحر والبرد ، وإيواء الرحال والسلع والشراء والبيع . ويروى أن أبا بكر رضي الله عنه قال : يا رسول الله ، إن الله تعالى قد أزل عليك آية في الاستئذان ، وأنا تختلف في تجاراتنا فنزل هذه الخانات أفلا ندخلها إلا بإذن (١) ؟ فزلت . وقيل . الخربات يبرز فيها . والمتاع : التبرز (والله يعلم ما تبذرون وما تكتُمون) وعيد للذين يدخلون الخربات والدور الخالية من أهل الريبة .

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ
إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾

من التبعض ، والمراد غص البصر عما يحرم ، والاقتصار به على ما يحل . وجوز الأخفش أن تكون مزيدة ، وأباه سيويه . فإن قلت : كيف دخلت في غص البصر دون حفظ الفروج ؟ قلت : دلالة على أن أمر النظر أوسع . ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهن وصدورهن وثديهن وأعضادهن وأسوقهن وأقدامهن وكذلك الجوارى المستعرضات ، والأجنبية ينظر إلى وجهها وكفها وقدميها في إحدى الروايتين . وأما أمر الفرج فضيق ، وكفاك فرقا أن أبيع النظر إلا ما استثنى منه ، وحظر الجماع إلا ما استثنى منه . ويجوز أن يراد - مع حفظها عن الإفضاء إلى ما لا يحل - حفظها عن الإبداء . وعن ابن زيد : كل ما في القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا ، إلا هذا فإنه أراد به الاستتار . ثم أخبر أنه (خير) بأفعالهم وأحوالهم ، وكيف يحيلون أبصارهم ؟ وكيف يصنعون بسائر حواسهم وجوارحهم ؟ فعليهم - إذ عرفوا ذلك - أن يكونوا منه على تقوى وحذر في كل حركة وسكون .

وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ
إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُجُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا
لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ
إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَمْلَكَتِ أَيْمَنَهُنَّ
أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرَاقَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الْغُلَّامِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ
النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا
أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

النساء مأمورات أيضاً بغض الأبصار ، ولا يحل للمرأة أن تنظر من الأجنبي إلى ما تحت سرتة إلى ركبته ، وإن اشتهت غصت بصرها رأساً ، ولا تنظر من المرأة إلا إلى مثل ذلك . وغضها بصرها من الأجانب أصلاً أولى بها وأحسن . ومنه حديث ابن أم مكتوم عن أم سلة رضى الله عنها قالت : كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده ميمونة ، فأقبل ابن أم مكتوم - وذلك بعد أن أمرنا بالحجاب - فدخل علينا فقال : احتجبا ، فقلنا : يا رسول الله ،

أليس أعمى لا يبصر؟ قال: أفعميا وإن أتما؟^(١) ألبتة تبصرانه؟ فإن قلت: لم قدم غض الأبصار على حفظ الفروج؟ قلت: لأن النظر بريد الزنى ورائد الفجور، والبلوى فيه أشد وأكثر، ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه. الزينة: ما تزينت به المرأة من حلى أو كحل أو خضاب، فإكان ظاهراً منها كالخاتم والفتحة^(٢) والكحل والخضاب، فلا بأس بإبدائه للأجانب، وما خفي منها كالسوار والخلخال والدمليج والقلادة والإكليل والوشاح والقرط، فلا تبديه إلا لهؤلاء المذكورين. وذكر الزينة دون مواقعها: للبالغة في الأمر بالتصون والتستر، لأن هذه الزين واقعة على مواضع من الجسد لا يحل النظر إليها لغير هؤلاء. وهى الذراع والساق والعصد والعنق والرأس والصدر والأذن، فهى عن إبداء الزين نفسها. ليعلم أن النظر إذا لم يحل إليها فلا يستأثر تلك المواقع - بدليل أن النظر إليها غير ملائمة لها لا مقال في حله - كان النظر إلى المواقع أنفسها متمكناً في الخطر، ثابت القدم في الحرمة، شاهداً على أن النساء حقهن أن يحتطن في سترها ويتقين الله في الكشف عنها^(٣) فإن قلت: ما تقول في القراميل^(٤)؟ هل يحل نظر هؤلاء إليها؟ قلت: نعم. فإن قلت: أليس موقعها الظهر ولا يحل لهم النظر إلى ظهرها وبطنها، وربما ورد الشعر فوقعت القراميل على ما يحاذى ماتحت السرة؟ قلت: الأمر كما قلت، ولكن أمر القراميل خلاف أمر ساتر الحلى. لأنه لا يقع إلا فوق اللباس، ويهوز النظر إلى الثوب الواقع على الظهر والبطن للأجانب فضلاً عن هؤلاء. إلا إذا كان يصف لرقته فلا يحل النظر إليه، فلا يحل النظر إلى القراميل واقعة عليه. فإن قلت: ما المراد بموقع الزينة؟ ذلك العضو كله، أم المقدار الذى تلبسه الزينة منه؟ قلت: الصحيح أنه العضو كله كما فسرت مواقع الزينة الخفية، وكذلك مواقع الزينة الظاهرة: الوجه وموقع الكحل في عينيه، والخضاب

(١) أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان وأحمد وإسحاق وابن أبي شيبة وأبو يعلى والطبراني كلهم من رواية بنهان كاتب أم سلمة عنها. قال النسائي: لا نعلم رواه عن بنهان إلا الزهري وقال إسحاق في مسنده: أخبرنا يحيى بن آدم حدثنا معمر بن يونس عن الزهري عن بنهان عن أم سلمة قالت: «استأذن ابن أم مكتوم وأنا وزينب عنده - الحديث - ومندل ضعيف خالف في ذكر زينب بدل ميمونة».

(٢) قوله والفتحة... الخ، في الصحاح: الفتحة - بالتحريك - حلقة من فضة لاصص فيها، فإذا كان فيها فص فهو الخاتم، وربما جعلتها المرأة في أصابع رجلها. وفيه «الاكليل» شبه عصاة زين بالجواهر. ويسمى الناج: إكليل. (ع)

(٣) قال محمود: والمراد النهي عن إبداء مواضع الزينة، فليس النهي عن إظهار الزينة مقصوداً لبعثه. ولكن جعل نفسها كناية عن إبداء مواقعها بطريق الأولى. قال أحمد: وقوله تعالى عقيب ذلك (ولا يضرن بأرجلن ليعلم ما يخفين من زينتهن) حقق أن إبداء الزينة بعنه مقصوداً بالنهي، لأنه قد نهى عما هو ذريعة إليه خاصة، إذ الضرب بالأرجل لم يعطل النهي عنه إلا بعلم أن المرأة ذات زينة وإن لم تظهر، فضلاً عن مواضعها، والله أعلم.

(٤) قوله والقراميل في الصحاح: القراميل، ما تشده المرأة في شعرها. (ع)

بالوسمة^(١) في حاجبيه وشاربيه ، والغبرة في خديه ، والكف والقدم موقعا الخاتم والفتحة والخضاب بالحناء . فإن قلت : لم سوح مطلقا في الزينة الظاهرة ؟ قلت : لأن سترها فيه خراج ، فإن المرأة لا تجدد بدا من مراولة الأشياء يديها ، ومن الحاجة إلى كشف وجهها ، خصوصا في الشهادة والمحكمة والنكاح ، وتضطر إلى المشي في الطرقات وظهور قدميها ، وخاصة الفقيرات منهن ، وهذا معنى قوله (إلا ما ظهر منها) يعنى إلا ما جرت العادة والجملة على ظهوره والأصل فيه الظهور ، وإنما سوح في الزينة الخفية . أولئك المذكورون لما كانوا مختصين به من الحاجة المضطرة إلى مداخلتهم ومخاطبتهم ، ولقلة توقع الفتنة من جهاتهم ، ولما في الطبايع من النفرة عن مئامة القرائب ، وتحتاج المرأة إلى صحبتهم في الأسفار للنزول والركوب وغير ذلك . كانت جيوبهن واسعة تبدو منها نحورهن وصدورهن وما حوالها ، وكفى يسدلن الحرمن ورائهن فتبقى مكشوفة ، فأمرن بأن يسدلنها من قدامهن حتى يغطيها ، ويجوز أن يراد بالجيب : الصدور تسمية بما يليها ويلابسها . ومنه قولهم : ناصح الجيب . وقولك : ضربت بخمارها على جميعها . كقولك : ضربت يدي على الخائط ، إذا وضعتها عليه . وعن عائشة رضي الله عنها : ما رأيت نساء خيرا من نساء الأنصار ، لما نزلت هذه الآية قامت كل واحدة منهن إلى مرطها^(٢) المرجل فصعدت منه صدعة ، فاختمن ، فأصبحن كأن علي رؤوسهن الغربان^(٣) . وقرئ : جيوبهن ، بكسر الجيم لأجل الياء . وكذلك (يوتا غير يوتكم) قيل في نسائهن : هن المؤمنات ، لأنه ليس للمؤمنة أن تتجرد بين يدي مشركة أو كناية . عن ابن عباس رضي الله عنهما والظاهر أنه عني بنسائهن وما ملكت أيمانهن : من في محبتهم وخدمتهن من الحرائر والإماء والنساء ، كلهن سواء في حل نظر بعضهن إلى بعض . وقيل : ما ملكت أيمانهم هم الذكور والإناث جميعا . وعن عائشة رضي الله عنها أنها أباحت النظر إليها لعبدها ، وقالت لذكوان : إنك إذا وضعتني في القبر وأخرجتني

(١) قوله «والخضاب بالوسمة» في الصحاح : الوسمة - بكسر السين - العظم يختضب به ، ولعلها لغة . وفيه «العظم» نبت يصعب به . وفيه أيضا «الغبرة» غلا . يتخذ من الورس . (ع) (٢) قوله «قامت كل واحدة منهن إلى مرطها» في الصحاح «المرط» كساء من صوف أو حرمل يؤزر به . وفيه أيضا «مرط مرجل» إزار خر فيه علم . (ع)

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم عن طريق مسلم بن خالد عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن صفية عنها وأسم بنته . وأخرجه ابن مردويه عن طريق داود بن عبد الرحمن ومن طريق روح بن القاسم . كلاهما عن ابن خثيم . وأخرجه أبو داود مختصرا من وجه آخر عن مرة عن الزهري عن عمرو عن عائشة . ولله البخاري قال قال أحمد بن حنبل : حدثنا أبي عن يونس عن الزهري به : قلت ووصله ابن مردويه عن طريق أحمد بن حنبل .

فأنت حر^(١). وعن سعيد بن المسيب مثله^(٢)، ثم رجع وقال: لا تفرنكم آية النور، فإن المراد بها الإمام^(٣). وهذا هو الصحيح، لأن عبد المرأة بمنزلة الأجني منها، خصياً كان أو غلاماً. وعن ميسون بنت بحدل الكلالية: أن معاوية دخل عليها ومعه خصي، فتفقت منه، فقال: هو خصي^(٤). فقالت: يا معاوية، أترى أن المثلة به تحلل ما حرم الله^(٥)؟ وعند أبي حنيفة: لا يحل استخدام الخصيان وإمساكهم وبيعهم وشراؤهم، ولم ينقل عن أحد من السلف إمساكهم. فإن قلت: روى أنه أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم خصي^(٦) قبله. قلت: لا يقبل فيما تعم به البلوى إلا حديث مكشوف، فإن صح فلعله قبله ليعتقه^(٧)، أو لسبب من الأسباب. (الإربة) الحاجة، قيل: هم الذين يتبعونكم ليصيروا من فضل طعامكم، ولا حاجة لهم إلى النساء، لأنهم به لا يعرفون شيئاً من أمرهن. أو شيوخ صالحاء إذا كانوا معهم غضوا أبصارهم: أو بهم عثانة. وقرئ (غير) بالنصب على الاستثناء أو الحال، والحز على الوصفية. وضع الواحد موضع الجمع لأنه يفيد الجنس. ويبين ما بعده أن المراد به الجمع. ونحوه (نخرجكم طفلاً). (لم يظهروا) إما من ظهر على الشيء إذا طلع عليه، أى: لا يعرفون ما العورة ولا يميزون بينها وبين غيرها. وإما من ظهر على فلان إذا قوى عليه، وظهر على القرآن: أخذه وأطاقه، أى: لم يبلغوا أو أن القدرة على الوطء. وقرئ: عورات، وهى لغة هذيل. فإن قلت: لم يذكر الله الأعمام والأخوال؟ قلت: سئل الشعبي عن ذلك؟ فقال: لثلا يصفها العم عند ابنه، والحال كذلك. ومعناه: أن

(١) هذا ملفق من أثرين، الأول: أخرجه البيهقي من طريق عمرو بن ميمون عن سليمان بن يسار قال استأذنت على عائشة فقالت: سليمان؟ ادخل. فأنك عبد مابق عليك درهم. وعلقه البخاري عن سليمان والثاني أخرجه ابن سعد من رواية محمد بن علي بن الحسين «أن عائشة رضى الله عنها قالت: إذا كفت ودفت وحطت ودلاني ذكران في حفرتي فهو حر» وأخرجه عبد الرزاق عن ابن جريج. أخبرني ابن أبي مليكة أن عائشة رضى الله عنها قالت «إذا غيبي أبو عمرو ودلاني في حفرتي فهو حر».

(٢) لم أره

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة من رواية طارق عن سعيد بن المسيب «لا تفرنكم الآية: (إلا ماملكت إيمانكم) إنما على الإمام دون العبيد»

(٤) لم أجده قلت: ذكره المسعودي في مروج الذهب بغير إسناد.

تنبيه: وقع في الكشف الكلالية. والصواب الكلية بسكون اللام. والقصه ذكرها غيره بينت قرظة.

(٥) أخرجه ابن سعد أخبرنا محمد بن عمر. حدثنا يعقوب بن أبي صعصعة عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة قال «أهدى المقوقس صاحب الاسكندرية إلى النبي صلى الله عليه وسلم سبع من الهجرة. مارية وأختها سيرين، وألف مثقال ذهب وعشرين ثوباً وبغلة. وحماره غفيراً وخصياً يقال له ما يود. فعرض حاطب على مارية الاسلام فأسلت هى وأختها ثم أسلم الخصي بعده. وقع ذكر الخصي هذا في عدة أحاديث منها حديث علي رضى الله عنه. وقوله «هذا ضيف، ولا يقبل فيما تعم به البلوى، إلا حديث مكشوف إن صح. ولعله قبله ليعتقه» ه. وليس هذا فيما تعم به البلوى في شيء.

سائر القربات يشترك الأب والابن في المحرمة ^(١) إلا العم والخال وأبناءهما. فإذا رآها الأب فربما وصفها لابنه وليس بمحرم، فبدانى تصوّره لها بالوصف نظره إليها؛ وهذا أيضا من الدلالات البليغة على وجوب الاحتياط عليهن في التستر. كانت المرأة تضرب الأرض برجلها ليتقمقع خلخالها، فيعلم أنها ذات خلخال. وقيل: كانت تضرب بإحدى رجلها الأخرى؛ ليعلم أنها ذات خلخالين. وإذا نهين عن إظهار صوت الحلى بعد ما نهين عن إظهار الحلى، علم بذلك أن النهى عن إظهار مواضع الحلى أبلغ وأبلغ. أوامر الله ونواهيها في كل باب لا يكاد العبد الضعيف يقدر على مراعاتها. وإن ضبط نفسه واجتهد، ولا يخلو من تقصير يقع منه، فلذلك وصى المؤمنين جميعاً بالتوبة والاستغفار، وتأميل الفلاح إذا تابوا واستغفروا. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: توبوا بما كنتم تفعلونه في الجاهلية؛ لعلكم تسعدون في الدنيا والآخرة فإن قلت: قد صحت التوبة بالإسلام، والإسلام يجب ما قبله، فما معنى هذه التوبة؟ قلت: أراد بها ما يقوله العلماء: إن من أذنب ذنباً ثم تاب عنه، يلزمه كلما تذكّره أن يحدد عنه التوبة؛ لأنه يلزمه أن يستمر على ندمه وعزمه إلى أن يلقي ربه. وقرئ: أيه المؤمنون، بضم الهاء، ووجهه أنها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الألف، فلما سقطت الألف لالتقاء الساكنين أتبعتم حركتها حركة ما قبلها.

وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا

فُقَرَاءَ يُفْنِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾

(الايامى) واليتامى: أصلهما أيتام ويتام، فقلبا. والايام: للرجل والمرأة. وقد آم وأمت وتأيما: إذا لم يتزوجا بكرين كانا أو ثنيين. قال:

فَإِنْ تَنكِحِي أَنكَحَ وَإِنْ تَتَأَيَّمِي وَإِنْ كُنْتُ أَفْتِي مِنْكُمْ أَتَأَيَّمُ ^(٢)

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣). والله إنا نعوذ بك من العيمة والغنمة والأئمة والكرم والقرم ^(٤)، والمراد: أنكحوا من تأيم منكم من الأحرار والحرائر، ومن كان فيه صلاح من

(١) قوله «يشترك الأب والابن في المحرمة» الرابط محذوف، أى: يشترك بها الأب... الخ. (ع)

(٢) أم الرجل - بالمد - والمرأة. وتأيماً: إذا لم يتزوجا بكرين أو ثنيين، يقول لمحبوبته: إن تزوجى أزواج وإن لم تزوجى لم أزواج. وجملة «وإن كنت أفتى منكم» اعتراضية. والافتى الأكثر فنية وشياباً. وعبر بضمير جمع الذكور للتعظيم، ورفع المضارع في جواب الشرط كما هنا قليل، ولعله ارتكبه لأجل القافية.

(٣) لم أجده

(٤) قوله «من العيمة والغنمة والأئمة والكرم والقرم» في الصحاح «العمة» شهوة اللبن. وفيه: «القيم» =

غلبا لكم وجواريتكم، وقرئ: من عبيدكم. وهذا الأمر للندب لما علم من أن النكاح أمر مندوب إليه^(١)، وقد يكون للوجوب في حق الأولياء عند طلب المرأة ذلك، وعند أصحاب الظواهر النكاح واجب، ومما يدل على كونه مندوبا إليه قوله صلى الله عليه وسلم: «من أحب فطرني فليسني يستحي وهي النكاح»^(٢)، وعنه عليه الصلاة والسلام: «من كان له ما يتزوج به فلم يتزوج فليس منا»^(٣). وعنه عليه الصلاة والسلام: «إذا تزوج أحدكم عجب»^(٤)، شيطانه: ياويله، عصم ابن آدم من ثلثي^(٥) دينه، وعنه عليه الصلاة والسلام: «يا عياض لا تزوجن عجوزاً ولا عاقراً، فإن مكاثر»^(٦)، والآحاديث فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم والآثار كثيرة، وربما كان واجب التوك إذا أدى إلى معصية أو مفسدة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا

المطر وحر الجوف اه وهو بعيد أن «القيمة» المدة من ذلك. وفيه «الآباء» الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء. وأمت المرأة من زوجها تنم أمه. وفيه: كرم الشيء، يقدم فيه، أي: كرهه واستخرج ما فيه. وفيه: قرم الشيء والبهيم قوماً، وهو أكل ضعيف في أول ما يأكل. والقرم: بالتحريك: شدة شهوة اللحم اه. وبروى في الحديث: «القدم» بالذال بدل الزام. وفي الصحاح: القدم على وزن الجف: التدبير. وفيه أيضاً: الجف من النعم ومن الناس: الجافي الثقيل. قال الكشي:

هو الأضبط الهواس فينا فجاعة. وفيمن يماذه الجف المثقل

ولا يستقيم الوزن إلا بتهديد الفاء. وفيه «الهواس»: الأسد (ع)

(١) قال محمود: «هذا أمر والمراد به الندب»، ثم ذكر أحاديث تدل على ذلك، وأدرج فيها قوله عليه الصلاة والسلام: «من وجد نكاحاً فلم ينكح فليس منا» قال أحمد: وهذا بأن يدل على الوجوب أولى، ولكن قد ورد مثله في ترك السنن كثيراً، وكان المراد: من لم يستن يستننا. على أنه قد ورد في الواجب كقوله: «من غشنا فليس منا» وبجانبه القس واجبة «ومن شمر السلاح في فتنه فليس منا» ومثله كثير

(٢) أخرجه عبد الرزاق من رواية عبيد بن سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فذكره مرسلأ وأخرجه أبو يعلى من هذا الوجه فكأنه ظن أن عبيد بن سعيد له بحجة. ولأن عدي من رواية أبي حرة وأصل ابن عبيد الرحمن عن الحسن عن أبي هريرة بلفظ «من أحب فطرني فليسني» وإن من سلق النكاح»

(٣) أخرجه أبو دارق في المراسيل وأحمد وإسحاق والدارقني والطبراني وعبد الرزاق وابن أبي شيبة كلهم من رواية أبي المغلس عن أبي يحيى رفته «من كان موسراً لأن ينكح فلم ينكح فليس منا» وأخرجه الثعلبي من هذا الوجه، بلفظ المصنف، قال ابن راهويه: رواه بعضهم عن ابن جريج عن أبي المغلس عن أبي يحيى عمرو بن عبسة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وهو غلط» وليس أبو يحيى هذا عمرو بن عبسة. وقد رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده عن الحكم بن موسى عن الوليد بن مسلم عن ابن جريج حدثني أبو المغلس سمعت أبا بصير السلمي يقول:

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «فذكر نحوه»... فقال: «فذكر نحوه»... فقال: «فذكر نحوه»... فقال: «فذكر نحوه»...

(٤) قوله «عجب شيطانه» أي: عجب. (ع)

(٥) أخرجه أبو يعلى والطبراني في الأوسط. والثعلبي عن رواية صالح مولى التوأمة عن إمامهم وبعضهم عن أبي هريرة بدل جابر وفي إسناده خالد بن الحارث المخرومي وهو متروك

(٦) أخرجه الحاكم والثعلبي من رواية معاوية بن يحيى عن يحيى بن جابر عن جابر بن معمر عن عياض بن غنم الأشعري ومعاوية ضعيف، وقوله: والآحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم والآثار كثيرة الله. فهذا حديث أنس =

أتى على أمتي مائة وثمانون سنة فقد حلت لهم العزوبة والعزلة والترهب على رؤس الجبال^(١) ، وفي الحديث ، يأتي على الناس زمان لاتنال المعيشة فيه إلا بالمعصية ، فإذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة^(٢) ، فإن قلت : لم خص الصالحين ؟ قلت : ليحصن دينهم ويحفظ عليهم صلاحهم ، ولأن الصالحين من الأرقاء هم الذين مواليهم يشفقون عليهم ويزلونهم منزلة الأولاد في الأثرة والمودة ، فكانوا مظنة للتوصية بشأنهم والاهتمام بهم وتقبل الوصية فيهم . وأما المفسدون منهم فخالهم عند مواليهم على عكس ذلك . أو أريد بالصلاح : القيام بحقوق النكاح . ينبني أن تكون شريعة الله غير منسية في هذا الموعد ونظائره وهي مشيئة^(٣) ، ولا يشاء الحكيم

== رضى الله عنه في الصحيحين وأن أناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم سألو أرواحه عن عمله في السر فقال بعضهم لا أكل اللحم وقال بعضهم لا أتزوج النساء ... الحديث ، وفيه « لكنني أصوم وأفطر وأقوم وأنام وأكل اللحم وأتزوج النساء فمن رغب عن سنني فليس مني » ومنها حديث ابن مسعود رضى الله عنه « يا معشر العقاب من استطاع منكم الباءة فليزوج » متفق عليه وقد تقدم في المائدة . وحديث أنس رضى الله عنه : « كان يأمر بالباء وينهى عن التبتل » وأخرجه ابن حبان وحديث « تزوجوا نوالدوا وتناحلوا قال مباد بكم الأمم » له طرق في السنن وغيرها . وحديث عطية بن بشر في قصة عكاف بن وداعة الهلالي في الحضر على الزواج ، وفيه « إن شراكم عزابكم » رواه إسماعيل في مسنده أخرجه فضية عن معاوية بن يحيى الصدوق أنه حدث عن سليمان بن موسى عن مكحول عن غصيف بن الحارث عن عطية بن بشر بطوله . رواه الطبراني في مسند الشاميين من رواية ابن عتبة عن برد بن سنان عن مكحول عن عطية بن بشر لم يذكر غصيف وقال أحمد : حدثنا عبد الرزاق عن محمد بن راشد عن مكحول عن أبي ذر فذكر نحوه ومنها حديث أنس رضى الله عنه « من تزوج فقد استكمل نصف الإيمان فليتب الله في النصف الثاني » أخرجه الطبراني في الأوسط وإسناده ضعيف جداً وسيأتي باقيها بعد .

(١) أخرجه البيهقي والثعلبي من حديث ابن مسعود . وفي إسناده سليمان بن عيسى الجراساني وهو كذاب . ومن طريقه رواه ابن الجوزي في الموضوعات ، لكن له طريق أخرى . أخرجه علي بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية عن الحسن بن واقد الحنفي . قال : أظنه من حديث بهز بن حكيم فذكره وهو متصل .

(٢) أخرجه علي بن معبد في الطاعة والمعصية حدثنا عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يأتي على الناس زمان لا يسلم لأذى دينه إلا من فر بدينه من شاق إلى شامق . ومن حجر إلى حجر . فإذا كان ذلك حلت العزوبة . قيل كيف حلت العزوبة . فذكر حديثاً طويلاً . وصله الخطابي في العزلة من طريق السمرقاني بن يحيى عن الحسن عن أبي الأحوص عن عبد الله . وفي إسناده محمد بن بونس الكندي وهو ضعيف .

(٣) عاد كلامه قال : « ينبني أن تكون شريعة الحكمة والمصلحة غير منسية » واستشهد على ذلك بقوله (وإن خفتم عيلة فسوف يسبقكم الله من فضله إن شاء) قال أحمد : جرحه للتعبد القاسد يمنع عليه الضوابط ، فإن معتقده وجوب رعاية المصالح على الله تعالى ، فمن ثم شرط الحكمة والمصلحة عجزاً واسعاً من فضل الله تعالى ، ثم استشهد على ذلك بما يشهد عليه لآله . فإن قوله تعالى في الآية الأخرى (إن شاء) يقتضي أن يوقع الغنى مشروط بالمشيئة خاصة ، وهذا معتقده أهل الحق ، فطاح اشتراط الحكمة عن محل الاستدلال ، تعالى عن الإجاب رب الأرباب . لكن ينبغي التنبيه لتسكتة تدعو الحاجة إلى التنبيه عليها ، ليعم فروعها ويغطيها . فبها إن شاء الله . وذلك إذا بينا على أن ثم شرطاً آخر ، لا بد من تقديره ضرورة صدق الخبر ، إذ لو اعتقدنا أن الله تعالى يوقع لكل منزوج على الإطلاق مع أنا نشاهد كثيراً من استعمر به الفقير بعد النكاح بل زاد الزم خلف الموعد بقدس الله

إلا ما اقتضته الحكمة وما كان مصلحة^(١)، ونحوه: (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب) وقد جاءت الشريعة منصوصة في قوله تعالى: (وإن خفتن عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم) ومن لم ينس هذه الشريعة لم ينتصب معترضاً بعزب كان غنياً فأفقره النكاح، وبفاسق تاب وأتق الله وكان له شيء ففنى وأصبح مسكيناً. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «التمسوا الرزق بالنكاح»^(٢).

== وتعالى عن ذلك - فقد ثبت الاضطرار إلى تقدير شرط للجمع بين الوعد والواقع. فالقدري يقولون: المراد إن اقتضت الحكمة ذلك، فكل من لم يفقه الله بأثر الزوج فهو من لم تقتض الحكمة إغناؤه. وقد أبطلنا أن يكون هذا الشرط هو المقدر، وحتماً أن المقدر شرط المشيئة كما ظهر في الآية الأخرى، وحيث فكل من يستغن بالنكاح فذلك لأن الله تعالى لم يشأ غناه. فلقاتل أن يقول: إذا كانت المشيئة هي المعتبرة في غنى الزوج. فهي أيضاً المعتبرة في غنى الأعزب، فأوجه ربط وعد الغنى بالنكاح، مع أن حال النكاح منقسم في الغنى على حسب المشيئة، فمن مستغن به، ومن فقير كما أن حال غير النكاح كذلك منقسم، وليس هذا كإقرار شرط المشيئة في الفقران للوحد العاصي، فإن الوعد ثم له ارتباط بالتوحيد. وإن ارتبط بالمشيئة أيضاً، من حيث أن غير الموحد لا يفقر الله له حتماً، ولا تستطيع أن تقول: وغير النكاح لا يفنيه الله حتماً، لأن الواقع يأباه. فالجواب - وبالله التوفيق - : أن فائدة ربطه الغنى بالنكاح: أنه قد ركز في الطباع السكون إلى الأسباب والاعتماد عليها. والفلة عن المسبب جل وعلا، حتى غلب الهم على العقل، فخلل أن كثرة العيال سبب يوجب الفقر حتماً، وعدمها سبب يوجب توفير المال جزماً، وإن كان واحد من هذين السببين غير مؤثر فيها ربطه الهم به. فأريد فلغ هذا الخيال المتمكن من الطبع بالابتيان بأن الله تعالى قد يوفر المال وينمي، مع كثرة العيال التي هي سبب في الأوهام لنفاذ المال. وقد يقدر الاملاق مع عدمه الذي هو سبب في الاكثار عند الأوهام والواقع يشهد بذلك فلا مراء. فذلك قطعاً على أن الأسباب التي يتوهمها البشر مرتبطات بمسبباتها ارتباطاً لا ينفك ليست على ما يزعمونه، وإنما يقدر الغنى والفقر مسبب الأسباب، غير موقوف، تقدير ذاك إلا على مشيئة خاصة، وحيث لا يفقر الغافل المتفطن من النكاح، لأنه استقر عنده أن لا أثر له في الاقتار، وأن الله تعالى لا يمنعه ذلك من إغنائه، ولا يؤثر أيضاً الخلو عن النكاح لأجل التوفير، لأنه قد استقر أن لا أثر له فيه، وأن الله تعالى لا يمنعه مانع أن يفقر عليه، وأن العبد إن تعاطى سبباً فلا يكن ناظرًا إليه ولكن إلى مشيئة الله تعالى وتقدس، فعنى قوله حيث (إن يكونوا فقراء... الآية) أن النكاح لا يمنهم الغنى من فضل الله، فعبر عن نفي كونه مانعاً من الغنى بوجوده معه. ولا تبطل المسانبة إلا بوجود ما يتوهم تنوعاً مع ما يتوهم مانعاً ولو في صورة من الصور على أثر ذلك، فمن هذا الوادي أمثال قوله تعالى (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض) فإن ظاهر الأمر طلب الانتشار عند انقضاء الصلاة، وليس ذلك بمراد حقيقة، ولكن الغرض تحقيق زوال المانع وهو الصلاة. وبيان أن الصلاة متى قضيت فلا مانع، فعبر عن نفي المانع بالانتشار بما يفهم تقاضى الانتشار، بمبالغة في تحقيق المعنى عند السامع والله أعلم، فتأمل هذا الفصل واتخذ عضداً حيث الحاجة إليه.

(١) قوله «إلا ما اقتضته الحكمة وما كان مصلحة» كأنه مبنى على أنه تعالى يجب عليه فصل الصلاح، وهو مذهب المعتزلة. وعند أهل السنة: لا يجب على الله شيء. (ع)

(٢) أخرجه الثعلبي من رواية مسلم بن خالد وابن مردويه من رواية أبي السائب سلام بن جنادة عن أبي أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة مرفوعاً «تزوجوا النساء فانهن يأتين بالمال» قال الحاكم تفرد به سلام وهو ثقة: وقال البرز والدارقطني وغير سلام برويه مرسلًا. وهو كما قال. وقد أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي أسامة ==

وشكا إليه رجل الحاجة فقال ^(١) : « عليك بالبائة » ، وعن عمر رضى الله عنه : عجبت لمن لا يطلب الغنى بالبائة ^(٢) . ولقد كان عندنا رجل رازح الحال ، ثم رأته بعد سنين وقد انتعشت حاله وحسنت ، فسألته ؟ فقال : كنت فى أول أمرى على ما علمت ، وذلك قبل أن أرزق ولداً ، فلما رزقت بكر ولدى تراخيت عن الفقر ، فلما ولد لى الثانى زدت خيراً ، فلما تآموا ثلاثة صب الله على الخير صبا ، فأصبحت إلى ماترى (والله واسع) أى غنى ذو سعة لا يرزؤه ^(٣) إغناء الخلائق ، ولكنه (علم) ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر .

وَلَيْسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُنْفِثَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاثِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِياتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِنَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾

(وليس تغف) وليجتهد فى العفة وظلف النفس ^(٤) ، كأن المستغف طالب من نفسه العفاف وحاملها عليه (لا يجدون نكاحا) أى استطاعة تزوج . ويجوز أن يراد بالنكاح :

== فلم يذكر عائشة . وكذلك أخرجه أبو داود فى المراسيل عن ابن التوأمة عن أبي أسامة وأخرجه أبو القاسم حزة بن يوسف فى تاريخ جرجان من رواية الحسين بن علوان عن هشام موصولا . والحسين متهم بالكذب (تنبيه) ظن المخرج أن هذا يرد على كلام البزار والدارقطنى . وليس كما ظن لأنه قال قد تابعه عبد المؤمن المطار وقال أيضا تابعه عبد الله بن ناجية فأما الأول فالمتابع إنما هو الحسين شيخ عبد المؤمن وقد قلنا إنه لا يسوى شيئا . وأما الثانى فأنما رواه ابن ناجية عن أبي السائب نفسه فظهر تفرد أبي السائب بوصله من بين الثقات . وأما الحسين بن علوان فلا تفيد متابعتة شيئا لومته .

(١) أخرجه الثعلبى من رواية الدارقطنى عن أبي عجلان « أن النبى صلى الله عليه وسلم نفك إلى الحاجة . الحديث » .

(٢) قوله « فقال عليك بالبائة » فى الصحاح سعى النكاح باء وباءة : لأن الرجل يتبوأ من أهله ، أى : يستكن منها كما يتبوأ من داره ، وفيه أيضا « الرازح من الأبل » المالك هزالا له ، فإن كان غنصا بالأبل فقد يتوسع فيه إلى غيرها . (ع)

(٣) رواه هشام بن حسان عن الحسن عن عمر نحوه .

(٤) قوله « لا يرزؤه » أى : لا ينقصه . (ع)

(٥) قوله « وظلف النفس » فى الصحاح : ظلف نفسه عن الشيء . أى : منها . وظلقت نفسى عن كذا بالكسر - : أى كفت . (ع)

ما يتكح به من المال ﴿حتى يغنيهم الله﴾ ترجية للمستغنين وتقدمة وعد بالتفضل عليهم بالغنى ، ليكون انتظار ذلك وتأمله لطفهم في استغفارهم ، وربطاً على قلوبهم ، وليظهر بذلك أن فضله أولى بالإعفاء وأدنى من الصلح . وما أحسن مارتب هذه الأوامر : حيث أمر أولاً بما يعصم من الفتنة ويبعد من موقعة المعصية وهو غض البصر ، ثم بالنكاح الذى يحصن به الدين ويقع به الاستغناء بالخلال عن الحرام ، ثم بالحل على النفس الأمانة بالسوء وعزفها ^(١) عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح إلى أن يرزق القدرة عليه ﴿والذين يبتغون﴾ مرفوع على الابتداء . أو منصوب بفعل مضمر يفسره (فكاتبوهم) كقولك : زيداً فاضربه ، ودخلت الفاء لتضمن معنى الشرط . والكتاب والمكاتبة ، كالعتاب والمعاتبة : وهو أن يقول الرجل لمملوكه : كاتبتك على ألف درهم ، فإن أداها عتق . ومعناه : كتبت لك على نفسى أن تعتق منى إذا وفيت بالمال ، وكتبت لى على نفسك أن تقي بذلك . أو كتبت عليك الوفاء بالمال وكتبت على العتق . ويجوز عند أبى حنيفة رضى الله عنه حالاً ومؤجلاً . ومنجماً وغير منجماً : لأن الله تعالى لم يذكر التنجيم ، وقياساً على سائر العقود . وعند الشافعى رضى الله عنه : لا يجوز إلا مؤجلاً منجماً . ولا يجوز عنده بنجم واحد ؛ لأن العبد لا يملك شيئاً ، فعقده حالاً منع من حصول الغرض ، لأنه لا يقدر على أداء البدل عاجلاً . ويجوز عقده على مال قليل وكثير ، وعلى خدمة فى مدة معلومة ، وعلى عمل معلوم مؤقت : مثل حفر بئر فى مكان بعينه معلومة الطول والعرض وبناء دار قد أراه أجرها وجصها وما يبنى به . وإن كاتبه على قيمته لم يجز . فإن أداها عتق . وإن كاتبه على وصيف ^(٢) ، جاز ، لقلة الجهالة ووجوب الوسط ، وليس له أن يطاء المكاتبة ، وإذا أدى عتق ، وكان ولاؤه لمولاه ؛ لأنه جاد عليه بالكسب الذى هو فى الأصل له ، وهذا الأمر للثدب عند عامة العلماء . وعن الحسن رضى الله عنه : ليس ذلك بعزم ، إن شاء كاتب وإن شاء لم يكتب . وعن عمر رضى الله عنه : هى عزمة من عزمات الله . وعن ابن سيرين مثله وهو مذهب داود (خيراً) قدرة على أداء ما يفارقون عليه . وقيل : أمانة وتكسباً . وعن سليمان رضى الله عنه أن مملوكاً له ابتغى أن يكتبه فقال : أعندك مال ؟ قال : لا ، قال : أفأمرنى أن آكل غسالة أيدى الناس (وآتوهم) أمر للمسلمين على وجه الوجوب بإعانة المكاتبين وإعطائهم سهمهم الذى جعل الله لهم من بيت المال ، كقوله تعالى (وفى الرقاب) عند أبى حنيفة وأصحابه رضى الله عنهم . فإن قلت : هل يحل لمولاه إذا كان غنياً أن يأخذ ما تصدق

(١) قوله «وعزفها عن الطموح إلى الشهوة» فى الصحاح : عزفت نفسى عن الشيء : زهدت فيه وانصرفت عنه .

(ع)

(٢) قوله «على وصيف» الوصيف : الخادم ، غلاماً كان أو جارية ، كذا فى الصحاح . (ع)

به عليه ؟ قلت . نعم . وكذلك إذا لم تف الصدقة بجميع البدل وعجز عن أداء الباقي طالب للبول ما أخذه ؛ لأنه لم يأخذه بسبب الصدقة ، ولكن بسبب عقد المكتانية كمن اشترى الصدقة من الفقير أو ورثها أو وهبت له ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في حديث بريرة ، هو لها صدقة ولناهدية ، ^(١) وعند الشافعي رضي الله عنه : هو إيجاب على الموالى أن يحطوا لهم من مال الكتابة . وإن لم يفعلوا أجبروا . وعن علي رضي الله عنه : يحط له الربع . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : يرضخ له من كتابته شيئا . وعن عمر رضي الله عنه أنه كاتب عبد الله بن بكر بن أبي أمية ، وهو أول عبد كوثب في الإسلام ، فأناه بأول نجم فدفعه إليه عمر رضي الله عنه وقال : استعن به على مكاتبك فقال : لو أخرته إلى آخر نجم ؟ قال : أخاف أن لا أدرك ذلك . ^(٢) وهذا عند أبي حنيفة رضي الله عنه على وجه التدب وقال : إنه عقد معاوضة فلا يجبر على الحطيطة كالبيع . وقبل : معنى (وآتوهم) : أسلفوهم . وقيل : أنفقوا عليهم بعد أن يؤدوا . ويعتقوا . وهذا كله مستحب . وروى أنه كان لجويط بن عبد العزى مملوك يقال له الصبيح : سأل مولاه أن يكتبه فأبى ، فزلت . كانت إمام أهل الجاهلية يساعين على موالينهم ، وكان لعبد الله بن أبي رأس النفاق ست جوار : معاودة ، ومسيكة ، وأميمة ، ومهرة ، وأروى . وقيلة : يكرهن على البغاء وضرب عليهن جزائف فشكت ثنتان منهن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) . فزلت . ويكنى بالفتى والفتاة : عن العبد والأمة . وفي الحديث : لا يقل أحدكم فتى وفتاتى ، ولا يقل عبدي وأمى ، ^(٤) والبغاء : مصدر البغى . فإن قلت : لم أقم قوله (إن أردن تحصن) قلت : لأن الإكراه لا يتأتى إلا مع إرادة التحصن ، وأمر الطبيعة الموانية للبغاء لا يسمى مكرها ولا أمره إكراها . ^(٥)

- (١) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها في أثناء حديث في قصة بريرة وعقبتها .
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة عن طريق عكرمة عن ابن عباس إلا قوله (وهو أول عبد كوثب في الإسلام) ذكره في آخره من قول عكرمة . وزاد ثم قرأ (وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) ورواه ابن أبي حاتم من طريق وكيع شيخ ابن أبي شيبة كذلك .
(٣) أخرجه الثعلبي من طريق مقاتل هذا وسنده إلى مقاتل في أول الكتاب وهو عند مسلم والبخاري مختصر من طريق الأعمش عن أبي سليمان بن جابر . قال : كان لعبد الله بن أبي جارة مملوك لها مميكة وأنقرى يقال لها أميمة وكان يردها على الزنى ... الحديث .
(٤) تقدم في الكهف .

(٥) قال محمود : وإن قلت : لم أقم قوله (إن أردن تحصن) قلت : لأن الإكراه لا يكون إلا إذا أردن تحصن ولا يتصور إلا كذلك . إذ لو لا ذلك لكن مطاوعات ، ولم يجب بما يقتضيه العليل . وعند عبد القاهر إلى الله تعالى أن فائدة ذلك : والله أعلم : أن يشع عند المخاطب الوجع فيه ، لكي يتيقظ أنه كان ينبغي له أن يأخذ من هذه الرذيلة وإن لم يكن راجعا فرغ عنه وجه التشيع عليها . لأن مضبوط الآية الدلالة عليه بأن أمية خير منه ، لأنها آتت التحصن عن الفاحشة ، وهو يأبى إلا إكراها عليها . ولو أريد مكشون هذا المعنى لم يقع الإكراه من نفسه موقعه . وعسى هذه الآية تأخذ بالنفوس الدنية . فكيف بالنفوس العرية . والله الموفق .

وكلة (إن) وإيثارها على . إذا، إيدان بأن المساعي كُن يفعلن ذلك برغبة وطواعية منهن، وأن ما وجد من معاذة ومسيكة من حيز الشاذ النادر (غفور رحيم) لهم أو لمن . أولهم ولهم إن تابوا وأصلحوا . وفي قراءة ابن عباس : لمن غفور رحيم . فإن قلت : لا حاجة إلى تعليق المغفرة بهن ، لأن المكروهة على الزنى بخلاف المكروه عليه في أنها غير آثمة . قلت : لعل الإكراه كان دون ما اعتبرته الشريعة من إكراه بقتل . أو بما يخاف منه التلف أو ذهاب العضو ، من ضرب عنيف أو غيره حتى تسلم من الإثم ، وربما قصرت عن الحد الذي تعذر فيه فتكون آثمة وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا لِّلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

(مبينات) هي الآيات التي بينت في هذه السورة وأوضحت في معاني الأحكام والحدود . ويجوز أن يكون الأصل مبينا فيها فاتسع في الظرف . وقرئ بالسكسر ، أى : بينت هي الأحكام والحدود، جعل الفعل لها على المجاز . أو من . بين ، بمعنى تبين . ومنه المثل قد بين الصبح لذى عينين . ﴿ومثلا من﴾ أمثال من ﴿قبلكم﴾ أى قصة عجيبة من قصصهم كقصة يوسف ومريم ، يعنى قصة عائشة رضى الله عنها ﴿وموعظة﴾ ما وعظ به في الآيات والمثل ، من نحو قوله (ولاتأخذكم بهما رأفة في دين الله) ، (لولا إذ سمعتموه) ، (ولولا إذ سمعتموه) : (يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا)

اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

نظير قوله (الله نور السموات والارض) مع قوله (مثل نوره) ، و (يهدي الله لنوره) : قولك : زيد كرم وجود ، ثم تقول : ينعمش الناس بكرمه وجوده . والمعنى : ذو نور السموات ، وصاحب نور السموات ، ونور السموات والارض الحق ، شبه بالنور في ظهوره وبيانه ، كقوله تعالى (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) : أى من الباطل إلى الحق .

وأضاف النور إلى السموات والأرض لأحد معنيين: إما للدلالة على سعة إشرافه وفشوقه إضاءته حتى تضيء له السموات والأرض. وإما أن يراد أهل السموات والأرض وأنهم يستضيئون به (مثل نوره) أى صفة نوره العجيبة الشأن في الإضاءة (كمشكاة) كصفة مشكاة وهي الكوة في الجدار غير النافذة (فيها مصباح) سراج ضخم ثاقب (في زجاجة) أراد قنديلا من زجاج شامى^(١) أزهري. شبه في زهرته بأحد الدراري من الكواكب وهي المشاهير، كالمشترى والزهرة والمريخ وسهيل ونحوها (توقد) هذا المصباح (من شجرة) أى ابتداء تقويه من شجرة الزيتون. يعنى: زويت ذبائله^(٢) بزيتها (مباركة) كثيرة المنافع. أو: لأنها تثبت في الأرض التي بارك فيها للعالمين. وقيل: بارك فيها سبعون نبيا، منهم إبراهيم عليه السلام. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «عليكم بهذه الشجرة زيت الزيتون فتداووا به. فإنه مصحة من الباسور^(٣)»، (لا شرقية ولا غربية) أى منبتها الشام. وأجود الزيتون: زيتون الشام. وقيل: لا في مضحى ولا مقناة^(٤). ولكن الشمس والظل يتعاقبان عليها. وذلك أجود لحملها وأصنى لدهنها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا خير في شجرة في مقناة، ولا نبات في مقناة، ولا خير فيهما في مضحى»^(٥) وقيل: ليست مما تطلع عليه الشمس في وقت شروقها أو غروبها فقط، بل تصيبها بالغداة والعشي جميعاً، فهي شرقية وغربية، ثم وصف الزيت بالصفاء والويص^(٦)، وأنه لثلاثه (يكاد) يضيء من غير نار (نور على نور) أى هذا الذي شبهت به الحق نور متضاعف قد تناصر فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت. حتى لم يبق مما يقوى النور ويزيده إشرافاً ويمده بإضاءة: بقية. وذلك أن المصباح إذا كان في مكان متضائق كالمشكاة كان أضواءه وأجمع لنوره، بخلاف المكان الواسع فإن الضوء ينبت فيه وينتشر، والقنديل أعون شيء على زيادة الإنارة، وكذلك الزيت وصفاءه (يهدي الله) لهذا النور الثاقب (من يشاء) من عباده، أى: يوفق لإصابة الحق من نظر وتدبر بعين عقله

(١) قوله «شامى» نعت لوزجاج، وبوضحه قوله «أزهري» وعبارة النسق: شامى بكسر الزاى، أى قرأ القامى: زجاجة، بكسر الزاى. (ع)

(٢) قوله «يعنى زويت ذبائله بزيتها» في الصحاح: زويت الشيء: جمعه وقبضته. وائزوت الجلدة في النار، أى: اجتمعت وقبضت. وفيه الذبالة، القنيلة، وامله «رويت» بالراء «كا» في عبارة النسق.

(٣) أخرجه الطبراني وابن أبي حاتم في العلل وأبو نعيم في الطب والشمعي كلهم عن طريق عثمان بن صالح عن ابن لمبة عن يزيد بن حبيب عن أبي الخير عن عتبة بن عامر بهذا.

(٤) قوله «ولا مقناة» في الصحاح والمقناة، المكان الذى لا تطلع عليه الشمس.

(٥) لم أجده

(٦) قوله «والويص» البريق واللمعان. أفاده الصحاح. (ع)

والإنصاف من نفسه ، ولم يذهب عن الجادة الموصلة إليه يمينا وشمالا . ومن لم يتدبر فهو كالاعمى الذى سواء عليه جنح الليل الدامس وضخوة النهار الشامس . وعن علي رضي الله عنه : الله نور السموات والأرض ، أى نشر فيها الحق وبثه فأضاءت بنوره . أو نور قلوب أهلها به ، وعن أبي بن كعب رضي الله عنه : مثل نور من آمن به . وقرئ : زجاجة الزجاجه ، بالفتح والكسر : ودرتى : منسوب إلى الدر أى ، أبيض متلألئ . ودرى : بوزن سكيت : يدرأ الظلام بضوته . ودرى كريق . ودرى كالسكينة ، عن أبي زيد . وتوقد : بمعنى تنوقد . والفعل للزجاجة . ويوقد ، وتوقد ، بالتخفيف . ويوقد ، بالتشديد . ويوقد محذف التاء وفتح الباء ، لاجتماع حرفين زائدين وهو غريب . وبمسه بالياء ، لأن التأنيث ليس بتحقيق ، والضمير فاصل .

فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِفَضِيرٍ حِسَابٍ (٣٨)

(في بيوت) يتعلق بما قبله ، أى ، كشكاة في بعض بيوت الله وهى المساجد ، كأنه قيل : مثل نوره كما يرى في المسجد نور المشكاة التى من صفتها كيت وكيت . أو بما بعده ، وهو يسبح . أى : يسبح له رجال في بيوت . وفيها تكرير . كقولك : زيد في الدار جالس فيها . أو محذوف ، كقوله (في تسع آيات) أى سبحوا في بيوت . والمراد بالإذن : الأمر . ورفعها : بناؤها . كقوله (بناها . رفع سمكها فسواها) ، (وإذ يرفع إبراهيم القواعد) وعن ابن عباس رضي الله عنهما : هى المساجد ، أمر الله أن تبنى . أو تعظيمها والرفع من قدرها . وعن الحسن رضي الله عنه : ما أمر الله أن ترفع بالبناء . ولكن بالتعظيم (ويذكر فيها اسمه) أوفق له ، وهو عام في كل ذكر . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : وأن يتلى فيها كتابه . وقرئ : يسبح ، على البناء للمفعول ، ويسند إلى أحد الظروف الثلاثة ، أعنى : (له فيها بالغدو) ، و(رجال) مرفوع بما دل عليه (يسبح) وهو يسبح له . وتسبح ، بالتاء وكسر الباء . وعن أبي جعفر رضي الله عنه بالتاء وفتح الباء . ووجهها أن يسند إلى أوقات الغدو والآصال على زيادة الباء ، وتجعل الاوقات مسبحة . والمراد بها ، كهيد عليه يومان . والمراد وحشهما . والآصال : جمع أصل وهو العشى . والمعنى : بأوقات الغدو ، أى : بالغدوات . وقرئ : والإيصال ، وهو الدخول في الاصيل . يقال : أصل ، كأظهر وأعم . التجارة : صناعة التاجر . وهو الذى يبيع ويشترى للربح ، فإما

أن يريد : لا يشغلهم نوع من هذه الصناعة ، ثم خص البيع لأنه في الإلهاء أدخل . من قبل أن التاجر إذا اتجهت له بيعة رابحة وهي طلبته الكلية من صناعته : ألهته ما لا يليه شراء شيء يتوقع فيه الربح في الوقت الثاني ، لأن هذا يقين وذاك مظنون . وإما أن يسمى الشراء تجارة ، إطلاقاً لاسم الجنس على النوع ، كما تقول : رزق فلان تجارة رابحة . إذا اتجه له بيع صالح أو شراء . وقيل : التجارة لأهل الجلب ، اتجر فلان في كذا : إذا جلبه . التاء في إقامة ، عوض من العين الساقطة للإعلال . والاصل : إقوام ، فلما أضيفت أقيمت الإضافة مقام حرف التعويض ، فأسقطت . ونحوه :

❖ وَأَخْلَفُواكَ عِدَّةَ الْأَمْرِ الَّذِي وَعَدُوا * (١)

وتقلب القلوب والابصار : إما أن تقلب وتتغير في أنفسها : وهو أن تضطرب من الهول والفرع وتشخص ، كقوله (وإذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر) . وإما أن تقلب أحوالها وتتغير فتفقه القلوب بعد أن كانت مطبوعاً عليها لا تفقه ، وتبصر الابصار بعد أن كانت عمياً لا تبصر (أحسن ما عملوا) أي أحسن جزاء أعمالهم ، كقوله (للذين أحسنوا الحسنى) والمعنى يسبحون ويخافون ، ليجزيهم ثوابهم مضاعفاً ويزيدهم على الثواب تفضلاً . وكذلك معنى قوله (الحسنى وزيادة) المثوبة الحسنى وزيادة عليها من التفضل . وعطاء الله تعالى : إما تفضل ، وإما ثواب ، وإما عوض (والله يرزق) ما يفضل به (بغير حساب) فأما الثواب فله حساب لكونه على حسب الاستحقاق .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ

لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)

السراب : ما يرى في الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة . يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجري . والقيعة : بمعنى القاع أو جمع قاع ، وهو المنبسط المستوى من الأرض ، كجيرة في جار . وقرئ : بقيعات : بناء مطبوطة . كديمات وقيمات ، في ديمة وقيمة . وقد جعل بعضهم بقيعة بناء مدورة ، كرجل عزهاة . شبه ما يعمل من لا يعتقد الإيمان ولا يتبع الحق من الأعمال الصالحة التي يحسبها تنفعه عند الله وتنجيه من عذابه ثم تخيب في العاقبة أمه ويلقى خلاف ما قدر ، بسراب يراه الكافر بالساهرة وقد غلبه عطش يوم القيامة فيحسبه ماء ، فيأتيه فلا يجد ما رجاه ويجد زبانية الله عنده يأخذونه فيعتلونه إلى جهنم فيسقونه الحميم والغساق ، وهم الذين قال الله فيهم (عاملة ناصبة) ، (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) ، (وقد منّا إلى ما عملوا من عمل

فجلائه هباءً منثوراً) وقيل : نزلت في عتبة بن ربيعة بن أمية ؛ قد كان تعبد ولبس المسوح والتبس الدين في الجاهلية ، ثم كفر في الإسلام .

أَوْ كَظُلُمْتِ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ بَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ
ظُلُمْتُ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ
نُورًا قَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٤٠﴾

اللجى : العميق الكثير الماء ، منسوب إلى اللج وهو معظم ماء البحر . وفى (أخرج) ضمير الواقع فيه (لم يكد يراها) مبالغة في لم يرها : أى : لم يقرب أن يراها ؛ فضلاً عن أن يراها . ومثله قول ذى الرمة :

إِذَا غَبَرَ النَّأْيُ الْمُحِجِّينَ لَمْ يَكِدْ رَسِيسُ الْهَوَى مِنْ حُبِّ مَيَّةٍ يَبْرَحُ (١)

أى لم يقرب من البراح فما باله يبرح ؟ شبه أعمالهم أولاً في فوات نفعها وحضور ضررها بسراب لم يجده من خدعه من بعيد شيئاً ، ولم يكفه خيبة وكداً أن لم يجد شيئاً كغيره من السراب ، حتى وجد عنده الزبانية تعتله إلى النار ، ولا يقتل ظمأه بالماء . وشبهها ثانياً في ظلمتها وسوادها لكونها باطلة ، وفى خلوها عن نور الحق بظلمات متراكمة من لج البحر والأمواج والسحاب ، ثم قال : ومن لم يوله نور توفيقه وعصمته ولطفه ، فهو فى ظلمة الباطل لا نور له . وهذا الكلام مجراه مجرى الكنايات ؛ لأن الإطاف إنما تردف الإيمان والعمل . أو كونهما مترقبين . ألا ترى إلى قوله (والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا) وقوله (ويضل الله الظالمين) وقرئ : سحاب ظلمات ، على الإضافة . وسحاب ظلمات ، برفع (سحاب) وتنوينه وجز (ظلمات) بدلا من (ظلمات) الأولى .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّتِ كُلُّ

(١) إذا غبر النأى المحجين لم يكد رسيس الهوى من حب مية يبرح
فلا القرب يدنو من هواها ملالة ولا حبها أن تنزع الدار يبرح

لذى الرمة . والنأى : البعد . ويقال : رس وأرس ، إذا لزم . والريسيس : بقية المرض اللازمة داخل البدن . ويبرح : يذهب ، أى : لم يقرب من البراح . وروى أنه لما قدم ذو الرمة الكوفة اعترض عليه ابن شبرمة فى ذلك بأنه يدل على زوال رسيس الهوى ، فغيره ذو الرمة بقوله : لم أجد . وقال ابن عتبة : حدثت أبى بذلك فقال : أعطأ ابن شبرمة ، وأخطأ ذو الرمة فى تغييره ، وإنما هو كقولته تعالى (لم يكد يراها) والملالة : السامة . وتنزع : تبعه . وينزع : يزول .

قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾

(صافات) يصفن أجنحتهن في الهواء . والضمير في (علم) لكل أو لله . وكذلك في (صلاته وتسبيحه) والصلاة : الدعاء . ولا يبعد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة التي لا يكاد العقلاء يهتدون إليها .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ

يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ

وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ بَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾ يُغَلِّبُ اللَّهُ اللَّعْلَ

وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَرِ ﴿٤٤﴾

(يرجى) يسوق . ومنه : البضاعة المزجاة : التي يزجها كل أحد لا يرضاه . والسحاب يكون واحداً كالعلماء ، وجمعاً كالرباب ^(١) . ومعنى تأليف الواحد : أنه يكون قزعا ^(٢) فيضم بعضه إلى بعض . وجاز بينه وهو واحد ؛ لأن المعنى بين أجزائه ، كما قيل في قوله :

* ... يَبْنِي الدُّخُولَ فَحَوْمَلٍ * ^(٣)

والركام : المتراكم بعضه فوق بعض . والودق : المطر (من خلاله) من فتوقه ومخارجه : جمع خلل ، كجبال في جبل . وقرى : من خلله (وينزل) بالتشديد . ويسكاد سنا : على الإدغام ^(٤) .

(١) قوله «كالرباب» في الصحاح : الرباب - بالفتح - سحاب أبيض . (ع)

(٢) قوله «أن يكون قزعا» القزوع : قطع من السحاب رقيقة ، الواحدة : قزعة . (ع)

(٣) قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول لحومل

لامرئ القيس مطلع معافته ، وروى أنه راق ولم يقل شعرا ، فقال أبوه : إنه ليس أبيض . وأمر اثنين من خاصته أن يخرجاه إلى مكان بعيد فذبجها هناك ، فلما أرادا ذبحه بكى وأنشأ البيت إلى آخر القصيدة ، فرجما به . وقال : هذا أشعر من على وجه الأرض : لقد وقف واستوف ، وبكى واستبكي ، وذكر واستذكر وهي الحبيب والدار في نصف بيت . والسقط - مثلث - : طرف اللوى ، أى : المكان المتلوى المعوج . وهو هنا اسم مكان بعينه . وبين لا يضاف إلى المتعدد المعنى ، أو معطوف عليه بالواو خاصة . فالمعنى : بين أجزاء الدخول لحومل . أى : أجزاء حومل كلاهما اسم موضع ، ولعل «سقط اللوى» تمتد بينهما . ويجوز أن القاء بمعنى الواو . فيكون «سقط اللوى» بين هذين الموضعين ، وتكون استمارة القاء هنا للدلالة على قرب ما بين الدخول وحومل .

(٤) قوله «ويسكاد سنا على الإدغام» لعل رسمه هكذا «بكاسنا» إلا أن يعتبر ما قبل الإدغام . (ع)

وبرقه : جمع برقة ، وهى المقدار من البرق ، كالغرفة واللقمة . وبرقه : بضمين للإتباع . كما قيل فى جمع فعلة : فعلات كظلمات . وسناء برقه : على المذالمقصور ، بمعنى الضوء . والممدود : بمعنى العلو والارتفاع ، من قولك : سنى . المرتفع . و ﴿ يذهب بالبصار ﴾ على زيادة الباء ، كقوله (ولا تلقوا بأيديكم) عن أبى جعفر المدنى . وهذا من تعديد الدلائل على ربوبيته وظهور أمره ، حيث ذكر تسبيح من فى السموات والأرض وكل مايطير بين السماء والأرض ودعائهم له وابتهاهم إليه ، وأنه سحر السحاب التسخير الذى وصفه وما يحدث فيه من أفعاله حتى ينزل المطر منه ، وأنه يقسم رحمة بين خلقه ويقبضها ويبسطها على ما تقتضيه حكمته . ويرهم البرق فى السحاب الذى يكاد يخطف أبصارهم . ليحذروا ويحذروا . ويعاقب بين الليل والنهار . ويخالف بينهما بالطول والقصر . وما هذه إلا براهين فى غاية الوضوح على وجوده وثباته . ودلائل منادية على صفاته . لمن نظر وفكر وتبصر وتدبر . فإن قلت : متى رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسبيح من فى السموات ودعائهم . وتسبيح الطير ودعائه ، وتنزيل المطر من جبال برد فى السماء ، حتى قيل له : ألم تر ؟ قلت : علمه من جهة إخبار الله إياه بذلك على طريق الوحى . فإن قلت : ما الفرق بين من الأولى والثانية والثالثة فى قوله (من السماء من جبال) ، (من برد) ؟ قلت : الأولى لا ابتداء الغاية . والثانية للتبويض . والثالثة للبيان . أو الأوليات لا ابتداء . والآخرة للتبويض . ومعناه : أنه ينزل البرد من السماء من جبال فيها ، وعلى الأول مفعول . ينزل . من من جبال . . فإن قلت : ما معنى (من جبال فيها من برد) ؟ قلت : فيه معنيان . أحدهما : أن يخلق الله فى السماء جبال برد كما خلق فى الأرض جبال حجر . والثانى : أن يريد الكثرة بذكر الجبال ، كما يقال : فلان يملك جبالا من ذهب .

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

وقرى : خالق كل دابة . ولما كان اسم الدابة موقعا على المميز وغير المميز ، غلب المميز فأعطى ماوراءه حكمه ، كأن الدواب كلهم يميزون . فمن ثمة قيل : فمنهم ، وقيل : من يمشى فى الماشى على بطن والماشى على أربع قوائم . فإن قلت : لم نكر الماء فى قوله (من ماء) ؟ قلت : لأن المعنى أنه خلق كل دابة من نوع من الماء يختص بتلك الدابة . أو خلقها من ماء مخصوص وهو النطفة ، ثم خالف بين المخلوقات من النطفة ، فمنها هوام ومنها بهائم ومنها ناس .

ونحوه قوله تعالى (يسق بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل) . فإن قلت : فما باله معزفاً في قوله (وجعلنا من الماء كل شيء حي) ؟ قلت : قصدت معنى آخر : وهو أن أجناس الحيوان كلها مخلوقة من هذا الجنس ^(١) الذي هو جنس الماء ، وذلك أنه هو الأصل وإن تخللت بينه وبينها وسائط . قالوا : خلق الملائكة من ریح خلقها من الماء ، والجن من نار خلقها منه ، وآدم من تراب خلقه منه . فإن قلت : لم جاءت الأجناس الثلاثة على هذا الترتيب ؟ قلت : قدم ما هو أعرق في القدرة وهو الماشي بغير آلة مشي من أرجل أو قوائم ، ثم الماشي على رجلين ، ثم الماشي على أربع . فإن قلت : لم سمي الزحف على البطن مشياً ؟ قلت : على سبيل الاستعارة ، كما قالوا في الأمر المستمر : قد مشى هذا الأمر . ويقال : فلان لا يمشي له أمر . ونحوه استعارة الشقة مكان الجحفة ^(٢) ، والمشفر مكان الشفة . ونحو ذلك . أو على طريق المشاكلة لذكر الزاحف مع الماشين .

لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾
وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرُّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

(وما أولئك بالمؤمنين) إشارة إلى القائلين آمنا وأطعنا . أو إلى الفريق المتولى ، فعناه على الأول : إعلام من الله بأن جميعهم منتف عنهم الإيمان لا الفريق المتولى وحده . وعلى الثاني : إعلام بأن الفريق المتولى لم يكن ماسبق لهم من الإيمان إيماناً ، إنما كان ادعاء باللسان من غير مواطاة القلب ؛ لأنه لو كان صادراً عن صحة معتقد وطمأنينة نفس لم يتعقبه التولى والإعراض . والتعريف في قوله (بالمؤمنين) دلالة على أنهم ليسوا بالمؤمنين الذين عرفت : وهم الثابتون المستقيمون على الإيمان . الموصوفون في قوله تعالى (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) .

(١) قال محمود : وإن قلت لم نكر ماء هنا وعرفه في قوله (وجعلنا من الماء كل شيء حي) ؟ قلت : الفرض فيما نحن فيه أنه تعالى خلق كل دابة من نوع من الماء مخصوص وهو النطفة ، ثم خالف بين المخلوقات بحسب اختلاف نطفها ، فمنها كذا ومنها كذا . ونحوه قوله (يسق بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل) . وأما آية (اقرب) فالفرض فيها أن أجناس الحيوانات كلها مخلوقة من هذا الجنس ، قال أحد : وتحرير الفرق أن المقصد في الأول إظهار الآية بأن شيئاً واحداً تكون منه بالقدرة أشياء مختلفة ، ذكر تفصيلها في آية النور والرعن . والمقصد في آية اقرب : أنه خلق الأشياء المتفقة في جنس الحياة من جنس الماء المختلف الأنواع ، فذكر معزفاً ليشمل أنواعه المختلفة . فالآية في الأول لاخراج المختلف من المتفق ، والله أعلم .

(٢) قوله . مكان الجحفة ، في الصحاح : الجحفة للحافر ، كالشقة للإنسان ، أي لدى الحافر . (ع)

وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾

وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾

معنى ﴿إلى الله ورسوله﴾ إلى رسول الله كقولك : أعجبنى زيد وكرمه ، تريد : كرم زيد .
ومنه قوله : * غَلَسْنَاهُ قَبْلَ الْقَطَا وَفَرَطُهُ * (١)

أراد : قبل فرط القطا . روى : أنها نزلت في بشر المنافق وخصمه اليهودى حين اختصما في أرض ، فجعل اليهودى يجزئه إلى رسول الله ، والمنافق يجزئه إلى كعب بن الأشرف ويقول : إن محمداً يحيف علينا . وروى أن المغيرة بن وائل كان بينه وبين علي بن أبي طالب رضى الله عنه خصومة في ماء وأرض ، فقال المغيرة : أفا محمد فلست آتيه ولا أحاكم إليه فإنه يبعضنى وأنا أخاف أن يحيف على ﴿إليه﴾ صلة يأتوا ، لأن . أتى و . جاء ، قد جاءا معذيين يأتى ، أو يتصل بمذعنين لأنه في معنى مسرعين في الطاعة . وهذا أحسن لتقدم صلته ودلالته على الاختصاص . والمعنى : أنهم لمعرفتهم أنه ليس معك إلا الحق المز والعدل البحت . يزورون عن المحاكمة إليك إذا ركبهم الحق ، لتلا تنزعه من أحداقهم بقضائك عليهم لخصومهم ، وإن ثبت لهم حق على خصم أسرعوا إليك ولم يرضوا إلا بحكومتك ، لتأخذ لهم ما ذاب لهم في ذمة الخصم (٢) .

أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ آرْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ

بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾

(١) ومنهل من الفيافي أوسطه غلسته قبل القطا وفرطه

في ظل أجاج المقيظ منبسط

المنهل : الوادى ومسيل الماء . والفيافي : الصحارى ، جمع فباء . والظاهر أن أوسطه صفة منهل الجرور برب المحذوفة ، وهماؤه للسكت ، ولوجعلته بدل بعض وهما . ضمير المنهل : لزم جر المعرفة برب ، مع إمكان التخلص عنه إلا عند من جعل ضمير النكرة نكرة فلا محذور . و يروى : من القلا في أوسطه . والقلا واحد قلاة ، أى : مفازة . والرواية : غلسته بالتشديد ، أى سرنه في وقت الغلس وهو ظلمة الفجر ، أو وردنه فيه . والفرط من القطا : المتقدمات السابقات لغيرها ، جمع فارط ، كركع وراكع . وخصها لأنها أسرع الطير خروجاً من أوكارها . وأجاج المقيظ : شعاع الشمس يرى في شدة القبط أى الحر كأنه يسير . وأجت النار : اشتعلت ، والحر : اشتد ، والظلم : أسرع وله خفيف ، والأمر : اختلط . وأجاج : صفة مبالغة منه . وأبط الشيء فهو منبط : دام واستمر فبطه الدائم الكثير منه . والمعنى : أنه يبتدىء السير قبل السابقات من القطا ، ويستمر عليه مع اشتداد الحر في ظل شعاع الشمس ، لا يظله إلا هو وإن كان له ظل ، وهذا من المبالغة في النفي . ويجوز أن يعتاده فصار عنده كالظل . ويجوز أن المعنى : تحت كنفه وسقته وجاهه الشبيه بالظل .

(٢) قوله « وما ذاب لهم في ذمة الخصم » في الصحاح : ذاب لى عليه من الحق كذا : إذا وجب وثبت . (ع)

ثم قسم الأمر في صدودهم عن حكومته إذا كان الحق عليهم بين أن يكونوا مرضى القلوب منافقين ، أو مرتابين في أمر نبوته ، أو خائفين الحيف في قضائه . ثم أبطل خوفهم حيفه بقوله (بل أولئك هم الظالمون) أى لا يخافون أن يحيف عليهم لمعرفتهم بحاله ، وإنما هم ظالمون يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم ويتم لهم جحوده ، وذلك شئ لا يستطيعونه في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن ثمة يأبون المحاكاة إليه .

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا

سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾

وعن الحسن : قول المؤمنين ، بالرفع والنصب أقوى ، لأن أولى الاسمين بكونه اسما لكان . أو غلها في التعريف ؛ وأن يقولوا : أو غل ، لأنه لاسيل عليه للتكثير ، بخلاف قول المؤمنين ، وكان هذا من قبيل كان في قوله (ما كان لله أن يتخذ من ولد) ، (ما يكون لنا أن نتكلم بهذا) وقرئ ، ليحكم ، على البناء للدفعول . فإن قلت : إلام أسند يحكم ؟ ولا بد له من فاعل . قلت : هو مسند إلى مصدره . لأن معناه : ليفعل الحكم بينهم . ومثله : جمع بينهما ؛ وألف بينهما . ومثله (لقد تقطع بينكم) فيمن قرأ (بينكم) منصوبا : أى وقع التقطع بينكم . وهذه القراءة مجاوبة لقوله (دعوا) .

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَّقِ اللَّهَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾

قرئ : ويتقه ، بكسر القاف والهاء مع الوصل وبغير وصل . وبسكون الهاء . وبسكون القاف وكسر الهاء : شبه تقه بكتف نخف ، كقوله :

• قَالَتْ سُلَيْمَى اشْتَرَى لَنَا سَوْيقًا • ^(١)

ولقد جمع الله في هذه الآية أسباب الفوز . وعن ابن عباس في تفسيرها (ومن يطع الله) في

(١) قالت سليمان اشترى لنا سويقاً وهات غير البر أو دقيقاً

للغزاة الكندي . يقال : شار العسل ونحوه ، واشتاره : إذا اجتأه وأخذه من مكانه . فقوله « اشترى » أمر من الاشتيار . ويحتمل أنه من الاشتراء . وسكنت راءه للضرورة ، أى : اطلب لنا سويقاً . وهو ما عمله العرب من الحنطة والقمير . وهات : بكسر التاء أمر للذكر ، طلبت منه السويق للأدم ، وخبرته بين أن يأتي بخبز وبين أن يأتي بدقيق وهى خبره . ويرى : « وهات بر البخن أو دقيقاً ، والبخن : الأرض التى تثبت من غير سقى ، وفى بقية الرجز أنها طلبت منه لحما وغادما وصيفا لتياها بالمصفر ، فقال :

يا سلم لو كنت لذا مطيقاً ما كان عيشى عندكم ترنيقا

أى : مدة ترنيق الطائر ، أى : صف جناحيه في الهواء .

فرائضه (ورسوله) في سننه (ويخش الله) على ما مضى من ذنوبه (ويتقه) فيما يستقبل . وعن بعض الملوك أنه سأل عن آية كافية قتلت له هذه الآية .

وَأَقْسُمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْنَاهُمْ لَنَخْرُجُنَّ قُلُوبَهُمْ لَأَتَقِسُوا طَاعَةَ مَعْرُوفَةٍ

إِنْ أَمَرَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾

جهد يمينه : مستعار من جهد نفسه : إذا بلغ أقصى وسعها ، وذلك إذا بالغ في البين وبلغ غاية شدتها ووكدتها . وعن ابن عباس رضى الله عنه : من قال بالله ، جهد يمينه . وأصل : أقسم جهد البين : أقسم يجهد البين جهدا ، لحذف الفعل وقدم المصدر فوضع موضعه مضافا إلى المفعول كقوله : (فضرب الرقاب) وحكم هذا المنصوب حكم الحال ، كأنه قال : جاهدين أيمانهم . و (طاعة معروفة) خبر مبتدأ محذوف . أو مبتدأ محذوف الخبر ، أى : أمركم والذي يطلب منكم طاعة معروفة معلومة لا يشك فيها ولا يرتاب ، كطاعة الخلفاء من المؤمنين الذين طابق باطن أمرهم ظاهره ، لا أيمان تقسمون بها بأفواهكم وقلوبكم على خلافها . أو طاعتكم طاعة معروفة ، بأنها بالقول دون الفعل . أو طاعة معروفة أمثل وأولى بكم من هذه الأيمان الكاذبة . وقرأ الزيدى : طاعة معروفة ، بالنصب على معنى : أطيعوا طاعة (إن الله خير) يعلم ما في ضمائركم ولا يخفى عليه شيء من سرائركم ، وأنه فاضحكم لا محالة ومجازيكم على نفاقكم .

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكُمْ مَآثِلُ

مَآثِلِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾

صرف الكلام عن الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات وهو أبلغ في تبيكهم . يريد : فإن تولوا فما ضررتهم وإنما ضررتهم أنفسهم . فإن الرسول ليس عليه إلا ما حملة الله وكلفه من أداء الرسالة ، فإذا أدى فقد خرج عن عهده تكليفه . وأما أثم فعليكم ما كلفتم من التلق بالقبول والإذعان ، فإن لم تفعلوا وتوليتهم فقد عرضتم نفوسكم لسخط الله وعذابه . وإن أطيعتموه فقد أحرزتم نصيبكم من الخروج عن الضلالة إلى الهدى ، فالنفع والضرر عائدان إليكم ، وما الرسول إلا ناصح وهاد ، وما عليه إلا أن يبلغ ما له نفع في قبولكم ^(١) ، ولا عليه ضرر في توليكم . والبلاغ : بمعنى التبليغ ، كالإدعاء : بمعنى التأدية . ومعنى المبين : كونه مقرونا بالآيات والمعجزات .

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ

(١) قوله في قبولكم ، عبارة النفس : في قلوبكم : (ع)

كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ
وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ
بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾

الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن معه . ومنكم : للبيان ، كالتى فى آخر سورة
الفتح : وعدهم الله أن ينصر الإسلام على الكفر . ويوزعهم الأرض ، ويجعلهم فيها خلفاء ، كما
فعل بنى إسرائيل ، حين أورشليم مصر والشام بعد إهلاك الجبابرة ، وأن يمكن الدين المرتضى
وهو دين الإسلام . وتمكينه : تثبيته وتوطيده ، وأن يؤمن سربهم ويزيل عنهم الخوف الذى
كانوا عليه ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين ، ولما
هاجروا كانوا بالمدينة يصبحون فى السلاح ويمسون فيه . حتى قال رجل : ما بأتى علينا يوم نأمن
فيه ونضع السلاح ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : لا تغفرون ^(١) إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم
فى الملاء العظيم محتيا ليس معه حديدة ^(٢) ، فأبجز الله وعده وأظهرهم على جزيرة العرب ، وافتتحوا
بعد بلاد المشرق والمغرب . ومزقوا ملك الأكرسة وملكوها خرائثهم . واستولوا على الدنيا ،
ثم خرج الذين على خلاف سيرتهم فكفروا بتلك الأئمة وفسقوا . وذلك قوله صلى الله عليه
وسلم « الخلافة بعدى ثلاثون سنة ، ثم يملك الله من يشاء فتصير ملكا ، ثم تصير بيزى ^(٣) :
قطع سيل ، وسفك دماء ، وأخذ أموال بغير حقها ^(٤) ، وقرئ : كما استخلف ، على البناء للمفعول
وليبدلنهم : بالتشديد . فإن قلت : أين القسم الملتقى باللام والنون فى (ليستخلفنهم) ؟ قلت :
هو محذوف تقديره : وعدهم الله ، وأقسم ليستخلفنهم . أو نزل وعد الله فى تحققه منزلة القسم .

(١) قوله : لا تغفرون إلا يسيرا ، أى لا يقفون . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) أخرجه الطبري من طريق أبى جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى (وعد الله
الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض) قال : مكث النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين خائفا
يدعو إلى الله سرا وعلاية . ثم أمر بالهجرة إلى المدينة فكث بها مو وأصحابه - إلى آخره ، وصله الحاكم وابن
مردويه دون أوله بذكر أبى بن كعب فيه . وأوله « لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار .
رمتهم العرب عن قوس واحدة لا يبيتون إلا بالسلاح ... الحديث » .

(٣) قوله « تصير بيزى » فى الصحاح : بزه بيزه برا : ملبه . والاسم البيزرى مثل الحصيصى . (ع)

(٤) لم أجده . وأوله فى السنن وابن ماجه والحاكم وأحمد والطبرانى والبيهقى والعلوى كلهم من حديث سفينة
« الخلافة فى أمى ثلاثون سنة ثم يملك بعد ملك » وفى لفظ « ثم يملك الله من يشاء » وروى أحمد وابن أبى شبة
والطبرانى من طريق عبد الرحمن بن سابط عن أبى ثعلبة عن أبى عبيدة ومعاذ بن جبل مرفوعا . « إن الله بدأ هذا
الامر نبوة ثم يصير خلافة ... الحديث » .

فتلقى بما يتلقى به القسم ، كأنه قيل : أقسم الله ليستخلفنهم . فإن قلت : ما محل ﴿ يعبدونني ﴾ ؟ قلت : إن جعلته استئنافاً لم يكن له محل ، كأن قائله قال : ما لهم يستخلفون ويؤمنون ؟ فقال : يعبدونني . وإن جعلته حالاً عن وعدهم ، أى وعدهم الله ذلك فى حال عبادتهم وإخلاصهم ، فحله النصب ﴿ ومن كفر ﴾ يريد كفران النعمة : كقوله ﴿ فكفرت بأنعم الله ﴾ . ﴿ فأولئك هم الفاسقون ﴾ أى : هم الكاملون فى فسقهم . حيث كفروا تلك النعمة العظيمة وجسروا على غمطها ^(١) . فإن قلت : هل فى هذه الآية دليل على أمر الخلفاء الراشدين ؟ قلت : أوضح دليل وأبينه : لأن المستخلفين الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم هم .

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ كَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾

﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ معطوف على ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ وليس يبعد أن يقع بين المعطوف والمعطوف عليه فاصل وإن طال : لأن حق المعطوف أن يكون غير المعطوف عليه . وكثرت طاعة الرسول : تأكيداً لوجوبها .

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾
وقرئ : لا يحسبن ، بالياء . وفيه أوجه : أن يكون ﴿ معجزين فى الأرض ﴾ هما المفعولان . والمعنى : لا يحسبن الذين كفروا أحداً يعجز الله فى الأرض حتى يطمعوا هم فى مثل ذلك . وهذا معنى قوى جيد . وأن يكون فيه ضمير الرسول لتقدم ذكره فى قوله ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾ وأن يكون الأصل : لا يحسبهم الذين كفروا معجزين ، ثم حذف الضمير الذى هو المفعول الأول ، وكان الذى سوغ ذلك أن الفاعل والمفعولين لما كانت لشيء واحد ، اقتنع بذكر اثنين عن ذكر الثالث ، وعطف قوله ﴿ وماؤاهم النار ﴾ على لا يحسبن الذين كفروا معجزين : كأنه قيل : الذين كفروا لا يفوتون الله وماؤاهم النار . والمراد بهم : المقسمون جهد أيمانهم .

بِأَيْهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيْسَ أَذْنُكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدُهَا أَنْ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ

وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾

(١) قوله « على غمطها » أى : احتقارها . (ع)

أمر بأن يستأذن العبيد. وقيل: العبيد والإماء والأطفال الذين لم يحتلوا من الأحرار (ثلاث مرات) في اليوم والليلة: قبل صلاة الفجر؛ لأنه وقت القيام من المضاجع وطرح ما ينাম فيه من الثياب ولبس ثياب اليقظة. وبالظهرية: لأنها وقت وضع الثياب للقائلة. وبعد صلاة العشاء؛ لأنه وقت التجرد من ثياب اليقظة والالتحاف بثياب النوم. وسمى كل واحدة من هذه الأحوال عورة؛ لأن الناس يختل تسترهم وتحفظهم فيها. والعورة: الخلل. ومنها: أعور الفارس، (١) وأعور المسكان، والأعور: المختل العين. ثم عذرهم في ترك الاستئذان وراء هذه المرات، وبين وجه العذر في قوله (طوافون عليكم) يعني أن بكم وبهم حاجة إلى المخاطبة والمداخلة: يطوفون عليكم للخدمة، وتطوفون عليهم للاستخدام؛ فلو جزم الأمر بالاستئذان في كل وقت، لآذى إلى الحرج. وروى أن مدح بن عمرو: وكان غلاماً أنصاريًا: أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت الظهر إلى عمر ليدعوه، فدخل عليه وهو نائم وقد انكشف عنه ثوبه، فقال عمر: لوددت أن الله عز وجل نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا أن لا يدخلوا علينا هذه الساعات إلا بإذن، ثم انطلق معه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فوجده وقد أزيلت عليه هذه الآية (٢): وهي إحدى الآيات المنزلة بسبب عمر رضي الله تعالى عنه. وقيل: نزلت في أسماء بنت أبي مرشد (٣)، قالت: إنا لندخل على الرجل والمرأة ولعلهما يكونان في لحاف واحد (٤). وقيل: دخل عليها غلام لها كبير في وقت كرهت دخوله، فأتمت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إن خدمنا وغلامنا يدخلون علينا في حال نكهرها. وعن أبي عمرو: (الحلم) بالسكون. وقرئ (ثلاث عورات) بالنصب بدلا عن ثلاث مرات، أي: أوقات ثلاث عورات. وعن الأعمش: عورات على لغة هذيل. فإن قلت ما محل ليس عليكم؟ قلت: إذا رفعت ثلاث عورات كان ذلك في محل الرفع على الوصف. والمعنى: هن ثلاث عورات مخصوصة بالاستئذان، وإذا نصبت: لم يكن له محل وكان كلاما مقررًا للأمر بالاستئذان في تلك الأحوال خاصة: فإن قلت: بم ارتفع (بعضكم)؟ قلت: بالابتداء وخبره (على بعض) على معنى: طائف على بعض، وحذف لأن طوافون يدل عليه. ويجوز أن يرتفع يطفو مضمراً لتلك الدلالة.

وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٥٩

(١) قوله «ومنها أعور الفارس» في الصحاح أعور الفارس، إذا بدا فيه موضع خلل للضرب. (ع)

(٢) هكذا نقله الثعلبي والواحدي والبعثي وابن عباس رضي الله عنهما بغير سند.

(٣) قوله «وقيل نزلت في أسماء بنت أبي مرشد» لعنه مرشد، كما في عبارة النسفي. (ع)

(٤) هكذا نقله الثعلبي والواحدي عن مقاتل.

(الأطفال منكم) أى من الأحرار دون المالك (الذين من قبلهم) يريد : الذين بلغوا الحلم من قبلهم ، وهم الرجال . أو الذين ذكروا من قبلهم في قوله (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا) الآية . والمعنى أن الأطفال مأذون لهم في الدخول بغير إذن إلا في العورات الثلاث ، فإذا اعتاد الأطفال ذلك ثم خرجوا عن حد الطفولة بأن يحتلوا أو يبلغوا السن التي يحكم فيها عليهم بالبلوغ ، وجب أن يפטّموا عن تلك العادة ويحملوا على أن يستأذنوا في جميع الأوقات كما الرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن : وهذا مما الناس منه في غفلة ، وهو عندهم كالشريعة المنسوخة . وعن ابن عباس : آية لا يؤمن بها أكثر الناس : آية الإذن ، وإني لأمر جلّلى أن تستأذن على . وسأل عطاء : أأستأذن على أختي؟ قال . نعم وإن كانت في حجر كتمونها ، وتلا هذه الآية . وعنه . ثلاث آيات جدهن الناس : الإذن كله . وقوله (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فقال ناس : أعظمكم بيتا . وقوله (وإذا حضر القسمة) . وعن ابن مسعود . عليكم أن تستأذنوا على آبائكم وأمهاتكم وأخواتكم . وعن الشعبي : ليست منسوخة ، فقيل له . إن الناس لا يعملون بها ، فقال . الله المستعان . وعن سعيد بن جبير يقولون هي منسوخة ، ولا والله ما هي منسوخة ، ولكن الناس تهاونوا بها : فإن قلت ما السن التي يحكم فيها بالبلوغ ؟ قلت : قال أبو حنيفة ثمانى عشرة سنة في العلام . وسبع عشرة في الجارية . وعامة العلماء على خمس عشرة فيهما . وعن علي رضي الله عنه أنه كان يعتبر القامة ويقدره بخمسة أشبار . وبه أخذ الفرزدق في قوله :

مَا زَالَ مُذْ عَقَدْتَ يَدَاهُ إِزَارَهُ فَسَمَا فَأَذْرَكَ حَمْسَةَ الْأَشْبَارِ (١)

(١) ما زال مذ عقدت يده إزاره وسما فأدرك خمسة الأشبار

يدنى خوافق من خوافق تلتقى في ظل معتبط النبار مثار

الفرزدق : يرى يزيد بن المهلب . يقول : لا زال يحارب من حين عقدت يده إزاره على نفسه كناية عن تميزه فيثوى أمور نفسه ، فذ : ظرف زمان لاحقاً إلى الجملة ، ولكنها تفيد معنى من الابتدائية أيضاً ، لأن المعنى : ما زال يقتحم الحروب من حين بلغ أشده إلى أن مات . وإسناد العقد إلى اليد من باب الاستناد للآلة ، لأنه عاقد بها . وسما : ارتفع فبلغت قامته مقدار خمسة الأشبار . قيل : المراد بها مقدار السيف ، وذلك كناية عن بلوغه أشده . وقيل : المراد بها مقدار القبر ، وإدراكها كناية عن موته . أى : من حين تميزه إلى حين موته يهيج الحروب وهو أبلغ في المعنى . وعطف « أدرك » بالفاء دلالة على قصر مدته وقرب موته . ويرى : فسما ، بالفاء . ويجوز أن يكون معناه : ارتفع قدره ، فيكون قد حكى جميع حالاته . وقوله ويدنى خبر ما زال ، أى : يقرب رايات مضطربات إلى أخرى في الحرب . أو خيلا مضطربة إلى مثله . والمراد أنه يقرب الكتاب بعضها إلى بعض حتى تلتقى كلها في ظل معتبط من النبار . والمعتبط - بالعين المهملة - : اسم مفعول ، أى : لم يقاتل فيه غيره قبله فيثيره من موضعه ، بل هو الذي أثاره منه . أو أنه هو الذي أخرجه من الأرض الصلبة فلم يكن موجوداً قبل . ويرى بالعين المعجمة . أى : أكثر : والمعنى : أنه كان يزاد منه ويكثره . ويجوز أنه اسم مكان . ويرى :

واعتبر غيره الإنبات . وعن عثمان رضي الله عنه : أنه سئل عن غلام ، فقال : هل اخضر إزاره ؟

وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّسِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ
رِءَايَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾

القاعد : التي قعدت عن الحيض والولد لكبرها (لا يرجون نكاحاً) لا يطمعن فيه : والمراد بالثياب : الثياب الظاهرة كالملحفة والجلباب الذي فوق الخمار (غير متبرجات بزينة) غير مظهرات زينة (١) ، يريد : الزينة الخفيفة التي أرادها في قوله (ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن) أو غير قاصدات بالوضع التبرج ، ولكن التخفف إذا احتجن إليه . والاستعفاف من الوضع خير لهن لما ذكر الجائر عقبه بالمستحب ، بعثا منه عن اختيار أفضل الأعمال وأحسنها ، كقوله (وأن تعفوا أقرب للتقوى) ، (وأن تصدقوا خير لكم) . فإن قلت : ما حقيقة التبرج ؟ قلت : تكلف إظهار ما يجب إخفاؤه من قولهم : سفينة بارج ، لا غطاء عليها . والبرج : سعة العين ، يرى بياضها محيطاً بسوادها كله لا يغيب منه شيء ، إلا أنه اختص بأن تكشف المرأة للرجال بإبداء زينتها وإظهار محاسنها . وبدأ ، وبرز ، بمعنى : ظهر ، من أخوات : تبرج وتبلج ، كذلك .

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا
عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ
أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ
أَوْ بُيُوتِ أُخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مَقَاحٍ أَوْ صَدِيقِكُمْ

== معترك المعاج ، وهو موضع المعركة . والمعاج : الفبار . ومثار : صفة معتبط إن لم يتعرف بالاضافة . ويجوز أن أصله : مثاره ، بالاضافة للضمير ، لغذف الضرورة . وفي إثبات الظل للفبار المعتبط المثار : دلالة على أنه مزارم حاجب ضوء الشمس عن المحاربين .

(١) قال أحد : قرر الزخشرى هذه الآية على ظاهرها ، ويظهر لي والله أعلم أن قوله تعالى (غير متبرجات بزينة) من باب . على لاحق لا يهتدى بمثاره . أى : لا منار فيه فهتدى به ، وكذلك ، المراد هنا : والقواعد من النساء اللاتي لازية لهن فيتبرجن بها ، لأن الكلام فيمن هي بهذه المثابة ، وكأن الفرض من ذلك أن هؤلاء استعافهم عن وضع الثياب خير لهن ، فإظنك بذوات الزينة من الثياب ، وأبلغ ما في ذلك أنه جعل عدم وضع الثياب في حق القواعد من الاستعفاف إيذاناً بأن وضع الثياب لا مدخل له في العفة ، هذا في أقواعد . فكيف بالكواعب ؟ والله أعلم .

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَعِمَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَوِيلَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

كان المؤمنون يذهبون بالضعفاء وذوى العاهات إلى بيوت أزواجهم وأولادهم وإلى بيوت قراياتهم وأصدقائهم فيطعمونهم منها ، فخالج قلوب المطعمين والمطعمين ريبة في ذلك ، وخافوا أن يلحقهم فيه حرج ؛ وكرهوا أن يكون أكلًا بغير حق ؛ لقوله تعالى (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) فقليل لهم : ليس على الضعفاء ولا على أنفسكم ؛ يعنى : عليكم وعلى من في مثل حالكم من المؤمنين حرج في ذلك . وعن عكرمة : كانت الانصار في أنفسها قزازة ^(١) . فكانت لا تأكل من هذه البيوت إذا استغنوا . وقيل : كان هؤلاء يتوقون مجالسة الناس ومواكلتهم لما عسى يؤدي إلى الكراهة من قبلهم ، ولأن الأعمى ربما سبقت يده إلى ما سبقت عين أكله إليه وهو لا يشعر ، والاعرج يتفلسح في مجلسه ويأخذ أكثر من موضعه فيضيق على جليسه ، والمريض لا يخلو من رائحة تؤذى أو جرح يبيض أو أنف يذن ^(٢) ونحو ذلك . وقيل : كانوا يخرجون إلى الغزو ويخلفون الضعفاء في بيوتهم ، ويدفعون إليهم المفاتيح ، ويأذنون لهم أن يأكلوا من بيوتهم فكانوا يتخرجون . حكى عن الحرث بن عمرو أنه خرج غازيا وخلف مالك بن زيد في بيته وماله ، فلما رجع رآه مجهوداً فقال : ما أصابك ؟ قال : لم يكن عندى شيء ، ولم يحل لى أن أكل من مالك ، فقليل : ليس على هؤلاء الضعفاء حرج فيما تخرجوا عنه ، ولا عليكم أن تأكلوا من هذه البيوت ، وهذا كلام صحيح ، وكذلك إذا فسر بأن هؤلاء ليس عليهم حرج في القعود عن الغزو ، ولا عليكم أن تأكلوا من البيوت المذكورة ، لالتقاء الطائفتين في أن كل واحدة منهما منى عنها الحرج . ومثال هذا أن يستغنيك مسافر عن الإفطار في رمضان . وحاج مفرد عن تقديم الحلق على النحر ، فقلت : ليس على المسافر حرج أن يفطر ، ولا عليك يا حاج أن تقدم الحلق على النحر ، فإن قلت : هلا ذكر الأولاد ؛ قلت : دخل ذكرهم تحت قوله (من بيوتكم) لأن ولد الرجل بعضه ، وحكمه حكم نفسه . وفي الحديث : إن أطيب ما يأكل المرء

(١) قوله « في أنفسها قزازة » في الصحاح « القزازة » التنطس والتباعد عن الناس . وفيه « التنطس » المبالغة

في التطير . (ع)

(٢) قوله « أو جرح يبيض أو أنف يذن » يبيض أى يسبل قليلا قليلا . ويذن : أى يسبل مخاطه . أقاده

الصحاح . (ع)

من كسبه، وإن ولده من كسبه^(١)، ومعنى (من يوتكم) من البيوت التي فيها أزواجكم وعمالكم: ولأن الولد أقرب من عدد من القرابات، فإذا كان سبب الرخصة هو القرابة: كان الذي هو أقرب منهم أولى. فإن قلت: ما معنى (أو ما ملكتكم مفتاحه)؟ قلت: أموال الرجل إذا كان له عليها قيم ووكيل يحفظها له: أن يأكل من ثمر بستانه ويشرب من لبن ماشيته. وملك المفاح: كونها في يده وحفظه. وقيل: بيوت الممالك؛ لأن مال العبد لمولاه. وقرئ: مفتاحه: فإن قلت: فما معنى (أو صديقكم)؟ قلت: معناه: أو بيوت أصدقائكم. والصديق يكون واحداً وجمعاً^(٢)، وكذلك الخليط والقطين والعدو. يحكى عن الحسن أنه دخل داره وإذا حلقة من أصدقائه وقد استلوا سلالات من تحت سريره فيها الخبيص وأطايب الأطعمة وهم مكبون عليها يأكلون. قتللت أساري وجهه سروراً وضحك وقال: هكذا وجدناهم، هكذا وجدناهم. يريد كبراء الصحابة ومن لقيهم من البدرين رضى الله عنهم. وكان الرجل منهم يدخل دار صديقه وهو غائب فيسأل جاريته كيسه فيأخذ منه ما شاء. فإذا حضر مولاه فأخبرته أعتقها سروراً بذلك. وعن جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنهما: من عظم حرمة الصديق أن جعله الله من الأنس والثقة والانبساط وطرح الحشمة بمنزلة النفس والآب والآخ والابن. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: الصديق أكبر من الوالدين، إن الجهنمين لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والانهات. فقالوا: فما لنا من شافعين ولا صديق حميم. وقالوا: إذا دل ظاهر الحال على رضا المسالك، قام ذلك مقام الإذن الصريح، وربما سمح الاستئذان وثقل، كمن قدم إليه طعام فاستأذن صاحبه في الأكل منه (جميعاً أو أشتاتاً) أى مجتمعين أو متفرقين. نزلت في بنى ليث بن عمرو من كنانة كانوا يتخرجون أن يأكل لرجل وحده فربما قد منظرأ نهاره إلى الليل، فإن لم يجد من يواكله أكل ضرورة. وقيل في قوم من الانصار: إذا نزل بهم ضيف

(١) أخرجه أصحاب السنن وعبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن حبان والحاكم وأحمد وإسحاق والبخاري وأبو يعلى كلهم من حديث عائشة بهذا. قال ابن القطان: يرويه عمارة بن عمير فقال إبراهيم عنه. عن عمته عن عائشة. وقال الحاكم: عن عمارة عن أمه عن عائشة وذكره الدارقطني في العلل والاختلاف فيه وأطال. وفي الباب عن عمرو ابن شبيب عن أبيه عن جده قال: أنى أعرابي النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إن أبى يريد أن يحتاج مالاً. قال: أنت ومالك لوالدك إن أطيب ما أكلتم من كسبكم وإن أموال أولادكم من كسبكم فكلوا هيناً، رواه أبو داود وابن ماجه من طريق الحاج بن أرطاة عن عمرو وحجاج مدلس وفيه ضعف.

(٢) قال محمود: والصديق يكون واحداً وجمعاً والمراد هنا الجمع. قال أحمد: وقد قال الزحشرى: إن سر أفراد في قوله تعالى (فأنا لنا من شافعين ولا صديق حميم) دون الشافعين التنبيه على قلة الأصدقاء، ولا كذلك الشافعون، فإن الإنسان قد يحمي له ويقنع في حقه من لا يعرفه فضلاً عن أن يكون صديقاً. ويحتمل في الآيتين - والله أعلم - أن يكون المراد به الجمع فلا كلام، ويحتمل أن يراد الأفراد، فيكون سره ذلك، والله أعلم.

لَا يَأْكُلُونَ إِلَّا مَعَ ضَيْفِهِمْ وَقِيلَ : تَخْرُجُوا عَنِ الْجُمُعَةِ عَلَى الْإِسْلَامِ لاختلاف الناس في الأكل وزيادة بعضهم على بعض ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا﴾ من هذه البيوت لتأكلوا فبذلوا بالسلام على أهلها الذين هم منكم ديناً وقربة ^(١) ﴿تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أى ثابتة بأمره ، مشروعة من لدنه . أو لأن التسليم والتحية طلب سلامة وحياة للمسلم عليه والمحيا من عند الله . ووصفها بالبركة والطيب : لأنها دعوة مؤمن لمؤمن يرجى بها من الله زيادة الخير وطيب الرزق . وعن أنس رضي الله عنه قال : خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين - وروى : تسع سنين - فما قال لي شيء فعلته لم فعلته ؟ ولا قال لي شيء كسرت لم كسرت ؟ وكنت واقفاً على رأسه أصب الماء على يديه فرفع رأسه فقال : ألا أعلمك ثلاث خصال تنتفع بها ؟ قلت : بلى بأبي وأمي يا رسول الله . قال : متى لقيت من أمتي أحداً فسلم عليه يطل عمرك ، وإذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك . وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأبرار الأوابين ^(٢) . وقالوا : إن لم يكن في البيت أحد فليقل : السلام علينا من ربنا . السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . السلام على أهل البيت ورحمة الله . وعن ابن عباس : إذا دخلت المسجد فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين تحية من عند الله . وانتصب تحية يسلبوا ، لأنها في معنى تسليماً ، كقولك : قعدت جلوساً .

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ

(١) قال محمود : ومعناه : فسلوا على الجنس الذي هو متكم ديننا وقراءة ، قال أحد : وفي التعبير عنهم بالأنفس تنبيه على السر الذي اقتضى إباحة الأكل من هذه البيوت الممدودة ، وأن ذلك إنما كان لأنها بالنسبة إلى الداخل كبيت نفسه لاتحاد القراءة ، فليطلب نفسا بالباطن فيها ، والله أعلم .

(٢) أخرجه أبو القاسم حمزة بن يوسف الجرجاني في تاريخ جرجان ، والبيهقي في الشعب في الحادى والستين .
والثعلبي من طريق اليسع بن زيد بن سهل عن ابن عتبة عن حميد وعن أنس بن مالك واليسع آخر من زعم أنه سمع من
ابن عتبة . مات بعد الثمانين والمائتين وهو واهى الحديث وأصل الحديث دون القصة التي فيه ، في الصحيح من
حديث أنس رضي الله عنه . وباقية مروى عن أنس من أوجه . منها ما رواه البزار من طريق عويد بن هيران
الجوفى عن أبيه قال : «أوصانى النبي صلى الله عليه وسلم بخمس خصال قال : أسخض الوضوء يزد في عمرك : وسلم
على من لقيت من أمي تكثرت حسناتك . وإذا دخلت بيتك فسلم على أمك يكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى .
فانها صلاة الأوابين ، وارحم الصغير ووفر الكبير ، تكن من رفاق» وعويد . قال ابن حبان : يروى عن أبيه
ماليس من حديثه . ورواه أبو يعلى من رواية عمرو بن أبي خليفة عن ضرار بن عمرو عن أنس وإسناده ضعيف
جدا وكذا رواه الطبراني في الصغير من رواية عمرو بن دينار عن أنس والراوى عنه ساقط ورواه العقيلي من رواية
الفضل بن العباس عن ثابت عن أنس والفضل مجهول . قال العقيلي : لم يتابعه عليه إلا من هو دونه أو قبله ورواه
ابن عدى من طريق أزور بن غالب عن سليمان التيمي عن أنس . قال ابن طاهر : أزور منكر الحديث . وله طريق
أخرى عن أنس أشد ضعفاً من هذه .

لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٢﴾

أراد عز وجل أن يريهم عظم الجناية في ذهاب الذهاب عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بغير إذنه ﴿إذا كانوا معه على أمر جامع﴾ فجعل ترك ذهابهم حتى يستأذنه ثالث الإيمان بالله والإيمان برسوله ، وجعلهما كالتشبيب له ^(١) والبساط لذكره ، وذلك مع تصدير الجملة بإنما وإيقاع المؤمنين مبتدأ مخبراً عنه بموصول أحاطت صلته بذكر الإيمانين ، ثم عقبه بما يزيد توكيداً وتشديداً ، حيث أعاده على أسلوب آخر وهو قوله (إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله) وضمنه شيئاً آخر ، وهو : أنه جعل الاستئذان كالمصداق لصحة الإيمانين ، وعرض بحال المنافقين وتسليمهم لو إذا . ومعنى قوله (لم يذهبوا حتى يستأذنه) لم يذهبوا حتى يستأذنه ويأذن لهم . ألا تراه كيف علق الأمر بعد وجود استئذانهم بمشيئته وإذنه لمن استصوب أن يأذن له . والأمر الجامع : الذي يجمع له الناس ، فوصف الأمر بالجمع على سبيل المجاز ، وذلك نحو مقاتلة عدو ، أو تشاور في خطب مهم ، أو تضام لإرهاب مخالف ، أو تماسح في حلف وغير ذلك . أو الأمر الذي يعم بضرره أو نفعه . وقرئ : أمر جميع . وفي قوله (إذا كانوا معه على أمر جامع) أنه خطب جليل لا بد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه من ذوى رأى وقوة ، يظاهرونه عليه ويعاونونه ويستضيء بأرائهم ومعارفهم وتجاربهم في كفايته ، ففارقة أحدهم في مثل تلك الحال مما يشق على قلبه ويشعث عليه رأيه ، فمن ثمة غلظ عليهم وضيق عليهم الأمر في الاستئذان ، مع العذر المبسوط ومساس الحاجة إليه ، واعتراض ما بهمهم ويعنيهم ، وذلك قوله ﴿لبعض شأنهم﴾ . وذكر الاستغفار للمستأذنين : دليل على أن الأحسن الأفضل أن لا يتحدثوا أنفسهم بالذهاب ولا يستأذنوا فيه . وقيل : نزلت في حفر الخندق وكان قوم يتسللون بغير إذن . وقالوا : كذلك ينبغي أن يكون الناس مع أئمتهم ومقدميهم في الدين والعلم يظاهرونهم ولا يخذلونهم في نازلة من النوازل ولا يترقبون عنهم . والأمر في الإذن مفوض إلى الإمام : إن شاء أذن وإن شاء لم يأذن ، على حسب ما اقتضاه رأيه .

لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ

(١) قوله ، وجعلهما كالتشبيب له ، في الصحاح التشبيب النسيب يقال هو يشب بفلانة أى ينسب بها (ع)

يَسْأَلُونَ مِنْكُمْ لَوْ آذَا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ
أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

إذا احتاج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اجتماعكم عنده لأمر فداكم فلا تفرقوا عنه إلا بإذنه ، ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضاً ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الداعي . أو لا تجمعوا تسميته ونداءه بينكم كما يسمى بعضكم بعضاً ويناديه باسمه الذي سماه به أبواه ، ولا تقولوا : يا محمد ، ولكن : يا نبي الله . وبارسول الله ، مع التوقير والتعظيم والصوت المنخفض والتواضع . ويحتمل : لا تجمعوا دعاء الرسول ربه مثل ما يدعو صغيركم كبيركم وفقيركم غنيكم ، يسأله حاجة فربما أجابه وربما رده ، فإن دعوات رسول الله صلى الله عليه وسلم مسموعة مستجابة ﴿ يتسألون ﴾ ينسألون قليلاً قليلاً . ونظير « تسأل » : « تدرج وتدخل » : « والوآذ : الملاوذة ، وهو أن يلوذ هذا بذلك وذلك بهذا ، يعنى : ينسألون عن الجماعة في الحففة على سبيل الملاوذة واستتار بعضهم ببعض . و ﴿ لو آذا ﴾ حال ، أى : ملاوذين . وقيل : كان بعضهم يلوذ بالرجل إذا استأذن فيأذن له ، فينطلق الذى لم يؤذن له معه . وقرئ : لو آذا ، بالفتح . يقال : خالفه إلى الأمر ، إذا ذهب إليه دونه . ومنه قوله تعالى (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) وخالفه عن الأمر : إذا صدعته دونه . ومعنى ﴿ الذين يخالفون عن أمره ﴾ الذين يصدون عن أمره دون المؤمنين وهم المنافقون ، لحذف المفعول لأن الغرض ذكر المخالف والمخالف عنه . الضمير فى أمره لله سبحانه أو للرسول صلى الله عليه وسلم . والمعنى : عن طاعته ودينه ﴿ فتنه ﴾ محنة فى الدنيا ﴿ أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ فى الآخرة . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : فتنه قتل . وعن عطاء : زلازل وأهوال . وعن جعفر بن محمد : يسلط عليهم سلطان جائر .

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ
إِلَيْهِ فَمَنْبَتُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾

أدخل (قد) ليؤكد عليه بما هم عليه من المخالفة عن الدين والنفاق . و مرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد ، وذلك أن (قد) إذا دخلت على المضارع كانت بمعنى ربما ، فوافقت وربما ، فى خروجها إلى معنى التكثير فى نحو قوله :

فَإِنْ تُنْمِسْ مَهْجُورَ الْفِتْنَةِ فَرُبَّمَا أَقَامَ بِهِ بَعْدَ الْوُقُودِ وَوُقُودٌ ^(١)

عليك بحمارى دمها لمجود
جسود بأيدى ماتم وخدود

(١) ألا إن عينا لم تملك يوم واسط
عنية قام النائمات وشفت

ونحوه قول زهير :

أَخِي ثَقَّةٌ لَا تُهْلِكُ الْحَمْرُ مَالَهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ الْمَالُ نَائِلُهُ^(١)

والمعنى . أن جميع ما في السموات والأرض مختصة به خلقاً وملكاً وعلماً ، فكيف يخفى عليه أحوال المنافقين وإن كانوا يجتهدون في سترها عن العيون وإخفائها . وسينبئهم يوم القيامة بما أبطنوا من سوء أعمالهم وسيجازيهم حق جزائهم . والخطاب والغيبة في قوله ﴿ قد يعلم ما أتم عليه ويوم يرجعون إليه ﴾ يجوز أن يكونا جميعاً للمنافقين على طريق الالتفات . ويجوز أن يكون (ما أتم عليه) عاماً ، و (يرجعون) للمنافقين ، والله أعلم .
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة النور أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيها مضى وفيما بقي »^(٢) .

فان تمس مهجور الفناء فربما أقام به بعد الوفود وفود

لابن عطاء السندی : يرى ابن هبيرة لما قتله المنصور . واسط : موضع الواقعة . وأتم بالمكان : أقام به . والمأتم : مكان الإقامة : استعمل في جماعة النساء الحزینات مجازاً مشهوراً ، وجمه : مأتم بعد المعزة . يقول : إن كل عين لم تنبك عليك ذلك اليوم لشديدة الجود . وعشية : بدل من يوم . وجيب القميص . مخرج الرأس منه ، أى : مزقت الجيوب والحدود بأیدی النساء . ثم التفت إلى الخطاب ، وصبر وتصبّر بقوله : فان تمس مهجور الفناء ، كناية عن الموت ، فربما : أى كثيراً أقام بفناء بيتك جموع من الناس بعد جموع ، يستمنحونك ، أى : فان يهجر فتأؤك الآن فلا حزن ، لأنه كثيراً ما اجتمع فيه الناس ومنحوا خيراً .

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة ١٧ فراجع إن شئت أم صحبه .

(٢) أخرجه العلبي وابن مردويه بإسناديهما إلى أبي بن كعب رضي الله عنه .

سورة الفرقان

مكية إلا الآيات ٦٨ و ٦٩ و ٧٠ هندية

وآياتها ٧٧ [نزلت بعد بس]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝
 الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي
 الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا ۝

البركة : كثرة الخير وزيادته . ومنها (تبارك الله) وفيه معنيان : تزايد خيره ، وتكاثر .
 أو تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله . والفرقان : مصدر فرق بين الشيئين إذا
 فصل بينهما . وسمى به القرآن لفصله بين الحق والباطل . أو لأنه لم ينزل جملة واحدة ولكن
 مفروقاً ، مفصولاً بين بعضه وبعض في الإنزال ^(١) . ألا ترى إلى قوله (وقرآنا فرقناه لتقرأه
 على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً) وقد جاء الفرق بمعناه ^(٢) . قال :

* وَمُشْرِكِي كَافِرٍ بِالْفَرْقِ *

وعن ابن الزبير رضى الله عنه : على عباده ، وهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته ، كما قال
 (لقد أنزلنا إليك) ، (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا) . والضمير في ﴿ليكون﴾ لعبده أو للفرقان .
 ويعضد رجوعه إلى الفرقان قراءة ابن الزبير ﴿للعالمين﴾ للجن والإنس ﴿نذيراً﴾ منذراً أى
 محذوفاً أو إنذاراً ، كالشكير بمعنى الإنكار . ومنه قوله تعالى (فكيف كان عذابى ونذر) ،
 ﴿الذى له﴾ رفع على الإبدال من الذى نزل . أو رفع على المدح . أو نصب عليه . فإن قلت :

(١) قال محمود : « يجوز أن يراد بوصفه بالفرقان تفرقه بين الحق والباطل ، ويجوز أن يراد نزوله مفروقاً
 شيئاً فشيئاً كما قال . وقرآنا فرقناه » قال أحمد : والأظهر هنا هو المعنى الثانى ؛ لأن فى أثناء السورة بعد آيات
 (وقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) قال الله تعالى (كذلك) أى أنزلناه مفروقاً كذلك (لنثبت به فؤادك)
 فيكون وصفه بالفرقان فى أول السورة - والله أعلم - كالمقدمة والتوطئة لما يأتى بعد .

(٢) قوله « وقد جاء الفرق بمعناه » فى الصحاح : والفرق أيضاً : الفرقان . ونظيره : الحسر والحسران . قال
 الراجز : ومشركى ... الخ . (ع)

كيف جاز الفصل بين البذل والمبدل منه ؟ قلت : ما فصل بينهما بشيء ؛ لأنَّ المبدل منه صلته نزل . و (ليكون) تعليل له ، فكأنَّ المبدل منه لم يتم إلا به . فإن قلت : في الخلق معنى التقدير ، فما معنى قوله (وخلق كل شيء فقدره تقديرًا) كأنه قال : وقدر كل شيء فقدره ؟ قلت : المعنى أنه أحدث كل شيء . إحداثًا مراعى فيه التقدير والتسوية ، فقدره وهبًا لما يصلح له ، مثاله : أنه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدر المسوى الذي تراه ، فقدره للتكاليف والمصالح المشوطة به في بابي الدين والدنيا ، وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجبلية المستوية المقدرة بأمثلة الحكمة والتدبير ، فقدره لأمرًا ومصلحة مطابقا لما قدر له غير متجاف عنه . أو سمى إحداث الله خلقًا لأنه لا يحدث شيئًا لحكمته إلا على وجه التقدير من غير تفاوت ، فإذا قيل : خلق الله كذا فهو بمنزلة قوله : أحدث وأوجد من غير نظر إلى وجه الاشتقاق ، فكأنه قيل : وأوجد كل شيء فقدره في إيجاده لم يوجد متفاوتًا . وقيل : فجعل له غايةً ومنتهى . ومعناه : فقدره للبقاء إلى أمد معلوم .

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ
ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾

الخلق بمعنى الافتعال ، كما في قوله تعالى (إنما تعبدون من دون الله آوثانًا وتخلقون إفكًا) والمعنى : أنهم آثروا على عبادة الله سبحانه عبادة آلهة لا يعجز أيمن من عجزهم ، لا يقدرُونَ على شيء من أفعال الله ولا من أفعال العباد ، حيث لا يفتعلون شيئًا وهم يفتعلون ، لأن عبادتهم يصنعونهم بالنحت والتصوير (ولا يملكون) أى : لا يستطيعون لأنفسهم دفع ضرر عنها أو جلب نفع إليها وهم يستطيعون ، وإذا عجزوا عن الافتعال ودفع الضرر وجلب النفع التي يقدر عليها العباد كانوا عن الموت والحياة والنشور التي لا يقدر عليها إلا الله أعجز .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ

فَقَدْ جَاهَدُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾

(قوم آخرون) قيل : هم اليهود . وقيل : عداس مولى حويطب بن عبد العزى ، ويسار مولى العلاء بن الحضرمي ، وأبو فكية الرومي : قال ذلك النضر بن الحرث بن عبد الدار . وجاء ، وأتى ، يستعملان في معنى فعل ، فيعديان تعديته ، وقد يكون على معنى : وردوا طلبًا ، كما تقول : جئت المكان . ويجوز أن يحذف الجار ويوصل الفعل . وظلهم : أن جعلوا العرب يتلقن

من المعجمي الرومي كلاما عربيا أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب . والزور : أن يهتوه بنسبة ما هو برئ منه إليه .

وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فِيهِ تَمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ٥

(أساطير الأولين) ماسطره المتقدمون من نحو أحداث رستم واسفنديار ، جمع : أسطار أو أسطورة كأحدثة (اكتتبها) كتبها لنفسه وأخذها ، كما تقول : استكتب الماء واصطبه : إذا سكبها وصبه لنفسه وأخذه . وقرئ : اكتتبها ، على البناء للفعول . والمعنى : اكتتبها كاتب له . لأنه كان أميا لا يكتب بيده ، وذلك من تمام إعجازه ، ثم حذفت اللام فأفضى الفعل إلى الضمير ففسار اكتتبها إياه كاتب ، كقوله (واختار موسى قومه) ثم بنى الفعل للضمير الذي هو إياه فانقلب مرفوعا مستترا بعد أن كان بارزا منصوبا ، وبقى ضمير الأساطير على حاله ، فصار (اكتتبها) كما ترى . فإن قلت : كيف قيل : اكتتبها (فهى تملّى عليه) وإنما يقال : أملت عليه فهو يكتبها ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أراد اكتبها أو طلبه فهى تملّى عليه . أو كتبت له وهو أمى فهى تملّى عليه : أى تلقى عليه من كتابه بتحفظها : لأن صورة الإلقاء على الحافظ كصورة الإلقاء على الكاتب . وعن الحسن : أنه قول الله سبحانه يكذبهم وإنما يستقيم أن لو فتحت الهمزة للاستفهام الذى فى معنى الإنكار . ووجهه أن يكون نحو قوله :

أَفْرَحُ أَنْ أَرِزَا الْكَرَامَ وَأَنْ أَوْرَثَ ذُودًا شَصَانًا نَبَلًا ١١

وحق الحسن أن يقف على الأولين . (بكرة وأصيل) أى دائما ، أو فى الخفية قبل أن ينتشر الناس ، وحين يأوون إلى مساكنهم .

(١) إن كنت أزننتى بها كذبا جزؤ فلاقيت بعدها عجلا

أفرح أن أرزا الكرام وأن أورث ذودا شصاننا نبلا

الحضرى بن عامر ، يخاطب جزء بن سنان بن مؤلة حين اتهمه بسروره بأخذ دية أخيه القتل . وقيل : لجزير ، وليس بذلك . وجزؤ - بفتح فمكون - وإن هنا للشرط مجردا عن الشك ، أو بمعنى إذ . وأزننتى : أى تهمتى بها : أى بتلك فعلة الرذيلة كذبا منك يا جزؤ ، فهو نادى ، فلاقيت أنت بعدها عجلا : دعاء عليه بأن ينال مثلها سرورا . وينظر هل يفرح أو يحزن ؟ وورى : فلاقيت مثلها عجلا . أفرح ، أى : أفرح بأن أرزا الكرام وأصاب فيهم ، فخذت همزة الاستفهام الإنكارى أو التمجى على فرض الوقوع لدلالة المقام عليها ، وليصور الكلام بصورة الاخبار والاثبات ، فيظهر للنصم قبح دعواه . وأرزا : مبنى للجهول ، وكذلك أورث ، أى : أعطى ذودا : أى قطيعا من الأبل بعد موتهم . والذود : ما بين الثلاثة إلى العشرة ، مؤنث لا واحد له من لفظه ، عبر به عن الدية كلها استفلاا وتحقيرا لها . ولذلك وصفه بشصاننا : جمع شصوص ، وهى الناقة القليلة اللبن . وصرفه للوزن . ولنبيل - كسبب - : جمع نبيل . ويررى بالضم ، فهو جمع نبيل أيضا ، ككرما وكريم . أو جمع نبلة ، كغرف وغرفة : أى الصفار ، أو الجانب فهو من الأعداد : لكن الأول أوفق بالمقام . ويجوز أن الدية كانت عشرة .

قُلْ أُنْزِلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾

أى يعلم كل سر خفى فى السموات والارض . ومن جملة ما تسرونه أنتم من الكيد لرسوله صلى الله عليه وسلم مع علمكم أن ما تقولونه باطل وزور ، وكذلك باطن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبرائه مما تهتونه به ، وهو يجازيكم ويجازيه على ما علم منكم وعلم منه . فإن قلت : كيف طابق قوله ﴿إنه كان غفوراً رحيماً﴾ هذا المعنى ؟ قلت : لما كان ما تقدمه فى معنى الوعيد عقبه بما يدل على القدرة عليه ، لأنه لا يوصف بالمغفرة والرحمة إلا القادر على العقوبة . أو هو تنبيه على أنهم استوجبوا بمكابرتهم هذه أن يصب عليهم العذاب صباً ، ولكن صرف ذلك عنهم إنه غفور رحيم : يهمل ولا يعاجل .

وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَمَا كُنْ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُنْزِلُ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ

يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾

وقعت اللام فى المصحف مفصولة عن هذا خارجة عن أوضاع الخط العربى . وخط المصحف سنة لا تغير . وفى هذا استهانة وتصغير لشأنه وتسميته بالرسول سخريه منهم وطعن (١) ، كأنهم قالوا : ما لهذا الزاعم أنه رسول . ونحوه قول فرعون (إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) أى : إن صح أنه رسول الله فما باله حاله مثل حالنا ﴿يأكل الطعام﴾ كما نأكل ؛ ويتردد فى الأسواق لطلب المعاش كما تتردد . يعنون أنه كان يجب أن يكون ملكا مستغنيا عن الأكل والتعيش . ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكا إلى اقتراح أن يكون إنسانا معه ملك . حتى يتساندا فى الإنذار والتخويف . ثم نزلوا أيضا فقالوا : وإن لم يكن مرفودا بملك ، فليكن مرفودا بكنز يلقى إليه من السماء . يستظهر به ولا يحتاج إلى تحصيل المعاش . ثم نزلوا فافتنعوا بأن يكون رجلا له بستان يأكل منه ويرزق كما الدهاقين والمياسير . أو يأكون هم من ذلك البستان فينتفعون به فى دنياهم ومعاشهم . وأراد بالظالمين : إياهم بأعيانهم : وضع الظاهر موضع المضمير ليسجل عليهم بالظلم فيما قالوا . وقرئ : فيكون ، بالرفع . أو يكون له جنة ، بالياء ، ونأكل ، بالنون . فإن قلت : ما وجه الرفع والنصب فى فيكون ؟ قلت : النصب لأنه جواب «لولا» ، بمعنى «هلا» ، وحكمه حكم الاستفهام . والرفع على أنه معطوف على أنزل ، ومحل الرفع . ألا تراك

تقول: لولا ينزل بالرفع، وقد عطف عليه: يلقى، وتكون مرفوعين، ولا يجوز النصب فيهما لأنهما في حكم الواقع بعد لولا، ولا يكون إلا مرفوعا. والقائلون هم كفار قريش النضر بن الحرث، وعبد الله بن أبي أمية، ونوفل بن خويلد ومن ضامهم (مسحورا) سحر فقلب على عقله. أو ذا سحر، وهو الرثة: عنوا أنه بشر لا ملك.

أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ٩

(ضربوا لك الامثال) أى: قالوا فيك تلك الاقوال واخترعوا لك تلك الصفات والاحوال النادرة، من نبوة مشتركة بين إنسان وملك. وإلقاء كنز عليك من السماء وغير ذلك، فبقوا متحيرين ضلالا، لا يجدون قولا يستقرون عليه. أوفضلوا عن الحق فلا يجدون طريقا إليه.

تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ١٠

تكاثر خير (الذى إن شاء) وهب لك في الدنيا (خيرا) مما قالوا، وهو أن يجعل لك مثل ما وعدك في الآخرة من الجنات والقصور. وقرئ: ويجعل، بالرفع عطفًا على جعل: لأن الشرط إذا وقع ماضياً، جاز في جزائه الجزم والرفع، كقوله:

وَإِنْ أَتَاهُ خَلِيلٌ يَوْمَ مَسْئَلَةٍ يَقُولُ لَغَائِبٌ مَالِي وَلَا حَرِمُ ١١

ويجوز في (ويجعل لك) إذا أدغمت: أن تكون اللام في تقدير الجزم والرفع جميعاً. وقرئ بالنصب، على أنه جواب الشرط بالواو.

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ١٢ إِذَا رَأَوْهُمْ

مِنْ مَكَانٍ يَبْعِدُ يَسْمَعُوا لَهَا تَغْمِظًا وَزَفِيرًا ١٣ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا

ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ١٤ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا

ثُبُورًا كَثِيرًا ١٥

(بل كذبوا) عطف على ما حكى عنهم. يقول: بل أتوا بأعجب من ذلك كله وهو تكذيبهم

بالساعة . ويجوز أن يتصل بما يليه ، كأنه قال : بل كذبوا بالساعة ، فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب ، وكيف يصدقون بتعجيل مثل ما وعدك في الآخرة وهم لا يؤمنون بالآخرة . السعير : النار الشديدة الاستعار . وعن الحسن رضى الله عنه : أنه اسم من أسماء جهنم ﴿ رَأْتَهُمْ ﴾ من قولهم : دورهم تراء^(١) ، أى : وتناظر . ومن قوله صلى الله عليه وسلم ولا تراءى ناراهما ،^(٢) كأن بعضها يرى بعضاً على سبيل المجاز . والمعنى : إذا كانت منهم بمرأى الناظر في البعد سمعوا صوت غليانها . وشبه ذلك بصوت المتغيظ والزافر . ويجوز أن يراد : إذا رأتهم ذبايتها تغيظوا وزفروا غضباً على الكفار وشهوة للانتقام منهم . الكرب مع الضيق ، كما أن الروح مع السعة ، ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها السموات والأرض . وجاء في الأحاديث : أن لكل مؤمن من القصور والجنان كذا وكذا ، ولقد جمع الله على أهل النار أنواع التضيق والإرهاق ، حيث ألقاهم في مكان ضيق يتراصون فيه تراصاً ، كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما في تفسيره أنه يضيق عليهم كما يضيق الزج في الرمح ، وهم مع ذلك الضيق مسلسلون مقرنون في السلاسل : قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الجوامع . وقيل : يقرن مع كل كافر شيطانه في سلسلة وفي أرجلهم الأصفاد . والثبور : الهلاك . ودعاؤه أن يقال : واثبوراه ، أى : تعال يا ثبور فهذا حينك وزمانك ﴿ لا تدعوا ﴾ أى يقال لهم ذلك : أو هم أحقاء بأن يقال لهم ، وإن لم يكن ثمة قول ومعنى ﴿ وادعوا ثبوراً كثيراً ﴾ أنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحداً ، إنما هو ثبور كثير . إما لأن العذاب أنواع وألوان كل نوع منها ثبور لشدة وفظاعته . أو لأنهم كلما فضجت جلودهم بدلوا غيرها ، فلا غاية لهلاكهم

قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ۝١٥

لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ۝١٦

الراجع إلى الموصولين محذوف . يعنى : وعدها المتقون وما يشاءونه . وإنما قيل : كانت ، لأن ما وعده الله وحده فهو في تحققة كأنه قد كان . أو كان مكتوباً في اللوح قبل أن يراهم بأزمنة

(١) قال محمود : هو من قولهم : دور بى فلان تراء ، أى على المجاز ، قال أحمد : لا حاجة إلى حله على المجاز فإن رؤية جهنم جائزة . وقدرة الله تعالى صالحة ، وقد تضافرت الظواهر على وقوع هذا الجائز ، وعلى أن الله تعالى يخلق لها إدراكاً حياً وعقلياً . ألا ترى إلى قوله (سمعوا لها تغيظاً) وإلى حاجتها مع الجنة ، وإلى قولها (هل من مزيد) وإلى اشتكاها إلى ربها فأذن لها في نفسها ، إلى غير ذلك من الظواهر التي لا سبيل إلى تأويلها ، إذ لا مخرج إليه . ولو فتح باب التأويل والمجاز في أحوال المعاد ، لطوح الذى يملك ذلك إلى وادى الضلالة والتعجب إلى فرق الفلاسفة ، فالحق أنا متعبدون بالظاهر مالم يمنع مانع . والله أعلم .

(٢) تقدم في المسألة .

متطاوله : أن الجنة جزاؤهم ومصيرهم . فإن قلت : ما معنى قوله (كانت لهم جزاء ومصيراً) ؟ قلت : هو كقوله : (نعم الثواب وحسنت مرتفعاً) فذبح الثواب ومكانه ، كما قال : (بنس الشراب وساءت مرتفعاً) فقدم العقاب ومكانه لأن النعيم لا يتم للبتنعيم إلا بطيب المكان وسعته وموافقته للبراد والشهوة . وأن لا تنخص ، وكذلك العقاب يتضاعف بغثاثة الموضع ^(١) وضيقه وظلمته وجمعه لأسباب الاجتواء والكراهة ، فلذلك ذكر المصير مع ذكر الجزاء . والضمير في (كان) لما يشاءون . والوعد : الموعود . أى : كان ذلك موعوداً واجبا على ربك إنجازاً ، حقيقة أن يستل ويطلب ، لأنه جزاء وأجر مستحق . وقيل : قد سأله الناس والملائكة في دعواتهم : (ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك) ، (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة) ، (ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم) .

وَيَوْمَ يُنْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ مَا أَنْتُمْ أَضَلُّتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتُمْ وَاَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨)

يُحْشَرُهُمْ . فيقول : كلاهما بالنون والياء ، وقرئ : يُحْشَرُهُمْ ، بكسر الشين (وما يعبدون) يريد : المعبودين من الملائكة والمسيح وعزير . وعن الكلبي : الأصنام ينطقها الله . ويجوز أن يكون عاماً لهم جميعاً . فإن قلت : كيف صح استعمال (ما) في العقلاء ؟ قلت : هو موضوع على العموم للعقلاء وغيرهم ، بدليل قولك - إذا رأيت شبحاً من بعيد - : ما هو ؟ فإذا قيل لك : إنسان ، قلت حينئذ : من هو ؟ ويدل ذلك قولهم : من ، لما يعقل . أو أريد به الوصف ، كأنه قيل : ومعبودهم . ألا تراك تقول إذا أردت السؤال عن صفة زيد : ما زيد ؟ تعنى : أطويل أم قصير ؟ أفتقيه أم طيب ؟ فإن قلت : ما فائدة أنتم وهم ؟ وهلا قيل أضلتم عبادي هؤلاء ، أم هم ^(٢) ضلوا السبيل ؟ قلت : ليس السؤال عن الفعل ووجوده ، لأنه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب ، وإنما هو عن متوليه ، فلا بد من ذكره وإيلائه حرف الاستفهام ، حتى يعلم أنه المسئول عنه . فإن قلت : فأنه سبحانه قد سبق عليه بالمسؤول عنه . فما فائدة هذا السؤال ؟ قلت : فائدته أن يجيبوا بما

(١) قوله « بغثاثة الموضع » أى فساد وركابته . والاجتواء : كراهة المقام بالمكان . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) قوله « أم هم ضلوا » لعله أم ضلوا ، كعبارة النسق . (ع)

أجابوا به ، حتى يبيكت عبدتهم بتكذيبهم إياهم ، فيبهتوا ^(١) وينخذلوا وتزيد حسرتهم ، ويكون ذلك نوعاً مما يلحقهم من غضب الله وعذابه ، ويقتبط المؤمنون ويفرحوا بنجاتهم من فضيحة أولئك ، وليكون حكاية ذلك في القرآن لطفاً للسكافين . وفيه كسر بين لقول من يزعم ^(٢) أن الله يضل عباده على الحقيقة ^(٣) . حيث يقول للمعبودين من دونه : أنتم أضللتموهم ، أم هم ضلوا بأنفسهم ؟ فيترءون من إضلالهم ويستعيزون به أن يكفوا مضلين ، ويقولون : بل أنت تفضلت من غير سابقة على هؤلاء . وآبائهم تفضل جواد كريم ، فجعلوا النعمة التي حقها أن تكون

(١) قوله « فيبهتوا » يدهشوا . أو يتحيروا . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) قوله « لقول من يزعم أن الله ... الخ » يريد أهل السنة القائلين : إضلال الله لعباده خلق الضلال في قلوبهم ، خلافاً للمعتزلة القائلين : أنه تعالى لا يخلق الشر ولا يريده . (ع)

(٣) قال محمود : « في هذه الآية كسر بين لمن يزعم أن الله تعالى يضل عباده حقيقة ، حيث يقول للمعبودين من دونه : أنتم أضللتم عبادي هؤلاء ، أم هم ضلوا بأنفسهم ؟ فيترءون منهم ويستعيزون بما نسب إليهم ، ويقولون : بل تفضلك على هؤلاء . أوجب أن جعلوا عوض الشكر كفراً ، فإذا برأت الملائكة والرسول أنفسهم من ذلك ، فهم لله أشد تبرئة وتزجيراً منه ، ولقد زعموه حيث أضفوا التفضل بالنعمة إلى الله تعالى ، وأسندوا الضلال الذي نشأ عنه إلى الضالين ، فهو شرح للاسناد المجازي في قوله (يضل من يشاء) ولو كان مضلاً حقيقة لكان الجواب العتيق أن يقولوا : بل أنت أضللتم . قال أحمد : قد تقدم شرح عقيدة أهل الحق في هذا المعنى ، وأن الباعث لهم على اعتقاد كون الضلال من خلق الله تعالى : التزامهم للتوحيد المحض بالإيمان الصرف ، الذي دل على صحته بعد الأدلة العقلية قوله تعالى (الله خالق كل شيء) والضلال شيء . فوجب كونه خالقه : هذا من حيث العموم . وأما من حيث الخصوص ، فأمثال قوله تعالى (يضل من يشاء ويهدي من يشاء) ، والأصل الحقيقة ، وقول موسى عليه السلام (إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء) . فلو كانت الاضلال مستحيلة على الله تعالى لما جاز أن يحاطبه التكليم بما لا يجوز ، فإذا أوضح ذلك فالملائكة لم يسئلوا في هذه الآية عن المضل لعباده حقيقة ، فيقال لهم : من أضل هؤلاء ، وإنما قيل لهم : أنتم أضللتموهم ، أم هم ضلوا ؟ فليس الجواب المطابق للعتيق أن يقولوا : أنت أضللتم . ولو كان معتمد أن الله تعالى هو المضل حقيقة ، لكان قولهم في جواب هذا السؤال : بل أنت أضللتم مجاوزة لمحر السؤال ومحلّه ، وإنما كان هذا الجواب مطابقاً لو قيل لهم : من أضل عبادي هؤلاء ؟ فقد وضع أن هذا السؤال لا يجاب عنه بما تخيله الزمخشري ، بتقدير أن يكون معتمد أن الله تعالى هو الذي أضلهم . وأن عدولهم عنه ليس لأنهم لا يعقدونه ، ولكن لأنه لا يطابق . وبقي وراء ذلك نظر في أن جوابهم هذا يدل على متقدم الموافق لأهل الحق ، لأن أهل الحق يعتقدون أن الله تعالى وإن خلق لهم الضلالة إلا أن لهم اختياراً فيها وتميزاً لها ، ولم يكونوا عليها مقسورين كما هم مقسورون على أفعال كثيرة يخلقها الله فيهم كالحركات العرشية ونحوها . وقد قدمنا في مواضع : أن كل فعل اختياري له نسبتان : إن نظر إلى كونه مخلوقاً فهو منسوب إلى الله تعالى ، وإن نظر إلى كونه اختيارياً للعبد فهو منسوب إلى العبد . وبذلك قطعت الملائكة في قولهم : بل متمهم وآبائهم حتى نسوا الذكر ، فنسبوا نسيان الذكر إليهم ، أي : الانهماك في الشهوات الذي نشأ عنه النسيان ؛ لأنهم اختاروه لأنفسهم ، فصدمت نسبتهم إليهم ، ونسبوا السبب الذي اقتضى نسيانهم وإنهماكهم في الشهوات إلى الله تعالى : وهو استدراجهم ببسط النعم عليهم ، فيها ضلوا ، فلا تنافي بين معتقد أهل الحق وبين مضمون قول الملائكة حيث قل . بل هما متواطئان على أمر واحد ، والله أعلم .

سبب الشكر ، سبب الكفر ونسيان الذكر ، وكان ذلك سبب هلاكهم ، فإذا برأت الملائكة والرسول أنفسهم من نسبة الإضلال الذي هو عمل الشياطين إليهم واستعاذوا منه ، فهم لربهم الغنى العدل أشد تبرئة وتزهيها منه ، ولقد زهوه حين أضافوا إليه الفضل بالنعمة والتمتع بها . وأسندوا نسيان الذكر والتسبب به للبوار إلى الكفرة ، فشرحوا الإضلال المجازي الذي أسنده الله تعالى إلى ذاته في قوله (يضل من يشاء) ولو كان هو المضل على الحقيقة لكان الجواب العتيد أن يقولوا : بل أنت أضللتهم . والمعنى : أأنتم أوقعتهم في الضلال عن طريق الحق ؟ أم هم ضلوا عنه بأنفسهم ؟ وضل : مطاوع ، أضله ، وكان القياس : ضل عن السبيل ، إلا أنهم تركوا الجار كما تركوه في هداه الطريق . والاصل : إلى الطريق ، وللطريق . وقولهم : أضل البعير ، في معنى : جعله ضالا ، أى : ضائعا ، لما كان أكثر ذلك بتفريط من صاحبه وقلة احتياط في حفظه ، قيل : أضله ، سواء كان منه فعل أو لم يكن (سبحانه) تعجب منهم ، قد تعجبوا بما قيل لهم لأنهم ملائكة وأنبياء معصومون ، فما أبعدهم عن الإضلال الذي هو مختص بإبليس وحزبه . أو نطقوا بسبحانك ليدلوا على أنهم المسبحون المتقديسون الموسومون بذلك ، فكيف يليق بحالهم أن يضلوا عباده . أو قصدوا به تزيهه عن الانداد ، وأن يكون له نبي أو ملك أو غيرهما ندا ، ثم قالوا : ما كان يصح لنا ولا يستقيم ونحن معصومون أن نتولى أحدا دونك . فكيف يصح لنا أن نحمل غيرنا على أن يتولونا دونك . أو ما كان ينبغي لنا أن نكون أمثال الشياطين في توليهم الكفار كما تولاهم الكفار . قال الله تعالى (فقاتلوا أولياء الشيطان) يريد الكفرة وقال (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت) وقرأ أبو جعفر المدني : تتخذ ، على البناء للمفعول . وهذا الفعل أعني : اتخذ ، يتعدى إلى مفعول واحد ، كقولك : اتخذ وليا . وإلى مفعولين كقولك اتخذ فلانا وليا . قال الله تعالى (أم اتخذوا آلهة من الأرض) وقال (واتخذ الله إبراهيم خليلا) فالقراءة الأولى من المتعدى إلى واحد وهو (من أولياء) والاصل : أن تتخذ أولياء ، فزيدت (من) لتأكيد معنى التني ، والثانية من المتعدى إلى مفعولين . فالأول ما بنى له الفعل . والثاني : (من أولياء) . ومن للتبويض ، أى : لا تتخذ بعض أولياء . وتنكير (أولياء) من حيث أنهم أولياء مخصوصون وهم الجن والأصنام والذكر : ذكر الله والإيمان به . أو القرآن والشرائع . والبور : الهلاك ، يوصف به الواحد والجمع . ويجوز أن يكون جمع بائر ، كعائد وعوذ .

فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ

مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾

هذه المفاجأة^(١) بالاحتجاج والإلزام حسنة رائعة وخاصة إذا انضم إليها الالتفات وحذف القول ونحوها قوله تعالى (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير) وقول القائل :

قَالُوا خُرَاسَانُ أَقْصَى مَا يُرَادُ بِنَا ثُمَّ الْقُفُولُ فَقَدْ جِئْنَا خُرَاسَانًا^(٢)

وقرئ : يقولون ، بالتاء والياء . فغنى من قرأ بالتاء فقد كذبوك بقولكم أنهم آلهة . ومعنى من قرأ بالياء : فقد كذبوك بقولهم (سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء) : فإن قلت : هل يختلف حكم الباء مع التاء والياء ؟ قلت إى والله ، هى مع التاء كقوله (بل كذبوا بالحق) والجار والمجرور بدل من الضمير ، كأنه قيل : فقد كذبوا بما تقولون : وهى مع الياء كقولك : كتبت بالقلم . وقرئ : يستطيعون ، بالتاء والياء أيضاً . يعنى . فما تستطيعون أنتم يا كفار صرف العذاب عنكم . وقيل : الصرف : التوبة وقيل : الحيلة ، من قولهم : إنه ليتصرف ، أى . يحتال أو فما يستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب . أو أن يحتالوا لكم . الخطاب على العموم للكافرين . والعذاب الكبير لاحق بكل من ظلم ، والكافر ظالم ؛ لقوله (إن الشرك لظلم عظيم) والفساق ظالم . لقوله (ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) . وقرئ : يذقه ، بالياء . وفيه ضمير الله . أو ضمير مصدر يظلم .

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَمَّا كُونِ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا^(٣٠)

الجملة بعد ، إلا ، صفة لموصوف محذوف . والمعنى : وما أرسلنا قبلك أحدا من المرسلين إلا آكain وماشين . وإنما حذف اكتفاء بالجار والمجرور . أعنى من المرسلين ونحوه قوله عز من قائل : (وما منا إلا له مقام معلوم) على معنى : وما منا أحد . وقرئ : ويمشون ، على البناء المفعول ، أى : تمشيهم حوائجهم أو الناس . ولو قرئ : يمشون ، لكان أوجه لولا الزواية . وقيل : هو احتجاج على من قال (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في

(١) قوله «هذه المفاجأة» أى : التى فى قوله تعالى (فقد كذبوك) . (ع)

(٢) يقول : قالوا إن هذه البلدة أبعد ما يراد بنا وغاية السفر بنا ، ثم يكون القفول أى الرجوع . ويجوز أنه عطف على خراسان . وقوله « فقد جئنا » مرتب على محذوف ، أى : إن صدقوا فى قولهم فقد جئنا خراسان ، فلم لم نتخلص من السفر . ويجوز أنه عدل إلى الخطاب ، أى : فقولوا لم اقطعوا السفر بنا وارجموا . فقد جئنا الموعد ، لكن ليس ذلك التفاتاً .

(الاسواق) . (فتنة) أى محنة وابتلاء . وهذا تصوير لرسول الله صلى الله عليه وسلم على ما قالوه واستبدعوه ، من أكله الطعام ومشيه في الاسواق بعد ما احتج عليهم بسائر الرسل ، يقول: وجرت عادتي وموجب حكمتي على ابتلاء بعضكم أيها الناس ببعض . والمعنى: أنه ابتلى المرسلين بالمرسل إليهم ، وبمناصبتهم لهم العداوة ، وأقاويلهم الخارجة عن حد الإنصاف، وأنواع أذامهم ، وطلب منهم الصبر الجميل ، ونحوه (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) وموقع (أتصبرون) بعد ذكر الفتنة موقع (أيكم) بعد الابتلاء في قوله (ليلوكم أيكم أحسن عملاً) . (بصيرا) عالماً بالصواب فيما يبتلى به وغيره فلا يضيّق صدرك ، ولا يستخفّنك أقاويلهم فإن في صبرك عليها سعادتك وفوزك في الدارين . وقيل : هو تسليّة له عما عيروه به من الفقر ، حين قالوا : أو يلقى إليه كثر ، أو تكون له جنة . وأنه جعل الأغنياء فتنة للفقراء : لينظر : هل يصبرون ؟ وأنها حكمته ومشيتته : يغنى من يشاء ويفقر من يشاء . وقيل : جعلناك فتنة لهم ؛ لأنك لو كنت غنياً صاحب كنوز وجنان لكان ميلهم إليك وطاعتهم لك للدنيا ، أو بمزوجة بالدنيا ؛ فإنما بعثناك فقيراً ليكون طاعة من يطيعك خالصة لوجه الله من غير طمع دنيوى . وقيل : كان أبو جهل والوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل ومن في طبقهم يقولون : إن أسلنا وقد أسلم قبلنا عمار وصهيب وبلال وفلان وفلان ترفعوا علينا إدلالاً بالسابقة ، فهو اقتتان بعضهم ببعض .

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا
لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١)

أى لا يأملون لقاءنا بالخير لأنهم كفرة . أو لا يخافون لقاءنا بالشر . والرجاء في لغة تهامة : الخوف ، وبه فسر قوله تعالى (لا ترجون الله وقارا) جعلت الصيرورة إلى دار جزائه بمنزلة لقائه لو كان ملكياً . اقترحوا من الآيات أن ينزل الله عليهم الملائكة فتخبرهم بأن محمد أصادق حتى يصدقوه . أو يروا الله جهرة فيأمرهم بتصديقه واتباعه . ولا يخلو : إما أن يكونوا عالمين بأر الله لا يرسل الملائكة إلى غير الأنبياء ، وأن الله لا يصح أن يرى (١) . وإلما علقوا إيمانهم بما لا يكون . وإما أن لا يكونوا عالمين بذلك وإنما أرادوا التعتن باقتراح آيات سوى الآيات التي نزلت وقامت بها الحجة عليهم ، كما فعل قوم موسى حين قالوا : لن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة . فإن قلت : ما معنى (في أنفسهم) ؟ قلت : معناه أنهم أضمروا الاستكبار عن الحق وهو الكفر والعناد

(١) قوله ، لا يصح أن يرى ، هذا مذهب المعتزلة ، وعند أهل السنة : يصح أن يرى . (ع)

في قلوبهم واعتقدوه . كما قال (إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه) . (وعتوا) وتجاوزوا الحد في الظلم . يقال : عتا علينا فلان . وقد وصف العتو بالكبر . فبالغ في إفراطه يعني أنهم لم يخسروا على هذا القول العظيم ، إلا لأنهم بلغوا غاية الاستكبار وأقصى العتو ، واللام جواب قسم محذوف . وهذه الجملة في حسن استئنافها غاية . وفي أسلوبها قول القائل :

وَجَارَةٌ جَسَاسٍ أَبَانَا بِنَابِهَا كَلِمًا غَلَتْ نَابُ كَلِمَتِهِ بَوَاؤُهَا (١)

وفي لحوى هذا الفعل دليل على التعجب من غير لفظ التعجب . ألا ترى أن المعنى : ما أشد استكبارهم ، وما أكبر عتوهم . وما أعلى نابا بواؤها كليب .

يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا (٢٢)

(يوم يرون) منصوب بأحدثيتين : إما بمادل عليه (لابشري) أى : يوم يرون الملائكة يمنعون البشرى أو يعدمونها . ويومئذ للتكرير . وإما بإضمار « اذكر » أى : اذكر يوم يرون الملائكة ثم قال (لابشري يومئذ للمجرمين) . وقوله « للمجرمين » إما ظاهر في موضع ضمير . وإما لأنه عام ، فقد تناولهم بعمومه (حجراً محجوراً) ذكره سيبويه في باب المصادر غير المتصرفة المنصوبة بأفعال متروكة إظهارها نحو : معاذ الله ، (٢) وقعدك الله ، وعمرك الله . وهذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدو متور أو هجوم نازلة ، أو نحو ذلك : يضعونها موضع الاستعاذة . قال سيبويه : ويقول الرجل للرجل : أتفعل كذا وكذا ،

(١) لرجل من بني بكر : قبيلة جساس ، يفخر على بني تغلب : قبيلة كليب بن ربيعة أخى مهلب وغال امرئ القيس . وجارة جساس : هى خاتمة اليسوس . أبانا - بالهمز - : أى قابلنا وساوينا كليباً ، بنابها : أى بناقها المسنة ، فقتلناه فيها ، ثم قال تعجباً واستعظاماً : غلت ، أى : ارتفعت وعظمت ناقة مسنة مهزولة بواؤها كليب المشهور . وبواء كسواء وزناً ومعنى ، أى : كفؤها ومساوئها كليب بن ربيعة الشجاع المعروف . ومن خبرها أن اليسوس أنت مع رجل من جرم تزور أختها هيلة أم جساس بن مرة فخرجت ناقة الجرهمى ترعى مع إبل بني بكر في أرض تغلب لما كان بينهما من المصاهرة والمودة ، فأنكر كليب الناقة وظنها أجنبية ، فرماها بسهم فأصاب ضرعها فرجعت تشخب دماً ، وبركت بفناء جساس ، فرأى اليسوس فصاحت : واذا له ، واغربته ! فقال جساس : اهدنى ، والله لأعقرن فيها خلا هو أعز على أهله منها ، فظن كليب أنه يعنى خلا عنده اسمه عليان ، فقال : دون عليان خرت القناد ، لكن جساساً كان يعنى نفس كليب ، فترقبه يوماً ورماه برمح فصرعه ، وتبعه عمرو بن الحرث ، فلما رآه كليب قال له : اسقنى يا عمرو . فقال : تركت الماء وراءك وأجهز عليه ، فضرب به المثل المشهور :

المستجير بعمرو عند كبريته كالمستجير من الرمضاء بالنار

واشتعلت الحرب بين بكر وتغلب نحو ثلاثين سنة ، وضرب المثل السائر : سد كليب في الناقة .

(٢) قوله « وقعدك الله » ، في الصحاح : وقولهم : قميدك لا آتيك ، وقميدك الله لا آتيك ، وقعدك الله لا آتيك : يعين للعرب ، وهى مصادر استعملت منصوبة بفعل مضمر . والمعنى : بإصاحك الذى هو صاحب كل نجوى ، كما يقال : نشدتك الله . (ع)

فيقول: حجراً ، وهى من حجره إذا منعه ؛ لأن المستعيز طالب من الله أن يمنع المكروه فلا يلحقه فكان المعنى : أسأل الله أن يمنع ذلك منعاً ويحجره حجراً . وبجئته على فعل أو فعل فى قراءة الحسن ، تصرف فيه لاختصاصه بموضع واحد ، كما كان قعدك وعمرك كذلك ، وأنشدت لبعض الرجاز :

قَالَتْ وَفِيهَا حَيْدَةٌ وَذُعْرُ عُوذُ رَبِّي مِنْكُمْ وَحَجْرٌ ^(١)

فإن قلت : فإذا ثبت أنه من باب المصادر ، فما معنى وصفه بمحجور ؟ قلت : جاءت هذه الصفة لتأكيد معنى الحجر ، كما قالوا . ذيل ذائل ، والذيل : الطوان . وهوت مائت . والمعنى فى الآية : أنهم يطلبون نزول الملائكة ويقترحونه ، وهم إذا رأوهم عند الموت أو يوم القيامة كرهوا لقاءهم وفرعوا منهم ، لأنهم لا يلقونهم إلا بما يكرهون . وقالوا عند رؤيتهم ما كانوا يقولونه عند لقاء العدو الموتور ^(٢) . وشدة النازلة . وقيل : هو من قول الملائكة ومعناه : حراماً محرماً عليكم الغفران والجنة والبشرى ، أى : جعل الله ذلك حراماً عليكم .

وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ^(٣)

ليس ههنا قدوم ولا ما يشبه القدوم ، ولكن مثلت حال هؤلاء وأعمالهم التى عملوها فى كفرهم من صلة رحم ، وإغاثة ملهوف ، وقرى ضيف ، ومن على أسير ، وغير ذلك من مكارمهم ومحاسنهم بحال قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا عليه ، فقدم إلى أسيانهم ، وقصد إلى ماتحت أيديهم فأفسدها ومزقها كل ممزق ، ولم يترك لها أثراً ولا عثيراً ^(٤) . والهباء : ما يخرج من الكوة مع ضوء الشمس شبيه بالغبار . وفى أمثالهم : أقل من الهباء (منثوراً) صفة للهباء ، شبه بالهباء فى قلته وحقارته عنده ، وأنه لا ينتفع به ، ثم بالمنثور منه ، لأنك تراه منتظماً مع الضوء ، فإذا حركته الريح رأيت أنه قد تناثر وذهب كل مذهب . ونحوه قوله (كعصف ما كول) لم يكف أن شبههم بالعصف حتى جعله مؤوفاً بالأ كال ^(٥) . ولأن شبه عملهم بالهباء حتى جعله متناثراً . أو مفعول ثالث لجعلناه أى فجعلناه جامعا لحقارة الهباء والتناثر ، كقوله (كونوا قردة خائمين) أى جامعين للدهس والخس . ولام الهباء واو ، بدليل الهبوة .

أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ^(٦)

(١) الحيدة : الصدود ، وذعره ذعراً : فرعه . والذعر - بالضم - : اسم مصدر ، وكذلك العوذ بمعنى التعوذ والالتجاء ، وكذلك الحجر بمعنى الامتناع والتحصن ، والميتدأ محذوف ، أى : قالت أمرى أتعوذ منكم وتعصن برى ، والحال أنها صادة فرقة ، وهذا يقال على لسانهم عند لقاء المكروه .

(٢) قوله « الموتور » فى الصحاح : الذى قتل له قتل فلم يدرك بدنه . (ع)

(٣) قوله « لم يترك لها أثراً ولا عثيراً » فى الصحاح « العثير ، بتسكين التاء : الغبار . (ع)

(٤) قوله « بالأ كال » هو بالضم : الحكمة . (ع)

المستقر : المكان الذى يكونون فيه فى أكثر أوقاتهم مستقرين يتجالسون ويتحدثون .
والمقيل : المكان الذى يأوون إليه للاسترواح إلى أزواجهم والمتنع بمنزلاتهن وملاستهن ،
كما أن المترفين فى الدنيا يعيشون على ذلك الترتيب . وروى أنه يفرغ من الحساب فى نصف
ذلك اليوم ، فيقيل أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار . وفى معناه قوله تعالى (إن أصحاب
الجنة اليوم فى شغل فاكهون هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون) قيل فى تفسير
الشغل : اقتضاض الأ Bakar ، ولا نوم فى الجنة . وإنما سعى مكان دعهم واسترواحهم إلى الحور
مقيلا على طريق التشبيه . وفى لفظ الأحسن : رمز إلى ما يزين به مقيليهم . من حسن الوجوه
وملاحة الصور ، إلى غير ذلك من التحاسين والزين .

وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَتُزَلُّ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ۝٢٥

وقرى (تشقق) والأصل : تشقق ، فحذف بعضهم التاء ، وغيره أدغمها . ولما كان
انشقاق السماء بسبب طلوع الغمام منها ، جعل الغمام كأنه الذى تشقق به السماء ، كما تقول : شق
السنام بالشفرة وانشق بها . ونظيره قوله تعالى (السماء منفطر به) . فإن قلت : أى فرق بين
قولاك : انشقت الأرض بالنبات ، وانشقت عن النبات ؟ قلت : معنى انشقت به : أن الله شققها
بطلوعه فانشقت به . ومعنى انشقت عنه : أن التربة ارتفعت عنه عند طلوعه . والمعنى : أن
السماء تنفتح بغمام يخرج منها ، وفى الغمام الملائكة ينزلون وفى أيديهم صحائف أعمال العباد . وروى
تنشق سماء سماء ، وتنزل الملائكة إلى الأرض . وقيل : هو غمام أبيض رقيق ، مثل الضباب ، ولم
يكن إلا ابنى إسرائيل فى تيههم . وفى معناه قوله تعالى (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى
ظلل من الغمام والملائكة) . وقرئ : وتنزل الملائكة ، وتنزل الملائكة ، وتنزل الملائكة ، وتنزل
الملائكة ، وأنزل الملائكة ، وتنزل الملائكة ، وتنزل الملائكة : على حذف النون الذى هو فاء
الفعل من نزل : قراءة أهل مكة .

الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْخَبِيرُ ۝٢٦

الحق : الثابت : لأن كل ملك يزول يومئذ ويبطل ، ولا يبقى إلا ملكه .

وَيَوْمَ يَعْصِيُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧

يَوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ

إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ۝٢٩

عض اليدين والأنامل ، والسقوط في اليد ، وأكل البنان ، وحرق الأسنان والأرم^(١) ،
 وقرعها : كنايةات عن القبط والحسرة ؛ لأنها من روادفها ، فيذكر الرادفة ويدل بها على
 المردوف ، فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة ، ويجد السامع عنده في نفسه من الروعة
 والاستحسان ما لا يجده عند لفظ المكنى عنه . وقيل : نزلت في عقبة بن أبي معيط بن أمية بن
 عبد شمس ، وكان يكثر مجالسة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل اتخذ ضيافة فدعا إليها
 رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأبى أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ، ففعل وكان
 أبي بن خلف صديقه فعاتبه وقال : ضبأت يا عقبة ؟ قال : لا ، ولكن آلى أن لا يأكل من طعامي
 وهو في يقي ، فاستحييت منه فشهدت له والشهادة ليست في نفسي ، فقال : وجهي من وجهك
 حرام إن لغيت محمداً فلم تطأ قفاه وتبزق في وجهه وتلطم عينه ، فوجده ساجداً في دار الندوة
 ففعل ذلك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف ،
 فقتل يوم بدر : أمر علياً رضي الله عنه بقتله . وقيل : قتله عاصم بن ثابت بن أفلح الأنصاري
 وقال : يا محمد ، إلى من السبية^(٢) قال : إلى النار . وظعن رسول الله صلى الله عليه وسلم
 أياباً بأحد ، فرجع إلى مكة فمات^(٣) . واللام في (الظالم) يجوز أن تكون للعهد ، يراد به عقبة
 خاصة . ويجوز أن تكون للجنس فيتناول عقبة وغيره . تمني أن لو صحب الرسول وسلك معه
 طريقاً واحداً وهو طريق الحق ولم يتشعب به طرق الضلالة والهوى . أو أراد أني كنت ضالاً
 لم يكن لي سبيل قط ، فليتني حصلت بنفسي في صحبة الرسول سيلاً . وقرئ : يا ويلتي يا بلاء ، وهو
 الأصل ؛ لأن الرجل ينادي ويلته وهي هلكته ، يقول لها : تعالي فهذا أوانك . وإنما قلبت
 البلاء ألفاً كما في : صحاري ، ومداري . فلان : كناية عن الإعلام ، كما أن الهن كناية عن الأجناس
 فإن أريد بالظالم عقبة ، فالمعنى : ليتني لم أتخذ أياباً خليلاً . فكسني عن اسمه . وإن أريد به الجنس ،

(١) قوله « وحرق الأسنان والأرم » في الصحاح : حرقت الشيء حرقاً : بروتته وحككت بعضه ببعض . ومنه
 قولهم : حرقت نابه ، أي حرقته حتى سمع له صريف . وفلان يحرق عليك الأرم غيظاً . وفيه أيضاً : أرم على الشيء .
 أي : عض عليه وأرمه أيضاً ، أي : أكله ، والأرم : الأضراس ، كأنه جمع أرم . يقال : فلان يحرق عليك
 الأرم ، إذا تغيظ لك أضراسه بعضها ببعض . (ع)

(٢) قوله « وقال يا محمد إلى من السبية » في الصحاح « السبية » : المرأة تسي . (ع)

(٣) أخرجه أبو نعيم في الدلائل من طريق محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس فذكره
 مطولاً لكن إلى قوله « فأمس عقبة يوم بدر فقتل صبوا . ولم يقتل من الأسارى يوم بدر غيره . قتله ثابت بن أبي
 الأفلح » وروى الطبري من طريق مجاهد في قوله تعالى . (ويوم بعض الظالم على يديه) قال « دعا عقبة بن أبي
 معيط النبي صلى الله عليه وسلم إلى طعام صنعه إلى قوله فشهدت له ، والشهادة ليست في نفسي ، ومن طريق مقسم
 نحوه ، مختصراً قال فقتل عقبة يوم بدر صبوا . وأما أبي بن خلف فقتله النبي صلى الله عليه وسلم بيده يوم أحد في
 القتال وهما اللذان أنزل الله تعالى فيهما (ويوم بعض الظالم على يديه) وذكره الثعلبي ثم الواحدى من غير سند .

فكل من اتخذ من المضلين خليلاً كان لخليله اسم علم لا محالة ، فجعله كناية عنه (عن الذكر)
عن ذكر الله ، أو القرآن ، أو موعظة الرسول . ويجوز أن يريد نطقه بشهادة الحق . وعزمه على
الإسلام . والشيطان : إشارة إلى خليله ، سماه شيطاناً لأنه أضله كما يضل الشيطان ، ثم خذله
ولم ينفعه في العاقبة . أو أراد إبليس ، وأنه هو الذي حمله على مخالطة المضل ومخالفة الرسول ،
ثم خذله . أو أراد الجنس ، وكل من تشيطن من الجن والإنس . ويحتمل أن يكون (وكان
الشيطان) حكاية كلام الظالم ، وأن يكون كلام الله . اتخذت : يقرأ على الإدغام والإظهار ،
والإدغام أكثر .

وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ۝٣٠

الرسول : محمد صلى الله عليه وسلم وقومه قريش ، حكى الله عنه شكواه قومه إليه . وفي
هذه الحكاية تعظيم للشكاية وتخويف لقومه : لأن الأنبياء كانوا إذا التجشوا إليه وشكوا إليه
قومهم : حل بهم العذاب ولم ينظروا .

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ

هَادِيًا وَنَصِيرًا ۝٣١

ثم أقبل عليه مسلماً ومواسياً وواعداً النصره عليهم ، فقال (وكذلك) كان كل نبي قبلك
مبتلى بعداوة قومه ، وكفأك بي هادياً إلى طريق قهرهم والانتصار منهم ، وناصرأ لك عليهم .
مهجوراً : تركوه وصدّوا عنه وعن الإيمان به . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : من تعلم القرآن
وعلمه وعلق مصحفاً لم يتعهده ولم ينظر فيه . جاء يوم القيامة متعلقاً به يقول : يا رب العالمين ،
عبدك هذا اتخذني مهجوراً . اقض بيني وبينه ^(١) . وقيل : هو من هجر ، إذا هذى ، أى : جعلوه
مهجوراً فيه ، لحذف الجار وهو على وجهين . أحدهما : زعمهم أنه هذيان وباطل وأساطير
الأولين . والثاني : أنهم كانوا إذا سمعوه هجروا فيه ، كقوله تعالى (لا تسمعوا لهذا القرآن
والغوا فيه) ويجوز أن يكون المهجور بمعنى الهجر ، كالمجلود والمعقول . والمعنى : اتخذوه هجراً .
والعدو : يجوز أن يكون واحداً وجمعاً . كقوله (فإنهم عدو لى) وقيل المعنى : وقال الرسول
يوم القيامة .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ

(١) أخرجه الثعلبي عن طريق أبي هذبة عن أنس وأبو هذبة كذاب .

فَوَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۝ (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝ (٣٣) الَّذِينَ يُنْحَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝ (٣٤)

(نزل) ههنا بمعنى أنزل لا غير، تكبر بمعنى أخبر، وإلا كان متدفعاً. وهذا أيضاً من اعتراضاتهم واقتراحاتهم الدالة على شرادهم عن الحق وتجاهلهم عن اتباعه. قالوا: هلا أنزل عليه دفعة واحدة في وقت واحد كما أنزلت الكتب الثلاثة، وماله أنزل على التفريق. والقائلون: قريش. وقيل: اليهود. وهذا فضول من القول وممارسة بما لا طائل تحته؛ لأن أمر الإعجاز والاحتجاج به لا يختلف بنزوله جملة واحدة أو مفزقاً. وقوله (كذلك) جواب لهم، أى: كذلك أنزل مفزقاً. والحكمة فيه: أن نقوى بتفريقه فوادك حتى تعيه وتحفظه؛ لأن المتلقن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئاً بعد شيء، وجزأ عقيب جزء. ولو ألقى عليه جملة واحدة لبعل به وتعباً^(١)، محفظه، والرسول صلى الله عليه وسلم فارقت حاله حال موسى وداود وعيسى عليهم السلام، حيث كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب وهم كانوا قارئين كاتبين، فلم يكن له بد من التلقن والتحفظ، فأُنزل عليه منجماً في عشرين سنة. وقيل: في ثلاث وعشرين. وأيضاً: فكان ينزل على حسب الحوادث وجوابات السائلين، ولأن بعضه منسوخ وبعضه ناسخ، ولا يتأتى ذلك إلا فيما أنزل مفزقاً. فإن قلت: ذلك في كذلك يجب أن يكون إشارة إلى شيء تقدمه، والذي تقدم هو إنزاله جملة واحدة، فكيف فسرت به كذلك أنزلناه مفزقاً؟ قلت: لأن قولهم: لولا أنزل عليه جملة: معناه: لم أنزل مفزقاً؟ والدليل على فساد هذا الاعتراض: أنهم عجزوا عن أن يأتوا بنجم واحد من نجومه، وتحذوا بسورة واحدة من أصغر السور، فأبرزوا صفحة عجزهم وسجلوا به على أنفسهم حين لا ذوا بالمناسبة وفزعوا إلى المحاربة، ثم قالوا: هلا نزل جملة واحدة، كأنهم قدروا على تفاريقه حتى يقدروا على جملة (ورتلناه) معطوف على الفعل الذي تعلق به كذلك، كأنه قال: كذلك فرقناه ورتلناه. ومعنى ترتيله: أن قدره آية بعد آية، ووقفة عقيب وقفة. ويجوز أن يكون المعنى: وأمرنا بترتيل قراءته، وذلك قوله (ورتل القرآن ترتيلاً) أى اقرأه بترسل وتثبت. ومنه حديث عائشة رضى الله عنها في صفة قراءته صلى الله عليه وسلم ولا كسر دكم هذا، لو أراد السامع أن يعد حروفه بعدد هاء^(٢) وأصله: الترتيل في الأسنان:

(١) قوله «لبعل به وتعباً» في الصحاح: بعل الرجل - بالكسر - أى دمر: وفيه أيضاً: عيب بأمرى، إذا لم تهتد لوجهه. وأما عليه الأمر وتعباً وتعباً، بمعنى أنه قد دمر. (ع)
(٢) أخرجه البخارى. من رواية عروة. قال «جلس أبو هريرة رضى الله عنه إلى حجرة عائشة رضى الله عنه»

وهو تفليجها . يقال : ثغر ثل ومر ثل ، ويشبه بنور الأفقحوان في تفليجه . وقيل : هو أن نزل مع كونه متفرقا على تمسك وتمهل في مدة متباعدة وهي عشرون سنة ، ولم يفرقه في مدة متقاربة ﴿ولا يأتونك﴾ بسؤال عجيب من سؤالاتهم الباطلة - كأنه مثل في البطلان - إلا أتيناك نحن بالجواب الحق الذي لا يحيد عنه وبما هو أحسن معنى . ومؤذى من سؤالهم . ولما كان التفسير هو الت كشف عما يدل عليه الكلام ، وضع موضع معناه فقالوا : تفسير هذا الكلام كيت وكيت ، كما قيل : معناه كذا وكذا . أو لا يأتونك بحال وصفة عجيبة يقولون : هلا كانت هذه صفتك وحالك ، نحو : أن يقرن بك ملك ينذر معك ، أو يلقي إليك كنز ، أو تكون لك جنة ، أو ينزل عليك القرآن جملة ، إلا أعطيناك نحن من الأحوال ما يحق لك في حكمتنا ومشيتنا أن نعطاه . وما هو أحسن تكشيفا لما بعثت عليه ودلالة على صحته ، يعني : أن تنزله مفرقا وتحديهم بأن يأتوا ببعض تلك التفاريق كلما نزل شيء منها : أدخل في الإعجاز وأنور للحجة من أن ينزل كله جملة ويقال لهم جيئوا بمثل هذا الكتاب في فصاحته مع بعد ما بين طرفيه . كأنه قيل لهم : إن حاملكم على هذه السؤالات أنكم تضللون سبيله وتحقرن مكانه ومنزله . ولو نظرتم بعين الإنصاف وأنتم من المسحورين على وجوههم إلى جهنم . لعلمت أن مكانكم شر من مكانه وسيلكم أضل من سبيله . وفي طريقته قوله (هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه .. الآية) ويجوز أن يراد بالمكان : الشرف والمنزلة . وأن يراد الدار والمسكن ، كقوله (أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً) ووصف السيل بالضلال من الإسناد المجازي وعن النبي صلى الله عليه وسلم : يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أثلاث : ثلث على الدواب وثلث على وجوههم ، وثلث على أقدامهم ينسلون نسلًا .^(١)

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ۝٣٥

فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ۝٣٦

== عنها فقال إن النبي صلى الله عليه وسلم إنما كان يحدث الحديث لوعده العاد لأحصاءه . ولم يكن يسرد الحديث كسردكم ، وزاد الترمذي والنسائي ولكن كان يتكلم بكلام فصل يحفظه من جلس إليه ، وسأقي في المزمع .

(١) أخرجه البيهقي من طريق مسدد عن بشر بن المفضل عن علي بن زيد عن أوس بن أبي أوس . عن أبي هريرة مرفوعاً بهذا . وأصله في الترمذي والبراز وأحمد وإسحق وابن أبي شيبة من هذا الوجه لكن قال عن أوس ابن خالد وعند الحاكم من رواية أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد عن أبي ذر حديثي الصادق المصدق « أن الناس يحشرون ثلاثة أفواج . فوج طاعينين لآسين راكبين . وفوجا يمشون ويمسحون . وفوجا تسحبهم الملائكة على وجوههم إلى النار » وفي الترمذي والنسائي من رواية معاوية بن جيلة حدثنا بهز بن حكيم رفعه « إنكم محشورون إلى الله ركباناً ورجالا وتمرون على وجوهكم » .

الوزارة : لاتتافى النبوة ، فقد كان يبعث في الزمن الواحد أنبياء ويؤمنون بأن يوازر بعضهم بعضاً . والمعنى : فذهبوا إليهم فكذبوها فدمرناهم ، كقوله (اضرب بعصاك البحر فانقلب) أى فاضرب فانقلب . أراد اختصار القصة فذكر حاشيتها أولها وآخرها ، لأنهما المقصود من القصة بطولها أعنى : إلزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم . وعن علي رضي الله عنه فدمرتهم . وعنه : فدمرناهم . وقرئ فدمرناهم ، على التأكيد بالنون الثقيلة .

وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ سِلَاسًا وَاعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾

كانهم كذبوا نوحاً ومن قبله من الرسل صريحاً . أو كان تكذيبهم لواحد منهم تكذيب للجميع أو لم يروا بعثة الرسل أصلاً كالبراهمة (وجعلناهم) وجعلنا إغراقهم أو قصتهم (للظالمين) إما أن يعنى بهم قوم نوح ، وأصله : وأعدنا لهم ، إلا أنه قصد تظليلهم فأظهر . وإما أن يتناولهم بعمومه .

وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرُّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَاهُ الْأُمْتَالَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيرًا ﴿٣٩﴾

عطف عاداً على (هم) في جعلناهم أو على الظالمين ، لأن المعنى : ووعدنا الظالمين . وقرئ : وثمود ، على تأويله القبلة . وأما المنصرف فعلى تأويل الحى أو لأنه اسم الأب الأكبر . قيل في أصحاب الرس : كانوا قوماً من عبدة الأصنام أصحاب آبار ومواش . فبعث الله إليهم شعبياً فدعاهم إلى الإسلام . فمادوا في طغيانهم وفي إيذائه . فبيناهم حول الرس وهو البر غير المطوية . عن أبي عبيدة : انهارت بهم غصف بهم وبديارهم . وقيل : الرس قرية بفلج اليمامة ، قتلوا نبيهم فهلكوا ، وهم بقية ثمود قوم صالح . وقيل : هم أصحاب النبي حنظلة بن صفوان ، كانوا مبتلين بالعنقاء وهى أعظم ما يكون من الطير ، سميت لطول عنقها . وكانت تسكن جبلهم الذى يقال له فتح ، وهى تنقض على صبيانهم فتخطفهم ، إن أعوزها الصيد . فدعا عليها حنظلة فأصابها الصاعقة ، ثم إنهم قتلوا حنظلة فأهلكوا : وقيل : هم أصحاب الأخدود ، والرس : هو الأخدود . وقيل الرس بأنطاكية قتلوا فيها حبيبا النجار . وقيل : كذبوا نبيهم ورسوه في بر ، أى : دسوه فيها (بين ذلك) أى بين ذلك المذكور ، وقد يذكر الذكور أشياء مختلفة ثم يشير إليها بذلك ، ويحسب الحاسب أعداداً متكررة ثم يقول : فذلك كيت وكيت على معنى : فذلك المحسوب أو المعدود (ضربنا له الأمثال) بيناله القصص العجيبة من قصص الأولين ، ووصفنا لهم ما أجروا

إليه من تكذيب الأنبياء وجرى عليهم من عذاب الله وتدميره . والتبشير : التفتيت والتكسير . ومنه : التبر ، وهو كسار الذهب والفضة والزجاج . و (كلا) الأول منصوب بمادل عليه (ضربنا له الأمثال) وهو : أنذرنا . أو : حذرنا . والثاني بتبرنا ، لأنه فارغ له .

وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا فِيهَا مَطَرًا سَوِيًّا أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَتَرُجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾

أراد بالقرية سدوم ، من قرى قوم لوط ، وكانت خمسا : أهلك الله تعالى أربعا بأهلها وبقيت واحدة . ومطر السوء : الحجارة ، يعني أن قرىسا مزوا مرارا كثيرة في متاجرهم إلى الشام على تلك القرية التي أهلكت بالحجارة من السماء (أفلم يكونوا) في مرار مرورهم ينظرون إلى آثار عذاب الله ونكاله ويذكرون (بل كانوا) قوما كفرة بالبعث لا يتوقعون (نشورا) وعاقبة ، فوضع الرءاء موضع التوقع ، لأنه إنما يتوقع العاقبة من يؤمن فمن ثم لم ينظروا ولم يذكروا ، ومزوا بها كما مزت ركاهم . أولا يأملون نشورا كما يأمله المؤمنون لطمعهم في الوصول إلى ثواب أعمالهم . أولا يخافون . على اللغة التهامية .

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُوكَ إِلَّا هُزُوعًا أَلَيْسَ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾
إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ هَاهُنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ

الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾

(إن) الأولى نافية ، والثانية مخففة من الثقيلة . واللام هي الفارقة بينهما . واتخذ هزوا : في معنى استهزا به ، والأصل : اتخذ هزوا هزوا ، أو مهزوا به (أهذا) محكى بعد القول المضمر . وهذا استصغار ، و (بعث الله رسولا) وإخراجه في معرض التسليم والإقرار ، وهم على غاية الجحود والإنكار سخريه واستهزاء . ولو لم يستهزؤا لقالوا : أهذا الذي زعم أو ادعى أنه مبعوث من عند الله رسولا . وقولهم (إن كاد ليضلنا) دليل على فرط مجاهدة رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوتهم ، وبذله قصارى الوسع والطاقة في استعطافهم ، مع عرض الآيات والمعجزات عليهم حتى شافوا بزعمهم أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام ، لولا فرط لجاحهم واستمساكهم بعبادة آلهتهم ، و (لولا) في مثل هذا الكلام جار من حيث المعنى - لا من حيث الصنعة - مجرى التقييد للحكم المطلق (وسوف يعلمون) وعيد ودلالة على أنهم لا يفوتونه وإن طالبت مدة الإهمال ، ولا بد للوعيد أن يلحقهم فلا يغزهم التأخير . وقوله (من أضل سبيلا) كالجواب

عن قولهم ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا﴾ لانه نسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الضلال من حيث لا يضل غيره إلا من هو ضال في نفسه. ويروى أنه من قول أبي جهل لعنه الله .

أَرَأَيْتَ مَنْ آتَخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾

من كان في طاعة الهوى في دينه يتبعه في كل ما يأتي ويذر لا يتبصر دليلاً ولا يصغي إلى برهان . فهو عابدهواه وجاعله إلهه ، فيقول لرسوله هذا الذي لا يرى معبوداً إلا هواه كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى أفنتوكل عليه وتجبره على الاسلام وتقول لا بد أن تسلم شئت أو أبيت . ولا إكراه في الدين ؟ وهذا كقوله (وما أنت عليهم بجبار) ، (لست عليهم بمسيطر) ويروى أن الرجل منهم كان يعبد الحجر ، فإذا رأى أحسن منه رمى به وأخذ آخر . ومنهم الحرث بن قيس السهمي .

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ

هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

أم هذه منقطعة . معناه : بل أنحسب كأن هذه المذمة أشد من التي تقدمتها حتى حقت بالإضراب عنها إليها وهي كونهم مسلوبو السمع والعقول ، لأنهم لا يلقون إلى استماع الحق أذناً ولا إلى تدبره عقلاً ، ومشبهين بالأنعام التي هي مثل في الغفلة والضلال ، ثم أرجح ضلالة منها . فإن قلت لم آخر هواه والأصل قولك : اتخذ الهوى إلهاً ؟ قلت : ما هو إلا تقديم المفعول الثاني على الأول للعناية ، كما تقول : علمت منطلقاً زيداً : لفضل عنايتك بالمنطق (١) . فإن قلت : ما معنى ذكر الأكثر ؟ قلت : كان فيهم من لم يصدّه عن الإسلام إلا داء واحد : وهو حب الرئاسة ، وكفى به داء عضالاً . فإن قلت : كيف جعلوا أضل من الأنعام ؟ قلت : لأن الأنعام تنقاد لأربابها التي تغلفها وتحمدها ، وتعرف من يحسن إليها عن يسى إليها ، وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها ، وتهتدي لمراعيتها ومشاربها . وهؤلاء لا ينقادون لأربابهم ، ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذي هو عدوهم ، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ، ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار والمهلك ، ولا يهتدون للحق الذي هو المشرع الحنّي والعذب الروي .

أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا

الشَّمْسَ عَلَيْهِ ذَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾

(١) قال محمود : « إن قلت لم قدم إلهه وهو المفعول الثاني ، وأجاب بأنه قدم عناية به كقولك ظننت منطلقاً زيداً إذا كانت عنايتك بالمنطق » قال أحمد : وفيه نكتة حسنة وهي إفادة الحصر ، فإن الكلام قبل دخول أرايت مبتدأ وخبر : المبتدأ هواه ، والخبر إلهه . وتقديم الخبر كما علمت يفيد الحصر ، فكأنه قال : أرايت من لم يتخذ معبوده إلا هواه ، فهو أبلغ في ذمه وتوبيخه ، والله أعلم .

(ألم تر إلى ربك) ألم تنظر إلى صنع ربك وقدرته ، ومعنى مد الظل : أن جعله يمتد وينبسط فينتفع به الناس (ولو شاء لجعله ساكناً) أى لاصفاً بأصل كل مظل من جبل وبناء وشجرة ، غير منبسط فلم ينتفع به أحد : سمي انبساط الظل وامتداده تحركاً منه وعدم ذلك سكوناً . ومعنى كون الشمس دليلاً : أن الناس يستدلون بالشمس وبأحوالها في سيرها على أحوال الظل ، من كونه ثابتاً في مكان زائلاً ^(١) ومتسعاً ومقلصاً ، فينبون حاجتهم إلى الظل واستغنائهم عنه على حسب ذلك . وقبضه إليه : أنه ينسخه بضح الشمس ^(٢) (يسيراً) أى على مهل . وفي هذا القبض اليسير شيئاً بعد شيء من المنافع ما لا يعد ولا يحصر ، ولو قبض دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعاً . فإن قلت : ثم في هذين الموضعين كيف موقعها ؟ قلت : موقعها لبيان تفاضل الأمور الثلاثة : كان الثاني أعظم من الأول ، والثالث أعظم منهما ، تشبيهاً اتباعاً ما بينهما في الفضل بتباعد ما بين الحوادث في الوقت . ووجه آخر : وهو أنه مد الظل حين بنى السماء كالقبة المضروبة ، ودحا الأرض تحتها فألقت القبة ظلها على الأرض فينانا ما في أديمه جوب ^(٣) لعدم الثير ، ولو شاء لجعله ساكناً مستقراً على تلك الحالة ، ثم خلق الشمس وجعلها على ذلك الظل ، أى : سلطها عليه ونصبها دليلاً متبوعاً له كما يتبع الدليل في الطريق ، فهو يزيد بها وينقص ، ويمتد ويتقلص ، ثم نسخها بها فقبضه قبضاً سهلاً يسيراً غير عسير . ويحتمل أن يريد : قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه وهي الأجرام التي تبقى الظل فيكون قد ذكر إعدامه بإعدام أسبابه ، كما ذكر إنشائه بإنشاء أسبابه ، وقوله : قبضناه إلينا : يدل عليه ، وكذلك قوله يسيراً ، كما قال (ذلك حشر علينا يسيراً)

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ مُبَاسًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ^(٤٧)

شبه ما يستر من ظلام الليل باللباس الساتر . والسبات : الموت . والمسبوت : الميت : لأنه مقطوع الحياة ، وهذا كقوله (وهو الذي يتوفاكم بالليل) . فإن قلت : هلا فسرته بالراحة ؟ قلت : النشور في مقابلته يأباه إباء العيوف الورد وهو مرنق ^(٤) . وهذه الآية مع دلالتها على

(١) قوله «زائلاً» له : زائلاً عن آخر . (ع)

(٢) قوله «أنه ينسخه بضح الشمس» في الصحاح : يضح السراب وتضضح ، إذا تفرق . والضح : الشمس . وفي الحديث «لا يقعدن أحدكم بين الضح والظل» فانه مقدم الشيطان . (ع)

(٣) قوله «وظلها على الأرض فينانا ما في أديمه جوب» في الصحاح «الفنان» الطويل . وفيه «الآدم» جمع الأديم ، مثل : أفيق وأفق ، وربما سمي وجه الأرض أديماً . وفيه : جاب يحجب جوباً ، إذا خرق وقطع ، فتدبر . (ع)

(٤) قوله «يأباه إباء العيوف الورد وهو مرنق» في الصحاح «العيوف» من الأبل : الذي يشم الماء فيدعه وهو عطشان . وفيه : رنفته تربيقاً : كدركه . (ع)

قدرة الخالق فيها إظهار لنعمته على خلقه ؛ لأن الاحتجاب بستر الليل ، كم فيه لكثير من الناس من فوائد دينية ودنيوية ، والنوم واليقظة وشبههما بالموت والحياة ، أى عبرة فيها لمن اعتبر . وعن لقمان أنه قال لابنه : يا بني ، كما تنام فتوقظ ، كذلك تموت فتنشئ .

وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ

مَاءً طَهُورًا (٤٨)

قريئ: الريح . والرياح نشرا : إحياء . ونشرا : جمع نشور ، وهى المحيية . ونشرا : تخفيف نشر ، وبشرا تخفيف بشر : جمع بشور وبشرى . و (بين يدي رحمة) استعارة مليحة ، أى : قدام المطر (طهورا) بليغا فى طهارته . وعن أحمد بن يحيى : هو ما كان طاهرا فى نفسه مطهرا لغيره ، فإن كان ماقاله شرحا لبلاغته فى الطهارة كان سديدا . ويعضده قوله تعالى (وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به) وإلا فليس « فِعُول » من التفعيل فى شيء . والظهور على وجهين فى العربية : صفة ، واسم غير صفة ؛ فالصفة قولك : ماء طهور ، كقولك : طاهر ، والاسم قولك لما يتطهر به : طهور ، كالوضوء والوقود ، لما يتوضأ به وتوقده النار . وقولهم : تطهرت طهورا حسنا ، كقولك : وضوا حسنا ، ذكره سيويو . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم ، لاصلاة إلا بطهور ^(١) ، أى طهارة . فإن قلت : ما الذى يزيل عن الماء اسم الطهور ؟ قلت : يتقن مخالطة النجاسة أو غلبتها على الظن ، تغير أحد أوصافه الثلاثة أو لم يتغير . أو استعماله فى البدن لأداء عبادة عند أبي حنيفة . وعند مالك بن أنس رضى الله عنهما : ما لم يتغير أحد أوصافه فهو طهور . فإن قلت : فما تقول فى قوله صلى الله عليه وسلم حين سئل عن بئر بضاعة فقال : « الماء طهور لا ينجسه شيء إلا ماغير لونه أو طعمه أو ريحه » ^(٢) ؟ قلت : قال الواقدي : كان بئر بضاعة طريقا للماء إلى البساتين .

لِنُخِصَ بِهِ بَلَدَةً مِّمَّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَا مِيٌّ كَثِيرًا (٤٩)

وإنما قال (ميمتا) لأن البلدة فى معنى البلد فى قوله : (فسقناه إلى بلد ميت) ، وأنه غير جار

(١) أخرجه الترمذى عن ابن عمر رضى الله عنهما ولا تقبل صلاة إلا بطهور ، وأصله فى مسلم والطبرانى من طريق عيسى بن صبرة عن أبيه عن جده ولا صلاة إلا بوضوء ، وفى الباب عن جماعة من الصحابة . قلت : استوفيت طرقه فى أول شرحى على الترمذى ولم يذكر المخرج منها إلا شيئا يسيرا

(٢) لم أجده هكذا . بل هو ملق من حديثين فالأول أخرجه أصحاب السنن من حديث رافع بن خديج . قال يارسول الله . أتتوضأ من بضاعة وهى بئر يلقى فيها الحيف ولحم الكلاب والخن قال : الماء طهور لا ينجسه شيء . إلا ما غلب على لونه أو طعمه أو ريحه . وقد استوفيت طرقها فى تخرج أحاديث الراعى .

على الفعل كفعول ومفعول ومفعيل . وقرئ : نسقيه بالفتح . وسقى ، وأسقى : لغتان . وقيل : أسقاه : جعل له سقياً . الاناسى : جمع إنسى أو إنسان . ونحوه ظرابى فى ظربان ، على قلب النون ياء . والاصل : أناسين وظرايين . وقرئ : بالتخفيف بخذف ياء أفاعيل ، كقولك : أناعم ، فى : أناعم . فإن قلت : إنزال الماء موصوفاً بالطهارة وتعليله بالإحياء والسقى يؤذن بأن الطهارة شرط فى صحة ذلك ، كما تقول : حملنى الأمير على فرس جواد لأصيد عليه الوحش . قلت : لما كان سقى الاناسى من جملة ما أنزل له الماء ، وصفه بالطهور إكراماً لهم ، وتسميماً للجنة عليهم ، وبياناً أن من حقهم حين أراد الله لهم الطهارة وأرادهم عليها أن يؤثرها فى بواطنهم ثم فى ظواهرهم ، وأن يرتبوا بأنفسهم عن مخالطة القاذورات كلها كما رتبهم ربهم . فإن قلت : لم خص الأنعام من بين ما خلق من الحيوان الشارب ؟ قلت : لأن الطير والوحش تبعد فى طلب الماء فلا يعوزها الشرب ، بخلاف الأنعام : ولأنها قنية الاناسى ، وعامة منافعهم متعلقة بها . فكان الإناعام عليهم يسقى أنعامهم كالإنعام بسقيهم . فإن قلت : فما معنى تنكير الأنعام والاناسى ووصفها بالكثرة ؟ قلت : معنى ذلك أن علياً الناس وجلهم منيخون بالقرب من الأودية والأنهار ومنابع الماء ، فبهم غنية عن سقى السماء ، وأعقابهم - وهم كثير منهم - لا يعيشهم إلا ما ينزل الله من رحمته وسقياً سمائه . وكذلك قوله (لنحيي به بلدة ميتاً) يريد بعض بلاد هؤلاء المتبعدين من مظان الماء . فإن قلت : لم قدم إحياء الأرض وسقى الأنعام على سقى الاناسى ؟ قلت : لأن حياة الاناسى بحياة أرضهم وحياة أنعامهم . فقدم ما هو سبب حياتهم وتعيشهم على سقيهم ، ولأنهم إذا ظفروا بما يكون سقياً أرضهم ومواشيهم ، لم يعدموا سقيهم .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠

بريد : ولقد صرفنا هذا القول بين الناس فى القرآن وفى سائر الكتب والصحف التى أنزلت على الرسل عليهم السلام - وهو ذكر إنشاء السحاب وإنزال القطر - ليفكروا ويعتبروا ، ويعرفوا حق النعمة فيه ويشكروا ﴿ فأبى ﴾ أكثرهم إلا كفران النعمة وجحودها وقلة الاكتراث لها . وقيل : صرفنا المطر بينهم فى البلدان المختلفة والاقوات المتغيرة ، وعلى الصفات المتفاوتة من وابل وطل ، وجود ورذاذ ، وديمة ورهام ^(١) : فأبوا إلا الكفور وأن يقولوا : مطرنا بنوء كذا ، ولا يذكروا صنع الله ورحمته . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : ما من عام أقل مطراً من عام ، ولكن الله قسم ذلك بين عباده على ما شاء ، وتلا هذه الآية ^(٢) . وروى

(١) قوله «ورذاذ وديمة ورهام» الرذاذ : مطر ضيف . والرهام . جمع دومة وهى المطرة الضعيفة الدائمة ،

كذا فى الصحاح . (ع)

(٢) أخرجه الحاكم والطبرى من رواية الحسن بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . قال : «ما من عام ==

أن الملائكة يعرفون عدد المطر ومقداره في كل عام ، لأنه لا يختلف ولكن تختلف فيه البلاد . وينتزع من ههنا جواب في تنكير البلدة والأنعام والآناسي ، كأنه قال : لنحي به بعض البلاد الميتة ، ونسقيه بعض الأنعام والآناسي ، وذلك البعض كثير . فإن قلت : هل يكفر من ينسب الأمطار إلى الأنواء ؟ قلت : إن كان لا يراها إلا من الأنواء ويحدد أن تكون هي والأنواء من خلق الله : فهو كافر . وإن كان يرى أن الله خالقها وقد نصب الأنواء دلائل وأمارات عليها : لم يكفر .

وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾

يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ولو شئنا﴾ لحففنا عنك أعباء نذارة جميع القرى . و﴿لبعثنا في كل قرية﴾ نبياً ينذرها . وإنما قصرنا الأمر عليك وعظمتناك به ، وأجللتناك وفضلناك على سائر الرسل ، فقابل ذلك بالتشدد والتصر ﴿فلا تطع الكافرين﴾ فيما يريدونك عليه ، وإنما أراد بهذا تهيبه وتهيب المومنين وتحريكهم . والضمير للقرآن أو لنرك الطاعة الذي يدل عليه : ﴿فلا تطع﴾ والمراد : أن الكفار يحدون ويجتهدون في توهين أمرك ، فقابلهم من جدك واجتهادك وعضك على نواجذك بما تغلبهم به وتعلمهم ، وجعله جهاداً كبيراً لما يحتمل فيه من المشاق العظام . ويجوز أن يرجع الضمير في ﴿به﴾ إلى ما دل عليه : ﴿ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً﴾ من كونه نذير كافة القرى ، لأنه لو بعث في كل قرية نذيراً لوجب على كل نذير مجاهدة قريته ، فاجتمعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المجاهدات كلها ، فكبر جهاده من أجل ذلك وعظم ، فقال له ﴿وجاهدهم﴾ بسبب كونك نذير كافة القرى ﴿جهاداً كبيراً﴾ جامعاً لكل مجاهدة .

وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾

سمى الماءين الكثيرين الواسعين : بحرين ، والفرات : البليغ العذوبة حتى يضرب إلى الحلاوة .

== أمطر من عام . ولكن اقه يصرفه ... الخ . وفي الباب عن ابن مسعود أخرجه العقيلي من رواية علي بن حميد عن شعبة ، أخرجه العقيلي من رواية علي بن حميد عن شعبة عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عنه وقال : لا يتابع على رفعه . ثم أخرجه موقوفاً من رواية عمر بن مرزوق عن شعبة وقال : هذا أولى ، وأورده ابن مردويه من وجه آخر عن ابن مسعود مرفوعاً .

والأجاج : نقيضه . ومرجهما : خلاهما متجاورين متلاصقين ، وهو بقدرته يفصل بينهما ويمنعهما التمازج . وهذا من عظيم اقتداره . وفي كلام بعضهم : وبحران : أحدهما مع الآخر مزوج ، وماء العذب منهما بالأجاج مزوج ^(١) (برزخا) حائلا من قدرته ، كقوله تعالى (بغير عمد ترونها) يريد بغير عمد مرئية ، وهو قدرته . وقرئ : ملح ، على فعل . وقيل : كأنه حذف من ملح تخفيفا ، كما قال : وصليانا بردا ، يريد : بارداً : فإن قلت : (وحجرا محجورا) ما معناه ؟ قلت : هي الكلمة التي يقولها المتعوذ ؛ وقد فسرناها ، وهي ههنا واقعة على سبيل المجاز ، كأن كل واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه ويقول له : حجراً محجوراً ، كما قال (لا يبغيان) أى لا يبغي أحدهما على صاحبه بالممازجة ، فانتفاء البغي ثمة كالتعوذ ههنا : جعل كل واحد منهما في صورة الباغي على صاحبه ، فهو يتعوذ منه . وهي من أحسن الاستعارات وأشهداها على البلاغة .

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ٥٤

أراد : قسم البشر قسمين ذوى نسب ، أى : ذكورا ينسب إليهم ، فيقال : فلان بن فلان وفلانة بنت فلان ، وذوات صهر : أى إنانا يصاهر بهن ، ونحوه قوله تعالى (لجعل منه الزوجين الذكر والأنثى) . (وكان ربك قديرا) حيث خلق من النطفة الواحدة بشرأ نوعين : ذكرا وأنثى .

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ

عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ٥٥

الظهير والمظاهر ، كالعوين والمعاون . وه فعل ، بمعنى مفاعل غير عزيز . والمعنى : أن الكافر يظاهر الشيطان على ربه بالعداوة والشرك . روى أنها نزلت في أبي جهل ، ويجوز أن يريد بالظهير : الجماعة ، كقوله (والملائكة بعد ذلك ظهير) كما جاء : الصديق والخليط ، يريد بالكافر : الجنس ، وأن بعضهم مظاهر لبعض على إطفاء نور دين الله . وقيل : معناه : وكان الذى يفعل هذا الفعل - وهو عبادة ما لا ينفع ولا يضر - على ربه هينا مهينا ، من قولهم : ظهرت به ، إذا خلقته خلف ظهرك لا تلقت إليه ، وهذا نحو قوله (أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم) .

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ٥٦ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا

مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ٥٧

(١) قوله «مزوج» لعله : غير مزوج ، فليجوز . (ع)

مثال (إلا من شاء) والمراد : إلا فعل من شاء واستثنائه عن الأجر قول ذى شفقة عليك قد سعى لك في تحصيل مال : ما أطلب منك ثوابا على ما سعيت إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضعه . فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب ، ولكن صورته هو بصورة الثواب وسماه باسمه ، فأفاد فائدتين ، إحداهما : قلع شبهة الطمع في الثواب من أصله ، كأنه يقول لك : إن كان حفظك لمالك ثوابا فإني أطلب الثواب ، والثانية : إظهار الشفقة البالغة وأنتك إن حفظت مالك : اعتد بحفظك ثوابا ورضى به كما يرضى المثاب بالثواب . واعمرى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مع المبعوث إليهم بهذا الصدد وفوقه . ومعنى اتخاذهم إلى الله سبيلا : تقربهم إليه وطلبهم عنده الزلنى بالإيمان والطاعة . وقيل : المراد التقرب بالصدقة والتفقة في سبيل الله .

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بُذُنُوبِ

عِبَادِهِ خَيْرًا ٥٨

أمره بأن يثق به ويسند أمره إليه في استكفاء شروهم ، مع التسك بقاعدة التوكل وأساس الالتجاء وهو طاعته وعبادته وتزيهه وتحميده . وعزفه أن الحي الذي لا يموت . حقيق بأن يتوكل عليه وحده ولا يتكل على غيره من الأحياء الذين يموتون . وعن بعض السلف أنه قرأها فقال : لا يصح لذى عقل أن يثق بعدها بمخلوق ، ثم أراه أن ليس إليه من أمر عباده شيء ، آمنوا أم كفروا ، وأنه خير بأعمالهم كاف في جزاء أعمالهم .

الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى

الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَيْرًا ٥٩

(في ستة أيام) يعنى في مدة : مقدارها هذه المدة ، لأنه لم يكن حينئذ نهار ولا ليل . وقيل : ستة أيام من أيام الآخرة ، وكل يوم ألف سنة . والظاهر أنها من أيام الدنيا . وعن مجاهد : أولها يوم الأحد ، وآخرها يوم الجمعة . ووجهه أن يسمى الله ملائكته تلك الأيام المقدرة بهذه الأسماء فلما خلق الشمس وأدارها وترتب أمر العالم على ما هو عليه ، جرت التسمية على هذه الأيام . وأما الداعى إلى هذا العدد - أعنى الستة دون سائر الأعداد - فلا نشك أنه داعى حكمة ، لعلنا أنه لا يقدر تقديرأ إلا بداعى حكمة ، وإن كنا لا نطلع عليه ولا نهتدى إلى معرفته . ومن ذلك تقدير الملائكة الذين هم أصحاب النار تسعة عشر ، وحملة العرش ثمانية ، والشهور اثني عشر ، والسماوات سبعا والأرض كذلك ، والصلوات خمسا ، وأعداد النصب والحدود والكفارات وغير ذلك . والإقرار بدواعى الحكمة في جميع أفعاله ، وبأن ما قدره حق وصواب هو الإيمان . وقد نص عليه في قوله (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين

كفروا ، ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ؛ ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ، وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا) ثم قال (وما يعلم جنود ربك إلا هو) وهو الجواب أيضا في أن لم يخلقها في لحظة ، وهو قادر على ذلك . وعن سعيد بن جبير رضى الله عنهما . إنما خلقها في ستة أيام وهو يقدر على أن يخلقها في لحظة ، تعلما لخلق الرفق والتثبت . وقيل : اجتمع خلقها يوم الجمعة فجعله الله عبدا للسلين . الذى خلق مبتدأ . و (الرحمن) خبره . أو صفة للحي ، والرحمن : خبر مبتدأ محذوف . أو بدل عن المستتر في استوى . وقرئ : الرحمن ، بالجر صفة للحي . وقرئ : فصل ؛ والباء في به صلة سل ، كقوله تعالى (سأل سائل بعذاب واقع) كما تكون عن صلته في نحو قوله (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) فسأل به ؛ كقوله : اهتم به ، واعتنى به ؛ واشتغل به . وسأل عنه كقولك : بحث عنه ؛ وقتش عنه ، ونقر عنه . أو صلة خيرا : وتجعل خيرا مفعول سل ، يريد : فصل عنه رجلا عارفا بخبرك برحمته . أو فصل رجلا خيرا به وبرحمته . أو : فصل بسؤاله خيرا ؛ كقولك : رأيت به أسدا ، أى برؤيته . والمعنى : إن سألته وجدته خيرا . أو تجعله حالا عن الهاء ، تريد : فصل عنه عالما بكل شيء . وقيل : الرحمن اسم من أسماء الله المذكور في الكتب المتقدمة ، ولم يكونوا يعرفونه ؛ فقيل : فصل بهذا الاسم من يخبرك من أهل الكتاب ؛ حتى يعرف من يشكره . ومن ثمة كانوا يقولون : ما نعرف الرحمن إلا الذى باليامة ، يعنون مسيلة . وكان يقال له : الرحمن اليامة :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا

وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾

(وما الرحمن) يجوز أن يكون سؤال عن المسمى به ؛ لأنهم ما كانوا يعرفونه بهذا الاسم ، والسؤال عن المجهول به ما . . . ويجوز أن يكون سؤال عن معناه ، لأنه لم يكن مستعملا في كلامهم كما استعمل الرحيم والرحوم والراحم . أو لأنهم أنكروا إطلاقه على الله تعالى (لما تأمرنا) أى للذى تأمرناه ؛ بمعنى تأمرنا بسجوده ؛ على قوله : أمرتك الخير . أو لأمرك لنا . وقرئ : بالياء ، كأن بعضهم قال لبعض : أنسجد لما يأمرنا محمد صلى الله عليه وسلم . أو يأمرنا المسمى بالرحمن ولا نعرف ما هو . وفى (زادهم) ضمير (اسجدوا للرحمن) لأنه هو المقول .

تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾

البروج : منازل الكواكب السبعة السيارة : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ،

والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت : سميت بالبروج التي هي القصور العالية ؛ لأنها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها . واشتقاق البرج من التبرج ؛ لظهوره . والسراج : الشمس كقوله تعالى (وجعل الشمس سراجاً) وقرئ : سرجاً ، وهي الشمس والكواكب السكبار معها . وقرأ الحسن والأعمش : وقرأ منيراً ، وهي جمع ليلة قراء ، كأنه قال : وذا قر منيراً ؛ لأنّ الليالي تسكون قرأً بالقمر ، فأضافه إليها . ونظيره - في بقاء حكم المضاف بعد سقوطه وقيام المضاف إليه مقامه - قول حسان :

* بَرْدَى يُصَفِّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ * (١)

يريد : ماء بردى ، ولا يبعد أن يكون القمر بمعنى القمر ، كالرشد والرشد ، والعرب والعرب . وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٢) الخلفة من خلف ، كالركبة من ركب : وهي الحالة التي يخلف عليها الليل والنهار كل واحد منهما الآخر . والمعنى : جعلهما ذوى خلفه ، أى : ذوى عقبه ، أى : يعقب هذا ذاك وذاك هذا . ويقال : الليل والنهار يختلفان ، كما يقال : يعتقبان . ومنه قوله (واختلاف الليل والنهار) ويقال : بفلان (٣) خلفه واختلاف ، إذا اختلف كثيراً إلى متبرزه . وقرئ : يذكر ويذكر . وعن أبي بن كعب رضى الله عنه : يتذكر . والمعنى لينظر فى اختلافهما الناظر ، فيعلم أن لا بد لا تتقاربا من حال إلى حال ، وتغيرهما من ناقل ومغير . ويستدل بذلك على عظم قدرته ، ويشكر الشاكر على النعمة فيهما من السكون بالليل والتصرف بالنهار ، كما قال عز وعل : (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله) . أو ليكونا وقتين للتذكرين والشاكرين ، من فاته فى أحدهما وردة من العبادة قام به فى الآخر . وعن الحسن رضى الله عنه : من فاته عمله من التذكر والشكر بالنهار كان له فى الليل مستعتب . ومن فاته بالليل : كان له فى النهار مستعتب .

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ

قَالُوا سَلَامًا (٢٣)

(وعباد الرحمن) مبتدأ خبره فى آخر السورة . كأنه قيل : وعباد الرحمن الذين هذه صفاتهم

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٨٤ فراجع إن شئت اه مصححه

(٢) قوله « ويقال بفلان خلفه » لعله : لفلان . (ع)

أولئك يحزون الغرفة . ويجوز أن يكون خبره (الذين يمشون) وأضافهم إلى الرحمن تخصيصاً وتفضيلاً . وقرئ : وعباد الرحمن . وقرئ : يمشون (هوناً) حال ، أو صفة للشيء ، بمعنى : هينين . أو : مشياً هيناً ؛ إلا أن في وضع المصدر موضع الصفة مبالغة . والهون : الرفق واللين . ومنه الحديث « أحب حبيبك هوناً ^(١) » ، وقوله « المؤمنون هينون لينون ^(٢) » ، والمثل : إذا عزّ أخوك فهن . ومعناه : إذا عاشر فياسر . والمعنى : أنهم يمشون بسكينة ووقار وتواضع ، لا يضربون بأقدامهم ولا يخفقون بنعالهم أشراً وبطراً ، ولذلك كره بعض العلماء الركوب في الأسواق ، ولقوله (ويمشون في الأسواق) . « سلاماً » تسليماً منكم لانتجاهلكم ، ومتاركة لآخر بيننا ولا شر ، أى : تتسلم منكم تسليماً ، فأقيم السلام مقام التسلم . وقيل : قالوا اسداداً من القول يسلمون فيه من الإيذاء والإثم . والمراد بالجهل : السفه وقلة الأدب وسوء الرعة ، ^(٣) من قوله :

أَلَا لَاجِبْهَلَنَ أَحَدُ عَلَيْنَا فَتَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ ^(٤)

وعن أبي العالية : نسختها آية القتال ، ولا حاجة إلى ذلك : لأن الإغضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن في الأدب والمروءة والشريعة ، وأسلم للعرض والورع .

وَالَّذِينَ يَبْدُتُونَ رَبَّهُمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ^(٦٤)

(١) أخرجه الترمذى من رواية أبوب عن ابن سيرين عن أبي هريرة تفرد به سويد بن عمرو عن حماد بن سلة عن أبوب قال الترمذى . غريب . وقال ابن حبان . في الضعفاء : سويد بن عمرو يضع المتن الواهية على الأسانيد الصحيحة . وليس هذا من حديث أبي هريرة . وإنما هو من قول علي رضي الله عنه . وقد رفعه الحسن بن أبي جعفر عن أبوب عن حميد بن عبد الرحمن عن علي . وهو خطأ فاحش . ورواية الحسن بن أبي جعفر في فرائد تمام وأخرجه ابن عدى من طريق الحسن بن دنيا - عن ابن سيرين عن أبي هريرة . قال : الحسن بن دنيا - أجمعوا على ضعفه ورواه الطبراني في الأوسط . من رواية أبي الزناد عن الأعرج . عن أبي هريرة لكن الراوى له عن أبي الزناد متروك . وهو عباد بن كثير . وفي الباب عن ابن عمر أخرجه الطبراني وفيه أبو السلت الهروى . وهو متروك وعن ابن عمرو بن العاص أخرجه أيضاً من طريق محمد بن كثير الضمرى . عن ابن لهيعة ، عن أبي نهشل عنه وهذا إسناد واه جداً . والموقوف عن علي . أخرجه البيهقي في الشعب في الحادى والأربعين من رواية أبي إسحاق عن صبرة بن يزيد ثم عن علي . وقال الدارقطنى . الصحيح على موقوف

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد قال أخبرنا سعيد بن عبد العزيز عن مكحول بهذا مرسلًا ووزاد كاجل الأنف الذى إن قيد انقاد . وإن يتخ على صخرة أناخ . وأخرجه البيهقي في الشعب في السادس والخمسين من هذا الوجه قال هذا مرسل ثم أخرجه من طريق العقيل في منكرات عبده الله بن عبد العزيز . وفي الباب عن ابن أنس مرفوعاً ذكره ابن طاهر في الكلام على أحاديث الشهاب . وفيه ذكر بن يحيى الواقد وهو واهى الحديث .

(٣) قوله « وسوء الرعة » في الصحاح : يقال : فلان سيء الرعة ، أى : قليل الورع . وفيه : قبل ذلك الورع

- بكسر الراء - : الرجل التقي . وقد ورع يرع - بالكسر فهما - ورعاً ورعة . (ع)

(٤) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثانى صفحة ٢٩٠ فراجع إن شئت اه مصححه .

البيتوتة : خلاف الظلول ، وهو أن يدركك الليل ، نمت أو لم تنم ، وقالوا : من قرأ شيئاً من القرآن في صلاته وإن قل فقد بات ساجداً وقائماً . وقيل : هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء . والظاهر أنه وصف لهم بإحياء الليل أو بأكثره . يقال : فلان يظل صائماً ويبيت قائماً .

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾

إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾

(غراماً) هلاكاً وخسراً ملحاً لازماً قال :

وَيَوْمَ النَّسَارِ وَيَوْمَ الْخِفَا رِكَانًا عَذَابًا وَكَانَا غَرَامًا ^(١)

وقال :

إِنْ بُعِثَ يَسْكُنْ غَرَامًا وَإِنْ يُعْطَ جَزِيلًا فَإِنَّهُ لَا يُبَالِي ^(٢)

ومنه : القريم : إلحاحه ولزامه . وصفهم بإحياء الليل ساجدين وقائمين ، ثم عقبه بذكر دعوتهم هذه ، إيداناً بأنهم مع اجتهدهم خائفون مبتلون إلى الله في صرف العذاب عنهم ، كقوله تعالى (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجله) . (سأت) في حكم . بنست ، وفيها ضمير مبهم يفسره : مستقراً . والمخصوص بالذم مخدوف ، معناه : سأت مستقراً ومقاماً هي . وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم إن وجعلها خبراً لها . ويجوز أن يكون (سأت) بمعنى : أحزنت . وفيها ضمير اسم إن . و (مستقراً) حال أو تمييز . والتعليلان يصح أن يكونا متداخلين ومترادفين ، وأن يكونا من كلام الله وحكاية لقولهم .

وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

قري (يقتروا) بكسر التاء وضمها . ويقتروا ، بتخفيف التاء وتشديدها . والقتير والإقتار والتقتير : التضيق الذي هو قبيض الإسراف . والإسراف : مجاوزة الحد في النفقة . ووصفهم بالقصد الذي هو بين الغلو والتقصير . وبمثله أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم (ولا تجعل

(١) ليشر بن أبي خازم . والنسار : ماء لبنى عامر . والجفار : ماء لبنى تميم بنجد ، يقول : واقعة النسار وواقعة الجفار ، كانا عذاباً على أهلها ، وكانا غراماً ، أي : هلاكاً لازماً لهم . وقيل : شراً دائماً .

(٢) للأعشى ، يقول : إن بعاقب هذا المدح أعداءه يكن غراماً أي هلاكاً ملازماً لهم . وإن يبط السائل عطاء جزيلاً عظمها فإنه لا يبالي به ولا يكثر به ولا يستكثره ، فهو شجاع جواد .

يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) وقيل : الإسراف إنما هو الإنفاق في المعاصي ، فأما في القرب فلا إسراف . وسمع رجل رجلاً يقول : لاخير في الإسراف . فقال : لا إسراف في الخير . وعن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه شكر عبد الملك بن مروان حين تزوجه ابنته وأحسن إليه ، فقال : وصلت الرحم وفعلت وصنعت ، وجاء بكلام حسن ، فقال ابن لعبد الملك : إنما هو كلام أعدته لهذا المقام ، فلما كان بعد أيام دخل عليه والابن حاضر ، فسأله عن نفقته وأحواله فقال : الحسنة بين السيتين ، فعرف عبد الملك أنه أراد ما في هذه الآية فقال لابنه : يا بني ، أهذا أيضاً مما أعدته ؟ وقيل : أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، كانوا لا يأكلون طعاماً للتنعم واللذة ، ولا يلبسون ثوباً للجمال والزينة ، ولكن كانوا يأكلون ما يبدؤون به ويبيعون على عبادة ربهم ، ويلبسون ما يستر عوراتهم ويكفونهم من الحز والقر^(١) . وقال عمر رضى الله عنه : كفى سرفاً أن لا يشتهي رجل شيئاً إلا اشتراه فأكله^(٢) . والقوام العدل بين الشيتين لاستقامة الطرفين واعتدالهما . ونظير القوام من الاستقامة : السواء من الاستواء . وقرئ : قواماً ، بالكسر ، وهو ما يقام به الشيء . يقال : أنت قوامنا ، بمعنى ما تقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص ، والمنصوبان أعني (بين ذلك قواماً) : جائز أن يكونا خبرين معاً ، وأن يجعل بين ذلك لغواً ، وقواماً مستقراً . وأن يكون الظرف خبراً ، وقواماً حالاً مؤكدة . وأجاز الفراء أن يكون (بين ذلك) اسم كان . على أنه مبنى لإضافته إلى غير متمكن ، كقوله :

• لَمْ يَمْنَعِ الشَّرْبَ مِنْهَا غَيْرَ أَنْ تَطْلُقَ •^(٣)

وهو من جهة الإعراب لا بأس به ، ولكن المعنى ليس بقوى : لأن ما بين الإسراف والتفريط قوام لا محالة ، فليس في الخبر الذي هو معتمد الفائدة فائدة .

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ
إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ٦٨ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيُخْلَدُ فِيهِ مُهَانًا ٦٩ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا
فَأُولَٰئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَمَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٧٠

(١) قوله «والقر» أى البرد . (ع)

(٢) أخرجه عبدالرزاق في التفسير عن ابن عيينة عن رجل عن الحسن بن عمر بن الخطاب وهذا منقطع من طريقه . رواه الثعلبي . ورواه أحمد في الزهد عن إسماعيل بن يونس عن الحسن كذلك ورواه ابن ماجه وأبو يعلى والبيهقي في الشعب من طريق نوح بن ذكوان عن الحسن بن أنس رضى الله عنه مرفوعاً والأول أصح

(٣) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة ٢٣٢ فراجع إن شئت اه مصححه .

﴿حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أى حَرَّمَهَا . والمعنى : حَزَمَ قَتْلَهَا . و﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ متعلق بهذا القتل المحذوف . أو بلا يقتلون ، ونفى هذه المقبحات العظام على الموصوفين بتلك الخلال العظيمة فى الدين ، للتعريض بما كان عليه أعداء المؤمنين من قريش وغيرهم ، كأنه قيل : والذين برأهم الله وطهرهم مما أتم عليه . والقتل بغير الحق : يدخل فيه الوأد وغيره . وعن ابن مسعود رضى الله عنه قلت : يا رسول الله ، أى الذنب أعظم ؟ قال : هـ أن تجعل لله ندا وهو خلقك ، قلت : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك ، قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك ، ^(١) فأُنزل الله تصديقه . وقرئ : يلقى فيه أثاما . وقرئ : يلقى ، بإثبات الألف ، وقد مر مثله . والآثام : جزاء الإثم ، بوزن الوبال والنكال ومعناها . قال :

جَزَى اللَّهُ ابْنَ عُرْوَةَ حَيْثُ أَمْسَى عَقُوقًا وَالْعُقُوقُ لَهُ أَثَامٌ ^(٢)

وقيل هو الإثم . ومعناه : يلقى جزاء أثام . وقرأ ابن مسعود رضى الله عنه : أياما ^(٣) ، أى شدائد . يقال : يوم ذو أيام : لليوم العصيب . ﴿يضاعف﴾ بدل من يلقى : لأنهما فى معنى واحد ، كقوله :

مَتَى تَأْتِنَا نُلِمَ بِنَا فِي دِيَارِنَا تَجِدُ حَطَبًا جَزَلًا وَنَارًا تَأْجَجًا ^(٤)

وقرئ : يضعف ، ونضعف له العذاب ، بالنون ونصب العذاب . وقرئ : بالرفع على الاستئناف أو على الحال ، وكذلك (يخلد) وقرئ : ويخلد ، على البناء للمفعول مخففاً ومثقلاً ، من الإخلاد والتخليد . وقرئ : وتخلد ، بالتاء على الالتفات ﴿يبدل﴾ مخفف ومثقل ، وكذلك سيئاتهم . فإن قلت : ما معنى مضاعفة العذاب وإبدال السيئات حسنات ؟ قلت : إذا ارتكب المشرک معاصى مع الشرك عذب على الشرك وعلى المعاصى جميعاً ، فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه . وإبدال السيئات حسنات : أنه يحوها بالتوبة ، ويثبت مكانها الحسنات : الإيمان ، والطاعة ، والتقوى . وقيل : يبدلهم بالشرك إيماناً ، ويقتل المسلمين : قتل المشركين ، وبالزنا : عفة وإحصاناً .

(١) متفق عليه من رواية أبى وائل عن عمرو بن شرحبيل عنه .

(٢) العقوق - بالفتح - : كثير العقوق بالضم ، وهو منع بر الوالدین وقطع صلتهما . والآثام - كالوبال - : جزاء الأثم . وقيل : هو الأثم ، فسمي به مسييه وهو الجزاء ، ومفعول جزى الشان محذوف . وعقوقاً خبر أمسى . والعقوق : مبتدأ ، أى : لا بد للعقوق من جزاء سيء عظيم .

(٣) قوله «أياما» فى الصحاح «الأيام» : الدخان . (ع)

(٤) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٣٣١ فراجع إن شئت اه مصححه .

وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾

يريد . ومن يترك المعاصي ويندم عليها ويدخل في العمل الصالح فإنه بذلك تائب إلى الله (متاباً) مرضياً عنده مكفراً للخطايا محصلاً للثواب . أو فإنه تائب متاباً إلى الله الذي يعرف حق التائبين ويفعل بهم ما يستوجبون ، والذي يحب التوابين ويحب المتطهرين . وفي كلام بعض العرب : لله أفرح بتوبة العبد من المصل الواجد ، والظمان الوارد ، والعقيم الوالد . أو : فإنه يرجع إلى الله وإلى ثوابه مرجعاً حسناً وأى مرجع .

وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾

يحتمل أنهم ينفرون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطائين فلا يحضرونها ولا يقربونها ، تنزهاً عن مخالطة الشر وأهله ، وصيانة لدينهم عما يثله : لأن مشاهد الباطل شركة فيه ، ولذلك قيل في النظارة إلى كل مالم تسوغه الشريعة : هم شركاء فاعليه في الإثم : لأن حضورهم ونظرهم دليل الرضا به ، وسبب وجوده ، والزيادة فيه : لأن الذي سلط على فعله هو استحسان النظارة ورغبتهم في النظر إليه . وفي مواضع عيسى بن مريم عليه السلام : إياكم ومجالسة الخطائين . ويحتمل أنهم لا يشهدون شهادة الزور ، لحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . وعن قتادة : مجالس الباطل . وعن ابن الحنفية : اللهو والغناء . وعن مجاهد : أعياد المشركين . اللغو : كل ما ينبغي أن يلغى ويطرح . والمعنى : وإذا مروا بأهل اللغو والمشتغلين به ، مروا معرضين عنهم ، مكرمين أنفسهم عن التوقف عليهم والخوض معهم ، كقوله تعالى (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين) وعن الحسن رضي الله عنه : لم تسفهم المعاصي . وقيل : إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا وصفحوا . وقيل : إذا ذكروا النكاح كنوا عنه

وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُوا عَلَيْهَا سُوعًا وَعُصِيَانًا ﴿٧٣﴾

(لم يخروا عليها) ليس بنفي للخروج ، وإنما هو إثبات له ، ونفي للصمم والعمى ، كما نقول : لا يلتقي زيد مسلماً ، هو نفي للسلام لا اللقاء . والمعنى : أنهم إذا ذكروا بها أكبوا عليها حرصاً على استماعها ، وأقبلوا على المذكر بها وهم في إكبابهم عليها ، سامعون بأذان واعية ، مبصرون بعيون راعية ، لا كالذين يذكرون بها قترهم مكبين عليها مقبلين على من يذكر بها ، مظهرين الحرص الشديد على استماعها ، وهم كالصم العميان حيث لا يعونها ولا يتبصرون ما فيها كالمنافقين وأشباههم .

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا

لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾

قريء: ذريتنا، وذرياتنا. وقرة أعين، وقرات أعين. سألوا ربهم أن يرزقهم أزواجا وأعقابا عمالا لله، يسرون بمكانهم وتقربهم عيونهم. وعن محمد بن كعب: ليس شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: هو الولد إذا رآه يكتب الفقه. وقيل: سألوا أن يلحق الله بهم أزواجهم وذريتهم في الجنة ليتيم لهم سرورهم. أراد. أئمة، فاكثني بالواحد لدلالته على الجنس ولعدم اللبس، كقوله تعالى (ثم يخرجكم طفلا) أو أرادوا جعل كل واحد منا إماما. أو أراد جمع آتم، كصائم وصيام. أو أرادوا جعلنا إماما واحدا لاتحادنا واتفاق كلتنا. وعن بعضهم: في الآية ما يدل على أن الرياسة في الدين يجب أن تطلب ويرغب فيها. وقيل: نزلت هذه الآيات في العشرة المبشرين بالجنة. فإن قلت: (من) في قوله (من أزواجنا) ما هي؟ قلت: يحتمل أن تكون يمانية، كأنه قيل: هب لنا قرة أعين، ثم بينت القرة وفسرت بقوله: من أزواجنا وذرياتنا. ومعناه: أن يجعلهم الله لهم قرة أعين، وهو من قولهم: رأيت منك أسدا، أى: أنت أسد، وأن تكون ابتدائية على معنى: هب لنا من جمعتهم ما تقربه عيوننا من طاعة وصلاح. فإن قلت: لم قال (قرة أعين) فنكر وقل؟ قلت: أما التنكير فلاجل تنكير القرة؛ لأن المضاف لاسمى إلى تنكيره إلا بتنكير المضاف إليه، كأنه قيل: هب لنا منهم سرورا وفرحا. وإنما قيل (أعين) دون عيون؛ لأنه أراد أعين المتقين، وهى قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم. قال الله تعالى (وقليل من عبادى الشكور) (١) ويجوز أن يقال فى تنكير (أعين) أنها أعين خاصة، وهى أعين المتقين.

أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرَّةَ بِمَا صَبَرُوا وَبُلَقُوا فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾

خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾

المراد يجزون الغرفات وهى العلالى فى الجنة، فوحد اقتصاراً على الواحد الدال على الجنس،

(١) قال محمود: «إن قلت: لم قلل الأعين إذا الأعين صيغة جمع فلة؟ قلت: لأن أعين المتقين قليل بالإضافة إلى غيرهم، يدل على ذلك قوله: وقليل من عبادى الشكور» قال أحمد: والظاهر أن المحكى كلام كل أحد من المتقين، فكأنه قال: يقول كل واحد منهم اجعل لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين، وهذا أسلم من تأويله: فإن المتقين وإن كانوا بالإضافة إلى غيرهم قليلا إلا أنهم فى أنفسهم على كثرة من العدد. والمعتبر فى إطلاق جمع القلة أن يكون المجموع قليلا فى نفسه لابلابة والإضافة، والله أعلم.

والدليل على ذلك قوله (وهم في الغرفات آمنون) وقراءة من قرأ : في الغرفة (بما صبروا) بصبرهم على الطاعات ، وعن الشهوات ، وعن أذى الكفار ومجاهدتهم . وعلى الفقر وغير ذلك . وإطلاقه لأجل الشياخ في كل مصبور عليه . وقرئ : يلقون ، كقوله تعالى (ولقاهم نضرة وسرورا) ويلقون ، كقوله تعالى (يلق أاثاما) . والتحية : دعاء بالتعمير . والسلام : دعاء بالسلامة ، يعني أن الملائكة يحيونهم ويسلمون عليهم . أو يحيي بعضهم بعضا ويسلم عليه أو يعطون التبقية والتخليد مع السلامة عن كل آفة . اللهم وقفنا لطاعتك ، واجعلنا مع أهل رحمتك ، وارزقنا مما ترزقهم في دار رضوانك .

قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

لما وصف عبادة العباد ، وعدد صالحاتهم وحسناتهم ، وأثنى عليهم من أجلها ، ووعدهم الرفع من درجاتهم في الجنة : أتبع ذلك بيان أنه إنما اكثرث لأولئك وعبأ بهم وأعلى ذكرهم ووعدهم ما وعدهم ، لأجل عبادتهم ، فأمر رسوله أن يصرح للناس ، ويجزم لهم القول بأن الاكثرث لهم عند ربهم ، إنما هو للعبادة وحدها لا لمعنى آخر ، ولولا عبادتهم لم يكثرث لهم البتة ولم يعتد بهم ولم يكونوا عنده شيء يبالى به . والدعاء : العبادة . و﴿ما﴾ متضمنة لمعنى الاستفهام ، وهي في محل النصب ، وهي عبارة عن المصدر ، كأنه قيل : وأى عبء يعبأ بكم لولا دعاؤكم . يعني أنكم لا تستأهلون شيئا من العبء بكم لولا عبادتكم . وحقيقة قولهم ما عبأت به : ما اعتدت به من فوارج هموى ومما يكون عبأ على ، كما تقول : ما اكثرث له . أى : ما اعتدت به من كوارثي ومما يهمنى . وقال الزجاج في تأويل (ما يعبأ بكم ربى) : أى وزن يكون لكم عنده ؟ ويجوز أن تكون (ما) نافية ، (فقد كذبتهم) يقول : إذا أعلمتكم أن حكى أنى لأعتد بعبادى إلا عبادتهم ، فقد خالفتم بتكذيبكم حكى ، فسوف يلزمكم أثر تكذيبكم حتى يكبكم في النار . ونظيره في الكلام أن يقول الملك لمن استعصى عليه : إن من عادتي أن أحسن إلى من يطيعنى ويتبع أمرى ، فقد عصيت فسوف ترى ما أحلّ بك بسبب عصيانك . وقيل : معناه ما يصنع بكم ربى لولا دعاؤه إياكم إلى الإسلام . وقيل : ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة . فإن قلت : إلى من يتوجه هذا الخطاب ؟ قلت : إلى الناس على الإطلاق ، ومنهم مؤمنون عابدون ومكذبون عاصون ، فخطبوا بما وجدوا في جنسهم من العبادة والتكذيب . وقرئ : فقد كذب الكافرون . وقيل : يكون العذاب لزاما . وعن مجاهد رضى الله عنه : هو قتل يوم بدر ، وأنه لوزم بين القتلى لزاما . وقرئ : لزاما ، بالفتح بمعنى اللزوم ، كالثبات والثبوت .

والوجه أن ترك اسم كان غير منطوق به بعد ما علم أنه مما توعد به ، لأجل الإبهام وتناول مالا يكتننه الوصف ، والله أعلم بالصواب .
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة الفرقان لقي الله يوم القيامة وهو مؤمن بأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأدخل الجنة بغير نصب » (١)

سورة الشعراء

مكية ، إلا قوله (والشعراء ... إلى آخر السورة)
وهي مائتان وسبع وعشرون آية ، وفي رواية : وست وعشرون آية [نزلت بعد الواقعة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طسَمَ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢)
(طسم) بتفخيم الالف وإمالتها ، وإظهار النون وإدغامها (الكتاب المبين) الظاهر إعجازه ، وصحة أنه من عند الله ، والمراد به السورة أو القرآن . والمعنى : آيات هذا المؤلف من الحروف المبسوطة تلك آيات الكتاب المبين .

لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)
البخع : أن يبلغ بالذبح البخاع بالباء ، وهو عرق مستبطن الفقار ، وذلك أقصى حد الذبح ، ولعل للإشفاق ، بمعنى : أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على ما فاتك من إسلام قومك (ألا يكونوا مؤمنين) لتلاؤموا ، أو لا متناع إيمانهم ، أو خيفة أن لا يؤمنوا . وعن قتادة رضى الله عنه : باخع نفسك على الإضافة .

إِنْ نَشَأْ نُنْزِلْ هَٰؤُلَاءِ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤)
أراد : آية ملجئة إلى الإيمان قاصرة عليه . (ظَلَّتْ) معطوف على الجزاء الذى هو نزل ،

لأنه لو قيل : أنزلنا ، لكان صحيحاً . ونظيره : فأصدق وأكن ، كأنه قيل : أصدق . وقد قرئ :
لو شئت لأنزلنا . وقرئ : فظل أعناقهم . فإن قلت : كيف صح مجيء خاضعين خبراً عن الأعناق
قلت : أصل الكلام : فظلوا لها خاضعين . فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع ، وترك
الكلام على أصله ، كقوله : ذهب أهل النيام ، كأن الأهل غير مذكور . أو لما وصفت
بالخضوع الذى هو للعقلاء قيل : خاضعين ، كقوله تعالى (لى ساجدين) وقيل أعناق الناس :
رؤسائهم ومقدموهم ، شبهوا بالأعناق كما قيل لهم هم الرؤوس والنواصى والصدور . قال :

* فِي تَحْفِيلِ مَنْ نَوَاصِي النَّاسِ مَشْهُودٌ * (١)

وقيل : جماعات الناس . يقال : جاءنا عتق من الناس لفوج منهم . وقرئ : فظلت أعناقهم لها
خاضعة . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : نزلت هذه الآية فينا وفى بنى أمية . قال : ستكون
لنا عليهم الدولة ، فتدل لنا أعناقهم بعد صعوبة ، ويلحقهم هوان بعد عزة .

وَمَا بِأَنْبِئِهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥)

فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَاءَ نَبِئُهُمْ أَنْبِئُوا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَمِزُّونَ (٦)

أى : وما يحدد لهم الله بوحيه موعظة وتذكيراً ، إلا جددوا إعراضاً عنه وكفراً به . فإن قلت :
كيف خولف بين الالفاظ والغرض واحد ، وهى الإعراض والتكذيب والاستهزاء ؟ قلت :
إنما خولف بينها لاختلاف الأغراض ، كأنه قيل . حين أعرضوا عن الذكر فقد كذبوا به ،
وحين كذبوا به فقد خف عندهم قدره وصار عرضة للاستهزاء والسخرية ؛ لأن من كان قابلاً
للحق مقبلاً عليه ، كان مصداقه لا محالة ولم يظن به التكذيب . ومن كان مصداقه ، كان موقراً
له (فسيأتهم) وعيدهم وإنذار بأنهم سيعلمون إذا مسهم عذاب الله يوم بدر أو يوم القيامة
(ما) الشئ الذى كانوا يستهزئون به وهو القرآن ، وسيأتهم أنباؤه وأحواله التى كانت خافية
عليهم .

أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧)
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْ

الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩)

وصف الزوج وهو الصنف من النبات بالكرم ، والكريم : صفة لكل ما يرضى ويحمد فى

بابه ، يقال : وجه كريم ، إذا رضى في حسنه وجماله ، وكتاب كريم : مرضى في معانيه وفوائده ، وقال :

• حَتَّى يَشُقَّ الصُّفُوفَ مِنْ كَرَمِهِ • (١)

أى : من كونه مرضيا في شجاعته وبأسه ، والنبات الكريم : المرضى فيما يتعلق به من المنافع (إن في) إنبات تلك الأصناف (آية) على أن منبها قادر على إحياء الموق ، وقد علم الله أن أكثرهم مطبوع على قلوبهم ، غير مرجو إيمانهم (وإن ربك هو العزيز) في انتقامه من الكفرة (الرحيم) لمن تاب وآمن وعمل صالحا . فإن قلت : ما معنى الجمع بين كم وكل ، ولو قيل كم أنبتنا فيها من زوج كريم (٢) ؟ قلت : قد دل (كل) على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل ، و (كم) على أن هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة (٣) ، فهذا معنى الجمع بينهما ، وبه نبه على كمال قدرته . فإن قلت : فما معنى وصف الزوج بالكريم ؟ قلت : يحتمل معنيين ، أحدهما :

(١) من رأى يومنا ويوم بنى التسييم إذا التف صبيغه بدمه
لما راوا أن يومهم أشب شدوا حيازيمهم على آله
كأنما الأسد في عربهم ونحن كالليل جاش في قتمه
لا يسلون الفداء جارهم حتى يزل الشراك عن قدمه
ولا يجيم اللقا فارهم حتى يشق الصفوف من كرمه

لرجل من حمير . ومن : استهامة . والصيق والصيقة : بالكسر - : الفبار والتراب . والأشب - كحذر - : كثير الجلية والاختلاط ، ويطلق على المكان الذى التف شجره ، والحيزوم : الصدر . والعرين : أجرة الأسد يسكن فيها . وجاش : ارتفع وأقبل . والقتم : الفبار والسواد والظلمة . وروى في غشمه : بالذئ . والمعنى واحد ، لا يسلون لا يخذلون ولا يتركون . والشراك : سير النمل ، ولا يجيم : أى لا يجبن عن اللقا ، واليوم : الزمن أو الواقعة ، وإضافة الصيق والدم إليه لأنه فيه . ووصف اليوم بأنه كثير الصباح والاختلاط ، لأن ذلك واقع فيه ، وشد الحيازيم على الألم : كناية عن التجرد والصبر . وشبههم بالأسود في شجاعتهم . وشبه قومه بالليل في الإحاطة والفقر للغير ، ثم قال : لا يتركون حليفهم غداة الروع حتى يرتبك وحده في الحرب ، فزل الشراك : كناية من ذلك ولا يجبن الفارس منهم عن اللقا ، فهو نصب على نزع الخافض ، وقيل : مقول معه ، حتى يشق صفوف الحرب ويدخلها من كرمه ، أى شجاعته وجراته ، لأن الكرم فى كل باب بحسبه ، وحتى الأولى غاية للنقى ، والثانية غاية للنقى . ويجوز أن الثانية ابتدائية . والفعل بعدها مرفوع على الاستئناف ، وهذا أبلغ في المدح ، ثم إن مدح عدوم مدح لهم .

(٢) قوله « كم أنبتنا فيها من زوج كريمه » لعل بعده سقطا تقديره « كان مستقيما » . (ع)

(٣) قال محمود : « إن قلت : ما فائدة الجمع بين كل وكم ؟ وأجاب بأن كلا دخلت للإحاطة بأزواج النبات وكم دلت على أن هذا الخطأ به متكاثر مفرط الكثرة » قال أحمد : فعل مقتضى ذلك يكون المقصود بالتكثير : الأنواع والظاهر أن المقصود آحاد الأزواج والأنعام ، ويدل عليه أنك لو أسقطت (كل) فقلت : انظروا إلى الأرض كم أنبت الله فيها من الصنف الفلانى ، لكنت مكثرا عن آحاد ذلك الصنف المشار إليه ، فإذا أدخلت (كل) فقد أدبت بتكريره آحاد كل صنف لا آحاد صنف معين ، والله أعلم .

أن النبات على نوعين : نافع وضار ، فذكر كثرة ما أنبت في الأرض من جميع أصناف النبات النافع ، وخلى ذكر الضار . والثاني : أن يعم جميع النبات نافعها وضاره ، ويصفهما جميعاً بالكرم وينبه على أنه ما أنبت شيئاً إلا وفيه فائدة ، لأن الحكيم لا يفعل فعلاً إلا لغرض صحيح ولحكمة بالغة ، وإن غفل عنها الغافلون ، ولم يتوصل إلى معرفتها العاقلون . فإن قلت : حين ذكر الأزواج ودلّ عليها يكلمني الكثرة والإحاطة ، وكانت بحيث لا يحصيها إلا عالم الغيب ، كيف قال (إن في ذلك آية) وهلا قال : آيات ؟ قلت : فيه وجهان : أن يكون ذلك مشاراً به إلى مصدر أنبتنا ، فكأنه قال : إن في الإنبات آية أي آية . وأن يراد : أن في كل واحدة من تلك الأزواج آية . وقد سبقت لهذا الوجه نظائر .

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ ۖ أَنِ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ

أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾

سجل عليهم بالظلم بأن قدم القوم الظالمين ، ثم عطفهم عليهم عطف البيان ، كأن معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون وكأنهما عبارتان تعقبان على مؤدى واحد : إن شاء ذا كرمهم عبر عنهم بالقوم الظالمين ، وإن شاء عبر بقوم فرعون . وقد استحقوا هذا الاسم من جهتين : من جهة ظلمهم أنفسهم بالكفر وشرارتهم ، ومن جهة ظلمهم لبني إسرائيل باستعبادهم لهم . قرئ : أَلَا يَتَّقُونَ بكسر النون ، بمعنى : أَلَا يَتَّقُونِي : فخذت النون لاجتماع النونين ، والياء للاكتفاء بالكسرة . فإن قلت : بهم تعلق قوله : أَلَا يَتَّقُونَ ؟ قلت : هو كلام مستأنف أتبعه عز وجل إرساله إليهم للإنذار ، والتسجيل عليهم بالظلم ، تعجيباً لموسى من حالهم التي شنت في الظلم والعسف ، ومن أمهم العواقب وقله خوفهم وحذرهم من أيام الله . ويحتمل أن يكون (لا يتقون) حالاً من الضمير في الظالمين ، أي : يظلمون غير متقين الله وعقابه ، فأدخلت همزة الإنكار على الحال . وأما من قرأ : أَلَا يَتَّقُونَ . على الخطاب . فعلى طريقة الالتفات إليهم ، وجههم ، وضرب وجوههم بالإنكار ، والنصب عليهم ، كما ترى من يشكو من ركب جنائية إلى بعض أخصائه والجاني حاضر ، فإذا اندفع في الشكاية وحز مزاجه ^(١) وحمل غضبه قطع مباحة صاحبه وأقبل على الجاني يوبخه ويعنف به ويقول له : ألم تتق الله ، ألم تستح من الناس . فإن قلت : فما فائدة هذا الالتفات ، والخطاب مع موسى عليه الصلاة والسلام في وقت المناجاة ، والمثلث إليهم غيب لا يشعرون ؟ قلت : لإجراء ذلك في تكليم المرسل إليهم في معنى إجرائه بحضرتهم وإلقائه إلى

(١) قوله «وحز مزاجه» في الصحاح : حر بحر حرا وحرارة وحرور . (ع)

مسامعهم ، لأنه مبلغه ومنهيه وناشره بين الناس ، وله فيه لطف وحث على زيادة التقوى ، وكمن آية أنزلت في شأن الكافرين وفيها أوفر نصيب للثومنين ، تدبراً لها واعتباراً بموردها . وفي (ألا يتقون) بالياء وكسر النون وجه آخر ، وهو أن يكون المعنى : ألا يأناس اتقون ، كقوله (ألا يا اسجدوا) .

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي

فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴿١٣﴾

ويضيق وينطلق ، بالرفع ؛ لأنهما معطوفان على خبر إن ، وبالنصب لعطفهما على صلة أن . والفرق بينهما في المعنى : أن الرفع يفيد أن فيه ثلاث علل : خوف التكذيب ، وضيق الصدر ، وامتناع انطلاق اللسان ، والنصب على أن خوفه متعلق بهذه الثلاثة . فإن قلت : في النصب تعليق الخوف بالأمور الثلاثة ، وفي جملتها نفي انطلاق اللسان . وحقيقة الخوف إنما هي غم يلحق الإنسان لامر سيقع ، وذلك كان واقعاً ، فكيف جاز تعليق الخوف به ؟ قلت : قد علق الخوف بتكذيبهم وبما يحصل له بسببه من ضيق الصدر ، والحسبة في اللسان زائدة على ما كان به ، على أن تلك الحسبة التي كانت به قد زالت بدعوته . وقيل : بقيت منها بقية يسيرة . فإن قلت : اعتذارك هذا يرده الرفع ، لأن المعنى : إني خائف ضيق الصدر غير منطلق اللسان . قلت : يجوز أن يكون هذا قبل الدعوة واستجابتها ، ويجوز أن يريد القدر اليسير الذي بقى به ، ويجوز أن لا يكون مع حل العقدة من لسانه من الفصحاء المصانع ^(١) الذين أوتوا سلطة الالسننة وبسطة المقال ، وهرون كان بتلك الصفة ، فأراد أن يقرن به . ويدل عليه قوله تعالى (وأخى هرون هو أفصح مني لساناً) ومعنى (فأرسل إلى هرون) : أرسل إليه جبرائيل . واجعله نبياً ، وآزرني به ^(٢) ، واشدد به عضدى ، وهذا كلام مختصر . وقد بسطه في غير هذا الموضع ، وقد أحسن في الاختصار حيث قال (فأرسل إلى هرون) فجاء بما يتضمن معنى الاستنباء ، ومثله في تقصير الطويلة والحسن قوله تعالى (فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً) حيث اقتصر على ذكر طرفي القصة أولها وآخرها ، وهما الإنذار والتدمير ، ودل بذكرهما على ما هو الغرض من القصة الطويلة كلها ، وهو أنهم قوم كذبوا بآيات الله ، فأراد الله إلزام الحجة عليهم ، فبعث إليهم رسولين فكذبوهما ، فأهلكهم . فإن قلت : كيف ساغ لموسى عليه السلام أن يأمره الله بأمر فلا يتقبله بسمع وطاعة من غير توقف وتشبث بعقل ، وقد علم أن الله من

(١) قوله «من الفصحاء المصانع» في الصحاح «صقع الديك» : صاح . وخطيب مصقع . أى : بلغ . (ع) ٤

(٢) قوله «وآزرني به» في الصحاح «آزرت فلاناً» : عاوته . والعامة تقول : وآزرته . (ع)

ورائه ؟ قلت : قد امتثل وتقيل ، ولكنه التمس من ربه أن يعضده بأخيه حتى يتعاونوا على تنفيذ أمره وتبليغ رسالته . فهد قبل التماسه عذره فيما التمس ، ثم التمس بعد ذلك ، وتمهيد العذر في التماس المعين على تنفيذ الأمر : ليس بتوقف في أمثال الأمر ، ولا بتعلل فيه ؛ وكفى بطلب العون دليلا على التقبل لاعلى التعلل .

وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ١٤

أراد بالذنب : قتله القبطى . وقيل : كان خباز فرعون واسمه فاتون . يعنى : ولهم على تبعة ذنب ، وهى قود ذلك القتل ^(١) . فأخاف أن يقتلوني به ، لحذف المضاف . أو سعى تبعة الذنب ذنباً ، كما سعى جزاء السيئة سيئة . فإن قلت : قد آيت أن تكون تلك الثلاث عللاً ، وجعلتها تمهيداً للعذر فيما التمس ، فما قولك فى هذه الرابعة ؟ قلت : هذه استدفاع للبلية المتوقعة . وفرق من أن يقتل قبل أداء الرسالة ، فكيف يكون تعللاً . والدليل عليه : ما جاء بعده من كلمة الردع ، والموعد بالكلاءة والدفع .

قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ١٥ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا
إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٦ أَن أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ١٧ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ
فِيْنَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ١٨ وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ
وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ١٩ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ٢٠ فَفَرَرْتُ
مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ٢١
وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَى أَنْ عَبَّدتَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ٢٢

جمع الله له الاستجابتين معاً فى قوله ﴿ كلا فاذهبا ﴾ لأنه استدفعه بلامهم فوعده الدفع برده عن الخوف ، و التمس منه الموازنة بأخيه فأجابه بقوله (اذهبا) أى اذهب أنت والذى طلبته وهو هرون . فإن قلت : علام عطف قوله (فاذهبا) ؟ قلت : على الفعل الذى يدل عليه (كلا) كأنه قيل : ارتدع ياموسى عما تظن ، فاذهب أنت وهرون . وقوله ﴿ معكم مستمعون ﴾ من مجاز الكلام ، يريد : أنا لكما ولعدوكما كالناصر الظهير لكما عليه إذا حضر واستمع ما يجرى بينكما

(١) قوله « وهى قود ذلك القتل » لعله القتل . (ع)

وبينه . فأظهر كما وأغلب كما وأكسر شوكته عنكما وأنكسه . ويجوز أن يكونا خبرين لأن ، أويكون (مستمعون) مستقراً ، و (معكم) لغوياً . فإن قلت : لم جعلت (مستمعون) قرينة (معكم) في كونه من باب المجاز ، والله تعالى يوصف على الحقيقة بأنه سميع وسماع ؟ قلت : ولكن لا يوصف بالمستمع على الحقيقة ؛ لأن الاستماع جار مجرى الإصغاء ، والاستماع من السمع بمنزلة النظر من الرؤية . ومنه قوله تعالى (قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجيباً) ويقال : استمع إلى حديثه ، وسمع حديثه ، أى : أصغى إليه وأدركه بحاسة السمع . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم ^(١) « من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صبت في أذنيه البرم » ^(٢) . فإن قلت : هلا تثنى الرسول كما تثنى في قوله (إنا رسولا ربك) ؟ قلت : الرسول يكون بمعنى المرسل ، وبمعنى الرسالة ، فجعل ثم بمعنى المرسل فلم يكن بد من تثنيته ، وجعل ههنا بمعنى الرسالة لجاز التثوية فيه - إذا وصف به - بين الواحد والتثنية والجمع ، كما يفعل بالصفة بالمصادر ، نحو : صوم ، وزور . قال :

أَلَكْنِي إِلَيْهَا وَخَبِرُ الرُّسُو لَ أَعْلَمُهُمْ بِنَوَاحِي الْخَبَرِ ^(٣)

لجعله للجماعة . والشاهد في الرسول بمعنى الرسالة قوله :

لَقَدْ كَذَّبَ الْوَاشُونَ مَا فَهَتُ عَنْدَهُمْ بَسِيرٌ وَلَا أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولٍ ^(٤)

(١) لم أجده هذا اللفظ ، والمخفوظ « صبت في أذنيه الآنك » وهو الرصاص . وذكره ابن الأثير في النهاية بلفظ : « البرم الدم » وقال : هو الكحل المذاب . قلت : وإنما تلقاه ابن الأثير عن الفائق ، فرجع إلى الرعشري .
(٢) قوله « صبت في أذنيه البرم » في الصحاح « البرم » : ثمر العضاء . (ع)
(٣) لابي ذؤيب . وألا كه يليك : إذا أرسله . والمصدر إلا كه ، فالمهزمة زائدة . والأصل : لا كه يلو ك ، كقام يقوم . وأما لكه : إذا أرسله أيضاً ، فصدره : أوكه وأبكه ومألكه ، بضم اللام وفتحها . ومألك بضمها . وقيل : ألا كه ، إذا تحمل رسالته . فالعنى : أرسلت ، أو تحمل رسالتى إليها . ويروى : إليه : أى : إلى ذلك الأمر . والرسول في الأصل مصدر ، لجاز إفراده مع تعدد معناه ، ولذلك عاد إليه خبر الجمع في أعلمهم . وشبه الخبر بمكان ذى جهات على طريق المكنية . والنواحي تخيل . وأوشبه توابع الخبر التى يسأل عنها تبعاً له بالنواحي على طريق التصريرية ، يعنى أنه أعلم من غيره بذلك .

(٤) حلفت برب الرافعات إلى منى خلال الملا يمدون كلّ جدبل

لقد كذب الواشون ما فهت عندهم بسر ولا أرسلتهم برسول

فلا تمجلى يا عز أن تفهمى بنصح أتى الواشون أم بحول

لكثير صاحب عزة . والرافعات : المطايا السائرات إلى منى في الحج ، خلال الملا : أى فى أثناء الناس . والجدبل الرنن في عنقها تمده به . والواشى : الذى يحسن الكلام ويمويه ، ويخط الصدق بالكذب ، ويعرف الكلم عن مواضعه . و « ما » نافية ، أى : ما فهوت عندهم بسر ، ولا أرسلتهم إلى أحد برسول ، أى برسالة ، فهو فى الأصل مصدر . وقد يطلق على المرسل ، وهو الظاهر فى رواية ، (ولا أرسلتهم برسول) أى لا شافهتهم بالمر ولا أرسلت =

ويجوز أن يوحد، لأن حكمهما لتساندهما واتفاقهما على شريعة واحدة، واتحادهما لذلك وللإخوة كان حكماً واحداً، فكأنهما رسول واحد. أو أريد أن كل واحد منا ﴿أن أرسل﴾ بمعنى: أى أرسل؛ لتضمن الرسول معنى الإرسال. وتقول: أرسلت إليك أن افعل كذا، لما في الإرسال من معنى القول، كما في المناداة والكتابة ونحو ذلك. ومعنى هذا الإرسال: التخلي والإطلاق كقولك: أرسل البازي، يريد: خلهم يذهبوا معنا إلى فلسطين، وكانت مسكنهما. ويروى أنهما انطلقا إلى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة، حتى قال البواب: إن ههنا إنسانا يزعم أنه رسول رب العالمين، فقال: ائذن له لعلنا نضحك منه، فأديا إليه الرسالة، فعرف موسى فقال له ﴿ألم نربك﴾ حذف: فأتيا فرعون فقالا له ذلك، لأنه معلوم لا يشبهه. وهذا النوع من الاختصار كثير في التنزيل. الوليد: الصبي لقرب عهده من الولادة. وفي رواية عن أبي عمرو: من عمره، بسكون الميم ﴿سنين﴾ قيل: مكث عندهم ثلاثين سنة. وقيل: وكز القبطى وهو ابن ثنتى عشرة سنة، وفرز منهم على أثرها، والله أعلم بصحيح ذلك. وعن الشعبي: فعلتك بالكسر، وهى قتلة القبطى، لأنه قتله بالوكره وهو ضرب من القتل. وأما الفعلة؛ فلأنها كانت وكرة واحدة. عُدَّ عليه نعمته من تربيته وتبليغه مبلغ الرجال، ووبخه بما جرى على يده من قتل خبازه، وعظم ذلك وفضله ^(١) بقوله ﴿وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين﴾ يجوز أن يكون حالا، أى: قتلته وأنت لذلك من الكافرين بنعمتى. أو أنت إذ ذاك بمن تكفرهم الساعة. وقد افترى عليه أو جهل أمره؛ لأنه كان يعايشهم بالتيقن، فإن الله تعالى عاصم من يريد أن يستنبه من كل كبيرة ومن بعض الصغائر، فما بال الكفر. ويجوز أن يكون قوله (وأنت من الكافرين) حكماً عليه بأنه من الكافرين بالنعم، ومن كانت عادته كفران النعم لم يكن قتل خواص المنعم عليه بدعا منه. أو بأنه من الكافرين لفرعون وإلهيته. أو من الذين كانوا يكفرون في دينهم، فقد كانت لهم آلهة يعبدونها، يشهد لذلك قوله تعالى (ويذكر وآلهتك) وقرئ: إلهتك، فأجابه موسى بأن تلك الفعلة إنما فرطت منه وهو ﴿من الضالين﴾ أى الجاهلين. وقراءة ابن مسعود: من الجاهلين، مفسرة. والمعنى: من

==إليه رسولا به، وهذه الرواية أوفق بالمقابلة. ويمكن أن أرسلتهم بمعنى أرسلت إليهم، والأصل: باعزة، فرغم بحذف التاء، أن تنفهمى؛ أى: فى أن تنفهمى. أو لأجل أن تنفهمى، بنصح، أى: أنبصح أى الواشون إليك، أم بحول: جمع حبل بالكسر: وهى الداهية العظيمة، ولا أدهى من الكذب.

(١) قال محمود: «عدد نعمته عليه ووبخه بما جرى على يديه من قتل خبازه وفضله عليه بقوله: وفعلت فعلتك». قال أحد: ووجه التفضيع عليه من ذلك أن فى إثباته به مجازاً، إذباناً بأنه لفظاً مما لا يطق به إلا مكنياً عنه. ونظيره فى التفضيم المستفاد من الإبهام قوله تعالى (نفسيهم من اليم ما غشيهم)، (إذ يغشى المدرة عايشى)، (فأوحى إلى عبده ما أوحى) ومثله كثير، والله أعلم.

الفاعلين فعل أولى الجهل والسفه . كما قال يوسف لإخوته (هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون) أو المخطئين كمن يقتل خطأ من غير تعمد للقتل . أو الذاهبين عن الصواب . أو الناسين ، من قوله (أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى) وكذب فرعون ودفع الوصف بالكفر عن نفسه ، وبزأ ساحته ، بأن وضع الضالين موضع الكافرين ربثاً بمحل من رشح للنبوّة عن تلك الصفة ، ثم كثر على امتنائه عليه بالترية ، فأبطله من أصله واستأصله من سنخه ^(١) ، وأبى أن يسمى نعمته إلا نعمة . حيث بين أن حقيقة إنعامه عليه تعبيد بني إسرائيل ؛ لأن تعبيدهم وقصدهم بذبح أبنائهم هو السبب في حصوله عنده وترتيبه ، فكأنه امتن عليه بتعبيد قومه إذا حققت ، وتعبيدهم : تدليلهم واتخاذهم عبيداً . يقال : عبدت الرجل وأعبدته ، إذا اتخذته عبداً . قال :

عَلَامٌ يُعْبِدُنِي قَوْمِي وَقَدْ كَثُرَتْ فِيعِمُ أَبَاعِرُ مَا شَاؤُوا وَعَبْدَانُ ^(٢)

فإن قلت : إذا جواب وجزاء معا ، والكلام وقع جواباً لفرعون ، فكيف وقع جزاء قلت : قول فرعون : (وفعلت فعلتك) فيه معنى : إنك جازيت نعمتي بما فعلت ، فقال له موسى : نعم فعلتها مجازياً لك ، تسلياً لقوله ، لأن نعمته كانت عنده جديرة بأن تجازى بنحو ذلك الجزاء . فإن قلت : لم جمع الضمير في منكم وخفتكم ؟ مع إفراده في تمنا وعبدت ؟ قلت : الخوف والفرار لم يكونا منه وحده ، ولكن منه ومن ملئه المؤتمرين بقتله ، بدليل قوله (إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك) وأما الامتنان فنه وحده ، وكذلك التعبيد . فإن قلت : (تلك) إشارة إلى ماذا ، و (أن عبدت) ما محلها من الإعراب ؟ قلت : تلك إشارة إلى خصلة شتاء مهمة ، لا يدرى ما هي إلا بتفسيرها . ومحل (أن عبدت) الرفع عطف بيان لتلك ، ونظيره قوله تعالى (وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع) والمعنى : تعبيدك بني إسرائيل نعمة تمنها علي . وقال

(١) قوله « واستأصله من سنخه » في الصحاح « السنخ » الأهل ، و« سنخ » العلم سنوخار سنخ : و« سنخ الدهر » بالكسر - : لغة في زنج ، إذا فسد وأفريت ربحه . يقال : بيت له سنخة وسنخة له . (ع)

(٢) علام : استفهام إنكار عن العلة ، أي : على أي شيء . وأعبدت الرجل وعبدته : إذا اتخذته عبداً . والأباعر : جمع بعير ، يطلق على الذكر والأنثى من الإبل . والعبد : يجمع على عبدان بالكسر والضم . وعبدى ، بتعديده الدال مقصوراً وممدوداً . ومعبوداً ، وهباد ، وأعبد ، وعبيد ، وعبد بضمين وفتحتين ، يقول : لأى شيء يتخذونى عبداً ، والحال أنه كثر فيهم الإبل والعبيد بسبي ، فليتخذوا منها ماشاؤا . وما شاؤا : بدل من الأباعر أو واقع موقع المصدر لكثرة ، دلالة على التشكير . وفي هذه الحال : نهكم بهم ودلالة على حقهم . ويجوز أن المعنى : والحال أن بعضهم كالأباعر ، وبعضهم عبيد ، فليكتفوا ببعضهم عنى . وقيل : يجوز أن التقيد بهذه الحالة ، لأنها التي حملتهم على التكبر عليه .

الزجاج : ويجوز أن يكون (أن) في موضع نصب ، المعنى : إنما صارت نعمة على لأن عبادت
بنى إسرائيل : أى : لو لم تفعل ذلك لكفلتنى أهلى ولم يلقونى فى اليم .

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾

لما قال له بوابه إن ههنا من يزعم أنه رسول رب العالمين قال له عند دخوله : ﴿ وما رب
العالمين ﴾ يريد : أى شيء رب العالمين . وهذا السؤال لا يخلو : إما أن يريد به أى شيء هو من
الاشياء التى شوهدت وعرفت أجناسها ، فأجاب بما يستدل به عليه من أفعاله الخاصة ، ليعرفه
أنه ليس بشيء مما شوهد وعرف من الاجرام والأعراض ، وأنه شيء مخالف لجميع الاشياء ،
وليس كمثل شيء ، وإما أن يريد به : أى شيء هو على الإطلاق ، تفتيشا عن حقيقته الخاصة ما هى ،
فأجابه بأن الذى إليه سبيل وهو الكافى فى معرفته معرفة ثباته بصفاته ، استدلالا بأفعاله الخاصة
على ذلك . وأما التفتيش عن حقيقته الخاصة التى هى فوق فطر العقول ، وتفتيش عما لا سبيل
إليه ، والسائل عنه متعنت غير طالب للحق . والذى يليق بحال فرعون ويدل عليه السلام :
أن يكون سؤاله هذا إنكارا لأن يكون للعالمين رب سواه لادعائه الإلهية ، فلما أجاب موسى بما
أجاب ، عجب قومه من جوابه حيث نسب الربوبية إلى غيره ، فلما نثى بتقرير قوله ، جنته إلى
قومه ووطنه (١) ، حيث سماه رسولهم . فلما ثلث بتقرير آخر : احتد واحتدم وقال : لنن اتخذ
إلهنا غيرى . وهذا يدل على صحة هذا الوجه الأخير .

قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُوزَهُمْ مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾

فإن قلت : كيف قيل ﴿ وما بينهما ﴾ على التثنية ، والمرجوع إليه مجموع ؟ قلت : أريد وما
بين الجنسين ، فعل بالمضمر ما فعل بالظاهر من قال :

* ... فى المِيجَا جَمَالَيْنِ * (٢)

(١) قوله « وطنه » أى : سحر به واحتدم ، أى : التهاب صدره غيظا . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) سعى عقالا فلم يترك لنا سبدا فكيف لو قد سعى همرو عقالين
لأصبح الناس أربادا ولم يجدوا عند التفرق فى الميجا جمالين

الساعى : المنصوب لأخذ الزكاة . والمقال : زكاة العام ، والمراد به هنا العام ، لأنه جرى مجرى الظرف . والسبد :
الشيء القليل . يقال : لاله سبد ولايد ، أى : لاقليل ولا كثير . وقال الأصمعي : الأول من الشعر ، والثانى
من الصوف . والأوباد : جمع وبذ بفتح تين ، وأصله ضيق العيش وسوء الحال ، فاستعمل استعمال الصفات للبالغة ،
وتقضى الجمال على معنى نوعين منها أوطانيتين منها ولو من نوع واحد . يقول : سعى سنة واحدة لأخذ زكاتها ، فظلمنا
ولم يترك لنا شيئا قليلا من مالنا ، فكيف يكون حالنا لو سعى عامين . وفى ذكر همرو بعد تقدم ضميره نوع من
التهويل . ويحتمل أنه من باب التنازع ، فيجوز أن الظاهر فاعل الأول ، وفاعل الثانى ضميره . وقوله « وأصبح » =

فإن قلت : ما معنى قوله ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ وأين غن فرعون وملئه الإيقان ؟ قلت : معناه إن كان يرجى منكم الإيقان الذى يؤدى إليه النظر الصحيح فنعمكم هذا الجواب ، وإلا لم ينفع . أو إن كنتم موقنين بشئ قط فهذا أولى ما توقنون به ، لظهوره وإنارة دليله .

قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾
قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

فإن قلت : ومن كان حوله ؟ قلت : أشراف قومه قيل : كانوا خمسمائة رجل عليهم الأساور وكانت لللوك خاصة . فإن قلت : ذكر السموات والأرض وما بينهما قد استوعب به الخلائق كلها ، فما معنى ذكرهم وذكر آبائهم بعد ذلك وذكر المشرق والمغرب ؟ قلت : قد عمم أولا ، ثم خصص من العام للبيان أنفسهم وآباءهم . لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه ، وما شاهد وعاین من الدلائل على الصانع ، والناقل من هيئة إلى هيئة وحال إلى حال من وقت ميلاده إلى وقت وفاته ، ثم خصص المشرق والمغرب ، لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها فى الآخر على تقدير مستقيم فى فصول السنة وحساب مستو من أظهر ما استدل به ؛ ولظهوره انتقل إلى الاحتجاج به خليل الله ، عن الاحتجاج بالإحياء والإماتة على نمرود بن كنعان ، فهت الذى كفر . وقرئ : رب المشارق والمغارب . الذى أرسل إليكم بفتح الهمزة . فإن قلت : كيف قال أولا (إن كنتم موقنين) وآخرأ (إن كنتم تعقلون) ؟ قلت : لاين أولا ، فلما رأى منهم شدة الشكيمة ^(١) فى العناد وقلة الإصغاء إلى عرض الحجج خاشن وعارض : إن رسولكم لمجنون ، بقوله : إن كنتم تعقلون .

قَالَ لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾

فإن قلت : ألم يكن : لايجنك ، أخصر من (لأجعلنك من المسجونين) ومؤديا مؤداه ؟ قلت : أما أخصر فنعم . وأما مؤد مؤداه فلا : لأن معناه : لأجعلنك واحدا من عرفت حالهم فى

== مرتب على محضوف ، أى : لوسعى عقالين ، لأصيح الناس ملكي من الفقر ، ولم يجدوا عند نفرتهم فى الحرب نوعين من الجبال : لكل فريق منهما نوع ، فيختل أمر الغزوات لاحتمال غارة العدو فى جهتين بل فى جهات ، فيحتاج إلى جبالين ، بل إلى جبال .

(١) قوله شدة الشكيمة : فى الصحاح : فلان شديد الشكيمة ، إذا كان شديد النفس أنفا أيا . (ع)

سجوني . وكان من عادته أن يأخذ من يريد سجنه فيطرحه في هوة ذاهبة في الأرض بعيدة العمق فردا لا يبصر فيها ولا يسمع ، فكان ذلك أشد من القتل وأشد .

قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ (٣١)

الواو في قوله ﴿أو لو جئتكم﴾ واو الحال دخلت عليها همزة الاستفهام . معناه : أتفعل بي ذلك ولو جئتكم بشيء مبين ، أي : جاثيا بالمعجزة . وفي قوله ﴿إن كنت من الصادقين﴾ أنه لا يأتي بالمعجزة إلا الصادق في دعواه ، لأن المعجزة تصديق من الله لمدعى النبوة ، والحكيم لا يصدق الكاذب . ومن العجب أن مثل فرعون لم يخف عليه هذا ، وخفى على ناس من أهل القبلة (١) حيث جوزوا القبيح على الله تعالى حتى لزمهم تصديق الكاذبين بالمعجزات (٢) ،

(١) قوله «وخفى على ناس من أهل القبلة» يريد أهل السنة ، حيث قالوا : إن كلا من الحسن والقبيح بقضاء الله تعالى وقدره ، ولم يلزمهم باطل كما بين في علم التوحيد . (ع)

(٢) قال محمود : «علم فرعون أنه لا يأتي بالمعجزة إلا صادق في دعواه ، لأن المعجزة تصديق من الله تعالى لمدعى النبوة ، والحكيم لا يصدق الكاذب . ومن العجب أن فرعون لم يخف عليه هذا وخفى على طائفة من أهل القبلة ، حيث جوزوا القبيح على الله تعالى حتى لزمهم تصديق الكاذبين بالمعجزات . انتهى كلامه» قال أحمد : لئنه سلم وجه تصديقه من تأليل هذه الأباطيل ، وكلف هذا التكليف في كيد لأهل السنة وإن كيد لئني تضليل ، بينما هو يمرض بتفضيل فرعون عليهم ، إذا هو قد حتم على إخوانه القدرية أنهم فراغة ، وأن كلا منهم إذا فقت نفسه وجد فيها نصيبا من فرعته حيث يقول (أناركم الأعلى) لأنهم ينتقدون أن أفعالهم خلقهم ، وأنهم لها مبدعون خالقون كلا إنهم لهم المبتدعون المخلقون ، لأنهم حجروا على الله تعالى أن يفعل إلا ما توطأت أوهامهم ، على أنه حسن بالنسبة إلى الخلق في الشاهد ، فن ثم أشركوا به وهم لا يشعرون . ولما هدى الله تعالى أهل السنة إلى التوحيد الحق ، اعتقدوا أن كل شيء هو مخلوق لله تعالى لا شريك له في ملكه ، وأن كل ممكن يجوز أن ينظمه سلطان القدرة الأزلية في سلكه ، فكان من الممكنات أن يبطل الله عباده بخرق العادات على أيدي الكذابين ، ومراده إظهار الضلالات : وقد اندرج ذلك لكونه ممكنا تحت سطوة القدرة حقاً بينما ، ثم لم يلزم من ذلك لله الحمد خرم في الدين ، فان توهم ناظر بعين الهوى والغرض ، معنون عما في قلبه من مرض : أت ذلك يجر إلى عدم الوثوق بمعجزات الأنبياء ، حيث كان على يد غيرهم من الكذابين الأشقياء . قيل : معاذ الله أن نأخذ ذلك بنفس مطمئنة بصدق الأنبياء ، آمنة بمصول العلم لها من وقوع ما جوزه العقل ، ولوقوع الامكان العقلي في علم حاصل يقيني ، للزم الآن الشك في أن جبال الأرض قد عادت تبرا أحر ، وتراجها مسكا أذفر ، وانقلبت البحار دما عبيطا لأن ذلك ممكن في العقل بلا خلاف ، ولا يشكك نفسه في هذا الامكان إلا ذو خيل وعته وعي وعه ، وأين الزمخشري من الحديث الصحيح في الشاب الذي يكذب الدجال فيقسمه بالسيف جزلئين فيمشي بينهما ، ثم يقول له : عد فيعود حياً ، فيقول له : ما زددت فيك إلا بصيرة . أنت الدجال الذي وصفه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم به ثاني مرة فلا يسلط عليه . قال النبي صلى الله عليه وسلم : وهو حينئذ خير أهل الأرض ، وأمن خير أهل الأرض . أفرأيت هذا المؤمن لما نظر انغراق العادة على يد أكاذيب الكاذبين حتى شاهد ذلك في نفسه ، لم يفككه ذلك في معلومه ، فلم يتلصقا في معارضة تكذيبه ، ولكن (ثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويصل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) .

وتقديره : إن كنت من الصادقين في دعواك أتيت به ، فخذف الجزاء ، لأن الأمر بالإتيان به يدل عليه .

فَأَتَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِ ﴿٢٣﴾

(ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ) ظاهر الثعبانية ، لاشئ يشبه الثعبان ، كما تكون الأشياء المزورة بالشعوذة والسحر . وروى أنها انقلبت حية ارتفعت في السماء قدر ميل ، ثم انحطت مقبلة إلى فرعون ، وجعلت تقول : يا موسى ، مرني بما شئت . ويقول فرعون : أسألك بالذي أرسلك إلا أخذتها ، فأخذها فعادت عصا (لِلنَّظَرِ) دليل على أن يياضها كان شيئاً يجتمع النظارة على النظر إليه ، لخروجه عن العادة ، وكان يياضاً نورياً . روى أن فرعون لما أبصر الآية الأولى قال : فهل غيرها ؟ فأخرج يده فقال له : ما هذه ؟ قال : يدك فما فيها ؟ فأدخلها في إبطه ثم نزعها ولها شعاع يكاد يفتش الأبصار (١) ويستد الآفاق .

قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٢٥﴾

فإن قلت : ما العامل في (حوله) ؟ قلت : هو منصوب نصبين : نصب في اللفظ ، ونصب في المحل ؛ فالعامل في النصب اللفظي ما يقدر في الظرف ، والعامل في النصب المحلي وهو النصب على الحال : قال : ولقد تحير فرعون لما أبصر الآيتين ، وبقى لا يدري أى طرفيه أطول ، حتى زلّ عنه ذكر دعوى الإلهية ، وحط عن منكبیه كبرياء الربوبية ، وارتعدت فرائصه ، وانتفخ سحره خوفاً ورفقا (٢) ؛ وبلغت به الاستكانة لقومه الذين هم بزعمه عبيده وهو إلههم : أن طفق يؤامرهم ويعترف لهم بما حذر منه وتوقعه وأحسّ به من جهة موسى عليه السلام وغلبته على ملكه وأرضه ، وقوله (إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ) قول باهت إذا غلب وتمحل إذا لزم (تأمرُونَ) من المؤامرة وهي المشاورة . أو من الأمر الذي هو ضد النهي : جعل العبيد آمرين وربهم مأموراً لما استولى عليه من فرط الدهش والخيرة . وماذا منصوب : إما لكونه في معنى المصدر ، وإما لأنه مفعول به من قوله : أمرتك الخير .

(١) قوله «ولها شعاع يكاد يفتش الأبصار» في الصحاح «الغشاء» : الغطاء . اهـ . ولعل عبارة المصنف يعشى بالعين المهملة ، وفي الصحاح «العفا» مقصور : مصدر : الأعشى ، وهو الذي لا يبصر بالليل ويبصر بالنهار . (ع)
(٢) قوله «وانتفخ سحره خوفاً ورفقا» في الصحاح «السحر» : الرمة . ويقال للجبان : قد انتفخ سحره . (ع)

قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَنْبِثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ
سَحَابٍ عَالِمٍ ﴿٣٧﴾

قرئ : أرجئه وأرجه : بالهمز والتخفيف ، وهما لفتان . يقال : أرجأته وأرجيته ، إذا أخرته . ومنه : المرجئة ^(١) ، وهم الذين لا يقطعون بوعيد الفساق ويقولون : هم مرجنون لأمر الله . والمعنى : أخره ومناظرته لوقت اجتماع السحرة . وقيل : أحبسه (حاشرين) شرطاً يحشرون السحرة ^(٢) ، وعارضوا قوله : إن هذا لساحر ، بقولهم : بكل سحار ، لجأوا بكلمة الإحاطة وصفة المبالغة ، ليطامنوا من نفسه ويسكنوا بعض قلقه . وقرأ الأعشى : بكل ساحر .

فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ
مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾

اليوم المعلوم : يوم الزينة . وميقاته : وقت الضحى ؛ لأنه الوقت الذي وقته لم موسى صلوات الله عليه من يوم الزينة في قوله (موعدكم يوم الزينة وأن يحشرون الناس ضحى) والميقات : ما وقت به ، أى حدد من زمان أو مكان . ومنه : مواقيت الإحرام (هل أنتم مجتمعون) استبطاء لهم في الاجتماع ، والمراد منه : استعجالهم واستحثاثهم ، كما يقول الرجل لعلامة : هل أنت منطلق : إذا أراد أن يحرك منه ويحثه على الانطلاق ، كأنما يحيل له أن الناس قد انطلقوا وهو واقف . ومنه قول تأبط شراً :

هَلْ أَنْتَ بَاعِثُ دِينَارٍ لِحَاجَتِنَا أَوْ عَبْدَ رَبِّ أَخَاعُونَ بِنِ مِخْرَاقٍ ^(٣)

يريد : ابعثه إلينا سريعاً ولا تبطل به (لعلنا نتبع السحرة) أى في دينهم إن غلبوا موسى ،

(١) قال محمود : «معناه أخره . ومنه المرجئة الذين لا يقطعون بوعيد الفساق ويقولون : هم مرجنون لأمر الله» قال أحمد : «ماقت عليه المسالك في تفسير الأجزاء ، حتى استدلل عليه بالمرجئة ، وحرف هذا القلب لأهل السنة ، فانهم هم الذين لا يقطعون بوعيد فساق المؤمنين ، ويقولون : أمرهم إلى الله ، إن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم . فان كانت المرجئة هم المؤمنون بقوله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) اللهم فاشهد أنا مرجئة .

(٢) قوله «وشرطاً يحشرون السحرة» الشرط - حركة - الحرس ، سموا بذلك لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يعرفون

بها ، أفاده الصحاح . (ع)

(٣) «تأبط شراً» وقيل : لجور الخطي ، وهل : استفهام استبطائي فيه حث على الفعل . ودینار : اسم رجل وعبدوب كذلك ، وهو نصب مطلقاً هل محل دینار ، لأنه مفعول معنى . وأخاعوف : نعت له . وقيل : منادي . وعوف ومخراق : اسمان لرجلين . ویری «وعون» بالنون .

ولا تتبع موسى في دينه . وليس غرضهم باتباع السحرة ^(١) ، وإنما الغرض الكلى : أن لا يتبعوا موسى ، فسيقوا الكلام مساق الكناية ؛ لأنهم إذا اتبعوهم لم يكونوا متبعين لموسى عليه السلام .

فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنِّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾

قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمَقَرِّينَ ﴿٤٢﴾

وقرى : نعم ، بالكسر ^(٢) . وهما لغتان . ولما كان قوله (إن لنا لأجرا) في معنى جزاء الشرط ، لدلالته عليه ، وكان قوله (وإنكم إذا لمن المقربين) معطوفا عليه ومدخلا في حكمه ، دخلت إذا فآزة في مكانها الذي تقتضيه من الجواب والجزاء ، وعدم أن يجمع لهم إلى الثواب على سحرهم الذي قدروا أنهم يغلبون به موسى : القرية عنده والزلي .

قَالَ لَهُم مُّوسَى أَتَقُولُوا مَا آتَيْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقُوا حِبَالَهُمْ وَعَصِيمُهمْ

وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾

أقسموا بعزة فرعون وهي من أيمان الجاهلية ، وهكذا كل حلف بغير الله ، ولا يصح في الإسلام إلا الحلف بالله معلقاً ببعض أسمائه أو صفاته ، كقولك : بالله ، والرحمن ، وربى ، ورب العرش ، وعزة الله ، وقدرة الله ، وجلال الله ، وعظمة الله . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحلفوا بأبائكم ولا بأمتهاكم ولا بالطواغيت ، ولا تحلفوا إلا بالله ، ولا تحلفوا بالله إلا وأتكم صادقون ^(٣) . ولقد استحدث الناس في هذا الباب في إسلامهم جاهلية نسبت لها الجاهلية الأولى ، وذلك أن الواحد منهم لو أقسم بأسماء الله كلها وصفاته على شيء : لم يقبل منه ، ولم يعتد بها حتى يقسم برأس سلطانه ، فإذا أقسم به فذلك عندهم جهد اليمين التي ليس وراءها حلف لحالف .

فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَنفَى السَّحَرَةَ

سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾

(١) قوله « باتباع السحرة » لعله : اتباع ، كعبارة النسق . (ع)

(٢) قوله « وقرى : نعم بالكسر » أى كسر الدين ، كما في الصحاح . (ع)

(٣) أخرجه النسائي من حديث أبي هريرة دون قوله « ولا تحلفوا إلا بالله » وقال « بالآنداد » بدل الطواغيت وله من حديث عبد الرحمن بن سمرة « لا تحلفوا بأبائكم ولا بالطواغيت » مختصر . وفي الصحيحين عن ابن عمر رفعه « من كان حالفا فلا يحلف إلا بالله » .

﴿ما يافكون﴾ ما يقبلونه عن وجهه وحقيقته بسحرم وكيدهم ، ويؤزرونه فيخيّلون في حبالهم وعصيم أنها حيات تسعى ، بالتقوية على الناظرين أو إفكهم : سمي تلك الأشياء إفكا مبالغة . روى أنهم قالوا : إن بك ما جاء به موسى سحراً فلن يغلب ، وإن كان من عند الله فلن يخفى علينا ، فلما قذف عصاه فتلقفت مأتوا به ، علموا أنه من الله فأمنوا . وعن عكرمة رضى الله عنه : أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء . وإنما عبر عن الحرور بالإلقاء ، لأنه ذكر مع الإلقاءات ، فسلك به طريق المشاكلة . وفيه أيضاً مع مراعاة المشاكلة أنهم حين رأوا مارأوا ، لم يتالكوا أن رموا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين ، كأنهم أخذوا فطرحوا طرحا . فإن قلت : فاعل الإلقاء ما هو لو صرح به ؟ قلت : هو الله عز وجل بما خولهم من التوفيق . أو إيمانهم . أو ما عاينوا من المعجزات الباهرة ، ولك أن لا تقدر فاعلا : لأنّ (ألقوا) بمعنى خزوا وسقطوا ﴿رب موسى وهرون﴾ عطف بيان لرب العالمين ، لأنّ فرعون لعنة الله عليه كان يدعى الربوبية ، فأرادوا أن يعزلوه . ومعنى إضافته إليهما في ذلك المقام : أنه الذى يدعو إليه هذان ، والذى أجرى على أيديهما ما أجرى .

قَالَ ءَأَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرٌ كُمْ الَّذِى عَلَّمَ السَّحَرَ
فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صَلْبَيْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾
﴿فلسوف تعلمون﴾ أى وبال ما فعلتم .

قَالُوا لَا صَبْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَقْطَعُ أَنْ يُغْفَرَ لَنَا رَبَّنَا
خَطْمِنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾

الضر والضرير والضرور : واحد ، أرادوا : لا ضرر علينا في ذلك ، بل لنا فيه أعظم النفع لما يحصل لنا في الصبر عليه لوجه الله ، من تكفير الخطايا والثواب العظيم ، مع الأعواض الكثيرة . أو لاضير علينا فيما نتوعدنا به من القتل أنه لا بد لنا من الانقلاب إلى ربنا بسبب من أسباب الموت . والقتل أهون أسبابه وأرجاها . أو لاضير علينا في قتلك ، إنك إن قتلتنا انقلبتنا إلى ربنا انقلاب من يطمع في مغفرته ويرجو رحمته ، لما رزقنا من السبق إلى الإيمان وخبر (لا) محذوف . والمعنى : لاضير في ذلك ، أو علينا ﴿أن كنا﴾ معناه : لأن كنا ، وكانوا أول جماعة مؤمنين من أهل زمانهم ، أو من رعية فرعون ، أو من أهل المشهد . وقرئ : إن كنا ، بالكسر وهو من الشرط الذى يحى به المدلل بأمره ^(١) ، المتحقق لصحته ، وهم كانوا متحققين أنهم أول

(١) قوله «المدلل بأمره» أى الواقع به . أفاده الصحاح . (ع)

المؤمنين . ونظيره قول العامل لمن يؤخر جعله : إن كنت عملت لك فوفى حق . ومنه قوله تعالى (إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيل وابتغاء مرضاتي) مع علمه أنهم لم يخرجوا إلا لذلك .
 وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾

قري : أسر ، بقطع الهمزة ووصلها . وسر (إنكم متبعون) علل الأمر بالإسراء باتباع فرعون وجنوده آثارهم . والمعنى : أتى بنيت تدبير أمركم وأمرهم على أن تتقدموا ويتبعوكم ، حتى يدخلوا مدخلكم ، ويسلكوا مسلككم من طريق البحر ، فأطبقه عليهم فأهلكهم . وروى : أنه مات في تلك الليلة في كل بيت من بيوتهم ولد ، فاشتغلوا بموتهم حتى خرج موسى بقومه . وروى : أن الله أوحى إلى موسى : أن اجمع بني إسرائيل ، كل أربعة آيات في بيت . ثم اذبحوا الجداء ^(١) واضربوا بدمائها على أبوابكم ، فإني سأمر الملائكة أن لا يدخلوا بيتاً على بابهم دم ، وسأمرهم بقتل أبكار القبط ، واخبزوا خبزاً فطيراً ^(٢) فإنه أسرع لكم ، ثم أسر بعبادي حتى تنتهي إلى البحر فيأتيك أمري ، فأرسل فرعون في أثره ألف وخمسمائة ألف ملك مسور ، مع كل ملك ألف ، وخرج فرعون في جمع عظيم ، وكانت مقدمته سبعمائة ألف : كل رجل على حصان وعلى رأسه ييضة . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : خرج فرعون في ألف ألف حصان سوى الإناث ، فلذلك استقل قوم موسى عليه السلام وكانوا ستائة ألف وسبعين ألفاً ، وسماههم شرذمة قليلين (إن هؤلاء) حكى بعد قول مضمر . والشرذمة : الطائفة القليلة . ومنها قولهم : ثوب شراذم ، للذي يلى وتقطع قطعاً ، ذكرهم بالاسم الدال على القلة . ثم جعلهم قليلاً بالوصف ، ثم جمع القليل فجعل كل حزب منهم قليلاً ، واختار جمع السلامة الذي هو للقلة ^(٣) ، وقد يجمع

(١) قوله « ثم اذبحوا الجداء » في الصحاح « الجدى » من ولد المعز . وثلاثة أجد . قلنا كثرت فهي الجداء . (ع)

(٢) قوله « واخبزوا خبزاً فطيراً » في الصحاح « الفطير » : خلاف الخبز ، وكل شيء أعجلته عن إدراكه فهو

فطير . (ع)

(٣) قال محمود : « وقلهم من أربعة أوجه : عبر عنهم بالشرذمة وهي تفيد القلة ، ثم وصفهم بالقلة ، وجمع وصفهم ليعلم أن كل حزب منهم قليل ، واختار جمع السلامة ليفيد القلة » قال أحمد : ووجه آخر في تقليلهم يكون خامساً : وهو أن جمع الصفة ، الموصوف منفرد ، قد يكون مبالغة في لصوق ذلك الوصف بالموصوف وتناهي فيه بالنسبة إلى غيره من الموصوفين به ، كقولهم : معاً زيد جبايع ، مبالغة في وصفه بالجوع ، فكذلك هنا جمع قليلاً ، وكان الأصل إفرادهم فيقال : لشرذمة قليلة ، كما أفرد في قوله (كم من فئة قليلة) ليدل بجمعه على تناهيهم في القلة ، لكن يبق النظر في أن هذا السريق الوجه المذكورة علي ما هي عليه ، أو يسقط منها شيئاً ويحذفه ، فتأمل والله الموفق .

القليل على أقله وقلل^(١). ويجوز أن يريد بالقلّة: الذلّة والقهامة، ولا يريد قلّة العدد. والمعنى: أنهم لقلتهم لا يبالى بهم ولا يتوقع غلبتهم وعلوهم، ولكنهم يفعلون أفعالا تغيظنا وتضيق صدورنا، ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم في الأمور، فإذا خرج علينا خارج، سارعنا إلى حسم فسادة؛ وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن، لثلا يظن به ما يكسر من قهره وسلطانه. وقرئ: حذرون وحاذرون وحاذرون^(٢)، بالذال غير المعجمة. فالحذر: اليقظ، والحاذر: الذي يجتهد حذره. وقيل: المؤدى في السلاح، وإنما يفعل ذلك حذرا واحتياطا لنفسه. والحاذر: السمين القوى. قال:

أَحِبُّ لِلصَّبِيِّ الشُّوْءَ مِنْ أَجْلِ أُمِّهِ وَأَنْفِضُهُ مِنْ بُغْضِهَا وَهُوَ حَادِرٌ^(٣)
 أراد أنهم أقوىاء أشداء. وقيل مدججون في السلاح، قد كسبهم ذلك حذارة في أجسامهم.

فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ^(٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ^(٥٨)
 كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ^(٥٩) فَأَتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ^(٦٠)

وعن مجاهد: سماها كنوزا لأنهم لم ينفقوا منها في طاعة الله. والمقام: المكان، يريد: المنازل الحسنة والمجاسد البهية. وعن الضحاك: المنابر. وقيل السر في المجال^(٦١) (كذلك) يحتمل ثلاثة أوجه: النصب على أخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذي وصفناه. والجر على أنه وصف لمقام، أى: مقام كريم مثل ذلك المقام الذى كان لهم. والرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أى: الأمر كذلك. (فأتبعوهم) فلحقوهم. وقرئ: فاتبعوهم (مشرقين) داخلين في وقت الشروق، من شرقت الشمس شروقا إذا طلعت.

فَلَمَّا تَرَأَ الْجُمُعَانَ قَالَ أُحِبُّ مُوسَى إِنَّا لَمُذْرَكُونَ^(٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ

(١) قوله «وقد يجمع القليل على أقله وقلل» في الصحاح: مثل سرير وسرر. (ع)

(٢) قوله «وقرى حذرون وحاذرون وحاذرون» في الصحاح: وقرئ: «وإنما جميع حاذرون. وحذرون. وحذرون، أيضا بضم الذال، حكاة الاختس». ومعنى «حاذرون» متأهون. وفيه: آد الرجل، أى قوى، من الأداة، فهو مؤد بالهمز، أى: شاك في السلاح. وفيه آديت للسفر فأنا مؤد له، إذا كنت متبئلا له. (ع)

(٣) الحاذر: القوى الصديد، أو الشجاع الباسل، أى: إن مدارح الولد على حب أمه، لأعلى حسن أو صافه وضير «أبيضه» عائد على الصبي بدون وصفه، لكن هذه شيمة المنهك في حب النساء.

(٤) قوله «وقيل السر في المجال» السر: الجماع، والمجال: جمع حجلة وهي بيت العروس يزين بالثياب والأسرة والستور، كذا في الصحاح. (ع)

مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ
فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثُمَّ الْآخِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنْجَيْنَا
مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ اغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

(سهيدين) طريق النجاة من إدراكهم وإضرارهم . وقرئ ، فلما تراءت الفئتان . إنا
لنذكر كون : بتشديد الدال وكسر الراء ، من ادرك الشيء إذا تابيع ففنى . ومنه قوله تعالى (بل
ادارك عليهم في الآخرة) قال الحسن : جهلوا علم الآخرة . وفي معناه بيت الحماسة :

أَبْعَدَ بَنِي أُمِّ الَّذِينَ تَتَابَعُوا أَرْجَى الْحَيَاةِ أَمْ مِنَ الْمَوْتِ أَجْزَعُ ^(١)

والمعنى : إنا لمتتابعون في الهلاك على أيديهم ، حتى لا يبق منا أحد . الفرق : الجزء المتفرق منه .
وقرئ : كل فلق . والمعنى واحد . والطود : الجبل العظيم ^(٢) المنطاد في السماء (وأزلفنا ثم)
حيث انفلق البحر (الآخرين) قوم فرعون ، أي : قربناهم من بني إسرائيل : أو أدنينا بعضهم
من بعض ، وجمعناهم حتى لا ينجو منهم أحد ، أو قدمناهم إلى البحر . وقرئ : وأزلفنا ، بالالف ،
أي : أزلفنا أقدامهم . والمعنى : أذهبنا عزهم ، كقوله :

تَدَارَكُنَا عَيْبًا وَقَدْ نُلْ عَرُشَهَا وَذُبْيَانٍ إِذْ زَلَّتْ بِأَقْدَامِهَا النَّعْلُ ^(٣)

(١) أبعد بنى أمى الذين تتابعوا أرجى حياة أم من الموت أجزع
ثمانية كانوا ذؤابة قومهم بهم كنت أعطى ماأشاء وأمنع
أولئك إخوان الصفاء رزتهم وما الكف إلا أصعب ثم أصعب

لأبى الخناك البراء رضى القمصى ، والمهزلة للاستفهام الإنكارى ، والمراد التحسر والتحزن ، وتتابعوا أى انقضوا
واحداً بعد واحد . أرحى : أى أرتجى حياة أم أجزع من الموت ، أى : لأفعل ذلك بعدم وقال : بنى أمى ،
لأن المقام مقام رقة ورحمة ، فهم ثمانية كانوا رؤساء قومهم ، كالذؤابة الرأس ، وهى شعرها الذى يتحرك حولها ،
فهو تشبيه بليغ ، ثم قال : كنت بهم أفعل ماأريد من الاعطاء والمنع . ويجوز بناء الفعلين للجھول ، فالمعنى : كنت
بهم أنال ماأشاء ، وأكنى شر ماأشاء ، ورزأته أصبته فى ماله . ورزأته ماله . ورزأتهم : مبنى للجھول . أى : نقصنى
الدمر إياهم وأخذهم منى ، فلا قوة لى بعدمهم ، كما أن الكف إذا فقدت أصابعها بطلت قوتها ؛ لأن بطشها ليس إلا
بالأصابع منتظمة مرتبة ، فهم لى كالأصابع للكف .

(٢) قوله « الطود الجبل العظيم المنطاد فى السماء » فى الصحاح « طود فى الجبال » : مثل طوف وطوح . والمطار
مثال المطاوح . (ع)

(٣) لوهير يمدح هرم بن سنان والحارث بن عوف . وعيس وذبيان كلاهما اسم قبيلة . يقول : تداركتهما تين =

ويحتمل أن يجعل الله طريقهم في البحر على خلاف ما جعله لبنى إسرائيل يديسا غيز لقهم فيه . عن عطاء بن السائب أن جبريل عليه السلام كان بين بني إسرائيل وبين آل فرعون ، فكان يقول لبنى إسرائيل : ليلحق آخركم بأولكم . ويستقبل القبط فيقول : رويدكم يلحق آخركم . فلما انتهى موسى إلى البحر قال له مؤمن آل فرعون - وكان بين يدي موسى : أين أمرت فهذا البحر أمامك وقد غشيك آل فرعون ؟ قال : أمرت بالبحر ولا يدرى موسى ما يصنع ، فأوحى الله تعالى إليه : أن اضرب بعصاك البحر ، فضربه فصار فيه اثنا عشر طريقا : لكل سبط طريق . وروى أن يوشع قال : يا كلم الله ، أين أمرت فقد غشيننا فرعون والبحر أمامنا ؟ قال موسى : ههنا . فغاض يوشع الماء وضرب موسى بعصاه البحر فدخلوا . وروى أن موسى قال عند ذلك : يا من كان قبل كل شيء ، والمكثون لكل شيء ، والكاثن بعد كل شيء . ويقال : هذا البحر هو بحر القلزم . وقيل : هو بحر من وراء مصر ، يقال له : أساف ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ آية ، وآية لا توصف ، وقد عاينها الناس وشاع أمرها فيهم ، وما تنبه عليها أكثرهم ، ولا آمن بالله . وبنو إسرائيل : الذين كانوا أصحاب موسى المخصوصين بالإنيحة قد سألوه بقرة يعبدونها ، واتخذوا العجل ، وطلبوا رؤية الله جهرة ﴿ وإن ربك لهو العزيز ﴾ المنتقم من أعدائه ﴿ الرحيم ﴾ بأوليائه .

وَأَنزَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾

قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَكِفِينَ ﴿٧١﴾

كان إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام ؛ ولكنه سألم ليربهم أن ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة في شيء ، كما تقول للتاجر : ما مالك ؟ وأنت تعلم أن ماله الرقيق ، ثم تقول له : الرقيق جمال وليس بمال . فإن قلت : ﴿ ما تعبدون ﴾ سؤال عن المعبود فحسب ، فكان القياس أن يقولوا : أصناما ، كقوله تعالى ﴿ ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ ، (ماذا قال ربكم قالوا الحق) ، (ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا) . قلت : هؤلاء قد جاءوا بقصة أمرهم كاملة كالمبتهجين بها والمفتخرين ، فاشتملت على جواب إبراهيم ، وعلى ما قصده من إظهار ما في نفوسهم من الابتهاج والافتخار . ألا تراهم كيف عطفوا على قولهم نعبد ﴿ فنظّل لها عاكفين ﴾ ولم يقتصروا على زيادة نعبد وحده . ومثاله أن تقول لبعض الشطار : ما تلبس في بلادك ؟ فيقول :

== القيلتين بالصلح بينهما ودفع ديات قتلاهم ، وقد ثل : أي هدم عرشها . وهذا تمثيل لذهاب عزم وفناء دولتهم . وزلت النعل بالقدم : زلقت عن مقرها ، وهذا أيضا تمثيل لاختلال أمرهم وفساد رأيهم . وفي البيت شبه الطباقي ، حيث أن الأول أتاها العذاب من فوق رؤسها ، والثانية : أتاها من تحت أرجلها

ألبس البرد الاتحى^(١)، فأجز ذيله بين جوارى الحى . وإنما قالوا : نضل ، لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل .

قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۖ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ ۖ (٧٣)

لا بد فى ﴿يسمعونكم﴾ من تقدير حذف المضاف ، معناه : هل يسمعون دعاءكم . وقرأ قتادة : يسمعونكم ، أى : هل يسمعونكم الجواب عن دعائكم ؟ وهل يقدرّون على ذلك ؟ وجه مضارعا مع إيقاعه فى إذ على حكاية الحال الماضية . ومعناه : استحضروا الأحوال الماضية التى كنتم تدعونها فيها ، وقولوا هل سمعوا أو أسمعوا قط . وهذا أبلغ فى التبكيت .

قَالُوا بَلَىٰ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۖ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۖ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ۖ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ۖ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۖ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۖ (٧٩) وَإِذَا مَرِئْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۖ (٨٠) وَالَّذِي يُخَيِّتُنِي ثُمَّ يُنْحِمِينِ ۖ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ۖ (٨٢)

لما أجابوه بجواب المقلدين لآبائهم قال لهم : رفقوا أمر تقليدكم هذا إلى أقصى غاياته وهى عبادة الأقدمين الأولين من آبائكم ، فإن التقدم والأولية لا يكون برهاناً على الصحة ، والباطل لا ينقلب حقاً بالقدم ، وما عبادة من عبد هذه الأصنام إلا عبادة أعداءه ، ومعنى العداوة قوله تعالى (كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً) ولأن المغرّى على عبادتها أعدى أعداء الإنسان وهو الشيطان ، وإنما قال ﴿عدو لي﴾ تصويراً للسألة فى نفسه ، على معنى : أنى فكرت فى أمرى فرأيت عبادتى لها عبادة للعدو ، فاجتنبتها وآثرت عبادة من الخير كله منه ، وأراهم بذلك أنها نصيحة نصح بها نفسه أولاً وبني عليها تدبير أمره ، لينظروا فيقولوا : ما نصحنّا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه ، وما أراد لنا إلا ما أراد لروحه ، ليكون أدعى لهم إلى القبول ، وأبعث على الاستماع منه . ولو قال : فإنه عدو لكم لم يكن بتلك المثابة ، ولأنه دخل فى باب من التعريض . وقد يبلغ التعريض للنصوح ما لا يبلغه التصريح ؛ لأنه يتأمل فيه ،

(١) قوله «البرد الاتحى» فى الصحاح «الاتحى» : ضرب من البرود . (ع)

فربما قاده التأمل إلى التقبل . ومنه ما يحكى عن الشافعى رضى الله تعالى عنه أن رجلا واجهه بشئ فقال : لو كنت بحيث أنت ، لاحتجت إلى أدب ، وسمع رجل ناسا يتحدثون فى الحجر فقال : ما هو بينى ولا بينكم . والعدو والصديق : يجيئان فى معنى الوحدة والجماعة . قال :

وَقَوْمٍ عَلَى ذَوَى مِثْرَةٍ أَرَأَيْتُمْ عَدُوًّا وَكَانُوا صَدِيقًا ^(١)

ومنه قوله تعالى (وهم لكم عدو) شها بالمصادر للوازنة ، كالقبول والولوع ، والحنين والصهيل (إلا رب العالمين) استثناء منقطع ، كأنه قال : ولكن رب العالمين (فهو يهدين) يريد أنه حين أتم خلقه ونفخ فيه الروح ، عقب ذلك هدايته المتصلة التى لا تنقطع إلى كل ما يصلحه ويعينه ، وإلا فمن هده إلى أن يغتذى بالدم فى البطن امتصاصا ، ومن هده إلى معرفة الثدي عند الولادة ، وإلى معرفة مكانه ، ومن هده لكيفية الارتضاع ، إلى غير ذلك من هدايات المعاش والمعاد ، وإنما قال (مرضت) دون (أمرضنى) لأن كثيرا من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان فى مطاعمه ومشاربه ^(٢) وغير ذلك . ومن ثم قالت الحكماء : لو قيل لاكثر الموتى : ما سبب آجالكم ؟ لقالوا : التخم . وقرئ : خطاياى ، والمراد : ما يندر منه من بعض الصغائر ؛ لأن الأنبياء معصومون يختارون على العالمين . وقيل : هى قوله (إني سقيم) وقوله (بل فعله كبيرهم) وقوله لسارة : هى أختى . وما هى إلا معاريف كلام ، وتخييلات للكفرة ، وليست بخطايا يطلب لها الاستغفار . فإن قلت : إذا لم يندر منهم إلا الصغائر وهى

(١) المرة : القوة ، وشدة الجدل . ويرى : ذوى مبرة ، أى : عداوة أو غر أو شدة . والعدو والصديق يجيئان للذكر والمؤنث والمتن والجوع . يقول : ورب قوم أصحاب قوة على ، أراهم اليوم أعداء وكانوا أصدقاء .

(٢) قال محمود : « إنما أضاف المرض إلى نفسه لأن كثيرا منه بتفريط الانسان فى مطعمه ومشربه » قال أحد : والذي ذكره غير الزعشرى أن المر فى إضافة المرض إلى نفسه التأدب مع الله تعالى بتخصيصه بنسبة العفاء الذى هو نعمة ظاهرة إليه تعالى ، ولعل الزعشرى إنما عدل عن هذا لأن إبراهيم عليه السلام قد أضاف الأمانة إلى الله تعالى وهى أشد من المرض ، فلم يثبت عنده المعنى المذكور ، ولكن المعنى الذى أبداه الزعشرى أيضا فى المرض ينكسر بالموت ، فإن المرض كما يكون بسبب تفريط الانسان فى نفسه ، كذلك الموت الناشئ عن سبب هذا المرض الذى يكون بتفريط الانسان وقد أضافه إلى الله تعالى . ويمكن أن يفرق بين نسبة الموت ونسبة المرض فى مقتضى الأدب : بأن الموت قد علم واشتهر أنه قضاء محتوم من الله تعالى على سائر البشر ، وحكم عام لا يخص ، ولا كذلك المرض . فكم من معاف منه قد بته الموت ، فالتأبى بعموم الموت لعله يسقط أثر كونه بلاء فيسوغ فى الأدب نسبته إلى الله تعالى . وأما المرض فلما كان مما يخص به بعض البشر دون بعض ، كان بلاء محققا فاقضى البلاء فى الأدب مع الله تعالى أن ينسب الانسان إلى نفسه باعتبار ذلك السبب الذى لا يخلو منه ، ويؤيد ذلك أن كل ما ذكره مع المرض أخير عن وقوعه بتأ وجزا ؛ لأنه أمر لا بد منه . وأما المرض فلما كان قد يتفق وقد لا ، أوردهمقرونا بشرط إذا ، فقال (وإذا مرضت) وكان ممكنا أن يقول : والذي يمرضنى فيشغبنى كما قال فى غيره ، فما عدل عن المطابقة المجانسة المأثورة إلا لذلك ، والله أعلم .

تقع مكفرة ، فإله أثبت لنفسه خطيئة أو خطايا وطمع أن تغفر له ؟ قلت : الجواب ما سبق لي : أن استغفار الأنبياء تواضع منهم لربهم ، وهضم لأنفسهم ، ويدل عليه قوله (أطمع) ولم يحزم القول بالمغفرة . وفيه تعليم لأمتهم ، وليكون لطفاً لهم في اجتناب المعاصي والحذر منها ، وطلب المغفرة مما يفرط منهم . فإن قلت : لم علق مغفرة الخطيئة بيوم الدين ، وإنما تغفر في الدنيا ؟ قلت : لأن أثرها يتبين يومئذ ، وهو الآن خفي لا يعلم .

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْخِصْ لِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَغْفِرْ لِأَيِّ إِهْمَةٍ كَانَتْ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

الحكم : الحكمة ، أو الحكم بين الناس بالحق . وقيل : النبوة : لأن النبي ذو حكمة وذو حكم بين عباد الله . والإلحاق بالصالحين : أن يوفقه لعمل ينتظم به في جملتهم ، أو يجمع بينه وبينهم في الجنة . ولقد أجابته حيث قال (وإنه في الآخرة لمن الصالحين) . والإخزاء : من الخزي وهو الهوان . ومن الخزاية ^(١) وهي الحياء . وهذا أيضاً من نحو استغفارهم بما علموا أنه مغفور وفي (يبعثون) ضمير العباد ، لأنه معلوم . أو ضمير الضالين . وأن يجعل من جملة الاستغفار لآييه ^(٢) ، يعني : ولا تخزني يوم يبعث الضالون وأبي فيهم (إلا من أتى الله) إلا حال من أتى الله (بقلب سليم) وهو من قولهم :

نَحِيئُهُ يَفْنِيهِمْ صَرْبٌ وَجَمِيعٌ * ^(٣)

وما ثوابه إلا السيف . وبيانه أن يقال لك : هل لزيد مال وبنون ؟ فنقول : ماله وبنوه : سلامة قلبه ، تريد نفي المال والبنين عنه ، وإثبات سلامة القلب له بدلاً عن ذلك . وإن شئت حملت الكلام على المعنى وجعلت المال والبنين في معنى الغنى ، كأنه قيل : يوم لا ينفع غنى إلا غنى من أتى الله بقلب سليم ؛ لأن غنى الرجل في دينه بسلامة قلبه ، كما أن غناه في دنياه بماله وبنيه .

(١) قوله « ومن الخزاية » لعله : أو من . (ع)

(٢) قوله « أو ضمير الضالين » ، وأن يجعل من جملة الاستغفار لآييه « لعله عطف على المعنى ، كأنه قال : ويحتمل

أنه ضمير الضالين ... الخ . (ع)

(٣) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٦٠ فراجع إن شئت اه مصححه .

ولك أن تجعل الاستثناء منقطعا ، ولا بد لك مع ذلك من تقدير المضاف وهو الحال ، والمراد بها سلامة القلب ، وليست هي من جنس المال والبنين ، حتى يؤول المعنى إلى أن المال والبنين لا ينفعان ، وإنما ينفع سلامة القلب . ولو لم يقدر المضاف ، لم يتحصل للاستثناء معنى . وقد جعل (من) مفعولا لينفع ، أى : لا ينفع مال ولا بنون ، إلا رجلا سلم قلبه مع ماله حيث أنفق في طاعة الله ، ومع بنيه حيث أرشدهم إلى الدين وعلهم الشرائع . ويجوز على هذا (إلا من أقر الله بقلب سليم) من فئة المال والبنين . ومعنى سلامة القلب : سلامته من آفات الكفر والمعاصي ، وما أكرم الله تعالى به خليله ونبه على جلالة محله في الإخلاص : أن حكى استثناءه هذا حكاية راض بإصابته فيه . ثم جعله صفة له في قوله (وإن من شيعته لإبراهيم ، إذ جاء ربه بقلب سليم) ومن بدع التفاسير : تفسير بعضهم السليم بالديع من خشية الله . وقول آخر : هو الذى سلم وسلم وأسلم وسلم واستسلم . وما أحسن ما رتب إبراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين ، حين سألهم أولا عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهم ، ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع على تقليدهم آباءهم الأقدمين ، فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة فضلا أن يكون حجة . ثم صور المسألة في نفسه دونهم حتى تخلص منها إلى ذكر الله عز و علا ، فعظم شأنه وعدد نعمته ، من لدن خلقه وإنشائه إلى حين وفاته ، مع ما يرجى في الآخرة من رحمته ، ثم أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين ، وابتهل إليه ابتهال الأتوايين . ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتنى الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا .

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ٩٠ وَبُرُزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ٩١ وَقِيلَ لَهُمْ آيَنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ٩٢ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ٩٣ فَكُفِّبُوا فِيهَا ثُمَّ وَالْغَاوُونَ ٩٤ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ٩٥

الجنة تكون قرية من موقف السعداء ينظرون إليها ويغبتون بأنهم المحشورون إليها ، والنار تكون بارزة مكشوفة للأشقياء يبرأى منهم ، يتحسرون على أنهم المسوقون إليها : قال الله تعالى (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد) وقال (فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا) : يجمع عليهم الغموم كلها والحسرات ، فتجعل النار يبرأى منهم ، فيهلكون غمافي كل لحظة ،

ويؤخون على إشرأكلهم ، فقال لهم : أين آلهتكم ؟ هل ينفعونكم بنصرتهم لكم . أو هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم : لأنهم وآلهتهم وقود النار ، وهو قوله ﴿ فكبكبوا فيها هم ﴾ أى الآلهة ﴿ والناوون ﴾ وعبدتهم الذين برزت لهم الجحيم . والككبكة : تكرير الكب ، جعل التكرير فى اللفظ دليلا على التكرير فى المعنى ، كأنه إذا ألقى فى جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر فى قعرها ، اللهم أجرنا منها يا خير مستجار ﴿ وجنود إبليس ﴾ شياطينه ، أو متبعوه من عصاة الجن والإنس .

قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّبُكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَصْلَانَا إِلَّا الْغُجْرُمُوتَ ﴿٩٩﴾ قَالَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْءٍ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

يجوز أن ينطق الله الاصنام حتى يصح التناول والتخاصم . ويجوز أن يجرى ذلك بين العصاة والشياطين . والمراد بالمجرمين الذين أضلهم : رؤساؤهم وكبراؤهم ، كقوله (ربنا إنا أظعننا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) وعن السدى : الأولون الذين اقتدينا بهم . وعن ابن جرير : إبليس ، وابن آدم القاتل ، لأنه أول من سن القتل وأنواع المعاصي ، ﴿ فالتنا من شافعين ﴾ كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبين ﴿ ولا صديق ﴾ كما نرى لهم أصدقاء ، لأنه لا يتصادق فى الآخرة إلا المؤمنون . وأما أهل النار فينبه التعادى والتباغض ، قال الله تعالى (الاخلأ يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) أو : فالتنا من شافعين ولا صديق حميم من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء ، لأنهم كانوا يعتقدون فى أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله ، وكان لهم الأصدقاء من شياطين الإنس . أو أرادوا أنهم وقعوا فى مهلكة علوا أن الشفعاء والأصدقاء لا ينفعونهم ولا يدفعون عنهم ، فقصدوا بنفيعهم نفي ما يتعلق بهم من النفع : لأن ما لا ينفع : حكمه حكم المعدم . والحميم من الاحتمام ، وهو الاهتمام ، وهو الذى يهيم ما يهيمك . أو من الحامة بمعنى الخاصة ، وهو الصديق الخاص . فإن قلت : لم جمع الشافع ووجد الصديق ؟ قلت : لكثرة الشفعاء فى العادة وقلة الصديق ^(١) . ألا ترى أن الرجل إذا امتحن بإرهاق ظالم نهضت جماعة وافرة من أهل بلده

(١) قال محمود : « إنما جمع الشافع ووجد الصديق لكثرة الشفعاء فى العادة إذا نزل بإنسان خطب من يعرفه ومن لا يعرفه وأما الصديق قليل » قال أحمد : المعجب أن الصديق يقع على الواحد وعلى الجمع ، فإلى الدليل على إرادة الافراد ؟ ثم لو كان المراد الافراد لكان أهم ؛ لأنه فى سياق النفي ، فينبى الواحد فإلى زاد عليه إلى مالا نهاية له ، والله أعلم

لشفاعته ، رحمة له وحسبة ، وإن لم يسبق له بأكثرهم معرفة . وأما الصديق - وهو الصادق في وداذك الذي يهيمه ما أهلك - فأعز من بيض الأنوق ^(١) . وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق فقال : اسم لا معنى له . ويجوز أن يريد بالصديق : الجمع . الكثرة : الرجعة إلى الدنيا . ولو في مثل هذا الموضع في معنى التقي ، كأنه قيل : فليت لناكرة . وذلك لما بين معنى « لو » ، و « ليت » ، من التلاقي في التقدير . ويجوز أن تكون على أصلها ويحذف الجواب ، وهو : لفعلنا كيت وكيت .

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ۖ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦)
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاقْنُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ
أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاقْنُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١١٠)

القوم : مؤنثة ، وتصغيرها قويمه . ونظير قوله (المرسلين) والمراد نوح عليه السلام : قولك : فلان يركب الدواب ويلبس البرود ، وماله إلا دابة وبرد ^(٢) . قيل : أخوهم ؛ لأنه كان منهم ، من قول العرب : يا أخا بني تميم ، يريدون : يا واحدا منهم . ومنه بيت الحماسة :

لَا يَسْأَلُونَ أَحَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانًا ^(٣)
كان أمينا فيهم مشهورا بالأمانة ، كمحمد صلى الله عليه وسلم في قريش (وأطيعون) في نصحي

(١) قوله « فأعز من بيض الأنوق » في الصحاح : الأنوق - على فاعول - : طائر وهو الرخمة . (ع)
(٢) قال محمود : « المراد نوح ، كما تقول : فلان يركب الدواب ويلبس البرود ، وماله إلا دابة وبرد » قال أحد : لا حاجة إلى تأويل الجمع بالواحد هنا مع القطع بأن من كذب رسولا واحدا فقد كذب جميع الرسل لأنه ما من نبي إلا ومستند صدقه المعجزة الدالة على الصدق فقد كذبوا كل من استند صدقه إلى دليل المعجزة ، وكذلك الإشارة بقوله تعالى (لا نفرق بين أحد من رسله) لأن التفرقة بينهم توجب تكذيب الكل وتصديق واحد يوجب تصديق الكل والله أعلم .

(٣) قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أحاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا
لقريط بن أنبق من قبيلة بلعبر ، أغار عليه ناس من بني شيان فأخذوا منه ثلاثين بعيرا ، فاستجد قومه فلم ينجده ، فاستغاث بني مازن فركبوا معه وأطردوا له مائة بعير من بني شيان ، وحرسوه إلى قومه ، فذهبهم ووخ قومه . والناجد : السن بين الضرس والناجب . وقيل : ضرس العقل . وقيل : الضرس مطلقا . والزرافة - بالفتح والغيم - : الجماعة من الناس ، وبها سميت الدابة المعروفة . والوحدان - بالضم - : جمع واحد . وشبه الشر بأسد يكثر عن أتياه على طريق المكتبة فأثبت له الناجذين تخيلا . يقول : بنو مازن شيعان : إذا ظهر الشر واشتد فرعوا إليه جماعات ومنفردين ، فاستعار الطيران لذلك على طريق التصريحية . أو شبههم بالطيور في السرعة والانتشار على طريق الكناية والطريق تخييل ، لا يسألون صاحبهم دليلا على ما قاله حين يناديهم برفع صوته في الملمات .

لكم وفيما أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ (عليه) على هذا الامر، وعلى ما أنا فيه، يعنى: دعاءه ونصحه ومعنى (فاتقوا الله وأطيعوا) : فاتقوا الله فى طاعته، وكرره ليؤكد عليهم ويقرّره فى نفوسهم، مع تعليق كل واحدة منهما بعلّة، جعل علّة الأول كونه أمينا فيما بينهم، وفى الثانى حسم طمعه عنهم.

قَالُوا أَنْتُمْ مِثْلُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١)

وقرئ: وأتباعك، جمع تابع، كشاهد وأشهد. أو جمع تبع، كبطل وأبطال. والواو للحال. وحقها أن يضمر بعدها قد، فى: وأتبعك. وقد جمع الأردل على الصحة وعلى التكسير فى قوله (الذين هم أَرَادَلْنَا) والرذالة والنذالة: الخسة والدناءة. وإنما استرذلوهم لا تضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا. وقيل كانوا من أهل الصناعات الدنية (١) كالحياكة والحجامة. والصناعة لا ترى بالديانة، وهكذا كانت قريش تقول فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما زالت أتباع الأنبياء كذلك، حتى صارت من سماتهم وأماراتهم. ألا ترى إلى هرقل حين سأل أبا سفيان عن أتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قال: ضعفاء الناس وأرادلهم قال: ما زالت أتباع الأنبياء كذلك (٢). وعن ابن عباس رضى الله عنهما: هم الغافة (٣). وعن عكرمة: الحاكة والأساكفة. وعن مقاتل: السفلة.

قَالَ وَمَا عَلِمُوا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) ابْنُ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي

لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥)

(وما علموا) أى شئ. على؟ والمراد: انتفاء علمه بإخلاص أعمالهم لله وإطلاعه على سر أمرهم وباطنه. وإنما قال هذا لأنهم قد طعنوا - مع استرذلهم - فى إيمانهم، وأنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة، وإنما آمنوا هوى وبديهة، كما حكى الله عنهم فى قوله (الذين هم أَرَادَلْنَا بَادِي الرأى) ويجوز أن يتغابى لهم نوح عليه السلام. فيفسر قولهم الأردلين، بما هو الرذالة عنده، من سوء الأعمال وفساد العقائد، ولا يلتفت إلى ما هو الرذالة عندهم، ثم بنى جوابه على ذلك فيقول: ما على إلا اعتبار الظواهر، دون التفتيش عن أسرارهم والشق عن قلوبهم، وإن كان لهم عمل سيئ، فإله يحاسبهم ومجازيهم عليه، وما أنا إلا منذر لا محاسب ولا مجازي (لوتشعرون) ذلك، ولكنكم تجهلون فتساقون مع الجهل حيث سيركم، وقصد بذلك رد اعتقادهم وإنكار

(١) قوله «الصناعات الدنية» لعله: الدنيّة. كعبارة النسب. (ع)

(٢) متفق عليه من حديث ابن عباس عن أبي سفيان بلفظ: «وأسألتك ضعفاء الناس اتبعوه أم أشرافهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم وكذلك أتباع الرسل». قلت: رواه بلفظ «أرادلهم».

(٣) قوله «هم الغافة» لعله الصاغة. وفى الخازن: قال ابن عباس: يعنى الغافة. (ع)

أن يسمى المؤمن رذلا ، وإن كان أفقر الناس وأوضعهم نسبا ، فإن الغنى غنى الدين ، والنسب نسب التقوى (وما أنا بطارد المؤمنين) يريد ليس من شأنى أن أتبع شهواتكم وأطيب نفوسكم بطرد المؤمنين الذين صح إيمانهم طمعا فى إيمانكم وما على إلا أن أنذركم إنذارا بينا بالبرهان الصحيح الذى يتميز به الحق من الباطل ، ثم أنتم أعلم بشأنكم .

قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ۝١١٦ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذِبُونَ ۝١١٧ فَافْتَحْ يَنِي وَيَبْنَهُمْ فَتَمَحَا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١١٨ فَأُنَجِّنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۝١١٩ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ۝١٢٠ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝١٢١ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِزٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٢

ليس هذا بإخبار بالتكذيب ، لعله أن عالم الغيب والشهادة أعلم ، ولكنه أراد أنى لا أدعوك عليهم لما غاظوني وآذوني ، وإنما أدعوك لاجلك ولأجل دينك ، ولأنهم كذبوني فى وحيك ورسالتك ، فاحكم (بيني وبينهم) والفتاحة : الحكومة . والفتاح : الحاكم ، لأنه يفتح المستغلق كما سمي فيصلا ، لأنه يفصل بين الخصومات . الفلك : السفينة . وجمعه فلك : قال الله تعالى : وترى الفلك فيه مواخر : فالواحد بوزن قفل . والجمع بوزن أسد ، كسروا فعلا على فعل ، كما كسروا فعلا على فعل ، لأنهما أخوان فى قولك : العرب والعرب ، والرشد والرشد ، فقالوا : أسد وأسد ، وفلك وفلك . ونظيره : بعير هجان ، ولبل هجان . ودروع دلاص . ودروع دلاص ، فالواحد بوزن كناز ، والجمع بوزن كرام . والمشحون : المملوء . يقال : شحها عليهم خيلا ورجالا .

كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ۝١٢٣ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤ إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٢٥ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝١٢٦ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٢٧ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ مَائَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ

جَبَّارِينَ ۝١٣٠ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝١٣١

قرئ : بكل ريع ، بالكسر والفتح : وهو المكان المرتفع . قال المسيب بن علس :

فِي الْآلِ يَرْفَعُهَا وَيَخْفِضُهَا رِيحٌ يُلُوحُ كَأَنَّهُ سَحْلٌ^(١)

ومنه قولهم : كم ريع أرضك ؟ وهو ارتفاعها . والآية : العلم وكانوا ممن يهتدون بالنجوم في أسفارهم . فاتخذوا في طرقهم أعلاما طولا فعبثوا بذلك ، لأنهم كانوا مستغنيين عنها بالنجوم . وعن مجاهد : بنوا بكل ريع بروج الحمام^(٢) . والمصانع : مأخذ الماء . وقيل : القصور المشيدة والحصون ﴿ لعلكم تخلصون ﴾ ترجون الخلود في الدنيا . أو تشبه حالكم حال من يخلد . وفي حرف أتي : كأنكم . وقرئ تخلصون بضم التاء مخففا ومشددا ﴿ وإذا بطشتم ﴾ بسوط أو سيف كان ذلك ظلما وعلوا ، وقيل : الجبار الذي يقتل ويضرب على الغضب . وعن الحسن : تبادرون تعجيل العذاب ، لا تثبتون متفكرين في العواقب .

وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ^(١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِإِنْعَامٍ وَبَيْنَ^(١٣٣)

وَجَنَاتٍ وَعُجُومٍ^(١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ^(١٣٥)

بالغ في تنبيههم على نعم الله ، حيث أجماعها ثم فصلها مستشهدا بعلمهم ، وذلك أنه أيقظهم عن سنة غفلتهم عنها حين قال^(٣) ﴿ أمدكم بما تعلمون ﴾ ثم عذدها عليهم وعزفهم المنعم بتعديد ما يعلمون من نعمته ، وأنه كما قدر أن يتفضل عليكم بهذه النعمة ، فهو قادر على الثواب والعقاب ، فاتقوه . ونحوه قوله تعالى ﴿ ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد ﴾ . فإن قلت : كيف قرن البنين بالإنعام ؟ قلت : هم الذين يعينونهم على حفظها والقيام عليها .

قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَزَّتْ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ^(١٣٦) إِنَّ هَذَا إِلَّا

(١) للسبب بن علس . والآل : هو السراب . وقيل : الآل : ما في طرفي النهار وما في وسطه السراب . والريع بالكسر : الطريق والمرتفع من الأرض . والسحل : نوع أبيض من ثياب linen ، ولعل الضمير للظلمة ، أي : هي في الآل . أو في وقته : برقمها تارة وتخفها أخرى ، ريع : أي طريق مرتفع تارة ، ومنخفض أخرى . أو مكان عال ترتفع بصعوده وتنخفض بالمبوط منه ، يلوح : أي يظهر من بعد ، كأنه ثياب بيض .

(٢) قال محمود : « كانوا يهتدون في أسفارهم بالنجوم ، فاتخذوا في طرقهم أعلاما فعبثوا بذلك ، إذ النجوم فيها غنية عنها . وقيل : المراد القصور المشيدة ، وقيل : بروج الحمام » قال أحمد : وتأويلها على القصور أظهر ، وقد ورد ذم ذلك على لسان نبينا صلى الله عليه وسلم ، حيث وصف الكاثنين آخر الزمان بأنهم يتطاولون في البنيان ، وما أحسن قول مالك رضي الله عنه : ولا يصلي الإمام على شيء أرفع مما عليه أعباءه ، كالدكاك تكون مرتفعة في المحراب ارتفاعا كبيرا ، لأنهم يعبثون ، فعبث عن ترفهم إلى المحراب على سبيل التكبر ومطاولتهم المأمومين بالعبث ، كعبير هود صلوات الله عليه وسلامه عن ترفع قومه في البنيان بالعبث . وأما تأويل الآية على اتخاذهم الأعلام في الطرقات وقد كانت لهم بالنجوم كفاية ، ففيه بعد ، من حيث أن الحاجة تدعو إلى ذلك لنهم مطبق وما يجري مجراه . ولو وضع هذا في زماننا اليوم لهذا المقصد لم يكن عبثا ، والله أعلم .

(٣) قوله « حين قال » لعله : حيث قال . (ع)

خَلَقُ الْأَوَّلِينَ ۝ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ۝ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ (١٤٠)

فإن قلت: لو قيل ﴿أوعظت﴾ أولم تعظ، كان أخصر. والمعنى واحد. قلت: ليس
المعنى بواحد وبينهما فرق، لأن المراد: سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ، أم لم
تكن أصلا من أهله ومباشره، فهو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه، من قولك: أم لم تعظ. من
قرأ: خلق الأولين بالفتح، فعناه: أن ما جئت به اختلاق الأولين وتخترصهم، كما قالوا:
أساطير الأولين. أو ما خلقنا هذا إلا خلق القرون الخالية، نحيا كما حيوا، ونموت كما ماتوا،
ولا بعث ولا حساب. ومن قرأ: خلق، بضميتين، وبواحدة، فعناه: ما هذا الذي نحن عليه
من الدين إلا خلق الأولين وعادتهم، كانوا يدينونه ويعتقدونه، ونحن بهم مقتدون. أو ما هذا
الذي نحن عليه من الحياة والموت الإعادة لم يزل عليها الناس في قديم الدهر أو ما هذا الذي
جئت به من الكذب إلا عادة الأولين، كانوا يلقون مثله ويسطرونه.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ۝ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ (١٤٢)
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ
أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ (١٤٥) أَتَنْتَرُونَ فِي مَا هُمْنَا عَامِنِينَ ۝ (١٤٦)
فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضْبٌ ۝ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ
بُيُوتًا قَرِيرِينَ ۝ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ ۝ (١٥١)
الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝ (١٥٢)

﴿أتركون﴾ يجوز أن يكون إنكاراً لأن يتركوا مخلصين في نعيمهم لا يزالون عنه، وأن
يكون تذكيراً بالنعمة في تخليته الله إياهم وما يتمتعون فيه من الجنات وغير ذلك، مع الأمن
والدعة ﴿فيما ههنا﴾ في الذي استقر في هذا المكان من النعم، ثم فسره بقوله ﴿في جنات
وعيون﴾ وهذا أيضاً إجمال ثم تفصيل. فإن قلت: لم قال ﴿ونخل﴾ بعد قوله: في جنات،
والجنة تتناول النخل أول شيء كما يتناول النعم الإبل كذلك من بين الأزواج، حتى أنهم
ليذكرون الجنة ولا يقصدون إلا النخل؛ كما يذكرون النعم ولا يريدون إلا الإبل. قال زهير:

* تَسْقِي جَنَّةً سَحَقًا * (١)

قلت : فيه وجهان : أن يخص النخل بإفراده بعد دخوله في جملة سائر الشجر ؛ تنبيها على انفراده عنها بفضله عليها ، وأن يريد بالجنات : غيرها من الشجر ؛ لأن اللفظ يصلح لذلك ، ثم يعطف عليها النخل . الطلعة : هي التي تطلع من النخلة . كنصل السيف في جوفه شماريخ القنؤ . والقنؤ : اسم للخارج من الجذع كما هو بمرجونه وشماريخه . والحضيم : اللطيف الضامر . من قولهم : كشح حضيم ، وطلع إناث النخل فيه لطف ، وفي طلع الفحاحيل جفاء ، وكذلك طلع البرني أُلطف من طلع اللون (٢) . قد كرم نعمة الله في أن وهب لهم أجود النخل وأنفعه ؛ لأن الإناث ولادة التمر ، والبرني : أجود التمر وأطيبه ويجوز أن يريد أن نخيلهم أصابت جودة المُنات وسعة الماء . وسلت من العاهات ، فحملت الحمل الكثير ، وإذا كثر الحمل هضم ، وإذا قل جله فاخرا . وقيل : الحضيم : اللين النصيع ، كأنه قال : ونخل قد أرطب ثمره . قرأ الحسن : وتحتون ، بفتح الحاء . وقرئ : فرهين ، وفارهين . والفراهة : الكيس والنشاط . ومنه : خيل فرهة ، استعير لامتنال الأمر ، وارتسامه طاعة الأمر المطاع . أو جعل الأمر مطاعا على المجاز الحكيم ، والمراد الأمر . ومنه قولهم : لك على إمرة مطاعة . وقوله تعالى (وأطيعوا أمرى) . فإن قلت : ما فائدة قوله (ولا يصلحون) ؟ قلت : فائدته أن فسادهم فساد مصمت ليس معه شيء من الصلاح ، كما تكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح .

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ

إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤)

المسحر : الذي سحر كثيراً حتى غلب على عقله . وقيل : هو من السحر الرثة ، (٣) وأنه بشر .

قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ

فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦)

الشرب :- النصيب من الماء ، نحو السقي والقيت ، للحظ من السقي والقوت . وقرئ بالضم . روى أنهم قالوا : نريد ناقة عسراء تخرج من هذه الصخرة ، فتلد سقبا (٤) ، ففقد صالح يتفكر ،

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ١٠٥ فراجع إن شئت اه مصححه .

(٢) قوله « وكذلك طلع البرني أُلطف من طلع اللون » البرني : ضرب من التمر . واللون : الدقل ، والدقل :

أردا التمر ، كذا في الصحاح . (ع)

(٣) قوله « الرثة » لعله : بمعنى الرثة . (ع)

(٤) قوله « فتلد سقبا » في الصحاح « الحقب » : الذكر من ولد الناقة . (ع)

فقال له جبريل عليه السلام : صل ركعتين وسل ربك الناقة ، ففعل ، فخرجت الناقة وبركت بين أيديهم ونتجت سقبا مثلها في العظم . وعن أبي موسى : رأيت مصدرها فإذا هو ستون ذراعا . وعن قتادة : إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله ، ولهم شرب يوم لا تشرب فيه الماء (بسوء) بضرب أو عقر أو غير ذلك . عظم اليوم لحلول العذاب فيه ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب ، لأن الوقت إذا عظم بسببه كان موقعه من العظم أشد .

فَمَقَرُّوْهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِيْنَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِيْنَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيْزُ الرَّحِيْمُ ﴿١٥٩﴾

وروى أن مسطعا ألجأها إلى مضيق في شعب ، فرماها بهم فأصاب رجلها فسقطت : ثم ضربها قدار . وروى أن عاقرها قال : لا أعقرها حتى ترضوا أجمعين ، فكانوا يدخلون على المرأة في خدرها فيقولون : أترضين ؟ فتقول : نعم ، وكذلك صيائهم . فإن قلت : لم أخذهم العذاب وقد ندموا ؟ قلت : لم يكن ندمهم ندم تائبين . ولكن ندم خائفين أن يعاقبوا على العقر عقابا عاجلا ، كمن يرى في بعض الأمور رأيا فاسداً ويبني عليه ، ثم يندم ويتحسر كندامة الكسبي^(١) أو ندموا ندم تائبين ولكن في غير وقت التوبة ، وذلك عند معاينة العذاب . وقال الله تعالى ﴿ولست التوبة للذين يعملون السيئات ... الآية﴾ . وقيل : كانت ندامتهم على ترك الولد ، وهو بعيد . واللام في العذاب : إشارة إلى عذاب يوم عظيم .

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِيْنَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُوْنَ ﴿١٦١﴾ إِنَّ لَكُمْ رَسُولًا أَمِيْنَ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوْا ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِيْنَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُوْنَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِيْنَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُوْنَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُوْنَ ﴿١٦٦﴾

أراد بالعالمين : الناس . أى : أتأتون من بين أولاد آدم عليه السلام - على فرط كثرتهم وتفاوت أجناسهم وغلبة إناثهم على ذكورهم في الكثرة - ذكرائهم ؛ كأن الإناث قد أعوزتكم .

(١) قوله وكندامة الكسبي : الكسع : حي من البين . والكسبي : رجل منهم ربي تبة حتى أخذ منها قوسا فرمى عنها الوحش ليلا وظن أنه أخطأ ، فكسر القوس . فلما أصبح رأى ما أصابه من الصيد فندم ، وضرب به المثل من قال : ندمت ندامة الكسبي لما رأت عيناه ما صنعت يداه

أو أتأتون أتم - من بين من عداكم من العالمين - الذكران ، يعنى أنكم يا قوم لوط وحدهم يختصون بهذه الفاحشة . والعالمون على هذا القول : كل ما ينسج من الحيوان (من أزواجكم) يصلح أن يكون تبييناً لما خلق^(١) ، وأن يكون للتبويض ، ويراد بما خلق : العضو المباح منهم . وفي قراءة ابن مسعود : ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم ، وكأنهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم . العادى : المتعدى في ظله ، المتجاوز فيه الحد ، ومعناه : أن تركبون هذه المعصية على عظمها ، بل أنتم قوم عادون في جميع المعاصي ، فهذا من جملة ذاك ، أو بل أنتم قوم أحقاء بأن توصفوا بالعدوان ، حيث ارتكبتم مثل هذه العظيمة .

قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾

(لئن لم تنته) عن نهينا وتقبيح أمرنا (لتكونن) من جملة من أخرجناه من بين أظهرنا وطردهناه من بلدنا ، ولعلمهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوأ حال : من تعنيف به ، واحتباس لأملاكه^(٢) . وكما يكون حال الظلمة إذا أجلوا بعض من يفضبون عليه ، وكما كان يفعل أهل مكة بمن يريد المهاجرة .

(١) قال محمود : د يحتمل أن يكون من أزواجكم بياناً لما خلق ، وأن يكون للتبويض ويراد به العضو المباح منهم . وفي قراءة ابن مسعود : ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم ، فكأنهم كانوا يفعلون ذلك بنسائهم ، قال أحمد : وقد أشار الزمخشري بهذه الإشارة الاستدلال بهذه الآية على حظر إتيان المرأة في غير المأثى ، ويأنه أن «من» لو كانت بياناً لكان المعنى حيثخذ على ذمهم بترك الأزواج ، ولا شك أن ترك الأزواج مضموم إلى إتيان الذكران ، وحيثخذ يكون المنكر عليهم الجمع بين ترك الأزواج وإتيان الذكران ، لا أن ترك الأزواج وحده منكر ، ولو كان الأمر كذلك لكان النصب في الثاني متوجهاً على الجمع ، وكان إما الانصاح أو المنع ، وقد اجتمعت العامة على القراءة به مرفوعاً ، ولا يتفقون على ترك الانصاح إلى ما لا مدخل له في الفصاحة أو في الجواز أصلاً ، فلما وضع ذلك تبين أن هذا المعنى غير مراد ، فيتعين حمل «من» على البعضية ، فيكون المنكر عليهم أمرين كل واحد منهما مستقل بالانكار ، أحدهما : إتيان الذكران . والثاني : مجانبية إتيان النساء في المأثى رغبة في إتيانهم في غيره ، وحيثخذ يتوجه الرفع لقوات الجمع اللازم على الوجه الأول ، واستقلال كل واحد من هاتين العظمتين بالنكير ، والله الموفق .

(٢) قال محمود : د أى من جملة من أخرجناه ، ولعلمهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوأ حال من تعنيف به واحتباس لأملاكه وأشابه ذلك ، قال أحمد : وكثيراً ما ورد في القرآن خصوصاً في هذه الصورة العدول عن التعبير بالفعل إلى التعبير بالصفة المشتقة ، ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع ، كقول فرعون (لا جعلتك من المسجونين) وقولهم (سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين) وقولهم (لتكونن من المرجومين) وقوله (إني لعملك من القالين) وقوله تعالى في غيرها (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) وكذلك (ذرنا تكن مع الفاعدين) وأمثاله كثيرة ، والسري في ذلك والله أعلم : أن التعبير بالفعل إنما يفهم وقوعه خاصة ، وأما التعبير بالصفة ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع ، فانه يفهم أمراً زائداً على وقوعه ، وهو أن الصفة المذكورة كالسمة لموصوف ثابتة العلوق به ، كأنها لقب ، وكأنه من طائفة صارت كالنوع المخصوص المشهور ببعض السمات الرديئة ، واعتبر ذلك لو قلت : رضوا بأن يتخلفوا ، لما كان في ذلك مزيد على الاخبار بوقوع التخلف منهم لا غير . وانظر إلى

قَالَ إِنِّي لَعَلَّيْكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَبْعُلُونَ ﴿١٦٩﴾
فَنَجِّنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا
الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

و(من القالين) أبلغ من أن يقول: إني لعلكم قال، كما تقول: فلان من العلماء، فيكون
أبلغ من قولك: فلان عالم؛ لأنك تشهد له بكونه معدوداً في زميرهم، ومعروفة مساهمته لهم في
العلم. ويجوز أن يريد: من الكاملين في قلاكهم. والقل: البغض الشديد، كأنه بغض يقلى الفؤاد
والكبد. وفي هذا دليل على عظم المعصية، والمراد: القلى من حيث الدين والتقوى، وقد
تقوى همه الدين في دين الله حتى تقرب كراهته للعاصي من الكراهة الجلية (مما يعملون) من
عقوبة عملهم وهو الظاهر. ويحتمل أن يريد بالتنجية: العصمة. فإن قلت: فما معنى قوله
(فَنَجِّنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا)؟ قلت: معناه أنه عصمه وأهله من ذلك إلا العجوز، فإنها
كانت غير معصومة منه، لكونها راضية به ومعينة عليه ومحركة، والراضى بالمعصية في حكم
العاصي. فإن قلت: كان أهله مؤمنين ولو لذلك لما طلب لهم النجاة، فكيف استثنيت الكافرة منهم؟
قلت الاستثناء إنما وقع من الأهل وفي هذا الاسم لما معهم شركة بحق الزواج وإن لم تشاركهم في الإيمان.
فإن قلت: (في الغابرين) صفة لها، كأنه قيل: إلا عجوزاً غابرة، ولم يكن الغبور صفتها وقت
تنجيتهم^(١) قلت: معناه إلا عجوزاً مقدراً غبورها. ومعنى الغابرين في العذاب والهلاك: غير الناجين.
قيل: إنها هلكت مع من خرج من القرية بما أمطر عليهم من الحجارة. والمراد بتدميرهم: الاتفك
بهم، وأما الإمطار: فعن قتادة: أمطر الله على شذاذ القوم حجارة من السماء فأهلكهم. وعن
ابن زيد: لم يرض بالاتفك حتى أتبعه مطراً من حجارة، وفاعل (سَاءَ: مطر المنذرين) ولم يرد

== المساق وهو قوله (رضوا بأن يكونوا مع الخوالب) كيف ألحقهم لقباً رديئاً، وصيرهم من نوع رذل مشهور بسمه
التخلف، حتى صارت له لقباً لاصقاً به، وهذا الجواب عام في جميع ما يرد عليك من أمثال ذلك، فتأمله واقدره
قدره، والله الموفق للصواب.

(١) قال محمود: «المجور صفة لها، كأنه قيل: إلا عجوزاً غابرة ولم يكن الغبور صفتها وقت تنجيتهم. قلت:
معناه إلا عجوزاً مقدراً غبورها، أى: في الهلاك والعذاب» قال أحد: وإن تعجلت برفع القاعدة المبهمة آنفاً،
فاعلم أن السر الذي انتفى العدول عن أن يقول مثلاً: إلا عجوزاً غابرة إلى ما ذكر في التلوة: هو أن المذكور في
التلوة يقتضى الإجمال عليها بأنها من أمة موسومين بهذه السمة من الهلاك كما قدمته الآن، فهو أبلغ من مجرد وصفها
بالغور، والله أعلم.

بالمندرين قوما بأعيانهم ، إنما هو للجنس ، والمخصوص بالذم محذوف ، وهو مطرهم .

كَذَّبَ أَفْحَبُ لَثْمِكَةِ الْمُرْسَلِينَ ①٧٦ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ①٧٧
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ①٧٨ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ①٧٩ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ
أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ①٨٠

قرأ أصحاب الآية بالهمزة وبتحقيقها ، وبالجز على الإضافة وهو الوجه . ومن قرأ بالنصب وزعم أن ليمكة بوزن ليلة : اسم بلد ، فتوهم قاذ إليه خط المصحف ، حيث وجدت مكتوبة في هذه السورة وفي سورة ص بغير ألف . وفي المصحف أشياء . كتبت على خلاف قياس الخط المصطلح عليه ، وإنما كتبت في هاتين السورتين على حكم لفظ اللافظ ، كما يكتب أصحاب النحو لان ، ولولي : على هذه الصورة لبيان لفظ المخفف ، وقد كتبت في سائر القرآن على الأصل ، والقصة واحدة ، على أن ليمكة اسم لا يعرف . وروى أن أصحاب الآية كانوا أصحاب شجر ملتف ، وكان شجرهم الدوم . فإن قلت : هلا قيل : أخوهم شعيب ، كما في سائر المواضع ؟ قلت : قالوا : إن شعيباً لم يكن من أصحاب الآية . وفي الحديث : إن شعيباً أحماديين ، أرسل إليهم وإلى أصحاب الآية .

أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ①٨١ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ
الْمُسْتَقِيمِ ①٨٢ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ مُغْسِدِينَ ①٨٣
وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ ①٨٤

الكيل على ثلاثة أضرب : واف ، وطفيف ، وزائد . فأمر بالواجب الذي هو الإيفاء ، ونهى عن المحرم الذي هو التطفيف ، ولم يذكر الزائد ، وكأن تركه عن الأمر والنهي : دليل على أنه إن فعله فقد أحسن وإن لم يفعله فلا عليه . قرئ : بالقسطاس مضموماً ومكسوراً وهو الميزان وقيل : القرسطون ، فإن كان من القسط وهو العدل - وجعلت العين مكررة - فوزنه فغلاس ، وإلا فهو رباعي . وقيل : وهو بالرومية العدل . يقال : بخسته حقه ، إذا نقصته إياه . ومنه قيل للمكس : البخس ، وهو عاتم في كل حق ثبت لأحد أن لا يهضم ، وفي كل ملك أن لا يغصب عليه مالكة ولا يتحيف منه ، ولا يتصرف فيه إلا بإذنه تصرفاً شرعياً . يقال : عثا في الأرض وعثى وعاث ، وذلك نحو قطع الطريق ، والغارة ، وإهلاك الزروع ، وكانوا يفعلون ذلك مع

توليهم أنواع الفساد فنهوا عن ذلك . وقرئ : الجبل ، بوزن الالة . والجبل (١) ، بوزن الخلفة . ومعناها واحد . أى : ذوى الجبل ، وهو كقولك : والخلق الاولين .

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦)

فإن قلت : هل اختلف المعنى بإدخال الواو ههنا وتركها في قصة ثمود ؟ قلت : إذا أدخلت الواو فقد قصد معنيين : كلاهما مناف للرسالة عندهم : التسخير والبشرية ، وأن الرسول لا يجوز أن يكون مسحراً ولا يجوز أن يكون بشراً ، وإذا تركت الواو فلم يقصد إلا معنى واحد وهو كونه مسحراً ، ثم قرر بكونه بشراً مثلهم . فإن قلت : إن الخففة من الثقلة ولأما كيف تفرقتا على فعل الظن وثانى مفعوليه ؟ قلت : أصلهما أن يتفرقا على المبتدئ والخبر ، كقولك : إن زيد لمنطلق ، فلما كان الباءان - أعنى باب كان وباب ظننت - من جنس باب المبتدئ والخبر ، فعل ذلك فى البابين قصيل : إن كان زيد لمنطلقاً ، وإن ظننته لمنطلقاً .

فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧)

قرئ : كسفا بالسكون والحركة ، وكلاهما جمع كسفة ، نحو : قطع وسدر . وقيل : الكسف والكسفة ، كالريع والريعة ، وهى القطعة . وكسفه : قطعه . والسماء : السحاب ، أو المظلة . وما كلن طلبهم ذلك إلا لتصميمهم على الجحود والتكذيب . ولو كان فيهم أدنى ميل إلى التصديق لما أخطروه بياهم فضلاً أن يطلبوه . والمعنى : إن كنت صادقاً أنك نبي ، فادع الله أن يسقط علينا كسفا من السماء .

قَالَ رَبِّ اعْلَمْ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨)

(ربى أعلم بما تعملون) يريد : أن الله أعلم بأعمالكم وبما تستوجبون عليها من العقاب ، فإن أراد أن يعاقبكم بإسقاط كسف من السماء فعل ، وإن أراد عقاباً آخر فالله الحكيم والمشيئة

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩)

(١) قوله الالة والجبل ، فى الصحاح ، الالة ، بالضم وتقديد اللام : القدرة من التمر . وفيه القدرة ، : القطعة من اللحم إذا كانت مجتمعة . وفيه أيضاً : الجبل الخلفة . ومنه قوله تعالى (والجبل الاولين) وقرأها الحسن بالضم اه (ع)

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

(فأخذهم) الله بنحو ما اقترحوا من عذاب الظلة إن أرادوا بالسحاب السحاب، وإن أرادوا المظلة فقد خالف بهم عن مقترحهم. يروى أنه حبس عنهم الريح سبعا، وسلط عليهم الومد^(١) فأخذ بأنفاسهم لا ينفعهم ظل ولا ماء ولا سرب، فاضطروا إلى أن خرجوا إلى البرية فأظلمت سحابة وجدوا لها برداً ونسيماً، فاجتمعوا تحتها فأمرت عليهم ناراً فاحترقوا. وروى أن شعبياً بعث إلى أمتين: أصحاب مدين، وأصحاب الأيكة، فأهلك مدين بصيحة جبريل، وأصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلة. فإن قلت: كيف كثر في هذه السورة في أول كل قصة وآخرها ما كثر؟ قلت: كل قصة منها كتزيل برأسه، وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها، فكانت كل واحدة منها تدل بحق في أن تفتح بما افتتحت به صاحبها، وأن تختتم بما اختتمت به، ولأن في التكرير تقريراً للبعاني في الأنفس، وتثبيتاً لها في الصدور. ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا ترديد ما يراد تحفظه منها، وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب وأرسخ في الفهم وأثبت للذكر وأبعد من النسيان، ولأن هذه القصص طرقت بها آذان وقر عن الإنصات للحق، وقلوب غلف عن تدبره، فكوثرت بالوعظ والتذكير، وروجعت بالترديد والتكرير لعل ذلك يفتح أذناً، أو يفتق ذهناً، أو يصقل عقلاً طال عهده بالصقل، أو يجلو فهماً قد غطى عليه تراكم الصدأ.

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ
لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ
الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾

(وإنه) وإن هذا التنزيل، يعني: ما نزل من هذه القصص والآيات. والمراد بالتنزيل: المنزل. والباء في (نزل به الروح) ونزل به الروح، على القراءتين للتعدية. ومعنى (نزل به الروح) جعل الله الروح نازلاً (به على قلبك) أي: حفظه وفهمك إياه، وأثبتته في قلبك إثبات مالا ينسى، كقوله تعالى (سنقرئك فلا تنسى) (بلسان عربي) إما أن يتعلق بالمنذرين،

(١) قوله الومد: شدة حر الليل، كما في الصحاح. (ع)

فيكون المعنى: لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان وهم خمسة: هود، وصالح، وشعيب، وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام. وإما أن يتعلق بنزل، فيكون المعنى: نزله باللسان العربي^(١) لتنذر به؛ لأنه لو نزل باللسان الأعجمي، لتجاوز عنه أصلاً، ولقالوا: ما نضنع بما لا نفهمه فيتعذر الإنذار به. وفي هذا الوجه: أن تنزله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك تنزيل له على قلبك، لأنك تفهمه ويفهمه قومك. ولو كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعك دون قلبك، لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ولا تعيها، وقد يكون الرجل عارفاً بعدة لغات، فإذا كلم بلغته التي لقنها أولاً ونشأ عليها وتطبع بها، لم يكن قلبه إلا إلى معاني الكلام يتلقاها بقلبه ولا يكاد يفظن اللفاظ كيف جرت، وإن كلم بغير تلك اللغة وإن كان ماهراً بمعرفة ما كان نظره أولاً في ألفاظها ثم في معانيها، فهذا تقرير أنه نزل على قلبه لنزوله بلسان عربي مبين (وإنه) وإن القرآن - يعني ذكره مثبت في سائر الكتب السماوية - وقيل: إن معانيه فيها. وبه يحتاج لأبي حنيفة في جواز القراءة بالفارسية في الصلاة على أن القرآن قرآن إذا ترجم بغير العربية حيث قيل (وإنه لنزول الأولين) لتكون معانيه فيها. وقيل: الضمير لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك في (أن يعلمه) وليس بواضح.

أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَؤُ بَنِي إِسْرَءِيلَ (١٩٧)

وقرئ: يكن، بالتذكير. وآية، بالنصب على أنها خبره، و(أن يعلمه) هو الاسم. وقرئ: تسكن، بالتأنيث، وجعلت (آية) اسماً، و(أن يعلمه) خبراً، وليست كالأولى لوقوع النكرة اسماً والمعرفة خبراً، وقد خرج لها وجه آخر ليتخلص من ذلك، فقيل: في (تسكن) ضمير القصة، و(آية أن يعلمه) جملة واقعة موقع الخبر. ويجوز على هذا أن يكون (لهم آية) هي جملة الشأن، و(أن يعلمه) بدلا عن آية. ويجوز مع نصب الآية تأنيث (تسكن) كقوله تعالى (ثم لم تسكن فتنتهم إلا أن قالوا) ومنه بيت لبيد:

(١) عاد كلامه. قال: واعلم أن الآيات الأولى كالمقدمات لهذه الآيات، فإن الله تعالى أبان أنه منزل بلغتهم التي لا يعرفون غيرها، وعلى لسان عربي لو أشكل عليهم فهم شيء منه لكان البيان عنده عبداً ناجزاً، وما نزل على لسان أعجمي قد يعتدرون بأنه لا يفهمهم ما استغلق على أفهامهم من معانيه، فقد أزاح أعذارهم ودحض حججهم، وسلكه في قلوبهم ومكنهم من فهمه أشد المتكئين، ولكن لم يوفهم بل قدر عليهم أنهم لا يؤمنون، قال أحد: يعني بقوله قدر عليهم أنهم لا يؤمنون علم أنهم لا يؤمنون، لأن التقدير عنده العلم. والحق أن الله تعالى أراد منهم أنهم لا يؤمنون. وهذا تقرير لجواب عن سؤال مقدر، وهو أن يقال: قلوبهم نائية عن قبول الحق، لا يلجها بوجه ولا بسبب، فكيف يسلك الحق فيها؟ فيجيب عنه بهذا الجواب، والله أعلم.

فَقَضَىٰ وَقَدَّمَهَا وَكَانَتْ عَادَةً مِنْهُ إِذَا مَرَّ عَرَدَتْ أَقْدَامَهَا (١)

وقرى: تعله، بالتاء. (وعلماء بني إسرائيل): عبد الله بن سلام وغيره. قال الله تعالى (وإذا بتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين). فإن قلت: كيف خط في المصحف (علواء) بواو قبل الالف؟ قلت: خط على لغة من يميل الالف إلى الواو وعلى هذه اللغة كتبت الصلوة والزكوة والربوا.

وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ
حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَمَا تُبَيِّنُهُمْ بَعْتَهُ وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا
هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (٢٠٣) أَفَعِزَّادِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ
سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٧)

الأعجم: الذي لا يفصح وفي لسانه عجمة واستعجام. والأعجمي مثله. إلا أن فيه لزيادة بابه
النسبة زيادة تأكيد. وقرأ الحسن: الأعجميين. ولما كان من يتكلم بلسان غير لسانهم لا يفقهون
كلامه، قالوا له: أعجم وأعجمي، شبهوه بمن لا يفصح ولا يبين، وقالوا الكل ذى صوت من البهائم
والطيور وغيرها: أعجم، قال حميد:

* وَلَا عَرَبِيًّا شَاقَهُ صَوْتُ أَعْجَمًا * (٢)

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة ١٣ فراجع إن شئت أمه مصرحه .

(٢) وما حاج هذا القوق لإحامية دعت ساق حر ترحة وتندما

ففتت على غصن عشاء فلم تدع لناحية في نوحها متندما

عجت لها أنى يكون غناؤها نصيحا ولم تغفر بمنطقها فها

ولم أر مثلى شاقه صوت أمثلا ولا عربيا شاقه صوت أمثما

خجيد بن ثور، وقد رحلت صاحبته سلى، يقول: وما حرك هذا القوق وبشقه فتوقد بقلى، إلا حمامة دعت ذكرها
وساق حر: مركب إضافي، وهو ذكر القمري، أو ذكر الحمام مطلقا. والحر - بالضم -: فرخ الحمامة. والفرحة:
الحزن، ضد الفرحة. والتندم: التأسف على ما فات. ويروى «ترنما» وهو تحسين الصوت، وهما نصب على
الحالية، أى: حزينة ومتأسفة. أو ذات ترحة وذات تندم. وعشاء: نصب على الظرف، فلم تدع: أى ترك
لناحية في غناها، متندما: أى تندما أو شيئا يتندم به أوفيه. ويجوز أن ضمير نوحها لناحية، وأنى بمعنى: كيف. =

(سلكناه) أدخلناه ومكناه. والمعنى: إنا أنزلنا هذا القرآن على رجل عربي بلسان عربي مبين، فسمعوا به وفهموه وعرفوا فصاحته وأنه معجز لا يعارض بكلام مثله، وانضم إلى ذلك اتفاق علماء أهل الكتب المنزلة قبله على أن البشارة بإنزاله وتحلية المنزل عليه وصفته في كتبهم، وقد تضمنت معانيه وقصصه، وصح بذلك أنها من عند الله وليست بأساطير كما زعموا، فلم يؤمنوا به وجحدوه، وسموه شعراً تارة، وسحراً أخرى، وقالوا: هو من تلفيق محمد وأقرانه (ولونزلناه على بعض) الأعاجم الذي لا يحسن العربية، فضلاً أن يقدر على نظم مثله (فقرأ عليهم) هكذا فصيحاً معجزاً متحدى به، لكفروا به كما كفروا، ولتمحلوا لجحودهم عذراً، وسموه سحراً، ثم قال (كذلك سلكناه) أى مثل هذا السلك سلكناه في قلوبهم، وهكذا مكناه وقزناه فيها، وعلى مثل هذه الحال وهذه الصفة من الكفر به والتكذيب له وضعناه فيها، فكيفما فعل بهم وصنع وعلى أى وجه دبر أمرهم، فلا سبيل أن يتغيروا عما هم عليه من جحوده وإنكاره، كما قال (ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فليسهو بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين). فإن قلت: كيف أسند السلك بصفة التكذيب إلى ذاته؟ قلت: أراد به الدلالة على تمكنه مكذباً في قلوبهم أشد التمكن، وأثبت به فعله بمنزلة أمر قد جبلوا عليه وفطروا. ألا ترى إلى قولهم: هو مجبول على الشح، يريدون: تمكن الشح فيه؛ لأن الأمور الخلقية أثبت من العارضة، والدليل عليه أنه أسند ترك الإيمان به إليهم على عقبه^(١)، وهو قوله (لا يؤمنون به). فإن قلت: ماموقع (لا يؤمنون به) من قوله (سلكناه) في قلوب المجرمين؟ قلت: موقعه منه موقع الموضع والملخص؛ لأنه مسوق لثباته مكذباً مجحوداً في قلوبهم، فأتبع ما يقرر هذا المعنى من أنهم لا يزالون على التكذيب به وجحوده حتى يعاينوا الوعيد. ويجوز أن يكون حالاً، أى: سلكناه فيها غير مؤمن به. وقرأ الحسن: فتأتهم، بالتمام يعنى: الساعة. وبغثة، بالتحريك. وفي حرف أبي: ويروه بغثة. فإن قلت: مامعنى التعقيب في قوله (فيأتهم بغثة..... فيقولوا)؟ قلت: ليس المعنى ترادف رؤية العذاب ومفاجأته

== أو من أن. والاستفهام تعجبي. والفصح: البين الخالي عن اللبنة والتعقيد. وفرفراه يفغره، من باب ففع: فغعه، أى: والحال أنها لم تفتش فيها بنطقها، وإنما يخرج صوتها من صدرها. وشاقه: تعيب له في الحقوق. والعري: المفصح. والأعجم: الذى لا يفصح من الحيوان، نقلته العرب لمن لا يفهمون كلامه ولا يفقهون مراده، وربما أحقوه ياء النسب للبالغة في شدة العجمة وبينه وبين عرب طباق التضاد.

(١) قال محمود: وإن قلت: كيف أسند السلك بصفة التكذيب إلى ذاته؟ قلت: المراد الدلالة على تمكنه مكذباً في قلوبهم أشد التمكن، فجعله بمنزلة أمر قد جبلوا عليه، بدليل أنه أسند ترك الإيمان به على عقبه في قوله: لا يؤمنون به. قال أحمد: وما ينقش من بقاءه على ظاهره إلا أنه التوحيد المحض والإيمان العرف، وأن الله تعالى خلق قلوبهم نائية عن قبول الحق. والقدرية لا يبلغون في التوحيد إلى هذا الحد، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وسؤال النظرة فيه في الوجود، وإنما المعنى ترتبها في الشدة، كأنه قيل: لا يؤمنون بالقرآن حتى تكون رؤيتهم للعذاب فما هو أشد منها وهو لحوقه بهم مفاجأة، فما هو أشد منه وهو سؤالهم النظرة. ومثال ذلك أن تقول لمن تعظه: إن أسأت مقتك الصالحون فقتك الله، فإنك لا تقصد بهذا الترتيب أن مقت الله يوجد عقيب مقت الصالحين، وإنما قصدك إلى ترتيب شدة الأمر على المسيء، وأنه يحصل له بسبب الإساءة مقت الصالحين، فما هو أشد من مقتهم: وهو مقت الله، وترى ثم يقع في هذا الأسلوب فيحل موقعه ﴿أفبعذابنا يستعجلون﴾ تبكى لهم بإنكار وتهمك، ومعناه: كيف يستعجل العذاب من هو معرض لعذاب يسأل فيه من جنس ما هو فيه اليوم من النظرة والإمهال طرفة عين فلا يجاب إياها. ويحتمل أن يكون هذا حكاية توبيخ يوجهون به عند استنظارهم يومئذ، و (يستعجلون) على هذا الوجه حكاية حال ماضية. ووجه آخر متصل بما بعده، وذلك أن استعجالهم بالعذاب إنما كان لاعتقادهم أنه غير كائن ولا لاحق بهم، وأنهم يمتعون بأعمار طوال في سلامة وأمن، فقال تعالى: أفبعذابنا يستعجلون أشرا وبطرا واستهزاء واتكالا على الأمل الطويل، ثم قال: هب أن الأمر كما يعتقدون من تمتيعهم وتعميرهم، فإذا لحقهم الوعيد بعد ذلك ما ينفعهم حينئذ ما مضى من طول أعمارهم وطيب معاشهم. وعن ميمون بن مهران: أنه لقي الحسن في الطواف وكان يتمنى لقاءه فقال له: عظمي، فلم يزد على تلاوة هذه الآية. فقال ميمون: لقد وعظت فأبلغت. وقرئ: يمتعون، بالتخفيف.

وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا هَا مُنْذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرِي وَمَا كُنَّا

ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾

(منذرون) رسل ينذرونهم (ذكرى) منصوبة بمعنى تذكرة، إما لأن، أنذر، وذكر، متقاربان، فكأنه قيل: مذكرون تذكرة. وإما لأنها حال من الضمير في منذرون أي، ينذرونهم ذوى تذكرة. وإما لأنها مفعول له: على معنى: أنهم ينذرون لأجل الموعظة والتذكرة. أو مرفوعة على أنها خبر مبتدأ محذوف، بمعنى: هذه ذكرى. والجملة اعتراضية. أو صفة بمعنى: منذرون ذوى ذكرى. أو جعلوا ذكرى لإمعانهم في التذكرة وإطنائهم فيها. ووجه آخر: وهو أن يكون ذكرى متعلقة بأهلكنا مفعولا له. والمعنى: وما أهلكنا من أهل قرية ظالمين إلا بعدما أزمناهم الحجة بإرسال المنذرين إليهم، ليسكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم، فلا يعصوا مثل عصيانهم (وما كنا ظالمين) فهلك قوما غير ظالمين. وهذا الوجه عليه المعقول. فإن قلت: كيف عزلت الواو عن الجملة بعد «إلا»، ولم تعزل عنها في قوله (وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم)؟

قلت : الاصل : عزل الواو لأن الجملة صفة لقرية ، وإذا زيدت قلنا كيد وصل الصفة بالموصوف كما في قوله (سبعة وثامنهم كلبهم) .

وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾
إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴿٢١٢﴾

كانوا يقولون : إن محمداً كاهن وما ينزل عليه من جنس ما ينزل به الشياطين على الكهنة ، فكذبوا بأن ذلك مما لا يتسهل للشياطين ولا يقدر عليهم ؛ لأنهم مرجومون بالشبه معزولون عن استماع كلام أهل السماء . وقرأ الحسن : الشياطين . ووجهه أنه رأى آخره كآخر يبرين وفلسطين ، فتخير بين أن يجرى الإعراب على النون ، وبين أن يجره على ما قبله ، فيقول : الشياطين والشياطون . كما تخيرت العرب بين أن يقولوا . هذه يبرون ويبرين . وفلسطون وفلسطين . وحقه أن تشقه من الشيطونة وهي الهلاك كما قيل له الباطل . وعن الفراء : غلط الشيخ في قراءته ، والشياطين ، ظن أنها النون التي على هجاءين ، فقال النضر بن شميل : إن جاز أن يحتاج بقول العجاج ورؤية ، فهلا جاز أن يحتاج بقول الحسن وصاحبه - يريد : محمد ابن السميع - مع أنا نعلم أنهما لم يقرأ به إلا وقد سمعا فيه .

فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنْذِرْ حَشِيرَتَكَ
الْأَفْرِينَ ﴿٢١٤﴾

قد علم أن ذلك لا يكون ، ولكنه أراد أن يحرك منه لازدياد الإخلاص والتقوى . وفيه لطف لسائر المكلفين ، كما قال (ولو تقول علينا بعض الأقاويل) ، فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك ، فيه وجهان : أحدهما أن يؤمر بإنذار الأقرب فالأقرب من قومه ، ويبدأ في ذلك بمن هو أولى بالبداة ، ثم بمن يليه . وأن يقدم إنذارهم على إنذار غيرهم ، كما روى عنه عليه السلام : أنه لما دخل مكة قال : وكل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين ، وأول ما أضعه ربا العباس ^(١) ، والثاني : أن يؤمر بأن لا يأخذه ما يأخذ القريب لل قريب من العطف والرافة ، ولا يحاييهم في الإنذار والتخويف . وروى أنه صعد الصفا - لما نزلت - فنادى الأقرب فالأقرب نخذاً نخذاً ، وقال : يا بني عبد المطلب ، يا بني هاشم ، يا بني عبد مناف ، يا عباس عم النبي

(١) أخرجه مسلم من حديث جابر العاويل في صفة الحج وعزاء الطيب للترمذي من رواية عمرو بن الأحوص وليس هو عنده بتمامه .

ياصفية عمة رسول الله ، إني لأملك لكم من الله شيئاً ، سلوني من مالي ماשתم ^(١) . وروى أنه جمع بنى عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلاً : الرجل منهم يأكل الجذعة ، ويشرب العس ^(٢) على رجل شاة وقعب من لبن ، فأكلوا وشربوا حتى صدروا ، ثم أُنذروهم فقال : يا بنى عبد المطلب ، لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلاً أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، وروى أنه قال : يا بنى عبد المطلب ، يا بنى هاشم ، يا بنى عبد مناف ، اقتدوا أنفسكم من النار فإني لأغني عنكم شيئاً ، ثم قال : يا عائشة بنت أبي بكر ، وباحفصة بنت عمر ، وبافاطمة بنت محمد ، وبياصفية عمة محمد ، اشترين أنفسكن من النار فإني لأغني عنكن شيئاً ^(٣) .

وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي

بَرِيءٌ مِمَّا تَبْعُونَ ﴿٢١٦﴾

الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع كسر جناحه وخفضه ، وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه ، فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلاً في التواضع ولين الجانب . ومنه قول بعضهم :

(١) أخرجه ابن حبان من حديث أبي هريرة قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) فقال : يا بنى عبد مناف يا بنى هاشم ، لا أغني عنكم من الله شيئاً ، وروى مسلم من حديث عائشة : ولما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) قام رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصفا فقال : يا فاطمة بنت محمد ياصفية بنت عبد المطلب ، يا بنى عبد المطلب : لأملك لكم من الله شيئاً . سلوني من مالي ماشتم . وروى ابن مردويه من حديث أبي أمامة قال : ولما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا بنى هاشم اشترؤا أنفسكم من النار . فإني لأملك لكم من الله شيئاً ، يا عائشة بنت أبي بكر وباحفصة بنت عمر ، وبافاطمة بنت محمد ، وبأبى الزبير عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم : اشترؤا أنفسكم من النار فإني لأملك لكم من الله شيئاً .

(٢) قوله « ويشرب العس » هو القدح العظيم ، كما في الصحاح . (ع)

(٣) أما أوله فأخرجه ابن إمام في المنازى والبيهقي في الدلائل من طريقه من رواية ابن عباس مطولاً . وأخرجه الزوار وأبو نعيم في الدلائل من طريق عباد بن عبد الله الأسدي عن علي قال : « لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : اصنع لي رجل شاة على صاع من طعام . وأعد قعباً من لبن . ففعلت . ثم قال لي : اجمع لي بنى عبد المطلب لجمعتهم وهم يومئذ أربعون رجلاً . فوضعت الطعام بينهم ، فأكلوا حتى شبعوا وإن فيهم لمن يأكل الجذعة ويشرب العس ، ثم جئت بالسفسفوا حتى رووا . وأما بقية فتشقق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : « لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا ، فنادى : يا أصحاباه فاجتمعوا إليه فقال : يا بنى عبد مناف ، يا بنى عبد المطلب ، أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل ، أكنتم تصدقوني ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذباً . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبألك ؟ لهذا جمعنا فنزلت هذه السورة (ثبت هذا أبي لهب وتب) » .

وَأَنْتَ الشَّهِيرُ بِخَفِضِ الْجَنَاحِ فَلَا تَكُ فِي رَفْعِهِ أَجْدَلًا ^(١)

ينهاه عن التكبر بعد التواضع . فإن قلت : المتبعون للرسول هم المؤمنون ، والمؤمنون هم المتبعون للرسول ، فما قوله ﴿لن أتبعك من المؤمنين﴾ ؟ قلت : فيه وجهان : أن يسميهم قبل الدخول في الإيمان مؤمنين لمشارفتهم ذلك ، وأن يريد بالمؤمنين المصدقين بألستهم ، وهم صنفان : صنف صدق واتبع رسول الله فيما جاء به ، وصنف ما وجد منه إلا التصديق لحسب ، ثم إما أن يكونوا منافقين أو فاسقين ، والمنافق والفاسق لا يخفض لهما الجناح . والمعنى : من المؤمنين من عشيرتك وغيرهم ، يعنى : أنذر قومك فإن أتبعوك وأطاعوك فاخفض لهم جناحك ، وإن عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم ومن أعمالهم من الشرك بالله وغيره .

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ^(٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ^(٢١٨)

وَتَقْلُبَكَ فِي السَّجِدِينَ ^(٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ^(٢٢٠)

﴿وتوكل﴾ على الله يكفك شر من يعصيك منهم ومن غيرهم . والتوكل : تفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره ويقدر على نفعه وضره . وقالوا : المتوكل من إن دهمه أمر لم يحاول دفعه عن نفسه بما هو معصية الله ، فعلى هذا إذا وقع الإنسان في محنة ثم سأل غيره خلاصه ، لم يخرج من حد التوكل : لأنه لم يحاول دفع ما نزل به عن نفسه بمعصية الله . وفي مصاحف أهل المدينة والشام : فتوكل ، وبه قرأ نافع وابن عامر ، وله محلان في العطف : أن يعطف على (فعل) . أو (فلا تدع) . ﴿على العزيز الرحيم﴾ على الذى يقهر أعداءك بعزته وينصرك عليهم برحمته . ثم أتبع كونه رحيمًا على رسوله ما هو من أسباب الرحمة : وهو ذكر ما كان يفعله في جوف الليل من قيامه للتهجد ، وتقلبه في تصفح أحوال المتجهدين من أصحابه ؛ ليطلع عليهم من حيث لا يشعرون ، ويستبطن سر أمرهم ، وكيف يعبدون الله ، وكيف يعملون لآخرتهم ، كما يحكى أنه حين نسخ فرض قيام الليل ، طاف تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون لحرصه عليهم وعلى ما يوجد منهم من فعل الطاعات وتكثير الحسنات ، فوجدها كبيوت الزناير لما سمع منها من دندنتهم بذكر الله والتلاوة . والمراد بالساجدين : المصلون . وقيل : معناه يراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة . وتقلبه في الساجدين : تصرفه فيما بينهم بقيامه وركوعه

(١) شبه بطائر يرق لأفراخه ويخفض إليها جناحه رحمة لها ؛ فاستعار خفض الجناح لذلك على سبيل التمثيل ؛ ورسمه بقوله : «فلا تَكُ في رَفْعِهِ أَجْدَلًا ، أى شبيها بالأجدل ؛ وهو الصقر في القسوة والجفوة . أوفى التكبر والترفع ويجوز أن خفض الجناح : كناية عما يلزمه من الرقة والرحمة واللين ، ورفعه : كناية عن القسوة والجفوة ؛ وبين الخفض والرفع طباق التضاد .

وسجوده وقعوده إذا أمهم . وعن مقاتل : أنه سأل أبا حنيفة رحمه الله ، هل تجد الصلاة في الجماعة في القرآن ؟ فقال : لا يحضرني ، فتلا هذه الآية . ويحتمل أنه : لا يخفى عليك حالك كلما قمت وتقلبت مع الساجدين في كفاية أمور الدين (إنه هو السميع) لما تقوله (العليم) بما تنويه وتعمله . وقيل : هو تقلب بصره فيمن يصل خلفه ، من قوله صلى الله عليه وسلم : «أتوا الركوع والسجود ، فوالله إنى لأراكم من خلف ظهري إذا ركعتم وسجدتم» (١) . وقرئ : ويقلبك .

هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾

يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾

(كل أفَّاك أثيم) هم الكهنة والمتنبئة ، كشق ، وسطيح ، ومسيطة ، وطليحة (يلقون السمع) هم الشياطين ، كانوا قبل أن يحجبوا بالرحم يسمعون إلى الملا الأعلى فيختطفون بعض ما يتكلمون به مما اطلعوا عليه من الغيوب ، ثم يوحون به إلى أوليائهم من أولئك (وأكثرهم كاذبون) فيما يوحون به إليهم ؛ لأنهم يسمعونهم ما لم يسمعوا . وقيل : يلقون إلى أوليائهم السمع أى المسموع من الملائكة . وقيل : الأفاكون يلقون السمع إلى الشياطين فيتلقون وحيهم إليهم . أو يلقون المسموع من الشياطين إلى الناس ، وأكثر الأفاكين كاذبون يفترون على الشياطين ما لم يوحوا إليهم ، وترى أكثر ما يحكون به باطلا وزورا . وفي الحديث : «الكلمة يتخطفها الجنى فيقرها في أذن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة» (٢) والقر : الصب . فإن قلت : كيف دخل حرف الجر على «من» المتضمنة لمعنى الاستفهام والاستفهام له صدر الكلام ؟ ألا ترى إلى قولك : أعلى زيد مررت ؟ ولا تقول : على أزيد مررت ؟ قلت : ليس معنى التضمن أن الاسم دل على معنيين معاً : معنى الاسم ، ومعنى الحرف . وإنما معناه : أن الأصل أمن ، لحذف حرف الاستفهام واستمر الاستعمال على حذفه ، كما حذف من «هل» ، والأصل : أهل . قال :

• أَهْلٌ رَأَوْنَا بِسَفْحِ الْقَاعِ ذِي الْأَكْمِ * (٣)

(١) متفق عليه من حديث قتادة عن أنس بمعناه . واللفظ المذكور عند النسائي وانفقا عليه من حديث أبي هريرة بلفظ «هل ترون قبلى هنا : فوالله ما يخفى على ركوعكم ولا سجودكم ، وإنى لأراكم من وراء ظهري» .
(٢) متفق عليه من حديث عائشة أمهم منه .

(٣) سائل فوارس يربوع يشدنا أهل رأونا بسفح القاع ذى الأكم
لزيد الخيل الذى سباه النبي صلى الله عليه وسلم زيد الخير ، وسائل : فعل أمر بمعنى أسألم وراجعهم فى السؤال ، لتتلحن حقيقة الحال . ويربوع : أبو حى ، والباء بمعنى عن ، أى : سلم عن قوتنا ، وبروى : =

فإذا أدخلت حرف الجر على « من » ، فقدّر الهمزة قبل حرف الجر في ضميرك ، كأنك تقول :
أعلى من تنزل الشياطين ، كقولك : أعلى زيد مررت . فإن قلت : (يلقون) ما محله ؟ قلت :
يجوز أن يكون في محل النصب على الحال ، أي : تنزل ملقين السمع ، وفي محل الجر صفة لكل
أفأك ؛ لأنه في معنى الجمع . وأن لا يكون له محل بأن يستأنف ، كأن قائلًا قال : لم تنزل على
الآفاكين ؟ فقل : يفعلون كيت وكيت . فإن قلت : كيف قيل (وأكثرهم كاذبون) بعد ما قضى
عليهم أن كل واحد منهم أفأك ؟ قلت : الآفاكون هم الذين يكثرون الإفك ، ولا يدل ذلك على
أنهم لا ينطقون إلا بالإفك ، فأراد أن هؤلاء الآفاكين قل من يصدق منهم فيما يحكى عن الجنى ؛
وأكثرهم مفتر عليه . فإن قلت : (وإنه لتنزيل رب العالمين) ، (وما تنزل به الشياطين) ،
(هل أنبئكم على من تنزل الشياطين) لم فرق بينهن وهن أخوات ؟ قلت : أريد التفريق بينهن
بآيات ليست في معنائهن ، ليرجع إلى المحمى . هن وتطرية ذكر ما فيهن كزرة بعد كزرة : فيدل بذلك
على أن المعنى الذي نزلن فيه من المعاني التي اشتدت كراهة الله لخلافها . ومثاله : أن يحدث الرجل
حديث وفي صدره اهتمام بشيء منه وفضل عناية ، فراه يعيد ذكره ولا ينفك عن الرجوع إليه .

وَالشَّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَيمُونَ (٢٢٥)

وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦)

(والشعراء) مبتدأ . و (يتبعهم الغاؤون) خبره : ومعناه : أنه لا يتبعهم على باطلهم
وكذبهم وفضول قولهم وما هم عليه من الهجاء وتمزيق الأعراض والقدح في الأنساب ، والنسب
بالحرم والغزل (١) والابتهار ، ومدح من لا يستحق المدح ، ولا يستحسن ذلك منهم ولا يطرب
على قولهم - إلا الغاؤون والسفهاء والشطار . وقيل : الغاؤون : الراوون . وقيل : الشياطين ،

== بشدتنا ، بفتح الشين . يقال : شد على قرنه في الحرب : حل عليه ، أي سلهم عن صولتنا عليهم ، وجعل البصريون
إليه بعد السؤال للسبية ، لا بمعنى عن ، والأصل في الاستفهام الهمزة ، ولذلك كان لها تمام التصدير في الكلام ،
وأصل « هل » بمعنى « قد » ، « ومن » لمن يفعل ، « وما » لما لا يفعل . « ومتى » للزمان ، وهكذا بقية الأدوات
موضوعة لمعان غير الاستفهام ، فليست عريضة فيه ، بل الهمزة مقدرة قبلها ، ولذلك تظهر في بعض الأحيان كما في
البيت ، ويدخل عليها حروف الجر ، ويضاف إليها غيرها : لكن لكثرة الاستعمال فيه صارت الهمزة نسيا منسيا
في حين الإهمال . والاستفهام هنا للتقرير ، « وهل » بمعنى « قد » ، وأنكر ذلك ابن هشام . ونقل عن السيرافي
أن الرواية : أم هل ، فأم بمعنى « بل » « وهل » للاستفهام : قال : وعلى صحة الأولى فهل مؤكدة للهمزة شذوذاً اه
وبروي : فهل رأونا . ويجوز أن معناه : سلهم فقد رأونا . والفتح : السطح أو أصل الجبل المنسطح . والقاع
المستوى من الأرض . والأكم - بالفتح - : واحدة أكمة ؛ وجمعه أكم بالضم ، وهي التلول المرتفعة .

(١) قوله « والنسب بالحرم والغزل » النسب : أي التنبؤ . والغزل : محادثة النساء ومراودتهن . والابتهار : ادعاء
الشيء كذباً ، كذا في الصحاح في مواضع . (ع) •

وقيل : هم شعراء قريش : عبد الله بن الزبيري ، وهيرة بن أبي وهب المخزومي ، ومسافع بن عبد مناف ، وأبو عزة الجهمي . ومن ثقيف : أمية ابن أبي الصلت . قالوا : نحن نقول مثل قول محمد - وكانوا يهجون ، ويجتمع إليهم الأعراب من قومهم يستمعون أشعارهم وأهاجهم - وقرأ عيسى بن عمر : والشعراء ، بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر . قال أبو عبيد : كان الغالب عليه حبّ النصب . قرأ : (حمالة الخطب) ، (والسارق والسارقة) و (سورة أنزلناها) ^(١) وقرئ : يتبعهم ، على التخفيف . ويتبعهم ، يسكون العين تشبيها « لبعه بعضه » .

ذكر الوادي والهيوم : فيه تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول واعتدافهم وقلة مبالاتهم بالخلق في المنطق ومجاوزة حدّ القصد فيه ، حتى يفضلوا أجبن الناس على عنتره ، وأشجعهم على حاتم ، وأن يهتوا البرى ^(٢) ، ويفسقوا التقى . وعن الفرزدق : أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله :

فَبَيْنَ بَجَائِنِي مُصْرَعَاتٍ وَبِتْ أَفْضُ أَغْلَاقَ الْخِتَامِ ^(٣)

فقال : قد وجب عليك الحد ، فقال : يا أمير المؤمنين قد درأ الله عنى الحد بقوله : (وأنهم يقولون ما لا يفعلون) .

إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ
بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ^(٢٢٧)

استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله وتلاوة القرآن ، وكان ذلك أغلب عليهم من الشعر ، وإذا قالوا شعراً قالوه في توحيد الله والثناء عليه ، والحكمة والموعظة ، والزهد والآداب الحسنة ، ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة وصلاح الأئمة ،

(١) قوله « -سورة أنزلناها » لعل بعدها سفا تقديره : بالنصب . (ع)

(٢) قوله « وأن يهتوا البرى » أى يهيموا . (ع)

(٣) خرجن إلى لم يطعن قبلى ومن أصح من يعض النعام

فبين بجائى مصرعات وبت أفض أغلاق الختام

للفرزدق ، يقول : خرج النومة إلى من خدر من حال كونهم لم يطعن ، أى لم يزل بكارتهم أحد قبلى ، وأكد ذلك بقوله : ومن أصح من يعض النعام الذى يسان عادة عن الكسر ، لئلا تذهب زينة ، فبين مطروحات هن يمينى وشمالى ، وبت أفض : أفتح وأزيل بكارتهم الشبهة بأغلاق الختام لسدها الفرج ، والأغلاق جمع غلق كسبب ، بمعنى الأفعال . والختام : ما يسد به فم الزجاجة ونحوها ، فاضافتها إليه بيانية . أو من إضاعة المسميات إلى الاسم كأعواد السواك . ويجوز أن الختام بمعنى الختوم وهو الفرج ، ويمكن أن يراد بالأغلاق : جوانب البكارة المشقة بالفرج وشبه البكارات أو جوانبها بالأغلاق على طريق التصریح ، ولما سمع سليمان بن عبد الملك ذلك ، قال : قد وجب عليك الحد ، فقال : قد درأ الله عنى بقوله : (وأنهم يقولون ما لا يفعلون) غلى سيله .

وما لا بأس به من المعاني التي لا يتلطفون فيها بذنب ولا يتلبسون بشائنة ولا منقصة ، وكان هجاؤهم على سبيل الانتصار ممن يهجوم . قال الله تعالى (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم) وذلك من غير اعتداء ولا زيادة على ما هو جواب لقوله تعالى (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) وعن عمرو بن عبيد : أن رجلاً من العلوية قال له : إن صدرى لي جيش بالشعر ، فقال : فما يمنعك منه فيما لا بأس به ؟ والقول فيه : أن الشعر باب من الكلام ، وحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام . وقيل : المراد بالمستئين : عبد الله بن رواحة ، وحسان ابن ثابت ، والكعبان : كعب بن مالك ، وكعب بن زهير ؛ والذين كانوا يناخون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكافون هجأة قريش . وعن كعب بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : « اهجهم » : فوالذي نفسى بيده لهُو أشد عليهم من النبل ، ^(١) وكان يقول لحسان : « قل وروح القدس معك » ^(٢) . ختم السورة بآية ناطقة بما لا شيء أهيب منه وأهول ، ولا أنكى لقلوب المتأملين ولا أصدع لأكباد المتدبرين ، وذلك قوله (وسيعلم) وما فيه من الوعيد البليغ ، وقوله (الذين ظلموا) وإطلاقه . وقوله (أى منقلب ينقلبون) وإبهامه ، وقد تلاها أبو بكر لعمر رضى الله عنهم حين عهد إليه ^(٣) : وكان السلف الصالح يتواظفون بها ويتناذرون شدتها . وتفسير الظلم بالكفر تعاميل ^(٤) ، ولأن تخاف فتبلغ الأمان : خير من أن تأمن فتبلغ الخوف . وقرأ ابن عباس : أى منفلت ينفاتون . ومعناها : إن الذين ظلموا يطعمون أن ينفلتوا من عذاب

(١) أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال « لما نزلت (والشعراء يتبعهم الغاوي) أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، ماذا ترى في الشعر ؟ فقال : إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه . والذي نفس محمد بيده لكأنا تنضحونهم بالنبل » قلت : وأخرجه من هذا الوجه وقال ابن سعد في الطبقات : أخبرنا عبد الوهاب أخبرنا ابن عوف عن ابن سيرين « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لكعب بن مالك : هيه : فأنشده . فقال : « هو أشد عليهم من وقع النبل » ، ولمسلم عن عائقة مرفوعاً « اهجوا قريشاً فانه أشد عليها من رشق النبل » ، والترمذي والذئبي من حديث ثابت عن أنس في أثناء حديث : فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « خل عنهم يا عمر ، فلهو أسرع فيهم من نضع النبل » .

(٢) متفق عليه من حديث البزار . ولفظ النفاق : قال لحسان ، اهج المشركين ، فان روح القدس معك ، وللعالم وابن مردويه من طريق مجاهد عن الشعبي عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم . قال يوم الأحزاب : « من يحمي أعراض المسلمين ؟ فقال حسان : أنا . قال : فقم اهجهم ، فان روح القدس سيعينك » .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق محمد بن عبد الرحمن بن الحضر عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت « كتب أبى وصية فذكرها وفي آخرها : وإن تجر وتظلم فإني لأعلم الغيب . وسيعلم الذين ظلموا - الآية » ، ورواه ابن سعد في الطبقات في ترجمة أبي بكر عن الواقدي بأسانيد متعددة مطولاً .

(٤) قوله « وتفسير الظلم بالكفر تعاميل » لعلة من هله بالنفى ، أى : لهاه به ، كما يطل الصبي بشيء من الطعام يجتزأ به عن اللبن ، كما في الصحاح . (ع)

الله ، وسيعلمون أن ليس لهم وجه من وجوه الانفلات وهو النجاه : اللهم اجعلنا ممن جعل هذه الآية بين عينيه فلم يغفل عنها ؛ وعلم أن من عمل سيئة فهو من الذين ظلوا ، والله أعلم بالصواب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح وكذب به وهود وشعيب وصالح وإبراهيم وبعدد من كذب بعيسى وصدق بمحمد عليهم الصلاة والسلام ، »^(١)

سورة النمل

مكية ، وهي ثلاث وتسعون آية ، وقيل أربع وتسعون
[نزلت بعد الشعراء]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين ① هدى وبشرى للمؤمنين ②

الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون ③

(طس) قرئ بالتفخيم والإمالة ، و (تلك) إشارة إلى آيات السورة والكتاب المبين : إما اللوح ، وإبائته : أنه قد خط فيه كل ما هو كائن فهو بينه للنظارين فيه إبانة . وإما السورة . وإما القرآن ، وإبائتهما : أنهما بينان ما أودعاه من العلوم والحكم والشرائع ، وأن إعجازهما ظاهر مكشوف ، وإضافة الآيات إلى القرآن والكتاب المبين : على سبيل التفخيم لها والتعظيم ، لأن المضاف إلى العظيم يعظم بالإضافة إليه . فإن قلت : لم نسكر الكتاب المبين ؟ قلت : ليهم بالتشكيك فيكون أخفم له ، كقوله تعالى (في مقعد صدق عند مليك مقتدر) . فإن قلت : ما وجه عطفه على القرآن إذا أريد به القرآن ؟ قلت : كما يعطف إحدى الصفتين على الأخرى في نحو قولك : هذا فعل السخي والجواد الكريم ، لأن القرآن هو المنزل المبارك المصدق لما بين يديه ، فكان حكمه حكم الصفات المستقلة بالمدح ، فكانه قيل : تلك الآيات آيات المنزل المبارك آى

كتاب مبين . وقرأ ابن أبي عتبة : وكتاب مبين بالرفع على تقدير : وآيات كتاب مبين ، لحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . فإن قلت : ما الفرق بين هذا وبين قوله : السر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ؟ قلت : لا فرق بينهما إلا ما بين المعطوف والمعطوف عليه من التقدم والتأخر ، وذلك على ضربين : ضرب جار مجرى التثنية لا يترجح فيه جانب على جانب ، وضرب فيه ترجح ، فالأول نحو قوله تعالى (وقولوا حطة) ، (وادخلوا الباب سجدا) ومنه ما نحن بصده . والثاني : نحو قوله تعالى (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم) ، (هدى وبشرى) في محل النصب أو الرفع ، فالنصب على الحال ، أى : هادية ومبشرة ؛ والعامل فيها ما في تلك من معنى الإشارة ، والرفع على ثلاثة أوجه ، على : هدى وبشرى ، وعلى البديل من الآيات ، وعلى أن يكون خبرا بعد خبر ، أى : جمعت أنها آيات ، وأنها هدى وبشرى . والمعنى في كونها هدى للؤمنين : أنها زائدة في هداهم . قال الله تعالى (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً) . فإن قلت ((وهم بالآخرة هم يوقنون)) كيف يتصل بما قبله ؟ قلت : يحتمل أن يكون من جملة صلة الموصول ، ويحتمل أن تتم الصلة عنده ويكون جملة اعتراضية ، كأنه قيل : وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة : هم الموقنون بالآخرة ، وهو الوجه . ويدل عليه أنه عقد جملة ابتدائية وكثر فيها المبتدأ الذي هو (هم) حتى صار معناها : وما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح ، لأن خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق^(١) .

(١) قال محمود : دكر الضمير حتى صار معنى الكلام : ولا يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح ، لأن خوف الآخرة يحملهم على تحمل المشاق ، قال أحمد : قد تقدم في غير موضع اعتقاد أن إيقاع الضمير مبتدأ بفيد الحصر ، كما مر له في قوله تعالى (هم ينشرون) أن معناه : لا ينشر إلا هم ، وعد الضمير من آلات الحصر كما مر ليس بيبين ، وقد بينا لجهي الضمير في سورة اقرب وجهها سوى الحصر . وأما وجه تكراره هنا - والله أعلم - فهو أنه لما كان أصل الكلام : وهم يوقنون بالآخرة ، ثم قدم المجرور على عامله عناية به فوقع فاصلا بين المبتدأ والخبر ، فأريد أن يلى المبتدأ خبره . وقد حال المجرور بينهما ، فطرى ذكره ليليه الخبر ، ولم يفت مقصود العناية بالمجرور . حيث بقى على حاله مقدما ، ولا يستنكر أن تعاد الكلمة مفصولة له وحدها بعد ما يوجب التطرية ، فأقرب منها أن الشاعر قال :

سل ذو عمل ذا وألحقنا بهذا الشحم إنا قد ملأناه بحمل

والأصل : وألحقنا بهذا الشحم ، فوقع منتصف الرجز أو منتهاه ، على القول بأن مشطور الرجز بيت كامل عند اللام وبني الشاعر على أنه لا بد عند المنتصف أو المنتهى من وقفة ما ، فقدرك تلك الوقفة بعد أن بين المرف وآلة التعريف فطراها ثانية ، فهذه التطرية لم تتوقف على أن يحول بين الأول وبين المكرر ولا كلمة واحدة ، سوى تقديره وقفة لطيفة لا غير ، فتأمل هذا الفصل فإنه جدير بالتأمل ، والله أعلم .

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَهُونَ ④
أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ كُفَّاءٌ ⑤

فإن قلت : كيف أسند تزوين أعمالهم إلى ذاته ، وقد أسنده إلى الشيطان في قوله (وزين لهم الشيطان أعمالهم) ؟ قلت : بين الإسنادين فرق ، وذلك أن إسناده إلى الشيطان حقيقة ، وإسناده إلى الله عز وجل ^(١) مجاز ، وله طريقان في علم البيان . أحدهما : أن يكون من المجاز الذي يسمى الاستعارة . والثاني : أن يكون من المجاز الحكيم . فالطريق الأول : أنه لما متعهم بطول العمر وسعة الرزق ، وجعلوا إناعام الله بذلك عليهم وإحسانه إليهم ذريعة إلى اتباع شهواتهم وبطورهم وإيثارهم الروح والترفه ، ونفاههم عما يلزمهم فيه التكاليف الصعبة والمشاق المتعبة ، فكانه زين لهم بذلك أعمالهم . وإليه أشارت الملائكة صلوات الله عليهم في قولهم (ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر) والطريق الثاني : أن إمهاله الشيطان وتخليته حتى يزين لهم ملابسة ظاهرة للتزين ، فأسند إليه لأن المجاز الحكيم يصححه بعض الملابس . وقيل : هي أعمال الخير التي وجب عليهم أن يعملوها : زينها لهم الله فعمهوا عنها وضلوا ، ويمزى إلى الحسن . والعمه : التحير والتردد ، كما يكون حال الضال عن الطريق . وعن بعض الأعراب : أنه دخل السوق وما أبصرها قط ، فقال : رأيت الناس عمهين ، أراد : مترددين في أعمالهم وأشغالهم (سوء العذاب) القتل والأسر يوم بدر . و (الأخسرون) أشد الناس خسراناً ؛ لأنهم لو آمنوا لكانوا من الشهداء على جميع الأمم ، ففسدوا ذلك مع خسران النجاة وثواب الله .

وَأِنَّكَ لَتَلْقَىٰ الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ⑥

(١) قال محمده : إن قلت كيف أسند التزوين إلى ذاته وقد أسنده إلى الشيطان في قوله (وزين لهم الشيطان أعمالهم) قلت : إن بين الإسنادين فرقا ، فالإسناد إلى الله مجاز ، وإلى الشيطان حقيقة . وقد روى عن الحسن أن المراد زيننا لهم أعمال البر فعمهوا عنها ولم يمتدوا إلى العمل بها ، قال أحمد : وهذا الجواب مبنى على القاعدة الفاسدة في إيجاب رعاية الصلاح والأصلح ، وامتناع أن يخلق الله تعالى للعبد إلا ما هو مصلحة ، فمن جعل إسناد التزوين إلى الله تعالى مجازاً ، وإلى الشيطان حقيقة ، ولو عكس الجواب لغاز بالصواب ، وتأمل ميله إلى التأويل الآخر : من أن المراد أعمال البر على بعده ؛ لأنه لا يعرض لقاعدته بالنقص ، وأتى لهم ذلك وقد أتى الله بنيانهم من القواعد ؛ على أن التزيين قد ورد في الخير في قوله تعالى (ولكن الله يحب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم) على أن غالب وروده في غير البر ، كقوله (زين للناس حب الشهوات) ، (زين للذين كفروا الحياة الدنيا) ، (وكذلك زين لكثير من المشركين) وما يبعد حمله على أعمال البر : إضافة الأعمال إليهم في قوله (أعمالهم) وأعمال البر ليست مضافة إليهم ؛ لأنهم لم يعملوها قط ، فظاهر الإضافة يعطى ذلك . ألا ترى إلى قوله تعالى (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) وقوله (قل لا تنهوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان) فأطلق الإيمان في المكانين عن إضافته إليهم ؛ لأنه لم يصدر منهم ، وأضاف الإسلام الظاهر إليهم ، لأنه صدر منهم ، والله أعلم .

(تلقى القرآن) لتو تاه وتلقنه (من) عند أي (حكيم) وأي (عليم) وهذا معنى مجيئهما زكرتين. وهذه الآية بساط وتمهيد، لما يريد أن يسوق بعدها من الأفاصيل وما في ذلك من لطائف حكمته ودقائق علمه.

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيَكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَشِيرٍ ۖ سَهَابٍ

قَبَسٍ لَّعَلَّكُم تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾

(إذ) منصوب بمضمر، وهو: اذكر، كأنه قال على أثر ذلك: خذ من آثار حكمته وعلمه قصة موسى. ويجوز أن ينصب بعليم. وروى أنه لم يكن مع موسى عليه السلام غير امرأته، وقد كفى الله عنها بالأهل، فتبع ذلك ورود الخطاب على لفظ الجمع، وهو قوله (امكثوا). الشهاب: الشعلة. والقبس: النار المقبوسة. وأضاف الشهاب إلى القبس لأنه يكون قبسا وغير قبس. ومن قرأ بالتثنية: جعل القبس بدلا، أو صفة لما فيه من معنى القبس. والخبر: ما يخبر به عن حال الطريق، لأنه كان قد ضله. فإن قلت: سآتيكم منها بخبر، ولعل آتيكم منها بخبر: كالتدافعين: لأن أحدهما ترج والآخر يتفن. قلت: قد يقول الراجي إذا قوى رجأؤه: سأفعل كذا، وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة. فإن قلت: كيف جاء بسين التسويف؟ قلت: عدة لأهله أنه يأتهم به وإن أبطأ، أو كانت المسافة بعيدة. فإن قلت: فلم جاء بأودون الواو؟ قلت: بنى الرجال على أنه إن لم يظفر بحاجتيه جميعاً لم يعدم واحدة منهما: إما هداية الطريق؛ وإما اقتباس النار، ثقة بعادة الله أنه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده، وما أدراه حين قال ذلك أنه ظافر على النار بحاجتيه السكيتين جميعاً، وهما العزآن: عز الدنيا، وعز الآخرة.

فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ

رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾

(أن) هي المفسرة: لأن النداء فيه معنى القول. والمعنى: قيل له بورك. فإن قلت: هل يجوز أن تكون المخففة من الثقيلة وتقديره: نودي بأنه بورك. والضمير ضمير الشأن؟ قلت: لا، لأنه لا بد من وقد. فإن قلت: فعلى إضمارها؟ قلت: لا يصح؛ لأنها علامة لا تحذف. ومعنى (بورك من في النار ومن حولها) بورك من في مكان النار، ومن حول مكانها. ومكانها: البقعة التي حصلت فيها وهي البقعة المباركة المذكورة في قوله تعالى (نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة) وتدل عليه قراءة أبي. تباركت الأرض ومن حولها. وعنه: بورك النار؛ والذي بورك له البقعة، وبورك من فيها وحوايلها حدوث أمر ديني فيها: وهو تكليم

الله موسى واستنباؤه له وإظهار المعجزات عليه ؛ وربّ خير يتجدد في بعض البقاع ، فينشر الله بركة ذلك الخير في أقاصيها ، ويدت آثار يمينه في أبعادها ، فكيف بمثل ذلك الأمر العظيم الذي جرى في تلك البقعة . وقيل : المراد بالمبارك فيهم : موسى والملائكة الحاضرون . والظاهر أنه عام في كل من كان في تلك الأرض وفي ذلك الوادي وحواليهما من أرض الشام ، ولقد جعل الله أرض الشام بالبركات موسومة في قوله (ونجيناه ولو طأ إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين) وحقت أن تكون كذلك ، فهي مبعث الانبياء صلوات الله عليهم ومبسط الوحي إليهم وكفاتهم أحياء وأمواتا . فإن قلت : فما معنى ابتداء خطاب الله موسى بذلك عند مجيئه ؟ قلت : هي بشارة له بأنه قد قضى أمر عظيم تنتشر منه في أرض الشام كلها البركة (وسبحان الله رب العالمين) تعجيب لموسى عليه السلام من ذلك ، وإيدان بأن ذلك الأمر مريده ومكونه رب العالمين ، تنبها على أن السكان من جلائل الأمور وعظام الشؤون .

بِمُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾

الماء في (إنه) يجوز أن يكون ضمير الشأن ، والشأن (أنا الله) مبتدأ وخبر . و (العزیز الحكيم) صفتان للخبر . وأن يكون راجعاً إلى ما دل عليه ما قبله ، يعني : أن مكلمك أنا ، والله بيان لأنا . والعزیز الحكيم : صفتان للبين ، وهذا تمهيد لما أراد أن يظهره على يده من المعجزة ، يريد : أنا القوى القادر على ما يبعد من الاوهام كقلب العصا حية ، الفاعل كل ما أفعله بحكمة وتدبير .

وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ بِمُوسَى
لَا تَخَفْ إِنِّي لَا خَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْثًا
سُوءَ قَالَتِي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾

فإن قلت : علام عطف قوله (وألق عصاك) ؟ قلت : على بورك ؛ لأن المعنى : نودى أن بورك من في النار ، وأن ألق عصاك : كلاهما تفسير لنودي . والمعنى : قيل له بورك من في النار ، وقيل له : ألق عصاك . والدليل على ذلك قوله تعالى (وأن ألق عصاك) بعد قوله (أن يا موسى إني أنا الله) على تكرير حرف التفسير ، كما نقول : كتبت إليك أن حج وأن اعتمر ، وإن شئت أن حج واعتمر . وقرأ الحسن : جانٌّ على لغة من يجده في الهرب من النقاء الساكنين ، فيقول : شاة ودابة . ومنها قراءة عمرو بن عبيد : ولا الضالين (ولم يعقب) لم يرجع ، يقال : عقب المقاتل ، إذا كثر بعد الفرار . قال :

قَا عَقَّبُوا إِذْ قِيلَ هَلْ مِنْ مُعَقِّبٍ وَلَا تَزُولُ أَيْوَمَ الْكَرِيمَةِ مَنَزِلًا^(١)

وإنما رعب لظنه أن ذلك لأمر أريد به ، ويدل عليه (إني لا يخاف لدى المرسلون) و (إلا) بمعنى ولكن ، لأنه لما أطلق نفي الخوف عن الرسل ، كان ذلك مظنة لطرق الشبهة ، فاستدرك ذلك . والمعنى : ولكن من ظلم منهم أى فرطت منه صغيرة بما يجوز على الأنبياء ، كالذى فرط من آدم ويونس وداود وسليمان وإخوة يوسف ، ومن موسى بوكزة القبطى ، ويوشك أن يقصد بهذا التعريض بما وجد من موسى ، وهو من التعريضات التى يلطف مأخذها . وسماء ظلما ، كما قال موسى (رب إني ظلمت نفسى فاغفر لى) والحسن ، والسوء : حسن التوبة ، وقبح الذنب . وقرئ : ألا من ظلم ، بحرف التنبيه . وعن أبى عمرو فى رواية عصمة : حسنا .

وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ^(١٢)

و (فى تسع آيات) كلام مستأنف ، وحرف الجز فيه يتعلق بمحذوف . والمعنى : اذهب فى تسع آيات (إلى فرعون) ونحوه :

فَقُلْتُ إِلَى الطَّعَامِ فَقَالَ مِنْهُمْ قَرِيبٌ تَحْسُدُ الْإِنْسَ الطَّعَامَا^(٢)

ويجوز أن يكون المعنى : وألق عصاك ، وأدخل يدك : فى تسع آيات ، أى : فى جملة تسع آيات وعدادهن . ولقائل أن يقول : كانت الآيات إحدى عشرة : ثنتان منها اليد والعصا ، والتسع : الفلق ، والطوفان ، والجراد ، والقمل . والضفادع ، والدم ، والطمسة ، والجذب فى بواديهن ، والنقصان فى مزارعهم .

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ^(١٣)

المبصرة : الظاهرة البينة . جعل الإبصار لها وهو فى الحقيقة لمناقليها ، لأنهم لا بسوها وكانوا بسبب منها ينظرون وتفكرهم فيها . ويجوز أن يراد بحقيقة الإبصار : كل ناظر فيها من كافة أولى العقل ، وأن يراد إبصار فرعون وملئه . لقوله (واستيقنتها أنفسهم) أو جعلت كأنها تبصر فتهدى ، لأن العمى لا تقدر على الاهتداء ، فضلا أن تهدى غيرها . ومنه قوله : كلمة عيناء ،

(١) يصف قوما بالجهن ، وإنهم إن قيل : هل من معقب وراجع على عقبه للحرب فاجعوا إليها ، ولا زلوا يوم الحرب منزلا من منازلها ، أى : لم يقدموا مرة على العدو . وروى : إذ قيل ، أى : حين ذلك .

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٢ فراجع إن شئت اه مصححه .

وكلمة عوراء. لأن الكلمة الحسنة ترشد، والسيئة تغوى. ونحوه قوله تعالى (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) فوصفها بالبصارة، كما وصفها بالإبصار. وقرأ علي بن الحسين رضي الله عنهما وقادة : مبصرة، وهي نحو : مجبنة ومبجلة ومجفرة ^(١)، أى : مكانا يكثر فيه التبصر.

وَجَعَدُوا بِهَا وَأَسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُظُمًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ

عَقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ١٤

الواو في (واستيقنتها) واو الحال، وقد بعدها مضمرة، والعلو : السكبر والترفع عن الإيمان بما جاء به موسى، كقوله تعالى (فاستكبروا وكانوا قوماً عالين) فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون) وقرئ : عليا، وعلياً بالضم والكسر، كما قرئ عتياً، وعتياً. وفائدة ذكر الأنفس : أنهم جحدوها بألسنتهم، واستيقنوها في قلوبهم وضمايرهم. والاستيقان أبلغ من الإيقان، وقد قوبل بين المبصرة والمبين، وأى ظلم أخش من ظلم من اعتقد واستيقن أنها آيات بيينة واضحة جاءت من عند الله، ثم كابر بتسميتها سحراً بينا مكشوفاً لا شبهة فيه.

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ

مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ١٥

(علما) طائفة من العلم ^(٢) أو علماً سنياً غزيراً. فإن قلت : أليس هذا موضع الفاء دون الواو، كقولك : أعطيته فشكر، ومنعته فصبر ؟ قلت : بلى، ولكن عطفه بالواو إشعار بأن ما قالاه بعض ما أحدث فيهما إتياء العلم وشيء من مواجبه، فأضمر ذلك ثم عطف عليه التحميد، كأنه قال : ولقد آتيناها علماً فعملنا به وعلماؤه وعرفاء حق النعمة فيه ^(٣) والفضيلة (وقالوا الحمد لله

(١) قوله « ومجفرة » في الصحاح « جفر الفعل عن الضراب » : إذا انقطع عنه . ومنه قيل : الصوم مجفرة ، أى قاطع للنكاح . (ع)

(٢) قال محمود : « ومعناه طائفة من العلم » قال أحمد : التبعض والتقليل من التنكير ، وكما يرد للتقليل من شأن المنكر ، فكذلك يرد للتعظيم من شأنه كما مر آنفاً في قوله تعالى (وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) ولم يقبل الحكيم العليم . والغرض من التنكير للتعظيم ، كأنه قال : من لدن حكيم عليم : فظاهر قوله (ولقد آتينا داود وسليمان علما) في سياق الامتنان تعظيم العلم الذي أوتياه ؛ كأنه قال : علما أى علم، وهو كذلك ؛ فأنزلناهما كان مما يستعظم ويستغرب ؛ ومن ذلك علم منطق الطائر وسائر الحيوانات الذي خصهما الله تعالى به وكل علم بالإضافة إلى علم الله تعالى قليل ضئيل ؛ والله أعلم .

(٣) قال محمود : « بجلا نعمة الله عليهما من حيث قولهما (فضلنا) وتواضعا بقولهما (على كثير) ولم يقلوا : على عباده ؛ اعترافاً بأن غيرهما بفضلهما ، حذراً من الترفع .

الذى فضلنا). والكثير المفضل عليه : من لم يؤت علماً . أو من لم يؤت مثل علمهما . وفيه : أنهما فضلاً على كثير وفضل عليهما كثير . وفي الآية دليل على شرف العلم وإنافة محله وتقدم حملته وأهله ، وأن نعمة العلم من أجل النعم . وأجزل القسم ، وأن من أوتي به فقد أوتي فضلاً على كثير من عباد الله ، كما قال (والذين أوتوا العلم درجات) ، وما سماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « ورثة الأنبياء »^(١) ، إلا لمدا ناتهم لهم في الشرف والمنزلة ، لأنهم القوام بما بعثوا من أجله . وفيها أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة لوازم ، منها : أن يحمّدوا الله على ما أوتوه من فضلهم على غيرهم . وفيها التذكير بالتواضع ، وأن يعتقد العالم أنه وإن فضل على كثير فقد فضل عليه مثله . وما أحسن قول عمر : كل الناس أقره من عمر^(٢) .

وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنَطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِمَّنْ

كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُو الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾

ورث منه النبوة والملك دون سائر بنيهِ . وكانوا تسعة عشر - وكان داود أكثر تعبداً ، وسليمان أقضى وأشكر لنعمة الله (وقال يا أيها الناس) تشهيراً لنعمة الله ، وتنوياً بها ، واعترافاً بمكانها ، ودعاء للناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير ، وغير ذلك مما أوتي من عظام الأمور . والمنطق : كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف ، المفيد وغير المفيد . وقد ترجم يعقوب بن السكيت كتابه بإصلاح المنطق ، وما أصلح فيه إلا مفردات الكلم ، وقالت العرب : نطق الحمامة ، وكل صنف من الطير يتفاهم أصواته ، والذي علمه سليمان من منطق الطير : هو ما يفهم بعضه من بعض من معانيه^(٣) وأغراضه . ويحكى أنه مر على بلبل في شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه . فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : الله ونبيه أعلم . قال يقول : أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء . وصاحت فاختة فأخبر أنها تقول : ليت ذا الخلق لم يخلقوا . وصاح طاووس ، فقال يقول : كآتين تدان . وصاح هدهد ، فقال يقول : استغفروا الله يا مذنبيين .

(١) أخرجه أبو دارود والترمذي وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي الدرداء ، من حديث واه ، من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً وفيه : إن العلماء ورثة الأنبياء ، وله طرق عند الطبراني . وفي الباب عن البراء وابن عمرو ابن العاص أخرجهما أبو نعيم في كتاب فضل العالم العفيف على الجاهل الشريف . وعن ابن مسعود أخرجه ابن حزم السهمي في تاريخ جرجان . وعن جابر أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد في ترجمة أحمد بن محمد التلجي . وفي إسناده الضحاك بن حجرة . وهو منهم بوضع الحديث

(٢) تقدم في سورة النساء

(٣) قوله « هو ما يفهم بعضه من بعض معانيه » عبارة التفسير : والمنطق : كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف

المفيد وغير المفيد ، وكان سليمان عليه السلام يفهم منها كما يفهم بعضها من بعض اه (ع)

وصاح طيطوى ، فقال يقول : كل حى ميت ، وكل جديد بال . وصاح خطاف فقال يقول : قدموا خيراً تجدوه . وصاحت رخمة ، فقال تقول : سبحان ربى الأعلى ملء سمائه وأرضه . وصاح قرى ، فأخبر أنه يقول : سبحان ربى الأعلى . وقال : الحدأ يقول : كل شىء هالك إلا الله . والقطة تقول : من سكت سلم . والبيغاء تقول : ويل لمن الدنيا همه . والديك يقول : اذكروا الله يا غافلين . والنسر يقول : يا ابن آدم عش ما شئت آخرك الموت . والعقاب يقول : فى البعد من الناس أنس . والضفدع يقول : سبحان ربى القدوس . وأراد بقوله (من كل شىء) كثرة ما أوتى ، كما تقول : فلان يقصده كل أحد ، ويعلم كل شىء ، تريد : كثرة قصاده ورجوعه إلى غزارة فى العلم واستكثار منه . ومثله قوله (وأوتيت من كل شىء) . (إن هذا هو الفضل المبين) قول وارد على سبيل الشكر والمحمدة ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا سيد ولد آدم ولا غر (١) ، أى : أقول هذا القول شكراً ولا أقوله غفراً . فإن قلت : كيف قال علمنا وأوتينا وهو من كلام المتكبرين ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يريد نفسه وأباه . والثانى : أن هذه النون يقال لها نون الواحد المطاع - وكان ملكاً مطاعاً - فكلم أهل طاعته على صفته وحاله التى كان عليها ، وليس التكبر من لوازم ذلك ، وقد يتعلق بتجمل الملك وتفخمه وإظهار آيئته (٢) وسياسته مصالح ، فيعود تكلف ذلك واجباً . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل نحواً من ذلك إذا وفد عليه وفد أو احتاج أن يرجع فى عين عدو . ألا ترى كيف أمر العباس رضى الله عنه بأن يحبس أبا سفيان حتى تمر عليه الكتابات (٣) .

وَحِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ قَعْمَ يُوَزْعُونَ (١٧)

روى أن معسكره كان مائة فرسخ فى مائة : خمسة وعشرون للجن ، وخمسة وعشرون للإنس ، وخمسة وعشرون للطير ، وخمسة وعشرون للوحش ، وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب ، فيها ثلثائة منكوحة . وسبعائة سرية ، وقد نسجت له الجن بساطاً من ذهب وإبريسم فرسخاً فى فرسخ ، وكان يوضع منبره فى وسطه وهو من ذهب ، فيقعد عليه وحوله ستمائة ألف كرسى من ذهب وفضة ، فيقعد الأنبياء على كراسى الذهب والعلماء على كراسى الفضة ، وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين ، وتظله الطير بأجنحتها حتى لا يقع عليه الشمس ،

(١) تقدم فى سورة يوسف

(٢) قوله « وإظهار آيئته » قيل : مراتبه وبهاؤه . وفى نسخة : أجهته ، فليحذر . (ع)

(٣) أخرجه البخارى من رواية هشام بن عروة عن أبيه فى قصة الفتح قال فأسلم أبو سفيان . فلما سار قال العباس احبس أبا سفيان عند حطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين : لحبس العباس ، فجعلت الكتابات تمر مع النبى صلى الله عليه وسلم ككتيبة بعد كتيبة ، وأخرجه البيهقى فى الدلائل من طريق عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما .

وترفع ریح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر . ويروى أنه كان يأمر الريح العاصف تحمله ، ويأمر الرخاء تسيره ، فأوحى الله إليه وهو يسير بين السماء والأرض : إني قد زدت في ملكك لا يتكلم أحد بشيء إلا ألقته الريح في سمعك ، فيحكى أنه مر بحزات فقال : لقد أوتى آل داود ملكا عظيما ، فألقته الريح في أذنه ، فنزل ومشى إلى الحزات وقال : إنما مشيت إليك اثلا تنمى ما لا تقدر عليه ، ثم قال : لتسيحة واحدة بقلبها الله ، خير مما أوتى آل داود ﴿ يوزعون ﴾ يحبس أولهم على آخرهم ، أى : توقف سلاف العسكر ^(١) حتى تلحقهم التوالى فيكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم أحد ، وذلك للكثرة العظيمة .

حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ

لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾

قيل : هو واد بالشام كثير النمل . فان قلت : لم عدى (أتوا) بعلى ؟ قلت : يتوجه على معنيين أحدهما : أن إتيانهم كان من فوق ، فأتى بحرف الاستعلاء ، كما قال أبو الطيب :

• وَلَشُدَّ مَا قُرْبَتْ عَلَيْكَ الْأَنْجُمُ • ^(٢)

لما كان قريبا من فوق . والثاني : أن يراد قطع الوادى وبلوغ آخره ، من قولهم : أتى على الشيء إذا أنفذه وبلغ آخره كأهم أرادوا أن ينزلوا عند منقطع الوادى ، لأنهم ما دامت الريح تحملهم في الهواء لا يخاف حطهم . وقرئ نملة يأبها النمل ، بضم الميم وبضم النون والميم ، وكان الأصل : النمل ، بوزن الرجل ، والنمل الذى عليه الاستعمال : تخفيف عنه ، كقولهم : السبع ، في السبع . قيل : كانت تمشى وهى عرجاء تنكاوس ^(٣) ، فنادت : يا أيها النمل : الآية ، فسمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال . وقيل : كان اسمها طاخية . وعن قتادة أنه دخل الكوفة

(١) قوله « سلاف العسكر » أى متقدموهم . أنافه الصحاح . (ع)

(٢) فلشد ما جاوزت قدرك صاعداً ولشد ما قربت عليك الأنجم

لأبي الطيب المنبى ، طاب منه رجل المدح ، فأبى وقال ذلك ، واللام للتأكيد ، وشد على صورة المبني للجول للتعجب ، وأصله شدد كحن ، فنقل ضم الدال إلى الشين وأدغم ، كما هو قياس بناء التعجب ، أى . ما أشد مجاوزتك لقدرك ، يعنى : كثرت مجاوزتك لمقدارك ، حال كونك صاعداً فيما ليس لك من الرفعة ، وقال : عليك ، دون : إليك ؛ لأن قرب الأنجم من جهة العلو ، أى : كثر عندك قرب النجوم إليك من فوق ، ثم يحتمل أن النجوم حقيقة فقد بنى على الصعود المعنوى ما ينبئ على الصعود الحسى ، للبالغة في تشبيه الأول بالثاني . ويحتمل أنها مستعارة لشعره الذى هو النجوم فى الحسن ، وعزة الوصول إليه على طريق التصريح ، ففيه شبه التورية .

(٣) قوله « تنكاوس » فى الصحاح : كوست على رأسه تكويساً ، أى : قلبته . وكأس هو يكوس : إذا فعل

ذلك . وكأس البعير : إذا مشى على ثلاث قوائم وهو معرّب . (ع)

فالتفت عليه الناس ، فقال : سلوا عما شئتم ، وكان أبو حنيفة رحمه الله حاضرا - وهو غلام حدث - . فقال : سلوه عن نملة ساجان ، أكانت ذكرا أم أنثى ؟ فسألوه فأخبرهم ، فقال أبو حنيفة : كانت أنثى ، فقيل له : من أين عرفت ؟ قال : من كتاب الله ، وهو قوله (قالت نملة) ولو كانت ذكرا لقال : قال نملة ، ^(١) وذلك أن النملة مثل الحمامة والشاة في وقوعها على الذكر والأنثى ، فيميز بينهما بعلامة ، نحو قولهم : حمامة ذكر ، وحمامة أنثى ، وهو وهى . وقرئ : مسكنكم ولا يحطمنكم ، بتخفيف النون ، وقرئ لا يحطمنكم بفتح الحاء وكسر ها . وأصله : يحططنكم . ولما جعلها قائلة والنمل مقولا لهم كما يكون فى أولى العقل : أجرى خطابهم مجرى خطابهم . فإن قلت : لا يحططنكم ما هو ؟ قلت : يحتمل أن يكون جوابا للأمر ، وأن يكون نهيها بدلا من الأمر ، والذي يجوز أن يكون بدلا منه : أنه فى معنى : لا تكونوا حيث أتم فيحططنكم ، على طريقة : لا أرينك ههنا ، أراد : لا يحططنكم جنود سليمان ، فجاء بما هو أبلغ ، ونحوه : عجبت من نفسى ومن إشفاقها .

فَتَبَسَّ صَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ

فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ١٩

ومعنى (تبسم ضاحكا) تبسم شارعا فى الضحك وآخذا فيه ، يعنى أنه قد تجاوز حد التبسم إلى الضحك ، وكذلك ضحك الأنبياء عليهم السلام . وأما ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه ^(٢) فالغرض المبالغة فى وصف ما وجد منه من الضحك

(١) قال محمود لما دخل قتادة الكوفة التفت عليه الناس ، فقال : سلوا عما شئتم ، فقال أبو حنيفة - وكان شابا - : سلوه عن النملة التى كتلت سليمان ، أذكر كانت أم أنثى ؟ فسألوه فأخبرهم ، فقال أبو حنيفة : كانت أنثى فقيل : كيف لك ذلك ؟ قال : لأن الله عز وجل قال (قالت نملة) ، ولو كانت ذكرا لقال : قال نملة ، قال أحد : لا أدرى العجب منه أم من أنى حنيفة أن ثبت ذلك عنه ، وذلك أن النملة كالحمامة والشاة تجمع على الذكر وعلى الأنثى لأنه اسم جنس ، يقال : نملة ذكر ونملة أنثى ، كما يقولون حمامة ذكر وحمامة أنثى ، وشاة ذكر وشاة أنثى ، فلفظها مؤنث . ومعناه محتمل ، فيمكن أن تؤنث لأجل لفظها ، وإن كانت واقعة على ذكر . بل هذا هو الفصيح المستعمل . ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تضحى بعرواء ولا بعجفاء ولا بعبياء » كيف أخرج هذه الصفات على اللفظ مؤنثة ولا يعنى الإناث من الأنعام خاصة . فحينئذ قوله تعالى (قالت نملة) روعى فيه تأنيث اللفظ . وأما المعنى فيحتمل على حد سواء ، وإنما أطلقت فى هذا وإن كان لا يمتشى عليه حكم ، لأنه نسبة إلى الامام أبى حنيفة على بصيرته باللغة ، ثم جعل هذا الجواب معجبا لتعان على غزارة علمه وتبهره بالمقولات ؛ ثم قرر الكلام على ما هو عليه مصونا له ، فيا للعجب العجيب ، والله الموفق للصواب .

(٢) وقعت فى هذه الجملة عدة أحاديث . منها حديث ابن مسعود « جاء رجل من اليهود . فقال : يا محمد ، إن الله يمسك السموات على أصبع الحديث . وفيه فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه » متفق ==

النبي، وإلا فبدق النواجد على الحقيقة إنما يكون عند الاستغراب، وقرأ ابن السميع : ضحكاً ، فإن قلت : ما أضحكك من قولها ؟ قلت : شينان ، إعجابه بما دل من قولها على ظهور رحمته ورحمة جنوده وشفقتهم ، وعلى شهرة حاله وحالهم في باب التقوى ، وذلك قولها (وهم لا يشعرون) تعني أنهم لو شعروا لم يفعلوا . وسروره بما آتاه الله مما لم يؤت أحداً : من إدراكه بسمعه ما همس به بعض الحسك^(١) الذي هو مثل في الصغر والقلة ، ومن إحاطته بمعناه ، ولذلك اشتمل دعاؤه على استيراع الله شكر ما أنعم به عليه من ذلك ، وعلى استيفائه^(٢) لزيادة العمل الصالح والتقوى . وحقيقة (أوزعني) اجعلني أزع شكر نعمتك عندي ، وأكفه وأربطه لا ينفلت عني ، حتى لا أنفك شاكرًا لك . وإنما أدرج ذكر والديه لأن النعمة على الولد نعمة على الوالدين ، خصوصاً النعمة الراجعة إلى الدين ، فإنه إذا كان تقياً نفعهما بدعائه وشفاعته وبدعاء المؤمنين لهما كلما دعوا له ، وقالوا : رضى الله عنك وعن والدك . وروى

== عليه . ومنها حديثه ، رفوعاً «إني لأعلم آخر أمل النار خروجا منها - الحديث . وفيه : قول الرجل : أنخر بي وأنت الملك ؟ قال : ولقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه» متفق عليه أيضاً . ومنها حديث أبي ذر رضى الله عنه «يؤتى برجل يوم القيامة . فيقال اعرض عليه صفار ذنوبه - الحديث . وفيه : فلقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم إلى آخره» أخرجه مسلم . ومنها حديث أبي سعيد - رفته - «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة - الحديث . وفيه : فظفر إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ضحك حتى بدت نواجذه» متفق عليه ومنها حديث جابر «دخل أبو بكر والقوم جلوس على الباب - فذكر الحديث وفيه : فقال عمر : لو رأيت بنت عارضة وهي تسأني النفقة فقمتم فوجأت عنقها . قال : فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه» أخرجه مسلم . ومنها حديث ابن عمر رضى الله عنهما «كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة فأصاب الناس محصة - الحديث . وفيه : فلم يبق في الجيش وعاء إلا ملئ . وبقى مقله . فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه» أخرجه ابن حبان والحاكم . ومنها حديث سلة بن الأكوع «قدمنا الحديبية - الحديث . وفيه : قلت يا رسول الله ، خلني أنتخب من القوم مائة رجل ، فأتابع القوم ، فلا أبقى منهم أحداً إلا قتلت ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه» وهو حديث طويل . وفيه هذه اللفظة في موضع آخر أخرجه مسلم . ومنها حديث زيد بن أرقم «أتى على رضى الله عنه - وهو باليمن - بثلاثة وقعوا على امرأة في طهر واحد - الحديث . وفيه : فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فضحك حتى بدت نواجذه» أخرجه أبو داود وابن حبان والحاكم . ومنها حديث أم أيمن «قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالليل ، فبال في غارته . فقمتم وأنا عطشانة فشربته وأنا لا أشعر فلما أصبح أمرني أن أمربها فقلت : إني شربتها ، فضحك حتى بدت نواجذه» أخرجه الحاكم . ومنها حديث صهيب في أكلة التمر وهو أرمد . فقال «إنما آكله من شق عيني الصحيحة» . قال : فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه» أخرجه البزار بتمامه . وبعضه لابن ماجه والحاكم . ومنها حديث ابن عباس «كان عبد الله ابن رواحة مضطجعاً إلى جنب امرأته . فقام إلى جارية له فوقع عليها - الحديث . وفيه : الشعر . وقول المرأة : آمنت بالله وكذبت البصر» . قال : ففدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فضحك حتى بدت نواجذه» أخرجه البزار وإسناده ضعيف .

(١) قوله «ما همس به بعض الحسك» في الصحاح «الحسك» : ما لا يسمع له صوت . (ع)

(٢) قوله «وعلى استيفائه لزيادة العمل» في الصحاح «استوفقت الله» : سألته التوفيق . (ع)

أن النملة أحسّت بصوت الجنود ولا تعلم أنهم في الهواء ، فأمر سليمان الريح فوفقت لتلايندعرن حتى دخلن مساكنهن ، ثم دعا بالدعوة . ومعنى ﴿ وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ واجعلني من أهل الجنة .

وَتَقَعَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠)
لَا عَذْبَ بَنَّةٍ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا ذُبْحَنُ أَوْ لَمَأْتِيئِي سُلْطَنٍ مُبِينٍ (٢١)

(أم) هي المنقطعة : نظر إلى مكان الهدهد فلم يبصره ، فقال (مالي لا أرى) على معنى أنه لا يراه وهو حاضر لسان ستره أو غير ذلك ، ثم لاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول : أهو غائب ؟ كأنه يسأل عن صحة ما لاح له . ونحوه قولهم : إنها لا بل أم شاء ، وذكر من قصة الهدهد أن سليمان حين تم له بناء بيت المقدس تجهز للحج بحشره ^(١) ، فوافى الحرم وأقام به ما شاء ، وكان يقرب كل يوم طول مقامه بخمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف بقرة وعشرين ألف شاة ، ثم عزم على السير إلى اليمن فخرج من مكة صباحاً يوم سهيلاً ، فوافى صنعاء وقت الزوال ؛ وذلك مسيرة شهر ، فرأى أرضاً حسناء أعجبه خضرتها ، فنزل ليتغذى ويصلى فلم يجدوا الماء ، وكان الهدهد قناقته ^(٢) ، وكان يرى الماء من تحت الأرض كما يرى الماء في الزاجفة فيجىء الشياطين فيسألونهم كما يسألخ الإهاب ويستخرجون الماء ، فتفقده لذلك ، وحين نزل سليمان خلق الهدهد فرأى هدهداً واقعاً ، فانحط إليه فوصف له ملك سليمان وما سخر له من كل شيء ، وذكر له صاحبه ملك بلقيس ، وأن تحت يده اثني عشر ألف قائد تحت كل قائد مائة ألف وذهب معه لينظر فارجع إلا بعد العصر . وذكر أنه وقعت نفحة من الشمس على رأس سليمان فنظر فإذا موضع الهدهد خال فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عنه فلم يجد عنده عليه ، ثم قال لسيد الطير وهو العقاب : عليّ به ، فارتفعت فنظرت ، فإذا هو مقبل فقصدته . فناشدها الله وقال : بحق الذي قواك وأقدرك عليّ إلا رحمتي ، فتركته وقالت : نكلك أمك ، إن نبي الله قد حلف ليعذبك ؛ قال : وما استنني ؟ قالت : بلى قال : أولياً تبنى بعذر مبين ، فلما قرب من سليمان أرخى ذنبه وجناحيه يحزها على الأرض تواضعاً له ، فلما دنا منه أخذ برأسه فذه إليه . فقال : يانبي الله ؛ اذكر وقوفك بين يدي الله ؛ فارتعد سليمان وعفا عنه ؛ ثم سأله . تعذيبه : أن يؤذّب

(١) قوله « تجهز للحج بحشره » في الصحاح : حشرت الناس أحشرهم حشراً : جمعهم . ومنه : يوم الحشر . (ع)

(٢) قوله « وكان الهدهد قناقته » القناتن - بالضم - : الدليل الهادي والبصير بالماء في حفر القنى . والحقى : جمع قناة . أفاده الصحاح في موضعين . (ع)

بما يحتمله حاله ليعتبر به أبناء جنسه . وقيل : كان عذاب سليمان للطير أن ينتف ريشه ويشمسه . وقيل : أن يطلى بالطيران ويشمس . وقيل : أن يلقي للنمل تأكله . وقيل : إيداعه القفص . وقيل : التفريق بينه وبين إلفه . وقيل : لألزمته صحة الأضداد . وعن بعضهم : أضيق السجون معاشرة الأضداد . وقيل : لألزمته خدمة أقرانه . فإن قلت : من أين حل له تعذيب الهدهد ؟ قلت : يجوز أن يبيع له الله ذلك . لما رأى فيه من المصلحة والمنفعة ؛ كما أباح ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع ؛ وإذا سخر له الطير ولم يتم ما سخر له من أجله إلا بالتأديب والسياسة : جاز أن يباح له ما يستصلح به . وقرئ : ليأتيني . وليأتين . والسلطان : الحجة والعذر . فإن قلت : قد حلف على أحد ثلاثة أشياء : خلفه على فؤليه لا مقال فيه ، ولكن كيف صح حلفه على فعل الهدهد ؟ ومن أين درى أنه يأتي بسلطان ، حتى يقول والله ليأتيني بسلطان ؟ قلت : لما نظم الثلاثة وبأوه في الحكم الذي هو الحلف : آل كلامه إلى قولك : ليسكون أحد الأمور ، يعنى : إن كان الإتيان بالسلطان لم يكن تعذيب ولا ذبح ، وإن لم يكن كان أحدهما ، وليس في هذا ادعاء دراية ، على أنه يجوز أن يتعقب حلفه بالفعلين وحتى من الله بأنه سيأتيه بسلطان مبين ، فقلت بقوله (أو ليأتيني بسلطان مبين) عن دراية وإيقان .

فَكَتَّ غَيْرَ يَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ

بَنِيَاءٍ يَقِينٍ ٢٢

(فككت) قرئ بفتح الكاف وضمها (غير بعيد) غير زمان بعيد ، كقوله : عن قريب . ووصف مكثه بقصر المدة للدلالة على إسرعه خوفاً من سليمان ، وليعلم كيف كان الطير مسخره له ، وليبان ما أعطى من المعجزة الدالة على نبوته وعلى قدرة الله تعالى (أحطت) يادغام الطاء في التاء بإطباق وبغير إطباق : ألهم الله الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام على مأوتى من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة والإحاطة بالمعلومات الكثيرة ، ابتلاء له في علمه ، وتنبيهها على أن في أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علماً بما لم يحط به ، لتحاقر إليه نفسه ويتصاغر إليه علمه ، ويكون لطفاً له في ترك الإعجاب الذي هو فتنة العلماء وأعظم بها فتنة ، والإحاطة بالشيء علماً : أن يعلم من جميع جهاته لا يخفى منه معلوم . قالوا : وفيه دليل على بطلان قول الرافضة إن الإمام لا يخفى عليه شيء ، ولا يكون في زمانه أحد أعلم منه . سبأ : قرئ بالصرف ومنعه . وقد روى بسكون الباء . وعن ابن كثير في رواية : سبأ ، بالالف كقوله : ذهبوا أيدي سبأ . وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، فمن جعله اسماً للقبيلة لم يصرف ، ومن جعله اسماً للحي أو الأب الأكبر صرف . قال :

مِنْ سَبَاءِ الْحَاضِرِينَ مَأْرَبَ إِذْ يَبْنُونَ مِنْ دُونِ سَبِيلِ الْعَرَمَا ^(١)
وقال :

الْوَارِدُونَ وَتِيمٌ فِي ذُرَى سَبَاءٍ قَدْ عَضَّ أَعْنَاقَهُمْ حِلْدُ الْجَوَامِيسِ ^(٢)

ثم سميت مدينة مأرب بسبأ، وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث، كما سميت معافر بمعافرين أذ. ويحتمل أن يراد المدينة والقوم. والنبا: الخبر الذي له شأن. وقوله ﴿من سبأ بنيا﴾ من جنس الكلام الذي سماه المحدثون البديع، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلق ^(٣) باللفظ، بشرط أن يحى مطبوعا. أو يصنعه عالم بجوهر الكلام يحفظ معه صحة المعنى وسداده، ولقد جاء ههنا زائداً على الصحة فحسن وبدع لفظاً ومعنى. ألا ترى أنه لو وضع مكان بنيا بنجر، لكان المعنى صحيحا، وهو كما جاء أصح، لما في النبا، من الزيادة التي يطابقها وصف الحال.

إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ^(١٣)

المرأة بلقيس بنت شراحيل، وكان أبوها ملك أرض اليمن كلها، وقودله أربعون ملكا ولم يكن له ولد غيرها، فغلبت على الملك، وكانت هي وقومها يجوساً يعبدون الشمس. والضمير في ﴿تملكهم﴾ راجع إلى سبأ. فإن أريد به القوم فالأمر ظاهر، وإن أريدت المدينة فعنائه تملك أهلها. وقيل في وصف عرشها: كان ثمانين ذراعا في ثمانين وسمكة ثمانين. وقيل ثلاثين مكان ثمانين، وكان من ذهب وفضة مكللا بأنواع الجواهر، وكانت قوائمه من ياقوت أحمر وأخضر ودرّ وزمرد، وعليه سبعة أبيات على كل بيت باب مقلق. فإن قلت: كيف استعظم عرشها مع ما كان يرى من ملك سليمان؟ قلت: يجوز أن يستصغر حالها إلى حال سليمان، فاستعظم لها ذلك العرش. ويجوز أن لا يكون لسليمان مثله وإن عظمت ملكته في كل شيء، كما يكون لبعض

(١) يمدح رجلا بأنه من قبيلة سبأ، وهو في الأصل اسم لابن يشجب بن يعرب بن قحطان، ثم سميت به القبيلة ومأرب: مدينتها. وقيل: قصر للملكهم، وهو مفعول الحاضرين منوع من العرف. وإذ ظرف. ومن دون بمعنى أمام. والعزم: السد العظيم، يحبس السيل عن المدينة.

(٢) أي الواردون هم، وتيم: اسم قبيلة في أعلى أرض سبأ. والمراد بجلد الجواميس: الجبال المفتولة منه لتغفل بها الأسرى في أعناقهم، فشبهت ما يصح منه العض لصلابتها على طريق المكنية، والعض تخييل، ويصح استعارته للقرص على طريق التصريحية، وسبأ: في الأصل: لقب رجل من قحطان اسمه عبدشمس، لأنه أول من سبي كان له عشرة أولاد، فذهب ستة إلى اليمن: حمير، وكندة، والأسد، وأشعر، وقشعم، وبجيلة. وذهب أربعة إلى الشام: لحم، وجذام، وعاملة، وغسان. وبها سميت قبائلهم المشهورة.

(٣) قوله «الذي يتعلق» لعله: التي تتعلق. (ع)

أمراء الاطراف شيء لا يكون مثله للبلك الذي يملك عليهم أمرهم ويستخدمهم . ومن نوكتي القصاص ^(١) من يقف على قوله (ولها عرش) ثم يبتدئ (عظيم وجدتها) يريد : أمر عظيم ، أن وجدتها وقومها يسجدون للشمس ، فز من استعظام الهدهد عرشها ، فوقع في عظيمة وهي مسخ كتاب الله . فإن قلت : كيف قال (وأوتيت من كل شيء) مع قول سليمان (وأوتينا من كل شيء) (كانه سوى بينهما ؟ قلت : بينهما فرق بين : لأن سليمان عليه السلام عطف قوله على ما هو معجزة من الله ، وهو تعليم منطلق الطير ، فرجع أولا إلى مأوتى من النبوة والحكمة وأسباب الدين ، ثم إلى الملك وأسباب الدنيا ، وعطفه الهدهد على الملك فلم يرد إلا ما أوتيت من أسباب الدنيا اللاتفة بحالها فبين الكلامين يون بعيد . فإن قلت : كيف خفي على سليمان مكانها وكانت المسافة بين محطه وبين بلدها قريبة ، وهي مسيرة ثلاث بين صنعاء ومأرب ؟ قلت : لعل الله عز وجل أخفى عنه ذلك لمصلحة رآها ، كما أخفى مكان يوسف على يعقوب .

وَجَدْنَاهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ
فَصَدَّوْهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾

فإن قلت : من أين للهدهد التهدي إلى معرفة الله ، ووجوب السجود له ، وإنكار سجودهم للشمس وإضافته إلى الشيطان وتزيينه ؟ قلت : لا يبعد أن يلهمه الله ذلك كما ألهمه وغيره من الطيور وسائر الحيوان المعارف اللطيفة التي لا يكاد العقلاء الرجاح العقول يهتدون لها ، ومن أراد استقرار ذلك فعليه بكتاب الحيوان ، خصوصا في زمن نبي سخرت له الطيور وعلم منطقتها ، وجعل ذلك معجزة له . من قرأ بالتشديد أراد : فصدهم عن السبيل لئلا يسجدوا لحذف الجار مع أن . ويجوز أن تكون ولا ، مزيدة ، ويكون المعنى : فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا . ومن قرأ بالتخفيف ، فهو ألا يسجدوا . ألا للتثنية ، وياحرف النداء . ومناداه محذوف ، كما حذفه من قال :

* أَلَا يَا أَسْلَى يَادَارَ حَيَّ عَلَى الْبَلَى * (٢)

(١) قوله «ومن نوكتي القصاص» النوكى : جمع أنوك ، وهو الاحمق . (ع)

(٢) أَلَا يَا أَسْلَى يَادَارِى عَلَى الْبَلَى ولا زال منها بإعرافك القطر

لدى الرمة . وألا استفتاحية للتثنية ، فلا معنى ليا إلا النداء . والمنادى بها محذوف ، تقديره : يادارى أسلى . فاستغنى عنه بما بعده ؛ وحذفه اهتماما بطلب السلامة لها . وفي تكرير ندائها : نوع تفجع . وى : مرخم مية .

وفي حرف عبد الله وهي قراءة الأعمش: هلاهم هلا: بقلب الهمزتين هاء. وعن عبد الله: هلا تسجدون بمعنى ألا تسجدون على الخطاب. وفي قراءة أبي: ألا تسجدون لله الذي يخرج الخبء من السماء والأرض ويعلم سركم وما تعلنون. وسمى الخبوء بالمصدر: وهو النبات والمطر وغيرهما مخبأه عز وعلام من غيوبه. وقرئ: الخب، على تخفيف الهمزة بالحاء. والخباء، على تخفيفها بالقلب، وهي قراءة ابن مسعود ومالك بن دينار. ووجهها: أن تخرج على لغة من يقول في الوقف: هذا الخبوء، رأيت الخبء، ومررت بالخبى. ثم أجرى الوصل بجرى الوقف، لا على لغة من يقول: السكأة والحمأة؛ لأنها ضعيفة مستزلة. وقرئ: يخفون ويعلمون، بالياء والتاء. وقيل: من أحطت إلى العظيم^(١): هو كلام الهدهد. وقيل: كلام رب العزة. وفي إخراج الخبء: أمانة على أنه من كلام الهدهد لهندسته ومعرفة المساء تحت الأرض، وذلك بإلهام من يخرج الخبء في السموات والأرض جلست قدرته ولطف عليه، ولا يكاد تخفى على ذى الفراسة النظر بشور الله مخائل كل مخنص بصناعة أو فن من العلم في روايته^(٢) ومنطقه وشبائله، ولهذا ورد: ما عمل عبد عملا إلا أتى الله عليه ردها عمله. فإن قلت: أسجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعا أم في إحداهما؟ قلت: هي واجبة فيهما جميعا، لأن مواضع السجدة إما أمرئها، أو مدح لمن أتى بها، أو ذم لمن تركها، وإحدى القراءتين أمر بالسجود. والآخرى ذم للتارك. وقد اتفق أبو حنيفة والشافعي رحمهما الله على أن تسجدات القرآن أربع عشرة، وإنما اختلفا في سجدة ص: فهي عند أبي حنيفة سجدة تلاوة. وعند الشافعي: سجدة شكر. وفي سجدة سورة الحج وما ذكره الزجاج من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد، فغير مرجوع إليه. فإن قلت: هل يفرق الواقف بين القراءتين؟ قلت: نعم إذا خفف وقف على (فهم لا يهتدون) ثم ابتداء (ألا يا سجدوا)، وإن شاء وقف على (ألا يا) ثم ابتداء (اسجدوا) وإذا شدد لم يقف إلا على (العرش العظيم). فإن قلت: كيف سوى الهدهد بين عرش بلقيس وعرش الله في الوصف بالعظم؟ قلت: بين الوصفين بون عظيم، لأن وصف عرشها بالعظم: تعظيم له بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك. ووصف عرش الله بالعظم: تعظيم له بالنسبة إلى سائر ما خلق من السموات والأرض. وقرئ: العظيم، بالرفع.

== وترقيم المضاعف إليه: ضرورة حسننا سبق النداء. وعلى: بمعنى مع، أى: اسلمى ولو كنت بالية، لأنه إن لم تبق الدار كفتى الآثار. ومنها: منصبا، والمرعاء: مؤنث الأجرع، وهو الموضع المختلط ترابه بالحصى. والقطر: المطر، يدهو لما بالخصب.

(١) قوله «وقيل من أحطت إلى العظيم» في الباب: أن الخلاف في: ألا يسجدوا - إلى - العظيم، وما دل إليه

في التريب اه من هامش (ع)

(٢) قوله «في روايته» بالعزم، أى: منظره. أفاده الصحاح. (ع)

قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا
فَأَلْفَهُ إِلَهُي نُمُ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَأَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾

(سننظر) من النظر الذي هو التأمل والتصفح . وأراد : أصدقت أم كذبت ، إلا أن (كنت من الكاذبين) أبلغ ، لأنه إذا كان معروفاً بالانحراف في سلك الكاذبين كان كاذباً بالاحالة ، وإذا كان كاذباً اتهم بالكذب فيم أخبر به فلم يوثق به ، ^(١) (تول عنهم) تنح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه ، ليكون ما يقولونه بمسمع منك . و(يرجعون) من قوله تعالى (يرجع بعضهم إلى بعض القول) فيقال : دخل عليها من كوة فألقى الكتاب إليها وتوارى في الكوة . فإن قلت : لم قال : فألقه إليهم ، على لفظ الجمع ؟ قلت : لأنه قال : وجدتها وقومها يسجدون للشمس ، فقال : فألقه إلى الذين هذا دينهم ، اهتماماً منه بأمر الدين ، واشتغاله به عن غيره . وبني الخطاب في الكتاب على لفظ الجمع لذلك .

قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أَتَىٰ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلَمُوْا عَلَيَّ وَأُتُوْنِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾

(كريم) حسن مضمونه وما فيه ، أو وصفته بالكرم ، لأنه من عند ملك كريم أو محتوم . قال صلى الله عليه وسلم : «كرم الكتاب ختمه» ^(٢) ، وكان صلى الله عليه وسلم يكتب إلى العجم ، فقليل له : إنهم لا يقبلون إلا كتاباً عليه خاتم ، فاصطنع خاتماً ^(٣) . وعن ابن المقفع : من كتب إلى أخيه كتاباً ولم يختمه فقد استخف به . وقيل : مصدر ببسم الله الرحمن الرحيم : هو استئناف وتبيين لما ألقى إليها ، كأنها لما قالت : إني ألقى إلى كتاب كريم ، قيل لها : من هو ؟ وما هو ؟ فقالت : إنه من سليمان وإنه : كيت وكيت . وقرأ عبد الله : وإنه من سليمان وإنه ، عطفاً على : إني . وقرئ : أنه من سليمان وأنه ، بالفتح على أنه بدل من كتاب ، كأنه قيل : ألقى إلى أنه من سليمان . ويجوز أن تريد : لأنه من سليمان ولأنه ، كأنها عللت كرمه بكونه من سليمان ، وتصديره

(١) قال محمود : «ومعناه أصدقت أم كذبت ، إلا أن عبارة الآية أبلغ ؛ لأنه إذا كان معروفاً بالكذب اتهم في جملة إخباره فلم يوثق به» قال أحمد : وهذا مما نهت عليه في سورة الشعراء من العدول عن الفعل الذي هو : أم كذبت ، وعن مجرد صفته في قوله : أم كنت كاذباً ، إلى جملة واحداً من الفئة الموسومة بالكذب ، فهو أبلغ في مقصود سياق الآية من التهديد . والله أعلم .

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط من رواية محمد بن مروان . وهو السدي الصغير عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس . وأخرجه القضاعي في مسند البيهقي .

(٣) متفق عليه من رواية قتادة عن أنس قال : أراد أن يكتب ... فذكره .

باسم الله . وقرأ أبى : أن من سليمان وأن بسم الله ، على أن المفسرة . وأن فى ﴿ألا تعلوا﴾ مفسرة أيضا . لا تعلوا : لا تتكبروا كما يفعل الملوك . وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما بالغين معجمة من الغلو : وهو مجاوزة الحد . يروى أن نسخة الكتاب من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ : السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فلا تعلوا على واثتوني مسلمين ، وكانت كتب الأنبياء عليهم السلام جملا لا يطيئون ولا يكثرون ، وطبع الكتاب بالمسك وختمه بخاتمه ، فوجدها الهدم راقدة فى قصرها بمأرب ، وكانت إذا رقدت غلقت الأبواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها ، فدخل من كوة وطرح الكتاب على نحرها وهى مستلقية . وقيل : نقرها فانتهت فرقة . وقيل : أنها والقادة والجنود حوالها ، فرفرف ساعة والناس ينظرون حتى رفعت رأسها ، فألقى الكتاب فى حجرها ، وكانت قارئة كاتبة عربية من نسل تبع بن شراحيل الحميرى ؛ فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت ، وقالت لقومها ما قالت ﴿مسلمين﴾ منقادين أو مؤمنين .

قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِى فِى أَمْرِى مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُوْا ۖ (٣٢)

الفتوى : الجواب فى الحادثة ، اشتقت على طريق الاستعارة من الفتى فى السن . والمراد بالفتوى ههنا : الإشارة عليها بما عندهم فيما حدث لها من رأى والتدبير ، وقصدت بالانقطاع إليهم والرجوع إلى استشارتهم واستطلاع آرائهم : استعطافهم وتطبيب نفوسهم لئلا ثوفا ويقوموا معها (قاطعة أمرا) فاصلة . وفى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه : قاضية أى لا أبت أمرا إلا بمحضركم . وقيل : كان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا : كل واحد على عشرة آلاف .

قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَمْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانْظُرِى

مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣)

أرادوا بالقوة : قوة الأجساد وقوة الآلات والعدد . وبالبأس : النجدة والبلاء فى الحرب ﴿والأمر إليك﴾ أى هو موكل إليك ، ونحن مطيعون لك ، فربنا بأمرك لنطعك ولا نخالفك . كأنهم أشاروا عليها بالقتال . أو أرادوا : نحن من أبناء الحرب لا من أبناء الرأى والمشورة ، وأنت ذات الرأى والتدبير ، فانظرى ماذا ترين : نتبع رأيك .

قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ

يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّى مُرْسَلَةٌ إِلَيْكُمْ بِبَيِّنَةٍ فَانْظُرْهُ بِمَرْجِعِ الْمُرْسَلِينَ (٣٥)

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ قَالَ أُمِيتُ وَنَزِنِي بِمَالٍ مِّمَّا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ
بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾

لما أحست منهم الميل إلى المحاربة، رأت من الرأى الميل إلى الصلح والابتداء بما هو أحسن، ورتبت الجواب، فزيفت أولاً ما ذكروه وأرثتهم الخطأ فيه بـ ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية﴾ عنوة وقهراً ﴿أفسدوها﴾ أى خربوها - ومن ثمة قالوا للفساد: الخربة - ، وأذلوا أعزتها، وأهانوا أشرفها؛ وقتلوا وأسروا، فذكرت لهم عاقبة الحرب وسوء مغبتها ثم قالت ﴿وكذلك يفعلون﴾ أرادت: وهذه عادتهم المستمرة الثابتة التى لا تتغير، لأنها كانت فى بيت الملك القديم، فسمعت نحو ذلك ورأت، ثم ذكرت بعد ذلك حديث الهدية وما رأت من الرأى السديد. وقيل: هو تصديق من الله لقولها، وقد يتعلق الساعون فى الأرض بالفساد بهذه الآية ويجعلونها حجة لأنفسهم. ومن استباح حراماً فقد كفر، فإذا احتج له بالقرآن على وجه التحريف فقد جمع بين كفرين ﴿مرسله إليهم هدية﴾ أى مرسله رسلاً هدية أصانعه بها عن ملكي ﴿فناظرة﴾ ما يكون منه - قى أعمل على حسب ذلك، فروى أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجوارى، وحلبن الأساور والأطواق. والقرطة ^(١) راكبي خيل مغشاة بالديباج محلاة للجم والسروج بالذهب المرصع بالجواهر، وخمسمائة جارية على رماك ^(٢) فى زى الغلمان، وألف لبنة من ذهب وفضة، وتاجاً مكللاً بالدرّ والياقوت المرتفع والمسك والعنبر، وحقاً فيه درة عذراء، وجزعة معوجة الثقب، وبعثت رجلين من أشراف قومها: المنذر بن عمرو، وآخر ذارأى وعقل، وقالت: إن كان نبياً ميز بين الغلمان والجوارى، وثقب الدرة ثقباً مستويًا، وسلك فى الخرزة خيطاً، ثم قالت للمنذر: إن نظر إليك نظر غضبان فهو ملك؛ فلا يهولتك، وإن رأيته بشاً لطيفاً فهو نبيّ، فأقبل الهدهد فأخبر سليمان، فأمر الجن فضربوا لبن الذهب والفضة، وفرشوه فى ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ، وجعلوا حول الميدان حائطاً شرفه من الذهب والفضة، وأمر بأحسن الدواب فى البر والبحر فربطوها عن يمين الميدان ويساره على اللبن، وأمر بأولاد الجن وهم خلق كثير فأقيموا عن اليمين واليسار، ثم قعد على سريره والكراسى من جانبيه، واصطففت الشياطين صفوفاً فراسخ، والإنس صفوفاً فراسخ، والوحش والسباع والهوام والطيور كذلك، فلما دنا القوم ونظروا: بهتوا، ورأوا الدواب تروث على اللبن، فتقاصرت إليهم نفوسهم ورموا بما معهم، ولما وقفوا بين يديه نظر إليهم بوجه طلق وقال: ما وراءكم؟

(١) قوله «القرطة» واحدها: قرط . (ع)

(٢) قوله «على رماك» هى إناث الخيل . (ع)

وقال : أبى الحق ؟ وأخبره جبريل عليه السلام بما فيه فقال لهم : إن فيه كذا وكذا ، ثم أمر الأرضة فأخذت شجرة ونفذت فيها ، لجعل رزقها في الشجرة . وأخذت دودة يعضها الخيط بها ونفذت فيها ، لجعل رزقها في الفؤاد . ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى ثم تضرب به وجهها ، والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه ، ثم رد الهدية وقال للبندر : ارجع إليهم ، فقالت : هوني وما لنا به طاقة ، فنشخت إليه في اثني عشر ألف قيل ، تحت كل قيل ألوف . وفي قراءة ابن مسعود رضى الله عنه : فلما جلاوا . (أتمدوني) وقرئ يحذف الياء والاكتفاء بالكسرة وبالادغام ، كقوله (أتأجوني) وبنون واحدة : أتمدوني . الهدية : اسم المهدى ؛ كما أن العطية اسم المعطى ، فتضاف إلى المهدى والمهدى إليه ، تقول هذه هدية فلان ، تريد : هي التي أهداها أو أهديت إليه ، والمضاف إليه مهنا هو المهدى إليه . والمعنى : أن ما عندي خير مما عندكم ، وذلك أن الله آتاني الدين الذي فيه الحظ الأوفر والغنى الأوسع ، وآتاني من الدنيا ما لا يستزاد عليه ، فكيف يرضى مثلى بأن يمد بمال ويصانع به (بل أتم) قوم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ؛ لذلك (تفرحون) بما تزدون ويهدى إليكم ، لأن ذلك مبلغ هممكم وحالى خلاف حالكم ؛ وما أَرْضَى منكم بشيء ولا أفرح به إلا بالإيمان وترك الجوسية . فإن قلت : ما الفرق بين قولك : أتمدنى بمال وأنا أغنى منك ، وبين أن تقوله بالفاء ؟ قلت : إذا قلته بالواو ، فقد جعلت مخاطبي عالماً بزيادتي عليه في الغنى واليسار ، وهو مع ذلك يمدنى بالمال . وإذا قلته بالفاء ، فقد جعلته بمن خفيت عليه حالى ، فأنا أخبره الساعة بما لا أحتاج معه إلى إمداده ، كأنى أقول له : أنكر عليك ما فعلت ، فإنى غنى عنه . وعليه ورد قوله (فما آتاني الله) . فإن قلت : فما وجه الإضراب ؟ قلت : لما أنكر عليهم الإمداد وعلل إنكاره ، أضرب عن ذلك إلى بيان السبب الذى حملهم عليه : وهو أنهم لا يعرفون سبب رضا ولا فرح ؛ إلا أن يهدى إليهم حظ من الدنيا التى لا يعلون غيرها . ويجوز أن تجعل الهدية مضافة إلى المهدى ، ويكون المعنى : بل أنتم بهديتكم هذه التى أهديتموها تفرحون فرح افتخار على الملوك ، بأنكم قدرتم على إهداء مثلها . ويحتمل أن يكون عبارة عن الرد ، كأنه قال : بل أنتم من حقكم أن تأخذوا هديتكم وتفرحوا بها .

أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً
وَهُمْ صَاعِرُونَ ﴿٣٧﴾

(ارجع) خطاب للرسول . وقيل : للهدد محلاً كتاباً آخر (لا قبل) لا طاقة . وحقيقة القبل : المقاومة والمقابلة ، أى : لا يقدر أن يقابلهم . وقرأ ابن مسعود رضى الله عنه : لا قبل لهم بهم . الضمير فيها لسبأ . والذل : أن يذهب عنهم ما كانوا فيه من العز والملك .

والصغار : أن يعقوا في أسر واستعباد ، ولا يقتصر بهم على أن يرجعوا سوقة بعد أن كانوا ملوكا .

قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوا أَيُّكُمْ يَا تَنِي بَعْرُشَهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُوَنِي مُسْلِمِينَ (٣٨)

يروى أنها أمرت عند خروجها إلى سليمان عليه السلام ، لجعل عرشها في آخر سبعة آيات بعضها في بعض في آخر قصر من قصور سبعة لها . وغلقت الأبواب ووكلت به حرسا يحفظونه ، ولعله أوحى إلى سليمان عليه السلام باستيقظها من عرشها ، فأراد أن يغرب عليها ويربها بذلك بعض ما خصه الله به من إجراء العجائب على يده ، مع اطلاعها على عظيم قدرة الله وعلى ما يشهد لنبوة سليمان عليه السلام ويصدقها . وعن قتادة : أراد أن يأخذها قبل أن تسلم ، لعله أنها إذا أسلمت لم يحل له أخذ مالها . وقيل . أراد أن يؤتى به فينكر ويدير ، ثم ينظر أثبته أم تنكره ؟ اختاروا العقلا .

قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ

لَقَوِيُّ أَمِينٌ (٣٩)

وقرى : عفرية . والعفر ، والعفريت ، والعفرية ، والعفراة ، والغفارية من الرجال : الخيث المنكر ، الذي يعفر أقرانه . ومن الشياطين : الخيث المارد . وقالوا : كان اسمه ذكوان (لقوى) على حمله (أمين) آتى به كما هو لا اختزل منه شيئا ولا أبدله .

قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ

وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّا بَشْكُرٍ لِّنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌ كَرِيمٌ (٤٠)

(الذي عنده علم من الكتاب) رجل كان عنده اسم الله الأعظم ، وهو يا حي يا قيوم ، وقيل : يا إلهنا وإله كل شيء . إلهنا واحدا لا إله إلا أنت . وقيل : يا ذا الجلال والإكرام ، وعن الحسن رضى الله عنه : الله . والرحمن . وقيل هو آصف بن برخيا كاتب سليمان عليه السلام ، وكان صديقا عالما . وقيل : اسمه أسطوم . وقيل : هو جبريل . وقيل : ملك أيد الله به سليمان . وقيل : هو سليمان نفسه ، كأنه استبطأ العفريت فقال له : أنا أريك ما هو أسرع مما تقول . وعن ابن أبي عمير : بلغني أنه الحضر عليه السلام : علم من الكتاب : من الكتاب المنزل ، وهو

علم الوحى والشرائع . وقيل : هو اللوح . والذى عنده علم منه : جبريل عليه السلام . وآتيك - فى الموضوعين - يجوز أن يكون فعلا واسم فاعل . الطرف : تحريكك أجفانك إذا نظرت ، فوضع موضع النظر . ولما كان الناظر موصوفا بإرسال الطرف فى نحو قوله :

وَكُنْتَ إِذَا أُرْسِلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا لِقَلْبِكَ يَوْمًا أَتَعَبْتِكَ الْمَنَاطِرُ ^(١)

وصف ردّ الطرف ، ووصف الطرف بالارتداد . ومعنى قوله (قبل أن يرتد إليك طرفك) أنك ترسل طرفك إلى شيء ، فقبل أن ترده أبصرت العرش بين يديك . ويروى أن آصف قال لسليمان عليه السلام : مدّ عينيك حتى ينهى طرفك . فمدّ عينيه فنظر نحو اليمن . ودعا آصف فقار العرش فى مكانه بمأرب ، ثم نبغ ^(٢) عند مجلس سليمان عليه السلام بالشام بقدره الله ، قبل أن يردّ طرفه . ويجوز أن يكون هذا مثالا لاستقصار مدّة المجيء به ، كما تقول لصاحبك : افعل كذا فى لحظة ، وفى ردّة طرف ، والتفت ترنى ، وما أشبه ذلك : تريد السرعة . (يشكر لنفسه) لأنه يحط به عنها عبء الواجب ، ويصونها عن سمة الكفران ، وترتبط به النعمة ويستمد المزيّد . وقيل : الشكر ، قيد للنعمة الموجودة . وصيد للنعمة المفقودة . وفى كلام بعض المتقدمين : إن كفران النعمة بوار ، وقلما أقشعت ^(٣) نافرة فرجعت فى نصائها ، فاستدع شاربها بالشكر ، واستدم راحتها بكرم الجوار . واعلم أن سبوغ ستر الله متقلص عما قريب إذا أنت لم ترج الله وقارا (غنى) عن الشكر (كريم) بالإلغام على من يكفر نعمته ، والذى قاله سليمان عليه السلام عند رؤية العرش شاكرًا لربه ، جرى على شاكلة أبناء جنسه من أنبياء الله والمخلصين من عباده يتلقون النعمة القادمة بحسن الشكر ، كما يشيعون النعمة المودعة بحميل الصبر .

قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ^(٤)
فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا

(١) وكنت إذا أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظر

رأيت الذى لا أكله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

لأعرابية ، نظرها أعرابي غاطها بشعر يسألها عن أحوالها ومحاسنها ، كأنه يرادها عن نفسها ، فأجابته بذلك وقيل : هو لشاعر حماسى . وشبه إطلاق البصر نحو المناظر الجميلة بإرسال الرائد أمام الركب يعرف لهم مكان الخصب ، على طريق التصريحية ، ورائداً ترشيح ، لأنه يلائم الإرسال . ويوما : ظرف له . والمناظر : مواقع النظر ، واستدل على إتمامها بإياه بقوله : رأيت الذى لا تملكه كله ولا تصبر عن بعضه ، فكانت عينك سبياً لوقوع قلبك فى حيرة الهوى وحرقة الجوى .

(٢) قوله « ثم نبغ عند مجلس سليمان » فى الصحاح « نبغ الشيء » : ظهر . (ع)

(٣) قوله « وقلما أقشعت » أى : أقلت . أفاده الصحاح . (ع)

وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ

قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾

(نكروا) اجعلوه متكرراً متغيراً عن هيئته وشكله ، كما يتشكر الرجل للناس لثلا يعرفوه . قالوا : وسعوه وجعلوا مقدمه مؤخره . وأعلاه أسفله . وقرئ : ننظر ، بالجزم على الجواب ، وبالرفع على الاستئناف (أتهتدى) لمعرفة ، أو للجواب الصواب إذا سئلت عنه ، أو للدين والايام بنو سليمان عليه السلام إذا رأت تلك المعجزة البيئنة ، من تقدم عرشها وقد خلفته وأغلقت عليه الأبواب ونصبت عليه الحرس . هكذا ثلاث كلمات : حرف التنبيه ، وكاف التشبيه ، واسم الإشارة . لم يقل : أهذا عرشك ، ولكن : أمثل هذا عرشك ؛ لثلا يكون تلقينا (فقلت كأنه هو) ولم تقل : هو هو ، ولا ليس به ، وذلك من راحة عقلها ، حيث لم تقع في المحتمل ^(١) (وأوتينا العلم) من كلام سليمان وملئه : فإن قلت : علام عطف هذا الكلام ، وبم اتصل ؟ قلت : لما كان المقام - الذى سئلت فيه عن عرشها وأجاب بما أجاب به - مقاما أجرى فيه سليمان وملؤه ما يناسب قولهم (وأوتينا العلم) نحو أن يقولوا عند قولها كأنه هو : قد أصابت في جوابها وطبقت الفصل ^(٢) ، وهى عاقلة لبيبة ، وقدرت الإسلام ، وعلمت قدرة الله وصحة النبوة بالآيات التى تقدمت عند وفدة المنذر ، وبهذه الآية العجيبة من أمر عرشها - عطفوا على ذلك قولهم : وأوتينا نحن العلم بالله وبقدرته ، وبصحة ما جاء من عنده قبل علمها ، ولم نزل على دين الإسلام شكراً لله على فضلهم عليها وسبقهم إلى العلم بالله والإسلام قبلها (وصدما) عن التقدم إلى الإسلام عبادة الشمس ونشؤها بين ظهرائى الكفرة ؛ ويجوز أن يكون من كلام بلقيس موصولا بقولها (كأنه هو) والمعنى : وأوتينا العلم بالله وبقدرته وبصحة نبوة سليمان

(١) قال محمود : لم يقل أهذا عرشك ؛ لثلا يكون تلقينا ، قالت : كأنه هو ولم تقل هو هو ، ولا ليس هو وذلك من راحة عقلها حيث لم تقع في المحتمل ، قال أحمد : وفى قولها (كأنه هو) وعدولها عن مطابقة الجواب للسؤال ، بأن تقول : هكذا هو ، نكتة حسنة . ولعل قائل يقول : كلا العبارتين تشبيه ؛ إذ كاف التشبيه فيها جميعا ، وإن كانت في إحداها داخلة على اسم الإشارة ، وفى الأخرى داخلة على المضمر ، وكلاهما - أعنى اسم الإشارة والمضمر - رافع على الذات المشبهة ، وحينئذ تستوى العبارتان فى المعنى ، ويفضل قولها هكذا هو بمطابقته للسؤال ، فلا بد فى اختيار (كأنه هو) من حكمة فنقول : حكته والله أعلم : أن (كأنه هو) عبارة من قرب عنده الشبه حتى شكك نفسه فى التباين بين الأمرين ، فكاد يقول : هو هو ، وذلك حال بلقيس . وأما هكذا هو ؛ فعبارة جازم بتباين الأمرين ، حاكم بوقوع الشبه بينهما لا غير ، فلماذا عدلت إلى العبارة المذكورة فى التلاوة لمطابقتها لحالها والله أعلم . وقول الزمخشري : ولا ليس هو ، إن كان من قوله فوهم ، والصواب : ولا ليس به ، وافقه سبحانه وتعالى أعلم .

(٢) قوله «وطبقت الفصل» لعله : وطابقت . (ع)

عليه السلام قبل هذه المعجزة أو قبل هذه الحالة، تعنى : ما تبينت من الآيات عند وفدة المنذر ودخلنا في الإسلام، ثم قال الله تعالى : وصدها قبل ذلك عما دخلت فيه ضلالها عن سواء السبيل . وقيل : وصدها الله - أو سليمان - عما كانت تعبد بتقدير حذف الجار وإيصال الفعل . وقرئ : أنها ، بالفتح على أنه بدل من فاعل صد . أو بمعنى لأنها .

فَقِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾

الصرح : القصر . ونيل : صحن الدار . وقرأ ابن كثير : ساقها ، بالهمزة . ووجهه أنه سمع : سوقاً ، فأجرى عليه الواحد . والممرد : المملس ، وروى أن سليمان عليه السلام أمر قبل قدومها فبنى له على طريقها قصر من زجاج أبيض ، وأجرى من تحته الماء ، وألقى فيه من دواب البحر السمك وغيره ، ووضع سريره في صدره ، جلس عليه وعكف عليه الطير والجن والإنس ، وإنما فعل ذلك ليزيدها استعظاما لأمره ، وتحقيقا لنبوته ، وثباتا على الدين . وزعموا أن الجن كرهوا أن يتزوجها فتفضى إليه بأسرارهم ، لأنها كانت بنت جنية . وقيل : خافوا أن يولد له منها ولد تجتمع له فطنة الجن والإنس ، فيخرجون من ملك سليمان إلى ملك هو أشد وأفزع ، فقالوا له : إن في عقلها شيئا ، وهى شعراء الساقين ، ورجلها كحافر الحمار فاختر عقلها بتذكير العرش ، واتخذ الصرح ليتعرف ساقها ورجلها ، فكشفت عنها فإذا هى أحسن الناس ساقا وقدماء لأنها شعراء ، ثم صرف بصره وناداهما (إنه صرح ممرد من قوارير) وقيل : هى السبب في اتخاذ النورة : أمر بها الشياطين فاتخذوها ، واستنكحها سليمان عليه السلام وأحبها وأقرها على ملكها وأمر الجن فبنوا لها سبلحين وغمدان^(١) ، وكان يزورها في الشهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام ، وولدت له . وقيل : بل زوجها ذا تبع ملك همدان ، وسلطه على اليمن ، وأمر زوبعة أمير جن اليمن أن يطعمه ، فبنى له المصانع ، ولم يزل أميراً حتى مات سليمان (ظلمت نفسى) تريد بكفرها فيما تقدم ، وقيل حسبت أن سليمان عليه السلام يفرقها في اللجة فقالت : ظلمت نفسى بسوء ظنى بسليمان عليه السلام .

(١) قوله «بنوا لها سبلحين وغمدان» في الصحاح «سبلحون» : قرية . وفيه في فصل «نصب» : أن للعرب في نصيبين ونحوه كبيرين وفلسطين وسيلحين وباسين وقنسرين : مذهبين ، أحدهما : لزوم الباء وإعراب ما لا ينصرف . والثاني : إعراب الجمع بالياء والتون نصباً وجراً ، وبالواو والتون رفعاً . وفي فصل «غمد» : غمدان : قصر باليمن . وفي فصل «صنع» المصانع : الحصون . (ع)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَتَّبِعُونَ لِمَ يُعْبَدُونَ لِمَ تَسْتَعِجِلُونَ بِالْسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾

وقرئ : أن اعبدوا ، بالضم على إلتباع النون الباء (فريقان) فريق مؤمن وفريق كافر . وقيل أريد بالفريقين صالح عليه السلام وقومه قبل أن يؤمن منهم أحد (يختصمون) يقول كل فريق : الحق معي . السيئة : العقوبة ، والحسنة : التوبة ، فإن قلت : ما معنى استعجالهم بالسيئة قبل الحسنة ؟ وإنما يكون ذلك إذا كانتا متوقعتين إحداها قبل الأخرى ؟ قلت : كانوا يقولون لجهلهم : إن العقوبة التي يعدها صالح عليه السلام إن وقعت على زعمه ، تبنا حينئذ واستغفرنا - مقدرين أن التوبة مقبولة في ذلك الوقت - . وإن لم تقع ، فنحن على ما نحن عليه ، فغاطبهم صالح عليه السلام على حسب قولهم واعتقادهم ، ثم قال لهم : هلا تستغفرون الله قبل نزول العذاب ؟ (لعلكم ترحمون) تنبها لهم على الخطأ فيما قالوه ؛ وتجيلا فيما اعتقدوه .

قَالُوا أَطِيرْنَا بِكَ وَبِعَنِّكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾

وكان الرجل يخرج مسافرا فيمر بطائر فيزجره ، فإن مر سائحا^(١) تيمن ، وإن مر بارحا تشام ، فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر ، استعير لما كان سبهما من قدر الله وقسمته : أو من عمل العبد الذي هو السبب في الرحمة والنقمة . ومنه قالوا : طائر الله لا طائرك ، أى : قدر الله الغالب الذى ينسب إليه الخير والشر ، لا طائرك الذى تشام به وتيمن ، فلما قالوا : اطيرنا بك ، أى : تشاء منا وكانوا قد فحطوا (قال طائركم عند الله) أى سبيكم الذى يجي منه خيركم وشركم عند الله ، وهو قدره وقسمته ، إن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم . ويجوز أن يريد : عملكم مكتوب عند الله ، فنه نزل بكم ما نزل : عقوبة لكم وفتنة . ومنه قوله (طائركم معكم) ، (وكل إنسان أئتمناه طائره في عنقه) . وقرئ : تطيرنا بكم ، على الأصل . ومعنى : تطير به : تشام به . وتطير منه : نفر منه (تفتنون) تختبرون . أو تعذبون . أو يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم الطيرة .

وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ

(١) قوله : فان مر سائحا تيمن ... الخ ، السائح : ما ولاك ميامنه من ظلى أو طائر أو غيرها ، بأن يمر من ميسارك إلى ميامنك . والبارح : ما ولاك ميساره بأن يمر من ميامنك إلى ميسارك ، كذا في الصحاح . (ع)

وَأَنَّا لَكَاذِبُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾
فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾
فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾
وَأُنَجِّنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

(المدينة) الحجر . وإنما جاز تمييز التسعة بالرهط لأنه في معنى الجماعة ، فكانه قيل : تسعة أنفس . والفرق بين الرهط والنفر : أن الرهط من الثلاثة إلى العشرة ، أو من السبعة إلى العشرة . والنفر من الثلاثة إلى التسعة وأسماءهم عن وهب : الهذيل بن عبد رب . غنم بن غنم . رباب بن مخرج . مصدع بن مخرج . عمير بن كردبة . عاصم بن مخزومة . سبط بن صدقة . سمعان بن صفي . قدار بن سالف : وهم الذين سعوا في عقر الناقة ، وكانوا عتاة قوم صالح عليه السلام ، وكانوا من أبناء أشrafهم (ولا يصلحون) يعني أن شأنهم الإفساد البحت الذي لا يخلط بشيء من الصلاح كما ترى بعض المفسدين قد يندر منه بعض الصلاح (تقاسموا) يحتمل أن يكون أمراً وخبراً في محل الحال بإضمار قد ، أى : قالوا متقاسمين : وقرئ : تقسموا . وقرئ : لتيتنه ، بالتاء والياء والنون ، فتقاسموا - مع النون والتاء - يصح فيه الوجهان . ومع الياء لا يصح إلا أن يكون خبراً . والتقاسم ، والتقسم : كالنظار ، والتظاهر : التحالف . والبيات : مباغطة العدو ليلاً (١) . وعن الإسكندر أنه أشير عليه بالبيات فقال : ليس من آيين الملوك (٢) استراق الظفر ، وقرئ : مهلك بفتح الميم واللام وكسرهما من هلك . ومهلك بضم الميم من أهلك . ويحتمل المصدر والزمان والمكان ، فإن قلت : كيف يكونون صادقين وقد جحدوا ما فعلوا ، فأتوا بالخبر على خلاف الخبر عنه (٣) ؟ قلت كأنهم اعتقدوا أنهم إذا بيتوا صالحاً وبيتوا أهله فجمعوا بين البياتين ثم قالوا

- (١) قوله « والبيات مباغطة العدو ليلاً » في الصحاح « بيت العدو » أى : أوقع بهم ليلاً ، والاسم : البيات . (ع)
(٢) قوله « ليس من آيين الملوك » تقدم آنفاً أنه قيل : آيين الملك : مراتبه وهاؤه ، كما وجد بهامش . (ع)
(٣) قال محمود : « إن قلت : كيف يكونون صادقين وقد جحدوا ما فعلوا ، فأتوا بالخبر على خلاف الخبر عنه ؟ قلت : كأنهم اعتقدوا أنهم إذا بيتوا صالحاً وبيتوا أهله وجمعوا بين البياتين جميعاً لأحدهما كانوا صادقين ، وفي هذا دليل قاطع على أن الكذب فيج عند الكفرة الذين لا يعرفون الشرع ونواحيه ولا يخطر ببالهم ، ألا ترام قصدوا قتل نبي الله ولم يرضوا لأنفسهم بأن يكونوا كاذبين حتى سوا للصدق حيلة يتفصون بها عن الكذب ، قال أحمد : وحيلة الزمخشري لتصحیح قاعدة التحيين والتقييح بالعقل أقرب من حيلتهم التي سماها الله تعالى مكرراً ؛ لأن غرضه من تهديد حيلتهم أن يستشهد على صحة القاعدة المذكورة في موافقة قوم لوط عليها ، إذ استفيحوا الكذب بمقولم لا بالشرع . وأنى يتم له ذلك أو لم ، وهم كاذبون صريح الكذب في قولهم (ما شهدنا مهلك أهله) وذلك =

ما شهدنا مهلك أهله؛ فذكروا أحدهما؛ كانوا صادقين، لأنهم فعلوا اليتاين جميعاً لا أحدهما وفي هذا دليل قاطع على أن الكذب قبيح عند الكفرة الذين لا يعرفون الشرع ونواهيهِ ولا يحظر بياهم. ألا ترى أنهم قصدوا قتل نبي الله ولم يرضوا لأنفسهم بأن يكونوا كاذبين حتى سورا للصدق في خبرهم حيلة يتفصون بها عن الكذب^(١). مكرهم: ما أخفوه من تدير الفتك بصالح عليه السلام وأهله. ومكر الله: إهلاكهم من حيث لا يشعرون. شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة. روى أنه كان لصالح مسجد في الحجر في شعب يصلي فيه، فقالوا: زعم صالح عليه السلام أنه يفرغ منا إلى ثلاث، فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث. فخرجوا إلى الشعب وقالوا: إذا جاء يصلي قتلناه ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم. فبعث الله صخرة من الهضب^(٢) حيالهم، فبادروا، فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب. فلم يدر قومهم أين هم ولم يدروا ما فعل بقومهم، وعذب الله كلا منهم في مكانه، ونجى صالحاً ومن معه. وقيل: جاءوا بالليل شاهري سيوفهم، وقد أرسل الله الملائكة مل. دار صالح فدمغوم بالحجارة: يرون الحجارة ولا يرون رامياً (أنا دمرناهم) استئناف. ومن قرأ بالفتح رفعه بدلاً من العاقبة، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره: هي تدميرهم. أو نصبه على معنى: لأننا. أو على أنه خبر كان، أي: كان عاقبة مكرهم الدمار (خاوية) حال عمل فيها ما دل عليه تلك. وقرأ عيسى بن عمر: خاوية، بالرفع على خبر المبتدأ المحذوف.

وَأَوْطَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَيْسَ لَكُمْ

لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾

(و) اذكر (لوطاً) أو أرسلنا لوطاً لدلالة (ولقد أرسلنا) عليه. و (إذا) بدل على

أنهم فعلوا الأمرين، ومن فعل الأمرين فحدد فعل أحدهما لم يكن في فريته مربية، وإنما كانت الحيلة تتم لو فعلوا أمراً قاعدي عليهم فعل أمرين، فحددوا المجموع. ومن ثم لم تختلف العلماء في أن من حلف لا أحرب زيداً، فضرب زيداً أو عمراً: كان حائناً، بخلاف الحالف لا أحرب زيداً أو عمراً فضرب عمراً، ولا أكل رغيفين فأكل أحدهما، فإن مثل هذا محل خلاف العلماء في الحنث وعده، فإذا تمهد أن هؤلاء كاذبون صراحاً في قولهم (ما شهدنا مهلك أهله) وأنه لا حيلة لهم في الخلاص من الكذب، فلا يخلو أمرهم أن يكونوا عقلاء فهم لا يتواطؤون على اعتقاد الصدق بهذه الحيلة، مع القطع بأنها ليست حيلة، ولا شدة اقرب جحدم من الصدق، فيبطل ما قال الرغشري لآيات قاعدة دينه على زعمه، إذ قاعدة التحسين والتقيح بالعقل من قواعد عقائد القدرية، بموافقة قوم غير عقلاء على صحتها، لحسبه مارضى به لدينه، والسلام.

(١) قوله «حيلة يتفصون بها عن الكذب» في الصحاح «فصا الانسان»: إذا تخلص من البلية والضيق، ونفصت من الديون: إذا خرجت منها وتخلصت. (ع)

(٢) قوله «صخرة من الهضب حيالهم» أي من المطر المتتابع مطرة بعد مطرة، وقعد حباله: أي إزاهه. وأصله الوار، أعاده الصحاح. (ع)

الأول ظرف على الثاني ﴿وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾ من بصر القلب ، أى : تعلمون أنها فاحشة لم تسبقوا إليها ، وأن الله إنما خلق الآتى للذكر ولم يخلق الذكر للذكر ، ولا الآتى للآتى ، فهى مضادة لله فى حكمته وحكمه ، وعلمكم بذلك أعظم لذنوبكم وأدخل فى القبح والسماجة . وفيه دليل على أن القبيح من الله أقبح منه من عباده ؛ لأنه أعلم العالمين وأحكم الحاكمين . أو تبصرونها بضعفكم من بعض ، لأنهم كانوا فى ناديم يرتكبونها معالنين بها ، لا يتستر بعضهم من بعض خلاعة ومجانة ، وانهما كما فى المعصية ، وكأن أبانواس بنى على مذهبه قوله :

وَبُحِ بِاسْمِ مَا قَاتَيْ وَذَرْنِي مِنَ السُّكْنَى فَلَا حَيْرَ فِي اللِّذَاتِ مِنْ دُونِهَا سِتْرٌ^(١)

أو تبصرون آثار العصاة قبلكم وما نزل بهم . فإن قلت : فسرت تبصرون بالعلم وبعده ﴿بل أنتم قوم تجهلون﴾ فكيف يكونون علماء وجهلاء ؟ قلت : أراد : تفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة مع علمكم بذلك . أو تجهلون العاقبة . أو أراد بالجهل . السفاهة والمجانة التى كانوا عليها فإن قلت : (تجهلون) صفة لقوم ، والموصوف لفظه لفظ الغائب ، فهلا طابقت الصفة الموصوف فخرى بالياء دون التاء ؟ وكذلك بل أنتم قوم تفتنون ؟ قلت : اجتمعت الغيبة والمخاطبة ، فغلبت المخاطبة ، لأنها أقوى وأرسخ أصلا من الغيبة .

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ

أَنَاسٌ يَبْتَغُونَ^(٥٦) فَأُنْجِيَنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ قَدَرْنَا مِنَ الْغَابِرِينَ^(٥٧)

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا قَسَاءً مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ^(٥٨)

وقرأ الأعمش : جواب قومه ، بالرفع . والمشهورة أحسن ﴿يتظاهرون﴾ يتزهون عن القاذورات كلها ، فيشكرون هذا العمل القدر ، ويغيظنا إنكارهم . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هو استهزاء ﴿قدرناها﴾ قدرنا كونها ﴿من الغابرين﴾ كقوله (قدرنا إنها لمن الغابرين) فالتقدير واقع على الغبور فى المعنى .

(١) ألا ما سقى خراً وقل لى الخمر ولا تسقى سراً إذا أمكن الجهر
وبح باسم من تهوى وذرى من الكنى فلا خير فى اللذات من دونها ستر

لأبى نواس . وألا استفتاحية للشيء ، فكأنه قال : تنبهوا - فنى . وقل لى الخمر : أى اجهر باسمها . وقوله : إذا أمكن الجهر : احقرس - وباح الشيء : أظهره . وباح به : أظهره ، أى : أظهر اسم من تحب كما تبوح باسم الخمر . ويرى وبح باسم ما تائق . أى : ما تفصل . ودعى : أى اتركى : ضمنه معنى باعدى فعداه بن ، كناية عن تنبيه عن ذكر الكنى : جمع كنية : وهو ما دل على الشيء . دلالة خفية ، وشبه العبارة الخفية بالستر الحائل تصريحا .

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ۗ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شيء وحكمته ، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده . وفيه تعليم حسن ، وتوقيف على أدب جميل ، وبعث على التيمن بالذكرين ، والتبرك بهما ، والاستظهار بمكانهما على قبول ما يليق إلى السامعين وإصغائهم إليه ، وإنزاله من قلوبهم المنزلة التي يبغيها المسموع . ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابراً عن كابر هذا الأدب ، فحمدوا الله عز وجل وصلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام كل علم مفاد وقبل كل عظة وتذكرة ، وفي مفتتح كل خطبة ، وتبهمهم المرسلون فأجروا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني وغير ذلك من الحوادث التي لها شأن . وقيل : هو متصل بما قبله ، وأمر بالتحميد على الهاككين من كفار الأمم والصلاة على الأنبياء عليهم السلام وأشياعهم الناجين . وقيل : هو خطاب للوط عليه السلام ، وأن يحمد الله على هلاك كفار قومه ، ويسلم على من اصطفاه الله ونجاه من هلكتهم وعصمه من ذنوبهم . معلوم أن لا خير فيما أشركوه أصلاً حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل خير ومالِكُه ، وإنما هو إلزام لهم وتبكيك^(١) وتهكم بحالهم ، وذلك أنهم آثروا عبادة الاصنام على عبادة الله ، ولا يؤثر عاقل شيئاً على شيء إلا لداع يدعو إلى إثارة من زيادة خير ومنفعة ، فقيل لهم ، مع العلم بأنه لا خير فيما آثروه ، وأنهم لم يؤثره لزيادة الخير ولكن هوى وعبثاً ، لينبهوا على الخطأ المفرط والجهل المورط وإضلالهم التمييز ونبذهم المعقول وليعلموا أن الإيثار يجب أن يكون للخير الزائد . ونحوه ما حكاه عن فرعون (أم أنا خير من هذا الذي هو مهين) مع علمه أنه ليس لموسى مثل أنهاره التي كانت تجري تحته . ثم عُدَّ سبحانه الخيرات والمنافع التي هي آثار رحمته وفضله ، كما عُدَّها في موضع آخر ثم قال : هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء . وقرئ : يشركون بالياء والتاء . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه كان إذا قرأها يقول « بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم »^(٢) .

(١) قال محمود : « معلوم أن لا خير فيما أشركوه حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل خير ومالِكُه ، وإنما هو إلزام لهم وتبكيك » قال أحمد : كلام مرضى بعد أن تضع (خالق كل شيء) مكان قوله (خالق كل خير) فإنه تخصيص قدري : أو إشراك خفي . والتوحيد الأبلغ : ما قلناه ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

(٢) كذا ذكره الثعلبي بغير إسناد . وأخرجه البيهقي في الشعب في الباب التاسع من رواية جابر الجعفي عن أبي جعفر قال « كان علي بن الحسين يذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا ختم القرآن - فذكر حديثاً طويلاً - وفيه واخذ به وسلام على عباده الذين اصطفى الله خير أم ما يشركون ؟ بل الله خير وأجل وأبقى وأكرم وأعظم مما يشركون » .

أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ
حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَوَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلَنُكُمْ
قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾

فإن قلت : ما الفرق بين أم وأم في (أم ما تشركون) و (أمَّن خلق) ؟ قلت : تلك متصلة ؛
لأنَّ المعنى : أيهما خير . وهذه منقطعة بمعنى بل والهمزة ، لما قال الله تعالى : الله خير أم الآلهة ؟
قال : بل أمَّن خلق السموات والأرض خير ؟ تقريراً لهم بأن من قدر على خلق العالم خير من
جماد لا يقدر على شيء . وقرأ الأعمش : أمَّن ، بالتخفيف . ووجهه أن يجعل بدلاً من الله ، كأنه
قال : أمَّن خلق السموات والأرض خير أم ما تشركون ؟ فإن قلت : أي نكته في نقل الإخبار
عن الغيبة إلى التكلم عن ذاته في قوله فأنبطنا ؟ قلت : تأكيد معنى اختصاص الفعل بذاته ،
والإيدان بأن إنبات الحدائق المختلفة الأصناف والألوان والطعوم والروائح والأشكال مع
حسنها وبهجتها بماء واحد . لا يقدر عليه إلا هو وحده . ألا ترى كيف رشح معنى الاختصاص
بقوله ﴿ ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ﴾ ومعنى الكينونة : الانبعاث . أراد أن تأتي ذلك محال من
غيره ، وكذلك قوله (بل هم) بعد الخطاب : أبلغ في تخطئة رأيهم . والحديقة : البستان عليه
حائط : من الإحداق وهو الإحاطة . وقيل (ذات) ؛ لأنَّ المعنى : جماعة حدائق ذات بهجة ، كما
يقال : النساء ذهبت . والبهجة : الحسن ، لأنَّ الناظر يبتهج به ﴿ أله مع الله ﴾ أي غيره يقرن به
ويجعل شريكه . وقرئ : ألهها مع الله ، بمعنى : ألدعون ، أو أنشركون . ولك أن تحقق
الهمزتين وتوسط بينهما مدة ، وتخرج الثانية بين بين ﴿ يعدلون ﴾ به غيره أو يعدلون عن الحق
الذي هو التوحيد .

أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ

بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَوَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُكُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾

﴿ أمَّن جعل ﴾ وما بعده بدل من (أمَّن خلق) فكان حكمهما حكم ﴿ قراراً ﴾ دحاها وسواها
بالاستقرار عليها ﴿ حاجزاً ﴾ كقوله : برزخاً .

أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ

أَوَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَدَّكُرُونَ ﴿٦٢﴾

الضرورة : الحالة المحوجة إلى اللجأ . والاضطرار : افتعال منها . يقال : اضطره إلى كذا

والفاعل والمفعول : مضطر . والمضطر الذى أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر إلى اللجأ والتضرع إلى الله . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هو المجهود . وعن السدى : الذى لاحول له ولا قوة . وقيل : المذنب إذا استغفر . فإن قلت : قد عم المضطرين بقوله (يجيب المضطر إذا دعاه) وكم من مضطر يدعو فلا يجاب ^(١) ؟ قلت : الإجابة موقوفة على أن يكون المدعو به مصلحة ، ولهذا لا يحسن دعاء العبد إلا شارطاً فيه المصلحة . وأما المضطر فتناول للجنس مطلقاً ، يصلح لكاه ولبعضه ، فلا طريق إلى الجزم على أحدهما إلا بدليل ، وقد قام الدليل على البعض وهو الذى أجابته مصلحة ، فبطل تناول على العموم ﴿خلفاء الأرض﴾ خلفاء فيها ، وذلك توارثهم سكناتها والتصرف فيها قرناً بعد قرن . أو أراد بالخلافة الملك والتسلط . وقرئ : يذكرون ، بالياء مع الإدغام . وبالتاء مع الإدغام والحذف . وما مزيدة ، أى : يذكرون تذكراً قليلاً . والمعنى : نفي التذكر ، والقلة تستعمل في معنى النفي .

أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ

رَحْمَتِهِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾

﴿يهديكم﴾ بالنجوم في السماء ، والعلامات في الأرض : إذا جن الليل عليكم مسافرين في البر والبحر .

أَمَّنْ يَبْدُوْا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُولَئِكَ

مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾

فإن قلت : كيف قيل لهم ﴿أمن يبدو الخلق ثم يعيده﴾ وهم منكرون للإعادة ؟ قلت : قد أزيحت عنهم بالتمكين من المعرفة والإقرار ، فلم يبق لهم عذر في الإنكار ﴿من السماء﴾ الماء ﴿و﴾ من ﴿الأرض﴾ النبات ﴿إن كنتم صادقين﴾ أن مع الله إلهاً ، فأين دليلكم عليه ؟ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ

أَيَّانَ يُعْمَدُونَ ﴿٦٥﴾

(١) قال محمود : إن قلت فكم من مضطر لا يجاب ؟ قلت : الإجابة موقوفة على كون المدعو به مصلحة ، ولهذا لا يحسن دعاء العبد إلا شارطاً فيه المصلحة ، قال أحد : الصواب أن الإجابة مقرونة بالمصلحة لا بالمصلحة ، وإنما تقف الإجابة على المصلحة عند القدرة ، لا يجابهم على الله تعالى رعاية المصالح ، فقول الرعشري : لا يحسن الدعاء من العبد إلا شارطاً فيه المصلحة : قاسد : فإن المشيئة شرط في إجابة الدعاء اتفاقاً ، ومع ذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول الداعي : اللهم اغفر لي إن شئت .

فإن قلت : لم رفع اسم الله ، والله تعالى أن يكون من في السموات والأرض ؟ قلت : جاء على لغة بني تميم ، حيث يقولون : ما في الدار أحد إلا حمار ، يرددون : ما فيها إلا حمار ، كأن أحدا لم يذكر . ومنه قوله :

عِشَّةً مَا تُغْنِي الرِّمَاحُ مَكَانَهَا وَلَا النَّبْلُ إِلَّا الْمَشْرِفُ الْمُصَمَّمُ^(١)

وقولهم : ما أتاني زيد إلا عمرو ، وما أعانته إخوانكم إلا إخوانه . فإن قلت : ما الداعي إلى اختيار المذهب التميمي على الحجازي ؟ قلت : دعت إليه نكتة سرية^(٢) . حيث أخرج المستثنى مخرج قوله : إلا اليعافير ، بعد قوله : ليس بها أنيس ، ليؤول المعنى إلى قولك : إن كان الله من في السموات والأرض ، فهم يعلمون النيب ، يعني : أن عليهم الغيب في استحالة كاستحالة أن يكون الله منهم ، كما أن معنى ما في البيت^(٣) : إن كانت اليعافير أنيساً ففيها أنيس ، بتا للقول بخلوها عن الأنيس . فإن قلت : هلا زعمت أن الله من في السموات والأرض ، كما يقول المتكلمون : الله في كل مكان ، على معنى أن عليه في الإمكان كلها ، فكأن ذاته فيها حتى لا تحمله على مذهب بني تميم ؟ قلت : يأتى ذلك أن كونه في السموات والأرض مجاز ، وكونهم فيهن حقيقة ، وإرادة المتكلم بعبارة واحدة حقيقة ومجازاً غير صحيحة ، على أن قولك : من في السموات والأرض . وجعلك بينه وبينهم في إطلاق اسم واحد : فيه إيهام تسوية ، والإيهامات مرالة عنه وعن صفاته تعالى . ألا ترى كيف قال صلى الله عليه وسلم لمن قال : ومن يعصهما فقد غوى : « بئس خطيب القوم أنت »^(٤) ، وعن عائشة رضي الله عنها : من زعم أنه يعلم ما في غد فقد أعظم على الله الفرية^(٥) ، والله تعالى يقول : (قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب

(١) النبل : السهام الدرية . والمشرقي : السيف ، نسبة لمشارف اليمن . والمصمم : الماضي التام الذي أصابته ، وكانت عادة المتحاربين التناضل بالسهم عند التباعد ، فإذا تقاربوا تحاربوا بالرمح ، فإذا انفكوا تضاربوا بالسيوف . وذكر النبل بعد الرماح لدفع توهم بعد العدو ، فكأن النبل يفنى عن غيره ، فالبيت كناية عن شدة الأمر واختلاط الصفيين . وضمير مكانها للحرب أو للسيوف ، والاستثناء منقطع بعد التي ، ويجب نصبه عند الحجازيين . ويجوز رفعه كما هنا عند التميميين : إما على البدل ، أو على توهم أن المستثنى منه غير مذكور ، وأن العامل مفرغ لما بعد . . . إلا . . .

(٢) قوله : دعت إليه نكتة سرية ، لعله بزنة فعيلة ، فيكون بمعنى شريفة . (ع)

(٣) قوله : « معنى ما في البيت » هو قول الشاعر :

وبلدة ليس بها أنيس إلا اليعافير وإلا العيس (ع)

(٤) أخرجه مسلم من حديث هدى بن حاتم .

(٥) متفق عليه من حديثها في أثناء حديث .

بلى أدرك، وبلى أدرك؟ قلت: لما جاء ببلى، بعد قوله (وما يشعرون) كان معناه: بلى يشعرون، ثم فسر الشعور بقوله: أدرك عليهم في الآخرة على سبيل التهكم الذى معناه المبالغة في نفي العلم، فكأنه قال: شعورهم بوقت الآخرة أنهم لا يعلمون كونها، فيرجع إلى نفي الشعور على أبلغ ما يكون. وأما من قرأ: بلى أدرك؟ على الاستفهام فعناه: بلى يشعرون متى يبعثون، ثم أنكر عليهم بكونها، وإذا أنكر عليهم بكونها لم يتحصل لهم شعور بوقت كونها؛ لأن العلم بوقت الكائن تابع للعلم بكون الكائن (في الآخرة) في شأن الآخرة ومعناها. فإن قلت: هذه الاضرابات الثلاث مامعناها؟ قلت: ما هي إلا تنزيل لأحوالهم: وصفهم أولا بأنهم لا يشعرون وقت البعث، ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنه، ثم بأنهم يخطئون في شك وريبة فلا يزيلونه والإزالة مستطاعة. ألا ترى أن من لم يسمع اختلاف المذاهب وتضليل أربابها بعضهم لبعض: كان أمره أهون من سمع بها وهو جاثم لا يشخص به طلب التمييز بين الحق والباطل، ثم بما هو أسوأ حالا وهو العمى، وأن يكون مثل البهيمة قد عكف همه على بطنه وفرجه، لا يخطر بباله حقا ولا باطلا. ولا يفكر في عاقبة. وقد جعل الآخرة مبدء أعماهم ومنشأه فلذلك عداه بمن دون عن: لأن الكفر بالعاقبة والجزاء هو الذى جعلهم كالبهائم لا يتدبرون ولا يتبصرون.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾

لَقَدْ وَعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾

الفاعل في (إذا) مادل عليه (أئنا لمخرجون) وهو نخرج؛ لأن بين يدي عمل اسم الفاعل^(١) فيه عقابا وهى همزة الاستفهام، وإن ولام الابتداء وواحدة منها كافية، فكيف إذا اجتمعن؟ والمراد: الإخراج من الأرض. أو من حال الفناء إلى الحياة، وتكرير حرف الاستفهام بادخاله على إذا، وإن، جميعا إنكار على إنكار، وجود عقيب جحد، ودليل على كفر مؤكد مبالغ فيه. والضمير في (إننا) لهم ولآبائهم؛ لأن كونهم ترابا قد تناولهم وآبائهم. فإن قلت: قدم في هذه الآية (هذا) على (نحن وآباؤنا) وفي آية أخرى قدم (نحن وآباؤنا) على (هذا)؟ قلت: التقديم دليل على أن المقدم هو الغرض المتعمد بالذكر، وإن الكلام إنما سبق لأجله، ففى إحدى الآيتين دل على أن اتخاذ البعث هو الذى تعمد بالكلام، وفى الأخرى على أن اتخاذ المبعوث بذلك للصدد.

(١) قوله «اسم الفاعل فيه عقابا» لعله اسم المفعول وعقابا جمع عقبة. أناده الصحاح. وعبرة النسب: لأن اسم الفاعل والمفعول - بعد همزة الاستفهام أو أن أو لام الابتداء - لا يعمل فيما قبله، فكيف إذا اجتمعن. (ع)

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾

لم تلحق علامة التناثيث بفعل العاقبة ؛ لأن تأنيثها غير حقيق ؛ ولأن المعنى : كيف كان آخر أمرهم ؟ وأراد بالمجرمين : الكافرين ، وإنما عبر عن الكفر بلفظ الإجماع ليكون لطفاً للمسلمين في ترك الجرائم وتحذوف عاقبتها. ألا ترى إلى قوله (قدمم عليهم ربهم بذنهم) وقوله : (بما خطيأتهم أغرقوا) . (ولا تحزن عليهم) لأنهم لم يتبعوك ، ولم يسلبوا فيفسلوا وهم قومه قریش ، كقوله تعالى (فعلك باعع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) . (في ضيق) في حرج صدر من مكرهم وكيدهم لك ، ولا تبال بذلك فإن الله يعصمك من الناس . يقال : ضاق الشيء ضيقاً وضيقاً ، بالفتح والكسر . وقد قرئ بهما . والضيق أيضاً : تخفيف الضيق . قال الله تعالى (ضيقاً حرجاً) قرئ مخففاً ومثقلاً ويجوز أن يراد في أمر ضيق من مكرهم .

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ

رَدْفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾

استعجلوا العذاب الموعود فقل لهم (عسى أن يكون) ردفكم بعضه وهو عذاب يوم بدر فزيدت اللام للتأكيد كالباء في (ولا تلقوا بأيديكم) أو ضمن معنى فعل يتعدى باللام نحو: دناكم وأزف لكم ، ومعناه : وتبعكم ولحقكم ، وقد عدى . بمن قال :

فَلَمَّا رَدَفْنَا مِنْ عُمَيْرٍ وَحَمِيهِ تَوَلَّوْا مِرَاعًا وَالْمَيْتَةَ تُغْنِي^(١)

يعنى : دنونا من عمير ، وقرأ الأعرج : ردف لكم ، بوزن ذهب ، وهما لغتان ، والكسر أفصح . وعسى ولعل وسوف - في وعد الملوك ووعيدهم - يدل على صدق الأمر وجده وما لا مجال للشك بعده ، وإنما يعنوز بذلك : إظهار وقارهم وأنهم لا يعجلون بالانتقام ؛ لإدلالهم بقهرهم وغلبتهم ووثوقهم أن عدوهم لا يفوتهم ، وأن الرزمة إلى الأغراض كافية من جهتهم ؛ فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده .

(١) ردف كشيء يتعدى بنفسه ، وضمن هنا معنى الدنو فعدى بمن ، وأغنى الفرس : سار سيراً سريعاً سهلاً . والغنى : اسم منه يقول : فلما دنونا من عمير وأصحابه للحرب أدبروا مبرعين ، والحال أن الموت يسرع خلفهم من جهتنا . شبه المية بالأسد على طريق المكينة ، فأثبت لها الغنى تغييلاً ، كأنهم كانوا تبعوهم برمي الببال . ويجوز أنه استعار المية لنفسه وقومه على طريق التصریح ، أى : ونحن نسرع خلفهم ، فذكر الغنى تيجريداً ؛ لأنه يلائم المعية .

وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

الفضل والفاضلة : الإفضال . وفلان فواضل في قومه وفضول . ومعناه : أنه مفضل عليهم بتأخير العقوبة ، وأنه لا يعاجلهم بها ، وأكثرهم لا يعرفون حق النعمة فيه ولا يشكرونها ، ولكنهم بجهلهم يستعجلون وقوع العقاب : وهم قريش .

وَإِنَّ رَبَّكَ لَعَلِمٌ مَّا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾

قرئ تكن . يقال : كنت الشيء وأكننته : إذا سترته وأخفيت ، يعني : أنه يعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكائدهم ، وهو معاقبهم على ذلك بما يستوجبونه .

وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾

سمى الشيء الذي يغيب ويخفى : غائبة وخافية ، فكانت التاء فيهما بمنزلة التاء في العافية والعاقبة . ونظائرهما : النطيحة ، والرمية ، والذبيحة : في أنها أسماء غير صفات . ويجوز أن يكونا صفتين وتأثرهما بالمبالغة ، كالراوية في قولهم : ويل للشاعر من راوية السوء ، كأنه قال : وما من شيء شديد الغيوبة والخفاء إلا وقد علمه الله وأحاط به وأثبتته في اللوح . المبين : الظاهر البين لمن ينظر فيه من الملائكة .

إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يُقْضَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾

وَإِنَّهُ لَكُدَىٰ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

قد اختلفوا في المسيح فتحزبوا فيه أحزاباً ، ووقع بينهم التناكر في أشياء كثيرة حتى لعن بعضهم بعضاً ، وقد نزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه لو أنصفوا وأخذوا به وأسلموا ، يريد : اليهود والنصارى (للمؤمنين) لمن أنصف منهم وآمن ، أي : من بني إسرائيل . أو منهم ومن غيرهم .

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾

(بينهم) بين من آمن بالقرآن ومن كفر به . فإن قلت : ما معنى يقضي بحكمه ؟ ولا يقال : زيد يضرب بضربه ويمنع بمنعه ؟ قلت . معناه بما يحكم به وهو عدله ، لأنه لا يقضي إلا بالعدل ، فسمى المحكوم به حكماً . أو أراد بحكمته . وتدل عليه قراءة من قرأ بحكمه - : جمع حكمة . (وهو العزيز) فلا يرد قضاؤه (العليم) بمن يقضى له وبمن يقضى عليه ، أو العزيز في انتقامه من المبطلين ، العليم بالفصل بينهم وبين الحقين .

فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْمِعُونَ ﴿٨١﴾

أمره بالتوكل على الله وقوة المبالاة بأعداء الدين، وعلل التوكل بأنه على الحق الابلج الذي لا يتعلق به الشك والظن. وفيه بيان أن صاحب الحق حقيق بالوثوق بصنع الله وببصيرته. وأن مثله لا يخذل. فإن قلت: (إنك لا تسمع الموتى) يشبه أن يكون تعليلا آخر للتوكل، فما وجه ذلك؟ قلت: وجهه أن الأمر بالتوكل جعل مسيياً عما كان يفيظ رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة المشركين وأهل الكتاب: من ترك اتباعه وتشيع ذلك بالأذى والعداوة، فلام ذلك أن يعلل توكل متوكل مثله، بأن اتباعهم أمر قد يئس منه، فلم يبق إلا الاستنصار عليهم لعداوتهم واستكفاء شرورهم وأذاهم، وشبهوا بالموتى وهم أحياء صحاح الحواس، لأنهم إذا سمعوا ما يتلى عليهم من آيات الله - فكانوا أقفاس القول لا تعيه أذانهم وكان سماعهم كلا سماع - : كانت حالم - لا انتفاء جذرى السماع - : كحال الموتى الذين فقدوا مصحح السماع؛ وكذلك تشبيههم بالصم الذين ينعق بهم فلا يسمعون. وشبهوا بالعمى حيث يضلون الطريق ولا يقدر أحد أن يزع ذلك عنهم، وأن يجعلهم هداة بصراء إلا الله عز وجل. فإن قلت: ما معنى قوله (إذا ولوا مدبرين)؟ قلت: هو تأكيد لحال الأصم، لأنه إذا تباعد عن الداعى بأن يولى عنه مدبر كان أبعد عن إدراك صوته. وقرئ: ولا يسمع الصم، وما أنت بهاد العمى، على الأصل. وتهدى العمى. وعن ابن مسعود: وما أن تهدى العمى، وهداة عن الضلال. كقولك: سقاء عن العيمة^(١) أى: أبعد عنها بالسقي، وأبعد عن الضلال بالهدى (إن تسمع) أى ما يجدى إسماعك إلا على الذين علم الله أنهم يؤمنون بآياته، أى: يصدقون بها (فهم مسدون) أى مخلصون من قوله (بلى من أسلم وجهه لله) يعنى: جعله سالماً لله خالصاً له.

وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ

كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾

سمى معنى القول ومؤداه بالقول، وهو ما وعدوا من قيام الساعة والعذاب، ووقوعه: حصوله. والمراد: مشاركة الساعة وظهور أشراتها وحين لا تنفع التوبة. ودابة الأرض:

(١) قوله «سقاء عن العيمة» من شبهة اللبس كما في الصحاح. (ع)

الجلساسة . جاء في الحديث : أن طولها ستون ذراعاً ، لا يدركها طالب ، ولا يفوتها هارب ^(١) . وروى : لها أربع قوائم وزغب وریش وجناحان . وعن ابن جريج في وصفها : رأس ثور ، وعين خنزير ، وأذن فیل ، وقرن إبل ، وعنق نعامة ، وصدر أسد ، ولون نمر ، وخاصة هز ، وذنب كبش ، وخف يعير . وما بين المفصلين : اثنا عشر ذراعاً آدم عليه السلام . وروى : لا تخرج إلا رأسها ، ورأسها يبلغ أعنان السماء ^(٢) ، أو يبلغ السحاب . وعن أبي هريرة : فيها من كل لون ، وما بين قرنيها فرسخ للراكب . وعن الحسن رضي الله عنه : لا يتم خروجها إلا بعد ثلاثة أيام . وعن علي رضي الله عنه : أنها تخرج ثلاثة أيام ، والناس ينظرون فلا يخرج إلا ثلثها . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه سئل : من أين تخرج الدابة ؟ فقال : من أعظم المساجد حرمة على الله ^(٣) ، يعني المسجد الحرام . وروى : أنها تخرج ثلاث خرجات : تخرج بأقصى اليمن ثم تتكمن ، ثم تخرج بالبادية ثم تتكمن دهرأ طويلاً ، فبينما الناس في أعظم المساجد حرمة وأكرمها على الله ، فما يهولهم إلا خروجها من بين الركن حذاء دار بني مخزوم عن يمين الخارج من المسجد ، فقوم يهرون وقوم يقفون نظارة . وقيل : تخرج من الصفا فتكلمهم بالعربية بلسان ذلق ^(٤) فتقول (أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) يعني أن الناس كانوا لا يوقنون بخروجي ؛ لأن خروجها من الآيات ، وتقول : ألا لعنة الله على الظالمين . وعن السدي : تكلمهم بيطلان الاديان كلها سوى دين الإسلام . وعن ابن عمر رضي الله عنه : تستقبل المغرب فتصرخ صرخة تنفذه ، ثم تستقبل المشرق ، ثم الشام ثم اليمن فتفعل مثل ذلك . وروى : تخرج من أجباد ^(٥) . وروى : بينا عيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون ، إذ تضطرب الأرض تحتهم تحرك القنديل ، ويشق الصفا بما يلي المسعى ، فتخرج الدابة من الصفا ومعها عصا موسى وخاتم سليمان ، فتضرب المؤمن في مسجده ، أو فيما بين عينيه بعصا موسى عليه السلام ، فتنتكت نكتة

(١) أخرجه الثعلبي من حديث حذيفة دون قوله «وهي الجساسة» وسيأتي بعضه للحاكم وغيره في الذي بعده .

(٢) قوله «ورأسها يبلغ أعنان السماء» في الصحاح «أعنان السماء» : صفاتها وما عارض من أقطارها ، كأنه

جمع عن . والعامية تقول : عنان السماء . (ع)

(٣) أخرجه الطبري من طريق ريمي عن حذيفة بن اليمان : « ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدابة فقالت يا رسول الله ، من أين تخرج ؟ فقال : من أعظم المساجد حرمة على الله ... الحديث » ، وروى الحاكم والبيهقي في الشعب وإسحاق في مسنده وابن مردويه من حديث أبي الطفيل عن حذيفة عن أسيد رفعه قال « يكون للدابة ثلاث خرجات - إل أن قال : بينا الناس في أعظم المساجد حرمة وخيرها وأكرمها : المسجد الحرام ، لم يرهم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام ... الحديث . وفيه : ثم ولت في الأرض لا يدركها طالب . ولا يفوتها هارب » ، وفي الباب عن ابن عباس : أخرجه ابن مردويه مطولاً .

(٤) قوله « بلسان ذلق » أي طلق ، كما في الصحاح . (ع)

(٥) قوله «تخرج من أجباد» جبل بكة ، سمى بذلك لموضع خيل تبع ، وسمى «قبة مان» لموضع سلاحه . (ع)

بيضاء فتفشو تلك النكتة في وجهه حتى يضي لها وجهه أو فترك وجهه كأنه كوكب دري ، وتكتب بين عينيه : مؤمن : وتنكت الكافر بالخاتم في أنفه ، فتفشو النكتة حتى يسود لها وجهه وتكتب بين عينيه : كافر . وروى : فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتحطم أنف الكافر بالخاتم ، ثم يقول لهم : يا فلان ، أنت من أهل الجنة . ويا فلان ، أنت من أهل النار . وقرئ : تكلمهم ، من الكلام وهو الجرح . والمراد به : الوسم بالعصا والخاتم . ويجوز أن يكون تكلمهم من الكلام أيضاً ، على معنى التكثير . يقال : فلان مكلم ، أى مجرح . ويجوز أن يستدل بالتخفيف على أن المراد بالتكليم : التجريح ، كما فسر : لنحرقه ، بقراءة على رضى الله عنه : لنحرقه ، وأن يستدل بقراءة أبى : تنبهم . وبقراءة ابن مسعود : تكلمهم بأن الناس ، على أنه من الكلام . والقراءة بأن مكسورة : حكاية لقول الدابة ، إما لأن الكلام بمعنى القول . أو بإضمار القول ، أى : تقول الدابة ذلك . أو هى حكاية لقوله تعالى عند ذلك . فإن قلت : إذا كانت حكاية لقول الدابة فكيف تقول بآياتنا قلت : قولها حكاية لقول الله تعالى . أو على معنى آيات ربنا . أو لاختصاصها بالله وأثرها عنده ، وأنها من خواص خلقه : أضافت آيات الله إلى نفسها ، كما يقول بعض خاصة الملك : خيلنا وبلادنا ، وإنما هى خيل مولاه وبلاده . ومن قرأ بالفتح فعلى حذف الجار . أى : تكلمهم بأن .

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾

(فهم يوزعون) يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا فيككبوا في النار . وهذه عبارة عن كثرة العدد وتباعد أطرافه ، كما وصفت جنود سليمان بذلك . وكذلك قوله (فوجاً) فإن الفوج الجماعة الكثيرة . ومنه قوله تعالى (يدخلون في دين الله أفواجا) وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أبو جهل والوليد بن المغيرة ، وشيبة بن ربيعة : يساقون بين يدى أهل مكة ، وكذلك يحشر قادة سائر الأمم بين أيديهم إلى النار . فإن قلت : أى فرق بين من الأولى والثانية ؟ قلت : الأولى للتبويض ، والثانية للتبيين ، كقوله (من الأولان) .

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ آذًا كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾

الواو للحال ، كأنه قال : أ كذبتم بها بادئ أراى من غير فكر ولا نظر يؤدى إلى إحاطة العلم بكنهها ، وأنها حقيقة بالتصديق أو بالتكذيب . أى : أ جحدتموها ومع جحدكم لم تلقوا أذهانكم لتحقيقها وتبصرها : فإن المكتوب إليه قد يجحد أن يكون الكتاب من عند من كتبه ، ولا يدع مع ذلك أن يقرأه ويتفهم مضامينه ويحيط بمعانيه (أم ماذا كنتم تعملون)

بها للتبكي لا غير . وذلك أنهم لم يعملوا إلا التكذيب ، فلا يقدر أن يكذبوا ويقولوا قد صدقنا بها وليس إلا التصديق بها أو التكذيب . ومثاله أن تقول لراعيك - وقد عرفته رويحي سوء - : أأنا كل نعمي ، أم ماذا تعمل بها ؟ فتجعل ما تبتدئ به وتجعله أصل كلامك وأساسه هو الذي صحّ عندك من أكله وفساده ، وترى بقولك : أم ماذا تعمل بها ، مع عليك أنه لا يعمل بها إلا الأكل ؛ لتبته^(١) وتعلمه عليك بأنه لا يحى منه إلا أكلها ، وأنه لا يقدر أن يدعي الحفظ والإصلاح ؛ لما شهر من خلاف ذلك . أو أراد : أما كان لكم عمل في الدنيا إلا الكفر والتكذيب بآيات الله ، أم ماذا كنتم تعملون من غير ذلك ؟ يعني أنه لم يكن لهم عمل غيره ، كأنهم لم يخلقوا إلا للكفر والمعصية ، وإنما خلقوا للإيمان والطاعة ؛ يخاطبون بهذا قبل كههم في النار ثم يكبون فيها ، وذلك قوله ﴿ ووقع القول عليهم ﴾ يريد أن العذاب الموعود يفتشاهم بسبب ظلمهم . وهو التكذيب بآيات الله ، فيشغلهم عن النطق والاعتذار ، كقوله تعالى (هذا يوم لا ينطقون) .

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ أَلْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ

لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾

جعل الإبصار للنهار وهو لاهله . فإن قلت : ما للتقابل لم يراع في قوله (ليسكنوا) و (مبصراً) حيث كان أحدهما علة والآخر حالا ؟ قلت : هو مراعى من حيث المعنى ، وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف ؛ لأن معنى مبصرا : ليبصروا فيه طرق القلب في المكاسب .

وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ

شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾

فإن قلت : لم قيل ﴿ ففزع ﴾ دون فيفزع ؟ قلت : لتسكته وهي الإشعار بتحقيق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة ، واقع على أهل السموات والأرض ؛ لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به . والمراد فزعهم عند النفخة الأولى حين يصعقون ﴿ إلا من شاء الله ﴾ إلا من ثبت الله قلبه من الملائكة ، قالوا : هم جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، ومالك الموت - عليهم السلام . وقيل : الشهداء . وعن الضحاك : الحور ، وخزنة النار ، وحملة العرش . وعن جابر : منهم موسى عليه السلام ، لأنه صعق مرة . ومثله قوله تعالى (ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله) . وقرئ : أتوه . وأتاه . ودخري ، فالجمع

على المعنى والتوحيد على اللفظ. والداخر والدخر : الصاغر. وقيل : مع الإتيان حضورهم الموقف بعد النفخة الثانية. ويجوز أن يراد رجوعهم إلى أمره وانقيادهم له.

وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُ جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾

(جامدة) من جمادى في مكانه إذا لم يبرح. تجمع الجبال فتسير كما تسير الرياح السحاب، فإذا نظر إليها الناظر حسبها واقفه ثابتة في مكان واحد (وهي تمر) مراً حثيثاً كما يمر السحاب. وهكذا الأجرام العظام المتكاثرة العدد : إذا تحركت لا تكاد تبين حركتها، كما قال النابغة في وصفه جيش :
بَارِعَنَ مِثْلَ الطُّودِ تَحْسَبُ أَنَّهُمْ وَقُوفٌ لِحَاجٍ وَالرَّكَابُ تَهْمَلُجُ ^(١)
(صنع الله) من المصادر المؤكدة، كقوله (وعد الله). (صبغة الله) إلا أن مؤكده محذوف، وهو الناصب ليوم ينفخ، والمعنى : ويوم ينفخ في الصور وكان كيت وكيت أتاب الله المحسنين وعاقب المجرمين، ثم قال : صنع الله، يريد به : الإثابة والمعاقبة. وجعل هذا الصنع من جملة الأشياء التي أتقنها وأتى بها على الحكمة والصواب، حيث قال : صنع الله (الذي أتقن كل شيء). يعني أن مقابلته الحسنة بالثواب والسيئة بالعقاب : من جملة أحكامه للأشياء وإتقانه لها، وإجرائه لها على قضايا الحكمة أنه عالم بما يفعل العباد وبما يسترجبون عليه، فيكافئهم على حسب ذلك. ثم لخص ذلك بقوله (من جاء بالحسنة) إلى آخر الآيتين، فانظر إلى بلاغة هذا الكلام، وحسن نظمه وترتيبه، ومكانة إضماره، ورصانة تفسيره، ^(٢) وأخذ بعضه بحجزة بعض، كأنما أفرغ إفراغا واحداً ولامر ما أعجز القوى وأخرس الشقاشق ^(٣). ونحو هذا المصدر إذا جله عقيب

(١) النابغة . والأرعن : الجبل العالي . والطود : الجبل العظيم ، فاستمار الأرعن للجيش : ثم شبه بالطود ليفيد المبالغة في الكثرة . والحاج : اسم جمع واحدة حاجة . والركاب : المطى لا واحد له من لفظه . والمهلجة : السير الزهو السهل ، فارسي معرب . والمهلج : السريع . يقول : حاربنا العدو بجيش عظيم ، نظمهم واقفين لحاجة لكثرتهم ، والحال أن ركابهم تسرع السير .

(٢) قوله : ومكانة إضماره ورصانة تفسيره ، الذي في الصحاح : ضد الجرح ، يضمره ضداً ، : شدة بصابة وفيه : الرصين ، الحكم الثابت . وقدر ص - بالضم - رصانة . (ع)

(٣) قوله : وأخرس الشقاشق ، في الصحاح : شقق الفحل شقشقة : هدر . وإذا قالوا للخطيب : ذو شقشقة ، قائماً يشبه بالفحل . (ع)

كلام ، جاء كالشاهد بصحته والمنادى على سداذه ، وأنه ما كان ينبغي أن يكون إلا كما قد كان .
 ألا ترى إلى قوله : (صنع الله) ، و (صبغة الله) ، و (وعد الله) ، و (فطرة الله) : بعدما وسماها
 بإضافتها إليه بسمه التعظيم ، كيف تلاها بقوله (الذي أتقن كل شيء) ، (ومن أحسن من الله صبغة) ،
 لا يخلف الله الميعاد (لا تبدل الخلق الله) وقرئ : تفعلون ، على الخطاب . ﴿ فله خير منها ﴾ يريد
 الإضعاف وأن العمل يتقضى والثواب يدوم ، وشتان ما بين فعل العبد وفعل السيد . وقيل : فله خير
 منها ، أى : له خير حاصل من جهتها وهو الجنة . وعن ابن عباس : الحسنه كلمة الشهادة . وقرئ :
 ﴿ يومئذ ﴾ مفتوحا مع الإضافة ؛ لأنه أضيف إلى غير متمكن . ومنصوبا مع تنوين فزع . فإن
 قلت : ما الفرق بين الفرعين ؟ قلت : الفزع الأول : هو ما لا يخلو منه أحد عند الإحساس
 بشدة تقع وهول يفجأ ، من رعب وهيبة ، وإن كان المحسن يأمن لحاق الضرر به ؛ كما يدخل
 الرجل على الملك بصدر هياب وقلب وجاب^(١) . وإن كانت ساعة إعرزاز وتكرمة وإحسان وتولية .
 وأما الثانى : فالخوف من العذاب . فإن قلت : فمن قرأ ﴿ من فزع ﴾ بالتنوين ماعناه ؟ قلت : يحتمل
 معنيين . من فزع واحد وهو خوف العقاب ، وأما ما يلحق الإنسان من التهيّب والرعب لما يرى
 من الأهوال والعظائم ، فلا يخلو منه ؛ لأن البشرية تقتضى ذلك . وفي الأخبار والآثار ما يدل
 عليه . ومن فزع شديد مفرط الشدة لا يكتفه الوصف : وهو خوف النار . أمن : يعدى بالجار
 وبنفسه ، كقوله تعالى (أفأمنوا مكر الله) . وقيل : السينة : الإشراك . يعبر عن الجملة بالوجه
 والرأس والرقبة ، فكانه قيل : فكذبوا فى النار ، كقوله تعالى (فكذبكوا فيها ويحوز أن يكون
 ذكر الوجوه إيدانا بأنهم يكبون على وجوههم فيها منكوسين) (هل تجزون) يحوز فيه الالتفات
 وحكاية ما يقال لهم عند الكذب بإضمار القول .

إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أُعْبِدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمِرتُ
 أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٩١ وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى
 لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ ٩٢ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ
 آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِفَعِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٩٣

أمر رسوله بأن يقول ﴿ أمرت ﴾ أن أخص الله وحده بالعبادة ، ولا أخذله شريكا كما
 فعلت قريش ، وأن أكون من الحنفاء الثابتين على ملة الإسلام ﴿ وأن أتلو القرآن ﴾ من التلاوة
 أو التلو كقوله (واتبع ما يوحى إليك) . والبلدة : مكة حرسها الله تعالى : اختصها من بين سائر

(١) قوله « وقلب وجاب » فى الصحاح « وجب القلب وجيباً » : اضطرب . (ع)

البلاد بإضافة اسمه إليها ؛ لأنها أحبّ بلاده إليه ، وأكرمها عليه ؛ وأعظمها عنده . وهكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم حين خرج في مهاجره ، فلما بلغ الخزورة ^(١) استقبلها بوجهه الكريم فقال : « إني أعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله . ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت » ^(٢) وأشار إليها إشارة تعظيم لها وتقريب ، دالا على أنها موطن نبيه ومهبط وحيه . ووصف ذاته بالتحريم الذي هو خاص وصفها ، فأجزل بذلك قسمها في الشرف والعلو ، ووصفها بأنها محزمة لا ينتهك حرمتها إلا ظالم مضاد لربه (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) لا يختل خلاها ، ولا يعصده شجرها ^(٣) . ولا ينفر صيدها . واللاجئ إليها آمن . وجعل دخول كل شيء تحت ربوبيته وملكوته كالتابع لدخولها تحتها . وفي ذلك إشارة إلى أن ملكا ملك مثل هذه البلدة عظيم الشأن قد ملكها وملك إليها كل شيء ^(٤) : اللهم بارك لنا في سكنها ، وآمنّا فيها شر كل ذي شر ، ولا تنقلنا من جوار بيتك إلا إلى دار رحمتك . وقرئ : التي حزمها . وائل عليهم هذا القرآن : عن أبيّ وأن أتل : عن ابن مسعود . ﴿ فن اهتدى ﴾ باتباعه إياي فيما أنا بصده من توحيد الله ونفي الانداد عنه ، والدخول في الملة الخفيفة ، واتباع ما أنزل على من الوحي ؛ فتنفعا اهتدائه راجعة إليه لا إلى ﴿ ومن ضل ﴾ ولم يتبعني فلا على ، وما أنا إلا رسول منذر ، وما على الرسول

(١) قوله « فلما بلغ الخزورة » هي تل صغير كما في الصحاح . (ع)

(٢) أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وابن أبي شبة والدارمي وعبد بن حيد والبرار وأبو يعلى والبيهقي في الدلائل . كلهم من رواية الزهري عن أبي سلة عن عبد الله بن عدى بن الخيار قال « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفا على الخزورة وهو يقول : والله إنك لخير أرض الله إلى الله وأحب أرض الله إلى الله . ولولا أني أخرجت منك ما خرجت » هكذا رواه عقيل ويونس وشعيب وصالح بن كيسان عنه . ورواه ابن أخى الزهري عن حمه عن محمد بن جبير بن مطعم عن عبد الله بن عدى بن الخيار : أخرجه الطبراني . وصححه الدارقطني لوجهين . ورواه النسائي وإسحاق والبرار والبيهقي في الدلائل من رواية معمر عن الزهري عن أبي سلة عن أبي هريرة . ولفظه للبيهقي « ولولا أن أملكك أخرجوني منك ما خرجت » قال البرار : تفرد به معمر هكذا . وقال البيهقي : وهم فيه معمر وقال الترمذي : رواه محمد بن عمر بن أبي سلة عن أبي سلة عن أبي هريرة . وقول الزهري عن أبي سلة عن عبد الله بن عدى أصح . وقال البيهقي أيضاً : ورواية محمد بن عمرو وهم . وفي الباب عن ابن عباس . أخرجه الترمذي من رواية ابن خنيم عن سعيد بن جبير وأبي الطفيل جميعاً فيه نحو « ما أطيك من بلد وأحكك إلى » . ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك .

(٣) قوله « لا يختل خلاها ... الخ » : أى لا يجر حبشها ، ولا يقطع شجرها . (ع)

(٤) قال محمود : « المراد بالبلدة مكة وإضافة اسم الله تعالى إليها لتشريفها وذكر تحريمها ، لأنه أخص أوصافها وأسند إلى ذاته تأكيداً لشرفها ثم قال : (وله كل شيء) ، لجعل دخول كل شيء تحت ربوبيته وملكوته كالتابع لدخول هذه البلدة المظلمة . وفي ذلك إشارة إلى أن ملكاً قد ملك هذه البلدة المسكرة وملك إليها كل شيء . إنه لعظيم الشأن » قال أحمد : وتحت قوله (وله كل شيء) : فائدة أخرى سوى ذلك ، وهي أنه لما أضاف اسمه إلى البلدة المخصوصة تشريفاً لها ، أتبع ذلك إضافة كل شيء سواها إلى ملكه ، قطعاً لتوهم اختصاص ملكه بالبلدة المخار إليها ، وتنبها على أن الإضافة الأولى إنما قصد بها التشريف ، لا لأنها ملك الله تعالى خاصة ، والله أعلم .

إلا البلاغ. ثم أمره أن يحمد الله على ما خوله من نعمة النبوة التي لا توازيها نعمة، وأن يهتد أعداءه بما سيرهم الله من آياته التي تلجهم إلى المعرفة، والإقرار بأنها آيات الله. وذلك حين لا تنفعهم المعرفة. يعني في الآخرة. عن الحسن وعن الكلبي: الدخان، وانشقاق القمر. وما حل بهم من نجات الله في الدنيا. وقيل: هو كقوله (سيرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم الآية) وكل عمل يعملونه، فالله عالم به غير غافل عنه لأن الغفلة والسهو لا يجوزان على عالم الذات^(١)، وهو من وراء جزاء العاملين. قرئ: تعملون، بالياء والياء.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. «من قرأ طس سليمان: كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق سليمان وكذب به وهود وشعيب وصالح وإبراهيم، ويخرج من قبره وهو ينادى لا إله إلا الله»^(٢).

(١) قال محمود: «لأن العالم بالذات لا يجوز عليه الغفلة» قال أحمد: قد سبق له جحد صفة العلم، وإيهام أن عليها داخل في تزويه الله تعالى، لأنه يجعل استحالة الغفلة عليه معلقة بأنه عالم بالذات لا يعلم، والحق أن استحالة الغفلة عليه تعالى، لأن عليه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، بل هو علم قديم أزلي عام التعليق بجميع الواجبات والممكنات والمستعانت، ولا يتوقف تزويه تعالى على تعطيل صفاته وكأله وجلاله، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

(٢) أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

سورة القصص

مكية ، [إلا من آية ٥٢ إلى غاية آية ٥٥ فمدنية ، وآية ٨٥ فبالجحفة أثناء الهجرة]
وآياتها ٨٨ [نزلت بعد النمل]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طسم ١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى
وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٣

(من نبأ موسى وفرعون) مفعول تلو ، أى : تتلو عليك بعض خبرهما (بالحق) محقين ،
كقوله تنبت بالدهن (لقوم يؤمنون) لمن سبق في علمنا أنه يؤمن ، لأن التلاوة إنما تنفع
هؤلاء دون غيرهم .

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ
أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ٤

(إن فرعون) جملة مستأنفة كالتفسير للجمل ، كأن قائلًا قال : وكيف كان نبؤهما فقال :
إن فرعون (علا في الأرض) يعنى أرض مملكته قد طغى فيها وجاوز الحد في الظلم والعسف
(شيعا) فرقا يشيعونه على ما يريد ويطيعونه ، لا يملك أحد منهم أن يلوى عنقه . قال الأعشى :
وَبَلَدَةٍ بَرَّهَبُ الْجَوَابُ دُجَّتْهَا - حَتَّى تَرَاهُ عَلَيْهِمَا يَبْتَغِي الشَّيْعَا (١)

(١)	وبلدة برهب الجواب دلجتها	حتى تراه عليها يبتغي الشيعا
	كلفت مجهولها نفسى وشايعنى	مضى عليها إذا ما أها لما
	بذات لوت عفرناة إذا عثرت	فالتمس أولى لها من أن يقال لها

للأعشى ، أى : ورب مفازة يخاف الجواب : أى كثير السير ، من جبت الأرض : قطعها بالسير . والدلجة ، من
دلج وأدلج وزن اقتل ، وأدلج بوزن أكرم : إذا سار ليلا . والدلجة : ساعة من الليل ، أى : يخاف المعتاد على
السير من سيرها ليلا حتى يطلب الجماعات المساعدين له على سيرها ، كلفت نفسى سير المجهول منها ، وعاونتى عزى
على سيرها وقت لمان أها ، وهو السراب الذى يرى عند شدة الحر كأنه ماء ، مع أن سير الهاجرة أشد من سير ==

أو يشيع بعضهم بعضاً في طاعته . أو أصنافاً في استخدامه يتسخروا صنفاً في بناء وصنفاً في حرق وصنفاً في حفر ، ومن لم يستعمله ضرب عليه الجزية . أو فرقاً مختلفة قد أغرى بينهم العداوة ، وهم بنو إسرائيل والقبط . والطائفة المستضعفة : بنو إسرائيل . وسبب ذبح الأبناء : أن كاهنا قال له : يولد مولود في بني إسرائيل يذهب ملكك على يده . وفيه دليل بين على نخانة حق فرعون ، فإنه إن صدق الكاهن لم يدفع القتل الكائن ، وإن كذب فواجه القتل ؟ و ﴿ يستضعف ﴾ حال من الضمير في (وجعل) أو صفة لشيعة . أو كلام مستأنف . و ﴿ يذبح ﴾ بدل من يستضعف . وقوله ﴿ إنه كان من المفسدين ﴾ بيان أن القتل ما كان إلا فعل المفسدين فحسب ، لأنه فعل لا طائل تحته ، صدق الكاهن أو كذب .

وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۝

فإن قلت : علام عطف قوله ﴿ وريد أن نمن ﴾ وعطفه على (تلو) و (يستضعف) غير سديد ؟ قلت : هي جملة معطوفة على قوله (إن فرعون علا في الأرض) لأنها نظيرة ذلك ، في وقوعها تفسيراً للنبا موسى وفرعون ، واقتصاصاً له . (وريد) : حكاية حال ماضية . ويجوز أن يكون حالا من يستضعف ، أي يستضعفهم فرعون ، ونحن نريد أن نمن عليهم . فإن قلت : كيف يجتمع استضعافهم وإرادة الله المنة عليهم ؟ وإذا أراد الله شيئاً كان ولم يتوقف إلى وقت آخر ، قلت : لما كانت منة الله بخلاصهم من فرعون قريبة الوقوع ، جعلت إرادة وقوعها كأنها مقارنة لاستضعافهم ﴿ أئمة ﴾ مقدمين في الدين والدنيا ، يطاء الناس أعقابهم . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : قادة يقتدى بهم في الخير . وعن مجاهد رضي الله عنه : دعاة إلى الخير ، وعن قتادة رضي الله عنه : ولادة ، كقوله تعالى (وجعلكم ملوكا) . ﴿ الوارثين ﴾ يرثون فرعون وقومه ملكهم وكل ما كان لهم . مكن له : إذا جعل له مكاناً يقعد عليه أو يرقد ، فوطأه ومهده ونظيره : أرض له . ومعنى التمكين لهم في الأرض وهي أرض مصر والشام : أن يجعلها بحيث لا تنبؤ بهم ولا تغث ^(١) عليهم ؛ كما كانت في أيام الجبابة ، وينفذ أمرهم ، ويطلق أيديهم ويسلطهم .

== الليل ، ثم قال مع ناقة صاحبة قوة ، ويطلق اللوث على الضعف أيضاً ، فهو من الأضداد . غفناة : غليظة . ويقال للعائر : لعالك ، دعاة له بالاعتاش . وتغث له : دعاة عليه بالسقوط ، يريد أنها لا تمثر ، ولو غثرت فالدعاة عليها أحق بها من البهائم لها .

(١) قوله « ولا تغث عليهم » أي : ولا تفسد وتردق . أفاده الصحاح . (ع)

وقرئ : ويرى فرعون وهامان وجنودهما ، أى : يرون (منهم ما) حذروه : من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود منهم .

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَأَوْنَاهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾

اليم : البحر . قيل : هو نيل مصر . فإن قلت : ما المراد بالخوفين حتى أوجب أحدهما ونهى عن الآخر ؟ قلت : أما الأول فالخوف عليه من القتل ؛ لأنه كان إذا صاح خافت أن يسمع الجيران صوته فينموا عليه . وأما الثانى ، فالخوف عليه من الغرق ومن الضياع ومن الوقوع في يد بعض العيون المبسوطة من قبل فرعون في تطلب الولدان ، وغير ذلك من المخاوف . فإن قلت : ما الفرق بين الخوف والحزن ؟ قلت : الخوف غم يلحق الإنسان لمتوقع . والحزن : غم يلحقه لواقع وهو فراقه والإخطار به ، فنهيت عنهما جميعاً . وأومت بالوحى إليها ، ووعدت ما يسليها ويطامن قلبها ويملؤها غبطة وسروراً : وهو ردها إليها وجعله من المرسلين . وروى : أنه ذبح في طلب موسى عليه السلام تسعون ألف وليد . وروى : أنها حين أقربت وضربها الطلق وكانت بعض القوايل الموكلات بحبالى بنى إسرائيل مصافية لها ، فقالت لها : لينفنى حبك اليوم ، فعاجتها ، فلما وقع إلى الأرض ها لها نور بين عيني . وارتعش كل مفصل منها ، ودخل حبه قلبها ، ثم قالت : ما جئتكم إلا لأقبل مولودك وأخبر فرعون ، ولكنى وجدت لابنك حباً ما وجدت مثله فاحفظيه ، فلما خرجت جاء عيون فرعون ، فلفته في خرقة ووضعت في تنور مسجور^(١) ، لم تعلم ما تصنع لما طاش من عقلها ، فطلبوا فلم يلقوا شيئاً . فخرجوا وهى لا تدري مكانه ، فسمعت بكاءه من التنور ، فانطلقت إليه وقد جعل الله النار عليه برداً وسلاماً ، فلما ألح فرعون في طلب الولدان أوحى الله إليها فألقته في اليم . وقد روى أنها أرضعته ثلاثة أشهر في تابوت من بردى^(٢) مطلى بالقار من داخله .

فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ

وَجُنُودُهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾

(١) قوله « ووضعت في تنور مسجور » في الصحاح «التنور» : الذى يجز فيه . وفيه أيضاً . هجرت التنور

هجراً ، إذا حبت . (ع)

(٢) قوله « تابوت من بردى مطلى بالقار » في الصحاح «البردى» : بالفتح : نبات معروف ، فلي نظر . (ع)

اللام في ﴿ليكون﴾ هي لام كي التي معناها التعليل ، كقولك : جئتكَ لتكرمني سواء بسواء ولكن معنى التعليل فيها وارد على طريق المجاز دون الحقيقة ، لأنه لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدواً وحزناً ، ولكن : المحبة والتفنى ، غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له وثمرته ، شبه بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لأجله ، وهو الإكرام الذي هو نتيجة المجي . ، والتأدب الذي هو ثمرة الضرب في قولك : ضربته ليتأدب . وتحريه : أن هذه اللام حكمها حكم الأسد ، حيث استعيرت لما يشبه التعليل ، كما يستعار الأسد لمن يشبه الأسد . وقرئ : وحزناً وهما لغتان : كالعُدم والعُدم ﴿كانوا خاطئين﴾ في كل شيء ، فليس خطوهم في تربية عدوهم يبدع منهم . أو كانوا مذنبين مجرمين ، فعاقبهم الله بأن ربي عدوهم - ومن هو سبب هلاكهم - على أيديهم . وقرئ : خاطين ، تخفيف خاطئين ، أو خاطين الصواب إلى الخطأ .

وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ

وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

روى أنهم حين التقطوا التابوت عاجلوا فتحه ، فلم يقدرُوا عليه ، فعاجلوا كسره فأعيامهم ، فدنّت آسية فرأت في جوف التابوت نوراً ، فعاجلته ففتحته ، فإذا بصبيّ نوره بين عينيه وهو يمصّ إبهامه لبناً فأحبوه ، وكانت لفرعون بنت برصاء ، وقالت له الأطباء : لا تبرأ إلا من ، قبل البحر ، يوجد فيه شبه إنسان دواؤها ريقه ، فلطخت البرصاء برصها بريقه فبرأت^(١) . وقيل لما نظرت إلى وجهه برأت ، فقالت : إن هذه لنسمة مباركة ، فهذا أحدا ما عطفهم عليه ، فقال الغواة من قومه : هو الصبي الذي نحذر منه ، فأذن لثاني قتله ، فهم بذلك فقالت آسية ﴿قرة عين لي ولك﴾ فقال فرعون : لك لالي . وروى في حديث : لو قال هو قرة عين لي كما هو لك ، لهداه الله كما هداها^(٢) ، وهذا على سبيل الفرض والتقدير ، أي : لو كان غير مطبوع على قلبه كآسية لقال مثل قولها ، ولأسلم كما أسلمت : هذا - إن صح الحديث - تأويله ، والله أعلم بصحته . وروى أنها قالت له : لعله من قوم آخرين ليس من بني إسرائيل . قرة عين : خبر مبتدأ محذوف ولا يقوى أن يجعله مبتدأ و (لا تقتلوه) خبراً ، ولو نصب لكان أقوى . وقراءة ابن مسعود

(١) قوله «فبرأت» في الصحاح : برئت من المرض برماً بالضم . وأهل الحجاز يقولون : برأت من المرض برماً بالفتح . وأصبح فلان بارئاً من مرضه (ع)

(٢) هذا طرف من حديث الفتون الطويل . وقد ذكرنا في طه أن النسائي أخرجه من حديث ابن عباس وفيه فأنت فرعون فقالت : قرة عين لي ولك فقال فرعون : يكون لك فأما أنا فلا حاجة لي فيه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي يخلف به ، لو أقر فرعون أن يكون له قرة عين كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها ولكن الله حرّمه ذلك .

رضى الله عنه دليل على أنه خبر، قرأ: لا تقتلوه قرة عين لي ولك، بتقديم (لا تقتلوه).
 ﴿عسى أن ينفعنا﴾ فإن فيه غايل اليمين ودلائل النفع لأهله، وذلك لما عاينت من النور
 وارتضاع الإبهام وبرء البرصاء، ولعلها توسمت في سبياه النجاة المؤذنة بكونه نفاعاً.
 أو تتبناه، فإنه أهل للتبني، ولأن يكون ولداً لبعض الملوك. فإن قلت: ﴿وهم لا يشعرون﴾
 حال، فاذا حالها؟ قلت: ذو حالها آل فرعون. وتقدير الكلام: فالتقطه آل فرعون ليكون
 لهم عدواً وحزناً، وقالت امرأة فرعون كذا وهم لا يشعرون أنهم على خطأ عظيم في التقاطه
 ورجله النفع منه وتبنيه. وقوله: إن فرعون... الآية: جملة اعتراضية واقعة بين المعطوف
 والمعطوف عليه، مؤكدة لمعنى خطئهم. وما أحسن نظم هذا الكلام عند المراتض بعلم محاسن النظم.

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ قَاسِرًا ۖ إِنَّ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ
 قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ
 وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾

﴿فارغاً﴾ صفراً من العقل. والمعنى: أنها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها لما
 دهمها من فرط الجزع والدهش. ونحوه قوله تعالى (وأفندتهم هواء) أى جوف لا عقول فيها
 ومنه بيت حسان:

أَلَا أُبْلِغُ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي فَأَنْتَ مُجَوِّفٌ نَحْبَ هَوَاهُ ^(١)

وذلك أن القلوب مراکز العقول. ألا ترى إلى قوله (فتكون لهم قلوب يعقلون بها) ويدل
 عليه قراءة من قرأ: فرغاً. وقرئ: قرعاً، أى خالياً من قولهم: أعوذ بالله من صفر الإناء.
 وقرع الفناء ^(٢). وفرغاً، من قولهم: دماؤهم بينهم فرغ، أى هدر، يعنى: بطل قلبها وذهب،
 وبقيت لا قلب لها من شدة ما ورد عليها ﴿لتبدي به﴾ لتصح ^(٣) به. والضمير لموسى
 والمراد بأمره وقصته، وأنه ولدها ﴿لولا أن ربطنا على قلبها﴾ يألهم الصبر، كما يربط على
 الشيء المنفلت ليقتر ويطمئن ﴿لتكون من المؤمنين﴾ من المصدقين بوعد الله، وهو قوله (إنا

(١) تقدم شرح هذا القاصد ضمن آيات في الجزء الثاني صفحة ٥٦٣ فراجعه إن شئت أمه مصرحه .

(٢) قوله «من صفر الإناء وقرع الفناء» صفر الإناء: خلوه، مصدر: صفر الشيء بالكسر، أى: خلا.

وقرع الفناء: خلوه من الفاشية، مصدر قرع بالكسر، أى: خلا. (ع)

(٣) قوله «لتصح به» في الصحاح: أحرز الرجل، أى: خرج إلى الصحراء والمراد هنا تجهز به ولا تنكتم

أمره (ع)

رأوه إليك) ويجوز: وأصبح فؤادها فارغاً من ألم، حين سمعت أن فرعون عطف عليه وتبناه إن كادت لتبدي بأنه ولدها؛ لأنها لم تملك نفسها فرحاً وسروراً بما سمعت، لولا أنا طامنا قلبها وسكناً قلعه الذي حدث به من شدة الفرح والابتهاج، لتكون من المؤمنين الواقفين بوعد الله لا بتبني فرعون وتعطفه. وقرئ: موسى، بالهمزة: جعلت الضمة في جارة الواو - وهي الميم - كأنها فيها، فهمزت كما تهمز واو وجوه (قصيه) اتبعي أثره وتتبعي خبره. وقرئ فبصرت بالكسر - يقال بصرت به عن جنب وعن جنباً، بمعنى: عن بعد. وقرئ: عن جانب، وعن جنب. والجنب: الجانب. يقال: قعد إلى جنبه وإلى جانبه، أى: نظرت إليه مزورة متجاففة مخالفة (١). وهم لا يحسون بأنها أخته، وكان اسمها مريم.

وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

التحريم: استعارة للنسب؛ لأن من حرم عليه الشيء فقد منعه. ألا ترى إلى قولهم: محظور. وحجر، وذلك لأن الله منعه أن يرضع ثدياً، فكان لا يقبل ثدي مرضع قط، حتى أهمهم ذلك. والمرضع: جمع مرضع، وهي المرأة التي ترضع. أو جمع مرضع، وهو موضع الرضاع يعنى الثدي أو الرضاع (من قبل) من قبل قصصها أثره. روى أنها لما قالت (وهم له ناصحون) قال هامان: إنما لتعرفه وتعرف أهله، فقالت: إنما أردت وهم للملك ناصحون (٢) والنصح: إخلاص العمل من شائب الفساد، فانطلقت إلى أمها بأمرهم، فجاءت بها والصبي على يد فرعون يعمل شفقة عليه وهو يبكي يطلب الرضاع، فحين وجد ربحها استأنس والتقم ثديها، فقال لها فرعون: ومن أنت منه فقد أبى كل ثدي إلا ثديك؟ قالت: إني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن، لا أوتى بصبي إلا قبلي، فدفعه إليها وأجرى عليها، وذهبت به إلى بيتها، وأنجز الله وعده في الرد، فمئنها ثبت واستقر في عليها أن سيكون نبياً. وذلك قوله (ولتعلم أن وعد الله حق) يريد. وليثبت عليها ويتمكن. فإن قلت: كيف حل لها أن تأخذ الأجر على إرضاع ولدها؟

(١) قوله «متجاففة غائلة» متجاففة: أى مائلة. وغائلة: أى غادرة. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «إنهم اتهموها لما قالت (وهم له ناصحون) بمعرفة موسى عليه السلام، فقالت إنما أردت وهم للملك فرعون ناصحون، غلطت من التهمة قال أحد: أوردت هذه التورية استحساناً لفظتها، ولكونها من بيت النبوة، وأخت النبي، فحقق لها ذلك.

قلت : ما كانت تأخذه على أنه أجر على الرضاع ، ولكنه مال حربى كانت تأخذه على وجه الاستباحة . وقوله ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ داخل تحت عليها . المعنى : لتعلم أن وعد الله حق ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنه حق فيرتابون . ويشبه التعريض بما فرط منها حين سمعت نجر موسى ، فجذعت وأصبح فؤادها فارغا يروى أنها حين ألفت التابوت في اليم جاءها الشيطان فقال لها : يأم موسى ، كرهت أن يقتل فرعون موسى فتجبرى ، ثم ذهبت فتوليت قتله ، فلما أتتها الخبر بأن فرعون أصابه قالت : وقع في يد العدو ، فسيت وعد الله . ويجوز أن يتعلق (ولكن) بقوله (ولتعلم) ومعناه : أن الرد إنما كان لهذا الغرض الدينى ، وهو عليها بصدق وعد الله . ولكن الأكثر لا يعلمون بأن هذا هو الغرض الاصلى الذى ماسواه تبع له : من قوة العين وذهاب الحزن .

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ؕ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾

﴿ واستوى ﴾ واعتدل وتم استحكامه ، وبلغ المبلغ الذى لايزاد عليه ، كما قال لقيط :

وَأَسْتَحِيلُوا أَمْرَكُمْ لِلَّهِ دَرْكُكُمْ شَرَزَ الْمِرْيَةَ لَأَقْحَمَا وَلَا ضَرَعَا ^(١)

وذلك أربعون سنة : وروى : أنه لم يبعث نبي إلا على رأس أربعين سنة ^(٢) . العلم . التوراة . والحكم : السنة . وحكمة الانبياء : سنتهم . قال الله تعالى (واذكرون ما يتلى في بيوتكن من

(١) للقيط . وروى : واستحكوا . والشزر : القتل الشديد ، والشىء الشديد ، فهو مصدر أووصف ، والمريرة من المرة وهى القوة . والمرير : الجبل المحكم القتل . والقحم : الشيخ المرم يعتره خرق وخرف . والضرع : اللين الدليل ، من الضراعة وهى الذلة والخضوع ، يقول : قلدوا أمر خلافتكم رجلا بحكم العزيمة قوى المهمة ، لا هرما يحتل رأى ولا ضعيفا ، والله دركم : جملة اعتراضية ، أى : لله خيركم وصالح عملكم . وقيل : هذا البيت ملقن بما رواه أبو العباس المبرد فى كامله ، ومنه :

فقلدوا أمركم لله دركم	رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
مازال يحلب هذا الدهر أشطره	يكون متبعا طورا ومتبعا
حتى استمرت على شزر مريرته	مستحكم الرأى لاقبها ولاضرها

ورحب الذراع : طويل الباع واسع الصدر ، أى : فجاج جواد ، واضطلع بكذا : قوى عليه واشتد ، من الضلاعة وهى القوة واحتمال الثقل ، وشطرت الناقة شطرا : حلبت شطرا لبها وترك شطره ، أى : نصفه وما هنا مستعار منه ، أى : جربت الدهر ومرت فى ضرويه من خير وشر ، فاكسبت منه ما يصح به رأى . والأشطر : جمع شطر بدل من الدهر . ويجوز أن حلب يعتمدى إلى مفعولين ولو بالتضمن . ومتبع الأول : اسم مفعول ، والثانى : اسم فاعل ، أى : نارة تابع ، ونارة مقبوع . واستمرت مريرته : قوى عزمه واستحكم أمره على شزر ، أى قوة وصدق مهمة .

(٢) لم أجد .

من آيات الله والحكمة) وقيل : معناه أتيناه سيرة الحكماء العلماء . وسمتهم قبل البعث ، فكان لا يفعل فعلا يستجمل فيه .

وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَى الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥)
قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَقَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦)
قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِلْمُجْرِمِينَ (١٧)

المدينة : مصر . وقيل : مدينة منف من أرض مصر . وحين غفلتهم : ما بين العشاءين .
وقيل : وقت القائلة . وقيل : يوم عيد لهم هم مشتغلون فيه بلهوهم . وقيل : لما شب وعقل أخذ يتكلم بالحق وينكر عليهم ، فأخافوه ، فلا يدخل قرية إلا على تغفل . وقرأ سيبويه : فاستعانه (من شيعته) ممن شايعه على دينه من بني إسرائيل . وقيل : هو السامري (من عدوه) من مخالفيه من القبط ، وهوفاتون ، وكان يتسخر الإسرائيل لحمل الحطب إلى مطبخ فرعون . والوكز : الدفع بأطراف الأصابع . وقيل : بجمع الكف . وقرأ ابن مسعود : فلكزوه . باللام (فقضى عليه) فقتله . فإن قلت : لم جعل قتل الكافر من عمل الشيطان وسماء ظلماً لنفسه واستغفر منه ؟ قلت : لأنه قتله قبل أن يؤذن له في القتل ، فكان ذنباً يستغفر منه . عن ابن جريج : ليس لنبى أن يقتل ما لم يؤمر (بما أنعمت على) يجوز أن يكون قسماً جوابه محذوف ، تقديره : أقسم يا نعمامك على بالمغفرة لاتوبن (فلن أكون ظاهراً للمجرمين) (١٦) وأن يكون استعطافاً ، كأنه قال : رب اعصمني بحق ما أنعمت على من المغفرة ، فلن أكون - إن عصمتي - ظاهراً للمجرمين . وأراد بمظاهرة المجرمين : إما صحبة فرعون وانتظامه في جملة وتكثيره سواده حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد ، وكان يسمى ابن فرعون . وإما مظاهرة من أدت مظهرته إلى الجرم والإثم ، كظاهرة الإسرائيل المؤدية إلى القتل الذي لم يحل له . وعن ابن عباس : لم يستثن فابتلى به مرة أخرى . يعنى : لم يقل : (فلن أكون) إن شاء الله . وهذا نحو قوله (ولا تركزوا إلى الذين ظلموا) وعن عطاء : أن رجلاً قال له : إن أخى يضرب بقلبه ولا يعدو رزقه . قال : فن الرأس ، يعنى

(١) قوله تعالى (قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظاهراً للمجرمين) قال أحد : لقد تبرا من عظيم : لأن ظهير المجرمين شريكهم فيما هم بصده . وروى : أنه يقال يوم القيامة : أن الظلة وأعوان الظلة ، فيؤق بهم حتى يبن لاق لم ليقة أو يرى لم قلأ فيجملون في تابوت من حديد ويلقى بهم في النار .

من يكتب له ؟ قال : خالد بن عبد الله القسري : قال : فأين قول موسى ؟ وتلا هذه الآية . وفي الحديث : « ينادى مناد يوم القيامة : أين الطلبة وأشباه الطلبة وأعوان الطلبة ، حتى من لاق لهم دواة أو برى لهم قلماً ، فيجمعون في تابوت من حديد فيرمى به في جهنم ، »^(١) وقيل معناه . بما أنعمت على من القوة ، فلن أستعملها إلا في مظاهرة أوليائك وأهل طاعتك والإيمان بك . ولا أدع قبلياً يغلب أحداً من بني إسرائيل .

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي آٰمَنَّا نَصْرُهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ
قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِي مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَن أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ
لَهُمَا قَالَ بَسْمُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَنِي نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ
تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾

﴿ يتَرَقَّب ﴾ المكروه وهو الاستفادة منه ، أو الاخبار وما يقال فيه ، ووصف الإسرائيل بالنفى ؛ لأنه كان سبب قتل رجل ، وهو يقاتل آخر . وقرئ : يبطش ، بالضم . والذي هو العدو لها : القبطي ؛ لأنه ليس على دينهما ، ولأن القبط كانوا أعداء بني إسرائيل . والجبار : الذي يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم ، لا ينظر في العواقب ولا يدفع بالتي هي أحسن : وقيل : المتعظم الذي لا يتواضع لأمر الله ، ولما قال هذا : أفشى على موسى فانتشر الحديث في المدينة ورقى إلى فرعون ، وهموا بقتله .

وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمُوسَى إِنَّ أَعْلَى بَأْتِمِرُونَ بِكَ

لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾

قيل : الرجل : مؤمن آل فرعون ، وكان ابن عم فرعون ، و﴿ يسعى ﴾ يجوز ارتفاعه وصفاً لرجل ، واتصافه حالاً عنه ؛ لأنه قد تخصص بأن وصف بقوله ﴿ من أقصى المدينة ﴾ وإذا جعل صلة لجاء ، لم يجوز في ﴿ يسعى ﴾ إلا الوصف . والائتمار : التشاور . يقال : الرجلان يتأمران ويتأمران ، لأن كل واحد منهما يأمر صاحبه بشيء أو يشير عليه بأمر . والمعنى : يتشاورون بسببك ﴿ لك ﴾ بيان ، وليس بصلة الناصحين .

فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾

(يتربص) التعرض له في الطريق . أو أن يلحق .

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾

(تلقاء مدين) قصدتها ونحوها . ومدين : قرية شعيب عليه السلام ، سميت بمدين بن إبراهيم ، ولم تكن في سلطان فرعون ، وبينها وبين مصر مسيرة ثمان ، وكان موسى لا يعرف إليها الطريق قال ابن عباس : خرج وليس له علم بالطريق إلا حسن ظنه بربه . و (سواء السبيل) وسطه ومعظم نهجه . وقيل : خرج حافياً لا يعيش إلا بورق الشجر ، فواصل حتى سقط خف قدمه . وقيل : جاءه ملك على فرس بيده عنزة ، فانطلق به إلى مدين .

وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْتَقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا تَسْقِيَنَا هُنَا نَحْنُ نَحْمِلُ الْوِجَارَةَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ

إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ

نَجُوتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ

أُنْكِحَ ابْنَتِي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُلْقِيَ عَلَيْكَ سِتْرًا فَإِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ

أَمَّا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

(ماء مدين) ماءم الذي يستقون منه ، وكان بئراً فيماروى . ووروده : مجيئه والوصول إليه (وجد عليه) وجد فوق شفيره ومستقاه (أمة) جماعة كثيفة العدد (من الناس) من أناس مختلفين (من دونهم) في مكان أسفل من مكانهم . والدود : الطرد والدفع وإنما كانتا تذودان : لأن على الماء من هو أقوى منهما فلا يتمكنان من السقي . وقيل : كانتا تكرهان المراحة على الماء . وقيل : لثلاث تخطأ أغنامهما بأغنامهم ، وقيل : تذودان عن وجوههما نظر الناظر لتسترهما (ماخطبكما) ماشأنكما . وحقيقته : ماخطوبكما ، أى : مطلوبكما من الزيادة ، فسمى المخطوب خطباً ،

كما سمي المشئون شأننا في قولك : ماشأنتك ؟ يقال : شأنت شأنه ، أى : قصدت قصده . وقرئ : لانسقى . ويصدر . والرعاء ، بضم النون والياء والراء . والرعاء : اسم جمع كالرغال والشئاء^(١) . وأما الرعاء بالكسر فقياس ، كصيام وقيام (كبير) كبير السن (فسق لها) فسق غنمهما لأجلهما . وروى أن الرعاء كانوا يضعون على رأس البئر حجراً لا يقله إلا سبعة رجال . وقيل : عشرة . وقيل : أربعون . وقيل : مائه ، فأقله وحده . وروى أنه سألهم دلواً من ماء فأعطوه دلوهم وقالوا : استق بها ، وكانت لا ينزعها إلا أربعون ، فاستق بها وصباها في الخوض ودعا بالبركة ، وروى غنمهما وأصدرهما . وروى أنه دفعهم عن الماء حتى سقى لها . وقيل : كانت بئراً أخرى عليها الصخرة . وإنما فعل هذا رغبة في المعروف وإغائة للبلوف . والمعنى : أنه وصل إلى ذلك الماء وقد ازدحم عليه أمة من أناس مختلفة متكاثرة العدد ، ورأى الضعيفتين من ورائهم مع غنيمتهما مترقبتين لفراغهم ، فما أخطأت همته في دين الله تلك الفرصة ، مع ما كان به من النصب وسقوط خف القدم والجوع ، ولكنه رحمهما فأغاثهما ، وكفاهما أمر السقى في مثل تلك الزحمة بقوة قلبه وقوة ساعده ، وما آتاه الله من الفضل في متانة الفطرة ورصانة الجيلة وفيه مع إرادة اقتصاص أمره وما أوتى من البطش والقوة وما لم يغفل عنه ، على ما كان به من انتهاز فرصة الاحتساب ، ترغيب في الخير ، وانهاز فرصة ، وبعث على الاقتداء في ذلك بالصالحين والاختذ بسيرهم ومذاهبهم . فإن قلت : لم ترك المفعول غير مذكور في قوله (يسقون) و (تذودان) و (لا نسقى)^(٢) ؟ قلت : لأن الغرض هو الفعل لا المفعول . ألا ترى أنه إنما رحمهما لأنهما كانتا على الزيادة وهم على السقى . ولم يرحمهما لأن مذودهما غنم ومسقيهم إبل مثلاً ، وكذلك قولهما (لانسقى حتى يصدر الرعاء) المقصود فيه السقى لا المسقى . فإن قلت : كيف طابق جوابهما سؤاله قلت : سألهما عن سبب الذود فقالتا : السبب في ذلك أنا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدر على مساجلة الرجال^(٣) ، ومزاحمتهم ، فلا بد لنا من تأخير السقى إلى أن يفرغوا ، وما لنا نرجل يقوم بذلك ، وأبونا شيخ قد أضعفه الكبر فلا يصلح للقيام به : أبلنا إليه عذرهما^(٤) في توليها السقى بأنفسهما . فإن قلت : كيف ساء لشيء الله الذي هو شعيب عليه السلام أن يرضى لابنتيه

(١) قوله « لانسقى ويصدر والرعاء بضم النون والياء والراء ... الخ » يفيد أن القراءة المشهورة بفتح النون والياء وكسر الراء . والرعال : واحد دخل ، وهى الأثني من ولد الضأن . والشئاء : عقال البعير ونحوه من جبل متى ، كذا في الصحاح . (ع)

(٢) قوله « وتذودان ولا نسقى » لعل بعده سقطاً تقديره : فسقى لها ، وبعبارة النسقى : لانسقى ، و : فسقى . (ع)
(٣) قوله « لا نقدر على مساجلة الرجال » في الصحاح : « السجل » الدلو إذا كان فيه ماء . والمساجلة : المفاخرة بأن نصنع مثل صنعه في جرى أوسقى ، وأصله من الدلو أنه . (ع)

(٤) قوله « أبلنا إليه عذرهما » لعله تحريف ، وأصله : أبدنا ، كعبارة النسقى . (ع)

بسق المشية ؟ قلت : الأمر في نفسه ليس بمحذور ، فالدين لا يأباه . وأما المروءة ، فالتناس مختلفون في ذلك ، والعادات متباينة فيه ، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم ، ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضرة ، خصوصاً إذا كانت الحالة حالة ضرورة . (إني) لاى شئ . (أنزلت إلى) قليل أو كثير ، غث أو سمين (فقير) ^(١) وإنما عدى فقير باللام ؛ لأنه ضمن معنى سائل وطالب . قيل : ذكر ذلك وإن خضرة البقل ترمى في بطنه من الهزال ، ماسأل الله إلا أكلة . ويحتمل أن يريد : إني فقير من الدنيا لأجل ما أنزلت إلى من خير الدين وهو النجاة من الظالمين ؛ لأنه كان عند فرعون في ملك وثروة : قال ذلك رضا بالبدل السني ، وفرحاً به ، وشكراً له ، وكان الظل ظل سمرة (على استحياء) في موضع الحال ، أى : مستحية متخفرة ^(٢) . وقيل . قد استترت بكم درعها . روى أنها لما رجعتا إلى أبيهما قبل الناس وأغنامهما حفل بطان ^(٣) قال لهما : ما أعجلكما ؟ قالتا : وجدنا رجلاً صالحاً رحماً فسقى لنا ، فقال لإحداهما : اذهبي فادعيه لي ، فتبعها موسى فألزقت الرمح ثوبها بجسدها فوصفته ، فقال لها : امشي خلقي وانعتلي الطريق ، فلما قص عليه قصته قال له . لا تخف فلا سلطان لفرعون بأرضنا . فإن قلت : كيف ساغ لموسى أن يعمل بقول امرأة ، وأن يمشى معها وهي أجنبية ؟ قلت : أما العمل بقول امرأة فكما يعمل بقول الواحد حراً كان أو عبداً ذكر أكان أو أنثى في الأخبار ، وما كانت إلا مخبرة عن أبيها بأنه يدعو له ليجزيه . وأما مما شاته امرأة أجنبية فلا بأس به في نظائرك الحال ، مع ذلك الاحتياط والتورع . فإن قلت : كيف صح له أخذ الأجر على البر والمعروف ؟ قلت : يجوز أن يكون قد فعل ذلك لوجه الله وعلى سبيل البر والمعروف . وقيل إطعام شعيب وإحسانه لا على سبيل أخذ الأجر ، ولكن على سبيل التقبل لمعروف مبتدئ . كيف وقد قص عليه قصصه وعرفه أنه من بيت النبوة من أولاد يعقوب ؟ ومثله حقيق بأن يضيف ويكرم خصوصاً في دار نبي من أنبياء الله ، وليس بمنكر أن يفعل ذلك لاضطرار الفقر والمعاقة طلباً للأجر . وقد روى ما يعضد كلا القولين : روى أنها لما قالت : ليجزيك ، كره ذلك ، ولما قدم إليه الطعام امتنع وقال : إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بطلاع الأرض ^(٤) ذهباً ، ولا نأخذ على المعروف ثمناً . حتى قال شعيب : هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا . وعن عطاء ابن السائب : رفع صوته بدعائه ليسمعهما ، فلذلك قيل له : ليجزيك أجر ما سقيت ، أى : جزاء سقيك . والقصص : مصدر كالعلل ، سمي

(١) قوله « غث أو سمين لفقير » أى مهزول كما في الصحاح . والمراد : ردى . أو جيد . (ع)

(٢) قوله « أى مستحية متخفرة » الحفر : شدة الحياء . ومنه جارية خفرة ومتخفرة ، كذا في الصحاح . (ع)

(٣) قوله « وأغنامها حفل بطان » في الصحاح : ضرع حافل ، أى تمتلئ لبنا . وفيه : بطن بالكسر يطن بطناً :

عظم بطنه من الشبع . (ع)

(٤) قوله « لا نبيع ديننا بطلاع الأرض ذهباً » في الصحاح « طلاع الشئ » : ملؤه . (ع)

به المقصود . كبراهما : كانت تسمى صفراء ، والصغرى : صفراء . وصفراء : هى التى ذهبت به وطلبت إلى أبيها أن يستأجره ، وهى التى تزوجها . وعن ابن عباس : أن شعبياً أحفظته الغيرة^(١) فقال : وما عليك بقوته وأمانته ؟ فذكرت إقلال الحجر ونزع الدلو ، وأنه صوب رأسه حين بلغته رسالته وأمرها بالمشى خلفه . وقولها (إن خير من استأجرت القوى الأمين) كلام حكيم جامع لايزاد عليه ، لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان : أغنى الكفاية والأمانة فى القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتم مرادك ؛ وقد استغنت بارسال هذا الكلام الذى سياقه سياق المثل ، والحكمة أن تقول استأجره لقوته وأمانته^(٢) . فإن قلت : كيف جعل خير من استأجرت اسماً لإن ، والقوى الأمين خبراً ؟ قلت : هو مثل قوله :

أَلَا إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ حَيًّا وَهَالِكًا أَسِيرٌ ثَقِيفٌ عِنْدَهُمْ فِي السَّلَاسِلِ^(٣)

(١) قوله : أن شعبياً أحفظته الغيرة ، أى أغضبه ، كما فى الصحاح . (ع)
(٢) قال محمود : « هذا كلام حكيم لايزاد عليه ؛ لأنه إذا اجتمعت القوة والأمانة فى القائم بأمرك فقد فرغ بالك ، وقد استغنت بارسال هذا الكلام الذى ساقته سياق المثل والحكم عن أن تقول : فانه قوى أمين . قال أحد : وهو أيضاً أجل فى مدح الذماء للرجال من المدح الخاص وأبقى للخصمة ، وخصوصاً إن كانت فهمت أنت غرض أبيها عليه السلام أن يزوجه منها ، وما أحسن ما أخذ الفاروق رضى الله تعالى عنه هذا المعنى فقال : أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوى ، فى مضمون هذه الشكاية سؤال الله تعالى أن يتحفه بمن جمع الوصفين ، فكان قوياً أميناً يستعين به على ما كان يصده رضى الله عنه . وهذا الابهام - من ابنة شبيب صلوات الله عليه وسلامه - قد سلكته زليخا مع يوسف عليه السلام ، ولكن شتان ما بين الحياء المحبوس والمستعمل ، ليس التكهل فى العيتين كالتكهل ، حيث قالت لسيدها : ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم ، وهى تعنى ما جزاء يوسف بما أرادنى من سوء إلا أن تسجنه أو تعذبه عذاباً أليماً ، ولكنها أوهمت زوجها الحياء والجفر أن تنطق بالعصمة منسوباً إليها الخنا ، إذ بان هذا الحياء منها الذى يمنحها أن تنطق بهذا الأمر ، بمنحها من مرادة يوسف بطريق الأحرى والأولى ، والله أعلم .

(٣) ألا إن خير الناس حياً وميتاً أسير ثقيف عندهم فى السلاسل
أمرى إن عرتم السجن خالداً وأوطأتموه وطأة المشاغل
لقد كانت نهاضاً بكل ملة ومعطى اللهى غمراً كثير التوافل

لأبى الهذيل العيسى ، يتجوز على خالد بن عبد الله القسرى حين أسره يوسف بن عمرو . وخير الناس : أفضل تفضيل ، مضاف إلى المعرفة بأل ، وهو اسم إن . وحياً وميتاً ، وروى مالكاً : حالان منه . وأسير : خبر إن مضاف إلى ثقيف علم القبيلة . والعالم أعرف من المحلى بأل ، فخير إن المضاف إليه أعرف من اسمها المضاف للسجل ، ولا مانع منه مع اتحاد الماصدق الذى هو مراد الخبر . وعندهم فى السلاسل : حال أو خبر بعد خبر . ولعمري : قسم ، إن عرتم : أى أدخلتم وأسكنتم خالداً السجن . وأوطأتموه ، أى : صيرتموه يظاً برجله الأرض كوطأة المتناقل : الحامل لشيء ثقیل ، لجعل القيد فى رجله ، فهو كناية عن ذلك لقد كان نهاضاً جواب القسم ، وجواب الشرط محذوف ، أى : كان سريع القيام بكل نازلة ثقیلة ، وكان معطى اللهى - بالفتح - : جمع لهأة ، كحصى وحصاة ، بمعنى اللجمة التى فى أقصى الفم ، لكنها هنا بمعنى الفم نفسه . والأوجه أنه بالضم جمع لهوة ، كغرف : جمع غرفة بمعنى العطية

في أن العناية هي سبب التقديم، وقد صدقت حتى جعل لها ما هو أحق بأن يكون خبراً اسماً، وورود الفعل بلفظ الماضي للدلالة على أنه أمر قد جرب وعرف. ومنه قولهم: أهون ما أعلمت لسان مخ^(١). وعن ابن مسعود رضى الله عنه: أفرس الناس ثلاثة: بنت شعيب، وصاحب يوسف، في قوله (عسى أن ينفعنا) وأبو بكر في عمر. روى أنه أنكحه صفراء. وقوله (هاتين) فيه دليل على أنه كانت له غيرهما (تأجرني) من أجرته إذا كنت له أجيراً، كقولك: أبوته إذا كنت له أبا، و(ثمانى حجج) ظرفه. أو من أجرته كذا، إذا أثبتته إياه. ومنه: تغزية رسول الله صلى الله عليه وسلم: أجركم الله ورحمكم^(٢). وثمانى حجج: مفعول به، ومعناه: رعية ثمانى حجج فإن قلت: كيف صح أن ينكحه إحدى ابنتيه من غير تمييز؟ قلت: لم يكن ذلك عقداً للنكاح، ولكن مواعدة ومواصفة أمر قد عزم^(٣) عليه، ولو كان عقداً لقال: قد أنكحتك ولم يقل: إنى أريد أن أنكحك. فإن قلت: فكيف صح أن يمهرا إجارة نفسه في رعية الغنم، ولا بد من تسليم ما هو مال؟ ألا ترى إلى أبي حنيفة كيف منع أن يتزوج امرأة بأن يخدمها سنة^(٤) وجوز أن يتزوجها بأن يخدمها عبده سنة. أو يسكنها داره سنة، لأنه في الأول: مسلم نفسه وليس بمال، وفي الثاني: هو مسلم مالا وهو العبد أو الدار، قلت: الأمر على مذهب أبي حنيفة على ما ذكرت. وأما الشافعي: فقد جوز التزوج على الإجارة لبعض الأعمال والخدمة،

== من أى نوع كانت، غمراً: أى عطاء كثيراً غامراً، وكان كثير الزبادات في العطاء، وأجرى «معطي» مجرى المرفوع للوزن.

(١) قوله «أهون ما أعلمت لسان مخ» في الصحاح: تمنيت من الشيء وأخيت منه: إذا تبرأت منه اه، فلعل مخ: اسم فاعل من أخيت. (ع)

(٢) أخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان من طريق أحمد بن الحسن بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي عن أبيه إبراهيم بن الحسن عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها. قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عزي قال: «أجركم الله ورحمكم» وإذا هنا قال: «بارك الله لكم وبارك عليكم» وله شاهد مرسل أخرجه ابن أبي شيبة من رواية ابن خالد الوالي: أن النبي صلى الله عليه وسلم عزي رجلاً فقال له: «يرحمه الله ويأجركم» وفي الضعفاء لابن حبان عن ابن عمر: أن النبي صلى الله عليه وسلم عزي مسلماً بذى مات له، فقال: «أجركم الله وأعظم أجركم» وفي إسناده إسماعيل بن يحيى التميمي. وهو ساقط.

(٣) قوله «ولكن مواعدة ومواصفة أمر قد عزم عليه» له: ومواصفة (ع)

(٤) قال محمود: «نقل من مذهب أبي حنيفة منع النكاح على مثل خدمته بعينه، وجوازه على مثل خدمة عبده سنة، وفرق بأنه في الأول سلم نفسه وليس بمال، وفي الثانية سلم عبده وهو مال. ونقل عن الشافعي جواز النكاح على المنافع المعلومة مطلقاً، قال أحمد: ومذهب مالك على ثلاثة أقوال: المنع، والكرامة، والجواز. والمعجب من إجازة أبي حنيفة النكاح على منافع العبد، بخلاف منافع الزوج، مع أن الآية أبازت النكاح على منافع الزوج ولم تتعرض لغيره، وما ذاك إلا لترجيح المعنى الذي أشار إليه الزحشرى. أو تقريباً على أن لا دليل في شرع من قبلنا، أو غير ذلك، والله أعلم.

إذا كان المستأجر له أو المخدوم فيه أمراً معلوماً ، ولعل ذلك كان جائزاً في تلك الشريعة . ويجوز أن يكون المهر شيئاً آخر ، وإنما أراد أن يكون راعى غنمه هذه المدة ، وأراد أن ينسكه ابنته ، فذكر له المرادين ، وعلق الإنسكاح بالرعية على معنى : إني أفعل هذا إذا فعلت ذلك على وجه المعاهدة لا على وجه المعاقدة . ويجوز أن يستأجره لرعية ثمانى سنين بمبلغ معلوم ويوفيه إياه ، ثم ينسكه ابنته به ، ويجعل قوله (على أن تأجرني ثمانى حجج) عبارة عما جرى بينهما (فإن أتممت) عمل عشر حجج (فمن عندك) فإتمامه من عندك . ومعناه : فهو من عندك لا من عندى . يعنى : لا ألزمك ولا أحتمه عليك ، ولكنك إن فعلته فهو منك تفضل وتبرع ، وإلا فلا عليك (وما أريد أن أشق عليك) بالزمام أتم الأجلين وإيجابه . فإن قلت : ما حقيقة قولهم : شققت عليه ، وشق عليه الأمر ؟ قلت : حقيقته أن الأمر إذا تعاطمك فكأنه شق عليك ظنك باثنين ، تقول تارة : أطيعه ، وتارة : لا أطيعه . أو وعده المساهلة والمساهمة من نفسه ، وأنه لا يشق عليه فيما استأجره له من رعى غنمه ، ولا يفعل نحو ما يفعل المعاسرون من المسترعين ، من المناقشة في مراعاة الأوقات ، والمداقة في استيفاء الأعمال ، وتكليف الرعاة أشغالاً خارجة عن حد الشرط ، وهكذا كان الأنبياء عليهم السلام آخذين بالاسمح في معاملات الناس . ومنه الحديث وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم شريكى ، فكان خير شريك لا يدارى ولا يشارى ولا يمارى ، ^(١) وقوله (ستجدنى إن شاء الله من الصالحين) يدل على ذلك ، يريد بالصلاح : حسن المعاملة ووطأة الخلق ولين الجانب ^(٢) . ويجوز أن يريد بالصلاح على العموم . ويدخل تحته حسن المعاملة ، والمراد باشتراط مشيئة الله فيما وعد من الصلاح : الاتسكال على توفيقه فيه ومعونته ، لا أنه يستعمل الصلاح إن شاء الله ، وإن شاء استعمل خلافه (ذلك) مبتدأ ، و (بينى وبينك) خبره ، وهو إشارة إلى ما عاهده عليه شعيب ، يريد : ذلك الذى قلته وعاهدتني فيه وشارطتني عليه قائم بيننا جميعاً ، لا نخرج كلانا عنه ، لا أنا عما شرطت على ولا أنت عما شرطت على نفسك . ثم قال : أى أجل من الأجلين قضيت : أطولها الذى هو العشر ، أو أقصرهما الذى هو الثمان (فلا عدوان على) أى لا يعتدى على فى طلب الزيادة عليه . فإن قلت : تصور العدوان إنما هو فى أحد الأجلين الذى هو الأقصر وهو المطالبة بثمنه العشر ، فما معنى تعليق العدوان بهما جميعاً ؟ قلت : معناه كما أنى إن طولبت بالزيادة على العشر كان عدواناً لا شك فيه ، فكذلك إن طولبت بالزيادة على الثمان . أراد بذلك تقرير أمر الخيار ، وأنه ثابت

(١) أخرجه أبو داود ، وابن ماجه من حديث السائب أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : كنت شريكى ، فكنت خير شريك . لا تدارى ولا تمارى .

(٢) قوله « ووطأة الخلق ولين الجانب » فى الصحاح : « شئ وطىء » : بين الوطأة . (ع)

مستقر، وأن الأجلين على السواء: إما هذا وإما هذا من غير تفاوت بينهما في القضاء. وأما النعمة فوكولة إلى رأي: إن شئت أتيت بها، وإلا لم أجبر عليها. وقيل: معناه فلا أكون متعذراً، وهو في نفي العدوان عن نفسه، كقولك: لا إثم عليّ، ولا تبعه عليّ. وفي قراءة ابن مسعود: أي الأجلين ما قضيت. وقرئ: أيما، بسكون الياء، كقوله:

تَنْظَرْتُ نَصْرًا وَالسَّمَاءَ كَيْنِ أُنْهَمَا عَلَىٰ مِنَ الْغَمِّ اسْتَهْلَتْ مَوَاطِرُهُ ^(١)

وعن ابن قطيب: عدوان، بالكسر. فإن قلت: ما الفرق بين موقعي (ما) الزيدة في القراءتين؟ قلت: وقعت في المستفيضة مؤكدة لإيهام، أي: زائدة في شياعها: وفي الشاذة تأكيداً للقضاء، كأنه قال: أي الأجلين صممت على قضائه وجردت عزمي له. الوكيل: الذي وكل إليه الأمر، ولما استعمل في موضع الشاهد والمهيمن والمقيت ^(٢)، عدى بعلى لذلك. روى أن شعيباً كانت عنده عصى الأنبياء فقال لموسى بالليل: ادخل ذلك البيت فخذ عصاً من تلك العصى. فأخذ عصاً هبط بها آدم من الجنة، ولم يزل الأنبياء يتوارثونها حتى وقعت إلى شعيب، فسها - وكان مكفوفاً، فضن بها فقال: غيرها، فما وقع في يده إلا هي سبع مرات، فلم أن له شأنًا. وقيل: أخذها جبريل بعد موت آدم فسكانت معه حتى لقي بها موسى ليلاً. وقيل: أودعها شعيباً ملك في صورة رجل، فأمر بئته أن تأتبه بعضاً، فأتته بها فردها سبع مرات فلم يقع في يدها غيرها، فدفعها إليه ثم ندم لأنها وديعة، فتبعه فاخصماً فيها، ورضياً أن يحكم بينهما أول طالع، فأتاهما الملك فقال: ألقياها فمن رفعها فهي له، فعالجها الشيخ فلم يطقها: ورفعها موسى. وعن الحسن: ما كانت إلا عصاً من الشجر اعترضها اعتراضاً. وعن السكبي: الشجرة التي منها نودي شجرة العوسج، ومنها كانت عصاه. ولما أصبح قال له شعيب: إذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك، فإن السكلاً وإن كان بها أكثر، إلا أن فيها تيناً ^(٣) أخشاه عليك وعلى الغنم، فأخذت الغنم ذات اليمين ولم يقدر على كفها. فحشى على أثرها فإذا عشب وريف لم ير مثله، فنام فإذا بالتنين قد أقبل، فخاربه العصا حتى قتله وعادت إلى جنب موسى دامية. فلما أبصرها دامية

(١) للفرزدق. ونصر: هو ابن سيار ملك العراقيين. والسماكان: كوكبان: السماك الأعزل لانجم أمامه، والسماك الراح أمامه نجوم، وأيهما أصله مشدد فسكن للضرورة، ثم يحتمل أنه نصب بدل ما قبله، وأنه معمول لحنوف: أي لا أعلم أيهما وهو موصول. ويجوز أنه استفهام، وعليه فهو رفع على الابتداء، والضمير فيه راجع لنصر والسماكين، أي: ترقبت نصراً والسماكين أيهما استهلت مواطره على من الغيث، وأهل السحاب واستهل: اشتد انصبابه. والمواطر: السحاب. والغيث: المطر. وفي قرن نصر بالسماكين: دلالة على تهيجهما في الحفر وعلى الاستفهام، فهو من باب تجاهل العارف، وكذلك على لقي العلم.

(٢) قوله «والمهيمن والمقيت» أي: المختار، أو الحافظ. (ع)

(٣) قوله «إلا أن فيها تيناً» أي: ثعباناً. (ع)

والثنين مقتولا ارتاح لذلك ، ولما رجع إلى شعيب مس الغنم ، فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن ، فأخبره موسى ففرح وعلم أن لموسى والعصا شأنًا ، وقال له : إني وهبت لك من نتاج غنمي هذا العام كل أدرع ودرعاً^(١) ، فأوحى إليه في المنام : أن اضرب بعصاك مستقى الغنم ، ففعل ؛ ثم سقى فأخطأت واحدة إلا وضعت أدرع ودرعاً ، فوفى له بشرطه .

فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَنَاثَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوِسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ أَسْلُكُ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الأجلين قضى موسى ؟ فقال : أبعدهما وأبطأهما^(٢) . وروى أنه قال : قضى أوقاهما ، وتزوج صفراهما . وهذا خلاف الرواية التي سبقت . الجذوة - باللغات الثلاث . وقرئ بهن جميعاً - : العود الغليظ ، كانت في رأسه نار أولم تكن ، قال كثير :

بَآتَ حَوَاطِبُ لَهْلَى يَلْتَمِسْنَ لَهَا جَزَلَ الْجَذَى غَيْرَ حَوَارٍ وَلَا دَعِيرٍ^(٣)

(١) قوله « كل أدرع ودرعاً » لعله د كل أدرع ودرعاً ، وفي الصحاح : به ردع مزعفران أودم ، أى : لطنخ وأثر . وردته بالشئ ما تردع ، أى : لطنخته به تلتطخاه ، فالأدرع : شبيه المتلطنخ بلون آخر . ولفظ الحازن : أبلق وبلقاء . (ع)
(٢) أخرجه الحاكم من طريق ابن عيينة عن إبراهيم بن يحيى عن عكرمة عن ابن عباس بهذا قلت . وإبراهيم يجهل . وقوله : وروى أنه قال قضى أوقاهما وتزوج من صفراهما : أخرجه الطبراني والبرار من طريق عويد بن أبي عمران الجوني عنه عن أبيه عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر « أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل : أى الأجلين قضى موسى ؟ قال : أوقاهما وأبرهما . قال وسئل أى المرأتين تزوج ؟ قال الصغرى منهما » وعويد ضعيف وفي ابن مردويه من حديث أبي هريرة رفعه « قال لي جبريل : إن سألك اليهودى : أى الأجلين قضى موسى ؟ فقل أوقاهما وإن سألك أيهما تزوج ؟ فقل الصغرى منهما » وفي إسناده سليمان الشاذكونى وهو ضعيف .

(٣) لابن مقبل . والحواطب : الجوارى يطلبن الحطب ، والانتاس - بحسب الأصل - : من اللس . ثم اتسع فيه . والجذال : الحطب الغليظ اليابس : والجذى : جمع جذوة بتثنية الجهم فهما وهى العود الغليظ في رأسه =

وقال :

وَأَنِّي عَلَىٰ قَبْسٍ مِّنَ النَّارِ جَذْوَةٌ شَدِيدًا عَلَّمَهُ حَرُّهَا وَالتَّيْهَابُهَا ^(١)

(من) الأولى والثانية لابتداء الغاية ، أى : أتاه النداء من شاطئ الوادى من قبل الشجرة .
(من الشجرة) بدل من قوله : من شاطئ الوادى ، بدل الاشتغال ؛ لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطئ ، كقوله تعالى (لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم) وقرئ : (البقعة) بالضم والفتح .
و (الرهب) بفتحين ، وضمين ، وفتح وسكون ، وضم وسكون : وهو الخوف . فإن قلت : ما معنى قوله (واضمم إليك جناحك من الرهب) ؟ قلت : فيه معنيان ، أحدهما : أن موسى عليه السلام لما قلب الله العصا حية : فرع واضطرب ، فاتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشيء ، فقيل له : إن انتقامك يدك فيه غضاضة ^(٢) عند الأعداء . فإذا ألقيتها فكما تنقلب ^(٣) حية ، فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها ، ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمران : اجتناب ما هو غضاضة عليك ، وإظهار معجزة أخرى . والمراد بالجناح : اليد ؛ لأن يدى الإنسان بمنزلة جناحى الطائر . وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضد يده اليسرى ، فقد ضم جناحه إليه . والثانى : أن يراد بضم جناحه إليه : تجلده وضيطة نفسه . وتشدده عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب ولا يرهب ، استعارة من فعل الطائر ؛ لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما . وإلّا جناحه مضمومان إليه مشمران . ومنه ما يحكى عن عمر بن عبد العزيز أن كاتباً له كان يكتب بين يديه ، فانقلبت منه قلعة ربح ، فحجل وانكسر ، فقام وضرب بقلبه الأرض ، فقال له عمر : خذ قلبك . واضمم إليك جناحك ، وليفرخ روعك ^(٤) ، فإني ماسمعتها من أحد أكثر مما سمعتها من نفسى . ومعنى قوله (من الرهب) من أجل الرهب ، أى : إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم إليك جناحك : جعل الرهب الذى كان يصيبه سبباً وعلّة فيما أمر به من ضم جناحه إليه . ومعنى : (واضمم إليك جناحك) ، وقوله (اسلك يدك في جيبك) على أحد التفسيرين : واحد . ولكن خولف بين العبارتين . وإنما كثر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين ، وذلك أن الغرض فى أحدهما خروج اليد بيضاء

== نار أولا . والحوار : الضعيف . والخور معيب ، إلّا قولهم : ناقة خوارة ، أى كثيرة اللبن . ونحلة خوارة : كثيرة الحل . ودعر العود دعرأ كتب كثر دخانه ، فهو دعر كذر . والدعر أيضا : السوس والفساد . والدعار : الفسق والخبث ، وغير خوار : حال من جزل الجذى .

(١) الجذوة فى الأمل : العود الغليظ فى رأسه نار أولا ، ولكن خصها الوصف بما فى رأسه نار ، ثم إنها استعارة تصريحية للريح أو للسيف ، والحر والالتهاب : ترشيح لها . وشديد : خبر المبتدأ الذى بعده .

(٢) قوله « فيه غضاضة » أى : ذلة ومنقصة ، كما فى الصحاح . (ع)

(٣) قوله « فكما تنقلب حية » أى : فمعد ما تنقلب . (ع)

(٤) قوله « وليفرخ روعك » أى ليذهب روعك . أفاده الصحاح . (ع)

وفي الثاني : إخفاء الرهب . فإن قلت : قد جعل الجناح وهو اليد في أحد الموضعين مضموما وفي الآخر مضموما إليه ، وذلك قوله (واضم إليك جناحك) وقوله (واضم يدك إلى جناحك) فما التوفيق بينهما ؟ قلت : المراد بالجناح المضموم . هو اليد اليمنى ، وبالمضموم إليه : اليد اليسرى وكل واحدة من يميني اليدين ويسراهما : جناح . ومن يدع التفاسير : أن الرهب : السكم ، بلغة حمير وأنهم يقولون : أعطني مما في رهبك ، وليت شعري كيف صحته في اللغة ؟ وهل سمع من الآيات الثقات الذين ترتضى عريتهم ؟ ثم ليت شعري كيف موقعه في الآية ؟ وكيف تطبيقه المفصل (١) كسائر كلمات التنزيل ؟ على أن موسى عليه السلام ما كان عليه ليلة المناجاة إلا زمانة (٢) من صوف لا كى لها (فذا لك) قرئ مخففا ومشدداً ، فأنحف مثني ذاك . والمشدّد مثني ذلك ، (برهانان) حجتان بينتان نيرتان . فإن قلت : لم سميت الحجة برهانا ؟ قلت : لبياضها وإنارتها من قولهم للمرأة البيضاء . برهرة ، بتكرير العين واللام معا . والدليل على زيادة النون قولهم : أبره الرجل ، إذا جاء بالبرهان . ونظيره تسميتهن إياها سلطانا من السليط وهو الزيت ، لإنارتها .

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٣٤)

يقال : ردأته : أعنته . والردء : اسم ما يعان به ، فعل بمعنى مفعول كما أن الدفء اسم لما يدفأ به . قال سلامة بن جندل :

وَرَدَّيْنِي كُلُّ أَيْبَاضٍ مَشْرِقٍ شَحِيدِ الْحَدِّ عَضْبٍ ذِي قُلُولٍ (٣)

وقرى : ردأ على التخفيف ، كما قرى : الحب (ردءا يصدقني) بالرفع والجزم صفة وجواب ، نحو (ولياً يرثني) سواء . فإن قلت : تصديق أخيه ما الفائدة فيه ؟ قلت : ليس الغرض بتصديقه أن يقول له : صدقت ، أو يقول للناس : صدق موسى ، وإنما هو أن يلخص بلسانه الحق ، ويبسط القول فيه ، ويجادل به الكفار ، كما يفعل الرجل المنطيق ذو العارضة ، فذلك جار مجرى التصديق المفيد ، كما يصدق القول بالبرهان . ألا ترى إلى قوله (وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله

- (١) قوله «وكيف تطبيقه المفصل» لعله تطبيقه على المفصل (ع)
 (٢) قوله «زمانة من صوف» في الحديث : أن موسى عليه السلام لما أتى فرعون أتاه وعليه زمانة ، يعني : جبة صوف . قال أبو عبيد : أراها عبرانية ، كذا في الصحاح . (ع)
 (٣) لسلامة بن جندل . يقول : وردني الذي أتوق به المسكاره كل سيف أبيض ، وعبر بكل ، لأن المراد بيان الجنس لا الشخص ، مشرق : نسبة إلى مشارف اليمن قرى منها . وقيل : من القام ، شحيد الحد : مرهفه ، من شحذ المدينة : حدهما . عضب : قاطع ، والقلول : جمع قل - بالفتح : وهو كسر في حد السيف وانثلام ، أي : به قلول من قراع الكتائب .

معى) ، وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لذلك ، لا أقوله : صدقت ، فإن سبحانه وباقلا (١) يستويان فيه ، أو يصل جناح كلامه بالبيان ، حتى يصدق الذي يخاف تكذيبه ، فأسند التصديق إلى هرون ، لأنه السبب فيه إسناداً مجازياً . ومعنى الإسناد المجازى : أن التصديق حقيقة فى المصدق ، فإسناده إليه حقيقة وليس فى السبب تصديق ، ولكن استعير له الإسناد لأنه لا بس التصديق بالسبب كما لا بسه المفاعل بالمباشرة . والدليل على هذا الوجه قوله : (إني أخاف أن يكذبون) وقراءة من قرأ : ردها يصدقونى . وفيها تقوية للقراءة بحزم يصدقنى .

قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَ مَلِكًا فَأَلَّا يَمُوتَ إِلَّا بِكَ

بِأَيِّتِنَا أَنْتُمْ وَمَنْ اتَّبَعَكُمْ الْغَالِبُونَ (٣٥)

العضد : قوام اليد ، وبشدتها تشتد . قال طرفة :

أَبْنَى لُبَيْنَى لَسْتُمْ بِبَدٍ إِلَّا يَدًا لَيْسَتْ لَهَا عَضُدٌ (٣)

ويقال فى دعاء الخير : شد الله عضدك . وفى ضده : فت الله فى عضدك . ومعنى ﴿سنشد عضدك بأخيك﴾ سنقويك به ونعينك ، فإذا أن يكون ذلك لأن اليد تشتد بشدة العضد . والجملة تقوى بشدة اليد على مزاوله الأمور . وإذا لأن الرجل شبه باليد فى اشتدادها باشتداد العضد ، فجعل كأنه يد مشددة بعضد شديدة ﴿سلطاناً﴾ غلبة وتسلطاً . أو حجة واضحة ﴿بآياتنا﴾ متعلق بنحو ما تعلق به فى تسع آيات ، أى اذهب بآياتنا . أو بنجعل لك سلطاناً ، أى : نسلطك بآياتنا . أو بلا يصلون ، أى : تمتعون منهم بآياتنا . أو هو بيان للغالبون لا صلة ، لا متناع تقدم الصلة على الموصول . ولو تأخر : لم يكن إلا صلة له . ويجوز أن يكون قسماً جوابه : لا يصلون ، مقدماً عليه . أو من لقوا القسم .

(١) قوله : فإن سبحانه وباقلا يستويان فيه ، مثل فى الفصاحة . وباقل : مثل فى الفهامة والعلم . (ع)

(٢) أبنى لبينى لستم ببدٍ إلا يداً ليست لها عضد
أبنى لبينى لا أحققكم وجد الله بكم كما أجد

لطرفة بن العبد . وقيل : لأوس بن حجر . والمهزة للدعاء . ولينى : اسم أمة كناية عن أنهم أرقاء . واليد استعارة قصرية للأقوياء . أو تشبيه بليغ ، أى : لستم مثل يد من الأيدي فى القوة ، إلا مثل يد لا عضد لها ، فهى صعبة . ويرى إلا يداً غبولة العضد ، يقال : خيلت يده أشللتها ، فى القافية الأقواء ، وفيه استتباع الذم بما فيه المدح للبالغة فى الذم ، وكرر الدعاء لزيادة التعبير ، وحقه يحقه : خصمه بخصمه ، وأثبت ، وأرجه أيضاً ، أى : لا أثبتكم . أو لستم أهلاً لمخاضنى إياكم . ووجد عليه : غضب . ووجد به : حزن ، أى : غضب الله بسبيكم كما أغضب أنا . أو كرهكم كما يكره الحزين ما يحزنه . وهذا دعاء عليهم بالهلاك .

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا يَدِّنَا قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَىٰ وَمَا مَعَنَا
بِهَٰذَا فِي آيَاتِنَا الْأُولَىٰ ﴿٣٦﴾

(سحر مفترى) سحر تعمله أنت ثم تفتريه على الله . أو سحر ظاهر اقترأه . أو موصوف بالاقتراء كسائر أنواع السحر وليس بمعجزة من عند الله (في آياتنا) حال منصوبة عن هذا ، أى : كائناً في زمانهم وأيامهم ، يريد : ما حدثنا بكونه فيهم ، ولا يخلو من أن يكونوا كاذبين في ذلك ، وقد سمعوا وعلوا بنحوه . أو يريدوا أنهم لم يسمعوا بمثله في فظاعته . أو ما كان السكهان يخبرون بظهور موسى وبجئته بما جاء به . وهذا دليل على أنهم حجوا وبهتوا ، وما وجدوا ما يدفعون به ما جاءهم من الآيات إلا قولهم هذا سحر وبدعة لم يسمعوا بمثله .

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَن تَكُون لَهُ عَاقِبَةُ
الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾

يقول : (ربى أعلم) منكم بحال من أهله الله للفلاح الأعظم ، حيث جعله نبياً وبعثه بالهدى ، ووعدته حسن العقبي : يعنى نفسه ، ولو كان كاذباً ساعراً مفترياً لمساأله لذلك ، لانه غنى حكيم لا يرسل الكاذبين ، ولا ينسئ الساحرين ، ولا يفلح عنده الظالمون . و (عاقبة الدار) هى العاقبة المحموده . والدليل عليه قوله تعالى (أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن) وقوله (وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار) والمراد بالدار : الدنيا ، وعاقبتها وعقبها : أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقى الملائكة بالبشرى عند الموت . فإن قلت : العاقبة المحموده والمذمومة كلتاها يصح أن تسمى عاقبة الدار ؛ لأن الدنيا إما أن تكون خاتمتها بخير أو بشر ، فلم تختص خاتمتها بالخير بهذه التسمية دون خاتمتها بالشر ؟ قلت : قد وضع الله سبحانه الدنيا مجازاً إلى الآخرة ، وأراد بعباده أن لا يعملوا فيها إلا الخير ، وما خلقهم إلا لأجله ليتلقوا خاتمة الخير وعاقبة الصدق ، ومن عمل فيها خلاف ما وضعها الله فقد حرف ؛ فإذا عاقبتها الاصلية هى عاقبة الخير . وأما عاقبة السوء فلا اعتداد بها ؛ لأنها من نتائج تحريف الفجار ^(١) . وقرأ ابن كثير : (قال موسى) بغير

(١) قال محمود : والعاقبة هى العاقبة المحموده ، والدليل عليه قوله عز وجل (أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن) وقوله (وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار) والمراد دار الدنيا وعاقبتها أن يختم للانسان فيها بالرحمة والرضوان وتلقاه الملائكة بالبشرى عند الموت . قال : فان قلت العاقبة المحموده والمذمومة كلاهما يصح أن يسعى عاقبة لأن الدنيا إما أن تكون خاتمتها خيراً أو شراً ، فلم اختصت خاتمتها بالخير بهذه التسمية دون خاتمتها بالشر ؟ قلت : لأن الله سبحانه وتعالى وضع الدنيا مجازاً للآخرة وأراد لعباده فيها أن يعبدوه ولا يعملوا إلا الخير وما خلقهم إلا لأجله ، كآقال :

واو، على ما في مصاحف أهل مكة، وهي قراءة حسنة؛ لأنّ الموضوع موضع سؤال والبحث عما أجابهم به موسى عليه السلام عند تسميتهم مثل تلك الآيات الباهرة: سحر أمفتري. ووجه الأخرى: أنهم قالوا ذلك، وقال موسى عليه السلام هذا، ليوازن الناظر بين القول والمقول، ويتبصر فساد أحدهما وصحة الآخر:

• وَيَضِدُّهَا تَنْبِيْنُ الْأَشْيَاءِ • (١)

وقرئ تكون: بالياء والتاء.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنَّ عَلَى

== (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) فن عمل في الدنيا على خلاف ذلك فقد حرف؛ لأن عاقبتها الأصلية هي عاقبة الخير، وأما عاقبة الشر فلا اعتداد بها لأنها من تحريف الفجار، قال أحد: وقد تقدم من قواعد أهل الحق ما يستضاء به في هذا المقام، والقدر الذي يحتاج إلى تجديده ههنا: أن استدلاله على أن عاقبة الخير وعبادة الله تعالى هي المرادة له لا سواها بقوله تعالى (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) معارض بأمثاله في أدلة أهل السنة على عقائدهم، مثل قوله (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس) الآية. والمراد والله أعلم: ولقد جعلنا لعذاب جهنم خلقاً كثيراً من الثقلين. ومن ذلك ما يروى عن العاروق رضى الله عنه أنه قال: وإنكم آل المغيرة ذرة النار، أى: خلقها، فلئن دلت آية الذاريات ظاهراً على أن الله تعالى إنما خلق الثقلين لتكون عاقبتهم الجنة جزاء وثواباً على عبادتهم له، فقد دلت آية الأعراف على أنه خلق كثيراً من الثقلين لتكون عاقبتهم جهنم جزاء على كفرهم. وحينئذ يتعين الجمع بين الآيتين، وحمل عموم آية الذاريات على خصوص الآية الأخرى، وإن المراد: وما خلقت السعداء من الثقلين إلا لعبادتي، جمعاً بين الأدلة، فقد ثبت أن العاقبتين كليهما مرادة لله تعالى: هذا بعد تظافر البراهين العقلية على ذلك، فوجه معنى العاقبة المطلقة كثيراً وإرادة الخير بها: أن الله تعالى هدى الناس إليها ووعدهم ماورد في سلوك طريقها من النجاة والنعيم المقيم، ونهاهم عن ضدها وتوعدهم على سلوكها بأنواع العذاب الآليم، وركب فيهم عقولاً ترشدكم إلى عاقبة الخير، ومكنهم منها، وأراح عليهم ووفر دواعيهم، فكان من حقهم أن لا يبدلوا عن عاقبة الخير ولا يسلكوا غير طريقها، وأن يتخذوها نصب أعينهم، فأطلقت العاقبة والمراد بها الخير تفرعاً على ذلك، والله أعلم. والحاصل: أنها لما كانت هي المسامير بها والمحضوض عليها، عولمت معاملة ما هو مراد وإن لم تكن مرادة من كثير من الخلق، وقال لي بعضهم: ما يمنعك أن تقول لم يفهم كون العاقبة المطلقة هي عاقبة الخير من إطلاقتها، ولكن من إضافتها إلى ذوبها باللام في الآية المذكورة، كقوله (من تكون له عاقبة الدار)، (وسيعلم الكافر لمن عقى الدار)، (والعاقبة للنفقين) فأفهمت اللام أنها عاقبة الخير؛ إذ هي لهم وعاقبة السوء عليهم لا لهم، كما يقولون: الدائرة لفلان، يمتنون: دائرة الظفر والنصر. والدائرة على فلان، يمتنون: دائرة الجنادلان والسوء، فقلت: لقد كان لي في ذلك مقال لولا ورود (أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) ولم يقل عليهم، فاستعمال اللام مكان «على» دليل على إبقاء الاستدلال باللام على إرادة عاقبة الخير، والله أعلم.

(١) من يظلم القرناء في تكليفهم أن يصحبوا وهم له أكفاه

ويذهبهم وبهم عرفنا فضله ويضددها تمييز الأشياء

لأن الطيب المتقي، بمدح هارون بن عبد العزيز، أى: أنه تظلم أقرانه في تكليفهم أن يكونوا مساوين له، وفي ذلك شفقة عليهم: كناية عن أنه لا يساويه أحد. وقوله: ويضددها إلى آخره: دليل على ما قبله. ويروى: تبين الأشياء، والمعنى واحد، أى: الأشياء تعرف بمعرفة معنى أضدادها.

لَطَّيْنٍ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أُطْلِعَ إِلَى إِلِهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾

روى أنه لما أمر ببناء الصرح ، جمع هامان العمال حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الاتباع والاجراء ، وأمر بطبخ الآجر والجص ونجر الخشب وضرب المسامير ، فشيدوه حتى بلغ مالم يبلغه بنيان أحد من الخلق ، فكان الباني لا يقدر أن يقف على رأسه يبنى ، فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام عند غروب الشمس ، فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع : وقعت قطعة على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل ، ووقعت قطعة في البحر وقطعة في المغرب ، ولم يبق أحد من عماله إلا قد هلك . ويروى في هذه القصة : أن فرعون ارتقى فوقه فرمى بنشابة نحو السماء ، فأراد الله أن يقتلهم فردت إليه وهي ملطوخة بالدم ، فقال : قد قتلت إله موسى ، فمئذها بعث الله جبريل عليه السلام لخدمه ، والله أعلم بصحته . قصد بنى علمه بإله غيره : نفي وجوده ، معناه : (ما لكم من إله غيري) كما قال الله تعالى (قل أنتم تقولون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض) معناه بما ليس فيهن ، وذلك لأن العلم تابع للمعلوم لا يتعلق به إلا على ما هو عليه ، فإذا كان الشيء معدوما لم يتعلق به موجود . فمن ثمة كان انتفاء العلم بوجوده لا انتفاء وجوده . وعبر عن انتفاء وجوده بانتفاء العلم بوجوده ^(١) . ويجوز أن يكون على ظاهره ، وأن إلهها غيره غير معلوم عنده ،

(١) قال محمود : «عبر عن نفي المعلوم بنفي العلم ، وإنما كان كذلك لأن العلم لا يتعلق بالمعلوم إلا على ما هو عليه إن موجوداً فوجود وإن معدوماً فعدم ، فمن ثم عبر عن نفي كونه موجوداً بنفي كونه معلوماً » قال أحد : لشدة ما بلغ منه الوهم ، لم يتأمل كيف سقوط السهم ؛ وإنما أتى من حيث أن الله تعالى عبر كثيراً عن نفي المعلوم بنفي العلم في مثل قوله : قل أنتم تقولون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض ، أم تفتشونه بما لا يعلم في الأرض ، فلما اطرد ذلك عنده توهم أن هذا التعبير عن نفي المعلوم بنفي العلم يشمل كل علم ، ولو لم يتعلق بالمعلوم على ما هو به ، وليس هو كذلك ، بل هذا التعبير لا يسوغ إلا في علم الله تعالى لأمر يخص العلم القديم وهو عموم تعلقه حتى لا يعزب عنه أمر ، فلم يتعلق العلم بوجوده يلزم أن لا يكون موجوداً ، إذ لو كان موجوداً لتعلق به بخلاف علم الخلق ، فلا تلازم بين نفي الشيء ونفي العلم الحادث بوجوده ، ولا كذلك العلم القديم ، فإن بين نفي معلومه ونفي تعلقه بوجوده تلازماً - سوغ التعبير المذكور ، ولكن المعلوم أن فرعون كان يدعى الإلهية ويعامل عليه معاملة علم الله تعالى في أنه لا يعزب عنه شيء ، فمن ثم طغى وتكبر . وعبر بنفي علمه عن نفي المعلوم ، تدليساً على ملأه ، وتليساً على عقولهم الضعيفة - والله أعلم - ويناسب تعاضله هذا قوله (فأوردني يا هامان على الطين) ولم يقل : فاطبخ لي آجرأ ، وذلك من التعاضل ، كما قال تعالى - وله العظمة والكبرياء ، ومن ارتدى بردائهما قصه - : (وما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية) فذكر هذه العبارة الجامة لأنواع الكفر على وجه التكبرياء تماهوا بها ، وذلك من تجبر الملوك - جل الله وعز - ومن تعاضل فرعون أيضاً : نداؤه لوزيره باسمه ، ويحرف النداء وتوسيط ندائه خلال الأمر ، وبناء الصرح ورجاؤه الاطلاع : دليل على أنه لم يكن مصعباً على الجحود . قال الزعزعي : وذلك منافض لما أظهر من الجحد الجازم في قوله (ما علمت لكم من إله غيري) فاما أنت بمعنى هذا التناقض على قومه لتباوتهم وكآبة أذنانهم . وإما أن يفتظروا لها ويخافوا نعمته فيصروا . قال أحد : ولناقل - والله أعلم - أن يجعل قوله (ما علمت لكم من إله غيري) على الهك ، ونفي علمه خاصة ، وإجرائه مجرى سائر علوم الخلق في أنه لا يلزم من

ولكنه مزنون بدليل قوله (وإني لأظنه من الكاذبين) ، وإذا ظن موسى عليه السلام كاذبا في إثباته إله غيره ولم يعلمه كاذبا ، فقد ظن أن في الوجود إلهًا غيره ، ولولم يكن المخدول ظانا ظناً كاليقين ، بل عالما بصحة قول موسى عليه السلام لقول موسى له (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) لما تكلف ذلك البنيان العظيم ، ولما تعب في بنائه ماتعب ، لعله يطلع بزعمه إلى إله موسى عليه السلام ، وإن كان جاهلا مفرط الجهل به وبصفاته ، حيث حسب أنه في مكان كما كان هو في مكان ، وأنه يطلع إليه كما كان يطلع إليه إذا قصد في عليته ، وأنه ملك السماء كما أنه ملك الأرض . ولا ترى بينة أثبت شهادة على إفراط جهله وغباوته وجعل ملته وغباوتهم : من أنهم راموا نيل أسباب السموات بصرح يننونه ، وليت شعري ؛ أكان يلبس على أهل بلاده ويضحك من عقولهم ، حيث صادفهم أغبي الناس وأخلاهم من الفطن وأشبههم بالبهائم بذلك ؟ أم كان في نفسه بتلك الصفة ؟ وإن صح ما حكى من رجوع النشابة إليه ملطوخة بالدم ، فنهكهم به بالفعل ، كما جاء التهكم بالقول في غير موضع من كتاب الله بنظرائه من الكفرة . ويجوز أن يفسر الظن على القول الأول باليقين ، كقوله :

﴿ قُلْتُ لَهُمْ ظُنُّوا يَا نَبِيُّ مُدَجِّجٌ * ﴾ (١)

ويكون بناء الصرح مناقضة لما ادعاه من العلم واليقين ، وقد خفيت على قومه لغباوتهم وبلههم . أولم تحف عليهم ، ولكن كلا كان يخاف على نفسه سوطه وسيفه ، وإنما قال ﴿ أو قد لي يا هامان

== نبي تلقاه بوجود أمر نبي ذلك الأمر ، لجواز أن يكون موجوداً عازياً عن علمه . وحينئذ لا يكون تناقضاً ، ولولم يكن حله هذا هو الأصل لما سوغنا أن يرفع التناقض عن كلامه ، لأنه أحقر من ذلك .

(١) وكل تباريح الحب لقيتها سوى أنني لم ألق حقن بمرصدي
نصحت لعارض وأحباب عارض ورهط بني الدوداء والقوم شهدي
فقلت لهم ظنوا بالني مدجج سرائهم في الفارس المرد

لدريد بن الصمة ، يذمر قومه بهجوم العدو . ودريد : هو معاوية بن الحرث بن بكر بن علقمة الجشمي : قتل مشركا يوم حنين ، أي : كل الشدائد التي يلقاها الحب من محبوه لقيتها . والحنف : الملاك . والمرصد : والمرصاد : الطريق ، وفي إضافته لنفسه معنى لطيف ، أي : لم أسلك طريقا فيه حنف لي ، بل أسلك غيره فطريق لا ضرر فيه . ونصحه ونصح له : خلص وصفا . والشهد - بالتشديد : جمع شاهد . ودججه تدجيحا : غطاه تغطية . والدجة - بالتشديد - : الظلة . والدج : المشي بتؤدة . والمدجج : التام السلاح . وقيل : هو بالفتح : الفرس ، وبالكسر : الفارس . والسررة : السادة الأشراف بفتح السين ، وهي في الأصل : أعلى ظهر الحيوان ، فاستعيرت لهم ، وقد تضم ، فوزنها « فعلة » جمع سري وزن فعيل على غير قياس ؛ إذ قياسه أفعلاء ، وهو في الأصل : النهر الصغير : استعير للخير الرئيس ، والفارس : الدروع المعمورة بفارس . والمرد والتسريد : متابعة النسيج ، يقول : أيقنوا بهجوم جيش عظيم . والألفان : كناية عن الكثرة ، أي : جيش كثير مغطى بالسلاح ، أشرافه في الدروع الفارسية المتتابعة النسيج . والظرفية دالة على سبوغ الدروع لهم . ويروي المسود بالواو وليس بذلك .

على الطين) ولم يقل: اطين لي الآجر واتخذ، لانه أول من عمل الآجر، فهو يعلمه الصنعة، ولأن هذه العبارة أحسن طباقاً لفصاحة القرآن وعلو طبقته وأشبه بكلام الجبارة. وأمر هامان وهو وزيره ورديفه بالإيقاد على الطين منادى باسمه ييا في وسط الكلام: دليل التعظيم^(١) والتجبر. وعن عمر رضي الله عنه أنه حين سافر إلى الشام ورأى القصور المشيدة بالآجر فقال: ما علمت أن أحداً بنى بالآجر غير فرعون. والطلوع والإطلاع: الصعود. يقال: طلع الجبل وأطلع: بمعنى.

وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِسِيرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمِ الْغَنَاءُ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ

عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾

الاستكبار بالحق: إنما هو الله تعالى، وهو المتكبر على الحقيقة، أي: المتبالغ في كبرياء الشأن. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما حكى عن ربه: «الكبرياء رداي والعظمة إزارى، فمن نازعنى واحداً منهما ألقيته في النار»^(٢). وكل مستكبر سواء فاستكباره بغير الحق (يرجعون) بالضم والفتح (فأخذناه وجنوده فنبدناهم في اليم) من الكلام الفخم الذى دل به على عظمة شأنه وكبرياء سلطانه. شبههم استحقاراً لهم واستقلالاً لعددهم^(٣). وإن كانوا الكثر الكثير والجيم الغفير، بحصيات أخذهن أخذ في كفه فطرحهن في البحر. ونحو ذلك قوله (وجعلنا فيها رواسي شامخات)، (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة). (وماقدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) وماهى إلا تصويرات وتمثيلات لاقتداره، وأن كل مقدور وإن عظم وجل، فهو مستصغر إلى جنب قدرته.

وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾

وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾

فإن قلت: مامضى قوله (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار)؟ قلت: معناه: ودعوناهم أئمة

(١) قوله « دليل التعظيم » لعله التعظيم . (ع)

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وأبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه .

(٣) عاد كلامه . قال : « ووقله تعالى (فأخذناه وجنوده فنبدناهم في اليم) مقابلة لاستكباره بفعل عبر عنه بما صورته أخذ حصيات متهنت ، ثم نبذها ، أى : طرحها في اليم هو ان ، فذلك تمثيل لاستهاتته به وإملاكه بهذا النوع من الهلاك . والله أعلم .

دعاة إلى النار^(١)، وقلنا: إنهم أئمة دعاة إلى النار، كما يدعى خلفاء الحق أئمة دعاة إلى الجنة. وهو من قولك: جعله بخيلاً وفاسقاً، إذا دعاه وقال: إنه بخيل وفاسق^(٢). ويقول أهل اللغة في تفسير فسقه وبخله: جعله بخيلاً وفاسقاً. ومنه قوله تعالى (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إنانا) ومعنى دعوتهم إلى النار: دعوتهم إلى موجباتها من الكفر والمعاصي (ويوم القيامة لا ينصرون) كما ينصر الأئمة الدعاة إلى الجنة. ويجوز: خذلناهم حتى كانوا أئمة الكفر. ومعنى الخذلان: منع اللطاف، وإنما يمنعها من علم أنها لا تنفع فيه، وهو المصمم على الكفر الذي لا تنفع عنه الآيات والنذر، ومجرأه مجرى الكناية؛ لأن منع اللطاف يردف التصميم، والغرض بذكره: التصميم نفسه، فكأنه قيل: صمموا على الكفر حتى كانوا أئمة فيه دعاة إليه وإلى سوء عاقبته. فإن قلت: فما الفائدة في ترك المردوف إلى الرادفة؟ قلت: ذكر الرادفة يدل على وجود المردوف فيعلم وجود المردوف مع الدليل الشاهد بوجوده، فيكون أقوى لإثباته من ذكره. ألا نرى أنك تقول: لولا أنه مصمم على الكفر مقطوع أمره مثبت حكمة لما منعت منه اللطاف، فبذكر منع اللطاف يحصل العلم بوجود التصميم على الكفر وزيادة، وهو قيام الحجة على وجوده. وينصر هذا الوجه قوله (ويوم القيامة لا ينصرون) كأنه قيل: وخذلناهم في الدنيا وهم يوم القيامة يخذلون، كما قال (وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة) أى طرداً وإبعاداً عن الرحمة (ويوم القيامة هم من المقبوحين) أى من المطرودين المبعدين.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ

وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

(بصائر) نصب على الحال. والبصيرة: نور القلب الذي يستبصر به، كما أن البصر نور العين الذي تبصر به، يريد: آتيناه النوراة أنواراً للقلوب، لأنها كانت عمياء لا تستبصر ولا تعرف

(١) قوله: «ودعوناهم أئمة دعاة إلى النار» هذا التأويل وما يأتي بعده في قوله: ويجوز خذلناهم... إلى آخره: مبنيان على أنه تعالى يجب عليه الصلاح ولا يجوز عليه خلق الشر، وهذا مذهب المعتزلة. أما مذهب أهل السنة فهو أنه لا يجب عليه تعالى شيء، ويجوز عليه خلق شر كالخير. وقد حقق في التوحيد فلا داعي إلى تأويل الآية بمثل هذا التكلف. (ع)

(٢) قال محمود: «ومعناه دعوناهم أئمة دعاة إلى النار، كما تقول: جعلته بخيلاً وفاسقاً إذا دعوته بذلك» قال أحمد: لا فرق عند أهل السنة بين قوله تعالى (وجعل الظلمات والنور)، (وجعلنا الليل والنهار آيتين) وبين هذه الآية، فن حمل الجمل على التسمية فيما نحن فيه فراراً من اعتقاد أن دعاهم إلى النار مخلوق لله تعالى، فهو بمثابة من حمله على التسمية في قوله تعالى «وجعلنا الليل والنهار آيتين»: فراراً من جعل الليل والنهار مخلوقين لله تعالى، فلا فرق بين نفي مخلوق واحد عن قدرته تعالى ونفي كل مخلوق، نعوذ بالله من ذلك.

حقاً من باطل . وإرشاداً : لأنهم كانوا يخطئون في ضلال (ورحمة) لأنهم لو عملوا بها وصلوا إلى نيل الرحمة (لعلهم يتذكرون) إرادة أن يتذكروا . شبهت الإرادة بالترجي فاستعير لها . ويجوز أن يراد به ترجى موسى عليه السلام ^(١) لتذكرهم ، كقوله تعالى (لعله يتذكر) .

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ

مِنَ الشَّاهِدِينَ ٤٤

(الغربي) المكان الواقع في شق الغرب ، وهو المكان الذي وقع فيه ميقات موسى عليه السلام من الطور وكتب الله له في الألواح . والأمر المقضى إلى موسى عليه السلام : الوحي الذي أوحى إليه ؛ والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : وما كنت حاضراً المكان الذي أوحينا فيه إلى موسى عليه السلام ، ولا كنت (من) جملة (الشاهدين) للوحي إليه ، أو على الوحي إليه ؛ وهم تبعاء الذين اختارهم للبيقات ، حتى تقف من جهة المشاهدة على ما جرى من أمر موسى عليه السلام في ميقاته . وكتبه التوراة له في الألواح ، وغير ذلك .

وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ

تَتْلُوا عَلَيْهِمْ مَا بَيْنَنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ٤٥

فإن قلت : كيف يتصل قوله (ولكننا أنشأنا قرونًا) بهذا الكلام ؟ ومن أي وجه يكون استدراكاً له ؟ قلت : اتصاله به وكونه استدراكاً له ، من حيث أن معناه : ولكننا أنشأنا بعد عهد الوحي إلى عهدك قرونًا كثيرة (فتطاول) على آخرهم : وهو القرن الذي أنت فيهم (العمر) أي أمد انقطاع الوحي واندرست العلوم ، فوجب إرسالك إليهم ، فأرسلناك وكسبناك ^(٢) العلم بقصص الأنبياء وقصة موسى عليهم السلام ، كأنه قال : وما كنت شاهداً لموسى وما جرى عليه ، ولكننا أوحينا إليك . فذكر سبب الوحي الذي هو إطالة الفترة ؛ ودل به على المسبب على عادة الله عز وجل في اختصاراته ، فإذا هذا الاستدراك شديده الاستدراكين بعده (وما كنت ثاوياً) أي مقياً (في أهل مدين) وهم شعيب والمؤمنون به (تتلوا عليهم آياتنا) تقرأوها عليهم لتعلموا منهم ، يريد : الآيات التي فيها قصة شعيب وقومه ،

(١) قال محمد : «معناه إرادة تذكرهم ، لأن الإرادة تشبه الترجى ، فاستعير لها . أو يراد به ترجى موسى عليه السلام» قال أحد : الوجه الثاني هو الصواب ، واحذر الأول فإنه قدرى .

(٢) قوله «وكسبناك العلم» كسب يتمدى إلى مفعولين ، فيقال : كسبت أهل خيراً ، وكسبت الرجل مالاً . كما في الصحاح . (ع)

ولكننا أرسلناك وأخبرناك بها وعلينا كلها .

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَسْكَنَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا

مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾

(إذ نادينا) يريد مناداة موسى عليه السلام ليلة المناجاة وتسليمه ، و (لكن) (لكن) (لكن) (رحمة) وقرئ : رحمة ، بالرفع : أى هى رحمة (ما أتاهم) من نذير فى زمان الفترة بينك وبين عيسى وهى خمسمائة وخمسون سنة ، ونحوه قوله (لتنذر قوما ما أنذر أبائهم) :

وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ

إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

(لولا) الاولى امتناعية وجوابها محذوف ، والثانية تحضيضية ، وإحدى الفاءين للعطف ، والاخرى جواب لولا ، لكونها فى حكم الأمر ، من قبل أن الأمر باعث على الفعل ، والباعث والمحضض من واد واحد . والمعنى : ولولا أنهم قائلون إذا عوقبوا بما قدموا من الشرك والمعاصى : هلا أرسلت إلينا رسولا ، محتجين علينا بذلك لما أرسلنا إليهم ، يعنى : أن إرسال الرسول إليهم إنما هو يلزموا الحججة ولا يلزموها ، كقوله (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) ، (أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير) ، (لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك) . فإن قلت : كيف استقام هذا المعنى وقد جعلت العقوبة هى السبب فى الإرسال لا القول ، لدخول حرف الامتناع عليها دونه ؟ قلت : القول هو المقصود بأن يكون سبباً لإرسال الرسل ، ولكن العقوبة لما كانت هى السبب للقول وكان وجوده بوجودها ، جعلت العقوبة كأنها سبب الإرسال بواسطة القول ، فأدخلت عليها لولا ، وجيء بالقول معطوفاً عليها بالفاء المعطية معنى السببية ^(١) ، ويؤول معناه إلى قولك : ولولا قولهم هذا إذا أصابهم

(١) قال محمود : ولولا الأولى امتناعية ، والثانية تحضيضية . والفاء الأولى عاطفة والثانية جواب لولا . والمعنى : لولا أنهم قائلون إذا عوقبوا : لولا أرسلت إلينا رسولا ، محتجين بذلك لما أرسلت إليهم أحداً . فان قلت : كيف استقام هذا المعنى وقد جعلت العقوبة سبباً فى الإرسال لا القول ، لدخول حرف الامتناع عليها دونه ؟ قلت : العقوبة سبب للقول ، وهى سبب السبب ، فجعلت سبباً وعطف السبب الأصلي عليها بالفاء السببية . قال أحد : وذلك مثل قوله تعالى (أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى) والسر فى جعل سبب السبب سبباً ، وعطف السبب الأصلي عليه أمران ، أحدهما : أن مزيد النابة يوجب التقديم ، وهذا هو السر الذى أبداه سيويه . الثانى أن فى هذا النظم تنبيها على سببية كل واحد منهما : أما الأول فلاقرانه بحرف التعليل ، وهو « دأن » ، وأما الثانى ، فلاقرانه بفاء السبب ، ولا يتعاطى هذا المعنى إلا من قولك (أن تضل إحداهما فتذكر) لامن قول القائل : أن

مصيبة لما أرسلنا ، ولكن اختيرت هذه الطريقة لتكتم : وهي أنهم لو لم يعاقبوا مثلاً على كفرهم وقد عابوا ما ألجأوا به إلى العلم اليقين : لم يقولوا (لولا أرسلت إلينا رسولا) وإنما السبب في قولهم هذا هو العقاب لا غير لا التأسف على ما فاتهم من الإيمان بخالقهم . وفي هذا من الشهادة القوية على استحكام كفرهم ورسوخه فيهم ما لا يخفى ، كقوله تعالى (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) . ولما كانت أكثر الأعمال تزاول بالأيدي : جعل كل عمل مبرأ عنه باجتراح الأيدي وتقديم الأيدي وإن كان من أعمال القلوب ، وهذا من الاتساع في الكلام وتصيير الأقل تابعا للأكثر وتغليب الأكثر على الأقل .

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوْ لَمَّا يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾

(فلما جاءهم الحق) وهو الرسول المصدق بالكتاب المعجز مع سائر المعجزات وقطعت معاذيرهم وسد طريق احتجاجهم (قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى) من الكتاب المنزل جملة واحدة ، ومن قلب العصا حية وخلق البحر وغيرهما من الآيات : فجاءوا بالافتراءات المبنية على التعمت والعناد ، كما قالوا : لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ، وما أشبه ذلك (أو لم يكفروا) يعني أبناء جنسهم ومن مذهبهم مذهبهم وعنادهم عنادهم ، وهم الكفرة في زمن

== تذكر إحداهما الأخرى إذا ضلت ، وكان بعض النحاة يورد هذه الآية إشكالا على النحاة وعلى أهل السنة من المتكلمين ، فيقول : لولا ، عند أهل الفن تدل على استناع جوابها لوجود ما بعدها ، وحيث يكون الواقع بعدها في الآية موجوداً وهو عقوبة هؤلاء المذكورين بتقدير عدم بعثة الرسل ، وجوابها المحذوف غير واقع وهو عدم الارسل ، لأنه متمنع بالأولى . ومتى لم يقع عدم الارسل كان الارسل واقعاً ضرورة ، فيشكل الواقع بعدها على أهل السنة ! لأنهم يقولون : لا ظلم قبل بعثة الرسل ، فلا تتصور العقوبة بتقدير عدم البعثة ، وذلك لأنها واقعة جزاء على مخالفة أحكام الشرع ، فإن لم يكن شرع فلا مخالفة ولا عقوبة . وبشكل الجواب على النحاة : لأنه يلزم أن لا يكون واقعاً وهو عدم بعثة الرسل ، لكن الواقع بعدها يقتضى وقوعه ، ثم كان مورد هذا الاشكال يجب منه بتقدير محذوف . والاصل : ولولا كراهة أن تصيهم مصيبة وحيث يزول الاشكال عن الطائفتين . والتحقيق هندی في الجواب خلاف ذلك ، وإنما جاء الاشكال من حيث عدم تجويز النحاة لمعنى لولا أن يقولون : أنها تدل على أن ما بعدها موجود وأن جوابها متمنع به ، والتحرير في معناها أنها تدل على أن ما بعدها مانع من جوابها ، عكس د لو ، فإن معناها لزوم جوابها لما بعدها ، ثم المانع قد يكون موجوداً وقد يكون مفروضاً ، والآية من قبيل فرض وجود المانع ، وكذلك اللزوم في د لو ، قد يكون الشيء الواحد لازماً لقبولين ، فلا يلزم نفيه من نفي أحد ملزوميه . وعلى هذا التحرير يزول الاشكال الوارد على د لو ، في قوله : نعم العبد صهيبي لو لم يحفظ الله لم يحصه ، فتأمل هذا الفصل فتحت فوائده للتأمل ، والله الموفق .

موسى عليه السلام ﴿بما أوتى موسى﴾ وعن الحسن رحمه الله: قد كان للعرب أصل في أيام موسى عليه السلام، فعناه على هذا: أو لم يكفر آباؤهم ﴿قالوا﴾ في موسى وهرون ﴿ساحران تظاهرا﴾ أى تعاونا. وقرى: إظهاراً على الإدغام. وسحران: بمعنى: ذوا سحر. أو جعلوهما سحرين مبالغة في وصفهما بالسحر. أو أرادوا نوعان من السحر ﴿بكل﴾ بكل واحد منهما. فإن قلت: بهم عقلت قوله من قبل في هذا التفسير؟ قلت: بأولم يكفروا، ولأن أعلقه بأوتى، فينقلب المعنى إلى أن أهل مكة الذين قالوا هذه المقالة كما كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن فقد كفروا بموسى عليه السلام وبالتوراة. وقالوا في موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام: ساحران تظاهرا. أو في الكتائين: سحران تظاهرا؛ وذلك حين بعثوا الرهط إلى رؤساء اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمد صلى الله عليه وسلم، فأخبروهم أنه نعتة وصفته، وأنه في كتابهم، فرجع الرهط إلى قريش فأخبروهم بقول اليهود، فقالوا عند ذلك: ساحران تظاهرا.

قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾
 ﴿هو أهدى منهما﴾ مما أنزل على موسى عليه السلام ومما أنزل على. هذا الشرط من نحو ما ذكرت أنه شرط المدل بالأمر المتحقق لصحته؛ لأن امتناع الإتيان بكتاب أهدى من الكتائين أمر معلوم متحقق لا مجال فيه للشك. ويجوز أن يقصد بحرف الشك: التهمك بهم. فإن لم يستجيبوا لك فأعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن أتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴿٥٠﴾
 فإن قلت: ما الفرق بين فعل الاستجابة في الآية، وبينه في قوله:

﴿فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبٌ﴾ (١)

حيث عدى بغير اللام؟ قلت: هذا الفعل يتعدى إلى الدعاء بنفسه وإلى الداعي باللام، ويحذف الدعاء إذا عدى إلى الداعي في الغالب، فيقال: استجاب الله دعاءه أو استجابة له، ولا يكاد يقال: استجاب له دعاءه. وأما البيت فعناه: فلم يستجب دعاءه، على حذف المضاف. فإن قلت: فالاستجابة تقتضى دعاء ولا دعاء مهنا. قلت: قوله فأتوا بكتاب أمر بالإتيان والأمر بعث على الفعل ودعاء إليه، فكأنه قال: فإن لم يستجيبوا دعاءك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى، فأعلم أنهم قد ألزموا ولم تبق لهم حجة إلا اتباع الهوى، ثم قال ﴿ومن أضل ممن لا يتبع في

(١) قوله: فلم يستجب عند ذلك مجيب، صدره: وداع دعايا من يجيب إلى الندى • اه عليان • قلت: وقد تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٤٥٦ فراجع إن شئت اه مصححه.

دينه إلا ﴿هواه بغير هدى من الله﴾ أى مطبوعاً على قلبه بمنوع الإلطاف ﴿إن الله لا يهدي﴾ أى لا يلطف بالقوم الثابتين على الظلم الذين اللطف بهم عابث . وقوله بغير هدى فى موضع الحال ، يعنى : مخدولاً مخلى بينه وبين هواه .

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾

قرئ ﴿وصلنا﴾ بالتشديد والتخفيف . والمعنى : أن القرآن أتاهم متابعاً متواصلاً ، وعداً ووعداً ، وقصصاً وعبراً ، ومواعظ ونصائح : إرادة أن يتذكروا فيفلحوا . أو نزل عليهم نزولاً متصلاً بعضه فى أثر بعض . كقوله (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين) .

الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

نزلت فى مؤمنى أهل الكتاب وعن رفاعه بن قرظة : نزلت فى عشرة أنا أحدهم . وقيل : فى أربعين من مسلى أهل الإنجيل : اثنان وثلاثون جاؤا مع جعفر من أرض الحبشة ، وثمانية من الشام . والضمير فى ﴿من قبله﴾ للقرآن .

وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ

قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾

فإن قلت : أى فرق بين الاستئناف إنه وإنا ؟ قلت : الأول تعليل للإيمان به ، لأن كونه حقاً من الله حقيق بأن يؤمن به . والثانى : بيان لقوله (آمنا به) لأنه يحتمل أن يكون إيماناً قريب العهد وبعيده ، فأخبروا أن إيمانهم به متقادم ؛ لأن آباءهم القدماء قرؤا فى الكتب الأولى ذكره وأبناءهم من بعدهم ﴿من قبله﴾ من قبل وجوده ونزوله (مسلمين) كائنين على دين الإسلام ؛ لأن الإسلام صفة كل موحد مصدق للوحى .

أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ إِيمًا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا

رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٥٤﴾

﴿بما صبروا﴾ بصبرهم على الإيمان بالتوراة والإيمان بالقرآن . أو بصبرهم على الإيمان بالقرآن قبل نزوله وبعد نزوله . أو بصبرهم على أذى المشركين وأهل الكتاب . ونحوه (يؤتكم كفلين من رحمته) ، ﴿بالحسنة السيئة﴾ بالطاعة المعصية المتقدمة . أو بالحلم الأذى .

وَإِذَا مِمِّعُوا لَلَّغُوا أَغْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ

عَلَيْكُمْ لَا تَنْتَفِيحُ الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾

(سلام عليكم) توديع ومشاركة. وعن الحسن رضى الله عنه : كلمة حلم من المؤمنين (لا ينبغي الجاهلين) لا تريد مخالطتهم وصحبهم فإن قلت : من خاطبوا بقولهم (ولكم أعمالكم) ؟ قلت : اللاعن الذين دل عليهم قوله (وإذا سمعوا اللغو) .

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

(لا تهدي من أحببت) لا تقدر أن تدخل في الإسلام كل من أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرهم ، لأنك عبد لا تعلم المطبوع على قلبه من غيره (ولكن الله) يدخل في الإسلام (من يشاء) وهو الذى علم أنه غير مطبوع على قلبه ، وأن الألفاظ تنفع فيه ، فيقرن به ألفاظه حتى تدعوه إلى القبول (وهو أعلم بالمهتدين) بالقابلين من الذين لا يقبلون . قال الزجاج : أجمع المسلمون أنها نزلت في أبي طالب ، وذلك أن أبا طالب قال عند موته : يا معشر بنى هاشم ، أطيعوا محمداً وصدقوه تفلحوا وترشدوا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : تأمرهم بالنصيحة لأنفسهم وتدعها لنفسك ؟ قال : فأتريد يا ابن أخى ؟ قال : أريد منك كلمة واحدة فإنك في آخريوم من أيام الدنيا : أن تقول لا إله إلا الله . أشهد لك بها عند الله . قال : يا ابن أخى ، قد علمت إنك لصادق ، ولكنى أكره أن يقال : خرج عند الموت ^(١) ، ولولا أن تكون عليك وعلى بنى أهلك غضاضة ^(٢) ومسبة بعدى ، لقلها ، ولا قررت بها عينك عند الفراق ، لما أرى من شدة وجدك ونصيحتك ، ولكنى سوف أموت على ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف .

وَقَالُوا إِنَّا تَتَّبِعِ الْهْدَى مَعَكَ نَتَّخِظُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا

ءَامِنًا يُنْجِي إِلَهُهُ نُمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

قالت قريش ، وقيل : إن القائل الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف : نحن نعلم أنك على الحق ، ولكننا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب بذلك - وإما نحن أكلة رأس ، أى : قليلون - أن يتخطفونا من أرضنا ، فألقمهم الله الحجر . بأنه مكن لهم في الحرم الذى آمنه بحرمة البيت وأمن قطانه بحرمته ، وكانت العرب في الجاهلية حولهم يتغاورون ويتناحرون ، وهم آمنون في حرمهم لا يخافون ، وبحرمة البيت هم قازون بواد غير ذى زرع ، والثمرات والأرزاق تجي إليهم من كل

(١) قوله ، أكره أن يقال خرج عند الموت ، في الصحاح : خرج الرجل - بالكسر - : ضنف ، فهو

خرج - (ع)

(٢) قوله غضاضة ، أى : مذلة ومنقصة . (ع)

(٣) لم أجده ، وقصة وفاة أبي طالب في الصحيحين عن سعيد بن المسيب عن ابنه بغير هذا السياق أو أخصر منه .

أوب ، فإذا خولهم الله ما خولهم من الأمن والرزق بحرمة البيت وحدها وهم كفره عبدة أصنام فكيف يستقيم أن يعرضهم للتخوف والتخطف ، ويسلبهم الأمن إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام. وإسناد الأمن إلى أهل الحرم حقيقة ، وإلى الحرم مجاز (يجي إليه) تجلب وتجمع . قرئ : يالباة والتاء . وقرئ : تجنى ، بالنون ، من الجنى . وتعديته يالى كقوله : يجنى إلى فيه ، ويجنى إلى الخافة ^(١) . وثمرات : بضمين وبضمة وسكون . ومعنى السكينة : الكثرة كقوله (وأوتيت من كل شيء) . (ولكن أكرهم لا يعلمون) متعلق بقوله (من لدنا) أى قليل منهم يقرون بأن ذلك رزق من عند الله ، وأكرهم جهلة لا يعلمون ذلك ولا يفتنون له ، ولو علموا أنه من عند الله لعلموا أن الخوف والأمن من عنده . ولما خافوا التخطف إذا آمنوا به وخلعوا أئداده . فإن قلت : بم انتصب رزقا ؟ قلت : إن جعلته مصدراً جاز أن ينتصب بمعنى ما قبله : لأن معنى (يجي إليه ثمرات كل شيء) ويرزق ثمرات كل شيء : واحد ، وأن يكون مفعولاً له . وإن جعلته بمعنى : مرزوق ، كان حالاً من الثمرات لتخصها بالإضافة ، كما تنتصب عن النكرة المتخصصة بالصفة .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾

هذا تخويف لأهل مكة من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم من إنعام الله عليهم بالرغود في ظلال الأمن وخفض العيش ، فعمطوا النعمة وقابلوها بالآشر والبطر ، ^(١) فدمرهم الله وخرب ديارهم . وانتصبت (معيشتها) إما بحذف الجار وإيصال الفعل ، كقوله تعالى (واختار موسى قومه) وإما على الظرف بنفسها ، كقولك : زيد ظنى مقيم ^(٢) . أو بتقدير حذف الزمان المضاف ، أصله : بطرت أيام معيشتها ، كخفوق النجم ، ومقدم الحاج : وإما بتضمين (بطرت) معنى : كفرت وعمطت . وقيل : البطر سوء احتمال الغنى : وهو أن لا يحفظ حق الله فيه (إلا قليلاً) من السكينة . قال ابن عباس رضى الله عنهما : لم يسكنها إلا المسافر وماز الطريق يوماً أو ساعة ويحتمل أن شؤم معاصي المهلكين بقى أثره في ديارهم ، فكل من سكنها من أعقابهم لم يبق فيها إلا

(١) قوله : ويجنى إلى الخافة ، في الصحاح : الخافة : خريطة من آدم يشتر فيها بعل . وفيه : يشتر :

يجنى . (ع)

(٢) قوله : فعمطوا النعمة وقابلوها بالآشر والبطر ، أى بطروها وحقروها . والآشر والبطر : شدة المرح والمرح : شدة الفرح ، كذا في الصحاح . (ع)

(٣) قوله : كقولك زيد ظنى مقيم ، أى : فى ظنى . (ع)

قليلًا (وكننا نحن الوارثين) لتلك المساكن من ساكنيها ، أى : تركناها على حال لا يسكنها أحد ، أو خزيناها وسوقيناها بالارض .

تَتَخَلَّفُ الْآثَارُ عَنْ أَصْحَابِهَا حِينًا وَيُذَرِّكُهَا الْفَنَاءُ فَتَتَّبِعُ (١)

وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبِيعَ فِي أُمَّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ؕ مَا بَدَيْنَا

وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ٥٩

وما كانت عادة ربك أن يهلك القرى في كل وقت (حتى يبعث في) القرية التي هي أمها ، أى : أصلها وقصبتها التي هي أعمالها وتوابعها (رسولًا) لإلزام الحجة وقطع المذعة ، مع علمه أنهم لا يؤمنون ؛ أو وما كان في حكم الله وسابق قضائه أن يهلك القرى في الارض حتى يبعث في أم القرى - يعنى مكة - رسولًا وهو محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء . وقرى : أمها ، بضم الهمزة وكسرهما لاتباع الجز ، وهذا بيان لعدله وتقده عن الظلم حيث أخبر بأنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا الهلاك بظلمهم (١) ، ولا يهلكهم مع كونهم ظالمين إلا بعد تأكيد الحجة والإلزام ببعثة الرسل ، ولا يجعل علمه بأحوالهم حجة عليهم ، ونزه ذاته أن يهلكهم وهم غير ظالمين ، كما قال تعالى (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) فنص في قوله (بظلم) أنه لو أهلكتهم وهم مصلحون لكان ذلك ظلماً منه ، وأن حاله في غناه وحكمته منافية للظلم ، دل على ذلك بحرف النفي مع لامة ، كما قال الله تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم) .

(١) أين الذى الهرمات من بنيانه ما قومه ما يومه ما المصراع
تتخلف الآثار عن أصحابها حيناً ويذكرها الفناء فتتبع

لأى الطيب حين دخل مصر ورأى الأهرام التي بناها الملك سورته . وقيل : سنان بن مشعل . وقيل : إدريس عليه السلام . والهرمان : ثنية هرم - كعب - وأراد بهما القريين من مصر ، ويومه : هو زمن ملكه ، ويجوز أنه يوم موته ، كما أن المصراع مكان الموت ، والاستفهام عن هذا بعد الاستفهام عن قومه لاستحضار الصورتين والفرق بين الحاليتين . ثم قال : تتخلف ، أى : تتأخر الآثار من البنيان والأشجار وغير ذلك زمناً طويلاً بعد أصحابها . ثم يلحقها الفناء فتتبع أصحابها ولو طال زمن تخلفها . ويجوز أن المعنى : حيناً قليلاً . فالتنوين للتكثير أو التقليل .

(٢) قال محمود : «هذا بيان لعدله وتقده عن الظلم حتى أخبر بأنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا العذاب ولا يستحقوا حتى تتأكد عليهم الحجة ببعثة الرسل» قال أحمد : هذا إسلاف من الرغش لى جواب ساقط عن سؤال وارد على القدرة لا جواب لم عنه ، ينشأ السؤال في هذه الآية فيقال : لو كانت العقول تحكم عن الله تعالى بأحكام التكليف ، لقامت الحجة على الناس وإن لم يكن بعث رسل ، إذ العقل حاكم ، فلا يجدون للخلاص من هذا السؤال سبيلاً .

وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ
وَأَبْقَى أَفْلاً تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾

وأى شيء أصبتموه من أسباب الدنيا فما هو إلا تمتع وزينة أياما قلائل ، وهى مدة الحياة المتقضية (وما عند الله) وهو ثوابه (خير) فى نفسه من ذلك (وأبقى) لأن بقائه دائم سرمد وقرئ : يعقلون ، بالياء . وهو أبلغ فى الموعظة . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن الله خلق الدنيا وجعل أهلها ثلاثة أصناف : المؤمن ، والمنافق ، والكافر ؛ فالؤمن يتزود ، والمنافق يتزين ، والكافر يتمتع .

أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

هذه الآية تقرير وإيضاح للتي قبلها . والوعد الحسن : الثواب ؛ لأنه منافع دائمة على وجه التعظيم والاستحقاق ، وأى شيء أحسن منها ، ولذلك سمي الله الجنة بالحسنى . و(لاقية) كقوله تعالى . ولقاهم نضرة وسرورا ، وعكسه (فسوف يلقون غيا) . (من المحضرين) من الذين أحضروا النار . ونحوه (لكنت من المحضرين) . (فكذبوه فإنهم لمحضرون) قيل : نزلت فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى جهل . وقيل : فى على وحزمة وأبى جهل . وقيل : فى عمار ابن ياسر والوليد بن المغيرة . فإن قلت : فسرلى الفامين وثم ، وأخبرنى عن مواقعها . قلت : قد ذكر فى الآية التى قبلها متاع الحياة الدنيا وما عند الله وتفاوتهما ، ثم عقبه بقوله (أفمن وعدناه) على معنى : أبعد هذا التفاوت الظاهر يستوى بين أبناء الآخرة وأبناء الدنيا ، فهذا معنى الفاء الأولى وبيان موقعها . وأما الثانية فللتسبيب : لأن لقاء الموعود مسبب عن الوعد الذى هو الضمان فى الخير . وأما ، ثم ، فلترأخى حال الإحضار عن حال التمتع ، لالترأخى وقته عن وقته . وقرئ (ثم هو) بسكون الهاء ، كما قيل عضد فى عضد . تشبيهاً للنفصل بالمتصل ، وسكون الهاء فى : فهو ، وهو ، وهو : أحسن ؛ لأن الحرف الواحد لا ينطق به وحده فهو كالم متصل .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾

(شركائى) مبنى على زعمهم . وفيه تهكم . فإن قلت : زعم يطلب مفعولين ، كقوله :

* ... وَلَمْ أَزْعَمْكَ عَنْ ذَلِكَ مَعْرَلاً * (١)

(١) وإن الذى قد عاش يا أم مالك يموت ولم أزعمك عن ذلك معرلاً
يقول . وإن كل حى . وإن طال عمره . يموت . ولم أظنك يا أم مالك معرلاً عن ذلك الحكم أو الموت . والمعرل =

فأين هما؟ قلت: محذوفان، تقديره: الذين كنتم تزعمونهم شركائي. ويجوز حذف المفعولين في باب ظننت، ولا يصح الاختصار على أحدهما.

قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا
غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾

(الذين حق عليهم القول) الشياطين أو أئمة الكفر وروسه. ومعنى حق عليهم القول: وجب عليهم مقتضاه وثبت، وهو قوله (لأملأن جهنم من الخنة والناس أجمعين) و(هؤلاء) مبتدأ، و(والذين أغوينا) صفة، والراجع إلى الموصول محذوف، و(أغويناهم) الخبر. والكاف صفة مصدر محذوف، تقديره: أغويناهم، فغوا غيا مثل ماغوينا، يعنون: أنا لم نغو إلا باختيارنا، لأن فوقنا مغوين أغرونا بقسر منهم وإلجام. أو دعونا إلى الفتن وسؤلوه لنا، فهؤلاء كذلك غواوا باختيارهم؛ لأن إغواءنا لهم لم يكن إلا وسوسة وتويلا لا قسرا وإلجاما، فلا فرق إذاً بين غينا وغيمهم: وإن كان تسويلنا داعياً لهم إلى الكفر، فقد كان في مقابلته دعاء الله لهم إلى الإيمان بما وضع فيهم من أدلة العقل، وما بعث إليهم من الرسل وأنزل عليهم من الكتب المشحونة بالوعد والوعيد والمواظع والزواجر، وناهيك بذلك صارفاً عن الكفر وداعياً إلى الإيمان. وهذا معنى ما حكاه الله عن الشيطان (إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم) والله تعالى قدّم هذا المعنى أول شيء، حيث قال لإبليس (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين). (تبرأنا إليك) منهم وبما اختاروه من الكفر بأنفسهم، هوى منهم للباطل ومقتلاً للحق، لا بقوة مناعلى استكراهم ولا سلطان (ما كانوا إيانا يعبدون) إنما كانوا يعبدون أهواءهم ويطيعون شهواتهم. وإخلاء الجلتين من العاطف، لكونهما مقررتين لمعنى الجملة الأولى.

وَقِيلَ آذِعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ

كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾

فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾

(لو أنهم كانوا يهتدون) لوجه من وجوه الحيل يدفعون به العذاب. أو لو أنهم كانوا مهتدين

مؤمنين ، لما رأوه . أو تمنوا لو كانوا مهتدين . أو تخيروا عند رؤيته وسدروا ^(١) فلا يهتدون طريقا . حكى أولا ما يوبخهم به من اتخاذهم له شركاء ، ثم ما يقوله الشياطين أو أنهم عند توبيخهم لأنهم إذا وبخوا بعبادة الآلهة ، اعتذروا بأن الشياطين هم الذين استغفواهم وزينوا لهم عبادتها ، ثم ما يشبه الشتمة بهم من استغاثتهم آلهتهم وخذلانهم لهم وعجزهم عن نصرتهم ، ثم ما يكتنون به من الاحتجاج عليهم بإرسال الرسل وإزاحة العلل ^(٢) فعميت عليهم الأنبياء فصارت الأنبياء كالعمى عليهم جميعاً لا تهتدى إليهم ^(٣) فهم لا يتساءلون ^(٤) لا يسأل بعضهم بعضاً كما يتساءل الناس في المشكلات ، لأنهم يتساوون جميعاً في عمى الأنبياء عليهم والعجز عن الجواب . وقرئ : فعميت ، والمراد بالنبيا : الخبر عما أجاب به المرسل إليه رسوله ، وإذا كانت الأنبياء لهول ذلك اليوم يتنعتعون في الجواب عن مثل هذا السؤال ، وبفوقه الأمر إلى علم الله ، وذلك قوله تعالى (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ؟ قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب) فإظنك بالاضلال من أمهم .

فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَقَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾

(فأما من تاب) من المشركين من الشرك ، وجمع بين الإيمان والعمل الصالح (فقسى أن) يفلح عند الله ، و «عسى» من الكرام تحقيق . ويجوز أن يراد : ترجى التائب وطمعه ، كأنه قال : فليطمع أن يفلح .

وَرَبِّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ

عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾

الخيرة من التخير ، كالطيرة من التطير : تستعمل بمعنى المصدر هو التخير ، وبمعنى المتخير كقولهم : محمد خيرة الله من خلقه (ما كان لهم الخيرة) بيان لقوله (ويختار) لأن معناه : ويختار ما يشاء ، ولهذا لم يدخل العاطف . والمعنى : أن الخيرة لله تعالى في أفعاله ، وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها ، ليس لاحد من خلقه أن يختار عليه . قيل : السبب فيه قول الوليد بن المغيرة : (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) يعني : لا يبعث الله الرسل باختيار المرسل إليهم . وقيل : معناه ويختار الذي لهم فيه الخيرة ، أى : يختار للعباد ما هو خير لهم وأصلح ، وهو أعلم بمصالحهم من أنفسهم ، من قولهم في الأمرين : ليس فيهما خيرة لمختار . فإن قلت : فأين الراجع من الصلة إلى الموصول إذا جعلت ما موصولة ؟ قلت : أصل الكلام : ما كان لهم فيه

الحيرة ، لحذف ، فيه ، كما حذف ، منه ، في قوله (إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) لأنه مفهوم (سبحان الله) أى الله برى من إشراكهم وما يحملهم عليه من الجراءة على الله واختيارهم عليه ما لا يختار .

وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحُدُودُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

(ما تكن صدورهم) من عداوة رسول الله وحسده (وما يعلنون) من مطاعنهم فيه . وقولهم : هلا اختير عليه غيره في النبوة (وهو الله) وهو المستأثر بالإلهية المختص بها ، و (لا إله إلا هو) تقرير لذلك ، كقولك : الكعبة القبلة ، لا قبله إلا هى . فإن قلت : الحد في الدنيا ظاهر فما الحد في الآخرة ؟ قلت : هو قولهم (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) ، (الحمد لله الذى صدقنا وعده) (وقيل الحمد لله رب العالمين) والتحميد هناك على وجه اللذة لا الكلفة . وفي الحديث : يلهمون التسييح والتقديس ^(١) (وله الحكم) القضاء بين عباده .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضَمَاءٍ أَوْفَلَ تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَوْفَلَ تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

(أرأيتم) وقرئ أريتم : بحذف الهمزة ، وليس بحذف قياسى . ومعناه : أخبروني من يقدر على هذا ؟ والسرمد : الدائم المتصل ، من السرد وهو المتابعة . ومنه قولهم في الأشهر الحرم : ثلاثة سرد ، وواحد فرد ، والميم مزيدة . ووزنه فعل . ونظيره . دلامص ، من الدلاص ^(٢) . فإن قلت : هلا قيل : بنهار تصرفون فيه ، كما قيل : (ليل تسكنون فيه) ؟ قلت ذكر الضياء وهو ضوء

(١) أخرجه مسلم من حديث جابر في أثناء حديث في صفة أهل الجنة : وفيه « يلهمون النفس » وفي رواية له « التسييح والتكبير » .

(٢) قوله « ونظيره دلامص من الدلاص » في الصحاح ، الدلاص : اللين البراق . والدلامص : البراق . يقال : دلصت الدرع - بالفتح . (ع)

الشمس : لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرة ، ليس التصرف في المعاش وحده ، والظلام ليس بتلك المنزلة ، ومن ثمة قرن بالضياء ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده ، وقرن بالليل ﴿ أَفَلَا تَبْصُرُونَ ﴾ لأن غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره . وأنت من السكون ونحوه ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ زاوج بين الليل والنهار لأغراض ثلاثة : لتسكنوا في أحدهما وهو الليل ، ولتبتغوا من فضل الله في الآخر وهو النهار ولإرادة شكركم .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾

وقد سلكت بهذه الآية طريقة اللف في تكرير التوبيخ باتخاذ الشركاء : إيدان بأن لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراف به ، كما لا شيء أدخل في مرضاته من توحيده . اللهم فكما أدخلتنا في أهل توحيدك ، فأدخلنا في الناجين من وعيدك .

وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ

وَوَضَّلْنَا عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

﴿ ونزعنا ﴾ وأخرجنا ﴿ من كل أمة شهيداً ﴾ وهو نبيهم : لأن أنبياء الأمم شهداء عليهم ، يشهدون بما كانوا عليه ﴿ فقلنا ﴾ للامة ﴿ هاتوا برهانكم ﴾ فيما كنتم عليه من الشرك ومخالفة الرسول ﴿ فعملوا ﴾ حينئذ ﴿ أن الحق لله ﴾ ولرسوله ، لاهم ولشياطينهم ﴿ ووضل عنهم ﴾ وغاب عنهم غيبة الشيء الضائع ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ من الكذب والباطل .

إِنْ قَرُّوْنَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُفُورِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْمُغْصِبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَأَنْتُمْ فِي مَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ ۚ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ

لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٧٧﴾

﴿ قارون ﴾ اسم أعجمي مثل هرون ، ولم ينصرف للعجمة والتعريف ، ولو كان فاعولاً من قرن لا ينصرف . وقيل : معنى كونه من قومه أنه آمن به . وقيل . كان إسرائيلياً ابن عم موسى : هو قارون بن يصر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب . وموسى بن عمران بن قاهث . وقيل : كان موسى ابن أخيه ، وكان يسمى المنور لحسن صورته ، وكان أقرأ بني إسرائيل للتوراة ، ولكنه

نافق كما نافق السامري وقال : إذا كانت النبوة لموسى عليه السلام ، والمذبح والقربان إلى هرون
فألى ؟ وروى : أنه لما جاوزهم موسى البحر وصارت الرسالة والخبيرة لهرون يقرب القربان
ويكون رأساً فيهم - وكان القربان إلى موسى فجعله موسى إلى أخيه - وجد قارون في نفسه
وحسدهما ، فقال لموسى : الأمر لكما ولست على شيء ، إلى متى أصبر ؟ قال موسى : هذا صنع الله
قال : والله لا أصدق حتى تأتي بآية ، فأمر رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كل واحد بعصاه ،
فخزما وألقاها في القبة التي كان الوحي ينزل عليه فيها ، وكانوا يحرسون عصيهم بالليل ، فأصبحوا
وإذا بعصاهرون تهتز ولها ورق أخضر ، وكانت من شجر اللوز ، فقال قارون : ما هو بأعجب
منما تصنع من السحر ﴿ فبغى عليهم ﴾ من البغى وهو الظلم . قيل : ملكه فرعون على بني إسرائيل
فظلمهم . وقيل : من البغى وهو الكبر والبذخ : تبذخ عليهم بكثرة ماله وولده . قيل : زاد
عليهم في الثياب شبراً . المفاتيح : جمع مفتاح بالكسر : وهو ما يفتح به . وقيل هي الخزائن ، وقياس
واحد : مفتاح - بالفتح . ويقال : نام به الحمل ، إذا أثقله حتى أماله . والعصبة : الجماعة الكثيرة
والعصابة : مثلها . واعصوبوا : اجتمعوا . وقيل : كانت تحمل مفاتيح خزائنه ستون بغلا ،
لكل خزانة مفتاح ، ولا يزيد المفتاح على أصبع . وكانت من جلود . قال أبو زرين : يكفي
الكوفة مفتاح ، وقد بولغ في ذكر ذلك بلفظ : الكنوز ، والمفاتيح ، والنوء ، والعصبة ، وأولى
القوة . وقرأ بديل بن ميسرة : لينوء بالياء . ووجهه أن يفسر المفاتيح بالخزائن ، ويعطيها حكم
ما أضيفت إليه للابسة والاتصال ، كقولك ذهب أهل البقعة . ومحل إذ منصوب بتنوء
﴿ لا تفرح ﴾ كقوله (ولا تفرحوا بما آتاكم) وقول القائل :

* وَلَسْتُ بِمَفْرَاحٍ إِذَا الدَّهْرُ سَرَّنِي * (١)

وذلك أنه لا يفرح بالدنيا إلا من رضى بها واطمأن . وأما من قلبه إلى الآخرة ويعلم أنه
مفارق ما فيه عن قريب ، لم تحذنه نفسه بالفرح . وما أحسن ما قال القائل :

أَشَدُّ النِّمِّ عِنْدِي فِي سُرُورٍ تَمَيَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ انْتِقَالاً (٢)

(١) ولست بمفرح إذا الدهر سرنى ولا جازع من صرفه المتقلب
ولا أبغى شراً إذا الشر تاركى ولكن متى أحل على الشر أركب

لهدية بن خشرم لما قاده معارية إلى الحرة ليقصص منه في زياد بن زيد المذري ، فلقبه عبدالرحمن بن حسان فاستشده
فأنشده ذلك . والمفرح : كثير الفرح . والمراد : نقي الفرح من أصله . وصرف الدهر : حداته . وإذا : شرطية
فلا بد بعدها من فعل ، أى : إذا كان الشر تاركى . وأحل منى للجهول ، وأركب للفاعل . والمعنى : أتى جربت
الدهر فإذا هو خشن ، ومع ذلك لا أنزعزع .

(٢) لا ي الطيب ، أى : أشد النعم عندى وقت السرور الذى يتقن صاحبه الانتقال عنه ، وهكذا سرور الدنيا كله .

(وابتغ فيما آتاك الله) من الغنى والثروة (الدار الآخرة) بأن تفعل فيه أفعال الخير من أصناف الواجب والمندوب إليه ، وتجعله زادك إلى الآخرة (ولا تنس نصيبك) وهو أن تأخذ منه ما يكفيك ويصلحك (وأحسن) إلى عباد الله (كما أحسن الله إليك) أو أحسن بشرك وطاعتك لله كما أحسن إليك . والفساد في الأرض : ما كان عليه من الظلم والبغى . وقيل إن القائل موسى عليه السلام . وقرئ : واتبع .

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨)

(على علم) أى على استحقاق واستيجاب لما في من العلم الذى فضلت به الناس ، وذلك أنه كان أعلم بنى إسرائيل بالتوراة . وقيل : هو علم الكيمياء . عن سعيد بن المسيب : كان موسى عليه السلام يعلم علم الكيمياء . فأفاد يوشع بن نون ثلثه ، وكالب بن يوفنا ثلثه ، وقارون ثلثه ، فغدهما قارون حتى أضاف عليهما إلى علمه فكان يأخذ الرصاص والنحاس فيجعلهما ذهباً . وقيل : علم الله موسى علم الكيمياء ، فعلمه موسى أخته ، فعلمته أخته قارون . وقيل : هو بصره بأنواع التجارة والدهقنة (١) وسائر المكاسب . وقيل (عندى) معناه : فى ظنى ، كما تقول الأمر عندى كذا ، كأنه قال : إنما أوتيته على علم ، كقوله تعالى (ثم إذا خولنا نعمة منا قال إنما أوتيته على علم) ثم زاد (عندى) أى هو فى ظنى ورأى هكذا . يجوز أن يكون إثباتاً لعلمه بأن الله قد أهلك من القرون قبله من هو أقوى منه وأعز ، لأنه قد قرأه فى التوراة ، وأخبر به موسى ، وسمعه من حفاظ التواريخ والأيام كأنه قيل (أولم يعلم) فى جملة ما عنده من العلم هذا ، حتى لا يغتر بكثرة ماله وقوته . ويجوز أن يكون نفيّاً لعلمه بذلك ، لأنه لما قال : أوتيته على علم عندى ، فتنفج بالعلم (٢) وتعظم به . قيل : أعنده مثل ذلك العلم الذى ادعاه ورأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة ، ولم يعلم هذا العلم النافع حتى يقى به نفسه مصارع الهالكين (وأكثر جمعا) للآل ، أو أكثر جماعة وعدداً . فإن قلت : ما وجه اتصال قوله (ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) بما قبله ؟ قلت : لما ذكر قارون من أهلك من قبله من القرون الذين كانوا أقوى منه وأعز ، قال على سبيل التهديد له : والله مطلع على ذنوب المجرمين ، لا يحتاج إلى سؤالهم عنها واستعلامهم . وهو قادر على أن يعاقبهم عليها ، كقوله تعالى (والله خبير بما تعملون) ، (والله بما تعملون عليم) وما أشبه ذلك .

(١) قوله «والدهقنة» أى الزرارة ، كما عبر غيره . (ع)

(٢) قوله «فتنفج بالعلم» أى ترفع وتفاخر وتكبر . أفاده الصحاح . (ع)

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لِمَ لَنَا
مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾

(في زينته) قال الحسن : في الحرمة والصفرة . وقيل : خرج على بغلة شهباء عليها الأرجوان^(١) وعليها سرج من ذهب ، ومعه أربعة آلاف على زيه . وقيل : عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر ، وعن يمينه ثلثائة غلام ، وعن يساره ثلثائة جارية ، بيض عليهن الخلى والديباج . وقيل في تسعين ألفا عليهم المعصفرات ، وهو أول يوم رؤى فيه المعصفر : كان المتمنون قوما مسلمين وإنما تمنوا على سبيل الرغبة في اليسار والاستغناء كما هو عادة البشر . وعن قتادة : تمنوا ليتقربوا به إلى الله وينفقوه في سبيل الخير . وقيل : كانوا قوما كفارا . الغابط : هو الذي يتمنى مثل نعمة صاحبه من غير أن تزول عنه . والحاسد : هو الذي يتمنى أن تكون نعمة صاحبه له دونه فن الغبطة قوله تعالى (يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون) ومن الحسد قوله (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض) وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هل يضر الغبط ؟ فقال^(٢) : ولا إلا كما يضر العضاء الخبط^(٣) ، والحظ : الحد ، وهو البخت والدولة : وصفوه بأنه رجل مجدود مبخوت ، يقال : فلان ذو حظ ، وحظيظ ، ومحظوظ ، وما الدنيا إلا أحاظ وجدود .

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ نَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾

ويلك : أصله الدغاء بالهلاك ، ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرتضى ، كما استعمل : لا أبا لك . وأصله الدغاء على الرجل بالأقراف^(٤) في الحث على الفعل . والراجع

(١) قوله «بغلة شهباء عليها الأرجوان» في الصحاح : قطيفة حمراء أرجوان . وفيه أيضا : الأرجوان صنف أحمر شديد الحرمة ، ويقال : هو بالفارسية أرغوان ، وهو شجر له نور أحمر أحسن ما يكون . (ع)
(٢) ذكره ثابت السرقسطي في الغريب هكذا بغير إسناد . وأخرجه إبراهيم الحارثي في الغريب من طريق ابن أبي حسين . وأن سائلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم أيض الناس الغبط ؟ قال : نعم كما يضر العضاء الخبط . بهذا اللفظ أخرجه الطبراني من رواية أم الدرداء قالت : قلت يا رسول الله . فذكره . لكن قال «الهجر» بدل العضاء . قال الحارثي الغبط إرادة السمعة . وقال ثابت : الغبط الحسد .

(٣) قوله «إلا كما يضر العضاء الخبط» في الصحاح «العضاء» : كل شجر يهضم وله شوك . وفيه «الخبط» : ضرب الشجرة بالعصا ليسقط ورقها . (ع)

(٤) قوله «الدغاء على الرجل بالأقراف» أي بفساد الأب . أفاده الصحاح . (ع)

في ﴿ولا يلقاها﴾ للكلمة التي تكلم بها العلماء . أول الثواب ، لأنه في معنى المثوبة أو الجنة ، أو للسيرة والطريقة ، وهي الإيمان والعمل الصالح ﴿الصابرون﴾ على الطاعات وعن الشهوات وعلى ما قسم الله من القليل عن الكثير . كان قارون يؤذى نبي الله موسى عليه السلام كل وقت ، وهو يداريه للقرابة التي بينهما ، حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف دينار على دينار ، وعن كل ألف درهم على درهم ، فحسبه فاستكثره فشحت به نفسه ، فجمع بنى إسرائيل وقال : إن موسى أرادكم على كل شيء ، وهو يريد أن يأخذ أموالكم ، فقالوا : أنت كبيرنا وسيدنا ، فربما شئت ، قال : نبرطل فلانة البغي حتى ترميه بنفسها فيرفضه بنو إسرائيل ، فجعل لها ألف دينار . وقيل : طستا من ذهب . وقيل : طستا من ذهب مملوءة ذهبا . وقيل : حكمها فلما كان يوم عيد قام موسى فقال : يا بني إسرائيل ، من سرق قطعناه ، ومن أقرى جلدناه ، ومن زنى وهو غير محصن جلدناه ، وإن أحسن رجناه ، فقال قارون : وإن كنت أنت ؟ قال : وإن كنت أنا ، قال : فإن بنى إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة ، فأحضرت ، فناشدها موسى بالذي فلق البحر ، وأنزل التوراة أن تصدق . فتداركها الله فقالت : كذبوا ، بل جعل لي قارون جملا على أن أقذفك لنفسى ، يغفر موسى ساجدا يبكي وقال : يارب ، إن كنت رسولك فاغضب لي . فأوحى إليه : أن مر الأرض بما شئت ، فإنها مطيعة لك . فقال : يا بني إسرائيل ، إن الله بعثنى إلى قارون كما بعثنى إلى فرعون ، فمن كان معه فليزلم مكانه ، ومن كان معي فليعتزل ، فاعتزلوا جميعا غير رجلين ثم قال : يا أرض خذيهما ، فأخذتهما إلى الزكب ، ثم قال : خذيهما ، فأخذتهما إلى الأوساط ، ثم قال : خذيهما ، فأخذتهما إلى الأعناق ، وقارون وأصحابه يتضرعون إلى موسى عليه السلام ويناشدونه بالله والرحم ، وموسى لا يلتفت إليهم لشدة غضبه ، ثم قال : خذيهما ، فانطلقت عليهما (١) . وأوحى الله إلى موسى : ما أظفك : استغاثوا بك مرارا فلم ترحمهم ، أما وعزتي لو إياي دعوا مرة واحدة لوجدوني قريبا مجيبا ، فأصبحت بنو إسرائيل يتناجون بينهم : إنما دعا موسى على قارون ليستبد بداره وكنوزه ، فدعا الله حتى خسف بداره وأمواله ﴿من المنتصرين﴾ من المنتقمين من موسى عليه السلام ، أو من الممتنعين من عذاب الله . يقال : نصره من عدوه فاتصر ، أى : منعه منه فامتنع .

(١) أخرجه عبدالرزاق والطبراني . من رواية علي بن زيد عن عبدالله بن الحارث بن نوفل الهاشمي . قال ، فذكره موقوفا . ووصله الحاكم بذكر ابن عباس . قال «لما أتى موسى قومه أمرهم بالزكاة لجمعهم قارون . فذكره باختصار . قوله وفي الأخبار والآثار ما يدل عليه ، يعنى وقوع الرعب في قلوب جميع الناس يوم الموقف يمكن أن يستدل به بحديث الشفاعة الطويل . ففى المتنق عليه عن أبي هريرة فى حديث الشفاعة قال «يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد فيصيرهم الناظر ويسمعهم الداعي وتدنو منهم الشمس ، فيبلغ الناس من النهم والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون . وفيه قول آدم وغيره : نفسى نفسى» وانفقا عليه من حديث أنس كذلك

وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآنَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ
لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مِنْ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَآنَهُ
لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾

قد يذكر الأماوس ولا يراد به اليوم الذي قبل يومك، ولكن الوقت المستقرب على طريق الاستعارة
(مكانه) منزلته من الدنيا (وى) مفصولة عن كان، وهى كلمة تنبيه على الخطأ وتندم. ومعناه:
أن القوم قد تنبها على خطيئهم فى تمنيهم وقولهم (يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون) وتندموا ثم
قالوا (كانه لا يفلح الكافرون) أى: ما أشبه الحال بأن الكافرين لا ينالون الفلاح، وهو مذهب
الخليل وسبويه. قال:

وَيِى كَأَنَّ مَنْ يَكُنْ لَهُ نَشَبٌ يُحْسِبُ وَمَنْ يَفْتَقِرُ يَعِشُ عَيْشَ ضُرٍّ ^(١)

وحكى الفراء أن أعرابية قالت لزوجها: أن ابنك؟ فقال: وى كأنه وراء البيت. وعند الكوفيين
أن «ويك» بمعنى: ويك، وأن المعنى ألم تعلم أنه لا يفلح الكافرون. ويجوز أن تكون الكاف
كاف الخطاب مضمومة إلى وى، كقوله:

* ... * وَيَكْ عَنَتْرُ أَقْدِمِ * ^(٢)

(١) سألتانى الطلاق أنت رأانا قل مالى قد جئتاني بنكر

وى كان من يكن له نشب يحسب ومن يفتقر يعش عيش ضر

ويجنب سر التجي ولكن أأما المال محضر كل سر

لويد بن عمرو بن نفيل القرشى. وقيل: لسعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة. وقيل: لنيه بن الحجاج بن
عامر، قتل كافراً يوم بدر. وسألتانى بقلب الهمة ألفاً للوزن، وهى لغة قليلة، والضمير لزوجتي، والطلاق
مفعول ثان، وأن رأانا: أى لرؤيتهما، وقيل: يحتمل أنه فعل ماض، فلا بد به من تقدير محذوف قبله به يتم
الكلام، أى: لأن رأأتانى قل مالى. أو لرؤيتهما أنى قل مالى. ويحتمل أنه اسم بمعنى قليل، ولا حذف فى
الكلام، فالمعنى: لأن رأانا قليل مالى، أى: مالى القليل، والتفت من الغيبة إلى خطابها بقوله: قد جئتاني بنكر،
أى: منك. وفيه معنى التعجب من حالها، و«وى»: اسم فعل للتعجب، وقيل: لفظة تيقظ وتندم، وكان:
لفظان أو للتحقيق، كما أجازوه الكوفيون، وهى مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. وقيل: لا اسم للمخففة.
والتعب: المال. ويمش عيش ضر، أى: يفيض. والنجى: بالتحديد. المناجى، أى: المتكلم بالسر.
ويجنب: مبنى للجھول. وسر: مفعوله الثانى. وأما المال: صاحب المال. ومحضر: اسم مفعول، وكل:
مفعوله الثانى.

(٢) ولقد شئى نفسى وأذهب سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

لعنرة بن شداد من معلقته. ويروى: وأبرأ سقمها. ويروى: وأذهب غمها. ويروى: قول، بدل: قيل. وكلاهما
مصدر. وويك: اسم فعل للتعجب، لكن لا يلائم البيت. وقيل: كلمة تنبيه، والكاف حرف خطاب. وقال =

وأنه معنى لآله، واللام لبيان المقول لأجله هذا القول، أو لأنه لا يفلح الكافرون كان ذلك، وهو الخسف بقارون، ومن الناس من يقف على (وى) ويبتدئ (كأنه) ومنهم من يقف على (وبك). وقرأ الأعمش: لولا من الله علينا. وقرئ: (لخسف بنا) وفيه ضمير الله. ولا نخسف بنا، كقولك: انقطع به. ولتخسف بنا.

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ ضُلُوكًا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا

وَالْمُؤْمِنِينَ ٨٣

(تلك) تعظيم لها وتفخيم لشأنها، يعني: تلك التي سمعت بذكركها وبلغك وصفها. لم يعلق الموعد^(١) بترك العلو والفساد، ولكن بترك إرادتهما وميل القلوب إليهما، كما قال: (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا) فعلق الوعيد بالركون. وعن علي رضي الله عنه: إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه، فيدخل تحتها^(٢). وعن الفضيل أنه قرأها ثم قال: ذهبت الأمانى ههنا^(٣). وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يرددها حتى قبض. ومن الطماع من يجعل العلو لفرعون، والفساد لقارون، متعلقا بقوله (إن فرعون علا في الأرض)، (ولا تبغ الفساد في الأرض) ويقول: من لم يكن مثل فرعون وقارون فله تلك الدار الآخرة، ولا يتدبر قوله (والعاقبة للمتقين) كما تدبره علي والفضيل وعمر.

==الكسائي: أصل «وبك»: وبك، فالكاف ضمير مجرور، لكن تبعد ملامته للبيت. وعن: منادى مرخم، وحسن الترخيم وحذف حرف النداء: أن المقام للاهتمام وسرعة الكلام، وأقدم: أي أقبل على العدو، لنمنا بأهله.

(١) قوله: «وقرئ»: لخسف بنا، يفيد أن القراءة المشهورة: لخسف، مبنيًا للجهول. (ع)

(٢) قوله: «لم يعلق الموعد»: نعله: الوعد. (ع)

(٣) أخرجه الطبري والواحدي من رواية وكيع عن أشعث السمان عن أبي سلام الأعرج عن علي بهذا موافقا

وإسناده ضعيف.

(٤) قال مجاهد: «لم يعلق الوعد بترك العلو والفساد ولكن بترك إرادتهما، كما قال تعالى (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسك النار)» فعلق الوعيد بالركون إلى الظلمة. وعن علي أن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله خيرا من شراك نعل أخيه فيدخل تحتها. وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يرددها حتى قبض. وعن الفضيل أنه قرأها وقال: ذهبت الأمانى ههنا. ومن الطماع من يجعل العلو لفرعون والفساد لقارون، لقوله (إن فرعون علا في الأرض) وقوله (ولا تبغ الفساد في الأرض) ويقول: من لم يكن مثل فرعون وقارون فله تلك الدار الآخرة، ولا يتدبر قوله (والعاقبة للمتقين) كما تدبرها علي وعمر والفضيل. قال أحمد: هو تعرض لنفس أهل السنة، فإن كل فرود من أهل الجنة، وإنما طمعوا حيث أطعمهم الله تعالى، بل وحقق طمعهم في رحمته حيث يقول رسوله عليه الصلاة والسلام: من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنى وإن سرق... ثلاثا، وفي الثالثة: وإن رغم أنف أبي ذر. اللهم اقم لنا من رجا. رحمتك ما نعصنا به من القنوط، ومن خفيتك ما نحول به بيننا وبين معاصيك، والله الموفق للصواب.

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا

السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

معناه : فلا يجزون ، فوضع (الذين عملوا السيئات) موضع الضمير ؛ لأن في إسناد عمل السيئة إليهم مكرراً . فضل تهجين لحالهم ، وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين (إلا ما كانوا يعملون) إلا مثل ما كانوا يعملون ، وهذا من فضله العظيم وكرمه الواسع أن لا يجزى السيئة إلا بمثلها ، ويجزى الحسنة بعشر أمثالها وبسبعائة ، وهو معنى قوله (فله خير منها) .

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ

بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾

(فرض عليك القرآن) أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه ، يعني : أن الذي حماك صعوبة هذا التكليف لمثيك عليها ثواباً لا يحيط به الوصف . و(لرادك) بعد الموت (إلى معاد) أى معاد ليس لغيرك من البشر وتذكير المعاد لذلك : وقيل . المراد به مكة : ووجهه أن يراد رده إليها يوم الفتح : ووجه تذكيره أنها كانت في ذلك اليوم معاداً له شأن ، ومر جماله اعتداد ؛ لغلبة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها ، وقهره لأهلها ، ولظهور عز الإسلام وأهله وذل الشرك وحزبه . والسورة مكية ، فكان الله وعده وهو بمكة في أذى وغلبة من أهلها : أنه مهاجرة منها ، ويعيده إليها ظاهراً ظافراً . وقيل : نزلت عليه حين بلغ الجحفة في مهاجرة . وقد اشتاق إلى مولده ومولد آبائه وحرم إبراهيم ، فنزل جبريل فقال له : أتشتاق إلى مكة؟ قال : نعم ، فأوحاها إليه . فإن قلت : كيف اتصل قوله تعالى (قل ربى أعلم) بما قبله ؟ قلت : لما وعد رسوله الرد إلى معاد ، قال : قل للمشركين : (ربى أعلم من جاء بالهدى) يعنى نفسه وما يستحقه من الثواب في معاده (ومن هو في ضلال مبين) يعنهم وما يستحقونه من العقاب في معادهم .

وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُبَلِّغَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ

ظَاهِرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾

فإن قلت : قوله (إلا رحمة من ربك) ما وجه الاستثناء فيه ؟ قلت : هذا كلام محمول على المعنى ، كأنه قيل : وما ألقى عليك الكتاب إلا رحمة من ربك . ويجوز أن يكون إلا بمعنى لكن للاستدراك ، أى : ولكن لرحمة من ربك ألقى إليك .

وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ وَأَذْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾

وفرى: يصدك، من أصدته بمعنى صدته، وهى فى لغة كلب. وقال:

أَنَا مَصْدُوقُ النَّاسِ بِالسَّهْفِ عَنْهُمْ
صُدُّوا السَّوَابِ عَنْ أَنْوَافِ الْخَوَائِمِ^(١)
(بعد إذ أنزلت إليك) بعد وقت إنزاله^(٢). وإذ تضاف إليه أسماء الزمان، كقولك: حينئذ وليلتذ ويومئذ وما أشبه ذلك. والنهى عن مظاهر الكافرين ونحو ذلك من باب التهيج الذى سبق ذكره.

وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَآخَرَ لِإِلَهِ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

(إلا وجهه) إلا إياه. والوجه يعبر به عن الذات.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ طسم القصص كان له الأجر بعدد من صدق موسى وكذب به، ولم يبق ملك فى السموات والأرض إلا شهد له يوم القيامة أنه كان صادقا أن كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون،^(٣).

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثانى صفحة ٥٣٨ فراجع إن شئت اه مصححه .

(٢) قوله « بعد وقت إنزاله » لعله : إنزالها . (ع)

(٣) أخرجه الثعلبى وابن مردويه . والواحدى من حديث أبى بن كعب بأسانيدهم المتقدم ذكرها .

سورة العنكبوت

مكية [إلا من آية ١ إلى غاية آية ١١ فمدنية]

وآياتها ٦٩ [نزلت بعد الروم]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ١ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ٢

وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ٣

الحسبان لا يصح تعليقه بمعاني المفردات ، ولكن بمضامين الجمل . ألا ترى أنك لو قلت : حسبت زيدا وظننت الفرس : لم يكن شيئا حتى تقول : حسبت زيدا عالما : وظننت الفرس جوادا ، لأن قولك : زيد عالم ، أو الفرس جواد : كلام دال على مضمون ، فأردت الإخبار عن ذلك المضمون ثابتا عندك على وجه الظن لا اليقين ، فلم تجد بدا في العبارة عن ثباته عندك على ذلك الوجه ، من ذكر شطرى الجملة مدخلا عليهما فعل الحسبان ، حتى يتم لك غرضك . فإن قلت : فأين الكلام الدال على المضمون الذى يقتضيه الحسبان في الآية ؟ قلت : هو في قوله (أن يتركوا) أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) وذلك أن تقديره : أحسبوا تركهم غير مفتونين ، لقولهم : آمنا ، فالترك أول مفعولى حسب : ولقولهم : آمنا ، هو الخبر . وأما غير مفتونين ، فتسمة الترك ، لأنه من الترك الذى هو بمعنى التصيير ، كقوله :

* فَتَرَكْتُهُ جَزَرَ السَّيَّاحِ يَنْشَنُهُ * (١)

ألا ترى أنك قبل المجيء بالحسبان ، تقدر أن تقول : تركهم غير مفتونين ، لقولهم : آمنا ، على تقدير : حاصل ومستقر ، قبل اللام . فإن قلت : (أن يقولوا) هو علة تركهم غير مفتونين ، فكيف يصح أن يقع خبر مبتدأ ؟ قلت : كما تقول خروجه لمخافة الشر ، وضربه للتأديب . وقد كان التأديب والمخافة في قولك : خرجت مخافة الشر ، وضربته تأديبا : تعليلين . وتقول أيضا : حسبت خروجه لمخافة الشر ، وظننت ضربه للتأديب ، فتجعلهما مفعولين كما جعلتهما مبتدأ

وخبراً . والفتنة : الامتحان بشدائد التكليف : من مفارقة الاوطان ، ومجاهدة الأعداء ، وسائر الطاعات الشاقة ، وهجر الشهوات والملاذ ، وبالفقر ؛ والقحط ، وأنواع المصائب في النفس والأموال . وبمصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم وضراهم . والمعنى : أحسب الذين أجروا كلمة الشهادة على ألسنتهم وأظهروا القول بالإيمان : أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين ، بل يمحهم الله بضروب المحن ، حتى يبلو صبرهم ، وثبات أقدامهم ، وصحة عقائدهم ، ونصوح نياتهم ، ليميز المخلص من غير المخلص ، والراسخ في الدين من المضطرب ، والمتمكن من العابد على حرف ، كما قال (لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) وروى أنها نزلت في ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جزعوا من أذى المشركين . وقيل في عمار بن ياسر : وكان يعذب في الله . وقيل : في ناس أسلبوا بمكة ، فكتب إليهم المهاجرون : لا يقبل منكم إسلامكم حتى تهاجروا ، فخرجوا فاتبعهم المشركون فردوهم ، فلما نزلت كتبوا بها إليهم : فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلوهم ، فنهزم من قتل ومنهم من نجا . وقيل : في مهجع بن عبد الله مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهو أول قتيل من المسلمين يوم بدر ، رماه عامر بن الحضرمي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سيد الشهداء مهجع ، وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة ^(١) ، فخرج عليه أبواه وامرأته (ولقد فتننا) موصول بأحسب أو بلا يفتنون ، كقولك : ألا يمتحن فلان وقد امتحن من هو خير منه ، يعنى : أن أتباع الأنبياء عليهم السلام قبلهم ، قد أصابهم من الفتن والمحن نحو ما أصابهم . أو ما هو أشد منه فصبروا ، كما قال : (وكان من نبي قتل معه ربيون كثير فما وهنوا ... الآية) وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « قد كان من قبلكم يؤخذ فيوضع المنشار على رأسه فيفرق فرقتين ، ما يصرفه ذلك عن دينه ؛ ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، ^(٢) (فليعلن الله) بالامتحان (الذين صدقوا) في الإيمان (وليعلن الكاذبين) فيه . فإن قلت : كيف وهو عالم بذلك فيما لم يزل ؟ قلت : لم يزل يعلمه معدوما ، ولا يعلمه موجوداً إلا إذا وجد ^(٣) ، والمعنى :

(١) ذكره الثعلبي عن مقاتل قال : نزلت هاتان الآيتان في مهجع بن عبد الله مولى عمر ، كان أول من قتل من المسلمين يوم بدر ، رماه عامر بن الحضرمي بسهم فقتله . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : سيد الشهداء مهجع وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة . وسنده إلى مقاتل في أول كتابه . وفي الدلائل لابن أبي شيبة من طريق القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود قال : « أول من استشهد يوم بدر مهجع مولى عمر » ،

(٢) أخرجه البخاري من حديث خباب بن الارت به ، وأتم منه .

(٣) قال محمود : « إن قلت هو لم يزل يعلم الصادقين والكاذبين قبل الامتحان ، فإوجه هذا الكلام ؟ قلت : لم يزل يعلمه معدوماً ولا يعلمه موجوداً إلا إذا وجد » قال أحمد : فيها ذكر إيهام بذهب فاسد ، =

وليتميزن الصادق منهم من الكاذب . ويجوز أن يكون وعداً ووعداً ، كأنه قال : وايتبين الذين صدقوا وليعاقبن الكاذبين . وقرأ على رضى الله عنه والزهرى : وليعلنن ، من الإعلام ، أى : وليعرفنهم الله الناس من هم . أو ليسمنهم بعلامة يعرفون بها من يياض الوجوه وسوادها ، وكل العيون وزرقتها .

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾

(أن يسبقونا) أن يفوتونا ، يعنى أن الجزاء يلحقهم لا محالة ، وهم لم يطمعوا فى الفوت ، ولم يحدثوا به نفوسهم ، ولكنهم لغفلتهم وقلة فكرهم فى العاقبة وإصرارهم على المعاصى : فى صورة من يقدر ذلك ويطمع فيه . ونظيره (وما أتم بمعجزين فى الأرض) ، (ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا) . فإن قلت : أين مفعولاً ، حسب ، ؟ قلت : اشتغال صلة أن على مسند ومسند إليه سد مسد المفعولين ؛ كقوله تعالى (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة) ويجوز أن يضمن حسب معنى قدر وأم منقطعة . ومعنى الإضراب فيها : أن هذا الحساب أبطل من الحساب الأول ، لأن ذاك يقدر أنه لا يمتحن لإيمانه ، وهذا يظن أنه لا يجازى بمساويه (ساء ما يحكمون) بش الذى يحكمونه حكمهم هذا . أو بدس حكما يحكمونه حكمهم هذا ، لحذف الخصوص بالذم .

مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾

لقاء الله : مثل للوصول إلى العاقبة ، من تلقى ملك الموت ، والبعث ، والحساب ، والجزاء : مثلت تلك الحال بحال عبد قدم على سيده بعد عهد طويل ، وقد اطلع مولاه على ما كان يأتى ويذر ، فإذا أن يلقاه ببشر وترحيب لما رضى من أفعاله ، أو بضد ذلك لما سخطه منها ، فعنى قوله (من كان يرجو لقاء الله) : من كان يأمل تلك الحال . وأن يلقى فيها الكرامة من الله والبشر (فإن أجل الله) وهو الموت (لآت) لا محالة ؛ فليبادر العمل الصالح الذى يصدق رجاءه ، ويحقق أمله ، ويكتسب به القرية عند الله والرفق (وهو السميع العليم) الذى لا يخفى عليه شئ . مما يقوله عباده وبما يفعلونه ، فهو حقيق بالتقوى والخشية . وقيل (يرجو) : يخاف من قول الهذلى فى صفة عسال :

== وهو اعتقاد أن العلم بالكائن غير العلم بأن سيكون . والحق أن علم الله تعالى واحد يتعلق بالموجود زمان وجوده وقبله وبعده على ما هو عليه ، وفائدة ذكر العلم هنا وإن كان سابقاً على وجود المعلوم : التنبيه بالسبب على المسبب وهو الجزاء ، كأنه قال تعالى : لتعلمنهم فلنجازينهم بحسب عمله فيهم ، والله أعلم .

﴿ إِذَا لَسَعَتْهُ الدَّبْرُ لَمْ يَرْجُ كَسْعَهَا ﴾ ^(١)

فإن قلت : فإن أجل الله لآت ، كيف وقع جوابا للشرط ؟ قلت : إذا علم أن لقاء الله عنيت به تلك الحال الممثلة والوقت الذى تقع فيه تلك الحال هو الأجل المضروب للبوت : فكانه قال : من كان يرجو لقاء الله فإن لقاء الله لآت ، لأن الأجل واقع فيه اللقاء ، كما تقول : من كان يرجو لقاء الملك فإن يوم الجمعة قريب ، إذا علم أنه يقعد للناس يوم الجمعة .

﴿ وَمَنْ جَاهِدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٢)

(ومن جاهد) نفسه فى منعها ما تأمر به وحملها على ما تأباه (فإنما يجاهد) لها ، لأن منفعة ذلك راجعة إليها ، وإنما أمر الله عز وجل ونهى ، رحمة لعباده وهو الغنى عنهم وعن طاعتهم .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ

أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ^(٣)

إما أن يريد قوماً مسلمين صالحين قد أساءوا فى بعض أعمالهم وسيئاتهم مغفورة بحسناتهم فهو يكفرها عنهم ، أى يسقط عقابها بثواب الحسنات ويجزيهم أحسن الذى كانوا يعملون ، أى : أحسن جزاء أعمالهم : وإما قوماً مشركين آمنوا وعملوا الصالحات ، فأنه عز وجل يكفر سيئاتهم بأن يسقط عقاب ما تقدم لهم من الكفر والمعاصى ويجزيهم أحسن جزاء أعمالهم فى الإسلام ^(٤) .

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ

عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ^(٥)

(١) إذا لسعته الدبر لم يرج لسعها وحالفها فى بيت نوب عواسل

لابى ذؤيب ، يصف عسالا يحتجى العمل : بأنه إذا لسعته الدبر - بالفتح والكسر - : ذكر النحل والزباير . وروى كذلك : لم يرج ، أى : لم يخف لسعها إذا أرادت لسعه . أو لسعته بالفعل لم يخف من مثله ، أو لم يرتقبه ويعتنى به ، وحالفها : أى لازمها . وروى بالمعجمة ، أى : خالف مرادها . أو جاء خلفها بعد أن خرجت نزعها . والنوب : ضرب من النحل واحد نائب ؛ لأنه يذهب إلى بيته نوبة بعد نوبة ، عواسل : كثيرة القسل . وروى : عواسل ، بالميم لأنها تعمل القسل .

(٢) قال محمود : « المراد هؤلاء أحد فريقين : إما قوم مسلمون سيئاتهم صفائر مغفورة بالحسنات ، وإما قوم آمنوا وعملوا الصالحات بعد كفر فالإسلام يجب ما قبله » قال أحمد : حجر واسعاً من رحمة الله تعالى ، بناء على أصله الفاسد فى وجوب الوعيد على مرتكب السيئات الكبائر لا بالنوبة ، وأطلق تكفير الصفائر وإن لم تكن نوبة إذا غمرتها الحسنات ، وكلا الأصلين قدرى يختب ، والله الموفق .

«وصى، حكمه حكم، أمر، في معناه وتصرفه. يقال: وصيت زيدا بأن يفعل خيراً، كما تقول: أمرته بأن يفعل. ومنه بيت الإصلاح:

وَذُبِّيْصَانِيَّةٌ وَصَّتْ بَيْنَهُمَا بِأَنْ كَذَبَ الْقَرَّاطِفُ وَالْقُرُوفُ^(١)

كما لو قال: أمرتهم بأن ينتهبوها. ومنه قوله تعالى (ووصى بها إبراهيم بنيه) أى وصاهم بكلمة التوحيد وأمرهم بها، وقولك: وصيت زيدا بعمره، معناه: وصيته بتعهد عمره ومراعاته ونحو ذلك. وكذلك معنى قوله (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً): وصيناه بإيتاء والديه حسناً، أو بإيلاء والديه حسناً؛ أى: فعلاً ذا حسن. أو ما هو في ذاته حسن لفرط حسنه، كقوله تعالى (وقولوا للناس حسناً) وقرئ: حسناً. وإحساناً. ويجوز أن تجعل (حسناً) من باب قولك: زيدا، بإضمار «اضرب»، إذا رأيته متهيباً للضرب، فتتصبه بإضمار أولها. أو أفعال بهما، لأن التوصية بهما دالة عليه، وما بعده مطابق له، كأنه قال: قلنا أو لهما معروفاً (لا تطعهما) في الشرك إذا حملك عليه. وعلى هذا التفسير إن وقف على (بوالديه) وابتدأ (حسناً) حسن الوقف، وعلى التفسير الأول لابد من إضمار القول، معناه: وقلنا إن جاهدك أيها الإنسان (ما ليس لك به علم) أى لا علم لك بإلهيته. والمراد بنى العلم: نفي المعلوم، كأنه قال: لتشرك بى شيئاً لا يصح أن يكون لهما ولا يستقيم: وصاه بوالديه وأمره بالإحسان إليهما، ثم نبه بنيه عن طاعتهم إذا أراداه على ما ذكر، على أن كل حق وإن عظم ساقط إذا جاء حق الله، وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ثم قال: إلى مرجع من آمن منكم ومن أشرك، فأجازيكم حق جزائكم. وفيه شيان، أحدهما: أن الجزاء إلى، فلا تحدث نفسك بجفوة والديك وعقوقهما لشركهما، ولا تحرمهما برك ومعروفك في الدنيا، كما أتى لا أمنعهما رزق. والثاني: التحذير من متابعتهم على الشرك، والحث على الثبات والاستقامة في الدين بذكر المرجع والوعيد. روى أن سعد بن أبي وقاص الزهري رضى الله عنه حين أسلم قالت أمه - وهى حنثة بنت أبي سفيان بن أمية بن عبد شمس -: يا سعد، بلغنى أنك قد صبأت، فوالله لا يظننى سقف بيت من الضح^(٢)

(١) لمقر بن حمار البارقى، أنه قد ابن السكيت في كتابه المسمى: إصلاح المنطق، أى: امرأة منسوبة إلى قبيلة ذبيان وصت بניה. وأن مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، وخبرها: كذب، وهو قد يكون بمعنى وجب كما في الصحاح، وفي الحديث: ثلاثة أسفار كذب عليكم، أى: وجبن. وعن عمر رضى الله عنه: كذب عليكم الحج، أى وجب. وفي الكلام معنى الحث والاعراض. والقراطيف: جمع قرطف، وهو القطيفة المخلعة. والقروف: أوعية من آدم يجعل فيها اللحم المشوى. والقرف: بالكسر -: المقشر. والقرفة: فشر يدأوى به. والقرف - بالفتح - وعاء من جلد يدبغ بالقرفة. واقرف، واقرب: متقاربان لفظاً ومعنى، أى: وصتهم باغتنامها وحفظها معهم.

(٢) قوله «من الضح» في الصحاح «الضح»: الشمس. وفي الحديث: «لا يقدف أحدكم بين الضح والظل، فإنه مقعد الشيطان» اه. (ع)

والرج ؛ وإن الطعام والشراب على حرام حتى تكفر بمحمد - وكان أحبّ ولدها إليها - فأبى سعد وبقيت ثلاثة أيام كذلك ، فجاء سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا إليه ، فنزلت هذه الآية والتي في لقمان والتي في الاحقاف ، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يداريها ويترضاها بالإحسان ^(١) . وروى أنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي ، وذلك أنه هاجر مع عمر بن الخطاب رضى الله عنهما مترافقين حتى نزلا المدينة ^(٢) ، فخرج أبو جهل بن هشام والحريث بن هشام - أخواه لأمه أسماء بنت مخزومة : امرأة من بني تميم من بني حنظلة - فنزلا بعياش وقالاه : إن من دين محمد صنة الأرحام وبر الوالدين ، وقد تركت أمك لا تطعم ولا تشرب ولا تأوى بيتا حتى تراك ، وهى أشد حبا لك منا فخرج معنا ، وقتلناه في الذروة والغارب ^(٣) فاستشار عمر رضى الله عنه فقال : هما يخدعاك ، ولك على أن أقسم مالى بينى وبينك ، فما زال به حتى أطاعهما وعصى عمر ، فقال له عمر : أما إذ عصيتى فخذ ناقتى ، فليس فى الدنيا يعير يلحقها ، فإن رابك منهما ريب فارجع ، فلما انتهوا إلى اليبداء قال أبو جهل : إن ناقتى قد كلت فاحلنى معك . قال : نعم ، فنزل ليوطى لنفسه وله ، فأخذه وشده وثاقا ، وجلده كل واحد منهما مائة جلدة ، وذهبا به إلى أمه فقالت : لا تزال فى عذاب حتى ترجع عن دين محمد ، فنزلت :

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾

﴿ فى الصالحين ﴾ فى جملتهم . والصلاح من أبلغ صفات المؤمنين ، وهو متغنى أنبياء الله . قال الله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام (وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) وقال فى إبراهيم عليه السلام : (وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) أو فى مدخل الصالحين وهى الجنة ، وهذا نحوه قوله تعالى (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم) الآية .

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ

(١) ذكره الواحدي والعلبي والواقدي هكذا بغير سند والقصة فى صحيح مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص بغير هذا السياق .

(٢) تقدم الكلام عليه فى سورة النساء وهذا السياق أورده الثعلبي عن مقاتل وسنده إليه فى أول كتابه ، وأخرجه ابن إسحاق فى المغازى ومن طريقه البزار قال : حدثني نافع عن ابن عمر عن عمر مطولا .

(٣) قوله « وقتلناه فى الذروة والغارب » فى الصحاح : مازال فلان يقتل من فلان فى الذروة والغارب ، أى : يدور من وراء خديعته . (ع)

بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ

الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾

هم ناس كانوا يؤمنون بألسنتهم ، فإذا مسهم أذى من الكفار وهو المراد بفتنة الناس ، كان ذلك صارفا لهم عن الإيمان ، كما أن عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر . أو كما يجب أن يكون عذاب الله صارفا . وإذا نصر الله المؤمنين وغنمهم اعترضوهم وقالوا ﴿ إنا كنا معكم ﴾ أى مشايعين لكم فى دينكم ، ثابتين عليه ثباتكم ، ما قدر أحد أن يفتننا ، فأعطونا نصيبنا من المغنم . ثم أخبر سبحانه أنه أعلم ﴿ بما فى صدور العالمين ﴾ من العالمين بما فى صدورهم ، ومن ذلك ما شكك صدور هؤلاء من النفاق . وهذا إطلاع منه للمؤمنين على ما أبطنوه ، ثم وعد المؤمنين وأوعد المنافقين . وقرئ : ليقولن ، بفتح اللام .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا يُبْخِلُكُمْ بِخَبْرٍ مِنْ خَطَايَكُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

أمروهم باتباع سبيلهم وهى طريقهم التى كانوا عليها فى دينهم ، وأمروا أنفسهم بحمل خطاياهم فمطلف الأمر على الأمر ، وأرادوا : ليجتمع هذان الأمران فى الحصول أن تتبعوا سبيلنا وأن تحمل خطاياكم . والمعنى : تعليق الحمل بالاتباع ، وهذا قول صناديد قريش : كانوا يقولون لمن آمن منهم : لا نبعث نحن ولا أتم ، فإن عسى كان ذلك فإننا نتحمل عنكم الإثم . ونرى فى المتسمين بالإسلام من يستن بأولئك فيقول لصاحبه - إذا أراد أن يشجعه على ارتكاب بعض العظائم - : افعل هذا وإثمه فى عنق . وكمن مغرور بمثل هذا الضمان من ضعة العامة وجهلهم . ومنه ما يحكى أن أبا جعفر المنصور رفع إليه بعض أهل الحشوحوائجه ، فلما قضاها قال : يا أمير المؤمنين ، بقيت الحاجة العظمى . قال : وما هى ؟ قال شفاعتك يوم القيامة ، فقال له عمرو بن عبيد رحمه الله : إياك وهؤلاء ، فإنهم قطاع الطريق فى المسأمن ^(١) . فإن قلت : كيف سماهم

(١) قال محمود : وبعض المتسمين بالإسلام إذا أراد أن يجمع صاحبه على ذنب قال له : افعل هذا وإثمه فى عنق . ومنه ما يحكى أن رجلا رفع إلى المنصور حوائجه فلما قضاها ، قال يا أمير المؤمنين ، بقيت لى إليك حاجة هى العظمى . قال : وما هى ؟ قال : شفاعتك فى المحشر . فقال عمرو : يا أمير المؤمنين ، إياك وهؤلاء . فهم قطاع الطريق فى المسأمن . قال أحمد : عمرو بن عبيد أول القدرة المنكرين للشفاعة فاحذره ، وليست الآية مطابقة للحكاية ، ولكن الرغشى يبنى على أنه لا فرق بين اعتقاد الشفاعة واعتقاد أن الكفار يحملون خطايا أنبائهم ، =

كاذبين ، وإنما ضمنوا شيئاً علم الله أنهم لا يقدرُونَ على الوفاء به ، وضامن ما لا يعلم اقتداره على الوفاء به ، لا يسمى كاذباً لآحين ضمن ولا حين عجز ، لأنه في الحالين لا يدخل تحت حد الكاذب وهو المخبر عن الشيء لا على ما هو عليه ؟ قالت : شبه الله حالهم حيث علم أن ما ضمنوه لا طريق لهم إلى أن يفيوا به ، فكان ضمنانهم عنده لا على ما عليه المضمون بالكاذبين الذين خبرهم لا على ما عليه المخبر عنه . ويجوز أن يريد أنهم كاذبون ، لأنهم قالوا ذلك وقلوبهم على خلافه ، كالكاذبين الذين يعدون الشيء وفي قلوبهم نية الخلف (وليحملن أنقلاهم) أى أنقال أنفسهم (وأنقالا) بمعنى أنقالا آخر غير الخطايا التي ضمنوا للتؤمنين حملها ، وهى أنقال الذين كانوا سبباً في ضلالهم (وليسئلن) سؤال تفريع (عما كانوا يفترُونَ) أى يختلفون من الأكاذيب والآباطيل . وقرئ : من خطيئاتهم .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَخَّضَ الْسَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا عَابَةً

لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾

كان عمر نوح عليه السلام ألفاً وخمسين سنة ، بعث على رأس أربعين ، ولبث في قومه تسعمائة وخمسين ، وعاش بعد الطوفان ستين . وعن وهب : أنه عاش ألفاً وأربعمائة سنة . فإن قلت : هلا قيل تسعمائة وخمسين سنة ؟ قلت : ما أورده الله أحكم . لأنه لو قيل كما قلت ، لجاز أن يتوهم إطلاق هذا العدد على أكثره ، وهذا التوهم زائل مع بجهته كذلك ، وكأنه قيل : تسعمائة وخمسين سنة كاملة وافية العدد ، إلا أن ذلك أخصر وأعذب لفظاً وأملأ بالفائدة (١) ، وفيه نكتة أخرى : وهى أن القصة مسوقة لذكر ما ابتلى به نوح عليه السلام من أقمته وما كابدته من طول المصابرة ، تسلياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتثبيتاً له ، فكان ذكر رأس العدد الذى لا رأس أكثر منه ، أوقع وأوصل إلى الغرض من استطالة السامع مدة صبره . فإن قلت : فلم جاء المميز أولاً بالسنة وثانياً بالعام ؟ قلت : لأن تكرير اللفظ الواحد في الكلام الواحد

== فذلك ساقهما مساقاً واحداً نعوذ بالله من ذلك . وفي قوله تعالى : (إنهم لكاذبون) نكتة حسنة يستدل بها على صحة مجيئ الأمر بمعنى الخبر ، فإن من الناس من أنكره والتزم تخريج جميع ما ورد في ذلك على أصل الأمر ، ولم يتم له ذلك في هذه الآية ، لأن الله تعالى أردف قولهم : ولنحمل خطاياكم ، على صيغة الأمر بقوله (إنهم لكاذبون) والتكذيب إنما يتطرق إلى الأخبار .

(١) قال محمود : ودل عن تسعمائة وخمسين لأنه يحتمل فيه إطلاق العدد على أكثره بخلاف مجيئه مع الاستثناء ، قال أحمد : لأن الاستثناء استدراك ورجوع على الجملة بالتنقيص ، تحريراً للعدد ، فلا يحتمل المبالغة لأنها لا يجوز معها العدد .

حقيق بالاجتناب في البلاغة ، إلا إذا وقع ذلك لأجل غرض ينتجيه المتكلم من تفخيم أو تهويل^(١) أو تنويه أو نحو ذلك . و (الطوفان) ما أطاف وأحاط بكثرة وغلبة ، من سيل أو ظلام ليل أو نحوهما . قال المعجاج :

• وَغَمَّ طُوفَانُ الظَّلَامِ الْأَنَابَا •^(٢)

(أصحاب السفينة) كانوا ثمانية وسبعين نفساً : نصفهم ذكور ، ونصفهم إناث ، منهم أولاد نوح عليه السلام : سام ، وحام ، ويافث ، ونساؤهم . وعن محمد بن إسحق : كانوا عشرة . خمسة رجال وخمس نسوة . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم كانوا ثمانية : نوح وأهله وبنوه الثلاثة ،^(٣) والضمير في (وجعلناها) للسفينة أو للحادثة والقصة .

وَإِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَهُهُ تُرْجَمُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ

وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾

نصب (إبراهيم) بإضمار اذكر ، وأبدل عنه (إذ) بدل الاشتغال ؛ لأن الاحيان تشتمل على ما فيها . أو هو معطوف على (نوحا) وإذ ظرف لأرسلنا ، يعني : أرسلناه حين بلغ من السن والعلم مبلغا صلح فيه لأن يعظ قومه وينصحهم ويعرض عليهم الحق ويأمرهم بالعبادة والتقوى

(١) عاد كلامه . قال : وفيه نكتة أخرى ، وهي أن القصة مسوقة لذكر ما ابتلى به نوح وكابده من طول المصابرة ، تسلية له عليه السلام فكان ذكر رأس العدد الذي لا رأس أكثر منه أوقع على الغرض . قال : وإنما خالف بين اللفظين فذكر في الأول السنة وفي الثاني العام ، تجنباً للتكرار الذي لا يحمده إلا لقصد تفخيم أو تعظيم ، قال أحمد : ولو علم المستقلى لعاد ذلك ببعض تفخيم المستقلى منه وتكثيره عند السامع ، والله أعلم .

(٢) حتى إذا ما يومها تصيبا وعم طوفان الظلام الأنابا

للمعجاج يصف بكرة وحشية . وما : زائدة . ويروى : عم ، بالمهمله وبالمهملة ، والمعنيين متقاربين . والطوفان : كل ما طاف حول الشيء . وأحاط به من ظلام أو ماء أو نحوهما . والأناب : نوع من الفجر يشبه شجر التين ، الواحدة : أنابة ونسبة التصيب لليوم : مجاز عقل من باب الاستاد للزمان . أو على تقدير التمييز ، أى : تصيب مطراً ، وسعر ظلامه الشجر الذي كانت فيه .

(٣) تقدم في هود

وقرأ إبراهيم النخعي وأبو حنيفة رحمهما الله . وإبراهيم ، بالرفع على معنى : ومن المرسلين إبراهيم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعنى : إن كان فيكم علم بما هو خير لكم مما هو شر لكم . أو إن فطرتم بعين الدراية المبصرة دون عين الجهل العمياء : علمتم أنه خير لكم : وقرئ : تخلقون من خلق بمعنى التكثير فى خلق . وتخلقون ، من تخلق بمعنى تكذب وتخترص . وقرئ : إفكا ، فيه وجهان : أن يكون مصدرا ، نحو : كذب ولعب . والإفك : مخفف منه ، كالكذب واللعب من أصلهما ، وأن يكون صفة على فعل ، أى خلقا إفكا ، أى ذا إفك وباطل . واختلاقهم الإفك : تسميتهم الاوثان آلهة وشركاء لله أو شفعاء إليه . أو سمى الأصنام : إفكا ، وعلمهم لها ونحتهم : خلقا للإفك . فإن قلت : لم نكر الرزق ثم عرفه ؟ قلت : لأنه أراد لا يستطيعون أن يرزقوك شيئا من الرزق ، فابتغوا عند الله الرزق كله . فإنه هو الرزاق وحده لا يرزق غيره ﴿إِلَيْهِ تَرْجِعُونَ﴾ وقرئ : بفتح التاء ، فاستعدوا للقاءه بعبادته والشكر له على أنعمه ، وإن تكذبوننى فلا تضرونى بتكذيبكم ، فإن الرسل قبل قد كذبهم أمهم ، وما ضروهم وإنما ضروا أنفسهم ، حيث حل بهم ما حل بسبب تكذيب الرسل : وأما الرسول فقد تم أمره حين بلغ البلاغ المبين الذى زال معه الشك ، وهو اقترانه بآيات الله ومعجزاته . أو : وإن كنت مكذبا فيما بينكم فلي فى سائر الأنبياء أسوة وسلوة حيث كذبوا ، وعلى الرسول أن يبلغ وما عليه أن يصدق ولا يكذب ، وهذه الآية والآيات التى بعدها إلى قوله (فما كان جواب قومه) محتملة أن تكون من جملة قول إبراهيم صلوات الله عليه لقومه ، وأن تكون آيات وقعت معترضة فى شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وشأن قريش بين أول قصة إبراهيم وآخرها . فإن قلت : إذا كانت من قول إبراهيم فما المراد بالأم قبله ؟ قلت : قوم شيث وإدريس ونوح وغيرهم ، وكفى بقوم نوح أمة فى معنى أمة جمعة مكذبة ، ولقد عاش إدريس ألف سنة فى قومه إلى أن رفع إلى السماء . وأمر به ألف إنسان منهم على عدد سنه . وأعقابهم على التكذيب .

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾
قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ
إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ
تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ
دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾

فإن قلت : فما تصنع بقوله (قل سيروا في الأرض) ؟ قلت : هي حكاية كلام حكام إبراهيم عليه السلام لقومه ، كما يحكي رسولنا صلى الله عليه وسلم كلام الله على هذا المنهاج في أكثر القرآن فإن قلت : فإذا كانت خطاباً لقريش فما وجه توسطهما بين قصة إبراهيم والجملة ؟ أو الجمل الاعتراضية لا بد لها من اتصال بما وقعت معترضة فيه ؟ ألا تراك لا تقول : مكة - وزيد أبوه قائم - خير بلاد الله ؟ قلت : إيراد قصة إبراهيم ليس إلا لإرادة للتنفيس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن تكون مسلاة له ومتفرجا بأن أباه إبراهيم خليل الله كان ممنوا بنحو مامنى^(١) به من شرك قومه وعبادتهم الأوثان ، فاعترض بقوله : وإن تكذبوا ، على معنى إنكم بامعشر قريش إن تكذبوا محمداً فقد كذب إبراهيم قومه وكل أمة نبيها ؛ لأن قوله (فقد كذب أمم من قبلكم) لا بد من تناوله لأمة إبراهيم ، وهو كما ترى اعتراض واقع^(٢) متصل ، ثم سائر الآيات الواطئة عقبها من أذياها وتوابعها ، لكونها ناطقة بالتوحيد ودلائله ، وهدم الشرك وتوهين قواعده ، وصفة قدرة الله وسلطانه ، ووضوح حجته وبرهانه . قرئ (يروا) بالياء والتاء . ويبدى ويبدأ . وقوله (ثم يعيده) ليس بمعطوف على يبدى ، وليست الرؤية واقعة عليه ، وإنما هو إخبار على حياله بالإعادة بعد الموت ، كما وقع النظر في قوله تعالى : (فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة) على البدء دون الإنشاء ، ونحوه قولك : مازلت أوتر فلانا وأستخلفه على من أخلفه^(٣) . فإن قلت : هو معطوف بحرف العطف ، فلا بد له من معطوف عليه ، فما هو ؟ قلت : هو جملة قوله (أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق) وكذلك : وأستخلفه ، معطوف على جملة قوله : مازلت أوتر فلانا (ذلك) يرجع إلى ما يرجع إليه هو في قوله (وهو أهون عليه) من معنى يعيد . دل بقوله (النشأة الآخرة) على أنهما نشأتان ، وأن كل واحدة منهما إنشاء ، أى : ابتداء واختراع ، وإخراج من العدم إلى الوجود ، لا تفاوت بينهما إلا أن الآخرة إنشاء بعد إنشاء مثله ، والأولى ليست كذلك . وقرئ : النشأة والنشأة ، كالرأفة والرأفة . فإن قلت : مامنى الإفصاح باسمه مع إيقاعه مبتدأ في قوله (ثم الله ينشئ النشأة الآخرة) بعد إضماره في قوله : كيف بدأ الخلق ؟

(١) قوله «كان ممنوا بنحو مامنى به» أى : مبتلى . في الصحاح : منوته ومنيته ، إذا ابتليته . (ع)

(٢) قوله «وهو كما ترى اعتراض واقع» لعله : واقع موقعه . (ع)

(٣) قال محمود : «يعيده ليس معطوفاً على يبدى» ، وإنما هو إخبار على حياله ، كما وقع (كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة) كقولك مازلت أوتر فلانا وأستخلفه بعدى . قال أحمد : وقد تقدم له عند قوله تعالى (أمن يبدئ الخلق ثم يعيده) أنه معطوف ، وصحح العطف - وإن كانوا يشكرون الإعادة - لأن الاعتراف بها لازم لهم ، وقد أبى هنا جملة معطوفاً ، فالفرق والله أعلم أنه هنا لوعطف الإعادة على البداية لدخلت في الرؤية الماضية ، وهي لم تقع بعد ، ولا كذلك في آية التل ، ولقائل أن يقول : هي وإن لم تقع ، إلا أنها بإخبار الله تعالى بوقوعها كالواقعة المربية ، فصولت معاملة ما روى وشوهد إلا أن جعله خبراً ثانياً أوضح ، والله أعلم .

وكان القياس أن يقال: كيف بدأ الله الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة؟ قلت: السلام معهم كان واقعاً في الإعادة، وفيها كانت تصطك الركب، فلما قررهم في الإبداء بأنه من الله، احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء، فإذا كان الله الذي لا يعجزه شيء هو الذي لم يعجزه الإبداء، فهو الذي وجب أن لا تعجزه الإعادة^(١)، فكانه قال: ثم ذاك الذي أنشأ النشأة الأولى هو الذي ينشئ النشأة الآخرة، فللدلالة والتنبيه على هذا المعنى أبرز اسمه وأوقعه مبتدأ ﴿يعذب من يشاء﴾ تعذيبه ﴿ويرحم من يشاء﴾ رحمته، ومتعلق المشيئين مفسر مبين في مواضع من القرآن^(٢) وهو من يستوجبهما من الكافر والفاسق إذا لم يتوب، ومن المعصوم والتائب ﴿تقلبون﴾ تردون وترجعون ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ ربكم أى لا تقوتونه إن هربتم من حكمه وقضائه ﴿في الأرض﴾ الفسيحة ﴿ولافي السماء﴾ التي هي أفصح منها وأبسط لو كنتم فيها، كقوله تعالى: (إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا)، وقيل: ولا من في السماء^(٣) كما قال حسان رضى الله عنه:

أَمِنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سِوَاهُ^(٤)

ويحتمل أن يراد: لا تعجزونه كيفما هبطتم في مهاوى الأرض وأعماقها، أو علوتم في البروج والقلاع الذاهبة في السماء، كقوله تعالى (ولو كنتم في بروج مشيدة) أولاً تعجزون أمره الجارى في السموات والأرض أن يجرى عليكم، فيصيبكم بلاء يظهر من الأرض أو ينزل من السماء.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكُونُونَ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ

لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

﴿آيات الله﴾ بدلائله على وحدانيته وكتبه ومعجزاته ولقائه والبعث ﴿يكنون من رحمتي﴾ وعيد، أى يياسون يوم القيامة، كقوله: (ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون). أو هو وصف

(١) قال محمود: «إن قلت ماوجه الانصاح باسمه تعالى مع النشأة الآخرة، بعد إضماره في البداية أولاً؟ قلت: لأن النشأة الآخرة هي المقصودة وفيها كانت تصطك الركب، فكانت خليفة بإبراز اسمه تعالى تحقيقاً لنسبة الإعادة إلى من نسبت إليه الأولى» قال أحمد: والأصل الاظهار ثم الاضمار، وإليه لقصد التفتيح: الاظهار بعد الاظهار، وبليغ وهو أغنى الثلاثة: الاظهار بعد الاضمار كما في الآية، والله أعلم.

(٢) قوله «ومتعلق المشيئين مفسر مبين في مواضع من القرآن» تفسيره بما يأتي منى على أنه تعالى يجب عليه تعذيب الكافر والفاسق إذا لم يتوب وإثابة المعصوم والتائب، وهو مذهب المعتزلة. ولا يجب عليه تعالى شيء عند أهل السنة، فالمشيئة في الآية على إطلاقها. (ع)

(٣) قوله «وقيل ولا من في السماء» عبارة الخازن: ولا من في السماء بمعجز. (ع)

(٤) تقدم شرح هذا الشاهد ضمن آيات بالجزء الثاني صفحة ٥٦٣ فراجع إن شئت اه مصححه.

الحالم ؛ لأنّ المؤمن إنما يكون راجياً خاشياً ، فأما الكافر فلا يخطر بباله رجاء ولا خوف .
أوشبهه حالم في انتفاء الرحمة عنهم بحال من يئس من الرحمة : وعن قتادة رضى الله عنه . إن الله
ذمّ قوما هانوا عليه فقال (أولئك يئسوا من رحمتي) وقال (إنه لا يئس من روح الله إلا القوم
الكافرون) فينبغي للمؤمن أن لا يئس من روح الله ولا من رحمته ، وأن لا يأمن عذابه وعقابه
صفة المؤمن ^(١) أن يكون راجياً لله عز وجل خائفاً .

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾

قرئ ﴿ جواب قومه ﴾ بالنصب والرفع ﴿ قالوا ﴾ قال بعضهم لبعض . أو قاله واحد منهم
وكان الباقر راضين ، فكانوا جميعاً في حكم القائلين . وروى أنه لم ينتفع في ذلك اليوم بالنار ،
نعني : يوم ألقى إبراهيم في النار ، وذلك لذهاب حرها .

وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ
وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾

قرئ على النصب بغير إضافة وإضافة ، وعلى الرفع كذلك ، فالنصب على وجهين : على
التعليل ، أى لتوادوا بينكم وتواصلوا ، لاجتماعكم على عبادتها واتفاقكم عليها وائتلافكم ،
كما يتفق الناس على مذهب فيكون ذلك سبب تحابهم وتصادقهم . وأن يكون مفعولاً ثانياً ،
كقوله (اتخذ إلهه هواه) أى اتخذتم الأوثان سبب المودة بينكم ، على تقدير حذف المضاف .
أو اتخذتموها مودة بينكم ، بمعنى مودودة بينكم ، كقوله تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون
الله أنداداً يحبونهم كحب الله) وفي الرفع وجهان : أن يكون خبراً لأنّ ، على أن ما موصولة .
وأن يكون خبر مبتدأ محذوف . والمعنى : أن الأوثان مودة بينكم ، أى : مودودة ، أو سبب
مودة . وعن عاصم : مودة بينكم : بفتح بينكم مع الإضافة ، كما قرئ (لقد تقطع بينكم)
ففتح وهو فاعل . وقرأ ابن مسعود رضى الله عنه : أوثاناً إنما مودة بينكم في الحياة الدنيا ،
أى : إنما تتوادون عليها ، أو تودونها في الحياة الدنيا ﴿ ثم يوم القيامة ﴾ يقوم بينكم التلاعن

والتباغض والتعادي : يتلاعن العبد ، ويتلاعن العبد والاصنام ، كقوله تعالى (ويكونون عليهم ضداً) .

فَأَمَّنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾

كان لوط ابن أخت إبراهيم عليهما السلام ، وهو أول من آمن له حين رأى النار لم تحرقه (وقال) يعني إبراهيم (إني مهاجر) من دكوثي ، وهي من سواد الكوفة إلى حران ، ثم منها إلى فلسطين ، ومن ثمة قالوا : لسكن نبي هجرة ولإبراهيم هجرتان ، وكان معه في هجرته : لوط ، وامرأته سارة ، وهاجر وهو ابن خمس وسبعين سنة (إلى ربي) إلى حيث أمرني بالهجرة إليه (إنه هو العزيز) الذي يمنعني من أعدائي (الحكيم) الذي لا يأمرني إلا بما هو مصلحتي .

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ

أُجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾

(أجره) الثناء الحسن ، والصلاة عليه آخر الدهر والذرية الطيبة والنبوة ، وأن أهل الممل كلهم يتولونه . فإن قلت : ما بال إسماعيل عليه السلام لم يذكر ، وذكر إسحق وعقبه ؟ قلت : قد دل عليه في قوله (وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب) وكفي الدليل لشهرة أمره وعلو قدره . فإن قلت : ما المراد بالكتاب ؟ قلت : قصده جنس الكتاب ، حتى دخل تحته ما نزل على ذريته من الكتب الأربعة : التي هي التوراة والزبور والإنجيل والقرآن ؟

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ

مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ

الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ

مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ آتِنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

(ولوطاً) معطوف على إبراهيم ، أو على ما عطف عليه . و (الفاحشة) الفعلة البالغة في القبح . و (ما سبقكم بها من أحد من العالمين) جملة مستأنفة مقررة لفحاشة تلك الفعلة ، كأن قائلها قال : لم كانت فاحشة ؟ فقيل له : لأن أحداً قبلهم لم يقدم عليها اشتمازاً منها في طباعهم لإفراط قبحها ، حتى أقدم عليها قوم لوط لحب طاعتهم وقدر طباعهم . قالوا لم ينز ذكر على ذكر قبل قوم لوط قط . وقرئ : إنكم ، بغير استفهام في الأول دون الثاني : قال أبو عبيدة :

وجدته في الإمام بحرف واحد بغير ياء، ورأيت الثاني بحرفين الياء والنون. وقطع السبيل: عمل قطاع الطريق، من قتل الأنفس وأخذ الأموال. وقيل: اعتراضهم السابطة بالفاحشة. وعن الحسن: قطع النسل بإتيان ما ليس بحرث. و﴿المنكر﴾ عن ابن عباس رضى الله عنهما هو الخذف بالخصى، والرمي بالبنادق، والفرقة، ومضع العلك، والسواك بين الناس، وحل الأزرار، والسباب، والفحش في المزاح. وعن عائشة رضى الله عنها: كانوا يتحاقبون^(١). وقيل السخري بمن مر بهم. وقيل: المجاهرة في ناديم بذلك العمل، وكل معصية فإظهارها أقبح من سترها، ولذلك جاء: من خرق جلباب الحياء فلا غيبة له. ولا يقال للمجلس: ناد، إلا مادام فيه أهله، فإذا قاموا عنه لم يبق نادياً ﴿إن كنت من الصادقين﴾ فيما تعدناه من نزول العذاب. كانوا يفسدون الناس بحملهم على ما كانوا عليه من المعاصي والفواحش طوعاً وكرهاً ولأنهم ابتدعوا الفاحشة وسنوها فيمن بعدهم، وقال الله تعالى (الذين كفروا وصعدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون) فأراد لوط عليه السلام أن يشتد غضب الله عليهم، فذكر لذلك صفة المفسدين في دعائه.

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ
إِنِ أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنْ فِيهَا أُوطَا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا
لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾

﴿بالبشرى﴾ هي البشارة بالولد. والنافلة: وهما إسحق ويعقوب. وإضافة مهلكو إضافة تخفيف لا تعريف. والمعنى الاستقبال. والقرية: سدوم التي قيل فيها: أجور من قاضى سدوم ﴿كانوا ظالمين﴾ معناه أن الظلم قد استمر منهم إجماعاً في الأيام السالفة، وهم عليه مصرور، وظلمهم: كفرهم وألوان معاصيهم ﴿إن فيها لوطاً﴾ ليس إخباراً لهم بكونه فيها، وإنما هو جدال في شأنه: لأنهم لما عللوا إهلاك أهلها بظلمهم: اعترض عليهم بأن فيها من هو برى من الظلم، وأراد بالجدال: إظهار الشفقة عليهم، وما يجب للؤمن من التحزن لآخيه، والتشمر في نصرته وحياطته، والخوف من أن يمسه أذى أو يلحقه ضرر. قال قتادة: لا يرى المؤمن ألا يحوط المؤمن، ألا ترى إلى جوابهم بأنهم أعلم منه ﴿بمن فيها﴾ يعنون: نحن أعلم منك

(١) قوله «كانوا يتحاقبون» في الصحاح «الحق» بالكسر: الردام. وفيه أيضاً «الردام» بالضم: الحبس، وهو دور فلينظر حله. ثم رأيت فيه في مادة «ضربت» الضراط: الردام، وقد ضرب يضرب ضرباً بكسر الزاء، مثال: حقي يحق حقاؤه قاتحاق: المضارطة، كما عبر النسق. (ع)

وأخبر بحال لوط وحال قومه ، وامتيازهم منهم الامتياز البين ، وأنه لا يستأهل ما يستأهلون ، خفض على نفسك وهون عليك الخطب . وقرئ ﴿ لتجنيه ﴾ بالتشديد والتخفيف ، وكذلك منجوك .

وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَافِرِينَ ﴿٣٣﴾

﴿ أن ﴾ صلة أكدت وجود الفعلين مترتباً أحدهما على الآخر في وقتين متجاورين لافاصل بينهما ؛ كأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان ، كأنه قيل : كما أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث ^(١) ، خيفة عليهم من قومه ﴿ وضاق بهم ذرعاً ﴾ وضاق بشأنهم وتبدير أمرهم ذرعه أى طاقته ، وقد جعلت العرب ضيق الذراع والذرع : عبارة عن فقد الطاقة ، كما قالوا : رحب الذراع بكذا ، إذا كان مطبقاً له ، والأصل فيه أن الرجل إذا طالت ذراعه نال ما لا يناله القصير الذراع ، فضرب ذلك مثلاً في العجز والقدرة .

إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾
وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

الرجز والرجم : العذاب ، من قولهم : ارتجى وارتجس إذا اضطرب ، لما يلحق المعضب من القلق والاضطراب . وقرئ ﴿ منزلون ﴾ مخففاً ومشدداً ﴿ منها ﴾ من القرية ﴿ آية بيّنة ﴾ هى آثار منازلهم الخربة . وقيل : بقية الحجارة . وقيل : الماء الأسود على وجه الأرض . وقيل : الخبر عما صنع بهم ﴿ لقوم ﴾ متعلق بتركنا أو بيّنة .

وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَبْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَقْتُلُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا

فِي دَارِهِمْ جُثَمِينَ ﴿٣٧﴾

﴿ وارجوا ﴾ وافعلوا ما ترجون به العاقبة . فأقيم المسبب مقام السبب . أو أمروا بالرجاء : والمراد : اشتراط ما يستوغه من الإيمان ، كما يؤمر الكافر بالشرعيات على إرادة الشرط . وقيل : هو من الرجاء بمعنى الخوف . والرجفة : الزلزلة الشديدة . وعن الضحاك : صيحة جبريل عليه السلام ؛ لأن القلوب رجفت لها ﴿ فى دارهم ﴾ فى بلدهم وأرضهم . أو فى ديارهم ، فاكتفى بالواحد

(١) قوله «من غير ريث» أى بطله . (ع)

لأنه لا يلبس (جامئين) باركين على الركب ميتين .

وَعَادَا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلْتُمْ

فَصَدَّقْتُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٢٨﴾

(وعادا) منصوب بإضمار «أهلكنا» لأن قوله (فأخذتهم الرجفة) يدل عليه ، لأنه في معنى الإهلاك (وقد تبين لكم) ذلك : يعنى ما وصفه من إهلاكهم (من) جهة (مسكنهم) إذا نظرتم إليها عند مروركم بها . وكان أهل مكة يمدون عليها في أسفارهم فيصرونها (وكانوا مستبصرين) عقلاء متمكنين من النظر والافتكار ، ولكنهم لم يفعلوا . أو كانوا متبينين أن العذاب نازل بهم لأن الله تعالى قد بين لهم على ألسنة الرسل عليهم السلام ، ولكنهم لجوا حتى هلكوا .

وَقَرُونِ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي

الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِينَ ﴿٢٩﴾

(سابقين) فاتنين ، أدركهم أمر الله فلم يفوتوه .

فَكَلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ
الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ

وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٠﴾

الحاصب : لقوم لوط ، وهى ريح عاصف فيها حصاب . وقيل : ملك كان يرميهم . والصيحة :
لمدين وثمود . والحسف : لغارون . والغرق : لقوم نوح وفرعون .

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ
يَنْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ

يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾

الغرض تشبيه ما اتخذوه متكلا ومعتمداً في دينهم وتولوه من دون الله ، بما هو مثل عند
الناس في الوهن وضعف القوة . وهو نسج العنكبوت . ألا ترى إلى مقطع التشبيه وهو قوله
(وإن أوهن البيوت لبیت العنكبوت) ؟ فإن قلت : ما معنى قوله (لو كانوا يعلمون) وكل

أحد يعلم وهن بيت العنكبوت ؟ قلت : معناه لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم وأن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن . ووجه آخر : وهو أنه إذا صح تشبيه ما اعتمدوه في دينهم ببيت العنكبوت ، وقد صح أن أو هن البيوت بيت العنكبوت ، فقد تبين أن دينهم أو هن الأديان لو كانوا يعلمون . أو أخرج الكلام بعد تصحيح التشبيه مخرج المجاز ، فكأنه قال : وإن أو هن ما يعتمد عليه في الدين عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون . ولقائل أن يقول : مثل المشرك الذي يعبد الوثن بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد الله ، مثل عنكبوت يتخذ بيتاً ، بالإضافة إلى رجل يبنى بيتاً بأجر ووجه أو ينحته من صخر ، وكما أن أو هن البيوت إذا استقرتها بيتاً بيتاً بيت العنكبوت ، كذلك أضعف الأديان إذا استقرتها ديناً ديناً عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون . قرئ : تدعون ، بالتاء والياء . وهذا تأكيد للثبوت وزيادة عليه ، حيث لم يجعل ما يدعونه شيئاً (وهو العزيز الحكيم) فيه تجميل لهم حيث عبدوا ما ليس بشيء : لأنه جهاد ليس معه مصحح العلم والقدرة أصلاً ، وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شيء ، الحكيم الذي لا يفعل شيئاً إلا بحكمة وتدير .

وَلَكُمْ الْأَمْثَالُ نَصِيرٌ بَهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾

كان الجهلة والسفهاء من قريش يقولون إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت ، ويضحكون من ذلك ، فلذلك قال (وما يعقلها إلا العالمون) أى لا يعقل صحتها وحسنها وفائدتها إلا هم ، لأن الأمثال والتشبيهات إنما هي الطرق إلى المعاني المحتجة في الاستدلال حتى تبرزها وتكشف عنها وتصورها للأفهام ، كما صور هذا التشبيه الفرق بين حال المشرك وحال الموحد وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه تلا هذه الآية فقال : « العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب مخطئه » (١) :

خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾

(بالحق) أى بالغرض الصحيح (٢) الذي هو حق لا باطل ، وهو أن تكونوا مساكن عباده وعبرة للمعتبرين منهم ، ودلائل على عظم قدرته : ألا ترى إلى قوله (إن في ذلك لآية للمؤمنين) ونحوه قوله تعالى (وما خلقتنا السماء والأرض وما بينهما باطلا) ثم قال (ذلك ظن الذين كفروا)

(١) أخرجه داود بن الجير في كتاب العقل والحارث بن أبي أسامة في مسنده عنه من حديث جابر ، وأخرجه من طريق الحارث الثعلبي والواحدى : والبقوى ، وذكره ابن الجوزى في الموضوعات .

(٢) قال محمود : « رأى بالغرض الصحيح » قال أحمد : لفظة قدرية ومعتقد ردى قد تقدم إنكاره على القدورية ، ولو كان ما قالوه حقاً من حيث المعنى ، لوجب اجتناب هذه العبارة التي لا تليق بالأدب . والله سبحانه وتعالى أعلم .

اَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالْمُنكَرِ ۚ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

الصلاة تكون لطفاً في ترك المعاصي ، فكانها ناهية عنها . فإن قلت : كم من مصل يرتكب ولا انتهاء صلاته ؟ قلت الصلاة التي هي الصلاة عند الله المستحق بها الثواب : أن يدخل فيها مقدماً للتوبة النصوح ، متقياً ؛ لقوله تعالى (إنما يتقبل الله من المتقين) ويصلها خاشعاً بالقلب والجوارح ، فقد روى عن حاتم : كأن رجلي على الصراط والجنة عن يميني والنار عن يساري وملك الموت من فوق ، وأصلي بين الخوف والرجاء ؛ ثم يحوطها بعد أن يصلها فلا يحبطها ، فهي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : من لم تأمره صلاته بالمعروف ونهيه عن المنكر لم يزد بصلاته من الله إلا بعداً .^(١) وعن الحسن رحمه الله : من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، فليست صلاته بصلاة ، وهي وبال عليه . وقيل : من كان مراعياً للصلاة جزه ذلك إلى أن ينتهي عن السيئات يوماً ما ، فقد روى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن فلانا يصلي بالنهار ويسرق بالليل ، فقال : إن صلاته لتردعه ،^(٢) وروى أن قتي من الأنصار كان يصلي معه الصلوات ، ولا يدع شيئاً من الفواحش إلا ركبها ، فوصف له فقال : إن صلاته ستنهاه ، فلم يلبث أن تاب^(٣) . وعلى كل حال إن المراعى للصلاة لا بد أن يكون أبعد من الفحشاء والمنكر من لا يراعيها . وأيضاً فكم من مصلين تنههم الصلاة عن الفحشاء والمنكر ، واللفظ لا يقتضي أن لا يخرج واحد من المصلين عن قضيتها ، كما تقول : إن زيداً ينهى عن المنكر فليس غرضك أنه ينهى عن جميع المنكر ، وإنما تريد أن هذه الخصلة موجودة فيه وحاصلة منه من غير اقتضاء للعموم ؛ ولذا ذكر الله أكبر^(٤) يريد : وللصلاة أكبر من غيرها من الطاعات ، وسماها

(١) أخرجه الطبراني من رواية العلاء بن المسيب عن ذكره عن ابن عباس بهذا موقوفاً . ورواه الطبراني وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق ليث عن عطاء عن ابن عباس مرفوعاً . وفي الباب عن ابن عمر . أخرجه الدارقطني في غرائب مالك . وفي إسناده محمد بن الحسن البصري . قال ابن حبان : لا يجوز الاحتجاج به . روى عن مالك ما لا أصل له . وأخرجه أحمد في الزهد من قول ابن مسعود . وأخرجه عبد الرزاق والطبري والبيهقي في الشعب من مرسل الحسن

(٢) أخرجه أحمد وإسحاق وابن حبان والبزار وأبو يعلى من طريق عيسى بن يونس ووكيع ومجاهد عن الأعشى عن أبي صالح عن أبي هريرة . قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إن فلانا يصلي بالليل فإذا أصبح سرق . فقال إن صلاته ستنهاه ورواه البزار من طريق زياد البكائي وأبو يعلى من طريق أبي إسحاق الفزاري كلاهما عن الأعشى عن أبي صالح عن جابر . قال البزار : اختلف فيه عن الأعشى فقبل عنه أيضاً عن أبي تيفان عن جابر

(٣) لم أجده

بذكر الله كما قال (فاسعوا إلى ذكر الله) وإنما قال : ولذكر الله : ليستقلّ بالتعليل ، كأنه قال : وللصلاة أكبر ، لأنها ذكر الله . أو ولذكر الله عند الفحشاء والمنكر وذكر نبيه عنهما ووعده عليهما أكبر ، فكان أولى بأن ينهى من اللطف الذي في الصلاة . وعن ابن عباس رضي الله عنهما ولذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته ﴿ والله يعلم ما تصنعون ﴾ من الخير والطاعة ، فيثيبكم أحسن الثواب .

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ
وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ
مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾

(بالتي هي أحسن) بالخصلة التي هي أحسن : وهي مقابلة الخشونة باللين ، والغضب بالكظم . والسورة بالأنانة ، كما قال . (ادفع بالتى هي أحسن) ، (إلا الذين ظلموا) فأفرطوا في الاعتداء والعناد ولم يقبلوا النصح ولم ينفع فيهم الرفق ، فاستعملوا معهم الغلظة ، وقيل : إلا الذين آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : إلا الذين أثبتوا الولد والشريك وقالوا يد الله مغلولة . وقيل : معناه ولا تجادلوا الداخلين في الذمة المؤثرين للجزية إلا بالتى هي أحسن ، إلا الذين ظلموا فنبذوا الذمة ومنعوا الجزية ، فإن أولئك مجادلهم بالسيف . وعن قتادة : الآية منسوخة بقوله تعالى (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) ولا مجادلة أشد من السيف : وقوله (وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا) من جنس المجادلة بالتى هي أحسن . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم . وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله ، فإن كان باطلا لم تصدقوهم ، وإن كان حقا لم تكذبوهم ^(١) .

وَكَذَلِكَ أُنْزِلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ
وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾

ومثل ذلك الإنزال (أنزلنا إليك الكتاب) أى : أنزلناه مصدقا لسائر الكتب السماوية ، تحقيقا لقوله آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم . وقيل : كما أنزلنا الكتب إلى من كان قبلك أنزلنا

(١) أخرجه أبو داود ، وابن حبان وأحمد وإسحاق وابن أبي شيبه وأبو يعلى والطبرانى ، من طريق الزهري أخبرني ابن أبي عمير الأنصاري أبا أمامة الأنصاري أخبره . قال : بينا هو عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فذكر قصة هذا فيها ، هذا هو المعروف في إسناد هذا الحديث وأخرجه الطبرانى في مسند الشاميين من رواية بقة عن الزبير عن الزهري عن سالم عن أبيه عن عامر بن ربيعة به . وأصل الحديث في البخارى من حديث أبي هريرة باختصار

إليك الكتاب (فالذين آتيناهم الكتاب) هم عبد الله بن سلام ومن آمن معه (ومن هؤلاء) من أهل مكة. وقيل: أراد بالذين أوتوا الكتاب الذين تقدموا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب، ومن هؤلاء من في عهده منهم (وما يجحد بآياتنا) مع ظهورها وزوال الشبهة عنها، إلا المتوغلون في الكفر المصممون عليه. وقيل: هم كعب بن الأشرف وأصحابه.

وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْدُتْ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾

وأنت أمة ما عرفك أحد قط بتلاوة كتاب ولا خط (إذا) لو كان شيء من ذلك، أي، من التلاوة والخط (لارتاب المبطلون) من أهل الكتاب وقالوا: الذي نجده في كتبنا أي لا يكتب ولا يقرأ وليس به. أو لارتاب مشركو مكة وقالوا: لعله تعلمه أو كتبه بيده. فإن قلت: لم ساهم مبطلين، ولو لم يكن أميا وقالوا: ليس بالذي نجده في كتبنا لكانوا صادقين محقين؟ ولكان أهل مكة أيضا على حق في قولهم لعله تعلمه أو كتبه فإنه رجل قارئ كاتب؟ قلت: ساهم مبطلين لأنهم كفروا به وهو أمة بعيد من الريب، فكأنه قال: هؤلاء المبطلون في كفرهم به لو لم يكن أميا لارتابوا أشد الريب، فحين ليس (١) بقارئ كاتب فلا وجه لارتابهم. وشيء آخر: وهو أن سائر الأنبياء عليهم السلام لم يكونوا أميين، ووجب الإيمان بهم وبما جاؤوا به، لكونهم مصدقين من جهة الحكيم بالمعجزات، فبأنه قارئ كاتب فاهلم لم يؤمنوا به من الوجه الذي آمنوا منه بموسى وعيسى عليهما السلام؟ على أن المنزلين (٢) ليسا بمعجزين، وهذا المنزل معجز، فإذا هم مبطلون حيث لم يؤمنوا به وهو أمة، ومبطلون لو لم يؤمنوا به وهو غير أمة. فان قلت: ما فائدة قوله بيمينك؟ قلت ذكر اليمين وهي الجارحة التي يزاولها الخط: زيادة تصوير لما نفي عنه من كونه كاتباً. ألا ترى أنك إذا قلت في الإثبات: رأيت الأمير يخط هذا الكتاب بيمينه، كان أشد لإثباتك أنه تولى كتبه، فكذلك النفي (بل) القرآن (آيات بينات في صدور) العلماء به وحفاظه، وهما من خصائص القرآن: كون آياته بينات الإعجاز، وكونه محفوظاً في الصدور يتلوه أكثر الأمة ظاهراً: بخلاف سائر الكتب، فإنها لم تكن معجزات،

(١) قوله «حين ليس» لعله حين كان ليس. (ع)

(٢) قوله «على أن المنزلين ليسا بمعجزين» لعله: المنزلين عليهما. (ع)

وما كانت تقرأ إلا من المصاحف . ومنه ما جاء في صفة هذه الأمة : صدورهم أناجيلهم ،^(١) (وما يمجده) بآيات الله الواضحة ، إلا المتوغلون في الظلم المكابرون .

وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتُ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوْ لَمْ يَكْفِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرًا لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾

قري : آية ، وآيات . أرادوا : هلا أنزل عليه آية مثل ناقة صالح ومائدة عيسى عليهما السلام ونحو ذلك (إنما الآيات عند الله) ينزل أيتها شاء ، ولو شاء أن ينزل ما فترحونه لفعل (وإنما أنا نذير) كلفت الإنذار وإبانه بما أعطيت من الآيات ، وليس لي أن أتخير على الله آياته فأقول : أنزل على آية كذا دون آية كذا ، مع على أن الغرض من الآية ثبوت الدلالة ، والآيات كلها في حكم آية واحدة في ذلك ، ثم قال (أولم يكفهم) آية مغنية عن سائر الآيات - إن كانوا طالبين للحق غير متعتين - هذا القرآن الذي تدوم تلاوته عليهم في كل مكان وزمان فلا يزال معهم آية ثابتة لا تزول ولا تضمحل . كما تزول كل آية بعد كونهما ، وتكون في مكان دون مكان . إن في مثل هذه الآية الموجودة في كل مكان وزمان إلى آخر الدهر (لرحمة) لنعمة عظيمة لا تشكر . وتذكروا (لقوم يؤمنون) وقيل : أولم يكفهم ، يعني اليهود : أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم بتحقيق ما في أيديهم من نعتك ونعت دينك . وقيل : إن ناسا من المسلمين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتف قد كتبوا فيها بعض ما يقول اليهود ، فلما أن نظر إليها ألقاها وقال : كفى بها حماقة قوم أوضلالة قوم أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم إلى ما جاء به غير نبيهم ، فزلت^(٢) . والوجه ما ذكرناه (كفى بالله بيني وبينكم شهاداً) أي قد بلغتكم ما أرسلت به إليكم وأنذرتكم ، وأنكم قابليتموني بالجمع والتكذيب (يعلم ما في السموات

(١) أخرجه الطبراني من رواية ستان بن الحارث عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود مرفوعاً في أثناء حديث وروى الواقدي في الردة عن إسماعيل بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة عن أبيه أن يهودياً من أهل سبأ قال له نعمان ، وكان أعلم أحوار يهود فذكر قصة فيها صفة النبي صلى الله عليه وسلم في سفر عندهم يحترم وفيه هذا .
(٢) أخرجه الطبري وأبو داود في المراسيل من طريق يحيى بن جعدة وأن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قوم من المسلمين بكتاب في كتف ، فذكر نحوه وأفظ الطبري كالأصل .

والأرض) فهو مطلع على أمرى وأمركم، وعالم بحق وباطلكم (والذين آمنوا بالباطل) منكم وهو ما تمبدون من دون الله (وكفروا بالله) وآياته (أو لئلك هم الخاسرون) المغبونون في صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان، إلا أن الكلام ورد مورد الإنصاف، كقوله (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) وكقول حسان :

• فَشَرُّكُمْ كَمَا لَخَيْرِكُمْ كَمَا الْفِدَاءُ • (١)

وروى أن كعب بن الأشرف وأصحابه قالوا : يا محمد، من يشهد لك بأنك رسول الله، فزلت.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَئِنَّمَا تَعِدُّهُمْ بَعْتَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

كان استعجال العذاب استهزاء منهم وتكديبا، والنضر بن الحرث هو الذى قال : اللهم أمطر علينا حجارة من السماء ، كما قال أصحاب الآية : فأسقط علينا كسفا من السماء (ولولا أجل) قد سماه الله وبينه في اللوح لعذابهم ، وأوجبت الحكمة تأخيرها إلى ذلك الأجل المسمى (لجاءهم العذاب) عاجلا . والمراد بالأجل : الآخرة ، لما روى أن الله تعالى وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يعذب قومه ولا يستأصلهم ، وأن يؤخر عذابهم إلى يوم القيامة (١) . وقيل : يوم بدر . وقيل : وقت فنائهم بأجلهم (لمحيطه) أى ستحيط بهم (يوم يغشاهم العذاب) أى محيطة بهم فى الدنيا : لأن المعاصى التى توجبها محيطه بهم . أولانها ما لهم ومرجعهم لا محالة فكانها الساعة محيطه بهم . و (يوم يغشاهم) على هذا منصوب بمضمر ، أى : يوم يغشاهم العذاب كان بكيت وكيت . (من فوقهم ومن تحت أرجلهم) كقوله تعالى (لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل) ، (ونقول) قرئ بالنون والياء (ما كنتم تعملون) أى جزاءه .

يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

معنى الآية : أن المؤمن إذا لم يتسهل له العبادة فى بلد هو فيه ولم يتمش له أمر دينه كما يحب

(١) تقدم شرح هذا القاعد ضمن آيات الجزء الثانى صفحة ٥٦٣ فراجع إن شئت اه مصححه .

(٢) لم أجده .

فليهاجر عنه إلى بلد يقدر أنه فيه أسلم قلباً وأصح ديناً وأكثر عبادة وأحسن خشوعاً. ولعمري إن البقاع تتفاوت في ذلك التفاوت الكبير، ولقد جزبنا وجزب أولونا، فلم نجد فيما درنا وداروا: أعون على قهر النفس وعصيان الشهوة وأجمع للقلب المتلفت وأضمر للهم المنتشر وأحث على القناعة وأطرد للشيطان وأبعد من كثير من الفتن وأضبط للأمر الديني في الجملة - من سكنى حرم الله وجوار بيت الله، فله الحمد على ما سهل من ذلك وقرب، ورزق من الصبر وأوزع من الشكر. وعن النبي صلى الله عليه وسلم من فرّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض؛ استوجب الجنة وكان رفيق إبراهيم^(١) ومحمد، وقيل: هي في المستضعفين بمكة الذين نزل فيهم (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) وإنما كان ذلك لأن أمر دينهم ما كان يستتب لهم بين ظهراني الكفرة (فإياي فاعبدون) في المتكلم، نحو: إياه ضربته، في الغائب وإياك عصنتك، في المخاطب. والتقدير: فإياي فاعبدوا: فاعبدون. فإن قلت: مامعنى الغاء في (فاعبدون) وتقديم المفعول؟ قلت: الغاء جواب شرط محذوف؛ لأن المعنى: إن أرضي واسعة فإن لم تخلصوا العبادة لي في أرض فأخلصوها لي في غيرها، ثم حذف الشرط وعرض من حذفه تقديم المفعول، مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص.

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾

لما أمر عباده بالحرص على العبادة وصدق الاهتمام بها حتى يتطلبوا لها أوفق البلاد وإن شُعت^(٢)، أتبعه قوله (كل نفس ذائقة الموت) أى واجدة مرارته وكرهه كما يجد الذائق طعم المذوق. ومعناه: إنكم ميتون فواصلون إلى الجزاء، ومن كانت هذه عاقبته لم يكن له بد من التزود لها والاستعداد بمجهده.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَتَجْرُ الْعَمِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ

رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾

(لنبوئهم) لنزّلهم (من الجنة) علالي. وقرئ: لشؤنهم، من الشواء وهو النزول للإقامة. يقال: ثوى في المنزل، وأثوى هو، وأثوى غيره وثوى: غير متعد، فإذا تعدى بزيادة همزة

(١) أخرجه الثعلبي من مرسل الحسن وقد تقدم في النساء.

(٢) قوله «أوفق البلاد وإن شُعت» أى بعدت. (ع)

النقل لم يتجاوز مفعولا واحدا، نحو: ذهب، وأذهبته. والوجه في تعديته إلى ضمير المؤمنين وإلى الغرف: إما إجرأوه مجرى لنزلهم ونبوتهم. أو حذف الجار وإصال الفعل: أوتشبهه الظرف المؤقت^(١) بالمهم. وقرأ يحيى بن وثاب: فنعنم، بزيادة الفاء (الذين صبروا) على مفارقة الاوطان والهجرة لأجل الدين. وعلى أذى المشركين، وعلى المحن والمصائب، وعلى الطاعات، وعن المعاصي، ولم يتوكلوا في جميع ذلك إلا على الله.

وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

لما أمر رسول الله صلى عليه وسلم من أسلم بمكة بالهجرة، خافوا الفقر والضيعة، فكان يقول الرجل منهم: كيف أقدم بلدة ليست لي فيها معيشة، فزلت. والدابة: كل نفس دبت على وجه الأرض، عقلت أو لم تعقل. (تحمل رزقها) لا تطيق أن تحمله لضعفها عن حمله (الله يرزقها وإياكم) أى لا يرزق تلك الدواب الضعاف إلا الله، ولا يرزقكم أيضا أيها الأقوياء إلا هو وإن كنتم مطيقين حمل أرزاقكم وكسبها، لأنه لو لم يقدركم ولم يقدر لكم أسباب الكسب، لكنتم أعجز من الدواب التي لا تحمل، وعن الحسن (لا تحمل رزقها) لا تدخره، إنما تصبح فيرزقها الله. وعن ابن عيينة: ليس شيء يحبأ إلا الإنسان والنملة والقارة. وعن بعضهم: رأيت البلبل يحتكر في حضنيه. ويقال: للعقق نخايه إلا أنه ينسأها (وهو السميع) لقولكم: نخشى الفقر والضيعة (العليم) بما في ضمائركم.

وَأَيْنَ سَأَلْتُم مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ

فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾

الضمير في (سألتهم) لأهل مكة (فأنى يؤفكون) فكيف يصرفون عن توحيد الله وأن لا يشركوا به، مع إقرارهم بأنه خالق السموات والأرض.

اللَّهُ يُبْسِطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾

قدر الرزق وقدره بمعنى إذا ضيقه. فإن قلت: الذي رجع إليه الضمير في قوله (ويقدر له) هو من يشاء، فكأن بسط الرزق وقدره جعلاً لواحد. قلت: يحتمل الوجهين جميعاً: أن يريد ويقدر لمن يشاء، فوضع الضمير موضع من يشاء، لأن (من يشاء) مبهم غير معين، فكان الضمير مبهما مثله، وأن يريد تعاقب الأمرين على واحد على حسب المصلحة (إن الله

بكل شيء عليم) يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم .

وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

استحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه من أقر بنحو ما أقروا به ؛ ثم نفعه ذلك في توحيد الله ونفي الابداد والشركاء عنه ، ولم يكن إقراراً عاطلاً كإقرار المشركين ؛ وعلى أنهم أقروا بما هو حجة عليهم حيث نسبوا النعمة إلى الله وقد جعلوا العبادة للصنم ، ثم قال (بل) أكثرهم لا يعقلون) ما يقولون وما فيه من الدلالة على بطلان الشرك وصحة التوحيد . أو لا يعقلون ما تريد بقولك الحمد لله ، ولا يفطنون لمحدث الله عند مقالته ؟

وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَئِىَ الْحَيَوَانِ
لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾

(هذه) فيها ازدراء للدنيا وتصغير لامرها ، وكيف لا يصغرها وهي لا تزن عنده جناح بعوضة . يريد : ما هي - لسرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها - إلا كما يلعب الصبيان ساعة ثم يتفرقون (وإن الدار الآخرة لهي الحيوان) أى ليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة خالدة لا موت (١) فيها ، فكأنها في ذاتها حياة . والحيوان : مصدر حي ، وقياسه حيوان ، فقلبت الياء الثانية وأوأ ، كما قالوا : حيوة ، في اسم رجل ، وبه سمي ما فيه حياة : حيوانا . قالوا : اشتر من الموتان ، ولا تشتري من الحيوان (٢) . وفي بناء الحيوان زيادة معنى ليس في بناء الحياة ، وهي ما في بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب ، كالزوان والنقصان والهبان (٣) ، وما أشبه ذلك . والحياة : حركة ، كما أن الموت سكون ، فجيش على بناء دال على معنى الحركة ، مبالغة في معنى الحياة ، ولذلك اختيرت على الحياة في هذا الموضع المقتضى للمبالغة (لو كانوا يعلمون) فلم يؤثر الحياة الدنيا عليها .

(١) قال محمود : « إنما عدل عن الحياة إلى هذا البناء تنبيها على تعظيم حياة الآخرة ودوامها » قال أحمد : والذي يخص هذا البناء به إفادة ما لا يخلو من الحركة ، كالزوان والجلولان ، والحيوان من ذلك ، والله أعلم .

(٢) قوله « اشتر من الموتان ... الخ » الذي في الصحاح : اشتر الموتان ، ولا تشتري الحيوان . أى : اشتر الأرض والدور ، ولا تشتري الرقيق والدواب اهـ (ع)

(٣) قوله « كالزوان والنقصان والهبان » في الصحاح : بالهتان ، بالتحريك : انتقاد النار . (ع)

فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَعْتَمِتُوا فَنَسُوفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

فإن قلت : بم اتصل قوله (فإذا ركبوا) ؟ قلت : بمحذوف دل عليه ما وصفهم به وشرح من أمرهم ، معناه : هم على ما وصفوا به من الشرك والعناد (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين) كائنين في صورة من يخلص الدين لله من المؤمنين ، حيث لا يذكرون إلا الله ولا يدعون معه إلها آخر . وفي تسميتهم مخلصين : ضرب من التهكم (فلما نجاهم إلى البر) وآمنوا عادوا إلى حال الشرك : واللام في (ليكفروا) محتملة أن تكون لام كي ، وكذلك في (وليعتمتوا) فيمن قرأها بالكسر . والمعنى : أنهم يعودون إلى شركهم ليكونوا - بالعود إلى شركهم - كافرين بنعمة النجاة ، قاصدين التمتع بها والتلذذ لا غير ، على خلاف ما هو عادة المؤمنين المخلصين على الحقيقة : إذا أنجاهم الله أن يشكروا نعمة الله في إنجائهم ، ويجعلوا نعمة النجاة ذريعة إلى ازدياد الطاعة ، لا إلى التمتع والتلذذ ، وأن تكون لام الأمر وقراءة من قرأ وليعتمتوا بالسكون أشهد له . ونحوه قوله تعالى (اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير) . فإن قلت : كيف جاز أن يأمر الله تعالى بالكفر وبأن يعمل العصاة ما شاءوا ، وهو ناه عن ذلك ومتوعد عليه ؟ قلت : هو مجاز عن الخذلان والتخلى ، وأن ذلك الأمر متسخط إلى غاية . ومثاله أن ترى الرجل قد عزم على أمر ، وعندك أن ذلك الأمر خطأ ، وأنه يؤدي إلى ضرر عظيم ، فتبالغ في نصحه واستنزاله عن رأيه ، فإذا لم ترمه إلا بالإباء والتصميم ، حردت ^(١) عليه وقلت : أنت وشأنك وافعل ما شئت ، فلا تريد بهذا حقيقة الأمر . وكيف والأمر بالشئ مريد له ، وأنت شديد الكراهة متحسر ، ولكنك كأنك تقول له : فإذا قد أبييت قبول النصيحة ، فأنت أهل ليقال لك : افعل ما شئت وتبعث عليه ، ليتبين لك - إذا فعلت - صحة رأي الناصح وفساد رأيك .

أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَّا آمَنَّا وَبُتَّخَطَفُ النَّاسُ مِنْ سَوَاحِلِهِمْ أَفَبِأَظْهَلٍ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعِمُونَ اللَّهُ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾

كانت العرب حول مكة يغزو بعضهم بعضا ، ويتغاورون ، ويتناهجون ، وأهل مكة قازون آمنون فيها ، لا يغزون ولا يغاز عليهم مع قلتهم وكثرة العرب ، فذكرهم الله هذه النعمة الخاصة عليهم ، ووبخهم بأنهم يؤمنون بالباطل الذي هم عليه ، ومثل هذه النعمة المكشوفة الظاهرة

وغيرها من النعم التي لا يقدر عليها إلا الله وحده مكفورة عندهم .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ

فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾

افتراؤهم على الله كذباً : زعمهم أن الله شريكاً . وتكذيبهم بما جاءهم من الحق : كفرهم بالرسول والكتاب . وفي قوله ﴿لَمَّا جَاءَهُ﴾ تسفيه لهم ، يعني : لم يتعلموا في تكذيبه وقت سمعوه ، ولم يفعلوا كما يفعل المراجع العقول المثبتون في الأمور : يسمعون الخبر فيستعملون فيه الروية والفكر ، ويستأنون إلى أن يصح لهم صدقه أو كذبه ﴿أليس﴾ تقرير لثوابهم في جهنم . كقوله :

• أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا * (١)

قال بعضهم : ولو كان استفهاماً ما أعطاه الخليفة مائة من الإبل . وحقيقته : أن الهمة همزة الإنكار دخلت على النفي ، فرجع إلى معنى التقرير ، فهما وجهان ، أحدهما : ألا يثبوتون في جهنم ، وألا يستوجبون الثواب فيها ، وقد افتروا مثل هذا الكذب على الله ، وكذبوا بالحق هذا التكذيب والثاني : ألم يصح عندهم أن في جهنم مثوى للكافرين ، حتى اجتروا مثل هذه الجرأة ؟ .

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

أطلق المجاهدة ولم يقيد بها بمفعول ، ليتناول كل ما يجب مجاهدته من النفس الآتية بالسوء والشيطان وأعداء الدين ﴿فينا﴾ في حقنا ومن أجلنا ولوجهنا خالصاً ﴿لنهديهم سبلنا﴾ لنزيدهم هداية إلى سبل الخير وتوفيقاً ، كقوله تعالى (والذين اهتدوا زادهم هدى) وعن أبي سليمان الداراني : والذين جاهدوا فيما علموا لنهديهم إلى ما لم يعلموا . وعن بعضهم : من عمل بما يعلم وفق لما لا يعلم . وقيل : إن الذي نرى من جهلنا بما لا نعلم ، إنما هو من تقصيرنا فيما نعلم ﴿لمع﴾ المحسنين ﴿لناصرهم ومعينهم﴾ .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ سورة العنكبوت كان له من الاجر عشر حسنات بعدد كل المؤمنين والمنافقين (٢) .

(١) أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وأندى العالمين بطون راح
الجرير : في عبد الملك بن مروان . والاستفهام للإنكار ، يعني : لا تنتفي زياتكم في الفضل والكرم على جميع الناس
ومن ركب المطايا : كناية عنهم ، لأن الركوب من خواصهم . والراح : اسم جمع واحدة راحة ، وهي ماعدا
الأصابع من الكف ، وذلك كناية عن الكرم : لأن بها بذل المعروف في العادة . قيل : لما بلغ جرير هذا
البيت في القصيدة ، كان عبد الملك متكئاً فاستوى جالساً فرحاً وقال : هكذا مدحنا . وأعطاه مائة من الإبل .

(٢) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدى من حديث أبي بن كعب .

سورة الروم

مكية ، إلا آية ١٧ فمدنية

وآياتها ٦٠ [نزلت بعد الانشقاق]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ① غُلِبَتِ الرُّومُ ② فِي أَذْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ
 سَيَغْلِبُونَ ③ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَهُنَّ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ
 الْمُؤْمِنُونَ ④ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ⑤

القراءة المشهورة الكثيرة ﴿ غلبت ﴾ بضم الغين . وسيغلبون بفتح الياء . والارض : أرض العرب ، لأن الارض المعهودة عند العرب أرضهم . والمعنى : غلبوا في أدنى أرض العرب منهم وهي أطراف الشام . أو أراد أرضهم ، على إنباء اللام مناب المضاف إليه ، أى : في أدنى أرضهم إلى عدوهم . قال مجاهد : هي أرض الجزيرة ، وهي أدنى أرض الروم إلى فارس . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : الأردن وفلسطين . وقرئ : في أدنى الأرض . والبضع ما بين الثلاث إلى العشر عن الأصمعي . وقيل : احتربت الروم وفارس بين أذرعات وبصرى ، فغلبت فارس الروم ، فبلغ الخبر مكة . فشق على النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ^(١) ؛ لأن فارس مجوس لا كتاب لهم والروم أهل الكتاب ، وفرح المشركون وشتوا وقالوا : أنتم والنصارى أهل الكتاب ، ونحن وفارس أميون ، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم ، ولنظهرن نحن عليكم ، فنزلت . فقال لهم

(١) أخرجه سفيان بن أبي داود في تفسيره : حدثني حجاج هو ابن محمد الأعور عن أبي بكر بن عبد الله عن عكرمة قال : كانت في فارس امرأة لا تلد إلا الأبطال فدعاها كسرى فقال إنى أريد أن أبنت إلى الروم جيشاً وأستعمل عليهم رجلاً من بنيك فأشيري على : أيهم أستعمل ؟ فأشارت عليه بولد لها يدعى شهرابز . فاستعمله . قال أبو بكر بن عبد الله لحدث هذا الحديث عطاء الخراساني فقال حدثني يحيى بن يعمر أن قيس بن سعد رجلاً يدعى قطمة يجيش من الروم فالتقى بأذرعات وبصرى فغلبتهم فارس فذكر القصة قلت ولما طرق جمعها في أول شرعى الكبير على البخارى ، وقصة أبي بكر في المراهنة رواها الترمذى وغيره من حديث نيار بن مكرم الأسلمى وسياقها مخالف لسياق هذه القصة .

أبو بكر رضى الله عنه : لا يقزر الله أعينكم ، فوالله لتظهرن الروم على فارس بعد بضعة سنين فقال له أبى بن خلف . كذبت يا أبا فضيل ، اجعل بيننا أجلا أناحبك عليه . والمناجبة : المراهنة فتأخذه على عشر قلائص من كل واحد منهما ، وجعلوا الأجل ثلاث سنين ، فأخبر أبو بكر رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : البضع ما بين الثلاث إلى التسع ، فزيده فى الخطر ومأذه فى الأجل . فجعلوها مائة قلووس إلى تسع سنين . ومات أبى من جرح رسول الله ، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية ، وذلك عند رأس سبع سنين . وقيل : كان النصر يوم بدر للفريقين ، فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية أبى ، وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : تصدق به . وهذه الآية من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوة ، وأن القرآن من عند الله لأنها إنباء عن علم الغيب الذى لا يعلمه إلا الله . وقرئ : غلبهم ، بسكون اللام . والغلب والغلب . مصدران كالجلب والجلب . والحلب والحلب . وقرئ : غلبت الروم ، بالفتح . وسيفلبون ، بالضم . ومعناه أن الروم غلبوا على ريف الشام وسيغلبهم المسلمون فى بضعة سنين . وعندا نقضاء هذه المدة أخذ المسلمون فى جهاد الروم ، وإضافة عليهم تختلف باختلاف القراءتين ، فهى فى إحداها إضافة المصدر إلى المفعول . وفى الثانية إضافته إلى الفاعل . ومثالها (محرم عليكم إخراجهم) ، (ولن يخلف الله وعده) . فإن قلت : كيف صحت المناجبة وإنما هى قار ؟ قلت : عن قتادة رحمه الله أنه كان ذلك قبل محريم القمار . ومن مذهب أبى حنيفة ومحمد : أن العقود الفاسدة من عقود الربا وغيرها جائزة فى دار الحرب بين المسلمين والكفار . وقد احتجنا على صحة ذلك بما عقده أبو بكر بينه وبين أبى بن خلف (من قبل ومن بعد) أى فى أول الوقتين وفى آخرهما حين غلبوا وحين يغلبون ، كأنه قيل : من قبل كونهم غالبين ، وهو وقت كونهم مغلوبين . ومن بعد كونهم مغلوبين ، وهو وقت كونهم غالبين . يعنى أن كونهم مغلوبين أولا وغالبين آخرًا ليس إلا بأمر الله وقضائه (وتلك الأيام نداؤها بين الناس) وقرئ : من قبل ومن بعد ، على الجزم من غير تقدير مضاف إليه واقتطاعه . كأنه قيل : قبلا وبعدا ، بمعنى أولا وآخرًا (ويومئذ) ويوم تغلب الروم على فارس ويحل ما وعده الله عز وجل من غلبتهم (يفرح المؤمنون بنصر الله) وتغلبه من له كتاب على من لا كتاب له . وغيط من شمت بهم من كفار مكة . وقيل : نصر الله : هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم وقيل نصر الله . أنه ولى بعض الظالمين بعضا وفرق بين كلهم ، حتى تفانوا وتناقصوا ، وفل ^(١) هؤلاء شوكة هؤلاء وفى ذلك قوة للإسلام . وعن أبى سعيد الخدرى : وافق ذلك يوم بدر ، وفى هذا اليوم نصر المؤمنون (وهو العزيز الرحيم) ينصر عليكم تارة وينصركم أخرى .

(١) قوله « وفل هؤلاء شوكة هؤلاء » أى كسرهما . أفاده الصحاح . (ع)

وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفِلُونَ ﴿٧﴾

(وعد الله) مصدر مؤكد، كقولك : لك على ألف درهم عرفاً : لأن معناه : أعترف لك بها اعترافاً ، ووعد الله ذلك وعداً : لأن ماسبقه في معنى وعد . ذمهم الله عز وجل بأنهم غفلاء في أمور الدنيا ، بله في أمر الدين ، وذلك أنهم كانوا أصحاب تجارات ومكاسب . وعن الحسن . بلغ من حذق أحدهم أنه يأخذ الدرهم فينقره بأصبعه ، فيعلم أركى . هو أم جيد . وقوله (يعلمون) بدل من قوله (لا يعلمون) وفي هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه ، وجعله بحيث يقوم مقامه ويستمد منه ، ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل ، وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا . وقوله (ظاهر من الحياة الدنيا) يفيد أن للدنيا ظاهراً وباطناً ، فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها والتنعيم ^(١) بملاذمها . وباطنها وحقيقتها أنها مجاز إلى الآخرة : يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة . وفي تنكير الظاهر : أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً من جملة الظواهر . وهم ، الثانية يجوز أن يكون مبتدأ . و(غافلون) خبره ، والجملة خبرهم الأولى ، وأن يكون تكريراً للأولى ، وغافلون خبر الأولى . وأية كانت تذكرها مناد على أنهم معادن الغفلة عن الآخرة ومقرها ومعلمها ، وأنها منهم تنبع وإليهم ترجع .

أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾

(في أنفسهم) يحتمل أن يكون ظرفاً ، كأنه قيل : أولم يحدثوا التفكير في أنفسهم ، أى : في قلوبهم الفارغة من الفكر ، والتفكير لا يكون إلا في القلوب ، ولكنه زيادة تصوير لحال المتفكرين ، كقولك : اعتقده في قلبك وأضره في نفسك ، وأن يكون صلة للتفكير ، كقولك : تفكر في الأمر وأجال فيه فكره . و(ما خلق) متعلق بالقول المحذوف ، معناه : أولم يتفكروا فيقولوا هذا القول . وقيل : معناه : فاعملوا ، لأن في الكلام دليلاً عليه (إلا بالحق وأجل

(١) قال محمود : يعلمون بدل من الأول ، وفي البديل نكتة وهي الإشعار بأنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل وبين العلم بظاهر الدنيا ، حتى كأنهما شيء واحد ، فأبدل أحدهما من الآخر . وفائدة تنكير الظاهر أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً من جملة ظواهرها . قال أحمد : وفي التنكير تقليل للمعلومهم وتقليل يقربه من النبي حتى يطابق المبدل منه . وروى عن الحسن أنه قال في تلاوته هذه الآية : بلغ من صدق أحدهم في ظاهر الحياة الدنيا أنه ينقر الدينار بأصبعه فيعلم أجده هو أم ردى .

مسمى) أى ما خلقها باطلا وعبثا بغير غرض صحيح وحكمة بالغة ، ولا لتبقى خالدة : وإنما خلقها مقرونة بالحق مصحوبة بالحكمة ، وبتقدير أجل مسمى لا بد لها من أن تنتهى إليه ، وهو قيام الساعة ووقت الحساب والثواب والعقاب . ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿أحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ كيف سمي تركهم غير راجعين إليه عبثا . والباء فى قوله (إلا بالحق) مثلها فى قولك : دخلت عليه بقباب السفر ، واشترى الفرس بسرجه ولجامه ، تريد : اشتراه وهو ملتبس بالسرج واللجام ، غير منفك عنهما . وكذلك المعنى ما خلقها إلا وهى ملتبسة بالحق مقترنة به ، فإن قلت : إذا جعلت (فى أنفسهم) صلة للتفكر ، فما معناه ؟ قلت : معناه : أولم يتفكروا فى أنفسهم التى هى أقرب إليهم من غيرها من المخلوقات ، وهم أعلم وأخبر بأحوالها منهم بأحوال ما عداها ، فتدبروا ما أودعها الله ظاهراً وباطناً من غرائب الحكم الدالة على التدبير دون الإهمال وأنه لا بد لها من انتهاء إلى وقت يجازيها فيه الحكم الذى دبر أمرها على الإحسان إحساناً وعلى الإساءة مثلها ، حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها جلد على الحكمة والتدبير وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت ، والمراد ببقاء ربهم : الأجل المسمى .

أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَمَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ
رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِمُعْظِلِهِمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

(أولم يسيروا) تقرير لسيرهم فى البلاد ونظرهم إلى آثار المدكرين من عاد وثمود وغيرهم من الأمم العاتية ، ثم أخذ يصف لهم أحوالهم وأنهم (كانوا أشد منهم قوة وأناروا الأرض) وحرثوها قال الله تعالى (لاذلول تثير الأرض) وقيل لبقر الحرث : المثيرة . وقالوا : سعى ثوراً لإثارتها الأرض وبقرة ؛ لأنها تبقرها أى تشقها (وعمروها) يعنى أولئك المدكرون (أكثر مما عمروها) من عمارة أهل مكة . وأهل مكة : أهل وادغير ذى زرع ، ما لهم إثارة الأرض أصلاً ، ولا عمارة لها رأساً فها هو لإلتكهم بهم ، وبضعف حالهم فى دنياهم ؛ لأن معظم ما يستظهر به أهل الدنيا ويتباهون به أمر الدهقنة ^(١) ، وهم أيضاً ضعاف القوى ، فقلوه (كانوا أشد منهم قوة) أى عاد وثمود وأضرابهم من هذا القبيل ، كقلوه (أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة) وإن كان هذا أبلغ ، لأنه خالق القوى والقدر . فما كان تدميره إياهم ظلاً لهم ، لأن حاله منافية للظلم ، ولكنه ظلموا أنفسهم حيث عملوا ما أوجب تدميرهم .

(١) قوله «أمر الدهقنة» أى الزراعة (ع)

ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسْأُوا السَّوْءُ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا

بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾

قرئ عاقبة بالنصب والرفع. و﴿السوأي﴾ تأنيث الاسوأ وهو الأقيح، كما أن الحسنى تأنيث الاحسن. والمعنى: أنهم عوقبوا في الدنيا بالدمار، ثم كانت عاقبتهم سوأي: إلا أنه وضع المظهر موضع المضمّر، أي: العقوبة التي هي أسوأ العقوبات في الآخرة، وهي جهنم التي أعدت للكافرين. و﴿أن كذبوا﴾ بمعنى لأن كذبوا. ويجوز أن يكون أن بمعنى: أي: لأنه إذا كان تفسير الإساءة للتكذيب والاستهزاء كانت في معنى القول، نحو: نادى. وكتب، وما أشبه ذلك. ووجه آخر: وهو أن يكون (أسأوا السوأي) بمعنى اقرءوا الخطيئة التي هي أسوأ الخطايا، و﴿أن كذبوا﴾ عطف بيان لها، وخبر كان محذوف كما يحذف جواب لما ولو، إرادة الإيهام.

اللَّهُ يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

﴿ثم إليه ترجعون﴾ أي إلى ثوابه وعقابه. وقرئ بالتاء والياء.

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ

شَفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾

الإبلاس: أي يبقى بائساً ساكناً متحيراً. يقال: ناظرته فأبلس. إذا لم ينبس^(١) وينبس من أن يحتج. ومنه الناقة المبلّس: التي لا ترغو. وقرئ: يبلس، بفتح اللام، من أبلسه إذا أسكته (من شركائهم) من الذين عبدوهم من دون الله (وكانوا بشركائهم كافرين) أي يكفرون بإلهيتهم ومجحدونها. أو كانوا في الدنيا كافرين بسبهم. وكتب ﴿شفعوا﴾ في المصحف بواو قبل الالف، كما كتب (علووا بنى إسرائيل) وكذلك كتبت (السوأي) بألف قبل الياء إثباتاً للهمزة على صورة الحرف الذي منه حركتها.

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُؤْمَذُّ بَتَفَرُّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ فهُمْ فِي رَوْحَةٍ يُنْجَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ قَالُوا لَيْسَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

(١) قوله «إذا لم ينبس» أي لم يتكلم. أناده الصحاح. (ع)

الضمير في ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ للسليين والكافرين ، لدلالة ما بعده عليه . وعن الحسن رضى الله عنه : هو تفرق المسلمين والكافرين : هؤلاء في عليين ، وهؤلاء في أسفل السافلين . وعن قتادة رضى الله عنه : فرقة لا اجتماع بعدها ﴿في روضة﴾ في بستان ، وهي الجنة . والتشكيك لإبهام أمرها وتفخييمه . والروضة عند العرب : كل أرض ذات نبات وماء . وفي أمثالهم : أحسن من بيضة في روضة ، يريدون : بيضة النعامة ﴿محبزون﴾ يسرون . يقال : حبره إذا ستره سرورا تهلل له وجهه وظهر فيه أثره . ثم اختلفت فيه الأقاويل لاحتمال لوجوه جميع المسائر ! فعن مجاهد رضى الله عنه : يكرمون . وعن قتادة : ينعمون . وعن ابن كيسان : يحلون . وعن أبي بكر بن عياش : التيجان على رؤوسهم . وعن وكيع : السماع في الجنة . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه ذكر الجنة وما فيها من النعيم ^(١) ، وفي آخر القوم أعرابي فقال : يا رسول الله ، هل في الجنة من سماع ؟ قال : نعم يا أعرابي ، إن في الجنة نهرا حافتاه الأبرار من كل بيضاء خوصانية ، يتغنى بأصوات لم تسمع الخلائق بمثله قط ، فذلك أفضل نعم الجنة . قال الراوى : فسألت أبا الدرداء ، هم يتغنى ؟ قال : بالتسبيح . وروى : إن في الجنة لأشجارا عليها أجراس من فضة ، فإذا أراد أهل الجنة السماع بعث الله ريحا من تحت العرش فتقع في تلك الأشجار ، فتحرك تلك الاجراس بأصوات لو سمعها أهل الدنيا لما اتوا أطربا ^(٢) ، ﴿محضرون﴾ لا يغيبون عنه ولا يخفف عنهم ، كقوله : (وما هم بخارجين منها) ، (لا يفتر عنهم) .

قَسْبَحَنَّ اللَّهُ حَسْبَ حَسْبٍ تُمْسُونَ وَحَسْبَ تَصْبِحُونَ ١٧ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحَسْبَ تَطْهَرُونَ ١٨ يُنْجِرُ الْحَيُّ مِنَ الْمَمَتِ وَيُخْرِجُ الْمَمَتَ
مِنَ الْحَيِّ وَيُنْجِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ١٩

لما ذكر الوعد والوعيد ، أتبعه ذكر ما يوصل إلى الوعد وينجي من الوعيد . والمراد بالتسبيح ظاهره الذى هو تنزيه الله من السوء والنساء عليه بالخير في هذه الأوقات لما يتجدد فيها من نعمة الله الظاهرة . وقيل : الصلاة . وقيل لابن عباس رضى الله عنهما : هل تجدد الصلوات الخمس في القرآن ؟ قال : نعم ، وتلا هذه الآية ﴿تَمْسُونَ﴾ صلاتا المغرب والعشاء ﴿وَتَصْبِحُونَ﴾ صلاة

(١) في طريق سليمان بن عطاء عن مسلمة بن عبد الله الجنبى عن عه أبي معجة عن أبي الدرداء قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الناس فذكر الجنة وملائكتها ... الحديث ، وسليمان منكر الحديث .

(٢) أخرجه الثعلبى من رواية عبد الله بن عرادة الشيدى عن أحد الضعفاء عن القاسم بن مطيب عن مغيرة عن إبراهيم بهذا . وروى إسماعيل في مسنده من رواية مجاهد قيل لأبي هريرة : هل في الجنة من سماع ؟ قال نعم ثمرة أصلها من ذهب وأغصانها من فضة . ثم رما بالآتوت والبرجد . يبعث لها ريح فيحرك بعضها بعضا . فاسمع شيء قط أحسن منه .

الفجر (وعشياً) صلاة العصر. و﴿تظهرون﴾ صلاة الظهر. وقوله (وعشياً) متصل بقوله (حين تمسون) وقوله ﴿وله الحمد في السموات والأرض﴾ اعتراض بينهما. ومعناه: إن على المميزين كلهم من أهل السموات والأرض أن يحمده. فإن قلت: لم ذهب الحسن رحمه الله إلى أن هذه الآية مدنية؟ قلت: لأنه كان يقول: فرضت الصلوات الخمس بالمدينة وكان الواجب بمكة ركعتين في غير وقت معلوم. والقول الأكثر أن الخمس إنما فرضت بمكة. وعن عائشة رضي الله عنها: فرضت الصلاة ركعتين^(١) فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أقرت صلاة السفر، وزيد في صلاة الحضر. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من سره أن يكال له بالفقير الأوفى فليقل: فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون... الآية^(٢)، وعنه عليه السلام ومن قال حين يصبح (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) - إلى قوله - وكذلك تخرجون (أدرك ما فاتته في يومه. ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاتته في ليلته)^(٣)، وفي قراءة عكرمة: حيناً تمسون وحيناً تصبحون. والمعنى: تمسون فيه وتصبحون فيه. كقوله (يوم لا تجزى نفس عن نفس شيئاً) بمعنى فيه ﴿الحى من الميت﴾ الطائر من البيضة، و﴿الميت من الحى﴾ البيضة من الطائر. وإحياء الأرض: إخراج النبات منها. وكذلك تخرجون. ومثل ذلك الإخراج تخرجون من القبور وتبعثون. والمعنى: أن الإبداء والإعادة متساويان في قدرة من هو قادر على الطرد والعكس من إخراج الميت من الحى وإخراج الحى من الميت وإحياء الميت وإماتة الحى. وقرئ: الميت، بالتشديد^(٤). وتخرجون، بفتح التاء.

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ۝ ٢٠

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ

مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ ٢١

(خلقكم من تراب) لأنه خلق أصلهم منه. و﴿إذا﴾ لل مفاجأة. وتقديره: ثم فاجأكم وقت كونكم بشراً منتشرين في الأرض، كقوله (وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء). (من أنفسكم أزواجاً) لأن حواء خلقت من ضلع آدم عليه السلام، والنساء بعدها خلقن من أصلاب الرجال. أو من شكل أنفسكم وجنسها، لا من جنس آخر، وذلك لما بين الاثنين من جنس واحد من الألف والسكون،

(١) متفق عليه من حديث عائشة واللفظ لأحمد وسيافه أم

(٢) أخرجه الترمذي من حديث أنس وفي إسناده بشر بن الحارث وهو ساقط.

(٣) أخرجه أبو داود والبيهقي وابن عدى من حديث ابن عباس. وإسناده ضعيف. وقال البخاري: لا يصح.

(٤) قوله «ورقئ الميت بالتشديد» يفيد أن القراءة المشهورة بالتخفيف. (ع)

وما بين الجنسين المختلفين من التنافر ﴿وجعل بينكم﴾ التواذ والتراحم بعصمة الزواج، بعد أن لم تكن بينكم سابقة معرفة، ولا لقاء، ولا سبب يوجب التعاطف من قرابة أورش. وعن الحسن رضى الله عنه: المودة كناية عن الجماع، والرحمة عن الولد، كما قال (ورحمة منا) وقال: (ذكر رحمة ربك عبده). ويقال: سكن إليه، إذا مال إليه، كقولهم: انقطع إليه، واطمأن إليه. ومنه السكن. وهو الإلف المسكون إليه. فعل بمعنى مفعول. وقيل: إن المودة والرحمة من قبل الله وإن fark من قبل الشيطان^(١).

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾

الآلئنة: اللغات. أو أجناس النطق وأشكاله. خالف عزّ وعلا بين هذه الأشياء حتى لا تكاد تسمع منطقين متفقين في همس واحد، ولا جهارة، ولا حدة، ولا رخاوة، ولا فصاحة، ولا لكنة، ولا نظم، ولا أسلوب، ولا غير ذلك من صفات النطق وأحواله، وكذلك الصور وتخطيطها، والألوان وتنويعها، واختلاف ذلك وقع التعارف، وإلا فلو اتفقت وتشاكلت وكانت ضرباً واحداً لوقع التجاهل والالتباس، ولتعطلت مصالح كثيرة، وربما رأيت توأمين يشتهان في الحلية، فيعروك الخطأ في التمييز بينهما، وتعرف حكمة الله في المخالفة بين الحلى وفي ذلك آية بينة حيث ولدوا من أب واحد، وفرعوا من أصل قد، وهم على الكثرة التي لا يعلمها إلا الله مختلفون متفاوتون. وقرئ: للعالمين بفتح اللام وكسرهما، ويشهد للكسر قوله تعالى (وما يعقلها إلا العالمون).

وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾

هذا من باب اللف وترتيبه: ومن آياته منامكم وابتغائكم من فضله بالليل والنهار، إلا أنه فصل بين القريئين الأولين بالقريئين الآخرين. لانهما زمانان. والزمان والواقع فيه كشيء واحد، مع إعانة اللف على الاتحاد. ويجوز أن يراد: منامكم في الزمانين، وابتغائكم فيهما، والظاهر هو الأول لتكرره في القرآن. وأسند المعاني ما دل عليه القرآن يسمعون بالأذان الواعية.

(١) قوله «وإن fark من قبل الشيطان» في الصحاح «الفرك» بالكسر: البفض. (ع)

وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ

الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾

في (يريككم) وجهان: إضماران، وإنزال الفعل منزلة المصدر، وبهما فسر المثل: تسمع بالمعبدى خير من أن تراه. وقول القائل:

وَقَالُوا مَا تَأْتِيهِمْ أَهْلُهُ إِلَى الْإِصْبَاحِ آثَرُ ذِي أُنْبُرٍ ^(١)

(خوفاً) من الصاعقة أو من الإخلاف (وطمعا) في الغيث. وقيل: خوفاً للسافر، وطمعاً للحاضر، وهما منصوبان على المفعول له. فإن قلت: من حق المفعول له أن يكون فعلاً لفاعل الفعل الممثل؛ والخوف والطمع ليسا كذلك. قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن المفعولين فاعلون في المعنى، لأنهم رامون، فكأنه قيل: يجعلكم رائيين البرق خوفاً وطمعاً. والثاني: أن يكون على تقدير حذف المضاف، أى: إرادة خوف وإرادة طمع ^(٢)، فحذف المضاف وأقيم المضاف

(١) أُرقت وصحبتى بمضيق عمق لبرق من تمامة مستطير
سقوى الخمر ثم تكنفونى عداة الله من كذب وزور
وقالوا ما تاتاه فقلت أهو إلى الاصبح آثر ذى أنير

لعروة بن الورد العبسى، وأرقت: سهرت. والواو للعية. والمضيق المكان الضيق. وعمق: يكسر فسكون -: شهر ببلاد الحجاز، وبعض ففتح: موضع منخفض عند مكة، ولعله سكن هنا للوزن، ولبرق: متعلق بأرقت. أى سهرت في هذا الموضع لأجل برق من تمامة جهة محبوبتى، ويحتمل أن الواو حالية، وصحبتى مبتداً خبره بمضيق حق، وإذا كان أصحابه فيه فهو فيه، فزجع إلى الأول. ومستطير: منتشر. وروى: سقوى النسي. ونسأت اللبن: خلطته بماء. فالنسي: هو اللبن المخلوط بماء. وتكنفونى: أحاطوا بى، وعداة: جمع عاد بمعنى عدو. وقيل: جمع عدو، أى: هم أعداء الله من أجل كذبهم وزورهم، وهى جملة اعتراضية، ويحتمل أن «عداة» بدل من ضمير الفاعل. أو فاعل على لغة من قال: أكلونى البراغيث، أى: أحاطوا بى وقالوا: ما الذى تريد، فقلت: أهو، أى: هو أن أهو، فأن: مقدرة معنى، وإن لم ينصب الفعل لفظاً. وقال الجوهري: يقال أفعال هذا آثر ذى أنير، أى: أول كل شيء، فأشار إلى أن آثر: نصب على الظرفية المجازية أو الحالية، أى أفعاله حال كونه أول كل شيء. يؤثر، فهو أفعال تفضيل بمعنى المفعول، ونص ابن الحاجب على جواز ذلك ووروده قليلاً، وآثره بقصر الميزة ومدها: إذا قدمه على غيره، وأنير: اسم مفعول بمعنى مأثور. أو حقيق بالتقدم، فالمنى: أول كل شيء صاحب شيء مأثور، فيكون هو الأنير المقدم. أو التقدير: لهوى طول الليل هو المقدم عندى.

(٢) قال محمود: فإن قلت: أينصب خوفاً وطمعاً مفعولاً لها وليس فعل فاعل الفعل الممثل، فما وجه ذلك؟ قلت: المفعولون هنا فاعلون لأنهم رامون، فتقديره: يجعلكم رائيين البرق خوفاً وطمعاً. أو على حذف مضاف، تقديره: إرادة خوفكم وطمعكم، قال أحد: الخوف والطمع من جملة مخلوقات الله تعالى وآثار قدرته، وحيث أنه يلزم اجتماع شرائط النصب فهما وهى كونهما مصدرين ومقارنين فى الوجود، والفاعل الخالق واحد، فلا بد من التنبيه على تخريج ==

إليه مقامه . ويجوز أن يكونا حالين : أى : خائفين وطامعين . وقرئ : ينزل بالتشديد ^(١) .

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ
الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
كُلُّ لَهُ قَانِتُونَ ﴿٢٦﴾

(ومن آياته) قيام السموات والأرض واستمساكهما بغير عمد (بأمره) أى بقوله :
كونا قائمتين . والمراد بإقامته لهما : إرادته لكونهما على صفة القيام دون الزوال . وقوله (إذا
دعاكم) بمنزلة قوله : يريكم ، فى إيقاع الجملة موقع المفرد على المعنى ، كأنه قال : ومن آياته قيام
السموات والأرض ، ثم خروج الموتى من القبور إذا دعاهم دعوة واحدة : يا أهل القبور اخرجوا .
والمراد سرعة وجود ذلك من غير توقف ولا تلبث ، كما يجيب الداعى المطاع مدعوه ، كما
قال القائل :

دَعَوْتُ كُلَّهْبًا دَعْوَةً فَكَأَنَّمَا دَعَوْتُ بِهِ ابْنَ الطُّودِ أَوْ هُوَ أَسْرَعُ ^(٢)

يريد بابن الطود : الصدى . أو الحجر إذا ندهدى . وإنما عطف هذا على قيام السموات والأرض
بشم ، بيانا لعظم ما يكون من ذلك الأمر واقتداره على مثله ، وهو أن يقول : يا أهل القبور ،
قوموا ؛ فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر ، كما قال تعالى (ثم نفخ فيه أخرى
فإذا هم قيام ينظرون) . قولك : دعوته من مكان كذا ، كما يجوز أن يكون مكانك يجوز أن
يكون مكان صاحبك ، تقول : دعوت زيدا من أعلى الجبل فنزل على ؛ ودعوته من أسفل

== النصب على غير هذا الوجه ، فنقول : معنى قول النحاة فى المفعول له لا بد وأن يكون فعل الفاعل ، أى : ولا بد أن
يكون الفاعل متصفا به ، مثاله إذا قلت : جئتك إكراما لك ، فقد وصفت نفسك بالإكرام فقلت فى المعنى : جئتك
مكرما لك ، والله تعالى - وإن خلق الخوف والطمع لعباده - إلا أنه مقدس عن الاتصاف بهما ، فن ثم احتجج
إلى تأويل النصب على المذهبين جميعا . والله أعلم .

(١) قوله «وقرئ» ينزل بالتشديد ، يفيد أن المشهور بالتخفيف . (ع)

(٢) يقول : دعوت كليا . وروى : خليدا . دعوة واحدة فأجابت بسرعة كأتى دعوت به ابن الطود : وهو
الجبل العظيم ، وابنه الصدى : الذى يحاكي صوت الصائح عقب صياحه . أو : الحجر إذا هوى منه شتدهدا متدحرجا
إلى أسفل . وسى ابنه على سبيل الاستعارة التصريحية ، لأنه ناشئ منه وملازم له . ثم إن فيه تجريدا حيث انتزع
من كليب أمرا آخر يشبه ابن الطود فى السرعة ، والبلاء للبلابة ، أى كأتى دعوت ابن الطود ملابسا له . ويحتمل
أنها للبدل ، أى : دعوت بدله ابن الطود . أو بمعنى من . أى : دعوت منه ابن الطود . وقوله : أو هو ، أى : كليب .
أسرع من ابن الطود فى الإجابة .

الوادى فطلع إلى . فإن قلت : هم تعلق (من الأرض) بألف الفعل أم بالمصدر ؟ قلت : هيأت ، إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل . فإن قلت : ما الفرق بين إذا وإذا ؟ قلت : الأولى للشرط ، والثانية لل مفاجأة ، وهي تنوب مناب الغاء في جواب الشرط . وقرئ : تخرجون ، بضم التاء وفتحها (فانتون) منقادون لوجود أفعاله فيهم لا يمتنعون عليه .

وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

(وهو أهون عليه) فيما يجب عندكم وينتقاس على أصولكم ويقتضيه معقولكم ؛ لأن من أعاد منكم صنعة شيء كانت أسهل عليه وأهون من إنشائها ، وتعتدرون للصانع إذا خطئ في بعض ما ينشئه بقولكم : أول الغزو أخرج ، وتسمون الماهر في صناعته معاودا ، تعنون أنه عاودها كتره بعد أخرى ؛ حتى مرن عليها وهانت عليه . فإن قلت : لم ذكر الضمير في قوله (وهو أهون عليه) والمراد به الإعادة ؟ قلت : معناه : وأن يعيده أهون عليه . فإن قلت : لم أخرجت الصلة في قوله (وهو أهون عليه) وقدمت في قوله (هو على هين) ^(١) ؟ قلت : هناك قصد الاختصاص وهو محزه ، فقل : هو على هين ، وإن كان مستصعبا عندكم أن يولد بين هم ^(٢) وعافر ؛ وأما ههنا فلا معنى للاختصاص ، كيف والأمر مبنى على ما يعقلون من أن الإعادة أسهل من الابتداء ؛ فلو قدمت الصلة لتغير المعنى . فإن قلت : ما بال الإعادة استعظمت في قوله (ثم إذا دعاكم) حتى كأنها فضلت على قيام السموات والأرض بأمره ^(٣) ، ثم هونت بعد ذلك ؟ قلت :

(١) قال محمود : وإن قلت : لم أخرجت الصلة ههنا وقد قدمت في قوله تعالى (هو على هين) ؟ قلت : لأن المقصود عما نحن فيه خلاف المقصد هناك ، فانه اختصاص الله تعالى بالقدرة على إيلاد الهم والعافر ، وأما المقصد هنا فلا معنى للاختصاص فيه ، كيف والأمر مبنى على ما يعتقده في الشاهد من أن الإعادة أسهل من الابتداء ، فالاختصاص بغير المعنى . قال أحد : كلام نفيس يستحق أن يكتب بذوب التبر لا بالحبر ، وإنما يلحق الاختصاص من تقديم ما حقه أن يؤخر ، وقد علمت مذهبه في مثل ذلك .

(٢) قوله «أن يولد بين هم وعافر» في الصحاح «الهم» بالكسر . الشيخ الفان . (ع)

(٣) قال محمود : «إن قلت : ما بال الإعادة استعظمت في قوله (ثم إذا دعاكم) حتى كأنها فضلت على قيام السموات والأرض ؟ قلت : الإعادة في نفسها عظيمة ، ولكنها هونت بالنسبة إلى الانشاء . قال أحد : إنما يلحق في السؤال تعظيم الإعادة من عطفها بهم ، إيداناً بتغاير مرتبتها وعلو شأنها . وقوله في الجواب : إنما هونت بالنسبة إلى الانشاء لا يخلص ، فان الإعادة ذكرت ههنا عقب قيام السموات والأرض بأمره . وقيامها ابتداء وإنشاء أعظم من الإعادة ، فيلزم تعظيم الإعادة بالنسبة إلى ما عطف عليه عن الانشاء . ويعود الاشكال ، والمخلص - والله أعلم - جعل ثم على بابها لتراخي الزمان لا لتراخي المراتب ، فعلى أن تكون مرتبة المعطوف عليه العليا ، ومرتبة المعطوف هي الدنيا . وذلك نادر في مجيئها لتراخي المراتب ، فان المعطوف حينئذ في أكثر المواضع أرفع درجة من المعطوف عليه ، والله أعلم .

الإعادة في نفسها عظيمة ، ولكنها هونت بالقياس إلى الإنشاء . وقيل الضمير في عليه للخلق . ومعناه : أنَّ البعث أهون على الخلق من الإنشاء ، لأن تكوينه في حد الاستحكام ، والتمام أهون عليه وأقل تعباً وكبداً ، من أن يتنقل في أحوال ويندرج فيها إلى أن يبلغ ذلك الحد . وقيل : الأهون بمعنى الهين . ووجه آخر : وهو أن الإنشاء من قبيل التفضل الذي يتخير فيه الفاعل بين أن يفعله وأن لا يفعله ، والإعادة من قبيل الواجب الذي لا بد له من فعله ، لأنها جزاء الأعمال وجزاؤها واجب ^(١) ، والأفعال : إما محال والمحال ممتنع أصلاً ^(٢) خارج عن المقدور ، وأما ما يصرف الحكيم عن فعله صارف وهو القبيح ، وهو رديف المحال : لأن الصارف يمنع وجود الفعل كما تمنعه الإحالة . وإما تفضل والتفضل حالة بين بين ، للفاعل أن يفعله وأن لا يفعله . وإما واجب لا بد من فعله ، ولا سبيل إلى الإخلال به ، فكان الواجب أبعد الأفعال من الامتناع وأقربها من الحصول . فلما كانت الإعادة من قبيل الواجب ، كانت أبعد الأفعال من الامتناع . وإذا كانت أبعداها من الامتناع ، كانت أدخلها في التأتى والتسهل ، فكانت أهون منها ^(٣) . وإذا كانت أهون منها كانت أهون من الإنشاء (وله المثل الأعلى) أى الوصف الأعلى الذى ليس لغيره مثله قد عرف به . ووصف في السموات والأرض على السنة الخلاق وأسنة الدلائل ، وهو أنه القادر الذى لا يعجز عن شيء من إنشاء وإعادة وغيرهما من المقدورات ، ويدل عليه قوله تعالى (وهو العزيز الحكيم) أى القاهر لكل مقدور ، الحكيم الذى يجرى كل فعل على قضايأ حكمته وعلمه . وعن مجاهد : المثل الأعلى : قول لا إله إلا الله ، ومعناه : وله الوصف الأعلى الذى هو الوصف بالوحدانية . ويعضده قوله تعالى (ضرب لكم مثلا من أنفسكم) وقال الزجاج : وله المثل الأعلى في السموات والأرض ، أى : قوله تعالى (وهو أهون عليه) قد ضربه لكم مثلاً فيما يصعب ويسهل . يزيد : التفسير الأول .

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ

(١) قوله وجزاؤها واجب ... الخ هذا عند المعتزلة ، ولا يجب على الله شيء عند أهل السنة كما تقدم في محله . (ع)
(٢) عاد كلامه : قال في تقرير معنى قوله وهو أهون عليه : الأفعال إما ممتنع عقلاً لذاته ، وإما ممتنع لصارف يصرف الحكيم عن فعله . وإما تفضل يتخير الحكيم فيه بين أن يفعل وأن لا . وإما واجب على الحكيم أن يفعله فالإنشاء الأول من قبيل التفضل ، وأما الإعادة فواجبة على الله تعالى لأجل الجزاء ، فلما كانت واجبة كانت أبعد الأفعال عن الممتنع ، ولذلك وصفت بالتسهيل وكانت أهون من الإنشاء . قال أحد : لقد ضل وصد عن السبيل ، فلا نوافقه ولا نرافقه ، والحق : أن لا واجب على الله تعالى ، وكل ما ذكره في هذا الفصل نزغات قدرية ، على أنها أيضاً غير مستقيمة على أصولهم المحيطة ، فإن مقتضاها وجوب الانتهاء في الحكمة : إذ لولا مصلحة اقتضت الإنشاء لما وقع ، وذلك المصلحة توجب متعلقها ، فقد وضع أن المصنف لا إلى معالي السنة رقى ، ولا في حضيض الاعتزال بقى ، فله العصمة .

(٣) قوله فكانت أهون منها أى من بقية الأفعال . (ع)

شُرَكَاءَ فِي مَارَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ
كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

فإن قلت: أى فرق بين الأولى والثانية والثالثة في قوله تعالى (من أنفسكم) ، (بما ملكت أيمانكم) ، (من شركاء) ؟ قلت: الأولى للابتداء ، كأنه قال: أخذ مثلاً وانترعه من أقرب شئ منكم وهى أنفسكم ولم يبعد ، والثانية للتبعض ، والثالثة مزيدة لتأكيد الاستفهام الجارى مجرى النفي . ومعناه: هل ترضون لأنفسكم - وعبيدكم أمثالكم بشر كبشر وعبيد كعبيد - أن يشارككم بعضهم (فيما رزقناكم) من الأموال وغيرها تكونون أنتم وهم فيه على السواء ، من غير تفصلة بين حز وعبد: تهابون أن تستبدوا بتصرف دونهم ، وأن تفتاتوا بتدبير عليهم كما يهاب بعضكم بعضاً من الأحرار ، فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم ، فكيف ترضون لرب الأرباب ومالك الأحرار والعبيد أن تجعلوا بعض عبيده له شركاء ؟ (كذلك) أى مثل هذا التفصيل (نُفَصِّلُ الْآيَاتِ) أى نبينها: لأن التمثيل مما يكشف المعاني ويوضحها: لأنه بمنزلة التصوير والتشكيل لها . ألا ترى كيف صور الشرك بالصورة المشوهة ؟

بَلِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَنُيْهِدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ
وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٩﴾

(الذين ظلموا) أى أشركوا ، كقوله تعالى: إن الشرك لظلم عظيم (بغير علم) أى اتبعوا أهواءهم جاهلين ، لأن العالم إذا ركب هواه ربما ردعه عنه وكفه . وأما الجاهل فيهم على وجهه كالبيهة لا يكفه شئ . (من أضل الله) من خذله (١) ولم يلطف به ، لعله أنه من لا لطف له ، فمن يقدر على هداية مثله . وقوله (وما لهم من ناصرين) دليل على أن المراد بالاضلال الخذلان .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ
لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾
مُنِيبِينَ إِلَهُهِمْ وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾
مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

(١) قوله من أضل الله: من خذله ، تأويل الاضلال بذلك مبنى على أنه تعالى لا يخلق الشر ، وهو مذهب المعتزلة ، وذهب أهل السنة إلى أنه يخلق الشر كالحير ، فالآية على ظاهرها . (ع)

(فأقم وجهك للدين) فقوم وجهك له وعدله ، غير ملتفت عنه يمينا ولا شمالا ، وهو تمثيل لإقباله على الدين ، واستقامته عليه ، وثباته ، واهتمامه بأسبابه ، فإن من اهتم بالشئ عقد عليه طرفه ، وسدد إليه نظره ، وقومله وجهه ، مقبلا به عليه . و(حنيفا) حال من المأمور . أو من الدين (فطرت الله) أى الزموا فطرة الله . أو عليكم فطرة الله . وإنما أضمرته على خطاب الجماعة لقوله (منيبين إليه) ومنيبين : حال من الضمير فى : الزموا . وقوله (واتقوه وأقيموا...) ولا تكونوا) معطوف على هذا المضمير . والفطرة : الخلقة . ألا ترى إلى قوله (لا تبديل لخلق الله) والمعنى : أنه خلقهم قائلين للتوحيد ودين الاسلام ، غير ناثين عنه ولا منكرين له ، لكونه مجابا للعقل ، مساوقا للنظر الصحيح ، حتى لو تركوا لما اختاروا عليه ديننا آخر ، ومن غوى منهم فباغوا شياطين الإنس والجن . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : كل عبادى خلقت حنفا . فاجتاتهم الشياطين ^(١) عن دينهم وأمروهم أن يشركوا بى غيرى ^(٢) ، وقوله عليه السلام : كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه ، ^(٣) (لا تبديل لخلق الله) أى ما ينبغي أن تبدل تلك الفطرة أو تغير . فإن قلت . لم وحد الخطاب أولا ، ثم جمع ؟ قلت : خوطب رسول الله صلى الله عليه وسلم أولا ، وخطاب الرسول خطاب لأمته مع ما فيه من التعظيم للإمام ، ثم جمع بعد ذلك للبيان والتلخيص (من الذين) بدل من المشركين (فارقوا دينهم) تركوا دين الإسلام . وقرئ : فزقوا دينهم بالتشديد ، أى : جعلوه أديانا مختلفة لا اختلاف أمواتهم (وكانوا شيعة) فرقا ، كل واحدة تشايح إمامها الذى أضلها (كل حزب) منهم فرح بمذهبه مسرور ، يحسب باطله حقاً - ويجوز أن يكون (من الذين) منقطعاً عما قبله ، ومعناه : من المفارقة دينهم كل حزب فرحين بما لديهم ، ولكنه رفع فرحون على الوصف لكل ، كقوله :

• وَكُلُّ خَلِيلٍ غَيْرُ هَاضِمٍ نَفْسِهِ • ^(٤)

(١) قوله « فاجتاتهم الشياطين » أدارتهم . أماده الصحاح . (ج)

(٢) أخرجه مسلم من حديث عياض بن حاربه وأتم منه .

(٣) متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٤) وكل خليل غير هاضم نفسه فبالصد والاعراض عنه جدير

للشايح . ويروى : بدل القطر الثانى : بوصل خليل صارم أو مصادر . وغير هاضم - بالرفع - : صفة كل . أو بالجر : صفة خليل ، أى : من لم يخفض نفسه لصاحبه فهو حقيق بالصد والاعراض عنه لا بالمودة . وزادت الفاء ، لأن المبتدأ فيه معنى الشرط . والصارم : القاطع . والمصادر : الجانب ، أى : من لم يهضم نفسه لوصول خليله ، أدى به ذلك إلى القطعية ، فان لم تكن فالى المجانية ، فكأنه مقاطع ، أو مجانب بالفعل .

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً
إِذَا قَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتُّوْا
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾

الضر: الشدة من هزال أو مرض أو قحط أو غير ذلك. والرحمة: الخلاص من الشدة.
واللام في ﴿ليكفروا﴾ مجاز مثلها في (ليكون لهم عدوا). ﴿فتمتعوا﴾ نظير (اعملوا ما شئتم)
﴿فسوف تعلمون﴾ وبال تمتعكم. وقرأ ابن مسعود: وليتمتعوا.

أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾
السلطان: الحجة، وتكلمه. مجاز، كما نقول: كتابه ناطق بكذا، وهذا عما نطق به القرآن.
ومعناه: الدلالة والشهادة، كأنه قال: فهو يشهد بشركهم وبصحته. وما في ﴿بما كانوا﴾ مصدرية
أى: بكونهم بالله يشركون. ويجوز أن تكون موصولة ويرجع الضمير إليها. ومعناه: فهو
يتكلم بالأمر الذي يسيبه يشركون. ويحتمل أن يكون المعنى: أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ ذَا سُلْطَانٍ، أى:
ملكا معه برهان فذلك الملك يتكلم بالبرهان الذي يسيبه يشركون.

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ
إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾

﴿وإذا أذقنا الناس رحمة﴾ أى نعمة من مطر أو سعة أو صحة ﴿فرحوا بها وإن تصيبهم
سيئة﴾ أى بلاء من جذب أو ضيق أو مرض - والسبب فيها شؤم معاصيهم - قنطوا من الرحمة.
أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ

لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

ثم أنكر عليهم بأنهم قد علموا أنه هو الباسط القابض، فما لهم يقنطون من رحمة، وما
لهم لا يرجعون إليه تائبين من المعاصي التي عوقبوا بالشدة من أجلها، حتى يعيد إليهم رحمة.

فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ
وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾

حق ذى القربى: صلة الرحم. وحق المسكين وابن السبيل: نصيبهما من الصدقة المسماة لهما.

وقد احتج أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية في وجوب النفقة للمحارم إذا كانوا محتاجين عاجزين عن الكسب . وعند الشافعي رحمه الله : لا نفقة بالقرابة إلا على الولد والوالدين : فاس سائر القرابات على ابن العم ، لأنه لا أولاد بينهم . فإن قلت : كيف تعلق قوله ﴿ فَأَتَى الْقُرْبَىٰ ﴾ بما قبله حتى جرى بالفاء ؟ قلت : لما ذكر أن السبئية أصابتهم بما قدمت أيديهم ، أتبعه ذكر ما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك ﴿ يريدون وجه الله ﴾ يحتمل أن يراد بوجهه ذاته أو وجهته وجانبه ، أى : يقصدون بمعروفهم إياه خالصا وحقه ، كقوله تعالى (إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى) أو يقصدون جهة التقرب إلى الله لا جهة أخرى ، والمعنيان متقاربان ، ولكن الطريقة مختلفة .

وَمَا أَتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّرَبْوَةٍ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوْا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا أَتَيْتُم

مِن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾

هذه الآية في معنى قوله تعالى (يمحى الله الربا ويربى الصدقات) سواء بسواء ، يريد : وما أعطيت أكلة الربا ﴿ من ربا ليربوا في ﴾ أموالهم : ليزيد ويزكو في أموالهم ، فلا يزكو عند الله ولا يبارك فيه ﴿ وما آتيتم من زكاة ﴾ أى صدقة تبتغون به وجهه خالصا ، لا تطلبون به مكافأة ولا رياء وسمعة ﴿ فأولئك هم المضعفون ﴾ ذوو الإضعاف من الحسنات . ونظير المضعف : المقوى والموسر ، لذى القوة واليسار : وقرئ بفتح العين . وقيل : نزلت في ثقيف ، وكانوا يربون . وقيل : المراد أن يهب الرجل للرجل أو يهدى له ، ليعوّضه أكثر مما وهب أو أهدى ، فليست تلك الزيادة بحرام ، ولكن المعوّض لا يثاب على تلك الزيادة . وقالوا : الربا ربوان : فالحرّام : كل قرض يؤخذ فيه أكثر منه : أو يحترق منفعة . والذي ليس بحرام : أن يستدعى بهته أو بهيته أكثر منها . وفي الحديث « المستغزر يثاب من بهته » ^(١) وقرئ : وما أتيتم من ربا ، بمعنى : وما غشيتموه أو رهقتموه من إعطاء ربا . وقرئ : لتربوا ، أى : لتزيدوا في أموالهم ، كقوله تعالى (ويربى الصدقات) أى يزيدنها . وقوله تعالى (فأولئك هم المضعفون) التثنية حسن ، كأنه قال للملائكة وخوادم خلقه : فأولئك الذين يريدون وجه الله بصدقاتهم : هم المضعفون . فهو أمدح لهم من أن يقول : فأنتم المضعفون . والمعنى : المضعفون به ، لأنه لا بد من ضمير يرجع إلى ما ، ووجه آخر : وهو أن يكون تقديره : فتؤتوه أولئك هم المضعفون . والحذف لما في الكلام من الدليل عليه ، وهذا أسهل مأخذا ، والأول أملا بالفائدة .

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِوتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم

(١) أخرجه ابن أبي شيبة وعبد الرزاق من وجهين عن ابن سيرين عن شريح بهذا موقوفا .

مَنْ يَفْعَلْ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾

(الله) مبتدأ وخبره (الذي خلقكم) أى الله هو فاعل هذه الأفعال الخاصة التي لا يقدر على شيء منها أحد غيره، ثم قال (هل من شركائكم) الذين اتخذتموهم أنداداً له من الأصنام وغيرها (من يفعل) شيئاً قط من تلك الأفعال : حتى يصح ما ذهبتم إليه، ثم استبعد حاله من حال شركائهم. ويجوز أن يكون (الذي خلقكم) صفة للمبتدأ، والخبر : هل من شركائكم، وقوله (من ذلككم) هو الذي ربط الجملة بالمبتدأ، لأن معناه : من أفعاله. ومن الأولى والثانية والثالثة : كل واحدة منهن مستقلة بتأكيد، لتعجيز شركائهم، وتجهيل عبدتهم.

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي

عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

(الفساد في البر والبحر) نحو : الجذب، والقحط، وقلة الربيع في الزراعات والريج في التجارات، ووقوع الموتان في الناس والدواب، وكثرة الحرق والفرق، وإخفاق الصيادين^(١) والغاص، ومحق البركات من كل شيء، وقلة المنافع في الجملة وكثرة المضار. وعن ابن عباس : أجذبت الأرض وانقطعت مادة البحر. وقالوا : إذا انقطع القطر عميت دواب البحر. وعن الحسن أن المراد بالبحر : مدن البحر وقراه التي على شاطئه. وعن عكرمة : العرب تسمى الأمصار البحار. وقرئ في البر والبحور (بما كسبت أيدي الناس) بسبب معاصيهم وذنوبهم، كقوله تعالى (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) وعن ابن عباس (ظهر الفساد في البر) بقتل ابن آدم أخاه. وفي البحر بأن جلندى كان يأخذ كل سفينة غصباً : وعن قتادة : كان ذلك قبل البعث، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع راجعون عن الضلال والظلم. ويجوز أن يريد ظهور الشر والمعاصي بكسب الناس ذلك. فإن قلت : ما معنى قوله (ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) ؟ قلت : أما على التفسير الأول فظاهر، وهو أن الله قد أفسد أسباب دنياهم ومحققها، ليذيقهم وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة، لعلهم يرجعون عما هم عليه، وأما على الثاني فاللام مجاز، على معنى أن ظهور الشرور بسببهم مما استوجبوا به أن يذيقهم الله وبال أعمالهم إرادة الرجوع، فكأنهم إنما أفسدوا وتسببوا لفشو المعاصي في الأرض لأجل ذلك. وقرئ : لئذيقهم، بالنون.

(١) قوله «إخفاق الصيادين» في الصحاح : أخفق الصائد، إذا رجع ولم يصطد. (ع)

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ

أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾

ثم أكد سبب المعاصي لغضب الله ونكاله : حيث أمرهم بأن يسيروا في الأرض فينظروا كيف أهلك الله الأمم وأذاقهم سوء العاقبة لمعاصيهم ، ودل بقوله ﴿ كان أكثرهم مشركين ﴾ على أن الشرك وحده لم يكن سبب تدميرهم ، وأن ما دونه من المعاصي يكون سبباً لذلك .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ بَيِّنَاتٍ يَأْتِيَنَّ يَوْمَ لَأَمْرٌ دَلُّهُ مِنَ اللَّهِ

يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ ﴿٤٣﴾

القيم : البليغ الاستقامة ، الذي لا يتأني فيه عوج ﴿ من الله ﴾ إنما أن يتعلق بياقي ، فيكون المعنى : من قبل أن يأتي من الله يوم لا يرده أحد ، كقوله تعالى ﴿ فلا يستطيعون ردها ﴾ أو بمرء ، على معنى : لا يرده هو بعد أن يحجى به . ولا رده من جهته . والمرء : مصدر بمعنى الرد ﴿ يصدعون ﴾ يتصدعون : أي : ينفرقون ، كقوله تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ ينفرقون ﴾ .

مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نُفْسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾

﴿ فعلية كفره ﴾ كلمة جامعة لما لا غاية وراه من المضار ، لأن من كان ضاره كفره ؛ فقد أحاطت به كل مضرة ﴿ فلا أنفسهم يمهدون ﴾ أي يسقون لأنفسهم ما يسويه لنفسه الذي يمهّد فراشه ويوطئه ، ثلاثا يصيبه في مضجعه ما ينييه عليه وينقص عليه مرقده : من تنوء أو قفض (١) أو بعض ما يؤذي الراقد . ويجوز أن يريد : فعلى أنفسهم يشفقون ، من قولهم في المشفق : أم فرشت فأنامت . وتقديم الظرف في الموضعين للدلالة على أن ضرر الكفر لا يعود إلا على الكافر لا يتعداه . ومنفعة الإيمان والعمل الصالح : ترجع إلى المؤمن لا تتجاوزهُ ﴿ ليجزي ﴾ متعلق يمهدون تعليل له ﴿ من فضله ﴾ مما يتفضل عليهم بعد توفية الواجب من الثواب ؛ وهذا يشبه الكناية ، لأن الفضل تبع للثواب ، فلا يكون إلا بعد حصول ما هو تبع له : أو أراد من عطائه وهو ثوابه ؛ لأن الفضول والفواضل هي الأعطية عند العرب . وتكرير ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ وترك الضمير إلى الصريح لتقرير أنه لا يفلح عنده إلا المؤمن الصالح . وقوله ﴿ إنه لا يحب الكافرين ﴾ تقرير بعده تقرير ، على الطرد والعكس .

(١) قوله « من تنوء أو قفض » التنوء : الارتفاع . والقفض : صغار الحمى . أفاده الصحاح . (ع)

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ
الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾

(الرياح) هي الجنوب والشمال والصبا، وهي رياح الرحمة. وأما الدبور، فرج العذاب. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم، اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا^(١)، وقد عدد الأغراض في إرسائها، وأنه أرسلها للبشارة بالغيث وإذابة الرحمة، وهي نزول المطر وحصول الخصب الذي يقبعه، والروح الذي مع هبوب الريح وزكاء الأرض. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا كثرت المؤتفكات زكت الأرض^(٢)، وإزالة العفونة من الهواء، وتذرية الحبوب، وغير ذلك (ولتجرى الفلك) في البحر عند هبوبها. وإنما زاد (بأمره) لأن الريح قد تهب ولا تكون مؤاتية^(٣)، فلا بد من إرساء السفن والاحتياط لحبسها، وربما عصفت فأغرقتها (ولتبتغوا من فضله) يريد تجارة البحر؛ ولتشكروا نعمة الله فيها. فإن قلت: بهم يتعلق وليذيقكم؟ قلت: فيه وجهان: أن يكون معطوفاً على مبشرات على الماضي، كأنه قيل: ليبشركم وليذيقكم. وأن يتعلق بمحذوف تقديره: وليذيقكم، وليكون كذا وكذا: أرسلناها.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقَمْنَا مِنْ
الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

اختصر الطريق إلى الغرض بأن أدرج تحت ذكر الانتصار والنصر ذكر الفريقين، وقد أدخل الكلام أولاً عن ذكرهما. وقوله (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) تعظيم للمؤمنين، ورفع من شأنهم، وتأهيل لكرامة سنية، وإظهار لفضل سابقة ومزية، حيث جعلهم مستحقين على الله أن ينصرهم، مستوجبين عليه أن يظهرهم ويظفرهم، وقد يوقف على (حقاً). ومعناه: وكان الانتقام منهم حقاً، ثم يبتدأ: (علينا نصر المؤمنين) وعن النبي صلى الله عليه وسلم «ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة»^(٤). ثم

(١) أخرجه الثعالبى: أخبرني من لا أنهم عن العلاء بن راشد عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً نحوه، ومن طريقه. أخرجه في المعرفة وفي الدعوات. وهذا المهم: هو إبراهيم بن أبي يحيى وهو ضعيف. وله طريق أخرى عند أبي يعلى والطبراني وابن عدى من رواية حسين بن قيس عن عكرمة به وحسين ضعيف أيضاً لم أجده.

(٢) قوله «ولا تكون مؤاتية» في الصحاح: آتيته على ذلك الأمر مؤاتاة، إذا وافقته. والعامة تقول: وآتيته. (ع)

(٣) أخرجه الترمذى وأحمد والطبراني من حديث أبي البرداء وقال حسن. ورواه إصحاق والطبراني وأبو يعلى وابن عدى من طريق شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد مرفوعاً نحوه وإسناده ضعيف. واختلف فيه على شهر

تلا قوله تعالى (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين).

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْثِرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا
فَقَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ
يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لُمِبِلسِينَ ﴿٤٩﴾

(فيسطه) متصلاً تارة (ويجعله كسفاً) أى قطعاً تارة (فقرى الودق يخرج من خلاله) في التارتين جميعاً . والمراد بالسحاب . سميت السحاب وشققها ، كقوله تعالى (وفرعها في السماء) ، وبإصابة العباد : إصابة بلادهم وأراضيهم (من قبله) من باب التكرير والتوكيد ، كقوله تعالى (فكان عاقبتهم أنهما في النار خالدين فيها) . ومعنى التوكيد فيه : الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول وبعد ، فاستحكم بأسهم وتمادى إبلاسه^(١) فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك .

فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُغْنِيهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ
لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

قري : أثر وآثار ، على الوحدة والجمع . وقرأ أبو حنيفة وغيره : كيف يحيي ، أى : الرحمة (إن ذلك) يعنى إن ذلك القادر الذى يحيي الأرض بعد موتها ، هو الذى يحيي الناس بعد موتهم (وهو على كل شيء) من المقدورات قادر ، وهذا من جملة المقدورات بدليل الإنشاء .

وَإِنَّا أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفًرًا تَلْطَلَّوْا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾
فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ

بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ صَلَاتِهِمْ إِنَّ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْمِعُونَ ﴿٥٣﴾

(فأروه) فأروا أثر رحمة الله . لأن رحمة الله هي الغيث ، وأثرها : النبات . ومن قرأ بالجمع : رجع الضمير إلى معناه ؛ لأن معنى آثار الرحمة النبات ، واسم النبات يقع على القليل والكثير . لأنه مصدر سمي به ما ينبت . ولئن : هي اللام الموطئة للقسم ، دخلت على حرف الشرط ، و (تطلوا) جواب القسم سدى الجوابين ، أعنى : جواب القسم وجواب الشرط ، ومعناه : ليظنن ذنوبهم الله تعالى بأنه إذا حبس عنهم القطر قنطوا من رحمته وضربوا أذقاهم

== ابن حوشب : فقال المداح عنه هكذا ، وقال ليث بن أبي سليم عنه عن أبي هريرة . أخرجه ابن مردويه .
(١) قوله (إبلاسه) ، الإبلان : لباس من الخيزر . والمسكوت ، والانكسار غما وحزناً . أفاده الصحاح . (ع)

على صدورهم مبلسين ، فإذا أصابهم برحمة و رزقهم المطر : استبشروا و ابتهجوا ، فإذا أرسل ريحاً فضرب زروعهم بالصفار ، ضجوا و كفروا بنعمة الله . فهم في جمع هذه الاحوال على الصفة المذمومة ، كان عليهم أن يتكلموا على الله و فضله ، ففقطوا . وأن يشكروا نعمته و يحمدهوا عليها . فلم يزيدوا على الفرح و الاستبشار . وأن يصبروا على بلائه ، فكفروا . و الريح التي اصفر لها النبات : يجوز أن تكون حروراً و حرجفا ، فكلتاها مما يصوح ^(١) له النبات و يصبح هشياً . وقال : مصفراً : لأن تلك صفرة حادثة . و قيل : فرأوا السحاب مصفراً ، لأنه إذا كان كذلك لم يطر .

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِيفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾

قري : بفتح الضاد و ضمها ، و هما لغتان ، و الضم أقوى في القراءة ، لما روى ابن عمر رضي الله عنهما : قال : قرأتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم من ضَعَف ، فأقرأني من ضُعَف ^(٢) . و قوله ﴿ خلقكم من ضعف ﴾ كقوله (خلق الإنسان من عجل) يعني أن أساس أمركم و ما عليه جبلتكم و بنيتكم الضعف (و خلق الإنسان ضعيفاً) أي ابتدأناكم في أول الامر ضعافاً . و ذلك حال الطفولة و النشء حتى بلغت وقت الاحتلام و الشيبه . و تلك حال القوة إلى الاكتمال و بلوغ الأشد ، ثم رددتم إلى أصل حالكم و هو الضعف بالشيخوخة و الهرم . و قيل : من ضعف من النطف ، كقوله تعالى (من ماء مهين) و هذا التردد في الاحوال المختلفة ، و التغيير من هيئة إلى هيئة و صفة إلى صفة : أظهر دليل و أعدل شاهد على الصانع العليم القادر .

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾

﴿ الساعة ﴾ القيامة ، سميت بذلك لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا . أولانها تقع بغتة و بديهة . كما تقول : وفي ساعة . لمن تستعجله ، و جرت علما لها كالنجم للثريا ، و الكوكب للزهرة . و أرادوا : لبثهم في الدنيا ، أو في القبور ، أو فيما بين فناء الدنيا إلى البعث . و في الحديث :

(١) قوله « و حرجفا ... الخ » في الصحاح « الحرجف » : الريح الباردة . وفيه أيضاً « صوحته الريح » : أيسته . (ع)

(٢) أخرجه أبو داود و الترمذي و إسماعيل و البزار من حديث عطية عن ابن عمر دون التفسير و رواه ابن مردويه من رواية أبي عمرو بن العلاء عن نافع عن ابن عمر لكن في إسناده سلام بن سليمان .

«ما بين فناء الدنيا إلى وقت البعث أربعون،^(١) قالوا : لنعلم أهي أربعون سنة أم أربعون ألف سنة ؟ وذلك وقت يقنون فيه وينقطع عذابهم ، وإنما يقعدرون وقت لبثهم بذلك على وجه استقصارهم له . أو ينسون أو يكذبون أو يخمنون (كذلك كانوا يؤفكون) أى مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون عن الصدق والتحقيق في الدنيا ، وهكذا كانوا يبنون أمرهم على خلاف الحق . أو مثل ذلك الإفك كانوا يؤفكون في الاغترار بما تبين لهم الآن أنه ما كان إلا ساعة .

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ
فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ
ظَلَمُوا مُعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾

القائلون : هم الملائكة ، والأنبياء ، والمؤمنون (في كتاب الله) في اللوح . أو في علم الله وقضائه . أو فيا كتبه ، أى : أوجه بحكمته . ردوا ما قالوه وحلفوا عليه ، وأطلعوهم على الحقيقة ثم وصلوا ذلك بتقريعهم على إنكار البعث بقولهم (فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون) أنه حق لتفريطكم في طلب الحق واتباعه . فإن قلت : ما هذه الغاء ؟ وما حقيقتها ؟ قلت : هي التي في قوله :

• فَقَدْ جِئْنَا خَرَّاسَانَا * (٢)

وحقيقتها : أنها جواب شرط يدل عليه الكلام : كأنه قال : إن صح ما قلتم من أن خراسان أقصى ما يراد بنا فقد جئنا خراسان ، وأن لنا أن نخلص ، وكذلك إن كنتم منكبين البعث فهذا يوم البعث ، أى فقد تبين بطلان قولكم . وقرأ الحسن يوم البعث ، بالتحريك (لا ينفع) قرىء بالياء والتاء. (يستعْتَبُونَ) من قولك : استعْتَبَنِي فلان فأعتبته . أى : استرضاني فأرضيته . وذلك إذا كنت جانبا عليه . وحقيقة أعتبته : أزلت عتبه . ألا ترى إلى قوله :

غَضِبْتُ تَعِيمُ أَنْ تُقْتَلَ عَامِرٌ يَوْمَ النَّسَارِ فَأَعْتَبُوا بِالْصُّلَمِ (٣)

(١) لم أجده هكذا . وفي الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعا « ما بين النفختين ، أربعون قالوا : يا أبا هريرة أربعون سنة ؟ قال : أبيت ، قالوا : أربعون شهرا ؟ قال : أبيت قالوا : أربعون يوما ؟ قال : أبيت » .

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة ٢٧١ فراجع إن شئت اه . مصححه .

(٣) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ١٠٥ فراجع إن شئت اه . مصححه .

كيف جعلهم غضاباً، ثم قال : فأعتبوا ، أى : أزيل غضبهم . والغضب فى معنى العتب . والمعنى : لا يقال لهم أرضوا ربكم بتوبة وطاعة ، ومثله قوله تعالى (لا يخرجون منها) ، (ولا هم يستعتبون) . فإن قلت : كيف جعلوا غير مستعتبين فى بعض الآيات ، وغير معتبين فى بعضها ، وهو قوله (وإن يستعتبوا فساهم من المعتبين ؟ قلت : أما كونهم غير مستعتبين : فهذا معناه . وأما كونهم غير معتبين ، فعناه : أنهم غير راضين بما هم فيه ، فشبهت حالهم بحال قوم جنى عليهم ، فهم عاتبون على الجانى غير راضين عنه ، فإن يستعتبوا الله : أى يسألوه إزالة ما هم فيه ، فساهم من المجابين إلى إزالته .

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَنْ جِثَّتْهُمْ بَايَةٌ
لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى
قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ
الَّذِينَ لَا يُؤْقِنُونَ ﴿٦٠﴾

(ولقد) وصفنا لهم كل صفة كأنها مثل فى غرابتها ، وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن ، كصفة المبعوثين يوم القيامة ، وقصصهم ، وما يقولون وما يقال لهم ، وما لا ينفع من اعتذارهم ولا يسمع من استعتابهم ، ولكنهم - لقسوة قلوبهم ومج أسماعهم حديث الآخرة - إذا جثت بهم بآية من آيات القرآن ، قالوا : جثتنا بزور وباطل ، ثم قال : مثل ذلك الطبع يطبع الله على قلوب الجلهة . ومعنى طبع الله : منع اللطاف ^(١) التى ينشرح لها الصدور حتى تقبل الحق ، وإنما يمنحها من علم أنها لا تجدى عليه ولا تغنى عنه ، كما يمنع الواعظ الموعظة من يتبين له أن الموعظة تلغو ولا تنجع فيه ، فوقع ذلك كناية عن قسوة قلوبهم وركوب الصدا والرين إياها . فسكانه قال : كذلك تقسو وتصدأ قلوب الجلهة ، حتى يسموا المحقين مبطلين ، وهم أعرق خلق الله ^(٢) فى تلك الصفة (فاصبر) على عداوتهم (إن وعد الله) بنصرتك وإظهار دينك على الدين كله (حق) لا بد من إنجازه والوفاء به ، ولا يحملتك على الخفة والقلق جزعاً بما يقولون ويفعلون فإنهم قوم شاكون ضالون لا يستبدع منهم ذلك . وقرئ بتخفيف النون . وقرأ ابن أبى إسحق

(١) قوله : ومعنى طبع الله منع اللطاف ، أوله بذلك بناء على أنه تعالى لا يخلق بشر وهو مذهب الممثلة .
وذمب أهل السنة إلى أنه يخلقهم كالخير ، فالآية على ظاهرها . (ع)

(٢) قوله : وهم أعرق خلق الله ، فى الصحاح : أعرق الرجل ، أى : صار عريقاً ، وهو الذى له عرق فى الكرم . (ع)

ويعقوب : ولا يستحقنك ، أى : لا يفتننك فيملكوك ويكونوا أحق بك من المؤمنين .
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من قرأ سورة الروم كان له من الاجر عشر حسنات
بعدد كل ملك سبح الله بين السماء والأرض وأدرك ماضيع في يومه وليلته ، (١) .

سورة لقمان

مكية [إلا الآيات ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ فمدنية]

وآياتها ٣٤ وقيل ٣٣ [نزلت بعد الصفات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ٣
الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤
أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٥

(الكتاب الحكيم) ذى الحكمة . أو وصف بصفة الله تعالى على الإسناد المجازى . ويجوز
أن يكون الأصل : الحكيم قائله ، لحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، فبانقلابه مرفوعا
بعد الجر استكن في الصفة المشبهة (هدى ورحمة) بالنصب على الحال عن الآيات ، والعامل فيها :
ما فى تلك من معنى الإشارة . وبالرفع على أنه خبر بعد خبر ، أو خبر مبتدأ محذوف (للمحسنين)
للذين يعملون الحسنات وهى التى ذكرها : من إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والإيقان بالآخرة
ونظيره قول أوس :

الْأَلْمَى الَّذِى يَظُنُّ بِكَ الظَّنَّ كَأَن قَدْ رَأَى وَقَدْ صَمِمَا (٢)

(١) أخرجه التلمبى وابن مردويه والواحدى بإسنادهم إلى أبى بن كعب .

(٢) أبى النفس الحلى جزعا إن الذى تخذرن قد وقعا

إن الذى جمع الساحة والنسجدة والبر والتقى جمعا
الأمى الذى يظن بك الظن كان قد رأى وقد سمعا

حكى عن الأصمعي : أنه سئل عن الالمى فأنشده ولم يزد . أو للذين يعملون جميع ما يحسن من الأعمال ، ثم خص منهم القائلين بهذه الثلاث بفضل اعتداد بها .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَتِلْكَ مِثْلُ نَفْثِ الْمُسْكَبِ

كَأَنَّ لَمْ يَسْمَعَهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقَرَّاقِبَتُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾

اللهو كل باطل ألهى عن الخير وعما يعني (لهو الحديث) نحو السمر بالأساطير والاحاديث التي لا أصل لها ، والتحدث بالخرافات والمضاحيك وفضول الكلام ، ومالا ينبغى من كان وكان ، ونحو الغناء وتعلم الموسيقى^(١) ، وما أشبه ذلك . وقيل : نزلت في النضر بن الحرث ، وكان يتجر إلى فارس ، فيشتري كتب الأعاجم فيحدث بها قريشا ويقول : إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بأحاديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة ، فيستمعون حديثه ويتركون استماع القرآن . وقيل : كان يشتري المغنيات ، فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته فيقول : أطعميه واسقيه وغنيه ، ويقول : هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه . وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم ولا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن ولا التجارة فيهن ولا أثمانهن^(٢) . وعنه صلى الله عليه وسلم ما من رجل

أودى فلا تنفع الاشاعة من أمر لمن يحاول البدعا

لاوس بن حجر ، يرى فضالة بن كعدة . يقول : يأنفح احتمل جزاء عظيما ، إن الذي تخافين منه قد حصل ، وبينه بقوله : إن الذي جمع المكارم كلها أودى ، أى : هلك . وجمع - بالضم - : تولى للأصناف قبله . والالمى : نصب على الصفة للذى ، وفسره بأنه الذى يظن بك ، يعنى كل مخاطب ، أى : يظن لقمان الحق ، كأنه قد رأى وسمع ما ظنه أو يظن الظن فيصيب ، كأنه قد رآه إن كان فعلا ، أو سمعه إن كان قولاً . وفيه نوع من البديع يسمى التفسير ، وهو أن يؤتى بمعنى لا يستقل الفهم بمعرفته بدون تفسيره ، ذكره السيوطى في شرح عقود الجمان . والاشاعة : الشجاعة والجد في القتال . وضمن « تنفع » معنى : تحفظ ، فعدها بمن ، أى : فلا تحفظ الشجاعة من مكروه أحد . وعدها باللام ، نظراً للفظه . والأقرب أن من واللام زائدتان لتوكيد الكلام ، أى : فلا تنفع الاشاعة شيئاً من النفع أحد من الناس يحاول ويطلب بدائع الأمور وعظائمها ، يعنى : أن فضالة كان كذلك فأت ، وفيه نوع تسل . (١) قوله « وتعلم الموسيقى » يونانية . ومعناه : علم الغناء ، وبغير راء : ذات الغناء ، كذا قيل . (ع) .

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم وغيرهما من رواية عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة بهذا . وهو عند أحد وابن أبي شيبة والترمذى وأبو يعلى من هذا الوجه وهو ضعيف ، ورواه الطبراني من طريق يحيى بن الحارث عن القاسم نحوه . وله طريق آخر عند ابن ماجه من رواية عبيد الله الأفرقي عن أبي أمامة ، قال : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع المغنيات وعن شراهن ، وعن كسبن وعن أكل أثمانهن وفي الباب عن عمر . أخرجه الطبراني وابن عدى من رواية يزيد بن عبد الملك التوفلى عن يزيد بن

يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شيطانين : أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب ، فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتى يكون هو الذى يسكت ^(١) . وقيل : الغناء منفذة للبال ، مسخطة للرب ، مفسدة للقلب . فإن قلت : مامعنى إضافة اللهو إلى الحديث ؟ قلت : معناها التدين ، وهى الإضافة بمعنى من . وأن يضاف الشيء إلى ما هو منه ، كقولك : صفة خز ، وباب ساج ^(٢) . والمعنى : من يشتري اللهو من الحديث ؛ لأن اللهو يكون من الحديث . ومن غيره ، فبين الحديث . والمراد بالحديث . الحديث المنكر ، كما جاء فى الحديث : « الحديث فى المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش » ^(٣) ، ويجوز أن تكون الإضافة بمعنى « من ، التبعية ، كانه قيل : ومن الناس من يشتري بعض الحديث الذى هو اللهو منه . وقوله (يشتري) إما من الشراء ، على ما روى عن النضر : من شراء كتب الأعاجم أو من شراء القيان . وإما من قوله (اشترؤا الكفر بالإيمان) أى استبدلوه منه واختاروه عليه . وعن قتادة : اشتراؤه : استحبابه ، يختار حديث الباطل على حديث الحق . وقرئ : (ليضل) بضم الياء وفتحها . و(سبيل الله) دين الإسلام أو القرآن . فإن قلت : القراءة بالضم بيئة ، لأن النضر كان غرضه باشتراء اللهو : أن يصد الناس عن الدخول فى الإسلام واستماع القرآن ويضلهم عنه ، فما معنى القراءة بالفتح ؟ قلت : فيه معنيان ، أحدهما : ليثبت على ضلاله الذى كان عليه ، ولا يصدف عنه ، ويزيد فيه ويمده ، فإن المخذول كان شديد الشكيمة فى عداوة الدين وصد الناس عنه . والثانى : أن يوضع ليضل موضع ليضل ، من قبل أن من أضل كان ضالا لا محالة ، فدل بالردف على المردوف . فإن قلت : مامعنى قوله (بغير علم) ؟ قلت : لما جعله مشتريا لهو الحديث بالقرآن قال : يشتري بغير علم بالتجارة وبغير بصيرة بها ، حيث يستبدل الضلال بالهدى والباطل بالحق . ونحوه قوله تعالى (فأرجحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) أى : وما كانوا مهتدين للتجارة بصراء بها : وقرئ (ويتخذها) بالنصب والرفع عطفا على يشتري . أو ليضل ، والضمير للسبيل ؛ لأنها مؤنثة ، كقوله تعالى (وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا) .

== خفيف عن السائب بن يزيد عن عمر نحوه ، ويزيد بن عبد المطلب ضعيف وعن على أخرجه أبو يعلى وابن عدى . وفيه الحارث بن نهان وهو ضعيف ، وعن عائشة أخرجه البيهقي وفيه ليث بن أبي سليم وهو ضعيف .
(١) أخرجه أبو يعلى وإسحاق والحارث من طريق أبي أمامة وهو عند الطبراني من رواية يحيى بن الحارث عن القاسم فى الحديث الذى قبله .

(٢) قوله « كقولك صفة خز وباب ساج » ، لم يعرف . وأصله جة خز ، ثم رأيت فى الصحاح : صفة الدار والسر : واحدة للصفاه . فلعل صفة السرج تكون من خز . (ع)
(٣) تقدم فى براءة .

(ولى مستكبراً) زاماً^(١) لا يعبأ بها ولا يرفع بها رأساً : تشبه حاله في ذلك حال من لم يسمعها وهو سامع (كان في أذنيه وقرا) أى ثقلاً ولا وقر فيهما ، وقرى : يسكون الذال . فإن قلت : ما محل الجملتين المصدرتين بكأن ؟ قلت : الأولى حال من مستكبراً والثانية من لم يسمعها : ويجوز أن تكونا استئنافين ، والأصل في كأن المخففة : كأنه ، والضمير : ضمير الشأن .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ۝ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ (٩) خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝ (١١)

(وعده الله حقاً) مصدران مؤكدان ، الأول : مؤكد لنفسه والثاني مؤكد لغيره : لأن قوله (لهم جنات النعيم) في معنى : وعدهم الله جنات النعيم ، فأكد معنى الوعد بالوعد . وأما (حقاً) فإدال على معنى الثبات : أكد به معنى الوعد . ومؤكدهما جميعاً قوله (لهم جنات النعيم) (وهو العزيز) الذى لا يغلبه شئ ولا يعجزه ، يقدر على الشئ وضده ، فيعطى النعيم من شاء والبؤس من شاء ، وهو (الحكيم) لا يشاء إلا ما توجب الحكمة والعدل (ترونها) الضمير فيه للسّموات ، وهو استشهاد برؤيتهم لها ، غير معمودة على قوله (بغير عمد) كما تقول لصاحبك : أنا بلا سيف ولا رمح ترائى فإن قلت : ما محلها من الإعراب ؟ قلت : لا محل لها لأنها مستأنفة . أو هى فى محل الحز صفة للعمد أى : بغير عمد مرئية ، يعنى : أنه عمدها بعمد لا ترى ، وهى إمساكها بقدرته (هذا) إشارة إلى ما ذكر من مخلوقاته . والمخلوق بمعنى المخلوق . و (الذين من دونه) آلهتهم ، بكتهم بأن هذه الأشياء العظيمة مما خلقه الله وأنشأه . فأرونى ماذا خلقته آلهتكم حتى استوجبوا عندكم العبادة ، ثم أضرب عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالتورط فى ضلال ليس بعده ضلال .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝ (١٢)

هو لقمان بن باعورا : ابن أخت أيوب أو ابن خالته . وقيل : كان من أولاد آزر ، وعاش

(١) قوله «زاماً لا يعبأ بها» فى الصحاح : زم بأنفه ، أى : تكبر ، فهو زام . (ع)

ألف سنة ، وأدرك داود عليه السلام وأخذ منه العلم ، وكان يفتي قبل مبعث داود عليه السلام ، فلما بعث قطع الفتوى ، فقبل له ؟ فقال : ألا أكتفي إذا كفيت ؟ وقيل : كان قاضياً في بني إسرائيل ، وأكثر الأفاويل أنه كان حكيماً ولم يكن نبياً ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : لقمان لم يكن نبياً ولا ملكاً . ولكن كان راعياً أسود ، فرزقه الله العتق ، ورضى قوله ووصيته ، فقص أمره في القرآن لتذكروا بوصيته . وقال عكرمة والشعمي : كان نبياً . وقيل : خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة ^(١) . وعن ابن المسيب : كان أسود من سودان مصر خياطاً ، وعن مجاهد : كان عبداً أسود غليظ الشفتين متشفق ^(٢) القدمين . وقيل : كان نجاراً . وقيل : كان راعياً وقيل : كان يحتطب لمولاه كل يوم حزمة . وعنه أنه قال لرجل ينظر إليه : إن كنت ترائي غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق ، وإن كنت ترائي أسود فقلبي أبيض . وروى أن رجلاً وقف عليه في مجلسه فقال : أأنت الذي ترعى معي في مكان كذا ؟ قال : بلى . قال ما بلغ بك ما أرى ؟ قال : صدق الحديث والصمت عما لا يعني . وروى أنه دخل على داود عليه السلام وهو يسرد الدرع وقد لين الله له الحديد كالطين ، فأراد أن يسأله فأدركته الحكمة فسكت ، فلما أتمها لبسها وقال : نعم لبوس الحرب أنت . فقال : الصمت حكمة وقليل فاعله ، فقال له داود : بحق ما سميت حكيماً . وروى أن مولاه أمره بذبح شاة وبأن يخرج منها أطيب مضغتين ، فأخرج اللسان والقلب ، ثم أمره بمثل ذلك بعد أيام وأن يخرج أخبث مضغتين فأخرج اللسان والقلب ، فسأله عن ذلك ؟ فقال : هما أطيب ما فيها إذا طابا ، وأخبث ما فيها إذا خبثا . وعن سعيد بن المسيب أنه قال للأسود : لا تحزن ، فإنه كان من خير الناس ثلاثة من السودان : بلال ، ومهجع مولى عمر ، ولقمان . (إن) هي المفسرة ، لأن إتياء الحكمة في معنى القول ، وقد نبه الله سبحانه على أن الحكمة الأصلية والعلم الحقيقي : هو العمل بهما وعبادة الله والشكر له ، حيث فسر إتياء الحكمة بالبعث على الشكر (غنى) غير محتاج إلى الشكر (حميد) حقيق بأن يحمد وإن لم يحمده أحد .

وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾

قيل : كان اسم ابنه وأنعم ، وقال الكلبي : وأشكم ، وقيل : كان ابنه وامرأته كافرين ، فما زال

(١) ذكر محمود في ذلك اختلاف العلماء في نبوته ، وذكر أئمة ذلك أنه خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة . قال أحمد : وفي هذا بعد بين ، وذلك أن الحكمة داخلية في النبوة ، وقطرة من بحرهما ، وأعلى درجات الحكماء تنحط عن أدنى درجات الأنبياء بما لا يقدر قدره . وليس من الحكمة اختيار الحكمة المجردة من النبوة ،

(٢) قوله « متشفق » في الصحاح : « الصفق » : الودى من الأشياء . يقال : غطاء مشفق ، أى : مقلل أم والظاهر أنه متشفق بقافين . (ع)

بهما حتى أسلما ﴿لظلم عظيم﴾ لأن التسوية بين من لا نعمة إلا هي منه ، ومن لا نعمة منه البتة ولا يتصور أن تكون منه - : ظلم لا يكتته عظمه .

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلُهِ فِي عَامَيْنِ أَنْ
أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْعَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَى
نُفٍّ إِلَى مَرَجِعِكُمْ فَأَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

أى ﴿حملته﴾ تن ﴿وهنا على وهن﴾ كقولك رجع عودا على بدء ، بمعنى : يعود عوداً على بدء ، وهو فى موضع الحال . والمعنى : أنها تضعف ضعفاً فوق ضعف ، أى : يتزايد ضعفها ويتضاعف ؛ لأن الحمل كلما ازداد وعظم ، ازدادت ثقلاً وضعفاً . وقرئ : وهنا على وهن ، بالتحريك عن أبى عمرو . يقال : وهن يوهن . ووهن يهن . وقرئ : وفصله ﴿أن اشكر﴾ تفسير لوصينا ﴿ماليس لك به علم﴾ أراد بنى العلم به فقيه ، أى : لا تشرك بى ماليس بشئ^(١) ، يريد الأصنام ، كقوله تعالى (ما يدعون من دونه من شئ) . ﴿معروفا﴾ صحاباً ، أو مصاحباً معروفاً حسناً بخلق جميل وحلم واحتمال وبر وصلة ، وما يقتضيه الكرم والمروءة ﴿واتبع سبيل من أناب إلى﴾ يريد : واتبع سبيل المؤمنين فى دينك ولا تتبع سبيلهما فيه - وإن كنت مأموراً بحسن مصاحبتهم فى الدنيا - ثم إلى مرجعك و مرجعهم ، فأجازيك على إيمانك وأجازيها على كفرهما ، علم بذلك حكم الدنيا وما يجب على الإنسان فى صحبتها ومعاشرتهما : من مراعاة حق الأبوة وتعظيمه ، ومالها من المواجه التى لا يسوغ الإخلال بها ، ثم بين حكمهما وحالهما فى الآخرة . وروى : أنها نزلت فى سعد بن أبى وقاص وأمه . وفى القصة : أنها مكثت ثلاثاً لا تطعم ولا تشرب حتى شجروا فإها^(٢) يعود . وروى أنه قال : لو كانت لها سبعون نفساً فخرجت ، لما أرادت إلى الكفر . فإن قلت : هذا الكلام كيف وقع فى أثناء وصية لقمان ؟ قلت : هو كلام اعترض به على سبيل الاستطراد ، تأكيداً لما فى وصية لقمان من النهى عن الشرك . فإن قلت : فقوله ﴿حملته أمه وهنا على وهن وفصله فى عامين﴾ كيف اعترض به بين المفسر والمفسر ؟ قلت : لما

(١) قال محمود : «معناه : ماليس بشئ» ، وعبر بنى العلم عن نبي المعلوم . قال أحمد : هو من باب قوله : على لاجب لا يهتدى بمناره . أى : ماليس باله فيكون لك علم بالالهية . وليس كما ذكره فى قول فرعون (ما علمت لكم إله غيري) وقد مر معناه فيما تقدم .

(٢) قوله : حتى شجروا فإها يعود . فى الصحاح : شجره بالوخ ، أى : طمنه . (ع)

وصى بالوالدين : ذكر ما تكابده الأم وتعاينه من المشاق والمتاعب في حمله وفصاله هذه المدة المتطاولة ، إيجاباً للتوصية بالوالدة خصوصاً ^(١) . وتذكيراً بحقها العظيم مفرداً ، ومن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن قال له : من أبر ؟ أمك ثم أمك ثم أمك ، ثم قال بعد ذلك : ثم أباك ^(٢) . وعن بعض العرب أنه حمل أمه إلى الحج على ظهره وهو يقول في حديثه بنفسه :

أَحْمِلُ أُمِّي وَهِيَ الْحَمَّالَةُ * تَرْضَعُنِي الدُّرَّةَ وَالْعَلَّالَةَ * وَلَا يُجَازِي وَالِدُ فَعَالَةٍ ^(٣)

فإن قلت : ما معنى توقيت الفصال بالعامين ؟ قلت : المعنى في توقيته بهذه المدة أنها الغاية التي لا تتجاوز ، والأمر فيما دون العامين موكول إلى اجتهاد الأم : إن علمت أنه يقوى على الطعام فلها أن تقطعه . ويدل عليه قوله تعالى (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة) وبه استشهد الشافعي رضي الله عنه على أن مدة الرضاع سنتان ، لا تثبت حرمة الرضاع بعد انقضائهما ، وهو مذهب أبي يوسف ومحمد . وأما عند أبي حنيفة رضي الله عنه . فمدة الرضاع ثلاثون شهراً . وعن أبي حنيفة : إن قطمته قبل العامين فاستغنى بالطعام ثم أرضعته ، لم يكن رضاعاً . وإن أكل أكل ضعيفاً لم يستغن به عن الرضاع ثم أرضعته ، فهو رضاع محرم .

يَبْنِي إِيَّاهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَعْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ

أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنْ اللَّهُ لَظَلِيمٌ خَيْرٌ ^(١٦)

قري (مثقال حبة) بالنصب والرفع ، فن نصب كان الضمير للهنة ^(١) من الإساءة أو الإحسان ،

(١) قال محمود : « فيه تخصيص حق الأم ، وهو مطابق لبدايته ، فذكرها في وجوب البر في الحديث المأثور » قال أحمد : وهذا من قبيل ما يقوله الفقهاء : إن اللأم من عمل الولد قبل الحلم جله ، وهو مما يفيد تأكيد حقها ، والله أعلم .

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال « قلت يا رسول الله من أبر ؟ الحديث » وله شاهد في الصحيحين من حديث أبي زرعة عن أبي هريرة قال « جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من أحق بصحابي ؟ - الحديث »

(٣) لعري يحمل أمه إلى الحج ، وهي الحالة : جملة جالية ، أي : كثيرة الحل حسب ما كان . أو من عاداتها ذلك ، وترضع : حال متداخلة ، والدرّة - بالضم : كثرة اللبن وسيلانه ، والمراد بها : اللبن الكثير . والعلالة - بالضم : بقية اللبن ، والحلبة بين الحلبيين ، وتطلق على بقية جرى الفرس . والعلل : للشرب الثاني ، والشرب الأول التل : وروى ترضعني الدرّة . والفعال - بالفتح - : فعل الخير وأراد بالوالد : الأم ، أو ما يشمل الأب والأم .

(٤) قوله « للهنة من الإساءة » في الصحاح « هن : على وزن أخ : كلمة كناية . ومعناه : شيء . ومؤنثه :

هنة . والقائمة : الصغر والحقارة . كذا في الصحاح (ع)

أى: إن كانت مثلاً في الصغر والقمامة كحبة الخردل ، فكانت مع صغرها في أخفى موضع وأحرزه بجوف الصخرة ^(١) أو حيث كانت في العالم العلوى أو السفلى ﴿يأت بها الله﴾ يوم القيامة فيحاسب بها عاملها ﴿إن الله لطيف﴾ يتوصل عليه إلى كل خفى ﴿خير﴾ عالم بكنهه . وعن قتادة : لطيف باستخراجها ، خير بمستقرها . ومن قرأ بالرفع : كان ضمير القصة ، وإنما أنت المتقال لإضافته إلى الحبة ، كما قال :

• كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ الْقَنَازِ مِنَ الدِّيمِ • ^(٢)

وروى أن ابن لقمان قال له : رأيت الحبة تكون في مقل البحر - أى : في مغاصه - يعلمها الله ؟ فقال : إن الله يعلم أصغر الأشياء في أخفى الأماكن : لأن الحبة في الصخرة أخفى منها في الماء . وقيل : الصخرة هي التي تحت الأرض ، وهي السجين يكتب فيها أعمال الكفار . وقرئ : فتكن ، بكسر الكاف . من وكن الطائر يكن : إذا استقر في وكنهه ، وهي مقره ليلاً .

يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ

إِنْ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ^(١٧)

﴿واصبر على ما أصابك﴾ يجوز أن يكون عاماً في كل ما يصيبه من المحن ، وأن يكون خاصاً بما يصيبه فيما أمر به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : من أذى من يبعثهم على الخير وينكر عليهم الشر ﴿إن ذلك﴾ بما عزمه الله من الأمور ، أى : قطعه قطع إيجاب والزام . ومنه الحديث ولا صيام لمن لم يعزم الصيام من الليل ^(٣) ، أى لم يقطعه بالنية : ألا ترى إلى قوله عليه السلام «لمن لم يبيت الصيام» ^(٤) ومنه «إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه» ^(٥)

(١) قال محمود : « هذا من البدع الذي يسمى التتيم » قال أحمد : يعني أنه تم خلفاً ما في نفسها بخفاء مكانها من الصخرة ، وهو من وادى قولها كأنه علم في رأسه نار .

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٣٩٥ فراجع إن شئت اه مصححه .

(٣) تقدم في البقرة .

(٤) تقدم أيضاً .

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة وابن عدى من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة «أن رجلاً قال يا رسول الله ، أقصر الصلاة في سفرى ؟ قال : نعم ، إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بفريضته» وفيه عمر بن عبد الله بن أبي غشم البجلي وهو مشكر الحديث : قاله ابن عدى ، وأخرجه أيضاً من طريق سعد بن سعيد بن أبي سعيد ، حدثني أخى عبد الله عن أبيه . عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه ، ورواه ابن حبان وأحمد والبخاري ، وأبو يعلى من رواية حرب ابن قيس عن نافع عن ابن عمر بلفظ «إن الله يحب أن تؤخذ رخصه كما يحب أن تؤخذ عزائمه» وفي الباب عن ابن عباس . أخرجه ابن حبان والطبراني وأبو نعيم في الحلية من رواية هشام بن حسان عن عكرمة عنه بلفظ ابن عمر =

وقولهم : عزمة من عزمات ربنا . ومنه : عزمات الملوك . وذلك أن يقول الملك لبعض من تحت يده : عزمت عليك إلا فعلت كذا ، إذا قال ذلك لم يكن للبعزم عليه بد من فعله ولا مندوحة في تركه . وحقيقته : أنه من تسمية المفعول بالمصدر ، وأصله من معزومات الأمور ، أى : مقطوعاتها ومفروضاتها . ويجوز أن يكون مصدرا في معنى الفاعل . أصله : من عزمات الأمور ، من قوله تعالى (فإذا عزم الأمر) كقولك : جد الأمر ، وصدق القتال . وناهيك هذه الآية مؤذنة بتقديم هذه الطاعات ، وأنها كانت مأمورا بها في سائر الأمم . وأن الصلاة لم تزل عظيمة الشأن ، سابقة القدم على ما سواها ، موصى بها في الأديان كلها .

وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝ ١٨ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ

الأصوات لصوت الحميم ١٩

تصاعر . وتصعر : بالتشديد والتخفيف . يقال : أصعر خدّه . وصعره ، وصاعره : كقولك أعلاه وعلاه وعلاه : بمعنى . والصعر والصيد : داء يصيب البعير يلوى منه عنقه . والمعنى : أقبل على الناس بوجهك تواضعا ، ولا تولهم شق وجهك وصفحته ، كما يفعل المتكبرون . أراد : (ولا تمش) تترحم (مرحا) أو أوقع المصدر موقع الحال بمعنى مرحا . ويجوز أن يريد : ولا تمش لأجل المرح والأشر ، أى لا يكن غرضك في المشي البطالة والأشر كما يمشي كثير من الناس لذلك ، لا لكفاية مهم ديني أو دنيوي . ونحوه قوله تعالى (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطر وأورثاء الناس) . والمختال : مقابل للباشي مرحا . وكذلك الفخور للبصر خدّه كبيرا (واقصد في مشيك) واعدل فيه حتى يكون مشيا بين مشيين : لا تندب ديبب المتأوتين ، ولا تثب وثيب الشطار . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن » (١) وأما قول

== وعن ابن مسعود أخرجه الطبراني والعقيلي وأبو نعيم من رواية معمر بن عبد الله الأنصاري عن شعبة عن الحكم عن إبراهيم عن علقمة عنه تفرد برفعه معمر ، ووقفه غندر وروح بن عباد وغيرهما عن شعبة . أخرجه ابن أبي شيبة وغيره . وعن عائشة : أخرجه ابن عدى من رواية الحكم بن عبد الله الأيلي عن القاسم عن عائشة ومن رواية عمر بن عبيد البصري عن مشام عن أبيه عنها والحكم وعمر ضعيفان . وأخرجه الطبراني في الأوسط من طريق إسماعيل بن عيسى العطار ، حدثنا عمر بن عبد الجبار ، حدثنا عبد الله بن زيد بن آدم عن أبي الدرداء وأبي أمامة وائلة وأنس به وقال : لا يروى إلا بهذا الاسناد تفرد به إسماعيل . قلت : والاسناد مجهول . قوله « وقولهم عزمة من عزمات ربنا » هذا طرف من حديث أخرجه أبو داود والنسائي وأحمد والحاكم والبيهقي من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ، في أثناء حديثه قال فيه « ومن منعها يعني الزكاة فانا آخذوها وشرط ماله عزمة من عزمات ربنا ليس لآل محمد منها شيء وإسناده حسن .

(١) جاء من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وابن عمر ، وأخرجه ابن عدى من رواية عمار بن مطرود وهو =

عائشة في عمر رضى الله عنهما ، كان إذا مشى أسرع ،^(١) فإنما أرادت السرعة المرتفعة عن ديب المتماوت . وقرئ : وأقص ، بقطع الهمزة ، أى : سدد في مشيك من أقصد الرامى إذا سدد سهمه نحو الرمية ﴿واغضض من صوتك﴾ وانقص منه وأقصر ؛ من قولك : فلان يفض من فلان إذا قصر به ووضع منه ﴿أنكر الأصوات﴾ أو حشها ، من قولك : شئ نكر ، إذا أنكرته النفوس واستوحشت منه ونفرت . والجمار مثل في الذم البليغ والشتيمة ، وكذلك نهاقه . ومن استفحاشهم لذكره مجردا وتقاديبهم من اسمه : أنهم يكونون عنه ويرغبون عن التصريح به ، فيقولون : الطويل الأذنين ، كما يمكن عن الأشياء المستفدرة : وقد عد في مساوى الآداب : أن يجرى ذكر الجمار في مجلس قوم من أولى المروءة . ومن العرب من لا يركب الجمار استنكافا وإن بلغت منه الرحلة^(٢) ، فتشبهه الرافعين أصواتهم بالخير ، وتمثيل أصواتهم بالنهاق ، ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه وإخراجه مخرج الاستعارة - وإن جعلوا حميرا أصواتهم نهاقا - ومبالغة شديدة في الذم والتهجين وإفراط في التثبيط عن رفع الصوت والترغيب عنه . وتنبه على أنه من كراهة الله بمكان . فإن قلت : لم وحد صوت الخير ولم يجمع ؟ قلت : ليس المراد أن يذكر صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع ، وإنما المراد أن كل جنس من الحيوان الناطق له صوت ، وأنكر أصوات هذه الأجناس صوت هذا الجنس ، فوجب توحيده .

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا

كِتَابُ مُنِيرٍ ٢٠

﴿ما في السموات﴾ الشمس والقمر والنجوم والسحاب وغير ذلك ﴿وما في الأرض﴾ البحار والأنهار والمعادن والدواب وما لا يحصى ﴿وأسبغ﴾ وقرئ بالسين والصاد ، وهكذا كل سين اجتمع معه الغين والخاء والقاف ، تقول في سلخ ، صلخ ، وفي سقر : صقر ، وفي سالغ : صالغ^(٣)

== متروك ، وقد تابعه الوليد بن سلة وهو أوهى منه ، لكنه قال : عن ابن أبي ذئب عن المغيرة عن أبي سعيد والوليد بن سلة . وفيه إسناد آخر أخرجه ابن عدى من روايته عن عمرو بن صهبان عن نافع عن ابن عمر ، وأخرجه أبو نعيم في الحلية من طريق أبي معشر عن سعيد عن أبي هريرة وإسناده ضعيف أيضاً (١) ذكره ابن الأثير في النهاية ، قلت : لعله أخذه عن الفائق ، وفي الطبقات لابن سعد من رواية سليمان ابن أبي حشمة قال قالت الشفاء بنت عبد الله ، وهى أم سليمان : كان هر إذا مشى ... فذكره .

(٢) قوله : منه الرحلة ، أى : المشى برجله ، يعنى : وإن أتبعه المشى وعدم الركوب . وفي الصحاح : الرجل ، بالتحريك : مصدر قولك : رجل - بالكسر - أى : بقى راجلا . (ع)

(٣) قوله : «وفي سالغ صالغ» في الصحاح : سلفت البقرة والشاء ، إذا أسقطت السن التي خلفت السديس ==

وقرى: نعمه، ونعمة، ونعمته. فإن قلت: ما النعمة؟ قلت: كل نفع قصد به الإحسان، والله تعالى خلق العالم كله نعمة؛ لأنه إما حيوان، وإما غير حيوان. فإليس بحيوان نعمة على الحيوان، والحيوان نعمة من حيث أن إيجاداً نعمة عليه. لأنه لو لا إيجاداً حياً لما صح منه الانتفاع، وكل ما أدى إلى الانتفاع وصححه فهو نعمة. فإن قلت: لم كان خلق العالم مقصوداً به الإحسان؟ قلت: لأنه لا يتخلقه إلا لغرض، وإلا كان عبثاً، والعبث لا يجوز عليه ولا يجوز أن يكون لغرض راجع إليه من نفع؛ لأنه غنى غير محتاج إلى المنافع، فلم يبق إلا أن يكون لغرض يرجع إلى الحيوان وهو نفعه. فإن قلت: فما معنى الظاهرة والباطنة؟ قلت: الظاهرة كل ما يعلم بالمشاهدة، والباطنة ما لا يعلم إلا بدليل، أو لا يعلم أصلاً، فكيف في بدن الإنسان من نعمة لا يعلمها ولا يهتدى إلى العلم بها، وقد أكثروا في ذلك: فغن مجاهد: الظاهرة ظهور الإسلام والنصرة على الأعداء، والباطنة: الأمداد من الملائكة. وعن الحسن رضى الله عنه: الظاهرة: الإسلام. والباطنة: السر. وعن الضحاك: الظاهرة: حسن الصورة، وامتداد القامة. وتسوية الأعضاء. والباطنة: المعرفة. وقيل: الظاهرة البصر، والسمع، واللسان، وسائر الجوارح الظاهرة. والباطنة: القلب، والعقل، والفهم، وما أشبه ذلك. ويروى في دعاء موسى عليه السلام: إلهي، دنني على أخفى نعمتك على عبادك؛ فقال: أخفى نعمتي عليهم النفس. ويروى: أن أيسر ما يعذب به أهل النار: الأخذ بالأنفاس^(١).

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلَى نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا

أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١)

معناه (أ) يتبعونهم (ولو كان الشيطان يدعوهم) أى في حال دعاء الشيطان إياهم إلى العذاب.

وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَىٰ

اللَّهِ عَقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢)

قرأ على بن أبي طالب رضى الله عنه: ومن يسلم بالتشديد، يقال: أسلم أمرك وسلم أمرك إلى الله. فإن قلت: ماله عدى يالى، وقد عدى باللام في قوله (لى من أسلم وجهه لله)؟ قلت: معناه مع اللام: أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالماً لله. أى خالصاً له. ومعناه - مع إلى -:

== والبولغ في ذوات الأطلاق: بمنزلة البزل في ذوات الأخفاف. (ع)

(١) لم أجده.

أنه سلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه . والمراد : التوكل عليه والتفويض إليه ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ من باب التمثيل : مثلت حال المتوكل بحال من أراد أن يتدلى من شاق ، فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه ﴿ وإلى الله عاقبة الأمور ﴾ أى هى صائرة إليه .

وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤)

قرى : يحزنك ، ويحزنك : من حزن ، وأحزن . والذي عليه الاستعمال المستفيض : أحزنه ويحزنه . والمعنى : لا يهمنك كفر من كفر وكيدك للإسلام ، فإن الله عز وجل دافع كيدك في نحره ، ومنتقم منه ، ومعاقبه على عمله ﴿ إن الله ﴾ يعلم ما فى صدور عباده ، فيفعل بهم على حسبه ﴿ نمتعهم ﴾ زمانا ﴿ قليلا ﴾ بذنباهم ﴿ ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ شبه إلزامهم التعذيب وإرهاقهم إياه باضطراب المضطر إلى الشيء الذى لا يقدر على الانفكاك ^(١) منه . والغلط : مستعار من الأجرام الغليظة . والمراد . الشدة والثقل على المعذب .

وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥) اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧)

﴿ قل الحمد لله ﴾ إلزام لهم على إقرارهم بأن الذى خلق السموات والارض هو الله وحده ، وأنه يجب أن يكون له الحمد والشكر . وأن لا يعبد معه غيره . ثم قال ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ أن ذلك يلزمهم ، وإذا نهوا عليه لم ينتبهوا ﴿ إن الله هو الغنى ﴾ عن حمد الحامدين المستحق للحمد ، وإن لم يحمده .

(١) قال محمود : « شبه إلزامهم التعذيب باضطراب المضطر إلى الشيء الذى لا يقدر على الانفكاك منه » قال أحمد : وتفسير هذا الاضطراب فى الحديث فى أنهم لشدة ما يكابدون من النار يطلبون البرد ، فيرسل الله عليهم الزمهرير . فيكون عليهم كشدة اللهب ، فيتمنون عود اللهب اضطراباً ، فهو إخبار عن اضطراب . وبأذيان هذه البلاغة تعلق الكندى حيث يقول :

قرئ : والبحر ، بالنصب عطفاً على اسم إن ، وبالرفع عطفاً على محل إن ، ومعمولها على . ولو ثبت ^(١) كون الأشجار أقلاماً ، وثبت البحر ممدوداً بسبعة أبحر . أو على الابتداء والواو للحال ، على معنى . ولو أن الأشجار أقلام في حال كون البحر ممدوداً ، وفي قراءة ابن مسعود : وبحر يمدّه على التشكير ، ويجب أن يحمل هذا على الوجه الأول . وقرئ : يمدّه ، ويمدّه . وبالتاء والياء . فإن قلت : كان مقتضى الكلام أن يقال : ولو أن الشجر أقلام ، والبحر مداد . قلت : أغنى عن ذكر المداد قوله : يمدّه ، لأنه من قولك : مَدَّ الدواة وأمدّها ، جعل البحر الأعظم بمنزلة الدواة ، وجعل الأبحر السبعة مملوءة مداداً ، فهي تصب فيه مدادها أبداً صبا لا ينقطع . والمعنى : ولو أن أشجار الأرض أقلام ، والبحر ممدود بسبعة أبحر . وكتبت بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله ، لما نفذت كلماته ونفذت الأقلام والمداد ، كقوله تعالى (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربى) . فإن قلت : زعمت أن قوله (والبحر يمدّه) حال في أحد وجهي الرفع ، وليس فيه ضمير راجع إلى ذى الحال . قلت : هو كقوله :

• وَقَدْ اغْتَدَى وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا • ^(٢)

و : جث وال جيش مصطف ، وما أشبه ذلك من الأحوال التي حكمها حكم الظروف . ويجوز أن يكون المعنى : وبحرها ، والضمير للأرض . فإن قلت : لم قيل (من شجرة) على التوحيد دون اسم الجنس الذي هو شجر ؟ قلت : أريد تفصيل الشجر وتقصيصها شجرة شجرة ، حتى لا يبق من جنس الشجر ولا واحدة إلا قد برت أقلاماً . فإن قلت : الكلمات جمع قلة ، والموضع موضع التشكير لا التقليل . فهلا قيل : كلم الله ؟ قلت : معناه أن كلماته لا تنق بكلماتها البحار ، فكيف بكلمه ؟ وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أنها نزلت جواباً لليهود لما قالوا : قد أوتينا التوراة وفيها كل الحكمة ، وقيل : إن المشركين قالوا : إن هذا يعنون الوحى - كلام سينفذ ، فأعلم الله أن كلامه لا ينفذ . وهذه الآية عند بعضهم مدنية ، وأنها نزلت بعد الهجرة ، وقيل هى مكية ، وإنما أمر اليهود وقد قرئ أن يقولوا الرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألسنت تتلو فيما أنزل عليك : أنا قد أوتينا التوراة وفيها علم كل شئ . (إن الله عزيز) لا يعجزه شئ . (حكيم) لا يخرج من علمه وحكمته شئ . ومثله لا تنفذ كلماته وحكمه .

(١) قوله «ومعمولها على : ولو ثبت له : على معنى ولو ... الخ . (ع)

(٢) وقد اغتدى والطير في وكُنَاتِهَا بمجرد قيد الأوابد ميبك

لامرئى الفيس من معلقته . وقد : للتشكير . والوكنات : جمع وكنة بضمتين ، وثلاث أوله وسكون ثانيه : موضع الطير الذى يبيت فيه ، والباء للدلالة ، والمجرد : دقيق الشعر قصيره . أو سريع الجرى . وشبه القرس بالقيد تشبيهاً بليفاً : أى : لا تنفك منه الأوابد : وهى الوحوش ، ولا تفوته ميبك : عظيم الجسم .

مَخْلُوقَكُمْ وَلَا بَعْضُكُمْ إِلَّا كَنْفُسٌ وَاحِدَةٌ إِنْ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

(إلا كنفس واحدة) إلا تخلقها وبعثها، أى : سواء فى قدرته القليل والكثير، والواحد والجمع، لا يتفاوت، وذلك أنه إنما كانت تنفوت النفس الواحدة والنفوس الكثيرة العدد : أن لو شغله شأن عن شأن وفعل عن فعل، وقد تعالى عن ذلك (إن الله سميع بصير) يسمع كل صوت ويبصر كل مبصر فى حالة واحدة، لا يشغله إدراك بعضها عن إدراك بعض، فكذلك الخلق والبعث .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾
ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ
الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾

كل واحد من الشمس والقمر يجرى فى فلكه ، ويقطعه إلى وقت معلوم : الشمس إلى آخر السنة ، والقمر إلى آخر الشهر . وعن الحسن : الأجل المسمى : يوم القيامة . لأنه لا ينقطع جريهما إلا حينئذ . دل أيضا بالليل والنهار وتعاقبهما وزيادتهما ونقصانهما وجرى النيرين فى فلكيهما كل ذلك على تقدير وحساب ، وبإحاطته بجميع أعمال الخلق : على عظم قدرته وحكمته . فإن قلت : يجرى لأجل مسمى ، ويجرى إلى أجل مسمى : أهو من تعاقب الحرفين ؟ قلت : كلا ، ولا يسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع ضيق العطن ^(١) . ولكن المعنيين . أعنى الانتهاء والاختصاص كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض : لأن قولك يجرى إلى أجل مسمى : معناه يبلغه وينتهى كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض : لأن قولك يجرى إلى أجل مسمى : معناه يبلغه وينتهى إليه . وقولك : يجرى لأجل مسمى : تريد يجرى لإدراك أجل مسمى ، تجعل الجرى مختصا بإدراك أجل مسمى . ألا ترى أن جرى الشمس مختص بآخر السنة ، وجرى القمر مختص بآخر الشهر ، فكل المعنيين غير ناب به موضعه (ذلك) الذى وصف من عجائب قدرته وحكمته التى يعجز عنها الأحياء القادرون العالمون . فكيف بالجماد الذى تدعونه من دون الله ، إنما هو بسبب أنه هو الحق الثابت إلهيته . وأن من دونه باطل الإلهية (وأن الله هو العلى) الشأن (الكبير) السلطان . أو ذلك الذى أوحى إليك من هذه الآيات بسبب بيان أن الله هو الحق ، وأن إلهها غيره باطل ، وأن الله هو العلى الكبير عن أن يشرك به .

(١) قوله ، إلا بليد الطبع ضيق العطن ، فى الصحاح : أنه مبرك الإبل عند الماء ، لتشرب عللا بعد نهل . (ع)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾

قرئ: الفلك، بضم اللام. وكل فعل: يجوز فيه فعل، كما يجوز في كل فعل فعل، على مذهب التعويض. وبنعمات الله: بسكون العين. وعين فعلات يجوز فيها الفتح والكسر والسكون ﴿بنعمة الله﴾ بإحسانه ورحمته (صبار) على بلائه (شكور) لنعمائه، وهما صفتا المؤمن، فكانه قال: إن في ذلك آيات لكل مؤمن.

وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

يرتفع الموج ويتراب، فيعود مثل الظلل، والظلة: كل ما أظلك من جبل أو سحاب أو غيرها. وقرئ: كالظلال. جمع ظلة. كقوله وقلال (فمنهم مقتصد) متوسط في الكفر والظلم، خفض من غلوائه، وانزجر بعض الانزجار. أو مقتصد في الإخلاص الذي كان عليه في البحر، يعني أن ذلك الإخلاص الحادث عند الخوف، لا يبقى لأحد قط، والمقتصد قليل نادر. وقيل: مؤمن قد ثبت على ما عاهد عليه الله في البحر. والختار: أشد الغدر. ومنه قولهم: إنك لاتمد لنا شبراً من غدر إلا مددنا لك باعاً من ختر، قال:

وَإِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ أَبَا عُثَيْرٍ مَلَأَتْ يَدَيْكَ مِنْ غَدْرِ وَخَيْرٍ ^(١)

بِأَيِّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾

﴿لا يجزى﴾ لا يقضى عنه شيئاً. ومنه قيل للتقاضى: المتجازى. وفي الحديث في جذعة

(١) الغدر: أشد الختر. وروى: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً عد بأصابع يده اليمنى: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وبأصابع اليسرى: اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني واجبرني، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ملأت يديك خيراً، شبه المعقول بالمحسوس على سبيل المكنية. وملء اليدين: تخيل، وذكرهما لأن الرجل عد بهما، فعزبه الشاعر مثلاً لحال أبي عمير من براه على سبيل الاستعارة التخييلية التهكية، فإن من رآه وعد معايبه، كأنه ملأ يديه شراً لا خيراً، وحذف المد إشارة إلى أنه مجرد الرؤية يحصل ذلك.

ابن نيار : تجزى عنك ولا تجزى عن أحد بعدك ^(١) . وقرئ : لا يجزئ : لا يغني ^(٢) . يقال : أجزأت عنك مجزاً فلان . والمعنى : لا يجزى فيه ، لحذف (الغرور) الشيطان . وقيل : الدنيا وقيل : تمسك في المعصية المغفرة . وعن سعيد بن جبير رضى الله عنه : الغزة بالله : أن يتأدى الرجل في المعصية ويتمنى على الله المغفرة . وقيل : ذكرك لحسانك ونسيانك لسيئاتك غزة . وقرئ : بضم الغين وهو مصدر غره غروراً ، وجعل الغرور غاراً ، كما قيل : جد جده . أو أريد زينة الدنيا لأنها غرور . فإن قلت : قوله (ولامولود هو جاز عن والده شيئاً) وارد على طريق من التوكيد لم يرد عليه ما هو معطوف ^(٣) عليه . قلت : الأمر كذلك ؛ لأن الجملة الاسمية آكد من الفعلية ، وقد انضم إلى ذلك قوله (هو) وقوله (مولود) والسبب في مجيئه على هذا السنن : أن الخطاب للمؤمنين وعليتهم ^(٤) : قبض آباؤهم على الكفر وعلى الدين الجاهلي ، فأريد حسم أطاعهم وأطاع الناس فيهم : أن ينفعوا آباءهم في الآخرة ، وأن يشفعوا لهم ، وأن يغفروا عنهم من الله شيئاً ؛ فلذلك جرى به على الطريق الآكد . ومعنى التوكيد في لفظ المولود : أن الواحد منهم لو شفع للأب الأدنى الذي ولد منه ، لم تقبل شفاعته ، فضلاً أن يشفع لمن فوقه من أجداده ؛ لأن الولد يقع على الولد وولد الولد ؛ بخلاف المولود فإنه لمن ولد منك .

إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ

٣٤

روى أن رجلاً من محارب وهو الحرث بن عمرو بن حارثة أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أخبرني عن الساعة متى قيامها ، وإن قد ألقيت حباتي في الأرض وقد

(١) تقدم في أوائل البقرة .

(٢) قوله « وقرئ : لا يجزئ » لا يغني ، لعله : أى لا يغني . (ع)

(٣) قال محمود : « إن قلت : لم أكد الجملة الثانية دون الأولى ؟ قلت : لأن أكثر المسلمين كان آباؤهم قد ماتوا على الكفر ، فلما كان إغناء الكافر عن المسلم بعيداً لم يحتج تأكيداً ، ولما كان إغناء المسلم عن الكافر قد يقع في الأوهام أكد فيه » قال أحد : وهذا الجواب تتوقف محته على أن هذا الخطاب كان خاصاً بالموجودين حينئذ ، والصحيح أنه عام لهم ولكل من ينطلق عليه اسم الناس ، فالجواب المعتبر - والله أعلم - أن الله تعالى لما أكد الوصية على الآباء ، وقرن شكرهم بوجوب شكره عز وجل ، وأوجب على الولد أن يكتفي والده ما يسوه بحسب نهاية إمكانه قطع هنا وهم الوالد في أن يكون الولد في القيامة مجزيه بحقه عليه ، ويكتفيه ما يلقاه من أهوال القيامة كما أوجب الله عليه في الدنيا ذلك في حقه ، فلما كان إجراء الولد عن الوالد مظنون الوقوع - لأن الله حاضه عليه في الدنيا - كان جديراً بتأكيد النبي لا زلة هذا الوهم ، ولا كذلك العكس ، فهذا جواب كاف شاف للعليل ، إن شاء الله تعالى .

(٤) قوله « وعليتهم » أى أشراؤهم وعظماؤهم . (ع)

أبطأت عنا السماء ، فتي تمطر ؟ وأخبرني عن امرأتى فقد اشتملت ما في بطنها ، أذكر أم أنثى ؟ وإني علمت ما علمت أمس ، فما أعمل غدا ؟ وهذا مولدى قد عرفته ، فأين أموت ^(١) ؟ فنزلت وعن النبي صلى الله عليه وسلم : «مفاتيح الغيب خمس» ^(٢) وتلا هذه الآية . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : من ادعى علم هذه الحصة فقد كذب ، إياكم والكهانة فإن الكهانة تدعو إلى الشرك والشرك وأهله في النار . وعن المنصور أنه أهمه معرفة مدة عمره ، فرأى في منامه كأن خيالا أخرج يده من البحر وأشار إليه بالأصابع الخمس ، فاستفتى العلماء في ذلك ، فتأولوها بخمس سنين ، وبخمس أشهر ، وبغير ذلك ، حتى قال أبو حنيفة رحمه الله : تأويلها أن مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله ، وأن ما طلبت معرفته لاسيما لك إليه «عنده علم الساعة» أيا نمرساها «وينزل الغيث» في إبانته من غير تقديم ولا تأخير ، وفي بلد لا يتجاوزه به «ويعلم ما في الأرحام» أذكر أم أنثى ، أنام أم ناقص ، وكذلك ما سوى ذلك من الأحوال «وما تدرى نفس» بزة أو فاجرة «ماذا تكسب غدا» من خير أو شر ، وربما كانت عازمة على خير فعملت شرا ، وعازمة على شر فعملت خيرا «وما تدرى نفس» أين تموت ، وربما أقامت بأرض وضربت أو تادها وقالت : لا أبرحها وأقبر فيها ، فترى بها مراعى القدر حتى تموت في مكان لم يخطر ببالها ، ولا حدثها به ظنونها . وروى أن ملك الموت مر على سليمان فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه ، فقال الرجل من هذا ؟ قال : ملك الموت ، فقال : كأنه يريدنى . وسأل سليمان أن يحمله على الريح ويلقيه ببلاد الهند ، ففعل . ثم قال ملك الموت لسليمان كان دوام نظرى إليه تعجبا منه ، لاني أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك ^(٣) . وجعل العلم لله والدراية للعبد ، لما في الدراية من معنى الختل والحيلة . والمعنى : أنها لا تعرف . وإن أعملت حيلها - ما يلقى بها ويختص ولا يتخطاها ، ولا شئ - أخص بالإنسان من كسبه وعاقبته ، فإذا لم يكن له طريق إلى معرفتهما ، كان من معرفة ما عداهما أبعد . وقرئ : بأية أرض . وشبه سيبويه تأنيث «أى» بتأنيث «كل» في قولهم : كلتن .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة لقمان كان له لقمان رفيقا يوم القيامة وأعطى من الحسنات عشرا عشرا بعدد من عمل بالمعروف ونهى عن المنكر ^(٤) .

(١) هكذا ذكره الواحدي والثعلبي بغير سند . وأخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد ، قال «جاء رجل من أهل البادية فقال يا محمد إن امرأتى حبلى فأخبرني متى تلد ؟ فذكره» .

(٢) أخرجه البخارى من حديث ابن عمر

(٣) موقوف . رواه أحمد في الزهد وابن أبي شيبه قالوا حدثنا عبد الله بن نمير عن الأعمش عن خيشمة عن

شهر بن حوشب قال «دخل ملك الموت ، فذكره» .

(٤) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم عن أبي بن كعب .

سورة السجدة

مكية [إلا من آية ١٦ إلى غاية آية ٢٠ فمدنية]

وآياتها ٣٠ وقيل ٢٩ [نزلت بعد المؤمنون]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السم ﴿١﴾ تنزيلُ الكتابِ لَأَرَبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾
أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَأْتَاتُهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ
قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾

﴿السم﴾ على أنها اسم السورة مبتدأ خبره ﴿تنزيل الكتاب﴾ وإن جعلتها تعديدا للحروف ارتفع ﴿تنزيل الكتاب﴾ بأنه خبر مبتدأ محذوف : أو هو مبتدأ خبره ﴿لأرب فيه﴾ والوجه أن يرتفع بالابتداء ، وخبره ﴿من رب العالمين﴾ و ﴿لأرب فيه﴾ : اعتراض لا محل له . والضمير في ﴿فيه﴾ راجع إلى مضمون الجملة ، كأنه قيل : لأرب في ذلك ، أى في كونه منزلا من رب العالمين ويشهد لوجهته قوله ﴿أم يقولون افتراه﴾ لأن قولهم : هذا مفترى ، إنكار لأن يكون من رب العالمين ، وكذلك قوله ﴿بل هو الحق من ربك﴾ وما فيه من تقدير أنه من الله ، وهذا أسلوب صحيح محكم : أثبت أولا أن تنزيله من رب العالمين ، وأن ذلك ما لأرب فيه ، ثم أضرب عن ذلك إلى قوله ﴿أم يقولون افتراه﴾ لأن أم ، هى المنقطعة الكائنة بمعنى : بل والهمزة ، إنكاراً لقولهم وتعجيباً منه لظهور أمره : في عجز بلغائهم عن مثل ثلاث آيات منه ، ثم أضرب عن الإنكار إلى إثبات أنه الحق من ربك . ونظيره أن يعلل العالم في المسئلة بعلّة صحيحة جامعة ، قد احترز فيها أنواع الاحتراز . كقول المتكلمين : النظر أول الأفعال الواجبة على الإطلاق التى لا يعرى عن وجوبها مكلف ، ثم يعترض عليه فيها ببعض ما وقع احترازه منه ، فيرده بتلخيص أنه احترز من ذلك ، ثم يعود إلى تقرير كلامه وتمشيته . فإن قلت : كيف نبي أن يرتاب في أنه من الله ، وقد أثبت ما هو أطم من الرب ، وهو قولهم ﴿افتراه﴾ ؟ قلت : معنى ﴿لأرب فيه﴾ أن لا مدخل للرب في أنه تنزيل الله ، لأن نافي الرب ويميطه معه لا ينفك عنه وهو كونه معجزاً

للنفس، ومثله أبعد شيء من الريب . وأما قولهم (افتراه) فلما قول متعنت مع علمه أنه من الله لظهور الإعجاز له ، أو جاهل بقوله قبل التأمل والنظر لأنه سمع الناس يقولونه ﴿ ما أتاهم من نذير من قبلك ﴾ كقوله : ما أُنذِر آبائهم ، وذلك أن قريشاً لم يبعث الله إليهم رسولا (١) قبل محمد صلى الله عليه وسلم . فإن قلت : فإذا لم يأتهم نذير لم تقم عليهم حجة . قلت : أما قيام الحجة بالشرائع التي لا يدرك علمها إلا بالرسول فلا ، وأما قيامها بمعرفة الله وتوحيده وحكمته فنعم ؛ لأن أدلة العقل الموصلة إلى ذلك معهم في كل زمان ﴿ لعلمهم يهتدون ﴾ فيه وجهان : أن يكون على الترجي من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان (لعله يتذكر) على الترجي من موسى وهرون عليهما السلام ، وأن يستعار لفظ الترجي للإرادة .

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾

فإن قلت : ما معنى قوله ﴿ ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع ﴾ ؟ قلت : هو على معنيين ، أحدهما : أنكم إذا جاؤتم رضاه لم تجدوا لأنفسكم ولياً ، أى : ناصرأ ينصركم ولا شفيعاً يشفع لكم . والثاني : أن الله وليكم الذي يتولى مصالحكم ، وشفيعكم أى ناصركم على سبيل المجاز ؛ لأن الشفيع ينصر المشفوع له ، فهو كقوله تعالى (وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير) فإذا أخذكم لم يبق لكم ولي ولا نصير .

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ

أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾

﴿ الأمر ﴾ المأمور به من الطاعات والأعمال الصالحة ينزله مدبراً ﴿ من السماء إلى الأرض ﴾ ثم لا يعمل به ولا يصعد إليه ذلك المأمور به خالصاً كما يريد . ويرتضيه إلا في مدة متطاولة ؛ لقلة عمال الله والخالص من عباده وقلة الأعمال الصاعدة ، لأنه لا يوصف بالصعود إلا الخالص

(١) قال محمود : « يعنى قريشاً لأنها لم يبعث لها نبي قط . فان قلت : إن لم يتقدم بعث نبي إليهم فيما قامت عليهم الحجة . قلت : قيام الحجة بالشرائع التي لا يدرك علمها إلا بالرسول لا سبيل إليه . وأما قيامها بمعرفة الله تعالى وتوحيده وحكمته فنعم ؛ لأن أدلة العقل معهم في كل زمان » قال أحد : مذهب أهل السنة : أنه لا يدرك علم شيء من أحكام الله تعالى التكليفية إلا بالشرع وما ذكره المفسر في تفريع على قاعدة التحسين والتفسيح بالعقل ، وقد بها السمع فلم يبح بها العقل ، فأعرض عنه حتى يخوض في حديث غيره . وإنما قامت الحجة على العرب بمن تقدم من الرسل إليهم كآبهم إسماعيل وغيره ، والمراد بقوله تعالى ﴿ ما أتاهم من نذير ﴾ يعنى ذرية العرب في زمانه عليه الصلاة والسلام ، إذ لم يبعث إليهم نذير معاصر . فلطف الله تعالى بهم وبعث فيهم رسولا منهم .

ودل عليه قوله على أثره (قليلًا ما تشكرون) أو يدبر أمر الدنيا كلها من السماء إلى الأرض : لكل يوم من أيام الله وهو ألف سنة ، كما قال (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) ، (ثم يرجع إليه) أى يصير إليه ، ويثبت عنده ، وبكتب في صحف ملائكته كل وقت من أوقات هذه المدة : ما يرتفع من ذلك الأمر ويدخل تحت الوجود إلى أن تبلغ المدة آخرها ، ثم يدبر أيضاً ليوم آخر ، وهلم جرا إلى أن تقوم الساعة . وقيل : ينزل الوحي مع جبريل عليه السلام من السماء إلى الأرض ، ثم يرجع إليه ما كان من قبول الوحي أورده مع جبريل ، وذلك في وقت هو في الحقيقة ألف سنة : لأن المسافة مسيرة ألف سنة في الهبوط والصعود ؛ لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة ، وهو يوم من أيامكم لسرعة جبريل ؛ لأنه يقطع مسيرة ألف سنة في يوم واحد . وقيل : يدبر أمر الدنيا من السماء إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة ، ثم يرجع إليه ذلك الأمر كله ؛ أى يصير إليه ليحكم فيه (في يوم كان مقداره ألف سنة) وهو يوم القيامة . وقرأ ابن أبي عبلة : يرجع ، على البناء للمفعول . وقرئ : يعدون ، بالتاء والياء .

ذَٰلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ⑥ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ⑦ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ⑧ ثُمَّ سَوَّاهُ وَفَوَّخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ⑨

(أحسن كل شيء) حسنه ، لأنه ما من شيء خلقه إلا هو مرتب على ما اقتضته الحكمة وأوجبه المصلحة : لجميع المخلوقات حسنة وإن تفاوتت إلى حسن وأحسن ، كما قال (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) وقيل : علم كيف يخلقه من قوله : قيمة المرء ما يحسن . وحقيقته ، يحسن معرفته أى يعرفه معرفة حسنة بتحقيق وإتقان . وقرئ : خلقه : على البدل ، أى : أحسن . فقد خلق كل شيء ^(١) وخلق : على الوصف ، أى : كل شيء خلقه فقد أحسنه . سميت الذرية نسلاً ؛ لأنها تنسل منه ، أى : تنفصل منه وتخرج من صلبه ^(٢) ونحوه قولهم للولد : سليل وتجل ، و (سواءه) قومه ،

(١) قوله «أى أحسن فقد خلق كل شيء» لعل لفظ «فقد» مزيدة من قلم الناسخ . وعبارة النسق : على البدل ، أى : أحسن خلق كل شيء . ويمكن أنه ليس مزيداً ، بل هذا حاصل المعنى على البدل ، كما أن عكسه الآن هو حاصل المعنى على الوصف . (ع)

(٢) قوله «وتخرج من صلبه» لعل قبله سقطاً تقديره : كما سميت النطفة سلالة ، لأنها تنسل منه . وفي الصحاح النسل : النسل . ونجله أبوه . أى : ولده . (ع)

كقوله تعالى (في أحسن تقويم) ودل بإضافة الروح إلى ذاته على أنه خلق عجيب لا يعلم كنهه إلا هو ، كقوله (ويسألونك عن الروح... الآية) كأنه قال : ونفخ فيه من الشيء الذي اختص هوبه وبمعرفته .

وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ نُمُّ بِلِقَاءِ رَبِّنَا
كَفِرُونَ ⑩ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ
تُرْجَعُونَ ⑪

(وقالوا) قيل القائل أبي بن خلف ، ولرضاهم بقوله أسند إليهم جميعاً . وقرئ : أننا . وأنا ، على الاستفهام وتركه (ضللنا) صرنا زابا ، وذهبنا مختلطين بتراب الأرض . لاتمين منه . كما يضل الماء في اللبن أو غبنا (في الأرض) بالدفن فيها ، من قوله :

* وَأَبَ مُضْلُوهُ بَعِينٌ جَلِيَّةٌ * ⑪

وقرأ على وابن عباس رضي الله عنهما : ضللنا ، بكسر اللام . يقال : ضل يضل وضل يضل . وقرأ الحسن رضي الله عنه : ضللنا ، من صلّ اللحم وأصل : إذا أنن . وقيل : صرنا من جنس الصلة وهي الأرض . فإن قلت : هم انتصب الطرف في (أننا ضللنا) ؟ قلت : بما يدل عليه (إننا لفي خلق جديد) وهو نبعث . أو يجدد خلقنا . لقاء ربهم : هو الوصول إلى العاقبة ، من تلقى ملك الموت وماوراه ، فلما ذكر كفرهم بالإثشاء . أضرب عنه إلى ما هو أبلغ في الكفر ، وهو أنهم كافرون بجميع ما يكون في العاقبة ، لا بالإثشاء وحده . ألا ترى كيف خرطبوا بتوفى ملك الموت وبالرجوع إلى ربهم بعد ذلك مبعوثين للحساب والجزاء ، وهذا معنى لقاء الله على ما ذكرنا . والتوفى : استيفاء النفس وهي الروح . قال الله تعالى (الله يتوفى الأنفس) وقال : أخرجوا أنفسكم ، وهو أن يقبض كلها لا يترك منها شيء . من قولك : توفيت حق من فلان ، واستوفيته إذا أخذته وأفيا كاملا من غير نقصان . والتفعل والاستفعال : يلتقيان في مواضع : منها : تقصيته واستقصيته ، وتعجلته واستعجلته . وعن مجاهد رضي الله عنه : حويت ملك الموت الأرض ، وجعلت له مثل الطست ، يتناول منها حيث يشاء . وعن قتادة : يتوفاهم ومعه أعوان من الملائكة . وقيل : ملك الموت : يدعو الأرواح فتجيبه ، ثم يأمر أعوانه بقبضها .

(١) وآب مضمول به بعين جلية وغودر بالجلولان حزم ونائل
يرقى مبتأ . والاباب : الرجوع . والاضلال : الدفق والتغيب . وجلولان : جبل بالشام . والنائل : المعطاء
يعنى : بترك ذلك الموصوف بالحزم والكرم ، فقد ترك الوصفات هناك .

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا
فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ
هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾
فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ
بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

﴿ولو ترى﴾ يجوز أن يكون خطاباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيه وجهان : أن يراد به التمتي ، كأنه قال : وليتك ترى ، كقوله صلى الله عليه وسلم للغيرة : «لو نظرت إليها»^(١) والتمنى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما كان الترجى له في (لعلمهم يهتدون) لأنه تجمع منهم الغصص ومن عداوتهم وضرارهم ، فجعل الله له تمنى أن يراهم على تلك الصفة الفظيعة من الحياء والحزى والغم ليشمت بهم ، وأن تكون لو الامتناعية قد حذف جوابها ، وهو : لرأيت أمراً فظيماً . أو : لرأيت أسوأ حال ترى . ويجوز : أن يخاطب به كل أحد ، كما تقول : فلان لئيم ، إن أكرمه أهانك ، وإن أحسنت إليه أساء إليك ، فلا تريد به مخاطباً بعينه ، فكأنك قلت : إن أكرم وإن أحسن إليه ، ولو وإذ : كلاهما للبضى ، وإنما جاز ذلك ، لأن المترقب من الله بمنزلة الموجود المقطوع به في تحقيقه ، ولا يقدر ان يرى ما يتناوله ، كأنه قيل : ولو تكون منك الرؤية ، وإذ ظرف له . يستغيثون بقولهم ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا﴾ فلا يغاثون ، يعني : أبصرنا صدق وعدك ووعدك وسمعنا منك تصديق رسلك . أو كنا عمية وصما فأبصرنا وسمعنا ﴿فارجعنا﴾ هي الرجعة إلى الدنيا ﴿لآتينك كل نفس هداها﴾ على طريق الإلجام والقسر ، ولكننا بنينا الأمر على الاختيار^(٢) دون الاضطرار ، فاستحبوا العمى على الهدى ، فحقت كلمة العذاب على أهل العمى دون البصراء . ألا ترى إلى ما عقبه به من قوله ﴿فذوقوا بما نسيتم﴾ فجعل ذوق العذاب نتيجة فعلهم : من نسيان العاقبة ،

(١) هذا طرف من حديث أخرجه الترمذى ، والنسائى وابن ماجه وابن أبى شيبة وابن حبان . والحاكم . وأحمد والبخارى . وغيرهم من حديث المغيرة «أنه خطب امرأة فقال لى النبي صلى الله عليه وسلم انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما» ورواه أبو عبيد فى الغريب بلفظ أنه قال للمغيرة وقد خطب امرأة «لو نظرت إليها الحديث . (٢) قوله «ولكننا بنينا الأمر على الاختيار» لما أوجب المعتزلة على الله الصلاح قالوا : إنه قد شاء الهدى للكل ، ولكن مشيئة تغيير ، لا مشيئة إجبار ، فلذا لم يهتد الكل بل البعض ، ولو شاء مشيئة قسر لامتدى الكل . وأهل السنة لم يوجبوا على الله شيئاً ، وقالوا : كل ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، خيراً كان أو شراً . واستلزام الإرادة لوقوع المراد لا يستلزم القسر والإجبار للعباد ؛ لما لم من الكسب فى أفعالهم ، وإن كانت فى الحقيقة مخلوقة لله تعالى ، كما تقرر فى علم التوحيد . (ع)

وقلة الفكر فيها ، وترك الاستعداد لها . والمراد بالنسيان : خلاف التذكر ، يعنى : أن الانهماك في الشهوات أذهلكم وأهلكم عن تذكر العاقبة وسلط عليكم نسيانها ، ثم قال ﴿ إِنَّا لَنَسِينَاكُمْ ﴾ على المقابلة ، أى : جازيناكم جزاء نسيانكم . وقيل : هو بمعنى الترك ، أى : تركتم الفكر في العاقبة ، فتركناكم من الرحمة . وفى استثناء قوله إِنَّا نَسِينَاكُمْ وبناء الفعل على إن واسمها تشديد فى الانتقام منهم . والمعنى فذوقوا هذا أى ما أنتم فيه من نكس الرؤوس والحزى والغم بسبب نسيان اللقاء ، وذوقوا العذاب المخلد فى جهنم بسبب ما علمتم ^(١) من المعاصى والكبائر الموبقة ^(٢) .

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

﴿ إذا ذكروا بها ﴾ أى وعظوا : سجدوا تواضعا لله وخشوعا ، وشكرا على ما رزقهم من الإسلام ﴿ وسبحوا بحمد ربهم ﴾ ونزهوا الله من نسبة القبائح إليه ، وأثنوا عليه حامدين له ﴿ وهم لا يستكبرون ﴾ كما يفعل من يصير مستكبرا كأن لم يسمعها ، ومثله قوله تعالى (إن الذين أتوا العلم من قبله إذا أتى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا) : ﴿ تتجافى ﴾ ترتفع وتتنحى ﴿ عن المضاجع ﴾ عن الفرش ومواضع النوم ، داعين ربهم عابدين له ؛ لأجل خوفهم من سخطه وطمعهم فى رحمته ، وهم المتهجدون . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تفسيرها : قيام العبد من الليل ، ^(٣) وعن الحسن رضى الله عنه : أنه التهجد . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة جاء مناد ينادى بصوت يسمع الخلائق كلهم : سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم . ثم يرجع فينادى : ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع : فيقومون وهم قليل . ثم يرجع فينادى : ليقم الذين كانوا يحمدون الله فى البأساء

(١) قال محمود : « معناه بما كنتم تعملون من الكفر والكبائر الموبقة » قال أحمد : قد تمهد من مذاهب أهل السنة أن المقضى لاستحقاق الخلود فى العذاب هو الكفر خاصة . وأما مادونه من الكبائر فلا يوجب خلودا ، والمستلثة سبعة . وأدلتها من الكتاب والسنة قطعية ، خلافا للقدورية .

(٢) قوله « والكبائر الموبقة » أى : المهلكة . (ع)

(٣) أخرجه أحمد وابن أبي شيبة وإسحاق والحاكم من رواية أبى وائل عن معاذ فى أثناء حديث مرفوع قال « وصلاة الرجل فى جوف الليل ثم قرأ : تتجافى جنوبهم عن المضاجع »

والضرراء ، فيقومون وهم قليل ، فيسرحون جميعاً إلى الجنة . ثم يحاسب سائر الناس ، ^(١) . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه : كان أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء الآخرة ، فنزلت فيهم ^(٢) . وقيل : هم الذين يصلون صلاة العتمة لا ينامون عنها ^(٣) « ما أخفى لهم » على البناء للفعول . ما أخفى لهم على البناء للفاعل ، وهو الله سبحانه . وما أخفى لهم . وما أخفى لهم . وما أخفيت لهم : الثلاثة للتكلم ، وهو الله سبحانه . وما : بمعنى الذى ، أو بمعنى أى ^(٤) . وقرئ : من قرّة أعين . وقرات أعين . والمعنى : لا تعلم النفوس - كلهن - ولا نفس واحدة منهن لا ملك مقرب ولا نبي مرسل - أى - نوع عظيم من الثواب ادخر الله لأولئك وأخفاه من جميع خلائقه ، لا يعلمه إلا هو بما تقر به عيونهم ، ولا يزيد على هذه العدة ولا مطمح وراءها ، ثم قال ^(٥) « جزاء بما كانوا يعملون » لحسم أطماع المتمنين ^(٦) . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين ^(٧) ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ،

(١) أخرجه إمام وأبو يعلى من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد مطولاً وهو عند الحاكم باختصار
(٢) أخرجه ابن مردويه من رواية الحرث بن ربيعة عن مالك بن دينار « سألت أنس بن مالك عن قوله تعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع - الآية) فقال : كان ناس - فذكره » ورواه أبو داود من حديث سعيد عن قتادة عن أنس نحوه ، قال : وكان الحسن يقول « هو قيام الليل » والبرار من طريق زيد بن أسلم عن أبيه . قال قال بلال « كنا نجلس وناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يصلون بعد المغرب إلى العشاء فنزلت هذه الآية » قال : ولا نعلم له طريقاً إلا هذه . ولا روى أسلم عن بلال غيره
(٣) قوله « أو بمعنى أى » لعله : أى شئ . (ع)

(٤) قال محمود : « هذا حسم لأطماع المتمنين » قال أحمد : يشير إلى أهل السنة لاعتقادهم أن المؤمن العاصى موعود بالجنة ، ولا بد من دخوله إياها وقام بالوعد الصادق ، وأن أحداً لا يستحق على الله بعمله شيئاً ، فلما وجد قوله تعالى (جزاء بما كانوا يعملون) اغتم الفرصة في الاستشهاد على معتقد القدرية في أن الأعمال أسباب موجبة للجزاء ، ولا دليل في ذلك لمقدم مع قوله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله » قيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله بفضل منه ورحمة » فهذا الحديث يوجب حمل الآية على وجه يجمع بينها وبينه ، وذلك إما أن تحمل الآية على أن المراد منها قسمة المنازل بينهم في الجنة فانه على حسب الأعمال ، وليس بذلك فان المذكور في الآية مجرد دخول الجنة لا اقتسام درجاتها . وإما أن تحمل - وهو الظاهر ، والله أعلم - على أن الله تعالى لما وعد المؤمن جنته - ووعد به يجب أن يكون حقاً وصدقاً ، تعالى وتقدس - صارت الأعمال بالوعد كأنها أسباب موجبات ، فعولت في هذه العبارة معاملتها ، والمقصود من ذلك : تأكيد صدق الوعد في النفوس ، وتصوره بصورة المستحق بالعمل ، كالأجرة المستحقة شاهداً على العمل من باب مجاز التشبيه ، والله أعلم . وذكر الزمخشري الحديث المشهور وهو « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » اقرؤا إن شئتم فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرّة أعين ، وكان جدى رحمه الله يستحسن أن تقرأ الآية تلز الحديث المذكور بسكون الياء من أخفى ، ورده إلى المتكلم ، وهى من القراءات المستفيضة . والسبب في اختيار ذلك مطابقة صدر الحديث وهو : أعددت لعبادى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ليكون الكل راجعاً إلى الله تعالى ، مستنداً إلى ضمير اسمه عز وجل صريحاً ، والله الموفق .

(٥) متفق عليه من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضى الله عنه .

بله^(١) ما أطلعهم عليه ، اقرؤا إن شئتم : فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ، وعن الحسن رضى الله عنه : أخفى القوم أعمالا فى الدنيا ، فأخفى الله لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت

أَمَّنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾

(كان مؤمنا) و (كان فاسقا) محمولان على لفظ من ، و (لا يستوون) محمول على المعنى . بدليل قوله تعالى (أما الذين آمنوا ... وأما الذين فسقوا) ونحوه قوله تعالى (ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك) . و (جنت المأوى) نوع من الجنان : قال الله تعالى (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى) سميت بذلك لما روى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : تأوى إليها أرواح الشهداء . وقيل : هى عن يمين العرش . وقرئ : جنة المأوى ، على التوحيد (نزلا) عطاء بأعمالهم . والنزل : عطاء النازل ، ثم صار عاما (فماوهم النار) أى ملجؤهم ومنزلهم . ويجوز أن يراد : جنة ماوهم النار . أى النار لهم ، مكان جنة المأوى للمؤمنين : كقوله (فبشرهم بعذاب أليم) . (العذاب الأدنى) عذاب الدنيا من القتل والأسر ، وما يحتملونه من السوء^(٢) سبع سنين . وعن مجاهد رضى الله عنه : عذاب القبر . و (العذاب الأكبر) عذاب الآخرة ، أى : نذيقهم عذاب الدنيا قبل أن يصلوا إلى الآخرة (لعلهم يرجعون) أى يتوبون^(٣) عن الكفر ، أو لعلهم يريدون الرجوع ، ويطلبونه ، كقوله تعالى

(١) قوله «بله ما أطلعهم عليه» فى الصحاح «بله» : كلمة مبينة على الفتح مثل كيف ، ومنعناها : دع ، كما أجازوه الأخص فى قول كعب بن مالك :

نذر الحاجم ضاحيا هاماتها بله الأكف كأنها لم تلحق

ويقال : منعنا سوى . وفى الحديث : «أعددت لعبادى ... الخ» . (ع)

(٢) قوله «وما يحتملونه من السوء» أى المجدبة . أو المراد بها الجذب . كما يؤخذ من الصحاح . (ع)

(٣) قال محمود : «معناه لعلهم يتوبون» . فان قلت : من أين صح تفسير الرجوع بالتوبة ولعل من الله إرادة ، وإذا أراد الله شيئا كان ، وتوبتهم بما لا يكون ؛ لأنهم لو تابوا لم يكونوا ذائقين العذاب الأكبر . قلت : إرادة الله تعالى تتعلق بأفعاله وأفعال عباده فاذا أراد شيئا من أفعاله كان ولم يمتنع ، للاعتدال وخصوص الداعى . وأما أفعال عباده فاما أن يريدوا وهم مختارون لها ، أو مضطرون إليها بقصره ، فان أرادها وقد قسم عليها حكما حكم =

(فارجعنا لعمل صالحا) وسميت إرادة الرجوع رجوعا ، كما سميت إرادة القيام قياما في قوله تعالى (إذا قمتم إلى الصلاة) ويدل عليه قراءة من قرأ : يرجعون ، على البناء للفعول . فإن قلت : من أين صح تفسير الرجوع بالتوبة ؟ ولعل من الله إرادة ، وإذا أراد الله شيئا كان ولم يمتنع ، وتوبتهم عما لا يكون ، ألا ترى أنها لو كانت عما يكون لم يكونوا ذائقين العذاب الأكبر ؟ قلت : إرادة الله تتعلق بأفعاله وأفعاله عبادته ، فإذا أراد شيئا من أفعاله كان ولم يمتنع ، للاقتدار وخلوص الداعي . وأما أفعال عبادته : فلما أن يريدوا وهم يختارون لها ، أو مضطرون إليها بقسره وإلجائه . فإن أرادها وقد قسرها عليها فحكم أفعاله ، وإن أرادها على أن يختاروها وهو عالم أنهم لا يختارونها لم يقدح ذلك في اقتداره ^(١) ، كما لا يقدح في اقتدارك إرادتك أن تختار عبدك طاعتك وهو لا يختارها ، لأن اختياره لا يتعلق بقدرتك ، وإذا لم يتعلق بقدرتك لم يكن فقدته دالا على عجزك . وروى في نزولها : أنه شجر بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه والوليد بن عقبة بن أبي معيط يوم بدر كلام ، فقال له الوليد : اسكت فإنك صبي : أنا أشب منك شبابا ، وأجلد منك جلدا ، وأذرب منك لسانا ، وأحد منك سنانا ، وأشجع منك جنانا . وأملأ منك حشوا في الكتبية . فقال له علي رضي الله عنه : اسكت ، فإنك فاسق ^(٢) ، فزلت عامة المؤمنين والفاسقين ، فتناولتهما وكل من كان في مثل حالهما ^(٣) . وعن الحسن بن علي رضي

==== أفعاله . وإن أرادها على أن يختاروها وهو عالم أنهم لا يختارونها لم يقدح ذلك في اقتداره . كما لا يقدح في اقتدارك إرادتك أن تختار عبدك الطاعة لك وهو لا يختارها ، لأن اختيارها لا يتعلق بقدرتك فلا يكون فقدته عجزا منك . قال أحمد : هذا الفصل رديء جدأ مفرع على الاشرار الجلي لاهل الاشرار الحق ، فاعتصم بدليل الوجدانية على رده واجتنبه من أصله ، والله المستعان . وإنما جره في تفسير لعل إلى الإرادة ، والحق في تفسيرها أنها لترجي مخاطبين امتناع الترجي على الله تعالى ، كذا فسرهما سيويه فيما تقدم . والله أعلم .

(١) قوله « لم يقدح ذلك في اقتداره » أي عدم وقوعها وعدم اختيارهم إياها . فهذا على مذهب المعتزلة : من أنه قد يريد الشيء ولا يكون ، ومذهب أهل السنة : أن كل ما أراداه الله كان . (ع)

(٢) أخرجه ابن مردويه والواحدى من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال الوليد بن عقبة بن أبي معيط لعل : أنا أحد منك سنانا وأبسط منك لسانا وأملأ منك للكتبية . فقال له علي : اسكت يا فاسق ، قائما أنت فاسق . فزلت . وله طريق أخرى عند ابن مردويه من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما (تنبيه) قوله : أن ذلك شجر بينهما يوم بدر ، غلط فاحش . فإنا كان الوليد حينئذ رجلا

(٣) قال محمود : « سبب نزولها أنه شجر بين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه والوليد ابن عقبة يوم بدر كلام فقال له الوليد اسكت فانك صبي أنا أشب منك شبابا وأجلد منك جلدا وأذرب منك لسانا وأحد منك سنانا وأشجع منك جنانا وأملأ منك حشوا في الكتبية ، فقال له علي : اسكت فانك فاسق . قال الزعشري : فزلت عامة المؤمنين والكافرين تناولها معا » قال أحمد : ذكر للسبب المحقق : لأن المراد بالفاسق وبالذين فسقوا : الذين كفروا ، لأنها نزلت في الوليد وهو كافر حينئذ ، ثم أدرج فيه المؤمن تصميا لمذهبه في وجوب خلود فساق المؤمنين كفساق الكافرين . فلم يزل يورد هذه العقائد الفواصد ، ولقد اتسع الحرق على الراقع .

الله عنهما : أنه قال للوليد : كيف تشتم علياً وقد سماه الله مؤمناً في عشر آيات ، وسماك فاسقاً ؟

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ اِعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ

مُنْتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾

ثم في قوله (ثم اعرض عنها) للاستبعاد . والمعنى : أن الإعراض عن مثل آيات الله في وضوحها وإثارتها وإرشادها إلى سواء السبيل والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل والعدل ، كما تقول لصاحبك : وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها استبعاداً لتركه الاتهاز . ومنه ثم في بيت الحاسة :

لَا يَكْشِفُ الْقَمَاءَ إِلَّا ابْنُ حُرَّةٍ يَرَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا (١)

استبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها واستيقنها واطلع على شدتها . فإن قلت : هلا قيل : إنا منه منتقمون ؟ قلت : لما جعله أظلم كل ظالم ثم توعد المجرمين عامة بالانتقام منهم ، فقد دلّ على إصابة الأظلم النصيب الأوفر من الانتقام ، ولو قاله بالضميم لم يفد هذه الفائدة .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى

لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا

بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْضِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا

فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾

(١) ولا يكشف الغماء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها
نقاسهم أسبانتا شر قسمة ففينا غواشها وفيهم صدورها

لجعفر بن عتبة الحارثي . شبه الدامية الغماء بأمر محسوس يفتش الناس وينظرون على طريق المكينة ، والكشف تخيل وقال «ابن حرة» أي كريم ؛ ليكون تهجيّاً للسامع وبمثال له على الهيجاء . والغمرة : الشدة . وغمرات الموت : شدائده وأحواله ، كأحوال المعركة الشديدة . وقوله «ثم يزورها» أي يلاقها برغبة ، كلقاء الحبيب ، وعطفه به ؛ لأن بين رؤية الأحوال المفردة ، وبين الانحدار إليها برغبة بون بعيد في العادة والتثقل . وشبه السيوف بمعدة متوسطة بينهم بشئ تجري فيه المقاسمة ، ونقاسهم تخيل لذلك . ثم فرع على تلك المقاسمة أن لهم غواشها ، أي ما ينشأهم منها وهي مقابضها . أو لأنها زائدة على النصل فهي غاشية له ولأعدائه «صدورها» أي أطرافها المتقدمة منها . وصدر كل شيء : مقدمه . وعبر بغير دون اللام ، لأن «في» تفيد مجرد اشتغال الأعداء على الصدر لدخولها في أجسامهم . واللام تفيد التلك وليس مراداً ، وإن كان مقتضى القسمة ، فلعله دفع توهمه بالدول إلى « في » وذكرها أولاً تهجيّاً للثانية .

(الكتاب) للجنس والضمير في (لقائه) له . ومعناه : إنا آتيناه موسى عليه السلام مثل ما آتيناك من الكتاب ، ولقيناه مثل ما لقيناك من الوحي ، فلا تكن في شك من أنك لقيت مثله ولقيت نظيره كقوله تعالى : (فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك) ونحو قوله (من لقائه) قوله (وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) وقوله (ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً) . وجعلنا الكتاب المنزل على موسى عليه السلام (هدى) لقومه (وجعلنا منهم أئمة يهدون) الناس ويدعونهم إلى ما في التوراة من دين الله وشرائعه ، لصبرهم وإيقانهم بالآيات ، وكذلك لنجعلن الكتاب المنزل إليك هدى ونوراً ، ولنجعلن من أمتك أئمة يهدون مثل تلك الهداية لما صبروا عليه من نصرة الدين وثبتوا عليه من اليقين . وقيل : من لقائك موسى عليه السلام ليلة الإسراء أو يوم القيامة وقيل : من لقاء موسى عليه السلام الكتاب ، أى : من تلقيله بالرضا والقبول . وقرئ : لما صبروا ، ولما صبروا ، أى لصبرهم . وعن الحسن رضى الله عنه : صبروا عن الدنيا . وقيل : إنما جعل الله التوراة هدى لبني إسرائيل خاصة ، ولم يتعبد بما فيها ولد إسماعيل عليه السلام (يفصل بينهم) بقضى ، فيميز الحق في دينه من المبطّل .

أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾

الواو في (أو لم يهد) للعطف على معطوف عليه منوى من جنس المعطوف ، والضمير في (لهم) لأهل مكة . وقرئ بالنون والياء ، والفاعل ما دلّ عليه (كم أهلكنّا) لأن كم لا تقع فاعلة ، لا يقال : جاءني كم رجل ، تقديره : أو لم يهد لهم كثرة إهلاكنا القرون . أو هذا الكلام كما هو بضمونه ومعناه ، كقولك : يعصم لا إله إلا الله الدماء والأموال . ويجوز أن يكون فيه ضمير الله بدلالة القراءة بالثون . و (القرون) عاد وثمود وقوم لوط (يمشون في مساكينهم) يعنى أهل مكة ، يمشون في متاجرهم على ديارهم وبلادهم . وقرئ : يمشون : بالتشديد .

أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ

مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾

(الجرز) الأرض التي جرّز نباتها أى قطع ، إما لعدم الماء ، وإما لأنه رعى وأزيل ، ولا يقال للتي لا تثبت كالسباخ : جرّز . ويدل عليه قوله (فنخرج به زرعاً) وعن ابن عباس

رضى الله عنه : إنها أرض الين . وعن مجاهد رضى الله عنه : هي أبين ^(١) . (به) بالماء ﴿تأكل﴾
من الزرع ﴿أنعامهم﴾ من عصفه ﴿وأنفسهم﴾ من حبه . وقرئ : يأكل ، بالياء .
وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ
الَّذِينَ كَفَرُوا إِبْنُكُمْ وَلَا تُنْظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ
إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴿٣٠﴾

الفتح : النصر ، أو الفصل بالحكومة ، من قوله (ربنا افتح بيننا) وكان المسلمون يقولون
إن الله سيفتح لنا على المشركين . ويفتح بيننا وبينهم ، فإذا سمع المشركون قالوا ﴿متى هذا
الفتح﴾ أى فى أى وقت يكون ﴿إن كنتم صادقين﴾ فى أنه كان . و ﴿يوم الفتح﴾ يوم القيامة
وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم ، ويوم نصرهم عليهم . وقيل : هو يوم بدر . وعن مجاهد
والحسن رضى الله عنهما : يوم فتح مكة . فإن قلت : قد سألوها عن وقت الفتح ، فكيف ينطبق
هذا الكلام جواباً على سؤالهم . قلت : كان غرضهم فى السؤال عن وقت الفتح ، استعجالاً
منهم عن وجه التكذيب والاستهزاء ، فأجيبوا على حسب ما عرف من غرضهم فى سؤالهم فقل
لهم : لا تستعجلوا به ولا تستهزؤا ، فكأنى بكم وقد حصلتم فى ذلك اليوم ، وأنتم فلم ينفعكم
الإيمان ، واستنظرتهم فى إدراك العذاب فلم تنظروا . فإن قلت : فمن فسره بيوم الفتح أو يوم
بدر كيف يستقيم على تفسيره أن لا ينفعهم الإيمان ، وقد نفع الطلقاء يوم فتح مكة وناساً يوم
بدر . قلت : المراد أن المقتولين منهم لا ينفعهم إيمانهم فى حال القتلى ، كالم ينفع فرعون
إيمانه عند إدراك الفرق ﴿وانتظر﴾ النصرة عليهم وهلاكهم ﴿إنهم منتظرون﴾ الغلبة عليكم
وهلاككم ، كقوله تعالى ﴿تربصوا إنا معكم متربصون﴾ وقرأ ابن السميع رحمه الله :
منتظرون . بفتح الظاء . ومعناه : وانتظر هلاكهم فإنهم أحقاء بأن ينتظر هلاكهم ، يعنى أنهم
هالكون لا محالة . أو وانتظر ذلك : فإن الملائكة فى السماء ينتظرونه .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ آية تبارك الذى بيده الملك ، أعطى
من الأجر كأنما أحيا ليلة القدر ^(٢) . وقال : من قرأ آية تبارك الذى بيده الملك لم يدخل الشيطان بيته
ثلاثة أيام ^(٣) .

(١) قوله دى أبين ، فى الصحاح د أبين ، : اسم رجل نسب إليه عدن ، فيقال : عدن أبين . اه فتدبر . (ع)
(٢) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدى عن أبى وله طريق أخرى عند الثعلبي من رواية أبى عصمة عن
زيد العمي عن أبى بصرة عن ابن عباس عن أبى . وعند ابن مردويه مزوجه آخر عن نافع عن ابن عمر . وفى
إسناده دأود بن معاذ : وهو ساقط .
(٣) لم أجده .

سورة الأحزاب

مدينة ، وهي ثلاث وسبعون آية

[نزلت بعد آل عمران]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
 حَكِيمًا ① وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ رَبِّكَ إِلَّا نَذِيرٌ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ
 خَبِيرًا ② وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ③

عن زر قال : قال لي أبي بن كعب رضي الله عنه : كم تعدون سورة الأحزاب ؟ قلت : ثلاثا
 وسبعين آية . قال : فوالذي يحلف به أبي بن كعب ، إن كانت لتعدل سورة البقرة أو أطول .
 ولقد قرأنا منها آية الرجم : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز
 حكيم ① . أراد أبي رضي الله عنه أن ذلك من جملة ما نسخ من القرآن . وأما ما يحكى : أن تلك
 الزيادة كانت في صحيفة في بيت عائشة رضي الله عنها فأكلتها الداجن فمن تأليفات الملاحدة
 والروافض ② . جعل نداءه بالنبي والرسول في قوله (يا أيها النبي اتق الله) (يا أيها النبي لم
 تحرم) . (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك) وترك نداءه باسمه كما قال : يا آدم . يا موسى ، يا عيسى .
 يا داود : كرامة له وتشريفا ، وربنا بمحله وتنويعها بفضله . فإن قلت : إن لم يوقع اسمه في النداء
 فقد أوقعه في الإخبار في قوله (محمد رسول الله) . (وما محمد إلا رسول) . قلت : ذلك لتعليم الناس
 بأنه رسول الله وتلقين لهم أن يسموه بذلك ويدعوه به ، فلا تفاوت بين النداء والإخبار ،

(١) أخرجه النسائي وابن حبان والحاكم والطبراني في الأوسط وابن مردويه كلهم من هذا الوجه .
 (٢) قلت : بل راويها ثقة غير منهم . قال إبراهيم الحربي في القريب : حدثنا هرون بن عبد الله أن الرجم
 أنزل في سورة الأحزاب مكتوبا في خوصة في بيت عائشة . فأكلتها شاتها . وروى أبو يعلى والدارقطني والبخاري
 والطبراني في الأوسط والبيهقي في المعرفة ، كلهم من طريق محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن عائشة وعن
 عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة انتهى . وكأن المصنف فهم أن ثبوت هذه الزيادة يقتضي ما تدعيه الروافض :
 أن القرآن ذهب منه أشياء . وليس ذلك بلازم ، بل هذا مما نسخت تلاوته وبقي حكمه . وأكل الدواجن لما وقع
 بعد النسخ

الآتري إلى ما لم يقصد به التعليم والتلقين من الأخبار كيف ذكره بنحو ما ذكره في النداء (لقد جاءكم رسول من أنفسكم)، (وقال الرسول يارب)، (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)، (والله ورسوله أحق أن يرضوه)، (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم)، (إن الله وملائكته يصلون على النبى)، (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى). اتق الله: واطب على ما أنت عليه من التقوى، واثبت عليه، وازدد منه، وذلك لأن التقوى باب لا يبلغ آخره ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ لا تساعدكم على شئ. ولا تقبل لهم رأيا ولا مشورة، وجانبهم واحترس منهم، فإنهم أعداء الله وأعداء المؤمنين، لا يريدون إلا المضازة والمضادة. وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة وكان يحب إسلام اليهود قريظة والنضير وبنى قينقاع وقد بايعه ناس منهم على النفاق فكان يلين لهم جانبه ويكرم صغيرهم وكبيرهم. وإذا أتى منهم قبيح تجاوز عنه، وكان يسمع منهم^(١) فنزل. وروى أن أباسفيان بن حرب وعكرمة بن أبى جهل وأبا الأعور السلى قدموا عليه فى المواعدة التى كانت بينه وبينهم. وقام معهم عبد الله بن أبى ومعتب بن قشير والجد بن قيس، فقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم: ارفض ذكر آلهتنا وقل إنها تشفع وتنفع وندعك وربك، فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين وهموا بقتلهم^(٢)، فنزل: أى اتق الله فى نقض العهد ونبد المواعدة، ولا تطع الكافرين من أهل مكة والمنافقين من أهل المدينة فيما طلبوا إليك. وروى أن أهل مكة دعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يرجع عن دينه ويعطوه شطر أموالهم، وأن يزوجه شيبه بن ربيعة بنته، وخوفه منافقو المدينة أنهم يقتلونه إن لم يرجع. فنزل ﴿إن الله كان عليا﴾ بالصواب من الخطأ، والمصلحة من المفسدة ﴿حكما﴾ لا يفعل شيئا ولا يأمر به إلا بداعى الحكمة ﴿واتبع ما يوحى إليك﴾ فى ترك طاعة الكافرين والمنافقين وغير ذلك ﴿إن الله﴾ الذى يوحى إليك خبير ﴿بما تعملون﴾ فوح إليك ما يصلح به أعمالكم، فلا حاجة بكم إلى الاستماع من الكفرة. وقرئ: يعملون، بالياء، أى: بما يعمل المنافقون من كيدهم لكم ومكرهم بكم ﴿وتوكل على الله﴾ وأسند أمرك إليه وكله إلى تدبيره ﴿وكيلا﴾ حافظا موكولا إليه كل أمر.

مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تَظْهَرُونَ مِنْهُمْ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاحِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ اذْعَوْهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ

(١) لم أجده .

(٢) هكذا ذكره القملى والواحدى بغير سند .

فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا عَابَاءَهُمْ فَاِنْخَافُواكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥﴾

ما جمع الله قلبين في جوف ، ولا زوجية وأمومة في اسراءه ، ولا بنوة ودعوة في رجل .
والمعنى : أن الله سبحانه كما لم ير في حكمته أن يجعل للإنسان قلبين - لأنه لا يخلو إما أن يفعل
بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر من أفعال القلوب فأحدهما فضلة غير محتاج إليها ، وإما أن يفعل
بهذا غير ما يفعل بذاك ، فذلك يؤدي إلى اتصاف الجملة بكونه مريدا كارها : عالما ظاننا . موثقا
شاكيا في حالة واحدة - لم ير أيضا أن تكون المرأة الواحدة أمًا لرجل وزوجا له ؛ لأن الأم
مخدومة مخفوض لها جناح الذل ، والزوجة مستخدمة متصرف فيها بالاستفراش وغيره كالمملوكة
وهما حالتان متنافيتان . وأن يكون الرجل الواحد دعيا لرجل وابنا له : لأن البنوة . أصالة
في النسب وعراقة فيه ، والدعوة : إلصاق عارض بالتسمية ^(١) لا غير ، ولا يجتمع في الشيء .
الواحد أن يكون أصيلا غير أصيل ، وهذا مثل ضربه الله في زيد بن حارثة وهو رجل من كلب
سبي صغيراً ، وكانت العرب في جاهليتها يتغاورون ويتسابون . فاشترى حكيم بن حزام لعمته
خديجة ، فلما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبته له . وطلبه أبوه وعمه ، فخير فاختار
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعتقه . وكانوا يقولون : زيد بن محمد ^(٢) ، فأنزل الله عز وجل
هذه الآية . وقوله (ما كان محمد أباً أحد من رجالكم) وقيل : كان أبو معمر رجلاً من أحفظ
العرب وأرواهم ، فقيل له : ذو القلبين . وقيل : هو جميل بن أسد الفهري ، وكان يقول : إن
لي قلبين . أفهم بأحدهما أكثر مما يفهم محمد ، فروى أنه أنهزم يوم بدر ، فز بأبي سفيان وهو
معلق إحدى نعليه بيده والآخرى في رجله . فقال له : ما فعل الناس ؟ فقال : هم ما بين مقتول
وهارب ، فقال له : ما بال إحدى نعليك في رجلك والآخرى في يدك ؟ فقال : ما ظننت إلا أنهما

(١) قال محمود : « أسد ما ذكره من التأويلات أنهم كانوا يدعون لابن خطل قلبين ، فنفي الله عنه ذلك وقرنه
بما كانوا يقولونه من الأقاويل المتنافضة ، كجعل الأدعاء أبناء والزوجات أمهات . قال : وهذه الأمور الثلاثة
متنافية : أما الأول فلا نه يلزم من اجتماع القلبين قيام أحد المعنيين بأحدهما وحده في الآخر ، وذلك كالعلم والجهل
والأمن والخوف وغير ذلك . وأما الثاني فلا أن الزوجة في مقام الامتحان والام في محل الاكرام ، تنافي أن تكون
الزوجة أما . وأما الثالث فلا أن النبوة أصالة وعراقة . والدعوة لإصقة عارضة ، فهما متنافيان . وذكر الجوف
ليصور به صورة اجتماع القلبين فيه حتى يبادره السامع بالانكار .

(٢) هكذا ذكره ابن إسحاق وابن أبي خيثمة من طريقه . وزاد في آخره « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
أكبر منه بعشر سنين فتباه » وعن سالم عن أبيه قال « ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى أنزل الله (ادعوه
لآبائهم) انتهى . وهذه الزيادة في الصحيحين عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه « ما كنا ندعوه زيد بن حارثة
مول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن (ادعوه لآبائهم - الآية)

في رجلتي، فأكذب الله قوله وقولهم، وضربه مثلاً في الظهار والتبني. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: كان المنافقون يقولون: لمحمد قلبان فأكذبهم الله. وقيل: سها في صلاته فقالت اليهود: له قلبان: قلب مع أصحابه، وقلب معكم. وعن الحسن: نزلت في أن الواحد يقول: نفس تأمرني ونفس تنهاني. والتشكير في رجل، وإدخال من الاستغراقية على قلبيين تأكيدياً لما قصد من المعنى، كأنه قال: ما جعل الله لأمة الرجال ولا لواحد منهم قلبيين البتة في جوفه. فإن قلت: أي فائدة في ذكر الجوف؟ قلت: الفائدة فيه كالفائدة في قوله (القلوب التي في الصدور) وذلك ما يحصل للسامع من زيادة التصور التجلي للدلول عليه. لأنه إذا سمع به صور لنفسه جوفاً يشتمل على قلبيين، فكان أسرع إلى الإنكار. وقرئ: (اللائي) ^(١)، بياء وهمزة مكسورتين. واللائي: بياء ساكنة بعد الهمزة: وتظاهرون: من ظاهر. وتظاهرون: بمعنى من اظاهر، بمعنى تظاهر. وتظهورون: من أظهر، بمعنى تظهر. وتظهورون: من ظهر، بمعنى ظاهر كعمد بمعنى عاهد. وتظهورون: من ظهر، بلفظ فعل من الظهور. ومعنى ظاهر من امرأته: قال لها: أنت علي كظهر أمي. ويجوز في العبارة عن اللفظ: لبي المحرم، إذا قال لبيك. وأقف الرجل: إذا قال: أف وأخوات هن. فإن قلت: فما وجه تعديته وأخواته بمن؟ قلت: كان الظهار طلاقاً عند أهل الجاهلية. فكانوا يتجنبون المرأة المظاهر منها كما يتجنبون المطلقة، فكان قولهم: تظاهر منها تباعد منها بجهة الظهار، وتظهر منها: تحرر منها. وظاهر منها: حاذر منها، وظهر منها: وحش منها ^(٢). وظهر منها: خلص منها. ونظيره: آلى من امرأته، لما ضمن معنى التباعد منها عذبي بمن. وإلا فآلى في أصله الذي هو بمعنى: حلف وأقسم. ليس هذا بحكمه. فإن قلت: ما معنى قولهم: أنت علي كظهر أمي؟ قلت: أرادوا أن يقولوا: أنت علي حرام كيطن أمي، فكنا عن البطن بالظهر: للتلايد كروا البطن الذي ذكره يقارب ذكر الفرج، وإنما جعلوا الكناية عن البطن بالظهر لأنه غمود البطن. ومنه حديث عمر رضى الله عنه: يجيء به أحدهم على غمود بطنه: أراد على ظهره. ووجه آخر: وهو أن إتيان المرأة وظهرها إلى السماء كان محرماً عندهم محظوراً. وكان أهل المدينة يقولون: إذا أتيت المرأة ووجهها إلى الأرض جاء الولد أحول، فلقص المطلق منهم إلى التغليب في تحريم امرأته عليه، شبهها بالظهر ثم لم يقنع

(١) قوله «وقرئ: اللائي» بياء وهمزة مكسورتين، لعل مراده قراءتان إحداهما بياء مكسورة والآخرى بهمزة مكسورة، لكن الباء ليست بياء صرفة، بل هي همزة مسهلة ينطق بها بين الهمزة والياء. والحاصل: أنه قرئ: اللائي بياء ساكنة بعد الهمز. وقرئ: اللائي بهمزة مكسورة من غير ياء. وقرئ: اللائي بشبه الباء مكسورة وهي الهمزة التي ينطق بها بين بين. وقرئ: اللائي بياء ساكنة بعد الألف من غير همز، فهذه أربع قراءات في لفظ اللائي أيئاً كان في القرآن، كما في نرح الشاطبية. (ع)

(٢) قوله «وحش منها» أي خلا منها أفاده الصحاح. (ع)

بذلك حتى جعله ظهر أمه فلم يترك . فإن قلت : الدعى فعيل بمعنى مفعول ، وهو الذى يُدعى ولداً فما له جمع على افعلاء ، وبابه : ما كان منه بمعنى فاعل ، كتنى وأتقياء ، وشقى وأشقياء ، ولا يكون ذلك فى نحو رعى وسعى . قلت : إن شذوذَه عن القياس كشذوذ قتلاء وأسراء ، والطريق فى مثل ذلك التشبيه اللفظى (ذلكم) النسب هو (قولكم بأفواهكم) هذا ابنى لاغير من غير أن يواطئه اعتقاد لصحته وكونه حقاً . والله عز وجل لا يقول إلا ما هو حق ظاهره وباطنه ، ولا يهدى إلا سبيل الحق . ثم قال ما هو الحق وهدى إلى ما هو سبيل الحق ، وهو قوله (ادعواهم لآبائهم) وبين أن دعاءهم لآبائهم هو أدخل الامرين فى القسط والعدل ، وفى فصل هذه الجمل ووصلها ^(١) : من الحسن والفصاحة ما لا يغنى على عالم بطرق النظم . وقرأ قتادة : وهو الذى يهدى السبيل . وقيل : كان الرجل فى الجاهلية إذا أعجبه جلد الرجل وظرفه : ضمه إلى نفسه وجعل له مثل نصيب الذكر من أولاده من ميراثه ، وكان ينسب إليه فيقال : فلان ابن فلان (فإن لم تعلموا) لم آباء تنسبونهم إليهم (فهم) (إخوانكم فى الدين) وأولياؤكم فى الدين فقولوا : هذا أخى وهذا مولاي ، ويا أخى ، ويا مولاي : يريد الاخوة فى الدين والولاية فيه (ما تعمدت) فى محل الجز عطفاً على ما أخطأتم . ويجوز أن يكون مرتفعاً على الابتداء ، والخبر محذوف تقديره : ولكن ما تعمدت قلوبكم فيه الجناح . والمعنى : لا إثم عليكم فيما فعلتموه من ذلك مخطئين جاهلين قبل ورود النهى ، ولكن الإثم فيما تعمدموه بعد النهى . أو لا إثم عليكم إذا قتلتم لولد غيركم يا بنى على سبيل الخطأ وسبق اللسان ، ولكن إذا قتلتموه متعمدين . ويجوز أن يراد العفو عن الخطأ دون العمد على طريق العموم ، كقوله عليه الصلاة والسلام : ما أخشى عليكم الخطأ ولكن أخشى عليكم العمد ، ^(٢) وقوله عليه الصلاة والسلام وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه ^(٣) ، ثم تناول لعمومه خطأ التنبى وعنده . فإن قلت : فإذا وجد التنبى فما حكمه ؟ قلت : إذا كان المتنبى مجهول النسب وأصغر سناً من المتنبى ثبت نسبه منه ، وإن كان عبداً له عتق مع ثبوت النسب ، وإن كان لا يولد مثله لمثله لم

(١) قوله « وفى فصل هذه الجمل ووصلها ، أى : فصل ما فصل منها ووصل ما وصل . (ج) »

(٢) أخرجه ابن حبان والحاكم والبيهقى فى الشعب من طريق جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم عن أبى هريرة مرفوعاً أتم منه . وأخرجه الطبرانى فى الأوسط وفى مسند الشاميين من رواية ثابت بن عجلان حدثنى عطاء عن عائشة رضى الله عنها .

(٣) أخرجه ابن عدى من رواية حسن بن برقة حدثنى أبى عن الحسن عن أبى بكره رفعه «رفع الله عن هذه الأمة ثلاثاً : الخطأ والنسيان والأمر المكروهن عليه» هذه من منكرات جعفر . وأخرجه ابن ماجه وابن حبان من حديث ابن عباس . فأما ابن حبان فقال : عن عطاء عن عبيد بن عمر عنه ، بلفظ «إن الله تجاوز» وأما ابن ماجه فقال عن الأوزاعى «إن الله وضع»

يثبت النسب، ولكنه يعتق عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى، وعند صاحبيه لا يعتق. وأما المعروف بالنسب فلا يثبت نسبه بالتبني وإن كان عبداً عتق (وكان الله غفوراً رحيماً) لغفوه عن الخطأ وعن العمد إذا تاب العائد (١).

النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ مِنْ بَعْضِهِمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أُولِيَ الْأَرْحَامِ مَعْرُوفًا كَمَا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٦)

(النبي أولى بالمؤمنين) في كل شيء من أمور الدين والدنيا (من أنفسهم) ولهذا أطلق ولم يقيد، فيجب عليهم أن يكون أحب إليهم من أنفسهم، وحكمه أنفذ عليهم من حكمها، وحقه أثر لديهم من حقوقها، وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها، وأن يبدوا لها دونه ويجعلوها فداءه إذا أعزل خطب، ووقاه إذا لقت حرب، وأن لا يتبعوا ما تدعوهم إليه نفوسهم ولا ما تصرفهم عنه، ويتبعوا كل ما دعاهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصر فهم عنه، لأن كل ما دعا إليه فهو إرشاد لهم إلى نيل النجاة والظفر بسعادة الدارين وما صر فهم عنه، فأخذ بحجزهم (٢) لئلا يتهاقوا فيما يرى بهم إلى الشقاوة وعذاب النار. أو هو أولى بهم، على معنى أنه أرف بهم وأعطف عليهم وأنفع لهم، كقوله تعالى (المؤمنين رؤوف رحيم) وعن النبي صلى الله عليه وسلم «ما من مؤمن إلا أنا أولى به في الدنيا والآخرة، اقرؤا إن شئتم (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) فأبما مؤمن هلك وترك ما لا فليز نه عصيته من كانوا، وإن ترك ديناً أو ضياعاً فإليه (٣) وفي قراءة ابن مسعود: النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو أب لهم. وقال مجاهد: كل نبي فهو أبو أمته، ولذلك صار المؤمنون إخوة: لأن النبي صلى الله عليه وسلم أبوهم في الدين (وأزواجه أمهاتهم) تشبيهه لهم بالأمهات في بعض الأحكام، وهو وجوب تعظيمهن واحترامهن، وتحريم نكاحهن: قال الله تعالى (ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً) وهن فيما وراء ذلك بمنزلة الاجنبيات، ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها: لسنا أمهات النساء (٤). تعني أنه إنما كن أمهات الرجال، لكونهن

(١) قوله «وعن العمد إذا تاب العائد» هذا عند المعتزلة، وقد يفقر بمجرد الفضل عند أمل السنة. (ع)

(٢) قوله «فأخذ بحجزهم» في الصحاح «حجرة الأزار» : معقده. وحجرة السراويل : التي فيها التكة. (ع)

(٣) أخرجه البخاري من طريق عبد الرحمن بن أبي حمزة عن أبي هريرة رضي الله عنه بمناه.

(٤) أخرجه الدارقطني من رواية معمر الأعتق حدثني حرقاء قالت : قلت لعائشة : يا أم. فقالت : لست أم النساء، إنما أنا أم الرجال، وفي الطبقات من طريق مسروق قال «قالت امرأة لعائشة : يا أم. فقالت عائشة إني

محرمات عليهم كتحريم أمهاتهم . والدليل على ذلك : أن هذا التحريم لم يتعد إلى بناتهم ، وكذلك لم يثبت لمن سائر أحكام الأمهات . كان المسلمون في صدر الإسلام يتوارثون بالولاية في الدين وبالهجرة لا بالقرابة ، كما كانت تتألف قلوب قوم بإسهام لهم في الصدقات ، ثم نسخ ذلك لمأدجا الإسلام ^(١) وعزَّ أهلك ، وجعل التوارث بحق القرابة (في كتاب الله) في اللوح . أوفيا أوصى الله إلى نبيه وهو هذه الآية . أوفى آية الموارث . أوفيا فرض الله كقوله (كتاب الله عليكم) . (من المؤمنين والمهاجرين) يجوز أن يكون بيانا لأولى الأرحام ، أى : الأقرباء من هؤلاء . بعضهم أولى بأن يرث بعضا من الأجانب . ويجوز أن يكون لابتداء الغاية ، أى : أولو الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحق الولاية في الدين ، ومن المهاجرين بحق الهجرة . فإن قلت : ثم استثنى (أن تفعلوا) ؟ قلت : من أعم العام في معنى النفع والإحسان ، كما تقول : القريب أولى من الأجنبي إلا في الوصية ، تريد : أنه أحق منه في كل نفع من ميراث وهبة وهدية وصدقة وغير ذلك ، إلا في الوصية . والمراد بفعل المعروف : التوصية لأنه لا وصية لو ارث وعدى تفعلوا يلى ، لأنه في معنى : تسدوا وتزلوا ^(٢) . والمراد بالأولياء : المؤمنون والمهاجرون للولاية في الدين (ذلك) إشارة إلى ما ذكر في الآيتين جميعا . وتفسير الكتاب : ما سر آفنا ، والجملة مستأنفة كالخاتمة لما ذكر من الأحكام .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى
وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ۖ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صَدَقِهِمْ
وَعَدَ الْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝

(و) اذكر حين (أخذنا من النبيين) جميعا (ميثاقهم) بتبليغ الرسالة والدعاء إلى الدين القيم (ومنك) خصوصا (ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى) وإنما فعلنا ذلك (ليسأل) الله يوم القيامة عند تواقف الأشهاد المؤمنين الذين صدقوا عهدهم ووفوا به ، من جملة من أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى (عن صدقهم) عهدهم وشهادتهم ، فيشهد لهم الأنبياء بأنهم صدقوا عهدهم وشهادتهم وكانوا مؤمنين . أو ليسأل المصدقين للأنبياء عن تصديقهم . لأن من قال للصادق : صدقت ، كان صادقا في قوله . أو ليسأل الأنبياء ما الذى أجابتهم به أمهم . وتأويل مسألة الرسل : تبيكت الكافرين بهم ، كقوله (أنت قلت للناس اتخذوني وأهليني من دون

(١) قوله دجا الاسلام ، في الصحاح : دجا الاسلام ، أى : قوى وألبس كل شئ . (ع)

(٢) قوله دلالة في معنى تسدوا وتزلوا ، في الصحاح : أزلت إليه نعمة ، أى : أسديتها . وفي الحديث :

د من أزلت إليه نعمة فليشكرها ، اه . (ع)

الله (. فإن قلت : لم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم على نوح فمن بعده ^(١) قلت : هذا العطف لبيان فضيلة الأنبياء الذين هم مشاهيرهم وذرائعهم ^(٢) ، فلما كان محمد صلى الله عليه وسلم أفضل هؤلاء المفضلين : قدم عليهم لبيان أنه أفضلهم ، ولولا ذلك لقدم من قدمه زمانه . فإن قلت : فقد قدم عليه نوح عليه السلام في الآية التي هي أخت هذه الآية ، وهي قوله (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك) ثم قدم على غيره . قلت : مورد هذه الآية على طريقة خلاف طريقة تلك ، وذلك أن الله تعالى إنما أوردتها لوصف دين الإسلام بالأصالة والاستقامة فكانه قال : شرع لكم الدين الأصيل الذي بعث عليه نوح في العهد القديم ، وبعث عليه محمد خاتم الأنبياء في العهد الحديث ، وبعث عليه من توسط بينهما من الأنبياء المشاهير . فإن قلت : فإذا أراد بالميثاق الغليظ ؟ قلت : أراد به ذلك الميثاق بعينه . معناه : وأخذنا منهم بذلك الميثاق ميثاقا غليظا . والغليظ : استعارة من وصف الأجرام ، والمراد : عظم الميثاق وجلالة شأنه في باب . وقيل الميثاق الغليظ : اليمين بالله على الوفاء بما حملوا . فإن قلت : علام عطف قوله (وأعد للكافرين) ؟ قلت : على أخذنا من النبيين ، لأن المعنى أن الله أكد على الأنبياء الدعوة إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين ، وأعد للكافرين أبا أليا . أو على ما دل عليه (ليسأل الصادقين) كأنه قال : فأثاب المؤمنين وأعد للكافرين .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ* إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذْ جَاءَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝١٠ هُنَا لِكَ اِبْتِسَالِ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلُّوْا زَلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١

(١) قال محمد : ، قدم النبي صلى الله عليه وسلم على نوح لأنهم ذكروا تخصيصاً بعد التعميم تفضيلاً لم يقدم أفضل المخصوصين ، قال أحمد : وليس التقديم في الذكر بمقتضى لذلك . ألا ترى إلى قوله :
بهاليل منهم جعفر وابن أمه على ومنهم أحمد المنخير

فأخر ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ليختم به تشريعاً له ، وإذا ثبت أن التفضيل ليس من لوازمه التقديم ، فيظهر واقع أعلم في سر تقديمه عليه الصلاة والسلام على نوح ومن بعده في الذكر : أنه هو المخاطب من بينهم ، والمنزل عليه هذا المنزل ، فكان تقديمه لذلك ، ثم لما قدم ذكره عليه الصلاة والسلام : جرى ذكر الأنبياء صلوات الله عليهم بعده على ترتيب أزمنة وجودهم ، والله أعلم .

(٢) قوله : هم مشاهيرهم وذرائعهم ، لعله : درارهم ، بالبدال المهملة . والدرارى : الكواكب العظام ، كما أناده الصراح . (ع)

﴿اذكروا﴾ ما أنعم الله به عليكم يوم الاحزاب وهو يوم الخندق ﴿إذ جاءكم جنود﴾
 وهم الاحزاب ، فأرسل الله عليهم ریح الصبا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نصرت بالصبا
 وأهلك عاد بالبور ^(١) ﴿وجنود لم تروها﴾ وهم الملائكة وكانوا ألفا : بعث الله عليهم
 صبا باردة في ليلة شاتية ، فأخصرتهم ^(٢) وسفت التراب في وجوههم ، وأمر الملائكة فقلعت
 الأوتاد ، وقطعت الأطناب ، وأطفأت النيران ، وأكفأت القدور ، وماجت الخيل بعضها في
 بعض ، وقذف في قلوبهم الرعب ، وكبرت الملائكة في جوانب عسكرهم ، فقال طليحة بن خويلد
 الاسدي : أما محمد فقد بدأكم بالسحر ، فالتجأ التجأ ، فانهزموا من غير قتال ، وحين سمع
 رسول الله صلى الله عليه وسلم بإقبالهم ضرب الخندق على المدينة ، أشار عليه بذلك سلمان الفارسي
 رضى الله عنه ، ثم خرج في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب معسكره والخندق بينه وبين القوم ،
 وأمر بالذراري والنساء فرفقوا في الآطام ^(٣) واشتد الخوف ، وظن المؤمنون كل ظن ، ونجم
 النفاق من المنافقين حتى قال معتب بن قشير : كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر لا نقدر أن
 نذهب إلى الغائط . وكانت قريش قد أقبلت في عشرة آلاف من الاحايش وبنى كنانة وأهل
 تهامة وقائدهم أبو سفيان ، وخرج غطفان في ألف ومن تابعهم من أهل نجد وقائدهم
 عيينة بن حصن . وعامر بن الطفيل في هوازن . وضامتهم اليهود من قريظة والنضير ، ومضى
 على الفريقين قريب من شهر لا حرب بينهم إلا الترامى بالنبل والحجارة ، حتى أنزل الله النصر ^(٤)
 ﴿تعملون﴾ قرئ بالتاء والياء ﴿من فوقكم﴾ من أعلى الوادي من قبل المشرق : بنو غطفان
 ﴿ومن أسفل منكم﴾ من أسفل الوادي من قبل المغرب : قريش تحزبوا وقالوا : سنكون جملة
 واحدة حتى نستأصل محمداً ﴿زاغت الأبصار﴾ مالت عن سنها ومستوى نظرها حيرة وشغوصاً .
 وقيل : عدلت عن كل شيء فلم تلتفت إلا إلى عدوها لشدة الروع . الحنجرة : رأس النخلة
 وهي منهي الحلقوم . والحلقوم : مدخل الطعام والشراب ، قالوا : إذا انتفخت الرئة من شدة
 الفرع أو الغضب أو الغم الشديد : ربت وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة ، ومن
 ثمة قيل للجبان : انتفخ سمحه . ويجوز أن يكون ذلك مثلاً في اضطراب القلوب ووجيها وإن لم
 تبلغ الحناجر حقيقة ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾ خطاب للذين آمنوا . ومنهم النبت القلوب والاقدام ،

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس رضى الله عنهما .

(٢) قوله : فأخصرتهم ، في الصحاح : الحصر ، بالتحريك : البرد . وقد خصر الرجل : إذا ألمه البرد في أطرافه له ، فأخصرتهم : أوقتهم في الحصر أى البرد . (ع)

(٣) قوله : فرفقوا في الآطام ، أى الحصون ، وهو جمع أطم كقنق . (ع)

(٤) أخرجه ابن إسحاق في المغازي . ومن طريقه الطبري عن زيد بن رومان عن عروة عن عبد الله بن أبي بكر ومحمد بن كعب وغيرهم من علمائنا ، فذكر القصة بطولها وأتم ما هنا . وهو في السيرة لابن هشام من قول إسحاق .

والضعاف القلوب : الذين هم على حرف ، والمنافقون : الذين لم يوجد منهم الإيمان إلا بالسنتهم فظن الأولون بالله أنه يبتليهم ويفتتهم يخافوا الزلل وضعف الاحتمال ، وأما الآخرون فظنوا بالله ما حكي عنهم . وعن الحسن : ظنوا ظنونا مختلفة : ظن المنافقون أن المسلمين يستأصلون ، وظن المؤمنون أنهم يبتلون . وقرئ : الظنون ، بغير ألف في الوصل والوقف وهو القياس ، وبزيادة ألف في الوقف زادوها في الفاصلة ، كما زادها في القافية من قال :

• أَقْلَى الْقَوْمِ عَاذِلَ وَالْعَتَابَا • (١)

وكذلك الرسول والسبيل . وقرئ بزيادتها في الوصل أيضاً ، إجماله مجرى الوقف . قال أبو عبيد : وهن كهن في الإمام بألف . وعن أبي عمرو إشمام زاي زلزلوا . وقرئ زلزالا بالفتح . والمعنى : أن الخوف أزعجهم أشد الإزعاج

وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَبَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْفَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَأَقْوَمَتْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا (١٤)

(إلا غرورا) قيل قاله : معتب بن قشير حين رأى الأحزاب قال : يعدنا محمد فتح فارس والروم ، وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقا (١) ، ما هذا إلا وعد غرور (طائفة منهم) هم أوس بن قيطي ومن وافقه على رأيه . وعن السدي عبد الله بن أبي وأصحابه . ويثرب : اسم

(١) أنلى اللوم عاذل والمتابا
إذا غضبت على بنو تميم
وقول إن أصبت لقد أصابا
وجدت الناس كلهم غضابا

لجرير ، وزاد الألف في القافية للاطلاق ، وبنو تميم ينشدون مثل ذلك بتوهم الترتيم بدل حرف الاطلاق . قال العنبري : إذا وصل المنشد ولم يقف ، وظاهر كلام النحويين : أنه إنما يجيء في الوقف . وعاذل : منادى ، مرخم عاذلة . يقول : اتركى ملاهى وعثاى ، وإن فعلت صواباً فاعترق به ، ويروى بكسر التاء ، فالمعنى : أن لومك خطأ فإذا أردت الصواب فقولى : لقد أصاب ، وجعل غضب بنو تميم غضب كل الناس ؛ لأن ما عداهم تبع . أو كالمعصوم . ويروى : إذا غضبت عليك ، والخطاب لكل سامع .

(٢) قوله « فرقا ، أى خروفا » (ع)

المدينة. وقيل: أرض وقعت المدينة في ناحية منها ﴿لأ مقام لكم﴾ قرئ: بضم الميم وفتحها، أى لا قرار لكم ههنا، ولا مكان تقيمون فيه أو تقومون ﴿فارجعوا﴾ إلى المدينة: أمرهم بالحرب من عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقيل: قالوا لهم: ارجعوا كفارا وأسلموا محمداً، وإلا فليست يثرب لكم مكان. قرئ: عورة: بسكون الواو وكسرها، فالعورة: الخلل، والعورة: ذات العورة، يقال: عور المسكان عوراً إذا بدا فيه خلل يخاف منه العدو والسارق. ويجوز أن تكون (عورة) تخفيف: عورة، اعتذروا أن بيوتهم معرضة للعدو ممكنة للسراق، لأنها غير محرزة ولا محصنة، فأستأذنه ليحصنوها ثم يرجعوا إليه، فأكذبهم الله بأنهم لا يخافون ذلك، وإنما يريدون الفرار ﴿ولو دخلت عليهم﴾ المدينة. وقيل: بيوتهم، من قولك: دخلت على فلان داره ﴿من أقطارها﴾ من جوانبها، يريد: ولو دخلت هذه العساكر المتحيزة التي يفرون خوفاً منها مدينتهم وبيوتهم من نواحيها كلها. واثالث^(١) على أهاليهم وأولادهم ناهبين سابين، ثم سئلوا عند ذلك الفرز وتلك الرجفة ﴿الفتنة﴾ أى الردة والرجعة إلى الكفر ومقاتلة المسلمين، لا توها: لجأوها وفعلوها. وقرئ: لا توها: لا أعطوها ﴿وما تلبثوا بها﴾ وما لبثوا إعطاءها ﴿إلا يسيراً﴾ ريثما يكون السؤال والجواب من غير توقف. أو وما لبثوا بالمدينة بعد ارتدادهم إلا يسيراً، فإن الله يهلكهم. والمعنى: أنهم يتعللون بإعوار بيوتهم، ويتمحلون ليغفروا عن نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وعن مصافة الأحزاب الذين ملؤهم هولاً ورعباً؛ وهؤلاء الأحزاب كما هم لو كبسوا^(٢) عليهم أرضهم وديارهم وعرض عليهم الكفر وقيل لهم كونوا على المسلمين، لاسرعوا إليه وما تعللوا بشيء، وما ذاك إلا لملقتهم الإسلام. وشدة بغضهم لأهله، وحبه الكفر وتهالكهم على حزبه.

وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْتُوا الْآدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مُسْتَوْلاً^(١٥)
قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُؤْمِنُونَ
إِلَّا قَلِيلاً^(١٦)

عن ابن عباس: عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة أن يمنعوه عما يمنعون منه أنفسهم. وقيل: هم قوم غابوا عن بدر فقالوا: لئن أشهدنا الله قتالا لثقاتن. وعن محمد بن إسحق عاهدوا يوم أحد أن لا يفزوا بعد منازل فهم منازل ﴿مسؤولاً﴾ مطلوباً مقتضى حتى يوفى به ﴿لن ينفعكم الفرار﴾ مما لا بد لكم من نزوله بكم من حنف أنف أو قتل. وإن نفعتكم الفرار مثلاً فنعتكم

(١) قوله، واثالث، في الصحاح: اثنال عليه الناس من كل وجه، أى: انصبروا. (ع)

(٢) قوله، لو كبسوا، في الصحاح: كبسوا دار فلان: أغاروا عليها فجاءه. (ع)

بالتأخير : لم يكن ذلك التمتع لإلزامنا قليلا . وعن بعض الرواية : أنه مر بجائط مائل فأسرع ، فطبت له هذه الآية فقال : ذلك القليل نطلب .

قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً
وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ١٧

فإن قلت : كيف جعلت الرحمة قرينة السوء في العصمة ولا عصمة إلا من السوء ؟ قلت : معناه أوصيكم بسوء إن أراد بكم رحمة ، فاختصر الكلام وأجرى مجرى قوله :

* مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُحْمًا * (١)

أوحمل الثاني على الأول لما في العصمة من معنى المنع .

قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ
الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ١٨ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ
تَدَوُّرًا أَعْمَمًا كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ
حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ
عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ١٩ يَتَحَسَّبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوْا
لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَحْزَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا

إِلَّا قَلِيلًا ٢٠

(المعوقين) المشبهين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم المنافقون : كانوا يقولون
(لإخوانهم) من ساكني المدينة من أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما محمد وأصحابه إلا
أكلة رأس (١) ، ولو كانوا الحما لا لئلمهم أبو سفيان وأصحابه ، نخلوهم و(هلم إلينا) أي قربوا

(١) ورأيت زوجك في الوغى متقلدا سيفاً ورحماً

الوغي : الحرب . ورحماً : نصب بمحذوف يناسبه ، أي : متقلداً سيفاً وحاملاً رحماً . وروى بدل الشطر الأول :
«يا ليت زوجك قد غدا» أي : ذهب إلى الحرب غدوة لا بئس سلاحه .

(٢) قوله : ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس ، أي فليلون يقسمهم رأس واحد ، وهو جمع آكل ، والالتهام :
الابتلاع ، كذا في الصحاح . (ع)

أنفكم إلينا . وهى لغة أهل الحجاز : يستون فيه بين الواحد والجماعة . وأما تميم فيقولون : هلم ياربجل ، وملبوا يارجال ، وهو صوت سعى به فعل متعد مثل احضرو قرب (قل هلم شهداءكم) (إلا قليلا) إلا إتيانا قليلا يخرجون مع المؤمنين يوهمونهم أنهم معهم ، ولا نراهم يبارزون ويقاتلون إلا شيئا قليلا إذا اضطروا إليه ، كقوله (ماقاتلوا إلا قليلا) . (أشحة عليكم) فى وقت الحرب أضناء بكم ، يترفرون عليكم كما يفعل الرجل بالذباب عنه المناضل دونه عند الخوف (ينظرون إليك) فى تلك الحالة كما ينظر المغشى عليه من معالجة سكرات الموت حذراً وخوراً ولو إذا بك ، فإذا ذهب الخوف وحيزت النائم ووقعت القسمة : نقلوا ذلك الشح وتلك الضنة والرفرفة عليكم إلى الخير - وهو المال والغنيمة - ونسوا تلك الحالة الأولى ، واجتروا عليكم وضربكم بالسنتهم وقالوا : وفروا قسمتنا فإننا قد شاهدناكم وقاتلنا معكم ، وبمكنا غلبتم عدوكم وبنا نصرم عليه . ونصب (أشحة) على الحال أو على الذم . وقرئ : أشحة ، بالرفع . وصلوكم بالصاد . فإن قلت : هل يثبت للنافق عمل حتى رد عليه الإحباط ؟ قلت : لا ولكنه تعلم لمن عسى يظن أن الإيمان باللسان إيمان وإن لم يوطئه القلب ، وأن ما يعمل المنافق من الأعمال يمدى عليه ، فيبين أن إيمانه ليس بإيمان ، وأن كل عمل يوجد منه باطل . وفيه بعث على إتقان المكلف أساس أمره وهو الإيمان الصحيح ، وتنبيه على أن الأعمال الكثيرة من غير تصحيح المعرفة كالبناء على غير أساس ، وأنها بما يذهب عند الله هباء منثوراً . فإن قلت : ما معنى قوله (وكان ذلك على الله يسيراً) وكل شيء عليه يسير ؟ قلت : معناه : أن أعمالهم حقيقة بالإحباط ، تدعو إليه الدواعى ، ولا يصرف عنه صارف (يحسبون) أن الأحزاب لم ينهزموا ، وقد انهزموا فانصرفوا عن الخندق إلى المدينة راجعين لما نزل بهم من الخوف الشديد ودخلهم من الجبن المفرط (وإن يأت الأحزاب) كزرة ثانية . تمنوا الخوفهم مما منوا ^(١) به هذه الكثرة أنهم خارجون إلى البدو حاصلون بين الأعراب (يسألون) كل قادم منهم من جانب المدينة عن أخباركم وعما جرى عليكم (ولو كانوا فيكم) ولم يرجعوا إلى المدينة وكان قتال - لم يقاتلوا إلا تلة ^(٢) رياه وسمعة . وقرئ : بدى ، على فعل جمع باد كغاز وغزى . وفى رواية صاحب الإقليد : بدى ، بوزن عدى . ويسألون ، أى : يتسألون . ومعناه . يقول بعضهم لبعض : ماذا سمعت ؟ ماذا بلغك ؟ أو يتسألون الأعراب كما نقول : رأيت الهلال وترامينه : كان عليكم أن تواسوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنفسكم فتوازروه وثبتوا معه ، كما آساكم بنفسه فى

(١) قوله : مما منوا به ، أى ابتلوا به . (ع)

(٢) قوله : إلا تلة ، فى الصحاح : غلة بالثى . أى : لاه به ، كما يعمل الصبي بشئ من الطعام يتجراً به عن

اللبن . يقال : فلان يعمل نفسه بتلة . (ع)

الصبر على الجهاد والثبات في مرجى الحرب ^(١) . حتى كسرت رباعيته يوم أحد وشجّ وجهه .
لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ

الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا ﴿٢١﴾

فإن قلت : فما حقيقة قوله ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ وقرئ : أسوة ، ^(٢)
بالضم ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أنه في نفسه أسوة حسنة ، أى : قدوة ، وهو الموتى .
أى : المقتدى به ، كما نقول : في البيضة عشرون منا حديد ، أى : هى في نفسها هذا المبلغ من
الحديد . والثانى : أن فيه خصلة من حقها أن يؤتى بها وتقبّع ، وهى الموائسة بنفسه ﴿لمن
كان يرجو الله﴾ بدل من لكم ، كقوله ﴿للذين استضعفوا لمن آمن منهم﴾ يرجو الله واليوم
الآخر : من قولك رجوت زيدا وفضله ، أى : فضل زيد . أو يرجو أيام الله . واليوم الآخر
خصوصا . والرجاء بمعنى الأمل أو الخوف ﴿وذكر الله كثيرا﴾ وقرن الرجاء بالطاعات الكثيرة
والتوفر على الأعمال الصالحة ، والمؤتى برسول الله صلى الله عليه وسلم : من كان كذلك .

وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ

وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

وعدهم الله أن يزلزلوا حتى يستغيثوه ويستنصروه في قوله (أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما
يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم) فلما جاء الأحزاب وشخص بهم واضطربوا ورعبوا الرعب
الشديد ﴿قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله﴾ وأيقنوا بالجنة والنصر . وعن ابن عباس رضى الله
عنهما قال قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : إن الأحزاب سائرون إليكم تسعاً أو عشرة ، أى :
في آخر تسع ليال أو عشر ، فلما رأوهم قد أقبلوا للبيعة قالوا ذلك ^(٣) . وهذا إشارة إلى الخطب
أو البلاء ﴿إيماناً﴾ بالله وبمواعيده ﴿وتسليماً﴾ لقضاياه وأقداره .

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ
وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ

(١) قوله «في مرجى الحرب» أى مكان إدارة رحاها . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) قوله «وقرئ أسوة بالضم» يفيد أن قراءة الكسر هى المشهورة . (ع)

(٣) لم أجده

وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٤﴾
 وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَظِيمِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ
 وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَلَمُواهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
 مِنْ صَيَاصِيمٍ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾
 وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّوها وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾

نذر رجال من الصحابة أنهم إذا لقوا حربا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبتوا وقاتلوا
 حتى يستشهدوا، وهم: عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل.
 وحزرة، ومصعب بن عمير، وغيرهم، رضى الله عنهم ﴿فمنهم من قضى نحبه﴾ يعنى حمزة ومصعبا
 ﴿ومنهم من ينتظر﴾ يعنى عثمان وطلحة. وفي الحديث ومن أحب أن ينظر إلى شهيد يمشى على
 وجه الأرض فلينظر إلى طلحة،^(١) فإن قلت: ما قضاء النحب؟ قلت: وقع عبارة عن الموت؛
 لأن كل حي لا بد له من أن يموت. فكأنه نذر لازم في رقبته، فإذا مات فقد قضى نحبه، أى:
 نذره. وقوله ﴿فمنهم من قضى نحبه﴾ يحتمل موته شهيدا، ويحتمل وفاته بنذره من الثبات مع
 رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإن قلت: فما حقيقة قوله ﴿صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾؟
 قلت: يقال: صدقت أخوك وكذبتى، إذا قال لك الصدق والكذب. وأما المثل: صدقتى
 سن بكره. فعناه: صدقتى فى سن بكره، بطرح الحار وإيصال الفعصل، فلا يخلو ﴿ما عاهدوا
 الله عليه﴾ إما أن يكون بمنزلة السن فى طرح الجار، وإما أن يجعل المعاهد عليه مصدوقا على الجار،
 كأنهم قالوا للمعاهد عليه: سننى بك، وهم وافون به فقد صدقوه، ولو كانوا ناكثين لكذبوه
 ولكان مكذوبا ﴿وما بدلوا﴾ العهد ولا غيره، لا المستشهد ولا من ينتظر الشهادة، ولقد ثبت
 طلحة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حتى أصيبت يده، فقال رسول الله صلى الله
 عليه وسلم: أوجب طلحة^(٢) وفيه تعريض بمن بدلوا من أهل النفاق ومرض القلوب: جعل

(١) أخرجه الترمذى وابن ماجه والحاكم من طريق الصلت بن دينار عن أبي نصره عن جابر. والصلت ضعيف
 وله طريق أخرى عند الطبرانى من طريق أولاد طلحة عن طلحة.

(٢) أخرجه الثعلبى من رواية حرير بن حازم عن عروة فى قوله تعالى «من المؤمنين رجال صدقوا - الآية»،
 منهم طلحة بن عبيد الله فذكره. وقد روى مفرقا من غير هذا الوجه. فقضيت أن يده أسيت. أخرجه البخارى
 من رواية قيس بن أبي حازم «رأيت بد طلحة شلاء، وفى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد» والنساق

المنافقون ، كأنهم قصدوا عاقبة السوء وأرادوها بتبديلهم ، كما قصد الصادقون عاقبة الصدق بوفائهم لأن كلا الفريقين مسوق إلى عاقبته من الثواب والعقاب ، فكأنهما استويا في طلبهما والسعي لتحقيقهما . ويعذبهم ﴿إن شاء﴾ إذا لم يتوبوا ﴿أو يتوب عليهم﴾ إذا تابوا ﴿ورد الله الذين كفروا﴾ الأحزاب ﴿بغيرهم﴾ مغضين ، كقوله (تثبت بالدهن) . ﴿لم ينالوا خيرا﴾ غير ظافرين ، وهما حالان بتداخل أو تعاقب . ويجوز أن تكون الثانية بيانا للأولى أو استئنافا ﴿وكفى الله المؤمنين القتال﴾ بالريح والملائكة ﴿وأنزله الذين﴾ ظاهروا الأحزاب من أهل الكتاب ﴿من صياصبهم﴾ من حصونهم . والصيصية ما تحصن به ، يقال لقرن الثور والظلي : صيصية ، ولشوكه الديك ، وهي مخلة التي في ساقه ، لأنه يتحصن بها . روى أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم - صبيحة الليلة التي انهزم فيها الأحزاب ورجع المسلمون إلى المدينة ووضعوا سلاحهم - على فرسه الخيزوم والغبار على وجه الفرس وعلى السرج ، فقال : ماهذا يا جبريل ؟ قال : من متابعة قريش : فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمح الغبار عن وجه الفرس وعن السرج ، فقال : يا رسول الله . إن الملائكة لم تضع السلاح ، إن الله يأمرك بالسير إلى بني قريظة وأنا عائد إليهم . فإن الله دافعهم دق البيض على الصفا ، وإنهم لكم طعمة فأذن في الناس : أن من كان سامعا مطيعا فلا يصلي العصر إلا في بني قريظة . فما صلى كثير من الناس العصر إلا بعد العشاء الآخرة ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لحاصرهم خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : تنزلون على حكمي ؟ فأبوا ، فقال : على حكم سعد بن معاذ ؟ فرضوا به ، فقال سعد : حكمت فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتسبي ذراريهم ونسأؤهم ، فكبر النبي صلى الله عليه وسلم وقال : ولقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة ، ^(١) ثم استزلهم وخندق في سوق المدينة خندقا ، وقدمهم ففرضب أعناقهم وهم من ثمانمائة إلى تسعمائة وقيل كانوا ستائة مقاتل وسبعمائة أسير ^(٢) . وقرئ : الرعب ، بسكون

== من طريق حمارة بن غزيرة عن أبي الزبير عن جابر قال : لما كان يوم أحد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في ناحية في اثني عشر رجلا من الأنصار . فذكر القصة مطولة فوله أوجب طلعة ، أخرجها الترمذي وابن حبان والحاكم وابن أبي شيبة وإسحاق وأبو يعلى والبخاري عن طريق محمد بن إسحاق عن يحيى بن عباد بن عبيد الله بن الزبير عن أبيه به . قوله (١) «من فوق سبعة أرقعة» في الصحاح «الرقيع» سماء الدنيا . وكذلك سائر السموات . وفي الحديث

«من فوق سبعة أرقع» على لفظ التذكير . كأنه ذمب إلى السقف . (ع)

(٢) هو في سيرة ابن هشام في غزوة بني قريظة عن ابن إسحاق إلى القدر الأخير فأسنده ابن إسحاق عن عاصم ابن همر عن عبد الرحمن أن عمر بن سعد بن معاذ عن علقمة بن وقاص الليثي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - فذكره . وروى أبو نعم في الدلائل من طريق معاذ بن رفاعة عن أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه قال «لما رابطهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه جبريل وهو ينسل رأسه»

العين وضما. وتأسرون، بضم السين. وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل عقارهم للهاجرين دون الأنصار، فقالت الأنصار في ذلك، فقال: إنكم في منازلكم، وقال عمر رضي الله عنه: أما تخمس كما خست يوم بدر؟ قال: لا. إنما جعلت هذه لى طعمة دون الناس، قال: رضيينا بما صنع الله ورسوله ^(١) (وأرضا لم تطؤوها) عن الحسن رضي الله عنه: فارس والروم. وعن قتادة رضي الله عنه: كنا نحدث أنها مكة. وعن مقاتل رضي الله عنه: هي خيبر. وعن عكرمة: كل أرض تفتح إل يوم القيامة. ومن بدع التفاسير: أنه أراد نساءهم.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ^(٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أُجْرًا عَظِيمًا ^(٢٩)

أردن شيئا من الدنيا من ثياب وزيادة نفقة وتغاييرن، فغم ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فزلت، فبدأ بعائشة رضي الله عنها. وكانت أحبهن إليه - فخيرها وقرأ عليها القرآن، فاخترت الله ورسوله والدار الآخرة، فرؤى الفرح في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم اختارت جميعهن اختيارها، فشكر لهن الله ذلك، فأزل (لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج) ^(٣). روى أنه قال لعائشة: إني ذاكر لك أمراً. ولا عليك أن لا تعجلي فيه حتى تستأمرى أبويك ثم قرأ عليها القرآن فقالت: أفى هذا أستاذمر أبوى، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة ^(٣). وروى أنها قالت: لا تخبر أزواجك أنى اخترتك، فقال: إنما بعثني الله مبلغاً ولم يبعثني متعتاً ^(٤). فإن قلت: ما حكم التخيير في الطلاق؟ قلت: إذا قال لها اختارى، فقالت: اخترت نفسي. أو قال: اختارى نفسك، فقالت: اخترت، لا بد من ذكر النفس في

(١) أخرجه الواقدي من رواية حارثة بن زيد عن أم العلاء قالت: «لما غم رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى النصير - الحديث» ومن طريق المسور بن رفاع قال قال عمر يا رسول الله ألا تخمس ما أصبت من بنى النصير الخ؟»

(٢) أخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة عن الحسن نحو هذا

(٣) متفق عليه من رواية الزمري عن أبي سلة عن عائشة: وزاد ثم فعل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم مثل ما فعلت.

(٤) أخرجه سالم من رواية أبي الزبير عن جابر في قصة التخيير. وفي آخره «وأسألك أن تخبر امرأة من نساءك. فانه لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إن الله لم يبعثني معتاً ولا متعتاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً» وفي الصحيحين من رواية معمر عن الزهري عن عبد الله بن عبد الله عن ابن عباس - فذكر القصة مطولاً. وفي آخره عند مسلم قال معمر فأخبرنا أيوب أن عائشة قالت له لا تخبر نساءك أنى اخترتك. قال: إن الله أرسلني مبلغاً ولم يرسلني متعتاً.

قول الخير أو الخيرة - وقعت طلاقه بائنة عند أبي حنيفة وأصحابه ، واعتبروا أن يكون ذلك في المجلس قبل القيام أو الاشتغال بما يدل على الإعراض ، واعتبر الشافعي اختيارها على الفور وهي عنده طلاق رجعية وهو مذهب عمر وابن مسعود . وعن الحسن وقتادة والزهرى رضى الله عنهم : أمرها بيدها في ذلك المجلس وفي غيره ، وإذا اختارت زوجها لم يقع شيء بإجماع فقهاء الأمصار . وعن عائشة رضى الله عنها : خيرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخترناه ولم يعده طلاقاً ^(١) . وروى : أفاكان طلاقاً . وعن علي رضى الله عنه . إذا اختارت زوجها فواحدة رجعية ، وإن اختارت نفسها فواحدة بائنة . وروى عنه أيضاً أنها إن اختارت زوجها فليس بشيء . أصل تعال : أن يقوله من في المكان المرتفع ، لمن في المكان المستوطى ، ثم كثر حتى استوت في استعماله الامكنة . ومعنى تعالين : أقبلن بإرادتكن واختياركن لاحد أمرين . ولم يرد نهوضهن إليه بأنفسهن . كما تقول : أقبل . يخاصمني . وذهب يكلمنى . وقام بهدنى ﴿ أمتمكن ﴾ أعطكن متعة الطلاق . فإن قلت : المتعة في الطلاق واجبة أم لا ؟ قلت : المطلقة التي لم يدخل بها ولم يفرض لها في العقد ، متعتها واجبة عند أبي حنيفة وأصحابه ، وأما سائر المطلقات فمتعتن مستحبة . وعن الزهرى رضى الله عنه : متعتان ، إحداها : يقضى بها السلطان : من طلق قبل أن يفرض ويدخل بها . والثانية . حق على المتقين من طلق بعد ما يفرض ويدخل ، وخاصمت امرأة إلى شريح في المتعة فقال : متعها إن كنت من المتقين ولم يجبره . وعن سعيد بن جبير رضى الله عنه : المتعة حق مفروض . وعن الحسن رضى الله عنه : لكل مطلقة متعة إلا المختلعة والملاعنة ، والمتعة : درع وخمار وملحفة على حسب السعة والإقتار ، إلا أن يكون نصف مهرها أقل من ذلك ، فيجب لها الأقل منهما . ولا تنقص من خمسة دراهم ؛ لأن أقل المهر عشرة دراهم فلا ينقص من نصفها . فإن قلت : ماوجه قراءة من قرأ : أمتمكن وأسرحكن بالرفع ؟ قلت : وجه الاستئناف ﴿ سراحا جميلا ﴾ من غير ضرار طلاقاً بالسنة ﴿ مكن ﴾ للبيان لا للتبويض .

يَلَيْسَ النَّبِيُّ مَنْ بَأَتْ مِنْكُنْ بِفَحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ يُضَعَفُ لَهَا الْعَذَابُ
ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝ ٣٠ وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْكُنْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ

صَالِحًا نُؤْتِيَهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ۝ ٣١

الفاحشة : السينة البليغة في القبح وهي الكبيرة . والميئنة : الظاهرة خشها ، والمراد كل ما اقترن من الكبائر . وقيل هي عصيانهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ونشوزهن ، وطلهن منه

ما يشق عليه أو ما يضيق به ذرعه ويغتم لأجله . وقيل : الزنا ، والله عاصم رسوله من ذلك ، كما مر في حديث الإفك ، وإنما ضوعف عذابهن لأن ما قبح من سائر النساء كان أقبح منهن وأقبح ؛ لأن زيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل والمرتبة وزيادة النعمة على العاصي من المعصية ، وليس لأحد من النساء مثل فضل نساء النبي صلى الله عليه وسلم ولا على أحد منهن مثل ما لله عليهن من النعمة ، والجزاء يتبع الفعل ، وكون الجزاء عقاباً يتبع كون الفعل قبيحاً ، فتن ازداد قبحاً . ازداد عقابه شدة ، ولذلك كان ذم العقلاء للعاصي العالم : أشد منه للعاصي الجاهل ؛ لأن المعصية من العالم أقبح ، ولذلك فضل حد الأحرار على حد العبيد ، حتى أن أبا حنيفة وأصحابه لا يرون الرجم على الكافر ﴿ وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ إيدان بأن كونهن نساء النبي صلى الله عليه وسلم ليس بمنع عنهن شيئاً ، وكيف يغنى عنهن وهو سبب مضاعفة العذاب ، فكان داعياً إلى تشديد الأمر عليهن غير صارف عنه . قرئ : يأت ، بالتاء والياء . مبينة : بفتح الياء وكسرهما ، من بين بمعنى تبين . يضاعف ، ويضعف : على البناء للفعول . ويضاعف ، ويضعف : بالياء والنون . وقرئ : تقمت ، وتعمل : بالتاء والياء . ونوتها : بالياء والنون . والقنوت : الطاعة ، وإنما ضوعف أجرهن لظلمهن رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم بحسن الخلق ، وطيب المعاشرة والقناعة ، وتوفيرهن على عبادة الله والتقوى .

يٰۤاَيُّهَا النَّبِيُّ لَسْتُ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَمْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ
فَقَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٢٢﴾

أحد في الأصل بمعنى واحد ، وهو الواحد ، ثم وضع في النبي العام مستويافيه المذكور والمؤنث والواحد وما وراءه . ومعنى قوله ﴿ لست كأحد من النساء ﴾ لست بجماعة واحدة من جماعات النساء ، أى : إذا نقصت أمة النساء جماعة جماعة لم توجد منهن جماعة واحدة تساويكن في الفضل والسابقة ، ومثله قوله تعالى (والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم)^(١) يريد بين

(١) قال محمد : «معناه لست بجماعة واحدة من جماعات النساء ، أى : إذا نقصت أمة النساء جماعة جماعة لم يوجد منهن جماعة واحدة تساويكن في الفضل والسابقة ، ومثله : ولم يفرقوا بين أحد منهم» قال أحد : إنما يشق على جعل التفضيل بين نساء النبي عليه الصلاة والسلام وبين جماعات النساء لا أحادهن : أن يطابق بين المتفاضلين ؛ لأن الأول جماعة ، وقد كان مستغنياً عن ذلك بحمل الكلام على واحدة ، ويكون المعنى أبلغ ، والتقدير : ليست واحدة منهن كأحد من النساء ، أى : كواحدة من النساء ، ويلزم من تفضيل كل واحدة منهن على كل واحدة من أحاد النساء تفضيل جماعتهن على كل جماعة ، ولا يلزم ذلك في العكس ، فأنمله واقه أعلم وجاء التفضيل ههنا كجسته في قوله تعالى (أفن يخلق كمن لا يخلق) وقوله (وليس الذكر كالأنثى) في تقديم الأفضل عند التفضيل . وقد مضت في ذلك نكتة حسنة ، واقه الموفق .

جماعة واحدة منهم ، تسوية بين جميعهم في أنهم على الحق المبين ﴿إن اتقيت﴾ إن أردت التقوى ، وإن كنتين ^(١) متقيات ﴿فلا تخضعن بالقول﴾ فلا تجن بقول لكن خاضعاً ، أى : لينا خشناً مثل كلام المريبات والمومسات ﴿فيطمع الذى فى قلبه مرض﴾ أى ريبة وفجور . وقرئ بالجزم ، عطفاً على محل فعل النهى ، على أنهم نهين عن الخضوع بالقول . ونهى المريض القلب عن الطمع ، كأنه قيل : لا تخضعن فلا يطمع . وعن ابن محيص أنه قرأ بكسر الميم ، وسيله ضم الياء مع كسرهما وإسناد الفعل إلى ضمير القول ، أى : فيطمع القول المريب ﴿قولاً معروفاً﴾ بعيداً من طمع المريب بجحد وخشونة من غير نخث ، أو قولاً حسناً مع كونه خشناً .

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾

﴿وقرن﴾ بكسر القاف ، من قريقر وقاراً . أو من قريقر ، حذفت الأولى من رأتى : أقرن ، ونقلت كسرتها إلى القاف ، كما تقول : ظن ، وقرن : بفتحها ، وأصله : أقرن ، لحذفت الراء وألقت فتحها على ما قبلها ، كقولك : ظان ، وذكر أبو الفتح الهمداني في كتاب التبيان : وجهها آخر ، قال : قاريقار : إذا اجتمع . ومنه . القارة ، لاجتماعها ، ألا ترى إلى قول عضل والديش ^(٢) : اجتمعوا فكونوا قارة . و﴿الجاهلية الأولى﴾ هى القديمة التى يقال لها الجاهلية الجاهلاء ، وهى الزمن الذى ولد فيه إبراهيم عليه السلام : كانت المرأة تلبس الدرع من اللؤلؤ فتمشى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال ، وقبل : ما بين آدم ونوح . وقيل : بين إدريس ونوح . وقيل : زمن داود وسليمان ، والجاهلية الأخرى : ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام . ويجوز أن تكون الجاهلية الأولى : جاهلية الكفر قبل الإسلام . والجاهلية الأخرى : جاهلية الفسوق والفجور فى الإسلام ، فكأن المعنى : ولا تحدثن بالتبرج جاهلية فى الإسلام تتشبهن بها بأهل جاهلية الكفر . ويعضده ما روى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي الدرداء رضى الله عنه «إن فيك جاهلية ، قال جاهلية كفر أم إسلام ؟ فقال «بل جاهلية كفر» ^(٣)

(١) قوله «وإن كنتين متقيات» لعله «أو إن» كعبارة النسق . (ع)

(٢) قوله «إلى قول عضل والديش» فى الصحاح «عضل» : قبيلة ، وهو عضل بن الهون بن خزيمه أخو الديش ، وهما القارة . وفيه أيضاً «الديش بن الهون بن خزيمه» وربما قالوه بفتح الدال ، وهو أحد القارة ، والآخر عضل ابن الهون ، يقال لهما جميعاً : القارة . (ع)

(٣) لم أجده من أبي الدرداء ، وإنما هو فى الصحيحين عن أبي ذر . ولم يقل جاهلية كفر ... إلى آخره .

أمرهن أمراً خاصاً بالصلاة والزكاة ، ثم جاء به عاماً في جميع الطاعات : لأن هاتين الطاعتين البدنية والمالية هما أصل سائر الطاعات : من اعتنى بهما حق اعتنائه جزّته إلى ما وراءهما ، ثم بين أنه إنما نهى وأمرهن ووعظهن ، لتلا يقارف أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم المآثم ، وليتصوّوا عنها بالتقوى . واستعار للذنوب : الرجس ، وللتقوى : الطهر ؛ لأن عرض المقرّف للقبائح يتلوّث بها ويتدنّس ، كما يتلوّث بدنه بالأرجاس . وأما المحنات ، فالعرض معها نقي مصون كالثوب الطاهر . وفي هذه الاستعارة ما ينفر أولى الأبواب عما كرهه الله لعباده ونهاهم عنه ، ويرغبهم فيما رضى لهم وأمرهم به . و (أهل البيت) نصب على النداء . أو على المدح . وفي هذا دليل بين على أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم من أهل بيته .

وَأَذْكُرَنَّ مَا بُنِيَ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ مَّائَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ

لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾

ثم ذكرهن أن بيوتهن مهابط الوحى ، وأمرهن أن لا ينسین ما يتلى فيها من الكتاب الجامع بين أمرين : هو آيات بينات تدل على صدق النبوة ؛ لأنه معجزة بنظمه . وهو حكمة وعلوم وشرائع (إن الله كان لطيفاً خبيراً) حين علم ما ينفعكم ويصلحكم في دينكم فأرّله عليكم . أو علم من يصلح لنبوته ومن يصلح لأن يكونوا أهل بيته . أو حيث جعل الكلام الواحد جامعاً بين الغرضين .

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ
وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ
وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْحَافِظِينَ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ
اللَّهِ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

يروي أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم قلن : يا رسول الله ، ذكر الله الرجال في القرآن بخير ، أفينا خير نذكر به ؟ إنا نخاف أن لا تقبل منا طاعة (١) . وقيل : السائلة أم سلمة (٢) .

(١) أخرجه الطبراني وابن مردويه من رواية ابن ظبيان عن ابن عباس : « قال النساء : يا رسول الله ، ما لنا لا نذكر في القرآن ... الحديث » .

(٢) أخرجه النسائي من رواية شريك عن محمد بن حمر عن أبي سلمة عن أم سلمة قالت « يا رسول الله ما أسمع الرجال يذكرون في القرآن والنساء لا يذكرن . فأقول الله تعالى (إن المسلمين والمسلمات) » وأخرجه الطبراني =

وروى أنه لما نزل في نساء النبي صلى الله عليه وسلم ما نزل ، قال نساء المسلمين : فما نزل فينا شيء ؟^(١) فزلت . والمسلم : الداخلة في السلم بعد الحرب ، المنقاد الذي لا يعاند ، أو المفوض أمره إلى الله المتوكل عليه من أسلم وجهه إلى الله . والمؤمن : المصدق بالله ورسوله وبما يجب أن يصدق به . والقانت : القائم بالطاعة الدائم عليها . والصادق : الذي يصدق في نيته وقوله وعمله . والصابر : الذي يصبر على الطاعات وعن المعاصي . والخاشع : المتواضع لله بقلبه وجوارحه . وقيل : الذي إذا صلى لم يعرف من عن يمينه وشماله . والمتصدق : الذي يزكي ماله ولا يخل بالتواضع . وقيل : من تصدق في أسبوع بدرهم فهو من المتصدقين . ومن صام البيض من كل شهر فهو من الصائمين . والذاكر الله كثيراً : من لا يكاد يخلو من ذكر الله بقلبه أو لسانه أو بهما . وقراءة القرآن والاشتغال بالعلم من الذكر . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن استيقظ من نومه وأيقظ امرأته فصليا جميعا ركعتين كتبنا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات ،^(٢) والمعنى : والحفاظتها والذاكرات ، لحذف ؛ لأن الظاهر يدل عليه . فإن قلت : أي فرق بين العطفين ، أعني عطف الإناث على الذكور ، وعطف الزوجين على الزوجين ؟ قلت : العطف الأول نحو قوله تعالى (نبيات وأبكارا) في أنهما جنسان مختلفان ، إذا اشتركا في حكم لم يكن بد من توسط العاطف بينهما . وأما العطف الثاني فمن عطف الصفة على الصفة بحرف الجمع ، فكان معناه : إن الجامعين والجامعات لهذه الطاعات (أعد الله لهم) .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ
الْخِيرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ۝٣٦

خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب على مولاه زيد بن حارثة ، فأبت وأبى أخوها عبيد الله ، فزلت ، فقال : رضينا يا رسول الله ، فأنكحها إياه وساق عنه إليها مهرها ستين درهما وخمارا وملحفة ودرعا وإزارا وخسين مدا من طعام وثلاثين صاعا من تمر^(٣) . وقيل : هي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، وهي أول من

== والطبري من وجه آخر عن محمد بن عمر . ورواه أحمد وابن راهويه والفسائي من رواية عثمان بن حكيم عن عبد الرحمن ابن شعبة عن أم سلمة . وأخرجه الحاكم من طريق مجاهد عن أم سلمة وروى الترمذي عن أم عارة نحوه .

(١) أخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة قال ودخل نساء من المؤمنات على نساء النبي صلى الله عليه وسلم فقلن : قد ذكرنا الله في القرآن - الحديث . وأخرجه ابن سعد عن الواقدي عن معمر عن قتادة .

(٢) أخرجه أصحاب السنن إلا الترمذي من رواية الأغر عن أبي سعيد وأبى هريرة مرفوعا .

(٣) لم أجده موصولا . وأوله في الدارقطني من رواية الكعب بن زيد الأسدي الشاعر عن مذكور بن زيد الأسدي مولى زينب بنت جحش عن زينب بنت جحش : خطبني عدة من فريش . فأرسلت أختي حنة ==

هاجر من النساء، وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: قد قبلت، وزوجها زيدا. فسخطت هي وأخوها وقالوا: إنما أردنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فزوجنا عبده^(١) والمعنى وما صبح لرجل ولا امرأة من المؤمنين ﴿إذا قضى الله ورسوله﴾ أى رسول الله أو لأن قضاء رسول الله هو قضاء الله ﴿أمرأ﴾ من الأمور: أن يختاروا من أمرهم ماشاؤا، بل من حقهم أن يجعلوا رأيهم تبعاً لرأيه، واختيارهم تلوا لاختياره. فإن قلت: كان من حق الضمير أن يوحد كما تقول: ما جاءنى من رجل ولا امرأة إلا كان من شأنه كذا. قلت: نعم ولكنهما وقعا تحت النبي، فعاكل مؤمن ومؤمنة، فرجع الضمير على المعنى لا على اللفظ. وقرئ: يكون، بالتاء والياء. و﴿الحيرة﴾ ما يتخير.

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِمَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٢٧﴾

﴿للذى أنعم الله عليه﴾ بالإسلام الذى هو أجل النعم، وبتوفيقك لعتقه ومحبة واختصاصه ﴿وأنعمت عليه﴾ بما وفقك الله فيه، فهو متقلب فى نعمة الله ونعمة رسوله صلى الله عليه وسلم، وهو زيد بن حارثة ﴿أمسك عليك زوجك﴾ يعنى زينب بنت جحش رضى الله عنها، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبصرها بعد ما أنكحها إياه، فوقعت فى نفسه، فقال: سبحان الله مقلب القلوب، وذلك أن نفسه كانت تجفو عنها قبل ذلك لا تريدها، ولو أرادت أن تخطبها، وسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد، ففطن وألقى الله فى نفسه كراهة صحبتها والرغبة عنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إني أريد أن أفارق صاحبتي، فقال: مالك: أراك منها شيء؟ قال: لا والله: ما رأيت منها إلا خيراً، ولكنها تتعظم على لشرفها وتؤذيني، فقال له: أمسك عليك زوجك واتق الله، ثم طلقها بعد، فلما اعتدت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أجد أحداً أوثق فى نفسى منك، اخطب على زينب. قال زيد: فانطلقت فإذا هى تخمر عجبتيها، فلما رأيتها عظمت فى صدرى حتى ما أستطيع أن أنظر

== تستشير رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال لها: أين هى من يعلمها؟ كتاب الله - الحديث وإسناده ضعيف. وليس فيه ذكر مقدار المهر. نعم أخرجه ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حبان مقطوعاً.

(١) أخرجه الثعلبي بهذا بغير سند وروى الطبري من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم من قوله ذلك.

إليها ، حين علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها ، فوليتها ظهري وقلت : يا زينب ، أبشري إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخاطبك ، ففرحت وقالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامر ربى ، فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن ^(١) (زوجنا كلها) فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل بها ، وما أولم على امرأة من نسائه ما أولم عليها : ذبح شاة وأطعم الناس الحنظل واللحم حتى امتد النهار . فإن قلت : ما أراد بقوله (واتق الله) ؟ قلت : أراد : واتق الله فلا تطلقها ، وقصد نهى تنزيه لا تحريم ، لأن الأولى أن لا يطلق . وقيل : أراد : واتق الله فلا تدمها بالنسبة إلى الكبر وأذى الزوج . فإن قلت : ما الذى أخفى فى نفسه ؟ قلت : تعلق قلبه بها . وقيل : مودة مفارقة زيد إليها . وقيل : علمه بأن زيدا سيطلقها وسينكحها ، لأن الله قد أعلمه بذلك . وعن عائشة رضى الله عنها : لو كنتم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا مما أوحى إليه لكنتم هذه الآية ^(٢) . فإن قلت : فماذا أراد الله منه أن يقوله حين قال له زيد : أريد مفارقتها ، وكان من الهجنة أن يقول له : افعل ، فإنى أريد نكاحها ؟ قلت : كأن الذى أراد منه عز وجل أن يصمت عند ذلك ، أو يقول له : أنت أعلم بشأنك ، حتى لا يخالف سره فى ذلك علانيته ؛ لأن الله يريد من الأنبياء تساوى الظاهر والباطن ، والتصلب فى الأمور ، والتجاوب فى الأحوال ، والاستمرار على طريقة مستتبّة ، كما جاء فى حديث إرادة رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل عبد الله بن أبى سرح واعتراض عثمان بشفاعته له : أن عمر قال له : لقد كان عيني إلى عينك ، هل تشير إلى فأقتله ، فقال : إن الأنبياء لا تومض ، ^(٣) ظاهرهم وباطنهم واحد . ^(٤) فإن قلت :

(١) ذكره الثعلبى بغير سند . وأخرج الطبرى معناه من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قوله ، وفى الصحيحين عن أنس قصة زينب وزيد مختصرة . وليس فيه ما فى أوله .

(٢) متفق عليه من حديث عائشة رضى الله عنها .

(٣) قوله «لا تومض» فى الصحاح : أومضت المرأة ، إذا سارقت النظر . (ع)

(٤) لم أجده ، وفى الدلائل للبيهقى من رواية الحسن بن بشر عن الحكم بن عبد الملك عن قتادة عن أنس رضى الله عنه قال «أمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس يوم فتح مكة إلا أربعة من الناس . فذكر الحديث قال «وتذر رجل من الأنصار أن يقتل عبد الله بن سعد إذا رآه فأتى به عثمان فشفع له ، لجعل الأنصارى يتردد ويكره أن يقدم عليه . فبأبىه النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال للأَنْصارى : قد انتظرتك . قال : يا رسول الله أفلا أومضت إلى ؟ قال : إنه ليس لى لى أن يومض» وأخرجه الطبرى من رواية سعيد عن قتادة مرسل . وروى عبد الرزاق من طريق مقسم مولى ابن عباس قال «ولما كانت المدة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قریش . فذكر الحديث بطوله وفيه «وأمن الناس إلا أربعة . وفيه لجاء عثمان بابن أبى سرح . فقال : بأبىه يا رسول الله فأعرض عنه ثم جاء فبأبىه فقال لقد أعرضت عنه ليقته بعضكم فقال رجل من الأنصار هلا أومضت إلينا يا رسول الله ؟ قال : إن النبی لا يومض» وهذا مرسل أيضاً وأخرجه أبو داود وغيره من حديث سعد بن أبى وقاص نحو الأول ، لكن فى آخره «ثم أنبل على أصحابه فقال : أفأكان فيكم رجل رشيد ، يقوم إلى هذا حيث رأى كفت يدي عنه فيقتله ؟ قالوا : وما يدربنا يا رسول الله ما فى نفسك ، هلا أومأت إلينا بعينك ؟ قال : لا ينبغي لى أن يكون له خاتمة الأعين .

كيف عاتبه الله في ستر ما استهجن التصريح به ولا يستهجن النبي صلى الله عليه وسلم التصريح بشيء إلا والشئ في نفسه مستهجن ، وقالة الناس لا تتعلق إلا بما يستفح في العقول والعادات ؟ وماله لم يعاتبه في نفس الامر ولم يأمره بقمع الشهوة وكف النفس عن أن تنازع إلى زينب وتبعتها ؟ ولم يعصم نبيه صلى الله عليه وسلم عن تعلق الهجنة به وما يعرضه للقالة ؟ قلت : كم من شيء يتحفظ منه الإنسان ويستحي من اطلاع الناس عليه ، وهو في نفسه مباح متسع ، وحلال مطلق ، لامقال فيه ولا عيب عند الله ، وربما كان الدخول في ذلك المباح سلماً إلى حصول واجبات يعظم أثرها في الدين ويحل ثوابها ، ولو لم يتحفظ منه لأطلق كثير من الناس فيه ألسنتهم إلا من أوتي فضلاً وعلماً وديناً ونظراً في حقائق الأمور ولبواها دون قشورها . ألا ترى أنهم كانوا إذا طمعوا في بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوا مرتكزين في مجالسهم لا يريمون مستأنسين بالحديث ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤذيه قعودهم ويضيق صدره حديثهم . والحياة يصده أن يأمرهم بالانتشار ، حتى نزلت (إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق) ولو أبرز رسول الله صلى الله عليه وسلم مكنون ضميره وأمرهم أن ينتشروا ، لشق عليهم ، ولكان بعض المقالة ، ^(١) فهذا من ذاك القليل ، لأن طموح قلب الإنسان إلى بعض مشتبهاته من امرأة أو غيرها غير موصوف بالقبح في العقل ولا في الشرع ، لأنه ليس بفعل الإنسان ولا وجوده باختياره ، وتناول المباح بالطريق الشرعي ليس بقبيح أيضاً ، وهو خطبة زينب ونكاحها من غير استئصال زيد عنها ، ولا طلب إليه وهو أقرب منه من زرق قيصه أن يواسيه بمفارقها . مع قوة العلم بأن نفس زيد لم تكن من التعلق بها في شيء ، بل كانت تجفو عنها ، ونفس رسول الله صلى الله عليه وسلم متعلقة بها ، ولم يكن مستنكراً عندهم أن ينزل الرجل عن امرأته لصديقه ، ولا مستهجنأ إذا نزل عنها أن ينكحها الآخر ؛ فإن المهاجرين حين دخلوا المدينة استهم الانصار بكل شيء ، حتى إن الرجل منهم إذا كانت له امرأة نزل عن إحداها وأنكحها المهاجر ، وإذا كان الأمر مباحاً من جميع جهاته ولم يكن فيه وجه من وجوه القبح ولا مفسدة ولا مضرة بزيد ولا بأحد ، بل كان مستجراً مصالح ، ناهيك بواحدة منها أن بنت عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمنت الأئمة والضيعة ونالت الشرف وعادت أما من أقهات المسلمين . إلى ما ذكر الله عز وجل من المصلحة العامة في قوله (لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا) فبالحرى أن يعاتب الله رسوله حين كتبه وبالع في كتبه بقوله (أمسك عليك زوجك واتق الله) وأن لا يرضى له إلا اتحاد الضمير والظاهر ، والثبات

(١) قوله : وكان بعض المقالة ، لعله : القالة . (ع)

في مواطن الحق، حتى يقتدى به المؤمنون فلا يستحيوا من المسكافة بالحق وإن كان مرا. فإن قلت: الواو في (وتخفى في نفسك)، (وتخشى الناس والله أحق) ما هي؟ قلت: واو الحال، أى: تقول لزيد: أمسك عليك زوجك مخفياً في نفسك إرادة أن لا يمسكها، وتخفى خاشياً قاله الناس وتخشى الناس، حقيقة في ذلك بأن تخشى الله. أو واو العطف، كأنه قيل: وإذا تجمع بين قولك. أمسك، وإخفاء خلافه، وخشية الناس. والله أحق أن تخشاه، حتى لا تفعل مثل ذلك. إذا بلغ البالغ حاجته من شئ له فيه همة قيل: قضى منه وطره. والمعنى: فلما لم يبق لزيد فيها حاجة، وتقصرت عنها همة، وطابت عنها نفسه، وطلقها، وانقضت عدتها (زوجنا كما) وقراءة أهل البيت: زوجتكمها. وقيل لجعفر بن محمد رضى الله عنهما: أليس تقرأ على غير ذلك، فقال: لا والذي لا إله إلا هو، ما قرأتها على أى إلا كذلك، ولا قرأها الحسن بن على على أية إلا كذلك، ولا قرأها على بن أبى طالب على النبي صلى الله عليه وسلم إلا كذلك (وكان أمر الله مفعولاً) جملة اعتراضية، يعنى: وكان أمر الله الذى يريد أن يكونه، مفعولاً مكوناً لا محالة، وهو مثل لما أراد كونه من تزويج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب، ومن نفى الحرج عن المؤمنين فى إجراء^(١) أزواج المتبنين مجرى أزواج البنين فى تحريمهن عليهم بعد انقطاع علائق الزواج بينهم وبينهن. ويجوز أن يراد بأمر الله: المكون، لأنه مفعول بكن، وهو أمر الله.

مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩)

(فرض الله له) قسم له وأوجب، من قولهم: فرض لفلان فى الديوان كذا. ومنه فروض السكر لرزقاتهم (سنة الله) اسم موضوع موضع المصدر - كقولهم: تربا، وجندلا - : مؤكد لقوله تعالى (ما كان على النبي من حرج) كأنه قيل: سن الله ذلك سنة فى الأنبياء الماضين، وهو أن لا يخرج عليهم فى الإقدام على ما أباح لهم ووسع عليهم فى باب النكاح وغيره، وقد كانت تحتهم المهاتر والسرارى، وكانت لداود عليه السلام مائة امرأة وثلاثة سرية، ولسليمان عليه السلام ثلثمائة وسبعائة (فى الذين خلوا) فى الأنبياء الذين مضوا (الذين يبلغون) يحتمل

(١) قوله «ومن نفى الحرج عن المؤمنين فى إجراء» لعله فى عدم إجراء، ويمكن أن المراد: الحرج الذى يكون فى الاجراء والتسوية لو حصل ذلك الاجراء. (ع)

وجوه الاعراب : الجز ، على الوصف الانبياء . والرفع والنصب ، على المدح على هم الذين يبلغون . أو على : أعني الذين يبلغون . وقرئ : رسالة الله . قدراً مقدوراً : قضاء مقضياً ، وحكام مبتوتاً ، ووصف الانبياء بأهم لا يخشون إلا الله : تعريض بعد التصريح في قوله تعالى (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) . (حسباً) كافياً للخوف ، أو محاسباً على الصغيرة والكبيرة ، فيجب أن يكون حق الخشية من مثله .

مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ
وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٤٠)

{ ما كان محمد أباً أحد من رجالكم } أى لم يكن أباً رجل منكم على الحقيقة ، حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنسكاح { ولكن } كان { رسول الله } وكل رسول أبوأخته فيما يرجع إلى وجوب التوقير والتعظيم له عليهم . ووجوب الشفقة والنصيحة لهم عليه ، لافى سائر الاحكام الثابتة بين الآباء والابناء ، وزيد واحد من رجالكم الذين ليسوا بأولاده حقيقة ، فكان حكمه حكمكم ، والادعاء والتبني من باب الاختصاص والتقريب لا غير { و } كان { خاتم النبيين } يعنى أنه لو كان له ولد بالغ مبلغ الرجال لكان نبياً ولم يكن هو خاتم الانبياء ، كما يروى أنه قال في إبراهيم حين توفى . لو عاش لكان نبياً . (١) فإن قلت : أما كان أباً للطاهر والطيب والقاسم وإبراهيم ؟ قلت : قد أخرجوا من حكم النبي بقوله (من رجالكم) من وجهين ، أحدهما : أن هؤلاء لم يبلغوا مبلغ الرجال . والثاني : أنه قد أضاف الرجال إليهم وهؤلاء رجاله لارجالهم . فإن قلت : أما كان أباً للحسن والحسين ؟ قلت : بلى ولكنهما لم يكونا رجلين حينئذ ، وهما أيضاً من رجاله لا من رجالهم ، وشئ آخر : وهو أنه إنما قصد ولده خاصة ، لا ولد ولده ؛ لقوله تعالى (وخاتم النبيين) ألا ترى أن الحسن والحسين قد عاشا إلى أن نيف أحدهما (٢) على الأربعين والآخر على الخمسين . قرئ . ولكن رسول الله بالنصب ، عطفاً على (أباً أحد) وبالرفع على : ولكن هو رسول الله . ولكن ، بالتشديد على حذف الخبر ، تقديره : ولكن رسول الله من عرقتموه ، أى : لم يعش له ولد ذكر . وخاتم بفتح التاء بمعنى الطابع ، وبكسرها بمعنى الطابع وفاعل الختم . وتقويه قراءة ابن مسعود : ولكن نبياً ختم النبيين . فإن قلت : كيف كان آخر الانبياء وعيسى ينزل في آخر الزمان ؟ قلت : معنى كونه آخر الانبياء أنه

(١) أخرجه ابن ماجه من طريق مقسم عن ابن عباس في أثناء حديث . والبخارى من حديث ابن أبي أوفى «ولو قضى أن يكون بعد محمد نبى لعاش ابنه ، ولكن لانى بعده» .

(٢) قوله : نيف أحدهما ، أى : زاد . والنيف - بالتشديد والتخفيف - : الزيادة ، كذا في الصحاح . (ع)

لا ينبأ أحد بعده ، وعيسى بمن نبي قبله ، وحين ينزل ينزل عاملاً على شريعة محمد ، مصلياً إلى قبلته ، كأنه بمض أمته .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ
بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾

(اذكروا الله) أنشأوا عليه بضروب الثناء من التقديس والتحميد والتهليل والتكبير وما هو أهله ، وأكثروا ذلك (بكراً وأصيلاً) أى فى كافة الأوقات قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذكر الله على فم كل مسلم ^(١) . وروى فى قلب كل مسلم . وعن قتادة : قولوا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وعن مجاهد : هذه كلمات يقولها الطاهر والجنب . والفعلان ، أعنى اذكروا وسبحوا موجهان إلى البكرة والأصيل ، كقولك : صم وصل يوم الجمعة ، والتسبيح من جملة الذكر ، وإنما اختصه من بين أنواعه اختصاص جبريل وميكائيل من بين الملائكة ، ليبين فضله على سائر الأذكار ، لأن معناه تنزيه ذاته عما لا يجوز عليه من الصفات والأفعال ، وتبرئته من القبايح . ومثال فضله على غيره من الأذكار فضل وصف العبد بالنزاهة من أدناس المعاصي ، والظهر من أرجاس المآثم ، على سائر أوصافه من كثرة الصلاة والصيام ، والتوفر على الطاعات كلها ، والاشتغال على العلوم ، والاشتهار بالفضائل . ويجوز أن يريد بالذكر وإكثاره : تكثير الطاعات ، والإقبال على العبادات ؛ فإن كل طاعة وكل خير من جملة الذكر ، ثم خص من ذلك التسبيح بكرة وأصيلاً وهى الصلاة فى جميع أوقاتها لفضل الصلاة على غيرها . أو صلاة الفجر والعشاءين ؛ لأن أداءها أشق ومراعاتها أشد .

هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ
بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾

لما كان من شأن المصل أن ينعطف فى ركوعه وسجوده استعير لمن ينعطف على غيره خنواً عليه وترؤفاً . كعائد المريض فى انعطافه عليه ، والمرأة فى خنوها على ولدها ، ثم كثر حتى استعمل فى الرحمة والترؤف ومنه قولهم : صلى الله عليك ، أى ترحم عليك وترأف . فإن قلت : قوله (هو

(١) لم أجده بهذا اللفظ . وروى الدارقطنى والبيهقى وابن عدى من حديث أبى هريرة قال : سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم : الرجل منا يذبح وينسى أن يسمى ؟ قال : اسم الله على فم كل مسلم ، وفيه مروان بن سالم . وهو ضعيف جداً .

الذى يصلى عليكم) إن فسرت بترحم عليكم ويتألف (١). فما تصنع بقوله : (وملائكته) وما معنى صلاتهم ؟ قلت : هي قولهم : اللهم صل على المؤمنين ، جعلوا لكونهم مستجاب الدعوة كأنهم فاعلون الرحمة والرأفة . ونظيره قوله : حيّاك الله ، أى أحيّاك وأبقاك ، وحييتك ، أى : دعوت لك بأن يحياك الله ؛ لأنك لا تسلك على إجابة دعوتك كأنك تبقيه على الحقيقة ، وكذلك : عمرك الله ، وعمرتك ، وسقّاك الله ، وسقيتك ، وعليه قوله تعالى (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه) أى ادعوا الله بأن يصلى عليه . والمعنى : هو الذى يترحم عليكم ويتألف : حيث يدعوكم إلى الخير ويأمركم بالكثير الذكر والتوفّر على الصلاة والطاعة (ليخرجكم) من ظلمات المعصية إلى نور الطاعة (وكان بالمؤمنين رحيماً) دليل على أن المراد بالصلاة الرحمة . ويروى أنه لما نزل قوله تعالى (إن الله وملائكته يصلون على النبي) قال أبو بكر رضى الله عنه : ما خصك يا رسول الله بشرف إلا وقد أشركنا فيه ، فأنزلت (تحييتهم) من إضافة المصدر إلى المفعول ، أى : يحيون يوم لقائه بسلام ، فيجوز أن يعظمهم الله بسلامه عليهم ، كما يفعل بهم سائر أنواع التعظيم ، وأن يكون مثلاً كاللقاء على ما فسرنا . وقيل : هو سلام ملك الموت والملائكة معه عليهم وبشارتهم بالجنة . وقيل : سلام الملائكة عند الخروج من القبور . وقيل : عند دخول الجنة ، كما قال (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم) والاجر الكريم : الجنة .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ

بِأَذْنِهِ وَصِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾

(شاهدًا) على من بعثت إليهم ، وعلى تكذيبهم وتصديقهم ، أى : مقبولا قولك عند الله لهم وعليهم ، كما يقبل قول الشاهد العدل فى الحكم . فإن قلت : وكيف كان شاهدًا وقت الإرسال ، وإنما يكون شاهدًا عند تحمل الشهادة أو عند أدائها ؟ قلت : هي حال مقدرة ، كمسئلة الكتاب : مررت برجل معه صقر صائدا به غدا ، أى : مقدرا به الصيد غدا ، فإن قلت : قد فهم من قوله : إنا أرسلناك داعيًا : أنه مأذون له فى الدعاء ، فما فائدة قوله (بأذنه) ؟ قلت : لم يرد

(١) قال محمد : إن جمعت يصلى بمعنى يرحم فما بال عطف الملائكة عليه ؛ فأجاب بأنهم لما كانوا يدعون الله بالرحمة ويستجيب دعاءهم بذلك ، جعلوا كأنهم فاعلون الرحمة . كما تقول : حيّاك الله ، بمعنى أحيّاك ، ثم تقول : حييتك ، بمعنى دعوتك له بالحياة ، والمقصد بذلك جعل الحياة محققة له ، كأنك قلت : دعوت له بالحياة فاستجيب الدعوة ، قال أحمد : كثيراً ما يفر الزمخشري من اعتقاد إرادة الحقيقة والحجاز معاً بلفظ واحد ، وقد ألزمه ههنا ، ولكن جعل الصلاة من الله حقيقة ، ومن الملائكة مجازاً ؛ لأنه حملها على الرحمة . وأما غيره لحملها على الدعاء ، وجعلها من الملائكة حقيقة ، ومن الله مجازاً ، والله أعلم .

به حقيقة الإذن . وإنما جعل الإذن مستعاراً للتسهيل والتيسير : لأن الدخول في حق المالك متعذر ، فإذا صودف الإذن تسهل وتيسر ، فلما كان الإذن تسهلاً لما تعذر من ذلك ، وضع موضعه ، وذلك أن دعاء أهل الشرك والجاهلية إلى التوحيد والشرائع أمر في غاية الصعوبة والتعذر ، فقيل : بإذنه . للإيذان بأن الأمر صعب لا يتأتى ولا استطاع إلا إذا سهله الله ويسره ، ومنه قولهم في الشحيح : أنه غير مأذون له في الإنفاق ، أي : غير مسهل له الإنفاق لكونه شاقاً عليه داخل في حكم التعذر . جلي به الله ظلمات الشرك واهتدى به الضالون ، كما يجلي ظلام الليل بالسراج المنير ويهتدى به . أو أمد الله بنور نبوته نور البصائر ، كما يمد بنور السراج نور الأبصار . وصفه بالإنارة لأن من السراج مالا يضيء إذا قل سليلته ودقت فتيلته . وفي كلام بعضهم : ثلاثة تضيئ : رسول بطيء ، وسراج لا يضيء ، ومائدة ينتظر لها من يجيء . وسئل بعضهم عن الموحشين ؟ فقال : ظلام سائر ، وسراج فاجر . وقيل : وهذا سراج منير . أو وتالياً سراجاً منيراً . ويجوز على هذا التفسير أن يعطف على كاف (أرسلناك) .

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً (٤٧)

الفضل : ما يتفضل به عليهم زيادة على الثواب ، وإذا ذكر المتفضل به وكبره فما ظنك بالثواب . ويجوز أن يريد بالفضل : الثواب ، من قولهم للعطايا : فضول وفواضل ، وأن يريد أن لهم فضلاً كبيراً على سائر الأمم ، وذلك الفضل من جهة الله ، وأنه آتاهم ما فضلوهم به .

وَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى

بِاللهِ وَكِيلًا (٤٨)

(ولا تطعم الكافرين) معناه : الدوام والثبات على ما كان عليه . أو التبييض (أذاهم) يحتمل إصافته إلى الفاعل والمفعول . يعني : ودع أن تؤذيهم بضرر أو قتل ، وخذ بظواهرهم . وحسابهم على الله في باطنهم . أو : ودع ما يؤذونك به ولا تجازم عليه حتى تؤمر ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : هي منسوخة بآية السيف (وتوكل على الله) فإنه يكفيكمهم : وكفى به مفوضاً إليه . ولقائل أن يقول : وصفه الله بخمسة أوصاف ، وقابل كلامها بخطاب مناسب له ، قابل الشاهد بقوله : وبشر المؤمنين ، لأنه يكون شاهداً على أمته وهم يكونون شهداء على سائر الأمم ، وهو الفضل الكبير والمبشر بالإعراض عن الكافرين والمنافقين ، لأنه إذا أعرض عنهم أقبل جميع إقباله على المؤمنين ، وهو مناسب للبشارة والندب بدع أذاهم ، لأنه إذا ترك أذاهم في الحاضر - والأذى لا بد له من عقاب عاجل أو آجل - كانوا منذرين به في المستقبل ، والداعى إلى الله

بتيسيره بقوله (وتوكل على الله) لأن من توكل على الله يسر عليه كل عسير، والسراج المنير بالاكتماء به وكلا؛ لأن من أناره الله برهانا على جميع خلقه، كان جديراً بأن يكتفى به عن جميع خلقه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَدُونَهَا فَعُمَّوهُنَّ وَسِرُّوهُنَّ
سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩)

النكاح: الوطء. وتسمية العقد نكاحاً ملابسته له، من حيث أنه طريق إليه. ونظيره تسميتهم الخمر إثماً؛ لأنها سبب في إقتراف الإثم، ونحوه في علم البيان قول الراجز:

• أَسْنِمَةُ الْآبَالِ فِي سَحَابِهِ • (١)

سمى الماء بأسنمة الآبال؛ لأنه سبب سمن المال وارتفاع أسنمته، ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله إلا في معنى العقد؛ لأنه في معنى الوطء من باب التصريح به. ومن آداب القرآن: الكناية عنه بلفظ الملازمة والمماساة والقربان والتغشى والإتيان. فإن قلت: لم خص المؤمنات والحكم الذي نطقت به الآية تستوى فيه المؤمنات والكتاتيات؟ قلت: في اختصاصهن تنبيه على أن أصل أمر المؤمن والأولى به: أن يتخير لطافته. وأن لا يتكبح إلا مؤمنة عفيفة، ويتنزه عن مزاججة الفواسق فما بال الكوافر، ويستكف أن يدخل تحت لحاف واحد دعوة الله ووليه، فالتى في سورة المائدة: تعليم ما هو جائز غير محرم، من نكاح المحصنات من الذين أوتوا الكتاب. وهذه فيها تعليم ما هو الأولى بالمؤمنين من نكاح المؤمنات. فإن قلت: ما فائدة ثم في قوله (ثم طبعتموهن)؟ قلت: فائدته نفي التوهم عن عسى يتوهم تفاوت الحكم: بين أن يطلقها وهي قريبة العهد من النكاح، وبين أن يبعد عهدها بالنكاح ويتراخى بها المدة في حباله الزواج ثم يطلقها: فإن قلت: إذا خلاها خلوة يمكنه معها المساس، هل يقوم ذلك مقام المساس؟

(١) أقبل كالمستن من ربابه كأنما الوابل في مصابه أسنمة الآبال في صحابه
يصف مطراً بالكثرة والثروة. ويقال: استن الفرس، إذا قص ولعب، وهو أن يرفع يديه ويطرهما تارة ورجليه أخرى على التناقب. وقص البحر بالسفينة: إذا حركها، فرفع مقدمها تارة ومؤخرها أخرى، فالمستن: اسم فاعل منه، واستعير للصاب: إذ أقبل يتحرك وفيه المطر. والرباب: السحاب الأبيض المتلاصق. وصغير «أفيل» و«ربابه» للطر. والوابل: إظهار في مقام الاضمار، للدلالة على الكثرة. وفي مصابه: حال له. وأسنمة الآبال: مبتدأ. وفي صحابه: خبر، والجملة خبر الوابل، وأعلن الأسنمة على الماء لأنه سبب سمنها، والمصاب: مصدر على زنة المفعول. الوابل: المطر الشديد الوقع. والأسنمة: جمع سنام. والآبال: بعد الهزلة - جمع الابل

قلت : نعم عند أبي حنيفة وأصحابه حكم الخلوة الصحيحة حكم المساس ، وقوله ﴿فألکم علیہن من عدة﴾ دليل على أن العدة حق واجب على النساء للرجال ﴿تعتدونہا﴾ تستوفون عددها ، من قولك : عددت الدراهم فاعتدها ، كقولك : كلته فاكلته ، ووزنته فآزنه . وقرئ : تعتدونہا ، مخففاً : أى : تعتدون فيها ، كقوله :

• وَيَوْمَ شَهِدْنَا • (١)

والمراد بالاعتداد ما في قوله تعالى (ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا) . فإن قلت : ما هذا التمتع أو اوجب أم مندوب إليه ؟ قلت إن كانت غير مفروض لها كانت المتعة واجبة ، ولا تجب المتعة عند أبي حنيفة إلا لها وحدها دون سائر المطلقات ، وإن كانت مفروضاً لها ؛ فالمتعة مختلف فيها : فبعض على الندب والاستحباب ، ومنهم أبو حنيفة . وبعض على الوجوب (سراح جليلاً) من غير ضرار ولا منع واجب .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي مَا تَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَمَلَا يَكُونُ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٥٠ تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمِنْ ابْتِغَاءِ مَنِ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَءَ أَعْمَهُنَّ وَلَا يُخْزَنَ وَبَرِّضِينَ مِمَّا آتَيْتَهُنَّ كُلُّنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ٥١

﴿أجورهن﴾ مهورهن : لأن المهر أجر على البضع . وإيتاؤها : إما إعطاؤها عاجلاً . وإما فرضها وتسميتها في العقد . فإن قلت : لم قال : (اللاتي آتيت أجورهن) و (مما أفاء الله عليك) و (اللاتي هاجرن معك) وما فائدة هذه التخصيصات ؟ قلت : قد اختار الله لرسوله الأفضل الأولى ، واستحب بالاطيب الأزكى ، كما اختصه بغيرها من الخصائص ، وآثره بما سواها من الأثر ، وذلك أن تسمية المهر في العقد أولى وأفضل من ترك التسمية ، وإن وقع العقد جائزاً ؛ وله أن

يماسها وعليه مهر المثل إن دخل بها ، والمتعة إن لم يدخل بها . وسوق المهر إليها عاجلاً أفضل من أن يسميه ويؤجله ، وكان التعجيل ديدن السلف وستهم ، وما لا يعرف بينهم غيره ، وكذلك الجارية إذا كانت سبية مالهكها ، وخطبة سيفه ورمحه ، وما غنمه الله من دار الحرب أحل وأطيب مما يشتري من شق الجلب . والسبي على ضربين : سبي طيبة ، وسبي خبيثة ؛ فسبي الطيبة : ماسي من أهل الحرب . وأما من كان له عهد فالمسبي منهم سبي خبيثة ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿ مما أفاء الله عليك ﴾ لأن فيه الله لا يطلق إلا على الطيب دون الخبيث ، كما أن رزق الله يجب إطلاقه على الحلال دون الحرام ^(١) ، وكذلك اللاتي هاجرن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرائبه غير المحارم أفضل من غير المهاجرات معه . وعن أم هانئ بنت أبي طالب : خطبني رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذرت إليه فعذرتني ، ثم أنزل الله هذه الآية ، فلم أحل له ؛ لأنني لم أهاجر معه ، كنت من الطلقاء ^(٢) . وأحللنا لك من وقع لها أن تهب لك نفسها ولا تطلب مهرأ من النساء المؤمنات إن اتفق ذلك ، ولذلك نكرها . واختلف في اتفاق ذلك ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما : لم يكن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد منهن بالهبة . وقيل الموهوبات أربع : ميمونة بنت الحرث ، وزينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية ، وأم شريك بنت جابر ، وخولة بنت حكيم - رضي الله عنهن . قرئ ﴿ إن وهبت ﴾ على الشرط . وقرأ الحسن رضي الله عنه ﴿ أن ﴾ بالفتح ، على التعليل بتقدير حذف اللام . ويجوز أن يكون مصدراً محذوفاً معه الزمان ، كقولك : اجلس مادام زيد جالساً ، بمعنى وقت دوامه جالساً ، ووقت هبتها نفسها . وقرأ ابن مسعود بغير أن . فإن قلت : ما معنى الشرط الثاني مع الأول ؟ قلت : هو تقييد له شرط في الإحلال هبتها نفسها ، وفي الهبة : إرادة استنكاح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كأنه قال : أحللناها لك إن وهبت لك نفسها وأنت تريد أن تستنكحها ؛ لأن إرادته هي قبول الهبة وما به تتم . فإن قلت : لم عدل عن الخطاب إلى الغيبة في قوله تعالى ﴿ نفسها للنبي إن أراد النبي ﴾ ثم رجع إلى الخطاب ؟ قلت : للإيذان بأنه مباحص به وأوثر ، وبجيبه على لفظ النبي للدلالة على أن الاختصاص تكرمه له لأجل النبوة ، وتكريره تفخيم له وتقرير لاستحقاقه الكرامة لنبوته . واستنكاحها : طلب نكاحها والرغبة فيه ، وقد استشهد به أبو حنيفة على جواز عقد النكاح بلفظ الهبة : لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقمته سواء في الأحكام إلا فيما خصه الدليل . وقال الشافعي : لا يصح . وقد خص رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعنى الهبة ولفظها جميعاً ؛ لأن اللفظ تابع للمعنى ، والمدعى

(١) قوله « كما أت رزق الله يجب إطلاقه على الحلال » هذا عند المتأخرة . أما أهل السنة فيطلقونه على القسمين . (ع)

(٢) أخرجه الترمذي والحاكم وابن أبي شيبة وإسحاق والطبري والطبراني وابن أبي حاتم كلهم من رواية السدي عن أبي صالح عنها

للاشتراك في اللفظ يحتاج إلى دليل . وقال أبو الحسن الكرخي : إن عقد النكاح بلفظ الإجارة جائز ، لقوله تعالى (اللاقي آتيت أجورهن) وقال أبو بكر الرازي : لا يصح ؛ لأن الإجارة عقد مؤقت ، وعقد النكاح مؤبد ، فهما متنافيان (خالصة) مصدر مؤكد ، كوعد الله ، وصيغة الله ، أى : خلص لك إحلال ما أحللت لك خالصة ، بمعنى خلوصاً ، والفاعل والفاعلة في المصادر غير عزيزين ، كالحارج والقاعد ، والعافية والكاذبة . والدليل على أنها وردت في أثر الإحلالات الأربع مخصوصة برسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل التوكيد لها قوله : (قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيماهم) بعد قوله (من دون المؤمنين) وهى جملة اعتراضية ، وقوله (لكيلا يكون عليك حرج) متصل بخالصة لك من دون المؤمنين ، ومعنى هذه الجملة الاعتراضية أن الله قد علم ما يجب فرضه على المؤمنين في الأزواج والإماء ، وعلى أى حدّ وصفه يجب أن يفرض عليهم فقرضه ، وعلم المصلحة في اختصاص رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اختصه به ففعل : ومعنى (لكيلا يكون عليك حرج) لئلا يكون عليك ضيق في دينك : حيث اختصاصك بالتنزيه واختيار ما هو أولى وأفضل . وفي دنياك : حيث أحللت لك أجناس المنكوحات وزدنا لك الواهبة نفسها . وقرئ : خالصة ، بالرفع ، أى : ذاك خلوص لك وخصوص من دون المؤمنين ومن جعل خالصة نعتاً للمرأة ، فعلى مذهبه : هذه المرأة خالصة لك من دونهم (وكان الله غفوراً) للواقع في الحرج إذا تاب (رحيماً) بالتوسعة على عباده . روى أن أمهات المؤمنين حين تغايرن وابتغين زيادة النفقة وغظن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هجرهن شهراً ، ونزل التخيير ، فأشفقن أن يطلقهن ، فقلن : يا رسول الله ، افرض لنا من نفسك ومالك ما شئت ^(١) . وروى أن عائشة رضيت الله عنها قالت : يا رسول الله إنى أرى ربك يسارع في هواك ^(٢) (ترجى) بهمز وغير همز : توخر (وتؤوى) تضم ، يعنى : تترك مضاجعة من تشاء منهن ، وتضاجع من تشاء . أو تطلق من تشاء . وتمسك من تشاء .

(١) هذا ملفق من أحاديث . فأوله عند مسلم من طريق أبي الزبير عن جابر قال «دخل أبو بكر على النبي صلى الله عليه وسلم والناس على الباب جلوس... الحديث» وفيه قول أبي بكر وهو قال «فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : هن حولي كما ترى يسألني النفقة» فذكر الحديث - وفيه : فأمر رسول الله آية التخيير» وقوله «وهجرهن شهراً» هذا هو من حديث عائشة في الصحيحين . وقوله «فأشفقن أن يطلقهن» - إلى آخره» أخرجه ابن أبي شيبة من رواية رزين أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يفارق نساءه فقلن له : اقم لنا من نفسك ومالك ما شئت ودعنا على حائنا وهذا مرسل . وروى ابن مردويه من طريق سالم الأقطس عن مجاهد قال كان للنبي صلى الله عليه وسلم تسع نسوة وخشعن أن يطلقهن ، فقلن : يا رسول الله اقم لنا من نفسك ومالك ما شئت ولا نطلقنا . فنزلت (ترجى من تشاء منهن) الآية

(٢) متفق عليه من حديث هشام عن أبيه عن عائشة في أثناء حديث روى الحاكم فاستدركه

أولا تقسم لآيتين شئت ، وتقسم لمن شئت . أو تترك تزوج من شئت من نساء أمتك ، وتزوج من شئت . وعن الحسن رضي الله عنه : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب امرأة لم يكن لأحد أن يخطبها حتى يدعها ، وهذه قسمة جامعة لما هو الغرض : لأنه إما أن يطلق ، وإما أن يمسك ؛ فإذا أمسك ضائع أو ترك وقسم أو لم يقسم . وإذا طلق وعزل ، فإما أن يخلى المعزولة لا يبتغيها ، أو يبتغيها . روى أنه أرجى منهن سودة وجويرية وصفية وميمونة وأم حبيبة ، فكان يقسم لمن ما شاء كما شاء ، وكانت بمن آوى إليه : عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب رضي الله عنهن أرجى خمسا وآوى أربعة (١) . وروى أنه كان يسوى مع ما أطلق له وخير فيه إلا سودة ، فإنها وهبت ليلتها لعائشة وقالت : لا تطلقني حتى أحشر في زمرة نساءك (٢) (ذلك) التفويض إلى مشيئتكم (أدنى) إلى قرة عيونهن وقلة حزنهن ورضاهن جميعا ؛ لأنه إذا سوى بينهن في الإيواء والإرجاء والعزل والابتغاء . وارتفع التفاضل ، ولم يكن لإحداهن مما تريد ومما لا تريد إلا مثل ما للآخرى . وعلين أن هذا التفويض من عند الله بوجهه - اطمانت نفوسهن وذهب التنافس والتنازع ، وحصل الرضا وقوت العيون ، وسلت القلوب (والله يعلم ما في قلوبكم) فيه وعيد لمن لم يرض منهن بما دبر الله من ذلك وفوض إلى مشيئة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعث على تواطئ قلوبهن والتصافي بينهن والتوافق على طلب رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما فيه طيب نفسه . وقرئ : تقر أعينهن ، بضم التاء ونصب الأعين . وتقر أعينهن ، على البناء للمفعول (وكان الله عليا) بذات الصدور (حليما) لا يعاجل بالعقاب ، فهو حقيق بأن يتقى ويحذر ، (كلهن) تأكيد لنون يرضين ، وقرأ ابن مسعود : ويرضين كلهن . بما آتين . على التقديم . وقرأ : كلهن ، تأكيداً لـ (هن) في (آتينهن) .

لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءَ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدِّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَغْنَيْكَ
حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿٥٢﴾
(لا تحل) وقرئ بالتذكير ، لأن تأكيد الجمع غير حقيق ، وإذا جاز بغير فصل في قوله تعالى

(١) أخرجه ابن أبي شيبة عن جرير وعبد الرزاق عن معمر كلاهما عن منصور عن أبي رزين وهذا مرسل .
(٢) أما كونه كان يسوى فن حديث عائشة رضي الله عنها « كان يقسم فبدل » وأما قصة سودة فروى الترمذي عن ابن عباس « أن سودة خشيت أن يطلقها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا رسول الله لا تطلقني ، وأمسكني واجعل يومي لعائشة ، ففعل » وفي الطبراني من رواية ابن أبي الزناد عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت « ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفضل بعضنا على بعض في القسم . وكان قل يوم إلا وهو يطيف بنا ويدنو من كل واحدة منا من غير مسيس حتى ينتهي إلى التي هي يومها فيبيت عندها ، ولقد قالت له سودة بنت زمعة وقد أراد أن يفارقها : يوى منك ونصيب لعائشة . فقبل ذلك منها . وفيها نزلت (وإن امرأة غافت من بعلها نشوذاً أو إغراضاً) الآية » .

(وقال نسوة) كان مع الفصل أجوز (من بعد) من بعد التسع ، لأن التسع نصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأزواج ، كما أن الأربع نصاب أمته منهن ، فلا يحل له أن يتجاوز النصاب (ولا أن تبذل بهن) ولا أن تستبدل بهؤلاء التسع أزواجا آخر بكلهن أو بعضهن ، أراد الله لهن كرامة وجزاء على ما اخترن ورضين . فقصر النبي صلى الله عليه وسلم عليهن ، وهى التسع^(١) اللاتي مات عنهن : عائشة بنت أبي بكر . حفصة بنت عمر . أم حبيبة بنت أبي سفيان . سودة بنت زمعة . أم سلمة بنت أبي أمية . صفية بنت حيي الخيرية . ميمونة بنت الحارث الهلالية . زينب بنت جحش الأسدية . جويرية بنت الحارث المصطلقية ، رضى الله عنهن^(٢) . من في (من أزواج) لتأكيد النبي ، وفائدته استتراق جنس الأزواج بالتحريم . وقيل معناه : لا تحل لك النساء من بعد النساء اللاتي نص إحلالهن لك من الأجناس الأربعة من الأعرافيات والغرائب ، أو من الكتاتيات ، أو من الإماء بالنكاح . وقبل في تحريم التبذل : هو من البذل الذي كان في الجاهلية كان يقول الرجل للرجل : بادلي بامرأتك ، وأبادلك بامرأتى . فينزل كل واحد منهما عن امرأته لصاحبه . ويحكى أن عيينة بن حصن دخل على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده عائشة من غير استئذان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عيينة ، أين الاستئذان ؟ قال : يا رسول الله ، ما استأذنت على رجل قط عن مضى منذ أدركت . ثم قال : من هذه الجميلة إلى جنبك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : هذه عائشة أم المؤمنين . قال عيينة : أفلا أنزلك عن أحسن الخلق ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إن الله قد حرم ذلك . فلما خرج قالت عائشة رضى الله عنها : من هذا يا رسول الله ؟ قال : أحق مطاع ، وإنه - على ما تزين - لسيد قومه^(٣) . وعن عائشة رضى الله عنها : ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل له النساء ، يعنى : أن الآية قد نسخت^(٤)

(١) قوله «ومى التسع» لعله «ومن» - (ع)

(٢) هذا مجمع عليه كما قال الراشد وغيره ، لكن اختلف في ربحانة وروى ابن أبي خيثمة عن الزهري وعن قتادة وقال أبو عبيد : صح عندنا وثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج خديجة فلم يتزوج عليها حتى ماتت ، ثم تزوج سودة ، ثم عائشة ، ثم أم سلمة . ثم حفصة ، ثم زينب بنت جحش ، ثم جويرية ، ثم أم حبيبة ، ثم صفية ثم ميمونة ، ثم فاطمة بنت سريج ، ثم زينب بنت خزيمة ، ثم هند بنت يزيد ، ثم أسماء بنت النعمان ، ثم ميلة بنت قيس أخت الأشعث . ثم أسماء بنت سباء . وقال الواحدى : والمجمع عليه أنه تزوج أربع عشرة : التسع التي ماتت عنهن وتزوج أيضا خديجة وزينب بنت خزيمة وربحانة ومن عنده ، وتزوج أيضا فاطمة بنت الضحاك وأسماء بنت النعمان ولم يدخل بهما .

(٣) أخرجه البزار من حديث أبي هريرة بهذا وأتم منه وفيه إسحق بن عبد الله القزوينى وهو مقروك . وله شاهد من حديث جرير أخرجه الطبرانى ، وآخر عن عائشة أخرجه ابن سعد .

(٤) أخرجه الترمذى وأحمد وإسحق والنسائى وأبو يعلى والطبرى والبزار وابن حبان والحاكم من حديث عائشة رضى الله عنها بالحديث دون التفسير وأخرجه ابن أبى حاتم وابن سعد من حديث أم سلمة رضى الله عنها .

ولا يخلو نسخها إما أن يكون بالسنة ، وإما بقوله تعالى (إنا أحللتك أزواجك) وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف ﴿ولو أعجبك﴾ في موضع الحال من الفاعل ، وهو الضمير في (تبدل) لا من المفعول الذي هو (من أزواج) لأنه موغل في التشكير ، وتقديره : مفروضا أعجبتك بهن . وقيل : هي أسماء بنت عميس الحثمية امرأة جعفر بن أبي طالب ، والمراد أنها من أعجبه حسنهن ، واستثنى من حرم عليه : الإمام (رقيباً) حافظاً مهيمناً ، وهو تحذير عن مجاوزة حدوده وتخطي حلاله إلى حرامه .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَبِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثِ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾

﴿أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ في معنى الظرف تقديره وقت أن يؤذن لكم . و ﴿غير ناظرين﴾ حال من (لا تدخلوا) وقع الاستثناء على الوقت والحال معاً . كأنه قيل : لا تدخلوا بيوت النبي صلى الله عليه وسلم إلا وقت الإذن ، ولا تدخلوها إلا غير ناظرين ، وهؤلاء قوم كانوا يتحينون طعام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه . ومعناه : لا تدخلوا يا هؤلاء المتحينون للطعام ، إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، وإلا فلو لم يكن لهؤلاء خصوصاً ، لما جاز لأحد أن يدخل بيوت النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن يؤذن له إذنا خاصاً ، وهو الإذن إلى الطعام فحسب . وعن ابن أبي عتبة أنه قرأ : غير ناظرين ، مجروراً صفة لطعام ، وليس بالوجه ، لأنه جرى على غير ما هو له ، فمن حق ضمير ما هو له أن يبرز إلى اللفظ ، فيقال : غير ناظرين إناه أتم ، كقولك : هند زيد ضاربه هي . وإن الطعام : إدراكه . يقال : أتى الطعام إني ، كقولك : قلاه قلى . ومنه قوله (بين حميم آن) بالغ إناه . وقيل (إناه) : وقته ، أى : غير ناظرين وقت الطعام وساعة أكله . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أومل على زينب بتمر وسويق وشاة ، وأمر أنسا أن يدعو بالناس ، فترادفوا أفواجا يأكل فوج فيخرج ، ثم يدخل فوج إلى أن قال : يا رسول الله ، دعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه ، فقال : ارفعوا طعامكم وتفرق الناس ، وبقي ثلاثة نفر يتحدثون فأطالوا : فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم

عليه وسلم ليخرجوا ، فانطلق إلى حجرة عائشة رضي الله عنها فقال : السلام عليكم أهل البيت فقالوا : عليك السلام يا رسول الله ، كيف وجدت أهلك ؟ وطاف بالحجرات فسلم عليهن ودعوا له ؛ ورجع فإذا الثلاثة جلوس يتحدثون ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم شديد الحياء ، فتولى ، فلما رأوه متوليا خرجوا ، فرجع ^(١) ونزلت : (ولا مستأنسين لحديث) ^(٢) نهوا عن أن يطيلوا الجلوس يستأنس بعضهم ببعض لأجل حديث يحدثه به . أو عن أن يستأنسوا حديث أهل البيت . واستثناسه : تسمعه وتوجسه ، وهو مجرور معطوف على ناظرين . وقيل : هو منصوب على : ولا تدخلوها مستأنسين . لا بد في قوله (فيستحي منكم) من تقدير المضاف ، أى : من إخراجكم ، بدليل قوله (والله لا يستحي من الحق) يعنى أن إخراجكم حتى ما ينبغى أن يستحي منه . ولما كان الحياء مما يمنع الحي من بعض الأفعال ، قيل (لا يستحي من الحق) بمعنى لا يمتنع منه ولا يتركة ترك الحي منكم ، وهذا أدب أدب الله به الثقلاء . وعن عائشة رضي الله عنها : حسبك في الثقلاء أن الله تعالى لم يحتملهم وقال : فإذا طعمتم فانتشروا . ^(٣) وقرئ : لا يستحي ، بياء واحدة . الضمير في (سألتوهن) لنساء النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يذكرن لأن الحال ناطقة بذكرهن (متاعا) حاجة (فاسألوهن) المتاع . قيل : إن عمر رضي الله عنه كان يحب ضرب الحجاب عليهن بحبة شديدة ، وكان يذكره كثيرا ، ويود أن ينزل فيه ، وكان يقول : لو أطاع فيكن ما رأيتكن عين ، وقال : يا رسول الله ، يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ، ^(٤) فنزلت . وروى أنه مر عليهن وهن مع النساء في المسجد ^(٥) فقالت : لئن احتجبتن ، فإن لكن على النساء فضلا ، كما أن لزوجكن على الرجال الفضل ، فقالت زينب رضي الله عنها : يا ابن الخطاب ، إنك لتغار علينا والوحي ينزل في بيوتنا ، فلم يلبثوا

(١) متفق عليه من حديث أنس وله طرق عندهما وألفاظ .

(٢) أخرجه الثعلبي من طريق العلاء . سمعت عائشة بهذا . قلت : كذا بخط المخرج . وهو غلط واضح جداً . فان العلاء إنما يروى عن ابن عائشة صاحب النوادر ولم يدرك أصحاب أم المؤمنين رضي الله عنها فضلا عنها ولملح كان في الأصل ابن عائشة نسقط ابن

(٣) متفق عليه من حديثين هذا أحدهما . أخرجه النسائي والبخاري في الأدب المفرد والطبراني في الصغير من طريق مجاهد عن عائشة قالت : **وَكُنْتُ** آكل مع النبي صلى الله عليه وسلم حيسا في قصعة فر عمر فدعاه فأكل فأصابته أصبعه أصبعي . فقال عمر : أوأه لو أطاع فيكن ما رأيتكن عين فنزل الحجاب ، ورواه ابن أبي شيبة والطبري من طريق مجاهد مرسلًا وصوبه الدارقطني في المال والثاني أخرجه النسائي أيضا من طريق أنس عن عمر رضي الله عنه قال : **وَقُلْتُ** يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو حجبت أمهات المؤمنين فأزول الله آية الحجاب (وأصله في الصحيح) .

(٤) أخرجه الثعلبي من رواية مجاهد عن الشعبي قال « مر عمر على نساء النبي صلى الله عليه وسلم » فذكره

إلا يسيرا حتى نزلت . وقيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطعم ومعه بعض أصحابه ، فأصاب يد رجل منهم يد عائشه ، فكره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ، ^(١) فنزلت آية الحجاب . وذكر أن بعضهم قال : أنهى أن نكلم بنات عمنا إلا من وراء حجاب ، لأن مات محمد لا تزوجن عائشة . فأعلم الله أن ذلك محرم ^(٢) ﴿ وما كان لكم ﴾ وما صح لكم إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نكاح أزواجه من بعده . وسعى نكاحهن بعده عظيما عنده ، وهو من أعلام تعظيم الله لرسوله وإيجاب حرمة حياً وميتاً . وإعلامه بذلك مما طيب به نفسه وسر قلبه واستغزر شكره . فإن نحو هذا مما يحدث الرجل به نفسه ولا يخفى منه فكره . ومن الناس من تفرط غيرته على حرمة حتى يتعمق لها الموت لثلاث تنكح من بعده . وعن بعض الفتيان أنه كانت له جارية لا يرى الدنيا بها شغفاً واستهتاراً ، ^(٣) فنظر إليها ذات يوم فتنفس الصعداء وانتحب فعلا نحيبه مما ذهب به فكره هذا المذهب ، فلم يزل به ذلك حتى قتلها ، تصورا لما عسى يتفق من بقائها بعده وحصولها تحت يد غيره . وعن بعض الفقهاء أن الزوج الثاني في هدم الثلاث مما يجرى مجرى العقوبة ؛ فصين رسول الله صلى الله عليه وسلم عما يلاحظ ذلك .

إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٥٤

(إن تبدوا شيئا) من نكاحهن على ألسنتكم (أو تخفوه) في صدوركم (فإن الله) يعلم ذلك فيعاقبكم به ، وإنما جاء به على أثر ذلك عاما لكل باد وخاف ، ليدخل تحته نكاحهن وغيره ولأنه على هذه الطريقة أهول وأجزل .

لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَمْلُوكَاتٍ أَيْمَنَهُنَّ وَأَتَقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝٥٥

(١) وهو في حديث النسائي الذي قدمناه أولا .

(٢) أخرجه ابن سعد عن الواقدي عن عبد الله بن جعفر عن ابن أبي عون عن ابن بكر بن حزام في هذه الآية نزلت في طلحة قال : إذا توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجت عائشة ، وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة أن رجلا قال : لقد مات محمد لا تزوجن عائشة رضي الله عنها ، فأنزل الله تعالى (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله الآية) وروى ابن أبي حاتم وابن مردويه من رواية داود عن عكرمة عن ابن عباس في هذه الآية قال : نزلت في رجل م أن يزوج بعض نساء النبي صلى الله عليه وسلم - الحديث . من طريق السدي أن الذي عزم على ذلك عائشة رضي الله عنها .

(٣) قوله ولا يرى الدنيا بها شغفاً واستهتاراً في الصحاح : فلان مستهتر بالشراب ، أي : مولع به ، لا يبال

ما قبل فيه . (ع)

روى أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب : يا رسول الله ، أو نحن أيضا نكلمهم من وراء الحجاب ، فنزلت ﴿ لا جناح عليهن ﴾ أى لا إثم عليهن فى أن لا يحتجبن من هؤلاء ولم يذكر العم والحال ، لأنهما يجران مجرى الوالدين ، وقد جاءت تسمية العم أبا . قال الله تعالى : ﴿ وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق ﴾ وإسماعيل عم يعقوب . وقيل . كره ترك الاحتجاب عنهما لأنهما يصفاهما لابنائهما ، وأبناؤهما غير محارم . ثم نقل الكلام من النبية إلى الخطاب ، وفى هذا النقل ما يدل على فضل تشديد ، فقيل ﴿ واتقين الله ﴾ فيما أمرتن به من الاحتجاب وأنزل فيه الوحى من الاستتار ، واحططن فيه وفيما استثنى منه ما قدرتن . واحفظن حدودهما واسلكن طريق التقوى فى حفظهما ؛ وليكن عملكن فى الحجب أحسن مما كان وأنن غير محجبات ، ليفضل سركن عملكن ﴿ إن الله كان على كل شيء ﴾ من السر والعلن وظاهر الحجاب وباطنه ﴿ شهيذا ﴾ لا يتفاوت فى علته الأحوال .

إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ

وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ٥٦

قرئ : وملائكته بالرفع ، عطفا على محل إن واسمها ، وهو ظاهر على مذهب الكوفيين ، ووجهه عند البصريين . أن يحذف الخبر لدلالة يصلون عليه ﴿ صلوا عليه وسلموا ﴾ أى قولوا الصلاة على الرسول والسلام . ومعناه : الدعاء بأن يرحم عليه الله ويسلم . فإن قلت : الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم واجبة أم مندوب إليها ؟ قلت : بل واجبة ، وقد اختلفوا فى حال وجوبها . ففهم من أوجبها كلها جرى ذكره . وفى الحديث : « من ذكرت عنده فلم يصل على فدخل النار فأبعده »^(١) الله ، ويروى أنه قيل : يا رسول الله ؛ أرايت قول الله تعالى ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي ﴾ فقال صلى الله عليه وسلم : « هذا من العلم المكشون ولولا أنكم سألتوني عنه ما أخبركم به ، إن الله وكل فى ملكين فلا أذكر عند عبد مسلم فيصل على إلا قال ذاك الملكان : غفر الله لك ، وقال الله تعالى وملائكته جوابا لذينك الملكين : آمين ، ولا أذكر عند عبد مسلم فلا يصل على إلا قال ذاك الملكان : لا غفر الله لك ، وقال الله وملائكته

(١) أخرجه ابن حبان من طريق محمد بن عمر عن أبي سلة عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم سعد الخبر فقال : آمين آمين آمين قال : إن جبريل أتاني فذكر الحديث وفيه « ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك فأتى فدخل النار فأبعده الله » وفى الباب عن مالك بن الحويرث عند ابن حبان والطبراني . وعن ابن عباس فى الطبراني وكذلك عن جابر بن سمرة وعبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدى وعن بريدة عند إسحاق بن راهويه وعن عثمان بن ياسر عند البراء وعن جابر بن عبد الله عند البيهقى فى الشعب .

لذينك الملكين: آمين، ^(١) ومنهم من قال: تجب في كل مجلس مرة، وإن تكرر ذكره، كما قيل في آية السجدة وتشميت الماطس، وكذلك في كل دعاء في أوله وآخره. ومنهم من أوجبها في العمر مرة، وكذا قال في إظهار الشهادتين. والذي يقتضيه الاحتياط. الصلاة عليه عند كل ذكر، لما ورد من الأخبار ^(٢). فإن قلت: فالصلاة عليه في الصلاة، أهي شرط في جوازها أم لا؟ قلت: أبو حنيفة وأصحابه لا يرونها شرطاً. وعن إبراهيم النخعي: كانوا يكتبون عن ذلك - يعني الصحابة - بالتشهد، وهو السلام عليك أيها النبي، وأما الشافعي رحمه الله فقد جعلها شرطاً. فإن قلت: فما تقول في الصلاة على غيره؟ قلت: القياس جواز الصلاة على كل مؤمن، لقوله تعالى (هو الذي يصلي عليكم) وقوله تعالى (وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم) وقوله صلى الله عليه وسلم «اللهم صل على آل أبي أوفى» ^(٣) ولكن للعلماء تفصيلاً في ذلك: وهو أنها إن كانت على سبيل التبع كقولك: صلى الله على النبي وآله، فلا كلام فيها. وأما إذا أفرد غيره من أهل البيت بالصلاة كما يفرد هو، فمكروه، لأن ذلك صار شعاراً لذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولأنه يؤدي إلى الاتهام بالرفض. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقف مواقف النهم ^(٤)

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ

(١) أخرجه الطبراني وابن مردويه والعلبي من حديث الحسن بن علي. وفيه الحكم بن عبدالله بن خطاف وهو متروك.

(٢) ومنها حديث أبي هريرة رفعه «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على» أخرجه الترمذي وابن حبان، وفي الباب عن كعب بن عجرة أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب. وعن جابر في الأدب المفرد للبخاري، وفي الطبراني الأوسط. وعن عبدالله بن الحارث بن جزء في كتاب فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم لابن أبي عاصم ومنها حديث علي رضي الله عنه «البحيل من ذكرت عنده فلم يصل على» أخرجه الترمذي من طريق عمارة بن غزية عن عبد الله بن علي بن حسين عن أبيه عن حسين بن علي عن علي رضي الله عنه، وأخرجه النسائي وابن حبان من هذا الوجه بغير ذكر علي. وأخرجه الحاكم من هذا الوجه فقال عن عبدالله بن علي بن الحسين عن أبي هريرة ومنها حديث أنس رفعه، من ذكرت عنده فليصل على فن صلى على مرة صلى الله عليه عشراً» أخرجه النسائي. ومنها حديث ابن عباس - رفعه - «من نسي الصلاة على خطي طريق الجنة» أخرجه ابن ماجه. وله طريق أخرى عن الحسين بن علي عند الطبراني. وأخرى عند البيهقي في القضايا من المعرفة عن أبي هريرة وأخرى عند ابن إسحاق وأبي يعلى عن أبي ذر بلفظ وإن أضل الناس من ذكرت عنده فلم يصل على، ومنها حديث عمر رضي الله عنه قال والدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصمد منه شيء حتى يصلى على النبي صلى الله عليه وسلم» أخرجه الترمذي والبيهقي في الشعب عن علي بن نعمه ومنها حديث عبدالله بن عامر بن ربيعة عن أبيه - رفعه - «من صلى على صلت عليه الملائكة ماضى على، فليقل من ذلك أولئك أكثر» أخرجه ابن ماجه، والأحاديث في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم كثيرة جداً.

(٣) متفق عليه. وقد تقدم في سورة براءة

(٤) تقدم في يوسف

عَذَابًا مُهِينًا ٥٧ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا كَسَبُوا

فَقَدْ آخَظَمُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا ٥٨

(يؤذون الله ورسوله) فيه وجهان، أحدهما: أن يعبر بإيذاهما عن فعل ما يكرهانه ولا يرضيانه: من الكفر والمعاصي، وإنكار النبوة، ومخالفة الشريعة، وما كانوا يصيرون به رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنواع المكروه، على سبيل المجاز. وإنما جعلته مجازاً فيهما جميعاً. وحقيقة الإيذاء صحيحة في رسول الله صلى الله عليه وسلم لثلاث أسباب: الواحدة معطية معنى المجاز والحقيقة. والثاني: أن يراد يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقيل في أذى الله: هو قول اليهود والنصارى والمشركين: يد الله مغلولة وثالث ثلاثة والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه. وقيل: قول الذين يلحدون في أسمائه وصفاته. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما حكى عن ربه: دشمني ابن آدم ولم ينبغ له أن يشتمني، وآذاني ولم ينبغ له أن يؤذيني. فأما شتمه إياي فقلوه: إني اتخذت ولداً. وأما أذاه فقلوه: إن الله لا يعيدني بعد أن بدأني، وعن عكرمة: فعل أصحاب التصاوير الذين يرومون تكوين خلق مثل خلق الله^(١)، وقيل في أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم قولهم: ساحر، شاعر، كاهن، مجنون. وقيل: كسر رباعيته وشج وجهه يوم أحد. وقيل: طعنهم عليه في نكاح صفية بنت حيي، وأطلق إيذاء الله ورسوله، وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات؛ لأن أذى الله ورسوله لا يكون إلا غير حق أبداً. وأما أذى المؤمنين والمؤمنات، فنه ومنه. ومعنى (بغير ما اكتسبوا) بغير جناية واستحقاق للأذى. وقيل: نزلت في ناس من المنافقين يؤذون علياً رضي الله عنه ويسمعونه. وقيل: في الذين أفكروا على عائشة رضي الله عنها. وقيل: في زناه كانوا يتبعون النساء وهن كارهات. وعن الفضيل: لا يحل لك أن تؤذى كلباً أو خنزيراً بغير حق، فكيف^(٢) وكان ابن عون لا يكرى الحوانيت إلا من أهل الذمة، لما فيه من الروعة عند كثر الحول.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٥٩

الجلابيب: ثوب واسع أو سعة من الخمار ودون الرداء تلويه المرأة على رأسها وتبقى منه ما ترسله على صدرها. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الرداء الذي يسر من فوق إلى أسفل.

(١) أخرجه الطبري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما نحوه.

(٢) «فكيف» عبارة النسفي: فكيف إيذاء المؤمنين والمؤمنات. (ع)

وقيل : الملحفة وكل ما يستتر به من كساء أو غيره . قال أبو زيد :

• مُجَلَّبٌ مِنْ سَوَادِ اللَّيْلِ جَلْبَابًا • (١)

ومعنى (يدين عليهن من جلايين) يرخينها عليهن ، ويغطين بها وجوههن وأعطافهن . يقال : إذا زل الثوب عن وجه المرأة : أدنى ثوبك على وجهك ، وذلك أن النساء كن في أول الإسلام على هجرهن في الجاهلية متبدلات ، تبرز المرأة في درع وخمار فصل بين الحرة والامة ، وكان الفتيان وأهل الشطارة يتعرضون إذا خرجن بالليل إلى مقاضى حوائجهم في النخيل والنيطن للإماء ، وربما تعرضوا للحرة بعة الامة ، يقولون : حسبتها أمة ، فأمرن أن يخالفن بزيهن عن زى الإماء بلبس الأردية والملاحف وستر الرؤوس والوجوه ، ليحتشمن ويهين فلا يطمع فيهن طامع ، وذلك قوله (ذلك أدنى أن يعرفن) أى أولى وأجدر بأن يعرفن فلا يتعرض لهن ولا يلقين ما يكرهن . فإن قلت : ما معنى (من) في (من جلايين) ؟ قلت : هو للتبويض ، إلا أن معنى التبويض محتمل وجهين ، أحدهما : أن يتجلبن ببعض ما لهن من الجلايب ، والمراد أن لا تكون الحرة متبدلة في درع وخمار ، كالامة والمأهنة ولها جلبابان فصاعدا في بيتها . والثاني : أن ترخي المرأة بعض جلبابها وفضله على وجهها تنقنع حتى تتميز من الامة . وعن ابن سيرين : سألت عبيدة السلماني عن ذلك فقال : أن تضع رداءها فوق الحاجب ثم تديره حتى تضعه على أنفها . وعن السدي : أن تغطي إحدى عينيها وجهتها ، والشق الآخر إلا العين . وعن الكسائي : يتنقعن بملاحفن منضمة عليهن ، أراد بالانضمام معنى الإدناء (وكان الله غفورا) لما سلف منهن من التفريط مع التوبة (٢) : لأن هذا مما يمكن معرفته بالعقل .

أَيَّنَ لَمْ يَفْتَهُ الْمُنْصِفُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ
لَنْفَرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا شَقُوا

(١) أهلا بضيف أتى ما استفتح الباب مجلب من سواد الليل جلبابا

لأبي زيد . وأهلا : مفعول محذوف وجوبا ، أى : أتيت أهلا . وضيف : متعلق محذوف ، أى . أرحب بضيف : ويجوز تعلقه بأهلا ؛ لأن فيه معنى الترحيب . وما : مصدرية ، أى : مدة استقامة الباب . والمراد منه التعميم ، أى : في أى وقت يطلب فتح الباب : وصفه بالآتي في سواد الليل ، مبالغة في التمدح بالكرم . ويجوز أن الضيف محبوبته ، فيكون الليل استن لها . وشبه استتار ضيفه بظلام الليل بلبس اللباس ، والتجوز في الجلبية أو في الجلباب على طريق التصريح ، ويجوز لأن ما نافية ، وعلى هذا فيصح أن يكون خطابا لملك الموت ، حيث دخل ولم يطلب فتح الباب ، وإن كان الضيف والحبيب قد يفعلان ذلك أيضا

(٢) قوله لما سلف لهن من التفريط مع التوبة ، هذا عند المعتزلة . أو بمجرد الفضل عند أهل السنة . (ع)

أَخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَكِنْ تَجِدَ

لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾

(الذين في قلوبهم مرض) قوم كان فيهم ضعف إيمان وقلة ثبات عليه . وقيل : هم الزناة وأهل الفجور من قوله تعالى (فيقطع الذي في قلبه مرض) . (والمرجفون) ناس كانوا يرجفون بأخبار السوء عن سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : هزموا وقتلوا ، وجرى عليهم كيت وكيت ، فيكسرون بذلك قلوب المؤمنين . يقال : أرجف بكذا ، إذا أخبر به على غير حقيقة ، لكونه خبراً متزلزلاً غير ثابت ، من الرجفة وهي الزلزلة . والمعنى : لأن لم ينته المنافقون عن عدوتهم وكيدكم ، والفسقة عن فجورهم ، والمرجفون عما يولفون من أخبار السوء : لأن أمرنا بأن تفعل بهم الأفاعيل التي تسوهم وتنوهم^(١) ، ثم بأن تضطربهم إلى طلب الجلاء عن المدينة ، وإلى أن لا يساكنوك فيها (إلا) زمناً (قليلاً) ربنا يرتحلون ويلتقطون أنفسهم وعيالاتهم^(٢) ، فسمى ذلك إغراء ، وهو التحريض على سبيل المجاز (ملعونين) نصب على الشتم أو الحال ، أى : لا يجاورونك إلا ملعونين ، دخل حرف الاستثناء على الظرف والحال معاً ، كما مر في قوله (إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه) ولا يصح أن ينتصب عن (أخذوا) لأن ما بعد كلمة الشرط لا يعمل فيما قبلها . وقيل في (قليلاً) وهو منصوب على الحال أيضاً . ومعناه : لا يجاورونك إلا أقلاء أذلاء ملعونين . فإن قلت : ما موقع لا يجاورونك ؟ قلت : لا يجاورونك عطف على لنغرينك ، لأنه يجوز أن يجاب به القسم . ألا نرى إلى صحة قولك : لأن لم ينتهوا لا يجاورونك . فإن قلت : أما كان من حق لا يجاورونك أن يعطف بالفاء ، وأن يقال لنغرينك بهم فلا يجاورونك ؟ قلت : لو جعل الثاني مسبباً عن الأول لكان الأمر كما قلت ، ولكنه جعل جواباً آخر للقسم معطوفاً على الأول ، وإنما عطف بهم ، لأن الجلاء عن الاوطان كان أعظم عليهم وأعظم من جميع ما أصيبوا به ، فتراخت حاله عن حال المعطوف عليه (سنة الله) في موضع مصدر مؤكد ، أى : سن الله في الذين يتنافقون الانبياء أن يقتلوا حيثما ثقفوا وعن مقاتل : يعنى كما قتل أهل بدر وأسروا .

(١) قوله والأفاعيل التي تسوهم وتنوهم في الصحاح ، يقال : له عندى ماساء وناءه ، أى أهله ، ومايسوء وينوء ، وقال بعضهم أراد ساءه وناءه وإنما قال ناءه وهو لا يعتمد لأجل ساءه ، ليزدوج الكلام . (ع)

(٢) قال محمود : المراد بقوله تعالى (إلا قليلاً) ربنا يلتقطون عيالاتهم وأنفسهم لاغير ، قال أحمد : وفيها إشارة إلى أن من توجه عليه إخلاء منزل ملوك للغير بوجه شرعى ، يحمل ربنا يقتل نفسه ومناعه وعياله برهقته الزمان ، حتى يتحصل له منزل آخر هل حسب الاجتهاد ، والله أعلم .

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ

تَكُونُ قَرِيبًا ٦٣

كان المشركون يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وقت قيام الساعة استعجالا على سبيل الهزء ، واليهود يسألونه امتحاناً ؛ لأن الله تعالى عصى وقها في التوراة وفي كل كتاب ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يجيبهم بأنه علم قد استأثر الله به ، لم يطلع عليه ملكا ولا نبيا ، ثم بن لرسوله أنها قريبة الوقوع ، تهديدا للمستعجلين ، وإسكانا للمتخمين (قريباً) شيئا قريباً . أولان الساعة في معنى اليوم ، أو في زمان قريب .

إِنَّ اللَّهَ لَكَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ٦٤

وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ٦٥

السعير : النار المسعورة الشديدة الإيقاد .

يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلْمِزْنَا أَلَطَفَنَا اللَّهُ وَأَطَعْنَا الرُّسُولَا ٦٦

وقرئ : تقلب ، على البناء المفعول . وتقلب ، بمعنى تتقلب . وتقلب ، أى : تقلب نحن . وتقلب ، على أن الفعل للسعير (١) . ومعنى تقلبها : تصرفها في الجهات ، كما ترى البضعة تدور في القدر إذا غلت فترامى بها الغليان من جهة إلى جهة . أو تغييرها عن أحوالها وتحويلها عن ميثاتها . أو طرحها في النار مقلوبين منكوسين . وخصت الوجوه بالذكر ، لأن الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده . ويجوز أن يكون الوجه عبارة عن الجملة ، وناصب الظرف (يقولون) أو محذوف . وهو ، اذكر ، وإذا نصب بالمحذوف كان (يقولون) حالا .

وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ٦٧

رَبَّنَا آتِنَا ٦٨

وقرئ : سادتنا وساداتنا : وهم رؤساء الكفر الذين لقنوه الكفر وزينوه لهم . يقال : ضل السبل وأضله إياه ، وزيادة الألف لإطلاق الصوت : جعلت فواصل الآي كقوافي الشعر ، وفائدتها الوقف والدلالة على أن الكلام قد انقطع ، وأن ما بعده مستأنف . وقرئ : كثيراً ، تكثيراً لإعداد اللعان . وكبيرا ، ليدل على أشد اللعن وأعظمه (ضعفين) ضعفاً لاضلاله وضعفاً لإضلاله : يعترفون ، ويستغيثون ، ويتمنون ، ولا ينفعهم شيء من ذلك .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا
وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾

﴿لا تكونوا كالذين آذوا موسى﴾ قيل : نزلت في شأن زيد وزينب ، وما سمع فيه من قالة بعض الناس . وقيل : في أذى موسى عليه السلام : هو حديث المومسة التي أرادها قارون على قذفه بنفسها ، وقيل : اتهمهم إياه بقتل هرون ، وكان قد خرج معه الجبل فأت هناك ، فحملته الملائكة ومروا به عليهم ميتاً فأبصروه حتى عرفوا أنه غير مقتول . وقيل : أحياء الله فأخبرهم ببراءة موسى عليه السلام . وقيل : قرفوه بعيب^(١) في جسده من برص أو أدرة ، فأطلعهم الله على أنه برىء منه ﴿وجيهاً﴾ ذا جاه ومنزلة عنده ، فلذلك كان يميّط عنه التهم ، ويدفع الأذى ، ويحافظ عليه ، لئلا يلحقه وسم ولا يوصف بنقيصة ، كما يفعل الملك بمن له عنده قرينة ووجاهة . وقرأ ابن مسعود والأعمش وأبو حيوة . وكان عبد الله وجيهاً . قال ابن خالويه : صليت خلف ابن شنبوذ في شهر رمضان ، فسمعت يقرأها . وقرأ العامة أوجه : لأنها مفصحة عن وجاهته عند الله ، كقوله تعالى (عند ذي العرش مكين) وهذه ليست كذلك . فإن قلت : قوله (مما قالوا) معناه : من قولهم ، أو من مقولهم ؛ لأن (ما) إما مصدرية أو موصولة ، وأيهما كان فكيف تصح البراءة منه ؟ قلت : المراد بالقول أو المقول : مؤداه ومضمونه ، وهو الأمر المغيّب . ألا ترى أنهم سمو السببة بالقالة^(٢) ، والقالة بمعنى القول ؟

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾
إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَيُّنَ أَنْ نَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ
مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ
وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾

﴿قولا سديدا﴾ قاصدا إلى الحق والسداد : القصد إلى الحق ، والقول بالعدل . يقال : سدد السهم نحو الرمية : إذا لم يعدل به عن سمتها ، كما قالوا : سهم قاصد ، والمراد : نهيم عما خاضوا

(١) قوله «وقبل قرفوه بعيب» في الصحاح : فرفت الرجل ، أى : عبته ، ويقال : هو يقرف بكذا ، أى :

ترى برؤيتهم . (ع)

(٢) قوله «ألا ترى أنهم سمو السببة بالقالة» في الصحاح : صار هذا الأمر سبة عليه . بالضم ، أى : عارا (ع)

فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل في القول ، والبعض على أن يسد قولهم ^(١) في كل باب : لأن حفظ اللسان وسداد القول رأس الخير كله . والمعنى : راقبوا الله في حفظ ألسنتكم ، وتسديد قولكم ، فإنكم إن فعلتم ذلك أعطاكم الله ما هو غاية الطلبية : من تقبل حسناتكم والإثابة عليها ، ومن مغفرة سيئاتكم وتكفيرها . وقيل لإصلاح الأعمال التوفيق في المحي . بها صالحة مرضية وهذه الآية مقزرة للتي قبلها ، بنيت تلك على النهي عما يؤذى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهذه على الأمر بانقاء الله تعالى في حفظ اللسان : ليرادف عليهم النهي والأمر ، مع اتباع النهي ما يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام ، وإتباع الأمر الوعد البليغ فيقوى الصارف عن الأذى والداعى إلى تركه . لما قال ﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ وعلق بالطاعة الفوز العظيم ، أتبعه قوله ﴿ إنا عرضنا الأمانة ﴾ وهو يريد بالأمانة الطاعة ، فعظم أمرها ونغم شأنها ، وفيه وجهان ، أحدهما : أن هذه الأجرام العظام من السموات والأرض والجبال قد انقادت لأمر الله عز وجل انقياد مثلها . وهو ما يتأتى من الجمادات . وأطاعت له الطاعة التي تصح منها وتليق بها . حيث لم تتمتع على مشيئته وإرادته بإجداً وتكويناً وتسوية على هيآت مختلفة وأشكال متنوعة ، كما قال ﴿ قلنا أتينا طائعين ﴾ وأما الإنسان فلم تكن حاله - فيما يصح منه من الطاعات ويليق به من الانقياد لأوامر الله ونواهيه . وهو حيوان عاقل صالح للتكليف - مثل حال تلك الجمادات فيما يصح منها ويليق بها من الانقياد وعدم الامتناع ، والمراد بالأمانة : الطاعة ؛ لأنها لازمة الوجود ، كما أن الأمانة لازمة الأداء . وعرضها على الجمادات وإبائها وإشفاقها : مجاز . وأما حمل الأمانة فن قولك : فلان حامل للأمانة ومحتمل لها ، تريد : أنه لا يؤديها إلى صاحبها حتى تزول عن ذمته ويخرج عن عهدها ؛ لأن الأمانة كأنها راكبة للثمن عليها وهو حاملها . ألا تراهم يقولون : ركبت الديون ، ولى عليه حق ، فإذا أداها لم تبقى راكبة له ولا هو حاملها . ونحوه قولهم ، لا يملك مولى لمولى نصراً . يريدون : أنه يبذل النصرة له ويساعده بها ، ولا يمسكها كما يمسكها الخاذل . ومنه قول القائل :

أَخُوكَ الَّذِي لَا تَمْلِكُ الْخَيْسَ نَفْسُهُ وَتَرْفُضُ عِنْدَ الْمُحْفِظَاتِ الْكِتَابُفُ ^(٢)

أى لا يملك الرقة والعطف إمساك المسالك الضنين ما في يده ، بل يبذل ذلك ويسمحه به . ومنه قولهم ابفض حق أخيك ؟ لأنه إذا أحبه لم يخرج به إلى أخيه ولم يؤده . وإذا أبفضه أخرجه وأذاه ،

(١) قوله وعلى أن يسد قولهم في الصحاح : سد قوله بسد - بالكسر - : أى صار سديداً . (ع)

(٢) للقطامي . وقيل : لذى الرمة . وحس له حسا : رق له وعطف . والخس أيضاً : العقل والتدبير والنظر في العواقب ، والارفضاض من الترشش والتناثر ، وأحفظه إحفاظاً : أغضبه ، فالحفظات : المنضبات . والكتائف : جمع كثيفة ، وهى الضفينة والحقد . يقول : أخوك هو الذى لا تملك نفسه الرحمة ، بل يبذلها لك . أو لا تقدر نفسه على التدبر بالتأني ، بل يسرع إليك بغتة وترتعد وتذهب صفاته من جهتك عند الأمور المنضبة لك ، لأنها تنضبه أيضاً .

فمعنى : فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان ، فأبين إلا أن يؤدينها وأبى الإنسان إلا أن يكون محتملا لها لا يؤديها . ثم وصفه بالظلم لكونه تاركا لاداء الأمانة ، وبالجهل لإخطائه ما يسدده مع تمكنه منه وهو أداؤها . والثاني : أن ما كلفه الإنسان بلغ من عظمه وثقل محمله : أنه عرض على أعظم ما خلق الله من الأجرام وأقواه وأشدّه : أن يتحمله ويستقل به ، فأبى حمله والاستقلال به وأشفق منه ، وحمله الإنسان على ضعفه ورخاوة قوته (إنه كان ظلوما جهولا) حيث حمل الأمانة ثم لم يف بها ، وضمنها ثم خاس^(١) بضمانه فيها ، ونحو هذا من الكلام كثير في لسان العرب . وما جاء القرآن إلا على طرفهم وأساليبهم من ذلك قولهم : لو قيل للشحم : أين تذهب؟ لقال : أسوى العوج . وكم لهم من أمثال على ألسنة البهائم والجمادات . وتصور مقابلة الشحم بحال ، ولكن الغرض أن السمن في الحيوان مما يحسن قبيحه ، كما أن العجف مما يقبح حسنه ، فتصور أثر السمن فيه تصويراً هو أوقع في نفس السامع ، وهي به آنس وله أقبل ، وعلى حقيقته أوقف ، وكذلك تصوير عظم الأمانة وصعوبة أمرها وثقل محملها والوفاء بها . فإن قلت : قد علم وجه التمثيل في قولهم للذي لا يثبت على رأى واحد : أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى : لأنه مثلت حاله - في تميله وترجحه بين الرأيين وتركه المضى على أحدهما - بحال من يتردد في ذهابه فلا يجمع رجله للبضى في وجهه . وكل واحد من الممثل والممثل به شيء مستقيم داخل تحت الصحة والعروة ، وليس كذلك ما في هذه الآية : فإن عرض الأمانة على الجهاد وإيماء وإشفاقه بحال في نفسه ، غير مستقيم ، فكيف صح بناء التمثيل على المحال ، ومماثل هذا إلا أن تشبه شيئا والمثبه به غير مقول . قلت : الممثل به في الآية وفي قولهم : لو قيل للشحم أين تذهب . وفي نظائره مفروض ، والمفروضات تتخيل في الذهن كما المحققات : مثلت حال التكليف في صعوبته وثقل محمله بحاله المفروضة لو عرضت على السموات والأرض والجبال لا يبين أن يحملنها وأشفقن منها . واللام في (ليعذب) لام التعليل على طريق المجاز ؛ لأن التعذيب نتيجة حمل الأمانة ، كما أن التأديب في ضربته للتأديب نتيجة الضرب . وقرأ الأعمش . ويتوب ؛ ليجعل العلة قاصرة على فعل الحامل ، ويتبدى : ويتوب الله^(٢) . ومعنى قراءة العامة : ليعذب الله حامل الأمانة ويتوب على غيره ممن لم يحملها ، لأنه إذا تيب على الوافي كان ذلك نوعا من عذاب الغادر ، والله أعلم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة الاحزاب وعلمها أهلها ومملكته بميمته ، أعطى الأمان من عذاب القبر^(٣) » .

(١) قوله « ثم خاس بضمانه فيها » في الصحاح : خاس به يخيس ويخوس ، أى : غدر به . يقال : خاس بالعهدة ، إذا نكث . (ع)

(٢) قوله « ويتوب » أى بالرفع . كما في النسق . (ع)

(٣) أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه .

سورة سبأ

مكية، [إلا آية ٦ فمدنية]

وآياتها ٥٤ [نزلت بعد لقمان]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ
وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ① يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ

مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَخْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ②

ما في السموات والارض كله نعمة من الله، وهو الحقيق بأن يحمد ويفنى عليه من أجله،
ولما قال ﴿الحمد لله﴾ ثم وصف ذاته بالإنعام بجميع النعم الدينية، كان معناه: أنه المحمود
على نعم الدنيا، كما تقول: أحمد أباك الذي كساك وحملك، تريد: أحمدك على كسوته وحملانه.
ولما قال ﴿وله الحمد في الآخرة﴾ علم أنه المحمود على نعم الآخرة وهو الثواب. فإن قلت:
ما الفرق بين الحمد في الآخرة؟ قلت: أما الحمد في الدنيا فواجب، لأنه على نعمة متفضل بها، وهو
الطريق إلى تحصيل نعمة الآخرة وهي الثواب. وأما الحمد في الآخرة فليس بواجب ①، لأنه
على نعمة واجبة الإيصال إلى مستحقها ②، إنما هو تمة سرور المؤمنين وتكملة اغتباطهم:
يلتذون به كما يلتذ من به العطاش ③ بالماء البارد ﴿وهو الحكيم﴾ الذي أحكم أمور الدارين
ودبرها بحكمته ﴿الخبير﴾ بكل كائن يكون. ثم ذكر مما يحيط به علما ﴿ما يلبج في الأرض﴾ من

(١) قال محمود: «الحمد الأول واجب لأنه على نعمة متفضل بها، والثاني: ليس بواجب، لأنه على نعمة
واجبة على المنعم به، قال أحد: والحق في الفرق بين الحمد في: أن الأول عبادة مكلف بها، والثاني غير مكلف به
ولا متكلف، وإنما هو في النشأة الثانية كالجليات في النشأة الأولى، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: يلهمون
التسبيح كما يلهمون النفس، وإلا فالنعم الأول كالثانية بفضل من الله تعالى على عباده، لاعت استحقاق. والله الموفق.
(٢) قوله نعمة واجبة الإيصال إلى مستحقها، مبنى على مذهب المعتزلة، أما أهل السنة فلا يوجبون على الله
شيئا، ولا يجب الحمد في الآخرة، لأنها ليست دار تكليف. (ع)

(٣) قوله «كما يلتذ من به العطاش» في الصحاح والعطاش: داء يصيب الإنسان: يشرب الماء فلا روى. (ع)

الغيث كقوله (فسلكه ينابيع في الأرض) ومن السكنوز والدقائق والاموات، وجميع ما هي له كفات (وما يخرج منها) من الشجر والنبات، وماء العيون، والغلة، والدواب، وغير ذلك (وما ينزل من السماء) من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق والارزاق والملائكة وأنواع البركات والمقادير، كما قال تعالى (وفي السماء رزقكم وما توعدون) (وما يرج فيها) من الملائكة وأعمال العباد (وهو) مع كثرة نعمه وسبوغ فضله (الرحيم الغفور) للفرطين في أداء مواجب شكرها. وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: تنزل، بالنون والتشديد.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ لِيَ رَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ
لَا يَفْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ
وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ لِيُجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

قولهم (لا تأتينا الساعة) نبي للبعث وإنكار لحجى الساعة. أو استبطاء لما قد وعدوه من قيامها على سبيل الهزء والسخرية، كقولهم (متى هذا الوعد). أو جب ما بعد النفي ببلى على معنى: أن ليس الأمر إلا إتيانها، ثم أعيد لإجابه مؤكداً بما هو الغاية في التوكيد والتشديد، وهو التوكيد باليمين بالله عز وجل، ثم أمد التوكيد القسم إمداداً بما أنبع المقسم به من الوصف بما وصف به، إلى قوله (ليجزى) لأن عظمة حال المقسم به تؤذن بقوة حال المقسم عليه وشدة ثباته واستقامته، لأنه بمنزلة الاستشهاد على الأمر، وكلما كان المستشهد به أعلى كعباً وأبين فضلاً وأرفع منزلة، كانت الشهادة أقوى وأكثر، والمستشهد عليه أثبت وأرسخ. فإن قلت: هل للوصف الذى وصف به المقسم به وجه اختصاص بهذا المعنى؟ قلت: نعم وذلك أن قيام الساعة من مشاهير الغيوب، وأدخلها في الخفية، وأولها مسارعة إلى القلب: إذا قيل عالم الغيب، حين أقسم باسمه على إثبات قيام الساعة، وأنه كائن لا محالة، ثم وصف بما يرجع إلى علم الغيب، وأنه لا يفوت عليه شيء من الخفيات، واندرج تحته إحاطته بوقت قيام الساعة، فجاء ما تطلبه من وجه الاختصاص بجيئنا واضحاً. فإن قلت: للناس قد أنكروا إتيان الساعة وجمدوه، فهب أنه حلف لهم بأغلظ الإيمان وأقسم عليهم جهد القسم، فبمين من هو في معتقدم مفتر على الله كذباً كيف تكون مصححة لما أنكروه؟ قلت: هذا لو اقتصر على اليمين ولم يتبها الحجة القاطعة والبيئة الساطعة وهى قوله (ليجزى) فقد وضع الله في العقول وركب في

الغرائز وجوب الجزاء^(١)، وأن المحسن لا بد له من ثواب، والمسيء لا بد له من عقاب. وقوله (ليجزى) متصل بقوله (لتأتينكم) تعليلاً له. قرئ: لتأتينكم بالتاء والياء. ووجه من قرأ بالياء: أن يكون ضميره للساعة بمعنى اليوم. أو يسند إلى عالم الغيب، أي ليأتينكم أمره كما قال تعالى (هل ينظرون إلا أن تأتئهم الملائكة أو يأتى ربك) وقال (أو يأتى أمر ربك). وقرئ: عالم الغيب، وعلام الغيب: بالجر، صفة لربى. وعالم الغيب، وعالم الغيوب: بالرفع، على المدح. ولا يعزب: بالضم والكسر فى الزاى، من العزوب وهو البعد. يقال: روض عزيز: بعيد من الناس ﴿مثقال ذرة﴾ مقدار أصغر نملة ﴿ذلك﴾ إشارة إلى مثقال ذرة. وقرئ: ولا أصغر من ذلك ولا أكبر. بالرفع على أصل الابتداء. وبالفتح على نبنى الجنس، كقولك: لاحول ولا قوة إلا بالله، بالرفع والنصب. وهو كلام منقطع عما قبله. فإن قلت: هل يصح عطف المرفوع على مثقال ذرة، كأنه قيل: لا يعزب عنه مثقال ذرة وأصغر وأكبر وزيادة، للتأكيد النقي. وعطف المفتوح على ذرة بأنه فتح فى موضع الجر لا متاع الصرف، كأنه قيل: لا يعزب عنه مثقال ذرة ولا مثقال أصغر من ذلك ولا أكبر؟ قلت: يأتى ذلك حرف الاستثناء، إلا إذا جعلت الضمير فى (عنه) للغيب. وجعلت (الغيب) اسماً للخفيات. قبل أن تكتب فى اللوح لأن إثباتها فى اللوح نوع من البروز عن الحجاب، على معنى أنه لا يفصل عن الغيب شيء، ولا يزل عنه إلا مسطوراً فى اللوح.

وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي مَآبِتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رَجْزٍ أَلِيمٍ ﴿٥﴾

و قرئ معجزين، وأليم، بالرفع والجر. وعن قتادة: الرجز: سوء العذاب.

وَيَرَى الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى

صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾

و قرئ معجزين. فاليم: بالرفع والجر، وعن قتادة: الرجز: سوء العذاب. ويرى فى موضع الرفع، أى: ويعلم أولو العلم، يعنى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يطأ أعقابهم من أمته. أو علماء أهل الكتاب الذين أسلدوا مثل كعب الأحبار وعبد الله ابن سلام رضى الله عنهما. (الذى أنزل إليك... الحق) هما مفعولان ليرى، وهو فصل من قرأ (الحق) بالرفع: جعله مبتدأ و (الحق) خبراً، والجملة فى موضع المفعول الثانى. وقيل (يرى) فى موضع النصب معطوف على (ليجزى) أى: ويعلم أولو العلم عند مجيء الساعة أنه الحق. علماً

(١) قوله «وركب فى الغرائز وجوب الجزاء» هذا مفتضى الحكمة وإن لم يجب على الله تعالى شيء عند أهل

لايزاد عليه في الإيقان، ويحتجوا به على الذين كذبوا وتولوا. ويجوز أن يريد: وليعلم من لم يؤمن من الاحبار أنه هو الحق فيزدادوا حسرة وغما.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِقْتُمْ كِلًا
تُمْزِقُ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ

الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (٨)

(الذين كفروا) قریش . قال بعضهم لبعض : (هل ندلكم على رجل) يعنون محمداً صلى الله عليه وآله وسلم : يحدثكم بأعجوبة من الاعاجيب : أنكم تبعثون وتنشئون خلقاً جديداً بعد أن تكونوا رفاتاً وتراباً ويمزق أجسادكم البلى كل ممزق ، أى : يفرقكم ويبدد أجزاءكم كل تبديد . أهو مقتر على الله كذباً فيما ينسب إليه من ذلك ؟ أم به جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه ؟ ثم قال سبحانه ليس محمد من الافتراء والجنون فى شيء ، وهو مبرأ منهما : بل هؤلاء القائلون الكافرون بالبعث : واقعون فى عذاب النار وفيما يؤدبهم إليه من الضلال عن الحق وهم غافلون عن ذلك . وذلك أجن الجنون وأشدّه إطباقاً على عقولهم : جعل وقوعهم فى العذاب رسيلاً لوقوعهم فى الضلال ، كأنهما كائنان فى وقت واحد : لأن الضلال لما كان العذاب من لوازمه وموجباته : جعلاً كأنهما فى الحقيقة مقترنان . وقرأ زيد بن عليّ رضى الله عنه : ينبيكم . فإن قلت : فقد جعلت الممزق مصدراً ، كبيت الكتاب :

أَلَمْ تَعْلَمْ مُسَرَّحِي الْقَوَافِي فَلَا عِيَاءَ بَيْنَ وَلَا اجْتِلَابًا (١)

فهل يجوز أن يكون مكاناً ؟ قلت نعم . معناه ما حصل من الاموات فى بطون الطير والسباع ، ومامرت به السيول فذهبت به كل مذهب ، وماسفته الرياح فطرحته كل مطرح . فإن قلت : ما العامل فى إذا ؟ قلت : ما دلّ عليه (إنكم لفي خلق جديد) وقد سبق نظيره . فإن قلت : الجديد فعيل بمعنى فاعل أم مفعول ؟ قلت : هو عند البصريين بمعنى فاعل ، تقول : جد فهو جديد ، كجد فهو حديد ، وقلّ فهو قليل . وعند الكوفيين بمعنى مفعول ، من جدّه إذا قطعه . وقالوا : هو

(١) لجرير ، وهو من آيات الكتاب . والمسرح : مصدر على زنة المفعول ، فهو بمعنى التسرّج ، أى : الارسال أو التسوية . وسرحت الجارية شعرها : مشطته ، فاسترسل وحسن ، وهو مضاف لباء الناعل . والقوافي : مفعول ، ونصب اللى لشبهه بالضاف ، أو نونه للضرورة ، أى : لا أعيبها ، ولا أعجز عنها ، ولا أجتلبها ، ولا أسرقها ، ويجوز أن الغير كالمعنى . والاجتلاب : الاستتار ، من جلبه الجرح ، وهو قشرته السائرة له ، فهين : بمعنى فهين .

الذي جده الناسج الساعية في الثوب ؛ ثم شاع . ويقولون : ولهذا قالوا ^(١) ملحفة جديد ، وهي عند البصريين كقوله تعالى (إن رحمة الله قريب) ونحو ذلك . فإن قلت : لم أسقطت الهمزة في قوله (أقترى) دون قوله (السحر) ، وكلتاها همزة وصل ؟ قلت : القياس الطرح ، ولكن أمراً اضطرم إلى ترك إسقاطها في نحو (السحر) وهو خوف التباس الاستفهام بالخبر ، لكون همزة الوصل مفتوحة كهزمة الاستفهام . فإن قلت : ما معنى وصف الضلال بالبعد ؟ قلت هو من الإسناد المجازي ؛ لأن البعيد صفة الضال إذا بعد عن الجادة ، وكلنا ازداد عنها بعدا كان أضل . فإن قلت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهورا علما في قريش ، وكان إنبأؤه بالبعث شائعا عندهم ، فما معنى قوله (هل ندلكم على رجل ينبئكم) فنكروه لهم ، وعرضوا عليهم الدلالة عليه كما يدل على مجهول في أمر مجهول . قلت : كانوا يقصدون بذلك الطنز والسخرية ، فأخرجوه مخرج التحلى ببعض الاحاجي التي يحتاج بها للضحك والتلهي متجاهلين به وبأمره .

أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا يَبْدِئُهمْ وَمَا خَلَقَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ تَنَاسُخَ نَفْسٍ بِعَمِ الْأَرْضِ أَوْ نُسْفِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۝

أعموا فلم ينظروا إلى السماء والأرض ، وأنهما حيثما كانوا وأينما ساروا أمامهم وخلفهم محيطتان بهم ، لا يقدر أن ينفذوا من أقطارهما وأن يخرجوا عما هم فيه من ملكوت الله عز وجل ، ولم يخافوا أن يخسف الله بهم أو يسقط عليهم كسفا ، لتكذيبهم الآيات وكفرهم بالرسول صلى الله عليه وسلم وبما جاء به ، كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة (إن في ذلك) النظر إلى السماء والأرض والفكر فيهما وما يدلان عليه من قدرة الله (آية) ودلالة (لكل عبد منيب) وهو الراجع إلى ربه المطيع له ؛ لأن المنيب لا يخلو من النظر في آيات الله ، على أنه قادر على كل شيء من البعث ومن عقاب من يكفر به . قرئ يشأ ويخسف ويسقط ؛ بالياء ؛ لقوله تعالى (أقترى على الله كذبا) وبالنون لقوله (ولقد آتينا) وكسفاً : بفتح السين وسكونه . وقرأ الكسائي : يخسف بهم ، بالإدغام وليست بقوة .

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۝

أَنْ أَعْمَلَ سَيفًا وَقَدَّرُ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَاحِبًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝

وَالسَّالِمِينَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِبِّ
مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ
السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَثِيلٍ وَجِجَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ

رَأْسِيَّتٍ آعَمَلُوا هَالًا دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُ ﴿١٣﴾

(يا جبال) لما أن يكون بدلا من (فضلا) ، وإنما من (آتيننا) بتقدير : قولنا يا جبال .
أو : قلنا يا جبال . وقرئ : أوبي ، وأوبي : من التأويب . والآوب : أى رجمى معه التسييح .
أو ارجمى معه فى التسييح كلها رجع فيه ؛ لأنه إذا رجمه فقد رجع فيه : ومعنى تسييح الجبال :
أن الله سبحانه وتعالى يخلق فيها تسييحا كما خلق الكلام فى الشجرة ، فيسمع منها ما يسمع من
المسيح : معجزة لداود . وقيل : كان ينوح على ذنبه بترجيع وتحزين ، وكانت الجبال تسعده
على نوحه بأصواتها ^(١) . والطيور بأصواتها . وقرئ : والطيور ، رفعا ونصبا ، عطفاً على لفظ الجبال
ومحلها . وجوزوا أن ينتصب مفعولا معه ، وأن يعطف على فضلا ، بمعنى وسخرنا له الطير . فإن
قلت : أى فرق بين هذا النظم وبين أن يقال (وآتيننا داود منا فضلا) تأويب الجبال معه والطيور ؟
قلت : كم بينهما . ألا ترى إلى ما فيه من الفخامة التى لا تخفى : من الدلالة على عزّة الربوبية وكبرياء
الإلهية ، حيث جعلت الجبال منزلة منزلة العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا ، وإذا دعاهم
سمعوا وأجابوا : إشعاراً بأنه مامن حيوان وجماد وناطق وصامت ، إلا وهو منقاد لمشيئته ، غير
ممتنع على إرادته (وألنا له الحديد) وجعلناه له ليناً كالطين والعجين والشمع ، يصرفه يده كيف
يشاء من غير نار ولا ضرب بمطرقة . وقيل : لأن الحديد فى يده لما أوتى من شدة القوة . وقرئ
صابغات ، وهى الدروع الواسعة الضافية ، وهو أول من اتخذها وكانت قبل صفاخ . وقيل :
كان يبيع الدرع بأربعة آلاف فينفق منها على نفسه وعياله ، ويتصدق على الفقراء . وقيل :
كان يخرج حين ملك بنى إسرائيل متكرراً ، فيسأل الناس عن نفسه ويقول لهم : ما تقولون فى داود ؟
فيثنون عليه ، فقيض الله له ملكاً فى صورة آدمى فسأله على عادته ، فقال : نعم الرجل لولا خصلة
فيه فريغ داود ، فسأله ؟ فقال : لولا أنه يطعم عياله من بيت المال ، فسأل عند ذلك ربه أن يسبب
له ما يستغنى به عن بيت المال ، فعليه صنعة الدروع (وقدر) لاتجعل المسامير دقاقا فتقلق ،
ولا غلاظاً فتفصم الحلق . والسرد : نسج الدروع (واعملوا) الضمير لداود وأهله (و) سخرنا
(لسليمان الريح) فيمن نصب : ولسليمان الريح مستخرة ، فيمن رفع ، وكذلك فيمن قرأ :

(١) قوله «بأصواتها» جمع صدى ، وهو الذى يجيبك بمثل صوتك فى الجبال وغيرها ، كذا فى الصحاح . (ع)

الرياح ، بالرفع (غدوها شهر) جريها بالغداة مسيرة شهر ، وجريها بالعشى كذلك . وقرئ : غدوتها وروحها . وعن الحسن رضي الله عنه : كان يغدو فيقيل باصطخر ، ثم يروح فيكون رواحها بكابل . ويحكى أن بعضهم رأى مكتوباً في منزل بناحية دجلة كتبه بعض أصحاب سليمان : نحن نزلناه وما بينناه ومينياً وجدناه ، غدونا من اصطخر فقناه ، ونحن رانحون منه فباتون بالشام إن شاء الله . القطر : النحاس المذاب من القطران . فإن قلت : ماذا أراد بعين القطر ؟ قلت : أراد بها معدن النحاس ولكنه أسأله ^(١) كما ألان الحديد لداود ، فنجع كما ينبع الماء من العين ؛ لذلك سماه عين القطر باسم ما آل إليه ، كما قال (إني أراي أعصر خمرأ) وقيل : كان يسيل في الشهر ثلاثة أيام (ياخذربه) بأمره (ومن يزغ منهم) ومن يعدل (عن أمرنا) الذي أمرناه به من طاعة سليمان وقرئ . يزغ من أزاغه . وعذاب السعير : عذاب الآخرة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن السدي : كان معه ملك يده سوط من نار ، كلما استعصى عليه ضربه من حيث لا يراه الجنى . المحاريب : المساكن والمجالس الشريفة المصونة عن الابتذال : سميت محاريب لأنه يحامى عليها ويذب عنها . وقيل : هي المساجد . والتمثيل : صور الملائكة والنبين والصالحين ، كانت تعمل في المساجد من نحاس وصفر وزجاج ورخام ليراه الناس فيعبدوا نحو عبادتهم . فإن قلت : كيف استجاز سليمان عليه السلام عمل التصاوير ؟ قلت : هذا مما يجوز أن تختلف فيه الشرائع ؛ لأنه ليس من مقبحات العقل كالظلم والكذب ، وعن أبي العالية : لم يكن اتخاذ الصور إذ ذاك محرماً . ويجوز أن يكون غير صور الحيوان كصور الأشجار وغيرها ؛ لأن التمثال كل ما صور على مثل صورة غيره من حيوان وغير حيوان . أو تصور مخدوفة الرؤس . وروى أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه ونسرين فوقه ، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما ، وإذا قد أظله النسران بأجنحتهما . والجوابي : الحياض الكبار ، قال :

تَرَوْحُ عَلَى آلِ الْمُحَلَّقِ جَفْنَةً كَجَابِيَةِ السُّوحِ الْعِرَاقِيِّ فَهَقُ ^(٢)

لأن الماء يجي فيها ، أى : يجمع . جعل الفعل لها مجازاً وهي من الصفات الغالبة كالدابة . قيل : كان يقعد على الجفنة ألف رجل . وقرئ بحذف الياء اكتفاء بالكسرة . كقوله تعالى (يوم

(١) قوله « ولكنه أسأله » كما ألان الحديد ، لعله : أسأله له (ع)

(٢) للأعشى في مدح المحلق . وروى « تلوح » بدل تروح ؛ لأنها تظهر عند خروجها من البيت أول النار مستمعية عليهم . والجفنة : قصعة الثريد . والجابية : الحوض يجي الماء ، أى : يجمعه إلى الحوض . والسبح : الماء الكثير الجارى . وفوق يفوق ، كفرح بفرح : اتسع وامتلأ وتدفق . ومنه الحديث : أنه قام إلى باب الجنة فأنفقت له ، أى : انفتحت وانسعت . والمتفوق : المكث من الكلام ، فقوله « تفوق » أى تملأ مع اتساعها حتى تكاد تتدفق

يدع الداع). (راسيات) ثابتات على الأتاني لا تنزل عنها لعظمها (اعملوا آل داود) حكاية ما قيل لآل داود. وانتصب (شكراً) على أنه مفعول له، أى: اعملوا لله واعبدوه على وجه الشكر لنعمائه. وفيه دليل على أن العبادة يجب أن تؤدى على طريق الشكر. أو على الحال، أى: شاكرين. أو على تقدير اشكروا شكراً، لأن اعملوا فيه معنى اشكروا، من حيث أن العمل للنعم شكره. ويجوز أن ينتصب باعملوا مفعولاً به. ومعناه: إنا نحثكم الجن يعملون لكم ما شئتم، فاعملوا أتم شكراً على طريق المشاكلة (والشكور) المتوفر على أداء الشكر، الباذل وسعه فيه: قد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه، اعتقاداً واعترافاً وكدها، وأكثر أوقانه. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: من يشكر على أحواله كلها. وعن السدى: من يشكر على الشكر. وقيل: من يرى عجزه عن الشكر. وعن داود أنه جزأ ساعات الليل والنهار على أهله، فلم تكن تأتى ساعة من الساعات إلا وإنسان من آل داود قائم يصلى. وعن عمر رضى الله عنه أنه سمع رجلاً يقول: اللهم اجعلنى من القليل، فقال عمر ما هذا الدعاء؟ فقال الرجل: إني سمعت الله يقول (وقليل من عبادى الشكور) فأنا أدعوه أن يجعلنى من ذلك القليل. فقال عمر: كل الناس أعلم من عمر^(١).

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤)

قرئ: فلما قضى عليه الموت. ودابة الأرض: الأرض، وهى الدويبة التى يقال لها السرفة والأرض فعلها، فأضيفت إليه. يقال: أرضت الخشب أرضاً. إذا أكلتها الأرض. وقرئ بفتح الراء، من أرضت الخشب أرضاً، وهو من باب فعلته ففعل، كقولك: أكلت القوادح الإنسان أكلًا، فأكلت أكلًا. والمنسأة: العصا. لأنه ينسأ بها، أى: يطرد ويؤخر وقرئ بفتح الميم وبتخفيف الهمزة قلباً وحذفاً وكلاهما ليس بقياس، ولكن إخراج الهمزة بين بين هو التخفيف القياسى. ومنسأته على مفعالة. كما يقال فى الميضأة ميضأة. ومنسأته، أى: من طرف عصاه. سميت بسأة^(٢) القوس على الاستعارة. وفيها لثنان. كقولهم: قحة وقحة^(٣). وقرئ: أكلت منسأته (تبين الجن) من تبين الشيء إذا ظهر وتجلي. و(أن) مع صلها بدل من الجن بدل الاشتمال، كقولك: تبين زيد جهله: والظهور له فى المعنى، أى: ظهر أن الجن (لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب) أو علم الجن كلهم علماً بيناً - بعد التباس الأمر

(١) أخرجه ابن أبى شيبة وعبد الله بن أحمد فى زيادات الزهد من رواية التيمي قال قال عمر - فذكره نحوه

(٢) قوله: سميت بسأة القوس، فى الصحاح: سية القوس، ما عطف من طرفها، وكان رؤية يمز: سية

القوس، وسائر العرب لا يميزونها. (ع)

(٣) قوله: كقولهم قحة برقعة، كسعة وكدة، بمعنى الوقاحة: وهى الصلابة. (ع)

على غاقتهم وضعفتهم وتوهمهم - أن كبارهم يصدقون في ادعائهم علم الغيب . أو علم المدعون علم الغيب منهم عجزهم ، وأنهم لا يعلمون الغيب وإن كانوا عالمين قبل ذلك بحالهم ، وإنما أريد أن تهكم بهم كما تهكم بمدعى الباطل إذا دحضت حجته ^(١) وظهر إبطاله بقوله : هل تبين أنك مبطل . وأنت تعلم أنه لم يزل كذلك متيناً . وقرئ : تبين الجن ، على البناء للفعول ، على أن المتبين في المعنى هو (أن) مع ما في صلتها . لأنه بدل . وفي قراءة أبي : تبين الإنس . وعن الضحاك : تبين الإنس بمعنى تعارفت وتعاملت . والضمير في (كانوا) للجن في قوله (ومن الجن من يعمل بين يديه) أى علمت الإنس أن لو كان الجن يصدقون فيما يوهمونهم من علمهم الغيب ؛ ما لبثوا . وفي قراءة ابن مسعود رضى الله عنه : تبين الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب . روى أنه كان من عادة سليمان عليه السلام أن يعتكف في مسجد بيت المقدس الممدد الطوال ، فلما دنا أجله لم يصبح إلا رأى في محرابه شجرة نابتة قد أنطقها الله ، فيسألها : لآى شيء أنت ؟ فتقول لكذا ، حتى أصبح ذات يوم فرأى الخروبة ، فسألها ، فقالت : نبت لحراب هذا المسجد : فقال : ما كان الله ليخربه وأنا حي ، أنت التى على وجهك هلاكى وخراب بيت المقدس ، فزعها وغرسها في حائط له وقال : اللهم عم عن الجن موتى ، حتى يعلم الناس أنهم لا يعلمون الغيب . لأنهم كانوا يسترقون السمع ويمزحون على الإنس أنهم يعلمون الغيب ، وقال للملك الموت : إذا أمرت بي فأعلنى ، فقال : أمرت بك وقد بقيت من عمرك ساعة ؛ فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير ليس له باب ، فقام يصلى متكئاً على عصاه ، فقبض روحه وهو متكئ عليها ؛ وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه أينما صلى ، فلم يكن شيطان ينظر إليه في صلاته إلا احترق . فمر به شيطان فلم يسمع صوته ، ثم رجع فلم يسمع ، فنظر فإذا إيمان قد خر ميتاً . ففتحوا عنه فإذا العصا قد أكلتها الأرضة ، فأرادوا أن يعرفوا وقت موته ، فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها في يوم وليلة مقداراً ، فحسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة . وكانوا يعملون بين يديه ويحسبونه حياً ، فأيقن الناس أنهم لو علموا الغيب لما لبثوا في العذاب سنة ، وروى أن داود عليه السلام أسس بناء بيت المقدس في موضع فسطاط موسى عليه السلام ، فأت قبل أن يتمه ، فوصى به إلى سليمان ، فأمر الشياطين بإتمامه ، فلما بقي من عمره سنة سأل أن يعمى عليهم موته حتى يفرغوا منه ، وليبطل دعواهم علم الغيب . روى أن أفريدون جاء ليصعد كرسيه ، فلما دنا ضرب الاسدان ساقه فكسرها ؛ فلم يجسر أحد بعد أن يدنو منه ، وكان عمر سليمان ثلاثاً وخمسين سنة : ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، فبقي في ملكه أربعين سنة ، وابتدأ بناء بيت المقدس لأربع مئتين من ملكه .

(١) قوله « إذا دحضت حجته » في الصحاح : بطلت . (ع)

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ
رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ سَمَلًا عَرِيمًا وَبَدَّلْنَا لَهُمْ جَنَّتَيْنِ بِجَنَّتَيْهِمْ ذَوَاتِىْ أُكُلٍ خَطْبٍ وَأُنْثَىٰ وَشَيْءٍ
مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرَ ﴿١٧﴾

قرئ ﴿سبأ﴾ بالصرف ومنعه، وقلب الهمزة ألفا. ومسكنهم: بفتح الكاف وكسرهما، وهو موضع سكاهم؛ وهو بلدهم وأرضهم التي كانوا مقيمين فيها، أو مسكن كل واحد منهم. وقرئ: ما سكنهم. و﴿جنتان﴾ بدل من آية. أو خبر مبتدأ محذوف، تقديره: الآيتان جنتان. وفي الرفع معنى المدح، تدل عليه قراءة من قرأ: جنتين، بالنصب على المدح. فإن قلت: ما معنى كونهما آية؟ قلت: لم يجعل الجنة في أنفسهما آية، وإنما جعل قصتهما، وأن أهلهما أعرضوا عن شكر الله تعالى عليهما فخرهما، وأبدلهم عنهما لخطب والأثل: آية، وعبرة لهم، يعبثوا ويتعظوا فلا يعودوا إلى ما كانوا عليه من الكفر وغطم النعم. ويجوز أن تجمعهما آية، أى: علامة دالة على الله، وعلى قدرته وإحسانه ووجوب شكره. فإن قلت: كيف عظم الله جنى أهل سبأ وجعلهما آية، ورب قرية من قرى العراق يحترف بها من الجن ما شئت؟ قلت: لم يرد بستانين اثنين لحب، وإنما أراد جماعتين من البساتين: جماعة عن يمين بلدهم، وأخرى عن شمالها، وكل واحد من الجماعتين في تقاربها وتضامها. كأنها جنة واحدة، كما تكون بلاد الريف العامرة وبساتينها. أو أراد بستانى كل رجل منهم عن يمين مسكنه وشماله، كما قال: جعلا لأحدهما جنتين من أعناب ﴿كلوا من رزق ربكم﴾ إما حكاية لما قال لهم أنبياء الله المبعوثون إليهم، أو لما قال لهم لسان الحال. أو هم أحقاء بأن يقال لهم ذلك، ولما قال ﴿كلوا من رزق ربكم﴾ ﴿واشكروا له﴾ أتبعه قوله ﴿بلدة طيبة ورب غفور﴾، يعنى: هذه البلدة التي فيها رزقكم بلدة طيبة، وربكم الذى رزقكم وطلب شكركم رب غفور لمن شكره. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: كانت أخصب البلاد وأطيبها: تخرج المرأة وعلى رأسها المكمل فتعمل يديها وتسير بين تلك الشجر، فيمتلئ المكمل بما يتساقط فيه من الثمر (طيبة) لم تكن سبخة. وقيل: لم يكن فيها بعوض ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية. وقرئ: بلدة طيبة وربا غفورا، بالنصب على المدح. وعن ثعلب: معناه اسكن واعبد ﴿العرم﴾ الجرذ^(١)

(١) قوله «العرم الجرذ» في الصحاح «الجرذ»: ضرب من الفأر. وفيه: سكرت التهر سكرًا، إذا

الذي نقب عليهم السكر. ضربت لهم بلقيس الملكة بسد ما بين الجباين بالصخر والقار، فحقت به ماء العيون والامطار، وتركت فيه خروقا على مقدار ما يحتاجون إليه في سقيهم، فلما طغوا قيل: بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبيا يدعونهم إلى الله ويذكرونهم نعمته عليهم، فكذبوهم وقالوا ما نعرف الله نعمة سلط الله على سدم الخلد، ^(١) فنقبه من أسفله ففرقهم. وقيل: العرم جمع عرمة. وهي الحجارة المركومة. ويقال للكُدس من الطعام: عرمة، والمراد: المسناة ^(٢) التي عقدوها سكرأ: وقيل: العرم اسم الوادي: وقيل: العرم المطر الشديد. وقرئ: العرم: يسكون الراء. وعن الضحاك: كانوا في الفترة التي بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم. وقرئ: أكل، بالضم والسكون، وبالتنوين والإضافة. والأكل: الثمر. والخط: شجر الأراك: وعن أبي عبيدة: كل شجر ذى شوك. وقال الزجاج: كل نبت أخذ طما من مرارة، حتى لا يمكن أكله. والائل: شجر يشبه الطرفاء أعظم منه وأجود عوداً. ووجه من نون: أن أصله ذراقي أكل أكل خبط. لخذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. أو وصف الأكل بالخط، كأنه قيل: ذواقي أكل بشع. ومن أضاف وهو أبو عمرو وحده، فلأن أكل الخط في معنى البربر، ^(٣) كأنه قيل: ذواقي بربر. والائل والسدر: معطوفان على أكل، لا على خبط لأن الائل لا أكل له. وقرئ: وأئلا. وشيتا: بالنصب، عطفا على جنتين. وتسمية البديل جنتين، لأجل المشاكلة وفيه: ضرب من التهمك. وعن الحسن رحمه الله. قل السدر، لأنه أكرم ما بدلوا. وقرئ: وهل يجازى. وهل يجازى، بالنون. وهل يجازى والفاعل الله وحده. وهل يجزى؛ والمعنى: أن مثل هذا الجزاء لا يستحقه إلا الكافر، وهو العقاب العاجل، وقيل: المؤمن تكفر سيئاته بحسناته، والكافر يحبط عمله فيجازى بجميع ما عمله من سوء، ووجه آخر: وهو أن الجزاء عام لكل مكافأة، يستعمل تارة في معنى المعاقبة، وأخرى في معنى الإثابة، فلما استعمل في معنى المعاقبة في قوله (جزيناكم بما كفروا) بمعنى: عاقبناكم بكفرهم. قيل: (وهل يجازى إلا الكفور) بمعنى: وهل يعاقب؟ وهو الوجه الصحيح؛ وليس لقائل أن يقول: لم قيل: وهل يجازى إلا الكفور، على اختصاص الكفور بالجزاء. والجزاء عام للكافر والمؤمن، لأنه لم يرد الجزاء العام، وإنما أراد الخاص وهو العقاب، بل لا يجوز أن يراد العموم وليس بموضعه. ألا ترى أنك لو قلت: جزيناكم بما كفروا، وهل يجازى إلا الكافر والمؤمن:

(١) قوله «سلط الله على سدم الخلد فنقبه» في الصحاح والخلد: ضرب من الجرذان أهمى. وفيه والمكدس،

بالضم: واحد أكداس الطعام. (ع)

(٢) قوله «المراد المسناة التي عقدوها» في الصحاح: المسناة: العرم. وفيه: العرم المسناة. وفي ذلك دور. (ع)

(٣) قوله «فلأن أكل الخط في معنى البربر» في الصحاح «البربر»: ثمر الأراك. (ع)

لم يصح ولم يسد كلاما . فبين أن ما يتخيل من السؤال مضمحل ، وأن الصحيح الذي لا يجوز غيره ما جاء عليه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَهَرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلُّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾

(القرى التي باركنا فيها) وهي قرى الشام (قرى ظاهرة) متواصلة : يرى بعضها من بعض لتقاربها ، فهي ظاهرة لأعين الناظرين . أو راحة متن الطريق : ظاهرة للسابلة : لم تبعد عن مسالكهم حتى تخفى عليهم (وقد رنا فيها السير) قيل : كان الغادى منهم يقبل في قرية . والرايح يبيت في قرية إلى أن يبلغ الشام لا يخاف جوعا ولا عطشا ولا عدوا . ولا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء (سيروا فيها) وقلنا لهم : سيروا : ولا قول ثم . ولكنهم لما مكثوا من السير وسويت لهم أسبابه : كأنهم أمروا بذلك وأذن لهم فيه . فإن قلت : ما معنى قوله (ليالي وأياما) ؟ قلت : معناه سيروا فيها ، إن شئتم بالليل وإن شئتم بالنهار ، فإن الآمن فيها لا يختلف باختلاف الأوقات . أو سيروا فيها آمنين لا تخافون ، وإن تطاولت مدة سفركم فيها وامتدت أياما وليالي . أو سيروا فيها ليا ليكم وأيامكم مدة أعماركم ، فإنكم في كل حين وزمان ، لا تلقون فيها إلا الآمن . قرئ : ربنا باعد بين أسفارنا . وبعد . وباربنا ، على الدعاء . بطروا النعمة ، وبشموا من طيب العيش ^(١) ، وملوا العافية ، فطلبوا الكد والتعب كما طلب بنو إسرائيل البصل والثوم مكان المن والسلوى ، وقالوا : لو كان جنى جناتنا أبعد كان أجدر أن نشتهي . وتمنوا أن يجعل الله بينهم وبين الشام مفاوز ليركبوا الرواحل فيها ويتزودوا الأزواد ، فجعل الله لهم الإجابة . وقرئ ربنا بعد بين أسفارنا ، وبعد بين أسفارنا على الدعاء ، وإسناد الفعل إلى بين ورفع به ، كما تقول : سير فرسخان ، وبعده بين أسفارنا . وقرئ : ربنا باعد بين أسفارنا . وبين سفرنا . وبعد ، برفع ربنا على الابتداء ، والمعنى خلاف الأول ، وهو استبعاد مسائرهم على قصرها ودنوها لفرط تعمهم وترفعهم ، كأنهم كانوا يتشاجون ^(٢) على ربهم

(١) قوله : وبشموا من طيب العيش ، يشموا ، أى : شموا . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) قوله : كأنهم كانوا يتشاجون ، في الصحاح : الشجر ، : الحم والحزن . (ع)

ويتحازنون عليه (أحاديث) يتحدث الناس بهم ويتعجبون من أحوالهم، وفرقاهم تفريقاً اتخذ الناس مثلاً مضروباً، يقولون: ذهبوا أيدي سبأ، وتفرقوا أبداً سبأ. قال كثير:

أَيَادِي سَبَا يَاعَزُّ مَا كُنْتُ بَعْدَكُمْ فَلَمْ يَحُلْ بِالْعَمَيْنِ بَعْدَكَ مَنْظَرٌ^(١)
الحق غسان بالشأم، وأثمار يثرب، وجذام بتهامة، والأزد بيمان (صبار) عن المعاصي (شكور) للنعيم.

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ^(٢٠)
وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْثِقُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ^(٢١)

قرئ: صدق، بالتشديد والتخفيف، ورفع إبليس ونصب الظن، فمرشد فعل: حقق عليهم ظنه، أو وجده صادقاً؛ ومن خفف فعل: صدق في ظنه أو صدق يظن ظناً، نحو: فعلت جهداً، ونصب إبليس ورفع الظن؛ فمن شدد فعل: وجده ظنه صادقاً؛ ومن خفف فعل: قال له ظنه الصدق حين خيله إغواءهم، يقولون: صدوق ظنك، وبالتخفيف ورفعهما على: صدق عليهم ظن إبليس؛ ولو قرئ بالتشديد مع رفعهما السكان على المبالغة في صدق، كقوله: صدقت فيهم ظنونى،

(١) لكثير صاحب عزة. وسبأ: بلدة كانت كثرة الحصب طيبة البساتين، فكفر أهلها نعمة الله فأرسل عليهم السيل، وبدمهم بالحصب جدماً، وبالرغد ضيقاً، وبالسمن غناً، فصاروا لا يتالون الأقوات إلا من جهات بعيدة. والمراد بالأيادي: النعم، وأيادي سبأ: استعارة لأحوال نفسه التي تقيب أحوال سبأ في التفتت والتفتن. أو تشبيه بلخ على الخفاف. وفيه مجاز بالحذف، أى: أيادي أهل سبأ ما كنته بعدكم. أى: ما كنت متصفاً به من الأحوال كأحوال سبأ. ويجوز أنت ما مصدرية، أى: أكوأنى وأحوالى بعدكم كأحوال سبأ. أو المراد بأيادي سبأ: أصحابها الذين كانوا يمرونها، ففرقوا أنفسهم بأيديهم فقيه نفسه بهم اهدم استقراره. وتطلق سبأ على قبيلة كانت تسكنها. ويحتمل أنها المراد هنا، بل هو أظهر. ويجوز أن المراد أبوها، وهو سبأ بن يعجب ابن يرب بن قحطان: كان ذا مال وبنين، فنفق بنوه بعضهم إلى اليمن وبعضهم إلى الشام إلى غير ذلك، فأطلق الأيادي عليهم؛ لأن بهم قوته كالأيادي، ثم شبه نفسه بهم في الفتات. وعز: مرخم، وفي نداءها معنى التوجع والاستعطاف، وغاطها بضمير جمع المذكر نعلها، ولذلك لا تجده في مواضع ذهبن، وجملة الداء معترضة بين الخبر والمبتدأ؛ ويحتمل أن التقدير: أنا كأيادي سبأ مدة كوني بعدكم، فهي معترضة بين الجملة والظرف المتعلق بها، وحلا يحلو كدعا يدعو وغيره قليل، شبه الحسن بالخلاوة بجامع اللذة. وقل: حلى يحلى، كرضى يرضى في المنظر. وحلا يحلو في العلم، وما هنا من الأول فلا مجاز. والمظهر مصدر بمعنى النظر، ويجوز أن الخلاوة الحسن والمظهر - بالفتح -: مكان النظر. ويجوز أنه النظر. أى: فلم يحسن ليدنى غيرك، ويجوز أن المراد بعدكم بعد ارتحالك أنت وأهلك، فالخطاب لها ولحبها؛ ولكن موارد الاستعمال يعضدها ما تقدم، وروى: فلن يحل، فزعم بعضهم أن دل، قد تجزم كما هنا، وعلى المنع لحذف آخر الفعل للضرورة أو التخفيف.

ومعناه: أنه حين وجد آدم ضعيف العزم قد أصنى إلى وسوسته قال: إِنَّ ذَرْيَتَهُ أضعف عَزْمًا مِنْهُ ، فظن بهم اتباعه وقال: لأضلنهم ، لأغوينهم . وقيل: ظن ذلك عند إخبار الله تعالى الملائكة أنه يجعل فيها من يفسد فيها . والضمير في (عليهم) و(اتبعوه) إما لأهل سبأ ، أو لبني آدم . وقل المؤمنين بقوله (إلا فريقا) لأنهم قليل بالإضافة إلى الكفار ، كما قال (لاحتسكن ذريته إلا قليلا) ، (ولا نجد أكثرهم شاكرين) . (وما كان له عليهم) من تسليط واستيلاء بالسوسة والاستغواء إلا لغرض صحيح وحكمة بينة ، وذلك أن يتميز المؤمن بالآخرة من الشاك فيها . وعلل التسليط بالعلم والمراد ما تعلق به العلم . وقرئ: ليعلم على البناء للمفعول (حفيظ) محافظ عليه ، وفعل ومفاعل: متأخيان .

قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢)

(قل) للمشركي قومك (ادعوا الذين) عبدتموه من دون الله من الأصنام والملائكة وسميتهم باسمه كما تدعون الله . والتجوا إليهم فيما يعرفونكم كما تلجئون إليه . وانتظروا استجابهم لدعائكم ورحمتهم كما تنتظرون أن يستجيب لكم ويرحمكم ، ثم أجاب عنهم بقوله (لا يملكون مثقال ذرة) من خير أو شر ، أو نفع أو ضرر (في السموات ولا في الأرض وما لهم) في هذين الجنسيتين من شركة في الخلق ولا في الملك ، كقوله تعالى (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض) وماله منهم من عوين يعينه على تدبير خلقه ، يريد: أنهم على هذه الصفة من العجز والبعد عن أحوال الربوبية ، فكيف يصح أن يُدعوا كما يدعى ويُرجوا كما يرجى ، فإن قلت . أين مفعولا زعم؟ (قلت): أحدهما الضمير المحذوف الراجع منه إلى الموصول . وأما الثاني فلا يخلو إما أن يكون (من دون الله) أو (لا يملكون) أو محذوفا فلا يصح الأول ، لأن قولك: هم من دون الله ، لا يلتزم كلاما ، ولا الثاني ، لأنهم ما كانوا يزعمون ذلك ، فكيف يشككون بما هو حجة عليهم ؛ وبما لو قالوه قالوا ما هو حق وتوحيد ؟ فبقي أن يكون محذوفا تقديره: زعمتموه آلهة من دون الله لمحذف الراجع إلى الموصول كما حذف في قوله (أهذا الذي بعث الله رسولا) استخفا ، لطول الموصول لصلته . وحذف آلهة لأنه موصوف صفته (من دون الله) والموصوف يجوز حذفه وإقامة الصفة مقامه إذا كان مفهوما ، فإذا مفعولا زعم محذوفان جميعا بسيين مختلفين .

وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣)

تقول : الشفاعة لزيد ، على معنى أنه الشافع ، كما تقول : الكرم لزيد : وعلى معنى أنه المشفوع له ، كما تقول : القيام لزيد ، فاحتمل قوله ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ أن يكون على أحد هذين الوجهين ، أى : لا تنفع الشفاعة إلا كائنة لمن أذن له من الشافعين ومطلقة له . أو لا تنفع الشفاعة إلا كائنة لمن أذن له ، أى : لشفيعه ، أو هى اللام الثانية فى قولك : أذن لزيد لعمرو ، أى لأجله ، وكأنه قيل : إلا لمن وقع الإذن للشفيع لأجله ، وهذا وجه لطيف وهو الوجه ، وهذا تكذيب لقولهم : هؤلاء شفعاؤنا عند الله . فإن قالت : بما اتصل قوله ﴿ حتى إذا فرغ من قلوبهم ﴾ ولاى شىء وقعت حتى غاية ؟ قلت : بما فهم من هذا الكلام ، من أن ثم انتظارا للإذن وتوقعا وتمهلا وفرعا من الراجين للشفاعة والشفعاء ، هل يؤذن لهم أو لا يؤذن ؟ وأنه لا يطلق الإذن إلا بعد ملى من الزمان . وطول من التريص ، ومثل هذه الحال دل عليه قوله عز وجل ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا . يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾ كأنه قيل : يترصون ويتوقفون كليا فزعين وهلين ، حتى إذا فرغ من قلوبهم ، أى : كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها رب العزة فى إطلاق الإذن : تباشروا بذلك وسأل بعضهم بعضا ﴿ ماذا قال ربكم قالوا ﴾ قال ﴿ الحق ﴾ أى القول الحق ، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى . وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبی صلى الله عليه وسلم : فإذا أذن لمن أذن أن يشفع فزعه الشفاعة ^(١) ، وقرئ " أذن له ، أى : أذن له الله ، وأذن له على البناء للفعول . وقرأ الحسن : فزع ، مخففا ، بمعنى فزع . وقرئ " فزع ، على البناء للفاعل ، وهو الله وحده ، وفزع ، أى : نفي الوجل عنها وأفنى ، من قولهم : فرغ الزاد ، إذا لم يبق منه شىء . ثم ترك ذكر الوجل وأسند إلى الجار والمجرور ، كما تقول : دفع إلى زيد ، إذا علم ما المدفوع وقد تخفف ، وأصله : فرغ الوجل عنها ، أى : انتفى عنها ، ونفى ثم حذف الفاعل وأسند إلى الجار والمجرور . وقرأ : افرقع عن قلوبهم ، بمعنى : انكشف عنها . وعن أبى علقمة أنه هاج به المرار ^(٢) فالتف عليه الناس ، فلما أفاق قال : ما لكم تكأ كأتهم على " تكأ كأتكم على ذى جنة ؟ افرقعوا عني . والكلمة مركبة من حروف المفارقة مع زيادة العين ، كما ركب : اقطر ، من حروف القمط ، مع زيادة الراء . وقرئ " الحق بالرفع ، أى : مقوله الحق ﴿ وهو العلى الكبير ﴾ ذو العلو والكبرياء ، ليس للملك ولا نبي أن يتكلم ذلك اليوم إلا بإذنه ، وأن يشفع إلا لمن ارتضى .

(١) لم أجده

(٢) قوله " أنه هاج به المرار " فى الصحاح . المرار : بضم الميم : شجر مر ، إذا أكلت منه الابل قلصت عنه مشايرها . ومنه : بنو آكل المرار : وهم قوم من العرب . (ع)

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ

هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾

أمره بأن يقررهم بقوله ﴿من يرزقكم﴾ ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله : يرزقكم الله . وذلك للإشعار بأنهم مقرون به بقلوبهم ، إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به ؛ لأن الذى تمكن فى صدورهم من العناد وحب الشرك قد ألجم أفواههم عن النطق بالحق مع علمهم بصحته ، ولأنهم إن تفوهوا بأن الله رازقهم : لزمهم أن يقال لهم : فالسك لا تعبدون من يرزقكم وتؤثر ن عليه من لا يقدر على الرزق ، ألا ترى إلى قوله (قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار) حتى قال : (فسيقولون الله) ثم قال (فإذا بعد الحق إلا الضلال) فكأنهم كانوا يقرون بأستئهم مزة ، ومزة كانوا يتلشمون عناداً وضراراً وحذاراً من إلزام الحجة ، ونحوه قوله عز وجل (قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفأنتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا) وأمره أن يقول لهم بعد الإلزام والإلجام الذى إن لم يزد على إقرارهم بأستئهم لم يتقاصر عنه ﴿وإننا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ومعناه : وإن أحد الفريقين من الذين يتوحدون الرزق من السموات والأرض بالعبادة ومن الذين يشركون به الجناد الذى لا يوصف بالقدرة ، لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال ، وهذا من الكلام المنصف الذى كل من سمعه من موال أو مناف قال لمن خاطب به : قد أنصفك صاحبك ، وفى درجه بعد مقدمة ما قدم من التقرير البليغ : دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو فى الضلال المبين ، ولكن التعريض والتورية أنضل^(١) بالمجادل إلى الغرض ، وأجهم به على الغلبة ، مع قلة شغب الخصم وقل^(٢) شوكته^(٣) بالهويناء . ونحوه قول الرجل لصاحبه : علم الله الصادق منى ومثك ، وإن أحدنا لكاذب^(٤) . ومنه بيت حسان :

(١) قوله : ولكن التعريض والتورية أفضل . فى الصحاح : ناضله . : راءه . يقال : ناضلت فلانا فنضلته إذا غلبته اه ؛ فالأنضل الأند رما ، قلذا عدى بالى . (ع)

(٢) قوله : وقل شوكته ، أى كسرهما . (ع)

(٣) قال محمود : لما ألزمهم الحجة فى قوله (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيها من شرك وما له منهم من ظهير) وهلم جرا إلى الآية المذكورة . وهذا الإلزام إن لم يزد على إقرارهم بأستئهم لم يتقاصر عنه . أمره أن يقول (وإننا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) ومعناه : أن أحد الفريقين من الموحدون الرزق من السموات والأرض بالعبادة ، ومن الذين يشركون به الجناد الذى لا يوصف بالقدرة على ذرة : لعلى أحد الأمرين من الهدى أو الضلال ، وهذا من الكلام المنصف الذى كل من سمعه من موافق أو مخالف قال للخطاب به : قد أنصفك صاحبك ، والتعريض أنضل بالمجادل إلى الغرض ، =

أَنَّهُ جَوُّهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكَفٍّ فَشَرُّ كَمَا لِحَيْرٍ كَمَا الْفِدَاءُ (٢١)

فإن قلت : كيف خولف بين حرفي الجزر الداخلين على الحق والضلال ؟ قلت : لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء ، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدرى أين يتوجه . وفي قراءة أبي : وإنا أولياكم إما على هدى أو في ضلال مبين .

قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا نَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا

ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦)

هذا أدخل في الإنصاف وأبلغ فيه من الأول ، حيث أسند الإجماع إلى المخاطبين والعمل إلى المخاطبين ، وإن أراد بالإجماع : الصغائر والزلات التي لا يخلو منها مؤمن ، وبالعمل : الكفر والمعاصي العظام (٢٥) . وفتح الله بينهم : وهو حكمه وفصله : أنه يدخل هؤلاء الجنة وأولئك النار .

قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧)

فإن قلت : ما معنى قوله (أروني) وكان يراهم ويعرفهم ؟ قلت : أراد بذلك أن يريهم الخطأ العظيم في إلحاق الشركاء بالله ، وأن يقايس على أعينهم بينه وبين أصنامهم ليطلعهم على إحالة القياس إليه والإشراك به . و (كلا) ردع لهم عن مذهبهم بعد ما كسده بإبطال المقايسة ، كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام (أف لكم ولما تعبدون من دون الله) بعد ما حجهم ، وقد نبه على تفاشح

== وأجم به على الغلبة ، مع قلة شغب الخصم وقل شوكلته بالهوين . وعوه قول الرجل لصاحبه : اقه يعلم الصادق من ومنك ، وإن أحدا لكاذب ومنه قول حسان :

أتهجوه ولست له بكفٍّ فشركا لحيركا الفداء

قال أحد : وهذا تفسير مهذب واقتان مستعذب ، رددته على صمعي فزاد روثقا بالترديد ، واستعاذه المخاطر كأنى بطلي لفهم حين يفيد ، ولا يبغي أن ينكر بعد ذلك على الطريقة التي أكثر تعاطيا متأخرو الفقهاء في مجادلاتهم ومعاوراتهم ، وذلك قولهم : أحد الأمرين لازم على الإيهام ، فهذا المسلك من هذا الوادي غير بعيد ، فتأمله واطقه الموقف .

(١) تقدم شرح هذا القاهر ضمن آيات الجزء الثاني صفحة ٥٦٣ فراجع إن شئت اه مصححه .

(٢) قال محمود : «وهذا القول أدخل في الإنصاف من الأول ، حيث أسند الإجماع إلى النفس وأراد به الزلات والصغائر التي لا يخلو عنها مؤمن ، وأسند العمل إلى المخاطبين وأراد به الكفر والمعاصي والكبائر» قال أحد : فمير عن المفوات بما يعبر به عن العظام ، وعن العظام بما يعبر به عن المفوات ، التزاما للإنصاف ، وزيادة على ذلك أنه ذكر الإجماع المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي الذي يعطى تحقيق المعنى ، وعن العمل المنسوب إلى الخصم بما لا يعطى ذلك ، واطقه أهم .

غلطهم وإن لم يقدروا الله حق قدره بقوله ﴿هو الله العزيز الحكيم﴾ كأنه قال : أين الذين ألحقتم به شركاء من هذه الصفات وهو راجع إلى الله وحده . أو ضمير الشأن ، كما في قوله تعالى (قل هو الله أحد) .

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾

(إلا كافة للناس) إلى الإرسالة عامة لهم بحيطه بهم ؛ لأنها إذا شمتهم فقد كفتم أن يخرج منها أحد منهم . وقال الزجاج المعنى أرسلناك جامعاً للناس في الإنذار والإبلاغ ، فجعله حالاً من الكاف وحق التاء على هذا أن تكون للبالغة كناء الراوية والعلامة ، ومن جعله حالاً من المجرور متقدماً عليه فقد أخطأ ؛ لأن تقدم حال المجرور عليه في الإحالة بمنزلة تقدم المجرور على الجار ، وكما ترى عن ارتكاب هذا الخطأ ثم لا يقع به حتى يضم إليه أن يجعل اللام بمعنى إلى ؛ لأنه لا يستوى له الخطأ الأول إلا بالخطأ الثاني ، فلا بد له من ارتكاب الخطأين .

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ

يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

قرئ : ميعاد يوم . وميعاد يوم . وميعاد يوما . والميعاد : ظرف الوعد من مكان أو زمان ، وهو ههنا الزمان . والدليل عليه قراءة من قرأ : ميعاد يوم فأبدل منه اليوم . فإن قلت : فما تأويل من أضافه إلى يوم ، أو نصب يوما ؟ قلت : أما الإضافة فإضافة تبيين ، كما تقول : سحق ثوب ، وبغير سانية . وأما نصب اليوم فعلى التعظيم بإضمار فعل تقديره : لكم ميعاد ، أعني يوما أو أريد يوما من صفته كيت وكيت . ويجوز أن يكون الرفع على هذا ، أعنى التعظيم . فإن قلت : كيف انطبق هذا جواباً على سؤالهم ؟ قلت : ما سألوأ عن ذلك وهم منكرون له إلا تعنتاً ، لاسترشاداً ، فجاء الجواب على طريق التهديد مطابقياً للسؤال على سبيل الإنكار والنعت ، وأنهم مرصدون ليوم يفاجؤهم . فلا يستطيعون تأخراً عنه ولا تقدماً عليه .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلِ
يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾

الذى بين يديه : مازل قبل القرآن من كتب الله : يروى أن كفار مكة سألوا أهل الكتاب فأخبروهم أنهم يحدون صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتبهم ، فأغضبهم ذلك وقرنوا إلى القرآن جميع ما تقدمه من كتب الله عز وجل في الكفر ، فكفروا بها جميعاً . وقيل : الذى بين يديه يوم القيامة . والمعنى : أنهم جحدوا أن يكون القرآن من الله تعالى ، وأن يكون لمسا دلّ عليه من الإعادة للجزاء حقيقة ، ثم أخبر عن عاقبة أمرهم ومآلهم في الآخرة فقال لرسوله عليه الصلاة والسلام أو للدخاطب (ولوترى) في الآخرة موقفهم وهم يتجادبون أطراف المحادثة ويتراجعونها بينهم ، لرأيت العجيب (١) ، فخذف الجواب . والمستضعفون : هم الاتباع ، والمستكبرون : هم الروم والمقدّمون .

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ۚ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَمْرُوا الثَّدَاءَ مَا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ الثَّدَاءَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣)

أولى الاسم أعنى (نحن) حرف الإنكار : لأن الغرض إنكار أن يكونوا هم الصادق لهم عن الإيمان ، ولإثبات أنهم هم الذين صدوا بأنفسهم عنه ، وأنهم أسوأ من قبل اختيارهم . كأنهم قالوا : نحن أجبرناكم وحلنا بينكم وبين كونكم ممكنين مختارين (بعد إذ جاءكم) بعد أن صممتم على الدخول في الإيمان وصحت نياتكم في اختياره ؟ بل أنتم منعتم أنفسكم حظها وآثرتم الضلال على الهدى وأطعتم أمر الشهوة دون أمر النهى ، فكنتم مجرمين كافرين لاختياركم لالقولنا وتسويلنا . فإن قلت : إذ وإذا من الظروف اللازمة للظرفية ، فلم وقعت إذ مضافاً إليها ؟ قلت : قد اتسع في الزمان ما لم يتسع في غيره ، فأضيف إليها الزمان ، كما أضيف إلى الجمل في قولك : جنتك بعد إذ جاء زيد ، وحيثئذ ، ويومئذ ، وكان ذلك أو أن الحجاج أمير ، وحين خرج زيد . لما أنكر المستكبرون بقولهم (نحن صددناكم) أن يكونوا هم السبب في كفر المستضعفين وأثبتوا بقولهم (بل كنتم مجرمين) أن ذلك بكسبهم واختيارهم . كثر عليهم المستضعفون بقولهم (بل مكر الليل والنهار) فأبطلوا إضرابهم بإضرابهم ، كأنهم قالوا : ما كان الإجماع من جهتنا ، بل من

جهة مكركم لنا دائماً ليلاً ونهاراً، وحملكم إيانا على الشرك واتخاذ الأنداد. ومعنى مكر الليل والنهار: مكركم في الليل والنهار، فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به وإضافة المكر إليه. أو جعل ليلهم ونهارهم ما كرين على الإسناد المجازي. وقرئ: بل مكر الليل والنهار بالتنوين ونصب الظرفين. وبل مكر الليل والنهار بالرفع والنصب. أى تكزون الإغواء مكرًا دائماً لا تغفرون عنه. فإن قلت: ما وجه الرفع والنصب؟ قلت: هو مبتدأ أو خبر، على معنى: بل سبب ذلك مكركم أو مكركم، أو مكركم أو مكركم سبب ذلك. والنصب على: بل تكزون الإغواء مكرًا ليلاً والنهار: فإن قلت: لم قيل: (قال الذين استكبروا)، بغير عاطف؛ وقيل (وقال الذين استضعفوا)؟ قلت: لأن الذين استضعفوا مرةً أولاً كلامهم، فجاء بالجواب محذوف العاطف على طريقة الاستئناف، ثم جىء بكلام آخر للمستضعفين، فعطف على كلامهم الأول فإن قلت: من صاحب الضمير في (وأسروا) قلت: الجنس المشتمل على النوعين من المستكبرين والمستضعفين، وهم الظالمون في قوله (إذ الظالمون موقوفون عند ربهم) يندم المستكبرون على ضلالتهم وإضلالهم، والمستضعفون على ضلالتهم واتباعهم المضلين (في أعناق الذين كفروا) أى في أعناقهم، فجاء بالصرح للتنويه بدمهم، وللدلالة على ما استحقوا به الأغلال. وعن قتادة: أسروا الكلام بذلك بينهم. وقيل: أسروا الندامة أظروها، وهو من الأضداد.

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾

هذه تلبية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما منى ^(١) به من قومه من التكذيب والكفر بما جاء به، والمنافسة بكثرة الأموال والأولاد، والمفاخرة ^(٢) وزخارفها، والتكبر بذلك على المؤمنين، والاستهانة بهم من أجله. وقولهم (أى الفريقين خير مقاماً وأحسن ندباً) وأنه لم يرسل قط إلى أهل قرية من نذير إلا قالوا له مثل ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة وكادوه بنحو ما كادوه به، وقاسوا أمر الآخرة الموهومة أو المفروضة عندهم على أمر الدنيا، واعتقدوا أنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم، ولولا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم؛ فعلى قياسهم ذلك قالوا (وما نحن بمعذبين) أرادوا أنهم أكرم على الله من أن يعذبهم، نظراً إلى أحوالهم في الدنيا.

(١) قوله «بما منى به من قومه» أى ابتلى به. (ع)

(٢) قوله «والمفاخرة وزخارفها» لعله «والمفاخرة بالدنيا وزخارفها». (ع)

قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

وقد أبطل الله تعالى حسابهم بأن الرزق فضل من الله يقسمه كما يشاء على حسب ما يراه من المصالح، فربما وسع على العاصي وضيق على المطيع، وربما عكس، وربما وسع عليهما وضيق عليهما، فلا يتقاس عليه أمر الثواب الذي منبأه على الاستحقاق. وقدر الرزق: تضييقه. قال تعالى (ومن قدر عليه رزقه) وقرئ يقدر، بالتشديد والتخفيف.

وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَحَمَلَ صَاحِبًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جِزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَبْسُغُونَ فِي مَائِنَا مُعْجِرِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ

مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾

أراد: وما جماعة أموالكم ولا جماعة أولادكم بالتي تقربكم، وذلك أن الجمع المكسر عقلاؤه وغير عقلاؤه سواء في حكم التأنيث، ويجوز أن يكون التي هي التقوى وهي المقربة عند الله زلفى وحدها، أي: ليست أموالكم بتلك الموضوع للتعريب. وقرأ الحسن: باللاق تقربكم؛ لأنها جماعات. وقرئ: بالذي يقربكم، أي: بالشيء الذي يقربكم. والزلفى والزلفة: كالكرى والكربة، ومحلها النصب، أي: تقربكم قربة، كقوله تعالى (أنبيكم من الأرض نباتاً، (إلا من آمن) استثناء من (كم) في (تقربكم)، والمعنى: أن الأموال لا تقرب أحداً إلا المؤمن الصالح الذي ينفقها في سبيل الله، والأولاد لا تقرب أحداً إلا من عليهم الخير وفقهم في الدين ورشحهم للصالح والطاعة، جزاء (الضعف) من إضافة المصدر إلى المفعول، أصله: فأولئك لهم أن يجازوا الضعف، ثم جزاء الضعف، ثم جزاء الضعف. ومعنى جزاء الضعف: أن تضاعف لهم حسناتهم، الواحدة عشرا. وقرئ: جزاء الضعف، على: فأولئك لهم الضعف جزاء وجزاء الضعف على: أن يجازوا الضعف، وجزاء الضعف مرفوعان: الضعف بدل من جزاء. قرئ (في الغرفات) بضم الراء وفتحها وسكونها. وفي الغرفة.

قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَفْقَشُمْ مِنْ

شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾

(فهو يخلفه) فهو يعرضه لا معروض سواء: إما عاجلا بالمسال، أو بالقناعة التي هي كنز

لا ينفد ، وإما آجلا بالثواب الذى كل خلف دونه . وعن مجاهد : من كان عنده من هذا المال ما يقيم به فليقتصد ، فإن الرزق مقسوم ، ولعل ما قسم له قليل وهو ينفق نفقة الموسع عليه ، فينفق جميع ما في يده ثم يبقى طول عمره في فقر ، ولا يتأولن : وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ، فإن هذا فى الآخرة . ومعنى الآية : وما كان من خلف فهو منه (خير الرازقين) وأعلام رب العزة ، بأن كل ما رزق غيره : من سلطان يرزق جنده ، أو سيد يرزق عبده ، أو رجل يرزق عياله : فهو من رزق الله ، أجراه على أيدي هؤلاء . وهو خالق الرزق وخالق الأسباب التى بها ينفع المرزوق بالرزق . وعن بعضهم : الحمد لله الذى أوجدنى^(١) وجعلنى ممن يشتهى : فكمن من مشته لا يجد ، وواجد لا يشتهى .

وَيَوْمَ يُنْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْؤُلَاءِ إِبْنَاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَهُنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ
الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ يَعْبُدُونَ مُؤْمِنُونَ (٤١)

هذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار ، وارد على المثل السائر :

• إِبْنَاكِ أَغْنَى وَأَتَمَعْنِي بِأَجَارَةٍ • (٢)

ونحوه قوله تعالى (أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله) وقد علم سبحانه كون

(١) قوله « الحمد لله الذى أوجدنى » فى الصحاح : وجد مطلوبه وأوجد الله مطلوبه ، أى أغفره به وأوجدته ، أى : أغناه . (ع)

(٢) يا أخت خير البدو والحضره كعب ترين فى فنى فزاره

أصبح يهوى حرة مطاره إياك اعنى فاسمى يا جاره

لسهل بن مالك الغزاري ، يخاطب أخت حارثة بن لام ، وكان قد سألها على أخيها فلم يجده فأزنته وأكرمته ، فرأها فى غايه الجمال والكمال ، فأشد ذلك ، فأجابته بقولها :

إنى أقول يا فنى فزاره لا أبغى الزوج ولا الدماره

ولا فراق أهل هدى الحاره فارحل إلى أمك باستحاره

فارتحل ، ثم نزل عند أخيها مرة أخرى ، وكان حسن الطامه ، فأرسلت إليه خفية أن يخطبها ، ففعل ، وتزوجها وارتحل بها . والبدو : هو البادية . والحضره : هى الحاضرة . والمراد أهلها ، وكيف : اسم استفهام نصب على المفعولية بقرين . والمعنى : أى حال ترين فى فنى هذه القبيلة ؟ يعنى نفسه . وفيه تعريض بخطبتها . والمطارة : كثيرة التمتع . ولحاق ناء التانيث لمفعال شاذ - إن كانت للفرق بين المذكر والمؤنث كما هنا - ويمكن أنها لزيادة المبالغة ، لا للتانيث . والدماره : الفسق والخبث والفساد . وهذى : اسم إشارة . وقولها : باستحاره ، أى بكال وعدم نقص . أو بتعير وعدم اعتداء . يقال : استحار الاناء ، إذا امتلأ وتكامل . واستحار الرجل : إذا تحمر فى رايه .

الملائكة وعيسى منزّهين برآءه عما وجه عليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير ، والغرض أن يقول ويقولوا ، ويسأل ويجيبوا ؛ فيكون تقريرهم أشد . وتعيرهم أبلغ ، وخجلهم أعظم : وهو أنه ألزم ، ويكون اقتصاص ذلك لطفاً لمن سمعه ، وزاجراً لمن اقتص عليه . والموالاة : خلاف المعاداة . ومنها : اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه . وهى مفاعلة من الولى وهو القرب ، كما أن المعاداة من العدواء وهى البعد ، والولى : يقع على الموالى والموالى جميعاً . والمعنى أنت الذى نواله من دونهم ، إذ لا موالاة بيننا وبينهم ، فبينوا بإثبات موالاة الله ومعاداة الكفار : برأتهم من الرضا بعبادتهم لهم ؛ لأن من كان على هذه الصفة كانت حاله منافية لذلك ﴿ بل كانوا يعبدون الجن ﴾ يريدون الشياطين ، حيث أطاعوهم فى عبادة غير الله . وقيل : صوّرت لهم الشياطين صور قوم من الجن وقالوا : هذه صور الملائكة فاعبدوها . وقيل : كانوا يدخلون فى أجواف الاصنام إذا عبدت . فيعبدون بعبادتها . وقرئ : نخشروهم . ونقول ، بالنون والياء .

فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾

الامر فى ذلك اليوم لله وحده ، لا يملك فيه أحد منفعة ولا مضرة لأحد ؛ لأن الدار دار ثواب وعقاب ، والمثيب والمعاقب هو الله ، فكانت حالها خلاف حال الدنيا التى هى دار تكليف ، والناس فيها غلى بينهم ، يتصارعون ويتنافعون . والمراد : أنه لا ضار ولا نافع يومئذ إلا هو وحده ، ثم ذكر معاقبته الظالمين بقوله ﴿ ونقول للذين ظلموا ﴾ معطوفاً على (لا يملك) . وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ كَانِ يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إفكٌ مُّقْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾

الإشارة الأولى : إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، والثانية إلى القرآن . والثالثة : إلى الحق ، والحق أمر التوبة كله ودين الإسلام كما هو . وفى قوله ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ وفى أن لم يقل وقالوا ، وفى قوله ﴿ للحق لما جاءهم ﴾ وما فى اللامين من الإشارة إلى القائلين والمقول فيه ، وفى لما من المبادأة بالكفر : دليل على صدور الكلام عن إنكار عظيم وغضب شديد ، وتعجب من أمرهم ببلغ ، كأنه قال : وقال أولئك الكفرة المتمردون بجرأتهم على الله ومكابرهم لمثل ذلك الحق الثير قبل أن يذوقوه ﴿ إن هذا إلا سحر مبين ﴾ فبتوا القضاء على أنه سحر ، ثم تبوءوا على

أنه بين ظاهر كل عاقل تأمله سماء سحراً .

وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ۝٤٤
وَكَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِ
فَكَفَّ كَانَ نَكِيرٍ ۝٤٥

وما آتيناهم كتباً يدرسونها فيها برهان على صحة الشرك ، ولا أرسلنا إليهم نذيراً ينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا ، كما قال عز وجل (أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون) أو وصفهم بأنهم قوم أقيون أهل جاهلية لامة لهم وليس لهم عهد يأنزال كتاب ولا بعثة رسول كما قال (أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون) فليس لتكذيبهم وجه متشبث ، ولا شبهة متعلق ، كما يقول أهل الكتاب وإن كانوا مبطلين : نحن أهل كتب وشرائع ، ومستندون إلى رسل من رسل الله . ثم توعدهم على تكذيبهم بقوله (وكذب الذين) تقدموم من الأمم والقرون الحالية كما كذبوا ، وما بلغ هؤلاء بعض ما آتينا أولئك من طول الأعمار وقوة الأجرام وكثرة الأموال ، فحين كذبوا رسالهم جاءهم إنكارى بالتدمير والاستئصال ، ولم يغن عنهم استظهارهم بما هم به مستظهرون ، فما بال هؤلاء ؟ وقرئ : يدرسونها ، من التدريس وهو تكرير الدرس . أو من درس الكتاب ، ودرس الكتب : ويدرسونها ، بتشديد الدال : يفتعلون من الدرس . والمعشار كالرباع ، وهما : العشر ، والرابع . فإن قلت : مامعنى (فكذبوا رسل) وهو مستغنى عنه بقوله (وكذب الذين من قبلهم) ؟ قلت : لما كان معنى قوله (وكذب الذين من قبلهم) : وفعل الذين من قبلهم التكذيب ، وأقدموا عليه : جعل تكذيب الرسل مسيأته ونظيره أن يقول القائل : أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ويجوز أن ينعطف على قوله : وما بلغوا ، كقولك : ما بلغ زيد معشار فضل عمرو فتفضل عليه (فكيف كان نكير) (١) أى للسكذين الأولين ، فليحذروا من مثله .

قُلْ إِنَّمَا أُعْطِمْكُمْ بَوَاحِدَةً أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِزْفٍ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا
مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ حَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٤٦
(بواحدة) بخصلة واحدة ، وقد فسرهما بقوله (أن تقوموا) على أنه عطف بيان لها ، وأراد بقيامهم : إما القيام عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقهم عن مجتمعهم عنده وإما القيام الذى لا يراد به المثل على القدمين ، ولكن الانتصاب فى الأمر والنهوض فيه بالهمة

(١) قوله « فكيف كان نكير » وفى النسق : أن يعقوب قرأ « نكيرى » بالياء فى الرسل والوقف . (ع)

والمنع : إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم : وهي : أن تقوموا لوجه الله غالباً . متفرقين اثنين اثنين ، وواحداً واحداً (ثم تفكروا) في أمر محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به ، أما الاثنان : فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصور فكره على صاحبه وينظران فيه متصادقين متناصفين ، لا يميل بهما اتباع هوى ولا ينبض لهما عرق عصبية ، حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وسننه ، وكذلك الفرد : يفكر في نفسه بعدل ونصفة من غير أن يكابرها ويعرض فكره على عقله وذنه وما استقر عنده من عادات العقلاء ومجاري أحوالهم ، والذي أوجب تفرقهم مثنى وفردى : أن الاجتماع بما يشوش الخواطر ، ويعمي البصائر ، ويمنع من الروية ، ويخلط القول : ومع ذلك يقل الإنصاف ، ويكثر الاعتساف ، ويثور عجاج التعصب . ولا يسمع إلا نصرة المذهب ، وأراهم بقوله (ما بصاحبكم من جنة) أن هذا الأمر العظيم الذي تحته ملك الدنيا والآخرة جميعاً ، لا يتصدى لادعاء مثله إلا رجلان : إما مجنون لا يبالي باقتضاه إذا طرب بالبرهان فجزع ، بل لا يدري ما الاقتضاح وما رقة العواقب . وإما عاقل راجح العقل مرشح للنبوة ، مختار من أهل الدنيا ، لا يذيعه إلا بعد صحته عنده بحجته وبرهانه ، وإلا فما يجدى على العاقل دعوى شيء لا يثبت له عليه ، وقد علمت أن محمدًا صلى الله عليه وسلم ما به من جنة ، بل علمتموه أرجح قريش عقلاً ، وأرزنهم حلماً وأتقهم ذهناً وأصلهم رأياً ، وأصدقهم قولاً ، وأزهم نفساً ، وأجمعهم لما يحمد عليه الرجال ويمدحون به ؛ فكان مظنة لأن تظنوا به الخير ، وترجعوا فيه جانب الصدق على الكذب ؛ وإذا فعلتم ذلك كفاكم أن تطالبوه بأن يأتيكم بآية ؛ فإذا أتى بها تبين أنه نذير مبين . فإن قلت : (ما بصاحبكم) بم يتعلق ؟ قلت : يجوز أن يكون كلاماً مستأنفاً تنبيهاً من الله عز وجل على طريقة النظر في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويجوز أن يكون المعنى : ثم تفكروا ففعلوا ما بصاحبكم من جنة ، وقد جاوز بعضهم أن تكون ما استفهامية (بين يدي عذاب شديد) كقوله عليه الصلاة والسلام ^(١) : «بعثت في نسمة الساعة» ^(٢) .

قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرِ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾

(فهو لكم) جزاء الشرط الذي هو قوله (ما سألتم من أجر) تقديره : أى شيء سألتكم

(١) تقدم في الأنبياء .

(٢) قوله «بعثت في نسمة الساعة» في الصحاح : نسمة الريح ، : أولها حين تقبل بلين قبل أن تشتد . ومن الحديث : بعثت في نسمة الساعة ، أى : حين ابتدأت وأقبلت أوائلها . والنسمة أيضاً : جمع نسمة وهي النفس . (ع)

من أجر فهو لكم ، كقوله تعالى (ما يفتح الله للناس من رحمة) وفيه معنيان ، أحدهما : نفي مسألة الاجر رأسا ، كما يقول الرجل لصاحبه : إن أعطيتني شئنا غفذه ، وهو يعلم أنه لم يعطه شيئا ولكنه يريد به البت : لتعليقه الأخذ بما لم يكن . والثاني : أن يريد بالاجر ما أراد في قوله تعالى (قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا) وفي قوله (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى) لأن اتخاذا السبيل إلى الله نصيبهم وما فيه نفعهم ، وكذلك المودة في القرابة ، لأن القرابة قد انتظمت وإياهم (على كل شيء شهيد) حفيظ مهيم ، يعلم أني لأطلب الاجر على نصيحتكم ودعائكم إليه لإمته ، ولا أطمع منكم في شيء .

قُلْ إِنْ رَبِّي يَصْفِيْهِ فَالْحَقُّ عَلَٰمُ الْغُيُوْبِ ﴿٤٨﴾

القذف والرمي : تزجية ^(١) السهم ونحوه بدفع واعتماد ، ويستعاران من حقيقة المعنى الإلقاء ومنه قوله تعالى (وقذف في قلوبهم الرعب) ، (أن اقذفه في التابوت) ومعنى (يقذف بالحق) يلقيه وينزله إلى أنبيائه . أو يرمى به الباطل فيدمغه ويذهقه (علام الغيوب) رفع محمول على محل إن واسمها ، أو على المستكن في يقذف ، أو هو خبر مبتدأ محذوف . وقرئ بالنصب صفة لربي ، أو على المدح . وقرئ : الغيوب بالحركات الثلاث ، فالغيوب كاليوت . والغيوب كالصبور وهو الأمر الذي غاب وخفى جداً .

قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّلُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾

والحي : إمّا أن يبدى فعلا أو يعيده فإذا هلك لم يبق له إبداء ولا إعادة ، فجعلوا قولهم : لا يبدى ولا يعيد مثلاً في الهلاك . ومنه قول عبيد :

أَقْفَرُ مِنْ أَهْلِهِ عَيْدُ قَالِيَوْمَ لَا يُبْدِي وَلَا يُعِيدُ ^(٢)

والمعنى : جاء الحق وهلك الباطل ، كقوله تعالى : (جاء الحق وذهق الباطل) وعن ابن مسعود

(١) قوله : القذف والرمي تزجية السهم ، في الصحاح : زجيت الشيء إذا دفعته برشق . (ع)

(٢) لعبيد بن الأبرص ، وأقفر : خلا أو ملك عبيد من أهله . والابداء والاعادة من لوازمها الحياة ، فنفهما كتابة عن نفيا بالموت . كالمنذر بن ماء السماء يخرج في يوم من كل سنة فينم على كل من يلقاه ، وفي آخر فيقتل أول من يلقاه ، فصادفه فيه عبيد ، فقيل له : امدحه بشعر لعله يصفرك عنك ، فقال : حال الجريش دون القريض ، أي منعت نفسه الشعر ، فغضب ذلك مثلاً وقال هذا البيت بعد ذلك تحسراً . وفي مجازي الأدب : أن المنذر قال له : أنشدني : أقفر من أهله ملحوب ، فقال : أقفر من أهله عبيد . وملحوب : اسم موضع ، استنشده بيتاً قديماً يعلم أنه يريد ملاحه ، فقال : لا قدره لي على إبداء شعر جديد ، ولا على إعادة شعر قديم ، ودخل في حفرة البيت الزحاف الطي ، ومن العلل القطع ، فصار مستقفاً على وزن مستعمل إسكون اللام ، وذلك في قوله « أهله » .

رضى الله عنه : دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً ، فجعل يطمئنها بعد دُبُعة ^(١) ويقول (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً) ، جاء الحق وما يبدى الباطل وما يعبد ^(٢) . والحق : القرآن . وقيل : الإسلام . وقيل : السيف . وقيل الباطل : إبليس لعنه الله ، أى : ما ينشئ خلقاً ولا يعبد ، المنشئ والباعث : هو الله تعالى . وعن الحسن : لا يبدى لأهله خيراً ولا يعبد ، أى : لا ينفعهم في الدنيا والآخرة . وقال الزجاج : أى شيء ينشئ إبليس ويعبد ، فجعله للاستفهام . وقيل للشيطان : الباطل ؛ لأنه صاحب الباطل ؛ أولاً لأنه مالك كما قيل له : الشيطان ، من شاط إذا هلك .

قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾

قرئ ، ضللت أضلّ ، بفتح العين مع كسر ها . وضللت أضلّ ، بكسر ها مع فتحها ، وهما لفتان ، نحو : ظلت أظّل ، وظللت أظّل . وقرئ : إضلّ ، بكسر الحزرة مع فتح العين . فإن قلت : أن التقابل بين قوله (فإنما أضلّ على نفسي) وقوله (فما يوحى إلى ربّي) ، وإنما كان يستقيم أن يقال : فإنما أضلّ على نفسي ، وإن اهتديت فإنما اهتدي لها ، كقوله تعالى (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها) فن اهتدى فلنفسه ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها . أو يقال : فإنما أضلّ بنفسي . قلت : هما متقابلان من جهة المعنى ؛ لأن النفس كل ما عليها فهو بها ، أعنى : أن كل ما هو وبال عليها وضار لها فهو بها وبسببها ؛ لأن الأتارة بالسوء ، وما لها عما ينفعها فبهديّة ربها وتوفيقه ، وهذا حكم عام لكل مكلف ، وإنما أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يستند إلى نفسه ؛ لأن الرسول إذا دخل تحته مع جلالة حمله وسداد طريقته كان غيره أولى به (إنه سميع قريب) يدرك قول كل ضالّ ومهتد ، وفعله لا يخفى عليه منهما شيء .

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزَعُوا فَلَآ قُوَّةَ وَآخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾

(ولو ترى) جوابه محذوف ، يعنى : لرأيت أمراً عظيماً وحالاً هائلة . وذلّوا ، وه إذ ، والأفعال التي هي فزعوا ، وآخذوا ، وحيل بينهم : كلها للضى . والمراد بها الاستقبال ؛ لأن ما الله فاعله في المستقبل بمنزلة ما قد كان ووجد لتحقيقه ، ووقت الفزع : وقت البعث وقيام الساعة . وقيل : وقت الموت . وقيل : يوم بدر . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : نزلت

(١) قوله : لطمئنها بعد دُبُعة ، لعله دمع ، كعبارة النفس . (ع)

(٢) متفق عليه وقد تقدم في الأسراء .

في خسف البيداء ، وذلك أن ثمانين ألفاً يفزون الكعبة ليخربوها ، فإذا دخلوا البيداء خسف بهم ﴿فلافوت﴾ فلا يفوتون الله ولا يسبقونه . وقرئ : فلافوت . والاختد من مكان قريب : من الموقف إلى النار إذا بعثوا . أو من ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا . أو من صحراء بدر إلى القليب . أو من تحت أقدامهم إذا خسف بهم . فإن قلت : علام عطف قوله ﴿وأخذوا﴾ ؟ قلت : فيه وجهان : العطف على فزعوا ، أى : فزعوا وأخذوا فلافوت لهم . أو على لافوت ، على معنى : إذ فزعوا فلم يفوتوا وأخذوا . وقرئ : وأخذ ، وهو معطوف على محل لافوت . ومعناه : فلافوت هناك ، وهناك أخذ .

وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ يَبِيدٌ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْعَنَبِ مِنْ مَّكَانٍ يَبِيدٌ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴿٥٤﴾

﴿آمنّا به﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم لمور ذكره في قوله (ما بصاحبكم من جنة) : والتناوش والتناول : أخوان : إلا أن التناوش تناول سهل لشيء قريب ، يقال ناشه ينوشه ، وتناوشه القوم . ويقال : تناوشوا في الحرب : ناش بعضهم بعضاً . وهذا تمثيل لطلبهم مالا يكون ، وهو أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت ، كما ينفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا : مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة ^(١) كما يتناوله الآخر من قيس ذراع تناولا سهلا لا تعب فيه وقرئ التناوش : همزت الواو المضمومة كما همزت في أجوه وأدور وعن أبي عمرو التناوش بالهمز تناول من بعد من قولهم : ناشت إذا أبطأت وتأخرت . ومنه البيت :

• تَمْنَى نَيْشًا أَنْ يَكُونَ أَطَاعَنِي • ^(١)

(١) قوله : أن يتناول الشيء من غلوة ، في الصحاح : غلوت بالسهم غلوا ، إذا رميت به أبعد ما تقدر عليه . والغلوة : الغاية مقدار رمية ، وفيه : يقال بينهما قيس رخ وقاس رخ ، أى : قدر رخ . (ع)

(٢) ومول عساق واستبد برأيه كما لم يطع فيها أشار قصير

فلما رأى ما غلب أمرى وأمره وناءت بأعجاز الأمور صدور

تمنى نيشا أن يكون أطاعنى وقد حدثت بعد الأمور أمور

لثبيل بن حري ، واستبد : انفرد واستغنى بأمره . وقصير : علم رجل كانت حسن الرأى ، وهو فاعل أشار . ومفعول : يطع ، محذوف دلالة المذكور عليه . أر لأن الفعل منزل منزلة اللازم ، والأوجه رواية لم يطع بانيا للجمهور . وقصير : نائب الفاعل ، وضميره فاعل أشار ، وبالعكس على الخلاف في باب التنازع . وغيب الأمر : بلغ غبه بالكسر عاقبه . وناء - بالمد - : أصله نأى ، فقلب : أى بعد ، وشبه الأمر بشيء له صدر وعجز على

أى أخيراً (ويقذفون) معطوف على قد كفروا ، على حكاية الحال الماضية ، يعنى : وكانوا يتكلمون (بالغيب) ويأتون به (من مكان بعيد) وهو قولهم في رسول الله صلى الله عليه وسلم شاعر . ساحر . كذاب . وهذا تكلم بالغيب والأمر الخفى ، لأنهم لم يشاهدوا منه سحرا ولا شعرا ولا كذبا ، وقد أنوا بهذا الغيب من جهة بعيدة من حاله ، لأن أبعد شيء مما جاء به : الشعر والسحر ، وأبعد شيء من عادته التى عرفت بينهم وجرت : الكذب والزور : وقرئ : ويقذفون بالغيب ، على البناء للفعول ، أى : يأتينهم به شياطينهم ويلقونهم إياه ، وإن شئت فقلقه بقواه (وقالوا آمنا به) على أنه مثلهم فى طلبهم تحصيل ما عطلوه من الإيمان فى الدنيا بقولهم آمنا فى الآخرة ، وذلك مطلب مستبعد بمن يقذف شيئا من مكان بعيد لا مجال للظن فى لحوقه ، حيث يريد أن يقع فيه لكونه غائبا عنه شاحطا ، والغيب : الشيء الغائب ، ويجوز أن يكون الضمير للعذاب الشديد فى قوله (بين يدي عذاب شديد) وكانوا يقولون : وما نحن بمعذبين ، إن كان الأمر كما تصفون من قيام الساعة والعقاب والثواب ، ونحن أكرم على الله من أن يعذبنا ، قايسين أمر الآخرة على أمر الدنيا ؛ فهذا كان قذفهم بالغيب ، وهو غيب ومقذوف به من جهة بعيدة ؛ لأن دار الجزاء لا تنفاس على دار التكليف (ما يشتهون) من نفع الإيمان يومئذ والنجاة به من النار والفوز بالجنة . أو من الرد إلى الدنيا ، كما حكى عنهم (ارجعنا نعمل صالحا) . (بأشياءهم) بأشباههم من كفره الأمم ومن كان مذهبه مذهبهم (مريب) إما من أراه ، إذا أوقعه فى الريبة والتهمة . أو من أراب الرجل ، إذا صار ذا ريبة ودخل فيها ، وكلاهما مجاز ؛ إلا أن بينهما فريقا : وهو أن المريب من الأول منقول عن يصح أن يكون مريبا من لأعيان إلى المعنى ، والمريب من الثانى منقول من صاحب الشك إلى الشك ، كما تقول : شعر شاعر .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ سورة سبا لم يبق رسول ولا نبي إلا كان له يوم القيامة رقيقاً ومصالحاً^(١) .

طريق المسكنة وإثباتهما له تخيل ، كان أوائل الأمور مضت بأواخرها ، فلما مضت الأوائل ظهرت الأواخر بعد خفائها . ويقال : نأش بالهمز إذا تأخر . وتنبأ : نصب على الظرف ، أى أخيراً ، أى : تنبى فى آخر الأمر أن يكون أطلاعى فى نصيحته لما رأى عاقبة أمرى حسنة وعاقبة أمره سيئة . والحال أنه قد حدثت بعد الأمور السهلة أمور صعبة كانت خفية أوجبت تنبيهه ، فهى حال ميئته للبراد من الظرف . أو حدثت بعد الأمور السهلة التى كان يمكنه معها مطاوعى أمور صعبة تمنعه من التخلص من ربكته ، كما نصحته بذلك أولا فلم يسمع ومضى على رايه .

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدى بأسانيدهم عن أبى بن كعب .

سورة الملائكة

مكية ، وهي خمس وأربعون آية [نزلت بعد الفرقان]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ
مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)

(فاطر السموات) مبتدئها ومبتدعها . وعن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما : ما كنت أدري ما فاطر السموات والأرض ، حتى اختصم إلى أعرايينان في بئر فقال أحدهما : أنا فطرتهما (١) ، أى ابتدأتها . وقرئ : الذى فطر السموات والأرض وجعل الملائكة . وقرئ : جاعل الملائكة ، بالرفع على المدح (رسلا) بضم السين وسكونها (أولى أجنحة) أصحاب أجنحة ، وأولو : اسم جمع لذر ، كما أن أولاء اسم جمع لذا ، ونظيرهما فى المتمكنة : المخاض والخلفة (مثنى وثلاث ورباع) صفات لأجنحة ، وإنما لم تنصرف لتكرر العدل فيها . ذلك أنها عدلت عن ألفاظ الأعداد عن صيغ إلى صيغ أخر ، كما عدل عمر عن عامر . وحذام عن حاذمة ، وعن تكرير إلى غير تكرير . وأما الوصفية فلا يفرق الحال فيما بين المعدولة والمعدول عنها . ألا تراك تقول : مررت بنسوة أربع ، وبرجال ثلاثة ، فلا يعرج عليها ، والمعنى : أن الملائكة (٢) خلقاً أجنحتهم اثنان اثنان ، أى : لكل واحد منهم جناحان ، وخلقاً أجنحتهم ثلاثة ثلاثة ، وخلقاً أجنحتهم أربعة أربعة (يزيد فى الخلق ما يشاء) أى : يزيد فى خلق الأجنحة ، وفى غيره ما تقتضيه مشيئته وحكمته . والأصل الجناحان ؛ لأنهما بمنزلة السدين ، ثم الثالث والرابع زيادة على الأصل ، وذلك أقوى للطيران وأعون عليه . فإن قلت : قياس الشفع من الأجنحة أن يكون فى كل شق نصفه ، فما صورة الثلاثة ؟ قلت : لعل الثالث يكون فى وسط الظهر بين الجناحين بمدهما بقوة . أولعله لغير الطيران ؛ فقد مر فى بعض الكتب أن صنفاً من الملائكة لهم ستة أجنحة فجناحان يلقون بها أجسادهم ، وجناحان يطرون بهما فى الأمر من أمور الله ، وجناحان مرخيان على وجوههم حياة من الله . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى جبريل عليه السلام

(١) تقدم فى أول الأنعام

(٢) قوله «أن الملائكة خلقاً» . لعله : متنوعة خلقاً ... الخ . (ع)

ليلة المعراج وله ستائة جناح^(١)، وروى أنه سأل جبريل عليه السلام أن يترامى له في صورته فقال: إنك لن تطيق ذلك. قال: «إني أحب أن تفعل»^(٢) فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة مقمرة، فأناه جبريل في صورته ففتش على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أفاق وجبريل عليه السلام مسنده وإحدى يديه على صدره والآخرى بين كتفيه، فقال: سبحان الله! ما كنت أرى أن شيئاً من الخلق هكذا، فقال جبريل: فكيف لورأيت إسرائيل: له اثنا عشر جناحاً: جناح منها بالمشرق، وجناح بالمغرب. وإن العرش على كاهله، وإنه ليتضال الأحياء لعظمة الله حتى يعود مثل الوصع^(٣) وهو العصفور الصغير. وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى (يزيد في الخلق ما يشاء): «هو الوجه الحسن، والصوت الحسن، والشعر الحسن، وقيل: الخط الحسن. وعن قتادة: الملاحاة في العينين، والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق: من طول قامته، واعتدال صورته، وتمام في الأعضاء: وقوة في البطش: وحصافة في العقل»^(٤)، وجزالة في الرأي، وجرامة في القلب، وسماحة في النفس، وذلاقة^(٥) في اللسان ولباقة في التكلم^(٦)؛ وحسن تأن في مزاوله الأمور؛ وما أشبه ذلك مما لا يحيط به الوصف.

مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ

بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾

استعير الفتح للإطلاق والإرسال. ألا ترى إلى قوله (فلا يرسل له من بعده) مكان: لا فاتح له. يعني: أي شيء يطلق الله من رحمة أي من نعمة رزق أو مطر أو صحة أو أمن أو غير ذلك من صنوف نعمائه التي لا يحاط بعددها. وتنكيره الرحمة للإشاعة والإبهام، كأنه قال: من أية رحمة كانت سماوية أو أرضية، فلا أحد يقدر على إمساكها وحبسها، وأي شيء يمسك الله فلا أحد يقدر على إطلاقه. فإن قلت: لم أنت الضمير أولاً، ثم ذكر آخر؟ وهو راجع في الحالين إلى الاسم المتضمن معنى الشرط؟ قلت: هما لغتان: الحل على المعنى وعلى اللفظ، والمتكلم على الخيرة

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود «أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل في صورته له ستائة جناح» ولفظ ابن حبان «رأيت جبريل عند مدرة المنتهى وله ستائة جناح ينتشر في ريشه الدر والياقوت»

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد. والتعليق من طريقه أخبرنا الليث عن عقيل عن الزهري بهذا. وزاد «والوصع عصفور صغير حتى ما يحمل عرشه إلا عظمت» الوصع بفتح الصاد المهملة بعدها مهملة أيضاً

(٣) قوله «مثل الوصع وهو العصفور» في الصحاح «الوصع»: طائر أصغر من العصفور. (ع)

(٤) قوله «وحصافة» أي: إحكام. أفاده الصحاح. (ع)

(٥) قوله «وذلاقة» أي: حدة وطلاقة، أفاده الصحاح. (ع)

(٦) قوله «ولباقة في التكلم» أي: حذق. أفاده الصحاح. (ع)

فيها ، فأنث على معنى الرحمة ، وذكر على أن لفظ المرجوع إليه لا تأنيث فيه ، ولأن الأول فسر بالرحمة ، لحسن اتباع الضمير التفسير ، ولم يفسر الثاني فترك على أصل التذكير وقرئ : فلا يرسل لها . فإن قلت : لا بد للثاني من تفسير ، فما تفسيره ؟ قلت : يحتمل أن يكون تفسيره مثل تفسير الأول ، ولكنه ترك لدلالته عليه ، وأن يكون مطلقاً في كل ما يسكه من غضبه ورحمته ، وإنما فسر الأول دون الثاني للدلالة على أن رحمته سبقت غضبه . فإن قلت : فما قول فيمن فسر الرحمة بالتوبة وعزاه إلى ابن عباس رضي الله عنهما ؟ قلت : إن أراد بالتوبة الهداية لها والتوفيق فيها . وهو الذي أراده ابن عباس رضي الله عنهما إن قاله - فقبول : وإن أراد أنه إن شاء أن يتوب العاصي تاب ، وإن لم يشأ لم يتب ؛ فردود : لأن الله تعالى يشاء التوبة أبداً ^(١) ، ولا يجوز عليه أن لا يشاءها (من بعده) من بعد إمساكه ، كقوله تعالى (فن يهديه من بعد الله) ، (فبأى حديث بعد الله) أى من بعد هدايته وبعد آياته (وهو العزيز) الغالب القادر على الإرسال والإمساك (الحكيم) الذي يرسل ويمسك ما تقتضى الحكمة إرساله وإمساكه .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ
مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾

ليس المراد بذكر النعمة ذكرها باللسان فقط ، ولكن به وبالقلب ، وحفظها من الكفران والغمط ^(٢) وشكرها بمعرفته حقها والاعتراف بها وطاعة مولها . ومنه قول الرجل لمن أنعم عليه : أذكر أياديّ عندك . يريد حفظها وشكرها والعمل على موجبها ، والخطاب عام للجميع لأن جميعهم مغمورون في نعمة الله . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : يريد : يا أهل مكة اذكروا نعمة الله عليكم . حيث أسكنكم حرمة ومنعم من جميع العالم ، والناس يتخطفون من حولكم . وعنه : نعمة الله العافية . وقرئ : غير الله ، بالحركات الثلاث ؛ فالجوز والرفع على الوصف لفظاً ومحلاً ، والنصب على الاستثناء . فإن قلت : ما محل (يرزقكم) ؟ قلت : يحتمل أن يكون له محل إذا أوقعت صفة لخالق ^(٣) وأن لا يكون له محل إذا رفعت محل من خالق ، بإضمار يرزقكم ، وأوقعت يرزقكم تفسيراً له . أو جعلته كلاماً مبتدأ بعد قوله (هل من خالق غير

(١) قوله « يشاء التوبة أبداً » هذا وما بعده على مذهب المعتزلة ، من أنه تعالى يجب عليه الصلاح للبعد . وعند أهل السنة : لا يجب عليه شيء ، فالكلام على ظاهره ، وردّه مردود . (ع)

(٢) قوله « وحفظها من الكفران والغمط » أى : الاحتقار . أفاده الصحاح . (ع)

(٣) قال محمود : « إن قلت : ما محل يرزقكم ؟ قلت : يحتمل أن يكون له محل إذا أوقعت صفة لخالق ، وأن لا يكون له محل إذا جعلته تفسيراً وجعلت من خالق مرفوع المحل بفعل يدل عليه هذا ، كأنه قيل : هل يرزقكم خالق غير الله ، أو جعلت يرزقكم كلاماً مبتدأ » قال أحمد : والوجه المؤخر أوجهها

الله (. فإن قلت : هل فيه دليل على أن الخالق لا يطلق على غير الله تعالى ^(١) ؟ قلت : نعم إن جعلت (يرزقكم) كلاماً مبتدأ وهو الوجه الثالث من الأوجه الثلاثة . وأما على الوجهين الآخرين وهما الوصف والتفسير . فقد يقيد فيهما بالرزق من السماء والأرض ، وخرج من الإطلاق ، فكيف يستشهد به على اختصاصه ، بالإطلاق ؛ والرزق من السماء المطر ، ومن الأرض النبات (لا إله إلا هو) جملة مفصولة لاحتلها ، مثل : يرزقكم في الوجه الثالث ، ولو وصلتها كما وصلت يرزقكم لم يساعد عليه المعنى : لأن قولك : هل من خالق آخر سوى الله لا إله إلا ذلك الخالق : غير مستقيم ؛ لأن قولك : هل من خالق سوى الله إثبات لله ، فلو ذهبت تقول ذلك : كنت مناقضاً بالنفي بعد الإثبات (فأنى توفكون) فن أى وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك ؟

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ④

نعى به على قریش سوء تلقيهم آيات الله ، وتكذيبهم بها ، وسلى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن له في الإنبياء قبله أسوة حسنة ، ثم جاء بما يشتمل على الوعد والوعيد : من رجوع الأمور إلى حكمه ومجازاة المكذب والمكذب بما يستحقه . وقرئ : ترجع ، بضم التاء وفتحها . فإن قلت : ما وجه صحة جزاء الشرط ؟ ومن حق الجزاء أن يتعقب الشرط وهذا سابق له . قلت : معناه : وإن يكذبوك فتأس بتكذيب الرسل من قبلك ، فوضع (فقد كذبت رسل من قبلك) موضع : فتأس ، استغناء بالسبب عن المسبب : أعنى بالتكذيب عن التأسى . فإن قلت : ما معنى التنكير في رسل ؟ قلت : معناه : فقد كذبت رسل ، أى رسل ذوو عدد كثير . وأولو آيات ونذر . وأهل أعمار طوال وأصحاب صبر وعزم ، وما أشبه ذلك . وهذا أسلى له ، وأحث على المصابرة .

(١) عاد كلامه . قال : فإن قلت : هل فيه دليل على أن الخالق لا يطلق على غير الله تعالى ؟ قلت : نعم إن جعلت يرزقكم كلاماً مبتدأ ، وهو الوجه الثالث من الأوجه الثلاثة . وأما على الوجهين الآخرين وهما الوصف والتفسير فقد يقيد فيهما بالرزق من السموات والأرض ، وخرج من الإطلاق ، فكيف يستشهد به على نفيه مطلقاً . قال أحمد : التقدير إذا قرعت هذه الآية أسماءهم قالوا بجرأ على الله تعالى : نعم ثم خالق غير الله ؛ لأن كل أحد عتدهم بخالق فعل نفسه ، فلها رأيت الرخشى وسع الدائرة ، وجلب الوجه الفاردة النافرة ، وجعل الوجهين بطابقان معتقده في إثبات خالق غير الله ، ووجهها هو الحق والظاهر ، وآخره في الذكر تناسياً له ، والذي يحقق الوجه الثالث وأنه هو المراد : أن الآية خوطب بها قوم على أنهم مشركون ، إذا سئلوا عن رازقهم من السموات والأرض ، قالوا : الله ، فقررنا بذلك وقرعوا به ، إقامة للحجة عليهم بأقرارهم ، ولو كان على غير هذا الوجه قيد ، لكان مفهومه إثبات خالق غير الله ، لكنه لا يرزق هؤلاء الكفرة قد تبرؤوا عن ذلك ، فلا وجه لتفريغهم بما يلائم قولهم هذا ترجيع الوجه الثالث من حيث مقصود سياق الآية . وأما من حيث النظم اللفظي ، فلأن الجملتين التين هما قوله (يرزقكم) وقوله (لا إله إلا هو) سيقنا سياقاً واحداً . والثانية مفصولة اتفاقاً عما تقدم ، فكذلك (وزيتها) .

يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ⑤ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَحْشَابِ السَّمِيرِ ⑥ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ⑦

وعدا الله الجراء بالثواب والعقاب (فلا تغرَّنكم) فلا تخدعنكم (الدنيا) ولا يذهبنكم تتمتع بها والتلذذ بمنافعها عن العمل للآخرة وطلب ما عند الله (ولا يغرنكم بالله الغرور) لا يقولن لكم اعملوا ما شئتم فإن الله غفور يغفر كل كبيرة ويعفو عن كل خطيئة ⑤ . والغرور الشيطان لأن ذلك ديدنه . وقرى بالضم وهو مصدر غره كاللزوم والنهوك أو جمع غاز كغاذق وقعدوا خبرنا الله عز وجل أن الشيطان لنا عدو مبين ، واقتصص علينا قصته وما فعل بأينا آدم عليه السلام ، وكيف انتدب لعداوة جنسنا من قبل وجوده وبعده ، ونحن على ذلك نتولاه ونطيعه فيما يريد منا بما فيه ملاحنا ، فوعظنا عز وجل بأنه كما علمتم عدوكم الذي لا عدو أعرق في العداوة منه ، وأنتم تعاملونه معاملة من لا علم له بحاله (فاتخذوه عدوا) في عقائدكم وأفعالكم ، ولا يوجدن منكم إلا ما يدل على معاداته ومناصبته في سركم وجهركم . ثم لخص سر أمره وخطأ من اتبعه بأن غرضه الذي يؤمه في دعوة شيعته ومتبعي خطواته : هو أن يوردهم مورد الشقوة والهلاك ، وأن يكونوا من أحشاب السمير . ثم كشف الغطاء وقشر اللحاء ⑥ ، ليقطع الإطاع الفارغة والاماني الكاذبة ، فبنى الأمر كله على الإيمان والعمل وتركهما .

أَفَنَ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ أَرَادَ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ⑧

لما ذكر الفريقين الذين كفروا والذين آمنوا ، قال انبياء (أفن زين له سوء عمله فرآه حسناً) يعني : أفن زين له سوء عمله من هذين الفريقين ، كن لم زين له ، فكأن رسول الله صلى

(١) قال محمود : ومعناه : ولا يقولن لكم الشيطان : اعملوا ما شئتم فإن الله غفور ، يغفر كل كبيرة ويعفو عن كل خطيئة . قال أحد : هو يمرض بأمل السنة في اعتقادهم جواز مغفرة الكبائر للوحد ، وإن لم يكن توبة . وهذا لا يتناقض صدق وعده تعالى : لأن الله تعالى حيث نوءد على الكبائر قرن الوعد بالمدينة في مثل قوله لم (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فهم إذا مصدقون بوعده الله تعالى ، موقوفون به على حسب ما ورد .

(٢) قوله : وقشر اللحاء ، في الصحاح : اللحاء - معدود - : قشر الشجر . (ج)

الله عليه وسلم قال «لا، فقال (فإن الله يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) ومعنى تزيين العمل والإضلال: واحد، وهو أن يكون العاصي على صفة لا تجدى عليه المصالح، حتى يستوجب بذلك خذلان الله تعالى وتخليته وشأنه، فعند ذلك يهيم في الضلال ويطلق أمر النهي، ويعتق طاعة الهوى، حتى يرى التيسير حسناً والحسن قبيحاً، كأنما غلب على عقله وسلب تمييزه، ويقعد تحت قول أبي نواس:

أَسْقَى حَتَّى تَرَانِي حَسَنًا عِنْدِي الْقَبِيحُ (١)

وإذا خذل الله المصممين على الكفر و خلاهم وشأنهم، فإن على الرسول أن لا يهتم بأمرهم ولا يلقى بالا إلى ذكرهم، ولا يحزن ولا يتحسر عليهم: اقتداء بسنة الله تعالى في خذلانهم وتخليتهم. وذكر الزجاج أن المعنى: أفن زين له سوء عمله ذهبت نفسك عليهم حسرة، خذف الجواب لدلالة فلا تذهب نفسك عليه: أو أفن زين له سوء عمله كمن هداه الله، خذف لدلالة (فإن الله يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء) عليه. حسرات: مفعول له يعنى: فلا تهلك نفسك للحسرات. وعليهم صلة تذهب، كما تقول: هلك عليه حبا، ومات عليه حزناً. أو هو بيان للتحسر عليه. ولا يجوز أن يتعلق بحسرات: لأن المصدر لا يتقدم عليه صلته. ويجوز أن يكون حالا، كأن كلها صارت حسرات لفرط التحسر، كما قال جرير:

مَشَقَّ الْهَوَا جُرْ لِحَمَاهُنَّ مَعَ الشَّرَى حَتَّى ذَهَبْنَ كَلَّا كَلًّا وَصُدُورًا (٢)

يريد: رجعن كلاً كلاً وصدوراً، أى: لم يبق إلا كلاً كلاً وصدورها. ومنه قوله:

فَعَلَى إِنْزِهِمْ تَسَاقُطُ نَفْسِي حَسَرَاتٍ وَذِكْرُهُمْ لِي سَقَامٌ (٣)

وقرى: فلا تذهب نفسك (إن الله عليم بما يصنعون) وعيد لهم بالعقاب على سوء صنيعهم.

(١) نَهَبَ نَحْفَهَا فَتَأَى طِيبَ رِيحٍ مَفْرُوحٍ

أَسْقَى حَتَّى تَرَانِي حَسَنًا عِنْدِي الْقَبِيحُ

لأبي نواس. ونحفها، أى: الخمر، مفرّوح: أى راحتها، ثم قال لساق الخمر: أسقى حتى أسكر، فيحسن عندي القبيح، وحسناً: المفعول الثاني، والقبيح مرفوع به، واستحسانه: كناية عن اشتداد السكر.

(٢) لجرير يصف نوقاً بالهرال. يقال: فرس مشوق، أى: طويل مهزول. وجارية مشوقة: رقيقة القوام. والمهاجرة: شدة الحر. والسرى - بالضم -: حير الليل. والكلكل والكلكال: الصدر، وعطف الصدور على الكلكل للتفسير، أى: صرن من شدة الحر والسير كأنهم عظام فقط لا لهم علين.

(٣) لما أصابه الحزن بعد ذهاب الأحباب وتمكن من نفسه، تخيل أنها تتناثر وتزل من جسمه حال كونها حسرات متتابعة، وجعل النفس حسرات لا متراجها بها، فكأنها هي. أو تساقط بهم لأجل الحسرات والأحزان وهو أرجو. وذكرهم: أى تذكرهم سقام لى، وهو بالفتح مصدر كالنعم.

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَنُقْتَلُ إِلَى بَلَدٍ مَوْتٍ فَأُحْيَوْنَ بِهِ

الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾

وقرى : أرسل الريح . فإن قلت : لم جاء (فتثير) على المضارعة دون ما قبله ، وما بعده ؟ قلت : ليحكى الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب ، وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية ، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية ، بحال تستغرب ، أو تهتم المخاطب ، أو غير ذلك ، كما قال تأبط شراً :

بَأْنٍ قَدْ لَقِيتُ الْغُولَ تَهْوِي بِسَهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ تَمَحَصَّاتٍ

فَأُضْرِبُهَا بِبَلَا دَهْشٍ فَخَرْتُ صَرِيحًا لِلْيَدِينِ وَاللِّجْرَانِ ^(١)

لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول ، كأنه يبصرهم إياها ويطلعهم على كنهها ، مشاهدة للتعجب من جرأته على كل هول ، وثباته عند كل شدة . وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت ، وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها : لما كانا من الدلائل على القدرة الباهرة قيل : فسقنا ، وأحيينا ؛ معدولا بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدل عليه . والكاف في ﴿ كذلك ﴾ في محل الرفع ، أى : مثل إحياء الموات نشور الأموات وروى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف يحيي الله الموتى ؟ وما آية ذلك في خلقه ؟ فقال : هل مررت بوادى أهلكت محلأ ثم مررت به يهز ^(٢) خضراً ، قال : نعم . قال : فكذلك يحيي

(١) فن ينكر وجود الغول إلى أخبر عن يقين بل عبات
بأنى لقد لقيت الغول تهوى بسبب كالصحيفة تمحصات
فأضربها بلا دهش ظرت صريحاً لليدين وللجرات

لتأبط شراً . والغول : أى الشياطين . والعيان : المشاهدة بالعين . والهوى : الهبوط . والمراد : سرعة العذر . والسهب : بالفتح - : القضاء المستور بعيد الأطراف . والصحيفة : الكتاب . والمحصات والمحصان - بالفتح - : المستوى من الأرض . والجرات - ككتاب - : مقدم عظم النعق من الخاق إلى اللبة ، وجمعه جرنة ككتيبة ، وأجرنة كأمندة . يقول : فن ينكر وجود الغول فقد كذب ، فأنى أخبر عن يقين . ويجوز أن المعنى : فإني من تنكر وجود الغول ، إلى أخبر إخباراً ناشئاً عن يقين ، وهو ما كان بدليل قاطع بل عيان ومشاهدة بالعين ، بأنى قد لقيتها تسرع في مكان متسع مستو ، وكرر الوصف بذلك تأكيداً ، وأظهر موضع الاختصار لزيادة تمكين الغول في ذهن السامع والتمويل ، وكان الظاهر أن يقول : فضربتها ، لكن عدل إلى المضارع ليحكى الحال الماضية كأنها موجودة الآن مشاهدة فيتمتع منها ، وتعلم شجاعته ، أى : لجعلت أضربها بلا خوف فسقطت مطروحة على يديها وهتقا . وفعل : بوصف به المذكر والمؤنث كما هنا .

(٢) قوله : ثم مررت به يهز خضراً ، في الخازن : يهز ، (ج)

الله الموتى وتلك آيته في خلقه^(١) وقيل يحيي الله الخلق، بما يرسله من تحت العرش كفى الرجال ، تنبت منه أجساد الخلق .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَهُهُ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّمَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ

هُوَ يُّورُ (١٠)

كان الكافرون يتعززون بالاصنام ، كما قال عز وجل (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا) والذين آمنوا بالسنتهم من غير مراعاة قلوبهم : كانوا يتعززون بالمشركين ، كما قال تعالى (الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتنحون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا) فبين أن لا عزة إلا لله ولا وليا له . وقال (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) والمعنى فليطلبها عند الله ، فوضع قوله (فله العزة جميعا) موضعه ، استغناء به عنه لدلالته عليه ؛ لأن الشيء لا يطلب إلا عند صاحبه ومالكه . ونظيره قولك : من أراد النصيحة فهي عند الأبرار ، تريد : فليطلبها عندهم ؛ إلا أنك أقمت ما يدل عليه مقامه . ومعنى (فله العزة جميعا) أن العزة كلها مختصة بالله : عزة الدنيا وعزة الآخرة . ثم عرف أن ما تطلب به العزة هو الإيمان والعمل الصالح بقوله (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) والكلم الطيب : لا إله إلا الله . عن ابن عباس رضي الله عنهما : يعني أن هذه الكلم لا تقبل . ولا تصعد إلى السماء فتكتب حيث تكتب الأعمال المقبولة ، كما قال عز وجل (إن كتاب الأبرار لفي عليين) إلا إذا اقترن بها العمل الصالح الذي يحققها ويصدقها فرفعها وأصعدها . وقيل : الرفع الكلم ، والمرفوع العمل ؛ لأنه لا يقبل عمل إلا من موحد . وقيل : الرفع هو الله تعالى ، والمرفوع العمل . وقيل : الكلم الطيب : كل ذكر من تكبير وتسبيح وتهليل وقراءة قرآن ودعاء واستغفار وغير ذلك . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : هو قول الرجل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر إذا قالها العبد عرج بها الملك إلى السماء لحيا بها وجه الرحمن فإذا لم يكن عمل صالح لم يقبل^(٢) منه ، وفي الحديث ولا يقبل

(١) أخرجه أحمد وإسحاق وابن أبي شيبة والحاكم والبيهقي في البعث كلهم من طريق حماد بن سلمة عن يعلى ابن عطاء بن وكيع بن عدى عن عمه أبي رزبن العقيلي أنه قال : يا رسول الله أكلنا يرى ربه يوم القيامة . وما آية ذلك في خلقه ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أليس كلكم ينظر إلى القمر غنظا ؟ به ؟ قالوا بلى . قال : فأنه أعظم . قال : قلت : يا رسول الله ، كيف يحيي الله الموتى . وما آية ذلك في خلقه ؟ قال : أما مررت بوادي أممك ممحلا ؟ قال : بلى . قال ثم مررت به يهتز خضرا ؟ قال : بلى . قال : فكذا يحيي الله الموتى . وذلك آية في خلقه ، وأوله في سنن أبي داود وابن ماجه دون مقصود الكتاب .

(٢) أخرجه الثعلبي وابن مردويه من رواية علي بن عامر عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعا ، ورواه الحاكم والبيهقي في الأسماء والطبري مرفوعا عن ابن مسعود رضي الله عنه ،

أنه قولاً إلا بعمل ، ولا يقبل قولاً ولا عملاً إلا بنية ، ولا يقبل قولاً وعملاً ونية إلا بإصابة السنة ^(١) ، وعن ابن المقفع : قول بلا عمل كثريد بلا دسم ، وسحاب بلا مطر ، وقوس بلا وتر . وقرئ : (إليه يصعد الكلم الطيب) على البناء للمفعول . و(إليه يصعد الكلم الطيب) على تسمية الفاعل ، من أصدق . والمصعد : هو الرجل أى يصعد إلى الله عز وجل الكلم الطيب ، وإليه يصعد الكلام الطيب . وقرئ : (والعمل الصالح يرفعه) ، بنصب العمل والرافع الكلم أو الله عز وجل . فإن قلت : مكر : فعل غير متعد . لا يقال : مكر فلان عمله فم نصب (السيئات) ؟ قلت : هذه صفة للبصير ، أو لما في حكمه ، كقوله تعالى (ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله) أصله والذين مكروا المكرات السيئات . أو أصناف المكر السيئات ، وعنى بهن مكرات قریش حين اجتمعوا في دار الندوة وتداولوا الرأي في إحدى ثلاث مكرات يمكرونها برسول الله صلى الله عليه وسلم : إما إثباته ، أو قتله ، أو إخراجه كما حكى الله سبحانه عنهم (وإذ يكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك) . (ومكر أولئك هو يبور) . يعنى : ومكر أولئك الذين مكروا تلك المكرات الثلاث هو خاصة يبور ، أى : يكسد ويفسد ، دون مكر الله بهم حين أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم في قلب بدر ، فجمع عليهم مكراتهم جميعاً وحقق فيهم قوله (ويمكروا) ويمكر الله والله خير الماكرين) وقوله . ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله .

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفُثَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعْمِرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ

إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ ١١

(أزواجاً) أصنافاً ، أو ذكراً وإناثاً ، كقوله تعالى (أو بزوجهم ذكراً وإناثاً) وعن قتادة رضى الله عنه : زوج بعضهم بعضاً (بعله) في موضع الحال ، أى : إلا معلومة له . فإن قلت : ما معنى قوله . (وما يعمر من معمر) ؟ قلت : معناه . (وما يعمر من أحد . وإنما سماه معمرأ بما هو صائر إليه . فإن قلت : الإنسان إما معمر ، أى طويل العمر : أو منقوص العمر ، أى قصيره . فأما أن يتعاقب عليه التعمير وخلافه فحال ، فكيف صح قوله (وما يعمر

(١) أخرجه الخطيب في الجامع من رواية بقية بن إسماعيل بن عبد الله عن أبان عن أنس بهذا مرفوعاً . وأبان متروك . وله طريق أخرى عن أبي هريرة مرفوعاً أخرجه ابن عدى وابن حبان ، كلاهما في الضعفاء . عن خالد بن عبد الدائم عن نافع بن يزيد عن زهرة بن معبد عن سعيد بن المسيب عنه ، بلفظ «قرآن في صلاة خير من قرآن في غير صلاة - الحديث . وفيه : ولا قول إلا بعمل إلى آخره . ورواه ابن حبان أيضاً من رواية الزهري عن سعيد بن المسيب عن ابن مسعود . وفيه . أحمد بن الحسن المصري . وهو كذاب .

من معمر ولا ينقص من عمره) ؟ قلت : هذا من الكلام المتساح فيه . ثقة في تأويله بأفهام السامعين ، وانكالا على تسديد معناه بعقولهم ، وأنه لا يلتبس عليهم إحالة الطول والقصر في عمر واحد . وعليه كلام الناس المستفيض . يقولون : لا يثيب الله عبداً ولا يعاقبه إلا بحق . وما تنعمت بلداً ولا اجتويته إلا قل فيه ثواباً .^(١) وفيه تأويل آخر : هو أنه لا يطول عمر إنسان ولا يقصر إلا في كتاب ، وصورته : أن يكتب في اللوح : إن حج فلان أو غزا فعمره أربعون سنة ، وإن حج وغزا فعمره ستون سنة ، فإذا جمع بينهما فبلغ الستين فقد عمر . وإذا أفرد أحدهما فلم يتجاوز به الأربعين ، فقد نقص من عمره الذي هو الغاية وهو الستون . وإليه أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : إن الصدقة والصلة تعمران الديار وتزيدان في الأعمار^(٢) ، وعن كعب أنه قال حين طعن عمر رضي الله عنه : لو أن عمر دعا الله لأخر في أجله^(٣) قليل لكعب : ألبس قد قال الله (إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) قال : فقد قال الله (وما يعمر من معمر) وقد استفاض على الألسنة : أطال الله بقاءك ، وفسح في مدتك وما أشبهه . وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه : يكتب في الصحيفة عمره كذا وكذا سنة ، ثم يكتب في أسفل ذلك : ذهب يوم ، ذهب يومان ، حتى يأتي على آخره . وعن قتادة رضي الله عنه : المعمر من بلغ ستين سنة ، والمقنوص من عمره من يموت قبل ستين سنة ، والكتاب : اللوح . عن ابن عباس رضي الله عنهما : ويجوز أن يراد بكتاب الله : علم الله . أو صحيفة الإنسان . وقرئ : ولا ينقص ، على تسمية الفاعل من عمره بالتخفيف .

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ
وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ

مَوَآخِرَ لَتَبْتَفْتُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾

ضرب البحرين : العذب والمالح مثاين للؤمن والكافر ، ثم قال على سبيل الاستطراد في صفة البحرين وما علق بهما من نعمته وعظائه (ومن كل) أي : ومن كل واحد منهما (تأكلون لحماً طرياً) وهو السمك (وتستخرجون حلياً) وهي اللؤلؤ والمرجان (وترى الفلك فيه)

(١) قوله « ولا اجتويته إلا قل فيه ثواباً » أي : كرهت المقام به ، كذا في الصحاح . (ع)

(٢) أخرجه أحد من طريق القاسم بن عائشة ، لكن قال « وحسن الخلق » بدل « الصدقة » ورواه البيهقي في الشعب من هذا الوجه كذلك ، وزاد « وحسن الجوار » وله طريق أخرى عند الأصهباني عن أبي سعيد بلفظ « ولحم وحسن الخلق وبر الوالدين » وزاد « وإن كان القوم لجاراً »

(٣) أخرجه البيهقي في آخر مسند ابن عباس رضي الله عنهما . أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر بن الزهري عن سعيد .

في كل (مواخر) شواق للباء بجريها ، يقال : غزت السفينة الماء . ويقال للسحاب : بنات مخر ، لأنها تمخر الهواء والسفن الذي اشتقت منه السفينة قريب من المخر ، لأنها تسفن الماء كأنها تقشره كما تمخره (من فضله) من فضل الله ، ولم يجر له ذكر في الآية ، ولكن فيها قبلها ، ولو لم يجر لم يشكل ، لدلالة المعنى عليه . وحرف الرجاء مستعار لمعنى الإرادة ، ألا ترى كيف سلك به مسلك لام التعليل ، كأنما قيل : لتبتغوا ، ولتشكروا . والفرات : الذي يكسر العطش . والسائغ : المرى السهل الانحدار لعذوبته . ورقئ : سيغ ، بوزن سيد : وسيغ بالتخفيف . وملح : على فعل . والأجاج : الذي يحرق بملوخته . ويحتمل غير طريقة الاستطراد : وهو أن يشبه الجنسين بالبحرين ، ثم يفضل البحر الأجاج على الكافر : بأنه قد شارك العذب في منافع من السمك واللؤلؤ : وجرى الفلك فيه والكافر خلو من النفع ، فهو في طريقة قوله تعالى (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة) ثم قال (وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله .

يُورِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُورِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ كُلٌّ لِيَجْزِيَ لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ

مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ١٣

(ذلكم) مبتدأ . و (الله ربكم له الملك) أخبار مترادفة . أو (الله ربكم) خبران . وله الملك : جملة مبتدأة واقعة في قران قوله (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير) ويجوز في حكم الإعراب إيقاع اسم الله صفة لاسم الإشارة . أو عطف بيان . وربكم خبراً . لولا أن المعنى يأباه . والقطمير : لفافة النواة ، وهي القشرة الرقيقة الملتفة عليها .

إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ

يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ١٤

إن تدعوا الأوثان (لا يسمعون دعاءكم) لأنهم جماد (ولو سمعوا) على سبيل الفرض والتشثيل (ما استجابوا لكم) لأنهم لا يدعون ما تدعون لهم من الإلهية ، ويترهون منها . وقيل : ما نفعمكم (يكفرون بشرككم) (١) ولا ينبئك مثل خبير (ولا يخبرك بالأمر مخبر هو

(١) قوله «يكفرون بشرككم» كان تفسيره قد سقط . وفي النسخ : يكفرون بشرككم : باغراككم لم وجادكم إياهم ، ويقولون : ما كنتم إيانا تعبدون ، ولا ينبئك ... الخ . (ع)

مثل خبير عالم به . ويريد : أن الخبير بالامر وحده ، هو الذى يخبرك بالحقيقة دون سائر المخبرين به . والمعنى : أن هذا الذى أخبرتكم به من حال الاوثان هو الحق ، لأنى خبير بما أخبرت به . وقرئ : يدعون ، بالياء والتاء .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝ (١٥) إِنْ بَشَأْ يُذْهِبْكُمْ

وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝ (١٧)

فإن قلت : لم عرف الفقراء ؟ قلت : قصد بذلك أن يريهم أنهم لشدة افتقارهم إليه هم جلس الفقراء ، وإن كانت الخلائق كلهم مفتقرين إليه من الناس وغيرهم ، لأن الفقر مما يتبع الضعف ، وكلما كان الفقير أضعف كان أفقر . وقد شهد الله سبحانه على الإنسان بالضعف فى قوله (وخلق الإنسان ضعيفا) وقال سبحانه وتعالى (الله الذى خلقكم من ضعف) ولو نكر لكان المعنى أنتم بعض الفقراء . فإن قلت : قد قيل الفقراء بالغنى ، فما فائدة الحميد ؟ قلت : لما أثبت فقرهم إليه وغناه عنهم - وليس كل غنى نافعا بغناه إلا إذا كان الغنى تجوذاً منعا ، فإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم واستحق عليهم الحمد - ذكر الحميد ليدل به على أنه الغنى النافع بغناه خلقه ، الجواد المنعم عليهم المستحق بإنعامه عليهم أن يحمده . الحميد على ألسنة مؤمنهم (بعزير) بمنتهى ، وهذا غضب عليهم لا تخاذلهم له أُنْداداً ، وكفرهم بآياته ومعاصيهم ، كما قال (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم) وعن ابن عباس رضى الله عنهما : يخلق بعدكم من يعبد لا يشرك به شيئا .

وَلَا تَزُرْ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهَيْهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يُنْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ

تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ۝ (١٨)

الوزر والوقر : أخوان ؛ ووزر الشيء إذا حملة . والوازة : صفة للنفس ، والمعنى : أن كل نفس يوم القيامة لا تحمل إلا وزرها الذى أقرفته : لا تؤخذ نفس بذنب نفس ، كما تأخذ جسارة الدنيا : الولى بالولى ، والجار بالجار . فإن قلت : هلا قيل : ولا تزر نفس وزر أخرى ؟ ولم قيل وازة ؟ قلت : لأن المعنى أن النفوس الوازرات لا ترى منهن واحدة إلا حاملة وزرها ، لا وزر غيرها . فإن قلت : كيف توفق بين هذا وبين قوله (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) ؟ قلت : تلك الآية فى الضالين المضلين ، وأنهم يحملون أثقال إضلال الناس مع أثقال ضلالهم ، وذلك كله أوزارهم ما فيها شيء من وزر غيرهم . ألا ترى كيف كذبهم الله تعالى فى

قرلهم (اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم) بقوله تعالى (وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء).
 فإن قلت : ما الفرق بين معنى قوله (ولا تزر وازرة وزر أخرى) وبين معنى (وإن تدع
 مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء) ؟ قلت : الأول في الدلالة على عدل الله تعالى في حكمه ، وأنه
 تعالى لا يؤاخذ نفساً بغير ذنبها ، والثاني في أن لا غيات يومئذ لمن استغاث ، حتى أن
 نفساً قد أنقلها الأوزار وبهظتها ، لو دعت إلى أن يخفف بعض وقرها لم تجب ولم تغث ، وإن
 كان المدعو بعض قرايتها من أب أو ولد أو أخ . فإن قلت : لإلام أسند كان في (ولو كان ذا قرى) ؟
 قلت : إلى المدعو المفهوم من قوله (وإن تدع مثقلة) . فإن قلت : فلم ترك ذكر المدعو ؟ قلت :
 ليعم ، ويشمل كل مدعو . فإن قلت : كيف استقام إضمار العام ؟ ولا يصح أن يكون العام ذا
 قرى للمثقلة ؟ قلت : هو من العموم الكائن على طريق البدل . فإن قلت : ما تقول فيمن قرأ
 (ولو كان ذو قرى) على كان التامة ، كقوله تعالى (وإن كان ذو عسرة) ؟ قلت : نظم الكلام
 أحسن ملاءمة للناقصة ؛ لأن المعنى على أن المثقلة إن دعت أحداً إلى حملها لا يحمل منه شيء ،
 وإن كان مدعوها ذا قرى ، وهو معنى صحيح ملتزم ، ولو قلت : ولو وجد ذو قرى ، لنفسك
 وخرج من اتساقه والتامة ^(١) ، على أن ههنا ماساغ أن يستتر له ضمير في الفعل بخلاف ما أورده
 (بالغيب) حال من الفاعل أو المفعول ، أى : يخشون ربهم غائبين عن عذابه أو يخشون عذابه
 غائباً عنهم . وقيل : بالغيب في السر ، وهذه صفة الذين كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
 من أصحابه ، فكانت عاداتهم المستمرة أن يخشوا الله ، وهم الذين أقاموا الصلاة وتركوا مناراً
 منصوباً وعلماً مرفوعاً ، يعنى : إنما تقدر على إنذار هؤلاء وتحذيرهم من قومك ، وعلى تحصيل
 منفعة الإنذار فيهم دون متوذيهم وأهل عنادهم (ومن تركي) ومن تطهر بفعل الطاعات وترك
 المعاصي . وقرئ : ومن ازكى فإنما يزكى ، وهو اعتراض مؤكد لحشيتهم وإقامتهم الصلاة ،
 لأنهما من جملة التزكى (وإلى الله المصير) وعد للتركين بالثواب . فإن قلت : كيف اتصل قوله
 (إنما تنذر) بما قبله ؟ قلت : لما غضب عليهم في قوله (إن يشأ يذهبكم) أتبعه الإنذار بيوم
 القيامة وذكر أهوالها ، ثم قال (إنما تنذر) كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسمعهم ذلك ،
 فلم ينفع ، فنزل (إنما تنذر) أو أخبره الله تعالى بعله فيهم .

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۖ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۖ (٢٠) وَلَا الظُّلُ
 وَلَا الْحَرُورُ ۖ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ
 وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ۚ (٢٢) إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۚ (٢٣)

(الاعمى والبصير) مثل للكافر والمؤمن ، كما ضرب البحرين مثلاً لها أو للصنم والله عز وجل ، والظلمات والنور والظن والحور : مثلاً للحق والباطل ، وما يؤذيان إليه من الثواب والعقاب . والاحياء والاموات : مثل للذين دخلوا في الإسلام والذين لم يدخلوا فيه ، وأصروا على الكفر والحور : السوم ؛ إلا أن السوم يكون بالنهار والحور بالليل والنهار . وقيل : بالليل خاصة . فإن قلت : لا المقرونة بواو العطف ما هي ؟ قلت : إذا وقعت الواو في النفي قرنت بها لتأكيد معنى النفي . فإن قلت : هل من فرق بين هذه الواوات ؟ قلت : بعضها ضمت شفعاً إلى شفع ، وبعضها وترأ إلى وتر (إن الله يسمع من يشاء) يعنى أنه قد علم من يدخل في الإسلام من لا يدخل فيه ، فيهدى الذى قد علم أن الهداية تنفع فيه ، ويخذل من علم أنها لا تنفع فيه . وأما أنت غفى عليك أمرهم ، فلذلك تحرص وتنهالك على إسلام قوم من المخدولين . ومثلك في ذلك مثل من لا يريد أن يسمع المقبورين وينذر ، وذلك ما لاسيلى إليه ، ثم قال (إن أنت إلا نذير) أى ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر ، فإن كان المنذر عن يسمع الإنذار نفع ، وإن كان من المصرين فلا عليك . ويحتمل أن الله يسمع من يشاء وأنه قادر على أن يهدى المطبوع على قلوبهم على وجه القسر والإلجاء ، وغيرهم على وجه الهداية والتوفيق ، وأما أنت فلا حيلة لك فى المطبوع على قلوبهم الذين هم بمنزلة الموتى .

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾

(بالحق) حال من أحد الضميرين ، يعنى : محققاً أو محققين ، أو صفة للبصير ، أى : إرسالاً مصحوباً بالحق . أو صلة لبشير ونذير على : بشيراً بالوعد الحق ، ونذيراً بالوعيد الحق . والامة الجماعة الكثيرة . قال الله تعالى : وجد عليه أمة من الناس ، ويقال لأهل كل عصر : أمة ، وفى حدود المتكلمين : الامة هم المصدقون بالرسول صلى الله عليه وسلم دون المبعوث إليهم ، وهم الذين يعتبر إجماعهم ، والمراد ههنا : أهل العصر . فإن قلت : كم من أمة فى الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ولم يحل فيها نذير ؟ قلت : إذا كانت آثار النذارة باقية لم تحل من نذير إلى أن تدرس ، وحين اندرست آثار نذارة عيسى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم . فإن قلت : كيف اكتفى بذكر النذير عن البشير فى آخر الآية بعد ذكرهما ؟ قلت : لما كانت النذارة مشفوعة بالبشارة لا محالة ، دل ذكرها على ذكرها ، لا سيما قد اشتملت الآية على ذكرهما

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ
وَبِالْزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ

(بالبينات) بالشواهد على صحة النبوة وهى المعجزات (وبالزبر) وبالصحف (وبالكتاب المنير) نحو التوراة والإنجيل والزبور. لما كانت هذه الأشياء فى جنسهم أسند المحمى بها إليهم إسناداً مطلقاً، وإن كان بعضها فى جميعهم: وهى البينات، وبعضها فى بعضهم: وهى الزبر والكتاب. وفيه مسلاة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَايِبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

(ألوانها) أجناسها من الزمان والتفاح والتين والعنب وغيرها مما لا يحصر أو هيئاتها من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها. والجدد: الخطط والطرائق. قال لبيد:

* أَوْ مَذْهَبٌ جُدَدٌ عَلَى أَلْوَانِهِ *

ويقال: جمدة الحمار للخطاة السوداء على ظهره، وقد يكون للظبي جدتان مسكيتان تفصلان بين لونى ظهره وبطنه (وغرايب) معطوف على بيض أو على جدد، كأنه قيل: ومن الجبال مخطط ذو جدد، ومنها ما هو على لون واحد غرايب^(١). وعن عكرمة رضى الله عنه: هى الجبال الطوال السود. فإن قلت: الغريب تأكيد للأسود. يقال: أسود غريب، وأسود حلكوك: وهو الذى أبعد فى السواد وأغرب فيه. ومنه الغراب. ومن حق التأكيد أن يتبع المؤكد كقولك: أصفر فاقع، وأبيض يقق^(٢) وما أشبه ذلك. قلت: وجهه أن يضم المؤكد قبله ويكون الذى بعده تفسيراً لما أضمر، كقول النابغة:

* وَالْمُؤْمِنُ الْعَائِدَاتِ الطَّيْرِ^(٤) ... *

(١) قوله «ما هو على لون واحد غرايب» لعله: غريب. (ع)

(٢) قوله «وأبيض يقق» بفتح القاف الأولى، وحكى كسرهما. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) فلا لعمر الذى طيفت بكعبته وما هريق على الأنصاب من جدد

والمؤمن العائدات الطير برقبها ركبان مكة بين القيل والسند

ما إن أتيت بشئ أنت نكرمه إذا فلا رفعت سوطى إلى يدى

للناطقة. يمتدح للعنان بن المنذر، ولازائدة قبل القسم، لأنه فى الغالب لئن دعوى الخصم. والعمر: الحياة، وهو مبتدأ حذف خبره وجوبا، وطاف به يطيف طيفا. أتى عليه ونزل به، وطاف به يطوف طوافا وطوفانا، =

وإنما يفعل ذلك لزيادة التوكيد ، حيث يدل على المعنى الواحد من طريق الإظهار والإضمار جميعاً ، ولا بد من تقدير حذف المضاف في قوله تعالى (ومن الجبال جدد) بمعنى : ومن الجبال ذو جدد بيض وحمر وسود ، حتى يؤول إلى قولك : ومن الجبال مختلف ألوانه كما قال : ثمرات مختلفاً ألوانها ﴿ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه﴾ منى : ومنهم بعض مختلف ألوانه . وقرئ : ألوانها . وقرأ الزهرى جدد ، بالضم : جمع جديدة ، وهى الجدة . يقال : جديدة وجدد وجدائد ، كسفينة وسفن . وقد فسر بها قول أبى ذؤيب يصف حمار وحش .

• جُونُ السَّرَاةِ لَهُ جَدَائِدُ أَرْبَعُ • (١)

وروى عنه : جدد ، بفتحين ، وهو الطريق الواضح للمسفر وضعه موضع الطرائق والخطوط الواضحة المنفصل بعضها من بعض . وقرئ . والدواب مخففاً ونظير هذا التخفيف قراءة من قرأ (ولا الضالين) لأن كل واحد منهما فرار من التقاء الساكنين ، فحرك ذاك أولهما ، وحذف هذا آخرهما . وقوله ﴿كذلك﴾ أى كاختلاف الثمرات والجبال . المراد : العلماء به الذين علموه بصفاته وعدله وتوحيده ، وما يجوز عليه وما لا يجوز ، فعظموه وقدروه حق قدره ، وخشوه حق خشيته ، ومن ازداد به علماً ازداد منه خوفاً ، ومن كان عليه به أقل كان آمناً . وفى الحديث :

== إذا دار حوله . ومنه : طيفت ، وهو معنى للجھول ، ونائب الفاعل : الجار والمجرور ، ولما كان مؤثلاً لثبات الفعل شدوداً ، والفصيح تركها في مثله : والفيل والسند : أجنان بجانب منى . وقيل : موضعاً ما . بجانب الحرم ، وهو قريب مما قبله . أى : حياة الذى طاف الحجج بكعبته قسمي ، وماهريق ، والمؤمن : بالرفع عطف على المبتدأ والمائدات منصوب بالمؤمن ، والطير : عطف بيان للمائدات ، ويجوز جعله بدلاً منه ، وكذا كل موصوف تبع صفته ، وهريق : أصله أريق . والجسد : البدن ، وجسد به الدم : إذا لصق به ، فهو جاسد وجسد . فملى الأول «أريق» بمعنى ذبح ، وعلى الثانى على ظاهره ، لكنه كناية عن الذبح ، أى وما ذبح على الحجارة المنصوبة حول الكعبة من الهدى ، والذى آمن الطير المائدات الثلاث بالحرم ، حال سكوتها بنظرها الحاجاج في منى ولا يؤذونها لأحرامهم . وروى : يمسحها وهو أبلغ في الأمن ، وما أتيت جواب القسم ، وإن زائدة . ويجوز أنها نافية مؤكدة ثم دعا على نفسه فقال : إذا كان ذلك منى فلا رفعت سوطى إلى يدى : بيان يدى ، كناية عن أنه يضعف غاية الضعف ، وروى «سوطاً» بدل «سوطى» أى يضعف حتى لا يقدر على رفعه .

(١) والذهر لا يبق على حدائنه جون السراة له جدائد أربع

لأبى ذؤيب في مرية بنيه . والجون : الأسود ويطلق على الأبيض ، فهو من الأضداد . وسراة الظهر : أعلاه . وسراة كل شيء : أعلاه . وجديدة وجدد وجدائد ، كسفينة وسفن وسفائن . والجدائد : الآن التي جف لبنها . والمرأة الجداء : التي لا ترضع لها : يسلى عن بنيه بأن لك عادة الدهر ، فهو لا يبق مع مائة من الحدائن أحداً ، حتى أسود الظهر كناية عن حمار الوحش له أن أربع برعى معهن في البرارى ويؤزو عليهن . وقيل : إنه يعيش مائتي سنة فربما يتوهم أنه لا يصيبه الدهر بشيء . ويجوز قراءة «دبيق» بالفتح . وجون بالرفع فاعل . وله جدائد : جملة حالية أى : لا بد أن تهلك أنه واحدة بعد واحدة ، أو يهلك هو .

وأعلمكم بالله أشدكم له خشية،^(١) وعن مسروق: كفى بالمرء علماً أن يخشى، وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعلمه. وقال رجل للشعبي: أفتنى أيها العالم، فقال: العالم من خشي الله. وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقد ظهرت عليه الخشية حتى عرفت فيه. فإن قلت: هل يختلف المعنى إذا قدم المفعول في هذا الكلام أو آخر؟ قلت: لا بد من ذلك، فإنك إذا قدمت اسم الله وأخرت العلماء كان المعنى: إن الذين يخشون الله من بين عباده هم العلماء دون غيرهم، وإذا عملت على العكس انقلب المعنى إلى أنهم لا يخشون إلا الله، كقوله تعالى (ولا يخشون أحداً إلا الله) وهما معنيان مختلفان. فإن قلت: ما وجه اتصال هذا الكلام بما قبله؟ قلت: لما قال (ألم تر) بمعنى ألم تعلم أن الله أنزل من السماء ماء، وعدد آيات الله وأعلام قدرته وآثار صنعته وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس وما يستدل به عليه وعلى صفاته، أتبع ذلك (إنما يخشى الله من عباده العلماء) كأنه قال: إنما يخشاه مثلك ومن على صفتك: ممن عرفه حق معرفته وعلمه كنهه عليه. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: أنا أرجو أن أكون أتقاكم لله وأعلمكم^(٢) به. فإن قلت: فما وجه قراءة من قرأ (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وهو عمر بن عبد العزيز ويحكى عن أبي حنيفة؟ قلت: الخشية في هذه القراءة استعارة، والمعنى: إنما يجلهم ويعظمهم، كما يجل المهيب الخشى من الرجال بين الناس من بين جميع عباده (إن الله عزيز غفور) لتعليل لوجوب الخشية، لدلالته على عقوبة العصاة وقهرهم وإثابة أهل الطاعة والعفو عنهم، والمعاقب المنيب: حقه أن يخشى.

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ۚ ﴿٢٩﴾ لِيُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ۚ ﴿٣٠﴾

(يتلون كتاب الله) يداومون على تلاوته وهي شأنهم ودينتهم. وعن مطرف رحمه الله: هي آية القراء. وعن الكلبي رحمه الله: يأخذون بما فيه. وقيل: يعلمون ما فيه ويعملون به. وعن السدي رحمه الله: هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم. وعن عطاء: هم المؤمنون (يرجون) خبر إن، والتجارة: طلب الثواب بالطاعة. و (ليؤفهم) متعلق بـلن تبور، أي: تجارة ينقضي عنها الكساد وتنفق^(٣) عند الله ليؤفهم بنفاقها عنده (أجورهم)

(١) لم أجده هكذا. وفي الصحيح: وأنا أعلمكم بالله وأندكم له خشية.

(٢) أخرجه عبد الرزاق عن ابن جريج عن زيد بن أسلم. ومالك في الموطأ والشافعي عنه عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار به مرسلًا في أثناء حديث أوله «أن رجلاً قبل أمراته وهو صائم»

(٣) قوله «وتنفق عند الله» أي تروج. أفاده الصالح. (ع)

وهي ما استحقوه من الثواب ﴿ويزيدهم﴾ من التفضل على المستحق ، وإن شئت جعلت (رجون) في موضع الحال على : وأنفقوا راجين ليوفهم ، أى فعلوا جميع ذلك من التلاوة وإقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله لهذا الغرض ، وخبر إن قوله ﴿إنه غفور شكور﴾ على معنى : غفور لهم شكور لأعمالهم . والشكر مجاز عن الإثابة .

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ

بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾

﴿الكتاب﴾ القرآن . ومن للتبيين أو الجنس . ومن للتبويض ﴿مصدق﴾ حال مؤكدة ؛ لأن الحق لا ينفك عن هذا التصديق ﴿لما بين يديه﴾ لما تقدمه من الكتب ﴿لخبير بصير﴾ يعنى أنه خبرك وأبصر أحوالك ، فأراك أهلاً لأن يوحى إليك مثل هذا الكتاب المعجز الذى هو عيار على سائر الكتب .

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإذنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا

يَمَسُّنَا فِيهَا أَغُوبٌ ﴿٣٥﴾

فإن قلت : ما معنى قوله ﴿ثم أورثنا الكتاب﴾ ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : إنا أوحينا إليك القرآن ثم أورثنا من بعدك أى حكما بتوريثه . أو قال : أورثناه وهو يريد نورته ، لما عليه أخبار الله ﴿الذين اصطفينا من عبادنا﴾ وهم أئمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم إلى يوم القيامة ؛ لأن الله اصطفاهم على سائر الأمم ، وجعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس ، واختصهم بكرامة الاتناء إلى أفضل رسل الله ، وحل الكتاب الذى هو أفضل كتب الله ، ثم قسمهم إلى ظالم لنفسه مجرم وهو المرجأ لأمر الله ، ومقتصد : هو الذى خلط عملا صالحا وآخر سيئا ، وسابق من السابقين . والوجه الثانى : أنه قدم إرساله فى كل أمة رسولا وأنهم كذبوا برسلمهم وقد جاؤهم بالبينات والزبر والكتاب المنير ، ثم قال : إن الذين يتلون

كتاب الله ، فأثنى على التالين لكتبه العاملين بشرائعه من بين المكذبين بها من سائر الأمم واعترض بقوله (والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق) ثم قال (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) أى من بعد أولئك المذكورين ، يريد بالمصطفين من عباده : أهل الملة الخفيفة ، فإن قلت : فكيف جعلت ﴿جنات عدن﴾ بدلا من الفضل الكبير^(١) الذى هو السبق بالخيرات المشار إليه بذلك ؟ قلت : لما كان السبب فى نيل الثواب ، نزل منزلة المسبب ، كأنه هو الثواب ، فأبدلت عنه جنات عدن ، وفى اختصاص السابقين بعد التقسيم بذكر ثوابهم والسكوت عن الآخرين ما فيه من وجوب الحذر ، فليحذر المقتصد ، وليملك الظالم لنفسه حذراً وعليهما بالتوبة النصوح المخصصة من عذاب الله ، ولا يفترا بما رواه عمر رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له»^(٢) ، فإن شرط ذلك صحة التوبة^(٣) لقوله تعالى (عسى الله أن يتوب عليهم) وقوله (إما يعذبهم وإما يتوب عليهم) ولقد نطق القرآن بذلك فى مواضع من استقرأها اطلع على حقيقة الامر ولم يعلل نفسه بالخدع . وقرئ سباق . ومعنى (ياذن الله) بتيسيره وتوفيقه . فإن قلت : لم قدم الظالم ؟ ثم المقتصد ثم السابق ؟ قلت : للإيدان بكثرة الفاسقين وغلبتهم ، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم والسابقون أقل من القليل . وقرئ : «جنه عدن على الأفراد ، كأها جنة مختصة بالسابقين . وجنات عدن :

(١) قال محمود : «يعنى بالمصطفين أنه محمد عليه الصلاة والسلام ، ثم قسمهم الآية إلى ظالم لنفسه : هو المرجأ لأمر الله ، وإلى مقتصد : وهو الذى خطط عملا صالحاً وآخر سيئاً ، وإلى سابق : ثم قال لو عثرى : فان قلت : كيف جعل الجنات بدلا من الفضل الكبير . وذلك فى تنمة الآية فى قوله (ومنهم سابق بالخيرات ياذن الله ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها) قلت : لأن الإشارة بالفضل إلى السبق بالخيرات وهو السبب فى الجنات ونيل الثواب ، فأقام السبب مقام المسبب ، وفى اختصاص السابقين بذكر الجراء دون الآخرين ما يوجب الحذر فليحذر المقتصد ، وليملك الظالم لنفسه حذراً . وعليهما بالتوبة النصوح ، ولا يفترا بما رواه عمر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له» فان شرط ذلك صحة التوبة فلا يعلل نفسه بالخدع . قال أحد : وقد صدرت هذه الآية بذكر المصطفين من عباده الله ، ثم قسمهم إلى الظالم والمقتصد والسابق ليلزم اندراج الظالم لنفسه من الموحدين فى المصطفين ، وإنه لهم ، وأى نعمة أتم وأعظم من اصطفاؤه للتوحيد والمقائد السالمة من البدع ، فما بال المصنف يطب فى التنوية بين الموحدين المصطفى والكافر المجترى . وقوله (جنات عدن يدخلونها) الضمير فيه راجع إلى المصطفين عموما ، والجنات جزاؤهم على توحيدهم جميعاً ، وإعراهم : جنات مبتدأ ، ويدخلونها الخبر ، وقوله (يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير) ... إلى آخر الآية : خبر بعد خبر . وخبر على خبر ، والله المستعان .

(٢) أخرجه البيهقى فى الشعب من رواية ميمون بن سياه عن عمر رضى الله عنه مرفوعا . وهذا منقطع وأخرجه الثعلبى وابن مردويه من وجه آخر عن ميمون بن سياه عن أبى عثمان الهذلى عن عمر . فيه الفضل بن حميرة : وهو ضعيف . ورواه سعيد بن منصور عن فرج بن فضالة عن أزهر بن عبد الله الجرازى عن سمع عمر فذكره موقوفاً (٣) قوله «فان شرط ذلك صحة التوبة» هذا عند المعثرة . أما أهل السنة فيجوزون الغفران بمجرد الفضل . (ع)

بالنصب على إصهار فعل يفسره الظاهر، أى يدخلون جنات عدن يدخلونها، ويدخلونها، على البناء للمفعول. ويحلون: من حليت: المرأة، فهي حال (ولوؤاؤا) معطوف على محل من أساور، ومن داخلة للتبويض، أى: يحلون بعض أساور من ذهب، كأنه بعض سابق لسائر الألباس، كما سبق المستورون به غيرهم: وقيل: إن ذلك الذهب في صفاء اللؤلؤ. وقرئ: ولوؤاؤا بتخفيف الهمزة الأولى، وقرئ: الحزن، والمراد: حزن المتقين، وهو ما أهمهم من خوف سوء العاقبة، كقوله تعالى (إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين) فن الله علينا ووقانا عذاب السموم. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: حزن الاعراض والآفات. وعنه: حزن الموت. وعن الضحاك: حزن إبليس ووسوسته. وقيل: هم المعاش. وقيل: حزن زوال النعم، وقد أكثروا حتى قال بعضهم: كراء الدار، ومعناه: أنه يعم كل حزن من أحزان الدين والدنيا حتى هذا. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في عشرهم ولا في مسيرهم؛ وكأنى بأهل لا إله إلا الله يخرجون من قبورهم وهم ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن^(١)، وذكر الشكور: دليل على أن القوم كثير الحسنة، المقامة: بمعنى الإقامة، يقال: أقمت إقامة ومقاما ومقامة (من فضله) من عطائه وإفضاله، من قولهم: لفلان فضول على قومه وفواضل، وليس من الفضل الذى هو التفضل؛ لأن الثواب بمنزلة الأجر المستحق، والتفضل كالترفع. وقرئ: لغوب، بالفتح: وهو اسم ما يلغب منه، أى: لا تتكلف عملا يلغينا: أو مصدر كالقبول والولوج، أو صفة للصدر، كأنه^(٢) لغوب لغوب، كقولك: موت مائت، فإن قلت: ما الفرق بين النصب واللغوب؟ قلت: النصب التعب والمشقة التى تصيب المنتصب للأمر المازول له. وأما اللغوب فما يلحقه من الفتور بسبب النصب، فالنصب: نفس المشقة والكلفة. واللغوب: نتيجة وما يحدث منه من الكلال والفترة

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَؤُتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ هَٰذَا يَوْمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا

(١) أخرجه أبو يعلى وابن أبي حاتم والبيهقى في أول الشعب والطبراني في الأوسط من حديث ابن عمر. وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف وله طريق أخرى عند الطبراني والنسائي في الكنى عن ابن عمر. وأخرى عند البيهقى في الشعب. وفي الباب عن ابن عباس أخرجه تمام في فوائده والخطيب في ترجمة محمد بن سعيد الطائفي وعن أنس عند ابن مردويه

(٢) «كأنه» لله: كأنه قال. (ع)

فَعَمَلٌ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ
وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ نَصِيرٌ (٣٧)

(فيموتوا) جواب النبي، ونصبه بإضمار أن: وقرئ: فيموتون، عطفاً على يقضى، وإدخالاً له في حكم النبي، أي: لا يقضى عليهم الموت فلا يموتون، كقوله تعالى (ولا يؤذن لهم فيعتدرون). (كذلك) مثل ذلك الجزاء (يجزى) وقرئ: يجازى. ونجى (كل كفور) بالنون^(١) (يصطرخون) يتصارخون: يفتعلون من الصراخ وهو الصياح بجهد وشدة. قال

• كَصَرَحَةٍ حُبْلَى أَسْلَمَتْهَا قَبِيلَهَا • (٢)

واستعمل في الاستغاثة للجهد المستغيث صوته. فإن قلت: هلا اكتفى بصالحاً كما اكتفى به في قوله تعالى (فارجعنا لعمل صالحاً) وما فائدة زيادة (غير الذي كنا نعمل) على أنه يؤذن أنهم يعملون صالحاً آخر غير الصالح الذي عملوه؟ قلت: فائدته زيادة التحسر على ما عملوه من غير الصالح مع الاعتراف به. وأما الوهم فزائل لظهور حالهم في الكفر وركوب المعاصي، ولأنهم^(٣) كانوا يحسبون أنهم على سيرة صالحة، كما قال الله تعالى (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) فقالوا. أخرجنا لعمل صالحاً غير الذي كنا نحسبه صالحاً فنعمله (أو لم نعمركم) توبيخ من الله يعني: فنقول لهم. وقرئ: ما يذكر فيه، من أذكر على الإدغام وهو متناول لكل عمر تمكن فيه المكاف من إصلاح شأنه وإن قصر؛ إلا أن التوبيخ في المتناول أعظم. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة»^(٤). وعن

(١) قوله «ونجى كل كفور بالنون» ونصب كل في هذه القراءة ورفعها فيما قبلها. (ع)

(٢) قصدت إلى عنس لأحدج رحلها وقد حان من تلك الديار رحلها

فأنت كما أنت الأسير وصرخت كصرخة حبلى أسلمتها قبيلها

للأعشى. وعنست المرأة عنساً: إذا لم تخرج من بيتها للزواج مع بلوغها من السن. والعنس: النافة الصلبة العسبة وحج من باب ضرب: إذا شد الرجل على النافة. والمندوج: الرجال والمندوج، وهو بتأخير الجيم. وأما المندج - بتأخير المهملة - فهو اللث والخوض والمزج، أي: عادت إلى نافة صلبة لأشد رحلتها عليها، والحال أنه جامد حين رحلتها من تلك الديار. والآنين: الصورت المنخفضة للتحزن، أي: أنت كآنين الأسير في الأول، وصرخت برفع صوتها ثانياً كصرخة حبلى عند الطلق أسلمتها وتركتها قبيلها التي تخدمها عند الولادة. والقبيل والقبول والقبلة: التي تقوم بمصلحة المرأة عند الولادة وتلتقي الولد عند خروجه.

(٣) قوله «ولأنهم كانوا يحسبون» لعله: أولأنهم كانوا. (ع)

(٤) أخرجه البزار من رواية سعيد المقبري عن أبي هريرة مرفوعاً بهذا. وأصله في البخاري، بلفظ «ومن عمره الله ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر» وهم الحاكم فاستدركه. ورواه ابن مردويه به من حديث سهل بن سعد

مجاهد : ما بين العشرين إلى الستين . وقيل : ثمانى عشر وسبع عشر . و (الأنذار) الرسول صلى الله عليه وسلم . وقيل : الشيب . وقرئ : وجاءكم النذر . فإن قلت : علام عطف وجاءكم النذر ؟ قلت : على معنى : أو لم نعمركم ؛ لأن لفظه لفظ استخبار . ومعناه معنى إخبار ، كأنه قيل : قد عمرناكم وجاءكم النذر .

إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾
(إنه عليم بذات الصدور) كالتعليل ، لأنه إذا علم ما فى الصدور وهو أخفى ما يكون ، فقد علم كل غيب فى العالم وذات الصدور : مضمراتها ، وهى تأنيث ذو فى نحو قول أبى بكر رضى الله عنه : ذو بطن غارجة جارية ^(١) وقوله :

• لَتُنْفِي عَنِّي ذَا إِنَائِكَ أَجْمَعًا • ^(٢)

المعنى ما فى بطنها من الحبل ، وما فى إنائك من الشراب ؛ لأن الحبل والشراب يصحبان البطن والإناء . ألا ترى إلى قولهم : معها حبل ، وكذلك المضمرات تصحب الصدور وهى معها . وذو : موضوع لمعنى الصبغة .

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا بُعْثًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾

(١) أخرجه فى الموطأ عن ابن شهاب عن عروة بن عاتقة «أن أبابكر كان يملأ جدار حشرين وسقا - الحديث» وفيه «إنما هى أسماء فى الأخرى ؟ قال : ذو بطن بنت غارجة أراها جارية ، فولدت جارية» وقد تقدم طرف منه فى الإسراء .

(٢) وتاويله من رسل كوما جلد . وأغضب عنه الطرف حتى تضلعا
إذا قال قدنى قلت بالله حلقة لتنفى عني ذَا إِنَائِكَ أَجْمَعًا

لخرت بن عتاب العائى . والرسل - بالكسر - : اللبن القليل . والكوما : السمينة . والجلدة : الصلبة . والاضضاء : المنض والاضضاء . والنضاع : امتلاء البطن حتى يرتفع الجنبان والضلوع . وغض طرفه عن الضيف كى لا يستحى إذا قال الضيف : قدنى ، أى حسبي من الشراب قلت : بالله . وروى : قال بالله ، فكأنه عبر عن نفسه بطريق التنية . وروى : إذا قلت قدنى قال ، هل أن الشاعر الضيف وليس بذلك . وحلقة : نصب بمعنى القسم قبله ، أى : أحلف بالله حلقة ، ولتنفى : جواب القسم وفتح آخره لاتصاله تقديراً بنون التوكيد الحقيقية ، أى : لتنفى عني . وروى ثعلب لتفن بنون التوكيد الثقيلة ، أى : لتبعدن عني ، وكانت حقه على اللغة المشهورة لتفنن ، لكن حذف باؤه بعد الكسرة على لغة فزارة . وروى لتنفى بكسر اللام للتعليل ، أى : اشرب لتنفى عني صاحب إنائك وهو اللبن ، وأضافه للإناء لأنه فيه ، وأضاف الإناء لعنبر الضيف لأنه فى يده ، وتبرأ من نسبته إلى نفسه دلالة على السكرم ، وأجمع : يوكيئطن ، أى لا ترد إلى ما فى الإناء ، بل أشربه كله .

يقال للمستخلف : خليفة وخليف ؛ فالخليفة تجمع خلائف ، والخليف : خلفاء ، والمعنى : أنه جعلكم خلفاءه في أرضه قد ملككم مقابلد التصرف فيها وسلطكم على ما فيها ، وأباح لكم منافعتها لتشكروه بالتوحيد والطاعة ﴿ فمن كفر ﴾ منكم وغمط مثل هذه النعمة ^(١) السنية ، فوبال كفره راجع عليه . وهو مقت الله الذي ليس وراءه خزي وصغار وخسار الآخرة الذي مابق بعده خسار ، والمقت : أشد البغض . ومنه قيل لم ينكح امرأة أبيه : مقتى ، لكونه بمقتاً في كل قلب ، وهو خطاب للناس . وقيل : خطاب لمن بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلكم أمة خلفت من قبلها ، ورات وشاهدت فيمن سلف ما ينبغي أن تعتبر به ، فمن كفر منكم فعليه جزاء كفره من مقت الله وخسار الآخرة ، كما أن ذلك حكم من قبلكم .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أُرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فُهِمَ عَلَىٰ بَيِّنَاتٍ مِنْهُ يُلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ^(٤٠)

﴿ أروني ﴾ بدل من أرايتم : لأن المعنى : أرايتم أخبروني ، كأنه قال : أخبروني عن هؤلاء الشركاء . وعما استحقوا به الإلهية والشركة أروني أي جزء من أجزاء الأرض استبدوا بخلقهم دون الله أم لهم مع الله شركة في خلق السموات ، أم معهم كتاب من عند الله ينطق بأنهم شركاؤه فهم على حجة وبرهان من ذلك الكتاب . أو يكون الضمير في ﴿ آتيناهم ﴾ للشركين ، كقوله تعالى ﴿ أم أنزلنا عليهم سلطاناً ﴾ أم آتيناهم كتاباً من قبله ، بل إن يعد بعضهم وهم الرؤساء ﴿ بعضاً ﴾ وهم الاتباع ﴿ إلا غروراً ﴾ وهو قولهم ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ وقرئ : بينات . إِنْ اللَّهُ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أُمْسِكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ

بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ^(٤١)

﴿ أن تزولا ﴾ كراهة أن تزولا . أو يمنعهما من أن تزولا : لأن الإمساك منع ﴿ إنه كان حلماً غفوراً ﴾ غير معاجل بالعقوبة ، حيث يمسكهما ، وكأنا جديرتين بأن تهذا هدأ ، لعظم كلفة الشرك كما قال ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض ﴾ . وقرئ : ولولنا ، وإن أمسكهما : جواب القسم في ﴿ وإن زالتا ﴾ سد مسد الجوابين ، ومن الأولى مزيدة لتأكيد النفي ، والثانية للابتداء . من بعده : من بعد إمساكه . وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال لرجل مقبل من

(١) قوله ووظم مثل هذه النعمة ، أي : واحقر . (ع)

الشام : من لقيت به ؟ قال : كعبا . قال : وما سمعته يقول ؟ قال سمعته يقول : إن السموات على منكب ملك . قال : كذب كعب . أما ترك يهوديته بعد ^(١) ثم قرأ هذه الآية .

وَأَقْسُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ إِنِّي جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لِّمَكُونُوا أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ^(٤٣) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولَىٰ فَلَنْ يُجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ^(٤٤) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ^(٤٥)

بلغ قريشاً قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم ، فقالوا : لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم ، فوالله إني أنا رسول لنكون أهدى من إحدى الأمم ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كذبوه . وفي ﴿إحدى الأمم﴾ وجهان ، أحدهما : من بعض الأمم ، ومن واحدة من الأمم من اليهود والنصارى وغيرهم . والثاني : من الأمة التي يقال لها إحدى الأمم ، تفضيلاً لها على غيرها في الهدى والاستقامة ﴿ما زادهم﴾ إسناده مجازي ، لأنه هو السبب في أن زادوا أنفسهم . نفوراً عن الحق وابتعاداً عنه كقوله تعالى ﴿فزادهم رجساً إلى رجسهم﴾ . ﴿استكباراً﴾ بدل من نفورا . أو مفعول له ، على معنى : فزادهم إلا أن نفروا استكباراً وعلواً في الأرض ﴿أو حال بمعنى : مستكبرين وما كرين برسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين . ويجوز أن يكون ﴿ومكر السيئ﴾ معطوفاً على نفورا فإن قلت : فما وجه قوله ﴿ومكر السيئ﴾ ؟ قلت : أصله : وأن مكروا السيئ ، أى المكر السيئ ، ثم ومكروا السيئ . والدليل عليه قوله تعالى ﴿ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله﴾ ومعنى يحيق : يحيط وينزل . وقرئ : ولا يحيق المكر السيئ ، أى : لا يحيق الله ، ولقد حاق بهم يوم بدر . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : لا تمكروا ولا تعينوا ما كراً ^(٢) فإن الله تعالى يقول ﴿ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله﴾ ولا تبغوا ولا تعينوا باغياً ، يقول الله تعالى : إنما بغيتكم على

(١) لم أجده . وروى الطبري من رواية أبي وائل قال : جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فقال : من أين جئت ؟ قال : من الشام فذكره مثله ، إلا أنه لم يقل ماترك يهوديته .
(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد . وقد تقدم في أول بونس

أنفسكم . . وعن كعب أنه قال لابن عباس رضى الله عنهما : قرأت في التوراة : من حفر مغواة^(١) وقع فيها . قال : أنا وجدت ذلك في كتاب الله . وقرأ الآية . وفي أمثال العرب : من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكبا . وقرأ حمزة : ومكر السيئ ، بإسكان الهمزة ، وذلك لاستثقاله الحركات مع الياء والهمزة ، ولعله اختلس فظن سكونا أو وقف وقفة خفيفة ، ثم ابتداء (ولا يحق) وقرأ ابن مسعود : ومكر أسيتا (سنت الأولين) إزال العذاب على الذين كذبوا برسلهم من الأمم قبلهم ، وجعل استقبالهم لذلك انتظارا له منهم ، وبين أن عادته التي هي الانتقام من مكذبي الرسل عادة لا يبدلها ولا يحولها ، أى : لا يغيرها ، وأن ذلك مفعول له بحالة ، واستشهد عليهم بما كانوا يشاهدونه في مسائرهم ومتاجرهم في رحلهم إلى الشام والعراق واليمن : من آثار الماضين وعلامات هلاكهم ودمارهم (ليعجزه) ليسبقه ويفوته .

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٢٨)

(بما كسبوا) بما اقترفوا من معاصيهم (على ظهرها) على ظهر الأرض (من دابة) من نسمة تدب عليها ، يريد بنى آدم . وقيل : ماترك بنى آدم وغيرهم من سائر الدواب بشؤم ذنوبهم . وعن ابن مسعود : كاد الجعل يعذب في جحره بذنوب ابن آدم ،^(٢) ثم تلا هذه الآية . وعن أنس : إن الضب ليوت هزالا في جحره بذنوب ابن آدم^(٣) . وقيل : يحبس المطر فيهلك كل شيء (إلى أجل مسمى) إلى يوم القيامة (كان بعباده بصيرا) وعيد بالجزاء .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة الملائكة دعت ثمانية أبواب الجنة : أن أدخل من أى باب شئت »^(٤)

(١) قوله « من حفر مغواة وقع فيها » في الصحاح : وقع الناس في أغوية ، أى : في داهية . والمغويات - بفتح الواو مفردة - : جمع المغواة ، وهى حفرة كالزبية ، يقال : من حفر مغواة وقع فيها ، والزبية : حفرة تحفر للأسد اه أى : لصيد الأسد . (ع)

(٢) أخرجه الحاكم وقد تقدم في النحل ،

(٣) لم أجده عن أنس وقد تقدم في النحل عن أبي هريرة . وعزاه إليه المصنف فيه على الصواب

(٤) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدى من حديث أبي بن كعب رضى الله عنه .

فهرست

الجزء الثالث

من تفسير الكشاف للزمخشري

صفحة	صفحة
سورة القصص ٣٩١	سورة مريم ٣
المنكبات ٤٣٨	طه ٤٩
الروم ٤٦٦	الانبياء ١٠٠
لقمان ٤٨٩	الحج ١٤١
السجدة ٥٠٦	المؤمنون ١٧٤
الاحزاب ٥١٨	النور ٢٠٨
سبا ٥٦٦	الفرقان ٢٦٢
فاطر ٥٩٥	الشعراء ٢٩٨
	النمل ٣٤٦

تم بعون الله تعالى الجزء الثالث وبليه - إن شاء الله تعالى - الجزء الرابع
وأوله : سورة يس

